كتاب
مجموعة من التفاسير

البيضاوي والنسفي
والخازن وابن عباس

المجلد الثالث

التفسيرين العجيبين

اعادة طبعة
دار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

فهرست الجلد الثالث من التفسيرين الجليلين * الاول المسمى بانوار التنزيل واسرار التأويل * الثانى المسمى بلباب التأويل فى معانى التنزيل

٢ تفسير سورة الانفال

٥ تفسير قوله عز وجل (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الآية

٦ عن ابى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة الحديث

٧ بيان اختلاف العلماء هل يجوز ان يقول انا مؤمن حقا أم لا وبيان استدلالهم

٨ عن أبى هريرة ان فى الجنة مائة درجة مابين كل درجتين مائة عام الحديث

.. عن ابى سعيد ان فى الجنة مائة درجة لو ان العالمين اجتمعوا الحديث

١١ تفسير قوله عزوجل (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم) الآية

١٣ عن انس ان عمر بن الخطاب حدثه عن اهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ

١٤ تفسير قوله عزوجل (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم) الآية

١٥ عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل الحديث

٢٠ تفسير قوله عز وجل (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) الآية

٢١ فصل فى حكم هذه الآية

٢٢ تفسير قوله عز وجل (ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى) الآية

٢٣ عن عبدالرحمن بن عوف انى لواقف فى الصف يوم بدر فنظرت الخ

٢٤ عن انس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينظر لنا ماصنع ابوجهل الخ

.. عن عبدالله بن مسعود مررت فاذا ابوجهل صريع قد ضربت الخ

٢٥ عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد الخ

٢٧ تفسير قوله عزوجل (يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم) الآية

.. عن ابى سعيد بن المعلى قال كنت اصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم

٢٨ تفسير قوله عز وجل (واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه) الآية

.. عن عبدالله بن عمرو بن العاص سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان قلوب الحديث

٢٩ عن ابى هريرة ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم الحديث

٣٠ تفسير قوله عز وجل (يا ايها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول) الآية

٣١ تفسير قوله عز وجل (واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة) الآية

٣٢ تفسير قوله عزوجل (يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) الآية

٣٣ بيان هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة

٣٥ تفسير قوله عزوجل (واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) الآية

٣٦ تفسير قوله عزوجل (وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم) الآية

٤٤ الجزء العاشر

الجلد الثالث من التفسيرين العجيبين

المسبوك عليهما سطور الذهب سبك اللجين

الاول المسمى بأنوار التنزيل واسرار التأويل لشيخ مشايخ الاسلام أعلم العلماء الاعلام الحبر النحرير حاوى فضيلتى البيان والبنان فى التقرير والتحرير كاشف قناع المشكلات وموضح دلائل المعضلات مظهر الكنايات والاشارات منبع العلى أفضل الورى علم الهدى ناصر مذهب أهل السنة وكاشف غمة مذهب الاعتزال عن هذه الامة شيخ ديار العجم والعرب وأمام أهل اللغة والادب فريد دهره ووحيد عصره القاضى ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر البيضاوى الشافعى المتوفى سنة (٦٨٥) وقيل (٦٩٢) قدس الله روحه ونور ضريحه

الثانى المسمى بلباب التأويل فى معانى التنزيل تأليف الامام العلامة قدوة الامة والأئمة ناصر الشريعة ومحيي السنة علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى الصوفى الشافعى المعروف بالخازن فرغ من تأليفه سنة (٧٢٥) تغمده الله برحمته آمين

قد حلى هامش هذا الكتاب بالتفسيرين النيرين * الاول المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل تأليف الامام الجليل العلامة أبى البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفى الحنفى المتوفى سنة (٧٠١) عليه سحائب الرحمة والرضوان

الثانى تنوير المقباس من تفسير ابن عباس لابى طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشافعى المتوفى سنة (٨١٧)

تنبيه

يقول المتوسل الى الله احمد رفعت بن عثمان حلمى القره حصارى المصحح بدار الطباعة العامرة اعانه الله على مشاق هذه الصناعة وضعت انوار التنزيل فوق الصحيفة ولباب التأويل تحتها مفصولا بينهما بجدول وكذلك وضعت مدارك التنزيل فوق الهامش وتنوير المقباس تحته مفصولا بينهما بجدول

الجلد الثالث

اللهم انصرنا يا خير الناصرين

سورة الانفال مدنية وآيها ست وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسئلونك عن الانفال ﴾ أى الغنائم يعنى حكمها وانما سميت الغنيمة نفلا لانها عطية من الله وفضل كما سمى به مايشرطه الامام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه

تفسير سورة الانفال

مدنية كلها الاسبع آيات منها نزلت بمكة وهى من قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الى آخر سبع آيات والاصح انها نزلت بالمدينة وان كانت الواقعة مكية وهى خمس وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله سبحانه وتعالى ﴿يسئلونك عن الانفال﴾ (ق) عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن سورة الانفال قال نزلت فى بدر واختلف أهل التفسير فى سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن اتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلا فله كذا فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤا يطلبون ما جعل لهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهم الاشياخ لاتذهبوا به دوننا ولاتستأثروا به علينا فانا كنا ردأ لكم ولو انكشفتم انكشفتم الينا فتنازعوا فانزل الله عزوجل يسئلونك عن الانفال الآية قال أهل التفسير قام أبو اليسر بن عمرو الانصارى أخو بنى سلمة فقال يارسول الله انك وعدت ان من قتل قتيلا

سورة الانفال مدنية وهى خمس أو ست أو سبع وسبعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (يسئلونك عن الانفال

﴿ومن السورة التى يذكر فيها الانفال وهى كلها مدنية غير قوله ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين فانها نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال آياتها ست وتسعون وكلماتها ألف ومائة وثلاثون وحروفها خمسة آلاف ومائتان واربع وتسعون حرفا﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وباسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (يسئلونك عن الانفال) يقول يسألك أصحابك الغنائم يوم بدر وعن صلة

(فله)

فله كذا وكذا وانا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال والله مامنعنا ان نطلب ماطلب هؤلاء زهادة فى الآخرة ولا جبن عن العدو لكن كرهنا ان تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبونك فاعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يارسول الله ان الناس كثير والغنيمة دون ذلك فان تعط هؤلاء الذين ذكرت لايبقى لاصحابك كبير شئ فنزلت هذه الآية يسئلونك عن الانفال وقال محمد بن اسحق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هولنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل كل امرئ ما اصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كنا نقدر أن نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم باحق منا فنزلت هذه الآية ❀ وروى مكحول عن أبى امامة الباهلى قال سألت عبادة بن الصامت عن الانفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا ❀ عن بواء يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين ❀ وعن سعد بن أبى وقاص قال لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يارسول الله ان الله قد شفى صدرى من المشركين أو نحو هذا هب لى هذا السيف فقال هذا ليس لى ولا لك فقلت عسى أن يعطى هذا من لايبلى بلائى فجاءنى الرسول فقال انك سألتنى وليس لى وانه قد صار لى وهو لك فنزلت يسئلونك عن الانفال الآية أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم فى جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه قال أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة واذا فيها سيف فاخذته فأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نفلنى هذا السيف فانا من قد علمت حاله فقال رده من حيث أخذته فانطلقت به حتى أردت أن ألقيه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت اليه فقلت أعطنيه قال فشد على صوته رده من حيث أخذته فانزل الله عزوجل يسئلونك عن الانفال وقال ابن عباس كانت المغانم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لاحد فيها شئ وما أصاب سرايا المسلمين من سبى أتوه به فمن حبس منه ابرة أو سلكا فهو غلول ❀ وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الانفال استفتاء يعنى يسألك أصحابك يامحمد عن حكم الانفال وعلمها وهو سؤال استفتاء لاسؤال طلب وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال طلب وقوله عن الانفال اى من الانفال وعن بمعنى من وقيل عن صلة أى يسئلونك الانفال والانفال هى الغنائم فى قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة سميت الغنائم أنفالا لانها زيادة من الله عزوجل لهذه الامة على الخصوص وأكثر المفسرين على انها نزلت فى غنائم بدر وقال عطاء هى ماشذ عن المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد أو امرأة أو متاع فهو للنبى صلى الله عليه

قل الانفال لله والرسول)النفل الغنيمة لانها من فضل الله وعطائه والانفال الغنائم ولقد وقع اختلاف بين المسلمين فى غنائم بدر وفى قسمتها فسألوا رسول الله كيف نقسم ولمن الحكم فى قسمتها للمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا فقيل له قل لهم هى لرسول الله وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها مايشاء ليس لاحد غيره فيها حكم ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكمها مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ماتقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها وليس الامر فى قسمتها مفوضا الى رأى أحد (فاتقوا الله) فى الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين فى الله (وأصلحوا ذات بينكم) أحوال بينكم يعنى ما بينكم من الاحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق وقال الزجاج معنى ذات بينكم حقيقة وصلكم والبين الوصل أى فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه نزلت فينا يامعشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على

﴿ قل الانفال لله والرسول ﴾ أى امرها مختص بهما يقسمها الرسول على مايأمره الله به *وسبب نزوله اختلاف المسلمين فى غنائم بدر انها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الانصار وقيل شرط رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمن كان له غناء ان ينفله فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين واسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلا فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردأ لكم وفئة تحازون اليها فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بينهم على السواء ولهذا قيل لايلزم الامام ان يفى بما وعد وهو قول الشافعى رحمه الله تعالى وعن سعد بن ابى وقاص رضى الله تعالى عنه قال لما كان يوم بدر قتل اخى عمير وقتلت به سعيد بن العاص واخذت سيفه فاتيت به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستوهبته منه فقال ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض فطرحته وبى مالا يعلمه الا الله من قتل اخى واخذ سلبى فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الانفال فقال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سألتنى السيف وليس لى وانه قد صار لى فاذهب فخذه *وقرئ يسئلونك علنفال بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام نون عن فيها * ويسئلونك الانفال أى يسألك الشبان ماشرطت لهم ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى الاختلاف والمشاجرة ﴿ واصلحوا ذات بينكم ﴾ الحال التى بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله

وسلم يصنع فيه مايشاء ﴿ قل الانفال لله والرسول ﴾ أى قل لهم يا محمد ان الانفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاآ واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدى هذه الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس فى قوله واعلموا أن ماغنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وقيل كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم نسخها الله بالخمس وقال بعضهم هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك ان الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا فى شرائع أنبيائهم فاباحها الله لهذه الامة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآية الخمس وقال عبدالرحمن بن زيد انها محكمة وهى احدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الانفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها فى قوله واعلموا أن ما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وصح من حديث ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية فغنمنا ابلا فاصاب كل واحد منا اثنى عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا أخرجاه فى الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة وللامام أن ينفل من شاء من الجيش ماشاء قبل التخميس ﴿ فاتقوا الله ﴾ يعنى اتقوا الله بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة فى الغنائم ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أى اصلحوا الحال فى ما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله

(قل) يامحمد لهم (الانفال لله والرسول) الغنائم يوم بدر لله وللرسول ليس لكم فيه شئ ويقال لله وامر الرسول فيه جائز . (واطيعوا)

(فاتقوا الله) فى أخذ الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) مابينكم من المخالفة فليؤد الغنى الى الفقير والقوى الى الضعيف والشاب

وتسليم امره الى الله والرسول ﴿واطيعوا الله ورسوله﴾ فيه ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ فان الايمان يقتضى ذلك أوان كنتم كاملى الايمان فان كمال الايمان بهذه الثلاثة طاعة الاوامر والاتقاء عن المعاصى واصلاح ذات البين بالعدل والاحسان ﴿انما المؤمنون﴾ أى الكاملون فى الايمان ﴿الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ فزعت لذكره استعظاما له وتهيبا من جلاله وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه * وقرئ وجلت بالفتح وهى لغة وفرقت أى خافت ﴿واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا﴾ لزيادة المؤمن به أولاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الادلة أوبالعمل بموجبها وهو قول من قال الايمان يزيد بالطاعة وينقص

﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ فيما أمرانكم به ونهيانكم عنه ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ يعنى ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده * قوله سبحانه وتعالى ﴿انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله فى الآية المتقدمة ثم قال بعد ذلك ان كنتم مؤمنين لان الايمان يستلزم الطاعة بين فى هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله انما المؤمنون الصادقون فى ايمانهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم أى خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل اذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه وقال أهل الحقائق الخوف على قسمين خوف عقاب وهو خوف العصاة وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص لانهم يعلمون عظمة الله عزوجل فيخافونه أشد خوف وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته فى ذكر الله * فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى هذه الآية وجلت قلوبهم بمعنى خافت وقال فى آية أخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما * قلت لامنافاة بين هاتين الحالتين لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من ثلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا فى آية واحدة وهى قوله سبحانه وتعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله والمعنى تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه وهذا حاصل فى قلب المؤمنين * ثم قال تعالى ﴿واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا﴾ يعنى واذا قرئت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقا قاله ابن عباس والمعنى انه كلما جاءهم شئ من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك ايمانا وتصديقا لان زيادة الايمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين * الوجه الاول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ماحكاه الواحدى ان كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان ايمانه أزيد لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله اقوى فيزداد ايمانه * الوجه الثانى هو انهم يصدقون بكل مايتلى عليهم من عند الله

السواء ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ فيما أمرتم به فى الغنائم وغيرها (ان كنتم مؤمنين) كاملى الايمان (انما المؤمنون) انما الكاملون فى الايمان (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فزعت لذكره استعظاما له وتهيبا من جلاله وعزه وسلطانه (واذا تليت عليهم آياته) أى القرآن (زادتهم ايمانا) اذدادوا بها يقينا وطمأنينة لان تظاهر الادلة أقوى

الى الشيخ (وأطيعوا الله ورسوله) فى أمر الصلح (ان كنتم) اذ كنتم (مؤمنين) بالله والرسول (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله) اذا أمروا بامر من قبل الله مثل أمر الصلح وغيره (وجلت) خافت (قلوبهم واذا تليت) قرئت (عليهم آياته) فى الصلح (زادتهم ايمانا) يقينا بقول الله ويقال صدقا

بالمعصية بناء على ان العمل داخل فيه ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ يفوضون اليه امورهم ولا يخشون ولا يرجون الاإياه ﴿ الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا ﴾

ولما كانت التكاليف متوالية فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف صدقوا به فيزدادون بذلك الاقرار تصديقا وايمانا ومن المعلوم ان من صدق انسانا فى شيئين كان أكثر ممن يصدقه فى شئ واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة فى ايمانهم واختلف الناس فى ان الايمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا لا يقبل الزيادة لاجماع أهل اللغة على أن الايمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لا يقبل الزيادة ومن قال ان الايمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهى التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح والاركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين * أحدهما ان قوله زادتهم ايمانا صريح فى أن الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص * الوجه الثانى انه ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الاوصاف داخلة فى مسمى الايمان * وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجاه فى الصحيحين ففى هذا الحديث دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقص قال عمير بن حبيب وكان له صحبة ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته قال اذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ان للايمان فرائض وشرائط وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ معناه يفوضون جميع أمورهم اليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه * واعلم أن المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهى درجة عالية ومرتبة شريفة لان الانسان يصير بحيث لا يبقى له اعتماد فى شئ من أموره الا على الله عز وجل واعلم أن هذه المراتب الثلاث أعنى الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب * ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من اعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى ﴿ الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يعنى يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها فى أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الانفاق فيه ويدخل فيه النفقة فى الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى أنواع البر والقربات * ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ أولئك ﴾ يعنى من هذه صفتهم ﴿ هم المؤمنون حقا ﴾ يعنى يقينا لا شك فى ايمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر وقال

باحكامها قبل (وعلى ربهم يتوكلون) يعتمدون ولا يفوضون أمورهم الى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون الا اياه (الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون) جمع بين أعمال القلوب من الوجل والاخلاص والتوكل وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة (أولئك هم المؤمنون حقا) هو صفة لمصدر محذوف أى أولئك هم المؤمنون ايمانا حقا أوهو مصدر مؤكد للجملة التى هى أولئك هم المؤمنون كقولك هو عبد الله حقا أى حق ذلك حقا وعن الحسن رحمه الله ان رجلا سأله أمؤمن أنت قال ان كنت تسألنى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن وان كنت تسألنى عن قوله انما المؤمنون الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا وعن الثورى من زعم انه مؤمن بالله حقا

ويقال تكريرا (وعلى ربهم يتوكلون) لا على الغنائم (الذين يقيمون الصلوة) يتمون الصلوات الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها وما يجب فيها فى مواقيتها (ومما رزقناهم) أعطيناهم من الاموال (ينفقون) يتصدقون فى طاعة الله ويقال يؤدون زكاة أموالهم (أولئك هم المؤمنون حقا) صدقا قسما { قتادة }

لانهم حققوا ايمانهم بان ضموا اليه مكارم اعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ومحاسن افعال الجوارح التى هى العيار عليها الصلاة

قتادة استحقوا الايمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على انه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمنا حقا لان الله سبحانه وتعالى إنما وصف بذلك أقواما مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الاوصاف فيه * وهذا يتعلق بمسئلة أصولية وهى أن العلماء اتفقوا على انه يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن واختلفوا فى أنه هل يجوز له أن يقول أنا مؤمن حقا أم لا فقال أصحاب الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه الاولى أن يقول أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين * الاول أن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله وكذا القول فى القائم والقاعد فكذلك هذه المسئلة يجب فيها أن يكون المؤمن مؤمنا حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله * الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا وفى قوله أنا مؤمن ان شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز * وقال أصحاب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الاولى أن يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله واحتجوا لصحة هذا القول بوجوه * الاول أن الايمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والاقرار والعمل وكون الانسان آتيا بالاعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك فى أحد أجزاء الماهية يوجب الشك فى الماهية فيجب ان يقول أنا مؤمن ان شاء الله وان كان اعتقاده واقراره صحيحا وعند أصحاب أبى حنيفة أن الايمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الايمان فلم يلزم حصول الشك * الوجه الثانى أن قولنا أنا مؤمن ان شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن اذا قال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار روى ان أبا حنيفة قال لقتادة لم استثنيت فى ايمانك فقال قتادة اتباعا لابراهيم عليه السلام فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن قال بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول ان ابراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبى فطلب مزيد الطمأنينة * الوجه الثالث ان الله سبحانه وتعالى ذكر فى أول الآية انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر يعنى انما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك أوصافا خمسة وهى الخوف من الله والاخلاص لله والتوكل على الله والاتيان بالصلاة كما امر الله سبحانه وتعالى وايتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال اولئك هم المؤمنون حقا يعنى أن من أتى بجميع هذه الاوصاف كان مؤمنا حقا ولا يمكن لاحد أن يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الاولى له أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله وقال ابن أبى نجيح سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت فقال الحسن ان كنت سألتنى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا بها مؤمن وان كنت

ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية أى كما لا يقطع بانه من أهل ثواب المؤمنين حقا فلا يقطع بأنه مؤمن حقا وبهذا يتشبث من يقول أنا مؤمن ان شاء الله وكان أبو حنيفة رحمه الله لا يقول ذلك وقال لقتادة لم تستثن فى ايمانك قال اتباعا لابراهيم فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فقال له هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن قال بلى وعن ابراهيم التيمى قل أنا مؤمن حقا فان صدقت أثبت عليه وان كذبت فكفرك أشد من كذبك وعن ابن عباس رضى الله عنهما من لم يكن منافقا فهو مؤمن حقا وقد احتج عبد الله على أحد فقال ايش اسمك فقال أحد فقال أتقول أنا احد حقا أو أنا أحد ان شاء الله فقال أنا أحد حقا فقال حيث سماك والداك لا تستثن وقد سماك الله فى القرآن مؤمنا

والصدقة وحقا صفة لمصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقولهم هو عبدالله حقا ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ كرامة وعلو منزلة و قيل درجات الجنة يرتقونها باعمالهم ﴿ومغفرة﴾ لما فرط منهم ﴿ورزق كريم﴾ اعدلهم في الجنة لاينقطع عدده ولاينتهي امده ﴿كما اخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ خبر مبتدأ محذوف

سألتني عن قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدري أنا منهم أم لا وقال علقمة كنا في سفر فلقينا قوما فقلنا من القوم فقالوا نحن المؤمنون حقا فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبدالله بن مسعود فاخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيأ قال هلا قلتم لهم أمن أهل الجنة أنتم ان المؤمنين هم أهل الجنة وقال سفيان الثوري من زعم انه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد انه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف الآخر * الوجه الرابع ان قولنا أنا مؤمن ان شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي انه لاحق بأهل القبور * الوجه الخامس ان المؤمن لايكون مؤمنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لايحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله فالمراد صرف هذا الاستثناء الى الخاتمة * وأجاب أصحاب هذا القول وهم اصحاب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنهم عن استدلال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم بقولهم ان المتحرك لايجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله بان الفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا وبين وصفه بكونه متحركا ان الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل يقيني فحصل الفرق بينهما * والجواب عن الوجه الثاني وهو قولهم انه سبحانه وتعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا انه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية بكونهم مؤمنين حقا اذا أتوا بتلك الاوصاف الخمسة ولايقدر أحد ان يأتي بتلك الاوصاف على الحقيقة ونحن نقول أيضا ان من أتى بتلك الاوصاف على الحقيقة كان مؤمنا حقا ولكن لايقدر على ذلك أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه * قوله عز وجل ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ يعني لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الاخذ بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم في الجنة لان درجات الجنة على قدر الاعمال قال عطاء درجات الجنة يرتقون فيها باعمالهم وقال الربيع ابن أنس درجات الجنة سبعون درجة مابين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة * وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة مائة درجة مابين كل درجتين مائة عام أخرجه الترمذي * وله عن أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة لوان العالمين اجتمعوا في احديهن لوسعتهم ﴿ومغفرة﴾ يعني ولهم مغفرة لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ يعني ما أعدلهم في الجنة وصفه بكونه كريما لان منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالاكرام والتعظيم * قوله سبحانه وتعالى ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ اختلفوا في الجالب

تستثنى (لهم درجات) مراتب بعضها فوق بعض على قدر الاعمال (عند ربهم ومغفرة) وتجاوز لسيآتهم (ورزق كريم) صاف عن كد الاكتساب وخوف الحساب الكاف في (كما أخرجك ربك) في محل النصب على انه صفة لمصدر الفعل المقدر والتقدير قل الانفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك وهم كارهون (من بيتك) يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها لانها مهاجره ومسكنه فهي في اختصاصها كاختصاص البيت لساكنه (بالحق) اخراجا ملتبسا

(لهم درجات) فضائل (عند ربهم) في الآخرة (ومغفرة) للذنوب في الدنيا (ورزق كريم) ثواب حسن في الجنة (كما أخرجك ربك) امض يا محمد على ما أخرجك ربك (من بيتك) من المدينة (بالحق) بالقرآن ويقال

بالحكمة والصواب (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) في موضع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم وذلك ان عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان فاخبر جبريل النبي عليه السلام فاخبر أصحابه فاعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا علمت قريش بذلك فخرج أبو جهل بجميع اهل مكة وهو النفير في المثل السائر لا في العير ولا في النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فابى وسار بمن معه الى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال العير أحب اليكم أم النفير قالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فاحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن ابين ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد ابن عمرو امض لما أمرك الله فانا معك حيث أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما (قا و خا ٢ لث) مقاتلون مادامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال سعد بن معاذ امض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله أبشروا فان الله وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم وكانت الكراهة من بعضهم لقوله وان فريقا من المؤمنين لكارهون قال الشيخ أبو منصور رحمه الله يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقادا ويحتمل أن يكونوا مخلصين وان يكون ذلك كراهة طبع لانهم غير متأهبين له

تقديره هذه الحال في كراهتهم اياها كحال اخراجك للحرب في كراهتهم له أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله لله والرسول أي الانفال ثبتت لله والرسول صلى الله عليه وسلم مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراجك ربك من بيتك يعني المدينة لانها مهاجره ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم ﴿وأن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾ في موقع الحال أي اخرجك في حال كراهتهم وذلك ان عير قريش اقبلت من الشام

لهذه الكاف ماهو فقال المبرد تقديره قل الانفال لله والرسول وان كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان كرهوا وقيل معناه امض لامر ربك في الانفال وان كرهوا كما مضيت لامر ربك في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون وقيل معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما كان اخراج محمد صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق هو خير لكم وان كرهه فريق منكم وقيل هو راجع الى قوله سبحانه وتعالى لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين بالدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأنجز الوعد بالنصر والظفر وقيل هي متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على أي امض على الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق فانه حق وقيل الكاف بمعنى القسم تقديره والذي أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك في الحق وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر يا محمد اذ أخرجك ربك من بيتك بالحق قيل المراد بهذا الاخراج اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة وقال جمهور المفسرين المراد بهذا الاخراج هو خروجه من المدينة الى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعني بالوحي لطلب المشركين ﴿وأن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾ يعني للقتال وانما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم

بالحرب (وأن فريقا) طائفة (من المؤمنين لكارهون) للقتال

وفيها تجارة عظيمة ومعها اربعون راكبا منهم ابوسفيان وعمرو بن العاص ومخرمة ابن نوفل وعمرو بن هشام فاخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاخبر المسلمين فاعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال فلما خرجوا بلغ الخبر اهل مكة فنادى ابوجهل فوق الكعبة يا اهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم اموالكم ان اصابها محمد لن تفلحوا بعدها ابدا وقدرأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبد المطلب ان ملكا نزل من السماء فاخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت فى مكة الا اصابه شئ منها فحدثت بها العباس وبلغ ذلك اباجهل فقال مارضى رجالهم ان يتنبأوا حتى تنبأت نساؤهم فخرج ابوجهل بجميع اهل مكة ومضى بهم الى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوما فى السنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى دقران فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد باحدى الطائفتين اما العير واما قريش فاستشار فيه اصحابه فقال بعضهم هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له انا اخرجنا للعير فرد عليهم وقال ان العير قدمضت على ساحل البحر وهذا ابوجهل قداقبل فقالوا يارسول الله عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقام ابو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما وقالا فاحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر امرك فامض فيه فوالله لو سرت الى عدن ابين ماتخلف عنك رجل من الانصار ثم قال مقداد بن عمرو امض لما امرك الله فانا معك حيث مااحببت لانا لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال اشيروا على ايها الناس وهو يريد الانصار لانهم كانوا عددهم وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة انهم برآء من ذمامه حتى يصل الى ديارهم فتخوف ان لايروا نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يارسول الله قال اجل قال انا قد آمنابك وصدقناك وشهدنا ان ماجئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما اردت فوالذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ومانكره ان تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسربنا على بركة الله تعالى فنشطه قوله ثم قال سيروا على بركة الله تعالى وابشروا فان الله تعالى قدوعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى انظر الى مصارع القوم وقيل انه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له عليك بالعير فناداه عباس وهو فى وثاقه لايصلح فقال له لم فقال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد اعطاك ماوعدك فكره بعضهم قوله ﴿ يجادلونك فى الحق ﴾ فى ايثارك الجهاد باظهار

(يجادلونك فى الحق) الحق الذى جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى النفير لايثارهم عليه تلقى العير

(يجادلونك) يخاصمونك (فى الحق) فى الحرب

﴿ يجادلونك فى الحق ﴾ وذلك ان المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم

الحق لايثارهم تلقى العير عليه ﴿ بعد ماتبين ﴾ انهم ينصرون انما توجهوا باعلام الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ﴾ أى يكرهون القتال كراهة من يساق الى الموت وهو يشاهد اسبابه وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم اذروى انهم كانوا رجالة وما كان فيهم الا فارسان وفيه ايماء الى ان مجادلتهم انما كانت لفرط فزعهم ورعبهم ﴿ واذ يعدكم الله أحدى الطائفتين ﴾ على اضمار اذكر واحدى ثانى مفعولى يعدكم وقد ابدل منها ﴿ انها لكم ﴾ بدل الاشتمال

﴿ بعدماتبين ﴾ يعنى تبين لهم انك لاتصنع شيأ الا بامر ربك وتبين لهم صدقك فى الوعد ﴿ كأنما يساقون الى الموت ﴾ يعنى لشدة كراهتهم القتال ﴿ وهم ينظرون ﴾ يعنى الى الموت شبه حالهم فى فرط فزعهم بحال من يجر الى القتل ويساق الى الموت وهو ينظر اليه ويعلم أنه آتيه * قوله عز وجل ﴿ واذ يعدكم الله أحدى الطائفتين ﴾ يعنى الفرقتين فرقة أبى سفيان مع العير وفرقة أبى جهل مع النفير ﴿ أنها لكم ﴾ يعنى احدى الفرقتين لكم قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن اسحق والسدى أقبل أبو سفيان ابن حرب من الشأم فى عير قريش فى أربعين راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى ومعهم تجارة كبيرة وهى اللطيمة يريد باللطيمة الجمال التى تحمل العطر والبز غير الميرة حتى اذا كانوا قريبا من بدر بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خبرهم فندب أصحابه اليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه الى مكة وأمره أن يأتى قريشا يستنفرهم ويخبرهم ان محمدا فى أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها فبعثت الى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة قال لها وما رأيت قالت رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالابطح ثم صرخ باعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر الى مصارعكم فى ثلاث فارى الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينماهم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها باعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر الى مصارعكم فى ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فارسلها فاقبلت تهوى حتى اذا كانت باسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها الا دخلها منها فلقة فقال العباس والله ان هذه لرؤيا فظيعة فاكتميها ولا تذكريها لاحد ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة وكان صديقا للعباس فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه اياها فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش بمكة قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام فى نفر من قريش يتحدثون

(بعد ماتبين) بعد اعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم ينصرون وجدالهم قولهم ماكان خروجنا الا للعير وهلاقلت لنا لنستعد وذلك لكراهتهم القتال (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرن) شبه حالهم فى فرط فزعهم وهم يسار بهم الى الظفر والغنيمة بحال من يعتل الى القتل ويساق على الصغار الى الموت وهو مشاهد لاسبابه ناظر اليها لايشك فيها وقيل كان خوفهم لقلة العدد وانهم كانوا رجالة وما كان فيهم الا فارسان (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) اذ منصوب باذكر واحدى مفعول ثان (أنها لكم) بدل من احدى الطائفتين وهما العير والنفير والتقدير واذ يعدكم الله أن احدى الطائفتين لكم

(بعد ماتبين) لهم انك لاتصنع ولا تأمر الا ما أمرك ربك (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) اليه (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) الفئتين العير أو العسكر (أنها لكم) غنيمة

برؤيا عاتكة فغدوت اطوف فلما رآني أبو جهل قال يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فاقبل الينا قال العباس فلما فرغت من طوافي أقبلت اليهم حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت وماذاك قال الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فان يك ماقالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا بانكم أكذب اهل بيت في العرب قال العباس فوالله ما كان مني اليه من كبير شيء الا اني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيأ ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب الا أتتني فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء وانت تسمع ولم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت قال قلت قد والله فعلت ما كان مني اليه من شيء وايم الله لاتعرضن له فان عاد لاكفيكنه قال فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وانا حديد مغضب أرى اني قد فاتني شيء أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله اني لامشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فاقع به وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر اذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس فقلت في نفسي ماله لعنه الله أكل هذا فرقا مني ان أشاتمه قال فاذا هو قد سمع مالم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلني عنه وشغله عني ماجاء من الامر قال فتجهز الناس سراعا ولم يتخلف من أشراف قريش أحد الا أن ابا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب فقالوا نخشى ان يأتونا من خلفنا فكاد ذلك ان يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر فقال أنا جار لكم من ان تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فخرجت قريش سراعا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له ذافرد فاتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فاخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له من جهينة حليفا للانصار يدعى أريقط فاتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وقال ان الله وعدكم احدى الطائفتين أنها لكم اما العير واما قريش فكانت العير أحب اليهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال وأحسن وقام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله مانقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد

﴿ يعني ﴾

﴿ وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ يعنى العير فانه لم يكن فيها الا اربعون فارسا ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاة النفير لكثرة عددهم وعددهم والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك ﴿ ويريد الله ان يحق الحق ﴾ ان يثبته ويعليه ﴿ بكلماته ﴾ الموحى بها فى هذه الحال أو باوامره للملائكة بالامداد وقرئ بكلمته ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ ويستأصلهم والمعنى انكم تريدون ان تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها والله يريد اعلاء الدين واظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين

يعنى مدينة الحبشة لجادلنا معك من دونه حتى نبلغه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس وانما يريد الانصار وذلك لانهم عدد الناس وانهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله انا برآء من ذمامك حتى تصل الى دارنا فاذا وصلت الينا فانت فى ذمامنا فنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ان لا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا من دهمه بالمدينة من عدوه وان ليس عليهم ان يسيروا معه الى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد وما نكره ان تلقى بنا عدونا وعدوك انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل ان يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله عز وجل قد وعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم (م) عن أنس بن مالك ان عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالامس يقول هذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى قال عمر فوالذى بعثه بالحق ما أخطؤا الحدود التى حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى اليهم فقال يافلان بن فلان ويافلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فانى قد وجدت ما وعدنى الله حقا فقال عمر يارسول الله كيف تكلم أجسادا لا ارواح فيها فقال ما أنتم باسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون ان يردوا على شيأ فذلك قوله سبحانه وتعالى واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم يعنى طائفة ابى سفيان مع العير وطائفة أبى جهل مع النفير ﴿ وتودون ﴾ أى وتريدون وتتمنون ﴿ أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ والمعنى وتتمنون أن العير التى ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح ﴿ ويريد الله ان يحق الحق ﴾ أى يظهر الحق ويعليه ﴿ بكلماته ﴾ يعنى بأمره اياكم بالقتال وقيل بعداته التى سبقت لكم من اظهار الدين واعزازه ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أى ويستأصلهم

(وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم) أى العير وذات الشوكة ذات السلاح والشوكة كانت فى النفير لعددهم وعدتهم أى تتمنون أن تكون لكم العير لانها الطائفة التى لا سلاح لها ولا تريدون الطائفة الاخرى (ويريد الله أن يحق الحق) أى يثبته ويعليه (بكلماته) بآياته المنزلة فى محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من قتلهم وطرحهم فى قليب بدر (ويقطع دابر الكافرين) آخرهم والدابر الآخر فاعل من دبر اذا أدبر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال يعنى انكم تريدون الفائدة

(وتودون) تتمنون (ان غير ذات الشوكة) الشدة والحرب (تكون لكم) غنيمة يعنى غنيمة العير (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) ان يظهر دينه الاسلام بنصرته وتحقيقه (ويقطع دابر الكافرين) اصل الكافرين وأثرهم

العاجلة وسفساف الامور والله تعالى يريد معالى الامور ونصرة الحق وعلو الكلمة

وشتان مابين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وأعزكم وأذلهم (ليحق الحق) متعلق بيقطع أو بمحذوف تقديره ليحق الحق (ويبطل الباطل) فعل ذلك والمقدر متأخر ليفيد الاختصاص أى مافعله الالهما وهو اثبات الاسلام واظهاره وابطال الكفر ومحقه وليس هذا بتكرار لان الاول تمييز بين الارادتين وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها (ولو كره المجرمون) المشركون ذلك (اذ تستغيثون ربكم) بدل من اذ يعدكم أو متعلق بقوله ليحق الحق ويبطل الباطل واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون أى ربنا انصرنا على عدوك ياغياث المستغيثين أغثنا وهى طلب الغوث وهو التخليص من المكروه (فاستجاب لكم) فاجاب وأصل (أنى ممدكم) بانى

﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ أى فعل مافعل وليس بتكرير لان الاول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت والثانى لبيان الداعى الى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها ﴿ولو كره المجرمون﴾ ذلك ﴿اذ تستغيثون ربكم﴾ بدل من اذ يعدكم أو متعلق بقوله ليحق الحق أو على اضمار اذكر واستغاثتهم انهم لما علموا ان لامحيص عن القتال اخذوا يقولون أى رب انصرنا على عدوك اغثنا ياغياث المستغيثين * وعن عمر رضى الله تعالى عنه انه عليه السلام نظر الى المشركين وهم ألف والى اصحابه وهم ثلاثمائة فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم انجز لى ماوعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الارض فمازال كذلك حتى سقط رداؤه فقال ابو بكر يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك ﴿فاستجاب لكم انى ممدكم﴾ بأنى ممدكم فحذف الجار وسلط عليه الفعل * وقرأ ابو عمرو بالكسر على ارادة القول أو اجراء استجاب مجرى قال لان الاستجابة من القول

حتى لايبقى منهم أحد ﴿ليحق الحق﴾ يعنى ليثبت الاسلام ﴿ويبطل الباطل﴾ يعنى وينفى الكفر ﴿ولو كره المجرمون﴾ يعنى المشركون وفى الآية سؤالان * الاول ان قوله ويريد الله أن يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه والجواب أنه ليس فيه تكرير لان المراد بالاول تثبيت ماوعد فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالاعداء والمراد بالثانى تقوية القرآن والدين واظهار منار الشريعة لان الذى وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سببا لاعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعنى الذى هو الشرك * السؤال الثانى الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وابطال الباطل والجواب ان المراد من تحقيق الحق اظهار كون ذلك الحق حقا والمراد من ابطال ذلك الباطل اظهار كون ذلك الباطل باطلا وذلك باظهار دلائل الحق وتقويته وقمع رؤساء الباطل وقهرهم * قوله عز وجل ﴿اذ تستغيثون ربكم﴾ أى واذكر يامحمد اذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفى المستغيثين قولان أحدهما انه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه قاله الزهرى والقول الثانى انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثنى عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم اعطنى ماوعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لاتعبد فى الارض فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فاخذ رداءه فالقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك فانزل الله عز وجل اذ تستغيثون ربكم ﴿فاستجاب لكم أنى ممدكم

(ليحق الحق) ليظهر دينه الاسلام بمكة (ويبطل الباطل) يهلك الشرك وأهله (ولو كره المجرمون) وان كره المشركون أن يكون

ذلك (اذ تستغيثون) تدعون (ربكم) يوم بدر بالنصرة (فاستجاب لكم) الدعاء (انى ممدكم) معينكم (بالف)

﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من اردفته اناذا جئت بعده أومتبعين بعضهم بعضا المؤمنين أوانفسهم المؤمنين من اردفته اياه فردفه *وقرأ نافع ويعقوب مردفين بفتح الدال أى متبعين أومتبعين بمعنى انهم كانوا مقدمة الجيش أوساقهم *وقرئ مردفين بكسر الراء وضمها واصله مرتدفين بمعنى مترادفين فادغمت التاء فى الدال فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الاصل أوبالضم على الاتباع *وقرئ بآلاف من الملائكة ليوافق ما فى سورة آل عمران ووجه التوفيق بينه وبين المشهور ان المراد بالالف الذين كانوا على المقدمة أوالساقة أووجوههم واعيانهم أومن قاتل منهم واختلف فى مقاتلتهم وقد روى اخبار تدل عليها ﴿ وماجعله الله ﴾ أى الامداد ﴿ الا بشرى لكم ﴾ .الابشارة لكم بالنصر ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾

بالف من الملائكة مردفين ﴾ فامده الله بالملائكة قال سماك فحدثنى ابن عباس قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم اذ نظر الى المشرك امامه خر مستلقيا فنظر اليه فاذا قدحطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف فاحصى ذلك أجمع وجاء فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم يعنى فاجاب دعاءكم أنى ممدكم أصله بأنى ممدكم أى مرسل اليكم مددا وردأ لكم بالف من الملائكة مردفين يعنى يردف بعضهم بعضا بمعنى يتبع بعضهم بعضا روى انه نزل جبريل عليه السلام فى خمسمائة وميكائيل عليه السلام فى خمسمائة فى صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا اذنابها بين أكتافهم وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما ناشد ربه وقال ابوبكر ان الله ينجزلك ماوعدك خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال ياأبابكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ) عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب يعنى آلة الحرب قال ابن عباس كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى يوم بدر من الايام وكانوا يكونون فيماسواه عددا ومددا وروى عن أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا انه قال بعد ماذهب بصره لوكنت معكم اليوم ببدر ومعى بصرى لاريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام فى سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح انهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس فى الذى ضربه بالسوط فحطم انفه وشق وجهه وكانوا فيماسوى يوم بدر مددا وعونا وقيل انهم لم يقاتلوا وانما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ﴿ وماجعله الله الا بشرى ﴾ يعنى وما جعل الله الارداف بالملائكة الا بشرى ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾

ممدكم فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله (بالف من الملائكة مردفين) مدنى غيره بكسر الدال وفتحها فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم والفتح على أنه أردف كل ملك ملكا آخر يقال ردفه اذا تبعه وأردفته اياه اذا اتبعته (وماجعله الله) أى الامداد الذى دل عليه ممدكم (الابشرى) الابشارة لكم بالنصر (ولتطمئن به قلوبكم) يعنى انكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم فكان الامداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكينا منكم

(بالف من الملائكة مردفين) متتابعين بالنصرة لكم (وماجعله الله) يعنى المدد (الابشرى) لكم بالنصرة (ولتطمئن به) بالمدد (قلوبكم

وربطا على قلوبكم (وما النصر الا من عند الله) أي ولا تحسبوا النصر من الملائكة فان الناصر هو الله لكم وللملائكة أو وما النصر من الملائكة وغيرهم من الاسباب الا من عند الله والمنصور من نصره الله

واختلف في قتال الملائكة يوم بدر فقيل نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضي الله عنه وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي رضي الله عنه في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص قال من قبل الملائكة قال فهم غلبونا لا انتم وقيل لم يقاتلوا وانما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين والا فلك واحد كاف في اهلاك أهل الدنيا (ان الله عزيز) ينصر أولياءه (حكيم) يقهر أعداءه (اذ يغشاكم) بدل ثان من اذ يعدكم أو منصوب بالنصر أو باضمار اذكر يغشيكم مدني (النعاس) النوم والفاعل هو الله على القراءتين يغشاكم النعاس مكي وأبو عمرو (امنة) مفعول له أي اذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا أي لامنتكم أو مصدر أي فامنتم أمنة فالنوم يزيح الرعب ويريح النفس (منه) صفة لها أي أمنة حاصلة لكم من الله (عن

فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم ﴿ وما النصر الا من عند الله أن الله عزيز حكيم ﴾ وامداد الملائكة وكثرة العدد والاهب ونحوها وسائط لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها ﴿ اذ يغشيكم النعاس ﴾ بدل ثان من اذ يعدكم لاظهار نعمة ثالثة أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل أو بجعل أو باضمار اذكر * وقرأ نافع يغشيكم بالتخفيف من اغشيته الشئ اذا غشيته اياه والفاعل على القراءتين هو الله تعالى * وقرأ ابن كثير وابو عمرو يغشاكم النعاس بالرفع ﴿ أمنة منه ﴾ أمنا من الله وهو مفعول له باعتبار المعنى فان قوله يغشيكم النعاس متضمن معنى تنعسون ويغشاكم بمعناه والامنة فعل لفاعله ويجوز ان يراد بها الايمان فتكون فعل المغشى وان تجعل على القراءة الاخيرة فعل النعاس على المجاز لانها لاصحابه او لانه كان من حقه ان لا يغشاهم لشدة الخوف فلما غشيهم فكأنه حصلت له امنة من الله لولاها لم يغشهم كقوله

يهاب النوم ان يغشى عيونا * تهابك فهو نفار شرود

وهذا يحقق انهم انما نزلوا لذلك لا للقتال والصحيح هو الاول وأنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الايام * قوله عز وجل ﴿ وما النصر الا من عند الله ﴾ يعني ان الله هو ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على ان الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل الا على الله تعالى في جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والاعانة ﴿ أن الله عزيز ﴾ يعني انه تعالى قوي منيع لا يقهره شئ ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شئ ويغلبه ﴿ حكيم ﴾ يعني في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده * قوله سبحانه وتعالى ﴿ اذ يغشاكم النعاس أمنة منه ﴾ أي واذكروا اذ يلقي عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله بن مسعود النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان والفائدة في كون الناس أمنة في القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الامن وازالة الخوف وقيل انهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله انه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول الناس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج

وما النصر) بالملائكة (الا من عند الله ان الله عزيز) بالنقمة من أعدائه (حكيم) حكم عليهم بالقتل والهزيمة وحكم لكم بالنصرة والغنيمة (اذ يغشيكم النعاس) ألقى عليكم النوم (أمنة) لكم (منه) من الله من العدو وهي

وقرئ أمنة كرحمة وهي لغة ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ من الحدث والجنابة ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ يعني الجنابة لانها من تخييله أو وسوسته وتخويفه أياهم من العطش روى انهم نزلوا فى كثيب اعفر تسوخ فيه الاقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فوسوس اليهم الشيطان وقال كيف تنصرون وقد غلبتم على الماء وانتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون انكم اولياء الله وفيكم رسوله فاشفقوا فانزل الله المطر فمطروا ليلا حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤا وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الاقدام وزالت الوسوسة ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم ﴿ ويثبت به الاقدام ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ فى الرمل أو بالربط على القلوب حتى تثبت فى المعركة ﴿ اذ يوحي ربك ﴾ بدل ثالث أو متعلق بيثبت ﴿ الى الملائكة انى معكم ﴾ فى اعانتهم وتثبيتهم وهو مفعول يوحي * وقرئ بالكسر على ارادة القول

عن العادة فلهذا السبب قيل ان ذلك النعاس كان فى حكم المعجزة لانه أمر خارق للعادة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ يعني المطر ﴿ ليطهركم به ﴾ وذلك ان المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم الى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب واصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم فانزل الله سبحانه وتعالى مطرا سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الركاب وملؤا الاسقية واطفأ الغبار ولبد الارض حتى ثبتت عليها الاقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر فذلك قوله سبحانه وتعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعني من الاحداث والجنابة ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ يعني وسوسته التي ألقاها فى قلوبكم ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ يعني بالنصر واليقين والربط فى اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدي ويشبه أن تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما أوقع فيها من اليقين وقيل ان لفظة على ليست بصلة لانها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى ان القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كانه علا عليها وارتفع فوقها ﴿ ويثبت به الاقدام ﴾ يعني ان ذلك المطر لبد الارض وقوى الرمل حتى تثبتت عليه الاقدام وحوافر الدواب وقيل المراد به تثبيت الاقدام بالصبر وقوة القلب لان من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عند اللقاء * قوله سبحانه وتعالى ﴿ اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم ﴾ يعني ان الله سبحانه وتعالى اوحى الى الملائكة الذين أمد بهم النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه انى معكم بالنصر والمعونة

(وينزل) بالتخفيف مكي وبصري وبالتشديد غيرهم (عليكم من السماء ماء) مطرا (ليطهركم به) بالماء من الحدث والجنابة (ويذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسته اليهم وتخويفه اياهم من العطش أو الجنابة من الاحتلام لانه من الشيطان وقد وسوس اليهم ان لا نصرة مع الجنابة (وليربط على قلوبكم) بالصبر (ويثبت به الاقدام) أي بالماء اذ الاقدام كانت تسوخ فى الرمل أو بالربط لان القلب اذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم فى مواطن القتال (اذ يوحي) بدل ثالث من اذ يعدكم أو منصوب بيثبت (ربك الى الملائكة أني معكم) بالنصر

منة من الله لكم (وينزل عليكم من السماء ماء) مطرا (ليطهركم به) بالمطر من الاحداث والجنابة (ويذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسة الشيطان (وليربط على قلوبكم) وليحفظ قلوبكم بالصبر (ويثبت به) بالمطر (الاقدام) على الرمل أي يشد الرمل حتى يثبت عليه الاقدام (اذ يوحي ربك الى الملائكة) ألهم ربك ويقال أمر ربك (اني معكم)

اواجراء الوحى مجراه ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ بالبشارة أو بتكثير سوادهم أو بمحاربة اعدائهم فيكون قوله ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ كالتفسير لقوله انى معكم فثبتوا وفيه دليل على انهم قاتلوا ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين اما على تغيير الخطاب أو على ان قوله سألقى الى قوله كل بنان تلقين للملائكة ما يثبتون المؤمنين به كأنه قال قولوا لهم قولى هذا ﴿ فاضربوا فوق الاعناق ﴾ اعاليها التى هى المذابح أو الرؤس ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ اصابع أى حزوا رقابهم

﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ أى قووا قلوبهم واختلفوا فى كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما أن للشيطان قوة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة فى القاء الالهام فى قلب ابن آدم بالخير ويسمى مايلقى الشيطان وسوسة ومايلقى الملك لمة والهاما فهذا هو التثبيت وقيل ان ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أى ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشى فى صورة رجل امام الصف ويقول أبشروا فان الله ناصركم عليهم ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ يعنى الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف فى قلوب الكافرين ﴿ فاضربوا فوق الاعناق ﴾ قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وقيل هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلا بما قبله قال ابن الانبارى ما كانت الملائكة تعرف تقاتل بنى آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق قال عكرمة يعنى الرؤس لانها فوق الاعناق. وقال الضحاك معناه فاضربوا الاعناق وفوق صلة وقيل معناه فاضربوا على الاعناق فتكون فوق بمعنى على ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ يعنى كل مفصل وقال ابن عباس يعنى الاطراف وهى جمع بنانة وهى أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لان بها صلاح الاحوال التى يمكن الانسان ان يبين مايريد ان يعمله بيديه وانما خصت بالذكر من دون سائر الاطراف لاجل ان الانسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح فى الحرب وقيل انه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب اعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الاعضاء وبضرب البنان وهو اضعف الاعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الانسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الانسان عن الحرب لان بالبنان تمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله روى عن أبى داود المازنى وكان شهد بدرا قال انى لاتبع رجلا من المشركين لاضربه اذ وقع رأسه قبل أن يصل اليه سيفى فعرفت انه قد قتله غيرى وعن سهل بن حنيف قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليشير بسيفه الى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل ان يصل اليه السيف وروى عكرمة عن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الاسلام قد دخل علينا اهل البيت فاسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم اسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاءه الخبر عن مقتل أصحاب

(فثبتوا الذين آمنوا) بالبشرى وكان الملك يسير امام الصف فى صورة رجل ويقول أبشروا فان الله ناصركم (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) هو امتلاء القلب من الخوف والرعب شامى وعلى (فاضربوا) أمر للمؤمنين أو للملائكة وفيه دليل على انهم قاتلوا (فوق الاعناق) أى أعالى الاعناق التى هى المذابح تطييرا للرؤس أو أراد الرؤس لانها فوق الاعناق يعنى ضرب الهام (واضربوا منهم كل بنان) هى الاصابع يريد الاطراف والمعنى فاضربوا المقاتل والشوى لان الضرب اما أن يقع على مقتل أو غير مقتل فامرهم ان يجمعوا

معينكم (فثبتوا الذين آمنوا) فى الحرب ويقال فبشروا الذين آمنوا بالنصرة (سألقى) سأقذف (فى قلوب الذين كفروا الرعب) المخافة من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (فاضربوا فوق الاعناق) رؤسهم (واضربوا منهم كل بنان)

﴿ بدر ﴾

واقطعوا اطرافهم ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى الضرب أو الامر به والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل احد من المخاطبين قبل ﴿ بانهم شاقوا الله ورسوله ﴾ بسبب مشاقتهم لهما واشتقاقه من الشق لان كلا من المتعاديين في شق خلاف شق الآخر كالمعاداة من العدوة والمخاصمة من الخصم وهو الجانب ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما اعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا ﴿ ذلكم ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع أي الامر ذلكم أو ذلكم واقع أو نصب بفعل دل عليه ﴿ فذوقوه ﴾ أو غيره

بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزا قال أبو رافع وكنت رجلا ضعيفا اعمل القداح وانحتها في حجرة زمزم فوالله انى لجالس أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة اذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره الى ظهري فبينما هو جالس اذ قال الناس هذا ابو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب الى يا ابن أخي فعندك الخبر اليقين فجلس اليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب يا ابن أخي أخبرني كيف كانت احوال الناس قال لا شئ والله ان كان الا ان لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤا وايم الله مالمت الناس لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والارض والله لا يتلقاهم شئ ولا يقوم لهم شئ قال أبو رافع فرفعت طرف الحجرة بيدي وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فثاورته فاحتملني فضرب بي الارض ثم برك على صدري وكنت رجلا ضعيفا فقامت اليه أم الفضل بعمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة فلقت رأسه شجة منكرة وقالت تستضعفه أن غاب عنه سيده فقام موليا ذليلا فوالله ماعاش الا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتله وروى مقسم عن ابن عباس قال كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي اليسر كيف أسرت العباس قال يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أعانك عليه ملك كريم وكانت وقعة بدر في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ذلك ﴾ يعني الذي وقع من القتل والاسر يوم بدر ﴿ بانهم شاقوا الله ورسوله ﴾ يعني بأنهم خالفوا الله ورسوله والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كانهم صاروا في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون او شاقوا دين الله ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴾ يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شئ قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة * ثم قال تعالى ﴿ ذلكم ﴾ اشارة الى القتل والاسر الذي نزل بهم ﴿ فذوقوه ﴾ يعني عاجلا في الدنيا لان ذلك يسير بالاضافة الى المؤجل الذي أعده الله لهم في الآخرة

عليهم النوعين (ذلك) اشارة الى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو مبتدأ خبره (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم أي مخالفتهم وهي مشتقة من الشق لان كلا المتعاديين في شق خلاف شق صاحبه وكذا المعاداة والمخاصمة لان هذا في عدوة وخصم أي جانب وذا في عدوة وخصم (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) والكاف في ذلك لخطاب الرسول أو لكل أحد وفي ذلكم للكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع على ذلكم العقاب أو العقاب (ذلكم فذوقوه) والواو في

مفصل (ذلك) القتال لهم (بانهم شاقوا الله) خالفوا الله (ورسوله) في الدين (ومن يشاقق الله) يخالف الله (ورسوله) في الدين (فان الله شديد العقاب) اذا عاقب (ذلكم) العذاب لكم (فذوقوه) في الدنيا

(وأن للكافرين عذاب النار) بمعنى مع أى ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذى لكم فى الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير

(يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) حال من الذين كفروا والزحف الجيش الذى يرى لكثرته كأنه يزحف أى يدب دبيبا من زحف الصبى اذا دب على استه قليلا قليلا سمى بالمصدر (فلا تولوهم الادبار) فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أى اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا فضلا ان تدانوهم فى العدد أو تساووهم أو حال من المؤمنين أو من الفريقين أى اذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا) مائلا (لقتال) وهو الكر بعد الفر يخيل عدوه انه منهزم ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب (أو متحيزا) منضما (الى فئة) الى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها وهما حالان من ضمير الفاعل فى يولهم (فقد باء بغضب من الله

مثل باشروا أو عليكم لتكون الفاء عاطفة ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ عطف على ذلكم أو نصب على المفعول معه والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما اجل لكم فى الآخرة ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على ان الكفر سبب العذاب الآجل او الجمع بينهما * وقرئ وان بالكسر على الاستئناف ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا ﴾ كثيرا بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون وهو مصدر زحف الصبى اذا دب على مقعده قليلا قليلا سمى به وجمع على زحوف وانتصابه على الحال ﴿ فلا تولوهم الادبار ﴾ بالانهزام فضلا عن ان يكونوا مثلكم أو اقل منكم والاظهر انها محكمة مخصوصة بقوله حرض المؤمنين على القتال الآية ويجوز ان ينتصب زحفا على الحال من الفاعل والمفعول اى اذا لقيتموهم متزاحفين يدبون اليكم وتدبون اليهم فلا تنهزموا او من الفاعل وحده ويكون اشعارا بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا وهم اثناعشر ألفا ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال ﴾ يريد الكر بعد الفر وتغرير العدو فانه من مكايد الحرب ﴿ أو متحيزا الى فئة ﴾ أو منحازا الى فئة اخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم ومنهم من لم يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما انه كان فى سرية بعثهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ففروا الى المدينة فقلت يا رسول الله نحن الفرارون فقال بل انتم العكارون وانا فئتكم وانتصاب متحرفا و متحيزا على الحال والا لغو لا عمل له أو الاستثناء من المولين أى الا رجلا متحرفا أو متحيزا ووزن متحيز متفيعل لا متفعل والا لكان متحوزا لانه من حاز يحوز ﴿ فقد باء بغضب من الله

من العذاب وهو قوله ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ يعنى فى الآخرة عن ابن عباس قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شئ قال فناداه العباس من وثاقه لا يصلح لك لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك قال صدقت أخرجه الترمذى وقال حديث حسن * قوله عزوجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا ﴾ يعنى مجتمعين متزاحفين بعضكم الى بعض والتزاحف التدانى فى القتال وأصل الزحف مشى مع جر الرجل كانبعاث الصبى قبل ان يمشى وسمى مشى الطائفتين بعضهم الى بعض فى القتال زحفا لانها تمشى كل طائفة الى صاحبتها مشيا رويدا وذلك قبل التدانى للقتال وقال ثعلب الزحف المشى قليلا قليلا الى الشئ ﴿ فلا تولوهم الادبار ﴾ يعنى فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولى ظهره ودبره ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ يعنى ومن ينهزم ويول دبره يوم الحرب والقتال ﴿ الا متحرفا لقتال ﴾ يعنى الا منقطعا الى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود اليه وهذا هو أحد أبواب الحرب وخدعها ومكائدها * قوله عزوجل ﴿ أو متحيزا الى فئة ﴾ يعنى أو منضما وصائرا الى جماعة من المؤمنين يريدون العود الى القتال ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ يعنى من انهزم من المسلمين وقت الحرب الا

(وان للكافرين) فى الآخرة (عذاب النار يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا) يوم بدر (زحفا) مزاحفة (فلا تولوهم) أى فلا تولوا منهم (الادبار) منهزمين (ومن يولهم) يتول عنهم (يومئذ) يوم بدر (دبره) ظهره منهزما (الا متحرفا لقتال) (فى) مستطردا للقتال ويقال للكرة (أو متحيزا) أو ينحاز (الى فئة) ينصرونه ويمنعونه (فقد باء بغضب من الله) فقد رجع واستوجب

ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ هذا اذالم يزد العدد على الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم الآية وقيل الآية مخصوصة باهل بدر والحاضرين معه فى الحرب ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ بقوتكم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم والقاء الرعب فى قلوبهم روى انه لما طلعت قريش من العقنقل قال عليه الصلاة

فى هاتين الحالتين وهى التحرف للقتال والتحيز الى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾

فصل فى حكم هذه الآية

اختلف العلماء فى ذلك فقال أبو سعيد الخدرى هذا فى أهل بدر خاصة لانه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون اليها دون النبى صلى الله عليه وسلم ولو انحازوا انحازوا الى المشركين ولانها أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فأما بعد ذلك اليوم فان المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزا الى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبى حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء وقال عبد الله ابن عمر كنا فى جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون قال لا بل أنتم الكرارون انا فئة المسلمين قوله فحاص الناس حيصة يعنى جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو والمحيص الهرب وقال محمد بن سيرين لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر الى عمر بن الخطاب فقال لو انحاز الى كنت له فئة أنا فئة كل مسلم وقال بعضهم حكم الآية عام فى حق كل من ولى ظهره منهزما بدليل قوله يا أيها الذين آمنوا وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور وان كانت الآية نزلت فى غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء فى الحديث من الكبائر الفرار من الزحف وقال عطاء بن أبى رباح هذه الآية منسوخة بقوله تعالى الآن خفف الله عنكم فليس لقوم أن يفروا من مثليهم فنسخت بذلك الا فى هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم ان المسلمين اذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وان كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر ﴿ قوله عز وجل ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ قال مجاهد سبب نزول هذه الآية أنهم لما انصرفوا عن قتال اهل بدر كان الرجل يقول انا قتلت فلانا ويقول الآخر انا قتلت فلانا فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم يعنى بنصره اياكم وتقويتكم عليهم وقيل معناه ولكن الله قتلهم بامداده اياكم بالملائكة قال الزمخشرى الفاء فى قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره وان افتخرتم بقتلهم

ومأواه جهنم وبئس المصير) و وزن متحيز متفيعل لا متفعل لانه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز ولما كسروا أهل مكة وقتلوا واسروا وكان القاتل منهم يقول تفاخرا قتلت وأسرت قيل لهم (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) والفاء جواب لشرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فانتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ولما قال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم خذ قبضة من تراب فارمهم بها فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينه فانهزموا قيل

بسخط من الله (ومأواه) مصيره (جهنم وبئس المصير) صار اليه (فلم تقتلوهم) يوم بدر (ولكن الله قتلهم) بجبرائيل

هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم انى اسألك ماوعدتنى فاتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول كفا من الحصباء فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الاشغل بعينه فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ثم لما انصرفوا اقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتلت واسرت فنزلت والفاء جواب شرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴿ وما رميت ﴾ يا محمد رميا توصله الى اعينهم ولم تقدر عليه ﴿ اذ رميت ﴾ أى اتيت بصورة الرمى ﴿ ولكن الله رمى ﴾ اتى بما هو غاية الرمى فاوصلها الى اعينهم جميعا حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم

فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم ﴿ ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾ قال أهل التفسير والمغازى لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبنى الحجاج وأبو يسار غلام لبنى العاص بن سعد فأخذوهما وأتوا بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أين قريش قالا هم وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عددهم قالا لا ندرى قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة الى ألف ثم قال لهما من فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعمة بن عدى والنضر بن حرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكثيب الرمل جاء الى الوادى فقال اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى فاتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه يعنى قبحت الوجوه فلم يبق مشرك الا ودخل فى عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شئ فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة فى ميمنة القوم وبحصاة فى ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم وقال شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله عز وجل ومارميت اذ رميت لكن الله رمى اذ ليس فى وسع أحد من البشر أن يرمى كفا من الحصى فى وجوه جيش فلا تبقى عين الا وقد دخل فيها من ذلك شئ فصورة الرمى صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل فلهذا المعنى صح النفى والاثبات وقيل فى معنى الآية وما بلغت اذ رميت ولكن الله بلغ رميك وقيل ومارميت بالرعب فى قلوبهم اذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب فى قلوبهم

(وما رميت) يا محمد (اذ رميت ولكن الله رمى) يعنى ان الرمية التى رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لانك لو رميتها لما بلغ أثرها الا ما يبلغه أثر رمى البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم وفى الآية بيان ان فعل العبد مضاف اليه كسبا والى الله تعالى خلقا لا كما تقول الجبرية والمعتزلة لانه أثبت الفعل من العبد بقوله اذ رميت ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله ولكن الله رمى ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى بتخفيف لكن شامى وحمزة

والملائكة (ومارميت) مابلغت التراب الى وجوه المشركين (اذ رميت ولكن الله رمى) بلغ

(حتى)

وعلى (وليبلى المؤمنين) وليعطيهم (منه ﴿ ٢٣ ﴾ بلاءحسنا) { سورة الانفال } عطاء جميلا والمعنى

وقد عرفت ان اللفظ يطلق على المسمى وعلى ماهو كماله والمقصود منه وقيل معناه مارميت بالرعب اذرميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب فى قلوبهم وقيل انه نزل فى طعنة طعن بها ابى بن خلف يوم احد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات أورمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فاصاب كنانة بن ابى الحقيق على فراشه والجمهور على الاول *وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ولكن بالتخفيف ورفع مابعده فى الموضعين ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات ﴿ أن الله سميع ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم ﴿ عليم ﴾ بنياتهم واحوالهم ﴿ ذلكم ﴾ اشارة الى البلاء الحسن أو القتل أو الرمى ومحله الرفع أى المقصود أو الامر ذلكم وقوله ﴿ وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ معطوف عليه أى المقصود ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم *وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو موهن بالتشديد وحفص موهن كيد بالاضافة والتخفيف ﴿ ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ خطاب لاهل مكة على سبيل التهكم وذلك انهم حين ارادوا الخروج تعلقوا باستار الكعبة وقالوا اللهم انصر اعلى الجندين واهدى الفئتين واكرم الحزبين

حتى انهزموا ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ يعنى ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والاجر والثواب فقد أجمع المفسرون على أن البلاء هنا بمعنى النعمة ﴿ ان الله سميع ﴾ يعنى لدعائكم ﴿ عليم ﴾ يعنى بأحوالكم * قوله عز وجل ﴿ ذلكم ﴾ يعنى الذى ذكرت من أمر القتل والرمى والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذى فعلنا ﴿ وان الله ﴾ يعنى واعلموا ان الله مع ذلك ﴿ موهن ﴾ أى مضعف ﴿ كيد الكافرين ﴾ يعنى مكرهم وكيدهم * قوله عز وجل ﴿ ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وذلك ان أبا جهل قال يوم بدر لما التقى الجمعان اللهم أينا كان أفجر يعنى نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم قاطعا للرحم فأحنه اليوم وقيل انه قال اللهم أينا كان خيرا عندك فانصره وقيل قال اللهم انصر اهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم فأنزل الله عز وجل ان تستفتحوا ومعنى الآية ان تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح يعنى جاءكم حكم الله بنصرة المظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق) عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال انى لواقف فى الصف يوم بدر فنظرت عن يمينى وعن شمالى فاذا أنا بغلامين من الانصار حديثة أسنانهما فتمنيت ان أكون بين أضلع منهما فغمزنى أحدهما فقال أى عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم فما حاجتك اليه يا ابن أخى قال أخبرت انه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده حتى يموت

وللاحسان الى المؤمنين فعل مافعل ومافعل الالذلك (ان الله سميع) لدعائهم (عليم) باحوالهم (ذلكم) اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع أى الامر ذلكم (وان الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم أى المراد ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين موهن كيد شامى وكوفى غير حفص موهن كيد حفص موهن غيرهم (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ان تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لاهل مكة لانهم حين أرادوا ان ينفروا تعلقوا باستار الكعبة وقالوا اللهم ان كان محمد على حق فانصره وان كنا على الحق فانصرنا وقيل ان تستفتحوا خطاب للمؤمنين وان تنتهوا للكافرين أى

(وليبلى المؤمنين) ليصنع بالمؤمنين (منه) من رمى التراب (بلاء) صنيعا (حسنا) بالنصرة والغنيمة (ان الله سميع) لدعائكم (عليم) بنصرتكم (ذلكم) النصرة والغنيمة لكم (وأن الله) بان الله (موهن) مضعف (كيد الكافرين) صنيع الكافرين (ان تستفتحوا) تستنصروا (فقد جاءكم الفتح) النصرة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليكم حيث دعا أبو جهل قبل القتال والهزيمة اللهم انصر أفضل الدينين واكرم الدينين واحبهما اليك فاستجاب الله دعاءه ونصر محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه عليهم

ألا عجل منا فتعجبت لذلك قال وغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت الى أبي جهل يجول في الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه فقال أيكما قتله فقال كل واحد منهما أنا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما فقالا لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء رضي الله عنهما (ق) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينظر لنا ما صنع أبو جهل فانطلق بن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فاخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل وفي كتاب البخاري أنت ابا جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل قتلتموه أو قال قتله قومه وفي رواية فقال أبو جهل فلو غير أكار قتلني * عن عبد الله بن مسعود قال مررت فاذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله يا أبا جهل قد أخزى الله الاخر قال ولا أهابه عند ذلك فقال أعمد من رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم يغن شيأ حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد أخرجه أبو داود وأخرجه البخاري مختصرا قال انه أتى أبا جهل يوم بدر وبه رمق فقال هل أعمد من رجل قتلتموه وقال عكرمة قال المشركون والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فانزل الله عز وجل ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني ان تستقضوا فقد جاءكم القضاء وقال السدي والكلبي كان المشركون لما خرجوا الى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا باستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وهو على ما سألوه فكان النصر لاهدى الفئتين وهم اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن اسحق حدثني عبد الله بن أبي بكر قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر أمر بابي جهل بن هشام ان يلتمس في القتلى فقال اللهم لا يعجزك فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طيرت قدمه بنصف ساقه قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة واجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي واني لاسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بابي جهل وهو عقير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق فمر به عبد الله بن مسعود قال عبد الله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه فقلت هل أخزاك الله يا عدو الله قال وبما ذا أخزاني اعمد من رجل قتلتموه اخبرني لمن الدولة قلت لله ولرسوله روي عن ابن مسعود انه قال قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا ثم احتززت رأسه ثم جئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال آلله الذي لا اله غيره فقلت نعم والذي لا اله غيره ثم ألقيته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وقال أبي بن كعب هذا خطاب لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

﴿وان تنتهوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فهو خير لكم﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين ﴿وان تعودوا﴾ لمحاربته ﴿نعد﴾ لنصرته عليكم ﴿ولن تغنى﴾ ولن تدفع ﴿عنكم فئتكم﴾ جماعتكم ﴿شيأ﴾ من الاغناء أو المضار ﴿ولو كثرت﴾ فئتكم ﴿وان الله مع المؤمنين﴾ بالنصر والمعونة * وقرأ نافع وابن عامر وحفص وان بالفتح على ولان الله مع المؤمنين كان ذلك وقيل الآية خطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وان تنتهوا عن التكاسل فى القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وان تعودوا اليه نعد عليكم بالانكار أو تهييج العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم اذا لم يكن الله معكم بالنصر فانه مع الكاملين فى ايمانهم ويؤكد ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه﴾ أى

الله عز وجل للمسلمين ان تستفتحوا أى تستنصروا فقد جاءكم الفتح أى النصر (خ) عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا الا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بامشاط الحديد مادون لحمه وعظمه مايصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لايخاف الاالله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون قلت استدل البغوى بهذا الحديث على مافسر به أبى بن كعب الآية وفيه نظر لان هذه الوقعة المذكورة فى الحديث كانت بمكة والآية مدنية فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لما دعا الله ببدر وسأله انجاز ماوعده من احدى الطائفتين وألح فى الدعاء والمسئلة حتى سقط رداؤه قال الله سبحانه وتعالى مجيبا له ان تستفتحوا يعنى تطلبوا النصر وانجاز ماوعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعنى فقد حصل لكم ما طلبتم فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من اجابة دعائكم وانجاز ماوعدكم به وهذا القول أولى لان قوله فقد جاءكم الفتح لايليق الا بالمؤمنين هذا اذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الاعداء أما اذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمتنع ان يراد به الكفار أما قوله سبحانه وتعالى ﴿وان تنتهوا فهو خير لكم﴾ فهو خطاب للكفار يعنى وان تنتهوا عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم وعن تكذيبه فهو خير لكم فى الدين والدنيا أما فى الدين بان تؤمنوا به وتكفوا عنه فيجعل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب وأما فى الدنيا فهو الخلاص من القتل والاسر ﴿وان تعودوا نعد﴾ يعنى وان تعودوا لقتال محمد صلى الله عليه وسلم نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم ﴿ولن تغنى عنكم فئتكم﴾ يعنى جماعتكم ﴿شيأ﴾ يعنى لاتغنى عنكم شيأ ﴿ولو كثرت﴾ يعنى جماعتكم ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ يعنى بالنصر لهم عليكم يامعشر الكفار * قوله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ يعنى فى أمر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس ﴿ولا تولوا عنه﴾ يعنى عن الرسول صلى الله عليه وسلم لان التولى لايصح الا فى حق الرسول

(وان تنتهوا) عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فهو) أى الانتهاء (خير لكم) وأسلم (وان تعودوا) لمحاربته (نعد) لنصرته عليكم (ولن تغنى عنكم فئتكم) جمعكم (شيأ ولو كثرت) عددا (وان الله مع المؤمنين) بالفتح مدنى وشامى وحفص أى ولان الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك وبالكسر غيرهم ويؤيده قراءة عبد الله والله مع المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لان المعنى وأطيعوا الله ورسول الله كقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه ولان طاعة الرسول وطاعة الله شىء واحد من يطع الرسول فقد أطاع الله فكان رجوع الضمير الى أحدهما كرجوعه اليهما كقولك الاحسان والاجمال لاينفع

(وان تنتهوا) عن الكفر والقتال (فهو خير لكم) من الكفر والقتال (وان تعودوا) الى قتال محمد عليه السلام (نعد) الى قتلكم وهزيمتكم مثل يوم بدر (ولن تغنى عنكم فئتكم) جماعتكم (شيأ) من عذاب الله (ولو كثرت) فى العدد (وان الله مع المؤمنين) معين المؤمنين بالنصرة (يا أيها الذين آمنوا (قا و خا ٤ لث) اطيعوا الله ورسوله) فى أمر الصلح (ولا تولوا عنه)

فى فلان أو يرجع الضمير الى الامر بالطاعة آى ولا تولوا عن هذا الامر وامتثاله وأصله ولا تتولوا فحذف احدى التاءين تخفيفا (وأنتم تسمعون) أى وأنتم تسمعونه أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أى تصدقون لانكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أى ادعوا السماع وهم المنافقون وأهل الكتاب (وهم لايسمعون) لانهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين والمعنى انكم تصدقون بالقرآن والنبوة فاذا توليتم عن طاعة الرسول فى بعض الامور من قسمة الغنائم وغيرها أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن ثم قال (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون) أى ان شر من يدب على وجه الارض البهائم وان شر البهائم الذين هم صم عن الحق لايعقلونه جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها لانهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل (ولو علم الله فيهم) فى هؤلاء الصم البكم (خيرا) صدقا ورغبة (لاسمعهم) لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين (ولو أسمعهم لتولوا) عنه أى ولو أسمعهم وصدقوا الارتدوا بعد ذلك ولم يستقيموا (وهم معرضون) عن الايمان

عن أمر الله ورسوله (وأنتم تسمعون) مواعظ القرآن وأمر الصلح (ولا تكونوا) فى المعصية ويقال فى الطاعة (كالذين قالوا سمعنا) أطعنا وهم بنو عبد الدار والنضر بن الحرث وأصحابه (وهم لايسمعون) لايطيعون ﴿ وتعالى ﴾ ونزل فيهم أيضا (ان شر الدواب)الخلق والخليقة(عند الله الصم) عن الحق (اليكم) عن الحق (الذين لايعقلون) لايفقهون امر الله وتوحيده(ولو علم الله فيهم) فى بنى عبد الدار (خيرا) سعادة(لاسمعهم) لاكرمهم بالايمان(ولو اسمعهم) اكرمهم بالايمان(لتولوا عنه)عن الايمان لعلم الله فيهم (وهم معرضون) مكذبون به

ولا تتولوا عن الرسول فان المراد من الآية الامر بطاعته والنهى عن الاعراض عنه وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على ان طاعة الله فى طاعة الرسول لقوله تعالى ومن يطع الرسول فقد اطاع الله وقيل الضمير للجهاد او للامر الذى دل عليه الطاعة ﴿ وانتم تسمعون ﴾ ألقرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ﴾ كالكفرة أو المنافقين الذين ادعوا السماع ﴿ وهم لايسمعون ﴾ سماعا ينتفعون به فكأنهم لايسمعون رأسا ﴿ ان شر الدواب عند الله ﴾ شر مايدب على الارض أو شر البهائم ﴿ الصم ﴾ عن الحق ﴿ اليكم الذين لايعقلون ﴾ اياه عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها لابطالهم ماميزوا به وفضلوا لاجله ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا ﴾ سعادة كتبت لهم أو انتفاعا بالآيات ﴿ لاسمعهم ﴾ سماع تفهم ﴿ ولو اسمعهم ﴾ وقد علم ان لاخير فيهم ﴿ لتولوا ﴾ ولم ينتفعوا به أو ارتدوا بعد التصديق والقبول ﴿ وهم معرضون ﴾

صلى الله عليه وسلم لا فى حق الله تعالى والمعنى لاتعرضوا عنه وعن معونته ونصرته فى الجهاد ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ يعنى القرآن يتلى عليكم ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا ﴾ بألسنتهم ﴿ سمعنا وهم لايسمعون ﴾ يعنى وهم لايتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين ﴿ ان شر الدواب عند الله ﴾ يعنى ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عند الله ﴿ الصم ﴾ عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن النطق به فلا يقولونه ﴿ الذين لايعقلون ﴾ يعنى لايفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلونه وانما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقتلوا جميعا يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ﴾ يعنى سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله قال الامام فخر الدين ان كان ما كان حاصلا فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خير الاسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ﴿ ولو أسمعهم ﴾ يعنى بعد ان علم انه لاخير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى ﴿ لتولوا وهم معرضون ﴾ يعنى لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل انهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم احى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه

لعنادهم وقيل كانوا يقولون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم احى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك فنؤمن بك والمعنى لاسمعهم كلام قصى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول ﴾ بالطاعة ﴿ اذا دعاكم ﴾ وحد الضمير فيه لما سبق ولان دعوة الله تسمع من الرسول وروى انه عليه السلام مر على ابى وهو يصلى فدعاه فعجل فى صلاته ثم جاء فقال مامنعك عن اجابتى قال كنت اصلى قال الم تخبر فيما اوحى الى استجيبوا الله وللرسول واختلف فيه فقيل هذا لان اجابته لاتقطع الصلاة فان الصلاة ايضا اجابة وقيل ان دعاءه كان لامر لايحتمل التأخير وللمصلى ان يقطع الصلاة لمثله وظاهر الحديث يناسب الاول ﴿ لما يحييكم ﴾ من العلوم الدينية فانها حياة القلب والجهل موته وقال

لاتعجبن الجهول حلته * فذاك ميت وثوبه كفن

أو مما يورثكم الحياة الابدية فى النعيم الدائم من العقائد والاعمال أو من الجهاد فانه سبب بقائكم اذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم أو الشهادة لقوله تعالى بل احياء عند ربهم يرزقون

وتعالى ولو احياالهم قصيا وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون * قوله عز وجل ﴿ يا ايها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول ﴾ يعنى أجيبوهما بالطاعة والانقياد لامرهما ﴿ اذا دعاكم ﴾ يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وانما وحد الضمير فى قوله تعالى اذا دعاكم لان استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة لله تعالى وانما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية على ان ظاهر الامر للوجوب لان كل من أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بفعل فقد دعاه اليه وهذه الآية تدل على انه لابد من الاجابة فى كل مادعا الله ورسوله اليه (ح) عن ابى سعيد بن المعلى قال كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيته فقلت يارسول الله انى كنت أصلى فقال صلى الله عليه وسلم ألم يقل الله استجيبوا الله وللرسول اذا دعاكم ثم ذكر الحديث عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على ابى بن كعب وهو يصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبى فالتفت أبى ولم يجبه وصلى أبى وخفف ثم انصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام مامنعك يا أبى أن تجيبنى اذ دعوتك فقال يارسول الله انى كنت فى الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم أفلم تجد فيما أوحى الله الى استجيبوا الله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود ان شاء الله تعالى وذكر الحديث أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح قيل هذه الاجابة مختصة بالنبى صلى الله عليه وسلم فعلى هذا ليس لاحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لامر مهم لايحتمل التأخير فله ان يقطع صلاته * قوله عز وجل ﴿ لما يحييكم ﴾ يعنى اذا دعاكم الى مافيه حياتكم قال السدى هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالايمان وقال قتادة هو القرآن لانه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة فى الدارين وقال مجاهد هو الحق وقال محمد بن اسحق هو الجهاد لان الله أعزه به بعد الذل وقيل هو الشهادة لان الشهداء أحياء

(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم) وحد الضمير أيضا كما وحده فيما قبله لان استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالدعوة البعث والتحريض (لما يحييكم) من علوم الديانات والشرائع لان العلم حياة كما أن الجهل موت قال الشاعر

لاتعجبن الجهول حلته
فذاك ميت وثوبه كفن

أو لمجاهدة الكفار لانهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم أو للشهادة لقوله تعالى بل

(يا أيها الذين آمنوا) يعنى اصحاب محمد عليه السلام (استجيبوا لله) أجيبوا لله (وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) الى مايكرمكم ويعزكم ويصلحكم من القتال

﴿واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى ونحن اقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على انه مطلع على مكنونات القلوب ماعسى يغفل عنه صاحبها أوحث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ان يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أوغيره أوتصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويحول بينه وبين الكفر ان اراد سعادته وبينه وبين الايمان ان قضى شقاوته *وقرئ بين المر بالتشديد على حذف الهمزة والقاء حركتها على الراء واجراء الوصل مجرى الوقف على لغة من يشدد فيه ﴿وانه اليه تحشرون﴾ فيجازيكم باعمالكم ﴿واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ اتقوا ذنبا يعمكم أثره كاقرار المنكر بين اظهركم والمداهنة فى الامر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد على ان قوله لاتصيبن اما جواب الامر على معنى ان اصابتكم لاتصيب الظالمين

عند ربهم يرزقون ﴿واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدى يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع ان يؤمن أو يكفر الا باذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا القول لان أحوال القلوب اعتقادات ودواعى وتلك الاعتقادات والدواعى لابد أن تتقدمها الارادة وتلك الارادة لابدلها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالى فثبت بذلك ان المتصرف فى القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك فقلنا يارسول الله قد آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء أخرجه الترمذى وهذا الحديث من أحاديث الصفات فيجب على المرء المسلم ان يمره على ماجاء مع الاعتقاد الجازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحه والجسم وقيل فى معنى الآية ان الله عزوجل يحول بين المرء وقلبه حتى لايدرى مايصنع ولايعقل شيأ وقيل ان القوم لما دعوا الى القتال والجهاد وكانوا فى غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم قاتلوا فى سبيل الله واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمنا والجبن جراءة * قوله عزوجل ﴿وأنه اليه تحشرون﴾ يعنى فى الآخرة فيجزى كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصى * قوله سبحانه وتعالى ﴿واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ لما أخبر الله عزوجل أنه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء فى الفتن والمعنى واحذروا فتنة ان نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تتعدى اليكم جميعا وتصل الى الصالح والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل تقديره واتقوا فتنة ان لم تتقوها أصابتكم جميعا الظالم وغير

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه أى يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها وهى التمكن من اخلاص القلب فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله أو بينه وبين ماتمناه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه (وانه اليه تحشرون) واعلموا انكم اليه تحشرون فيثيبكم على حسب سلامة القلوب واخلاص الطاعة (واتقوا فتنة) عذابا (لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) هو جواب للامر أى ان أصابتكم لاتصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وجاز أن تدخل النون المؤكدة فى جواب الامر لان فيه معنى النهى كما اذا قلت انزل عن الدابة لاتطرحك وجاز لاتطرحنك ومن فى منكم

وغيره (واعلموا) يامعشر المؤمنين (ان الله يحول) يحفظ (بين المرء وقلبه) بين المؤمن بأن يحفظ قلب المؤمن على الايمان حتى لايكفر ويحفظ قلب الكافر على الكفر حتى لايؤمن (وأنه اليه) الى الله فى الآخرة (تحشرون) فيجزيكم بأعمالكم (واتقوا فتنة) كل فتنة تكون (لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولكن تصيب الظالم والمظلوم { الظالم }

منكم خاصة بل تعمكم وفيه ان جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم واما صفة لفتنة ولا للنفى وفيه شذوذ لان النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على ارادة القول كقوله

حتى اذا جن الظلام واختلط * جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

واما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وان اختلفا فى المعنى ويحتمل ان يكون نهيا بعد الامر باتقاء الذنب عن التعرض للظلم فان وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن فى منكم على الوجوه الاول للتبعيض وعلى الاخيرين للتبيين وفائدته التنبيه على ان الظلم منكم اقبح من غيركم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فى الارض ﴾ ارض مكة يستضعفكم قريش والخطاب للمهاجرين

الظالم قال الحسن نزلت هذه الآية فى على وعمار وطلحة والزبير قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما نرى انا من اهلها فاذا نحن المعنيون بها يعنى ما كان منهم فى يوم الجمل وقال سدى ومجاهد والضحاك وقتادة هذا فى قوم مخصوصين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل وقال ابن عباس أمر الله عز وجل المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم * روى البغوى بسنده عن عدى بن عدى الكندى قال حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة والذى ذكره ابن الاثير فى جامع الاصول عن عدى بن عميرة الكندى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا عملت الخطيئة فى الارض كان من شهدها فانكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها أخرجه أبو دود * عن جرير بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على ان يغيروا عليه ولم يغيروا الا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا أخرجه أبو داود وقال ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى خير من الساعى من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به فان قلت ظاهر قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة الى من لم يذنب قلت انه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفى ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية أو لانه تعالى علم اشتمال ذلك على انواع من أنواع المصلحة والله أعلم بمراده * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ واعلموا ان الله شديد العقاب ﴾ فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التى حذره الله منها وقوله عز وجل ﴿ واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض ﴾

للتبعيض (واعلموا أن الله شديد العقاب) اذا عاقب (واذكروا اذ أنتم قليل) اذ مفعول به لا ظرف أى واذكروا وقت كونكم أقلة أذلة (مستضعفون فى الارض) أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم

(واعلموا أن الله شديد العقاب) اذا عاقب (واذكروا) يا معشر المهاجرين (اذ أنتم قليل) فى العدد (مستضعفون) مقهورون (فى الارض) أرض مكة

وقيل للعرب كافة فانهم كانوا اذلاء فى ايدى فارس والروم ﴿ تخافون ان يتخطفكم الناس ﴾ كفار قريش أو من عداهم فانهم كانوا جميعا معادين مضادين لهم ﴿ فآواكم ﴾ الى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون به من اعدائكم ﴿ وايديكم بنصره ﴾ على الكفار أو بمظاهرة الانصار أو بامداد الملائكة يوم بدر ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ من الغنائم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ماتظهرون أو بالغلول فى المغانم وروى انه عليه السلام حاصر بنى قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح كما صالح

قريش (تخافون أن يتخطفكم الناس) لان الناس كانوا لهم أعداء مضادين (فآواكم) الى المدينة (وأيدكم بنصره) بمظاهرة الانصار وبامداد الملائكة يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم ولم تحل لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) هذه النعم (ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله) بان تعطلوا فرائضه (والرسول) بان

لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم فقال تعالى واذكروا يا معشر المؤمنين المهاجرين اذ أنتم قليل يعنى فى العدد مستضعفون فى الارض يعنى فى أرض مكة فى ابتداء الاسلام ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ يعنى كفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقال وهب بن منبه يعنى فارس والروم ﴿ فآواكم ﴾ يعنى الى المدينة ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ يعنى وقواكم بالانصار وقال الكلبى وقواكم يوم بدر بالملائكة ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ يعنى الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ يعنى تشكرون الله على نعمه عليكم ﴾ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول ﴾ قال الزهرى والكلبى نزلت هذه الآية فى أبى لبابة هرون بن عبد المنذر الانصارى من بنى عوف بن مالك وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ما صالح عليه اخوانهم بنى النضير على أن يسيروا الى اخوانهم الى أذرعات وأريحاء من ارض الشام فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فابوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتاهم فقالوا ياأبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فاشار أبو لبابة بيده الى حلقه يعنى انه الذبح فلا تفعلوا قال ابو لبابة والله مازالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال اما لو جاءنى لاستغفرت له أما اذ فعل مافعل فانى لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لايذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى حلنى فجاءه فحله بيده ثم قال أبو لبابة ان تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن انخلع من مالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تصدق به فنزل فيه ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وقال السدى كانوا يسمعون السر

(تخافون أن يتخطفكم الناس) أن يطردكم أهل مكة أو يأسروكم (فآواكم) بالمدينة (وأيدكم بنصره) يعنى أعانكم وقواكم بنصرته يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا نعمته بالنصرة والغنيمة يوم بدر (ياأيها الذين آمنوا) يعنى مروان وأبا لبابة بن عبد المنذر (لاتخونوا الله) فى الدين (والرسول) فى الاشارة الى بنى قريظة أن لاتنزلوا على حكم سعد بن معاذ

اخوانهم بنى النضير على ان يسيروا الى اخوانهم باذرعات واريحاء بارض الشام فابى الا ان ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فابوا وقالوا ارسل الينا ابا لبابة وكان مناصحا لهم لان عياله وماله فى ايديهم فبعثه اليهم فقالوا ماترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ فاشار الى حلقه انه الذبح قال ابو لبابة فمازالت قدماى حتى علمت انى قد خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية فى المسجد وقال والله لاأذوق طعاما ولاشرابا حتى اموت أو يتوب الله على فمكث سبعة ايام حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك فقال لا والله لا احلها حتى يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده فقال ان من تمام توبتى ان اهجر دار قومى التى اصبت فيها الذنب وان انخلع من مالى فقال عليه السلام يجزيك الثلث ان تتصدق به واصل الخون النقص كما ان اصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الامانة لتضمنه اياه ﴿ وتخونوا اماناتكم ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الاول أو منصوب على الجواب بالواو ﴿ وانتم تعلمون ﴾ انكم تخونون أو وانتم علماء تميزون الحسن من القبيح ﴿ واعلموا أنما اموالكم واولادكم فتنة ﴾ لانهم سبب الوقوع فى الاثم والعقاب أو محنة من الله

من النبى صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبدالله ان أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان أبا سفيان فى مكان كذا وكذا فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه ان أبا سفيان فى موضع كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فانزل الله عز وجل لاتخونوا الله والرسول ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ ومعنى الآية لاتخونوا الله والرسول ولاتخونوا أماناتكم ﴿ وانتم تعلمون ﴾ يعنى أنها أمانة وقيل معناه وأنتم تعلمون ان ما فعلتم من الاشارة الى الحلق خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لان من خان شيأ فقد نقصه والخيانة ضد الامانة وقيل فى معنى الآية لاتخونوا الله والرسول فانكم اذا فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم وقال ابن عباس معناه لاتخونوا الله بترك فرائضه ولاتخونوا الرسول بترك سنته ولاتخونوا أماناتكم قال ابن عباس هى مايخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والاعمال التى ائتمن عليها العباد وقال قتادة اعلموا أن دين الله أمانة فادوا الى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ومنه الحديث عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولاتخن من خانك أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب ❁ قوله عز وجل ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ قيل هذا مما نزل فى أبى لبابة وذلك لان أمواله وأولاده كانت فى بنى قريظة فلذلك قال ماقال خوفا عليهم وقيل انه عام فى جميع الناس وذلك أنه لما كان الاقدام على الخيانة فى الامانة هو حب المال والولد نبه الله سبحانه وتعالى بقوله واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة على انه يجب على العاقل

لاتستنوا به (وتخونوا) جزم عطف على لاتخونوا أى ولاتخونوا (أماناتكم) فيما بينكم بان لاتحفظوها (وانتم تعلمون) تبعة ذلك ووباله أو وأنتم تعلمون انكم تخونون يعنى ان الخيانة توجد منكم عن تعمد لاعن سهو أو أنتم علماء تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح ومعنى الخون النقص كما ان معنى الابقاء التمام ومنه تخونه اذا انتقصه ثم استعمل فى ضد الامانة والوفاء لانك اذا خنت الرجل فى شئ فقال أدخلت عليه النقصان فيه (واعلموا انما اموالكم وأولادكم فتنة) أى سبب الوقوع فى الفتنة وهى الاثم والعذاب أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على

(وتخونوا أماناتكم) ولاتخونوا فى فرائض الله وهى أمانة عليكم (وأنتم تعلمون) تلك الخيانة (واعلموا) يعنى به أبا لبابة (انما أموالكم واولادكم) التى فى بنى قريظة (فتنة)

حدوده (وأنالله عنده أجر عظيم) فعليكم ان تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا فى الدنيا ولاتحرصوا على جمع المال وحب الولد (ياأيها الذين آمنوا ان تتقواالله يجعل لكم فرقانا) نصرا لانه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر باذلال حزبه والاسلام باعزاز أهله أوبيانا وظهورا يشهر أمركم ويثبت صيتكم وآثاركم فى أقطار الارض من قولهم سطع الفرقان أى طلع الفجر أومخرجا من الشبهات وشرحا للصدور أوتفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الاديان وفضلا ومزية فى الدنيا والآخرة (ويكفر عنكم سيآتكم) أى الصغائر (ويغفرلكم) ذنوبكم أى الكبائر (والله ذوالفضل العظيم) على عباده (واذ يمكربك

تعالى ليبلوكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كابى لبابة ﴿ وان الله عنده أجر عظيم ﴾ لمن آثر رضى الله عليهم وراعى حدوده فيهم فانيطوا هممكم بمايؤديكم اليه ﴿ ياأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أونصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين واذلال الكافرين أومخرجا من الشبهات أونجاة مما تحذرون فى الدارين أوظهورا يشهر أمركم ويبث صيتكم من قولهم بت افعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ويسترها ﴿ ويغفر لكم ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ماتقدم وماتأخر لانها فى اهل بدر وقد غفرهما الله لهم ﴿ والله ذوالفضل العظيم ﴾ تنبيه على ان ماوعده لهم على التقوى تفضل منه واحسان وانه ليس ممايوجب تقواهم عليه كالسيد اذا وعد عبده انعاما على عمل ﴿ واذ يمكربك

أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد لان ذلك يشغل القلب ويصيره محجوبا عن خدمة المولى وهذا من أعظم الفتن وروى البغوى بسنده عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم أتى بصبى فقبله وقال اما انهم مبخلة مجبنة وانهم لمن ريحان الله وأخرج الترمذى عن عمر بن عبدالعزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابنى ابنته وهو يقول انكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون وانكم لمن ريحان الله قال الترمذى لانعرف لعمر بن عبدالعزيز سماعا عن خولة قوله لمن ريحان الله أى لمن رزق الله والريحان فى اللغة الرزق ۞ وقوله تعالى ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ يعنى لمن أدى الامانة ولم يخن وفيه تنبيه على ان سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد ۞ وقوله عزوجل ﴿ ياأيها الذين آمنو ان تتقوا الله ﴾ يعنى بطاعته وترك معاصيه ﴿ يجعل لكم فرقانا ﴾ يعنى يجعل لكم نورا وتوفيقا فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من أصله لانه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة قال مجاهد يجعل لكم مخرجا فى الدنيا والآخرة وقال مقاتل مخرجا فى الدين من الشبهات وقال عكرمة نجاة أى يفرق بينكم وبين ماتخافون وقال محمد بن اسحق فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفئ باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين الكفار بان يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه ﴿ ويكفر عنكم سيآتكم ﴾ يعنى ويمح عنكم ماسلف من ذنوبكم ﴿ ويغفر لكم ﴾ يعنى ويستر عليكم بان لايفضحكم فى الدنيا ولا فى الاخرة ﴿ والله ذوالفضل العظيم ﴾ لانه هوالذى يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فانه اذا وعد بشئ وفى به قيل انه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيآت وقيل معناه ان بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره ۞ قوله سبحانه وتعالى ﴿ واذ يمكربك

بلية لكم (وأنالله عنده أجر عظيم) ثواب وافر فى الجنة بالجهاد ياايها الذين آمنوا ان تتقواالله) فيما أمركم ونهاكم (يجعل لكم فرقانا) نصرة ونجاة (ويكفر عنكم سيآتكم) دون الكبائر (ويغفرلكم) سائر الذنوب (والله ذوالفضل) ذوالمن (العظيم) على عباده بالمغفرة والجنة (واذيمكربك)

الذين كفروا ﴾ تذكار لما مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خلاصه

﴿ الذين كفروا ﴾ لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا اذ أنتم قليل ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لان هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل ان يهاجر الى المدينة والمعنى واذكر يا محمد اذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير قالوا جميعا ان قريشا فرقوا لما أسلمت الانصار ان يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهر فاجتمع نفر من كفار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رؤسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الاسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف فاعترضهم ابليس في صورة شيخ فلما رأوه قالوا له من أنت قال أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا فقالوا ادخل فدخل فقال أبو البختري أما أنا فأرى ان تأخذوا محمدا وتحبسوه في بيت مقيد اوتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله ابليس وهو الشيخ النجدي وقال بئس الرأي رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى أصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فقالوا صدق الشيخ النجدي فقام هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي فقال أما أنا فأرى ان تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع وأين وقع اذا غاب عنكم واسترحتم منه فقال ابليس اللعين ما هذا لكم برأي تعمدون الى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه الى غيركم فيفسدهم ألم تروا الى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب ويستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم اليكم فيخرجكم من بلادكم فقالوا صدق الشيخ النجدي فقال أبو جهل والله لاشيرن عليكم برأي ما أرى غيره اني أرى ان تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسطا فتيا ثم نعطي كل فتى سيفا صارما ثم يضربوه جميعا ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها وانهم اذا أرادوا ذلك قالوا العقل فتؤدي قريش ديته فقال ابليس اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا والقول ما قال لا أرى غيره فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجمعون عليه فاتى جبريل

الذين كفروا) لما فتح الله عليه ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم والمعنى واذكر اذ يمكرون بك وذلك ان قريشا لما أسلمت الانصار فرقوا ان يتفاقم أمره فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره فدخل عليهم ابليس في صورة شيخ وقال أنا شيخ من نجد دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فاردت ان أحضركم وان تعدموا مني رأيا ونصحا فقال أبو البختري رأيي ان تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون فقال ابليس بئس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيي ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم فقال ابليس بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل لعنه الله أنا أرى ان تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله فاخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن له الله في الهجرة فأمر عليا (قاوخا ٥ لث) فنام في مضجعه وقال له اتشح ببردتي فانه لن يخلص اليك أمر تكرهه وباتوا مترصدين فلما أصبحوا ثاروا الى مضجعه فأبصروا عليا فبهتوا وخيب الله سعيهم واقتصوا اثره فابطل الله مكرهم

في دار الندوة (الذين كفروا) أبو جهل وأصحابه

من مكرهم واستيلائه عليهم والمعنى واذكر اذ يمكرون بك ﴿ ليثبتوك ﴾ بالوثاق أو الحبس أو الاثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لاحراك به ولا براح، وقرئ ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من البيات وليقيدوك ﴿ أو يقتلوك ﴾ بسيوفهم ﴿ أو يخرجوك ﴾ من مكة وذلك انهم لما سمعوا باسلام الانصار ومبايعتهم فرغوا فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في امره فدخل عليهم ابليس في صورة شيخ وقال انا من نجد سمعت اجتماعكم فاردت ان احضركم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا فقال ابو البختري رأيي ان تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من ايديكم فقال هشام بن عمرو رأيي ان تحملوه على جمل فتخرجوه من ارضكم فلا يضركم ما صنع فقال بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال ابو جهل انا ارى ان تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبي عليهما السلام واخبره الخبر وامره بالهجرة فبيت عليا رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع ابي بكر رضي الله تعالى عنه الى الغار ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾ برد مكرهم عليهم أو بمجازاتهم عليه أو بمعاملة الماكرين

(ليثبتوك) ليحبسوك ويوثقوك (أو يقتلوك) بسيوفهم (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) ويخفون المكائد له (ويمكر الله) ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم

(ليثبتوك) ليحبسوك سجنا وهو ما قال عمرو بن هشام (أو يقتلوك) جميعا وهو ما قال أبو جهل بن هشام (أو يخرجوك) طردا وهو ما قال أبو البختري بن هشام (ويمكرون) يريدون قتلك وهلاكك يا محمد (ويمكر الله) يريد الله قتلهم وهلاكهم

صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج الى المدينة فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه وقال له اتشح ببردتي فانه لن يخلص اليك منهم أمر تكرهه ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ أنا جعلنا في أعناقهم أغلالا الى قوله فهم لا يبصرون ومضى الى الغار من ثور هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته قالوا وبات المشركون يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا ثاروا اليه ليقتلوه فرأوه عليا فقالوا اين صاحبك قال لا أدري فاقتفوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن النسج العنكبوت على بابه أثر فمكث في الغار ثلاثا ثم خرج الى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وأصل المكر احتيال في خفية ﴿ ليثبتوك ﴾ أي ليحبسوك ويوثقوك لان كل من شد شيأ وأوثقه فقد أثبته لانه لا يقدر على الحركة ﴿ أو يقتلوك ﴾ يعني كما أشار اليهم أبو جهل ﴿ أو يخرجوك ﴾ يعني من مكة ﴿ ويمكرون ﴾ يعني ويحتالون ويدبرون في أمرك ﴿ ويمكر الله ﴾ يعني ويجازيهم الله جزاء مكرهم فسمي الجزاء مكرا لانه في مقابلته وقيل معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم والمكر هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق والمعنى أنهم احتالوا في ابطال أمر محمد صلى الله عليه وسلم والله سبحانه

(وتعالى)

بغتة (والله خير الماكرين) أى مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا كان عليه السلام يقرأ القرآن ويذكر اخبار القرون الماضية فى قراءته فقال النضر بن الحرث لوشئت لقلت مثل هذا وهو الذى جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأحاديث العجم فنزل (واذا تتلى عليهم آياتنا) أى القرآن (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين) وهذا صلف منهم ووقاحة دعوا الى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فلم يأتوا به (واذا قالوا اللهم ان كان هذا) أى القرآن (هو الحق من عندك) هذا اسم كان وهو فصل والحق خبر كان روى ان النضر لما قال ان هذا الا أساطير الاولين قال له النبى عليه السلام ويلك هذا كلام الله فرفع النضر رأسه الى السماء وقال ان كان هذا هو الحق من عندك (فامطر علينا حجارة من السماء) أى ان كان القرآن هو الحق فعاقبنا على انكاره بالسجيل كما فعلت باصحاب الفيل (أو ائتنا بعذاب أليم) نوع آخر من جنس العذاب الاليم فقتل يوم بدر صبرا

معهم بان اخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى اعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا ﴿والله خير الماكرين﴾ اذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره واسناد امثال هذا الى الله انما يحسن للمزاوجة ولا يجوز اطلاقها ابتداء لما فيه من ايهام الذم ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ هو قول النضر بن الحارث واسناده الى الجميع اسناد ما فعله رئيس القوم اليهم فانه كان قاصهم أو قول الذين ائتمروا فى امره عليه السلام وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم اذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم ان يشاؤا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سواه مع انفتهم وفرط استنكافهم ان يغلبوا خصوصا فى باب البيان ﴿أن هذا الا اساطير الاولين﴾ ماسطره الاولون من القصص ﴿واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم﴾ هذا ايضا من كلام ذاك القائل ابلغ فى الجحود روى انه لما قال النضر ان هذا الا اساطير الاولين قال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

وتعالى اظهره وقواه والنصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره ﴿والله خير الماكرين﴾ فان قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير فى مكرهم قلت يحتمل أن يكون المراد والله اقوى الماكرين فوضع خير موضع أقوى وفيه تنبيه على ان كل مكر يبطل بفعل الله وقيل يحتمل أن يكون المراد ان مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى فى مقابلته والله خير الماكرين وقيل ليس المراد التفضيل بل ان فعل الله خير مطلقا ﴿ قوله عز وجل ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ نزلت فى النضر بن الحرث بن علقمة من بنى عبد الدار وذلك انه كان يختلف الى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراة والانجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبى صلى الله عليه وسلم قد أوحى اليه وهو يقرأ ويصلى فقال النضر بن الحرث قد سمعنا يعنى مثل هذا الذى جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذى لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدى وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم فى قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿ان هذا الا اساطير الاولين﴾ يعنى أخبار الماضين ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ نزلت فى النضر بن الحرث أيضا قال ابن عباس لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية قال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل

يوم بدر (والله خير الماكرين) اقوى المهلكين (واذا تتلى) تقرأ (عليهم) على النضر بن الحرث وأصحابه (آياتنا) بالامر والنهى (قالوا قد سمعنا) ما قال محمد عليه السلام (لو نشاء لقلنا مثل هذا) مثل ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم (ان هذا) ما هذا الذى يقول محمد صلى الله عليه وسلم (الا أساطير) أحاديث (الاولين) وأخبارهم (واذا قالوا) قال ذلك النضر (اللهم ان كان هذا) الذين يقول محمد عليه السلام (هو الحق من عندك) أن ليس لك ولد ولا شريك (فأمطر علينا) على النضر (حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وجيع فقتل يوم بدر

ويلك انه كلام الله فقال ذلك والمعنى ان كان هذا القرآن حقا منزلا فأمطر الحجارة علينا عقوبة على انكاره أو ائتنا بعذاب اليم سواه والمراد منه التهكم واظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلا وقرئ الحق بالرفع على ان هو مبتدأ غير فصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على ان المعلق به كونه حقا بالوجه الذى يدعيه النبي وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم ان يكون مطابقا للواقع غير منزل كاساطير الاولين ﴿وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ بيان لما كان الموجب لامهالهم والتوقف لاجابة دعائهم واللام لتأكيد النفى والدلالة على ان تعذيبهم عذاب استئصال

هذا فقال له عثمان بن مظعون اتق الله فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول الحق قال وأنا أقول الحق قال فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول لا اله الا الله قال وانا اقول لا اله الا الله ولكن هذه بنات الله يعنى الاصنام ثم قال اللهم ان كان هذا هو الحق يعنى القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل يعنى ان كان الذى يقوله محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد وادعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فامطر علينا حجارة من السماء يعنى كما أمطرتها على قوم لوط أو ائتنا بعذاب أليم يعنى مثل ما عذبت به الامم الماضية وفى النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع قال عطاء لقد نزل فى النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدى وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك ان الذى قال ذلك أبو جهل (ق) عن أنس قال قال أبو جهل اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت ومالهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام * قوله عز وجل ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ اختلفوا فى معنى هذه الآية فقال محمد بن اسحق هذه الآية متصلة بما قبلها وهى حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا ان الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكره جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ ثم قال تعالى ردا عليهم ومالهم ألا يعذبهم الله وان كنت بين أظهرهم وان كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرم وقال آخرون هذا كلام مستانف يقول الله عز وجل اخبارا عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واختلفوا فى معناه فقال الضحاك وجماعة تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم فيهم بين أظهرهم قالوا نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقى بقية من المسلمين يستغفرون فانزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله فى فتح مكة فهو العذاب

(الذى)

وعن معاوية انه قال لرجل من سبأ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال أجهل من قومى قومك قالوا لرسول الله عليه السلام حين دعاهم الى الحق ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا له (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اللام لتأكيد النفى والدلالة على ان تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم لانك بعثت رحمة للعالمين وسنته ان لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم وفيه اشعار بانهم مرصدون بالعذاب اذا هاجر عنهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) هو فى موضع الحال ومعناه نفى الاستغفار عنهم أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم أو معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

صبرا (وما كان الله ليعذبهم) ليهلكهم أبا جهل وأصحابه (وأنت فيهم) مقيم (وما كان الله معذبهم) مهلكهم (وهم يستغفون) يريدون أن

والنبي عليه الصلاة والسلام بين اظهرهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه والمراد باستغفارهم اما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين أو قولهم اللهم اغفر غفرانك أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله وماكان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون ﴿ وما لهم الا يعذبهم الله ﴾ ومالهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون

الذي وعدهم وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بحيث أمر فقال الله وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم ومالهم الا يعذبهم الله وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع الى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك غفرانك وقال زيد بن رومان قالت قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم فقال الله تعالى وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون وقال قتادة والسدي معناه وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون أي لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو أقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لعبده لا أعاقبك وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أي يسلمون يعني لو أسلموا لما عذبوا وقال ابن عباس وفيهم من سبق له من الله العناية أنه يؤمن ويستغفر مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم وقال مجاهد وهم يستغفرون أي وفي اصلابهم من يستغفر وقيل في معنى الآية ان الكفار لما بالغوا وقالوا ان كان محمد محقا في قوله فامطر علينا حجارة من السماء اخبر الله سبحانه وتعالى ان محمدا محق في قوله وانه مع ذلك لا يمطر على اعدائه ومنكري نبوته حجارة من السماء ما دام بين أظهرهم وذلك تعظيما له صلى الله عليه وسلم وأورد على هذا انه اذا كانت اقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال في غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم فالجواب ان المراد من العذاب الاول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثاني وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بايديكم هو عذاب القتل والسبي والاسر وذلك دون عذاب الاستئصال قال أهل المعاني دلت هذه الآية على ان الاستغفار امان وسلامة من العذاب عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله انزل على امانين لامتي وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة أخرجه الترمذي ❊ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ومالهم الا يعذبهم الله ﴾ يعني أي شيء يمنعهم من ان يعذبهم يعني بعد خروجك من بين أظهرهم لانه سبحانه وتعالى بين في الآية الاولى انه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم وبين في هذه الآية انه معذبهم ثم اختلفوا في هذا العذاب فقيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل اراد به عذاب الآخرة وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب

من المستضعفين (ومالهم ألا يعذبهم الله) اي وماكان الله ليعذبهم وانت فيهم وهو معذبهم اذا فارقتهم ومالهم الا يعذبهم الله

يؤمنوا (ومالهم ألا يعذبهم الله) ان لا يهلكهم الله بعدما

(وهم يصدون عن المسجد الحرام) وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية واخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصدوكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرام فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل (وما كانوا أولياؤه) وما استحقوا مع اشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم (ان أولياؤه الا المتقون) من المسلمين وقيل الضميران راجعان الى الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك كانه استثنى من كان يعلم وهو يعاند أو أراد بالاكثر الجميع كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء) صفيرا كصوت المكاء وهو طائر مليح الصوت وهو فعال من مكا يمكو اذا صفر (وتصدية) وتصفيقا تفعلة من الصدى وذلك انهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وكانوا يفعلون نحو ذلك اذا قرأ رسول الله صلى الله

خرجت من بين أظهرهم (وهم يصدون) محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه (عن المسجد الحرام) ويطوفون حوله عام الحديبية (وما كانوا أولياؤه أولياء المسجد (ان أولياؤه) ما أولياؤه (الا المتقون) الكفر والشرك والفواحش محمد عليه السلام وأصحابه (ولكن أكثرهم) (وقال) كلهم (لا يعلمون) ذلك ولا يصدقون به (وما كان صلوتهم) لم تكن عبادتهم (عند البيت الا مكاء) صفيرا كصفير المكاء (وتصدية) تصفية

﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ وحالهم ذلك ومن صدهم عنه الجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين الى الهجرة واحصارهم عام الحديبية ﴿وما كانوا اولياؤه﴾ مستحقين ولاية امره مع شركهم وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ﴿ان اولياؤه الا المتقون﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره وقيل الضمير ان لله ﴿ولكن اكثرهم لا يعلمون﴾ ان لا ولاية لهم عليه كأنه نبه بالاكثر على ان منهم من يعلم ويعاند أو اراد به الكل كما يراد بالقلة العدم ﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها ﴿الا مكاء﴾ صفير افعال من مكا يمكوا اذا صفر وقرئ بالقصر كالبكا ﴿وتصدية﴾ تصفيقا تفعلة من الصدى أو من الصد على ابدال احد حرفي التضعيف بالياء وقرئ صلاتهم بالنصب على انه الخبر المقدم ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم للعذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فانها لا تليق بمن هذه صلاته روى انهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء مشبكين بين اصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك اذا اراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

الثاني العذاب بالسيف وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة وقال الحسن الآية الاولى وهي قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله ومالهم ألا يعذبهم الله وفيه بعد لان الاخبار لا يدخلها النسخ ثم بين ما لاجله يعذبهم فقال تعالى ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ يعني وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية ﴿وما كانوا أولياءه﴾ قال الحسن كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياؤه يعني ليسوا أولياء المسجد الحرام ﴿ان أولياؤه الا المتقون﴾ يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك ﴿ولكن أكثرهم﴾ يعني المشركين ﴿لا يعلمون﴾ ذلك ✽ قوله عز وجل ﴿وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية﴾ لما ذكر الله عز وجل ان الكفار ليسوا باولياء للبيت الحرام ذكر عقبه السبب في ذلك وهو ان صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية والمكاء في اللغة الصفير يقال مكا الطير يمكو اذا صفر والمكاء اسم طير أبيض يكون بالحجاز له صفير وقيل هو طائر يألف الريف سمي بذلك لكثرة مكائه يعني صفيره والتصدية التصفيق وفي أصله واشتقاقه قولان أحدهما انه من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل كالمجيب للمتكلم ولا يرجع الى شئ الثاني قال أبو عبيدة أصله تصددة فابدلت الياء من الدال قال الازهري والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر انهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت ✽ صلاتهم التصدي والمكاء ✽ قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون

ان يصلى يخلطون عليه ويرون انهم يصلون ايضا ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ يعنى القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل ان تكون للعهد والمعهود أئتنا بعذاب ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ اعتقادا وعملا ﴿ ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جذر اوفى ابى سفيان استأجر ليوم احد الفين من العرب سوى من استجاش من العرب وانفق عليهم اربعين

وقال مجاهد كان نفر من بنى عبدالدار يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون فالمكاء جعل الاصابع فى الشدق والتصدية الصفير وقال جعفر بن ربيعة سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن قوله الا مكاء وتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفرا وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبى صلى الله عليه وسلم صلاته وهم من بنى عبدالدار فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبى صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس أصح لان الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة فان قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة قلت انهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو ان من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهو المنع ٭ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ يعنى عذاب القتل والاسر فى الدنيا وقيل يقال لهم فى الآخرة فذوقوا العذاب ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ يعنى بسبب كفركم فى الدنيا ٭ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبها عبادتهم المالية التى لا جدوى لها فى الآخرة وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البخترى بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حزام وأبى بن خلف وزمعة بن الاسود والحرث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش فكان يطعم كل واحد منهم الجيش فى كل يوم عشر جزر وأسلم من هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكيم بن حزام وقال الحكم بن عتبة نزلت فى أبى سفيان بن حرب حين أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالا وقال ابن أبزى استأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وقيل استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل

عليه وسلم فى صلاته يخلطون عليه (فذوقوا العذاب) عذاب القتل والاسر يوم بدر (بما كنتم تكفرون) بسبب كفركم ونزل فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزور (ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله) اى كان غرضهم فى الانفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو

(فذوقوا العذاب يوم بدر (بما كنتم تكفرون) بمحمد عليه السلام والقرآن (ان الذين كفروا) وهم المطعمون يوم بدر أبو جهل وأصحابه وكانوا ثلاثة عشر رجلا (ينفقون أموالهم ليصدوا) ليصرفوا الناس (عن سبيل الله) عن دين الله وطاعته

اوقية أو فى اصحاب العير فانه لما اصيب قريش ببدر قيل لهم اعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثارنا ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله ﴿فسينفقونها﴾ بتمامها ولعل الاول اخبار عن انفاقهم فى تلك الحال وهو انفاق بدر والثانى اخبار عن انفاقهم فيما يستقبل وهو انفاق احد ويحتمل ان يراد بهما واحد على ان مساق الاول لبيان غرض الانفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وانه لم يقع بعد ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ ندما وغما لفواتها من غير مقصود جعل ذاتها كأنها تصير حسرة وهى عاقبة انفاقها مبالغة ﴿ثم يغلبون﴾ آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك ﴿والذين كفروا﴾ أى الذين ثبتوا على الكفر منهم اذا سلم بعضهم ﴿الى جهنم يحشرون﴾ يساقون ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما انفقه المشركون فى عداوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مما انفقه المسلمون فى نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب ليميز من التمييز وهو ابلغ من الميز ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا﴾ فيجمعه ويضم بعضه الى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم أو يضم الى الكافر ما انفقه ليزيد به عذابه كما للكانزين ﴿فيجعله فى جهنم﴾ كله ﴿أولئك﴾ اشارة الى الخبيث لانه مقدر بالفريق الخبيث

لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره الى مكة مشى عبدالله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فاعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثارا عن أصيب منا ففيهم نزلت ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أى ليصرفوا الناس عن الايمان بالله ورسوله وقيل ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿فسينفقونها﴾ يعنى أموالهم فى ذلك الوجه ﴿ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ يعنى ما أنفقوا من أموالهم يكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة لان أموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون ﴿والذين كفروا﴾ يعنى منهم لان فيهم من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعنى من المنفقين أموالهم ﴿الى جهنم يحشرون﴾ يعنى يساقون الى النار ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ يعنى ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فانه قال يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازى على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل المراد به انفاق الكفار فى سبيل الشيطان وانفاق المؤمنين فى سبيل الله ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ يعنى بعضه فوق بعض ﴿فيركمه جميعا﴾ يعنى فيجمعه جميعا ويضم بعضه الى بعض حتى يتراكم ﴿فيجعله فى جهنم﴾ يعنى الخبيث ﴿أولئك﴾ اشارة الى المنفقين فى سبيل الشيطان أو الى الخبيث

سبيل الله (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) ثم تكون عاقبة انفاقها ندما وحسرة فكان ذاتها تصير ندما وتنقلب حسرة (ثم يغلبون) آخر الامر وهو من دلائل النبوة لانه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر (والذين كفروا) والكافرون منهم (الى جهنم يحشرون) لان منهم من أسلم وحسن اسلامه واللام فى (ليميز الله الخبيث) الفريق الخبيث من الكفار (من الطيب) أى من الفريق الطيب من المؤمنين متعلقة بيحشرون ليميز حمزة وعلى (ويجعل الخبيث) الفريق الخبيث (بعضه على بعض فيركمه جميعا) فيجمعه (فيجعله فى جهنم) أى الفريق الخبيث (أولئك) اشارة الى الفريق الخبيث

(فسينفقونها) فى الدنيا (ثم تكون عليهم حسرة) ندامة فى الآخرة (ثم يغلبون) يقتلون ويهزمون يوم بدر (والذين كفروا) أبو جهل وأصحابه (الى جهنم يحشرون) يوم القيامة (ليميز الله الخبيث من الطيب) الكافر من المؤمن والمنافق من المخلص والطالح من الصالح (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) الى بعض (فيركمه) فيجمعه (جميعا) الخبيث (فيجعله) فيطرحه (فى جهنم أولئك

(هم الخاسرون)أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) أى أبى سفيان وأصحابه (ان ينتهوا) عماهم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول فى الاسلام (يغفرلهم ماقدسلف) لهم من العداوة (وان يعودوا) لقتاله (فقدمضت سنت الاولين)بالاهلاك

فى الدنيا والعذاب فى العقبى أومعناه

أو الى المنفقين ﴿ هم الخاسرون ﴾ الكاملون فى الخسران لانهم خسروا أنفسهم واموالهم ﴿ قل للذين كفروا ﴾ يعنى ابا سفيان واصحابه والمعنى قل لاجلهم ﴿ أن ينتهوا ﴾ عن معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم بالدخول فى الاسلام ﴿ يغفر لهم ماقد سلف ﴾ من ذنوبهم *وقرئ بالتاء والكاف على انه خطابهم ويغفر على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ وأن يعودوا ﴾ الى قتاله ﴿ فقدمضت سنة الاولين ﴾ الذين تحزبوا على الانبياء بالتدمير كما جرى على اهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ﴾ لايوجد فيهم شرك ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ وتضمحل عنهم الاديان الباطلة ﴿ فان انتهوا ﴾ عن الكفر ﴿ فان الله بما يعملون بصير ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه واسلامهم *وعن يعقوب تعملون بالتاء على معنى فان الله بما تعملون من الجهاد والدعوة الى الاسلام والاخراج من ظلمة الكفر الى نور الايمان بصير يجازيكم فيكون تعليقه بانتهائهم دلالة على انه كما يستدعى اثابتهم للمباشرة يستدعى اثابة مقاتليهم للتسبب

﴿ هم الخاسرون ﴾ يعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة لانهم اشتروا باموالهم عقاب الآخرة *قوله سبحانه وتعالى ﴿ قل ﴾ يعنى قل يا محمد ﴿ للذين كفروا ان ينتهوا ﴾ يعنى عن الشرك ﴿ يغفر لهم ماقدسلف ﴾ يعنى ماقد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الاسلام ﴿ وان يعودوا فقد مضت سنت الاولين ﴾ يعنى فى اهلاك أعدائه ونصر أوليائه ومعنى الآية ان هؤلاء الكفار ان انتهوا عن الكفر ودخلوا فى دين الاسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ماقدسلف من كفرهم وشركهم وان عادوا الى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الاولين باهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على ان الاسلام يجب ماقبله واذا أسلم الكافر لم يلزمه شئ من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة اسلامه كيوم ولدته أمه يعنى بذلك انه ليس عليه ذنب قال يحيي بن معاذ الرازى التوحيد لم يعجز عن هدم ماقبله من كفر فارجو أن لايعجز عن هدم مابعده من ذنب ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ﴾ قال ابن عباس يعنى حتى لايكون شرك وقال الحسن حتى لايكون بلاء ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ يعنى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره وقال قتادة حتى يقال لااله الا الله عليها قاتل نبى الله صلى الله عليه وسلم واليها دعا وقال محمد بن اسحق فى قوله وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله يعنى لايفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصا ليس فيه شرك ويخلع مادونه من الانداد والشركاء ﴿ فان انتهوا ﴾ يعنى الشرك وافتتان المؤمنين وايذائهم ﴿ فان الله بما يعملون بصير ﴾ يعنى فان الله لايخفى عليه شئ

ان الكفار اذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ماقد سلف من الكفر والمعاصى وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله فى ان المرتد اذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) الى أن لايوجد فيهم شرك قط (ويكون الدين كله لله) ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده (فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فان الله بما يعملون بصير) يثيبهم على اسلامهم

(هم الخاسرون) المغبونون بالعقوبة (قل) يا محمد (للذين كفروا) أبى سفيان وأصحابه (ان ينتهوا) عن الكفر والشرك وعبادة الاوثان وقتال محمد صلى الله عليه وسلم (يغفر لهم ماقدسلف) من الكفر والشرك وعبادة الاوثان وقتال محمد صلى عليه وسلم (وان يعودوا) الى قتال محمد صلى الله عليه وسلم (فقد مضت سنت الاولين) خلت سيرة الاولين بالنصرة لاوليائه على أعدائه مثل يوم بدر

(وقاتلوهم) يعنى كفار أهل مكة (حتى (قا و خا ٦ لث) لاتكون فتنة)الكفر والشرك وعبادة الاوثان وقتال محمد عليه السلام فى الحرم (ويكون الدين) فى الحرم والعبادة (كله لله) حتى لايبقى الا دين الاسلام (فان انتهوا) عن الكفر والشرك وعبادة الاوثان وقتال محمد صلى الله عليه وسلم (فان الله بما يعملون) من الخير والشر (بصير

﴿ وأن تولوا ﴾ ولم ينتهوا ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ ناصركم فثقوا به ولاتبالوا بمعاداتهم ﴿ نعم المولى ﴾ لايضيع من تولاه ﴿ ونعم النصير ﴾ لايغلب من نصره

من أعمال العباد ونياتهم حتى يوصل اليهم ثوابهم ﴿ وان تولوا ﴾ يعنى وان أعرضوا عن الايمان وأصروا على الكفر وعادوا الى قتال المؤمنين وايذائهم ﴿ فاعلموا ﴾ يعنى أيها المؤمنون ﴿ ان الله مولاكم ﴾ يعنى ان الله وليكم وناصركم عليهم وحافظكم ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان فى حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير

(وان تولوا) أعرضوا عن الايمان ولم ينتهوا (فاعلموا ان الله مولاكم) ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته (نعم المولى) لايضيع من تولاه (ونعم النصير) لايغلب من نصره والمخصوص بالمدح محذوف

(وان تولوا) عن الايمان (فاعلموا) يامعشر المؤمنين (ان الله مولاكم) حافظكم وناصركم عليهم (نعم المولى) الولى بالحفظ والنصرة (ونعم النصير) المانع

اللهم ايدنا بالملائكة المقربين

﴿واعلموا انما غنمتم﴾ أى الذى اخذتموه من الكفار قهرا ﴿من شئ﴾ مما يقع عليه اسم الشئ حتى الخيط ﴿فأن لله خمسه﴾ مبتدأ خبره محذوف أى فثابت ان لله خمسه. وقرئ فان بالكسر والجمهور على ان ذكر الله للتعظيم كما فى قوله والله ورسوله احق ان يرضوه وان المراد قسم الخمس على خمسة المعطوفين ﴿وللرسول

---

* قوله عز وجل ﴿واعلموا أن ماغنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول﴾ الغنم الفوز بالشئ يقال غنم يغنم غنما فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفئ اسمان لمسمى واحد أم يختلفان فى التسمية فقال عطاء بن السائب الغنيمة ماظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فاخذوه عنوة وأما الارض فهى فئ وقال سفيان الثورى الغنيمة ما اصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة والفئ ماصولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله وقيل الغنمية ماأخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة والفئ مالم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة وقيل ان الفئ والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشئ واحد والصحيح انهما يختلفان فالفئ ماأخذ من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب والغنيمة ماأخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بايجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى واعلموا ان ماغنمتم من شئ يعنى من أى شئ كان حتى الخيط والمخيط فان لله خمسه وللرسول وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء ان قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وانما أضافه لنفسه تعالى لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه ان سهما منه لله مفردا لان الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعى قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم

(خمسة)

(واعلموا أن ماغنمتم) ما بمعنى الذى ولا يجوز أن يكتب الا مفصولا اذ لو كتب موصولا لوجب ان تكون ما كافة وغنمتم صلته والعائد محذوف والتقدير الذى غنمتموه (من شئ) بيانه قيل حتى الخيط والمخيط (فان لله خمسه) والفاء انما دخلت لما فى الذى من معنى المجازاة وان وما عملت فيه فى موضع رفع على أنه خبر مبتدأ تقديره فالحكم أن لله خمسه (وللرسول

(واعلموا) يامعشر المؤمنين (انما غنمتم من شئ) من الاموال (فان لله خمسه) يخرج خمس الغنيمة لقبل الله (وللرسول) لقبل

ولذى القربى

خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها وأحرزها والخمس الباقى لخمسة أصناف كما ذكر الله عزوجل للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقال أبو العالية يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله عزوجل فيصرف الى الكعبة والقول الاول أصح أى ان خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان له فى حياته واليوم هو لمصالح المسلمين ومافيه قوة الاسلام وهذا قول الشافعى وأحمد وروى الاعمش عن ابراهيم قال كان أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما يجعلان سهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الكراع والسلاح وقال قتادة هو للخليفة وقال أبو حنيفة سهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد موته مردود فى الخمس فيقسم الخمس على الاربعة الاصناف المذكورين فى الآية وهم ذووالقربى واليتامى والمساكين وابن السبيل * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولذى القربى ﴾ يعنى ان سهما من خمس الخمس لذوى القربى وهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لاتحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلى بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعى رحمه الله تعالى هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل منه شئ وان كانوا اخوة ويدل عليه ماروى عن جبير بن مطعم قال جئت أنا وعثمان بن عفان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وفى رواية أعطيت بنى المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفى رواية قال جبير ولم يقسم النبى صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل شيأ أخرجه البخارى وفى رواية أبى داود ان جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس فى بنى هاشم وبنى المطلب فقلت يارسول الله قسمت لاخواننا بنى المطلب ولم تعطنا شيأ وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وفى رواية النسائى قال لما كان يوم خيبر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب وترك بنى نوفل وبنى عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا يارسول الله هؤلاء بنو هاشم لاننكر فضلهم للموضع الذى وضعك الله به منهم فما بال اخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا وبنو المطلب لانفترق فى جاهلية ولا اسلام وانما نحن وهم شئ واحد وشبك بين أصابعه واختلف أهل العلم فى سهم ذوى القربى هل هو ثابت اليوم أم لافذهب أكثرهم الى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وهو قول مالك والشافعى وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأى الى انه غير ثابت قالوا سهم النبى صلى الله عليه وسلم وسهم ذوى القربى مردود

ولذى القربى

الرسول (ولذى القربى) ولقبل قرابة النبى صلى الله عليه وسلم

واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ فكأنه قال فان لله خمسه يصرف الى هؤلاء الاخصين به وحكمه بعد باق غير ان سهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان رضى الله تعالى عنهما وقيل الى الامام وقيل الى الاصناف الاربعة وقال ابو حنيفة رضى الله تعالى عنه سقط سهمه وسهم ذوى القربى بوفاته وصار الكل مصروفا الى الثلاثة الباقية وعن مالك رضى الله تعالى عنه الامر فيه مفوض الى رأى الامام يصرفه الى ما يراه اهم وذهب ابو العالية الى ظاهر الآية وقال يقسم ستة اقسام ويصرف سهم الله الى الكعبة لما روى انه عليه السلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة ثم يقسم ما بقى على خمسة وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم الى سهم الرسول الله صلى الله عليه وسلم وذوو القربى بنو هاشم وبنو المطلب لما روى انه عليه الصلاة والسلام قسم سهم ذوى القربى عليهما

فى الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف الى فقراء ذوى القربى مع هذه الاصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور ان الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوى القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوى القربى ولا يفضلون فقيرا على غنى لان النبى صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعى بالميراث الذى يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الانثى فيعطى الذكر سهمين والانثى سهما ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ واليتامى ﴾ جمع يتيم يعنى ويعطى من خمس الخمس لليتامى واليتيم الذى له سهم فى الخمس هو الصغير المسلم الذى لا أب له فيعطى مع الحاجة اليه ﴿ والمساكين ﴾ وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة اليه فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ويعطى الراجل سهما واحدا لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم فى النفل للفرس سهمين وللرجل سهما وفى رواية نحوه باسقاط لفظ النفل أخرجه البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهما له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم واليه ذهب الثورى والاوزاعى ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق وقال أبو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان اذا حضروا القتال ويقسم العقار الذى استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبى حنيفة يتخير الامام فى العقار بين ان يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفا على المصالح وظاهر الآية يدل على انه لا فرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركا فى القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى عن أبى قتادة أن رسول الله

فالخمس كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله وسهم لذوى قرابته من بنى هاشم وبنى المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته وكذلك سهم ذوى القربى وانما يعطون لفقرهم ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه

(واليتامى) ولقبل اليتامى غير يتامى بنى عبد المطلب (والمساكين) ولقبل المساكين غير مساكين بنى عبد المطلب (وابن السبيل) ولقبل الضيف والمحتاج كائنا من كان وكان يقسم الخمس فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم سهم للنبى عليه السلام وهو سهم الله وسهم للقرابة لان النبى عليه السلام كان يعطى قرابته لقبل الله وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل فلما مات النبى صلى الله عليه وسلم سقط سهم النبى صلى الله عليه وسلم والذى كان يعطى للقرابة بقول أبى بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (صلى الله)

فقال له عثمان وجبير بن مطعم هؤلاء اخوتك بنوهاشم لاننكر فضلهم لمكانك الذى جعلك الله منهم أرأيت اخواننا من بنى المطلب اعطيتهم وحرمتنا وانما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال عليه الصلاة والسلام انهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا فى اسلام وشبك بين اصابعه وقيل بنوهاشم وحدهم وقيل جميع قريش والغنى والفقير فيه سواء وقيل هو مخصوص بفقرائهم كسهم ابن السبيل وقيل الخمس كله لهم وقيل المراد باليتامى والمساكين وابن السبيل من كان منهم والعطف للتخصيص والآية نزلت ببدر وقيل الخمس كان فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة ايام للنصف من

صلى الله عليه وسلم قال من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه أخرجه الترمذى وأخرجه البخارى ومسلم فى حديث طويل والسلب كل مايكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذى كان راكبه ويجوز للامام ان ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم فى الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم أسوة الجماعة فى سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لانفسهم خاصة سوى عامة الجيش عن حبيب بن سلمة الفهرى قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل الربع فى البدأة والثلث فى الرجعة أخرجه أبوداود اختلف العلماء فى أن النفل من أين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعى وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبادة بن الصامت قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال أيها الناس انه لايحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه الا الخمس والخمس مردود عليكم أخرجه النسائى وقال قوم هو من الاربعة الاخماس بعد افراز الخمس كسهام الغزاة وهو قول أحمد واسحق وذهب قوم الى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل وأما الفئ وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب بان صالحهم على مال يؤدونه وكذلك الجزية وما أخذ من أموالهم اذا دخلوا دار الاسلام للتجارة أو يموت أحد منهم فى دار الاسلام ولا وارث له فهذا كله فئ ومال الفئ كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة حياته وقال عمر ان الله سبحانه وتعالى قد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفئ بشئ لم يخص به أحدا غيره ثم قرأ عمر وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم مابقى يجعله مجعل مال الله فى الكراع والسلاح واختلف أهل العلم فى مصرف الفئ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للأئمة بعده وللامام الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه قولان أحدهما انه للمقاتلة الذين أثبتت أسماؤهم فى ديوان الجهاد لانهم هم القائمون مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى ارهاب العدو والقول الثانى انه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم ثم بالاهم

كان على ستة لله والرسول سهمان وسهم لاقاربه فأجرى أبوبكر رضى الله عنه الخمس على ثلاثة وكذا عمرومن بعده من الخلفاء رضى الله عنهم ومعنى لله وللرسول لرسول الله كقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه

لكل نبى طعمة فى حياته فاذا مات سقطت فلم يكن بعده لاحد وكان يقسم ابوبكر وعمر وعثمان وعلى فى خلافتهم الخمس على ثلاثة أسهم سهم لليتامى غير يتامى بنى عبد المطلب وسهم للمساكين غير مساكين بنى عبد المطلب وسهم لابن السبيل للضيف والمحتاج

(ان كنتم آمنتم بالله) فاعملوا به وارضوا بهذه القسمة فالايمان يوجب الرضا بالحكم والعمل بالعلم (وما انزلنا) معطوف على بالله أي ان كنتم آمنتم بالله وبالمنزل

(على عبدنا يوم الفرقان) يوم بدر (يوم التقى الجمعان) الفريقان

شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة ﴿ان كنتم آمنتم بالله﴾ متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا انه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه اليهم واقتنعوا بالاخماس الاربعة الباقية فان العلم العملي اذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لانه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل ﴿وما انزلنا على عبدنا﴾ محمد من الآيات والملائكة والنصر * وقرئ عبدنا بضمتين أي الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر فانه فرق فيه بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ المسلمون والكفار ﴿والله على كل شئ قدير﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والامداد بالملائكة ﴿اذ انتم بالعدوة الدنيا﴾ بدل من يوم الفرقان والعدوة بالحركات الثلاث شط الوادي * وقد قرئ بها والمشهور الضم والكسر وهو قراءة ابن كثير وابى عمرو ويعقوب ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ البعدى من المدينة تأنيث الاقصى وكان قياسه

فالاهم من المصالح واختلف أهل العلم في تخميس الفئ فذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه الى أنه يخمس وخمسه لاهل الخمس من الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الاكثرون الى أنه لايخمس بل يصرف جميعه مصرفا واحدا ولجميع المسلمين فيه حق * عن مالك بن أنس قال ذكر عمر يوما الفئ فقال ما أنا أحق بهذا الفئ منكم وما أحدنا أحق به من الآخر الا أنا على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل وقدمه والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته أخرجه أبو داود وأخرج البغوي بسنده عنه انه سمع عمر بن الخطاب يقول ما على وجه الارض مسلم الا له في هذا الفئ حق الا ما ملكت أيمانكم * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ان كنتم آمنتم بالله﴾ يعنى واعلموا أيها المؤمنون ان خمس الغنيمة مصروف الى من ذكر في هذه الآية من الاصناف فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ يعنى وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم والذي انزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يسئلونك عن الانفال الآية ﴿يوم الفرقان﴾ يعنى يوم بدر قال ابن عباس يوالفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل فيه بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ يعنى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون مابين الالف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك ﴿والله على كل شئ قدير﴾ يعنى على نصركم أيها المؤمنون مع قلتكم وكثرة أعدائكم * قوله سبحانه وتعالى ﴿اذ أنتم﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم يامعشر المسلمين اذ أنتم ﴿بالعدوة الدنيا﴾ يعنى بشفير الوادي الادنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الادنى ﴿وهم﴾ يعنى المشركين ﴿بالعدوة القصوى﴾

من المسلمين والكافرين والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ وهو بدل من يوم الفرقان (والله على كل شئ قدير) يقدر على ان ينصر القليل على الكثير كما فعل بكم يوم بدر (اذ انتم) بدل من يوم الفرقان او التقدير اذكروا اذ أنتم (بالعدوة) شط الوادي وبالكسر فيهما مكي وأبو عمرو (الدنيا) القربى الى جهة المدينة تأنيث الادنى (وهم بالعدوة القصوى) البعدى عن

(ان كنتم) اذ كنتم (آمنتم بالله وما أنزلنا) وبما أنزلنا (على عبدنا) محمد عليه السلام (يوم الفرقان) ويوم الدولة والنصرة لمحمد وأصحابه ويقال يوم الفرقان يوم فرق بين الحق والباطل وهو يوم بدر حكم بالنصرة والغنيمة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والقتل والهزيمة لابى جهل وأصحابه (يوم التقى الجمعان) جمع محمد عليه السلام وجمع أبي سفيان (والله على كل شئ) من النصرة والغنيمة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والقتل والهزيمة لابى جهل وأصحابه (قدير اذ أنتم) يامعشر المومنين (يعنى) (بالعدوة الدنيا) القربى الى المدينة دون الوادي (وهم) يعنى أباجهل وأصحابه (بالعدوة القصوى) البعدى من

المدينة تأنيث الاقصى وكلتاهما فعلى من بنات الواو والقياس قلب الواو ياء كالعليا تأنيث الاعلى وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الاصل (والركب) أي العير وهو جمع راكب في المعنى (أسفل منكم) نصب على الظرف أي مكانا أسفل من مكانكم يعني في أسفل الوادي بثلاثة أميال وهو مرفوع المحل لانه خبر المبتدأ (ولو تواعدتم) أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال (لاختلفتم في الميعاد) لخالف بعضكم بعضا فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له (ولكن) جمع بينكم بلا ميعاد (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) من اعزاز دينه واعلاء كلمته واللام تتعلق بمحذوف أي ليقضي الله أمرا كان ينبغي ان يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك قال الشيخ أبو منصور رحمه الله القضاء يحتمل الحكم اى ليحكم ما قد علم انه يكون كائنا أو ليتم أمرا كان قد أراده وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة وهو عز الاسلام وأهله وذل الكفر وحزبه ويتعلق بيقضي (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة) حي نافع وأبو عمرو فالادغام لالتقاء المثلين والاظهار لان حركة الثاني غير

قلب الواو ياء كالدنيا والعلياء تفرقة بين الاسم والصفة فجاء على الاصل كالقود وهو اكثر استعمالا من القصياء ﴿ والركب ﴾ أي العير أو قوادها ﴿ أسفل منكم ﴾ في مكان اسفل من مكانكم يعني الساحل وهو منصوب على الظرف واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على ان لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتياث امرهم واستبعاد غلبتهم عادة ولذا ذكر مراكز الفريقين فان العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الارجل ولا يمشى فيها الا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ﴾ أي لو تواعدتم انتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم انتم في الميعاد هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم ليتحققوا ان ما اتفق لهم من الفتح ليس الا صنعا من الله خارقا للعادة فيزدادوا ايمانا وشكرا ﴿ ولكن ﴾ جمع بينكم على هذه الحالة من غير ميعاد ﴿ ليقضي الله امرا كان مفعولا ﴾ حقيقا بان يفعل وهو نصر اوليائه وقهر اعدائه وقوله ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ﴾ بدل منه أو متعلق بقوله

يعني بشفير الوادي الاقصى من المدينة مما يلي مكة والقصوى تأنيث الاقصى ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ يعني أباسفيان وأصحابه وهم عير قريش التي خرجوا لاجلها وكانوا في موضع أسفل من موضع المؤمنين الى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر ﴿ ولو تواعدتم ﴾ يعني أنتم والمشركون ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ وذلك ان المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم انتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم ﴿ ولكن ﴾ يعني ولكن الله جمعكم على غير ميعاد ﴿ ليقضي الله أمرا كان مفعولا ﴾ يعني من نصر أوليائه واعزاز دينه واهلاك أعدائه وأعداء دينه ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ﴾ يعني ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه ﴿ ويحيي من حي عن بينة ﴾ يعني ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه وقال محمد ابن اسحق

المدينة من خلف الوادي (والركب) العير أبو سفيان وأصحابه (أسفل منكم) على شط البحر بثلاثة اميال (ولو (قا و خا ٧ لث) تواعدتم) في المدينة للقتال (لاختلفتم في الميعاد) في المدينة بذلك (ولكن ليقضي الله) ليمضي الله (أمرا كان مفعولا) كائنا بالنصرة والغنيمة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والقتل والهزيمة لابي جهل وأصحابه (ليهلك من هلك) يقول ليهلك على الكفر من أراد الله ان يهلك (عن بينة) بعد البيان بالنصرة لمحمد عليه السلام ويحيي ويثبت على الايمان (من حي) من أراد الله ان يثبت (عن بينة) بعد البيان بالنصرة لمحمد صلى الله عليه وسلم ويقال ليهلك ليكفر من هلك من أراد الله ان يكفر عن بينة بعد البيان بالنصرة لمحمد

لازمة لانك تقول في المستقبل يحيي والادغام أكثر استعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر اسلام من أسلم ايضا عن يقين وعلم بانه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك ان وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين وان العير كانت أسفل منهم مع انهم قد علموا ذلك كله مشاهدة ليعلم الخلق ان النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والاسباب بل بالله تعالى وذلك ان العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضا لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الارجل ولا يمشي فيها الا بتعب ومشقة وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعدتهم وقلة المسلمين وضعفهم ثم كان (وان الله لسميع) لاقوالهم (عليم) بكفر من كفر وعقابه وبايمان من آمن وثوابه (اذ يريكهم الله) نصب باضمار اذكر أو هو متعلق بقوله لسميع عليم أي يعلم المصالح اذ يقللهم في عينك (في منامك قليلا) أي في رؤياك وذلك ان الله تعالى أراه اياهم في رؤياه قليلا فاخبر بذلك أصحابه فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوهم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) لجبنتم وهبتم الاقدام (ولتنازعتم في الامر) أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار (ولكن الله سلم) عصم وأنعم بالسلامة من الفشل (سلمكم)

مفعولا والمعنى ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وايمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والاسلام والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة أو من هذا حاله في علم الله وقضائه * وقرئ ليهلك بالفتح * وقرأ ابن كثير ونافع وابو بكر ويعقوب من حيي بفك الادغام للحمل على المستقبل ﴿ وان الله لسميع عليم ﴾ بكفر من كفر وعقابه وايمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الامرين على القول والاعتقاد ﴿ اذ يريكهم الله في منامك قليلا ﴾ مقدر باذكر أو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح اذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو ان تخبر به اصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم ﴿ ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ﴾ لجبنتم ﴿ ولتنازعتم في الامر ﴾ امر القتال وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار ﴿ ولكن الله سلم

معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك لان الهلاك هو الكفر والحياة هي الايمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدي من اهتدى على بينة ﴿ وان الله لسميع عليم ﴾ يعني يسمع دعاءكم ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية * قوله عز وجل ﴿ اذ يريكهم الله ﴾ يعني واذكر يا محمد نعمة الله عليك اذ يريك المشركين ﴿ في منامك ﴾ يعني في نومك ﴿ قليلا ﴾ قال مجاهد أراهم الله في منامه قليلا فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتا وقال محمد بن اسحق فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم وقيل لما أرى الله النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في منامه قليلا فاخبر بذلك أصحابه قالوا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق فصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت في اليقظة والمراد من المنام العين لانها موضع النوم ﴿ ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ﴾ يعني لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكهم كثيرا فذكرت ذلك لاصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم ﴿ ولتنازعتم في الامر ﴾ يعني اختلفتم في أمر الاقدام عليهم أو الاحجام عنهم وقيل معنى التنازع في الامر الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد الى ناحية والمعنى لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ﴿ ولكن الله سلم ﴾ يعني ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم وقيل معناه ولكن الله

صلى الله عليه وسلم ويؤمن من أراد الله ان يؤمن من بعد البيان (وان الله لسميع) لدعائكم (عليم) باجابتكم ونصرتكم (اذ يريكهم الله في منامك) يا محمد قبل يوم بدر (قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) لجبنتم (ولتنازعتم في الامر) لاختلفتم في أمر الحرب (ولكن الله سلم) قضى

والتنازع والاختلاف (انه عليم بذات الصدور) بعلم ماسيكون فيهما من الجراءة والجبن والصبر والجزع (واذ يريكموهم) الضميران مفعولان أى واذ يبصركم اياهم (اذ التقيتم) وقت اللقاء (فى أعينكم قليلا) هو نصب على الحال وانما قللهم فى أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم و ليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا و يثبتوا قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبى أتراهم سبعين قال أراهم مائة وكانوا ألفا (ويقللكم فى أعينهم) حتى قال قائل منهم انما هم أكلة جزور قيل قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيها بعده ليجترؤا عليهم قلة مبالاة بهم ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ويجوز أن يبصروا الكثير قليلا بان يستر الله بعضهم بساتر او يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير كما أحدث فى أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين قيل لبعضهم ان الاحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك واحد فقال مالى لا أرى هذين الديكين أربعة (ليقضى الله أمرا كان مفعولا

انهم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿انه عليم بذات الصدور﴾ يعلم ماسيكون فيها وما يغير من احوالها ﴿واذ يريكموهم اذ التقيتم فى اعينكم قليلا﴾ الضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثانى وانما قللهم فى اعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه لمن الى جنبه أتراهم سبعين فقال اراهم مائة تثبيتا لهم وتصديقا لرؤيا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ويقللكم فى أعينهم﴾ حتى قال ابو جهل ان محمدا واصحابه أكلة جزور وقللهم فى اعينهم قبل التحام القتال ليجترؤا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة فان البصر وان كان قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا على هذا الوجه ولا الى هذا الحد وانما يتصور ذلك بصد الله الابصار عن ابصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشروط ﴿ليقضى الله امرا كان مفعولا﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلل به أو لان المراد بالامر

سلمكم من الهزيمة والفشل ﴿انه عليم بذات الصدور﴾ يعنى انه تعالى يعلم ما يحصل فى الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه أنه عليم بما فى صدوركم من الحب لله عز وجل ﴿واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين فى أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا فى القتال ليتأكد فى اليقظة ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة فاسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال كنا ألفا ﴿ويقللكم فى أعينهم﴾ يعنى ويقللكم يامعشر المؤمنين فى أعين المشركين قال السدى قال ناس من المشركين ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل الآن اذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم انما محمد وأصحابه أكلة جزور يعنى لقلتهم فى عينيه ثم قال فلا تقتلوهم واربطوهم فى الحبال يقوله من القدرة التى فى نفسه والحكمة فى تقليل المشركين فى أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليهم ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة فى تقليل المؤمنين فى أعين المشركين لئلا يهربوا واذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين عليهم فان قلت كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل قلت ذلك ممكن فى القدرة الالهية فان الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك ﴿ليقضى الله أمرا كان مفعولا﴾ يعنى أمرا كائنا من اعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله واذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فان قلت قد قال فى الآية المتقدمة ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا وقال فى هذه الآية ليقضى الله أمرا كان مفعولا

(انه عليم بذات الصدور) بما فى القلوب (واذ يريكموهم) يوم بدر (اذ التقيتم) لقيتم (فى أعينكم قليلا) حتى أجرأكم عليهم (ويقللكم فى أعينهم) حتى اجترؤا عليكم (ليقضى الله أمرا) ليمضى الله أمرا بالنصرة والغنيمة لمحمد عليه السلام وأصحابه والقتل والهزيمة لابى جهل وأصحابه (كان مفعولا) كائنا

والى الله ترجع الامور) فيحكم فيها بما يريد ترجع شامي وحمزة وعلي (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة) اذا حاربتم جماعة

من الكفار وترك وصفها لان المؤمنين ما كانوا يلقون الا الكفار واللقاء اسم غالب

للقتال (فاثبتوا) لقتالهم ولا تفروا (واذكروا الله كثيرا) في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم (لعلكم تفلحون) تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه اشعار بان على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبا وأكثر ما يكون هما وان تكون نفسه مجتمعة لذلك وان كانت متوزعة عن غيره (وأطيعوا الله ورسوله) في الامر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما (ولا تنازعوا فتفشلوا) فتجبنوا وهو منصوب باضمار ان ويدل عليه (وتذهب ريحكم) أي دولتكم يقال هبت رياح فلان اذا دالت له الدولة ونفذ أمره شبهت في نفوذ

(والى الله ترجع الامور) عواقب الامور في الآخرة (يا أيها الذين آمنوا) يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (اذا لقيتم فئة) جماعة من الكفار يوم بدر (فاثبتوا) مع نبيكم في الحرب (واذكروا الله كثيرا) بالقلب واللسان بالتهليل والتكبير (لعلكم تفلحون) لكي تنجوا من السخط والعذاب وتنصروا (وأطيعوا الله ورسوله) في أمر الحرب (ولا تنازعوا) لا تختلفوا في أمر الحرب (فتفشلوا) فتجبنوا (وتذهب ريحكم) شدتكم والريح النصرة (وقال)

ثمة الاكتفاء على الوجه المحكي وههنا اعزاز الاسلام واهله واذلال الشرك وحزبه ﴿ والى الله ترجع الامور يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة ﴾ حاربتم جماعة ولم يصفها لان المؤمنين ما كانوا يلقون الا الكفار واللقاء مما غلب في القتال ﴿ فاثبتوا ﴾ للقائهم ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهرين بذكره مترقبين لنصره ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على ان العبد ينبغي ان لا يشغله شيء عن ذكر الله وان يلتجيء اليه عند الشدائد ويقبل عليه بشراشره فارغ البال واثقا بان لطفه لا ينفك عنه في شيء من الاحوال ﴿ واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر واحد ﴿ فتفشلوا ﴾ جواب النهي وقيل عطف عليه ولذلك قرئ ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ بالجزم والريح مستعارة

فما معنى هذا التكرار قلت المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره في هذه الآية لانه تعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضا للحكمة التي تضاهيها فلذلك قال ليقضي الله أمرا كان مفعولا ﴿ والى الله ترجع الامور ﴾ يعني في الآخرة فيجازي كل عامل على قدر عمله فالمحسن باحسانه والمسيء باساءته أو يغفر ﴿ قوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة ﴾ يعني جماعة كافرة ﴿ فاثبتوا ﴾ يعني لقتالهم وهو أن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولي ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ يعني كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكرا كثيرا بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بان يذكروه في أشد الاحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله وفيه تنبيه على أن الانسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله وقيل المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال تعالى ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ يعني وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر فان قلت ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم انها ناسخة لآية التحرف والتحيز قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدا لذلك ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ يعني في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾ يعني ولا تختلفوا فان التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن ﴿ قوله عز وجل ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ يعني قوتكم وقال مجاهد نصرتكم قال وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم احد وقال السدي جراءتكم وجدكم

للدولة من حيث انها فى تمشى امرها ونفاذه مشبهة بها فى هبوبها ونفوذها وقيل المراد بها الحقيقة فان النصرة لاتكون الا بريح يبعثها الله وفى الحديث نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور ﴿ واصبروا أن الله مع الصابرين ﴾ بالكلاءة والنصر ﴿ ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ يعنى اهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿ بطرا ﴾ فخرا وأشرا ﴿ ورئاء الناس ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك انهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول ابى سفيان ان ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال ابو جهل لا والله حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وتعزف علينا القينات ونطعم بها من حضرنا من العرب فوافوها ولكن سقوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح فنهى المؤمنين ان يكونوا امثالهم بطرين مرائين وامرهم بان يكونوا أهل التقوى والاخلاص من حيث ان النهى عن الشئ امر بضده ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ معطوف على بطرا ان جعل مصدرا فى موضع

وقال مقاتل حدتكم وقال الاخفش وأبو عبيدة دولتكم والريح هنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هى ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود * قوله سبحانه وتعالى ﴿ واصبروا ﴾ يعنى عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم ﴿ ان الله مع الصابرين ﴾ يعنى بالنصر والمعونة (ق) عن عبد الله بن أبى أوفى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا * قوله عز وجل ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ﴾ يعنى فخرا واشرا وقيل البطر الطغيان فى النعمة وذلك أن النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها فى المفاخرة على الاقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها فى غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر فى النعمة وان صرفها فى طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان فى النعمة وترك شكرها ﴿ ورئاء الناس ﴾ الرياء اظهار الجميل ليراه الناس مع ابطان القبيح والفرق بين الرياء والنفاق ان النفاق اظهار الايمان مع ابطان الكفر والرياء اظهار الطاعة مع ابطان المعصية ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ يعنى ويمنعون الناس عن الدخول فى دين الله نزلت هذه الآية فى كفار قريش حين خرجوا الى بدر ولهم فخر وبغى

أمرها وتمشيته بالريح وهبوبها وقيل لم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله وفى الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (واصبروا) فى القتال مع العدو وغيره (ان الله مع الصابرين) أى معينهم وحافظهم (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس) هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير فأتاهم رسول أبى سفيان ان ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبى أبو جهل وقال حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتعزف علينا القيان ونطعم بها العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس باطعامهم فوافوها فسقوا كؤس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين باعمالهم وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله مخلصين أعمالهم لله والبطر ان تشغله كثرة النعمة عن شكرها (ويصدون عن سبيل الله) دين الله

(واصبروا) فى القتال مع نبيكم (ان الله مع الصابرين) معين الصابرين فى الحرب (ولاتكونوا) فى المعصية (كالذين خرجوا من ديارهم) مكة (بطرا) أشرا (ورئاء الناس) سمعة الناس (ويصدون عن سبيل الله) عن دين الله وطاعته

الحال وكذا ان جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر ﴿ والله بما تعملون محيط ﴾ فيجازيكم عليه ﴿ واذ زين لهم الشيطان ﴾ مقدر باذكر ﴿ اعمالهم ﴾ فى معاداة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وغيرها بأن وسوس اليهم ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم ﴾ مقالة نفسانية والمعنى انه التى فى روعهم وخيل اليهم انهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم واوهمهم ان اتباعهم اياه فيما يظنون انها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر اهدى الفئتين وافضل الدينين ولكم خبر لا غالب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى به قال ابن عباس ان أبا سفيان لما رأى انه قد أحرز عيره أرسل الى قريش انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرا وكان فى بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق فى كل عام قال فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا وازادغيره قال فلما وافوا بدرا سقوا كؤس الحمام عوضا عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا امثالهم والمعنى لا يكون أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس ما عند الناس ولكن أخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا احسبة فى نصر دينكم وموازرة نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا تعملوا الا لذلك ولا تطلبوا غيره * قوله تعالى ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ فيه وعيد وتهديد يعنى انه تعالى عالم بجميع الاشياء لا يخفى عن علمه شئ لانه محيط بأعمال العباد كلها فيجازى المحسنين ويعاقب المسيئين * قوله سبحانه وتعالى ﴿ واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ يعنى اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم اذ زين الشيطان يريد ابليس للمشركين أعمالهم الخبيثة ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم ﴾ قال بعضهم كان تزيينه وسوسة ألقاها فى قلوبهم من غير أن يتحول فى صورة غير صورته وقال جمهور المفسرين تصور ابليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه ان قريشا لما أجمعت على المسير الى بدر ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكان من أشراف بنى كنانة فقال أنا جار لكم من أن يأتيكم من كنانة شئ تكرهونه فخرجوا سراعا وقال ابن عباس جاء ابليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه رايته فى صورة رجل من رجال بنى مدلج سراقة بن مالك بن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل جبريل عليه السلام الى ابليس لعنه الله فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع ابليس يده ثم ولى مدبرا وشيعته فقال الرجل يا سراقة أتزعم انك جار لنا فقال انى أرى ما لا ترون انى أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة

(والله بما يعملون محيط) عالم وهو وعيد (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس) واذكر اذ زين لهم الشيطان أعمالهم التى عملوها فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسوس اليهم انهم لا يغلبون وغالب مبنى نحو لا رجل ولكم فى موضع رفع خبر لا تقديره لا غالب كائن لكم (وانى جار لكم) أى

(والله بما يعملون) فى الخروج على النبى صلى الله عليه وسلم والحرب (محيط) عالم (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم) ابليس خروجهم (وقال لا غالب لكم) عليكم (اليوم من الناس) محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (وانى جار لكم) معين لكم

أوصفته وليس صلته والالانتصب كقولك لاضاربازيداعندنا ﴿ فلماتراءت الفئتان ﴾ أى تلاقى الفريقان ﴿ نكص على عقبيه ﴾ رجع القهقرى أى بطل كيده وعاد ماخيل اليهم انه مجيرهم سبب هلاكهم ﴿ وقال انى برئ منكم انى أرى مالا ترون انى اخاف الله ﴾ أى تبرأ منهم وخاف عليهم وايس من حالهم لما رأى امداد الله المسلمين بالملائكة وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت مابينهم وبين كنانة من الاحنة وكان ذلك يثنيهم فتمثل لهم ابليس بصورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لاغالب لكم اليوم وانى مجيركم من بنى كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده فى يد الحارث بن هشام فقال له الى اين اتخذلنا فى هذه الحالة فقال انى ارى مالا ترون ودفع فى صدر الحارث وانطلق وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما اسلموا علموا انه الشيطان وعلى هذا يحتمل ان يكون معنى قوله انى اخاف الله انى اخافه ان يصيبنى مكروها من الملائكة أو يهلكنى ويكون الوقت هو الوقت الموعود اذ رأى مالم يرقبله والاول ماقاله الحسن واختاره ابن بحر ﴿ والله شديد العقاب ﴾

وقوله انى جار لكم يعنى مجير لكم من كنانة ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ أى التقى الجمعان رأى ابليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله ابليس انه لا طاقة له بهم ﴿ نكص على عقبيه وقال انى برىء منكم ﴾ يعنى رجع القهقرى وولى مدبرا هاربا على قفاه وقال الكلبى لما التقى الجمعان كان ابليس فى صف المشركين على صورة سراقة بن مالك ابن جعشم وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله ابليس على عقبيه فقال له الحرث أفرارا من غير قتال وجعل يمسكه فدفع فى صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال بلغنى انكم تقولون انى هزمت الناس فوالله ماشعرت بمسيركم حتى بلغنى هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا وكذا فحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطانا قال الحسن فى قوله ﴿ انى أرى مالا ترون ﴾ قال رأى ابليس جبريل عليه السلام معتجرا ببرد يمشى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يده اللجام يقود الفرس ماركب وقال قتادة قال ابليس انى أرى مالا ترون وصدق وقال انى أخاف الله وكذب مابه مخافة الله ولكن علم انه لا قوة له ولا منعة فاوردهم وأسلمهم وتلك عادة عدو الله ابليس لمن أطاعه اذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل انه خاف أن يهلك فيمن هلك وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطعوه وقيل معناه ﴿ انى أخاف الله ﴾ أعلم صدق وعده لاوليائه لانه كان على ثقة من أمر ربه وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من السماء خاف أن تكون القيامة ﴿ والله شديد العقاب ﴾ قيل معناه انى أخاف الله لانه شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول ابليس وقيل تم كلامه عند قوله انى أخاف الله وقوله تعالى والله شديد العقاب ابتداء كلام يقول الله سبحانه وتعالى والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به * عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن

(نكص) الشيطان هاربا (على عقبيه) أى رجع القهقرى (وقال انى برئ منكم) أى رجعت عما ضمنت لكم من الامان روى ان ابليس تمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم فى جند من الشياطين معه راية فلما رأى الملائكة تنزل نكص فقال له الحرث ابن هشام أتخذلنا فى هذه الحالة فقال (انى أرى مالا ترون) أى الملائكة وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا انه الشيطان (انى أخاف الله) أى عقوبته (والله شديد العقاب)

(فلما تراءت الفئتان) الجمعان جمع المؤمنين وجمع الكافرين ورأى ابليس جبريل مع الملائكة (نكص على عقبيه) رجع الى خلفه (وقال) لهم (انى برئ منكم) ومن قتالكم (انى أرى مالا ترون) أرى جبريل ولم تروه (انى أخاف الله والله شديد العقاب) اذا عاقب خاف ان يأخذه جبريل فيعرفه اليهم

يجوز ان يكون من كلامه وان يكون مستأنفا ﴿ اذيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ والذين لم يطمئنوا الى الايمان بعد وبقى فى قلوبهم شبهة وقيل هم المشركون وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين ﴿ غر هؤلاء ﴾ يعنون المؤمنين ﴿ دينهم ﴾ حين تعرضوا لما لايدى لهم به فخرجوا و هم ثلاثمائة وبضعة عشر الى زهاء الف ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ جواب لهم ﴿ فان الله عزيز ﴾ غالب لايذل من استجار به وان قل ﴿ حكيم ﴾ يفعل بحكمته البالغة مايستبعده العقل ويعجز عن ادراكه ﴿ ولو ترى ﴾ ولو رأيت فان لو تجعل المضارع ماضيا عكس ان ﴿ اذيتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ ببدر واذ ظرف ترى والمفعول محذوف أى ولو ترى الكفرة أو حالهم حينئذ والملائكة فاعل يتوفى ويدل عليه قراءة ابن عامر بالتاء ويجوز ان يكون الفاعل ضمير الله عزوجل وهو مبتدأ خبره

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مارؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولاأدحر ولاأحقر ولاأغيظ منه فى يوم عرفة وماذاك الالمايرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام الامارأى يوم بدر فانه قدرأى جبريل يزع الملائكة أخرجه مالك فى الموطأ * قوله ولاأدحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور وهو الابعاد والطرد مع الاهانة وقوله يزع الملائكة أى يكفهم ويحبسهم لئلا يتقدم بعضهم على بعض والوازع هو الذى يتقدم ويتأخر فى الصف ليصلحه * فان قلت كيف يقدر ابليس على أن يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا * قلت ان الله عزوجل أعطاه قوة وأقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة * قوله عزوجل ﴿ اذيقول المنافقون ﴾ يعنى من أهل المدينة ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقو الاسلام فى قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ يعنى ان هؤلاء نفر قليلون يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الاسلام على ذلك وحملهم على قتل أنفسهم رجاء الثواب فى الآخرة فقتلوا جميعا يوم بدر وقال مجاهد ان فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس ابن الفاكه بن المغيرة والحرث بن زمعة بن الاسود بن المطلب وعلى بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ يعنى ومن يسلم أمره الى الله ويثق بفضله ويعول على احسانه ﴿ فان الله ﴾ حافظه وناصره لانه ﴿ عزيز ﴾ لايغلبه شئ ﴿ حكيم ﴾ فيما قضى وحكم فيوصل الثواب الى أوليائه والعقاب الى أعدائه * قوله عزوجل ﴿ ولو ترى اذيتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ يعنى ولو عاينت يا محمد وشاهدت اذتقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت أمرا عظيما ومنظرا فظيعا وعذابا شديدا ينالهم فى

أو أريد والذين هم على حرف ليسوا ثابتى الاقدام فى الاسلام (غر هؤلاء دينهم) يعنون ان المسلمين اغتروا بدينهم فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر الى زهاء ألف ثم قال جوابا لهم (ومن يتوكل على الله) يكل اليه أمره (فان الله عزيز) غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى (حكيم) لايسوى بين وليه وعدوه (ولو ترى) ولو عاينت وشاهدت لان لو ترد المضارع الى معنى الماضى كما ترد ان الماضى الى معنى الاستقبال (اذ) نصب على الظرف (يتوفى الذين كفروا) بقبض أرواحهم (الملائكة)

فلا يطيعوه بعد ذلك (اذيقول المنافقون) الذين ارتدوا ببدر) والذين فى قلوبهم مرض) شك وخلاف وسائر الكفار (غر هؤلاء) محمد عليه السلام وأصحابه (دينهم) توحيدهم (ومن يتوكل على الله) فى النصرة (فان الله عزيز) بالنقمة من أعدائه (حكيم) بالنصرة لمن توكل عليه كما نصر نبيه صلى الله عليه وسلم يوم بدر (ولو ترى) لو رأيت يا محمد (اذيتوفى الذين كفروا) يقبض أرواحهم (الملائكة)

فاعل (يضربون) حال منهم (وجوههم) اذا أقبلوا (وأدبارهم) ظهورهم واستاههم اذا أدبروا أو وجوههم عند الاقدام وأدبارهم عند الانهزام وقيل في يتوفى ضمير الله تعالى

والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر والاول الوجه لان الكفار لا يستحقون أن يكون الله متوفيهم بلا واسطة دليله قراءة ابن عامر تتوفى بالتاء (وذوقوا) ويقولون لهم ذوقوا معطوف على يضربون (عذاب الحريق) أي مقدمة عذاب النار أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به او يقال لهم يوم القيامة ذوقوا وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا فظيعا (ذلك بما قدمت أيديكم) أي كسبت وهو رد على الجبرية وهو من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره (وأن الله) عطف عليه أي ذلك العذاب بسببين بسبب كفركم ومعاصيكم وبان الله (ليس بظلام للعبيد) لان تعذيب الكفار من العدل وقيل ظلام للتكثير لاجل العبيد أو لنفي أنواع الظلم الكائن في (كدأب آل فرعون) في محل الرفع أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي

﴿يضربون وجوههم﴾ والجملة حال من الذين كفروا واستغنى فيه بالضمير عن الواو وهو على الاول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين ﴿وادبارهم﴾ ظهورهم واستاههم ولعل المراد تعميم الضرب أي يضربون ما اقبل منهم وما ادبر ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ عطف على يضربون باضمار القول أي ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها وجواب لو محذوف لتفظيع الامر وتهويله ﴿ذلك﴾ الضرب والعذاب ﴿بما قدمت أيديكم﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي وهو خبر لذلك ﴿وان الله ليس بظلام للعبيد﴾ عطف على ما للدلالة على ان السببية مقيدة بانضمامه اليه اذ لولاه لامكن ان يعذبهم بغير ذنوبهم لا ان لا يعذبهم بذنوبهم فان ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفي الظلم سببا للتعذيب وظلام للتكثير لاجل العبيد ﴿كدأب آل فرعون﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل

ذلك الوقت ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ اختلفوا في وقت هذا الضرب فقيل هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار وقيل ان الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم وقال ابن عباس كان المشركون اذا أقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف واذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم وقال ابن جريج يريد ما أقبل من أجسادهم وأدبر يعني يضربون جميع أجسادهم ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ يعني وتقول لهم الملائكة عند القتل ذوقوا عذاب الحريق قيل كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق ﴿ذلك﴾ يعني الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق ﴿بما قدمت أيديكم﴾ يعني انما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصي فان قلت اليد ليست محلا للكفر وانما محله القلب لان الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضي ان فاعل هذا الكفر هي اليد وذلك ممتنع قلت اليد هنا عبارة عن القدرة لان اليد آلة العمل والقدرة هي المؤثرة في العمل فاليد كناية عن القدرة * وقوله عز وجل ﴿وان الله ليس بظلام للعبيد﴾ يعني انه سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا من خلقه الا بجرم اجترمه لانه لا يظلم أحدا من خلقه وانما نفى الظلم عن نفسه مع انه يعذب الكافر على كفره والعاصي على عصيانه لانه يتصرف في ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم اليه فلا يتوهم متوهم انه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وان الله ليس بظلام للعبيد لانهم في ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء * قوله عز وجل ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعني ان عادة هؤلاء

يوم بدر (يضربون وجوههم) على وجوههم (وأدبارهم) على ظهورهم (وذوقوا عذاب الحريق) الشديد (ذلك) العذاب (بما قدمت) عملت (ايديكم) (قا و خا ٨ لث) في الشرك (وان الله ليس بظلام للعبيد) ان يأخذهم بلا جرم

داوموا عليه (والذين من قبلهم) من قبل قريش أو من قبل آل فرعون (كفروا) تفسير لدأب آل فرعون (بآيات الله فاخذهم الله بذنوبهم ان الله قوى شديد العقاب) والمعنى جروا على عادتهم فى التكذيب فاجرى عليهم مثل مافعل بهم فى التعذيب (ذلك) العذاب أو الانتقام (بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) بسبب ان الله لم يصح فى حكمته ان يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال نعم لم يكن لآل فرعون ومشركى مكة حال مرضية فيغيروها الى حال مسخوطة لكن لما تغيرت الحال المرضية الى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة الى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول اليهم كفرة عبدة أصنام فلما بعث اليهم بالآيات فكذبوه وسعوا فى اراقة دمه غيروا حالهم الى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الامهال وعاجلهم بالعذاب (وأن الله سميع) لما يقول مكذبوا الرسل (عليم) بما يفعلون (كدأب آل فرعون) تكرير للتأكيد أولان فى الاولى الاخذ بالذنوب بلا بيان ذلك وهنا بين ان ذلك هو الاهلاك والاستئصال (والذين من قبلهم

فرعون وهو عملهم وطريقهم الذى دأبوا فيه أى داموا عليه ﴿والذين من قبلهم﴾ من قبل آل فرعون ﴿كفروا بآيات الله﴾ تفسير لدأبهم ﴿فاخذهم الله بذنوبهم﴾ كما اخذ هؤلاء ﴿ان الله قوى شديد العقاب﴾ لايغلبه فى دفعه شئ ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماحل بهم ﴿بان الله﴾ بسبب ان الله ﴿لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم﴾ مبدلا اياها بالنقمة ﴿حتى يغيروا مابانفسهم﴾ يبدلوا مابهم من حال الى حال اسوأ كتغيير قريش حالهم فى صلة الرحم والكف عن تعريض الآيات والرسل بمعاداة الرسول ومن تبعه منهم والسعى فى اراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها الى غير ذلك مما احدثوه بعد المبعث وليس السبب عدم تغيير الله ما انعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ماهو المفهوم له وهو جرى عادته تعالى على تغييره متى يغيروا حالهم واصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفا ﴿وان الله سميع﴾ لما يقولون ﴿عليم﴾ بما يفعلون ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم

الكفار فى كفرهم كعادة آل فرعون فى كفرهم فجوزى هؤلاء بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزى آل فرعون بالاغراق وأصل الدأب فى اللغة ادامة العمل يقال فلان يدأب فى كذا وكذا يداوم عليه ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأبا لان الانسان يداوم على عادته ويواظب عليها قال ابن عباس معناه ان آل فرعون أيقنوا ان موسى عليه السلام نبى من الله تعالى فكذبوه فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق كذبوه فانزل الله بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون ﴿والذين من قبلهم﴾ يعنى من قبل آل فرعون ﴿كفروا بآيات الله﴾ يعنى ان عادة الامم السالفة هو كفرهم بآيات الله ﴿فاخذهم الله بذنوبهم﴾ يعنى بسبب كفرهم وذنوبهم ﴿ان الله قوى﴾ يعنى فى أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله ﴿شديد العقاب﴾ يعنى لمن كفر به وكذب رسله ﴿ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بان أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث اليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فقابلوا هذه النعمة بان تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وغيروا مابانفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدى نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى الى الانصار ﴿وان الله سميع﴾ يعنى لاقوال خلقه لايخفى عليه شئ من كلامهم ﴿عليم﴾ يعنى بما فى صدورهم من خير وشر فيجازى كل واحد على عمله ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعنى ان هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون ﴿والذين من قبلهم

(كدأب آل فرعون) كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كفروا بآيات الله) بكتاب الله ورسوله يقول كفار مكة كفروا بمحمد عليه السلام والقرآن كما كفر فرعون وقومه والذين من قبلهم بالكتب والرسل (فاخذهم الله بذنوبهم) بتكذيبهم (كذبوا) (ان الله قوى) بالاخذ (شديد العقاب) اذا عاقب (ذلك) العقوبة بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم) بالكتاب والرسول والامن (حتى يغيروا ما بأنفسهم) بترك الشكر (وان الله سميع) بدعائكم (عليم) باجابتكم (كدأب آل فرعون) كصنيع آل فرعون (والذين

كذبوا بآيات ربهم فاهلكناهم بذنوبهم واغرقنا آل فرعون﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله بآيات ربهم وبيان ما اخذ به آل فرعون وقيل الاول لتشبيه الكفر والاخذ به والثانى لتشبيه التغيير فى النعمة بسبب تغييرهم ما بانفسهم ﴿وكل﴾ من الفرق المكذبة أو من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كانوا ظالمين﴾ انفسهم بالكفر والمعاصى ﴿ان شر الدواب عند الله الذين كفروا﴾ اصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فهم لا يؤمنون﴾ فلا يتوقع منهم ايمان ولعله اخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بانهم لا يؤمنون والفاء للعطف والتنبيه على ان تحقق المعطوف عليه يستدعى تحقق المعطوف وقوله ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة﴾ بدل من الذين كفروا بدل البعض للبيان والتخصيص وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان لا يمالئوا عليه فاعانوا المشركين بالسلاح وقالوا نسينا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤهم عليه يوم الخندق وركب كعب بن الاشرف الى مكة فحالفهم ومن لتضمن المعاهدة معنى الاخذ والمراد بالمرة مرة المعاهدة أو المحاربة ﴿وهم لا يتقون﴾ سبة الغدر ومغبته

كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم﴾ يعنى اهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف ﴿وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾ يعنى الاولين والاخرين فان قلت ما الفائدة فى تكرير هذه الآية مرة ثانية قلت فيها فوائد منها ان الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الاول لان الآية الاولى فيها ذكر أخذهم وفى الآية الثانية ذكر اغراقهم فهذه تفسير للاولى الفائدة الثانية انه ذكر فى الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية انهم كذبوا بآيات ربهم ففى الآية الاولى اشارة الى انهم أنكروا آيات الله وجحدوها وفى الآية الثانية اشارة الى انهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها الفائدة الثالثة ان تكرير هذه القصة للتأكيد وفى قوله كذبوا بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفى ذكر الاغراق بيان للاخذ بالذنوب * قوله عز وجل ﴿ان شر الدواب عند الله﴾ يعنى فى علمه وحكمه ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ والمعنى ان شر الدواب من الانس الكفار المصرون على الكفر نزلت فى يهود بنى قريظة رهط كعب بن الاشرف ﴿الذين عاهدت منهم﴾ قيل من صلة يعنى الذين عاهدتهم وقيل هى للتبعيض لان المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والاشراف ﴿ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة﴾ قال المفسرون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاهد يهود بنى قريظة ان لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا ومالؤا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الاشرف الى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وهم لا يتقون﴾ يعنى انهم لا يخافون الله

(فاهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون) بماء البحر (وكل) وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا ظالمين) أنفسهم بالكفر والمعاصى (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) أى أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الايمان (الذين عاهدت منهم) بدل من الذين كفروا اى الذين عاهدتهم من الذين كفروا او جعلهم شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون وشر المصرين الناكثون للعهود (ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) فى كل معاهدة (وهم لا يتقون) لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه

من قبلهم كذبوا بآيات ربهم) بالكتب والرسل كما كذب أهل مكة (فاهلكناهم بذنوبهم) بتكذيبهم (وأغرقنا آل فرعون) وقومه (وكل) كل هؤلاء (كانوا ظالمين) كافرين (ان شر الدواب) الخلق والخليقة (عند الله الذين كفروا) بنو قريظة وغيرهم (فهم لا يؤمنون) بمحمد عليه السلام والقرآن ثم

منهم بينهم فقال (الذين عاهدت) معهم مع بنى قريظة (ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) حين (وهم لا يتقون) عن نقض العهد

في الحرب) فاما تصادفنهم وتظفرن بهم (فشرد بهم من خلفهم) ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم وقال الزجاج افعل بهم ما تفرق به جمعهم وتطرد به من عداهم (لعلهم يذكرون) لعل المشردين من ورائهم يتعظون (واما تخافن من قوم) معاهدين (خيانة) نكثا بأمارات تلوح لك (فانبذ اليهم) فاطرح اليهم العهد (على سواء) على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد وهو حال من النابذ والمنبوذ اليهم أى حاصلين على استواء في العلم (ان الله لا يحب الخائنين)

(فاما تثقفنهم) تأسرنهم (في الحرب فشرد بهم فنكل بهم (من خلفهم) لكي يكونوا عبرة لمن خلفهم (لعلهم يذكرون) يتعظون فيجتنبون نقض العهد (واما تخافن) تعلمن (من قوم) من بني قريظة (خيانة) بنقض العهد (فانبذ اليهم على سواء) فنابذهم على بيان (ان الله لا يحب الخائنين) بنقض العهد وغيره من بني قريظة وغيرهم

أولا يتقون الله فيه أو نصره للمؤمنين وتسليطه عليهم ﴿ فاما تثقفنهم ﴾ فاما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿ في الحرب فشرد بهم ﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿ من خلفهم ﴾ من وراءهم من الكفرة والتشريد تفريق على اضطراب *وقرئ شرذ بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر ومن خلفهم والمعنى واحد فانه اذا شرد من وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ لعل المشردين يتعظون ﴿ واما تخافن من قوم ﴾ معاهدين ﴿ خيانة ﴾ نقض عهد بامارات تلوح لك ﴿ فانبذ اليهم ﴾ فاطرح اليهم عهدهم ﴿ على سواء ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تناجزهم في الحرب فانه يكون خيانة منك أو على سواء في الخوف أو العلم بنقض العهد وهو في موضع الحال من النابذ على الوجه الاول أى ثابتا على طريق سوى او منه أو من المنبوذ اليهم أو منهما على غيره وقوله ﴿ ان الله لا يحب الخائنين ﴾ تعليل الامر بالنبذ والنهى عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف

في نقض العهد لان عادة من يرجع الى دين وعقل وحزم ان يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس الى قوله ويثقون بكلامه فبين الله عز وجل ان من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب ﴿ فاما تثقفنهم في الحرب ﴾ يعني فاما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم في الحرب ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم وقال سعيد بن جبير أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد في اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية انك اذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يعني لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد ﴿ واما تخافن ﴾ يعني واما تعلمن يا محمد ﴿ من قوم ﴾ يعني معاهدين ﴿ خيانة ﴾ يعني نقضا للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بني قريظة والنضير ﴿ فانبذ ﴾ أى فاطرح ﴿ اليهم ﴾ يعني عهدهم وارم به اليهم ﴿ على سواء ﴾ يعني على طريق ظاهر مستو يعني أعلمهم قبل حربك اياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون انك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم ﴿ ان الله لا يحب الخائنين ﴾ يعني في نقض العهد عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا فاذا هو عمرو ابن عنبسة فأرسل اليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة

الناقضين للعهود (ولا يحسبن) بالياء وفتح السين شامي وحمزة ويزيد وحفص وبالتاء وفتح السين أبو بكر وبالتاء وكسر السين غيرهم (الذين كفروا سبقوا) فاتوا وأفلتوا من ﴿٦١﴾ أن يظفر بهم (انهم لا يعجزون) انهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم أنهم شامي اى لانهم وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل غير ان المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح فمن قرأ بالتاء فالذين كفروا مفعول أول والثاني سبقوا ومن قرأ بالياء فالذين كفروا فاعل وسبقوا مفعول تقديره ان سبقوا فحذف ان وان مخففة من الثقيلة أي انهم سبقوا فسد مسد المفعولين أو يكون الفاعل مضمرا أي ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين ومن ادعى تفرد حمزة بالقراءة ففيه نظر لما بينا من عدم تفرده بها وعن الزهري انها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين (وأعدوا) أيها المؤمنون (لهم) لناقضي العهد أو لجميع الكفار (ما استطعتم من قوة) من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها وفي الحديث الا ان القوة الرمي قالها ثلاثا على المنبر وقيل هي

﴿ولا تحسبن﴾ خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وقوله ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ مفعولاه* وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بالياء على ان الفاعل ضمير احد أو من خلفهم او الذين كفروا والمفعول الاول انفسهم فحذف للتكرار أو على تقدير ان سبقوا وهو ضعيف لان ان المصدرية كالموصول فلا تحذف او على ايقاع الفعل على ﴿انهم لا يعجزون﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر وان لاصلة وسبقوا حال بمعنى سابقين أي مفلتين والاظهر انه تعليل للنهي أي لا تحسبنهم سبقوا فافلتوا لانهم لا يفوتون الله أو لا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم وكذا ان كسرت ان الا انه تعليل على سبيل الاستئناف ولعل الآية ازاحة لما يحذر به من نبذ العهد وايقاظ العدو وقيل نزلت فيمن افلت من فل المشركين ﴿واعدوا﴾ ايها المؤمنون ﴿لهم﴾ لناقضي العهد أو للكفار ﴿ما استطعتم من قوة﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب وعن عقبة بن عامر

وفيه جاء على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادنهم الامام من المشركين بامر ظاهر مستفيض استغنى الامام عن نبذ العهد واعلامهم بالحرب وان ظهرت الخيانة بامارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الامام ان ينبذ اليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لان قريظة كانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم اجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وباصحابه فههنا يجب على الامام ان ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للامام الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم باهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة * وقوله تعالى ﴿ولا تحسبن﴾ قرئ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى ولا تحسبن يا محمد ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ يعني فاتوا وانهزموا يوم بدر وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعني خلصوا من القتل والاسر يوم بدر ﴿انهم لا يعجزون﴾ يعني انهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم اما في الدنيا بالقتل واما في الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فاعلمه الله أنهم لا يعجزونه * قوله عز وجل ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ الاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة اليه وفي المراد بالقوة أقوال * أحدها أنها جميع أنواع الاسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم * الثاني انها الحصون والمعاقل * الثالث الرمي وقد جاءت مفسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا ان القوة الرمي ثلاثا أخرجه مسلم (خ) عن أبي اسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش اذا أكثبوكم

(ولا تحسبن) لا تظنن يا محمد (الذين كفروا) بني قريظة وغيرهم (سبقوا) فاتوا من عذابنا بما قالوا وصنعوا (انهم لا يعجزون) لا يفوتون من عذابنا (وأعدوا لهم) لبني قريظة وغيرهم (ما استطعتم من قوة)

سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر ألاان القوة الرمى قالها ثلاثا ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لانه اقواه ﴿ومن رباط الخيل﴾ اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعال بمعنى مفعول أومصدر سمى به يقال ربط ربطا ورباطا ورابط مرابطة ورباطا أو وجمع ربيط كفصيل وفصال *وقرئ ربط الخيل بضم الباء وسكونها

يعنى غشوكم وفى رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفى رواية اذا أكثبوكم فعليكم بالنبل (م) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم ان يلهو باسهمه (م) عن فقيم اللخمى قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم اعانه قال قلت وماذاك قال سمعته يقول من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا أوقد عصى عن ابى نجيح السلمى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بلغ بسهم فهو له درجة فى الجنة فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل محرر أخرجه النسائى والترمذى بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضا عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل ليدخلن بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى عمله الخير والرامى به والممد به وفى رواية ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمود الا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه أى نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمى بعد ماعلمه رغبة عنه فانها نعمة تركها أو كفرها أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذى مختصرا الى نبله (خ) عن سلمة بن الاكوع قال مر النبى صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون بالقوس فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارموا بنى اسمعيل فان أباكم كان راميا ارموا وأنا مع بنى فلان فامسك أحد الفريقين بايديهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم مالكم لا ترمون فقالوا كيف نرمى وأنت معهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارموا وأنا معكم كلكم *القول الرابع ان المراد بالقوة جميع مايتقوى به فى الحرب على العدو فكل ماهو آلة يستعان بها فى الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم الا ان القوة الرمى لاينفى كون غير الرمى من القوة فهو كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لاينفى اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور من افضل المقصود وأجله فكذا هنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال فى الحرب وجهاد العدو بجميع مايمكن من الآلات كالرمى بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به الا انه من فروض الكفايات * وقوله تعالى ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ يعنى اقتناءها وربطها للغزو فى سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمى المكان الذى يخص باقامة حفظه فيه رباطا والمرابطة اقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من أعظم مايستعان به

الحصون (ومن رباط الخيل) هو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله أو هو جمع ربيط كفصيل وفصال وخص الخيل من بين مايتقوى به كقوله جبريل

من سلاح (ومن رباط الخيل) من الخيل الروابط

جمع رباط وعطفها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة ﴿ ترهبون به ﴾ تخوفون به وعن يعقوب ترهبون به بالتشديد والضمير لما استطعتم أو للاعداد ﴿عدو الله وعدوكم ﴾ يعني كفار مكة

روى ان رجلا قال لابن سيرين ان فلانا أوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين يشترى به الخيل ويربطها في سبيل الله وقال عكرمة القوة الحصون ومن رباط الخيل يعني الاناث ووجه هذا ان العرب تربط الاناث من الخيل بالافنية للنسل وروى ان خالد بن الوليد كان لا يركب في القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابن محيريز قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند الشنات والغارات وقيل ربط الفحول أولى من الاناث لانها أقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة عليها أولى من الاناث وقيل ان لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والاناث فأى ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله (ق) عن عروة ابن الجعد البارقي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل في نواصيها الخير الى يوم القيامة (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل ثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فاما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله زاد في رواية لاهل الاسلام فاطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات ولو انها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يردان يسقيها كان ذلك له حسنات فهي لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لاهل الاسلام فهي على ذلك وزر وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل علي فيها شئ الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الطيل الحبل الذي يشد به الفرس وقت الرعي والاستنان الجري والشرف الشوط الذي تجري فيه الفرس وقوله تغنيا يعني استغناء بها عن الطلب لما في أيدي الناس أما حق ظهورها فهو أن يحمل عليها منقطعا الى أهله وأما حق رقابها فقيل أراد به الاحسان اليها وقيل أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله نواء لاهل الاسلام النواء المعاداة يقال ناوأت الرجل مناوأة اذا عاديته * وقوله تعالى ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ يعني تخوفون بتلك القوة وبذلك الرباط عدو الله وعدوكم يعني الكفار من أهل مكة وغيرهم وقال ابن عباس تخزنون به عدو الله وعدوكم وذلك لان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له

وميكال (ترهبون به) بما استطعتم (عدو الله وعدوكم)

الاناث (ترهبون به) تخوفون بالخيل (عدو الله) في الدين (وعدوكم) بالقتل

﴿ واخرين من دونهم ﴾ من غيرهم من الكفرة قيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس ﴿ لاتعلمونهم ﴾ لاتعرفونهم باعيانهم ﴿ الله يعلمهم ﴾ يعرفهم ﴿ وماتنفقوا من شئ في سبيل الله يوف اليكم ﴾ جزاؤه ﴿ وانتم لاتظلمون ﴾ بتضييع العمل أونقص الثواب ﴿ وان جنحوا ﴾ مالوا ومنه الجناح وقد يعدى باللام والى ﴿ للسلم ﴾ للصلح والاستسلام * وقرأ أبوبكر بالكسر ﴿ فاجنح لها ﴾ وعاهد معهم وتأنيث الضمير لحمل السلم على نقيضها فيه قال

السلم تأخذ منها مارضيت به * والحرب تكفيك من انفاسها جرع

مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار في الاسلام أوبذل الجزية للمسلمين * وقوله تعالى ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ يعني وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهد هم بنوقريظة وقال السدي هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى ﴿ لاتعلمونهم ﴾ لانهم معكم يقولون بالسنتهم لااله الاالله ﴿ الله يعلمهم ﴾ يعني انهم منافقون وأورد على هذا القول ان المنافقين لايقاتلون لاظهارهم كلمة الاسلام فكيف يخوفون باعداد القوة ورباط الخيل وأجيب عن هذا الايراد ان المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك ممايخوفهم ويحزنهم فكان في ذلك ارهابهم وقال الحسن هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبري قال لان الله تعالى قال لاتعلمونهم ولاشك ان المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بانهم مشركون ولانهم حرب للمؤمنين أما الجن فلايعلمونهم الله يعلمهم يعني يعلم أحوالهم وأماكنهم دونكم ويعضد هذا القول ماروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هم الجن وان الشيطان لايخبل احدا في داره فرس عتيق ذكر هذا الحديث ابن الجزري وغيره من المفسرين بغير اسناد وقال الحسن صهيل الخيل يرهب الجن * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وماتنفقوا من شئ في سبيل الله ﴾ قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر عام في كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره ﴿ يوف اليكم ﴾ يعني أجره في الآخرة ويجعل لكم عوضه في الدنيا ﴿ وأنتم لاتظلمون ﴾ يعني وأنتم لاتنقصون من ثواب أعمالكم شيأ * قوله تبارك وتعالى ﴿ وان جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين باعداد القوة ومايرهب العدو أمرهم بعد ذلك ان يقبلوا منهم الصلح ان مالوا اليه وسألوه فقال تعالى وان جنحوا للسلم يعني مالوا الى السلم يعني المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أي مل اليها يعني الى المصالحة روى عن الحسن وقتادة أن هذه الآية منسوخة باية السيف وقيل انها غير منسوخة لكنها تتضمن الامر بالصلح اذا كان فيه مصلحة ظاهرة فان رأى الامام أن يصالح أعداءه من الكفار وفيه قوة فلايجوز ان يهادنهم سنة كاملة وان كانت القوة للمشركين جاز ان يهادنهم عشر سنين ولاتجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم انهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة * وقوله تعالى

أى أهل مكة (وآخرين من دونهم) غيرهم وهم اليهود أو المنافقون أو أهل فارس أو كفرة الجن في الحديث ان الشيطان لايقرب صاحب فرس ولادارا فيها فرس عتيق وروى ان صهيل الخيل يرهب الجن (لاتعلمونهم) لاتعرفونهم باعيانهم (الله يعلمهم وماتنفقوا من شئ في سبيل الله يوف اليكم) يوفر عليكم جزاؤه (وأنتم لاتظلمون) في الجزاء بل تعطون على التمام (وان جنحوا) مالوا جنح له واليه مال (للسلم) للصلح وبكسر السين أبوبكر وهو مؤنث تأنيث ضدها وهو الحرب (فاجنح لها) فمل اليها

(وآخرين من دونهم) من دون بني قريظة وسائر العرب ويقال كفار الجن (لاتعلمونهم) لاتعلمون عدتهم (الله يعلمهم) يعلم عدتهم (وماتنفقوا من شئ) من مال (في سبيل الله) في طاعة الله على السلاح والخيل (يوف اليكم) يوف لكم ثوابه لاينقص (وأنتم لاتظلمون) لاتنقصون من ثوابكم (وان جنحوا للسلم) ان مال بنوقريظة الى الصلح فارادوا الصلح (فاجنح لها) مل اليها

وقرئ فاجنح بالضم ﴿ وتوكل على الله ﴾ ولا تخف من ابطانهم خداعا فيه فان الله يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم ﴿ انه هو السميع ﴾ لاقوالهم ﴿ العليم ﴾ بنياتهم والآية مخصوصة باهل الكتاب لاتصالها بقصتهم وقيل عامة نسختها آية السيف ﴿ وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ﴾ فان محسبك الله وكافيك قال جرير

انى وجدت من المكارم حسبكم * ان تلبسوا حر الثياب وتشبعوا

﴿ هو الذى ايدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ جميعا ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ مع ما فيهم من العصبية والضغينة فى ادنى شئ والتهالك على الانتقام بحيث لايكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا كنفس واحدة وهذا من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم وبيانه ﴿ لو انفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ﴾ أى تناهى عدواتهم الى حد لو انفق منفق فى اصلاح ذات بينهم ما فى الارض من الاموال لم يقدر على الالفة والاصلاح ﴿ ولكن الله ألف بينهم ﴾ بقدرته البالغة فانه المالك للقلوب

﴿ وتوكل على الله ﴾ يعنى فوض أمرك الى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك ﴿ انه هو السميع ﴾ يعنى لاقوالهم ﴿ العليم ﴾ يعنى باحوالهم * قوله عز وجل ﴿ وان يريدوا أن يخدعوك ﴾ يعنى يغدروا بك قال مجاهد يعنى بنى قريظة والمعنى وان أرادوا باظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم ﴿ فان حسبك الله ﴾ يعنى فان الله كافيك بنصره ومعونته ﴿ هو الذى أيدك بنصره ﴾ يعنى هو الذى قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفى سائر أيامك ﴿ وبالمؤمنين ﴾ يعنى وأيدك بالمؤمنين يعنى الانصار فان قلت اذا كان الله قد أيده بنصره فاى حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون باسباب باطنة غير معلومة وباسباب ظاهرة معلومة فاما الذى يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذى أيدك بنصره لان أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذى يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين لان أسبابه ظاهرة بوسائط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الاسباب وهو الذى أقامهم لنصره ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال تعالى ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وذلك ان العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والانفة العظيمة والانفس القوية والعصبية والانطواء على الضغينة من أدنى شئ حتى لو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم لايكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفى الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهم الاوس والخزرج وكانت بينهم فى الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والالفة وهذا مما لا يقدر عليه الا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله

كافيك وعاصمك من مكرهم (انه هو السميع) لاقوالك (العليم) باحوالك (وان يريدوا ان يخدعوك) يمكروا ويغدروا (فان حسبك الله) كافيك الله (هو الذى أيدك) قواك (بنصره وبالمؤمنين) جميعا أو بالانصار (وألف بين قلوبهم) قلوب الاوس والخزرج بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة (لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم) أى بلغت عداوتهم مبلغا لو أنفق منفق فى اصلاح ذات بينهم ما فى الارض من الاموال لم يقدر عليه (ولكن الله ألف بينهم) بفضله ورحمته وجمع بين كلمتهم بقدرته فاحدث بينهم التوادد والتحابب وأماط عنهم التباغض والتماقت

واردها (وتوكل على الله) فى نقضهم ووفائهم (انه هو السميع) لمقالتهم (العليم) بنقضهم ووفائهم (وان يريدوا) بنو قريظة (أن يخدعوك) بالصلح (فان حسبك الله) الله حسبك وكافيك (هو الذى أيدك) قواك وأعانك (بنصره) يوم بدر (وبالمؤمنين) بالاوس والخزرج (وألف بين قلوبهم) جمع بين قلوبهم وكلمتهم بالاسلام (لو أنفقت (قازخا ٩ اث) ما فى الارض جميعا) من الذهب والفضة (ما ألفت بين قلوبهم)

يقلبها كيف يشاء ﴿انه عزيز﴾ تام القدرة والغلبة لا يعصى عليه مايريده ﴿حكيم﴾ يعلم انه كيف ينبغى ان يفعل مايريده وقيل الآية فى الاوس والخزرج كان بينهم احن لا امد لها ووقائع هلكت فيها ساداتهم فانساهم الله ذلك والف بينهم بالاسلام حتى تصافوا وصاروا انصارا ﴿ياأيها النبى حسبك الله﴾ كافيك ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ اما فى محل النصب على المفعول معه كقوله

اذا كانت الهيجاء واشتجر القنا * فحسبك والضحاك سيف مهند

أو الجر عطفا على المكنى عند الكوفين أو الرفع عطفا على اسم الله أى كفاك الله والمؤمنون والآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر وقيل اسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم اسلم عمر رضى الله تعالى عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزلت فى اسلامه ﴿ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال﴾ بالغ فى حثهم عليه واصله الحرض وهو ان ينهكه المرض حتى يشفى على الموت * وقرئ حرص من الحرص ﴿ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين

عليه وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فالفكم الله بى وعالة فاغناكم الله بى وفى الآية دليل على ان القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأراد وذلك لان تلك الالفة والمحبة انما حصلت بسبب الايمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله ﴿انه عزيز حكيم﴾ يعنى أنه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف فى القلوب فيقلبها من العداوة الى المحبة ومن النفرة الى الالفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب * قوله سبحانه وتعالى ﴿ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى اسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية فلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت فى سورة مدنية بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انها نزلت بالبيداء فى غزوة بدر وقبل القتال فعلى هذا القول أراد بقوله تعالى ومن اتبعك من المؤمنين يعنى الى غزوة بدر وقيل أراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الانصار وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل أراد جميع المهاجرين والانصار ومعنى الآية ياأيها النبى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين * قوله عزوجل ﴿ياأيها النبى حرض المومنين على القتال﴾ يعنى حثهم على قتال عدوهم والتحريض فى اللغة الحث على الشئ بكثرة التزين وتسهيل الخطب فيه كانه فى الاصل ازالة الحرض وهو الهلاك ﴿ان يكن منكم عشرون﴾ يعنى رجلا ﴿صابرون﴾ يعنى عند اللقاء محتسبين أنفسهم ﴿يغلبوا مائتين﴾ يعنى من عدوهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الامر فكانه تعالى قال ان يكن منكم عشرون فليصبروا

(وليجتهد)

(انه عزيز) يقهر من يخدعونك (حكيم) ينصر من يتبعونك (ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) الواو بمعنى مع ومابعده منصوب والمعنى كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصرا ويجوز أن يكون فى محل الرفع أى كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين قيل أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت (ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال) التحريض المبالغة فى الحث على الامر من الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين

وكلاهم (ولكن الله الف بينهم) بين قلوبهم بالايمان (انه عزيز) فى ملكه وسلطانه (حكيم) فى أمره وقضائه (ياأيها النبى حسبك الله) الله حسبك (ومن اتبعك من المؤمنين) الاوس والخزرج (ياأيها النبى حرض المؤمنين) حض وحث المؤمنين (على القتال) يوم بدر (ان يكن منكم عشرون صابرون) فى الحرب محتسبو (يغلبوا مائتين) يقاتلوا مائتين من المشركين

وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) هذه عدة من الله وبشارة بان الجماعة من المؤمنين ان صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده (بانهم قوم لايفقهون) بسبب ان الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته بخلاف من يقاتل على بصيرة وهو يرجو النصر من الله قيل كان عليهم ان لايفروا ويثبت الواحد للعشرة ثم ثقل عليهم ذلك فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ضعفا عاصم وحمزة (فان يكن منكم مائة صابرة) بالياء فيهما كوفي وافقه البصرى فى الاولى والمراد الضعف فى البدن (يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله

وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ﴾ شرط فى معنى امر بمصابرة الواحد للعشرة والوعد بانهم ان صبروا غلبوا بعون الله وتأييده * وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تكن بالتاء فى الآيتين ووافقهم البصريان فى وان تكن منكم مائة صابرة ﴿ بانهم قوم لايفقهون ﴾ بسبب انهم جهلة بالله واليوم الآخر لايثبتون ثبات المؤمنين رجاء الثواب وعوالى الدرجات قتلوا أو قتلوا ولا يستحقون من الله الا الهوان والخذلان ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله ﴾ لما اوجب الله على الواحد مقاومة العشرة والثبات لهم وثقل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين وقيل كان فيهم قلة فامروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم وتكرير المعنى الواحد بذكر الاعداد المتناسبة للدلالة على ان حكم القليل والكثير واحد والضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فيها وفيه لغتان الفتح وهو قراءة عاصم

وليجتهدوا فى قتال عدوهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على ان المراد بهذا الخبر الامر قوله الآن خفف الله عنكم لان النسخ لايدخل على الاخبار انما يدخل على الامر فدل ذلك على ان الله سبحانه وتعالى أوجب أولا على المؤمنين هذا الحكم وانما حسن هذا التكليف لان الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر سهل عليه الثبات مع الاعداء ﴿ وان يكن منكم مائة ﴾ يعنى صابرة ﴿ يغلبوا ألفا من الذين كفروا ﴾ فحاصله وجوب ثبات الواحد من المؤمنين فى مقابلة العشرة من الكفار ذلك ﴿ بأنهم قوم لايفقهون ﴾ يعنى ان المشركين لايقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم فى القتال فانهم لايثبتون معكم ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله ﴾ (خ) عن ابن عباس قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم ان لايفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب ان لايفر مائة من مائتين وفى رواية أخرى عنه قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم فظاهر هذا ان قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله عنكم ناسخ لما تقدم فى الآية الاولى وكان هذا الامر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون وعلم أن فيكم ضعفا يعنى فى قتال الواحد للعشرة فان تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله فرد من العشرة الى الاثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لايجوز لهم أن يفروا فايما رجل فر من

(وان يكن منكم مائة يغلبوا) يقاتلوا (ألفا من الذين كفروا بانهم قوم لايفقهون) أمر الله وتوحيده (الآن) بعد يوم بدر (خفف الله عنكم) هون الله عليكم (وعلم ان فيكم ضعفا) بالقتال (فان يكن منكم مائة صابرة محتسبة (يغلبوا) يقاتلوا (مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا) يقاتلوا (ألفين باذن الله

وحمزة والضم وهو قراءة الباقين ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون ﴿ماكان لنبي﴾ وقرئ للنبي على العهد ﴿ان يكون له اسرى﴾ وقرأ البصريان بالتاء

من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر ﴿ والله مع الصابرين ﴾ يعني بالنصر والمعونة قال سفيان قال ابن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك * قوله تعالى ﴿ ماكان لنبي أن تكون له أسرى ﴾ روي عن عبدالله بن مسعود قال لما كان يوم بدر وجئ بالاسرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتقولون في هؤلاء فقال أبو بكر يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله ان يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وقال عمر يارسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ومكني من فلان نسيب لعمر فاضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وقال عبدالله بن رواحة يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فادخلهم فيه ثم اضرمه عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبابكر مثل ابراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا أبابكر مثل عيسى قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ومثلك يا عبدالله بن رواحة كمثل موسى قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم الا بفداء أو ضرب عنق قال عبدالله بن مسعود الا سهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما رأيتني في يوم أخوف ان تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا سهيل بن بيضاء قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت يارسول الله أخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عزوجل عليه ماكان لنبي ان تكون له اسرى حتى يثخن في الارض الآية أخرج هذا الحديث الترمذي مختصرا وقال في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي وأخرج مسلم في افراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس لما أسروا الاسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر وعمر ماترون في هؤلاء الاسارى فقال أبو بكر يارسول الله هم بنو العم والعشيرة

والله مع الصابرين) وتكرير مقاومة الجماعة لاكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على ان الحال مع القلة والكثرة لاتتفاوت اذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الالف وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والالف الالفين (ماكان لنبي) ماصح له ولا استقام (ان يكون له اسرى) ان تكون

(الفين باذن الله والله مع الصابرين) معين الصابرين في الحرب بالنصرة (ماكان لنبي) ماينبغي لنبي (أن يكون له أسرى) اسارى من الكفار

بصري (حتى يثخن في الاض) الاثخان كثرة القتل والمبالغة فيه من الثخانة وهي الغلظ والكثافة يعني حتى يذل الكفر باشاعة القتل في أهله ويعز الاسلام بالاستيلاء والقهر ثم الاسر بعد ذلك روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس عمه وعقيل فاستشار النبي عليه السلام أبابكر فيهم فقال قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك وقال عمر رضي الله عنه كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب اعناقهم فان هؤلاء أئمة الكفر وان الله اغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان لنسيب له فلنضرب اعناقهم فقال عليه السلام مثلك يا ابابكر كمثل ابراهيم حيث قال ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بل نأخذ الفداء فاستشهدوا باحد فلما اخذوا الفداء نزلت الآية (تريدون عرض الدنيا) متاعها يعني الفداء سماه عرضا لقلة بقائه وسرعة فنائه (والله يريد الآخرة) اى ماهو سبب الجنة من اعزاز الاسلام بالاثخان في القتل (والله عزيز) بقهر الاعداء (حكيم) في عتاب الاولياء

﴿حتى يثخن في الارض﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولى أهله من أثخنه المرض اذا أثقله واصله الثخانة وقرئ يثخن بالتشديد للمبالغة ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ حطامها بأخذكم الفداء ﴿والله يريد الآخرة﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من اعزاز دينه وقمع اعدائه * وقرئ بجر الآخرة على اضمار المضاف كقوله

اكل امرئ تحسبين امرأ * ونار توقد بالليل نارا

﴿والله عزيز﴾ يغلب اولياءه على اعدائه ﴿حكيم﴾ يعلم مايليق بكل حال ويخصه

أرى ان تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم الى الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يارسول الله ما أرى الذى رأى أبوبكر ولكنى أرى ان تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكنني من فلان نسيب لعمر فاضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبوبكر ولم يهو ماقلت فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر يبكيان فقلت يارسول الله أخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض الى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنيمة لهم ذكره الحميدي في مسنده عن عمر بن الخطاب من افراد مسلم بزيادة فيه أما تفسير الآية فقوله تعالى ماكان لنبي أن تكون له أسرى يعني ماكان ينبغي ولا يجب لنبي وقال أبوعبيدة معناه لم يكن لنبي ذلك فلا يكون لك يا محمد والمعنى ما كان لنبي ان يحبس كافرا قدر عليه وصار في يده أسيرا للفداء والمن والاسرى جمع أسير وأسارى جمع الجمع ﴿حتى يثخن في الارض﴾ الاثخان في كل شئ عبارة عن قوته وشدته يقال أثخنه المرض اذا اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فاذا حصل ذلك فله أن يقدم على الاسر فيأسر الاسارى ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ الخطاب لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعني تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا باخذكم الفداء من المشركين وانما سمي منافع الدنيا عرضا لانه لاثبات لها ولا دوام فكانها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فانها دائمة لا انقطاع لها * وقوله سبحانه وتعالى ﴿والله يريد الآخرة﴾ يعني انه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لانها دائمة بلا زوال ولا انقطاع ﴿والله عزيز﴾ لا يقهر ولا يغلب ﴿حكيم﴾

(حتى يثخن) يغلب (في الارض) بالقتال (تريدون عرض الدنيا) بفداء أسارى يوم بدر والله يريد الآخرة
(والله عزيز) بالنقمة من أعدائه (حكيم) بالنصرة لاوليائه

بها كما امر بالاثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين روى انه عليه السلام اتى يوم بدر بسبعين اسيرا فيهم العباس وعقيل بن ابى طالب فاستشار فيهم فقال ابوبكر رضى الله تعالى عنه قومك واهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها اصحابك وقال عمر رضى الله تعالى عنه اضرب اعناقهم فانهم ائمة الكفر وان الله اغناك عن الفداء مكنى من فلان لنسيب له ومكن عليا وحمزة من اخويهما فلنضرب اعناقهم فلم يهو ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون الين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون اشد من الحجارة وان مثلك يا ابابكر مثل ابراهيم عليه السلام قال فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال لا تذر على الارض من الكافرين ديارا

يعنى فى تدبير مصالح عباده قال ابن عباس كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى فى الاسارى فاما منا بعد واما فداء فجعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيار ان شاؤا قتلوهم وان شاؤا استعبدوهم وان شاؤا فادوهم وان شاؤا أعتقوهم قال الامام فخر الدين ان هذا الكلام يوهم ان قوله فاما منا بعد واما فداء يزيل حكم الآية التى نحن فى تفسيرها وليس الامر كذلك لان كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لا بد من تقديم الاثخان ثم بعده أخذ الفداء قال العلماء كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والاوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف درهم

فصل

قد استدل بهذه الآية من يقدح فى عصمة الانبياء وبيانه من وجوه الاول ان قوله ما كان لنبى أن تكون له أسرى صريح فى النهى عن اخذ الاسارى وقد وجد ذلك يوم بدر الوجه الثانى ان الله سبحانه وتعالى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل أسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم الوجه الثالث ان النبى صلى الله عليه وسلم حكم باخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب الوجه الرابع ان النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان لاجل أخذ الفداء وخوف العذاب وقرب نزوله والجواب عن الوجه الاول ان قوله سبحانه وتعالى ما كان لنبى أن تكون له أسرى حتى يثخن فى الارض يدل على انه كان الاسر مشروعا ولكن بشرط الاثخان فى الارض وقد حصل لان الصحابة رضى الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلا من عظماء المشركين وصناديدهم وأسروا سبعين وليس من شرط الاثخان فى الارض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الاسر بعد الاثخان وقد حصل والجواب عن الوجه الثانى ان الامر بالقتل انما كان مختصا بالصحابة لاجماع المسلمين ان النبى صلى

(اولا كتاب من الله) لولا حكم من الله (سبق) ان لا يعذب احدا على العمل بالاجتهاد وكان هذا اجتهادا منهم لانهم نظروا في ان استبقاءهم ربما كان سببا في اسلامهم ﴿ ٧١ ﴾ وان فداءهم { سورة الانفال } يتقوى به على الجهاد وخفي عليهم ان قتلهم اعز للاسلام واهيب لمن وراءهم أو ما كتب الله في اللوح أن لا يعذب أهل بدر أو كان لا يؤاخذ قبل البيان والاعذار وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكري القياس كتاب مبتدأ ومن الله صفته اي لولا كتاب ثابت من الله وسبق صفة أخرى له وخبر المبتدأ محذوف أي لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود وسبق لا يجوز أن يكون خبرا لان لولا لا يظهر خبرها أبدا (لمسكم) لنالكم وأصابكم (فيما أخذتم) من فداء الاسرى (عذاب عظيم) روى أن عمر رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله اخبرني فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت فقال أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروى انه عليه السلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن

فخير اصحابه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل عمر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا هو وابو بكر يبكيان فقال يارسول الله اخبرني فان اجد بكاء بكيت والا تباكيت فقال ابكي على اصحابك في اخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم ادنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة والآية دليل على ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون وانه قد يكون خطأ ولكن لا يقرون عليه ﴿اولا كتاب من الله سبق﴾ لولا حكم من الله سبق اثباته في اللوح وهو ان لا يعاقب المخطئ في اجتهاده او لا يعذب اهل بدر أو قوما بما لم يصرح لهم بالنهى عنه أو ان الفدية التى اخذوها ستحل لهم ﴿لمسكم﴾ لنالكم ﴿فيما اخذتم﴾ من الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ روى انه عليه السلام

الله عليه وسلم لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه واذا ثبت أن الامر بالقتل كان مختصا بالصحابة كان الذنب صادرا منهم لا من النبي صلى الله عليه وسلم والجواب عن الوجه الثالث وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم حكم بأخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم ان أخذ الفداء كان محرما وأما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على أخذ الفداء من الاسارى والمبادرة اليه ولا يدل على تحريم الفداء اذ لو كان حراما في علم الله لمنعهم من أخذه مطلقا والجواب عن الوجه الرابع وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل أن يكون لاجل أن بعض الصحابة لما خالف الامر بالقتل واشتغل بالاسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي صلى الله عليه وسلم خوفا واشفاقا من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الاسر وأخذ الفداء والله أعلم * قوله عز وجل ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ قال ابن عباس كانت الغنائم محرمة على الانبياء والامم فكانوا اذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء فانزل الله عز وجل لولا كتاب من الله سبق يعنى لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بانه يحل لكم الغنائم لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير لولا كتاب من الله سبق انه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج لو كتاب من الله سبق انه لا يضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وانه لا يأخذ قوما فعلوا بجهالة لمسكم يعنى لاصابكم بسبب ما اخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا الا واحب الغنائم الا عمر بن الخطاب فانه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الاسرى وسعد بن معاذ فانه قال يارسول الله كان الاثخان في القتل أحب الى من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء

لولا كتاب من الله سبق) لولا حكم من الله بتحليل الغنائم لامة محمد صلى الله عليه وسلم وقال بالسعادة لاهل بدر (لمسكم) لاصابكم (فيما أخذتم) من الفداء (عذاب عظيم) شديد

قال لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ وذلك لانه ايضا اشار بالاثخان ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ من الفدية فانها من جملة الغنائم وقيل امسكوا عن الغنائم فنزلت والفاء للتسبب والسبب محذوف تقديره ابحت لكم الغنائم فكلوا وبنحوه تشبث من زعم ان الامر الوارد بعد الحظر للاباحة ﴿ حلالا ﴾ حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى اكلا حلالا وفائدته ازاحة ماوقع فى نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة أو حرمتها على الاولين ولذلك وصفه بقوله ﴿ طيبا واتقوا الله ﴾ فى مخالفته ﴿ ان الله غفور ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿ رحيم ﴾ اباح لكم ما اخذتم ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى ايديكم من الاسرى ﴾

مانجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ❊ قوله عز وجل ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ﴾ يعنى فقد أحلت لكم الغنائم وأخذ الفداء فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا روى انه لما نزلت الآية الاولى كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الامة وكانت قبل ذلك حراما على جميع الامم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله ان النبى صلى الله عليه وسلم قال وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى (ق) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم وذلك بان الله رأى ضعفنا وعجزنا فاحلها لنا ❊ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ واتقوا الله ان الله غفور رحيم ﴾ يعنى وخافوا الله أن تعودوا وان تفعلوا شيأ من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل فى قولهم واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم ﴾ نزلت فى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة الى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها اذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فاراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيأ وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما شئ خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك وكلف فداء ابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس يا محمد تتركنى أتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين الذهب الذى دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها انى لا أدرى مايصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم يعنى بنيه فقال العباس ومايدريك ياابن أخى قال أخبرنى به ربى قال العباس أشهد انك لصادق وأشهد أن لا اله الا الله وانك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد الا الله وأمر ابنى أخيه عقيلا ونوفل بن الحرث فاسلما فذلك قوله سبحانه وتعالى يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم ﴿ من الاسرى ﴾ يعنى الذين أسرتموهم

معاذ لقوله كان الاثخان فى القتل أحب الى (فكلوا مما غنمتم) روى انهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم اليها فنزلت وقيل هو اباحة للفداء لانه من جملة الغنائم والفاء للتسبيب والسبب محذوف ومعناه قد أحلت لكم الغنائم فكلوا (حلالا) مطلقا عن العتاب والعقاب من حل العقال وهو نصب على الحال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا (طيبا) لذيذا هنيأ أو حلالا بالشرع طيبا بالطبع (واتقوا الله) فلا تقدموا على شئ لم يعهد اليكم فيه (ان الله غفور) لما فعلتم من قبل (رحيم) باحلال ما غنمتم (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم) فى ملكتكم كان أيديكم قابضة عليهم (من الاسرى) جمع أسير من الاسارى أبو عمرو

(فكلوا مما غنمتم) من الغنائم غنائم بدر (حلالا طيبا واتقوا الله) أخشوا الله فى الغلول (ان الله غفور) متجاوز (رحيم) بما كان بينكم يوم بدر من الفداء (يا أيها النبى قل لمن فى ايديكم من الاسرى) يعنى

جمع آسرى (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) خلوص إيمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء اما ان يخلفكم فى الدنيا اضعافه أو يثيبكم فى الآخرة (ويغفر لكم والله غفور رحيم) روى انه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مال البحرين ثمانون الفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس ان يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ منى وأرجو المغفرة وكان له عشرون عبدا وان أدناهم ليتجر فى عشرين ألفا وكان يقول أنجز الله أحد الوعدين وأنا على ثقة من الآخر (وان يريدوا) أى الاسرى (خيانتك) نكث ما بايعوك عليه من الاسلام بالردة أو منع ما ضمنوا من الفداء (فقد خانوا الله من قبل) فى كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه (فامكن منهم) فامكنك منهم أى أظفرك بهم كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم ان عادوا الى الخيانة (والله عليم) بالمآل (حكيم) فيما أمر فى الحال (ان الذين آمنو وهاجروا) من مكة حبا لله ورسوله (وجاهدوا

وقرأ ابو عمرو من الاسارى ﴿ ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا ﴾ ايمانا واخلاصا ﴿ يؤتكم خيرا مما اخذ منكم ﴾ من الفداء روى انها نزلت فى العباس رضى الله عنه كلفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان يفدى نفسه وابنى اخويه عقيل بن ابى طالب ونوفل بن الحارث فقال يا محمد تركتنى اتكفف قريشا ما بقيت فقال اين الذهب الذى دفعته الى ام الفضل وقت خروجك وقلت لها انى لا ادرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم فقال العباس وما يدريك قال اخبرنى به ربى تعالى قال فاشهد انك صادق وان لا اله الا الله وانك رسوله والله لم يطلع عليه احد الا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل قال العباس فابدلنى الله خيرا من ذلك الى الآن عشرين عبدا ان ادناهم ليضرب فى عشرين الفا واعطانى زمزم وما احب ان لى بها جميع اموال اهل مكة وانا انتظر المغفرة من ربكم يعنى الموعود بقوله ﴿ ويغفر لكم والله غفور رحيم وان يريدوا ﴾ يعنى الاسرى ﴿ خيانتك ﴾ نقض ما عاهدوك ﴿ فقد خانوا الله ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل ﴿ من قبل فامكن منهم ﴾ اى فامكنك منهم كما فعل يوم بدر فان اعادوا الخيانة فسيمكنك منهم ﴿ والله عليم حكيم ان الذين آمنوا وهاجروا ﴾ هم المهاجرون هاجروا اوطانهم حبا لله ولرسوله ﴿ وجاهدوا

وأخذتم منهم الفداء ﴿ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا﴾ يعنى ايمانا وتصديقا ﴿يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾ يعنى من الفداء ﴿ويغفر لكم﴾ يعنى ما سلف منكم قبل الايمان ﴿والله غفور﴾ يعنى لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه ﴿رحيم﴾ يعنى باهل طاعته قال العباس فابدلنى الله خيرا مما أخذ منى عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطانى زمزم وما أحب ان لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى عز وجل وقوله تعالى ﴿ وان يريدوا﴾ يعنى الاسارى ﴿خيانتك﴾ يعنى أن يكفروا بك ﴿فقد خانوا الله﴾ يعنى فقد كفروا بالله ﴿من قبل﴾ وقيل معناه وان نقضوا العهد ورجعوا الى الكفر فقد خانوا الله بذلك ﴿فامكن﴾ يعنى فامكن الله المؤمنين ﴿منهم﴾ ببدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم وهذا نهاية الامكان وفيه بشارة للنبى صلى الله عليه وسلم بانه يتمكن من كل أحد يخونه أو ينقض عهده ﴿والله عليم﴾ يعنى بما فى بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد ﴿حكيم﴾ يعنى حكم بانه يجازى كلا بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب * قوله عز وجل ﴿ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا

عباسا (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) تصديقا واخلاصا (يؤتكم) يعطكم (خيرا) أفضل (مما أخذ منكم) من الفداء (ويغفر لكم) ذنوبكم فى الجاهلية (والله غفور) متجاوز (رحيم) لمن آمن به (وان يريدوا (قا و خا ١٠ لث) خيانتك) بالايمان يا محمد (فقد خانوا الله من قبل) أى من قبل هذا بترك الايمان والمعصية (فامكن منهم) أظهرك عليهم يوم بدر (والله عليم) بما فى قلوبهم من الخيانة وغيرها (حكيم) فيما حكم عليهم (ان الذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (وهاجروا) من مكة الى المدينة (وجاهدوا

باموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) هم المهاجرون (والذين آووا ونصروا) أى آووهم الى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الانصار (أولئك بعضهم اولياء بعض) أى يتولى بعضهم بعضا فى الميراث وكان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة دون ذوى القرابات حتى نسخ ذلك بقوله واولوا الارحام بعضهم أولى ببعض وقيل اراد به النصرة والمعاونة (والذين آمنوا ولم يهاجروا) من مكة (مالكم من ولايتهم) من توليهم فى الميراث ولايتهم حمزة وقيل هما واحد (من شئ حتى يهاجروا) فكان لايرث المؤمن الذى لم يهاجر ممن آمن وهاجر ولما أبقى للذين لم يهاجروا اسم الايمان وكانت الهجرة فريضة فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة دل أن صاحب الكبيرة لايخرج من الايمان (وان استنصروكم) أى من أسلم ولم يهاجر (فى الدين فعليكم النصر) أى ان وقع بينهم وبين الكفار قتال وطلبوا معونة فواجب عليكم ان تنصروهم على الكافرين (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فانه لايجوز لكم نصرهم عليهم لانهم لايبتدؤن بالقتال اذ الميثاق مانع من ذلك (والله بما تعملون بصير) تحذير عن تعدى حد الشرع (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) ظاهره اثبات الموالاة بينهم ومعناه

باموالهم ﴾ فصرفوها فى الكراع والسلاح وانفقوها على المحاويج ﴿وانفسهم فى سبيل الله﴾ بمباشرة القتال ﴿ والذين آووا ونصروا ﴾ هم الانصار آووا المهاجرين الى ديارهم ونصروهم على اعدائهم ﴿ اولئك بعضهم اولياء بعض ﴾ فى الميراث وكان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الاقارب حتى نسخ بقوله واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض اوبالنصرة والمظاهرة ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا﴾ اى من توليتهم فى الميراث وقرأ حمزة ولايتهم بالكسر تشبيها لها بالعمل والصناعة كالكتابة والامارة كأنه بتوليه صاحبه يزاول عملا ﴿ وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ﴾ فواجب عليكم ان تنصروهم على المشركين ﴿ الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ عهد فانه لاينقض عهدهم لنصرهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم اولياء بعض﴾ فى الميراث اوالموازرة وهو بمفهومه يدل على منع التوارث

باموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ يعنى ان الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعنى وهجروا ديارهم وقومهم فى ذات الله عزوجل وابتغاء رضوان الله وهم المهاجرون الاولون وجاهدوا يعنى وبذلوا أنفسهم فى سبيل الله يعنى فى طاعة الله وابتغاء رضوانه ﴿والذين آووا ونصروا * يعنى آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الانصار ﴿ أولئك ﴾ يعنى المهاجرين والانصار ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ يعنى فى العون والنصر دون أقربائهم من الكفار وقال ابن عباس فى الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون أقربائهم وذوى أرحامهم وكان من آمن ولم يهاجر لايرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالارحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله * وقوله عزوجل ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ يعنى آمنوا وأقاموا بمكة ﴿ما لكم من ولايتهم من شئ﴾ يعنى من الميراث ﴿حتى يهاجروا﴾ يعنى الى المدينة ﴿وان استنصروكم فى الدين﴾ يعنى ان استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿فعليكم النصر﴾ يعنى فعليكم نصرهم واعانتهم ﴿الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أى عهد فلا تنصروهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ يعنى فى النصر والمعونة وذلك أن كفار

باموالهم وانفسهم فى سبيل الله) فى طاعة الله (والذين آووا) وطنوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة (ونصروا) محمدا عليه السلام يوم بدر (اولئك بعضهم اولياء بعض) فى الميراث (والذين آمنوا) بمحمد عليه السلام ﴿ قريش ﴾ والقرآن (ولم يهاجروا) من مكة الى المدينه (مالكم من ولايتهم) من ميراثهم (من شئ)وما من ميراثكم لهم من شئ (حتى يهاجروا) من مكة الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) استعانوكم على عدوهم فى الدين (فعليكم النصر) على عدوهم (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فلا تعينوهم عليهم ولكن أصلحوا بينهم (والله بما تعملون) من الصلح وغيره (بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) فى الميراث

نهى المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وايجاب مباعدتهم ومصارمتهم وان كانوا أقارب وان يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا ثم قال (الاتفعلوه) أى ان لاتفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا حتى فى التوارث تفضيلا لنسبة الاسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة (تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) تحصل فتنة فى الارض ومفسدة عظيمة لان المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) لانهم صدقوا ايمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الاهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لاجل الدين والعقبى (لهم مغفرة ورزق كريم) لامنة فيه

اوالموازرة بينهم وبين المسلمين ﴿الاتفعلوه﴾ ان لاتفعلوا ما امرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تكن فتنة فى الارض ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة وهى ضعف الايمان وظهور الكفر ﴿ وفساد كبير ﴾ فى الدين وقرئ كثير ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا ﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة اقسام بين ان الكاملين فى الايمان منهم هم الذين حققوا ايمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصر الحق ووعدلهم الموعد الكريم فقال ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ لاتبعة له ولامنة فيه ثم الحق بهم

قريش كانوا معادين لليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا قال ابن عباس يعنى فى الميراث وهو ان يرث الكفار بعضهم من بعض ﴿ الاتفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير ﴾ قال ابن عباس الاتأخذوا فى الميراث بما أمرتكم به وقال ابن جريج الاتعاونوا وتتناصروا وقال ابن اسحق جعل الله المهاجرين والانصار أهل ولاية فى الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى الاتفعلوه وهو ان يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة فى الارض وفساد كبير فالفتنة فى الارض هى قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ يعنى لاشك فى ايمانهم ولاريب لانهم حققوا ايمانهم بالهجرة والجهاد وبذل النفس والمال فى نصر الدين ﴿ لهم مغفرة ﴾ يعنى لذنوبهم ﴿ ورزق كريم ﴾ يعنى فى الجنة فان قلت ما معنى هذا التكرار قلت ليس فيه تكرار لانه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الاولى حكم ولاية المهاجرين والانصار بعضهم بعضا ثم ذكر فى هذه الآية ما من به عليهم من المغفرة والرزق الكريم وقيل ان اعادة الشئ مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم أولا ثم أعاد ذكرهم ثانيا دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلو درجاتهم وهذا هو الشرف العظيم لانه تعالى ذكر فى هذه الآية من وجوه المدح ثلاثة أنواع * أحدها قوله أولئك هم المؤمنون حقا وهذا يفيد الحصر وقوله سبحانه وتعالى حقا يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محقين فى طريق الدين وتحقيق هذا القول ان من فارق أهله وداره التى نشأ فيها وبذل النفس والمال كان مؤمنا حقا * النوع الثانى قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة وتنكير لفظ المغفرة يدل على ان لهم مغفرة وأى مغفرة لاينالها غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة لجميع ذنوبهم * النوع الثانى قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم فكل شئ شرف وعظم فى بابه قيل له كريم والمعنى ان لهم فى الجنة رزقا لاتلحقهم فيه غضاضة ولاتعب وقيل ان المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من هاجر أولا الى المدينة وهم المهاجرون الاولون ومنهم من هاجر الى ارض الحبشة ثم هاجر الى المدينة فهم أصحاب الهجرتين ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية وقبل

(الاتفعلوه) قسمة المواريث كما بين لكم لذوى القرابة (تكن فتنة فى الارض) بالشرك والارتداد (وفساد كبير) بالقتل والمعصية (والذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (وهاجروا) من مكة الى المدينة (وجاهدوا فى سبيل الله) فى طاعة الله (والذين آووا) وطنوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة (ونصروا) محمدا عليه السلام يوم بدر (أولئك هم المؤمنون حقا) صدقا يقينا (لهم مغفرة) لذنوبهم فى الدنيا (ورزق كريم) ثواب حسن فى الجنة

فى الامرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم ﴾ اي من جاتكم ايها المهاجرون والانصار ﴿ واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض ﴾ فى التوارث من الاجانب ﴿ فى كتاب الله ﴾ فى حكمه او فى اللوح او فى القرآن واستدل به على توريث ذوى الارحام ﴿ ان الله بكل شئ عليم ﴾ من المواريث والحكمة فى اناطتها بنسبة الاسلام والمظاهرة اولا واعتبار القرابة ثانيا * عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم من قرأ سورة الانفال وبراءة فانا شفيع له يوم القيامة وشاهد انه برئ من النفاق واعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له ايام حياته

فتح مكة فذكر الله فى الآية الاولى اصحاب الهجرة الاولى وذكر فى الثانية أصحاب الهجرة الثانية والله أعلم بمراده * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ﴾ اختلفوا فى قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهى الهجرة الثانية وقيل من بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والاصح ان المراد به أهل الهجرة الثانية لانها بعد الهجرة الاولى لان الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لانها صارت دار اسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية أخرجاه فى الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة ويجاب عن هذا بان المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة الى المدينة وأما من كان من المؤمنين فى بلد يخاف على اظهار دينه من كثرة الكفار وجب عليه أن يهاجر الى بلد لايخاف فيه على اظهار دينه * وقوله تعالى ﴿ فأولئك منكم ﴾ يعنى انهم منكم وأنتم منهم لكن فيه دليل على ان مرتبة المهاجرين الاولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لان الله سبحانه وتعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن المهاجرين الاولين أفضل وأشرف لما صح هذا الالحاق * وقوله تعالى ﴿ وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض أى فى الميراث فبين بهذه الآية ان سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والاخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله فى كتاب الله يعنى فى حكم الله وقيل أراد به فى اللوح المحفوظ وقيل اراد به القرآن وهى ان قسمة المواريث مذكورة فى سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك أصحاب الامام أبى حنيفة بهذه الآية فى توريث ذوى الارحام وأجاب عنه الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه بانه لما قال فى كتاب الله كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالاحكام التى ذكرها فى سورة النساء من قسمة المواريث واعطاء أهل الفروض فروضهم ومابقى فللعصبات * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ان الله بكل شئ عليم ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى عالم بكل شئ لاتخفى عليه خافية والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

بالتواصل (والذين آمنوا من بعد) يريد اللاحقين بعد السابقين الى الهجرة (وهاجروا وجاهدوا معكم فأُلئك منكم) جعلهم منهم تفضيلا وترغيبا (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض) وأولو القرابات أولى بالتوارث وهو نسخ للتوراث بالهجرة والنصرة (فى كتاب الله) فى حكمه وقسمته أو فى اللوح أو فى القرآن وهو آية المواريث وهو دليل لنا على توريث ذوى الارحام (ان الله بكل شئ عليم)

(والذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (من بعد) من بعد المهاجرين الاولين (وهاجروا) من مكة الى المدينة (وجاهدوا معكم) العدو (فاولئك منكم) معكم فى السر والعلانية (وأولوا الارحام) ذوو القرابة فى النسب الاول فالاول (بعضهم أولى ببعض) فى الميراث (فى كتاب الله) فى اللوح المحفوظ نسخ بهذه الآية الآية الاولى (ان الله بكل شئ) من قسمة المواريث وصلاحكم وغيرهما (عليم)

سورة براءة

مدنية وقيل الا الآيتين من قوله لقد جاءكم رسول وهى آخر مانزلت ولها اسماء اخر التوبة والمقشقشة والبحوث والمبعثرة والمنقرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهى التبرئ منه والبحث عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها ومايخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشرد بهم ويدمدم عليهم ويذكر عذابهم وآيها مائة وثلاثون

تفسير سورة التوبة

وهى مدنية باجماعهم قال ابن الجوزى سوى آيتين فى آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم فانهما نزلتا بمكة وهى مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف وأربعمائة وثمان وثمانون حرفا ولهذه السورة أسماء عشرة سورة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهى المقشقشة قاله ابن عمر سميت بذلك لانها تقشقش من النفاق أى تبرئ منه وهى المبعثرة لانها تبعثر عن أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها والفاضحة قاله ابن عباس لانها فضحت المنافقين وسورة العذاب قاله حذيفة وهى المخزية لان فيها خزى المنافقين وهى المدمدمة سميت بذلك لان فيها هلاك المنافقين وهى المشردة سميت بذلك لانها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهى المثيرة سميت بذلك لانها أثارت مخازى المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هى الفاضحة مازالت تقول ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لايبقى أحد الاذكر فيها قال قلت سورة الانفال قال نزلت فى بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بنى النضير أخرجاه فى الصحيحين

فصل فى بيان سبب ترك كتابة التسمية فى أول هذه السورة

عن ابن عباس قال قلت لعثمان ماحملكم على ان عمدتم الى الانفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ماحملكم على ذلك قال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا مايأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان اذا نزل عليه شئ دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أوائل مانزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت انها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها أومن غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع

آمنوا وهاجروا وقسم آمنوا ونصروا وقسم آمنوا ولم يهاجروا وقسم كفروا ولم يؤمنوا

﴿ سورة التوبة مدنية وهى مائة وتسع وعشرون آية كوفى ومائة وثلاثون غيره ﴾

لها أسماء براءة التوبة المقشقشة المبعثرة المشردة المخزية الفاضحة المثيرة الحافرة المنكلة المدمدمة لان فيها التوبة على المؤمنين وهى تقشقش من النفاق أى تبرئ منه وتبعثر عن أسرار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشردهم وتخزيهم وتدمدم عليهم وفى ترك التسمية فى ابتدائها أقوال فعن على وابن عباس رضى الله عنهم ان بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الامان وعن عثمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا نزلت عليه سورة أو آية قال اجعلوها فى الموضع الذى يذكر فيه كذا

يعلم نقض عهود المشركين والله أعلم باسرار كتابه

﴿ ومن السورة التى يذكر فيها التوبة وهى كلها مدنية وقد قيل الا الآيتين فى آخرها فانهما مكيتان وكلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وستون وحروفها عشرة آلاف ﴾

وكذا وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أين نضعها وكانت قصتها تشبه قصة الانفال لان فيها ذكر العهود وفى براءة نبذ العهود فلذلك قرنت بينهما وكانتا تدعيان القرينتين وتعدان السابعة من الطوال وهى سبع وقيل اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم الانفال وبراءة سورة واحدة نزلت فى القتال وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت بسم الله لقول من قال هما سورة واحدة (براءة) خبر مبتدأ محذوف أى هذه براءة (من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) من لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وليس بصلة كما فى قولك برئت من الدين أى هذه براءة واصلة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم كما تقول كتاب من فلان

وقيل تسع وعشرون وانما تركت التسمية فيها لانها نزلت لرفع الامان وبسم الله امان وقيل كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا نزلت عليه سورة اوآية بين موضعها وتوفى ولم يبين موضعها وكانت قصتها تشابه قصة الانفال وتناسبها لان فى الانفال ذكر العهود وفى برآءة نبذها فضمت اليها وقيل لما اختلفت الصحابة فى انهما سورة واحدة هى سابعة السبع الطوال اوسورتان تركت بينهما فرجة ولم يكتب بسم الله ﴿براءة من الله ورسوله﴾ اى هذه برآءة ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصلة من الله ورسوله ويجوز ان تكون برآءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ وقرئ بنصبها على اسمعوا برآءة والمعنى ان الله ورسوله برآ من العهد الذى عاهدتم به المشركين وانما علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة

الطوال أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن قال الزجاج والشبه الذى بينهما أن فى الانفال ذكر العهود وفى براءة نقضها وكان قتادة يقول هما سورة واحدة وقال محمد بن الحنفية قلت لابى يعنى على بن أبى طالب لم تكتبوا فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال يابنى ان براءة نزلت بالسيف وان بسم الله الرحمن الرحيم أمان وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لان التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت فى المنافقين وقال المبرد لم تفتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لان التسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل أبى بن كعب عن هذا فقال انها نزلت فى آخر القرآن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر فى كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يأمر فى براءة بذلك فضمت الى الانفال لشبهها بها وقيل ان الصحابة اختلفوا أن فى سورة الانفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لانهما نزلتا فى القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات فكانت هى السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول انهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة أما التفسير فقوله تعالى ﴿براءة من الله ورسوله﴾ يعنى هذه براءة من الله ورسوله وأصل البراءة فى اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان أبرأ براءة أى انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فامر الله عزوجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى واما تخافن من قوم خيانة الآية ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر به ونبذ اليهم عهودهم قال الزجاج أى قد برئ الله ورسوله من اعطائهم العهود والوفاء بها اذا نكثوا ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ الخطاب مع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وان كان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى عاهدهم وعاقدهم الأانه هو الذى عاقدهم وأصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا ❁ وقوله سبحانه وتعالى

وباسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (براءة) هذه براءة (من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) ثم نقضوا والبراءة هى نقض العهد يقول من كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فقد نقضه منهم فمنهم من كان عهده أربعة أشهر ومنهم

(فسيحوا)

بالمسلمين للدلالة على انه يجب عليهم نبذ عهود المشركين اليهم وان كانت صادرة باذن الله تعالى واتفاق الرسول فانهما برآ منها وذلك انهم عاهدوا مشركى العرب فنكثوا الا اناسا من بنى ضمرة وبنى كنانة فامرهم بنبذ العهد الى الناكثين وامهل المشركين اربعة اشهر ليسيروا اين شاؤا فقال ﴿فسيحوا فى الارض اربعة اشهر﴾ شوال وذى القعدة وذى الحجة والمحرم لانها نزلت فى شوال وقيل هى عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وربيع الاول وعشر من ربيع الآخر لان التبليغ كان يوم النحر لما روى انها لما نزلت ارسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليا رضى الله تعالى عنه راكب العضباء ليقرأها على اهل الموسم وكان قد بعث ابا بكر رضى الله عنه اميرا على الموسم فقيل له لو بعثت بها الى ابى بكر فقال لا يؤدى عنى الا رجل منى فلما دنا على رضى الله تعالى عنه سمع ابو بكر رضى الله تعالى عنه الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله

﴿فسيحوا فى الارض﴾ أى فسيروا فى الارض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المشركين وأصل السياحة الضرب فى الارض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الانبارى قوله فسيحوا فيه مضمر أى قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الامان وزوال الخوف يعنى سيحوا فى الارض وأنتم آمنون من القتل والقتال ﴿أربعة أشهر﴾ يعنى مدة أربعة أشهر واختلف العلماء فى هذا التأجيل وفى هؤلاء الذين برئ الله ورسوله اليهم من العهود التى كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مجاهد هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه الى أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر حطه الى أربعة أشهر ومن كان عهده بغير أجل معلوم محدود حده بأربعة أشهر ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله يقتل حيث أدرك ويؤسر الا أن يتوب ويرجع الى الايمان وقيل ان المقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام أو القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول فى الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد وكان ابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فأما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما وقال الزهرى الاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لان هذه الآية نزلت فى شوال والقول الاول أصوب وعليه الاكثرون وقال الكلبى انما كانت الاربعة أشهر عهدا لمن كان له عهد دون الاربعة أشهر فأتم له الاربعة أشهر فأما من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر باتمام عهده بقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وقيل كان ابتداؤها فى العاشر من ذى القعدة وآخرها العاشر من ربيع الاول لان الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة بسبب النسئ ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الزمان قد استدار الحديث وقال الحسن أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين

الى فلان أو مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر الى الذين عاهدتم كقولك رجل من بنى تميم فى الدار والمعنى ان الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين وانه منبوذ اليهم (فسيحوا فى الارض أربعة أشهر) فسيروا فى الارض كيف شئتم والسيح السير على مهل روى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا الا اناسا منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد الى الناكثين وأمروا أن يسيحوا فى الارض أربعة أشهر آمنين

من كان عهده فوق أربعة أشهر ومنهم من كان عهده دون أربعة أشهر ومنهم من كان عهده تسعة أشهر ومنهم من لم يكن بينه وبين رسول الله عهد فنقضوا كلهم الا من كان عهده تسعة أشهر وهم بنو كنانة فمن كان عهده فوق أربعة أشهر ودون أربعة أشهر جعل عهده أربعة أشهر بعد النقض من يوم النحر ومن كان عهده أربعة أشهر جعل عهده بعد النقض أربعة أشهر من يوم النحر ومن كان عهده تسعة أشهر ترك على ذلك ومن لم يكن له عهد جعل عهده خمسين يوما من يوم النحر الى خروج المحرم فقال لهم (فسيحوا فى الارض) فامضوا فى الارض من يوم النحر (اربعة أشهر) آمنين من القتل بالعهد

أين شاؤا لايتعرض لهم وهى الاشهر الحرم فى قوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين وذلك لصيانة الاشهر الحرم من القتل والقتال فيها وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الامير فيها عتاب بن أسيد وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له لو بعثت بها الى أبى بكر فقال لايؤدى عنى الا رجل منى فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحثهم على مناسكهم وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة فقال ياايها الناس انى رسول رسول الله اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لايقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان ولايدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وان يتم الى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك ياعلى ابلغ ابن عمك انا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف والاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم أو عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من ربيع الاخر وكانت حرما لانهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم او على التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها والجمهور على اباحة القتال فى الاشهر الحرم وان ذلك قد نسخ

صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال امير اومأمور قال مأمور فلما كان قبل التروية خطب ابو بكر رضى الله تعالى عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة وقال ياايها الناس انى رسول رسول الله اليكم فقالوا بما ذافقرأ عليهم ثلاثين او اربعين آية ثم قال امرت بأربع ان لايقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وان يتم الى ذى عهد عهده ولعل قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لايؤدى عنى الا رجل منى ليس على العموم فانه

فقال تعالى قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم فكان لايقاتل الا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لاحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الاجل لجميعهم أربعة أشهر وأحل دماء جميعهم من أهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الاجل وقال محمد بن اسحق ومجاهد وغيرهما نزلت فى أهل مكة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال

لاهم انى ناشد محمدا * حلف أبينا وأبيه الاتلدا
كنت لنا أبا وكنا ولدا * ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أبدا * وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا * فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا * ان سيم خطب وجهه تربدا
ان قريشا أخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تنجى أحدا * وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالحطيم هجدا * وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانصرت ان لم أنصركم وتجهز الى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال لاأحب أن أحج حتى لايكون ذلك فبعث أبابكر فى تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه (وسلم)

صلى الله عليه وسلم بعث لان يؤدى عنه كثيرا لم يكونوا من عترته بل هو مخصوص بالعهود فان عادة العرب ان لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة الا رجل منها ويدل عليه انه

وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى أنزل فى شأنى شئ فقال لا ولكن لا ينبغى لاحد أن يبلغ هذا الا رجل من أهلى أما ترضى ياأبابكر انك كنت معى فى الغار وانك معى على الحوض قال بلى يارسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحجاج وعلى بن أبى طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم فاقام للناس الحج والعرب فى تلك السنة على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية من أمر الحج حتى اذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب رضى الله عنه فاذن فى الناس بالذى أمره وقرأ عليهم أول سورة براءة وقال يزيد بن تبيع سألنا عليا باى شئ بعثت فى الحجة قال بعثت باربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ومن لم يكن له عهد فاجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا فى حج ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (ق) عن أبى هريرة ان أبا بكر بعثه فى الحجة التى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوادع فى رهط يؤذنون فى الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفى رواية ثم أردف النبى صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب فأمره ان يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فاذن معنا فى أهل منى ببراءة ان لا يحج بالبيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفى رواية ويوم الحج الاكبر يوم النحر والحج الاكبر الحج وانما قيل الحج الاكبر من أجل قول الناس للعمرة الحج الاصغر قال فنبذ أبو بكر الى الناس فى ذلك فلم يحج فى العام القابل الذى حج فيه النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك وأنزل الله فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر الى المشركين ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله الآية

فصل

قد يتوهم متوهم ان فى بعث على بن أبى طالب بقراءة أول براءة عزل أبى بكر عن الامارة وتفضيله على أبى بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على ان أبا بكر لم يزل أميرا على الموسم فى تلك السنة أول حديث أبى هريرة المتقدم ان أبا بكر بعثه فى رهط يؤذنون فى الناس الحديث وفى لفظ أبى داود والنسائى قال بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن فى يوم النحر عنى ان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثنى أبو بكر فيه دليل على أن أبا بكر كان هو الامير على الناس وهو الذى أقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم وأجاب العلماء عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليؤذن فى الناس ببراءة بان عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه الا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه وكان على بن أبى طالب أقرب الى النبى صلى الله عليه وسلم من أبى بكر لانه ابن عمه

في بعض الروايات لاينبغى لأحدان يبلغ هذا الارجل من اهلى ﴿واعلموا انكم غير معجزى الله﴾ لاتفوتونه وان امهلكم ﴿وان الله مخزى الكافرين﴾ بالقتل والاسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وأذان من الله ورسوله الى الناس﴾ أى اعلام فعال بمعنى الافعال كالامان والعطاء ورفعه كرفع براءة على الوجهين ﴿يوم الحج الاكبر﴾ يوم العيد لان فيه تمام الحج ومعظم افعاله ولان الاعلام كان فيه ولما روى انه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الاكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه السلام الحج عرفة ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر اولان المراد بالحج مايقع في ذلك اليوم من اعماله فانه اكبر من باقى الاعمال اولان ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عيده اعياد اهل الكتاب اولانه

ومن رهطه فبعثه النبى صلى الله عليه وسلم ليؤذن عنه ببراءة ازاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف مانعرفه من عادتنا في عقد العهود ونقضها وقيل لما خص أبا بكر بتوليته على الموسم خص عليا بتبليغ هذا الرسالة تطييبا لقلبه ورعاية لجانبه وقيل انما بعث عليا في هذه الرسالة حتى يصلى خلف أبى بكر ويكون جاريا مجرى التنبيه على امامة أبى بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لان النبى صلى الله عليه وسلم بعث أبابكر أميرا على الحاج وولاه الموسم وبعث عليا خلفه ليقرأ على الناس براءة فكان أبوبكر الامام وعلى المؤتم وكان أبوبكر الخطيب وعلى المستمع وكان أبوبكر المتولى أمر الموسم والامير على الناس ولم يكن ذلك لعلى فدل ذلك على تقديم أبى بكر على على وفضله عليه والله أعلم * وقوله عزوجل ﴿واعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ يعنى ان هذا الامهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب وقيل معناه فسيحوا في الارض أربعة أشهر عالمين انكم لاتعجزون الله بل هو يعجزكم ويأخذكم لانكم في ملكه وقبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه انما أمهلكم هذه المدة لانه لايخاف الفوت ولايعجزه شئ ﴿وأن الله مخزى الكافرين﴾ يعنى بالقتل والعذاب في الآخرة * قوله عزوجل ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ الاذان في اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة لانه اعلام بدخول وقتها والمعنى واعلام صادر من الله ورسوله واصل ﴿الى الناس يوم الحج الاكبر﴾ اختلفوا في يوم الحج الاكبر فروى عكرمة عن ابن عباس انه يوم عرفة ويروى ذلك عن ابن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن على بن أبى طالب قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الاكبر فقال يوم النحر أخرجه الترمذى وقال ويروى موقوفا عليه وهو أصح وعن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التى حج فيها فقال أى يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر اخرجه أبو داود ويروى ذلك عن عبدالله بن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير والسدى

مذلهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب (وأذان من الله ورسوله الناس) ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين ثم الجملة معطوفة على مثلها والاذان بمعنى الايذان وهو الاعلام كما ان الامان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء والفرق بين الجملة الاولى والثانيه أن الاولى اخبار بثبوت البراءة والثانية اخبار بوجود الاعلام بما ثبت وانما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الاذان بالناس لان البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الاذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث (يوم الحج الاكبر) يوم عرفة لان الوقوف بعرفة معظم افعال الحج أو يوم النحر لان فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمى ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج

(واعلموا) يامعشر الكفار (انكم غير معجزى الله) غير فائتين من عذاب الله بالقتل بعد أربعة أشهر (وان الله مخزى الكافرين) معذب الكافرين بعد أربعة أشهر بالقتل (وأذان من الله) وهذا اعلام من الله (ورسوله الى الناس) للناس (يوم الحج الاكبر) يوم النحر (وروى)

الاصغر (أن الله بریء من المشرکین) أی بان الله حذفت صلة الاذان تخفيفا

ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين ﴿ان الله﴾ اى بان الله ﴿برىء من المشركين﴾ اى من عهودهم ﴿ورسوله﴾ عطف على المستكن فى برىء اوعلى محل ان واسمها فى قراءة من كسرها اجراء للاذان مجرى القول وقرىء بالنصب عطفا على اسم ان اولان الواو بمعنى مع ولاتكرير فيه فان قوله براءة من الله اخبار بثبوت البراءة وهذه اخبار بوجوب الاعلام بذلك ولذلك علقه بالناس ولم يخص بالمعاهدين ﴿فان تبتم﴾ من الكفر والغدر ﴿فهو﴾ فالتوب ﴿خيرلكم وان توليتم﴾ عن التوبة اوثبتم على التولى عن الاسلام والوفاء ﴿فاعلموا انكم غير معجزى الله﴾ لاتفوتونه طلبا ولاتعجزونه هربا فى الدنيا ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ فى الآخرة

وروى ابن جريج عن مجاهد ان يوم الحج الاكبر أيام منى كلها وكان سفيان الثورى يقول يوم الحج الاكبر أيام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لان الحروب دامت فى تلك الايام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبدالله بن الحرث بن نوفل يوم الحج الاكبر الذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين قال مجاهد الحج الاكبر القران لانه قرن بين الحج والعمرة وقال الزهرى والشعبى وعطاء الحج الاكبر الحج والحج الاصغر العمرة وانما قيل لها الاصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل سمى الحج الاكبر لموافقة حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر فى خطبته ان الزمان قد استدار وأبطل النسىء وجميع أحكام الجاهلية * قوله عز وجل سبحانه وتعالى ﴿أن الله برىء من المشركين ورسوله﴾ فيه حذف والتقدير واذان من الله ورسوله بان الله برىء من المشركين وانما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفى رفع رسوله وجوه * الاول انه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير ان الله برىء من المشركين ورسوله ايضا برىء * الثانى تقديره برىء الله ورسوله من المشركين الثالث ان الله فى محل الرفع بالابتداء وبرىء خبره ورسوله عطف على المبتدأ فان قلت لافرق بين قوله براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين وبين قوله ان الله برىء من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار قلت المقصود من الآية الاولى البراءة من العهد ومن الآية الثانية البراءة التى هى نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد والذى يدل على صحة هذا الفرق انه قال فى أولها براءة من الله ورسوله الى يعنى برىء اليهم وفى الثانية برىء منهم * قوله عز وجل ﴿فان تبتم﴾ يعنى فان رجعتم عن شرككم وكفركم ﴿فهو خيرلكم﴾ يعنى من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله فى التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار ﴿وان توليتم﴾ يعنى أعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك ﴿فاعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ فيه وعيد عظيم واعلام لهم بان الله سبحانه وتعالى قادر على انزال العذاب بهم وهو قوله تعالى ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾

ورسوله عطف على المنوى فى برىء أوعلى الابتداء وحذف الخبر أى ورسوله برىء وقرىء بالنصب عطفا على اسم ان والجر على الجوار أوعلى القسم كقوله لعمرك وحكى ان اعرابيا سمع رجلا يقرؤها فقال ان كان الله بريئا من رسوله فانا منه برىء فلببه الرجل الى عمر فحكى الاعرابى قراءته فعندها أمر عمر بتعلم العربية (فان تبتم) من الكفر والغدر (فهو) أى التوبة (خير لكم) من الاصرار على الكفر (وان توليتم) عن التوبة أو ثبتم على التولى والاعراض عن الاسلام (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) غير سابقين الله ولا فائتين أخذه وعقابه (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) مكان

(أن الله برىء من المشركين) ودينهم وعهدهم الذى نقضوا (ورسوله) أيضا برىء من ذلك (فان تبتم) من الشرك وآمنتم بالله و بمحمد عليه السلام والقرآن (فهو خيرلكم) من الشرك (وان توليتم) عن الايمان والتوبة (فاعلموا) يامعشر المشركين (انكم غير معجزى الله) غير فائتين من عذاب الله (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) يعنى القتل بعد أربعة اشهر

بشارة المؤمنين بنعيم مقيم (الاالذين عاهدتم من المشركين) استثناء من قوله فسيحوا فى الارض والمعنى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا الاالذين عاهدتم منهم (ثم لم ينقصوكم شيأ) من شروط العهد أى وفوا بالعهد ولم ينقضوه وقرئ لم ينقضوكم أى عهدكم وهو أليق لكن المشهورة أبلغ لانه فى مقابلة التمام (ولم يظاهروا عليكم أحدا) ولم يعاونوا عليكم عدوا (فأتموا اليهم عهدهم) فأدوه اليهم تاما كاملا (الى مدتهم) الى تمام مدتهم والاستثناء بمعنى الاستدراك كانه قيل بعد ان أمروا فى الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفى كالغادر (ان الله يحب المتقين) يعنى ان قضية التقوى ان لا يسوى بين الفريقين فاتقوا الله فى ذلك (فاذا انسلخ) مضى أوخرج (الاشهر الحرم) التى أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا (فاقتلوا المشركين) الذين نقضوكم وظاهروا

﴿الاالذين عاهدتم من المشركين﴾ استثناء من المشركين او استدراك وكأنه قيل لهم بعد ان امروا بنبذ العهد الى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم ﴿ثم لم ينقصوكم شيئا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه اولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط ﴿ولم يظاهروا عليكم احدا﴾ من اعدائكم ﴿فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم﴾ الى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين ﴿ان الله يحب المتقين﴾ تعليل وتنبيه على ان اتمام عهدهم من باب التقوى ﴿فاذا انسلخ﴾ انقضى واصل الانسلاخ خروج الشئ مما لابسه من سلخ الشاة ﴿الاشهر الحرم﴾ التى ابيح للناكثين ان يسيحوا فيها وقيل رجب وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم وهذا مخل بالنظم مخالف للاجماع فانه يقتضى بقاء حرمة الاشهر الحرم اذليس فيما نزل بعد ما ينسخها ﴿فاقتلوا المشركين﴾

يعنى فى الآخرة ولفظ البشارة هنا انما ورد على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب واكرامهم الشتم * قوله سبحانه وتعالى ﴿الاالذين عاهدتم من المشركين﴾ هذا الاستثناء راجع الى قوله تعالى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين يعنى الامن عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حى من كنانة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة اشهر وكان السبب فيه انهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى ﴿ثم لم ينقصوكم شيأ﴾ يعنى من عهودهم التى عاهدتموهم عليها ﴿ولم يظاهروا﴾ يعنى ولم يعاونوا ﴿عليكم أحدا﴾ يعنى من عدوكم وقال صاحب الكشاف وجهه أن يكون مستثنى من قوله فسيحوا فى الارض لان الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا فى الارض الاالذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم ﴿فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم﴾ والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل لهم بعد ان امروا فى الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فاتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفى كالغادر ﴿ان الله يحب المتقين﴾ يعنى ان قضية التقوى تقتضى ان لا يسوى بين القبيلتين يعنى الوافى بالعهد والناكث له والغادر فيه * قوله سبحانه وتعالى ﴿فاذا انسلخ الاشهر الحرم﴾ يعنى فاذا انقضت الاشهر الحرم ومضت وهى رجب وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم وقال مجاهد ومحمد بن اسحق هى شهور العهد سميت حرما لحرمة نقض العهد فيها فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فاجله الى انقضاء المحرم وذلك خمسون يوما وقيل انما قيل لها حرم لان الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم فان قلت على هذا القول هذه المدة وهى الخمسون يوما بعض الاشهر الحرم والله سبحانه وتعالى قال فاذا انسلخ الاشهر الحرم قلت لما كان هذا القدر من الاشهر متصلا بما مضى أطلق عليه اسم الجمع والمعنى فاذا مضت المدة المضروبة التى يكون معها انسلاخ الاشهر الحرم ﴿فاقتلوا المشركين﴾

(الاالذين عاهدتم من المشركين) يعنى بنى كنانة بعد عام الحديبية (ثم لم ينقصوكم شيأ) لم ينقضوا عهدهم مما كان لهم تسعة أشهر (ولم يظاهروا) ولم يعاونوا (عليكم أحدا) من عدوكم (فأتموا اليهم) لهم (عهدهم الى مدتهم) الى وقت أجلهم تسعة أشهر (حيث) (ان الله يحب المتقين)عن نقض العهد (فاذا انسلخ الاشهر الحرم) فاذا خرج شهر المحرم من بعد يوم النحر (فاقتلوا المشركين)

عليكم (حيث وجدتموهم) من حل اوحرم (وخذوهم) وأسروهم والاخذ الاسر (واحصروهم) وقيدوهم وامنعوهم من التصرف فى البلاد (واقعدوا لهم كل مرصد) كل ممر ومجتاز ترصدونهم به وانتصابه على الظرف (فان تابوا) عن الكفر (واقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم) فاطلقوا عنهم بعد الاسر والحصر أو فكفوا عنهم ولاتتعرضوا لهم (ان الله غفور) يستر الكفر والغدر بالاسلام (رحيم) برفع القتل قبل الاداء بالالتزام (وان أحد من المشركين استجارك فاجره) أحد مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر أى وان استجارك أحد استجارك والمعنى وان جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الاشهر لاعهد بينك وبينه واستأمنك ليسمع ماتدعو اليه من التوحيد والقرآن فامنه (حتى يسمع كلام الله) ويتدبره ويطلع على حقيقة الامر (ثم أبلغه) بعد ذلك (مأمنه) داره التى يأمن فيها ان لم يسلم ثم قاتله ان شئت وفيه دليل على ان المستأمن لايؤذى وليس له الاقامة فى دارنا ويمكن من العود (ذلك) أى الامر بالاجارة فى قوله فاجره (بانهم قوم لايعلمون) بسبب

الناكثين ﴿حيث وجدتموهم﴾ من حل وحرم ﴿وخذوهم﴾ وأسروهم والاخيذ الاسير ﴿واحصروهم﴾ واحبسوهم اوحيلوا بينهم وبين المسجد الحرام ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ كل ممر لئلا يتبسطوا فى البلاد وانتصابه على الظرف ﴿فان تابوا﴾ عن الشرك بالايمان ﴿واقاموا الصلوة وآتوا الزكاة﴾ تصديقا لتوبتهم وايمانهم ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشئ من ذلك وفيه دليل على ان تارك الصلاة ومانع الزكاة لايخلى سبيله ﴿ان الله غفور رحيم﴾ تعليل الامر اى فخلوهم لان الله غفور رحيم غفر لهم ماقد سلف ووعد لهم الثواب بالتوبة ﴿وان احد من المشركين﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿استجارك﴾ استأمنك وطلب منك جوارك ﴿فاجره﴾ فامنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الامر ﴿ثم ابلغه مأمنه﴾ موضع امنه ان لم يسلم واحد رفع بفعل يفسره مابعده لا بالابتداء لان ان من عوامل الفعل ﴿ذلك﴾ الامن او الامر ﴿بانهم قوم لايعلمون﴾ ماالايمان وما حقيقة ماتدعوهم اليه فلابد

حيث وجدتموهم﴾ يعنى فى الحل والحرم وهذا أمر اطلاق يعنى اقتلوهم فى أى وقت أى مكان وجدتموهم ﴿وخذوهم﴾ يعنى وأسروهم ﴿واحصروهم﴾ أى واحبسوهم قال ابن عباس يريد ان تحصنوا فاحصروهم امنعوهم من الخروج وقيل امنعوهم من دخول مكة والتصرف فى بلاد الاسلام ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ يعنى على كل طريق والمرصد الموضع الذى يقعد فيه للعدو من رصدت الشئ أرصده اذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم من أى وجه توجهوا وقيل معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لايدخلوها ﴿فان تابوا﴾ يعنى من الشرك ورجعوا الى الايمان ﴿وأقاموا الصلوة﴾ يعنى وأتموا أركان الصلاة المفروضة ﴿وآتوا الزكوة﴾ الواجبة عليهم طيبة بها أنفسهم ﴿فخلوا سبيلهم﴾ يعنى الى الدخول الى مكة والتصرف فى بلادهم ﴿ان الله غفور﴾ يعنى لمن تاب ورجع من الشرك الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة ﴿رحيم﴾ يعنى باوليائه وأهل طاعته وقال الحسن بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على أذى الاعداء * قوله تعالى ﴿وان أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله﴾ يعنى وان استأمنك يامحمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم ليسمع كلام الله الذى أنزل عليك وهو القرآن فأجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ماله من الثواب ان آمن وماعليه من العقاب ان أصر على الكفر ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ يعنى ان لم يسلم أبلغه الى الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه وان قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله ﴿ذلك بانهم قوم لايعلمون﴾ أى لايعلمون دين الله وتوحيده فهم يحتاجون

من كان عهدهم خمسين يوما (حيث وجدتموهم) فى الحل والحرم والاشهر الحرام (وخذوهم) اؤسروهم (احبسوهم) عن البيت (وقعدوا لهم كل مرصد) على كل طريق يذهبون ويجيؤن فيه للتجارة (فان تابوا) من الشرك وآمنوا بالله (وأقاموا الصلوة) اقروا بالصلوات الخمس (وآتوا الزكوة) اقروا باداء الزكاة (فخلوا سبيلهم) الى البيت (ان الله غفور) متجاوز لمن تاب منهم (رحيم) لمن مات على التوبة (وان احد من المشركين استجارك) استأمنك (فأجره) فامنه حتى يسمع كلام الله قراءتك لكلام الله (ثم أبلغه مأمنه) وطنه الى حيثما جاء ان لم يؤمن (ذلك) الذى ذكرت (بانهم قوم لايعلمون)

انهم قوم جهلة لايعلمون ما الاسلام وما حقيقة ما تدعو اليه فلابد من اعطائهم الامان حتى يسمعوا أو فهموا الحق (كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله) كيف استفهام فى معنى الاستنكار أى مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا فى ذلك ولاتحدثوا به نفوسكم ولاتفكروا فى قتلهم ثم استدرك ذلك بقوله (الا الذين عاهدتم) أى ولكن الذين عاهدتم منهم (عند المسجد الحرام) ولم يظهر منهم نكث كبنى كنانة وبنى ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم (فما استقاموا لكم) ولما يظهر منهم نكث أى فما أقاموا على وفاء العهد (فاستقيموا لهم) على الوفاء وما شرطية أى فان استقاموا لكم فاستقيموا لهم (ان الله يحب المتقين) يعنى ان التربص بهم من أعمال المتقين (كيف

من امانهم ريثما يسمعون ويتدبرون ﴿كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله﴾ استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد لان يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وغرة صدورهم اولان يفى الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه وخبر يكون كيف وقدم للاستفهام او للمشركين او عندالله وهو على الاولين صفة للعهد اوظرف له اوليكون وكيف على الاخيرين حال من العهد وللمشركين ان لم يكن خبرا فتبيين ﴿الا الذين عاهدتم عندالمسجد الحرام﴾ هم المستثنون قبل ومحله النصب على الاستثناء او الجر على البدل او الرفع على ان الاستثناء منقطع اى ولكن الذين عاهدتم منهم عندالمسجد الحرام ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ اى فتربصوا امرهم فان استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله تعالى فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم غيرانه مطلق وهذا مقيد وما يحتمل الشرطية والمصدرية ﴿ان الله يحب المتقين﴾ سبق بيانه ﴿كيف﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد او بقاء حكمه مع التنبيه على العلة وحذف الفعل للعلم به كما فى قوله

وخبرتمانى انما الموت بالقرى * فكيف وهاتا هضبة وقليب

اى فكيف مات

الى سماع كلام الله عزوجل قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة ﴿كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله﴾ هذا على وجه التعجب ومعناه الجحد أى لايكون لهم عهد عندالله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى ﴿الا الذين عاهدتم عندالمسجد الحرام﴾ قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وقال السدى ومحمد بن عباد ومحمد بن اسحق هم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو الدئل قبائل من بنى بكر كانوا دخلوا فى عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية وقال مجاهد هم أهل العهد من خزاعة ﴿فما استقاموا لكم﴾ يعنى على العهد ﴿فاستقيموا لهم﴾ يعنى ما أقاموا على العهد ثم انهم لم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بنى بكر على خزاعة فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم اما ان يسلموا واما ان يلحقوا بأى بلاد شاؤا فأسلموا بعد الاربعة الاشهر والصواب من ذلك قول من قال انهم قبائل من بنى بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الدئل وهم الذين كانوا قد دخلوا فى عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد الا قريش وبنو الدئل من بنى بكر فامر باتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وانما كان الصواب هذا القول لان هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لان بعد الفتح كيف يقول لشئ قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وانما هم الذين قال الله عزوجل فيهم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحدا كما ظاهرت قريش بنى بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم * وقوله تعالى ﴿ان الله يحب المتقين﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد اذا عاهدوا ويتقون نقضه ﴿كيف

أمر الله وتوحيده (كيف) على وجه التعجب (يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) بعد عام الحديبية وهم بنو كنانة (فما استقاموا لكم) بالوفاء (فاستقيموا لهم) بالتمام (ان الله يحب المتقين) عن نقض العهد (كيف) على وجه التعجب يكون بينكم وبينهم عهد

(وان)

﴿وان يظهروا عليكم﴾ اى وحالهم انهم ان يظفروا بكم ﴿لايرقبوا فيكم﴾ لايراعوا فيكم ﴿الا﴾ حلفا وقيل قرابة قال حسان

لعمرك ان الك من قريش * كال السقب من رأل النعام

وقيل ربوبية ولعله اشتق للحلف من الال وهو الجؤار لانهم كانوا اذا تحالفوا رفعوا به اصواتهم وشهروه ثم استعير للقرابة لانها تعقد بين الاقارب مالا يعقده الحلف ثم للربوبية والتربية وقيل اشتقاقه من الل الشئ اذا حدده او من ال البرق اذا لمع وقيل انه عبرى بمعنى الاله لانه قرئ ايلا كجبرئل وجبرئيل ﴿ولا ذمة﴾ عهدا اوحقا يعاب على اغفاله ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية الى عدم مراقبتهم عند الظفر ولايجوز جعله حالا من فاعل لايرقبوا فانهم بعد ظهورهم لايرضون ولان المراد اثبات ارضائهم المؤمنين بوعد الايمان والطاعة والوفاء بالعهد فى الحال واستبطان الكفر والمعاداة بحيث ان ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه ﴿وتأبى قلوبهم﴾ مايتفوه به افواههم ﴿واكثرهم فاسقون﴾ متمردون لاعقيدة تزعهم ولامروءة تردعهم وتخصيص الاكثر لمافى بعض الكفرة من التفادى عن الغدر والتعفف عما يجر الى احدوثة السوء ﴿اشتروا بآيات الله﴾ استبدلوا بالقرآن ﴿ثمنا قليلا﴾ عوضا يسيرا وهو اتباع الاهواء والشهوات

وان يظهروا عليكم ﴿ قيل هذا مردود على الآية الاولى تقديره كيف يكون لهم عهد وان يظهروا عليكم ﴾ ﴿لايرقبوا فيكم الا ولاذمة﴾ وقال الاخفش معناه كيف لاتقتلونهم وهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم ويغلبوكم ويعلوا عليكم لايرقبوا أى لايحفظوا وقيل معناه لاينتظروا وقيل معناه لايراعوا فيكم الاقال ابن عباس يعنى قرابة وقيل رحا وهذا معنى قول ابن عباس أيضا وقال قتادة الال الحلف وقال السدى هو العهد وكذلك الذمة وانما كرر للتأكيد أو لاختلاف اللفظين وقال أبو مجلز ومجاهد الال هو الله عز وجل ومنه قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب ان هذا الكلام لم يخرج من ال يعنى من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لايرقبون الله فيكم ولايحفظونه ولايراعونه ولاذمة يعنى ولايحفظون عهدا ﴿ يرضونكم بافواههم وتأبى قلوبهم ﴾ يعنى يطيعونكم بالسنتهم بخلاف مافى قلوبهم ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ فان قلت ان الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر أخبث وأقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق فى معرض الذم وما الفائدة فى قوله وأكثرهم فاسقون مع ان الكفار كلهم فاسقون قلت قد يكون الكافر عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا خبيث الفسق فى دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين أنهم نقضوا العهد وبالغوا فى العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون أبلغ فى الذم وانما قال أكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لان منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه وأكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى وأكثرهم فاسقون * وقوله تعالى ﴿ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ﴾ يعنى استبدلوا بآيات القرآن والايمان بها عرضا قليلا من متاع الدنيا وذلك انهم نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله

كيف يكون لهم عهد وحالهم انهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم بعد ماسبق لهم من تأكيد الايمان والمواثيق (لايرقبوا فيكم الا) لايراعوا حلفا والاقرابة (ولاذمة) عهدا (يرضونكم بافواههم) بالوعد بالايمان والوفاء بالعهد وهو كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر والباطن ومقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد (وتابى قلوبهم) الايمان الوفاء بالعهد (وأكثرهم فاسقون) ناقضون العهد أو متمردون فى الكفر لامروءة تمنعهم عن الكذب ولاشمائل تردعهم عن النكث كما يوجد ذلك فى بعض الكفرة من التفادي عنهما (اشتروا) استبدلوا (بآيات الله) بالقرآن (ثمنا قليلا) عرضا يسيرا وهو اتباع الاهواء والشهوات

(وان يظهروا) يغلبوا (عليكم لايرقبوا فيكم) لايحفظوكم (الا) لقبل القرابة ويقال لقبل الله (ولاذمة) لاقبل العهد (يرضونكم بافواههم) بألسنتهم (وتأبى) تنكر (قلوبهم وأكثرهم) كلهم (فاسقون) ناقضون العهد (اشتروا بآيات الله) بمحمد عليه السلام والقرآن (ثمنا قليلا) عوضا يسيرا

﴿فصدوا عن سبيله﴾ دينه الموصل اليه او سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار والفاء للدلالة على ان اشتراءهم اداهم الى الصد ﴿انهم ساء ما كانوا يعملون﴾ عملهم هذا او ما دل عليه قوله ﴿لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة﴾ فهو تفسير لا تكرير وقيل الاول عام فى المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود او الاعراب الذين جمعهم ابو سفيان واطعمهم ﴿واولئك هم المعتدون﴾ فى الشرارة ﴿فان تابوا﴾ عن الكفر ﴿واقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فاخوانكم﴾ فهم اخوانكم ﴿فى الدين﴾ لهم مالكم وعليهم ماعليكم ﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من احكام المعاهدين او خصال التائبين

عليه وسلم بسبب أكلة أطعمهم اياها أبو سفيان بن حرب فذمهم الله بذلك قال مجاهد أطعم أبو سفيان حلفاء وترك حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فصدوا عن سبيله﴾ يعنى منعوا الناس عن الدخول فى دين الله قال ابن عباس وذلك ان أهل الطائف أمدوهم بالاموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿انهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يعنى من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول فى دين الاسلام ﴿لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة﴾ يعنى ان هؤلاء المشركين لا يراعون فى مؤمن عهدا ولا ذمة اذا قدروا عليه قتلوه فلا تبقوا أنتم عليهم كما لم يبقوا عليكم اذا ظهروا عليكم ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ يعنى فى نقض العهد * قوله عز وجل ﴿فان تابوا﴾ يعنى فان رجعوا عن الشرك الى الايمان وعن نقض العهد الى الوفاء به ﴿وأقاموا الصلوة﴾ يعنى المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها ﴿وآتوا الزكوة﴾ يعنى وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم طيبة بها أنفسهم ﴿فاخوانكم فى الدين﴾ يعنى اذا فعلوا ذلك فهم اخوانكم فى الدين لهم مالكم وعليهم ماعليكم ﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ يعنى ونبين حجج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه قال ابن عباس حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة الا بالزكاة وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعنى بذلك ما ذكره أبو بكر فى حق من منع الزكاة وهو قوله والله لا افرق بين شيئين جمع الله بينهما يعنى الصلاة والزكاة (ق) عن أبى هريرة قال لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لابى بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبو بكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها وفى رواية عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله وسلم لقاتلتهم على منعها فقال عمر فوالله ماهو الا أن رأيت ان الله شرح صدر أبى بكر للقتال

بئس الصنيع صنيعهم (لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة) ولا تكرار لان الاول على الخصوص حيث قال فيكم والثانى على العموم لانه قال فى مؤمن (وأولئك هم المعتدون) المجاوزون الغاية فى الظلم والشرارة (فان تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فاخوانكم) فهم اخوانكم على حذف المبتدأ (فى الدين) لا فى النسب (ونفصل الآيات) ونبينها (لقوم يعلمون) يفهمون فيتفكرون فيها وهذا اعتراض كانه قيل وان من تأمل تفصيلها فهو العالم تحريضا على تامل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها

(فصدوا عن سبيله) عن دينه وطاعته (انهم ساء ما كانوا يعملون) بئس ما كانوا يصنعون من الكتمان وغيره ويقال نزلت هذه الآية فى شأن اليهود (لا يرقبون) لا يحفظون (فى مؤمن الا) قرابة ويقال الا هو الله (ولا ذمة) لا تقبل العهد (وأولئك هم المعتدون) من الحلال الى الحرام بنقض العهد وغيره (فان تابوا) من الشرك وآمنوا بالله (وأقاموا الصلوة) أقروا بالصلوات (وآتوا الزكوة) ﴿فعرفت﴾ اقروا بالزكوة (فاخوانكم فى الدين) فى الاسلام (ونفصل الآيات) نبين القرآن بالامر والنهى (لقوم يعلمون) ويصدقون

(وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم) أى نقضوا العهود المؤكدة بالايمان (وطعنوا فى دينكم) وعابوه (فقاتلوا أئمة الكفر) فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم

﴿وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم﴾ وان نكثوا مابايعوا عليه من الايمان أو الوفاء بالعهود ﴿وطعنوا فى دينكم﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الاحكام ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ أى فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على انهم صاروا بذلك ذوى الرياسة والتقدم فى الكفر احقاء بالقتل وقيل المراد بالائمة رؤساء المشركين فالتخصيص اما لان قتلهم اهم وهم احق به أو للمنع من مراقبتهم *وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى وروح عن يعقوب أئمة بتحقيق الهمزتين على الاصل والتصريح بالياء لحن ﴿انهم لا ايمان لهم﴾ أى لا ايمان لهم على الحقيقة والالما طعنوا ولم ينكثوا وفيه دليل على ان الذمى اذا طعن فى الاسلام فقد نكث عهده واستشهد به الحنفية على ان يمين الكافر ليست يمينا وهو ضعيف لان المراد نفى الوثوق عليها لا انها ليست بايمان لقوله تعالى وان نكثوا ايمانهم *وقرأ ابن عامر لا ايمان بمعنى لا امان أو لا اسلام وتشبث به من لم يقبل توبة المرتدين وهو ضعيف لجواز ان يكون بمعنى لا يؤمنون على الاخبار عن قوم معينين أو ليس لهم ايمان فيراقبوا لاجله ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقاتلوا أى

فعرفت انه الحق عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله ۞ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وان نكثوا أيمانهم ﴾ يعنى وان نقضوا عهودهم ﴿ من بعد عهدهم ﴾ يعنى من بعد ماعاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم ﴿وطعنوا فى دينكم﴾ يعنى وعابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه وثلبوه وفى هذا دليل على ان الذمى اذا طعن فى دين الاسلام وعابه ظاهرا لا يبقى له عهد والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد كفار قريش وهو قوله تعالى ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ يعنى رؤس المشركين وقادتهم قال ابن عباس نزلت فى أبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبى جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا باخراج الرسول وقيل أراد جميع الكفار وانما ذكر الائمة لانهم الرؤساء والقادة فى قتالهم قتال الاتباع وقال مجاهد هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان ماقوتل أهل هذه الآية بعد ولم يأت أهلها ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فانهم أئمة الكفر فى ذلك الزمان والله أعلم بمراده ۞ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ انهم لا أيمان لهم ﴾ جمع يمين أى لا عهد لهم وقيل معناه انهم لا وفاء لهم بالعهود وقرئ لا ايمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لا دين لهم ولا تصديق وقيل هو من الامان أى اقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تؤمنوهم ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ أى لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم ويرجعوا عن الكفر الى الايمان ثم حض المؤمنين على

وهم رؤساء الشرك أو زعماء قريش الذين هموا باخراج الرسول وقالوا اذا طعن الذمى فى دين الاسلام طعنا ظاهرا جاز قتله لان العهد معقود معه على أن لا يطعن فاذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة أئمة بهمزتين كوفى وشامى الباقون بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة أصلها أءممة لانها جمع امام كعماد وأعمدة فنقلت حركة الميم الاولى الى الهمزة الساكنة وأدغمت فى الميم الاخرى فمن حقق الهمزتين أخرجهما على الاصل ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها (انهم لا أيمان لهم) وانما أثبت لهم الايمان فى قوله وان نكثوا أيمانهم لانه أراد أيمانهم التى أظهروها ثم قال لا ايمان لهم على الحقيقة وهو دليل لنا على أن يمين الكافر لا تكون يمينا ومعناه عند الشافعى رحمه الله انهم لا يوفون بها لان يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث لا ايمان شامى أى لا اسلام (لعلهم ينتهون)

(وان نكثوا) أهل مكة (أيمانهم) عهودهم التى بينكم وبينهم (قا و خا ١٢ لث) (من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم) عابوكم فى دين الاسلام (فقاتلوا أئمة الكفر) قادة الكفر أباسفيان وأصحابه (انهم لا أيمان لهم) لا عهد لهم (لعلهم ينتهون) لكي ينتهوا

متعلق بفقاتلوا أئمة الكفر ومابينهما اعتراض أى ليكن غرضكم فى مقاتلتهم انتهاءهم عماهم عليه بعدما وجد منهم من العظائم وهذا من غاية كرمه على المسىء ثم حرض على القتال فقال (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) التى حلفوها فى المعاهدة (وهموا باخراج الرسول) من مكة (وهم بدؤكم أول مرة) بالقتال والبادى أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها من نكث العهد واخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب (أتخشونهم) توبيخ على الخشية منهم (فالله أحق أن تخشوه) بان تخشوه فقاتلوا أعداءه (ان كنتم مؤمنين) فاخشوه أى ان قضية الايمان الكامل أن لا يخشى المؤمن الا ربه ولا يبالى بمن سواه ولما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الامر به بقوله (قاتلوهم) ووعدهم النصر ليثبت قلوبهم وتصح نياتهم بقوله (يعذبهم الله بايديكم) قتلا (ويخزهم) أسرا (وينصركم عليهم)

ليكن غرضكم فى المقاتلة ان ينتهوا عماهم عليه لا لايصال الاذية بهم كما هو طريقة المؤذين ﴿الا تقاتلون قوما﴾ تحريض على القتال لان الهمزة دخلت على النفى للانكار فافادت المبالغة فى الفعل ﴿نكثوا ايمانهم﴾ التى حلفوها مع الرسول عليه السلام والمؤمنين على ان لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة ﴿وهموا باخراج الرسول﴾ حين تشاوروا فى امره بدار الندوة على مامر ذكره فى قوله واذ يمكر بك الذين كفروا وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا باخراجه من المدينة ﴿وهم بدؤكم أول مرة﴾ بالمعاداة والمقاتلة لانه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة والزام الحجة بالكتاب والتحدى به فعدلوا عن معارضته الى المعادات والمقاتلة فما يمنعكم ان تعارضوهم وتصادموهم ﴿اتخشونهم﴾ أتتركون قتالهم خشية ان ينالكم مكروه منهم ﴿فالله احق ان تخشوه﴾ فقاتلوا اعداءه ولا تتركوا امره ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ فان قضية الايمان ان لا يخشى الا منه ﴿قاتلوهم﴾ امر بالقتال بعد بيان موجبه والتوبيخ على تركه والتوعيد عليه ﴿يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ وعد لهم ان قاتلوهم بالنصر عليهم

جهاد الكفار وبين السبب فى ذلك فقال تعالى ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم﴾ يعنى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بنى بكر على خزاعة ﴿وهموا باخراج الرسول﴾ يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة ﴿وهم بدؤكم﴾ يعنى بالقتال ﴿أول مرة﴾ يعنى يوم بدر وذلك أنهم قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه وقيل أراد به انهم بدؤا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿أتخشونهم﴾ يعنى أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ يعنى فى ترك القتال ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ يعنى ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده * قوله سبحانه وتعالى ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم﴾ يريد بالتعذيب القتل يعنى يقتلهم الله بايديكم فان قلت كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بايديكم وبين قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم قلت المراد بقوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم عذاب الاستئصال يعنى وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعا وأنت فيهم والمراد بقوله قاتلوهم يعنى الذين نقضوا العهد وبدؤا بالقتال فامر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم والفرق بين العذابين ان عذاب الاستئصال يتعدى الى المذنب وغير المذنب والى المخالف والموافق وعذاب القتل لا يتعدى الا الى المذنب المخالف * وقوله تعالى ﴿ويخزهم﴾ يعنى ويذلهم بالقهر والاسر وينزل بهم الذل والهوان ﴿وينصركم عليهم﴾ يعنى بان يظفركم بهم

عن نقض العهد (ألا تقاتلون قوما) مالكم لا تقاتلون قوما يعنى أهل مكة (نكثوا أيمانهم) نقضوا عهودهم التى بينكم وبينهم (وهموا باخراج الرسول) أرادوا قتل الرسول حيث دخلوا دار الندوة (وهم بدؤكم أول مرة) بنقض العهد منهم حيث أعانوا بنى بكر (ويشف) حلفاءهم على بنى خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم (أتخشونهم) يامعشر المؤمنين أتخشون قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) فى ترك أمره (ان كنتم) اذ كنتم (مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم) بسيوفكم بالقتل (ويخزهم) يذلهم بالهزيمة (وينصركم عليهم)

يغلبكم عليهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) طائفة منهم وهم خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويذهب غيظ قلوبهم) لما لقوا منهم من المكروه وقد حصل الله هذه المواعد كلها فكان دليلا على صحة نبوته (ويتوب الله على من يشاء) ابتداء كلام واخبار بان بعض أهل مكة يتوب عن كفره وكان ذلك أيضا فقد أسلم ناس منهم كابي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وهي ترد على المعتزلة قولهم ان الله تعالى شاء ان يتوب على جميع الكفرة لكنهم لا يتوبون باختيارهم (والله عليم) يعلم ماسيكون كما يعلم ماقد كان (حكيم) في قبول التوبة (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أم منقطعة والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان أي لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين المخلص منكم وهم الذين جاهدوا

والتمكن من قتلهم واذلالهم ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ يعني بني خزاعة وقيل بطونا من اليمن وسبا قدموا مكة فاسلموا فلقوا من اهلها اذى شديدا فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ابشروا فان الفرج قريب ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ لما لقوا منهم وقد اوفى الله بما وعدهم والآية من المعجزات ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ ابتداء اخبار بان بعضهم يتوب عن كفره وقد كان ذلك ايضا وقرئ ويتوب بالنصب على اضمار ان على انه من جملة ما اجيب به الامر فان القتال كما تسبب لتعذيب قوم تسبب لتوبة قوم آخرين ﴿ والله عليم ﴾ بما كان وما سيكون ﴿ حكيم ﴾ لا يفعل ولا يحكم الا على وفق الحكمة ﴿ أم حسبتم ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال وقيل للمنافقين وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على الحسبان ﴿ ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ ولم يتبين الخلص منكم وهم الذين جاهدوا من غيرهم نفي العلم واراد نفي المعلوم للمبالغة فانه كالبرهان عليه من حيث ان تعلق العلم به مستلزم لوقوعه

﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ يعني ويبرئ داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الاذى منهم ومن المعلوم ان من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فانه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة اليقين وثبات العزيمة قال مجاهد والسدي أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعانت قريش بني بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم ثم شفى الله صدور خزاعة من بني بكر حتى أخذوا بثأرهم منهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ يعني ويذهب وجد قلوبهم بما نالوه من بني بكر روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة ارفعوا السيف الا خزاعة من بني بكر الى العصر ذكره البغوي بغير سند * ثم قال تعالى ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالاول والمعنى ويهدي الله من يشاء الى الاسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه الى الاسلام كما فعل بابي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله عليهم بالإسلام يوم فتح مكة فاسلموا ﴿ والله عليم ﴾ يعني بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الازلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه الى الاسلام ﴿ حكيم ﴾ يعني في جميع أفعاله * قوله عز وجل ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ﴾ هذا من الاستفهام المعترض في وسط الكلام ولذلك أدخلت فيه أم لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ والمعنى أظننتم أيها المؤمنون ان تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ أراد بالعلم المعلوم لان وجود الشئ يلزمه معلوم الوجود عند الله لا جرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده قاله الامام فخر الدين الرازي ونقل الواحدي عن الزجاج

بالغلبة (ويشف صدور قوم مؤمنين) يفرح قلوب بني خزاعة عليهم بما أحل لهم القتل يوم فتح مكة ساعة في الحرم (ويذهب غيظ قلوبهم) حنق قلوبهم (ويتوب الله على من يشاء) على من تاب منهم (والله عليم) بمن تاب وبمن لم يتب منهم (حكيم) فيما حكم عليهم ويقال حكم بقتلهم وهزيمتهم (أم حسبتم) أظننتم يامعشر المؤمنين (أن تتركوا) ان تهملوا وان لا تؤمروا بالجهاد (ولما يعلم الله) ولم ير الله (الذين جاهدوا منكم) في سبيل الله

فى سبيل الله لوجه الله (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولما

وقد دلت على ان تبين ذلك متوقع كائن وان الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين ولم يتخذوا معطوف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة كأنه قيل ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كقولك ما علم الله منى ما قيل فى تريد ما وجد ذلك منى والمعنى أحسبتم ان تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين (والله خبير بما تعملون) من خير أو شر فيجازيكم عليه (ما كان للمشركين) ما صح لهم وما استقام (أن يعمروا مساجد الله) مسجد الله مكى وبصرى يعنى المسجد الحرام وانما جمع فى القراءة بالجمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامر جميع المساجد ولان كل بقعة منه مسجد أو أريد جنس المساجد واذا لم يصلحوا لان يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس وهو آكد اذ طريقه طريق الكناية كما تقول فلان لا يقرأ كتب الله كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك

﴿ ولم يتخذوا ﴾ عطف على جاهدوا داخل فى الصلة ﴿ من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ بطانة يوالونهم ويفشون اليهم اسرارهم وما فى لما من معنى التوقع منبه على ان تبين ذلك متوقع ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ يعلم غرضكم منه وهو كالمزيح لما يتوهم من ظاهر قوله ولما يعلم الله ﴿ ما كان للمشركين ﴾ ما صح لهم ﴿ ان يعمروا مساجد الله ﴾ شيأ من المساجد فضلا عن المسجد الحرام وقيل هو المراد وانما جمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامر الجمع ويدل عليه قراءة ابن كثير وابى

أى العلم الذى يجازى عليه لانه انما يجازى على ما عملوا ﴿ ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم أسرارهم وقال قتادة وليجة يعنى خيانة وقال الضحاك خديعة وقال عطاء أولياء يعنى لا تتخذوا المشركين أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين وقال أبو عبيدة كل شئ أدخلته فى شئ ليس منه فهو وليجة والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس وقال الراغب الوليجة كل ما يتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة فى القوم اذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهى المؤمنين عن موالاة المشركين وان يفشوا اليهم أسرارهم ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ يعنى من موالاة المشركين واخلاص العمل لله وحده * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ما كان للمشركين ان يعمروا مسجد الله ﴾ يعنى به المسجد الحرام وقرئ مساجد الله على الجمع والمراد به المسجد الحرام أيضا وانما ذكره بلفظ الجمع لانه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء كفار قريش أسروا يوم بدر ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيرونهم بالشرك وجعل على بن أبى طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقيل له وهل لكم من محاسن قال نعم نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى يعنى الاسير فنزلت هذه الآية ما كان للمشركين أى ما ينبغى للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك لان المساجد انما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافرا بالله فليس له أن يعمر مساجد الله واختلفوا فى المراد بالعمارة على قولين أحدهما ان المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها عند خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثانى أن المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه فيمنع الكافر من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذن لم يعزر ويدل على جواز دخول

(ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين) المخلصين (وليجة) بطانة من الكفار (والله خبير بما تعملون) من الخير والشر فى الجهاد وغيره (ما كان للمشركين) ما ينبغى للمشركين (أن يعمروا مساجد الله

﴿ الكافر ﴾

عمرو ويعقوب بالتوحيد ﴿شاهدين على انفسهم بالكفر﴾ باظهار الشرك وتكذيب الرسول وهو حال من الواو والمعنى ماستقام لهم ان يجمعوا بين امرين متنافيين عمارة بيت الله وعبادة غيره روى انه لما اسر العباس عيره المسلمون بالشرك وقطيعة الرحم واغلظ له علي رضى الله تعالى عنه فى القول فقال مابالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى فنزلت ﴿اولئك حبطت اعمالهم﴾ التى يفتخرون بها بماقارنها من الشرك ﴿وفى النار هم خالدون﴾ لاجله ﴿انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر

الكافر المسجد بالاذن ان النبى صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سوارى المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها * قوله عز وجل ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ يعنى لايدخلون المساجد فى حال كونهم شاهدين وقيل تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب وقال ابن عباس رضى الله عنه شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك ان كفار قريش كانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للاصنام فلم يزدادوا بذلك من الله الا بعدا وقال الحسن انهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر وقال السدى شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو ان النصرانى يسئل من أنت فيقول نصرانى واليهودى يقول يهودى والمشرك يقول مشرك وقال ابن عباس رضى الله عنه فى رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من أنفسهم ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ يعنى الاعمال التى عملوها فى حال الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقى الحاج وفك العانى لانهم لم تكن لله فلم يكن لها تأثير مع الكفر ﴿ وفى النار هم خالدون ﴾ يعنى من مات منهم على كفره * قوله عز وجل ﴿ انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ لما بين الله عز وجل ان الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين فى هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فان الايمان بالله شرط فيمن يعمر المسجد لان المسجد عبارة عن الموضع الذى يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمنا بالله امتنع أن يعمر موضعا يعبد الله فيه واليوم الآخر يعنى وآمن باليوم الآخر وانه حق كائن لان عمارة المسجد لاجل عبادة الله وجزاء أجره انما يكون فى الآخرة فمن أنكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجدا فان قلت لم لم يذكر الايمان برسول الله مع أن الايمان به شرط فى صحة الايمان قلت ان الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم داخل فى الايمان بالله فان من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لان من جهته عرف الايمان بالله واليوم الآخر لانه هو الداعى الى ذلك وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى النبوة طلبا للرياسة والملك فاخبر الله عز وجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم انما دعا الى الايمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انه تبارك

(شاهدين على أنفسهم بالكفر) باعترافهم بعبادة الاصنام وهو حال من الواو فى يعمروا والمعنى ما استقام لهم ان يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته (أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون) دائمون (انما يعمر مساجد الله) عمارتها رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا لانها بنيت للعبادة والذكر ومن الذكر درس العلم (من آمن بالله واليوم الآخر) ولم يذكر الايمان بالرسول عليه السلام لما علم ان الايمان بالله قرينة الايمان بالرسول لاقترانهما فى الاذان والاقامة وكلمة الشهادة وغيرها أو دل

شاهدين على أنفسهم) بتلبيتهم (بالكفر أولئك حبطت أعمالهم) بطلت حسناتهم فى الكفر (وفى النار هم خالدون) لايموتون ولايخرجون منها (انما يعمر مساجد الله) المسجد الحرام (من آمن بالله واليوم الآخر)

واقام الصلوة وآتى الزكوة﴾ اى انما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية و من عمارتها تزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وادامة العبادة والذكر ودرس العلم فيها وصيانتها عما لم تبن له كحديث الدنيا وعن النبي عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى ان بيوتى فى ارضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور ان يكرم زائره وانما لم يذكر الايمان بالرسول لما علم ان الايمان بالله قرينه وتمامه الايمان به ولدلالة قوله واقام الصلاة وآتى الزكاة عليه ﴿ولم يخش الا الله﴾ أى فى ابواب الدين فان الخشية عن المحاذير جبلية لايكاد الرجل العاقل يتمالك عنها ﴿فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعا لاطماع المشركين فى الاهتداء والانتفاع باعمالهم وتوبيخا لهم بالقطع بانهم مهتدون فان هؤلاء مع كمالهم اذا كان اهتداؤهم دائرا بين عسى ولعل فما ظنك باضدادهم ومنعا للمؤمنين ان يغتروا باحوالهم ويتكلوا عليها ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام

وتعالى قال بعد الايمان بالله واليوم الآخر ﴿وأقام الصلوة وآتى الزكوة﴾ وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أقام الصلاة وآتى الزكاة فقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان الاعتبار باقامة الصلاة وايتاء الزكاة فى عمارة المساجد ان الانسان اذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة لان عمارة المسجد انما تلزم لاقامة الصلاة فيه ولا يشتغل بعمارة المسجد الا اذا كان مؤديا للزكاة لان الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولا يشتغل الانسان بالنافلة الا بعد اكمال الفريضة الواجبة عليه * قوله عز وجل ﴿ولم يخش الا الله﴾ يعنى ولم يخف فى الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية الناس ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ وعسى من الله واجب يعنى وأولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التى تؤدى الى الجنة عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان فان الله عز وجل يقول انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية أخرجه الترمذى وقال حديث حسن (ق) عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من غدا الى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح النزل ما يهيأ للضيف عند نزوله بالقوم (ق) عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله تعالى بنى الله له بيتا فى الجنة وفى رواية بنى الله له فى الجنة مثله وعن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان او كبيرا بنى الله له بيتا فى الجنة أخرجه الترمذى عن عمرو بن عبسة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا ليذكر الله فيه بنى الله له بيتا فى الجنة أخرجه النسائى * قوله سبحانه وتعالى ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ الآية (م) عن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام الا أن أعمر المسجد الحرام وقال الآخر الجهاد فى سبيل الله افضل مما قلتم فزجرهم

عليه بقوله (وأقام الصلوة وآتى الزكوة) وفى قوله (ولم يخش الا الله) تنبيه على الاخلاص والمراد الخشية فى أبواب الدين بان لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف اذ المؤمن قد يخشى المحاذير ولا يتمالك ان لا يخشاها وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فاريد نفى تلك الخشية عنهم (فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين) تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لاطماعهم فى الانتفاع باعمالهم لان عسى كلمة اطماع والمعنى انما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدا بها عند الله دون من سواهم (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام

بالبعث بعد الموت (وأقام الصلوة) أتم الصلوات الخمس (وآتى الزكوة) أدى الزكاة المفروضة (ولم يخش) ولم يعبد (الا الله فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين) بدين الله وحجته وعسى من الله واجب ثم نزلت فى رجل من المشركين أسر يوم بدر فافتخر على على أو على رجال من أهل بدر فقال نحن نسقى الحاج ونعمر المسجد الحرام ونفعل كذا فقال الله (أجعلتم سقاية الحاج) اقامتم ان سقى الحاج (وعمارة المسجد الحرام

كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين) السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولابد من مضاف محذوف تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله وقيل المصدر بمعنى الفاعل يصدقه قراءة ابن الزبير سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى انكار ان يشبه المشركون بالمؤمنين وأعمالهم المحبطة باعمالهم المثبتة وأن يسوى بينهم وجعل تسويتهم ظلما بعد ظلمهم بالكفر لانهم وضعوا المدح والفخر فى غير موضعهما نزلت جوابا لقول العباس حين أسر فطفق على رضى الله عنه يوبخه بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم تذكر مساوينا وتدع محاسننا فقيل أولكم محاسن فقال نعمر المسجد ونسقى الحاج ونفك العانى وقيل افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلى رضى الله عنه بالاسلام والجهاد فصدق الله تعالى عليا

كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله﴾ السقاية والعمارة مصدرا سقى وعمر فلايشبهان بالجثث بل لابد من اضمار تقديره أجعلتم اهل سقاية الحاج كمن آمن أو أجعلتم سقاية الحاج كايمان من آمن ويؤيد الاول قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد والمعنى انكار ان يشبه المشركون واعمالهم المحبطة بالمؤمنين واعمالهم المثبتة ثم قرر ذلك بقوله ﴿لايستوون عند الله﴾ وبين عدم تساويهم بقوله ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ أى الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم منهمكون فى الضلالة

عمر وقال لاترفعوا أصواتكم عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيه فيما اختلفتم فيه فانزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الى آخرها وقيل قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فانزل الله هذه الآية وأخبر ان عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لاينفعهم مع الشرك بالله وان الايمان والجهاد مع نية خير مما هم عليه وقال الحسن والشعبى ومحمد بن كعب القرظى نزلت فى على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن أبى شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدى مفاتيحه وقال العباس وأنا صاحب السقاية والقيام عليها وقال على ما أدرى ما تقولون لقد صليت الى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فانزل الله هذه الآية اجعلتم سقاية الحاج والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهى سقى الحاج وكان العباس بن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأسلم العباس أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعنى بناءه وتشييده ومرمته ﴿كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ فيه حذف تقديره كايمان من آمن بالله واليوم الآخر ﴿وجاهد فى سبيل الله﴾ أى وكجهاد من جاهد فى سبيل الله وقيل السقاية والعمارة بمعنى الساقى والعامر تقديره أجعلتم ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ﴿لايستوون عند الله﴾ يعنى لايستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمره المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لان الله سبحانه وتعالى لايقبل عملا الا مع الايمان به ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ (خ) عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى السقاية فاستسقى فقال العباس يافضل اذهب الى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال اسقنى فقال يارسول الله انهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها قال اعملوا فانكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذا يعنى عاتقه (م) عن بكر بن عبد الله المزنى قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابى فقال مالى أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله ما بنا

كمن آمن بالله كايمان من آمن بالله يعنى البدرى (واليوم الاخر) بالبعث بعد الموت (وجاهد فى سبيل الله) فى طاعة الله يوم بدر (لايستوون عند الله) فى الطاعة والثواب (والله لايهدى) لايرشد الى دينه (القوم الظالمين) المشركين من لم يكن اهلا لذلك

﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ أولئك (أعظم درجة عند الله) من أهل السقاية والعمارة (وأولئك هم الفائزون) لأنتم والمختصون بالفوز دونكم (يبشرهم ربهم) يبشرهم حمزة (برحمة منه ورضوان وجنات) تنكير المبشر لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف (لهم فيها) فى الجنات (نعيم مقيم) دائم (خالدين فيها أبدا ان الله عنده اجر عظيم) لا ينقطع لما أمر الله النبى عليه السلام بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه ولأخيه ولقرابته انا قد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع الى ذلك ويعجبه ومنهم من تتعلق به زوجته أو ولده فيقول تدعنا بلا شئ فنضيع فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء

فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله﴾ اعلى رتبة واكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات أو من اهل السقاية والعمارة عندكم ﴿واولئك هم الفائزون﴾ بالثواب ونيل الحسنى عند الله دونكم ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها﴾ فى الجنات ﴿نعيم مقيم﴾ دائم * وقرأ حمزة يبشرهم بالتخفيف وتنكير المبشر به اشعار بانه وراء التعيين والتعريف ﴿خالدين فيها ابدا﴾ اكد الخلود بالتأبيد لانه قد يستعمل للمكث الطويل ﴿ان الله عنده اجر عظيم﴾ يستحقر دونه ما استوجبوه لاجله أو نعيم الدنيا ﴿يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء﴾ نزلت فى المهاجرين

من حاجة ولا بخل انما قدم النبى صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فاتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة فقال أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم النبيذ تمر ينقع فى الماء غدوة ويشرب عشاء أو ينقع عشاء ويشرب غدوة وهذا حلال فان غلى وحمض حرم * قوله عز وجل ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾ يعنى ان من كان موصوفا بهذه الصفات يعنى الايمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وانما لم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الاطلاق على من سواهم والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عند الله فى الآخرة ﴿وأولئك﴾ يعنى من هذه صفتهم ﴿هم الفائزون﴾ يعنى بسعادة الدنيا والآخرة ﴿يبشرهم ربهم﴾ يعنى يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذى يفرح الانسان عند سماعه وتستنير بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار * ثم ذكر الخبر الذى يبشرهم به فقال تعالى ﴿برحمة منه ورضوان﴾ وهذا أعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده ﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ يعنى أن نعيم الجنة دائم غير منقطع أبدا ﴿خالدين فيها﴾ يعنى فى الجنان وفى النعيم ﴿أبدا﴾ يعنى لا انقطاع له ﴿ان الله عنده أجر عظيم﴾ يعنى لمن عمل بطاعته وجاهد فى سبيله * قوله سبحانه وتعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء﴾ قال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت فى قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وانزل يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء يعنى بطانة

(الذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (وهاجروا) من مكة الى المدينة (وجاهدوا فى سبيل الله) فى طاعة الله (بأموالهم وأنفسهم) بنفقة أموالهم وبخروج أنفسهم (أعظم درجة) فضيلة (عند الله) من غيرهم (وأولئك هم الفائزون) فازوا بالجنة ونجوا من النار
(يبشرهم ربهم برحمة) بنجاة (منه) من الله من العذاب (ورضوان) برضا ربهم عنهم (وجنات) (واصدقاء)
بجنات (لهم فيها نعيم مقيم) دائم لا ينقطع (خالدين فيها ابدا) لا يموتون ولا يخرجون (ان الله عنده أجر عظيم)
ثواب وافر لمن آمن به (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم) الذين بمكة من الكفار (أولياء) فى الدين

ان استحبوا الكفر على الايمان) اى آثروه واختاروه (ومن يتولهم منكم) أى ومن يتول الكافرين (فاولئك هم الظالمون قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) اقاربكم وعشيراتكم أبو بكر (وأموال اقترفتموها) اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) فوات وقت نفاقها (ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) وهو عذاب عاجل أو عقاب آجل أو فتح

فانهم لما امروا بالهجرة قالوا ان هاجرنا قطعنا آباءنا وابناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين وقيل نزلت نهيا عن موالاة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة والمعنى لاتتخذوهم اولياء يمنعونكم عن الايمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله ﴿ان استحبوا الكفر على الايمان﴾ ان اختاروه وحرضوا عليه ﴿ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون﴾ بوضعهم الموالاة فى غير موضعها ﴿قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم﴾ اقرباؤكم مأخوذ من العشرة وقيل من العشرة فان العشيرة جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة وقرأ ابو بكر وعشيراتكم وقرئ وعشائركم ﴿واموال اقترفتموها﴾ اكتسبتموها ﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ فوات وقت نفاقها ﴿ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله﴾ الحب الاختيارى دون الطبيعى فانه لايدخل تحت التكليف والتحفظ عنه ﴿فتربصوا حتى يأتى الله بأمره﴾ جواب ووعيد والامر عقوبة عاجلة اوآجلة وقيل فتح مكة

وأصدقاء تفشون اليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة قال بعضهم حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لان هذه السورة نزلت بعد الفتح وهى من آخر القرآن نزولا والاقرب أن يقال ان الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالتبرى من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فذكر الله أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه فى الدين واجبة فالمؤمن لايوالى الكافر وان كان أباه وأخاه وابنه وهو قوله تعالى ﴿ان استحبوا الكفر على الايمان﴾ يعنى ان اختاروا الكفر وأقاموا عليه وتركوا الايمان بالله ورسوله ﴿ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون﴾ يعنى ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا ان نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فانزل الله سبحانه وتعالى ﴿قل﴾ أى قل يامحمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ﴿ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم﴾ وقرئ على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الادنون من أهل الانسان الذين يعاشرونه دون غيرهم ﴿وأموال اقترفتموها﴾ يعنى اكتسبتموها ﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ يعنى بفراقكم لها ﴿ومساكن ترضونها﴾ يعنى تستوطنونها راضين بسكناها ﴿أحب اليكم من الله ورسوله﴾ يعنى أحب اليكم من الهجرة الى الله ورسوله ﴿وجهاد فى سبيله﴾ فبين الله سبحانه وتعالى انه يجب تحمل جميع المضار فى الدنيا ليبقى الدين سليما وأخبر انه ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله ﴿فتربصوا﴾ أى فانتظروا ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ يعنى بقضائه وهذا

(ان استحبوا الكفر على الايمان) اختاروا الكفر على الايمان (ومن يتولهم منكم) فى الدين (فأولئك هم الظالمون) الكافرون مثلهم ويقال ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم واخوانكم من المؤمنين الذين بمكة الذين منعوكم عن الهجرة أولياء فى العون والنصرة ان استحبوا الكفر اختاروا دار الكفر يعنى مكة على الايمان على دار الاسلام يعنى المدينة ومن يتولهم منكم فى العون والنصرة فأولئك هم الظالمون الضارون بأنفسهم (قل) يامحمد (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) قومكم الذين هم بمكة (وأموال اقترفتموها) اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) أن لاتنفق بالمدينة (ومساكن) منازل (ترضونها) تشتهون الجلوس فيها (أحب اليكم من الله) من طاعة الله (قا و خا ١٣ لث)(ورسوله) ومن الهجرة الى رسوله (وجهاد) ومن جهاد (فى سبيله) فى طاعته (فتربصوا) فانتظروا (حتى يأتى الله بأمره) بعذابه يعنى القتل يوم فتح مكة ثم هاجروا بعد ذلك

مكة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) والآية تنعى على الناس ماهم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين اذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحب له دينه على الآباء والابناء والاموال والحظوظ (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة وقيل ان المواطن التى نصر الله فيها النبى عليه السلام والمؤمنون ثمانون موطنا ومواطن الحرب مقاماتها ومواقفها (ويوم) أى واذكروا يوم (حنين) واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله عليه الصلاة والسلام

(والله لا يهدى) لا يرشد الى دينه (القوم الفاسقين) الكافرين من لم يكن أهلا لدينه (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) فى مشاهد كثيرة عند القتال (ويوم حنين) خاصة وهو واد بين مكة والطائف

﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ لا يرشدهم وفى الآية تشديد عظيم وقل من يتخلص منه ﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة﴾ يعنى مواطن الحرب هى مواقفها ﴿ويوم حنين﴾ وموطن يوم حنين ويجوز ان يقدر فى ايام مواطن اويفسر الموطن بالوقت كمقتل الحسين ولا يمنع ابدال قوله

أمر تهديد وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعنى بفتح مكة ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ يعنى الخارجين عن طاعته وفى هذا دليل على انه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا ﴿قوله عز وجل ﴿لقد نصركم الله﴾ النصر المعونة على الاعداء باظهار المسلمين عليهم ﴿فى مواطن كثيرة﴾ يعنى أماكن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماذكر فى الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة فى حديثه قاتل فى ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون وهو قوله تعالى لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ﴿ويوم حنين﴾ يعنى ونصركم الله فى يوم حنين أيضا فاعلم الله سبحانه وتعالى انه هو الذى يتولى نصر المؤمنين فى كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا وقال عروة هو الى جنب ذى المجاز وكانت قصة حنين على مانقله الرواة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان فخرج الى حنين لقتال هوازن وثقيف فى اثنى عشر ألفا عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وقال عطاء كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبى كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصرى وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الانصار يقال له سلمة بن سلامة بن رقيش لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلمة الرجل وفى رواية فلم يرض الله قوله ووكلهم الى أنفسهم وذكر ابن الجوزى عن سعيد بن المسيب ان القائل لذلك أبو بكر الصديق وحكى ابن جرير الطبرى ان القائل لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم واسنادهذه الكلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بعد لانه صلى الله عليه وسلم كان فى جميع أحواله متوكلا على الله عز وجل لا يلتفت الى كثرة عدد ولا الى غيره بل نظره الى ما يأتى من عند الله عز وجل من النصر والمعونة قالوا فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذرارى ثم تنادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون وقال قتادة ذكر لنا ان الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ق) عن أبى اسحق قال جاء رجل الى البراء فقال أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة فقال أشهد على نبى الله صلى الله عليه وسلم ماولى ولكنه انطلق اخفاء من الناس وحسر الى هذا الحى من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فاقبل القوم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحرث يقود به بغلته فنزل ودعا

واستنصر وهو يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب اللهم أنزل نصرك زاد أبو خيثمة ثم صفهم قال البراء كنا والله اذا احمر البأس نتقي به وان الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي صلى الله عليه وسلم ولمسلم عن أبي اسحق قال قال رجل للبراء بن عازب يا أباعمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ماولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤه حسرا ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوما رماة لايكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبني نصر فرشقوهم رشقا مايكادون يخطؤن فأقبلوا هناك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب يقود به فنزل ودعا واستنصر وقال أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب ثم صفهم وروى شعبة عن أبي اسحق قال قال البراء ان هوازن كانوا قوما رماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فاقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فاما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر قوله ولكنه انطلق اخفاء من الناس الاخفاء جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم مايعوقهم والحسر جمع حاسر وهو الذي لادرع عليه يقال اذا رمى القوم باسرهم الى جهة واحدة رمينا رشقا والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه وقوله كنا اذا احمر البأس يعني اذا اشتد الحرب والبأس بالموحدة من تحت الشدة والخوف وقال الكلبي كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ غير عمه العباس بن عبدالمطلب وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وأيمن ابن أم أيمن قتل يوم حنين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أيمن أخو اسامة بن زيد لامه أمهما بركة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته (م) عن العباس بن عبدالمطلب قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ورسول الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء اهداها له فروة بن نفاثة الجذامي فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها ارادة أن لاتسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي عباس ناد أصحاب السمرة فقال العباس وكان رجلا صيتا فقلت باعلى صوتي أين أصحاب السمرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا لبيك لبيك قال فاقتتلوا الكفار والدعوة في الانصار يقولون يامعشر الانصار يامعشر الانصار قال ثم قصرت الدعوة على بني الحرث بن الخزرج فقالوا يابني الحرث بن الخزرج يابني الحرث بن الخزرج فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها الى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حين حمي الوطيس قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد قال فذهبت أنظر فاذا القتال على هيئته فيما

أرى قال فوالله ماهو الا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا قوله حمى الوطيس أى اشتد الحرب قال الخطابى هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبى صلى الله عليه وسلم من العرب وهى مما اقتضبه وأنشأه والوطيس فى اللغة التنور وقوله حدهم كليلا يعنى لايقطع شيأ ﴿ م ﴾ عن سلمة بن الاكوع قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا قال فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب الارض ثم استقبل به وجوههم وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم انسانا الا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين أخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير أمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وروى ان رجلا من بنى نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ماكنا نراهم فيكم الا كهيئة الشامة وماكان قتلنا الا بأيديهم فاخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة وروى أن رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا الى صاحب البغلة البيضاء فاذاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت اياها واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على قولين والصحيح أنها لم تقاتل الا يوم بدر وانما كانت الملائكة يوم حنين مددا وعونا وذكر البغوى أن الزهرى قال بلغنى أن شيبة بن عثمان قال استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن ابى طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على مافى نفسى فالتفت الى وضرب فى صدرى وقال أعيذك بالله ياشيبة فارعدت فرائصى فنظرت اليه وهو أحب الى من سمعى وبصرى فقلت أشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أطلعك الله على مافى نفسى فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الاشعريين يقال له أبو عامر وأمره على الجيش فسار الى أوطاس فاقتتلوا بها وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيال المشركين وهرب أميرهم مالك بن عوف النصرى فأتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ وقتل أبو عامر امير المسلمين قال الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف صبى ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم وأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة وقسم بها غنائم حنين وأوطاس وتألف أناسا منهم أبو سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو والاقرع بن حابس فأعطاهم ﴿ ق ﴾ عن أنس بن مالك ان ناسا من الانصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى رجالا من قريش المائة من الابل فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس

(فحدث)

فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم فارسل الى الانصار فجمعهم فى قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حديث بلغنى عنكم فقال له فقهاء الانصار اما ذوو رأينا يارسول الله لم يقولوا شيأ وأما أناس منا حديثة اسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون ان تذهب الناس بالاموال وترجعوا الى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ماتنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يارسول الله قد رضينا قال فانكم ستجدون بعدى أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا سنصبر زاد فى رواية قال أنس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الانصار شيأ فكأنهم وجدوا اذلم يصبهم ماأصاب الناس فخطبهم فقال يامعشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فالفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال فما منعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال لوشئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن تذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبوا بالنبى الى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولوسلك الناس واديا أوشعبا لسلكت وادى الانصار وشعبهم الانصار شعار والناس دثار (م) عن رافع بن خديج قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس كل انسان مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

أتجعل نهبى ونهب العبيد * بين عيينة والاقرع
فما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فاتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة (خ) عن المسور ومروان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه ان يرد عليهم مالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان معى من ترون وأحب الحديث الى أصدقه فاختاروا احدى الطائفتين اما المال واما السبى وقد كنت استأنيت بكم وفى رواية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد عليهم الا احدى الطائفتين قالوا انا نختار سبينا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فاثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاؤا تائبين وانى قد رأيت ان أرد اليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يارسول الله فقال لهم فى ذلك انا لاندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(اذ) بدل من يوم (أعجبتكم كثرتكم) فادرك المسلمين كلمة الاعجاب بالكثرة وزل عنهم ان الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت فى مركزه ليس معه الا عمه

العباس آخذا بلجام دابته وأبوسفيان بن الحرث ابن عمه آخذا بركابه فقال للعباس صح بالناس وكان صيتا فنادى يا أصحاب الشجرة فاجتمعوا وهم يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة وعليهم الثياب البيض على خيول بلق فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من تراب فرماهم به ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزم وكان من دعائه عليه السلام يومئذ اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر (فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت) ما مصدرية والباء بمعنى مع أى مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور فى موضع الحال كقولك دخلت عليه بثياب السفر أى ملتبسا بها والمعنى لم تجدوا موضعا لفراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم (ثم وليتم مدبرين) ثم انهزمتم (ثم أنزل الله سكينته) رحمته التى سكنوا بها وامنوا (على رسوله وعلى المؤمنين

(اذ أعجبتكم كثرتكم) كثرة جموعكم وكانوا عشرة آلاف رجل (فلم تغن عنكم) كثرتكم من الهزيمة (شيأ وضاقت عليكم الارض) من الخوف (بما رحبت) بسعتها (وانزل (ثم وليتم مدبرين) منهزمين من العدو وكان عددهم أربعة آلاف رجل (ثم انزل الله سكينته) طمانينته (على رسوله وعلى المؤمنين

﴿اذ اعجبتكم كثرتكم﴾ منه ان يعطف على موضع فى مواطن فانه لا يقتضى تشاركهما فيما اضيف اليه المعطوف حتى يقتضى كثرتهم واعجابها اياهم فى جميع المواطن وحنين وادبين مكة والطائف حارب فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمون وكانوا اثنى عشر الفا العشر الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا اليهم من الطلقاء هوازن وثقيف وكانوا اربعة آلاف فلما التقوا قال النبى صلى الله عليه وسلم او ابوبكر رضى الله عنه اوغيره من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة اعجابا بكثرتهم واقتتلوا قتالا شديدا فادرك المسلمين اعجابهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركزه ليس معه الا عمه العباس رضى الله عنه آخذا بلجامه وابن عمه ابوسفيان ابن الحارث وناهيك بهذا شهادة على تناهى شجاعته فقال للعباس وكان صيتا صح بالناس فنادى ياعباد الله يا اصحاب الشجرة يا اصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمى الوطيس ثم اخذ كفا من تراب فرماهم ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزموا ﴿فلم تغن عنكم﴾ اى الكثرة ﴿شيئا﴾ من الاغناء اومن امر العدو ﴿وضاقت عليكم الارض بما رحبت﴾ برحبها اى سعتها لا تجدون فيها مقرا تطمئن فيه نفوسكم من شدة الرعب اولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه ﴿ثم وليتم﴾ الكفار ظهوركم ﴿مدبرين﴾ منهزمين والادبار الذهاب الى خلف خلاف الاقبال ﴿ثم انزل الله سكينته﴾ رحمته التى سكنوا بها وآمنوا ﴿على رسوله وعلى المؤمنين﴾ الذين انهزموا واعادة الجار

فاخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا فهذ الذى بلغنا من سبى هوازن وأنزل الله عزوجل فى قصة حنين لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين ﴿اذ أعجبتكم كثرتكم﴾ يعنى حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة ﴿فلم تغن عنكم﴾ يعنى كثرتكم ﴿شيأ﴾ يعنى ان الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن انما يكون بنصر الله ومعونته ﴿وضاقت عليكم الارض بما رحبت﴾ يعنى بسعتها وفضائها ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ يعنى منهزمين ﴿ثم أنزل الله سكينته﴾ يعنى بعد الهزيمة والسكينة الطمأنينة والامنة وهى فعيلة من السكون وذلك ان الانسان اذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركا واذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الامن موجبا للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الامن * وقوله عزوجل ﴿على رسوله وعلى المؤمنين﴾ انما كان انزال السكينة على المؤمنين لان الرسول صلى الله عليه وسلم كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة والاضطراب فى هذه الواقعة ثم من الله عليهم بانزال السكينة عليهم حتى رجعوا الى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر

وأنزل جنودا لم تروها) يعنى الملائكة وكانوا ثمانية آلاف أوخمسة آلاف أوستة عشر ألفا (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر وسبى النساء والذرارى (وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) وهم الذين أسلموا منهم (والله غفور) بستر كفر العدو بالاسلام (رحيم) بنصر الولى بعد الانهزام (ياايها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أى ذو نجس وهو مصدر يقال نجس نجسا وقذر قذرا لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ولانهم لايتطهرون ولا يغتسلون ولايجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم أو جعلوا كانهم النجاسة بعينها مبالغة فى وصفهم بها (فلايقربوا المسجد الحرام) فلايحجوا ولايعتمروا كما كانوا يفعلون

للتنبيه على اختلاف حاليهما وقيل هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا ﴿ وانزل جنودا لم تروها ﴾ باعينكم يعنى الملائكة وكانوا خمسة آلاف اوثمانية اوستة عشر الفا على اختلاف الاقوال ﴿وعذب الذين كفروا ﴾ بالقتل والاسر والسبى ﴿ وذلك جزاء الكافرين ﴾ اى مافعل بهم جزاء كفرهم فى الدنيا ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ﴾ منهم بالتوفيق للاسلام ﴿والله غفور رحيم ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم روى ان ناسا منهم جاؤا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واسلموا وقالوا يارسول الله انت خير الناس وابرهم وقد سبى اهلونا واولادنا و اخذت اموالنا وقد سبى يومئذ ستة آلاف نفس واخذ من الابل والغنم مالا يحصى فقال صلى الله تعالى عليه وسلم اختاروا اما سبايا كم واما اموالكم فقالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيئا فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال ان هؤلاء جاؤا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيئا فمن كان بيده سبى وطابت نفسه ان يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه فقالوا رضينا وسلمنا فقال انى لا ادرى لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا الينا فرفعوا انهم قد رضوا ﴿ ياايها الذين آمنوا انما المشركون نجس ﴾ لخبث باطنهم اولانه يجب ان يجتنب عنهم كما يجتنب عن الانجاس اولانهم لايتطهرون ولايجتنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالبا وفيه دليل على ان ما الغالب نجاسته نجس وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان اعيانهم نجسة كالكلاب وقرئ نجس بالسكون وكسر النون وهو ككبد فى كبد واكثر ماجاء تابعا لرجس ﴿فلايقربوا المسجد الحرام ﴾

﴿وأنزل جنودا لم تروها ﴾ يعنى الملائكة لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لان الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر ﴿وعذب الذين كفروا ﴾ يعنى بالاسر والقتل وسبى العيال والاموال ﴿وذلك جزاء الكافرين ﴾ يعنى فى الدنيا ثم اذا أفضوا الى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ﴾ يعنى فيهديه الى الاسلام كما فعل بمن بقى من هوازن حيث أسلموا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تائبين فمن عليهم وأطلق سبيهم ﴿والله غفور ﴾ لمن تاب ﴿رحيم ﴾ بعباده ۞ قوله عز وجل ﴿ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس ﴾ قيل أراد بالمشركين عبدة الاصنام دون غيرهم من أصناف الكفار وقيل بل أراد جميع أصناف الكفار عبدة الاصنام وغيرهم من اليهود والنصارى والنجس الشئ القذر من الناس وغيرهم وقيل النجس الشئ الخبيث وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لا نجاسة العين سموا نجسا على الذم لان الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم وقيل هم أنجاس العين كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الاول أصح وقال قتادة سماهم نجسا لانهم يجنبون فلايغتسلون ويحدثون فلايتوضؤن ﴿فلايقربوا المسجد الحرام ﴾

وانزل جنودا) من السماء (لم تروها) يعنى الملائكة بالنصرة لكم (وعذب الذين كفروا) بالقتل والهزيمة يعنى قوم مالك بن عوف الدهمانى وقوم كنانة بن عبد ياليل الثقفى (وذلك جزاء الكافرين) فى الدنيا (ثم يتوب الله من بعد ذلك) القتال والهزيمة (على من يشاء) على من تاب منهم (والله غفور) متجاوز (رحيم) لمن تاب (ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) قذر (فلايقربوا المسجد الحرام) بالحج

لنجاستهم وانما نهى عن الاقتراب للمبالغة اوللمنع عن دخول الحرم وقيل المراد به النهى عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقا واليه ذهب ابو حنيفة رحمه الله تعالى وقاس مالك رحمه الله سائر المساجد على المسجد الحرام فى المنع وفيه دليل على ان الكفار مخاطبون بالفروع ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ يعنى سنة براءة وهى التاسعة وقيل سنة حجة الوداع ﴿ وان خفتم عيلة ﴾ فقرا بسبب منعهم من الحرم

المراد منعهم من دخول الحرم لانهم اذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرم ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرم أراد به الحرم لانه أسرى به صلى الله عليه وسلم من بيت أم هانئ قال العلماء وجملة بلاد الاسلام فى حق الكفار ثلاثه أقسام * أحدها الحرم فلا يجوز لكافر ان يدخله بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعى وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والامام فى الحرم فلا يأذن له فى دخول الحرم بل يخرج اليه بنفسه أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم * القسم الثانى من بلاد الاسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامى ونصفها حجازى وقيل كلها حجازى وقال ابن الكلبى حد الحجاز ما بين جبل طيئ وطريق العراق سمى حجازا لانه حجز بين تهامة ونجد وقيل لانه حجز بين نجد والسراة وقيل لانه حجز بين نجد وتهامة والشأم قال الحربى وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالاذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام (م) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها الا مسلما زاد فى رواية لغير مسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر فى خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب أخرجه مالك فى الموطأ مرسلا (م) عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قد يئس ان يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم قال سعيد بن عبد العزيز جزيرة العرب ما بين الوادى الى أقصى اليمن الى تخوم العراق الى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى عدن ابين الى ريف العراق فى الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشام عرضا * والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر ان يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ولكن لا يدخلون المساجد الا باذن مسلم ❁ قوله عز وجل ﴿ بعد عامهم هذا ﴾ يعنى العام الذى حج فيه أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على ببراءة وان لا يحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة ﴿ وان خفتم عيلة ﴾ يعنى فقرا وفاقة وذلك ان أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يجلبون الى مكة الطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف اهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا

فى الجاهلية (بعد عامهم هذا) وهو عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم ويكون المراد من نهى القربان النهى عن الحج والعمرة وهو مذهبنا ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا وعند الشافعى رحمه الله يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون منه ومن غيره وقيل نهى المشركين أن يقربوه راجع الى نهى المسلمين عن تمكينهم منه (وان خفتم عيلة) أى فقرا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم فى قدومهم عليكم من الارفاق

والطواف (بعد عامهم هذا) عام البراءة يوم النحر (وان خفتم عيلة) الفقر والحاجة

وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والارفاق ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ من عطائه او بتفضله بوجه آخر وقد انجز وعده بان ارسل السماء عليهم مدرارا ووفق اهل تبالة وجرش فاسلموا وامتاروا لهم ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه اليهم الناس من اقطار الارض وقرئ عائلة على انها مصدر كالعافية اوحال ﴿ ان شاء ﴾ قيده بالمشيئة ليتقطع الآمال الى الله تعالى ولينبه على انه تعالى متفضل فى ذلك وان الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفى عام دون عام ﴿ ان الله عليم ﴾ باحوالكم ﴿ حكيم ﴾ فيما يعطى ويمنع ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ اى لا يؤمنون بهما على ما ينبغى كما بيناه فى اول البقرة فايمانهم كلا ايمان ﴿ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة وقيل رسوله

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل وان خفتم عيلة ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ قال عكرمة فاغناهم الله بان أنزل المطر مدرارا وكثر خيرهم وقال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فاغناهم بها ﴿ ان شاء ﴾ قيل انما شرط المشيئة فى الغنى المطلوب ليكون الانسان دائم التضرع والابتهال الى الله تعالى فى طلب الخيرات ودفع الآفات وان يقطع العبد امله من كل أحد الا من الله عز وجل فانه هو القادر على كل شئ وقيل ان المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الادب كما فى قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ﴿ ان الله عليم ﴾ يعنى بما يصلحكم ﴿ حكيم ﴾ يعنى أنه تعالى لا يفعل شيأ الا عن حكمة وصواب فمن حكمته ان منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية والذل والصغار على أهل الكتاب فقال تعالى ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ قال مجاهد نزلت الآية حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبى نزلت فى قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية اصابها اهل الاسلام وأول ذل أصاب اهل الكتاب بايدى المسلمين وهذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فان قلت اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قلت ايمانهم بالله ليس كايمان المؤمنين وذلك ان اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه والنصارى يعتقدون الحلول ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله وقيل من اعتقد ان عزيرا ابن الله وان المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله وقيل من كذب رسولا من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون أكثر الانبياء فليسوا بمؤمنين بالله وأما ايمانهم باليوم الآخر فليس كايمان المؤمنين وذلك انهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجساد ويعتقدون ان أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم انه مؤمن وقوله تعالى ﴿ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ يعنى ولا يحرمون الخمر والخنزير وقيل معناه أنهم لا يحرمون ما حرم الله فى القرآن ولا ما حرم رسوله فى السنة وقيل معناه

والمكاسب (فسوف يغنيكم الله من فضله) من الغنائم أو المطر والنبات أو من متاجر حجيج الاسلام (ان شاء) هو تعليم لتعليق الامور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال اليه (ان الله عليم) باحوالكم (حكيم) فى تحقيق آمالكم أو عليم بمصالح العباد حكيم فيما حكم وأراد ونزل فى أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) لان اليهود مثنية والنصارى مثلثة (ولا باليوم الآخر) لانهم فيه على خلاف ما يجب حيث يزعمون ان لا أكل فى الجنة ولا شرب (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) لانهم لا يحرمون ما حرم فى الكتاب والسنة أو لا يعملون بما فى

(فسوف يغنيكم الله من فضله) من رزقه من وجه آخر (ان شاء) حيث شاء ويغنيكم عن تجارة بكر بن وائل (ان الله عليم) بأرزاقكم (حكيم) فيما حكم عليكم (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) ولا بنعيم الجنة (ولا يحرمون) فى التوراة (ما حرم الله ورسوله)

التوراة والانجيل (ولا يدينون دين الحق) ولا يعتقدون دين الاسلام الذي هو الحق يقال فلان يدين بكذا اذا اتخذه دينه ومعتقده (من الذين أوتوا الكتاب) بيان للذين قبله وأما المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية وكذا الترك والهنود وغيرهما بخلاف مشركي العرب لما روى الزهري أن النبي عليه السلام صالح عبدة الأوثان على الجزية الا من كان من العرب (حتى يعطوا الجزية) الى ان يقبلوها وسميت جزية لانه يجب على على أهلها أن يجزوه أي يقضوه أوهي جزاء على الكفر على التحميل في تذليل (عن يد) أي عن يد مواتية غير ممتنعة ولذا قالوا أعطى بيده اذا انقاد وقالوا نزع يده عن الطاعة أو حتى يعطوها عن يد الى يد نقدا غير نسيئة لا مبعوثا على يد أحد ولكن عن يد المعطي الى يد الآخذ (وهم صاغرون) أي تؤخذ منهم على الصغار والذل وهو أن يأتي بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس وان يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية يا ذمي وان كان يؤديها ويزخ في قفاه وتسقط بالاسلام

هو الذي يزعمون اتباعه والمعنى انهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادا وعملا ﴿ ولا يدينون دين الحق ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الاديان ومبطلها ﴿ من الذين اوتوا الكتاب ﴾ بيان للذين لا يؤمنون ﴿ حتى يعطوا الجزية ﴾ ما تقرر عليهم ان يعطوه مشتق من جزى دينه اذا قضاه ﴿ عن يد ﴾ حال من الضمير اى عن يد مواتية بمعنى منقادين اوعن يدهم بمعنى مسلمين بايديهم غير باعثين بايدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه اوعن غنى ولذلك قيل لا تؤخذ من الفقير اوعن يد قاهرة عليهم بمعنى اذلاء عاجزين اوعن انعام عليهم فان ابقاءهم بالجزية نعمة عظيمة اومن الجزية بمعنى نقدا مسلمة عن يد الى يد ﴿ وهم صاغرون ﴾ اذلاء وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال تؤخذ

لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما وأتوا باحكام من قبل أنفسهم ﴿ ولا يدينون دين الحق ﴾ يعني ولا يعتقدون صحة الاسلام الذي هو دين الحق وقيل الحق هو الله تعالى ومعناه ولا يدينون دين الله ودينه الاسلام وهو قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقيل معناه ولا يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني اعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى ﴿ حتى يعطوا الجزية ﴾ وهي ما يعطي المعاهد من أهل الكتاب على عهده وهي الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم ﴿ عن يد ﴾ يعني عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيأ كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس يعطونها بايديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل يعطونها نقدا لا نسيئة وقيل يعطونها مع اقرارهم بانعام المسلمين عليهم بقبولها منهم ﴿ وهم صاغرون ﴾ من الصغار وهو الذل والاهانة يعني يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون وقال عكرمة يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس وقال ابن عباس توخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبي اذا أعطى يصفع قفاه وقيل هو ان يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أد حق الله يا عدو الله وقال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم

فصل في بيان أحكام الآية

اجتمعت الامة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى اذا لم يكونوا عربا واختلفوا في أهل الكتاب العرب وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم فذهب الشافعي الى ان الجزية على الاديان لا على الانساب فتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما ولا تؤخذ من عبدة الاوثان بحال واحتج بما روى عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد الى أكيدر دومة فاخذه فاتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية أخرجه أبو داود وقال الشافعي وهو رجل من العرب يقال انه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والاوزاعي الى ان الجزية تؤخذ من جميع الكفار الا المرتد وقال أبو حنيفة تؤخذ من أهل الكتاب على العموم و تؤخذ

(ولا يدينون دين الحق) لا يخضعون لله بالتوحيد ثم بين من هم فقال (من الذين أوتوا الكتاب) أعطوا الكتاب يعني اليهود والنصارى (حتى يعطوا الجزية عن يد) عن قيام من يد في يد (وهم صاغرون) ذليلون (من)

الجزية من الذمي وتوجأ عنقه ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية باهل الكتاب ويؤيده ان عمر رضي الله تعالى عنه لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه انه عليه السلام اخذها من مجوس هجر وانه قال سنوا بهم سنة اهل الكتاب وذلك لان لهم شبهة كتاب فالحقوا بالكتابين واما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا وعند ابي حنيفة رحمه الله تعالى تؤخذ منهم الامن مشركي العرب لما روى الزهري انه عليه الصلاة والسلام صالح عبدة الاوثان الامن كان من العرب وعند مالك رحمه الله تعالى تؤخذ من كل كافر الا المرتد واقلها في كل سنة دينار سواء فيه الغني والفقير وقال ابو حنيفة رحمه الله تعالى على الغني ثمانية واربعون درهما وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكسوب ربعها ولاشئ على الفقير غير الكسوب

من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب وقال أبو يوسف لا تؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من العجمي كتابيا كان أو مشركا وأما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الاخذ منهم ويدل عليه ماروى عن بجالة بن عبيدة ويقال عبدة لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر أخرجه البخاري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب أخرجه مالك في الموطأ عن ابن شهاب قال بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس البحرين وان عمر أخذها من مجوس فارس وان عثمان بن عفان أخذها من البربر أخرجه مالك في الموطأ وفي امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم دليل على ان رأي الصحابة كان على انها لا تؤخذ من كل مشرك وانما تؤخذ من أهل الكتاب واختلفوا في أن المجوس هل هم من أهل الكتاب فروى عن علي بن أبي طالب أنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب وأما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فان كانوا قد دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فانهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وان كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ شريعتهم بشريعته فانهم لا يقرون بالجزية ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شككنا في أمرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليبا للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرهم عمر بالجزية وقال لا تحل لنا ذبائحهم وأما الصابئة والسامرة فسبيلهم سبيل أهل الكتاب فهم في أهل الكتاب كاهل البدع في المسلمين وأما قدر الجزية فأقلها دينار ولا يجوز أن ينقص عنه ويقبل الدينار من الغني والفقير والمتوسط ويدل عليه ماروى عن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ انما قاله بعضهم من متقدميهم اوممن كانوا بالمدينة وانما قالوا ذلك لانه لم يبق فيهم بعد وقعة بخت نصر من يحفظ التوراة وهو لما احياه الله بعد مائة عام املى عليهم التوراة حفظا فتعجبوا من ذلك وقالوا ماهذا الا لانه ابن الله والدليل على ان هذا القول كان فيهم ان الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب وقرأ عاصم والكسائى ويعقوب عزيز بالتنوين على انه عربى مخبر عنه بابن غير موصوف به وحذفه فى القراءة الاخرى اما لمنع صرفه للعجمة والتعريف اولالتقاء الساكنين تشبيها للنون بحرف اللين اولان الابن وصف والخبر محذوف مثل معبودنا اوصاحبنا وهو مزيف لانه يؤدى الى تسليم النسب وانكار الخبر المقدر ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ هوايضا قول بعضهم وانما قالوه استحالة لان يكون ولد بلااب اولان يفعل مافعله من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى من لم يكن الها

لماوجه الى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم أى محتلم دينارا أوعدله من المعافرية ثياب تكون باليمن أخرجه أبو داود فالنبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ دينارا ولم يفرق بين الغنى والفقير والمتوسط وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وانما تؤخذ من الاحرار البالغين وذهب قوم الى أن على كل موسر أربعة دنانير وعلى كل متوسط دينارين وعلى كل فقير دينارا وهو قول أصحاب الرأى ويدل عليه ماروى عن أسلم ان عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهما ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام أخرجه مالك فى الموطأ قال أصحاب الشافعى أقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار الا بالتراضى فاذا رضى أهل الذمة بالزيادة ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغنى أربعة دنانير قال العلماء انما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف أهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوراة والانجيل قبل النسخ والتبديل وأيضا فان بأيديهم كتبا قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته فأمهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب اقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وامهالهم رجاء ان يعرفوا الحق فيرجعوا اليه بان يؤمنوا ويصدقوا اذا رأوا محاسن الاسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه ❊ قوله عز وجل ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه فى هذه الآية فاخبر عنهم انهم أثبتوا لله ولدا ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لانه لا فرق بين من يعبد صنما وبين من يعبد المسيح فقد بان بهذا انهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وابقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة التى بايديهم ولعلهم يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون اليه روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان

(وقالت اليهود) كلهم أو بعضهم (عزير ابن الله) مبتدأ وخبر كقوله المسيح ابن الله وعزير اسم أعجمى ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه ومن نون وهو عاصم وعلى فقد جعله عربيا (وقالت النصارى المسيح ابن الله

(وقالت اليهود) يهود أهل المدينة (عزير ابن الله وقالت النصارى) نصارى أهل نجران (المسيح ابن الله

(ابن)

ابن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله فانزل الله هذه الآية وقال عبيد بن عمير انما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن أغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد وانما نسب ذلك الى اليهود فى وقالت اليهود جريا على عادة العرب فى ايقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وانما يركب فرسا واحدا منها وتقول العرب فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا واحدا منهم وروى عطية العوفى عن ابن عباس أنه قال انما قالت اليهود ذلك من أجل ان عزيرا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فاضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل اليه أن يرد اليه التوراة فبينما هو يصلى مبتهلا الى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه فاذن فى قومه وقال ياقوم قد آتانى الله التوراة وردها الى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ماشاء الله ثم ان التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما فى التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما أوتى عزير هذا الا أنه ابن الله وقال الكلبى ان بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بنى اسرائيل وقتل من قرأ التوراة كان عزير اذ ذاك صغيرا فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد ما أماته الله مائة سنة قال فاتى ملك باناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة فى صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فامل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان أبى حدثنى عن جدى ان التوراة جعلت فى خابية ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفا فقالوا ان الله لم يقذف التوراة فى قلب عزير الا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله فعلى هذين القولين ان هذا القول كان فاشيا فى اليهود جميعا ثم انه انقطع واندرس فاخبر الله تعالى به عنهم وأظهره عليهم ولا عبرة بانكار اليهود ذلك فان خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من انكارهم وأما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه انهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من اصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون ان دخلنا النار ودخلوا الجنة فانى ساحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم انه عمد الى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم انه أتى الى النصارى فقالوا له من انت قال أنا عدوكم بولص فقد نوديت من السماء انه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فادخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الانجيل ثم خرج وقال قد نوديت ان الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم انه عمد الى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور

ذلك قولهم بافواههم) أي قول لا يعضده برهان ولا يستند الى بيان فما هو الا لفظ يفوهون به فارغ عن معنى تحته كالالفاظ المهملة (يضاهون قول الذين كفروا من قبل) لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا يعني ان الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم يعني انه كفر قديم فيهم غير مستحدث أو الضمير للنصارى أي يضاهي قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم أقدم منهم يضاهئون عاصم وأصل المضاهاة المشابهة والاكثر ترك الهمز واشتقاقه من قولهم امرأة ضهياء وهي التي أشبهت الرجال بانها لا تحيض كذا قاله الزجاج (قاتلهم الله) أي هم أحقاء بان يقال لهم هذا (أنى يؤفكون) كيف يصرفون

﴿ ذلك قولهم بافواههم ﴾ اما تأكيد لنسبة هذا القول اليهم ونفي للتجوز عنها او اشعار بانه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الافواه ولا يوجد مفهومه في الاعيان ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا ﴾ اي يضاهي قولهم قول الذين كفروا فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ﴿ من قبل ﴾ اي من قبلهم والمراد قدماؤهم على معنى ان الكفر قديم فيهم او المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله او اليهود على ان الضمير للنصارى والمضاهاة المشابهة والهمز لغة فيه وقد قرأ به عاصم ومنه قولهم امرأة ضهيأ على فعيل للتي شابهت الرجال في انها لا تحيض ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم بالاهلاك فان من قاتله الله هلك او تعجب من شناعة قولهم ﴿ انى يؤفكون ﴾

والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطوران عيسى ومريم والاله ثلاثة وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له أنت خالصتي وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم اني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني وقال لكل واحد منهم اني سأذبح نفسي تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس والآخر الى ناحية أخرى وأظهر كل واحد منهم مقالته ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله وقال الامام فخر الدين الرازي بعد ان حكى هذه الحكاية والاقرب عندي ان يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة الحال ﴿ ذلك قولهم بافواههم ﴾ يعني انهم يقولون ذلك القول بالسنتهم من غير علم يرجعون اليه قال أهل المعاني لم يذكر الله قولا مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك القول زورا وكذبا لا حقيقة له ﴿ يضاهئون ﴾ قال ابن عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون ﴿ قول الذين كفروا من قبل ﴾ قال قتادة والسدي معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله وقال مجاهد معناه يضاهون قول المشركين من قبل لان المشركين كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الامم الخالية الكافرة وقال القتيبي يريد أن من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولوهم ﴿ قاتلهم الله ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب أي حق ان يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله ﴿ أنى يؤفكون ﴾ يعني أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل واقامة الحجة

ذلك قولهم بافواههم) بالسنتهم (يضاهون) يشبهون (قول الذين كفروا من قبل) من قبلهم يعني أهل مكة لان أهل مكة قالوا اللات والعزى ومناة بنات الله وكذلك قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى قال بعضهم المسيح ابن الله وقال بعضهم شريكا وقال بعضهم هو الله وقال بعضهم ثالث ثلاثة (قاتلهم الله) لعنهم الله (أنى يؤفكون) من أين

(بان الله)

كيف يصرفون عن الحق الى الباطل ﴿ اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله ﴾ بان اطاعوهم فى تحريم مااحل الله وتحليل ماحرم الله او بالسجود لهم ﴿ والمسيح ابن مريم ﴾ بان جعلوه ابن الله ﴿ وما امروا ﴾ اى وما امر المتخذون او المتخذون اربابا فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ ﴿ الا ليعبدوا ﴾ ليطيعوا ﴿ الها واحدا ﴾ وهو الله تعالى واما طاعة الرسل وسائر من امر الله بطاعته فهو فى الحقيقة طاعة الله ﴿ لااله الاهو ﴾ صفة ثانية او استئناف مقرر للتوحيد ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾ تنزيه له عن ان يكون له شريك ﴿ يريدون ان يطفؤا ﴾ يخمدوا ﴿ نور الله ﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقدسه عن الولد او القرآن او نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ بافواههم ﴾ بشركهم او بتكذيبهم

بان الله واحد أحد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله سبحانه وتعالى لايتعجب من شئ ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطبتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق واصرارهم على الباطل * قوله سبحانه وتعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ يعنى أتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والاحبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أربابا من دون الله يعنى أنهم أطاعوهم فى معصية الله تعالى وذلك انهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فاطاعوهم فيها فاتخذوهم كالارباب لا أنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الالهية عن عدى بن حاتم قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال ياعدى اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ فى سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيأ استحلوه واذا حرموا عليهم شيأ حرموه أخرجه الترمذى وقال حديث غريب قال عبدالله بن المبارك

وهل بدل الدين الا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها(١)

﴿ والمسيح ابن مريم ﴾ يعنى اتخذوه الها وذلك لما اعتقدوا فيه البنوة والحلول اعتقدوا فيه الالهية ﴿ وماأمروا ﴾ يعنى وما أمروا فى الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم ﴿ الا ليعبدوا الها واحدا ﴾ لانه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لاغيره ﴿ لااله الاهو سبحانه عمايشركون ﴾ أى تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك فى العبادة والاحكام وأن يكون له شريك فى الالهية يستحق التعظيم والاجلال ﴿ يريدون ﴾ يعنى يريد رؤساء اليهود والنصارى ﴿ أن يطفؤا نور الله بافواههم ﴾ يعنى يريد هؤلاء ابطال دين الله الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبهم اياه وقيل المراد من النور الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهى أمور أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التى ظهرت على يد النبى صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه وثانيها القرآن العظيم الذى نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الابد دالة على صدقه

(١) ومابعده قوله « لقد وقع القوم فى جيفة * يبين لذى العلم انتانها » قاله مصححه

عن الحق بعد قيام البرهان (اتخذوا) أى أهل الكتاب (أحبارهم) علماءهم (ورهبانهم) نساكهم (أربابا) آلهة (من دون الله) حيث أطاعوهم فى تحليل ماحرم الله وتحريم ماأحل الله كما يطاع الارباب فى أوامرهم ونواهيهم (والمسيح ابن مريم) عطف على احبارهم أى اتخذوه ربا حيث جعلوه ابن الله (وماأمروا الا ليعبدوا الها واحدا) يجوز الوقف عليه لان مابعده يصلح ابتداء ويصلح وصفا لواحدا (لااله الاهو سبحانه عمايشركون) تنزيه له عن الاشراك (يريدون أن يطفؤا نور الله بافواههم

يكذبون (اتخذوا أحبارهم) علماءهم يعنى اليهود (ورهبانهم) واتخذت النصارى أصحاب الصوامع (أربابا) أطاعوهم بالمعصية (من دون الله والمسيح ابن مريم) واتخذوا المسيح بن مريم الها (وما أمروا) فى جملة الكتب (الا ليعبدوا) ليوحدوا (الها واحدا لااله الاهو سبحانه) نزه نفسه (عمايشركون يريدون أن يطفؤا) يبطلوا (نور الله) دين الله (بأفواههم) بتكذيبهم ويقال بألسنتهم

﴿ ويأبى الله ﴾ اى لا يرضى ﴿ الا ان يتم نوره ﴾ باعلاء التوحيد واعزاز الاسلام وقيل انه تمثيل لحالهم فى طلبهم ابطال نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالتكذيب بحال من يطلب اطفاء نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله ان يزيده بنفخه وانما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجب لانه فى معنى النفى ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ محذوف الجواب لدلالة ماقبله عليه ﴿ هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ كالبيان لقوله ويأبى الله الا ان يتم

وثالثها أن دينه الذى أمر به وهو دين الاسلام ليس فيه شئ سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لامره ونهيه واتباع طاعته والامر بعبادته والتبرى من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن أراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم ان الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمزيد النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين بقوله ﴿ ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ يعنى ويأبى الله الا أن يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذى بعث به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ولو كره ذلك الكافرون ﴿ قوله عز وجل ﴿ هو الذى أرسل رسوله ﴾ يعنى ان الله الذى يأبى الا أن يتم نوره هو الذى أرسل رسوله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ بالهدى ﴾ يعنى بالقرآن الذى أنزله عليه وجعله هاديا اليه ﴿ ودين الحق ﴾ يعنى دين الاسلام ﴿ ليظهره ﴾ يعنى ليعليه ﴿ على الدين كله ﴾ يعنى على سائر الاديان وقال ابن عباس الهاء فى ليظهره عائدة الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها اويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شئ منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة الى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الاسلام على الاديان كلها وهو أن لا يعبد الله الا به وقال أبو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى أهل دين الا دخلوا فى الاسلام ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن ابى هريرة فى حديث نزول عيسى عليه السلام قال قال النبى صلى الله عليه وسلم ويهلك فى زمانه الملل كلها الا الاسلام عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى على وجه الارض بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله كلمة الاسلام اما بعز عزيز أو بذل ذليل اما ان يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به واما ان يذلهم فيدينون له اخرجه البغوى بغير سند (م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يارسول الله انى كنت أظن حين أنزل الله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ان ذلك تام قال انه سيكون ذلك ماشاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة تتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون الى دين آبائهم قال الشافعى وقد أظهر الله دين رسوله صلى الله عليه وسلم على الاديان كلها بان ابان لكل من سمعه انه الحق وما خالفه من الاديان باطل وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الاميين

ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون) مثل حالهم فى طلبهم ان يبطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب بحال من يريد ان ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله ان يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الاشراق ليطفئه بنفخه أجرى ويأبى الله مجرى لا يريد الله ولذا وقع فى مقابلة يريدون والا لا يقال كرهت أو أبغضت الا زيدا (هو الذى أرسل رسوله) محمدا عليه السلام (بالهدى) بالقرآن (ودين الحق) الاسلام (ليظهره) ليعليه (على الدين كله) على أهل الاديان كلهم او ليظهر دين الحق على كل دين

(ويأبى الله) لا يترك الله (الا أن يتم نوره) الا أن يظهر دينه الاسلام (ولو كره) وان كره (الكافرون) ان يكون ذلك (هو الذى أرسل رسوله) محمدا عليه السلام (بالهدى) بالقرآن والايمان (ودين الحق) دين الاسلام شهادة أن لا اله الا الله (ليظهره على الدين كله) ليظهر دين الاسلام على الاديان كلها من قبل ان تقوم الساعة

(ولوكره المشركون ياايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس) استعار الاكل للاخذ (بالباطل) أي بالرشا في الاحكام (ويصدون) سفلتهم (عن سبيل الله) دينه (والذين يكنزون الذهب والفضة) يجوزان يكون اشارة الى الكثير من الاحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم أخذ الرشا وكنز الاموال والضن بها من الانفاق في سبيل الخير ويجوز ان يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظا وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما أدى زكاته فليس بكنزوان كان باطنا ومابلغ ان يزكى فلم يزك فهو كنز وان كان ظاهرا ولقد كان كثير من الصحابة رضى الله عنهم كعبد الرحمن ابن عوف وطلحة يقتنون الاموال ويتصرفون فيها وماعابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والاقتناء مباح لايذم صاحبه

يتم نوره ولذلك كرر ﴿ولوكره المشركين﴾ غير انه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على انهم ضموا الكفر بالرسول الى الشرك بالله والضمير في ليظهره للدين الحق اوللرسول عليه الصلاة والسلام واللام في الدين للجنس اى على سائر الاديان فينسخها اوعلى اهلها فيخذلهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ﴾ يأخذونها بالرشا في الاحكام سمى اخذ المال اكلا لانه الغرض الاعظم منه ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ دينه ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة

فقهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاميين حتى دانوا بالاسلام طوعا وكرها وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالاسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا هو ظهوره على الدين كله ﴿ولوكره المشركون﴾ قوله تعالى ﴿ياايها آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ﴾ قد تقدم معنى الاحبار والرهبان وان الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى * وفي قوله سبحانه وتعالى ان كثيرا دليل على ان الاقل من الاحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عن أخذ الاموال بالاكل في قوله تعالى ﴿ ليأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ لان المقصود الاعظم من جمع المال الاكل فسمى الشئ باسم ماهو أعظم مقاصده واختلفوا في السبب الذي من اجله أكلوا أموال الناس بالباطل فقيل انهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمسامحة في الاحكام وقيل انهم كانوا يكتبون بايديهم كتبا يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي صلى الله عليه وسلم وصفته في كتبهم لانهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل وقيل ان التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي صلى الله عليه وسلم وكان الاحبار والرهبان يذكرون في تأويلها وجوها فاسدة باطلة ويحرفون معانيها طلبا للرياسة وأخذ الاموال ومنع الناس عن الايمان به وذلك قوله تعالى ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ يعني ويمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والدخول في دين الاسلام ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ أصل الكنز في اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا في المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم أهل الكتاب قاله معاوية بن أبي سفيان لان الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع اخراج الحقوق الواجبة منه وقال ابن عباس والسدى نزلت في معاني الزكاة من المسلمين وذلك انه سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الاحبار والرهبان في الحرص على أخذ الاموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه وقال أبو ذر نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من أهل الكتاب

(ولوكره) وان كره (المشركون) ان يكون ذلك (ياأيها الذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (ان كثيرا من الاحبار) علماء اليهود (والرهبان) أصحاب الصوامع (ليأكلون أموال الناس بالباطل) بالرشوة والحرام (ويصدون عن سبيل الله) (قاوخا ١٥ لث) عن دين الله وطاعته (والذين يكنزون) يجمعون (الذهب والفضة

أو من المسلمين (خ) عن زيد بن وهب قال مررت بالربذة فاذا بأبي ذر فقلت ما أنزلك هذا المنزل قال كنت في الشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فقال معاوية نزلت في أهل الكتاب فقلت نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذلك كلام فكتب الى عثمان يشكوني فكتب الى عثمان ان اقدم المدينة فقدمتها فكثر على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال ان شئت تنحيت فكنت قريبا فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمر علي عبد حبشي لسمعت وأطعت واختلف العلماء في معنى الكنز فقيل هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروى عن ابن عمر أنه قال له اعرابي أخبرني عن قول الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها ويل له هذا كان قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرا للاموال أخرجه البخاري وفي رواية مالك عن عبد الله بن دينار قال سمعت عبد الله بن عمر وهو يسئل عن الكنز ماهو فقال هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة ورواه الطبري بسنده عن ابن عمر قال كل ما أديت زكاته فليس بكنز وان كان مدفونا وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذي ذكره الله في القرآن يكوى به صاحبه وان لم يكن مدفونا وروى عن علي بن أبي طالب قال أربعة آلاف فما فوقها كنز وما دونها نفقة وقيل الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه اليه وروى الطبري بسنده عن أبي امامة قال توفي رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان كان هذا في أول الاسلام قبل ان تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل معه شئ من المال اخراجه لاحتياج غيره اليه فلما فرضت الزكاة نسخ ذلك الحكم عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة كبر ذلك على المسلمين فقال عمر أنا أفرج عنكم فانطلق فقال يا نبي الله انه كبر على أصحابك هذه الآية فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا لتطييب ما بقي من أموالكم وانما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم قال فكبر عمر ثم قال له الا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأة الصالحة اذا نظر اليها سرته واذا أمرها أطاعته واذا غاب عنها حفظته أخرجه أبو داود عن ثوبان قال لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه أنزلت في الذهب والفضة فلو علمنا أي المال خير اتخذناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على ايمانه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن والصحيح من هذه الاقوال القول الاول وهو ماذكرنا عن ابن عمران كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولا يحرم على صاحبه اكتنازه وان كثر وان كل مال لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب عليه وان قل اذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله الا ان يتفضل الله عز وجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ماروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها الا اذا

(كان)

ولاينفقونها فى سبيل الله ﴾ يجوز ان يراد به الكثير من الاحبار والرهبان فيكون مبالغة فى وصفهم بالحرص على المال والضن به وان يراد به المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولايؤدون حقه ويكون اقترانه بالمرتشين من اهل الكتاب للتغليظ ويدل عليه انه لما نزل كبر على المسلمين فذكر عمر رضى الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها مابقى من اموالكم وقوله عليه السلام ماادى زكاته فليس بكنز اى بكنز اوعد عليه فان الوعيد على الكنز مع عدم الانفاق فيما امر الله ان ينفق فيه واما قوله من ترك صفراء او بيضاء كوى بها ونحوه (٢) فالمراد منه من لم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام فيما اورده الشيخان مرويا عن

كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فاحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار قيل يارسول الله فالابل قال ولا صاحب ابل لايؤدى منها حقها ومن حقها حلبها يوم ورودها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لايفقد منها فصيلا واحدا تطؤه باخفافها وتعضه بافواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار قيل يارسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولاغنم لايؤدى حقها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لايفقد منها شيأ ليس فيها عقصاء ولاجلحاء ولاعضباء تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار أخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت أعيدت له هكذا هو فى بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفى بعضها بردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الاولى هى رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكى اسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوى من الارض الواسع الاملس والعقصاء هى الشاة الملتوية القرنين وانما استثناها لانها لاتؤلم بنطحها وكهذا الجلحاء وهى الشاة التى لاقرن لها وكذا العضباء وهى الشاة المكسورة القرن (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل ماله شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى شدقيه ثم يقوله أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم الآية الشجاع الحية والاقرع صفة له بطول العمر لان من طال عمره تمزق شعره وذهب وهى صفة أخبث الحيات والزبيبتان هما الزبدتان فى الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الاذنين ❁ وقوله تعالى ﴿ ولاينفقونها فى سبيل الله ﴾ يعنى ولايؤدون زكاتها وانما قال ولاينفقونها ولم يقل ينفقونهما لانه رد الكناية الى المال المكنوز وهى أعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية الى الفضة لانها أغلب أموال

(ولاينفقونها فى سبيل الله) الضمير راجع الى المعنى لان كل واحد منهما دنانير ودراهم فهو كقوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا أو أريد الكنوز والاموال أو معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله ❁ فانى وقيار بها لغريب وقيار كذلك وخصا بالذكر من بين سائر الاموال لانهما قانون التمول وأثمان الاشياء وذكر كنزهما دليل على ماسواهما

ولاينفقونها) يعنى الكنوز (فى سبيل الله) فى طاعة الله ويقال ولايؤدون زكاتها

(٢) فالمراد منها مالم يؤد حقها نسخه

ابى هريرة رضى الله تعالى عنه صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ﴿ فبشرهم بعذاب اليم ﴾ هو الكى بهما ﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم ﴾ اى يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها واصله تحمى بالنار فجعل الاحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار واسند الفعل الى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من صيغة التأنيث الى صيغة التذكير وانما قال عليها والمذكور شيئان لان المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضى الله تعالى عنه اربعة آلاف وما دونها نفقة ومافوقها كنز وكذا قوله ولا ينفقونها وقيل الضمير فيهما للكنوز او للاموال فان الحكم عاد وتخصيصهما بالذكر لانهما قانون التمول او للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على ان الذهب اولى بهذا الحكم ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ لان جمعهم وامساكهم اياه كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية اولانهم ازوروا عن السائل واعرضوا عنه وولوه ظهورهم اولانها اشرف الاعضاء الظاهرة فانها المشتملة على الاعضاء الرئيسة التى هى الدماغ والقلب والكبد اولانها اصول الجهات الاربع التى هى مقاديم البدن ومآخره وجنباه ﴿ هذا ما كنزتم ﴾ على ارادة القول

الناس ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ يعنى الكافرين الذين لا يؤدون زكاة أموالهم (ق) عن أبى ذر قال انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الاخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم أتقار حتى قمت فقلت يارسول الله فداك أبى وأمى من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم مامن صاحب ابل ولابقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها الاجاءت يوم القيامة أعظم ماكانت واسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس هذا لفظ مسلم وفرقه البخارى فى موضعين * وقوله تعالى ﴿ يوم يحمى عليها ﴾ يعنى على الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة ﴿ فى نار جهنم فتكوى بها جباههم ﴾ يعنى بالكنوز جباه كانزيها ﴿ وجنوبهم وظهورهم ﴾ قال ابن عباس لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم فى موضع على حدته قال بعض العلماء انما خص هذه الاعضاء بالكى من بين سائر الاعضاء لان الغنى صاحب المال اذا أتاه السائل فطلب منه شيأ تبدو منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم ان كرر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانبا ثم ان كرر الطلب وألح فى السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه واستقبل جهة أخرى وهى نهاية فى الرد والغاية فى المنع الدال على كراهية الاعطاء والبذل وهذا دأب مانعى البر والاحسان وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الاعضاء الثلاثة بالكى يوم القيامة * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ هذا ما كنزتم

(فبشرهم بعذاب أليم) ومعنى قوله (يوم يحمى عليها فى نار جهنم) ان النار تحمى عليها أى توقد وانما ذكر الفعل لانه مسند الى الجار والمجرور أصله يوم تحمى النار عليها فلما حذفت النار قيل يحمى لانتقال الاسناد عن النار الى عليها كما تقول رفعت القصة الى الامير فان لم تذكر القصة قلت رفع الى الامير (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وخصت هذه الاعضاء لانهم كانوا اذا أبصروا الفقير عبسوا واذا ضمهم واياه مجلس ازوروا عنه وتولوا باركانهم وولوه ظهورهم أو معناه يكوون على الجهات الاربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم (هذا ما كنزتم

(فبشرهم) يا محمد (بعذاب أليم) وجيع (يوم يحمى عليها) على الكنوز ويقال على النار (فى نار جهنم فتكوى بها) فتضرب بالكنوز (جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا) يقال لهم عقوبة هذا (ما كنزتم) بما جمعتم من الاموال

﴿ لانفسكم ﴾

﴿لانفسكم﴾ لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ اى وبال كنزكم اوما تكنزونه وقرئ تكنزون بضم النون ﴿ان عدة الشهور﴾ اى مبلغ عددها ﴿عندالله﴾ معمول عدة لانها مصدر ﴿اثنا عشر شهرا فى كتاب الله﴾ فى اللوح المحفوظ اوفى حكمه وهو صفة لاثنا عشر وقوله ﴿يوم خلق السموات والارض﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت او بالكتاب ان جعل مصدرا والمعنى ان هذا امر ثابت فى نفس الامر منذ خلق الله الاجرام والازمنة ﴿منها اربعة حرم﴾

لانفسكم﴾ أى يقال لهم ذلك يوم القيامة ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أى فذوقوا عذاب ما كنزتم فى الدنيا من الاموال ومنعتم حق الله منها (ق) عن الاحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش اذجاء رجل خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل قال فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحدا منهم رجع اليه شيأ قال فادبر فاتبعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم فقال ان هؤلاء لا يعقلون شيأ هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم أذكرها وزاد البخارى قلت من هذا قالوا أبو ذر قال فقمت اليه فقلت ما شئ سمعتك تقول قبيل فقال ما قلت الا شيأ سمعته من نبيهم صلى الله عليه وسلم * قوله عز وجل ﴿ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا﴾ هى المحرم وصفر وربيع الاول وربيع الآخر وجمادى الاولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة وهى ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسئ الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية فكان يقع حجهم تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من الشهور فأعلم الله عز وجل ان عدة شهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى ان عدة الشهور عند الله يعنى فى علمه وحكمه اثناعشر شهرا ﴿فى كتاب الله﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه جميع أحوال الخلق وما يؤتون وما يذرون وقيل أراد بكتاب الله القرآن لان فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل أراد بكتاب الله الحكم الذى أوجبه وأمر عباده بالاخذ به ﴿يوم خلق السموات والارض﴾ يعنى أن هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والارض أن السنة اثناعشر شهرا ﴿منها﴾ يعنى من الشهور ﴿اربعة حرم﴾ وهى رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة

لانفسكم) يقال لهم هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وما علمتم انكم كنزتموه لتستضر به انفسكم وهو توبيخ (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى وبال المال الذى كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين (ان عدة الشهور عندالله اثنا عشر شهرا) من غير زيادة والمراد بيان ان أحكام الشرع تبتنى على الشهور القمرية المحسوبة بالاهلة دون الشمسية (فى كتاب الله) فيما أثبته وأوجبه من حكمه أو فى اللوح (يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم) ثلاثة سرد ذو القعدة للقعود عن القتال وذو الحجة للحج والمحرم لتحريم القتال فيه وواحد فرد وهو رجب لترجيب

(لانفسكم) فى الدنيا (فذوقوا ما كنتم) بما كنتم (تكنزون) تجمعون (ان عدة الشهور عندالله) يقول السنة بالشهور عندالله يعنى شهور السنة التى تؤدى فيها الزكاة (اثناعشر شهرا فى كتاب الله) فى اللوح المحفوظ (يوم) من يوم (خلق السموات والارض منها) من الشهور (أربعة حرم) رجب وذو القعدة وذو الحجة

واحد فرد وهو رجب وثلاثة سرد ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ اى تحريم الاشهر الاربعة هوالدين القويم دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام والعرب ورثوه منهما ﴿ فلا تظلموا فيهن انفسكم ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرامها والجمهور على ان حرمة المقاتلة فيها منسوخة واولوا الظلم بارتكاب المعاصى فيهن فانه اعظم وزرا كارتكابها فى الحرم وحال الاحرام وعن عطاء انه لايحل للناس ان يغزوا فى الحرم وفى الاشهر الحرم الاان يقاتلوا ويؤيد الاول ماروى انه عليه

متوالية وانما سميت حرما لان العرب فى الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لوان أحدهم لقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فى هذه الاربعة الاشهر لم يهجه ولما جاء الاسلام لم يزدها الا حرمة وتعظيما ولان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيآت أيضا أشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الاشهر الحرم ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ يعنى ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوى فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه يعنى حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل أراد بالدين القيم الحكم الذى لايغير ولايبدل والقيم هنا بمعنى الدائم الذى لايزول فالواجب على المسلمين الاخذ بهذا الحساب والعدد فى صومهم وحجهم واعيادهم وبياعاتهم وأجل ديونهم وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن أبى بكرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان أى شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أى بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام قلنا قال بلى فاى يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام لحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم الافلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد * وقوله عز وجل ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ قيل الكناية فى فيهن ترجع الى جميع الاشهر أى لا تظلموا أنفسكم فى جميع أشهر السنة بفعل المعاصى وترك الطاعات لان المقصود منع الانسان من الاقدام على المعاصى والفساد مطلقا فى جميع الاوقات الى الممات وقيل ان الكناية ترجع الى الاشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين وقال قتادة العمل الصالح أعظم أجرا فى الاشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وان كان الظلم على كل حال عظيما وقال ابن عباس لاتظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن اسحق بن يسار لا تجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو

العرب اياه أى لتعظيمه (ذلك الدين القيم) أى الدين المستقيم لامايفعله أهل الجاهلية يعنى أن تحريم الاربعة الاشهر هو الدين المستقيم ودين ابراهيم واسمعيل وكانت العرب تمسكت به فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسىء فغيروا (فلاتظلموا فيهن) فى الحرم أوفى الاثنى عشر (أنفسكم) بارتكاب المعاصى

والمحرم (ذلك الدين القيم) الحساب القائم لايزيد ولاينقص (فلا تظلموا) فلا تضروا (فيهن) فى الشهور (أنفسكم) بالمعصية ويقال

السلام حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ جميعا وهى مصدر كف عن الشئ فان الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم ﴿ انما النسئ ﴾ اى تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر كانوا اذا جاءهم شهر حرام وهم محاربون احلوه وحرموا مكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد وعن نافع برواية ورش انما النسى بقلب الهمزة ياء وادغام الياء فيها وقرئ النسى بحذفها والنسئ والنساء وثلاثتها مصادر نسأه اذا اخره ﴿ زيادة فى الكفر ﴾ لانه تحريم ما احله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر ضموه

النسئ وقيل ان الانفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الاطلاق شاق على النفس لاجرم ان الله خص بعض الاوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الانسان فى تلك الاوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها فى باقى الاوقات فتصير هذه الاوقات الشريفة والاشهر المحرمة المعظمة سببا لترك الظلم وفعل المعاصى فى غيرها من الاشهر فهذا وجه الحكمة فى تخصيص بعض الاشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الامكنة أيضا * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ يعنى قاتلوا المشركين باجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين فى مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء فى تحريم القتال فى الاشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا حراما ثم نسخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة يعنى فى الاشهر الحرم وفى غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخرسانى والزهرى وسفيان الثورى قالوا لان النبى صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم فى شوال وبعض ذى القعدة وقال آخرون انه غير منسوخ قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبى رباح ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الاشهر الحرم وما نسخت الا أن يقاتلوا فيها ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ يعنى بالنصر والمعونة على على اعدائهم قوله سبحانه وتعالى ﴿ انما النسئ زيادة فى الكفر ﴾ النسئ فى اللغة عبارة عن التأخير فى الوقت ومنه النسيئة فى البيع ومعنى النسئ المذكور فى الآية هو تأخير شهر حرام الى شهر آخر وذلك ان العرب فى الجاهلية كانت تعتقد حرمة الاشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية وربما وقعت حروب فى بعض الاشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم الى الاشهر الحلال فنسؤا يعنى أخروا تحريم شهر الى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر أخروه الى

(وقاتلوا المشركين كافة) حال من الفاعل أو المفعول (كما يقاتلونكم كافة) جميعا (واعلموا أن الله مع المتقين) أى ناصرلهم حثهم على التقوى بضمان النصرة لاهلها (انما النسئ) بالهمزة مصدر نسأه اذا أخره وهو تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر وذلك انهم كانوا أصحاب حروب وغارات فاذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرا آخر حتى رفضوا تخصيص الاشهر الحرم بالتحريم فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر (زيادة فى الكفر) أى هذا الفعل منهم زيادة فى كفرهم

فى الاشهر الحرم (وقاتلوا المشركين كافة) جميعا فى الحل والحرم (كما يقاتلونكم كافة) جميعا (واعلموا) يامعشر المؤمنين (أن الله مع المتقين) الكفر والشرك والفواحش ونقض العهد والقتال فى أشهر الحرم (انما النسئ زيادة فى الكفر) يقول تأخير المحرم الى صفر معصية

الى كفرهم ﴿يضل به الذين كفروا﴾ ضلالا زائدا وقرأ حمزة والكسائى وحفص يضل

ربيع الاول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة ابى بكر فى السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر بمنى وأعلمهم ان أشهر النسئ قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الامر الى ما وضع الله عليه حساب الاشهر يوم خلق السموات والارض وهو قوله صلى الله عليه وسلم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الايام واختلفوا فى أول من نسأ النسئ فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسأ النسئ بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن أمية الكنانى وقال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس فى الموسم فاذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فيقول لامرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه ان ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر فى هذا العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة من الرماح وان قال حلال عقدوا اوتار القسى وركبوا الاسنة فى الرماح وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم هو رجل من بنى كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم

وفينا ناسئ الشهر القلمس

وكانوا يفعلون ذلك اذا اجتمعت العرب فى الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ان أول من سن النسئ عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف والذى صح من حديث أبى هريرة وعائشة ان عمرو بن لحى اول من سيب السوائب وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار فهذا ما ورد فى تفسير النسئ الذى ذكره الله فى قوله انما النسئ زيادة فى الكفر يعنى زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة انهم أمروا بايقاع كل فعل فى وقته من الاشهر الحرم ثم انهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه الى وقت آخر بسبب ذلك النسئ فأوقعوه فى غير وقته من الاشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة فى كفرهم ﴿يضل به الذين كفروا﴾ قرئ يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل بالنسئ الذين كفروا وقرئ يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه ان كبارهم أضلوهم وحملوهم عليه وقرئ يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الذين كفروا أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل معناه يضل به الذين كفروا تابعيهم والآخذين بافعالهم وهذا الوجه أقوى الوجهين

(يضل) كوفى غير أبى بكر (به الذين كفروا) بالنسئ والضمير فى

زيادة مع الكفر (يضل به) يغلط بتأخير المحرم الى صفر (الذين كفروا

(يحلونه عاما ويحرمونه عاما) للنسىء أى اذا أحلوا شهرا من الأشهر الحرام عاما رجعوا فحرموه فى العام القابل (ليواطؤا عدة ماحرم الله) ليوافقوا العدة التى هى الاربعة ولايخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين واللام تتعلق بيحلونه ويحرمونه أو بيحرمونه فحسب وهو الظاهر (فيحلوا ماحرم الله) أى فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ماحرم الله من القتال أو من ترك الاختصاص الاشهر بعينها (زين لهم سوء أعمالهم) زين الشيطان لهم ذلك فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة

(والله لايهدى القوم الكافرين) حال اختيارهم الثبات على الباطل (ياأيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا) اخرجوا (فى سبيل الله اثاقلتم) تثاقلتم وهو أصله الأ أن التاء أدغمت فى الثاء فصارت ثاء ساكنة فدخلت ألف الوصل لئلا يبتدأ بالساكن أى تباطأتم (الى الارض) ضمن معنى الميل والاخلاد فعدى بالى اى ملتم الى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه أى ملتم الى الاقامة بارضكم وديار كم وكان ذلك فى غزوة تبوك استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الاورى عنها بغيرها الا فى غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة

يضل على البناء للمفعول وعن يعقوب يضل على ان الفعل لله تعالى ﴿يحلونه عاما﴾ يحلون النسىء من الاشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهرا آخر ﴿ويحرمونه عاما﴾ فيتركونه على حرمته قيل اول من احدث ذلك جنادة بن عوف الكنانى كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى ان آلهتكم قد احلت لكم المحرم فاحلوه ثم ينادى فى القابل ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه والجملتان تفسير للضلال اوحال ﴿ليواطؤا عدة ماحرم الله﴾ اى ليوافقوا عدة الاربعة المحرمة واللام متعلقة بيحرمونه اوعادل عليه مجموع الفعلين ﴿فيحلوا ماحرم الله﴾ بمواطأة العدة وحدها من غير مراعاة الوقت ﴿زين لهم سوء اعمالهم﴾ وقرئ على البناء للفاعل وهو الله تعالى والمعنى خذلهم واضلهم حتى حسبوا قبيح اعمالهم حسنا ﴿والله لايهدى القوم الكافرين﴾ هداية موصلة الى الاهتداء ﴿ياأيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم﴾ تباطأتم وقرئ تثاقلتم على الاصل واثاقلتم على الاستفهام للتوبيخ ﴿الى الارض﴾ متعلق به كأنه ضمن معنى الاخلاد والميل فعدى بالى وكان ذلك فى غزوة تبوك امروا بها بعد رجوعهم من الطائف فى وقت عسرة وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم

تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد ﴿يحلونه عاما ويحرمونه عاما﴾ يعنى يحلون ذلك الانساء عاما ويحرمونه عاما والمعنى يحلون الشهر المحرم عاما فيجعلونه حلالا ليغيروا فيه ويحرمونه عاما فيجعلونه محرما فلايغيرون فيه ﴿ليواطؤا﴾ يعنى ليوافقوا ﴿عدة ماحرم الله﴾ يعنى أنهم ماأحلوا شهرا من المحرم الا حرموا شهرا مكانه من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال الا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لاجل أن يكون عدد الاشهر الحرم أربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة فى العدد لافى الحكم كذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء أعمالهم﴾ قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل ﴿والله لايهدى القوم الكافرين﴾ يعنى أنه سبحانه وتعالى لايرشد من هو كافر أثيم لما سبق له فى الازل انه من أهل النار ۞ قوله عز وجل ﴿ياأيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض﴾ نزلت هذه الآية فى الحث على غزوة تبوك وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة

يحلونه) يعنى المحرم (عاما) فيقاتلون فيه (ويحرمونه) يعنى المحرم (قا و خا ١٦ لث) (عاما) فلايقاتلون فيه فاذا أحلوا المحرم حرموا صفر بدله (ليواطؤا) ليوافقوا (عدة ماحرم الله) أربعا بالعدد (فيحلوا ماحرم الله) يعنى المحرم (زين لهم) حسن لهم (سوء أعمالهم) قبح أعمالهم (والله لايهدى) لايرشد الى دينه (القوم الكافرين) من لم يكن أهلا لذلك وكان الذى يفعل هذا رجلا يقال له نعيم بن ثعلبة (ياأيها الذين آمنوا) أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (مالكم اذا قيل لكم انفروا) اخرجوا مع نبيكم (فى سبيل الله) فى طاعة الله وفى غزوة تبوك (اثاقلتم الى الارض) اشتهيتم الجلوس على الارض

﴿ارضيتم بالحيوة الدنيا﴾ وغرورها ﴿من الآخرة﴾ بدل الآخرة ونعيمها ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ فما التمتع بها ﴿فى الآخرة﴾ فى جنب الآخرة ﴿الا قليل﴾ مستحقر ﴿الا تنفروا﴾ ان لا تنفروا الى ما استنفرتم اليه ﴿يعذبكم عذابا اليما﴾ بالاهلاك بسبب فظيع كقحط وظهور عدو ﴿ويستبدل قوما غيركم﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين كاهل اليمن وابناء فارس ﴿ولا تضروه شيأ﴾ اذ لا يقدح تثاقلكم فى نصرة دينه شيأ

من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فانزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم يعنى قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم انفروا فى سبيل الله أى اخرجوا الى الجهاد يقال استنفر الامام الناس اذا حثهم على الخروج الى الجهاد ودعاهم اليه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم واذا استنفرتم فانفروا والاسم النفير اثاقلتم أى تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج الى الغزو الى الارض يعنى لزمتم أرضكم ومساكنكم وانما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة الى كثرة الاستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت ادراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيرا فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله ﴿أرضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة﴾ يعنى أرضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة ﴿فما متاع الحيوة الدنيا فى الآخرة الا قليل﴾ يعنى ان لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الابد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلا بالنسبة الى نعيم الآخرة وفى الآية دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت لان الله سبحانه وتعالى نص على ان تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهى قوله تعالى ﴿الا تنفروا﴾ يعنى ان لم تنفروا أيها المؤمنون الى ما استنفركم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ﴿يعذبكم عذابا أليما﴾ يعنى فى الآخرة لان العذاب الاليم لا يكون الا فى الآخرة وقيل ان المراد به احتباس المطر فى الدنيا قال نجدة بن نفيع سألت ابن عباس عن هذه الآية فقال استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم ﴿ويستبدل قوما غيركم﴾ يعنى خيرا منكم وأطوع قال سعيد بن جبير هم أبناء فارس وقيل هم أهل اليمن نبه سبحانه وتعالى على انه قد تكفل بنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم واعزاز دينه فان سارعوا معه الى الخروج الى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل وان تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا ان اعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته لا تحصل الا بهم وهو قوله تعالى ﴿ولا تضروه شيأ﴾ قيل الضمير راجع الى الله تعالى

(أرضيتم بالحيوة الدنيا من الاخرة) بدل الآخرة (فما متاع الحيوة الدنيا فى الآخرة) فى جنب الآخرة (الا قليل الا تنفروا) الى الحرب (يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيأ) سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين وانه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع وأنه غنى عنهم فى نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيأ وقيل الضمير فى ولا تضروه للرسول عليه السلام لان الله وعده أن يعصمه من الناس وان ينصره ووعده

(ارضيتم بالحيوة الدنيا) مافى الحياة الدنيا (من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل) يسير لا يبقى (الا تنفروا) ان لم تخرجوا مع نبيكم الى غزوة تبوك (يعذبكم عذابا أليما) وجيعا فى الدنيا والاخرة (ويستبدل قوما غيركم) خيرا منكم وأطوع (ولا تضروه) اى لا يضر الله جلوسكم (شيأ

فانه الغنى عن كل شئ وفى كل امر وقيل الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام اى ولا تضروه فان الله وعدله بالعصمة والنصرة ووعده حق ﴿والله على كل شئ قدير﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الاسباب والنصرة بلامدد كما قال تعالى ﴿الا تنصروه فقد نصر الله﴾ أى ان لم تنصروه فينصره الله كما نصره الله ﴿اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين﴾ ولم يكن معه الا رجل واحد فحذف الجزاء واقيم ماهو كالدليل عليه مقامه اوان لم تنصروه فقد اوجب الله له النصرة حتى نصره فى مثل ذلك الوقت فلن يخذله فى غيره واسناد الاخراج الى الكفرة لان همهم باخراجه اوقتله تسبب لاذن الله له بالخروج وقرئ ثانى اثنين بالسكون على لغة من يجرى المنقوص مجرى المقصور فى الاعراب ونصبه على الحال ﴿اذهما فى الغار﴾ بدل من اذ اخرجه بدل البعض اذ المراد به زمان متسع والغار ثقب فى اعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا ﴿اذ يقول﴾ بدل ثان اوظرف لثانى ﴿لصاحبه﴾ وهو أبو بكر رضى الله تعالى عنه ﴿لا تحزن ان الله معنا﴾ بالعصمة والمعونة روى ان المشركين طلعوا فوق الغار

يعنى ولا تضروا الله شيأ لانه غنى عن العالمين وانما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير راجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ولا تضروا محمدا صلى الله عليه وسلم شيأ فان الله ناصره على أعدائه ولا يخذله ﴿والله على كل شئ قدير﴾ يعنى انه تعالى قادر على كل شئ فهو ينصر نبيه ويعز دينه قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لانها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ ۞ قوله عزوجل ﴿الا تنصروه فقد نصره الله﴾ يعنى الا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون هذا خطاب لمن تثاقل عن الخروج معه الى تبوك فاعلم الله عزوجل انه هو المتكفل بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم واعزاز دينه واعلاء كلمته أعانوه أولم يعينوه وانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد ﴿اذ أخرجه الذين كفروا﴾ يعنى انه تعالى نصره فى الوقت الذى أخرجه فيه كفار مكة من مكة حين مكروا به وأرادوا قتله ﴿ثانى اثنين﴾ يعنى هو واحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ﴿اذ هما فى الغار﴾ يعنى اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار والغار نقب عظيم يكون فى الجبل وهذا الغار فى جبل ثور وهو قريب من مكة ﴿اذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ يعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر الصديق لا تحزن وذلك ان أبا بكر خاف من الطلب ان يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحزن ﴿ان الله معنا﴾ يعنى بالنصر والمعونة قال الشعبى عاتب الله عزوجل أهل الارض جميعا فى هذه الآية غير أبى بكر وقال الحسن بن الفضل من قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله

كائن لامحالة (والله على كل شئ) من التبديل والتعذيب وغيرهما (قدير الا تنصروه فقد نصره الله) الا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه الا رجل واحد فدل بقوله فقد نصره الله على انه ينصره فى المستقبل كما نصره فى ذلك الوقت (اذ أخرجه الذين كفروا) أسند الاخراج الى الكفار لانهم حين هموا باخراجه اذن الله له فى الخروج فكانهم أخرجوه (ثانى اثنين) أحد اثنين كقوله ثالث ثلاثة وهما رسول الله وأبو بكر وانتصابه على الحال (اذهما) بدل من اذ أخرجه (فى الغار) هو نقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا (اذ يقول) بدل ثان (لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) بالنصرة والحفظ قيل طلع المشركون

والله على كل شئ) من العذاب والبدل (قدير الا تنصروه) ان لم تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم بالخروج معه الى غزوة تبوك (فقد نصره الله اذ أخرج لذين كفروا) كفار مكة (ثانى اثنين) يعنى رسول الله وأبا بكر (اذهما) رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر رضى الله عنه (فى الغار اذ يقول)رسول الله صلى الله عليه وسلم (لصاحبه) أبى بكر (لا تحزن) يا أبا بكر (ان الله معنا) معيننا

فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماظنك باثنين الله ثالثهما فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه وقيل لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في اسفله والعنكبوت فنسجت عليه

صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن و في سائر الصحابة اذا انكر يكون مبتدعا ولا يكون كافرا عن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابي بكر أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (ق) عن أبي بكر الصديق قال نظرت الى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤسنا فقلت يارسول الله لوأن أحدهم نظر الى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما قال الشيخ محي الدين النووي معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل في قوله سبحانه وتعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وسلم حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لابي بكر وهي من أجل مناقبه والفضيلة من أوجه منها اللفظ الدال على ان الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وملازمته النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك روى عن عمر بن الخطاب انه ذكر عنده أبو بكر فقال وددت ان عملي كله مثل عمله يوما واحدا من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما ليلته فليلة سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار فلما انتهيا اليه قال والله لاتدخله حتى أدخل قبلك فان كان فيه شئ أصابني دونك فدخله فكنسه ووجد في جانبه ثقبا فشق ازاره وسدها به وبقي منها ثقبان فالقمهما رجليه ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الحجر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك ياأبابكر فقال لدغت فداك أبي وأمي فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب مايجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته وأما يومه فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب وقالوا لانؤدي الزكاة فقال لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه فقلت ياخليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فقال لي أجبار في الجاهلية خوار في الاسلام انه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي أخرجه في جامع الاصول ولم يرقم عليه علامة لاحد قال البغوي وروى انه حين انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ياأبابكر فقال اذكر الطلب فامشي خلفك واذكر الرصد فامشي بين يديك فلما انتهيا الى الغار قال مكانك يارسول الله حتى استبرئ الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل يارسول الله فنزل وقال له ان أقتل فأنا رجل واحد من المسلمين وان قتلت هلكت الامة

فوق الغار فاشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه السلام ماظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بأبصارهم عنه وقالوا من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لانكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة

ذكر سياق حديث الهجرة وهو من أفراد البخارى

عن عائشة قالت لم أعقل ابوى قط الا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشيا فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى اذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد ياأبابكر فقال أبو بكر أخرجنى قومى فاريدان أسيح فى الارض فاعبد ربى فقال ابن الدغنة فان مثلك ياأبابكر لايخرج ولايخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانالك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم ان أبابكر لايخرج مثله ولايخرج أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفى رواية فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمنوا أبابكر وقالوا لابن الدغنة مر أبابكر فليعبد ربه فى داره وليصل فيها وليقرأ ماشاء ولايؤذينا بذلك ولا يستعلن به فانا نخشى ان يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لابى بكر فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه فى داره ولايستعلن بصلاته ولايقرأ فى غير داره ثم بدا لابى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه وكان أبو بكر رجلا بكاء لايملك عينيه اذا قرأ القرآن فافزع ذلك أشراف قريش من المشركين فارسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا انا كنا أجرنا أبابكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل وان أبى الا أن يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لابى بكر الاستعلان قالت عائشة فأتى ابن الدغنة الى أبى بكر فقال قد علمت الذى عاهدت لك عليه فاما أن تقتصر على ذلك وأما أن ترجع الى ذمتى فانى لاأحب أن تسمع العرب انى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر فانى أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين انى رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان بارض الحبشة الى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فانى أرجو أن يؤذن لى فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينا نحن جلوس يوما فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداءله أبى وأمى والله

ماجاءبه فى هذه الساعة الاأمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فاذن له
فدخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر انما هم
أهلك بأبى أنت وأمى يارسول الله قال فانى قد أذن لى فى الخروج قال أبو بكر الصحبة
بأبى أنت وأمى يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال أبو بكر فخذ
بأبى أنت وأمى يارسول الله احدى راحلتى هاتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء
بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق قالت
ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال
يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر
فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به الاوعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك
حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها
عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس
يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالى الثلاث وأستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأبو بكر رجلا من بنى الديل وهو من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا والخريت الماهر
بالهداية قد غمس حلفا فى آل العاص بن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش فامناه
فدفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق
معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلى فاخذبهم طريق السواحل وفى رواية طريق
الساحل قال ابن شهاب فاخبرنى عبد الرحمن بن مالك المدلجى وهو ابن أخى سراقة بن
مالك بن جعشم ان أباه أخبره انه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسول
كفار قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن
قتله أو أسره فبينا أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج أقبل رجل منهم حتى
قام علينا ونحن جلوس فقال ياسراقة انى قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا
وأصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له انهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا
بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فامرت جاريتى أن
تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها على وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر
البيت فحططت بزجه الارض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب
بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقمت وأهويت بيدى الى كنانتى
فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذى أكره فركبت فرسى
وعصيت الازلام تقرب بى حتى اذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الارض حتى بلغتا الركبتين
فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لأثر يديها عثان ساطع
فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالامان فوقفوا
فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر
(أمر)

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم اخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني الا أن قالا اخف عنا مااستطعت فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن شهاب فاخبرنى عروة بن الزبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشأم فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبابكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة الى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظارهم فلما آووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على ظهر أطم من آطامهم لامر ينظر اليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى ان قال باعلى صوته يامعشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه قال فثار المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا فطفق من جاء من الانصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيي أبابكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا ان شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يارسول الله فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول

هذا الحمال لاحمال خيبر * هذا ابرر بنا وأطهر

ويقول اللهم ان الاجر أجر الآخره * فارحم الانصار والمهاجره * فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى قال ابن شهاب ولم يبلغنا فى الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت أخرجه البخارى بطوله

﴿ شرح غريب الفاظ الحديث ﴾

قوله لم أعقل أبوى الا وهما يدينان الدين يعنى أنهما كانا ينقادان الى الطاعة وبرك الغماد بفتح الباء من برك وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلى ساحل البحر الى المدينة من بلاد غفار وقيل هو قليب ماء لبنى ثعلبة قوله تكسب المعدوم فيه قولان أحدهما انه لقوة سعده وحظه من الدنيا لايتعذر عليه كسب كل شئ حتى

المعدوم الذى يتعذر كسبه على غيره والقول الثانى انه يملك الشئ المعدرم المتعذر لمن لا يقدر عليه ففيه وصفه بالاحسان والكرم والكل مايثقل حمله من حقوق الناس وصلة الارحام والقيام بامر العيال واقراء الضيف ونوائب الحق ماينوب الانسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده أنالك جار أى حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان والاعلان اظهار المخفى وقوله فينقذف النساء عليه يعنى يزدحمن عليه والذمة العهد والامان واخفارها نقضها واللابة الجبل والحرة الارض التى تعلوها حجارة سود يقال افعل الشئ على رسلك بكسر الراء أى على هينتك والراحلة البعير القوى على الحمل والسير والظهيرة وقت شدة الحر والنطاق حبل أو نحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفا من أعلاه الى اسفله لئلا يصل الى الارض وقولها ثقف لقن يقال ثقف الرجل ثقافة اذا صار حاذقا فطنا واللقن السريع الفهم والادلاج بتخفيف الدال سير أول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال نعق الراعى بالغنم اذا دعاها لتجتمع اليه والغلس ظلام آخر الليل والخريت تقدم شرحه فى الحديث وهو الماهر بالهداية وأراد به هداية الطريق فهو الدليل وقد غمس حلفا يقال غمس فلان حلفا فى آل فلان اذا أخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والاسودة الاشخاص والاكمة التل المرتفع من الارض يقال قرب الفرس يقرب تقريبا اذا عدا عدوا دون الاسراع والكنانة هى الجعبة التى تجعل فيها السهام والازلام القداح التى كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفال والعثان الغبار يقال مارزأت فلانا شيأ أى ما اصبت منه شيأ والمراد أنهم لم يأخذوا منه شيأ وقوله أوفى أى أشرف واطلع والاطم البناء المرتفع كالحصن وقوله مبيضين هو بكسر الياء أى هم ذوو ثياب بيض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر وقوله هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعنى هذا الحمل والمحمول من اللبن أبر عند الله واطهر وأبقى ذخرا وأدوم منفعة فى الآخرة لا حمال خيبر يعنى مايحمل من خيبر من التمر والزبيت والطعام المحمول منها والمعنى ان ذلك الحمل الذى نحمله من اللبن لاجل عمارة المسجد أفضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الجمال بالجيم من التجمل ورواية الاولى أشهر وأكثر والله أعلم قال الزهرى لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الغار أرسل الله سبحانه وتعالى زوجا من حمام حتى باضتا فى أسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتا وقيل أنت عامة على فم الغار وقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم اعم أبصارهم فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت فى بعض التفاسير شعرا وقد نسب الى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وهو قوله

قال النبى ولم يجزع يوقرنى * ونحن فى سدف فى ظلمة الغار
لا تخش شيأ فان الله ثالثنا * وقد تكفل لى منه باظهار

{ وانما }

﴿فأنزل الله سكينته﴾ امنته التى تسكن عندها القلوب ﴿عليه﴾ على النبى أو على صاحبه وهو الاظهر لانه كان منزعجا ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ يعنى الملائكة انزلهم ليحرسوه

وانما كيد من تخشى بوادره * كيد الشياطين قد كادت لكفار
والله مهلكهم طرا بما صنعوا * وجاعل المنتهى منهم الى النار

﴿قوله سبحانه وتعالى ﴿فانزل الله سكينته عليه﴾ يعنى فانزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس على أبى بكر لان النبى صلى الله عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل ذلك

فصل فى الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

منها أن النبى صلى الله عليه وسلم لما اختفى فى الغار من الكفار كان مطلعا على باطن أبى بكر الصديق فى سره وإعلانه وانه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته فى ذلك المكان المخوف لعلمه بحاله * ومنها ان هذه الهجرة كانت باذن الله تعالى فخص الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم أبابكر دون غيره من أهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف أبى بكر وفضله على غيره * ومنها ان الله سبحانه وتعالى عاتب أهل الارض بقوله تعالى ألا تنصروه فقد نصره الله سوى أبى بكر الصديق وهذا دليل على فضله * ومنها ان سيدنا أبابكر رضى الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ولا حضر بل كان ملازما له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له * ومنها مؤانسته للنبى صلى الله عليه وسلم فى الغار وبذل نفسه له وفى هذا دليل على فضله * ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعله ثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه وتعالى ثانى اثنين اذ هما فى الغار وفى هذا نهاية الفضيلة لابى بكر رضى الله تعالى عنه وقد ذكر بعض العلماء ان أبابكر كان ثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أكثر الاحوال * ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الخلق الى الايمان بالله فكان أبو بكر أول من آمن ثم دعا أبو بكر الى الايمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدى أبى بكر ثم جاءهم الى النبى صلى الله عليه وسلم * ومنها ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقف فى موقف من غزواته الا وأبو بكر معه فى ذلك الموقف * ومنها انه لما مرض صلى الله عليه وسلم قام مقامه فى الامامة فكان ثانيه * ومنها انه ثانيه فى تربته صلى الله عليه وسلم وفى هذا دليل على فضل أبى بكر الصديق * ومنها ان الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبى بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى اذ يقول لصاحبه لا تحزن * ومنها ان الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره * ومنها انزال السكينة على أبى بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم ﴿قوله سبحانه وتعالى ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ يعنى وأيد النبى صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته وقيل ألقى الرعب فى قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبى أعانه بالملائكة يوم بدر فاخبر الله سبحانه وتعالى انه نصره

(فانزل الله سكينته) ما ألقى فى قلبه من الامنة التى سكن عندها وعلم انهم لا يصلون اليه (عليه) على النبى صلى الله عليه وسلم أو على أبى بكر لانه كان يخاف وكان عليه السلام ساكن القلب (وأيده بجنود لم تروها) هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه أو أيده بالملائكة يوم بدر والاحزاب وحنين

(فأنزل الله سكينته) طمأنينته (عليه) على نبيه (وأيده) أعانه يوم بدر ويوم الاحزاب ويوم حنين (بجنود لم تروها) يعنى

في الغار أوليعينوه على العدو يوم بدر والاحزاب وحنين فتكون الجملة معطوفة على قوله نصره الله ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ﴾ يعنى الشرك أودعوة الكفر ﴿ وكلمة الله هى العليا ﴾ يعنى التوحيد أودعوة الاسلام والمعنى وجعل ذلك بتخليص الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عن ايدى الكفار الى المدينة فانه المبدأ له أوبتأييده اياه بالملائكة فى هذه المواطن أوبحفظه ونصره له حيث حضر * وقرأ يعقوب كلمة الله بالنصب عطفا على كلمة الذين والرفع ابلغ لما فيه من الاشعار بان كلمة الله عالية فى نفسها وان فاق غيرها فلاثبات لتفوقه ولااعتبار ولذلك وسط الفصل ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فى امره وتدبيره ﴿ انفروا خفافا ﴾ لنشاطكم له ﴿ وثقالا ﴾ عنه لمشقته عليكم أولقلة عيالكم ولكثرتها أوركبانا ومشاة أوخفافا وثقالا من السلاح أوصحاحا ومراضا ولذلك لما قال ابن ام مكتوم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى ان انفر قال نعم حتى نزل ليس على الاعمى حرج

وصرف عنه كيد الاعداء وهو فى الغار فى حالة القلة والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ﴾ يعنى كلمة الشرك فهى سفلى الى يوم القيامة ﴿ وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾ قال ابن عباس هى كلمة لا اله الا الله فهى باقية الى يوم القيامة عالية وقيل ان كلمة الذين كفروا هى ما كانوا قدروها فيما بينهم من الكيد للنبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه وكلمة الله هى ما وعده من النصر والظفر بهم فكان ما وعده الله سبحانه وتعالى حقا وصدقا * قوله سبحانه وتعالى ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ يعنى انفروا على الصفة التى يخف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التى يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة يعنى شبابا وشيوخا وقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال عطية العوفى ركبانا ومشاة وقال أبو صالح خفافا من المال يعنى فقراء وثقالا يعنى أغنياء وقال ابن زيد الخفيف الذى لاضيعة له والثقيل الذى له الضيعة يكره أن يدع ضيعته ويروى عن ابن عباس قال خفافا أهل اليسرة من المال وثقالا اهل العسرة وقيل خفافا يعنى من السلاح مقلين منه وثقالا يعنى مستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتأهلين وقيل خفافا من الحاشية والاتباع وثقالا مستكثرين منهم وقيل خفافا يعنى مسرعين فى الخروج الى الغزو ساعة سماع النفير وثقالا يعنى بعد التروى فيه والاستعداد له والصحيح ان هذا عام لان هذه الاحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا يعنى على أى حال كنتم فيهما * فان قلت فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد حتى المريض والزمن والفقير وليس الامر كذلك فما معنى هذا الامر * قلت من العلماء من حمله على الوجوب ثم انه نسخ قال ابن عباس نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية وقال السدى نسخت بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الامر على الندب قال مجاهد ان أبا أيوب الانصارى شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتخلف عن غزوة غزاها

(وجعل كلمة الذين كفروا) أى دعوتهم الى الكفر (السفلى وكلمة الله) دعوته الى الاسلام (هى) فصل (العليا) وكلمة الله بالنصب يعقوب بالعطف والرفع على الاستئناف أوجه اذهى لم تزل كانت عالية (والله عزيز) يعز بنصره أهل كلمته (حكيم) يذل أهل الشرك بحكمته (انفروا خفافا) فى النفور لنشاطكم له (وثقالا) عنه لمشقته عليكم أوخفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أوخفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أوشبابا وشيوخا أومهازيل وسمانا أوصحاحا ومراضا

الملائكة (وجعل كلمة) دين (الذين كفروا السفلى) المغلوبة المذمومة (وكلمة الله هى العليا) الغالبة الممدوحة (والله عزيز) بالنقمة من اعدائه (حكيم) بالنصرة لاوليائه (انفروا) اخرجوا مع نبيكم الى غزوة تبوك (خفافا وثقالا) شبانا وشيوخا ويقال نشاطا وغير نشاط ويقال خفافا من المال والعيال وثقالا

(المسلمون)

﴿ وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو احدهما ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ من تركه ﴿ ان كنتم تعلمون ﴾ الخير علمتم انه خير أو ان كنتم تعلمون انه خير اذ اخبار الله به صدق فبادروا اليه ﴿ لو كان عرضا ﴾ أى لو كان ما دعوا اليه نفعا دنيويا ﴿ قريبا ﴾ سهل المأخذ ﴿ وسفرا قاصدا ﴾ متوسطا ﴿ لاتبعوك ﴾ لوافقوك ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ المسافة التى تقطع بمشقة وقرئ بكسر العين والشين ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أى المتخلفون اذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿ لو استطعنا ﴾

المسلمون بعده فقيل له فى ذلك فقال سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافا وثقالا ولا أجدنى الا خفيفا أو ثقيلا وقال الزهرى خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت احدى عينيه فقيل له انك عليل صاحب ضر فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكنى الحرب كثرت السواد أو حفظت المتاع وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت ياعم أنت معذور عند الله فرفع حاجبيه وقال يا ابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا الا انه من يحبه يبتليه والصحيح هو القول الاول انها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه ان هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك وان النبى صلى الله عليه وسلم خلف فى المدينة فى تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على ان الجهاد من فروض الكفايات ليس على الاعيان والله أعلم * قوله سبحانه وتعالى ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾ فيه قولان الاول ان الجهاد انما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثانى أن من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بان يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهدا بماله دون نفسه ﴿ذلكم﴾ يعنى ذلكم الجهاد ﴿خير لكم﴾ يعنى من القعود والتثاقل عنه وقيل معناه ان الجهاد خير حاصل لكم ثوابه ﴿ان كنتم تعلمون﴾ يعنى ان ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه * ثم نزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قوله عز وجل ﴿لو كان عرضا قريبا﴾ فيه اضمار تقديره لو كان ما تدعوهم اليه عرضا يعنى غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ﴿وسفرا قاصدا﴾ يعنى سهلا قريبا ﴿لاتبعوك﴾ يعنى لخرجوا معك ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أى المسافة والشقة السفر البعيد لانه يشق على الانسان سلوكها ومعنى الآية لو كان العرض قريبا والغنيمة سهلة والسفر قاصدا لاتبعوك طمعا فى تلك المنافع التى تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيدا وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم انهم تخلفوا لهذا السبب * ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم انه اذا رجع النبى عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى ﴿وسيحلفون بالله﴾ يعنى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة ﴿لو استطعنا﴾

بهما ان أمكن أو باحدهما على حسب الحال والحاجة (فى سبيل الله ذلكم) الجهاد (خير لكم) من تركه (ان كنتم تعلمون) كون ذلك خيرا فبادروا اليه ونزل فى المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين (لو كان عرضا) هو ما عرض لك من منافع الدنيا يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أى لو كان ما دعوا اليه مغنما (قريبا) سهل المأخذ (وسفرا قاصدا) وسطا متقاربا والقاصد والقصد المعتدل (لاتبعوك) لوافقوك فى الخروج (ولكن بعدت عليهم الشقة) المسافة الشاطة الشاقة (وسيحلفون بالله لو استطعنا

بالمال والعيال (وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله) فى طاعة الله (ذلكم) الجهاد (خير لكم) من الجلوس (ان كنتم) اذ كنتم (تعلمون) وتصدقون ذلك (لو كان عرضا قريبا) غنيمة قريبة (وسفرا قاصدا) هينا (لاتبعوك) الى غزوة تبوك بطيبة الانفس (ولكن بعدت عليهم الشقة) السفر الى الشام (وسيحلفون بالله) لكم اذا رجعتم من غزوة تبوك عبدالله بن أبى وجد بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (لو استطعنا)

لخرجنا معكم) من دلائل النبوة لانه أخبر عما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر أو بالله متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد في الوجهين أي سيحلفون يعني المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم أو سيحلفون بالله يقولون لو استطعنا وقوله لخرجنا سد مسد جوابي القسم ولو جميعا ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة أو استطاعة الابدان كأنهم تمارضوا (يهلكون أنفسهم) بدل من سيحلفون أو حال منه أي مهلكين والمعنى انهم يهلكونها بالحلف الكاذب أو حال من لخرجنا أي لخرجنا معكم وان أهلكنا أنفسنا والقيناها في التهلكة بما نحملها على المسير في تلك الشقة (والله يعلم انهم لكاذبون) فيما يقولون (عفا الله عنك) كناية عن الزلة لان العفو رادف لها وهو من لطف العتاب بتصدير العفو في الخطاب وفيه دلالة فضله على سائر الانبياء عليهم السلام حيث لم يذكر مثله لسائر الانبياء عليهم السلام (لم أذنت لهم) بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالاذن

يقولون لو كان لنا استطاعة العدة او البدن * وقرئ لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الضمير في قوله اشتروا الضلالة ﴿ لخرجنا معكم ﴾ ساد مسد جوابي القسم والشرط وهذا من المعجزات لانه اخبار عما وقع قبل وقوعه ﴿ يهلكون انفسهم ﴾ بايقاعها في العذاب وهو بدل من سيحلفون لان الحلف الكاذب ايقاع للنفس في الهلاك أو حال من فاعله ﴿ والله يعلم انهم لكاذبون ﴾ في ذلك لانهم كانوا مستطيعين الخروج ﴿ عفا الله عنك ﴾ كناية عن خطائه في الاذن فان العفو من روادفه ﴿ لم اذنت لهم ﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو ومعاتبة عليه والمعنى لاي شئ اذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلوا

لخرجنا معكم ﴾ يعني الى هذه الغزوة ﴿ يهلكون أنفسهم ﴾ يعني بسبب هذه الايمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على ان الايمان الكاذبة تهلك صاحبها ﴿ والله يعلم انهم لكاذبون ﴾ يعني في ايمانهم وهو قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم لانهم كانوا مستطيعين الخروج * قوله عز وجل ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ قال الطبري هذا عتاب من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أي في اذنه لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين حين شخص الى تبوك لغزو الروم والمعنى عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في اذنك لهؤلاء المنافقين استأذنوك في ترك الخروج معك الى تبوك قال عمرو بن ميمون الاودي اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بشئ فيهما اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل ان يعيره بالذنب

فصل

استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الانبياء وبيانه من وجهين * أحدهما انه سبحانه وتعالى قال عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب * الوجه الثاني انه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الانكار * والجواب عن الاول انا لا نسلم ان قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول ان ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر لك كل هذه الالفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي بن الجهم يخاطب المتوكل

عفا الله عنك الا حرمة * تعود بفضلك ان أبعدا
ألم تر عبدا عدا طوره * ومولى عفا ورشيدا هدى
أقلني أقالك من لم يزل * يقيل ويصرف عنك الردى

* والجواب عن الثاني أنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم الانكار عليه وبيانه

بالزاد والراحلة (لخرجنا معكم) الى غزوة تبوك (يهلكون أنفسهم) بالحلف الكاذبة (والله يعلم انهم لكاذبون) لانهم كانوا يستطيعون الخروج مع (اما) النبي صلى الله عليه وسلم (عفا الله عنك) يا محمد (لم أذنت لهم) للمنافقين بالجلوس

باكاذيب وهلا توقفت ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ فى الاعتذار ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ فيه قيل انما فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئين لم يؤمر بهما اخذه للفداء واذنه للمنافقين فعاتبه الله عليهما ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم ﴾ أى ليس من عادة المؤمنين ان يستأذنوك فى ان يجاهدوا فانه الخلص منهم يبادرون اليه ولا يتوقفون على الاذن فيه فضلا ان يستأذنوك فى التخلف عنه أو ان يستأذنوك فى التخلف كراهة ان يجاهدوا ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ شهادة لهم بالتقوى وعدة لهم بثوابه ﴿ انما يستأذنك ﴾ فى التخلف ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ تخصيص الايمان بالله عز وجل واليوم الآخر فى الموضعين للاشعار بان الباعث على الجهاد والوازع عنه الايمان وعدم الايمان بهما ﴿ وارتابت قلوبهم

اما أن يكون قد صدر عنه ذنب فى هذه الواقعة أولا فان كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق فقوله عفا الله عنك يدل على حصول العفو وبعد حصول العفو يستحيل ان يتوجه الانكار عليه وان لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الانكار عليه فثبت بهذا ان الانكار يمتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم وقال القاضى عياض فى كتابه الشفاء فى الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم انه أمر لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك قال نفطويه وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيرا فى أمرين قالوا وقد كان له ان يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحى فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وانه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أى لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيرى قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أى لم يلزمك ذنب قال الداودى انها تكرمة وقال مكى هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندى ان معناه عافاك الله وقيل معناه أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعنى فى التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الاولى والأكمل لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ يعنى فى اعتذارهم ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ يعنى فيما يعتذرون به قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا باموالهم وأنفسهم ﴾ أى فى ان يجاهدوا وانما حسن هذا الحذف لظهوره ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ يعنى الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته ﴿ انما يستأذنك ﴾ يعنى فى التخلف عن الجهاد معك يا محمد من غير عذر ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ وهم المنافقون لقوله ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ يعنى شكت قلوبهم فى الايمان وانما أضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان أيضا فاذا دخله الشك

(حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) يتبين لك الصادق فى العذر من الكاذب فيه وقيل شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما اذنه للمنافقين وأخذه الفدية من الاسارى فعاتبه الله وفيه دليل جواز الاجتهاد للانبياء عليهم السلام لانه عليه السلام انما فعل ذلك بالاجتهاد وانما عوتب مع ان له ذلك لتركه الافضل وهم يعاتبون على ترك الافضل (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا) ليس من عادة المؤمنين ان يستأذنوك فى ان يجاهدوا (باموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) عدة لهم باجزل الثواب (انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) يعنى المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلا (وارتابت قلوبهم) شكوا فى دينهم

(حتى يتبين لك الذين صدقوا) فى ايمانهم بالخروج معك (وتعلم الكاذبين) فى ايمانهم بالتخلف عن الخروج بالاذن (لا يستأذنك) بعد غزوة تبوك (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) فى السر والعلانية (أن يجاهدوا) ان لا يجاهدوا (باموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين)

الكفر والشرك (انما يستأذنك) بالجلوس عن الخروج (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) فى السر (وارتابت) شكت (قلوبهم

فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي يتحيرون ﴿ ولو ارادوا الخروج لأعدوا له ﴾ للخروج ﴿ عدة ﴾ اهبة * وقرئ عده بحذف التاء عند الاضافة كقوله

ان الخليط اجدوا البين فانجردوا * واخلفوك عدا الامر الذي وعدوا

وعده بكسر العين باضافة وبغيرها ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ استدراك عن مفهوم قوله ولو ارادوا الخروج كأنه قال ماخرجوا ولكن تثبطوا لانه تعالى كره انبعاثهم أي نهوضهم للخروج ﴿ فثبطهم ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ تمثيل لالقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم أو وسوسة الشيطان بالامر بالقعود أو حكاية قول بعضهم لبعض او اذن الرسول عليه السلام لهم والقاعدين يحتمل المعذورين وغيرهم وعلى الوجهين لايخلوا عن ذم

كان ذلك نفاقا ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ يعني أن المنافقين متحيرون لامع الكفار ولا مع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فقيل انها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله سبحانه وتعالى ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله وقيل انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فاذا عرض لاحدهم عذر استأذن في التخلف فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا في الاذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ يعني الى الغزو معكم ﴿ لاعدوا له عدة ﴾ لتهيؤا له باعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ يعني خروجهم الى الغزو معكم ﴿ فثبطهم ﴾ يعني منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم فصرفهم عنه وههنا يتوجه سؤال وهو ان خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم اما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم في اذنه لهم بالقعود والجواب عن هذا السؤال ان خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيه مفسدة عظيمة بدليل انه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا بقي فلم عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله لم أذنت لهم فنقول انه صلى الله عليه وسلم أذن لهم قبل تمام الفحص واكمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب قال تعالى لم أذنت لهم وقيل انما عاتبه لاجل انه اذن لهم قبل أن يوحى اليه في أمرهم بالقعود ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ معناه انهم لما استأذنوه في القعود قيل لهم اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعذار ثم اختلفوا في القائل من هو فقيل قال بعضهم لبعض اقعدوا مع القاعدين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل ان القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بان ألقى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين الى الجهاد ﴿ ثم بين سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى

واضطربوا في عقيدتهم (فهم في ريبهم يترددون) يتحيرون لان التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر (ولو أرادوا الخروج لاعدوا له) للخروج أو للجهاد (عدة) أهبة لانهم كانوا مياسير ولما كان ولو أرادوا الخروج معطيا معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل (ولكن كره الله انبعاثهم) نهوضهم للخروج كأنه قيل ماخرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم (فثبطهم) فكسلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والتثبيط التوقيف عن الامر بالتزهيد فيه (وقيل اقعدوا) أي قال بعضهم لبعض أو قاله الرسول عليه السلام غضبا عليهم أو قاله الشيطان بالوسوسة (مع القاعدين) هو ذم لهم

فهم في ريبهم) في شكهم (يترددون) يتحيرون (ولو أرادوا الخروج) معك الى غزوة تبوك (لاعدوا له) للخروج (عدة) قوة من السلاح والزاد (ولكن كره الله انبعاثهم) خروجهم معك الى غزوة تبوك (فثبطهم) فحبسهم عن الخروج (وقيل اقعدوا) تخلفوا (مع القاعدين) مع المتخلفين بغير عذر وقع ذلك في

والحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود فى البيوت (لو خرجوا فيكم مازادوكم) بخروجهم معكم (الاخبالا) الافسادا وشرا والاستثناء متصل لان المعنى مازادوكم شيأ الاخبالا والاستثناء المنقطع ان يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك مازادوكم خيرا الاخبالا والمستثنى منه

فى هذا الكلام غير مذكور واذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء أمكن ان يكون استثناء متصلا لان الخبال بعضه (ولااوضعوا خلالكم) ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وافساد ذات البين يقال وضع البعير وضعا اذا اسرع واوضعته انا والمعنى ولااوضعوا ركائبهم بينكم والمراد الاسراع بالنمائم لان الراكب اسرع من الماشى وخط فى المصحف ولااوضعوا بزيادة الالف لان الفتحة كانت تكتب الفا قبل الخط العربى والخط العربى اخترع قريبا من نزول القرآن وقد بقى من تلك الالف اثر فى الطباع فكتبوا صورة الهمزة الفا وفتحها الفا اخرى ونحوه اولااذبحنه (يبغونكم) حال من الضمير فى اوضعوا (الفتنة) اى يطلبون ان يفتنوكم بان يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم فى مغزاكم (وفيكم سماعون لهم) أى نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه اليهم (والله عليم بالظالمين) بالمنافقين (لقد ابتغوا الفتنة) بصد الناس او بان يفتكوا به عليه السلام ليلة العقبة او بالرجوع يوم أحد (من قبل) من قبل غزوة تبوك

﴿لو خرجوا فيكم مازادوكم﴾ بخروجهم شيأ ﴿الاخبالا﴾ فسادا وشرا ولا يستلزم ذلك ان يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لان الزيادة باعتبار أعم العام الذى وقع منه الاستثناء ولاجل هذا التوهم جعل الاستثناء منقطعا وليس كذلك لانه لايكون مفرغا ﴿ولااوضعوا خلالكم﴾ ولاسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب أو الهزيمة والتخذيل من وضع البعير وضعا اذا اسرع ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يريدون ان يفتنوكم بايقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب فى قلوبكم والجملة حال من الضمير فى اوضعوا ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ ضعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل اليهم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم ضمائرهم ومايتأتى منهم ﴿لقد ابتغوا الفتنة﴾ تشتيت امرك وتفريق اصحابك ﴿من قبل﴾ يعنى يوم احد فان ابن ابى واصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعدما خرجوا مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى ذى جدة اسفل من ثنية الوداع انصرفوا يوم

﴿لو خرجوا فيكم مازادوكم الاخبالا﴾ يعنى لو خرج هؤلاء المنافقون معكم الى الغزو مازادوكم الافسادا وشرا وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر فى العقل كالجنون قال بعض النحاة هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم مازادوكم قوة لكن خبالا والمراد به هنا الافساد وايقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الامر وشدة السفر وكثرة العدو وقوتهم ﴿ولا وضعوا خلالكم﴾ يعنى ولاسرعوا فيكم وساروا بينكم بالقاء النميمة والاحاديث الكاذبة فيكم ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يعنى يطلبون لكم ماتفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التى تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ قال مجاهد يعنى وفيكم عيون لهم يؤدون اليهم اخباركم ومايسمعون منكم وهم الجواسيس وقال قتادة وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون اليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم * فان قلت كيف يجوز أن يكون فى المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين * قلت يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فاذا قالوا قولا ربما أثر ذلك القول فى قلوب ضعفة المؤمنين فى بعض الاحوال ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين * قوله سبحانه وتعالى ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ يعنى لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين وردهم الى الكفر وتخذيل الناس عنكم قبل هذا اليوم كما فعل عبدالله ابن أبى بن سلول يوم أحد حين انصرف باصحابه عنكم

قلوبهم (لو خرجوا فيكم) معكم (مازادوكم الاخبالا) شرا وفسادا (ولااوضعوا خلالكم) اساروا على الابل وسطكم (يبغونكم الفتنة) يطلبون فيكم الشر والفساد والذلة والعيب (وفيكم) معكم (سماعون لهم) جواسيس للكفار (والله عليم بالظالمين) بالمنافقين عبدالله بن أبى وأصحابه (لقد ابتغوا الفتنة) بغوا لك الغوائل يعنى طلبوا لك الشر (من قبل) من قبل غزوة تبوك

(وقلبوا لك الامور) ودبروا لك الحيل والمكائد ودوروا الآراء في ابطال أمرك (حتى جاء الحق) وهو تأييدك ونصرك (وظهر أمر الله) وغلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) أى على رغم منهم (ومنهم من يقول أئذن لى ولا تفتني) ولا توقعني في الفتنة وهى الاثم بان لا تأذن لى فانى ان تخلفت بغير اذنك أثمت أو لا تلقني في الهلكة فانى اذا خرجت معك هلك مالى وعيالى وقيل قال الجد بن قيس المنافق قد علمت الانصار انى مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الاصفر يعنى نساء الروم ولكنى أعينك بمالى فاتركنى (ألا في الفتنة سقطوا) يعنى ان الفتنة هى التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) الآن لان اسباب الاحاطة معهم اوهى تحيط بهم يوم القيامة (ان تصبك) في بعض الغزوات (حسنة) ظفر وغنيمة (تسؤهم وان تصبك مصيبة) نكبة وشدة في بعضها نحو ماجرى يوم أحد (يقولوا قد أخذنا أمرنا) الذى نحن متسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم

احد ﴿ وقلبوا لك الامور ﴾ ودبروا لك المكائد والحيل ودوروا الآراء في ابطال امرك ﴿ حتى جاء الحق ﴾ النصر والتأييد الالهى ﴿ وظهر امر الله ﴾ وعلا دينه ﴿ وهم كارهون ﴾ أى على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين على تخلفهم وبيان ماثبطهم الله لاجله وكره انبعاثهم له وهتك استارهم وكشف اسرارهم وازاحة اعتذارهم تداركا لمافوت الرسول صلى الله عليه وسلم بالمبادرة الى الاذن ولذلك عوتب عليه ﴿ ومنهم من يقول أئذن لى ﴾ في القعود ﴿ ولا تفتني ﴾ ولا توقعني في الفتنة أى العصيان والمخالفة بان تأذن لى وفيه اشعار بانه لامحالة متخلف اذن له أو لم يأذن أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال اذ لا كافل لهم بعدى أو في الفتنة بنساء الروم لماروى ان جد بن قيس قال قد علمت الانصار انى مولع بالنساء فلا تفتني ببنات الاصفر ولكنى اعينك بمالى فاتركنى ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أى ان الفتنة هى التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احترزوا عنه ﴿ وان جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ جامعة لهم يوم القيامة أو الآن لان احاطة اسبابها بهم كوجودها ﴿ ان تصبك ﴾ في بعض غزواتك ﴿ حسنة ﴾ ظفر وغنيمة ﴿ تسؤهم ﴾ لفرط حسدهم ﴿ وان تصبك ﴾ في بعضها ﴿ مصيبة ﴾ كسر أو شدة كما اصاب يوم احد ﴿ يقولوا قد اخذنا امرنا

﴿ وقلبوا لك الامور ﴾ يعنى وأجالوا فيك وفي أمرك وفي ابطال دينك الرأى وبالغوا في تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك ﴿ حتى جاء الحق ﴾ يعنى النصر والظفر ﴿ وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ يعنى ذلك * قوله عز وجل ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتني ﴾ نزلت في الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما تجهز الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا أبا وهب هل لك في جلاد بنى الاصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء فقال الجد يا رسول الله لقد عرف قومى انى رجل مغرم بحب النساء وانى اخشى ان رأيت بنات بنى الاصفر ان لا اصبر عنهن ائذن لى في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بمالى قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت لك فانزل الله عز وجل فيه ومنهم يعنى ومن المنافقين من يقول ائذن لى يعنى في التخلف والقعود في المدينة ولا تفتني يعنى ببنات بنى الاصفر وهم الروم ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ يعنى انهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهى النفاق ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عنه ﴿ وان جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ يعنى يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ان تصبك حسنة تسؤهم ﴾ يعنى ان تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين ﴿ وان تصبك مصيبة ﴾ يعنى من هزيمة أو شدة ﴿ يقولوا ﴾ يعنى المنافقين ﴿ قد أخذنا أمرنا ﴾

(وقلبوا لك الامور) ظهرا لبطن وبطنا لظهر (حتى جاء الحق) كثر المؤمنون (وظهر أمر الله) دين الله الاسلام (وهم كارهون) ذلك (ومنهم) من المنافقين (من يقول) وهو جد بن قيس (ائذن لى) بالجلوس (ولا تفتني) في بنات الاصفر (ألا في الفتنة) في الشرك والنفاق (سقطوا) وقعوا (وان جهنم لمحيطة) ستحيط (بالكافرين) يوم القيامة (يعنى) (ان تصبك حسنة) الفتح والغنيمة مثل يوم بدر (تسؤهم) ساءهم ذلك يعنى المنافقين (وان تصبك مصيبة) القتل والهزيمة مثل يوم أحد (يقولوا) أى يقول المنافقون عبد الله بن أبى وأصحابه (قد أخذنا أمرنا) حذرنا

(من قبل) من قبل ماوقع (ويتولوا) عن مقام التحدث بذلك الى أهاليهم (وهم فرحون) مسرورون (قل لن يصيبنا الاما كتب الله لنا) أى قضى من خير أوشر (هو مولانا) أى الذى يتولانا ونتولاه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وحق المؤمنين أن لايتوكلوا على غير الله (قل هل تربصون بنا) تنتظرون بنا (الا احدى الحسنيين) وهما النصرة والشهادة (ونحن نتربص بكم احدى السوأيين اما (ان يصيبكم الله بعذاب من عنده) وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود (أو) بعذاب (بايدينا) وهو القتل على الكفر (فتربصوا) بنا ماذكرنا (انامعكم متربصون) ماهو عاقبتكم

من قبل ﴾ تبجحوا بانصرافهم واستحمدوا آراءهم فى التخلف ﴿ ويتولوا ﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له أوعن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وهم فرحون ﴾ مسرورون ﴿ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ﴾ الا ما اختصنا باثباته وايجابه من النصرة أو الشهادة أوما كتب لاجلنا فى اللوح المحفوظ لايتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم • وقرئ هل يصيبنا وهل يصيبنا وهو من فيعل لا من فعل لانه من بنات الواو لقولهم صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب لانه وقوع الشئ فيما قصد به وقيل من الصوب ﴿ هو مولانا ﴾ ناصرنا ومتولى امرنا ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ لان حقهم ان لايتوكلوا على غيره ﴿ قل هل تربصون بنا ﴾ تنتظرون بنا ﴿ الا احدى الحسنيين ﴾ الا احدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب النصرة والشهادة ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ أيضا احدى السوأيين ﴿ ان يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ بقارعة من السماء ﴿ أو بايدينا ﴾ أو بعذاب بايدينا وهو القتل على الكفر ﴿ فتربصوا ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿ انا معكم متربصون ﴾ ماهو عاقبتكم

يعنى أخذنا أمرنا بالجد والحزم فى القعود عن الغزو ﴿ من قبل ﴾ يعنى من قبل هذه المصيبة ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ يعنى مسرورين لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها ﴿ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ﴾ يعنى قل يامحمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا الا ماقدره الله لنا وعلينا وكتبه فى اللوح المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلايقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أويجلب لنفسه نفعا أراده لم يقدر له ﴿ هو مولانا ﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعنى فى جميع أمورهم ﴿ قل هل تربصون بنا ﴾ يعنى قل يامحمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون ﴿ الا احدى الحسنيين ﴾ يعنى اما النصر والغنيمة واما الشهادة والمغفرة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الغزو والجهاد فى سبيل الله اما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والاجر العظيم فى الآخرة واما ان يقتل فى سبيل الله فيحصل له الشهادة وهى الغاية القصوى ويدل على ذلك ماروى عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله وفى رواية تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه الا جهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أوأرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أوغنيمة أخرجاه فى الصحيحين ۞ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ يعنى ونحن ننتظر بكم احدى السوأيين ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ يعنى فيهلككم كما اهلك من كان قبلكم من الامم الخالية ﴿ أو بايدينا ﴾ يعنى أويصيبكم بأيدى المؤمنين بان يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم ﴿ فتربصوا انا معكم متربصون ﴾ قال الحسن فتربصوا مواعيد الشيطان انا متربصون مواعيد الله من اظهار دينه واستئصال من خالفه

بالتخلف عنهم (من قبل) من قبل المصيبة (ويتولوا) عن الجهاد (وهم فرحون) معجبون بما أصاب النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم أحد (قل) يامحمد للمنافقين (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) قضى الله لنا (هو مولانا) أولى بنا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وعلى المؤمنين ان يتوكلوا على الله (قل) يامحمد للمنافقين (هل تربصون بنا) تنتظرون بنا (الا احدى الحسنيين) الفتح والغنيمة أوالقتل والشهادة (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) لهلاككم (أو بايدينا) بسيوفنا لقتلكم (فتربصوا) (قا و خا ١٨ لث) فانتظروا بنا (انامعكم متربصون) منتظرون لهلاككم

(قل أنفقوا) فى وجوه البر (طوعا أو كرهـا) طائعين أو مكرهين نصب على الحال كرهـا حمزة وعلى وهو أمر فى معنى الخبر ومعناه (لن يتقبل منكم) أنفقتم طوعا أو كرها ونحوه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وقوله أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة * لدينا ولا مقلية ان تقلت * أى لن يغفر الله لهـم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ولا نلومك أسأت الينا أو أحسنت وقد جاز عكسه فى قولك رحم الله زيدا ومعنى عدم القبول انه عليه السلام يردها عليهم ولا يقبلها أو لا يثيبهـا الله وقوله طوعا أى من غير الزام من الله ورسوله وكرها أى ملزمين وسمى الالزام اكراها لانهم منافقون فكان الزامهم الانفاق شاقا عليهم كالاكراه (انكم) تعليل لرد انفاقهم (كنتم قوما فاسقين) متمردين عاتين (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) وبالياء حمزة وعلى (الا أنهم كفروا) أنهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولا اى وما منعهم قبول نفقاتهم الا كفرهم (بالله وبرسوله ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى) جمع كسلان (ولا ينفقون الا وهم كارهون) لانهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى وصفهم بالطوع فى قوله طوعا وسلبه عنهم ههنا لان المراد بطوعهم انهم يبذلونه من غير الزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم وما طوعهم ذلك الا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم

﴿ قل انفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ﴾ امر فى معنى الخبر أى لن يتقبل منكم نفقاتكم انفقتم طوعا أو كرها وفائدته المبالغة فى تساوى الانفاقين فى عدم القبول كانهم امروا بان يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم وهو جواب قول جد بن قيس واعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل امرين ان لا يؤخذ منهم وان لا يثابوا عليه وقوله ﴿ انكم كنتم قوما فاسقين ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له ﴿ وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أى وما منعهم قبول نفقاتهم الا كفرهم * وقرأ حمزة والكسائى ان يقبل بالياء لان تأنيث النفقات غير حقيقى * وقرئ يقبل على ان الفعل لله ﴿ ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى ﴾ متثاقلين ﴿ ولا ينفقون الا وهم كارهون ﴾ لانهم لا يرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما عقابا ﴿ فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم ﴾ فان ذلك استدراج ووبال لهم كما قال

﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها ﴾ نزلت فى الجد بن قيس المنافق وذلك انه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القعود عنه وقال أنا أعطيكم مالى فأنزل الله عز وجل ردا عليه قل أى قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله فى النفاق أنفقوا طوعا أو كرها يعنى أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين بالانفاق بالزام الله ورسوله اياكم بالانفاق ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ لان هذا الانفاق انما وقع لغير الله وهذه الآية وان كانت خاصة فى انفاق المنافقين فهى عامة فى حق كل من انفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه * ثم علل بسبب منع القبول بقوله ﴿ انكم ﴾ أى لانكم ﴿ كنتم قوما فاسقين ﴾ والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أى المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله ﴿ ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى ﴾ جمع كسلان يعنى متثاقلين فى الاتيان الى الصلاة وذلك لانهم لا يرجون على فعلها ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا فلذلك ذمهم مع فعلها ﴿ ولا ينفقون الا وهم كارهون ﴾ لانهم كانوا يعتقدون الانفاق فى سبيل الله مغرما ومنع ذلك الانفاق مغنما ﴿ فلا تعجبك ﴾ يا محمد ﴿ أموالهم ولا أولادهم ﴾ هذا الخطاب وان كان مختصا بالنبى صلى الله عليه وسلم الا ان المراد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والاعجاب السرور بالشئ مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد انه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشئ ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فينبغى للانسان أن لا يعجب بشئ من أمور الدنيا ولذاتها فان العبد اذا كان من الله عز وجل فى استدراج كثر ماله وولده فيكثر اعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر

(قل) يا محمد للمنافقين (انفقوا) أموالكم (طوعا) من قبل أنفسكم (أو كرها) جبرا مخافة القتل (لن يتقبل منكم) ذلك (انكم كنتم قوما فاسقين) منافقين (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله) فى السر (ولا يأتون الصلوة) الى الصلاة (الا وهم كسالى) متثاقلون (ولا ينفقون) شيأ فى سبيل الله (الا وهم كارهون) ذلك (فلا تعجبك) يا محمد (أموالهم) كثرة اموالهم (ولا أولادهم) كثرة ﴿ نعمة الله ﴾

انما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا) الاعجاب بالشئ أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا فان الله انما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها أو بالانفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له أو بنهب أموالهم وسبي أولادهم أو بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والخوف عليها وكل هذا عذاب (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وتخرج أرواحهم وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ودلت الآية على بطلان القول بالاصلح لانه أخبر أن اعطاء الاموال والاولاد لهم للتعذيب والاماتة على الكفر وعلى ارادة الله تعالى المعاصي لان ارادة العذاب بارادة ما يعذب عليه وكذا ارادة الاماتة على الكفر (ويحلفون بالله انهم لمنكم) لمن جملة المسلمين (وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون) يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالاسلام تقية (لو يجدون ملجأ) مكانا يلجؤن اليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة (أو مغارات) أو

﴿ انما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا ﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب ﴿ وتزهق انفسهم وهم كافرون ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك استدراجا لهم واصل الزهوق الخروج بصعوبة ﴿ ويحلفون بالله انهم لمنكم ﴾ انهم لمن جملة المسلمين ﴿ وماهم منكم ﴾ لكفر قلوبهم ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ يخافون منكم ان تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية ﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ حصنا يلجأون اليه ﴿ أو مغارات ﴾ غيرانا

نعمة الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿ انما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا ﴾ فان قلت كيف يكون المال والولد عذابا في الدنيا وفيهما اللذة والسرور في الدنيا * قلت قال مجاهد وقتادة في الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة وقيل ان سبب كون المال والولد عذابا في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما فاذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما فعلى هذا القول لا حاجة الى التقديم والتأخير في نظم الآية وأورد على هذا القول بان هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بني آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا وأجيب عن هذا الايراد بان المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو ان المؤمن قد علم انه مخلوق للآخرة وانه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذابا في الدنيا وأما المنافق فانه لا يعتقد كون الآخرة له وانه ليس فيها ثواب فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار ان المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين وقيل ان تعذيبهم بهما في الدنيا أخذ الزكاة منهم او النفقة في سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد في الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله وقيل يعذبهم بالتعب في جمعه وحفظه والكره في انفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم في الآخرة على ملك لا يعذره ﴿ وتزهق أنفسهم ﴾ يعني وتخرج أنفسهم ﴿ وهم كافرون ﴾ والمعنى انهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة * قوله عز وجل ﴿ ويحلفون بالله ﴾ يعني المنافقين ﴿ انهم لمنكم ﴾ يعني على دينكم وملتكم ﴿ وماهم منكم ﴾ يعني انهم كاذبون في أيمانهم ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ يعني انهم يخافون أن تظهروا على ما هم عليه من النفاق ﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ يعني حرزا وحصنا ومعقلا يلجؤن اليه وقيل لو وجدوا مهربا لهربوا اليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا اليهم ولفارقوكم ﴿ أو مغارات ﴾ يعني غيرانا في الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه الانسان

اولادهم (انما يريد الله ليعذبهم بها) في الآخرة (وتزهق أنفسهم) تخرج أنفسهم (في الحيوة الدنيا وهم كافرون) مقدم ومؤخر (ويحلفون بالله) عبد الله بن أبي وأصحابه (انهم لمنكم) معكم في السر والعلانية (وماهم منكم) معكم في السر والعلانية (ولكنهم قوم يفرقون) يخافون من سيوفكم (لو يجدون ملجأ) حرزا يلجؤن اليه (أو مغارات)

﴿أومدخلا﴾ نفقا ينجحرون فيه مفتعل من الدخول * وقرأ يعقوب مُدخلا من دخل * وقرئ مدخلا أى مكانا يدخلون فيه انفسهم ومتدخلا ومندخلا من تدخل واندخل ﴿لولوا اليه﴾ لاقبلوا نحوه ﴿وهم يجمحون﴾ يسرعون اسراعا لا يردهم شئ كالفرس الجموح وقرئ يجمزون ومنه الجمازة ﴿ومنهم من يلمزك﴾ يعيبك * وقرأ يعقوب يلمزك بضم وابن كثير يلامزك ﴿فى الصدقات﴾ فى قسمتها ﴿فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون﴾ قيل انها نزلت فى ابى الجواظ المنافق قال ألا ترون الى صاحبكم انما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم انه يعدل وقيل فى ابن ذى الخويصرة رأس الخوارج كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب اهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يارسول الله فقال ويلك

أى يستتر ﴿أومدخلا﴾ يعنى موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب فى الارض كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لولوا اليه﴾ والمعنى انهم لو وجدوا مكانا بهذه الصفة أو على أحد هذه الوجوه الثلاثة وهى شر الامكنة وأضيقها لولوا اليه أى لرجعوا اليه وتحرزوا فيه ﴿وهم يجمحون﴾ يعنى وهم يسرعون الى ذلك المكان والمعنى ان المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم الى أحد هذه الامكنة لصاروا اليه لشدة بغضهم اياكم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ومنهم من يلمزك فى الصدقات﴾ نزلت فى ذى الخويصرة التميمى واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم فيأ أتاه ذو الخويصرة رجل من بنى تميم فقال يارسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل اذا لم أعدل وفى رواية قد خبت وخسرت ان لم أعدل فقال عمر بن الخطاب ائذن لى فيه فاضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم زاد فى رواية يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين وفى رواية من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يامحمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل بعدى وقال ابن زيد قال المنافقون والله مايعطيها محمد الا من أحب ولا يؤثر بها الا من هواه فانزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات يعنى ومن المنافقين من يعيبك فى قسم الصدقات وفى تفريقها ويطعن عليك فى أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أى عابه ﴿فان أعطوا منها﴾ يعنى من الصدقات ﴿رضوا﴾ يعنى رضوا عنك فى قسمتها ﴿وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون﴾ يعنى وان لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا

غيرانا (أومدخلا) أو نفقا يندسون فيه وهو مفتعل من الدخول (لولوا اليه) لاقبلوا نحوه (وهم يجمحون) يسرعون اسراعا لا يردهم شئ من الفرس الجموح (ومنهم) ومن المنافقين (من يلمزك فى الصدقات) يعيبك فى قسمة الصدقات ويطعن عليك (فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) اذا للمفاجأة أى وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط وصفهم بان رضاهم وسخطهم لانفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله لانه عليه السلام استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم

فى الجبل (أومدخلا) سربا فى الارض (لولوا اليه) لذهبوا اليه (وهم يجمحون) يهرولون هرولة والجموح مشى بين مشيين (ومنهم) من المنافقين أبو الاحوص وأصحابه (من يلمزك فى الصدقات) يطعن عليك فى قسمة الصدقات يقولون لم يقسم بيننا بالسوية (فان أعطوا منها) من الصدقات حظا وافرا (رضوا) بالقسمة (وان لم يعطوا منها) من الصدقات حظا وافرا (اذا هم يسخطون)

{ ولو }

ان لم اعدل فمن يعدل واذا للمفاجأة نائب مناب الفاء الجزائية ﴿ ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴾ ما اعطاهم الرسول عليه السلام من الغنيمة أو الصدقة وذكر الله للتعظيم وللتنبيه على ان ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ كفانا فضله ﴿ سيؤتينا الله من فضله ﴾ صدقة أو غنيمة اخرى ﴿ ورسوله ﴾ فيؤتينا اكثر مما آتانا ﴿ انا الى الله راغبون ﴾ في ان يغنينا من فضله والآية بأسرها في حيز الشرط والجواب محذوف تقديره لكان خيرا لهم ثم بين مصارف الصدقات تصويبا وتحقيقا لما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام فقال ﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ أي الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم وهو دليل على ان المراد باللمز لمزهم في قسم الزكوات دون الغنائم والفقير من لا مال له

﴿ ولو أنهم رضوا ﴾ يعني ولو ان المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا ﴿ ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله ﴾ أي كافينا الله ﴿ سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ يعني ما نحتاج اليه ﴿ انا الى الله راغبون ﴾ يعني في أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيرا لهم وأعود عليهم * قوله عز وجل ﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية * اعلم ان المنافقين لما لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعابوه في قسم الصدقات بين الله عز وجل في هذه الآية ان المستحقين للصدقات هؤلاء الاصناف الثمانية ومصرفها اليهم ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها بشئ ولم يأخذ لنفسه منها شيأ فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات * عن زياد بن الحرث الصدائي قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فاتاه رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فان كنت من تلك الاجزاء أعطيتك حقك أخرجه أبو داود

فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل المسئلة الاولى

في بيان وجه الحكمة في ايجاب الزكاة على الاغنياء وصرفها الى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه * الوجه الاول ان المال محبوب بالطبع وسببه ان القدرة صفة من صفات الكمال وصفة الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوبا بالطبع فاذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة الى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الالهية ايجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سببا للقرب من الله عز وجل باخراج الزكاة منه * الوجه الثاني ان كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل الى شهواتها ولذاتها فاوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب * الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لان التكاليف البدنية غير شاقة على العبد واخراج المال مشق على النفس فأوجب الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن باخراج الزكاة أصحاب الاموال ليميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها * الوجه الرابع أن

فضجر المنافقون منه (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيرا لهم والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وان قل نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم انا الى الله في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون ثم بين مواضعها التي توضع فيها فقال (انما الصدقات للفقراء والمساكين) قصر جنس الصدقات على

بالقسمة (ولو أنهم) يعني المنافقين (رضوا ما آتاهم الله) بما أعطاهم الله من فضله (ورسوله وقالوا حسبنا الله) ثقتنا بالله (سيؤتينا الله من فضله) سيغنينا الله من فضله برزقه (ورسوله) بالعطية (انا الى الله راغبون) رغبتنا الى الله لو قالوا هكذا لكان خيرا لهم ثم بين لمن الصدقات فقال (انما الصدقات للفقراء) لاصحاب الصفة (والمساكين) للطوافين

ولا كسب يقع موقعا من حاجته من الفقار كأنه أصيب فقاره والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه من السكون كأن العجز أسكنه ويدل عليه قوله تعالى اما السفينة فكانت لمساكين

المال مال الله والاغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله الى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع الى امتثال الامر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصى المانع لعياله من ماله (ق) عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الخازن المسلم الامين الذى ينفذ وربما قال يعطى ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذى أمر له به أحد المتصدقين * الوجه الخامس ان الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالاموال التى بايدى الاغنياء فاوجب الله عز وجل نصيبا للفقراء فى ذلك المال تطييبا لقلوبهم * الوجه السادس ان المال الفاضل عن حاجة الانسان الاصلية اذا أمسك بقى معطلا عن المقصود الذى لاجله خلق المال فامر بدفع الزكاة الى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلا بالكلية

المسئلة الثانية

الآية تدل على أنه لا حق لاحد فى الصدقات الا هؤلاء الاصناف الثمانية وذلك مجمع عليه لان كلمتى انما تفيدان الحصر وذلك لانها مركبة من ان وما فكلمة ان للاثبات وكلمة ما للنفى فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على ان الصدقات لا تصرف الا الى الاصناف الثمانية

المسئلة الثالثة

فى بيان الاصناف الثمانية فالصنف الاول الفقراء والثانى المساكين وهم المحتاجون الذين لا يفى خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء فى الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهرى الفقير الذى لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر ليس بفقير من جمع الدرهم الى الدرهم والتمرة الى التمرة ولكن الفقير من أنقى نفسه وثيابه ولا يقدر على شئ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال قتادة الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعا لكفايته سائلا كان أو غير سائل فالمسكين عنده أحسن حالا من الفقير وقال أبو حنيفة وأصحاب الرأى الفقير أحسن حالا من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعى ومن وافقه ان الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات الى هؤلاء الاصناف الثمانية دفعا لحاجتهم وتحصيلا لمصلحتهم فبدأ بالفقراء وانما يبدأ بالاهم فالاهم فلو لم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد

لما رأى لبد النسور تطايرت * رفع القوادم كالفقير الاعزل

قال ابن الاعرابى الفقير فى هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا أن الفقير انما سمى فقيرا لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب فى الكسب ولان النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر وقال اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى

الاصناف المعدودة أى هى مختصة بهم لا تتجاوز الى غيرهم كأنه قيل انما هى لهم لا لغيرهم كقولك انما الخلافة لقريش تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل ان تصرف الى الاصناف كلها وان تصرف الى بعضها كما هو مذهبنا وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين انهم قالوا فى أى صنف منها وضعتها أجزأك وعند الشافعى رحمه الله لا بد من

وانه عليه السلام كان يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر وقيل بالعكس لقوله تعالى أو مسكينا

في زمرة المساكين يوم القيامة رواه الترمذي من حديث أنس فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا أن المسكين أحسن حالا من الفقير ولان الله سبحانه وتعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأثبت لهم ملكا مع اسم المسكنة لان السفينة من سفن البحر تساوي دنانير كثيرة ولان الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا أن الفقير أسوأ حالا من المسكين وحجة أبي حنيفة ومن وافقه على أن المسكين أسوأ حالا من الفقير قوله أو مسكينا ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة هو الذي لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولان الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما جعلها له واحتج أيضا بقول الراعي

أما الفقير الذي كانت حلوبته * وفق العيال فلم يترك له سبد

واحتج أيضا بقول الاصمعي وأبي عمرو بن العلاء ان الفقير الذي له ما يأكل والمسكين الذي لا شئ له وكذا قال القتيبي الفقير الذي له البلغة من العيش والمسكين الذي لا شئ له وقيل الفقير الذي له المسكن والخادم والمسكين الذي لا ملك له وقيل ان كل محتاج الى شئ فهو مفتقر اليه وان كان غنيا عن غيره قال الله سبحانه وتعالى أنتم الفقراء الى الله فأثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج أما قوله أو مسكينا ذا متربة فهو حجة لمذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه لانه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على أنه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة والا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمسكين انه هو الفقير الذي لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعي أنه ذكر الفقير وحده فكل فقير أفرد بالاسم جاز اطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهي معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين وبالجملة ان الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذي كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذي ضعف نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت * عن عبد الله بن عمر و بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي أخرجه النسائي وأبو داود وله في رواية أخرى ولا لذي مرة قوي * عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم وهو في حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال ان شئتما اعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب أخرجه أبو داود والنسائي * وأخرجه الشافعي ولفظه ان رجلين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن الصدقة فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب واختلف العلماء في حد الغنى الذي يمنع من أخذ الصدقة فقال الاكثرون حده أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعي وقال أصحاب الرأي حده أن يملك مائتي درهم وقال

صرفها الى الاصناف وهو المروي عن عكرمة ثم الفقير الذي لا يسأل لان عنده ما يكفيه للحال والمسكين الذي يسأل لانه لا يجد شيأ فهو أضعف حالا منه وعند الشافعي رحمه الله على العكس

ذامتربة ﴿ والعاملين عليها ﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ قوم اسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبهم أو اشراف قد يترقب باعطائهم ومراعاتهم اسلام نظرائهم وقد اعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عيينة بن حصين والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس كذلك وقيل اشراف يستألفون على ان يسلموا فانه عليه الصلاة

قوم من ملك خمسين درهما أو قيمتها لا تحل له الصدقة لما روى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسئلته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يارسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وهذا قول الثوري وابن المبارك وأحمد واسحق وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهما من الزكاة وقيل أربعين درهما لما روى عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة اوقية فقد ألحف اخرجه ابو داود وكانت الاوقية في ذلك الزمان اربعين درهما ❁ الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى ﴿ والعاملين عليها ﴾ وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من اهلها ووضعها في جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه قال الشافعي وقال مجاهد والضحاك يعطون الثمن من الصدقات وظاهر اللفظ مع مجاهد الا ان الشافعي يقول هو أجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح ان الهاشمي والمطلبي لا يجوز أن يكون عاملا على الصدقات لما روى عن أبي رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من بني مخزوم على الصدقة فاراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل لنا الصدقة وان مولى القوم منهم أخرجه الترمذي والنسائي ❁ الصنف الرابع قوله تعالى ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فاما قسم المسلمين فقسمان القسم الاول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم لتقوى رغبتهم في الاسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية في الاسلام وهم أشراف قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم تألفا لقومهم وترغيبا لامثالهم في الاسلام فيجوز للامام أن يعطي أمثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفيء من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضا القسم الثاني من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بازاء قوم كفار في موضع لا تبلغهم جيوش المسلمين الا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بازائهم من المسلمين لا يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للامام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة

(والعاملين عليها) هم السعاة الذين يقبضونها (والمؤلفة قلوبهم) على الاسلام أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم على ان يسلموا وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريرا لهم على

(والعاملين عليها) لجابي الصدقات (والمؤلفة قلوبهم) بالعطية أبي سفيان وأصحابه نحو خمسة عشر

والسلام كان يعطيهم والاصح انه كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاص ماله وقد عد
منهم من يؤلف قلبه بشئ منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة وقيل كان سهم المؤلفة لتكثير
سواد الاسلام فلما اعزه الله واكثر اهله سقط ﴿ وفي الرقاب ﴾ وللصرف في فك الرقاب
بان يعاون المكاتب بشئ منها على اداء النجوم وقيل بان يبتاع الرقاب فتعتق وبه قال مالك واحمد
أو بان يفدى الاسارى والعدول عن اللام الى في للدلالة على ان الاستحقاق للجهة لا للرقاب وقيل

قلوبهم ومن هؤلاء قوم بازاء جماعة من مانعي الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها
الى الامام فيعطيهم الامام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله روى
ان عدى بن حاتم جاء أبا بكر بثلاثمائة من الابل من صدقات قومه فاعطاه أبو بكر منها
ثلاثين بعيرا وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم أو يرجى اسلامهم فيجوز الامام
أن يعطى من يخاف شره أو يرجو اسلامه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم
من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله الى الاسلام أما اليوم
فقد أعز الله الاسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن ان يتألف عليه أحد من المشركين
فلا يعطى مشرك تألفا بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة
وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك
والثورى وأصحاب الرأى واسحق بن راهويه وقال قوم سهمهم ثابت لم يسقط
يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهرى وأبي جعفر محمد بن على وأبي ثور
وقال أحمد يعطون ان احتاج المسلمون الى ذلك * الصنف الخامس قوله
سبحانه وتعالى ﴿ وفي الرقاب ﴾ قال الزجاج فيه حذف تقديره و في فك الرقاب
وفي تفسير الرقاب أقوال * الاول ان سهم الرقاب موضوع في المكاتبين فيدفع اليهم
ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو قول أكثر الفقهاء منهم سعيد بن
جبير والنخعي والزهرى والليث بن سعد ويدل عليه أيضا قوله تعالى وآتوهم من مال الله
الذي آتاكم * القول الثاني وهو مذهب مالك وأحمد واسحق ان سهم الرقاب موضوع لعتق
الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ماروى عن ابن عباس انه قال لا بأس ان يعتق
الرجل من الزكاة * القول الثالث وهو قول أبي حنيفة وأصحابه انه لا يعتق من الزكاة رقبة
كاملة ولكن يعطى منها في عتق رقبة ويعان بها مكاتب لان قوله وفي الرقاب يقتضى التبعيض
* القول الرابع وهو قول الزهرى ان سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى
به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم اسلامهم فيعتقون من الزكاة قال أصحابنا الاحوط في سهم
الرقاب ان يدفع الى السيد باذن المكاتب ويدل عليه انه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات
للاصناف الاربعة المتقدمة بلام الملك فقال انما الصدقات للفقراء وقال في الصنف الخامس
وفي الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهي أن الاصناف الاربعة المتقدم ذكرها يدفع
اليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤا وأما الرقاب فيوضع نصيبهم في تخليص
رقابهم من الرق ولا يدفع اليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول في الغارمين

الاسلام (وفي الرقاب) هم المكاتبون يعانون منها

رجلا (وفي الرقاب) المكاتبين

للايذان بانهم احق بها ﴿ والغـارمين ﴾ المديونين لانفسهم فى غير معصية ومن غير اسراف اذا لم يكن لهم وفاء أو لاصلاح ذات البين وان كانوا اغنياء لقوله عليه الصلاة والسلام لاتحل الصدقة لغنى الا لخمسة لغاز فى سبيل الله أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو رجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فاهدى المسكين للغنى أو لعامل عليها ﴿ وفى سبيل الله ﴾ وللصرف فى الجهاد بالانفاق على المتطوعة وابتياع الكراع والسلاح وقيل وفى بناء القناطير والمصانع ﴿ وابن السبيل ﴾ المسافر المنقطع عن ماله

فيصرف نصيبهم فى قضـاء ديونهم وفى الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون اليه فى الغزو وكذا ابن السبيل فيصرف اليه مايحتاج اليه فى سفره الى بلوغ غرضه ❊ الصنف السادس قوله سبحانه وتعالى ﴿ والغارمين ﴾ أصل الغرم فى اللغة لزوم مايشق على النفس وسمى الدين غرما لكونه شاقا على الانسـان والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان قسم ادانوا لانفسهم فى غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم اذا لم يكن لهم مال يفى بديونهم فان كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم ادانوا فى المعروف واصلاح ذات البين فيعطون من مال الصـدقات مايقضون به ديونهم وان كانوا أغنياء لما روى عن عطاء بن يسـار ان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال لاتحل الصدقة لغنى الا لخمسـة لغاز فى سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل أسـير اعانة أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسـكين فاهدى المسـكين للغنى أخرجه أبو داود مرسلا لان عطاء بن يسار لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم متصلا بمعناه اما من كان دينـه فى معصية فلا يعطى من الصـدقات شيأ ❊ الصنف السـابع قوله عزوجل ﴿ وفى سبيل الله ﴾ يعنى وفى النفقة فى سـبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سـهم من مال الصـدقات فيعطون اذا أرادوا الخروج الى الغزو مايسـتعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسـوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وان كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبى سعيد الخدرى ولايعطى من سهم سبيل الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف سهم سـبيل الله الى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن واليه ذهب أحمد بن حنبـل واسحق بن راهويه وقال بعضهم ان اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لان قوله وفى سـبيل الله عام فى الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الاول هو الصحيح لاجماع الجمهور عليه ❊ الصنف الثامن قوله سبحانه وتعالى ﴿ وابن السبيل ﴾ يعنى المسافر من بلد الى بلد والسبيل الطريق سمى المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر

أنا ابن الحرب ربتنى وليدا ❊ الى ان شبت واكتهلت لداتى

أو الحجيج المنقطع بهم (وابن السبيل) المسافر المنقطع عن ماله وعدل عن اللام الى فى فى الاربعة الاخيرة للايذان بانهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لان فى للوعاء فنبه على أنهم احقاء بان توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها وتكرير فى فى قوله فى سبيل الله وابن السبيل فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين وانما وقعت هذه الآية فى تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الاصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسما لاطماعهم واشعارا بانهم بعداء عنها وعن مصارفها فالهم وما لها وماسلطهم على التكلم فيها ولمن قاسمها وسهم المؤلفة قلوبهم سقط باجماع الصحابة فى صدر خلافة أبى بكر رضى الله عنه لان الله أعز الاسلام وأغنى عنهم والحكم متى ثبت معقولا لمعنى خاص يرتفع وينتهى بذهاب ذلك المعنى

(والغارمين) لاصحاب الديون فى طاعة الله (وفى سبيل الله) وللمجاهدين فى سبيل الله (وابن السبيل) للضيف النازل مار الطريق

(فكل)

﴿ فريضة من الله ﴾ مصدر لما دل عليه الآية الكريمة أي فرض لهم الصدقات فريضة أو حال من الضمير المستكن في للفقراء * وقرئ بالرفع على تلك فريضة ﴿ والله عليم حكيم ﴾ يضع الاشياء في مواضعها وظاهر الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالاصناف الثمانية ووجوب الصرف الى كل صنف وجد منهم ومراعاة التسوية بينهم قضية للاشتراك واليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم اجمعين جواز صرفها الى صنف

فكل مريد سفرا مباحا ولم يكن له مايقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات مايكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال في البلد الذي يقصده أولم يكن له مال وقال قتادة ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق ابن السبيل هو الحاج المنقطع * قوله عز وجل ﴿ فريضة من الله ﴾ يعني ان هذه الاحكام التي ذكرها في هذه الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الاشياء فريضة ﴿ والله عليم ﴾ يعني بمصالح عباده ﴿ حكيم ﴾ يعني فيما فرض لهم لايدخل في تدبيره وحكمه نقض ولاخلل

المسئلة الرابعة

في أحكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على ان المراد بقوله انما الصدقات للفقراء هي الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا في كيفية قسمتها وفي جواز صرفها كلها الى بعض الاصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء الى انه لايجوز صرفها كلها الى بعض الاصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة واليه ذهب الشافعي قال يجب ان يقسم زكاة ماله على الموجودين من الاصناف الستة الذين سماهم ثمانية أقسام قسمة على السواء لان سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط اذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من الاصناف الستة لايجوز ان تصرف الى أقل من ثلاثة منهم ان وجد منهم ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فان لم يجد من بعض الاصناف الا واحدا دفع حصة ذلك الصنف اليه مالم يخرج من حد الاستحقاق فان انتهت حاجته وفضل شئ رده الى الباقين وذهب جماعة من العلماء الى انه لو صرف الكل الى صنف واحد من هذه الاصناف أو الى شخص واحد منهم جاز لان الله سبحانه وتعالى انما سمى هذه الاصناف الثمانية اعلاما منه أن الصدقة لاتخرج عن هذه الثمانية لا ايجابا منه لقسمتها بينهم جميعا وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء واليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل قال أحمد بن حنبل يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى وقال ابراهيم النخعي ان كان المال كثيرا يحتمل الاجزاء قسمه على الاصناف وان كان قليلا وضعه في صنف واحد وقال مالك يتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الاولى فالاولى من أهل الخلة والحاجة فان رأى الخلة في الفقراء في عام قدمهم وان رآها في صنف آخر في عام حولها اليهم وكل من دفع اليه شيأ من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه وهو مايحتاج اليه فان حصل أدنى اسم الغني فلا يعطى بعده شيأ وان كان محترفا لكنه لايجد آلة

(فريضة من الله) في معنى المصدر المؤكد لان قوله انما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم (والله عليم) بالمصلحة (حكيم) في القسمة

(فريضة) قسمة (من الله) لهؤلاء (والله عليم) بهؤلاء (حكيم) فيما حكم لهؤلاء

واحد وبه قال الأئمة الثلاثة واختاره بعض اصحابنا وبه كان يفتي شيخي ووالدي رحمهما الله تعالى على ان الآية بيان ان الصدقة لاتخرج منهم لا ايجاب قسمها عليهم ﴿ ومنهم الذي يؤذون النبي ويقولون هو اذن ﴾ يسمع كل مايقال له ويصدقه سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع كما سمي الجاسوس عينا لذلك أو اشتق له فعل من اذن اذنا اذا استمع كانف وشلل روي انهم قالوا محمد اذن سامعة نقول ماشئنا ثم نأتيه فيصدقنا

حرفته فيعطى قدر مايحصل به آلة حرفته فالاعتبار عند الامام الشافعي رضي الله عنه مايدفع الحاجة من غير حد وقال أحمد بن حنبل لايعطى الفقير أكثر من خمسين درهما وقال أبو حنيفة أكره ان يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم فان أعطيته أجزأ فان أعطى من يظنه فقيرا فبان انه غني فهل يجزئ فيه قولان ولايجوز أن يعطي صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثوري وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعي لايعطى الوالدان وان علا ولا ولدا وان سفل ولا زوجة ويعطى من عداهم وتحرم الصدقة على ذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب فلا يدفع اليهم من الزكاة شئ لقوله صلى الله عليه وسلم انا آل بيت لاتحل لنا الصدقة وقال أبو حنيفة تحرم على بني هاشم ولاتحرم على بني المطلب دليلنا قوله صلى الله عليه وسلم انا وبنو المطلب شئ واحد لم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام وتحرم الصدقة على موالي بني هاشم وبني المطلب لقوله صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم وقال مالك لاتحرم واختلفوا في نقل الصدقة من بلد المال الى بلد آخر مع وجود المستحقين في بلد المال فكرهه أكثر أهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأعلمهم ان الله سبحانه وتعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم الحديث بطوله في الصحيحين واتفقوا على انه اذا نقل المال الى بلد آخر وأداه الى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض الا ماحكي عن عمر بن عبد العزيز فانه رد صدقة جلبت من خراسان الى الشأم فردها الى مكانها من خراسان والله أعلم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾ نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون مالا ينبغي فقال بعضهم لاتفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ماتقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ماشئنا ثم نأتيه وننكر ماقلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فانما محمد أذن أي يسمع كل مايقال له ويقبله وقيل معنى هو أذن أي ذو أذن سامعة وقال محمد بن اسحق نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم من أحب أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحرث وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لاتفعل ذلك فقال انما محمد أذن فمن حدثه شيأ صدقه فنقول ماشئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا فانزل الله هذه الآية ومقصود المنافقين بقولهم هو اذن انه ليس بعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل مايسمع فاجاب الله سبحانه وتعالى

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن) الاذن الرجل الذي يصدق كل مايسمع ويقبل قول كل أحد سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته اذن سامعة وايذاؤهم له هو قولهم فيه هو أذن قصدوا به المذمة وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة ففسره الله تعالى بما هو مدح له وثناء عليه فقال

(ومنهم) من المنافقين جذام ابن خالد واياس بن قيس وسماك بن يزيد وعبيد بن مالك (الذين يؤذون النبي) بالطعن والشتم (ويقولون) بعضهم لبعض (هو أذن) يسمع منا ويصدقنا اذا قلنا له ماقلنا فيك شيأ

(قل أذن خير لكم) كقولك رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الاذن ويجوز أن يريد هو أذن فى الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس باذن فى غير ذلك ثم فسر كونه أذن خير بانه (يؤمن بالله) أى يصدق بالله لما قام عنده من الادلة (ويؤمن للمؤمنين) ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والانصار وعدى فعل الايمان بالباء الى الله لانه قصد به

التصديق بالله الذى هو ضد الكفر به والى المؤمنين باللام لانه قصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم مايقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده ألا ترى الى قوله وما أنت بمؤمن لنا كيف ينبئ عن الباء (ورحمة) بالعطف على أذن ورحمة حمزة عطف على خير أى هو أذن خير وأذن رحمة لايسمع غيرهما ولا يقبله (للذين آمنوا منكم) أى وهو رحمة للذين آمنوا منكم أى أظهروا الايمان أيها المنافقون حيث يقبل ايمانكم الظاهر ولايكشف أسراركم ولا يفعل بكم مايفعل بالمشركين أو هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر الى الايمان ويشفع لهم فى الآخرة بايمانهم فى الدنيا (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) فى الدارين (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم فقيل لهم

عما نقول ﴿ قل اذن خير لكم ﴾ تصديق لهم بانه اذن ولكن لا على الوجه الذى ذموا به بل من حيث انه يسمع الخير ويقبله ثم فسر ذلك بقوله ﴿ يؤمن بالله ﴾ يصدق به لما قام عنده من الادلة ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم واللام مزيدة للتفرقة بين ايمان التصديق فانه بمعنى التسليم وايمان الامان ﴿ ورحمة ﴾ أى وهو رحمة ﴿ للذين آمنوا منكم ﴾ لمن اظهر الايمان حيث يقبله ولايكشف سره وفيه تنبيه على انه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم * وقرأ حمزة ورحمة بالجر عطفا على خير * وقرئ بالنصب على انها علة فعل دل عليه اذن خير أى يأذن لكم رحمة * وقرأ نافع اذن بالتخفيف فيهما * وقرئ اذن خير على ان خير صفة له أو خبر ثان ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ بايذائه ﴿ يحلفون بالله لكم ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا ﴿ ليرضوكم ﴾

عنه بقوله ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ يعنى هب انه أذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى انه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد * وقرئ أذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ يعنى انه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولايقبل قول المنافقين وانما عدى الايمان بالله بالباء والايمان للمؤمنين باللام لان الايمان بالله هو نقيض الكفر فلا يتعدى الا بالباء فيقال آمنت بالله والايمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلا يقال الا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له ﴿ ورحمة ﴾ أى هو رحمة ﴿ للذين آمنوا منكم ﴾ وانما قال منكم لان المنافقين كانوا يزعمون انهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله انه رحمة للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين وقيل فى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة لانه يجرى أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولايهتك أسرارهم ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ يعنى فى الآخرة * قوله عزوجل ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ قال قتادة والسدى اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم ثم قالوا ان كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار اسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله

(قل) لهم يا محمد (اذن خير لكم) لا الشر أى يسمع منكم ويصدقكم بالخير لا بالكذب ويقال اذن خير ان كان اذنا فهو خير لكم (يؤمن بالله) يصدق قول الله (ويؤمن للمؤمنين) يصدق قول المؤمنين المخلصين (ورحمة) من العذاب (للذين آمنوا منكم) فى السر والعلانية (والذين يؤذون رسول الله) بالتخلف عنه فى غزوة تبوك جلاس بن سويد وسماك بن عمرو ومخشى ابن حمير وأصحابهم (لهم عذاب أليم) وجيع فى الدنيا والآخرة (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) بالتخلف

(والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) أى ان كنتم مؤمنين كما تزعمون فاحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق وانما وحد الضمير لانه لاتفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله فكانا فى حكم شئ واحد كقولك احسان زيد واجماله رفعنى أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك. (ألم يعلموا أنه) أن الامر والشأن (من يحادد الله ورسوله) يجاوز الحد بالخلاف وهى مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق (فان له) على حذف الخبر أى فحق أن له (نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم يحذر المنافقون) خبر بمعنى الامر أى ليحذر المنافقون (ان تنزل عليهم سورة) تنزل بالتخفيف مكى وبصرى (تنبئهم بما فى قلوبهم) من الكفر والنفاق والضمائر للمنافقين لان السورة اذا

عن الغزو (والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) اوكانوا مصدقين فى ايمانهم (ألم يعلموا) يعنى جلاسا وأصحابه (أنه من يحادد الله) يخالف الله (ورسوله) فى السر (فان له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم) العذاب الشديد (يحذر المنافقون) عبدالله بن أبى واصحابه (ان تنزل عليهم) على نبيهم (سورة تنبئهم) تخبرهم (بما فى قلوبهم) من النفاق

لترضوا عنهم والخطاب للمؤمنين ﴿ والله ورسوله احق ان يرضوه ﴾ احق بالارضاع بالطاعة والوفاق وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين أولان الكلام فى ايذاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وارضائه أولان التقدير والله احق ان يرضوه والرسول كذلك ﴿ ان كانوا مؤمنين ﴾ صدقا ﴿ ألم يعلموا انه ﴾ ان الشأن * وقرى بالتاء ﴿ من يحادد الله ورسوله ﴾ يشاقق الله مفاعلة من الحد ﴿ فان له نار جهنم خالدا فيها ﴾ على حذف الخبر أى فحق ان له أو على تكرير ان للتأكيد ويحتمل ان يكون معطوفا على انه ويكون الجواب محذوفا تقديره من يحادد الله ورسوله يهلك * وقرئ فان له بالكسر ﴿ ذلك الخزى العظيم ﴾ يعنى الاهلاك الدائم ﴿ يحذر المنافقون ان تنزل عليهم ﴾ على المؤمنين ﴿ سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ﴾ وتهتك عليهم

ان مايقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره فدعاهم فسألهم فانكروا وحلفوا ان عامرا كذاب وحلف عامر انهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو ويقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل والكلبى نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون ويحلفون فانزل الله هذه الآية والمعنى يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعنى فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ اختلفوا فى معنى هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل الضمير عائد على الله تعالى لان فى رضا الله رضا رسوله صلى الله عليه وسلم والمعنى والله ورسوله أحق أن يرضوه بالتوبة والاخلاص وقيل يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله ﴿ ان كانوا مؤمنين ﴾ يعنى ان كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ألم يعلموا ﴾ قال أهل المعانى ألم تعلم خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم انه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعنى من شرائع الدين التى علمهم رسولنا ﴿ أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ يعنى أنه من يخالف الله ورسوله وأصل المحادة فى اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا اذا صار فى غير حده وخالفه فى أمره وقيل معنى يحادد الله ورسوله أى يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله ﴿ فان له نار جهنم ﴾ أى فحق أن له نار جهنم ﴿ خالدا فيها ﴾ يعنى على الدوام ﴿ ذلك الخزى العظيم ﴾ يعنى ذلك الخلود فى نار جهنم هو الفضيحة العظيمة * قوله عز وجل ﴿ يحذر المنافقون ﴾ يعنى يخشى المنافقون ﴿ أن تنزل عليهم سورة ﴾ يعنى على المؤمنين ﴿ تنبئهم ﴾ يعنى تخبر المؤمنين ﴿ بما فى قلوبهم ﴾ يعنى بما فى قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن فى شأنهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعنى انها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم وقال ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين باسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة منه على المؤمنين

استارهم ويجوز ان تكون الضمائر للمنافقين فان النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث انه مقروء ومحتج به عليهم وذلك يدل على ترددهم ايضا فى كفرهم وانهم لم يكونوا على بت فى امر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بشئ وقيل انه خبر فى معنى الامر وقيل كانوا يقولونه فيما بينهم استهزاء لقوله ﴿ قل استهزؤا ان الله مخرج ﴾ مبرز أو مظهر ﴿ ماتحذورن ﴾ أى ماتحذرونه من انزال السورة فيكم أو ماتحذرون اظهاره من مساويكم ﴿ ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب ﴾ روى ان ركب المنافقين مروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقالوا انظروا الى هذا الرجل يريد ان يفتح

لئلا يعير بعضهم بعضا لان أولادهم كانوا مؤمنين ﴿ قل استهزؤا ﴾ أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ماشئتم ﴿ ان الله مخرج ﴾ أى مظهر ﴿ ماتحذرون ﴾ والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يظهر الى الوجود ماكان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين قال ابن كيسان نزلت هذه الآية فى اثنى عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها وتنكروا له فى ليلة مظلمة فاخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قد أضمروا له وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت اليهم من يقتلهم فقال أكره أن تقول العرب لما ظفر باصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة (م) عن قيس بن عبادة قال قلت لعمار أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فان الرأى يخطئ ويصيب أم عهدا عهده اليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماعهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ لم يعهده الى الناس كافة وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فى أمتى قال شعبة وأحسبه قال حدثنى حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى أمتى اثنى عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولايجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة جراح من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب ﴾ الآية وسبب نزولها على ما قال زيد بن أسلم ان رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك فى غزوة تبوك مالقرائنا ارغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة واجبننا عند اللقاء فقال له عوف بن مالك كذبت ولكنك منافق ولاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه قال زيد قال عبد الله بن عمر فنظرت اليه يعنى الى المنافق متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة يقول انما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن مايزيده قال محمد بن

نزلت فى معناهم فهى نازلة عليهم دليله أو الاولان للمؤمنين والثالث للمنافقين وصح ذلك لان المعنى يقود اليه (قل استهزؤا) أمر تهديد (ان الله مخرج ماتحذرون) مظهر ما كنتم تحذرونه أى تحذرون اظهاره من نفاقكم وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحى فيهم وفى استهزائهم بالاسلام وأهله حتى قال بعضهم وددت انى قدمت فجلدت مائة وانه لاينزل فينا شئ يفضحنا (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فاطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فاتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يانبى الله لا والله ما كنا فى شئ من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شئ مما يخوض نتحدث عن الركب (ونلعب)

(قل) يامحمد لوديعة بن جذام وجد بن قيس وجهير بن جير (استهزؤا) بمحمد عليه السلام والقرآن (ان الله مخرج) مظهر (ماتحذرون) ماتكتمون من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (ولئن سألتهم) احمد عما اذا ضحكتم (ليقولن انما كنا نخوض)

قصور الشأم وحصونه هيهات هيهات فاخبر الله تعالى به نبيه فدعاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا لا والله ما كنا في شيء من امرك وامر اصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ﴾ توبيخا على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به والزاما للحجة عليهم ولا يعبأ باعتذارهم الكاذب ﴿ لا تعتذروا ﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم فانها معلومة الكذب ﴿ قد كفرتم ﴾ قد اظهرتم الكفر بايذاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والطعن فيه ﴿ بعد ايمانكم ﴾ بعد اظهاركم الايمان

اسحق الذي قال هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت أخو أمية بن زيد بن عمرو بن عوف وقال قتادة بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل ان يفتح قصور الشأم وحصونها هيهات هيهات فاطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم احبسوا على الركب فاتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله انما كنا نخوض ونلعب فانزل الله فيهم ما تسمعون وقال الكلبي ومقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك قيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما ابعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه أنزل في اصحابنا قرآن انما هو قوله وكلامه فاطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا على الركب فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب ومعنى الآية ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب يعني كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث وأصل الخوض الدخول في مائع كالماء مع الطين ثم كثر استعماله حتى صار يستعمل في كل دخول مع تلويث وأذى ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ﴾ فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وانكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على ايقاع الاستهزاء بالله يعني بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيحتمل ان المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشأم قال بعض المسلمين الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاما يشعر بالقدح في قدرة الله وانما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء * قوله عز وجل ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ﴾ يعني قل لهؤلاء المنافقين لا تعتذروا بالباطل ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر اليه وقيل معنى العذر قطع اللائمة عن الجاني قد كفرتم بعد ايمانكم يعني ان الاستهزاء بالله كفر والاقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم * فان قلت ان المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد ايمانكم * قلت معناه أظهرتم الكفر بعدما كنتم قد أظهرتم الايمان وذلك ان المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم

فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر أي ولئن سألتهم وقلت لهم لم قلتم ذلك لقالوا انما كنا نخوض ونلعب (قل) يا محمد (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) لم يعبأ باعتذارهم لانهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبانه موجود فيهم حتى وبخوا باخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير وذلك انما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء (لا تعتذروا) لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فانها لا تنفعكم بعد ظهور سركم (قد كفرتم) قد أظهرتم كفركم باستهزائكم (بعد ايمانكم)

نضحك فيما بيننا (قل) يا محمد لهم (أبالله وآياته) القرآن (ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا) بقولكم (قد كفرتم بعد ايمانكم)

بعد اظهاركم الايمان (ان نعف عن طائفة منكم) بتوبتهم واخلاصهم الايمان بعد النفاق (نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين)

 عاصم (المنافقون والمنافقات)

الرجال المنافقون كانوا ثلاثمائة والنساء المنافقات مائة وسبعين (بعضهم من بعض) أى كانهم نفس واحدة وفيه نفى ان يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى قولهم ويحلفون بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله وماهم منكم ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال (يأمرون بالمنكر) بالكفر والعصيان (وينهون عن المعروف) عن الطاعة والايمان (ويقبضون أيديهم) شحا بالمبار والصدقات والانفاق فى سبيل الله (نسوا الله) تركوا أمره أو أغفلوا ذكره (فنسيهم) فتركهم من رحمته وفضله

﴿ان يعف عن طائفة منكم﴾ لتوبتهم واخلاصهم أو لتجنبهم عن الايذاء والاستهزاء ﴿تعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين﴾ مصرين على النفاق أو مقدمين على الايذاء والاستهزاء * وقرأ عاصم بالنون فيهما وقرئ بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله وان تعف بالتاء والبناء على المفعول ذهابا الى المعنى كأنه قال ان ترحم طائفة ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أى متشابهة فى النفاق والبعد عن الايمان كأبعاض الشئ الواحد وقيل انه تكذيبهم فى حلفهم بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله وماهم منكم وما بعده كالدليل عليه فانه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله ﴿يأمرون بالمنكر﴾ بالكفر والمعاصى ﴿وينهون عن المعروف﴾ عن الايمان والطاعة ﴿ويقبضون أيديهم﴾ عن المبار وقبض اليد كناية عن الشح ﴿نسوا الله﴾ اغفلوا ذكر الله وتركوا طاعته ﴿فنسيهم﴾ فتركهم من فضله ولطفه

قد كفرتم بعد ايمانكم وقيل معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد ان كنتم عندهم مؤمنين * قوله سبحانه وتعالى ﴿ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين﴾ ذكر المفسرون ان الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد وهو مخاشن بن حمير الاشجعى يقال انه هو الذى كان يضحك ولا يخوض وقيل انه كان يمشى مجانبا لهم وينكر بعض ما يسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع الى الاسلام وقال اللهم انى لا أزال أسمع آية تقرأ أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فاصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه * قوله عز وجل ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ يعنى انهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والاعمال الخبيثة كما يقول الانسان لغيره انا منك وأنت منى أى أمرنا واحد لا مباينة فيه ﴿يأمرون بالمنكر﴾ يعنى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وينهون عن المعروف﴾ يعنى عن الايمان والطاعة وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ويقبضون أيديهم﴾ يعنى عن الانفاق فى سبيل الله تعالى وفى كل خير ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ هذا الكلام لا يمكن اجراؤه على ظاهره لانا لو حملناه على النسيان الحقيقى لم يستحقوا ذما عليه لان النسيان ليس فى وسع البشر دفعه وأيضا فان النسيان فى حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الاول معناه انهم تركوا امره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بان صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الوجه الثانى ان النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والاحسان فجعل النسيان عبارة عن ترك الذكر لان من ترك شيأ لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله

مع ايمانكم (ان نعف عن طائفة منكم) جهير بن حمير لانه لم يستهزئ معهم ولكن ضحك معهم (نعذب طائفة) وديعة بن جذام وجد بن قيس (بانهم كانوا مجرمين) مشركين فى السر (المنافقون) من الرجال (والمنافقات) من النساء (بعضهم من بعض) على دين بعض فى السر (يأمرون بالمنكر) بالكفر ومخالفة الرسول (وينهون عن المعروف) عن الايمان وموافقة الرسول (ويقبضون) يمسكون (أيديهم) عن النفقة فى الخير (نسوا الله) تركوا طاعة الله فى السر (فنسيهم) خذلهم فى الدنيا وتركهم فى الآخرة فى النار

(ان المنافقين هم الفاسقون) هم الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف به المنافقون حين بالغ فى ذمهم (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هى) أى النار (حسبهم) فيه دلالة على عظم عذابها وانه بحيث لا يزاد عليه (ولعنهم الله) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين (ولهم عذاب مقيم) دائم معهم فى العاجل لا ينفكون عنه وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع على أسرارهم الكاف فى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم

﴿ان المنافقين هم الفاسقون﴾ الكاملون فى التمرد والفسوق عن دائرة الخير ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها﴾ مقدرين الخلود ﴿هى حسبهم﴾ عقابا وجزاء وفيه دليل على عظم عذابها ﴿ولعنهم الله﴾ ابعدهم من رحمته وأهانهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ لا ينقطع والمراد به ماوعدوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق ﴿كالذين من قبلكم﴾ أى انتم مثل الذين أو فعلتم مثل مافعل الذين من قبلكم ﴿كانوا اشد منكم قوة واكثر أموالا وأولادا﴾ بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلاق بمعنى التقدير فانه ماقدر لصاحبه ﴿فاستمتعتم بخلاقكم﴾

والايمان به تركهم من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته فى العقبى ﴿ان المنافقين هم الفاسقون﴾ يعنى هم الخارجون عن الطاعة ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ يقال وعده بالخير وعدا ووعده بالشر وعيدا فالوعد يكون فى الخير والشر ﴿نار جهنم خالدين فيها﴾ فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعنى مقيمين فيها ﴿هى حسبهم﴾ يعنى هى كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الايمان والطاعة ﴿ولعنهم الله﴾ يعنى وابعدهم من رحمته وطردهم عن بابه ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أى دائم لا ينقطع * فان قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه * قلت ليس ذلك تكرارا وبيان الفرق من وجهين الاول ان معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلى بالنار * ولقائل أن يقول هذا التأويل مشكل لانه سبحانه وتعالى قال فى النار هى حسبهم وذلك يمنع من ضم شئ آخر الى عذاب النار * وأجيب عن هذا الاشكال بان قوله هى حسبهم فى الايلام ولا يمتنع ان يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة فى عذابهم الوجه الثانى ان العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم فى الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم * قوله سبحانه وتعالى ﴿كالذين من قبلكم﴾ هذا رجوع عن الغيبة الى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كافعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الايدى عن فعل الخير والطاعة وقيل انه تعالى شبه المنافقين فى عدولهم عن طاعة الله واتباع أمره لاجل طلب الدنيا عن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بانهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا واولادا فقال تعالى ﴿كانوا اشد منكم قوة﴾ يعنى بطشا ومنعة ﴿واكثر أموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم﴾ يعنى فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للانسان وقدر له من خير كما يقال قسم له ﴿فاستمتعتم بخلاقكم﴾ وهذا خطاب للحاضرين يعنى فتمتعتم أيها المنافقون

(ان المنافقين هم الفاسقون) الكافرون فى السر (وعد الله المنافقين) من الرجال (والمنافقات) من النساء (والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقيمين فى النار (هى حسبهم) مصيرهم (ولعنهم الله) عذبهم الله (ولهم عذاب مقيم) دائم (كالذين) كعذاب الذين (من قبلكم) من المنافقين (كانوا أشد منكم قوة) بالبدن (والكافرون) (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) فأكلوا بنصيبهم من الآخرة فى الدنيا (فاستمتعتم بخلاقكم) فأكلتم بنصيبكم من الآخرة

كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) محلها رفع أي أنتم مثل الذين من قبلكم أو نصب على فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا بخلاقهم أي تلذذوا بملاذ الدنيا والخلاق النصيب مشتق من الخلق وهو التقدير أي ما خلق الانسان بمعنى قدر من خير (كالذي خاضوا) كالفوج الذي خاضوا أو كالخوض الذي خاضوا والخوض الدخول في الباطل واللهو وانما قدم فاستمتعوا بخلاقهم وقوله كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه ليذم الاولين بالاستمتاع بما اوتوا من حظوظ الدنيا والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة ثم شبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) في مقابلة قوله وآتيناه اجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين (وأولئك هم الخاسرون) ثم ذكر نبأ من قبلهم فقال (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح) هو بدل من الذين (وعاد وثمود وقوم ابراهيم

كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ ذم الاولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدجة من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم ﴿ وخضتم ﴾ ودخلتم في الباطل ﴿ كالذي خاضوا ﴾ كالذين خاضوا أو كالفوج الذي خاضوا أو كالخوض الذي خاضوه ﴿ اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ لم يستحقوا عليها ثوابا في الدارين ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ الذين خسروا في الدنيا والآخرة ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح ﴾ اغرقوا بالطوفان ﴿ وعاد ﴾ اهلكوا بالريح ﴿ وثمود ﴾ اهلكوا بالرجفة ﴿ وقوم ابراهيم ﴾ اهلك نمرود ببعوض واهلك اصحابه

والكافرون بخلاقكم ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ فان قلت ما الفائدة في ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الاولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانيا ثم اعادة ذكره في حق الاولين ثالثا * قلت فائدته انه يذم الاولين بالاستمتاع بما أتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم في الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع الى ذكر حال الاولين ثالثا وهذا كما تريد أن تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمه فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فانت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم في فعلهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ معطوف على ماقبله ومستند اليه يعني وسلكتم في فعلكم مثل ماسلكوا في اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ يعني بطلت أعمالهم ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ يعني ان أعمالهم لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يعاقبون عليها ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ والمعنى انه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم ايها المنافقون وتخسرون (ق) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن ﴾ قوله عز وجل ﴿ ألم يأتهم ﴾ رجع من الخطاب الى الغيبة يعني ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أي قد أتاهم ﴿ ربنا ﴾ يعني خبر ﴿ الذين من قبلهم ﴾ يعني الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف اهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى ﴿ قوم نوح ﴾ يعني أنهم أهلكوا بالطوفان ﴿ وعاد ﴾ أهلكوا بالريح العقيم ﴿ وثمود ﴾ اهلكوا بالرجفة ﴿ وقوم ابراهيم ﴾ أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة

في الدنيا (كما استمتع) كما أكل (الذين من قبلكم) من المنافقين (بخلاقهم) بنصيبهم من الآخرة في الدنيا (وخضتم) في الباطل (كالذي خاضوا) وكذبتم محمدا صلى الله عليه وسلم في السر كالذين خاضوا وكذبوا أنبياءه يعني انبياء الله (اولئك حبطت أعمالهم) بطلت حسناتهم (في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) المغبونون بالعقوبة (ألم يأتهم نبأ) خبر (الذين من قبلهم) كيف أهلكناهم (قوم نوح) أهلكناهم بالغرق (وعاد) قوم هود أهلكناهم بالريح (وثمود) قوم صالح أهلكناهم بالرجفة (وقوم ابراهيم) اهلكناهم بالهدم

وأصحاب مدين) وأهل مدين وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) مدائن قوم لوط وائتفاكهن انقلاب أحوالهن عن الخير الى الشر (أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم) فما صح منه أن يظلمهم باهلاكهم لانه حكيم فلا يعاقبهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر وتكذيب الرسل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فى التناصر والتراحم (يأمرون بالمعروف) بالطاعة والايمان (وينهون عن المنكر) عن الشرك والعصيان (ويقيمون الصلوة ويؤتون ازكوة ويطيعون الله ورسوله

﴿ واصحاب مدين ﴾ واهل مدين وهم قوم شعيب اهلكوا بالنار يوم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ قريات قوم لوط أئتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وامطروا حجارة من سجيل وقيل قريات المكذبين المتمردين وائتفاكهن انقلاب احوالهن من الخير الى الشر ﴿ اتتهم رسلهم ﴾ يعنى الكل ﴿ بالبينات فما كان الله ليظلمهم ﴾ أى لم يكن من عادته مايشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم ﴿ ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ﴾ فى مقابلة قوله المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله ﴾ فى سائر الامور

﴿ واصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ يعنى المنقلبات التى جعل الله عاليها سافلها وهى مدائن قوم لوط وانما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ يعنى بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ يعنى بتعجيل العقوبة لهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ يعنى ان الذى استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم * قوله عز وجل ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ لما وصف الله المنافقين بالاعمال الخبيثة والاحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ما أعدلهم من أنواع الوعيد فى الدنيا والآخرة عقبه بذكر أوصاف المؤمنين واعمالهم الحسنة وما أعدلهم من أنواع الكرامات والخيرات فى الدنيا والآخرة فقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يعنى المولاة فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة * فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم أولياء بعض فما الفائدة فى ذلك * قلت لما كان نفاق الاتباع وكفرهم انما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والاكابر وحصل بمقتضى الطبيعة ايضا قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بان بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ يأمرون بالمعروف ﴾ يعنى بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف فى الشرع من خير وبر وطاعة ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ يعنى عن الشرك والمعصية والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا فى مقابلة ما وصف به المنافقون وضده ﴿ ويقيمون الصلوة ﴾ يعنى الصلاة المفروضة ويتمون أركانها وحدودها ﴿ ويؤتون الزكوة ﴾ يعنى الواجبة عليهم وهو فى مقابلة ويقبضون أيديهم ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾

(وأصحاب مدين) قوم شعيب أهلكناهم بالرجفة (والمؤتفكات) المكذبات المخسفات يعنى قوم لوط أهلكناهم بالخسف والحجارة (أتتهم رسلهم بالبينات) بالامر والنهى والعلامات فلم يؤمنوا بهم فاهلكهم الله (فما كان الله ليظلمهم) بهلاكهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر وتكذيب الانبياء (والمؤمنون) المصدقون من الرجال (والمؤمنات) المصدقات من النساء (بعضهم أولياء بعض) على دين بعض فى السر والعلانية (يأمرون بالمعروف) بالتوحيد واتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المنكر) عن الكفر والشرك وترك اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (يعنى) (ويقيمون الصلوة) يتمون الصلوات الخمس (ويؤتون الزكوة) يعطون زكاة اموالهم (ويطيعون الله ورسوله) فى السر والعلانية

﴿ اولئك سيرحمهم الله ﴾ لامحالة فان السين مؤكدة للوقوع ﴿ ان الله عزيز ﴾ غالب على كل شئ لايمتنع عليه مايريده ﴿ حكيم ﴾ يضع الاشياء مواضعها ﴿ وعدالله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة ﴾ تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفى الحديث انها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الاحمر ﴿ فى جنات عدن ﴾ اقامة وخلود وعنه عليه الصلاة والسلام عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لايسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك ومرجع العطف فيها يحتمل ان يكون الى تعدد الموعود لكل واحد أو للجميع

يعنى فيما يأمرهم به وهو فى مقابلة نسوا الله فنسيهم ﴿ أولئك ﴾ يعنى المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات ﴿ سيرحمهم الله ﴾ لما ذكر الله ماوعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ماوعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم فى الجنان والسين فى قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد ﴿ ان الله عزيز حكيم ﴾ وهذا يوجب المبالغة فى الترغيب والترهيب لان العزيز هو الذى لايمتنع عليه شئ أراده فهو قادر على ايصال الرحمة لمن أراد وايصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذى يدبر عباده على مايقتضى العدل والانصاف ﴿ وعدالله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ﴾ لما ذكر الله فى الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما اعد لهم فى نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية ماوعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التى تجرى من تحتها الانهار البساتين التى يتحير فى حسنها الناظر لانه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة فى جنات عدن والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه فتكون مساكنهم فى جنات عدن ومناظرهم الجنات التى هى البساتين فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنات الاخر هى البساتين التى يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما ﴿ ومساكن طيبة ﴾ يعنى ومنازل يسكنونها طيبة ﴿ فى جنات عدن ﴾ يعنى فى بساتين خلد واقامة يقال عدن بالمكان اذا أقام به * روى الطبرى بسنده عن عمران بن حصين وأبى هريرة قالا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصر من لؤلؤة فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين وفى رواية فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من طعام وفى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة مايأتى على ذلك كله أجمع * وروى بسنده عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن داره يعنى دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهى مسكنه ولا يسكنها معه من بنى آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك هكذا رواه الطبرى فان صحت هذه الرواية فلا بد من تأويلها * فقوله عدن داره يعنى دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن

الوعيد فى سانتقم منك يوما (ان الله عزيز) غالب على كل شئ قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب (حكيم) واضع كلا موضعه (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة) يطيب فيها العيش وعن الحسن رحمه الله قصورا من اللؤلؤ والياقوت الاحمر والزبرجد (فى جنات عدن) هو علم بدليل قوله جنات عدن التى وعد الرحمن وقد عرفت ان الذى والتى وضعا لوصف المعارف بالجمل وهى مدينة

(أولئك سيرحمهم الله) لايعذبهم الله (ان الله عزيز) فى ملكه وسلطانه (حكيم) فى أمره وقضائه (وعد الله المؤمنين) المصدقين من الرجال (والمؤمنات) المصدقات من النساء (جنات) بساتين (تجرى من تحتها) من تحت شجرها ومساكنها (الانهار) أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (خالدين فيها) مقيمين فى الجنة (ومساكن طيبة) منازل حسنة قد طيبها الله بالمسك والريحان ويقال

جيلة ويقال طاهرة ويقال عامرة (فى جنات عدن) درجة العليا

على سبيل التوزيع أو الى تغاير وصفه وكأنه وصفه أولا بانه من جنس ماهو أبهى الاماكن التى يعرفونها لتميل اليه طباعهم اول مايقرع اسماعهم ثم وصفه بانه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لاتخلو عن شئ منها اماكن الدنيا وفيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين ثم وصفه بانه دار اقامة وثبات فى جوار العليين لايعتريهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بماهو اكبر من ذلك فقال ﴿ ورضوان من الله اكبر ﴾ لانه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدى الى نيل الوصول والفوز باللقاء وعنه عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى يقول لاهل الجنة هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى وقد اعطيتنا مالم تعط احدا من خلقك فيقول انا اعطيكم افضل من ذلك فيقولون وأى شئ افضل من ذلك فيقول احل عليكم رضوانى فلا اسخط عليكم ابدا ﴿ ذلك ﴾ أى الرضوان أو جميع ماتقدم ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذى يستحقر دونه الدنيا ومافيها ﴿ ياأيها النبى جاهد الكفار ﴾ بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالزام الحجة واقامة الحدود

دار أصفياء الله التى أعدها الاولياء وأهل طاعته والمقربين من عباده * عن أبى موسى الاشعرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ومابين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن أخرجه البخارى ومسلم وقال عبدالله بن مسعود عدن بطنان الجنة يعنى وسطها وقال عبدالله بن عمرو بن العاص ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لايدخله الانبى أو صديق أو شهيد وقال عطاء بن السائب عدن نهر فى الجنة خيامه على حافتيه وقال مقاتل والكلبى عدن أعلى درجة فى الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهى مغطاة من حين خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الانبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الابيض قال الامام فخر الدين الرازى حاصل هذا الكلام ان فى جنات عدن قولين أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى الجنة وهذه الاخبار والآثار تقوى هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله جنات عدن التى وعد الرحمن عباده والقول الثانى أنه صفة للجنة قال الازهرى العدن مأخوذ من قولك عدن بالمكان اذا أقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ يعنى ان رضوان الله الذى ينزله عليهم أكبر من كل ماسلف ذكره من نعيم الجنة ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ اشارة الى ماتقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى ياربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا اسخط بعده عليكم أبدا * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ياأيها النبى جاهد الكفار ﴾ يعنى بالسيف والمحاربة والقتال ﴿ والمنافقين ﴾

فى الجنة (ورضوان من الله) وشئ من رضوان الله (أكبر) من ذلك كله لان رضاه سبب كل فوز وسعادة (ذلك) اشارة الى ماوعد أو الى الرضوان (هو الفوز العظيم) وحده دون مايعده الناس فوزا (ياأيها النبى جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة

(ورضوان من الله أكبر) رضا ربهم أعظم مماهم فيه (ذلك) الذى ذكرت (هو الفوز العظيم) النجاة الوافرة (ياأيها النبى جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) باللسان

(واغلظ عليهم) فى الجهادين جميعا ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها (ومأواهم جهنم وبئس المصير) جهنم اقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم الجلاس بن سويد فقال الجلاس والله لئن كان مايقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم

ساداتنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصارى للجلاس أجل والله ان محمدا صادق وأنت شر من الحمير وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ماقال فرفع عامر يده فقال اللهم انزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) يعنى ان كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير أوهى استهزاؤهم فقال الجلاس يارسول الله والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته (وكفروا بعد اسلامهم) وأظهروا كفرهم بعد اظهارهم

﴿ واغلظ عليهم ﴾ فى ذلك ولاتحابهم ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ مصيرهم ﴿ يحلفون بالله ماقالوا ﴾ روى انه عليه الصلاة والسلام اقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين فقال الجلاس بن سويد لئن كان مايقول محمد لاخواننا حقا لنحن شر من الحمير فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاستحضره فحلف بالله ماقاله فنزلت فتاب الجلاس وحسنت توبته ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم ﴾ واظهروا الكفر

يعنى وجاهد المنافقين واختلفوا فى صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف ان المنافق هو الذى يبطن الكفر ويظهر الاسلام ولما كان الامر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لاظهاره الاسلام فقال ابن عباس أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان واذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضا وقال ابن مسعود بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه فان لم يستطع فليكفهر فى وجهه وقال الحسن وقتادة باقامة الحدود عليهم يعنى اذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لان اقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وانما قال الحسن وقتادة ذلك لان غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المنافقون قال الطبرى وأولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس فى الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلابد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة ان الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود ﴿ واغلظ عليهم ﴾ يعنى شدد عليهم بالجهاد والارهاب ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ يعنى ان جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم اليها * فان قلت كيف ترك النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم * قلت انما أمر الله عز وجل نبيه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على اظهارها فاما من تكلم بالكفر فى السر فاذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال انى مسلم فانه يحكم باسلامه فى الظاهر فى حقن دمه وماله وولده وان كان معتقدا غير ذلك فى الباطن لان الله سبحانه وتعالى أمر باجراء الاحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم الى الله سبحانه وتعالى لانه العالم باحوالهم وهو يجازيهم فى الآخرة بما يستحقون * قوله عز وجل ﴿ يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم ﴾ اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن

(واغلظ) اشدد (عليهم) على كلا الفريقين بالقول والفعل (ومأواهم جهنم) مصيرهم جهنم (وبئس المصير) صاروا اليه (يحلفون بالله ماقالوا) حلف بالله جلاس بن سويد ماقلت الذى قال على عامر ابن قيس (ولقد قالوا كلمة الكفر) كلمة الكفار لقوله حيث ذكر النبى صلى الله عليه وسلم عيب المنافقين ومافيهم قال والله لئن كان محمد صادقا فيما يقول فى اخواننا لنحن أشر من الحمير فاخبر النبى صلى الله عليه وسلم عامر بن قيس عن قوله فحلف بالله ماقالت فكذبه الله وقال ولقد قالوا كلمة الكفر (وكفروا بعد اسلامهم

بعد اظهار الاسلام ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ من قتل الرسول وهو ان خمسة عشر منهم

الزبير نزلت فى الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس ان كان ماجاء به محمد حقا لنحن شر من حمرنا هذه التى نحن عليها فقال مصعب أما والله ياعدو الله لاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بماقلت وخفت ان ينزل فى القرآن أو ان تصيبنى قارعة أو ان أخلط بخطيئته فاتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة ان أخلط بخطيئته أو تصيبنى قارعة ماأخبرتك قال فدعا الجلاس فقال له ياجلاس أقلت ماقال مصعب فحلف ماقال فانزل الله عز وجل يحلفون بالله ماقالوا الآية وروى عن مجاهد نحوه وقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل حجرة فقال انه سيأتيكم انسان فينظر اليكم بعين الشيطان فاذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمنى أنت وأصحابك فانطلق الرجل فجاء باصحابه فحلفوا بالله ماقالوا ومافعلوا حتى تجاوز عنهم فانزل الله عز وجل يحلفون بالله ماقالوا ثم نعتهم جميعا الى آخر الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الانصار فظهر الغفارى على الجهنى فقال عبدالله بن أبى ابن سلول للاوس انصروا أخاكم فوالله مامثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فسعى بها رجل من المسلمين الى النبى صلى الله عليه وسلم فارسل اليه فسأله فحلف بالله ماقاله فانزل الله هذه الآية هذه روايات الطبرى وذكر البغوى عن الكلبى قال نزلت فى الجلاس بن سويد وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم فقال الجلاس لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أتاه عامر بن قيس فاخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس كذب يارسول الله على فامرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذى لا اله الا هو ماقاله ولقد كذب على عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذى لا اله الا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يده الى السماء فقال اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا يك خيرا لهم فقام الجلاس فقال يارسول الله أسمع الله قد عرض على التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب اليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم يعنى أظهروا كلمة الكفر بعد اسلامهم وتلك الكلمة هى سب النبى صلى الله عليه وسلم فقيل هى كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير وقيل هى كلمة عبدالله بن أبى بن سلول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وستأتى القصة فى موضعها فى سورة المنافقين ان شاء الله تعالى ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قال مجاهد هم الجلاس بقتل الذى سمع مقالته خشية

الاسلام وفيه دلالة على ان الايمان والاسلام واحد لانه قال وكفروا بعد اسلامهم (وهموا بما لم ينالوا) من قتل محمد عليه الصلاة السلام أو قتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا ابن أبى وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهموا بما لم ينالوا) أرادوا قتل الرسول واخراج الرسول ولم يقدروا على ذلك

توافقوا عند مرجعه من تبوك ان يدفعوه عن ظهر راحلته الى الوادى اذا تسنم العقبة بالليل فاخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها فبينما هما كذلك اذ سمع حذيفة بوقع اخفاف الابل وقعقعة السلاح فقال اليكم اليكم يا اعداء الله فهربوا أو أخراجه واخراج المؤمنين من المدينة أو بان يتوجوا عبد الله بن ابى وان لم يرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وما نقموا ﴾ وما انكروا أو ما وجدوا ما يورث نقمتهم ﴿ الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ فان أكثر اهل المدينة كانوا محاويج فى ضنك من العيش فلما قدمهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فامر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بديته اثنى عشر الف درهم فاستغنى والاستثناء مفرغ من اعم المفاعيل أو العلل ﴿ فان يتوبوا يك خيرا لهم ﴾ هو الذى حمل الجلاس على التوبة والضمير فى يك للتوب ﴿ وان يتولوا ﴾ بالاصرار على النفاق ﴿ يعذبهم الله عذابا اليما فى الدنيا والآخرة ﴾ بالقتل والنار ﴿ وما لهم فى الارض من ولى ولا نصير ﴾ فينجيهم من العذاب

ان يفشيها عليه وقيل هم عبد الله بن أبى بن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا الى المدينة فلم ينله وقيل هم اثنا عشر رجلا من المنافقين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فاخبره وأمره ان يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم فارسل حذيفة لذلك وقال السدى قال المنافقون اذا رجعنا الى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبى بن سلول تاجا فلم يصلوا اليه ﴿ وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ يعنى وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى ان المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبى صلى الله عليه وسلم أن نقموا عليه وقيل انهم بطروا النعمة فنقموا أشرا وبطرا وقال ابن قتيبة معناه ليس ينقمون شيأ ولا يتعرفون الا الصنع وهذا كقول الشاعر

مانقم الناس من أمية الا ٭ انهم يحلمون ان غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وانما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيأ فهو كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم ٭ بهن فلول من قراع الكتائب

اى ليس فيهم عيب قال الكلبى كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم فعلى هذا القول يكون الكلام عاما وقال عروة كان الجلاس قتل له مولى فامر له النبى صلى الله عليه وسلم بديته فاستغنى وقال قتادة كانت لعبد الله بن أبى دية فاخرجها رسول الله صلى الله عليه وسلم له وقال عكرمة ان مولى لبنى عدى قتل رجلا من الانصار فقضى له النبى صلى الله عليه وسلم بالدية اثنى عشر الفا وفيه نزلت وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴿ فان يتوبوا يك خيرا لهم ﴾ يعنى فان يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيرا لهم فى العاجل والآجل ﴿ وان يتولوا ﴾ يعنى وان يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر ﴿ يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا ﴾ يعنى بالخزى والاذلال ﴿ والآخرة ﴾ أى ويعذبهم فى الآخرة بالنار ﴿ وما لهم فى الارض من ولى ولا نصير ﴾

(وما نقموا) وما انكروا وما عابوا (الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) وذلك انهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فاثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى (فان يتوبوا) عن النفاق (يك) الثواب (خيرا لهم) وهى الآية التى تاب عندها الجلاس (وان يتولوا) يصروا على النفاق (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة) بالقتل والنار (وما لهم فى الارض من ولى ولا نصير) ينجيهم من العذاب

(وما نقموا) وما طعنوا على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله) بالغنيمة (فان يتوبوا) من الكفر والنفاق (يك خيرا لهم) من الكفر والنفاق (وان يتولوا) عن التوبة (يعذبهم الله عذابا أليما) وجيعا (فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الارض من ولى) حافظ يحفظهم (ولا نصير) مانع يمنعهم مما يراد

﴿ ومنهم من عاهدالله لئن آتانا من فضله لنصدقن

يعني وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم في الدنيا والآخرة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ومنهم من عاهدالله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ الآية روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه قال جاء ثعلبة بن حاطب الانصاري الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله ان يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك ياثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لاتطيقه ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله ان يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمالك في رسول الله اسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله ان يرزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهي تنمى كما ينمي الدود فكان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لايشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا حتى صار لايشهد جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال مافعل ثعلبة فقالوا يارسول الله اتخذ ثعلبة غنما مايسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بني سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما اسنان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الا جزية ماهذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا ماهذه عليك قال خذاها فان نفسي بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ماهذه الا جزية ماهذه الا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي قال فاقبلا فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتكلما ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ثم دعا للسلمي بخير فاخبراه بالذي صنع ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى فيه ومنهم من عاهدالله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية الى قوله سبحانه وتعالى وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك ياثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ان يقبل منه صدقته فقال ان الله منعني ان أقبل

(ومنهم من عاهدالله) روى ان ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام ياثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لاتطيقه وقال والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجمعة والجماعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال ياويح ثعلبة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لاخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال ماهذه الا جزية وقال ارجعا حتى أرى رأيي فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يكلماه ياويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال ان الله منعني ان أقبل منك فجعل التراب على رأسه فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الى ابي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في زمن عثمان رضي الله عنه (لئن آتانا من فضله) أي المال (لنصدقن) لنخرجن الصدقة والاصل لنتصدقن ولكن التاء أدغمت في الصاد لقربها منها

بهم (ومنهم) من المنافقين (من عاهدالله) حلف بالله يعني ثعلبة بن حاطب بن أبي بلتعة (لئن آتانا) أعطانا (من فضله) المال الذي له بالشام (لنصدقن) في سبيل الله لنؤدين منه حق الله ولنصلن به الرحم { منك }

ولنكونن من الصالحين ﴾ نزلت فى ثعلبة بن حاطب اتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال ادع الله ان يرزقنى مالا فقال عليه الصلاة والسلام ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لايسعه واد فقال ياويح ثعلبة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لاخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة واقرآه الكتاب الذى فيه الفرائض فقال ماهذه الا الجزية ماهذه الا اخت الجزية فارجعا حتى ارى رأيى فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان الله منعنى ان اقبل منك فجعل التراب يحثو على رأسه فقال هذا عملك قد امرتك فلم تطعنى فقبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاء بها الى ابى بكر رضى الله تعالى عنه فلم يقبلها ثم جاء بها

منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى فلما أبى أن يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتى أبابكر فقال اقبل صدقتى فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانا لا أقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها منه فلما ولى عمر أتاه فقال اقبل صدقتى فقال لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر فانا لا أقبلها منك فلم يقبلها ثم ولى عثمان فاتاه فلم يقبلها منه وهلك فى خلافة عثمان وأخرجه الطبرى أيضا باسناده قال بعض العلماء انما لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة ثعلبة لان الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على اخلافه ما عاهد الله عليه واهانة له على قوله انما هى جزية أو أخت الجزية فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه اهانة له وليعتبر غيره به فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس باخراجها ويرى أنها واجبة عليه وأنه يثاب على اخراجها ويعاقب على منعها وقال ابن عباس ان ثعلبة أتى مجلسا من مجالس الانصار فاشهدهم لئن آتانى الله من فضله آتيت منه كل ذى حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالا فلم يف بما عاهد الله عليه فانزل الله فيه هذه الآية وقال الحسن ومجاهد نزلت فى ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بنى عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به وقال ابن السائب ان ثعلبة بن حاطب بن أبى بلتعة كان له مال بالشام فابطأ عليه فجهد لذلك جهدا شديدا فحلف بالله لئن آتانى الله من فضله يعنى ذلك المال لأصدقن منه ولأصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله ان ظاهر الآية يدل على ان بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ماسأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهدا لئن رزقنا من فضله بان يوسع علينا فى الرزق لنصدقن يعنى لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته ﴿ ولنكونن من الصالحين ﴾ يعنى ولنعملن فى ذلك المال مايعمله أهل الصلاح باموالهم

(ولنكونن من الصالحين) باخراج الصدقة

(ولنكونن من الصالحين) من الحامدين

الى عمر رضى الله تعالى عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى زمان عثمان رضى الله تعالى عنه ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به ﴾ منعوا حق الله منه ﴿ وتولوا ﴾ عن طاعة الله ﴿ وهم معرضون ﴾ وهم قوم عادتهم الاعراض عنها ﴿ فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم ﴾ أى فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقا وسوء اعتقاد فى قلوبهم ويجوز ان يكون الضمير للبخل والمعنى فاورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم ﴿ الى يوم يلقونه ﴾ يلقون الله بالموت أو يلقون عمله أى جزاءه وهو يوم القيامة ﴿ بما اخلفوا الله ماوعدوه ﴾ بسبب اخلافهم ماوعدوه من التصدق والصلاح ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ وبكونهم كاذبين فيه وان خلف الوعد متضمن للكذب مستقبح من

من صلة الارحام والانفاق فى سبيل الله وجميع وجوه البر والخير واخراج الزكاة وايصالها الى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذى يبخل بما يلزمه فى حكم الشرع وقيل ان المراد بقوله لنصدقن اخراج الزكاة الواجبة وقوله ولنكونن من الصالحين اشارة الى كل مايفعله أهل الصلاح على الاطلاق من جميع أعمال البر والطاعة ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به ﴾ يعنى فلما رزقهم الله لم يفعلوا من أعمال البر شيأ ﴿ وتولوا ﴾ يعنى عما عاهدوا الله عليه ﴿ وهم معرضون ﴾ يعنى عن العهد ﴿ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم ﴾ يعنى فأعقبهم الله نفاقا بأن صيرهم منافقين يقال أعقبت فلانا ندامة اذا صارت عاقبة أمره الى ذلك وقيل معناه انه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم ﴿ الى يوم يلقونه ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة الى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه ﴿ بما أخلفوا الله ماوعدوه ﴾ يعنى الصدقة والانفاق فى سبيله ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ يعنى فى قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين * عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان * عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة وفى رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا وعد أخلف واذا خاصم فجر * قال الشيخ محيي الدين النووى هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث ان هذه الخصال قد توجد فى المسلم المصدق الذى ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على ان من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق مخلد فى النار فان اخوة يوسف عليهم السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذا أو كله قال الشيخ هذا ليس بحمد الله اشكالا ولكن اختلف العلماء فى معناه فالذى قاله المحققون والاكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه ان هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين فى هذه الخصال ويتخلق باخلاقهم فان النفاق هو اظهار مايبطن خلافه وهذا موجود فى صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه فى حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق فى الاسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبى صلى الله عليه وسلم بهذا انه منافق نفاق الكفار المخلدين فى الدرك الاسفل من النار وقوله

(فلما آتاهم من فضله) أعطاهم الله المال ونالوا مناهم (بخلوا به) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد (وتولوا) عن طاعة الله (وهم معرضون) مصرون على الاعراض (فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم) فاورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم لانه كان سببا فيه (الى يوم يلقونه) أى جزاء فعلهم وهو يوم القيامة (بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون) بسبب اخلافهم ماوعدوا الله من التصدق والصلاح وكونهم كاذبين ومنه جعل خلف

(فلما آتاهم) الله أعطاهم (من فضله) المال الذى له بالشام (بخلوا به) بما وعدوا من حق الله (وتولوا) عن ذلك (وهم معرضون) مكذبون (فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم) فجعل عاقبته على النفاق (الى يوم يلقونه) الى يوم القيامة (بما أخلفوا الله ماوعدوه) بما أخلف وعده (وبما كانوا يكذبون)

الوجهين أو المقال مطلقا *وقرئ يكذبون بالتشديد ﴿ألم يعلموا﴾ أي المنافقون أو من عاهد الله *وقرئ بالتاء على الالتفات ﴿ان الله يعلم سرهم﴾ ما اسروه في انفسهم من النفاق أو العزم على الاخلاف ﴿ونجواهم﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن أو تسمية الزكاة جزية ﴿وان الله علام الغيوب﴾ فلا يخفى عليه ذلك ﴿الذين يلمزون﴾ ذم مرفوع أو منصوب أو بدل من الضمير في سرهم *وقرئ يلمزون بالضم ﴿المطوعين﴾ المتطوعين ﴿من المؤمنين في الصدقات﴾ روى انه صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف باربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف فاقرضت ربي اربعة وامسكت لعيالي اربعة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بارك الله لك فيما اعطيت وفيما امسكت فبارك الله له حتى صولحت احدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين الف درهم وتصدق

صلى الله عليه وسلم كان منافقا خالصا معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلا فيه هذا هو المختار في معنى الحديث وقال جماعة من العلماء المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فانهم حدثوا في ايمانهم فكذبوا واؤتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فاخلفوا وفجروا في خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ورجع اليه الحسن البصري بعد ان كان على خلافه وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر وروياه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القاضي عياض واليه مال أكثر أئمتنا وحكى الخطابي قولا آخر ان معناه التحذير للمسلم ان يعتاد هذه الخصال وحكى أيضا عن بعضهم ان الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجههم بصريح القول فيقول فلان منافق وانما يشير اشارة كقوله صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يفعلون كذا والله أعلم وقال الامام فخر الدين الرازي ظاهر هذه الآية يدل على ان نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم ان يبالغ في الاحتراز عنه فاذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به *وقوله سبحانه وتعالى ﴿ألم يعلموا﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿ان الله يعلم سرهم﴾ يعني ما تنطوي عليه صدورهم من النفاق ﴿ونجواهم﴾ يعني ويعلم ما يتفاوض به بعضهم بعضا فيما بينهم والنجوى هو الخفي من الكلام يكون بين القوم والمعنى انهم يعلمون ان الله يعلم جميع احوالهم لا يخفى عليه شئ منها ﴿وان الله علام الغيوب﴾ وهذا مبالغة في العلم يعني ان الله عالم بجميع الاشياء فكيف تخفى عليه احوالهم *قوله عز وجل ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ الآية (ق) عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشئ كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا ان الله لغني عن صاع هذا فنزلت الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف باربعة آلاف درهم وقال يا رسول الله مالي ثمانية آلاف درهم

الوعد ثلث النفاق (ألم يعلموا) يعني المنافقين (ان الله يعلم سرهم) ما أسروه من النفاق بالعزم على اخلاف ما وعدوه (ونجواهم) وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شئ (الذين) محله النصب أو الرفع على الذم أو الجر على البدل من الضمير في سرهم ونجواهم (يلمزون المطوعين) يعيبون المطوعين المتبرعين (من المؤمنين في الصدقات) متعلق بيلمزون روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف باربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف فاقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي فقال عليه السلام بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين

وبكذبه عاقال (ألم يعلموا) يعني المنافقين (ان الله يعلم سرهم) فيما بينهم (ونجواهم) خلوتهم (وان الله علام الغيوب) ما غاب عن العباد (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) يطعنون على عبد الرحمن وأصحابه في الصدقات يقولون ما جاء هؤلاء بالصدقات الا رياء وسمعة

ألفا وتصدق عاصم بمائة وسق من تمر (والذين) عطف على المطوعين (لايجدون الاجهدهم) طاقتهم وعن نافع جهدهم وهما احدوقيل الجهد الطاقة والجهد المشقة وجاء ابو عقيل بصاع من تمر فقال بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع فلمزهم المنافقون وقالوا ماأعطى عبدالرحمن وعاصم الارياء وأما صاع أبي عقيل فالله غني عنه (فيسخرون منهم) فيهزؤن (سخر الله منهم) جازاهم على سخريتهم وهو خبر غير دعاء (ولهم عذاب أليم) مؤلم ولماسأل عبدالله بن عبدالله بن ابي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يستغفر لابيه في مرضه نزل (استغفر لهم أولا تستغفر لهم) وقدمران هذا الامر في معنى الخبر كأنه قيل لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) والسبعون

(والذين لايجدون الا جهدهم) ويطعنون على الذين لايجدون الاطاقتهم وكان هذا أباعقيل عبد الرحمن بن تيحان لم يجد الاصاعامن تمر (فيسخرون منهم) بقلة الصدقة يقولون ماجاء به الاليذكر به ويعطى من الصدقة أكثر مما جاء به (سخر الله منهم) عليهم يوم القيامة في الآخرة يفتح الله لهم بابا الى الجنة (ولهم عذاب اليم) وجيع في الآخر (استغفر لهم) يقول ان تستغفر لعبدالله بن أبي (قال) وجد بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهم نحو سبعين رجلا (أولا تستغفر لهم) سواء عليهم (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم

عاصم بن عدى بمائة وسق تمر وجاء ابوعقيل الانصاري بصاع تمر فقال بت ليلتي اجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا مااعطى عبدالرحمن وعاصم الارياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع ابي عقيل ولكنه احب ان يذكر بنفسه ليعطي من الصدقات فنزلت ﴿ والذين لايجدون الاجهدهم ﴾ الا طاقتهم وقرئ بالفتح وهو مصدر جهد في الامر اذابالغ فيه ﴿ فيسخرون منهم ﴾ يستهزؤن بهم ﴿ سخر الله منهم ﴾ جازاهم على سخريتهم كقوله تعالى الله يستهزئ بهم ﴿ ولهم عذاب اليم ﴾ على كفرهم ﴿ استغفر لهم أولاتستغفر لهم ﴾ يريدبه التساوي بين الامرين في عدم الافادة لهم كمانص عليه بقوله ﴿ ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ روي ان

جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وامسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله في مال عبدالرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدى العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبوعقيل الانصاري بصاع من تمر وقال يارسول الله بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فامسكت احدهما العيالي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره في الصدقات فلمزهم المنافقون فقالوا ماأعطى عبدالرحمن وعاصم الارياء وان الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقة فانزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعيبون المطوعين يعني المتبرعين من المؤمنين يعني عبدالرحمن بن عوف وعاصم بن عدى في الصدقات والتطوع التنفل بماليس بواجب عليه ﴿ والذين لايجدون الاجهدهم ﴾ يعني أباعقيل الانصاري والجهد بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذي يأتي به فيتصدق به أكثر موقعا عندالله تعالى من الكثير الذي يأتي به فيتصدق به لان الغني أخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير الذي أخرج القليل انما اخرجه عن ضعف وجهد وقديؤثر المحتاج الى المال غيره رجاء ماعندالله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على انفسهم ولوكان بهم خصاصة ﴿ فيسخرون منهم ﴾ يعني ان المنافقين كانوا يستهزؤن بالمؤمنين في انفاقهم المال في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيا وكانوا يعيرون الفقير الذي يتصدق بالقليل ويقولون انه لفقير محتاج اليه فكيف يتصدق به وجوابهم ان كل من يرجو ماعندالله من الخير والثواب يبذل الموجود لينال ذلك الثواب الموعود به ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ سخر الله منهم ﴾ يعني انه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم ❁ ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ يعني في الآخرة ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾

جار مجرى المثل فى كلامهم للتكثير وليس على التحديد والغاية اذلو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم لانهم كفار والله لا يغفر لمن كفر به والمعنى وان بالغت فى الاستغفار فلن يغفر الله لهم وقدوردت الاخبار بذكر السبعين وكلها تدل على الكثرة لا على التحديد والغاية ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الاعداد ان العدد قليل وكثير فالقليل مادون الثلاث والكثير الثلاث فافوقها وأدنى الكثير الثلاث وليس لاقصاه غاية والعدد أيضا نوعان شفع ووتر وأول الاشفاع اثنان وأول الاوتار ثلاثة والواحد ليس بعدد والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين لان فيها أوتار ثلاثة واشفاء ثلاثة والعشرة كمال الحساب لان ماجاوز العشرة فهو اضافة الآحاد الى العشرة كقولك اثناعشر وثلاثة عشر الى عشرين والعشرون تكرير العشرة مرتين والثلاثون تكريرها ثلاث مرات وكذلك الى مائة فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه وكمال الحساب والكثرة منه فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه ولا غاية لاقصاه فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى والله أعلم (ذلك) اشارة الى اليأس من المغفرة (بانهم) بسبب انهم (كفروا بالله ورسوله) ولا غفران للكافرين (والله لايهدى القوم الفاسقين) الخارجين

عبدالله بن عبدالله بن ابى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مرض ابيه ان يستغفر له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام لأزيدن على السبعين فنزلت سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وذلك لانه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لانه الاصل فجوز ان يكون ذلك حدا يخالفه حكم ماوراءه فبين له ان المراد به التكثير دون التحديد وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها فى التكثير لاشتمال السبعة على جملة اقسام العدد فكأنه العدد باسره ﴿ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله﴾ اشارة الى ان اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل مناولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها ﴿والله لايهدى القوم الفاسقين﴾ المتمردين فى كفرهم وهو كالدليل على الحكم السابق فان مغفرة الكافر بالاقلاع عن الكفر والارشاد الى الحق والمنهمك فى كفره المطبوع عليه

قال المفسرون لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه ويقولون استغفر لنا فنزلت استغفر لهم أولا تستغفر لهم وهذا كلام خرج مخرج الامر ومعناه الخبر تقديره استغفرت لهم يامحمد أولم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم وانما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لان العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صلى على عمه حمزة رضى الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولان آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فان السموات سبع والارضين سبع والايام سبع والاقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا اخص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر للمبالغة فى اليأس من طمع المغفرة لهم قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد رخص لى فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فانزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال لما توفى عبدالله يعنى ابن أبى بن سلول جاء ابنه عبدالله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فقام عمر فاخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما خيرنى الله عز وجل فقال استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين قال انه منافق فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ولا تصل على احد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد فى رواية فترك الصلاة عليهم ❊ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله﴾ يعنى ان هذا الفعل من الله وهو ترك عفوه عنهم وترك المغفرة لهم من أجل انهم اختاروا الكفر على الايمان بالله ورسوله ﴿والله لايهدى القوم الفاسقين﴾ يعنى والله لا يوفق للايمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ❊ قوله عز وجل

(ذلك) العذاب (بانهم كفروا بالله ورسوله) فى السر (والله لايهدى) لا يغفر (القوم الفاسقين) المنافقين عبدالله بن أبى

عن الايمان ماداموا مختارين للكفر والطغيان (فرح المخلفون) المنافقون الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان (بمقعدهم) بقعودهم عن الغزو (خلاف رسول الله) مخالفة له وهو مفعول له أو حال اى قعدوا لمخالفته أو مخالفين له (وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله) لم يفعلوا مافعله المؤمنون من بذل أموالهم وارواحهم في سبيل الله وكيف لايكرهونه ومافيهم مافي المؤمنين من باعث الايمان وداعي الايقان (وقالوا لاتنفروا في الحر) قال بعضهم لبعض أو قالوا للمؤمنين تثبيطا (قل نار جهنم أشد حرا لوكانوا يفقهون) استجهال لهم لان من تصون من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون في مشقة الابد كان أجهل من كل جاهل (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) أى فيضحكون قليلا على فرحهم بتخلفهم في الدنيا ويبكون كثيرا جزاء في العقبى الا انه اخرج على لفظ الامر للدلالة على انه حتم واجب لايكون غيره يروى ان أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم

لاينقلع ولايهتدى والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من ايمانهم مالم يعلم انهم مطبوعون على الضلالة والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم انهم اصحاب الجحيم ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ بقعودهم عن الغزو خلفه يقال اقام خلاف الحى أى بعدهم ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ﴾ ايثارا للدعة والخفض على طاعة الله وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الاموال والمهج ﴿ وقالوا لاتنفروا في الحر ﴾ أى قاله بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تثبيطا ﴿ قل نار جهنم اشد حرا ﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة ﴿ لوكانوا يفقهون ﴾ ان مآبهم اليها أو انها كيف هى مااختاروها بايثار الدعة على الطاعة ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ يعنى فرح المخلفون عن غزوة تبوك والمخلف المتروك بمقعدهم يعنى بقعودهم في المدينة خلاف رسول الله يعنى بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لان الانسان اذا توجه الى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار الى تبوك واقاموا بالمدينة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد امرهم بالخروج الى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله ﴾ والمعنى انهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج الى الجهاد وذلك ان الانسان يميل بطبعه الى ايثار الراحة والقعود مع الاهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقالوا لاتنفروا في الحر ﴾ وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فاجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى ﴿ قل نار جهنم أشد حرا لوكانوا يفقهون ﴾ يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد في الحر أن نار جهنم التى هى موعدهم في الآخرة أشد حرا من حر الدنيا لوكانوا يعلمون قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال يارسول الله الحر شديد ولانستطيع الخروج فلاتنفروا في الحر فقال عز وجل قل نار جهنم أشد حرا لوكانوا يفقهون فأمره الله تعالى بالخروج ﴿ فليضحكوا قليلا ﴾ يعنى فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحين قليلا في الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه ﴿ وليبكوا كثيرا ﴾ يعنى مكان ضحكهم في الدنيا وهذا وان ورد بصيغة الامر الاان

(معناه)

وأصحابه (فرح المخلفون رضى المنافقون (بمقعدهم) بتخلفهم عن غزوة تبوك (خلاف رسول الله) خلف رسول الله (وكرهوا أن يجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله) في طاعة الله (وقالوا) وقال بعضهم لبعض (لاتنفروا في الحر) لاتخرجوا مع محمد صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك في الحر الشديد (قل) لهم يا محمد (نار جهنم أشد حرا) جرا (لوكانوا انفقهون) يفهمون ويصدقون (فليضحكوا قليلا) في الدنيا (وليبكوا كثيرا) في الآخر

(جزاء بما كانوا يكسبون) من النفاق (فان رجعك الله) أى ردك من تبوك وانما قال (الى طائفة منهم) لان منهم من تاب من النفاق ومنهم من هلك (فاستأذنوك للخروج) الى غزوة بعده غزوة تبوك (فقل لن تخرجوا معى أبدا) بسكون الياء حمزة وعلى وأبو بكر (ولن تقاتلوا معى عدوا) معى حفص (انكم رضيتم بالقعود أول مرة) اول ما دعيتم الى غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) مع من تخلف بعد وسأل ابن عبد الله بن ابى وكان مؤمنا ان يكفن النبى صلى الله عليه وسلم أباه فى قميصه ويصلى عليه فقبل فاعترض عمر رضى الله عنه فى ذلك فقال عليه السلام ذلك لا ينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه فنزل (ولا تصل على أحد منهم) من المنافقين يعنى صلاة الجنازة روى انه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبى صلى الله عليه وسلم (مات) صفة لاحد (أبدا) ظرف

﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ اخبار عما يؤول اليه حالهم فى الدنيا والآخرة اخرجه على صيغة الامر للدلالة على انه حتم واجب ويجوز ان يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم ﴿ فان رجعك الله الى طائفة منهم ﴾ فان ردك الى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعنى منافقيهم فان كلهم لم يكونوا منافقين أو من بقى منهم فكان المتخلفون اثنى عشر رجلا ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ الى غزوة اخرى بعد تبوك ﴿ فقل لن تخرجوا معى ابدا ولن تقاتلوا معى عدوا ﴾ اخبار فى معنى النهى للمبالغة ﴿ انكم رضيتم بالقعود اول مرة ﴾ تعليل له وكان اسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم واول مرة هى الخرجة الى غزوة تبوك ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ اى المتخلفين لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان * وقرئ مع الخلفين على قصر الخالفين ﴿ ولا تصل على احد منهم مات ابدا ﴾

معناه الاخبار والمعنى انهم وان فرحوا وضحكوا طول اعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة الى بكائهم فى الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة الى الدائم الباقى قليل ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ يعنى أن ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة فى الدنيا (خ) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا * وروى البغوى بسنده عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فان أهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى وجوهم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو ان سفنا أجريت فيها لجرت * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فان رجعك الله ﴾ يعنى فان ردك الله يا محمد من غزاتك هذه ﴿ الى طائفة منهم ﴾ يعنى الى المتخلفين عنك وانما قال منهم لانه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقا مثل أصحاب الاعذار ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ يعنى فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحققت نفاقهم فى الخروج معك الى غزوة أخرى ﴿ فقل لن تخرجوا معى أبدا ﴾ يعنى فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معى أبدا لا الى غزوة ولا الى سفر ﴿ ولن تقاتلوا معى عدوا انكم ﴾ يعنى لانكم ﴿ رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ يعنى انكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ يعنى مع المتخلفين النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل مع المخالفين يقال صاحبه خالفه اذا كان مخالفا كثير الخلاف وفى الآية دليل على ان الرجل اذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لان الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وهو مشعر باظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وابعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم اذا خرجوا الى الغزوات * قوله عز وجل ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ﴾

(جزاء بما كانوا يكسبون) يقولون ويعملون من المعاصى (فان رجعك الله) من غزوة تبوك (الى طائفة منهم) من المنافقين بالمدينة (فاستأذنوك للخروج) الى غزوة أخرى (فقل) لهم يا محمد (ان تخرجوا معى ابدا) بعد غزوة تبوك (ولمن تقاتلوا معى عدوا انكم رضيتم بالقعود) بالجلوس (أول مرة) فى أول مرة من (قا و خا ٢٢ لث) غزوة تبوك (فاقعدوا) عن الجهاد (مع الخالفين) مع النساء والصبيان (ولا تصل على أحد منهم) من المنافقين بعد عبد الله بن أبى (مات أبدا) ويقال على عبد الله بن ابى

روى ان ابن ابى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه فلما دخل عليه سأله ان يستغفر له ويكفنه فى شعاره الذى يلى جسده ويصلى عليه فلما مات ارسل قيصه ليكفن فيه وذهب ليصلى عليه فنزلت وقيل صلى عليه ثم نزلت وانما لم ينهه عن التكفين فى قيصه ونهى عن الصلاة عليه لان الضنة بالقميص كانت مخلا بالكرم ولانه كان مكافاة لالباسه

الآية قال قتادة بعث عبدالله بن أبى بن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فاتاه نبى الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل عليه نبى الله صلى الله عليه وسلم قال أهلكك حب اليهود فقال يانبى الله انى لم أبعث اليك لتؤنبنى ولكن بعثت اليك لتستغفر لى وسأله قيصه أن يكفن فيه فأعطاه اياه واستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فكفنه فى قيصه صلى الله عليه وسلم ونفث فى جلده ودلاه فى قبره فانزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الآية (خ) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لما مات عبدالله بن أبى بن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت اليه فقلت يارسول الله أتصلى على ابن أبى ابن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا أعدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أخر عنى ياعمر فلما أكثرت عليه قال انى خيرت فاخترت لو أعلم أنى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث الا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ والله ورسوله أعلم واخرجه الترمذى وزاد فيه فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر رضى الله عنه قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أبى بعد ما أدخل حفرته فامر به فاخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قيصه والله أعلم قال وكان كسا عباسا قيصا قال سفيان وقال أبو هرون وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قيصان فقال له ابن عبدالله يارسول الله ألبس عبدالله قيصك الذى يلى جلدك قال سفيان فيرون ان النبى صلى الله عليه وسلم ألبس عبدالله قيصه مكافأة لما صنع وفى رواية عن جابر قال لما كان يوم بدر أتى بالاسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبى صلى الله عليه وسلم له قيصا فوجدوا قيص عبدالله بن أبى يقدر عليه فكساه النبى صلى الله عليه وسلم اياه فلذلك نزع النبى صلى الله عليه وسلم قيصه الذى ألبسه

فصل

قد وقع فى هذه الاحاديث التى تتضمن قصة موت عبدالله بن أبى بن سلول المنافق صورة اختلاف فى الروايات ففى حديث ابن عمر المتقدم انه لما توفى عبدالله ابن أبى بن سلول أتى ابنه عبدالله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قيصه ليكفنه فيه وأن يصلى عليه فاعطاه قيصه وصلى عليه وفى حديث عمر بن الخطاب من أفراد البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعى له ليصلى عليه وفى حديث جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم أتاه بعد ما أدخل حفرته فامر به فاخرج فوضعه على ركبتيه ونفث

لاتصل وكان عليه السلام اذا دفن الميت وقف على قبره ودعاله فقيل

العباس قميصه حين اسر ببدر والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع في حق الكفار ولذلك رتب النهى على قوله مات ابدا يعنى

عليه من ريقه وألبسه قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات انه صلى الله عليه وسلم أعطاه قميصه فكفن فيه ثم انه صلى الله عليه وسلم صلى عليه وليس في حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله اعلم أنه صلى عليه أولا كما في حديث عمر وابن عمر ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ثانيا بعدما أدخل حفرته فاخرجه منها ونزع عنه القميص الذى أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم انه صلى الله عليه وسلم ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبدالله بن أبى تطييبا لقلب ابنه عبدالله فانه كان صحابيا مسلما صالحا مخلصا وأما قول قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده في مرضه وانه سأله أن يستغفر له وأن يعطيه قميصه وأن يصلى عليه فاعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث في جلده ودلاه في حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب الا توفيقا بين الاحاديث فيكون قوله ونفث في جلده ودلاه في قبره جملة منقطعة عما قبلها يعنى أنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك بعد ما أعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم وقال القرطبي في شرح صحيح مسلم له ان عبدالله بن أبى بن سلول كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وانصرف اليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الاسلام غلب عليه فنافق وكان رأسا في المنافقين وأعظمهم نفاقا وأشدهم كفرا وكان المنافقون كثيرا حتى لقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبدالله يعنى ولد عبدالله بن أبى من فضلاء الصحابة وأصدقهم اسلاما وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدرا وكان أبر الناس بابيه ومع ذلك فقد قال يوما للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله انك تعلم أنى من أبر الناس بابى وأن أمرتنى أن آتيك رأسه فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل تعفو عنه وكان من أحرص الناس على اسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبي صلى الله عليه وسلم بشئ ولذلك لما مات أبوه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فاعطاه وسأله أن يصلى عليه فصلى عليه كل ذلك اكراما لابنه عبدالله واسعافا له وطلبته وقول عمر تصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ويظهر من هذا السياق ان عمر وقع في خاطره ان الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الالهام والتحديث الذى شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله استغفر لهم اولا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد قال القرطبي والذى يظهر لى والله اعلم أن البخارى ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقه سياقة هى أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبدالله بن أبى بن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر وثبت اليه الحديث الى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث الا يسيرا حتى أنزلت عليه الآيتان من براءة قال القرطبي

الموت على الكفر فان احياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحى ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة ﴿ انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ تعليل للنهى أو لتأبيد الموت ﴿ ولا تعجبك اموالهم واولادهم

وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شئ من الاشكال المتقدم فهو الاولى وقوله صلى الله عليه وسلم سأزيد على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما فى حديث ابن عباس عن ابن عمر فان فيه لو أعلم أنى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فان الاحاديث يفسر بعضها بعضا ويقيد بعضها بعضا فلذلك قال لو اعلم أنى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له وقوله صلى الله عليه وسلم انى خيرت مشكل مع قوله تعالى ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهى عن الاستغفار لمن مات كافرا وهو متقدم على الآية التى فيها التخيير والجواب عن هذا الاشكال ان المنهى عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك وأما استغفاره لاولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم صلى الله عليه وسلم أنه لا يقع ولا ينفع وغايته وان وقع كان تطييبا لقلوب الاحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهى عنه من المخير فيه وارتفع الاشكال بحمد الله والله اعلم وقال الشيخ محيي الدين النووى انما أعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييبا لقلب ابنه عبدالله فانه كان صحابيا صالحا وقد سأله ذلك فأجابه اليه وقيل بل أعطاه مكافأة لعبدالله بن ابى المنافق الميت لانه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصا وفى الحديث بيان مكارم أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم فقد علم ما كان من هذا المنافق من الايذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفنا وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال البغوى قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحب ان يكافئه بها ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبدالله بن أبى فقال صلى الله عليه وسلم ومايغنى عنه قميصى وصلاتى من الله والله انى كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه فيروى انه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبى صلى الله عليه وسلم * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ يعنى لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بامر فلان اذا كفاه أمره وناب عنه فيه ﴿ انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها * فان قلت الفسق أدنى حالا من الكفر ولما ذكر فى تعليل هذا النهى كونه كافرا دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة فى وصفه بكونه فاسقا بعد ما وصفه بالكفر * قلت ان الكافر قد يكون عدلا فى نفسه بان يؤدى الامانة ولا يضمر لاحد سوأ وقد يكون خبيثا فى نفسه كثير الكذب والمكر والخداع واضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم واولادهم

(ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) تعليل للنهى اى انهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم لانهم كفروا بالله ورسوله (ولا تعجبك أموالهم واولادهم)

(ولا تقم على قبره) ولا تقف على قبره (انهم كفروا بالله ورسوله) فى السر (وماتوا وهم فاسقون) منافقون (ولا تعجبك) يا محمد (أموالهم) كثرة أموالهم (واولادهم) ولا كثرة أولادهم

انما يريد الله ان يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون ﴾ تكرير للتأكيد والامر حقيق به فان الابصار طامحة الى الاموال والاولاد والنفوس مغتبطة عليها ويجوز ان تكون هذه فى فريق غير الاول ﴿ واذا انزلت سورة ﴾ من القرآن ويجوز ان يراد بها بعضها ﴿ ان آمنوا بالله ﴾ بان آمنوا بالله ويجوز ان يكون ان مفسرة ﴿ وجاهدوا مع رسوله

انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ الكلام على هذه الآية فى مقامين * المقام الاول فى وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل أولا وتأكيده وارادة ان يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد ان العمل به مهم وانما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب ان يحذر منه وهو ان أشد الاشياء جذبا للقلوب والخواطر الاشتغال بالاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأييد والمبالغة فى التحذير من ذلك الشئ الذى وقع الاهتمام به وقيل أيضا انما كرر هذا المعنى لانه أراد بالآية الاولى قوما من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الاخرى أقواما آخرين منهم * المقام الثانى فى وجه بيان ما حصل من التفاوت فى الالفاظ فى هاتين الآيتين وذلك انه قال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما انه عطف الآية الاولى على قوله ولا ينفقون الا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق لشدة المحبة للاموال والاولاد فحسن العطف عليه بالفاء فى قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لا هنا فقال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه ان حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الاموال والاولاد وكان اعجابهم بأولادهم أكثر وفى اسقاط حرف لا هنا دليل على انه لا تفاوت بين الامرين قال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى انما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل فى أحكام الله محال وانه أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله ومعناه وما أمروا الا بان يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى فى الآية الاولى فى الحياة الدنيا وقال تعالى هنا فى الدنيا والفائدة فى اسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت فى الخسة الى حيث أنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها فهذه جمل فى ذكر الفرق بين هذه الالفاظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه * قوله عز وجل ﴿ واذا أنزلت سورة ﴾ يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لان اطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل ان يراد جميع السورة فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة لانها مشتملة على الامر بالايمان والامر بالجهاد ﴿ أن ﴾ أى بان ﴿ آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله ﴾ فان قلت كيف يأمرهم بالايمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل * قلت معناه الامر بالدوام على الايمان والجهاد فى المستقبل وقيل ان الامر بالايمان يتوجه على كل أحد فى كل

انما يريد الله ان يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) التكرير للمبالغة والتأكيد وأن يكون على بال من المخاطب لا ينساه وأن يعتقد أنه مهم ولان كل آية فى فرقة غير الفرقة الاخرى (واذا أنزلت سورة) يجوز أن يراد سورة بتمامها وان يراد بعضها كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه (أن آمنوا بالله) بان آمنوا أو هى ان المفسرة (وجاهدوا مع رسوله

(انما يريد الله أن يعذبهم بها) فى الآخرة (وتزهق أنفسهم) تخرج أرواحهم (فى الدنيا وهم كافرون) مقدم ومؤخر (واذا انزلت سورة) من القرآن وأمروا فيها (ان آمنوا بالله) صدقوا بايمانكم بالله (وجاهدوا مع رسوله

استأذنك أولوا الطول منهم) ذووا الفضل والسعة (وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) مع الذين لهم عذر فى التخلف كالمرضى والزمنى (رضوا بان يكونوا مع الخوالف) أى النساء جمع خالفة (وطبع على قلوبهم)ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق (فهم لا يفقهون) ماقى الجهاد من الفوز والسعادة وما فى التخلف من الهلاك والشقاوة (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى أن تخلف هؤلاء فقد نهض الى الغزو من خير منهم (وأولئك لهم الخيرات) تناول منافع الدارين لاطلاق اللفظ وقيل الحور لقوله فيهن خيرات (وأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم)

استأذنك اولو الطول منهم ﴾ ذوو الفضل والسعة ﴿ وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ الذين قعدوا لعذر ﴿ رضوا بان يكونوا مع الخوالف ﴾ مع النساء جمع خالفة وقد يقال الخالفة للذى لا خير فيه ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ ما فى الجهاد وموافقة الرسول من السعادة ومافى التخلف عنه من الشقاوة ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا باموالهم وانفسهم ﴾ اى ان تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم ﴿ واولئك لهم الخيرات ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الحور القوله تعالى فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة ﴿ واولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بالمطالب ﴿ اعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الاخروية

ساعة وقيل ان هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى ان اخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير ايمان لا يفيد أصلا فكأنه قيل للمنافقين الواجب عليكم ان تؤمنوا بالله أولا وتجاهدوا مع رسوله ثانيا حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها فى الدنيا والآخرة ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ﴾ قال ابن عباس يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفى تخصيص أولى الطول بالذكر قولان أحدهما ان الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد والقول الثانى انما خص أولى الطول بالذكر لان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج الى الاستئذان ﴿ وقالوا ﴾ يعنى أولى الطول ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ يعنى فى البيوت مع النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى ﴿ رضوا بان يكونوا مع الخوالف ﴾ قيل الخوالف النساء اللواتى يتخلفن فى البيوت فلا يخرجن منها والمعنى رضوا بأن يكونوا فى تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل خوالف جمع خالفة وهم أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ يعنى وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لا يفقهون مراد الله فى الامر بالجهاد ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ أى ان تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعنى الرسول والمؤمنين ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أى الفائزون بالمطالب ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾

استأذنك) يا محمد (أولوا الطول) ذووا الغنى (منهم) من المنافقين عبد الله ابن أبى وجد بن قيس ومعتب ابن قشير (وقالوا ذرنا) يا محمد (نكن مع القاعدين) بغير عذر (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) من النساء والصبيان (وطبع) ختم (على قلوبهم فهم لا يفقهون) لا يصدقون أمر الله (لكن الرسول) محمد صلى الله عليه وسلم (والذين آمنوا) فى السر والعلانية (معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) فى سبيل الله (وأولئك لهم الخيرات) الحسنات المقبولات فى الدنيا ويقال الحوارى فى الآخرة (وأولئك هم المفلحون) الناجون من السخط والعذاب (أعد الله لهم جنات) بساتين (تجرى من تحتها) من تحت شجرها ومساكنها (الانهار) انهار الخمر والماء والعسل واللبن (خالدين فيها) مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها (ذلك) الذى ذكرت (الفوز العظيم) (بيان)

﴿وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم﴾ يعنى اسدا وعطفان استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك اغارت طيء على اهالينا ومواشينا والمعذر اما من عذر فى الامر اذا قصر فيه موهما ان له عذرا ولا عذر له أو من اعتذر اذا مهد العذر بادغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين ويجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع لكن لم يقرأ بهما وقرأ يعقوب معذرون من اعذر اذا اجتهد فى العذر وقرئ المعذرون بتشديد العين والذال على انه من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن اذ التاء لا تدغم فى العين وقد اختلف فى انهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة فيكون قوله ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ فى غيرهم وهم منافقوا الاعراب كذبوا الله ورسوله فى ادعاء الايمان وان كانوا اهم الاولين فكذبهم بالاعتذار ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عذاب اليم﴾

بيان لما لهم من الخيرات الاخروية * قوله سبحانه وتعالى ﴿وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم﴾ يعنى وجاء المعتذرون من اعراب البوادى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه فى التخلف عن الغزو معه قال الضحاك هم رهط عامر بن الطفيل جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذرين اليه دفاعا عن أنفسهم فقالوا يا نبي الله ان نحن غزونا معك تغير اعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأني الله من اخباركم وسيغني الله عنكم وقيل هم نفر من بنى غفار رهط خفاف بن ايماء ابن رحضة وقيل هم من أسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية وجاء المعذرون أى المقصرون يعنى أنهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى ان له عذرا ولا عذر له وقيل ان الاصل فى هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء فى الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار فى كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب فى عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر *
يعنى فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو من التعذير الذى هو التقصير يقال عذر تعذيرا اذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل أنهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكرهم قال بعده ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على انهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبي عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام قال ان قوما تكلفوا عذرا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقوا الاعراب الذين ما جاؤا وما اعتذروا وظهر بذلك انهم كذبوا الله ورسوله يعنى فى ادعائهم الايمان ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ يعنى فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار وانما قال منهم

قوله أعد دليل على أنها مخلوقة (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) هو من عذر فى الامر اذا قصر فيه وتوانى وحقيقته أن يوهم ان له عذرا فيما فعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين وهم الذين يعتذرون بالباطل قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فأذن لنا فى التخلف (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) هم منافقوا الاعراب الذين لم يجيؤا ولم يعتذروا فظهر بذلك انهم كذبوا الله ورسوله فى ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم) من الاعراب (عذاب أليم) فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة

النجاة الوافرة فازوا بالجنة ومافيها ونجوا من النار ومافيها (وجاء) اليك يا محمد (المعذرون) مخففة من كان له عذر (من الاعراب) من بنى غفار وان قرأت المعذرون مشددة يعنى من لم يكن له عذر (ليؤذن لهم) لكى يأذن لهم رسول الله بالتخلف عن غزوة تبوك (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) فى السر ويقال خالفوا الله ورسوله فى السر فى الجهاد بغير اذن (سيصيب الذين كفروا منهم) من المنافقين عبد الله بن ابى وأصحابه (عذاب أليم) وجيع

بالقتل والنار ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ كالهرمى والزمنى ﴿ ولا على الذين لايجدون ماينفقون ﴾ لفقرهم كجهينة ومزينة وبنى عذرة ﴿ حرج ﴾ اثم فى التأخر ﴿ اذا نصحوا لله ورسوله ﴾ بالايمان والطاعة فى السر والعلانية كما يفعل المولى الناصح أو بما قدروا عليه فعلا أو قولا يعود على الاسلام والمسلمين بالصلاح ﴿ ماعلى المحسنين من سبيل ﴾ أى ليس عليهم جناح ولا الى معاتبتهم سبيل وانما وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انهم منخرطون فى سلك المحسنين غير معاتبين لذلك ﴿ والله غفور رحيم ﴾ لهم أو للمسيء فكيف المحسن

لانه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص فى ايمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين أصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه ❁ قوله عز وجل ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا باعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الاعذار الحقيقة الصحيحة وعذرهم واخبر أن فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح فى بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق فى أصل الخلقة ضعيفا نحيفا ويدل على ان هؤلاء الاصناف هم الضعفاء ان الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى ﴿ ولا على المرضى ﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فاما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفا بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو ﴿ ولا على الذين لايجدون ماينفقون ﴾ يعنى الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لان العاجزين عن نفقة الغزو معذور ﴿ حرج ﴾ أى ليس على هؤلاء الاصناف الثلاثة حرج اى اثم فى التخلف عن الغزو وقال الامام فخر الدين الرازى ليس فى الآية انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا ووبالا عليهم فان ذلك طاعة مقبولة ثم انه تعالى شرط على الضعفاء فى جواز التخلف عن الغزو شرطا معينا وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ اذا نصحوا لله ورسوله ﴾ ومعناه أنهم اذا اقاموا فى البلد احترزوا عن افشاء الاراجيف واثارة الفتن وسعوا فى ايصال الخير الى اهل المجاهدين الذين خرجوا الى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم واخلصوا الايمان والعمل لله وتابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فان جملة هذه الامور تجرى مجرى النصح لله ورسوله ﴿ ماعلى المحسنين من سبيل ﴾ أى ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله فى تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى انه سد باحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ماعلى المحسنين من سبيل ان كل مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله مخلصا من قلبه ليس عليه سبيل فى نفسه وماله الا ما أباحه الشرع بدليل منفصل ﴿ والله غفور ﴾ يعنى لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع ﴿ رحيم ﴾ يعنى انه تعالى رحيم بجميع عباده قال قتادة

بالنار (ليس على الضعفاء) الهرمى والزمنى (ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون) هم الفقراء من مزينة وجهينة وبنى عذرة (حرج) اثم وضيق فى التأخر (اذا نصحوا لله ورسوله) بان آمنوا فى السر والعلن وأطاعوا كما يفعل الناصح بصاحبه (ما على المحسنين) المعذورين الناصحين (من سبيل) اى لاجناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم (والله غفور) يغفر لهم تخلفهم (رحيم) بهم

(ليس على الضعفاء) من الشيوخ والزمنى (ولا على المرضى) من الشباب (ولا على الذين لايجدون ماينفقون) فى الجهاد (حرج) مأثم بالتخلف (اذا نصحوا لله) فى الدين (ورسوله) فى السنة (ما على المحسنين) بالقول والفعل (من سبيل) من خرج (والله غفور) متجاوز لمن تاب (رحيم) لمن مات على التوبة

(نزلت)

(ولاعلى الذين أذاماأتوك لتحملهم)لتعطيهم الحمولة(قلت) حال من الكاف فى أتوك وقد

﴿ولاعلى الذين اذا ما اتوك لتحملهم﴾ عطف على الضعفاء أوعلى المحسنين وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبدالله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبدالله بن مغفل وعلبة بن زيد اتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال عليه السلام لا اجد ما احملكم عليه فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد والنعمان وقيل ابو موسى واصحابه ﴿قلت لا اجد ما احملكم عليه﴾ حال من الكاف فى اتوك باضمار قد ﴿تولوا﴾ جواب اذا ﴿واعينهم تفيض﴾ تسيل ﴿من الدمع﴾ أى دمعها فان من للبيان وهى مع المجرور فى محل النصب على التميز وهو ابلغ من يفيض دمعها لانه يدل على ان العين صارت دمعا فياضا ﴿حزنا﴾ نصب على العلة أو الحال أو المصدر لفعل دل عليه ماقبله ﴿أن لايجدوا﴾ لئلا يجدوا متعلق بحزنا أو بتفيض ﴿ماينفقون﴾ فى مغزاهم ﴿انما السبيل﴾ بالمعاتبة

نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو واصحابه وقال الضحاك نزلت فى عبدالله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر ✻ ولما ذكر الله عزوجل هذه الاقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى ﴿ولاعلى الذين اذاما أتوك﴾ يعنى ولاحرج ولااثم فى التخلف عنك على الذين اذاما أتوك ﴿لتحملهم﴾ يعنى يسألونك الحملان ليبلغوا الى غزو عدوك وعدوهم والجهاد معك يامحمد قال ابن اسحق نزلت فى البكائين وكانوا سبعة ونقل الطبرى عن محمد بن كعب وغيره قالوا جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال لاأجد ماأحملكم عليه فانزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بنى واقف حرمى بن عمير ومن بنى مازن بن النجار عبدالرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ومن بنى حارثة عبدالرحمن ابن زيد وهو الذى تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بنى سلمة عمرو بن عنمة وعبدالله ابن عمرو المزنى وقال البغوى هم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبدالله ابن كعب الانصارى وعلبة بن زيد الانصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبدالله بن مغفل المزنى قال أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله ان الله عزوجل قد ندبنا الى الخروج معك فاحملنا فقال لاأجد ماأحملكم عليه وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان بنو مقرن وقيل نزلت فى العرباض ابن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل من ذكر قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل بل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاأجد ماأحملكم عليه فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين فذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿قلت لاأجد ماأحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع﴾ قال صاحب الكشاف هو كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها لان العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل ﴿حزنا ألا يجدوا ماينفقون﴾ يعنى على أنفسهم فى الجهاد ﴿انما السبيل﴾ لما قال الله سبحانه وتعالى ما على المحسنين من

قبله مضمرة أى اذاماأتوك قائلا (لاأجد ماأحملكم عليه تولوا) هو جواب اذا (واعينهم تفيض من الدمع) أى تسيل كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها لان العين جعلت كان كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل ومحل الجار والمجرور النصب على التميز ويجوز أن يكون قلت لاأجد استئنافا كأنه قيل اذاماأتوك لتحملهم تولوا فقيل مالهم تولوا باكين فقيل قلت لاأجد ماأحملكم عليه الا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض (حزنا) مفعول له (ألايجدوا ماينفقون) لئلا يجدوا ماينفقون ومحله نصب على انه مفعول له وناصبه حزنا والمستحملون أبوموسى الاشعرى وأصحابه أو البكاؤن وهم ستة نفر من الانصار (انما السبيل

(ولاعلى الذين أذا ماأتوك لتحملهم) الى الجهاد بالنفقة عبدالله بن مغفل بن يسار المزنى وسالم بن عمير الانصارى واصحابهما (قلت) لهم (لاأجد ماأحملكم عليه) الى الجهاد من النفقة (تولوا) خرجوا من عندك (وأعينهم تفيض) تسيل (من الدمع حزنا ألايجدوا) (قا و خا ٢٣ لث) بأن لم يجدوا (ماينفقون) فى الجهاد (انما السبيل) الحرج

﴿على الذين يستأذنونك وهم اغنياء﴾ واجدون للاهبة ﴿رضوا بان يكونوا مع الخوالف﴾ استئناف لبيان ماهو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظام فى جلة الخوالف ايثارا للدعة ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فهم لايعلمون﴾ مغبته

سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولاعذر له انما السبيل يعنى انما تتوجه الطريق بالعقوبة ﴿على الذين يستأذنوك﴾ يامحمد فى التخلف عنك والجهاد معك ﴿وهم أغنياء﴾ يعنى قادرين على الخروج معك ﴿رضوا بان يكونوا مع الخوالف﴾ يعنى رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جلة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ يعنى ختم عليها ﴿فهم لايعلمون﴾ مافى الجهاد من الخير فى الدنيا والآخرة امافى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وامافى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لاينقطع

على الذين يستأذنونك) فى التخلف (وهم أغنياء) وقوله (رضوا) استئناف كأنه قيل مابالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا (بان يكونو مع الخوالف) أى بالانتظام فى جلة الخوالف (وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون

(على الذين يستأذنوك) بالتخلف (وهم أغنياء) بالمال عبدالله بن أبى وجد بن قيس ومعتب ابن قشير واصحابهم نحو سبعين رجلا (رضوابان يكونوا مع الخوالف) مع النساء والصبيان (وطبع الله) ختم الله (على قلوبهم فهم لايعلمون) امر الله ولايصدقون

يالطيفا بالمعتذرين تقبل اعتذارنا

﴿ يعتذرون اليكم ﴾ فى التخلف ﴿اذا رجعتم اليهم ﴾ من هذه السفرة ﴿ قل لاتعتذروا ﴾ بالمعاذير الكاذبة لانه ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ لن نصدقكم لانه ﴿ قد نبأنا الله من اخباركم ﴾ اعلمنا بالوحى الى نبيه بعض اخباركم وهو ما فى ضمائركم من الشر والفساد ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ أتنيبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكأنه استتابة وامهال للتوبة ﴿ ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة ﴾ أى اليه فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على انه مطلع على سرهم وعلنهم لايفوت عن علمه شئ من ضمائرهم واعمالهم ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه

* قوله سبحانه وتعالى ﴿ يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم ﴾ يعنى يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يا محمد اليك وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم ويحتمل انهم اعتذروا اليه والى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون اليكم يعنى بالاعذار الباطلة الكاذبة اذا رجعتم اليهم يعنى من سفركم ﴿ قل ﴾ أى قل لهم يا محمد ﴿ لاتعتذروا ﴾ قال البغوى روى أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لاتعتذروا ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ يعنى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ يعنى قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ يعنى فى المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل يحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين فى المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم أم لا ﴿ ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم ﴾ يعنى فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ لانه هو المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد * قوله

(يعتذرون اليكم) يقيمون لانفسهم عذرا باطلا (اذا رجعتم اليهم)من هذه السفرة (قل لاتعتذروا) بالباطل (لن نؤمن لكم) لن تصدقكم وهو علة للنهى عن الاعتذار لان غرض المعتذر ان يصدق فيما يعتذر به (قد نبأنا الله من أخباركم) علة لانتفاء تصديقهم لانه تعالى اذا أوحى الى رسوله الاعلام باخبارهم وما فى ضمائرهم لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أتنيبون أم تثبتون على كفركم (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة) أى تردون اليه وهو عالم كل سر وعلانية (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم على حسب ذلك

(يعتذرون اليكم اذا رجعتم) من غزوة تبوك (اليهم) الى المدينة بانالم نقدر ان نخرج معك (قل) يا محمد لهم (لاتعتذروا) بالتخلف (لن نؤمن لكم) لن نصدقكم بما تقولون من العلل (قد نبأنا الله) أخبرنا الله (من أخباركم) من أسراركم ونفاقكم (وسيرى الله عملكم ورسوله) بعد ذلك ان تبتم (ثم تردون) فى الآخرة (الى عالم الغيب) ماغاب عن العباد ويقال الغيب مالم يعلمه العباد (عن) ويقال مايكون (والشهادة)ماعلمه العباد ويقال ما كان (فينبئكم)يخبركم (بما كنتم تعملون) وتقولون من الخير

(سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم) لتتركوهم ولا توبخوهم (فاعرضوا عنهم) فاعطوهم طلبتهم (انهم رجس) تعليل لترك معاتبتهم أى ان المعاتبة لاتنفع فيهم ولا تصلحهم لانهم ارجاس لاسبيل الى تطهيرهم (ومأواهم جهنم) ومصيرهم النار يعنى وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا عتابهم (جزاء بما كانوا يكسبون) أى يجزون جزاء كسبهم (يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك فى دنياهم (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فان رضاكم وحدكم لا ينفعهم اذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها وانما قيل ذلك لئلا يتوهم ان رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم (الاعراب) أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وبعدهم عن العلم

﴿ سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿ فاعرضوا عنهم ﴾ ولا توبخوهم ﴿ انهم رجس ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب فان المقصود منه التطهير بالحمل على الانابة وهؤلاء ارجاس لا تقبل التطهير فهو علة الاعراض وترك المعاتبة ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ من تمام التعليل وكأنه قال انهم ارجاس من اهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ فى الدنيا والآخرة أو تعليل ثان والمعنى ان النار كفتهم عتابا فلا تتكلفوا عتابهم ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ يجوز ان يكون مصدرا وان يكون علة ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿ فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أى فان رضاكم لا يستلزم رضى الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم اذا كانوا فى سخط الله وبصدد عقابه وان امكنهم ان يلبسوا عليكم لا يمكنهم ان يلبسوا على الله فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم والمقصود من الآية النهى عن الرضى عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الامر بالاعراض وعدم الالتفات نحوهم ﴿ الاعراب ﴾ اهل البدو ﴿ اشد كفرا ونفاقا ﴾ من اهل الحضر لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لاهل

عز وجل ﴿ سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم ﴾ يعنى اذا رجعتم من سفركم اليهم يعنى الى المتخلفين بالمدينة من المنافقين ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ يعنى لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم ﴿ فاعرضوا عنهم ﴾ يعنى فدعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق وقيل يريد ترك الكلام يعنى لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعانى ان هؤلاء المنافقين طلبوا اعراض الصفح فاعطوا اعراض المقت ❁ ثم ذكر العلة فى سبب الاعراض عنهم فقال تعالى ﴿ انهم رجس ﴾ يعنى ان بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة ﴿ ومأواهم ﴾ يعنى مسكنهم فى الآخرة ﴿ جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ يعنى من الاعمال الخبيثة فى الدنيا قال ابن عباس نزلت فى الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا اله الا هو انه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم ان يرضى عنه فانزل الله عز وجل هذه الآية والتى بعدها ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ يعنى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم ﴿ فان ترضوا عنهم ﴾ يعنى فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم ﴿ فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبدا ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ الاعراب أشد كفرا ونفاقا ﴾ نزلت فى سكان البادية يعنى ان أهل البدو أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر قال أهل اللغة يقال رجل عربى اذا كان نسبه فى العرب وجمعه العرب ورجل أعرابى اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلأ ويجمع الاعرابى على الاعراب والاعاريب

والشر (سيحلفون بالله) عبد الله بن أبى واصحابه (لكم اذا انقلبتم) اذا رجعتم من غزوة تبوك (اليهم) بالمدينة (لتعرضوا عنهم) لتصفحوا عنهم ولا تعاقبوهم (فأعرضوا عنهم) ولا تعاقبوهم (انهم رجس) نجس قذر (ومأواهم) مصيرهم (جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) يقولون ويعملون من الشر (يحلفون لكم لترضوا عنهم) بالحلف الكاذب (فان ترضوا عنهم) (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) المنافقين (الاعراب) أسد وغطفان (أشد كفرا ونفاقا) هم أشد على الكفر والنفاق من

والعلماء (وأجدر ألا يعلموا) وأحق بان لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعني حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والاحكام ومنه قوله عليه السلام ان الجفاء والقسوة في الفدادين يعني الاكرة لانهم يفدون أي يصيحون في حروثهم والفديد الصياح (والله عليم) باحوالهم (حكيم) في امهالهم (ومن الاعراب

العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة ﴿ واجدر ان لا يعلموا ﴾ واحق بان لا يعلموا ﴿ حدود ما انزل الله على رسوله ﴾ من الشرائع فرائضها وسننها ﴿ والله عليم ﴾ يعلم حال كل احد من اهل الوبر والمدر ﴿ حكيم ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقابا وثوابا ﴿ ومن الاعراب من يتخذ ﴾ يعد ﴿ ما ينفق ﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به ﴿ مغرما ﴾ غرامة وخسرانا اذ لا يحتسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثوابا وانما ينفق رياء أو تقية ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ دوائر الزمان ونوبه لينقلب الامر عليكم فيتخلص من الانفاق ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصونه أو اخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم والدائرة في الاصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور وسمي بها عاقبة الزمان والسوء بالفتح مصدر اضيف اليه للمبالغة كقولك رجل صدق وقرأ أبو عمرو وابن كثير السوء هنا وفي الفتح بضم السين ﴿ والله سميع ﴾ لما يقولون عند الانفاق ﴿ عليم ﴾ بما يضمرون ﴿ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر

فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الاعراب فالاعرابي اذا قيل له يا عربي فرح بذلك والعربي اذا قيل له يا اعرابي غضب والعرب أفضل من الاعراب لان المهاجرين والانصار وعلماء الدين من العرب والسبب في كون الاعراب أشد كفرا ونفاقا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأجدر ﴾ يعني واخلق وأحرى ﴿ ألا يعلموا ﴾ يعني بان لا يعلموا ﴿ حدود ما انزل الله على رسوله ﴾ يعني الفرائض والسنن والاحكام ﴿ والله عليم ﴾ يعني بما في قلوب عباده ﴿ حكيم ﴾ فيما فرض من فرائضه وأحكامه ﴿ ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ﴾ يعني لا يرجو على انفاقه ثوابا ولا يخاف على امساكه عقابا انما ينفق خوفا أو رياء والمغرم التزام ما لا يلزم والمعنى ان من الاعراب من يعتقد ان الذي ينفقه في سبيل الله غرامة لانه لا ينفق ذلك الا خوفا من المسلمين او مرآة لهم ولم يرد بذلك الانفاق وجه الله وثوابه ﴿ ويتربص ﴾ يعني وينتظر ﴿ بكم الدوائر ﴾ يعني بالدوائر تقلب الزمان وصروفه التي يأتي مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رباب يعني تقلب الزمان فيموت الرسول ويظهر المشركون ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ يعني بل يتقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون في محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودينه الا ما يسوءهم ﴿ والله سميع ﴾ يعني لاقوالهم ﴿ عليم ﴾ يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وارادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في اعراب أسد وغطفان وتميم ﴿ ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى ﴿ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ قال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وقال الكلبي هم أسلم وغفار وجهينة (ق) عن أبي هريرة قال قال

من يتخذ ما ينفق) أي يتصدق (مغرما) غرامة وخسرانا لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله وابتغاء المثوبة عنده (ويتربص بكم الدوائر) أي دوائر الزمان وتبدل الاحوال بدور الايام لتذهب غلبتكم عليه فيتخلص من اعطاء الصدقة (عليهم دائرة السوء) أي عليهم تدور المصائب والحروب التي يتوقعون وقوعها في المسلمين السوء مكي وأبو عمرو وهو العذاب والسوء بالفتح ذم للدائرة كقولك رجل سوء في مقابلة قولك رجل صدق (والله سميع) لما يقولون اذا توجهت عليهم الصدقة (عليم) بما يضمرونه (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر

غيرهم (واجدر) احرى أيضا (ألا يعلموا حدود ما انزل الله) فرائض ما انزل الله (على رسوله) في الكتاب (والله عليم) بالمنافقين (حكيم) فيما حكم عليهم بالعقوبة ويقال عليم بجهل من ترك التعلم حكيم حكم ان من لا يتعلم العلم يكون جاهلا (ومن الاعراب) يعني أسدا وغطفان (من (رسول)
يتخذ) يحتسب ما ينفق في الجهاد (مغرما) غرما (ويتربص) ينتظر (بكم الدوائر) الموت والهلاك (عليهم دائرة السوء) منقلبة السوء وعاقبة السوء (والله سميع) لمقالتهم (عليم) بعقوبتهم (ومن الاعراب) مزينة وجهينة وأسلم (من يؤمن بالله واليوم الآخر) في السر

و يتخذ ماينفق)فى الجهادو الصدقات(قربات)أسباباللقربة (عندالله) وهومفعول ثان ليتخذ(وصلوات الرسـول) اى دعاءه لانه عليه السـلام كان يدعـو للمتصدقين بالخيروالبركة ويستغفرلهم كقوله اللهم صل على آل أبى أوفى (الا أنها) ان النفقة أوصلوات الرسول (قربةلهم) قربة نافع وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كـون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه عـلى طريق الاستئناف مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنين ثبات الامر وتمكنه وكذلك (سيدخلهم الله فى رحته)جنته ومافى السين من تحقيق الوعد ومأأدل هذا الكلام على رضاالله عن المتصدقين وان الصدقة منه بمكان اذا خلصت النية من صاحبها (ان الله غفور) يستر عيب المخل (رحيم) يقبـل جهـد المقـل (والسـابقون) مبتـدأ (الاولون) صفة لهم (من المهاجرين)تبيين لهم وهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو بيعة الرضوان (والانصار)

ويتخذما ينفق قربات عندالله﴾سبب قربات وهى ثان مفعولى يتخذوعندالله صفتها أوظرف ليتخذ ﴿ وصلوات الرسول ﴾ وسبب صلواته لانه صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ولذلك سن للمتصدق عليه ان يدعو للمتصدق عند اخذ صدقته لكن ليس له ان يصلى عليه كما قال عليه الصلاة والسلام اللهم صل على آل أبى أوفى لانه منصبه فله ان يتفضل به على غيره ﴿ الا انها قربة لهم ﴾ شهادة من الله بصحة معتقدهم وتصديق لرجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه وان المحققة للنسبة والضمير لنفقتهم * وقرأ ورش قربة بضم الراء ﴿ سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ وعدلهم باحاطة الرحمة عليهم والسين لتحقيقه وقوله ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ لتقريره قيل الاولى فى اسد وغطفان وبنى تميم والثانية فى عبدالله ذى البجادين وقومه ﴿ والسابقون الاولون من المهاجرين ﴾ هم الذين صلوا الى القبلتين أوالذين شهدوا بدرا أوالذين اسلموا قبل الهجرة ﴿ والانصار ﴾ واهل بيعة العقبة الاولى وكانوا سبعة واهل بيعة العقبة الثانية

رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بنى تميم وبنى أسد وبنى عبدالله بن غطفان ومن بنى عامر بن صعصعة فقال رجل خابوا وخسروا قال نعم هم خير من بنى تميم وبنى أسد وبنى عبدالله بن غطفان ومن بنى عامر بن صعصعة وفى رواية أن الاقرع بن حابس قال للنبى صلى الله عليه وسلم انما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرأيت ان كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة خيرا من بنى تميم وبنى عامر وأسد وغطفان قال خابوا وخسروا قال نعم (ق) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها زاد مسلم فى رواية له أما انى لم أقلها لكن الله قالها (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قريش والانصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالى ليس لهم مولى دون الله ورسوله * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ويتخذ ما ينفق قربات عندالله ﴾ جمع قربة أى يطلب بما ينفق القربة الى الله تعالى ﴿ وصلوات الرسول ﴾ يعنى ويرغبون فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبى أوفى ﴿ الا انها قربة لهم ﴾ يحتمل ان يعود الضمير فى انها الى صلوات الرسول ويحتمل أن يعود الى الانفاق وكلاهما قربة لهم عندالله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عندالله وصلوات الرسول له مقبولة عندالله لان الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها قربة لهم ﴿ سيدخلهم الله فى رحمته ﴾ وهذه النعمة هى اقصى مرادهم ﴿ ان الله غفور ﴾ للمؤمنين المنفقين فى سبيله ﴿ رحيم ﴾ يعنى بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار ﴾

والعلانية (ويتخذ ما ينفق فى الجهاد (قربات عندالله) قربة الى الله فى الدرجات (وصلوات الرسول) دعاء الرسول (ألا انها) يعنى النفقة (قربة لهم) الى الله فى الدرجات (سيدخلهم الله فى رحمته) فى جنته (ان الله غفور) متجاوز (رحيم) لمن تاب (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) بالايمان الذين

وكانوا سبعين والذين آمنوا حين قدم عليهم ابو زرارة مصعب بن عمير * وقرى

اختلف العلماء في السابقين الاولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر وقال الشعبي هم اهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لانهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حميد بن زياد قلت يوما لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم واردت الفتن فقال ان الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم واوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في أي موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله ألا تقرأ والسابقون الاولون الى آخر الآية فاوجب الله الجنة لجميع اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم زاد في رواية في قوله والذين اتبعوهم باحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي ان يتبعوهم في اعمالهم الحسنة دون السيئة قال حميد فكأني لم اقرأ هذه الآية قط واختلف العلماء في أول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على ان خديجة أول الخلق اسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والصحيح أنه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اسحق ابن ابراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء الاربعة سباق الخلق الى الاسلام قال ابن اسحق فلما أسلم أبو بكر أظهر اسلامه ودعا الناس الى الله ورسوله وكان رجلا محببا سهلا وكان أنسب قريش لقريش واعلمها بما كان فيها وكان رجلا تاجرا وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو الى الاسلام من يثق به من قومه فاسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فاسلموا على يده وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق الناس الى الاسلام ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول الى الاسلام واما السابقون من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي العقبة الاولى وكانوا ستة نفر (٢) أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رياب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثنى عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الانصار ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير الى اهل المدينة يعلمهم القرآن فاسلم على

عطف على المهاجرين أي ومن الانصار وهم أهل بيعة العقبة الاولى وكانوا سبعة نفر وأهل العقبة

صلوا الى القبلتين وشهدوا بدرا

(٢) قوله ستة نفر المعدود هنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كما في المواهب وقوله في الهامش سبعة تبع فيه الكشاف وهو مخالف لما في المواهب وماهنا اه

بالرفع عطفا على والسابقون ﴿ والذين اتبعوهم باحسان ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبلتين أو من اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة ﴿ رضى الله عنهم ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء اعمالهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ بما نالوا من نعمته الدينية والدنيوية ﴿ واعدلهم جنات تجرى تحتها الانهار ﴾ وقرأ ابن كثير من تحتها الانهار كما هو فى سائر المواضع ﴿ خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم ومن حولكم ﴾ أى ومن حول بلدتكم يعنى المدينة ﴿ من الاعراب منافقون ﴾ هم جهينة ومزينة واسلم

يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقيل ان المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة والذى يدل عليه ان الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا وابقى اللفظ مجملا فلما قال تعالى من المهاجرين والانصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وانصارا وجب صرف اللفظ المجمل اليه وهو الهجرة والنصرة والذى يدل عليه أيضا أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث ان الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فانها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار ❁ قوله عز وجل ﴿ والذين اتبعوهم باحسان ﴾ قيل هم بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين فعلى هذا القول يكون الجميع من الصحابة وقيل هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والانصار فى الايمان والهجرة والنصرة الى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار فيترحون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابى فلو ان احدا وفى رواية أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه أراد بالقرن فى الحديث الاول أصحابه والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا فى مدته من الزمان فقيل من عشر سنين الى عشرين وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة والمد المذكور فى الحديث الثانى هو ربع صاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من اعمال البر والانفاق فى سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير التافه من أعمال الصحابة وانفاقهم لانهم أنفقوا وبذلوا المجهود فى وقت الحاجة ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ يعنى رضى الله عن أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة ﴿ وأعدلهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ وممن حولكم من الاعراب منافقون ﴾ ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوى والواحدى وابن الجوزى انهم من اعراب مزينة

اتبعوهم باحسان) من المهاجرين والانصار فكانوا سائر الصحابة وقيل هم الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة والخير (رضى الله عنهم) باعمالهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعدلهم) عطف على رضى (جنات تجرى تحتها الانهار) من تحتها مكى (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم وممن حولكم) يعنى حول بلدتكم وهى المدينة (من الاعراب منافقون) وهم جهينة

(والذين اتبعوهم باحسان) بأداء الفرائض واجتناب المعاصى الى يوم القيامة (رضى الله عنهم) باحسانهم (ورضوا عنه) بالثواب والكرامة (واعدلهم جنات) بساتين (تجرى تحتها) من تحت شجرها ومساكنها (الانهار) أنهار الماء والخمر والعسل واللبن (خالدين فيها) مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها (أبدا ذلك) الرضوان والجنان (الفوز العظيم) النجاة الوافرة (وممن حولكم من الاعراب) أسد وغطفان (منافقون

واشجع وغفار كانوا نازلين حولها ﴿ ومن اهل المدينة ﴾ عطف على ممن حولكم أوخبر لمحذوف صفته ﴿ مردوا على النفاق ﴾ ونظيره في حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه قوله

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى اضع العمامة تعرفوني

وعلى الاول صفة للمنافقين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر أو كلام مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهرهم في النفاق ﴿ لا تعلمهم ﴾ لا تعرفهم باعيانهم وهو تقرير لمهارتهم فيه وتنوقهم في تحامي مواقع التهم الى حد اخفى عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فراستك ﴿ نحن نعلمهم ﴾ ونطلع على اسرارهم ان قدروا أن يلبسوا عليك لم يقدروا أن يلبسوا علينا ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ بالفضيحة والقتل أو باحدهما وعذاب القبر أو باخذ الزكاة ونهك الابدان ﴿ ثم يردون الى عذاب عظيم ﴾ الى عذاب النار

وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة يعني ومن هؤلاء الاعراب منافقون وماذكروه مشكل لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فان صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى وممن حولكم من الاعراب منافقون على القليل لان لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم على الاكثر والاغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم وأما الطبري فانه أطلق القول ولم يعين احدا من القبائل المذكورة بل قال في تفسير هذه الآية من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الاعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوي ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ من الاوس والخزرج منافقون ﴿ مردوا على النفاق ﴾ فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعني مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه اذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصيته أي مرن وثبت عليها وأعتادها ولم يتب منها قال ابن اسحق لجوا فيه وابوا غيره وقال ابن زيد اقاموا عليه ولم يتوبوا منه ﴿ لا تعلمهم ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفاق الى حيث انك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الاسرار ﴿ نحن نعلمهم ﴾ يعني لكن نحن نعلمهم لانه لا تخفى علينا خافية وان دقت ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ اختلف المفسرون في العذاب الاول مع اتفاقهم على ان العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله ﴿ ثم يردون الى عذاب عظيم ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة فثبت بهذا انه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة في الدنيا ومرة في القبر ومرة في الآخرة أما المرة الاولى وهي التي اختلفوا فيها فقال الكلبي والسدي قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا في يوم جمعة فقال اخرج يافلان فانك منافق اخرج يافلان فانك منافق فاخرج من المسجد أناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثاني هو عذاب القبر فان صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لان الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعلمه بهم وقال مجاهد هذا العذاب الاول هو القتل والسبي وهذا القول ضعيف لان أحكام الاسلام في الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى أنهم عذبوا بالجوع مرتين وقال قتادة المرة الاولى هي

وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها (ومن أهل المدينة) عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم والمبتدأ منافقون ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر اذا قدرت ومن أهل المدينة قوم (مردوا على النفاق) أي تمهروا فيه على أن مردوا صفة موصوف محذوف وعلى الوجه الاول لا يخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ودل على مهارتهم فيه بقوله (لا تعلمهم) اي يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم في تحامي مايشككك في أمرهم ثم قال (نحن نعلمهم) أي لا يعلمهم الا الله ولا يطلع على سرهم غيره لانهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين (سنعذبهم مرتين) هما القتل وعذاب القبر أو الفضيحة وعذاب القبر أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم (ثم يردون الى عذاب عظيم) أي عذاب النار

ومن اهل المدينة) عبد الله ابن أبي واصحابه (مردوا) ثبتوا وجموا (على النفاق لا تعلمهم) لا تعلم نفاقهم (نحن نعلمهم) نعلم نفاقهم (سنعذبهم مرتين) مرة عند قبض أرواحهم ومرة في القبور (ثم يردون الى عذاب عظيم) عذاب جهنم

﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد لما بلغهم ما نزل فى المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له انهم اقسموا أن لا يحلوا انفسهم حتى تحلهم فقال وانا اقسم ان لا احلهم حتى

الدبيلة فى الدنيا وقد جاء تفسيرها فى الحديث بانها خراج من نار تظهر فى اكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعنى تخرج من صدورهم وقال ابن زيد الاولى هى المصائب فى الاموال والاولاد فى الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن عباس الاولى اقامة الحدود عليهم فى الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن اسحق الاولى هى ما يدخل عليهم من غيظ الاسلام ودخولهم فيه كرها غير حسبة والاخرى عذاب القبر وقيل احداهما ضرب الملائكة وجوههم وادبارهم عند قبض أرواحهم والاخرى عذاب القبر وقيل الاولى احراق مسجدهم مسجد الضرار والاخرى احراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى ثم يردون الى عذاب عظيم يعنى عذاب جهنم يخلدون فيه ❊ قوله عز وجل ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ فيه قولان أحدهما انهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم واخلصوا وحجة هذا القول ان قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الاعراب منافقون والعطف موهم ويعضده ما نقله الطبرى عن ابن عباس انه قال هم الاعراب والقول الثانى وهو قول جمهور المفسرين أنها نزلت فى جماعة من المسلمين من اهل المدينة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك واختلف المفسرون فى عددهم فروى عن ابن عباس انهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروى عنه انهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة أحدهم أبو لبابة وقيل كانوا ثلاثة أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام وذلك انهم كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون فى الضلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن انفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنا ويعذرنا فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى اومر باطلاقهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فانزل الله عز وجل هذه الآية فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فاطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امرت ان آخذ من أموالكم شيأ فانزل الله خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية وقال قوم نزلت

(وآخرون) أى قوم آخرون سوى المذكورين (اعترفوا بذنوبهم) أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ولكن اعترفوا على أنفسهم بانهم بئس ما فعلوا نادمين وكانوا عشرة فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل فى المتخلفين اوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته كلما قدم من سفر فرآهم موثقين فسأل عنهم فذكر له انهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلهم فقال وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت فاطلقهم فقالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال ما أمرت ان آخذ من أموالكم شيأ فنزل خذ من أموالهم صدقة

(وآخرون) ومن اهل المدينة قوم آخرون وديعة ابن جذام الانصارى وابو لبابة بن عبد المنذر الانصارى وأبو ثعلبة (اعترفوا) أقروا (بذنوبهم) بتخلفهم عن غزوة تبوك

اوس فيهم فنزلت فاطلقهم ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ خلطوا العمل الصالح الذى هو اظهار الندم والاعتراف بالذنب بآخر سيء هو التخلف وموافقة اهل النفاق والواو اما بمعنى الباء كما فى قولهم بعت الشاء

هذه الآية في أبي لبابة خاصة واختلفوا فى ذنبه الذى تاب منه فقال مجاهد نزلت فى أبى لبابة حين قال لبنى قريظة ان نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار الى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية وقال والله لا أحل نفسى ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه فانزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحله بيده فقال أبو لبابة يا رسول الله ان من توبتى ان أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وان أنخلع من مالى كله صدقة الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال يجزيك الثلث يا أبا لبابة قالوا جميعا فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لان الله سبحانه وتعالى قال خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم لان لفظة من تقتضى التبعيض وقال الحسن وقتادة وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتى خبرهم وأما تفسير الآية فقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال اهل المعانى الاعتراف عبارة عن الاقرار بالشيء ومعناه انهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهى انهم لم يعتذروا عن تخلفهم باعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على مافعلوا *فان قلت الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا *قلت مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فاذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضى من الذنب والعزم على تركه فى المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ قيل أراد بالعمل الصالح اقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السيء هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سائر الغزوات والسيء هو تخلفهم عنه فى غزوة تبوك وقيل ان العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسيء ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية فى حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وروى الطبرى عن أبى عثمان قال مافى القرآن آية أرجى عندى لهذه الامة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم *فان قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيء مخلوطا فما المخلوط به *قلت ان الخلط عبارة عن الجمع المطلق فاما قولك خلطته فانما يحسن فى الموضع الذى يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الاصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ذكره غالب المفسرين وانكره الامام فخر الدين الرازى وقال اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لان العمل الصالح والعمل السيء اذا حصلا معا بقى كل واحد منهما على حاله كما هو

(خلطوا عملا صالحا) خروجا الى الجهاد (وآخر سيئا) تخلفا عنه أو التوبة والاثم وهو من قولهم بعت التساء شاة ودرهما أى شاة بدرهم فالواو بمعنى الباء لان الواو للجمع والباء للالصاق فيتناسبان أو المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به كقولك خلطت الماء واللبن تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه بخلاف قولك خلطت الماء باللبن لانك جعلت الماء مخلوطا واللبن مخلوطا به واذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطا بهما كانك قلت خلطت الماء باللبن

(خلطوا عملا صالحا) خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم مرة (وآخر سيئا) تخلفوا

شاة ودرهما أو للدلالة على ان كل واحد منهما مخلوط بالآخر ﴿ عسى الله ان يتوب عليهم ﴾ ان يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله اعترفوا بذنوبهم ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه ﴿ خذ من اموالهم صدقة ﴾ روى انهم لما اطلقوا قالوا يارسول الله هذه اموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهرنا فقال ماامرت ان آخذ من اموالكم شيأ فنزلت ﴿ تطهرهم ﴾ من الذنوب اوحب المال المؤدى بهم الى مثله وقرئ تطهرهم من اطهره بمعنى طهره وتطهرهم بالجزم جوابا للامر ﴿ وتزكيهم بها ﴾ وتنمى بها حسناتهم وترفعهم الى

مذهبنا فان عندنا القول بالاحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فيه تنبيه على نفي القول بالمحابطة وانه بقي كل واحد منهما كما كان من غير ان يتأثر أحدهما بالآخر فليس الا الجمع المطلق وقال الواحدي العرب تقول خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيدا وعمرا والواو في الآية أحسن من الباء لانه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط الا ترى ان العمل الصالح لا يختلط بالسيئ كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ قال ابن عباس وجمهور المفسرين عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى فعسى الله ان يأتي بالفتح وقد فعل ذلك وقال أهل المعاني لفظة عسى هنا تفيد الطمع والاشفاق لانه أبعد من الاتكال والاهمال وقيل ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شئ بل كل ما يفعله على سبيل التفضيل والتطول والاحسان فذكر لفظة عسى التي هي للترجي والطمع حتى يكون العبد بين الترجي والاشفاق ولكن هو الى نيل ما يرجوه منه أقرب لانه ختم الآية بقوله ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ وهذا يفيد انجاز الوعد * قوله سبحانه وتعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ قال ابن عباس لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحباه فاتوا باموالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا اخذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا آخذ شيأ منها حتى أومر به فانزل الله عز وجل خذ من أموالهم صدقة الآية وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد ابن جبير وقتادة والضحاك ثم اختلف العلماء في المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم هو راجع الى هؤلاء الذين تابوا وذلك انهم بذلوا أموالهم صدقة فاوجب الله سبحانه وتعالى أخذها وصار ذلك معتبرا في كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة وأصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الواجبة وقال بعضهم ان الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن اسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذها منهم وقال بعضهم ان الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب أخذها من الاغنياء ودفعها الى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على ايجاب أخذ الزكاة أما حجة أصحاب القول الاول فانهم قالوا ان الآيات لابد وان تكون منتظمة

واللبن بالماء (عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) ولم يذكر توبتهم لانه ذكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة (خذ من أموالهم صدقة) كفارة لذنوبهم وقيل هي الزكاة (تطهرهم) عن الذنوب وهو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو لغيبة المؤنث والتاء في (وتزكيهم) للخطاب لا محالة (بها) بالصدقة والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه أو بمعنى الانماء والبركة

مرة (عسى الله) وعسى من الله واجب (ان يتوب عليهم) ان يتجاوز عنهم (ان الله غفور) لمن تاب منهم (رحيم) لمن مات على التوبة ثم بين للنبي صلى الله عليه وسلم ما يأخذ من اموالهم لقولهم خذ من أموالنا لانا تخلفنا عن غزوة تبوك لقبل الاموال فلم يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين الله له فقال (خذ من أموالهم) اموال المتخلفين (صدقة) ثلثا (تطهرهم) من الذنوب (وتزكيهم بها) تصلحهم بها

متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها ولان جمهور المفسرين ذكروا فى سبب نزولها انها نزلت فى شأن التائبين وأما أصحاب القول الاخير فانهم قالوا المناسبة حاصلة أيضا على هذا التقدير وذلك أنهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا أن السبب الموجب للتخلف هو حب المال أمروا باخراج الزكاة التى هى طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فان قالوا ان الزكاة قدر معلوم لا يبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم قلنا لا يمنع هذا صحة ما قلناه لأنهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلأن يكونوا راضين باخراج الزكاة أولى ثم فى هذه الآية أحكام * الاول قوله سبحانه وتعالى خذ من أموالهم صدقة الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم أى خذ يا محمد من أموالهم صدقة فكان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الائمة فيجوز للامام أو نائبه ان يأخذ الزكاة من الاغنياء ويدفعها الى الفقراء * الحكم الثانى قوله من أموالهم ولفظة من تقتضى التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق الا الصدقة التى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها وصفتها فى اخذ الزكاة * الحكم الثالث ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة فى جميع المال حتى فى الديون وفى مال الركاز * الحكم الرابع ظاهر قوله تطهرهم ان الزكاة انما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لا يمكن حصولها الا من البالغ دون الصبى فوجب ان تجب الزكاة فى مال البالغ دون الصبى وهذا قول أبى حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعى بانه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقا * وللعلماء فى قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال * الاول أن معناه خذ يا محمد من أموالهم صدقة فانك تطهرهم باخذها من دنس الآثام * القول الثانى أن يكون تطهرهم متعلقا بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فانها طهرة لهم وانما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء ان الصدقة من أوساخ الناس فاذا اخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الاوساخ وكان ذلك الاندفاع جاريا مجرى التطهير فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها منقطعا عن قوله تطهرهم ويكون التقدير خذ يا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها * القول الثالث أن تجعل التاء فى قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم أنت يا محمد بأخذها منهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة * القول الرابع أن معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعنى ترفع منازلهم عن منازل المنافقين الى منازل الابرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أى تنمى أموالهم ببركة أخذها منهم * الحكم الخامس قوله سبحانه وتعالى ﴿ وصل عليهم ﴾ يعنى ادع لهم واستغفر لهم لان أصل الصلاة فى اللغة الدعاء قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه السنة للامام اذا اخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق فيقول آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت وقال بعضهم يجب على الامام ان يدعو للمتصدق وقال بعضهم يستحب ذلك وقيل يجب فى صدقة الفرض ويستحب فى صدقة التطوع وقيل يجب على الامام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطى وقال

فى المال (وصل عليهم) واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم والسنة ان يدعو المصدق لصاحب الصدقة اذا أخذها

(وصل عليهم) استغفر لهم وادع لهم

﴿ان صلواتك سكن لهم ﴾ تسكن اليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم وجمعها لتعدد المدعو لهم *وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالتوحيد ﴿ والله سميع ﴾ باعترافهم ﴿ عليم ﴾ بندامتهم ﴿ ألم يعلموا ﴾ الضمير اما للمتوب عليهم والمراد ان يمكن فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما ﴿ ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ اذا صحت وتعديته بعن لتضمنه معنى التجاوز ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيأ ليؤدى بدله

بعضهم يستحب أن يقول اللهم صل على فلان ويدل عليه ماروى عن عبدالله بن أبى أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال كان النبى صلى الله عليه سلم اذا أتاه قوم بصدقة قال اللهم صل عليهم فأتاه أبو اوفى بصدقته فقال اللهم صل على آل أبى أوفى أخرجاه فى الصحيحين * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ان صلوتك ﴾ وقرئ صلواتك على الجمع ﴿ سكن لهم ﴾ يعنى أن دعاءك رحمة لهم وقال ابن عباس طمأنينة لهم وقال ان الله قد قبل منهم وقال أبو عبيدة تثبيت لقلوبهم وقيل ان السكن ما سكنت اليه النفس والمعنى ان صلواتك توجب سكون نفوسهم اليها والمعنى ان الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم ﴿ والله سميع ﴾ يعنى لاقوالهم أو لدعائك لهم ﴿ عليم ﴾ يعنى بنياتهم ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ هذه صيغة استفهام الا أن المقصود منه التقرير فبشر الله عزوجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم هؤلاء الذين تابوا ان الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة وقيل ان المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة وبذل الصدقات وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فانزل الله هذه الآية ترغيبا لهم فى التوبة وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل لا فرق بين عن عباده ومن عباده اذ لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك أو منك وقيل بينهما فرق ولعل عن فى هذا الموضع أبلغ لان فيه تبشيرا بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ يعنى يقبلها ويثيب عليها وانما ذكر لفظ الاخذ ترغيبا فى بذل الصدقة واعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها ولما كان هو المجازى عليها والمثيب بها أسند الاخذ الى نفسه وان كان الفقير او السائل هو الآخذ لها وفى هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وان الله سبحانه وتعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله لفظ مسلم * وفى البخارى من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد الى الله الا الطيب وفى رواية ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل *وأخرجه الترمذى ولفظه ان الله سبحانه وتعالى

(ان صلوتك) اى صلاتك كو فى غير أبى بكر قيل الصلاة كثر من الصلوات لانها للجنس (سكن لهم) يسكنون اليه وتطمئن قلوبهم بان الله قد تاب عليهم (والله سميع) لدعائك أو سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم (عليم) بما فى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم (ألم يعلموا) المراد المتوب عليهم أى ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم (ان الله هو يقبل التوبة عن عباده) اذا صحت (ويأخذ الصدقات) ويقبلها اذا صدرت عن خلوص النية وهو للتخصيص أى ان ذلك ليس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الله هو الذى يقبل التوبة ويردها

(ان صلوتك) استغفارك ودعاءك (سكن لهم) طمأنينة لقلوبهم بان تقبل توبتهم (والله سميع) لمقالتهم خذ منا أموالنا (عليم) بتوبتهم ونيتهم (ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده) من عباده (ويأخذ الصدقات) ويقبل الصدقات

فاقصدوه بها ووجهوها اليه (وأن الله هو التواب) كثير قبول التوبة (الرحيم) بعفو الحوبة (وقل) لهؤلاء التائبين (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أى فان عملكم لايخفى خيرا كان أو شرا على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم أو غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة فقد روى انه لما تيت عليهم قال الذين لم يتوبوا هؤلاء الذين تابوا كانوا بالامس معنا لايكلمون ولايجالسون فما لهم فنزلت وقوله تعالى فسيرى الله وعيد لهم وتحذير من عاقبة الاصرار والذهول عن التوبة (وستردون الى عالم الغيب) مايغيب عن الناس (والشهادة) مايشاهدونه (فينبئكم بما كنتم تعملون) تنبئة تذكير ومجازاة عليه (وآخرون مرجؤن لامر الله) غيرهم مدنى وكوفى غير أبى بكر مرجؤن غيرهم من أرجيته وأرجأته اذا أخرته ومنه المرجئة أى وآخرون من المتخلفين موقوفون الى أن يظهر

﴿ وان الله هو التواب الرحيم ﴾ وان من شانه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم ﴿ وقل اعملوا ﴾ ماشئتم ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ فانه لايخفى عليه خيرا كان أو شرا ﴿ ورسوله والمؤمنون ﴾ فانه تعالى لايخفى عنهم كما رأيتم وتبين لكم ﴿ وستردون الى عالم الغيب والشهادة ﴾ بالموت ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بالمجازاة عليه ﴿ وآخرون ﴾ من المتخلفين ﴿ مرجؤن ﴾ مؤخرون أى موقوف امرهم من ارجأته اذا اخرته وقرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص مرجون بالواو وهما لغتان ﴿ لامر الله ﴾

يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لاحدكم كما يربى أحدكم فلوه حتى اللقمة لتصير مثل جبل أحد وتصديق ذلك فى كتاب الله سبحانه وتعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربوا ويربى الصدقات * وقوله من كسب طيب أى حلال وذكر اليمين والكف فى الحديث كناية عن قبول الصدقة وان الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطى لان من عادة الفقير أو السائل أخذ الصدقة بكفه اليمين فكان المتصدق قد وضع صدقته فى القبول والاثابة وقوله فتربو أى تكبر يقال ربا الشئ يربو اذا زاد وكبر والفلو بضم الفاء وفتحها لغتان المهر اول مايولد والفصيل ولد الناقة الى أن ينفصل عنها * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وان الله هو التواب الرحيم ﴾ تأكيد لقوله سبحانه وتعالى ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده وتبشير لهم بان الله هو التواب الرحيم * قوله عز وجل ﴿ وقل ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء التائبين ﴿ اعملوا ﴾ يعنى لله بطاعته وأداء فرائضه ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا فى العمل فى المستقبل فان الله تعالى يرى اعمالكم ويجازيكم عليها ﴿ ورسوله والمؤمنون ﴾ يعنى ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أعمالكم أيضا اما رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على اعمالكم وأما رؤية المؤمنين فبما يقذف الله عز وجل فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين ﴿ وستردون الى عالم الغيب والشهادة ﴾ يعنى وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولايخفى عليه شئ من بواطنكم وظواهركم ﴿ فينبئكم ﴾ أى فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يعنى فى الدنيا من خير أو شر فيجازيكم على اعمالكم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وآخرون مرجون ﴾ أى مؤخرون والارجاء التأخير ﴿ لامر الله ﴾ يعنى لحكم الله فيهم قال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى قسم المختلفين على ثلاثة أقسام أولهم المنافقون وهم الذى مردوا على النفاق واستمروا عليه * والقسم الثانى التائبون وهم الذى سارعوا الى التوبة بعدما اعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة وأصحابه فقبل الله توبتهم * والقسم الثالث موقوفون ومؤخرون الى ان يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله وآخرون مرجون لامر الله والفرق بين القسم الثانى والقسم الثالث ان القسم الثانى سارعوا الى التوبة

(وان الله هو التواب) المتجاوز (الرحيم) لمن تاب (وقل) لهم يا محمد (اعملوا) خيرا بعد التوبة (فسيرى الله عملكم ورسوله) ويرى الله ورسوله (والمؤمنون) ويرى المؤمنون (وستردون) بعد الموت (الى عالم الغيب) ماغاب عن العباد ويقال مايكون (والشهادة) ماعلمه العباد ويقال ما كان (فينبئكم) يخبركم (بما كنتم تعملون) وتقولون من الخير والشر (فقبل الله) (وآخرون) وقوم آخرون من أهل المدينة كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال أمية (مرجون لامر الله) موقوفون محبوسون

أمر الله فيهم (امايعذبهم) ان أصروا ولم يتوبوا (واما يتوب عليهم) ان تابوا وهم ثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومراوة بن الربيع والضابط مكة تخلفوا عن غزوة تبوك وهم الذين ذكروا فى قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا (والله عليم) برجائهم (حكيم) فى ارجائهم واما للشك وهو راجع الى العباد أى خافوا عليهم العذاب وأرجوا لهم الرحمة وروى انه عليه السلام أمر أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفسهم على السوارى واظهار الجزع والغم فلما علموا أن أحدا لا ينظر اليهم فوضوا أمرهم الى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله (والذين اتخذوا مسجدا) تقديره ومنهم الذين اتخذوا الذين بغير واو مدنى وشامى وهو مبتدأ خبره محذوف أى جازيناهم روى ان بنى عمرو ابن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأتيهم فاتاهم فصلى فيه فحسدتهم اخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل الى رسول الله يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب اذا قدم من الشأم وهو الذى قال لرسول الله عليه السلام يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله الى يوم حنين فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة ونحن نحب ان تصلى لنا فيه فقال انى على جناح سفر واذا قدمنا من تبوك (قا و خا ٢٥ لث) ان شاء الله صلينا فيه فلما قفل من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فقال لوحشى قاتل حمزة ومعن بن عدى وغيرهما انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام (ضرارا) مفعول له وكذا ما بعده أى مضارة لاخوانهم أصحاب مسجد قباء (وكفرا)

فى شأنهم ﴿ امايعذبهم ﴾ ان اصروا على النفاق ﴿ واما يتوب عليهم ﴾ ان تابوا والترديد للعباد وفيه دليل على ان كلا الامرين بارادة الله تعالى ﴿ والله عليم ﴾ باحوالهم ﴿ حكيم ﴾ فيما يفعل بهم * وقرئ والله غفور رحيم والمراد بهؤلاء كعب ابن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع امر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اصحابه ان لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم فلما رأوا ذلك اخلصوا نياتهم وفوضوا امرهم الى الله فرحمهم الله تعالى ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ﴾ عطف على وآخرون مرجون أو مبتدأ خبره محذوف أى وفيمن وصفنا الذين اتخذوا أو منصوب على الاختصاص * وقرأ نافع وابن عامر بغير واو ﴿ ضرارا ﴾ مضارة للمؤمنين روى ان بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه سلم ان يأتيهم فاتاهم فصلى فيه فحسدتهم اخوانهم بنو غنم بن عوف فبنوا مسجدا على قصد ان يؤمهم فيه ابو عامر الراهب اذا قدم من الشام فلما اتموه اتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا انا قد بنينا مسجدا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة والشاتية فصل فيه حتى نتخذه مصلى فاخذ ثوبه ليقوم معهم فنزلت فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن والوحشى فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم اهله فاهدموه واحرقوه ففعل واتخذ مكانه كناسة ﴿ وكفرا ﴾

فقبل الله توبتهم والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا الى التوبة فاخر الله أمرهم نزلت هذه الآية فى الثلاثة الذين تخلفوا وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وستأتى قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك انهم لم يبالغوا فى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ اما يعذبهم واما يتوب عليهم ﴾ يعنى أن أمرهم الى الله تعالى ان شاء عذبهم بسبب تخلفهم وان شاء غفر لهم وعفا عنهم ﴿ والله عليم ﴾ يعنى بما فى قلوبهم ﴿ حكيم ﴾ يعنى بما يقضى عليهم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا ﴾

أنفسهم لامر الله (امايعذبهم) بتخلفهم عن غزوة تبوك (واما يتوب عليهم) يتجاوز عنهم بتخلفهم (والله عليم) بتوبتهم وتخلفهم (حكيم) فيما حكم عليهم (والذين اتخذوا) بنوا (مسجد) عبد الله بن أبى وجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهم نحو سبعة عشر رجلا (ضرار) مضرة للمؤمنين (وكفرا) فى قلوبهم

وتقوية للكفر الذى يضمرونه ﴿ وتفريقا بين المؤمنين ﴾ يريد الذين كانوا يجتمعون للصلاة فى مسجد قباء ﴿ وارصادا ﴾ ترقبا ﴿ لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ يعنى الراهب فانه قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم احد لا اجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله الى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب الى الشام ليأتى من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومات بقنسرين وحيدا وقيل كان يجمع الجيوش يوم الاحزاب فلما انهزموا خرج الى الشام و من قبل متعلق بحارب أو باتخذوا أى اتخذوا مسجدا من قبل ان ينافق هؤلاء بالتخلف لما روى انه بنى قبيل غزوة تبوك فسألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان يأتيه فقال انا

نزلت فى جماعة من المنافقين بنوا مسجدا يضارون به مسجد قباء وكانوا اثنى عشر رجلا من أهل النفاق وديعة بن ثابت وخذام بن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الاذعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبحزج بنوا هذا المسجد ضرارا يعنى مضارة للمؤمنين وكفرا يعنى ليكفروا فيه بالله ورسوله ﴿ وتفريقا بين المؤمنين ﴾ لانهم كانوا جميعا يصلون فى مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم فيؤدى ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلى بهم فيه مجمع بن جارية وكان شابا يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز الى تبوك فقالوا يارسول الله انا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وانا نحب أن تأتينا وتصلى فيه وتدعو بالبركة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى على جناح سفر ولو قدمنا ان شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا فيه * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وارصادا لمن حارب الله ورسوله ﴾ يعنى انهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه ارصادا يعنى انتظارا واعدادا لمن حارب الله ورسوله ﴿ من قبل ﴾ يعنى من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذى جئت به فقال له النبى صلى الله عليه وسلم جئت بالحنيفية دين ابراهيم فقال أبو عامر فانا عليها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم انك لست عليها قال أبو عامر بلى ولكنك أدخلت فى الحنيفية ما ليس منها فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمين

وتقوية للنفاق (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا يصلون مجتمعين فى مسجد قباء فارادوا ان يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم (وارصادا لمن) واعدادا لاجل من (حارب الله ورسوله) وهو الراهب أعدوه له ليصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مسجد بنى مباهاة أو رياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار (من قبل) متعلق بحارب أى من قبل بناء هذا المسجد يعنى يوم الخندق

ثباتا على كفرهم يعنى النفاق (وتفريقا بين المؤمنين) لكى يصلى طائفة فى مسجدهم وطائفة فى مسجد الرسول (وارصادا) انتظارا (لمن حارب الله ورسوله) لمن كفر بالله ورسوله (من قبل) من قبلهم أبو عامر الراهب الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسقا

على جناح سفر واذا قدمنا ان شاء الله صلينا فيه فلما قفل كر عليه فنزلت ﴿ وليحلفن ان اردنا الا الحسنى ﴾ ما اردنا ببنائه الا الخصلة الحسنى او الارادة الحسنى وهى الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿ والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ فى حلفهم ﴿ لا تقم فيه ابدا ﴾

وسماه الناس أبا عامر الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر الفاسق للنبى صلى الله عليه وسلم لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس أبو عامر وخرج هاربا الى الشام وأرسل الى المنافقين ان استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لى مسجدا فانى ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فاخرج محمدا واصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء فذلك قوله سبحانه وتعالى وارصادا يعنى انتظارا لمن حارب الله ورسوله يعنى أبا عامر الفاسق ليصلى فيه اذا رجع من الشام من قبل يعنى ان أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار ﴿ وليحلفن ﴾ يعنى الذين بنوا المسجد ﴿ ان أردنا ﴾ يعنى ما أردنا ببنائه ﴿ الا الحسنى ﴾ يعنى الا الفعلة الحسنى وهى الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة فى مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ يعنى فى قيلهم وخلفهم روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما انصرف من تبوك راجعا نزل بذى أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه ان يأتى مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية وأخبره خبر مسجد الضرار وماهموا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك أنظرونى حتى أخرج اليكم بنار فدخل أهله فأخذ من سعف النخل فاشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فاحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام غريبا وحيدا وروى ان بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب فى خلافته فسألوه ان يأذن لمجمع بن جارية ان يؤمهم فى مسجدهم فقال لا ونعمة عين أليس هو امام مسجد الضرار فقال مجمع ياأمير المؤمنين لا تعجل على فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤن فصليت بهم ولا أحسب الا أنهم يتقربون الى الله ولم أعلم ما فى أنفسهم فعذره عمر فصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء قال عطاء لما فتح الله على عمر بن الخطاب الامصار أمر المسلمين ان يبنوا المساجد وامرهم ان لا يبنوا فى موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ قال ابن عباس معناه لا تصل فيه أبدا منع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ان يصلى فى مسجد الضرار

(وليحلفن) كاذبين (ان اردنا الا الحسنى) ما أردنا ببناء هذا المسجد الا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين (والله يشهد انهم لكاذبون) فى حلفهم (لا تقم فيه أبدا) للصلاة

(وليحلفن ان أردنا) ما أردنا ببناء المسجد (الا الحسنى) الا الاحسان الى المؤمنين لكى يصلى فيه من فاتته صلاته فى مسجد قباء (والله يشهد) يعلم (انهم لكاذبون) فى حلفهم (لا تقم فيه) لا تصل فى مسجد الشقاق (أبدا

للصلاة ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ يعنى مسجد قباء اسسه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصلى فيه ايام مقامه بقباء من الاثنين الى الجمعة لانه اوفق للقصة أو مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقول ابى سعيد رضى الله تعالى عنه سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنه فقال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة ﴿من اول يوم﴾ من ايام وجوده ومن يعم الزمان والمكان كقوله

لمن الديار بقنة الحجر * اقوين من حجج ومن دهر

﴿احق ان تقوم فيه﴾ اولى بان تصلى فيه ﴿فيه رجال يحبون ان يتطهروا﴾ من المعاصى والخصال

﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ اللام فيه لام الابتداء وقيل لام القسم تقديره والله مسجد أسس يعنى بنى أصله ووضع أساسه على التقوى يعنى على تقوى الله عز وجل ﴿من أول يوم﴾ يعنى من اول يوم بنى ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى ﴿أحق ان تقوم فيه﴾ يعنى مصليا واختلفوا فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى مسجد المدينة ويدل عليه ماروى عن أبى سعيد الخدرى قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه فقلت يارسول الله أى المسجدين أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصى فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة أخرجه مسلم (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة * عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان قوائم منبرى هذا رواتب فى الجنة أخرجه النسائى * قوله رواتب يعنى ثوابت يقال رتب بالمكان اذا قام فيه وثبت * وفى رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة انه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين ويدل على انهم أهل قباء ماروى عن أبى هريرة قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم اخرجه ابو داود والترمذى وقال حديث غريب هكذا ذكره صاحب جامع الاصول برواية ابى داود والترمذى موقوفا على ابى هريرة ورواه البغوى من طريق ابى داود مرفوعا عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية فى اهل قباء فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ماروى عن ابن عمر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يزور قباء او يأتى قباء راكبا وماشيا زاد فى رواية فيصلى فيه ركعتين وفى رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى مسجد قباء كل سبت راكبا وماشيا وكان ابن عمر يفعله أخرج الرواية الاولى والزيادة البخارى ومسلم واخرج الرواية الثانية البخارى عن سهل بن حنيف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج حتى يأتى هذا المسجد مسجد قباء فيصلى فيه كان له كعدل عمرة أخرجه النسائى عن اسد بن ظهير ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الصلاة فى مسجد قباء كعمرة أخرجه الترمذى * وقوله سبحانه وتعالى ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ يعنى من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول اكثر المفسرين قال عطاء والماء كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبرى بسنده

(لمسجد أسس على التقوى) اللام للابتداء وأسس نعت له وهو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة (من أول يوم) من أيام وجوده قيل القياس فيه مذ لانه لابتداء الغاية فى الزمان ومن لابتداء الغاية فى المكان والجواب ان من عام فى الزمان والمكان (أحق أن تقوم فيه) مصليا (فيه رجال يحبون أن يتطهروا

لمسجد) وهو مسجد قباء (أسس على التقوى) بنى على طاعة الله وذكره (من أول يوم) دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ويقال أول مسجد بنى بالمدينة (أحق) أصوب (ان تقوم) تصلى (فيه) فى مسجد قباء (فيه رجال يحبون ان يتطهروا) ان يغسلوا ادبارهم بالماء

والله يحب المطهرين) قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقفوا على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه السلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون في الرخاء قالوا نعم قال عليه السلام مؤمنون أنتم ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر الانصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يارسول الله نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا النبي عليه السلام رجال يحبون أن يتطهروا قيل هو عام في التطهر عن النجاسات كلها وقيل هو التطهر من الذنوب بالتوبة ومعنى محبتهم للتطهر انهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشئ ومعنى محبة الله اياهم انه يرضى عنهم ويحسن اليهم كما يفعل المحب بمحبوبه (أفمن أسس بنيانه) وضع أساس ما يبنيه (على تقوى من الله ورضوان خير أم من اسس بنيانه على شفا جرف هار) هذا سؤال تقرير و جوابه مسكوت عنه

المذمومة طلبا لمرضاة الله وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها ﴿والله يحب المطهرين﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى ادناء المحب حبيبه قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال عليه الصلاة والسلام أمؤمنون انتم فسكتوا فاعادها فقال عمر انهم مؤمنون وانا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون في الرخاء قالوا فقال نعم عليه الصلاة والسلام انتم مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يامعشر الانصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يارسول الله نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا فيه رجال يحبون ان يتطهروا ﴿أفمن اسس بنيانه﴾ بنيان دينه ﴿على تقوى من الله ورضوان خير﴾ على قاعدة محكمة هي التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة ﴿أم من اسس بنيانه على شفا جرف هار﴾

عن عويمر بن ساعدة وكان من أهل بدر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهل قباء انى اسمع الله عز وجل قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما هذا الطهور قالوا يارسول الله ما نعمل شيأ الا أن جيرانا لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وعن قتادة قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء ان الله سبحانه وتعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما تصنعون قالوا أنا نغسل عنا أثر الغائط والبول وقال الامام فخر الدين الرازي المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصي وهذا القول متعين لوجوه * الاول ان التطهر من الذنوب هو المؤثر في القرب من الله عز وجل واستحقاق ثوابه ومدحه * الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعني أهل قباء بالضد من صفاتهم وما ذاك الا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصي وهي الطهارة الباطنية * الوجه الثالث ان طهارة الظاهر انما يحصل لها أثر عند الله اذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصي وقيل يحتمل انه محمول على كلا الامرين يعني طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي وطهارة الظاهر من الاحداث والنجاسات بالماء ﴿والله يحب المطهرين﴾ فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لانفسهم من المداومة على محبة الطهارة * قوله سبحانه وتعالى ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان﴾ يعني طلب ببنائه المسجد الذي بناه تقوى الله ورضاه والمعنى ان الباني لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه ﴿خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾ الشفا هو

(والله يحب المطهرين) بالماء من الادناس (أفمن اسس بنيانه) بنى اساسه (على تقوى من الله) على طاعة الله وذكره (ورضوان) بنوا ارادة رضوان ربهم وهو مسجد قباء (خير أم من اسس بنيانه) بنى أساسه وهو مسجد الشقاق (على شفا جرف) على طرف هوى وليس له أصل (هار) غار

لوضوحه والمعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وهى تقوى الله ورضوانه خير ام من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار فى قلة الثبات والاستمساك وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى لانه جعل مجازا عما ينافى التقوى والشفا الجرف والشفير وجرف الوادى جانبه الذى يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا والهار الهائر وهو المتصدع الذى أشفى على التهدم والسقوط ووزنه فعل قصر عن فاعل كخلف من خالف وألفه ليس بالف فاعل انما هى عينه واصله هور فقلبت ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها ولاترى أبلغ من هذا الكلام ولا ادل على حقيقة الباطل وكنه أمره أفمن أسس بنيانه أمن أسس بنيانه شامى ونافع جرف شامى وحمزة ويحيى هار بالامالة أبو عمرو وحمزة فى رواية ويحيى (فانهار به فى نار جهنم) فطاح به الباطل فى نار جهنم ولما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل رشح المجاز فجئ بلفظ الانهيار الذى هو للجرف وليصور ان المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى فى قعرها قال جابر رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار (والله لايهدى القوم الظالمين) لايوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم (لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة (يعنى)

على قاعدة هى اضعف القواعد وارخاها ﴿فانهار به فى نار جهنم﴾ فأدى به لخوره وقلة استمساكه الى السقوط فى النار وانما وضع شفا الجرف وهو ماجرفه الوادى الهائر فى مقابلة التقوى تمثيلا لما بنوا عليه امر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس ثم رشحه بانهياره به فى النار ووضعه فى مقابلة الرضوان تنبيها على ان تأسيس ذلك على امر يحفظه من النار ويوصله الى رضوان الله ومقتضياته التى الجنة ادناها وتأسيس هذا على ماهم بسببه على صدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم ان مصيرهم الى النار لامحالة * وقرأ نافع وابن عامر اسس على البناء للمفعول * وقرئ اساس بنيانه واس بنيانه على الاضافة واسس وآساس بالفتح والمد واساس بالكسر وثلاثتها جمع اس وتقوى بالتنوين على ان الالف للالحاق لاللتأنيث كتترى * وقرأ ابن عامر وحمزة وابو بكر جرف بالتخفيف ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ الى مافيه صلاحهم ونجاتهم ﴿لايزال بنيانهم الذى بنوا﴾ بناؤهم الذى بنوه مصدر اريد به المفعول وليس بجمع ولذلك قدتدخله التاء ووصف بالمفرد واخبر عنه بقوله ﴿ريبة

الشفير وشفا كل شئ حرفه ومنه يقال أشفى على كذا اذا دنا منه وقرب ان يقع فيه والجرف المكان الذى أكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب وقال أبو عبيد الجرف هو الهوة ومايجرفه السيل من الاودية فيحفر بالماء فيبقى واهيا هار أى هائر وهو ساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل من هار يهار اذا تهدم وسقط وهو الذى تداعى بعضه فى أثر بعض كما يهار الرمل والشئ الرخو ﴿فانهار به﴾ يعنى سقط بالبانى ﴿فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين﴾ والمعنى ان بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور باهله فيها وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى المثل أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتا وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل بناء على غير أساس ثابت وهو شفا جرف هار واذا كان كذلك كان أسرع الى السقوط فى نار جهنم ولان البانى الاول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء والبانى الثانى قصد ببنائه الكفر والنفاق واضرار المسلمين فكان بناؤه أخس البناء وكانت عاقبته الى نار جهنم قال ابن عباس صيرهم نفاقهم الى النار وقال قتادة والله ماتناهى بناؤهم حتى وقع فى النار ولقد ذكرلنا انه حفرت بقعة منه فرؤى الدخان يخرج منها وقال جابر بن عبدالله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار ﴿لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة﴾

(فانهار به) فغار به يعنى بانيه (فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين) لايغفر للمنافقين ولايحبهم (لايزال بنيانهم) بعدماهدمت (الذى بنوا ريبة)

فى قلوبهم) لايزال هدمه سبب شك و نفاق زائد على شكهم و نفاقهم لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم (الا ان تقطع قلوبهم) شامى وحمزة وحفص أى تتقطع غيرهم تقطع أى الا أن تقطع قلوبهم قطعا و تفرق أجزاء فحينئذ يسئلون عنه وأما مادامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة ثم يجوز أن يكون ذكر التقطع تصوير الحال زوال الريبة عنها و يجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم او فى القبور أو فى النار أو معناه الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما واسفا على تفريطهم (والله عليم) بعزائمهم (حكيم) فى جزاء جرائمهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) مثل الله اثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله بالشراء وروى تاجرهم فاغلى لهم الثمن وعن الحسن

فى قلوبهم ﴾ اى شكا ونفاقا والمعنى ان بنيانهم هذا لايزال سبب شكهم وتزائد نفاقهم فانه حملهم على ذلك ثم لما هدمه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم رسخ ذلك فى قلوبهم وازداد بحيث لايزول وسمه عن قلوبهم ﴿ الا ان تقطع قلوبهم ﴾ قطعا بحيث لايبقى لها قابلية الادراك والاضمار وهو فى غاية المبالغة والاستثناء من اعم الازمنة وقيل المراد بالتقطع ماهو كائن بالقتل أو فى القبر أو فى النار وقيل التقطع بالتوبة ندما واسفا ❊ وقرأ يعقوب الى بحرف الانتهاء وتقطع بمعنى تتقطع وهو قراءة ابن عامر وحمزة وحفص ❊ وقرئ يقطع بالياء ويقطع بالتخفيف وتقطع قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب ولو قطعت وقطعت على البناء للفاعل او المفعول ﴿ والله عليم ﴾ بنياتهم ﴿ حكيم ﴾ فيما امر بهدم بنيانهم ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ﴾ تمثيل

يعنى شكا و نفاقا ﴿ فى قلوبهم ﴾ والمعنى ان ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة فى قلوبهم لان المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازدادوا غما وحزنا وبغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك سبب الريبة فى قلوبهم وقيل انهم كانوا يحسبون انهم محسنون فى بنائه كما حبب العجل الى بنى اسرائيل فلما أمر رسول صلى الله عليه وسلم بتخريبه بقوا شاكين مرتابين لأى سبب أمر بتخريبه و قال السدى لايزال هدم بنيانهم ريبة أى حزازة وغيظا فى قلوبهم ﴿ الا أن تقطع قلوبهم ﴾ أى تجعل قلوبهم قطعا وتفرق أجزاء اما بالسيف واما بالموت والمعنى ان هذه الريبة باقية فى قلوبهم الى أن يموتوا عليها ﴿ والله عليم ﴾ يعنى باحوالهم وأحوال جميع عباده ﴿ حكيم ﴾ يعنى فيما حكم به عليهم ❊ قوله عزوجل ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ﴾ الآية قال محمد بن كعب القرظى لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلا قال عبدالله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال اشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيأ وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا اذا فعلنا ذلك فمالنا قال الجنة قالوا ربح البيع لانقيل ولانستقيل فنزلت ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة قال ابن عباس بالجنة قال أهل المعانى لايجوز أن يشترى الله شيأ هو له فى الحقيقة لان المشترى انما يشترى مالايملك والاشياء كلها ملك لله عزوجل ولهذا قال الحسن أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا اياها لكن جرى هذا مجرى التلطف فى الدعاء الى الطاعة والجهاد وذلك لان المؤمن اذا قاتل فى سبيل الله حتى يقتل أو أنفق ماله فى سبيل الله عوضه الله الجنة فى الآخرة جزاء عما فعل فى الدنيا فجعل ذلك استبدالا واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بان لهم الجنة والمراد باشتراء الاموال انفاقها فى سبيل الله وفى جميع

حسرة ندامة (فى قلوبهم الاان تقطع قلوبهم) الاان يموتوا (والله عليم) بنيانهم مسجد الضرار وبنيانهم (حكيم) فيما حكم من هدم مسجدهم وحرقه بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من غزوة تبوك عامر بن قيس ووحشيا مولى مطعم بن عدى حتى أحرقاه وهدماه (ان الله اشترى من المؤمنين)المخلصين(أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة) بالجنة

أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم اعرابي وهو يقرؤها فقال بيع والله مربح لانقيله ولانستقيله فخرج الى الغزو واستشهد (يقاتلون في سبيل الله) بيان محل التسليم (فيقتلون ويقتلون) أي تارة يقتلون العدو وطورا يقتلهم

العدو فيقتلون ويقتلون حمزة وعلي (وعدا عليه)

لاثابة الله اياهم الجنة على بذل انفسهم واموالهم في سبيله ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ استئناف ببيان مالاجله الشراء وقيل يقاتلون في معنى الامر وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول وقد عرفت ان الواو لا توجب الترتيب وان فعل البعض قد يسند الى الكل ﴿ وعدا عليه حقا ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء فانه في معنى الوعد ﴿ في التورية والانجيل والقرآن ﴾ مذكور فيهما كما اثبت في القرآن ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ مبالغة في الانجاز وتقرير لكونه حقا ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فانه اوجب لكم عظائم المطالب كما قال ﴿ وذلك هو الفوز العظيم التائبون ﴾ رفع على المدح أي هم التائبون والمراد بهم المؤمنون المذكورون ويجوز ان يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره التائبون من اهل الجنة وان لم يجاهدوا لقوله وكلا وعد الله الحسنى أو خبره مابعده أي التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال

وجوه البر والطاعة ﴿ يقاتلون في سبيل الله ﴾ هذا تفسير لتلك المبايعة وقيل فيه معنى الامر أي قاتلوا في سبيل الله ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ يعني فيقتلون أعداء الله ويقتلون في طاعة الله وسبيله ﴿ وعدا عليه حقا ﴾ يعني ذلك الوعد بان لهم الجنة وعد على الله حقا ﴿ في التورية والانجيل والقرآن ﴾ يعني ان هذا الوعد الذي وعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثبته في التوراة والانجيل كما أثبته في القرآن وفيه دليل على ان الامر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ يعني لا أحد أوفى بالعهد من الله فاستبشروا ﴿ ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ يعني فاستبشروا وايها المؤمنون بهذا البيع الذي بايعتم الله به ﴿ وذلك ﴾ يعني هذا البيع ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ لانه رابح في الآخرة قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا الى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال ان الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا فاشترى الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فاغلى لهم ۞ قوله سبحانه وتعالى ﴿ التائبون ﴾ قال الفراء استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الاولى وانقطاع الكلام وقال الزجاج التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر والمعنى التائبون الى آخره لهم الجنة أيضا وان لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين لترك الجهاد وهذا وجه حسن فكانه وعد بالجنة جميع المؤمنين كما قال تعالى وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعا للاول كان الوعد بالجنة خاصا بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات فيكون رفع التائبون على المدح يعني المؤمنين المذكورين في قوله ان الله اشترى ۞ وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعني الذين تابوا من الشرك وبرؤا من النفاق وقيل التائبون من كل معصية فيدخل التوبة من الكفر والنفاق فيه

مصدر أي وعدهم بذلك وعدا (حقا) صفته أخبر بان هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته (في التورية والانجيل والقرآن) وهو دليل على ان اهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه ثم قال (ومن أوفى بعهده من الله) لان اخلاف الميعاد قبيح لايقدم عليه الكريم منا فكيف باكرم الاكرمين ولاترى ترغيبا في الجهاد أحسن منه وأبلغ (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) فافرحوا به غاية الفرح فانكم تبيعون فانيا بباق (وذلك هو الفوز العظيم) قال الصادق ليس لابدانكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها (التائبون) رفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين او هو

(يقاتلون في سبيل الله) في طاعة الله (فيقتلون) العدو (ويقتلون) ويقتلهم العدو (وعدا عليه) على الله (حقا) واجبا ان يوفيهم (في التورية والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله) ومن اوفى بوفاء عهده من الله (فاستبشروا ببيعكم الذي (وقيل) بايعتم به) الله يعني الجنة (وذلك هو الفوز العظيم) النجاء الوافر ثم بين من هم فقال (التائبون) أي هم التائبون من الذنوب

وقرئ بالياء نصبا على المدح أو جرا صفة للمؤمنين ﴿ العابدون ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له ﴿ الحامدون ﴾ لنعمائه أولما نابهم من السراء والضراء ﴿ السائحون ﴾ الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام سياحة امتي الصوم شبه بها من حيث انه يعوق عن الشهوات أولانه رياضة نفسانية يتوصل بها الى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت أوالسائحون للجهاد أوطلب العلم ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ في الصلاة ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ بالايمان والطاعة ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ عن الشرك والمعاصي والعاطف فيه للدلالة على انه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كأنه قال الجامعون بين الوصفين و في قوله تعالى

وقيل التائبون من جميع المعاصي لان لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل * واعلم أن التوبة المقبولة انما تحصل بامور أربعة أولها احتراق القلب عند صدور المعصية وثانيها الندم على فعلها فيما مضى وثالثها العزم على تركها في المستقبل ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فان كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص في توبته ﴿ العابدون ﴾ يعني المطيعين لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهي أن تكون العبادة خالصة لله تعالى ﴿ الحامدون ﴾ يعني الذين يحمدون الله تعالى على كل حال في السراء والضراء * روى البغوي بغير سند عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء وقيل هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى ﴿ السائحون ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال سفيان بن عيينة انما سمي الصائم سائحا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح وقال الازهري قيل للصائم سائح لان الذي يسيح في الارض متعبدا لازاد معه فكان ممسكا عن الاكل وكذلك الصائم ممسك عن الاكل وقيل اصل السياحة استمرار الذهاب في الارض كالماء الذي يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي وقال عطاء السائحون هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ويدل عليه ما روي عن عثمان بن مظعون قال قلت يارسول الله ائذن لي في السياحة فقال ان سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ذكره البغوي بغير سند وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم لانهم ينتقلون من بلد الى بلد في طلبه وقيل ان السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها لان السائح لابد أن يلقى أنواعا من الضر والبؤس ولابد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين في سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وآثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ يعني المصلين وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لانهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي بخلاف حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلي وغيره ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ يعني يأمرون الناس بالايمان بالله وحده ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ يعني عن الشرك بالله وقيل انهم يأمرون

مبتدأ خبره (العابدون) أي الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وما بعده خبر بعد خبر أي التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال وعن الحسن هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق (الحامدون) على نعمة الاسلام (السائحون) الصائمون لقوله عليه السلام سياحة أمتي الصيام أو طلبة العلم لانهم يسيحون في الارض يطلبونه في مظانه أو السائرون في الارض للاعتبار (الراكعون الساجدون) المحافظون على صلوات (الآمرون بالمعروف) بالايمان والمعرفة والطاعة (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصي ودخلت الواو للاشعار بان السبعة عقد تام أو للتضاد بين الامر والنهي كما في قوله

(العابدون) المطيعون (الحامدون) الشاكرون (السائحون) الصائمون (الراكعون الساجدون) في الصلوات الخمس (الآمرون بالمعروف) بالتوحيد والاحسان (والناهون عن المنكر) عن الكفر ومالا يعرف في شريعة ولاسنة

﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أى فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع للتنبيه على ان ماقبله مفصل الفضائل وهذا مجملها وقيل انه هذا للايذان بأن التعداد قدتم بالسبع من حيث ان السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك تسمى واو الثمانية ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ يعنى به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على ان ايمانهم دعاهم الى ذلك وان المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشربه للتعظيم كأنه قيل و بشرهم بما يجل عن احاطة الافهام وتعبير الكلام ﴿ ماكان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ﴾ روى انه عليه الصلاة والسلام قال لابى طالب لما حضره الوفاة قل كلمة احاج لك بها عندالله فأبى فقال عليه السلام لاازال استغفرلك مالم انه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج الى الابواء فزار قبرامه ثم قال مستعبرا فقال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر امى فاذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى وانزل على الآيتين ﴿ ولوكانوا اولى قربى

الناس بالحق فى أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحسن أما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو فى والناهون عن المنكر فان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى فى صفة الجنة وفتحت أبوابها وقيل فيه وجه آخر وهو ان الموصوفين بهذه الصفات الست هم الآمرون يعنى هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون الى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعنى هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال ابن عباس يعنى القائمين بطاعة الله وقال الحسن الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله وقيل هم المؤدون فرائض الله المنتهون الى أمره ونهيه فلايضيعون شيأ من العمل الذى الزمهم به ولا يرتكبون منهيا نهاهم عنه ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ يعنى بشر يامحمد المصدقين بما وعدهم الله به اذا وفوا الله تعالى بعهده فانه موف لهم بما وعدهم من ادخال الجنة وقيل وبشر من فعل هذه الافعال التسع وهو قوله تعالى التائبون الى آخر الآية بان له الجنة وان لم يغز * قوله عزوجل ﴿ ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى ﴾ الآية واختلف أهل التفسير فى سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت فى شأن أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم والدعلى وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفرله بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ماروى عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب ابن حزن قال لما حضرت أباطالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أباجهل وعبدالله بن أبى أمية بن المغيرة فقال أى عم قل لااله الاالله كلمة أحاج لك بها عندالله فقال أبوجهل وعبدالله بن أبى أمية بن المغيرة أترغب عن ملة عبدالمطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبوطالب

ثيبات وأبكارا (والحافظون لحدود الله) أوامره ونواهيه أومعالم الشرع (وبشر المؤمنين) المتصفين بهذه الصفات وهم عليه السلام ان يستغفر لابى طالب فنزل (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى) أى ماصح له الاستغفار فى حكم الله وحكمته

(والحافظون لحدود الله) لفرائض الله (وبشر المؤمنين) بالجنة (ماكان للنبى) ماجاز لمحمد صلى الله عليه وسلم (والذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (أن يستغفروا) أن يدعوا (للمشركين لوكانوا أولى قربى) فى الرحم

آخرما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى ان يقول لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى وأنزل الله فى أبى طالب انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء أخرجاه فى الصحيحين * فان قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية فى شأن أبى طالب وذلك ان وفاته كانت بمكة أول الاسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهى من آخر القرآن نزولا * قلت الذى نزل فى أبى طالب قوله تعالى انك لاتهدى من أحببت فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك مالم أنه عنك كما فى الحديث فيحتمل انه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر له فى بعض الاوقات الى أن نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه عند الموت قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء الآية وفى رواية قال لولا تعيرنى قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك فأنزل الله الآية (ق) عن ابى سعيد الخدرى انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلى منه أم دماغه وفى رواية يغلى منه دماغه من حرارة نعليه (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ما أغنيت عن عمك فانه كان يحوطك ويغضب لك قال هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الاسفل من النار وفى رواية قال قلت يا رسول الله ان عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال نعم وجدته فى غمرات من نار فاخرجته الى ضحضاح وقال ابو هريرة وبريدة لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى حميت الشمس رجاء ان يأذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وروى الطبرى بسنده عن بريدة ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قال واكثر ظنى انه قال قبره أمه فجلس اليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا فقلنا يا رسول الله انا رأينا ما صنعت قال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فاذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يؤذن لى فما رؤى باكيا أكثر من يومئذ وحكى ابن الجوزى عن بريدة قال ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف اليهم فقالوا ما أبكاك قال مررت بقبر أمى فصليت ركعتين ثم استأذنت ربى أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربى أن استغفر لها فزجرت زجرا فابكانى ثم دعا براحلته فركبها فما سار الاهنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحى فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى الآية (ق) عن ابى هريرة قال زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربى فى ان أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فاذن لى

من بعدما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم ﴾ بأن ماتوا على الكفر وفيه دليل على جواز الاستغفار لاحيائهم فانه طلب توفيقهم للايمان وبه دفع النقض باستغفار ابراهيم عليه الصلاة والسلام لابيه الكافر فقال ﴿ وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه ﴾ وعدها ابراهيم اباه بقوله لأستغفرن لك أى لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للايمان فانه يجب ماقبله ويدل عليه قراءة من قرأ اباه أو وعدها ابراهيم ابوه وهو الوعد بالايمان ﴿ فلما تبين له انه عدولله ﴾ بأن مات على الكفر أو اوحى فيه بانه لن يؤمن ﴿ تبرأ منه ﴾

فزوروا القبور فانها تذكركم الموت وقال قتادة قال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله هذه الآية وروى الطبرى بسنده عنه قال ذكر لنا أن رجلا من أصحاب رسول لله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الارحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى والله لاستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله عز وجل ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية ثم عذر الله ابراهيم فقال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه الآية عن على بن أبى طالب قال سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لابويك وهما مشركان فقال استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائى والترمذى وقال حديث حسن وأخرجه الطبرى وقال فيه فانزل الله عز وجل وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدولله تبرأ منه الآية ومعنى الآية ماكان ينبغى للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لان الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين ولا يجوز أن يطلب منه مالا يفعله ففيه النهى عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى لان النهى عن الاستغفار للمشركين عام فيستوى فيه القريب والبعيد ﴾ ثم ذكر الله عز وجل سبب المنع فقال تعالى ﴿ من بعد ماتبين لهم انهم أصحاب الجحيم ﴾ يعنى تبين لهم أنهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضا فقد قال تبارك وتعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده ﴾ أما قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه ﴾ فمعناه وما كان طلب ابراهيم لابيه المغفرة من الله الا من أجل موعدة وعدها ابراهيم اياه أن يستغفر له رجاء اسلامه قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما أنزل الله خبرا عن ابراهيم انه قال سلام عليك سأستغفر لك ربى سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لابويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر ابراهم لابيه فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فانزل الله عز وجل قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم الى قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك يعنى ان ابراهيم ليس بقدوة فى هذا الاستغفار لانه انما استغفر لابيه وهو مشرك لمكان الموعد الذى وعده أن يسلم ﴿ فلما تبين له أنه عدولله تبرأ منه ﴾

(من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) من بعد ماظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك ثم ذكر عذر ابراهيم فقال (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) أى وعد أبوه اياه أن يسلم أو هو وعد أباه أن يستغفر وهو قوله لاستغفرن لك دليله قراءة الحسن وعدها أباه ومعنى استغفاره سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم أو سؤاله اعطاء الاسلام الذى به يغفر له (فلما تبين) من جهة الوحى (له) لابراهيم (أنه) ان أباه (عدولله) بان يموت كافرا وانقطع رجاؤه عنه (تبرأ منه) وقطع استغفاره

(من بعد ماتبين لهم انهم أصحاب الجحيم) أهل النار أى ماتوا على الكفر (وما كان استغفار ابراهيم) أى دعاء ابراهيم (لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) أن يسلم (فلما تبين له أنه عدولله) أى حين مات على الكفر (تبرأ منه) ومن دينه

(فعلى)

قطع استغفاره ﴿ ان ابراهيم لأواه ﴾ لكثير التأوه وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه ﴿ حليم ﴾ صبور على الاذى والجملة لبيان ماحمله على الاستغفار له مع

فعلى هذا الهاء فى اياه راجعة الى ابراهيم والوعد كان من أبيه وذلك ان أبا ابراهيم وعد ابراهيم أن يسلم فقال ابراهيم سأستغفرلك ربى يعنى اذا أسلمت وقيل ان الهاء راجعة الى الاب وذلك ان ابراهيم وعد أباه أن يستغفرله رجاء اسلامه ويؤكد هذا قوله سأستغفرلك ربى ويدل عليه أيضا قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له أنه عدولله تبرأ منه يعنى فلما ظهر لابراهيم و بان له ان أباه عدولله يعنى بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل ان الله سبحانه وتعالى أوحى الى ابراهيم ان أباه عدوله فتبرأ منه وقيل لما تبين له فى الآخرة انه عدولله تبرأ منه و يدل على ذلك ماروى عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول ابراهيم ألم أقل لك لاتعصنى فيقول أبوه فاليوم لاأعصيك فيقول ابراهيم يارب انك وعدتنى أن لاتخزنى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى فيقول الله تبارك وتعالى انى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال ياابراهيم ماتحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار أخرجه البخارى زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والانثى ذيخة ❊ وقوله تبارك وتعالى ﴿ ان ابراهيم لأواه حليم ﴾ جاء فى الحديث ان الاواه الخاشع المتضرع و قال ابن مسعود الاواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو المؤمن التواب وقال الحسن وقتادة الاواه رحيم بعباد الله وقال مجاهد الاواه الموقن وقال كعب الاحبار هو الذى يكثر التأوه وكان ابراهيم صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول أوه من النار قبل ان لاينفع أوه وقال عقبة بن عامر الاواه الكثير الذكر لله عزوجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه انه المعلم للخير وقال عطاء هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار وقال أبوعبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا المتضرع ايقانا ولزوما للطاعة وقال الزجاج انتظم فى قول أبى عبيدة جميع ماقيل فى الاواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه أوه وهو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه والسبب فيه ان عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشتد حرها فالانسان يخرج ذلك النفس المحترق فى القلب ليخف بعض مابه من الحزن والشدة وأما الحليم فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أوأناه بمكروه ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم بابيه حين قال له لئن لم تنته لأرجمنك فاجابه ابراهيم بقوله سلام عليك سأستغفرلك ربى وقال ابن عباس الحليم السيد و انما وصف الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف والوجل والشفقة على عباد الله ليبين

(ان ابراهيم لأواه) هو المتأوه شفقا وفرقا ومعناه انه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر (حليم) هو الصبور على البلاء الصفوح عن الاذى لانه كان يستغفر لابيه وهو يقول لارجمنك

(ان ابراهيم لأواه) دعاء ويقال رحيم ويقال سيد ويقال كان يتأوه على نفسه فيقول أوه من النار قبل دخول النار (حليم) عن الجهل

شكاسته عليه ﴿وماكان الله ليضل قوما﴾ أي ليسميهم ضلالا ويؤاخذهم مؤاخذتهم ﴿بعد اذهداهم﴾ للاسلام ﴿حتى يبين لهم مايتقون﴾ حتى يبين لهم حظرمايجب اتقاؤه وكان بيان عذر للرسول في قوله لعمه أو لمن استغفر لاسلافه المشركين قبل المنع وقيل انه في قوم مضوا على الامر الاول في القبلة والخمر ونحو ذلك وفي الجملة دليل على ان الغافل غير مكلف ﴿ان الله بكل شئ عليم﴾ فيعلم امرهم في الحالتين ﴿ان الله له ملك السموات والارض يحيي و يميت و ما لكم من دون الله من ولي ولانصير﴾ لما منعهم عن الاستغفار للمشركين لو كانوا اولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم رأسا بين لهم ان الله مالك كل موجود ومتولي امره والغالب عليه ولايتأتى لهم ولاية ولانصرة الامنه ليتوجهوا بشراشرهم اليه و يتبرؤا

سبحانه و تعالى أنه مع هذه الصفات الجميلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له اصراره على الكفر فاقتدوا به أنتم في هذه الحالة أيضا * وقوله سبحانه وتعالى ﴿وماكان الله ليضل قوما بعد اذهداهم﴾ يعني وماكان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد ان رزقكم الهداية ووفقكم للايمان به و برسوله و ذلك أنه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ماصدر منهم فاعلمهم ان ذلك ليس بضائرهم ﴿حتى يبين لهم مايتقون﴾ يعني مايأتون و مايذرون وهو أن يقدم اليهم النهي عن ذلك الفعل فاما قبل النهي فلا خرج عليهم في فعله وقيل ان جماعة من المسلمين كانوا قدماتوا قبل النهي عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فانزل الله عزوجل هذه الآية وبين أنه لايؤاخذهم بعمل الابعد أن يبين لهم مايجب عليهم أن يتقوه ويتركوه وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة و بيانه لهم في معصيته وطاعته عامة وقال الضحاك وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم مايأتون ومايذرون وقال مقاتل والكلبي هذا في أمر المنسوخ وذلك ان قوما قدموا على النبي صلى الله عليه و سلم وأسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة الى الكعبة و رجعوا الى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة الى الكعبة ولاعلم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك الى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت الى الكعبة فقالوا يارسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فانزل الله عز وجل وما كان الله ليضل قوما بعد اذهداهم يعني وماكان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ ﴿ان الله بكل شئ عليم﴾ يعني انه سبحانه وتعالى عليم بما خالط نفوسكم من الخوف عندما نهاكم عن الاستغفار للمشركين و يعلم مايبين لكم من أوامره ونواهيه ﴿ان الله له ملك السموات والارض﴾ يعني انه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والارض و مافيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء ﴿يحيي و يميت﴾ يعني انه تعالى يحيي من يشاء على الايمان و يميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر و يميته عليه لا اعتراض لاحد عليه في حكمه وعبيده ﴿ومالكم من دون الله من ولي ولانصير﴾ يعني انه تعالى هو وليكم

(و ماكان الله ليضل أي ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره ممانهى عنه وبين انه محظور لايؤاخذ به عباده الذين هداهم للاسلام ولايخذلهم الااذا قدموا عليه بعد بيان خطره وعلمهم بانه واجب الاجتناب واماقبل العلم والبيان فلا وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين والمراد بمايتقون مايجب اتقاؤه للنهي فاما مايعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف (ان الله بكل شئ عليم ان الله له ملك السموات والارض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير

(وماكان الله ليضل قوما) ليترك قوما بمنزلة الضلال ويقال ليبطل عمل قوم (بعد اذهداهم) للايمان (حتى يبين لهم مايتقون) المنسوخ بالناسخ (ان الله بكل شئ) من المنسوخ والناسخ (عليم ان الله له ملك السموات) خزائن السموات الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك (والارض) وخزائن الارض مثل الشجر والدواب و الجبال والبحار وغير ذلك (يحيي) للبعث (ويميت) في الدنيا (ومالكم من دون الله) من عذاب الله (من ولي) قريب ينفعكم (ولانصير) مانع

بما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار ﴾ من اذن المنافقين فى التخلف أو برأهم عن علقة الذنوب كقوله ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر وقيل هو بعث على التوبة والمعنى مامن احد الا وهو محتاج الى التوبة حتى النبى والمهاجرين والانصار لقوله تعالى وتوبوا الى الله جميعا اذ مامن احد الاوله مقام يستنقص دونه ماهو فيه والترقى اليه توبة من تلك النقيصة واظهار لفضلها بانها مقام الانبياء والصالحين من عباده ﴿ الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ﴾ فى وقتها وهى حالهم فى غزوة تبوك كانوا فى عسرة الظهر تعتقب العشرة على بعير واحد والزاد حتى قيل ان الرجلين كانا

وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم * قوله عز وجل ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار ﴾ الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والانصار ومعنى توبته على النبى صلى الله عليه وسلم مؤاخذته باذنه للمنافقين بالتخلف فى غزوة تبوك وهو كقوله سبحانه وتعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم فهو من باب ترك الافضل لأنه ذنب يوجب عقابا وقال اصحاب المعانى هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فان لله خمسه ومعنى هذا ان ذكر النبى بالتوبة عليه تشريف للمهاجرين والانصار فى ضم توبتهم الى توبة النبى صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول الى اسم الله فى قوله فان لله خمسه وللرسول فهو تشريف له وأما معنى توبة الله على المهاجرين والانصار فلاجل ماوقع فى قلوبهم من الميل الى القعود عن غزوة تبوك لانها كانت فى وقت شديد وربما وقع فى قلوب بعضهم انا لانقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ماوقع فى قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية وقيل ان الانسان لايخلو من زلات وتبعات فى مدة عمره اما من باب الصغائر واما من باب ترك الافضل ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التى حصلت لهم فى ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لاجل ماتحملوه من الشدائد العظيمة فى تلك الغزوة مع النبى صلى الله عليه وسلم وانما ضم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم تنبيها على عظم مراتبهم فى الدين وانهم قد بلغوا الى الرتبة التى لاجلها ضم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم ﴿ الذين اتبعوه ﴾ فى تلك غزوة من المهاجرين والانصار وقد ذكر بعض العلماء ان النبى صلى الله عليه وسلم سار الى تبوك فى سبعين ألفا ما بين راكب وماش من المهاجرين والانصار وغيرهم من سائر القبائل ﴿ فى ساعة العسرة ﴾ يعنى فى وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش الذى سار فيه يسمى جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة فى الظهر والزاد والماء قال الحسن كان عشرة منهم يخرجون على بعير واحد

أى تاب عليه باذنه للمنافقين فى التخلف عنه كقوله عفا الله عنك (والمهاجرين والانصار) فيه بعث للمؤمنين على التوبة وانه مامن مؤمن الا وهو محتاج الى التوبة والاستغفار حتى النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والانصار (الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) فى غزوة تبوك ومعناه فى وقتها والساعة مستعمله فى معنى الزمان المطلق وكانوا فى عسرة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة حتى اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء ومن الماء حتى نحروا الابل وعصروا كرشها وشربوه وفى شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط

(لقد تاب الله على النبى) تجاوز الله عن النبى (والمهاجرين والانصار) الذين صلوا الى القبلتين وشهدوا بدرا ثم بينهم فقال (الذين اتبعوه) اتبعوا النبى فى غزوة تبوك (فى ساعة العسرة) فى حين العسرة والشدة وكانت لهم عسرة من الزاد وعسرة من الظهر وعسرة من الحر وعسرة من العدو وعسرة من بعد الطريق

يقتسمان تمرة والماء حتى شربوا الفظ ﴿ من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ﴾ عن الثبات على الايمان أو اتباع الرسول وفى كاد ضمير الشان أو ضمير القوم والعائد عليه الضمير فى منهم * وقرأ حمزة و حفص يزيغ بالياء لان تأنيث القلوب غير حقيقى * وقرئ من بعد مازاغت قلوب فريق منهم يعنى المتخلفين ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ تكرير للتأكيد و تنبيه على انه تاب عليهم من اجل ما كابدوا من العسرة أو المراد انه تاب عليهم لكيدودتهم ﴿ انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة ﴾ وتاب على الثلاثة كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع ﴿ الذين خلفوا ﴾ تخلفوا عن الغزو أو خلف امرهم فانهم المرجؤن

يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم الا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه ويعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء ويفعل صاحبه كذلك حتى تأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة الا النواة فمضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع وحتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن ان رقبته ستقطع فقال أبو بكر الصديق يارسول الله ان الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع الله قال أتحب ذلك قال نعم فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعهما حتى ارسل الله سحابة فمطرت فملؤا ما معهم من الاوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبرى عن عمر * قوله عز وجل ﴿ من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ﴾ يعنى من بعد ما قارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل المشقة والشدة التى نالتهم والزيغ فى اللغة الميل وقيل هم بعضهم أن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلك الشدة التى نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر فى قلوبهم فلاجل ذلك قال تعالى ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى علم اخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الانابة والتوبة * فان قلت قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار * قلت انه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشانهم وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم أتبعه بقوله ﴿ انه بهم رؤف رحيم ﴾ تأكيدا لذلك ومعنى الرؤف فى صفة الله تعالى انه الرفيق بعباده لانه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرؤف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا فى المعنى قال الخطابى قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ هذا معطوف على ما قبله تقديره لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الانصار

(من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) عن الثبات على الايمان أو عن اتباع الرسول فى تلك الغزوة والخروج معه وفى كاد ضمير الشان والجملة بعده فى موضع النصب وهو كقولهم ليس خلق الله مثله أى ليس شأن خلق الله مثله. يزيغ حمزة وحفص (ثم تاب عليهم) تكرير للتوكيد (انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة) أى وتاب على الثلاثة وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وهو عطف على النبى (الذين خلفوا) عن الغزو

(من بعد ما كان يزيغ) عمل (قلوب فريق منهم) من المؤمنين المخلصين عن الخروج مع النبى صلى الله عليه وسلم (ثم تاب عليهم) تجاوز عنهم وثبت قلوبهم حتى خرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم (انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وتجاوز عن الثلاثة الذين خلف توبتهم كعب بن مالك واصحابه

وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لامر الله وفى معنى خلفوا قولان أحدهما انهم خلفوا عن توبة أبى لبابة وأصحابه وذلك انهم لم يخضعوا كما خضع ابو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبى لبابة واصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثانى انهم تخلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ❁ وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه فقد روى عن ابن شهاب الزهرى قال أخبرنى عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك ان عبدالله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال وكان أعلم قومه واوعاهم لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك بن عبدالله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط الا فى غزوة تبوك غير انى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وان كانت بدر أذكر فى الناس منها وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الاورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوا كثيرا فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم بوجههم الذى يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب الا ظن ان ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فانا اليها أصعب فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فارجع ولم اقض شيأ فاقول فى نفسى أنا قادر على ذلك اذا أردت فلم يزل ذلك تمادى بى حتى استمر بالناس الجد فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيأ ثم غدوت فرجعت ولم اقض شيأ فلم يزل ذلك تمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فادركهم فياليتنى فعلت ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت اذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى أسوة الا رجلا مغموصا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك ما فعل كعب بن مالك فقال رجل من بنى سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه فقال له معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو كذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فاذا هو ابو خيثمة الانصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب فلما بلغنى ان رسول

الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت اني لن أنجو منه بشيء أبدا فاجمعت صدقه فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يارسول الله اني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لارجو فيه عقبى الله وفي رواية عفو الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي هذا أحد معي قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا ايها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي عرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فاما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فاشهد الصلاة وأطوف في الاسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فاقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتي نظر الي واذا التفت نحوه أعرض عني حتى اذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس الي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم اني أحب الله ورسوله قال فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي في سوق المدينة اذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب ابن مالك قال فطفق الناس يشيرون له الي حتى جاءني فدفع الي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا

(فقرأته)

فقرأته فاذا فيه أمابعد فانه قدبلغنا ان صاحبك قدجفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولامضيعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته حتى اذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى واذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لابل اعتزلها ولاتقربها قال وأرسل الى صاحبى مثل ذلك قال فقلت لامرأتى الحقى باهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الامر قال فجاءت امرأة هلال بن أمية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لاولكن لايقربنك فقالت انه والله مابه حركة الى شئ ووالله مازال يبكى منذ كان من أمره ماكان الى يومه هذا قال فقال لى بعض أهلى لواستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت لاأستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايدرينى مايقول لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله عزوجل عنا قدضاقت على نفسى وضاقت على الارض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول باعلى صوته ياكعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت انه قدجاء فرج قال وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبى مبشرون وركض رجل الى فرسا وسعى ساع من اسلم قبلى وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما اياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما و انطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقانى الناس فوجا فوجا يهنؤنى بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس فقام الى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى والله ماقام الى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لاينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يارسول الله أمن عند الله فقال لابل من عند الله وكان صلى الله عليه وسلم اذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه قال فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله ان من توبتى أن انخلع من مالى صدقة الى الله والى رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فانى أمسك سهمى الذى بخيبر قال وقلت يارسول الله ان الله انما أنجانى بالصدق وان من توبتى أن لاأحدث الاصدقا مابقيت قال فوالله ماعلمت ان أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث

منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله والله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا وانى لارجوأن يحفظنى الله فيما بقى قال فانزل الله عز وجل لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة حتى بلغ انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد ان هدانى للاسلام اعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فاهلك كما هلك الذين كذبوا ان الله عز وجل قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شرما قال لاحد فقال الله سبحانه وتعالى سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله عز وجل وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس الذى ذكر مما خلفنا عن الغزو وانما هو تخليفه ايانا وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل منه وفى رواية ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامى وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال على الامر فما من شئ أهم الى من أن أموت فلا يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمنى أحد منهم ولا يصلى على ولا يسلم على قال وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقى الثلث الاخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى معتنية بامرى فقال رسول صلى الله عليه وسلم يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت أفلا أرسل اليه فابشره قال اذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى اذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا أخرجه البخارى ومسلم

شرح غريب هذا الحديث

قوله حين تواثقنا على الاسلام التواثق تفاعل من الميثاق وهو العهد والراحلة الجمل أو الناقة القويان على الحمل والسفر * وقوله ورى بغيرها يقال ورى عن الشئ اذا أخفاه وأظهر غيره والمفازة البرية القفراء سميت بذلك تفاؤلا بالفوز والنجاة منها * قوله فجلا هو بالتخفيف يعنى كشف لهم مقصدهم وأظهره لهم والاهبة الجهاز وما يحتاج اليه المسافر * قوله فأنا اليها أصعر هو بالعين المهملة أى أميل والصعر الميل * قوله وتفارط الغزو أى تباعد مابينى وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعل والمغموص المعيب المشار اليه بالعيب يقال فلان ينظر فى عطفيه اذا كان معجبا بنفسه ويقال زال به السراب يزول اذا ظهر شخص الانسان خيالا فيه من بعد والسراب

(هو)

﴿ حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ﴾ أى برحبها لاعراض الناس عنهم بالكلية وهو مثل لشدة الحيرة ﴿ وضاقت عليهم انفسهم ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لايسعها انس ولاسرور ﴿وظنوا﴾ وعلموا ﴿ ان لاملجأ من الله ﴾ من سخطه ﴿ الا اليه ﴾ الا الى استغفاره ﴿ ثم تاب عليهم ﴾

هو مايظهر للانسان فى البرية فى وقت الهاجرة كانه ماء والمبيض بكسر الياء لابس البياض* قوله كن أباخيثمة معناه أنت ابوخيثمة و قيل معناه اللهم اجعله أباخيثمة أى لتوجد ياهذا الشخص أبا خيثمة حقيقة* قوله الذى لمزه المنافقون يعنى عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره الى وطنه* قوله حضرنى بثى البث أشد الحزن كانه لشدته يظهر* قوله زاح عنى الباطل أى زال وذهب عنى وأجمعت صدقه أى عزمت عليه لقد أعطيت جدلا أى فصاحة وقوة فى الكلام بحيث أخرج عن عهدة ما أردت بما أشاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد هو الغضبان* قوله فمازالوا يؤنبوننى أى يلوموننى أشد اللوم* قوله حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فماهى بالارض التى أعرف معناه تغير على كل شئ من الارض وتوحشت على وصارت كانها أرض لاأعرفها* وقوله فاما صاحباى فاستكانا يعنى خضعا وسكنا* قوله تسورت حائط أبى قتادة أى علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والانباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم والمضيعة مفعلة من الضياع والاطراح* قوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أى فقصدت بالصحيفة التى أرسل بها ملك غسان فاحرقتها فى التنور وسلع جبل بالمدينة معروف* و قوله وانطلقت أتأمم يعنى أقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم والفوج الجماعة من الناس يقال برق وجهه اذا لمع وظهر عليه أمارات الفرح والسرور* قوله انخلع من مالى أى اخرج منه جميعه وأتصدق به كما يخلع الانسان قميصه* قوله ماعلمت أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث أحسن مما أبلانى البلاء والابتلاء يكون فى الخير وفى الشر واذا اطلق كان فى الشر غالبا فاذا اريد به الخير قيد به كما قيد هنا بقوله أحسن مما أبلانى أى أنعم على* قوله أن لاأكون كذبته هذا هو فى جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لازائدة ومعناه أن أكون كذبته .وقوله فاهلك هو بكسر اللام وارجاؤه أمرنا تأخيره* وقوله فى الرواية الاخرى يحطمكم الناس أى يطؤكم و يزدحمون عليكم وأصل الوطء الكسر* وقوله سائر الليل يعنى باقى الليل* وقوله وآذن بتوبة الله علينا أى اعلم والاذان الاعلام والله أعلم ❁ قوله عز وجل ﴿ حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ﴾ يعنى بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى أنه ضاق عليهم المكان بعد ان كان واسعا ﴿ وضاقت عليهم انفسهم ﴾ يعنى من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك كلامهم ﴿ وظنوا ﴾ يعنى وأيقنوا وعلموا ﴿ أن لاملجأ ﴾ يعنى لامفزع و لامفر ﴿ من الله الا اليه ﴾ ولا عاصم من عذابه الا هو ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ فيه اضمار وحذف

(حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) رحبها أى مع سعتها وهو مثل للحيرة فى أمرهم كأنهم لايجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا (وضاقت عليهم انفسهم) أى قلوبهم لايسعها أنس ولاسرور لانها خرجت من فرط الوحشة والغم (وظنوا أن لاملجأ من الله الااليه) وعلموا أن لاملجأ من سخط الله الا الى استغفاره (ثم تاب عليهم) بعد خمسين يوما

(حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) بسعتها (وضاقت عليهم أنفسهم) قلوبهم بتأخير التوبة (وظنوا) علموا وأيقنوا (أن لاملجأ من الله) أن لانجاة لهم من الله (الا اليه) الا بالتوبة اليه من تخلفهم عن غزوة تبوك (ثم تاب عليهم) تجاوز عنهم وعفا

بالتوفيق للتوبة ﴿ ليتوبوا ﴾ أو انزل قبول توبتهم ليعدوا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد اخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿ ان الله هو التواب ﴾ لمن تاب وان عاد في اليوم مائة مرة ﴿ الرحيم ﴾ المتفضل عليه بالنعم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ فيما لا يرضاه ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ في ايمانهم وعهودهم أو في دين الله نية وقولا وعملا * وقرئ من الصادقين أي في توبتهم وانابتهم فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة واضرابهم ﴿ ما كان لاهل المدينة ومن

تقديره وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه فرجهم ثم تاب عليهم وانما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه * وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لانه قد ذكر توبتهم في قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا كما تقدم بيانه وانه عطف على قوله لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار أي وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا * وقوله تعالى ﴿ ليتوبوا ﴾ معناه ان الله سبحانه وتعالى تاب عليهم في الماضي ليكون ذلك داعيا لهم الى التوبة في المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل ان أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا الى حالتهم الاولى يعني الى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك ﴿ ان الله هو التواب ﴾ يعني على عباده ﴿ الرحيم ﴾ بهم وفيه دليل على ان قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والاحسان وانه لا يجب على الله تعالى شئ * قوله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ يعني في مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ يعني مع من صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت وتركوا الغزو وقال سعيد بن جبير مع الصادقين يعني مع أبي بكر وعمر وقال ابن جريج مع المهاجرين وقال ابن عباس مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك باخلاص نية وقيل كونوا مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لان الصدق يهدي الى الجنة والكذب الى الفجور كما ورد في الحديث و قال ابن مسعود الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيأ ثم لا ينجزه اقرؤا ان شئتم وكونوا مع الصادقين وروى أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الانصار في يوم السقيفة وذلك أن الانصار قالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر يا معشر الانصار ان الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه للفقراء المهاجرين الى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الانصار أنتم هم فقال أبو بكر ان الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فامركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الامراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ما كان لاهل المدينة ﴾ يعني لساكني المدينة من المهاجرين والانصار ﴿ ومن

(ليتوبوا) ليكونوا من جملة التوابين (ان الله هو التواب الرحيم) عن ابي بكر الوراق انه قال التوبة النصوح أن تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) في ايمانهم دون المنافقين أو مع الذين لم يتخلفوا أو مع الذين صدقوا في دين الله نية وقولا وعملا والآية تدل على أن الاجماع حجة لانه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم (ما كان لاهل المدينة ومن

عنهم (ليتوبوا) لكي يتوبوا من تخلفهم (ان الله هو التواب) المتجاوز (الرحيم) لمن تاب (يا أيها الذين آمنوا) عبد الله بن سلام واصحابه وغيرهم من المؤمنين (اتقوا الله) أطيعوا الله فيما أمركم (وكونوا مع الصادقين) مع أبي بكر وعمر وأصحابهما في الجلوس والخروج بالجهاد (ما كان لاهل المدينة) ما جاز لاهل المدينة (ومن

حـولهم من الاعراب أن يتخلفـوا عن رسول الله) المراد بهذا النفي النهي وخص هـؤلاء بالذكر وان استوى كل الناس في ذلك لقربهم منه ولايخفى عليهم خروجـه (ولايرغبوا) ولاأن يضنوا (بانفسهم عن نفسه) عما يصيب نفسه أي لايختاروا ابقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد بل أمروا بان يصحبوه في البأساء والضراء ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شدة (ذلك) النهي عن التخلف (بانهم) بسبب أنهم (لايصيبهم ظمأ) عطش (و لا نصب) تعب (ولامخمصة) مجاعة (في سبيل الله) في الجهاد (ولايطؤن موطئا) ولايدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم واخفاف رواحلهم وأرجلهم (يغيظ الكفار) يغضبهم ويضيق صدورهم (ولا ينالون من عـدو نيـلا) ولايصيبون منهم اصابة بقتـل أو أسر أو جرح أو كسر أو هزيمة (الا كتب لهم به عمل صالح) عن ابن عباس رضي الله عنهما لكل روعة سبعون ألف حسنة يقال نال منه اذا رزأه ونقصه وهو عام في كل مايسوءهم وفيه دليل على أن من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك وعلى ان المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعـد انقضاء الحرب لان وطء ديارهم مما يغيظهم وقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابني عامر وقد قدما بعد تقضي الحرب والموطئ

حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ﴾ عن حكمه نهي عبر عنه بصيغة النفي للمبالغة ﴿ ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ﴾ ولا يصونوا انفسهم عما لم يصن نفسه عنه ويكابدوا معه ما يكابده من الاهوال روي ان ابا خيثمة بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل و بسطت له الحصير وقربت اليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم في الضح والريح ماهذا بخير فقام فرحل ناقته واخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسـول الله صلى الله تعالى عليه و سـلم طرفه الى الطريق فاذا براكب يزهاه السراب فقال كن اباخيثمة فكأنه هو ففرح به رسـول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له وفي لايرغبوا يجوز النصب والجزم ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى مادل عليه قوله ماكان من النهي عن التخلف أو وجوب المشـايعة ﴿ بانهم ﴾ بسبب انهم ﴿ لايصيبهم ظمأ ﴾ شئ من العطش ﴿ ولانصب ﴾ تعب ﴿ ولامخمصة ﴾ مجاعة ﴿ في سبيل الله ولايطؤن موطئا ﴾ ولايدوسون مكانا ﴿ يغيظ الكفار ﴾ يغضبهم وطؤه ﴿ ولاينالون من عدو نيلا ﴾ كالقتل والاسر والنهب ﴿ الاكتب لهم به عمل صالح ﴾ الااستوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب

حولهم من الاعراب ﴾ يعني سكان البوادي من مزينة وجهينة وأسلم واشجع وغفـار وقيل هو عام في كل الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم أولى ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ يعني اذا غزا وهذا ظاهره خبر ومعناه النهي أي ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولايرغبوا ﴾ يعني ولاان يرغبوا ﴿ بانفسهم عن نفسه ﴾ يعني ليس لهم ان يكرهوا لانفسهم مايختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرضاه لنفسه ولايختاروا لانفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهـاد معه في حال الشدة والمشقة وقال الحسن لايرغبوا بانفسهم ان يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مشقة السفر ومقاساة التعب ﴿ ذلك بانهم لايصيبهم ﴾ في سفرهم وغزواتهم ﴿ ظمأ ﴾ أي عطش ﴿ ولانصب ﴾ أي تعب ﴿ ولامخمصة ﴾ يعني مجاعة شديدة ﴿ في سبيل الله ولايطؤن موطئا يغيظ الكفار ﴾ يعني ولايضعون قدما على الارض يكون ذلك القدم سببا لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم ﴿ ولاينالون من عدو نيلا ﴾ يعني أسرا أو قتلا او هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيرا ﴿ الاكتب لهم به عمل صالح ﴾ يعني الا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح

حولهم من الاعراب) من مزينة وجهينة واسلم (أن يتخلفوا عن رسول الله) في الغزوة (ولايرغبوا بأنفسـهم عن نفسه) لايكونوا على أنفسهم أشـفق من نفس النبي صلى الله عليه وسلم ويقال ولايرغبوا بانفسهم بصحبة أنفسهم عن صحبة النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد (ذلك) الخروج (بانهم لايصيبهم ظمأ) عطش في الذهاب والمجئ (ولانصب) ولاتعب (ولامخمصة) ولامجـاعة (في سبيل الله) في الجهاد (ولايطؤن موطئا) لايجوزون مكانا يظهرون عليه (يغيـظ الكفار) بذلك (ولاينالون من عـدو نيلا) قتلا وهزيمة (الاكتب لهم به عمل صالح) ثواب عمل صالح في الجهاد

المتابعة ﴿ ان الله لايضيع اجر المحسنين ﴾ على احسانهم وهو تعليل لكتب وتنبيه على ان الجهاد احسان اما فى حق الكفار فلأنه سعى فى تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المداوى للمجنون واما فى حق المؤمنين فلانه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ﴾ ولو علاقة ﴿ ولا كبيرة ﴾ مثل ما انفق عثمان رضى الله تعالى عنه فى جيش العسرة ﴿ ولا يقطعون واديا ﴾ فى مسيرهم وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل اسم فاعل من ودى اذا سال فشاع بمعنى الارض ﴿ الا كتب لهم ﴾ الا اثبت لهم ذلك ﴿ ليجزيهم الله ﴾ بذلك ﴿ احسن ما كانوا يعملون ﴾ جزاء احسن اعمالهم أو احسن جزاء اعمالهم

قدار تضاه لهم وقبل منهم ﴿ ان الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى لايدع محسنا من خلقه قد أحسن فى عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على احسانه وعمله الصالح وفى الآية دليل على ان من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ومن قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيآت الا ان يغفرها الله بفضله وكرمه ❁ واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا بنفسه لم يكن لاحد أن يتخلف عنه الا بعذر فاما غيره من الائمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين ان يتخلف عنه اذا لم يكن للمسلمين اليه ضرورة وقال الوليد بن مسلم سمعت الاوزاعى وابن المبارك وابن جابر وسعيدا يقولون فى هذه الآية انها لاول هذه الامة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ وقال ابن زيد هذا حين كان أهل الاسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله عز وجل وأباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدى عن عطية انه قال وما كان لهم ان يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعاهم وأمرهم وقال هذا هو الصحيح لانه لاتتعين الطاعة والاجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا اذا أمر وكذا غيره من الائمة والولاة قالوا اذا ندبوا أوعينوا لانا لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لادى ذلك الى تعطيل الجهاد والله أعلم ❁ وقوله عز وجل ﴿ ولا ينفقون ﴾ يعنى فى سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ولا كبيرة ﴾ يعنى تمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط ﴿ ولا يقطعون واديا ﴾ يعنى ولا يجاوزون فى مسيرهم واديا مقبلين أو مدبرين فيه ﴿ الا كتب لهم ﴾ يعنى كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم ﴿ ليجزيهم الله ﴾ يعنى يجازيهم ﴿ أحسن ما كانوا يعملون ﴾ قال الواحدى معناه باحسن ما كانوا يعملون وقال الامام فخر الدين الرازى فيه وجهان الاول أن الاحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الاحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح والثانى ان الاحسن صفة للجزاء أى يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم و أجل وافضل و هو الثواب وفى الآية دليل على فضل الجهاد وانه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدى ان

مكان فان كان مكانا فمعنى يغيظ الكفار يغيظهم وطؤه (ان الله لايضيع أجر المحسنين) أى أنهم محسنون والله لايبطل ثوابهم (ولا ينفقون نفقة) فى سبيل الله (صغيرة) ولو تمرة (ولا كبيرة) مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة (ولا يقطعون واديا) أى أرضا فى ذهابهم ومجيئهم وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل وهو فى الاصل فاعل من ودى اذا سال ومنه لودى وقد شاع فى الاستعمال بمعنى الارض (الا كتب لهم) من الانفاق وقطع الوادى (ليجزيهم الله) متعلق بكتب أى اثبت فى صحائفهم لاجل الجزاء (أحسن ما كانوا يعملون) اى يجزيهم على كل واحد جزاء احسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرا

(ان الله لايضيع) لايبطل (اجر المحسنين) ثواب المؤمنين فى الجهاد (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة) قليلة ولا كثيرة فى الذهاب والمجئ (ولا يقطعون واديا) فى طلب العدو (الا كتب لهم ثواب عمل صالح (ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون)

﴿ رسول ﴾

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ وما استقام لهم ان ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم ان يتثبطوا جميعا فانه يخل بأمر المعاش

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها وفى رواية وما فيها (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه الا جهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن ان أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا ان أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا اجد سعة فاحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت ان اغزو فى سبيل الله فاقتل ثم اغزو فاقتل ثم اغزو فاقتل لفظ مسلم وللبخارى بمعناه (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره (خ) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات (خ) عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار (م) عن ابى مسعود الانصارى البدرى قال جاء رجل بناقة مخطومة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة ❁ عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف أخرجه الترمذى والنسائى ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية قال عكرمة لما نزلت هذه الآية ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين هلك من تخلف فنزلت هذه الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال ابن عباس انها ليست فى الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل باسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فانزل الله عز وجل الآية يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم اذا رجعوا اليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم وفى رواية أخرى عن ابن عباس انه قال كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من

لاجرهم (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) اللام لتأكيد النفى أى أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للافضاء الى

فى الجهاد (وما كان المؤمنون) ما جاز للمؤمنين (لينفروا كافة) يخرجوا جميعا فى السرية ويتركوا النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة وحده

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة واهل بلدة جماعة قليلة ﴿ ليتفقهوا فى الدين ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه و يتجشموا مشاق تحصيلها ﴿ ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة ارشاد القوم وانذارهم وتخصيصه بالذكر لانه اهم وفيه دليل على ان التفقه والتذكير من فروض الكفاية وانه ينبغى ان يكون غرض المتعلم فيه ان يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط فى البلاد ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ ارادة ان يحذروا عما ينذرون منه واستدل به على ان اخبار الآحاد حجة لان عموم كل فرقة يقتضى ان ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة الى التفقه لتنذر فرقتها كى يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر اخبار الآحاد

امر دينهم ويتفقهون فى دينهم ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ماتأمرنا ان نفعله وأخبرنا عما نقول لعشائرنا اذا انطلقنا اليهم فيأمرهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم الى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا اذا أتوا قومهم نادوا ان من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى ان الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بما يحتاجون اليه من أمر الدين وان ينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ويدعوهم الى الاسلام وينذروهم النار ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا فى البوادى فأصابوا من الناس معروفا ومن الخطب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم مانراكم الا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم تحرجا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله عزوجل ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ يبتغون الخير وقعد طائفة ﴿ ليتفقهوا فى الدين ﴾ ليسمعوا ما أنزل الله ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ من الناس ﴿ اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ﴾ وقال ابن عباس ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبة يعنى السرايا ولا يسيرون الا باذنه فاذا رجعت السرايا وقد نزل فى بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا فى الدين يقول ليتعلموا ما انزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا اذا رجعت اليهم لعلهم يحذرون نقل هذه الاقوال كلها الطبرى وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال انها من بقية أحكام الجهاد ويمكن أن يقال انها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الاول فقد قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج الى الغزو لم يتخلف عنه الا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله فى الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شئ من الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعا الى الغزو وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى

المفسدة (فلولا نفر) فحين لم يكن نفير الكافة فهلا نفر (من كل فرقة منهم طائفة) أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير (ليتفقهوا فى الدين) ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق فى تحصيلها (ولينذروا قومهم) وليجعلوا مرمى همتهم الى التفقه انذار قومهم وارشادهم (اذا رجعوا اليهم) دون الاعراض الخسيسة من التصدر والترؤس والتشبه بالظلمة فى المراكب والملابس (لعلهم يحذرون) ما يجب اجتنابه وقيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا بعث بعثا بعد غزوة

(فلولا نفر) فهلا خرج (من كل فرقة) جماعة (منهم طائفة) وبقى طائفة بالمدينة (ليتفقهوا فى الدين) لكى يتعلموا أمر الدين من النبى صلى الله عليه وسلم (ولينذروا) ليخبروا وليعلموا (قومهم اذا رجعوا اليهم) من غزوتهم (لعلهم يحذرون) لكى يعلموا ما أمروا به وما نهوا عنه ويقال

مالم يتواتر لم يفد ذلك وقد اشبعت القول فيه تقريرا واعتراضا فى كتابى المرصاد وقد قيل للآية معنى آخر وهو انه لما نزل فى المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون الى النفير وانقطعوا عن التفقه فأمروا ان ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد و يبقى اعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذى هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الاصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير فى ليتفقهوا ولينذروا لبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف اى ولينذر البواقى قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا ايام

ما كان ينبغى للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم الى الجهاد ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يجب أن ينقسموا قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة ينفرون الى الجهاد لان ذلك الوقت كانت الحاجة داعية الى انقسام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قسمين قسم للجهاد وقسم لتعلم العلم والتفقه فى الدين لان الاحكام والشرائع كانت تتجدد شيأ بعد شئ فالملازمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظون ما نزل من الاحكام وما تجدد من الشرائع فاذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعنى فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا الى الجهاد اذا رجعوا اليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعنى مخالفة أمر الله وامر رسوله وهذا معنى قول قتادة وقيل ان التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ومعنى ذلك ان الفرقة النافرة اذا شاهدوا نصر الله لهم على أعدائهم وان الله يريد اعلاء دينه وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم وان الفئة القليلة قد غلبت جمعا كثيرا فاذا رجعوا من ذلك النفير الى قومهم من الكفار أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول ان هذا النوع لا يعد تفقها فى الدين ويمكن أن يجاب عنه بانهم اذا علموا ان الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة فى ايمانهم فيكون ذلك فقها فى الدين واما الاحتمال الثانى وهو ان يقال ان هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد وهو ما ذكرناه عن مجاهد ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا الى البوادى فاصابوا معروفا ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم الا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك حرجا فاقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ويبلغوا ذلك الى النافرين لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون يعنى بأس الله ونقمته اذا خالفوا أمره وفى الآية دليل على أنه يجب ان يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق الى الحق وارشادهم الى الدين القويم والصراط المستقيم فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم لطلب الدنيا كان من الاخسرين أعمالا الآية (ق) عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه

تبوك بعد ما نزل فى المتخلفين من الآيات الشداد استبق المؤمنون عن آخرهم الى النفير وانقطعوا جميعا عن التفقه فى الدين فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة الى الجهاد ويبقى سائرهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذى هو الجهاد الاكبر اذ الجهاد بالحجاج أعظم أثرا من الجهاد بالنصال والضمير فى ليتفقهوا للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم ولينذروا قومهم ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم وعلى الاول الضمير للطائفة النافرة الى المدينة للتفقه

نزلت هذه الآية فى بنى أسد أصابتهم سنة فجاؤا الى النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فاغلوا أسعار المدينة وأفسدوا طرقها بالعذرات فنهاهم الله عن ذلك

غيبتهم من العلوم ﴿ ياايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ امروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كما امر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اولا بانذار عشيرته الاقربين فان الاقرب احق بالشفقة والاستصلاح وقبلهم يهود حوالى المدينة كقريظة

يقول من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وانما أنا قاسم ويعطي الله ولم يزل أمر هذه الامة مستقيما حتى تقوم الساعة وحتى يأتي أمر الله (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا * عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد أخرجه الترمذي * وأصل الفقه في اللغة الفهم يقال فقه الرجل اذا فهم وفقه فقاهة اذا صار فقيها وقيل الفقه هو التوصل الى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفي الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم بأحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم الى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ذكره البغوي بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة اذا صار له مال يجب في مثله الزكاة وعلم أحكام الحج اذا وجب عليه وأما فرض الكفاية من الفقه فهو ان يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا واذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعا واذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث * عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم أخرجه الترمذي مع الزيادة فيا * عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة أخرجه الترمذي * عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع أخرجه الترمذي * عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة او سنة قائمة او فريضة عادلة أخرجه أبو داود الآية المحكمة هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف في حكمها أو ما ليس بمنسوخ والسنة القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في قضائها قال الفضيل بن عياض عالم عامل معلم يدعى عظيما في ملكوت السموات وأخرجه الترمذي موقوفا وقال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ياايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ أمروا بقتال الاقرب فالاقرب اليهم في الدار والنسب قال ابن عباس مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها وقال ابن عمر هم الروم لانهم كانوا سكان الشام والشأم أقرب الى المدينة من العراق وقال بعضهم هم الديلم وقال ابن زيد كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا او يعطوا الجزية عن يد ونقل عن بعض العلماء انه قال

(ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم) يقربون منكم (من الكفار) القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم ولكن الاقرب فالاقرب أوجب وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم الشأم والشأم أقرب الى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية ان

(ياايها الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) من بني قريظة والنضير

بقاتلوا من وليهم (وليجدوا فيكم غلظة) شدة وعنفا فى المقال قبل القتال (واعلموا أن الله مع المتقين) بالنصرة والغلبة (واذاما أنزلت سورة) ما صلة مؤكدة (فمنهم) فمن المنافقين (من يقول) بعضهم لبعض (أيكم زادته هذه) السورة (ايمـانا) انكارا واستهزاء بالمؤمنين وأيكم مرفوع بالابتداء وقيل هو قول المؤمنين للحث والتنبيه (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) يقينا وثباتا أو خشية أو ايمـانا بالسورة لانهم لم يكونوا آمنوا بها تفصيلا (وهم يستبشرون) يعدون زيادة التكليف بشـارة التشريف (وأما الذين فى قلوبهـم مرض) شـك ونفـاق فهو فساد يحتاج الى علاج كالفساد فى البدن (فزادتهم رجسا الى رجسهم) شكا الى شكهم بما

والنضير وخيبر وقيل الروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ شدة وصبرا على القتال * وقرئ بفتح الغين وضمها وهما لغتان فيها ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ بالحراسـة والاعانة ﴿ واذا ما انزلت سـورة فمنهم ﴾ فمن المنافقين ﴿ من يقول ﴾ انكارا واستهزاء ﴿ ايكم زادته هذه ﴾ السورة ﴿ ايمانا ﴾ وقرئ ايكم بالنصب على اضمار فعل يفسره زادته ﴿ فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا ﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الايمان بها وبما فيها الى ايمانهم ﴿ وهم يستبشرون ﴾ بنزولها لانه سبب لزيادة كمالهم وارتفـاع درجاتهم ﴿ واما الذين فى قلوبهم مرض ﴾ كفر ﴿ فزادتهم رجسا الى رجسهم ﴾ كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها

نزلت هذه الآية قبل الامر بقتال المشركين كافة فلما نزلت وقاتلوا المشركين كافة صارت ناسخة لقوله سبحانه وتعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وقال المحققون من العلماء لا وجه للنسخ لانه سبحانه وتعالى لما امرهم بقتال المشركين كافة أرشدهم الطريق الاصوب الاصلح وهو ان يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب حتى يصلوا الى الابعد فالابعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتـال المشركين كافة لان قتـالهم فى دفعة واحدة لا يتصور ولهذا السبب قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم انتقل الى قتال اهل الكتاب وهم قريظة ونضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم فى الشأم فكان فتح الشأم فى زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك الى سائر الامصار لانه اذا قاتل الاقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الابعد * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ يعنى شـدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة وقال الحسن صبرا على جهادهم ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ يعنى بالعون والنصرة * قوله عز وجل ﴿ و اذا ما أنزلت سـورة فمنهم من يقول أيكم زادته هـذه ايمانا ﴾ يعنى واذا أنزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعنى يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعنى السورة ايمانا يعنى تصديقا ويقينا وانما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال الله سبحانه وتعالى ﴿ فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا ﴾ يعنى تصـديقا و يقينا وقربة من الله ومعنى الزيادة ضم شئ الى آخر من جنسه مما هو فى صفته فالمؤمنون اذا أقروا بنزول سورة من القرآن عن ثقة واعترفوا انها من عنـد الله عز وجل زادهم ذلك الاقرار والاعتراف ايمانا وقد تقـدم بسط الكلام على زيادة الايمان فى اول سورة الانفال ﴿ وهم يستبشرون ﴾ يعنى أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيأ بعد شئ لانهم كلما نزل ازدادوا ايمانا و ذلك يوجب مزيد الثواب فى الآخرة وكما تحصل الزيادة فى الايمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة فى الكفر وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأما الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لانه فساد فى القلب يحتاج الى علاج كالمرض فى البدن اذا حصل يحتاج الى العلاج ﴿ فزادتهم ﴾ يعنى سورة من القرآن ﴿ رجسا الى رجسهم ﴾

وفدك وخيبر (وليجـدوا فيكم) منكم (غلظـة) شـدة (واعلموا)يامعشر المؤمنين (ان الله مع المتقين) معـين المؤمنين محمـد عليه السلام وأصحـابه بالنصرة على أعدائهم (واذاما انزلت سورة) آية فيقرأ عليهم محمـد صلى الله عليه وسـلم (فمنهم) من المنافقين (من يقول) أى يقول بعضهم لبعض (أيكم زادته هذه) السورة والآية (ايمانا) خوفا ورجاء ويقينا بما قال محمد (فأما الذين آمنوا) بمحمد عليه السلام وأصحابه (فزادتهم ايمـانا) خوفا ورجاء ويقينـا (وهم يستبشرون) بما أنزل من القرآن (وأما الذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق (فزادتهم رجسا الى رجسهم) شكا الى شكهم بما

كفرا مضموما الى كفرهم (وماتوا وهم كافرون) هو اخبار عن اصرارهم عليه الى الموت (أولا يرون) يعنى المنافقين وبالتاء حمزة خطاب للمؤمنين (انهم يفتنون) يبتلون بالقحط والمرض وغيرهما (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون) عن نفاقهم (ولا هم يذكرون) لا يعتبرون أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتوبون بما يرون من دولة الاسلام ولا هم يذكرون بما يقع بهم من الاصطلام (واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض) تغامزوا بالعيون انكارا للوحى وسخرية به قائلين (هل يراكم من أحد) من المسلمين ننصرف فانا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم أو اذا ما أنزلت سورة فى عيب المنافقين أشار بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ان قمتم من حضرته عليه السلام (ثم انصرفوا) عن حضرة النبى عليه السلام مخافة الفضيحة (صرف الله قلوبهم)

﴿وماتوا وهم كافرون﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه ﴿أولا يرون﴾ يعنى المنافقين وقرأ حمزة بالتاء ﴿انهم يفتنون﴾ يبتلون باصناف البليات أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيعاينون مايظهر عليه من الآيات ﴿فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم ﴿ولاهم يذكرون﴾ ولا يعتبرون ﴿واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض﴾ تغامزوا بالعيون انكارا لها وسخرية أو غيظا لما فيها من عيوبهم ﴿هل يراكم من احد﴾ أى يقولون هل يراكم من احد ان قمتم من حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فان لم يرهم احد قاموا وان رآهم احد اقاموا ﴿ثم انصرفوا﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة ﴿صرف الله قلوبهم﴾ عن الايمان وهو

يعنى كفرا الى كفرهم وذلك أنهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزؤا بها ازدادوا كفرا مع كفرهم الاول وسمى الكفر رجسا لانه أقبح الاشياء وأصل الرجس فى اللغة الشئ المستقذر ﴿وماتوا﴾ يعنى هؤلاء المنافقين ﴿وهم كافرون﴾ يعنى وهم جاحدون لما انزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم قال مجاهد فى هذ الآية الايمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ان الايمان يبدو لمعة بيضاء فى القلب وكلما ازداد الايمان عظما ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمعة سوداء فى القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض و لو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود * قوله سبحانه وتعالى ﴿أولا يرون﴾ قرئ ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرئ بالياء على انه خبر عن المنافقين المذكورين فى قوله فى قلوبهم مرض ﴿انهم يفتنون﴾ يعنى يبتلون ﴿فى كل عام مرة أو مرتين﴾ يعنى بالامراض والشدائد وقيل بالقحط والجدب وقيل بالغزو والجهاد وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم وقيل انهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل انهم ينقضون عهدهم فى السنة مرة أو مرتين ﴿ثم لا يتوبون﴾ يعنى من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون الى الله ﴿ولاهم يذكرون﴾ يعنى ولا يتعظون بما يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين ﴿واذا ما انزلت سورة﴾ يعنى فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ﴿نظر بعضهم الى بعض﴾ يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض اشارة ﴿هل يراكم من أحد﴾ يعنى هل أحد من المؤمنين يراكم ان قمتم من مجلسكم فان لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وان علموا أن أحدا يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال ﴿ثم انصرفوا﴾ يعنى عن الايمان بتلك السورة النازلة وقيل انصرفوا عن مواضعهم التى يسمعون فيها مايكرهون * صرف الله قلوبهم﴾ يعنى عن الايمان وقال الزجاج أضلهم الله مجازاة لهم

انزل من القرآن (وماتوا وهم كافرون) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن فى السر (أولا يرون) يعنى المنافقين (أنهم يفتنون) يبتلون باظهار مكرهم وخيانتهم ويقال بنقض عهدهم (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون) من صنيعهم ونقض عهدهم (ولاهم يذكرون) يتعظون (واذا ما انزلت سورة) ﴿على﴾ جبريل بسورة فيها عيب المنافقين وكان يقرأ عليهم النبى صلى الله عليه وسلم (نظر) المنافقون (بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد) من المخلصين (ثم انصرفوا) عن الصلاة والخطبة والحق والهدى (صرف الله قلوبهم) عن الحق والهدى

يحتمل الاخبار والدعاء ﴿بانهم﴾ بسبب انهم ﴿قوم لايفقهون﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم ﴿لقد جاءكم رسول من انفسكم﴾ من جنسكم عربي مثلكم * وقرئ من انفسكم أي من اشرفكم ﴿عزيز عليه﴾ شديد شاق ﴿ماعنتم﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه

على فعلهم ﴿ بانهم قوم لايفقهون ﴾ يعني لايفقهون عن الله دينه ولاشيأ فيه نفعهم * قوله سبحانه وتعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ هذا خطاب للعرب يعني لقد جاءكم ايها العرب رسول من انفسكم تعرفون نسبه وحسبه وانه من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شئ من ولادة الجاهلية عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني خرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح هكذا ذكره الطبري و ذكر البغوي باسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماولدني من سفاح أهل الجاهلية شئ ماولدني الا نكاح كنكاح أهل الاسلام قال قتادة جعله الله من أنفسهم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم يعني من مضرها وربيعتها ويمانها فاما ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان واليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه الى عرب اليمن وهم القحاطنة فان آمنة لها نسب في الانصار وان كانت من قريش والانصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبا فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله لقد جاءكم رسول من أنفسكم ترغيب العرب في نصره والايمان به فانه تم شرفهم بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والامانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والاخلاق الحميدة وقرأ ابن عباس والزهري من أنفسكم بفتح الفاء ومعناه انه من أشرفكم وأفضلكم (خ) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه (م) عن واثلة بن الاسقع قال سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم * عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يارسول الله ان قريشا جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة في كدية من الارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فانا خيرهم نفسا و خيرهم بيتا أخرجه الترمذي وقيل ان قوله سبحانه وتعالى لقد جاءكم رسول من انفسكم عام فحمله على العموم أولى فيكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من انفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم اذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والاخذ عنه * وقوله سبحانه وتعالى ﴿عزيز عليه ماعنتم﴾ أي شديد عليه عنتكم يعني مكروهكم وقيل يشق

عن فهم القرآن (بانهم) بسبب انهم (قوم لايفقهون لايتدبرون حتى يفقهوا (لقد جاءكم رسول) محمد عليه السلام (من أنفسكم) من من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم (عزيز عليه ماعنتم) شديد عليه شاق لكونه بعضا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب

ويقال مالوا عن الحق والهدى فأمال الله قلوبهم عن ذلك الانصراف (بأنهم قوم لايفقهون) أمر الله ولا يصدقونه (لقد جاءكم) يا أهل مكة (رسول من أنفسكم) عربي هاشمي مثلكم (عزيز عليه) شديد عليه (ماعنتم) ما أثمتم

(حريص عليكم) على ايمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤف رحيم) قيل لم يجمع الله اسمين من اسمائه لاحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم (فان تولوا) فان أعرضوا

عن الايمان بك وناصبوك (فقل حسبي الله) فاستعن بالله وفوض اليه أمورك فهو كافيك معرتهم وناصرك عليهم (لا اله الا هو عليه توكلت) فوضت أمري اليه (وهو رب العرش) هو أعظم خلق الله خلق مطافا لاهل السماء وقبلة للدعاء (العظيم) بالجر وقرئ بالرفع على نعت الرب جل وعز * عن أبي آخر آية نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم الآية

(سورة يونس عليه الصلاة والسلام) مائة وتسع آيات مكية وكذا ما بعدها الى سورة النور

﴿حريص عليكم﴾ أي على ايمانكم وصلاح شأنكم ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤف رحيم﴾ قدم الابلغ منهما وهو الرؤف لان الرأفة شدة الرحمة محافظة على الفواصل ﴿فان تولوا﴾ عن الايمان بك ﴿فقل حسبي الله﴾ فانه يكفيك معرتهم ويعينك عليهم ﴿لا اله الا هو﴾ كالدليل عليه ﴿عليه توكلت﴾ فلا ارجو ولا اخاف الا منه ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الملك العظيم او الجسم العظيم المحيط الذى تنزل منه الاحكام والمقادير * وقرئ العظيم بالرفع وعن ابي رضى الله تعالى عنه ان آخر ما نزل هاتان الآيتان * وعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما نزل القرآن على الا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وقل هو الله احد فانهما نزلتا على ومعهما سبعون الف صف من الملائكة والله أعلم

سورة يونس عليه الصلاة والسلام مكية وهى مائة وتسع آيات

عليه ضلالكم ﴿حريص عليكم﴾ يعنى حريص على ايمانكم وايصال الخير اليكم وقال قتادة حريص على هدايتكم وان يهديكم الله ﴿بالمؤمنين رؤف رحيم﴾ يعنى أنه صلى الله عليه وسلم رؤف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لى خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى وقد سماه الله رؤفا رحيما قال الحسن بن الفضل لم يجمع الله سبحانه وتعالى لاحد من أنبيائه بين اسمين من أسمائه الا النبى صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما وقال سبحانه وتعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم * قوله سبحانه وتعالى ﴿فان تولوا﴾ يعنى فان اعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الايمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب ﴿فقل حسبي الله﴾ يعنى يكفينى الله وينصرنى عليكم ﴿لا اله الا هو عليه توكلت﴾ يعنى لا على غيره وبه وثقت ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ انما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لانه أعظم المخلوقات فيدخل ما دونه فى الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفا له كما يقال بيت الله * روى عن أبى بن كعب أنه قال هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر السورة آخر القرآن نزولا * وفى رواية عنه قال أحدث القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم

تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام

نزلت بمكة الا ثلاث آيات وهى قوله سبحانه وتعالى فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك الى آخر الثلاث آيات قال ابن عباس وبه قال قتادة وفى رواية أخرى عن ابن عباس ان فيها من المدنى قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به الآية وقال مقاتل هى مكية الا آيتين وهى قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته والتى تليها وهى مائة وتسع آيات وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفا

(حريص عليكم) على ايمانكم (بالمؤمنين) بجميع المؤمنين (رؤف رحيم فان تولوا) عن الايمان والتوبة وما قلت لهم (فقل حسبي الله) ثقتى بالله (لا اله الا هو) لا حافظ ولا ناصر الا هو (عليه توكلت) اتكلت ووثقت (وهو رب العرش) السرير (العظيم) الكبير

﴿ ومن السورة التى يذكر فيها يونس عليه السلام وهى كلها مكية الا آية واحدة عند رأس الاربعين فانها نزلت فى اليهود فهى مدنية وهى قول الله عز وجل ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به الآية آياتها مائة وتسع آيات وكلماتها ألف وثمانمائة واثنان وحروفها ستة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألر﴾ فخمها ابن كثير ونافع وحفص وامالها الباقون اجراء لالف الراء مجرى المنقلبة عن الياء ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ اشارة الى ماتضمنته السورة أو القرآن من الآى والمراد من الكتاب احدهما ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم أو لانه كلام حكيم أو محكم آياته لم ينسخ شئ منها ﴿أكان للناس عجبا﴾ استفهام أنكار للتعجب وعجبا خبر كان واسمه ﴿ان اوحينا﴾ وقرئ بالرفع على ان الامر بالعكس أو على ان كان تامة وان اوحينا بدل من عجبا واللام للدلالة على انهم جعلوه اعجوبة لهم يوجهون

بسم الله الرحمن الرحيم

* قوله عز وجل ﴿الر﴾ قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وقال به سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة ألر اسم من أسماء القرآن وقيل هى اسم للسورة وقد تقدم الكلام فى معنى الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة بما فيه كفاية ﴿تلك آيات الكتاب﴾ المراد من لفظ تلك الاشارة الى الآيات الموجودة فى هذه السورة ويكون التقدير تلك الآيات هى آيات الكتاب وهو القرآن الذى أنزله الله اليك يا محمد وذلك ان الله عز وجل وعده أن ينزل عليه كتابا لايمحوه الماء ولا تغيره الدهور وقيل ان لفظة تلك للاشارة الى ماتقدم هذه السورة من آيات القرآن والمعنى ان تلك الآيات هى آيات الكتاب الحكيم وفى قول آخر ان المراد بآيات الكتاب الكتب التى قبل القرآن حكاه الطبرى عن قتادة وروى عن مجاهد أنها التوراة والانجيل فعلى هذا القول يكون التقدير ان الآيات المذكورة فى هذه السورة هى الآيات المذكورة فى التوراة والانجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة فى هذه السورة وهذا وان كان له وجه فهو ضعيف لان التوراة والانجيل لم يجر لهما ذكر قريب حتى يشار اليهما وقيل المراد من الآيات حروف الهجاء التى منها الر سميت آيات لانها افتتاح السور وسر القرآن ﴿الحكيم﴾ يعنى المحكم الحلال والحرام والحدود والاحكام فعيل بمعنى مفعول وقيل الحكيم بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل لان القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام وقيل حكيم بمعنى المحكوم فيه فعيل بمعنى مفعول قال الحسن حكم فيه بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وقيل ان الحكيم هو الذى يفعل الحكمة والصواب فمن حيث انه يدل على الاحكام صار كانه هو الحكيم فى نفسه * قوله سبحانه وتعالى ﴿أكان للناس عجبا﴾ قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية ان الله عز وجل لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك ومن أنكر منهم قال الله أعظم من أن يكون له رسول بشر مثل محمد فقال سبحانه وتعالى أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم وقال سبحانه وتعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا الآية والهمزة فى أكان همزة استفهام ومعناه الانكار والتوبيخ والمعنى لا يكون ذلك عجبا ﴿أن أوحينا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الر) ونحوه ممال حمزة وعلى وأبو عمرو وهو تعديد للحروف على طريق التحدى (تلك آيات الكتاب) اشارة الى ماتضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة (الحكيم) ذى الحكمة لاشتماله عليها أو المحكم عن الكذب والاقتراف والهمزة فى (أكان للناس عجبا) لانكار التعجب والتعجيب منه (أن أوحينا) اسم كان وعجبا خبره واللام فى للناس متعلق بمحذوف هو صفة لعجبا فلما تقدم صار حالا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

وباسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (الر) يقول أنا الله أرى ويقال قسم اقسم به (تلك آيات الكتاب الحكيم) ان هذه السورة آيات القرآن المحكم بالحلال والحرام (أكان للناس) لاهل مكة (عجبا أن أوحينا) بان

(الى رجل منهم أن أنذر الناس) بان أنذر أو هي مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا أن لهم) بان لهم ومعنى اللام في للناس انهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منه والذى تعجبوا منه أن يوحى الى بشر وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم

يقولون العجب ان الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس الايتيم أبى طالب وان يذكرلهم البعث وينذر بالنيران ويبشر بالجنان وكل واحد من هذه الامور ليس بعجب لان الرسل المبعوثين الى الامم لم يكونوا الابشرا مثلهم وارسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أيضا لان الله تعالى انما يختار للنبوة من جمع أسبابها والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من أسبابها والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى فكيف تكون عجبا انما العجب والمنكر فى العقول تعطيل الجزاء (قدم صدق عندربهم) أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة ولما كان السعى والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد وباعا لان صاحبها يبوع بها فقيل لفلان قدم فى الخير واضافتها الى صدق دلالة على زيادة فضل وانه من السوابق العظيمة أو مقام

نحوه انكارهم واستهزاءهم ﴿الى رجل منهم﴾ من افناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم قيل كانوا يقولون العجب ان الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس الايتيم ابى طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة و جهلهم بحقيقة الوحى والنبوة هذا وانه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه الا فى المال وخفة الحال اعون شئ فى هذا الباب ولذلك كان اكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقيل تعجبوا من انه بعث بشرا رسولا كما سبق ذكره فى سورة الانعام ﴿ان انذر الناس﴾ ان هى المفسرة أو المخففة من الثقيلة فتكون فى موقع مفعول اوحينا ﴿و بشر الذين آمنوا﴾ عمم الانذار اذقلما من احد ليس فيه ما ينبغى ان ينذر منه وخصص البشارة بالمؤمنين اذ ليس للكفار ما يصح ان يبشروا به حقيقة ﴿ان لهم﴾ بان لهم ﴿قدم صدق عند ربهم﴾ سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدما لان السبق بها كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد و اضافتها الى الصدق لتحققها والتنبيه على انهم

الى رجل منهم ﴾ والعجب حالة تعترى الانسان من رؤية شئ على خلاف العادة وقيل العجب حالة تعترى الانسان عند الجهل بسبب الشئ ولهذا قال بعض الحكماء العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة وبالرجل محمد صلى الله عليه وسلم منهم يعنى من أهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿أن أنذر الناس﴾ يعنى خوفهم بعقاب الله تعالى ان أصروا على الكفر والمخالفة والانذار اخبار مع تخويف كما ان البشارة اخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ اختلف عبارات المفسرين وأهل اللغة فى معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال الضحاك ثواب صدق وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال سبقت لهم السعادة فى الذكر الاول يعنى فى اللوح المحفوظ وقال زيد بن أسلم هو شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة وقيل لهم منزلة رفيعة عند ربهم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقوله مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد والفائدة فى هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لان كل شئ أضيف الى الصدق فهو ممدوح ومثله فى مقعد صدق ومدخل صدق وقال أبو عبيدة كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم فى الاسلام و قدم فى الخير و لفلان عندى قدم صدق وقدم سوء قال حسان بن ثابت

لنا القدم العليا اليك وخلفنا . لاولنا فى طاعة الله تابع

أوحينا (الى رجل منهم) آدمى مثلهم (ان أنذر الناس) ان خوف أهل مكة بالقرآن (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق) ثواب خير (وقال) ويقال اعمالهم فى الدنيا قدمهم فى الآخرة عند ربهم ويقال ان لهم صدق يقال شفيع صدق (عندربهم

صدق أوسبق السعادة (قال الكافرون ان هذا) الكتاب (لسحر مبين) مدنى وبصرى

انما ينالونها بصدق القول والنية ﴿قال الكافرون ان هذا﴾ يعنون الكتاب وماجاءبه الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿لسحر مبين﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون لساحر على ان الاشارة الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول امورا خارقة للعادة معجزة اياهم عن المعارضة * وقرئ ماهذا الا سحر مبين ﴿ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض﴾ التى هى اصول الممكنات ﴿فى ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الامر﴾ يقدر امر الكائنات على مااقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيئ بتحريكه اسبابها وينزلها منه والتدبير النظر فى ادبار الامور لتجيئ محمودة العاقبة ﴿مامن شفيع الامن بعد اذنه﴾ تقرير لعظمته وعز جلاله

وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابق والمعنى انه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة * لهم قدم معروفة ومفاخر

والسبب فى اطلاق لفظ القدم على هذه المعانى ان السعى والسبق لايحصل الا بالقدم فسمى المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد وقال ذو الرمة

لكم قدم لاينكر الناس انها * مع الحسب العادى طمت على البحر

معناه لكم سابقة عظيمة لاينكرها الناس وقال آخر

صل لذى العرش واتخذ قدما * تنجيك يوم العثار والزلل

* وقوله سبحانه وتعالى ﴿قال الكافرون ان هذا لسحر مبين﴾ وقرئ لساحر مبين وفيه حذف تقديره أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم فلما جاءهم بالوحى وأنذرهم قال الكافرون ان هذا لساحر يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وانما نسبوه الى السحر لما أتاهم بالمعجزات الباهرات التى لايقدر أحد من البشر أن يحصل مثلها ومن قرأ لسحر فانهم عنوا به القرآن المنزل عليه وانما نسبوه الى السحر لان فيه الاخبار بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك * قوله عز وجل ﴿ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ تقدم تفسير هذا فى سورة الاعراف بما فيه كفاية * وقوله سبحانه وتعالى ﴿يدبر الامر﴾ قال مجاهد يقضيه وحده وقيل معنى التدبير تنزيل الامور فى مراتبها على أحكام عواقبها وقيل انه سبحانه وتعالى يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر فى أدبار الامور وعواقبها لئلا يدخل فى الوجود مالاينبغى وقيل معناه انه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والارض فلايحدث حدث فى العالم العلوى ولافى العالم السفلى الا بارادته وتدبيره وقضائه وحكمته ﴿مامن شفيع الامن بعد اذنه﴾ يعنى لايشفع عنده شافع يوم القيامة الامن بعد ان يأذن له فى الشفاعة لانه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة فى تدبيرهم فلايجوز لاحد ان يسأله ماليس له به علم فاذا أذن له فى الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش فى قولهم ان الاصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة فاخبر الله سبحانه وتعالى أنه لايشفع أحد عنده الا باذنه لان له التصرف المطلق

وشامى ومن قرأ لساحر فهذا اشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دليل عجزهم واعترافهم به وان كانوا كاذبين فى تسميته سحرا (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) أى استولى فقد يقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود (يدبر) يقضى ويقدر على مقتضى الحكمة (الامر) أى أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والارض والعرش ولما ذكر ما يدل على عظمته وملكه من خلق السموات والارض والاستواء على العرش تبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وانه لايخرج أمر من الامور عن قضائه وتقديره وكذلك قوله (مامن شفيع الامن بعد اذنه) دليل على عزته وكبريائه

قال الكافرون) كفار مكة (ان هذا) القرآن (لسحر) كذب (مبين ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) من أيام أول الدنيا أول يوم يوم الاحد وآخر يوم يوم الجمعة طول كل يوم الف سنة (ثم استوى على العرش) استقر ويقال امتلأ به العرش (يدبر الامر) أمر العباد ويقال ينظر فى أمر العباد ويقال يبعث الملائكة بالوحى والتنزيل والمصيبة (مامن شفيع) مامن ملك مقرب ولانبى مرسل يشفع لاحد (الامن بعد اذنه) الا باذن الله

(ذلكم) العظيم الموصوف بما وصف به (الله ربكم) وهو الذى يستحق العبادة (فاعبدوه) وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من انسان او ملك فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع (أفلا تذكرون) أفلا تتدبرون فتستدلون بوجود المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع (اليه مرجعكم جيعا) حال أى لا ترجعون فى العاقبة الا اليه فاستعدوا للقائه والرجوع أو المرجع مكان الرجوع (وعدالله) مصدر مؤكد لقوله اليه مرجعكم (حقا) مصدر مؤكد لقوله وعدالله (انه يبدأ الخلق ثم يعيده) استيناف معناه التعليل لوجوب المرجع اليه (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الحكمة بابتداء الخلق واعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم (بالقسط) بالعدل وهو متعلق بيجزى أى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم أو بقسطهم أى بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا اذ الشرك ظلم ان الشرك لظلم عظيم وهذا أوجه لمقابلة قوله (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون)

ورد على من زعم ان آلهتهم تشفع لهم عندالله وفيه اثبات الشفاعة لمن اذن له ﴿ذلكم الله﴾ أى الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية ﴿ربكم﴾ لا غيره اذ لا يشاركه احد فى شئ من ذلك ﴿فاعبدوه﴾ وحدوه بالعبادة ﴿أفلا تذكرون﴾ تتفكرون ادنى تفكر فينبهكم على انه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه ﴿اليه مرجعكم جيعا﴾ بالموت أو النشور لا الى غيره فاستعدوا للقائه ﴿وعدالله﴾ مصدر مؤكد لنفسه لان قوله اليه مرجعكم وعد من الله ﴿حقا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعدالله ﴿انه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ بعد بدئه واهلاكه ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أى بعدله أو بعدالتهم وقيامهم على العدل فى امورهم أو بايمانهم لانه العدل القويم كما ان الشرك ظلم عظيم وهو الاوجه لمقابلة قوله ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون﴾ فان معناه ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب اليم بسبب كفرهم لكنه غير النظم للمبالغة فى استحقاقهم للعقاب والتنبيه على ان المقصود بالذات من الابداء والاعادة هو الاثابة والعقاب واقع بالعرض وانه تعالى يتولى اثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه واما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه اليهم سوء اعتقادهم وشؤم افعالهم

فى جميع العالم ﴿ذلكم الله ربكم﴾ يعنى الذى خلق هذه الاشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه ﴿فاعبدوه﴾ أى فاجعلوا عبادتكم له لا لغيره لانه المستحق للعبادة بما أنعم عليكم من النعم العظيمة ﴿أفلا تذكرون﴾ يعنى أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التى تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿اليه مرجعكم جيعا﴾ يعنى الى ربكم الذى خلق جميع المخلوقات مصيركم جيعا أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع ﴿وعدالله حقا﴾ يعنى وعدكم الله ذلك وعدا حقا ﴿انه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أى يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فانه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه وفى هذه الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى فيركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة اخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن فى المرة الاولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى واذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ يعنى بالعدل لا ينقص من أجورهم شيأ ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم﴾ هو ماء حار قد انتهى حره ﴿وعذاب اليم بما كانوا يكفرون

(ذلكم الله ربكم) الذى يفعل ذلك هو ربكم (فاعبدوه) فوحدوه (أفلا تذكرون) أفلا تتعظون (اليه مرجعكم بعد الموت (جيعا وعدالله حقا) صدقا كائنا (انه يبدأ الخلق) من النطفة (ثم يعيده) بعد الموت (ليجزى الذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (وعملوا الصالحات) فيما (هو) بينهم وبين ربهم (بالقسط) بالعدل الجنة (والذين كفروا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (لهم شراب من حميم) من ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم) وجيع يخلص وجعه الى قلوبهم (بما كانوا يكفرون) بمحمد عليه السلام والقرآن

والآية كالتعليل لقوله اليه مرجعكم جميعا فانه لما كان المقصود من الابداء والاعادة مجازاة الله المكلفين على اعمالهم كان مرجع الجميع اليه لامحالة و يؤيده قراة من قرأ انه يبدأ بالفتح أى لانه ويجوز ان يكون منصوبا أومرفوعا بما نصب وعد الله أو بما نصب حقا ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء﴾ اى ذات ضياء وهو مصدر كقيام اوجمع ضوء كسياط وسوط والياء فيه منقلبة عن الواو وعن ابن كثير ضئاء بهمزتين فى كل القرآن على القلب بتقديم اللام على العين ﴿والقمر نورا﴾ أى ذا نور أوسمى نورا للمبالغة وهو اعم من الضوء كما عرفت وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على انه خلق الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نيرا بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها ﴿وقدره منازل﴾ الضمير لكل واحد أى قدر مسير كل واحد منهما منازل أوقدره ذا منازل أوللقمر وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره و معاينة منازله وناطة احكام الشرع به ولذلك علله بقوله ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ حساب

هو الذى جعل الشمس ضياء﴾ يعنى ذات ضياء ﴿والقمر نورا﴾ يعنى ذا نور واختلف العلماء أصحاب الكلام فى أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة فالنور اسم لاصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية اذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص الشمس بالضياء لانها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء ولانهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر ﴿وقدره منازل﴾ قيل الضمير فى وقدره يرجع الى الشمس والقمر والمعنى قدر لهما منازل أو قدر لسيرهما منازل لايجاوزانهما فى السير ولايقصران عنها وانما وحد الضمير فى وقدره للايجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقيل الضمير فى وقدره يرجع الى القمر وحده لان سير القمر فى المنازل أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لان الشهور المعتبرة فى الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشرع هى السنة القمرية لا الشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة وهى الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت فهذه منازل القمر وهى مقسومة على اثنى عشر برجا وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت لكل برج منزلان وثلاث منزل وينزل القمر كل ليلة منزلا منها الى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة ﴿لتعلموا عدد السنين﴾ يعنى قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين وقت دخولها وانقضائها ﴿والحساب﴾ حساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها

ولوجه كلامى (هو الذى جعل الشمس ضياء) الياء فيه منقلبة عن واو ضواء لكسرة ماقبلها وقلبها قبل همزة لانها للحركة أجل (والقمر نورا) والضياء أقوى من النور فلذا جعله للشمس (وقدره) وقدر القمر أى وقدر مسيره (منازل) أو وقدره ذا منازل كقوله والقمر قدرناه منازل (لتعلموا عدد السنين) أى عدد السنين والشهور فاكتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور (والحساب) وحساب الآجال والمواقيت المقدرة

(هو الذى جعل الشمس ضياء) للعالمين بالنهار (والقمر نورا) لهم بالليل (وقدره منازل) جعل له منازل (لتعلموا عدد السنين والحساب) حساب الشهور

بالسنين والشهور (ماخلق الله ذلك) المذكور (الا) ملتبسا (بالحق) الذى هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثا (يفصل الآيات) مكى وبصرى وحفص وبالنون غيرهم (لقوم يعلمون) فينتفعون بالتأمل فيها (ان فى اختلاف الليل والنهار) فى مجئ كل واحد منهما خلف الآخر أو فى اختلاف لونيهما (وماخلق الله فى السموات والارض) من الخلائق (لآيات لقوم يتقون) خصهم بالذكر لانهم يحذرون الآخرة فيدعوهم الحذر الى النظر (ان الذين لا يرجون لقاءنا)لا يتوقعونه أصلا ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم عن التفطن للحقائق اولا يؤملون حسن لقاءنا كما يؤمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذى يجب أن يخاف (ورضوا بالحيوة الدنيا) من الآخرة وآثرو القليل الفانى على الكثير الباقى (واطمأنوا بها) وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديدا وأملوا بعيدا (والذين هم عن آياتنا غافلون) لا يتفكرون فيها ولا وقف عليه لان خبران

الاوقات من الاشهر والايام فى معاملاتكم وتصرفاتكم ﴿ماخلق الله ذلك الا بالحق﴾ الا ملتبسا بالحق مراعيا فيه مقتضى الحكمة البالغة ﴿ نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ فانهم المنتفعون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص يفصل بالياء ﴿ ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض﴾ من انواع الكائنات ﴿ لآيات ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ﴿ لقوم يتقون ﴾ العواقب فانه يحملهم على التفكر والتدبر ﴿ ان الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ لا يتوقعونه لانكارهم للبعث وذهولهم بالمحسوسات عماوراءها ﴿ورضوا بالحيوة الدنيا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها ﴿واطمأنوا بها﴾ وسكنوا اليها مقصرين هممهم على لذائذها وزخارفها أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها والعطف اما لتغاير الوصفين والتنبيه على ان الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا والانهماك فى الشهوات بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم اصلا واما لتغاير الفريقين والمراد بالاولين من انكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخرين من الهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والاعتداد له

﴿ماخلق الله ذلك الا بالحق ﴾ يعنى للحق واظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا ﴿يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ يعنى يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته ﴿ ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون ﴾ تقدم تفسير هذه الآية فى نظائرها ﴿ ان الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ يعنى لا يخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله سبحانه وتعالى مالكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * أى لم يخفه والرجاء يكون بمعنى الطمع فيكون المعنى لا يطمعون فى ثوابنا ﴿ ورضوا بالحيوة الدنيا ﴾ يعنى اختاروها وعملوا فى طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها ﴿ واطمأنوا بها ﴾ يعنى وسكنوا اليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التى حصلت فى قلوب الكفار من الميل الى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فاذا سمعوا الانذار والتخويف لم يصل ذلك الى قلوبهم ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقال ابن عباس آياتنا يعنى عن محمد

والايام (ماخلق الله ذلك الا بالحق) لبيان الحق والباطل (يفصل الآيات) يبين الآيات من القرآن لعلامات الوحدانية (لقوم يعلمون) يصدقون (ان فى اختلاف الليل والنهار) فى تقلب الليل والنهار وزيادتهما ونقصانهما وذهابهما ومجيئهما (وماخلق الله فى السموات) وفيما خلق الله من الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك (والارض) من الشجر والدواب والجبال والبحار وغير ذلك (لآيات) لعلامات لوحدانية الرب (لقوم يتقون) يطيعون (ان الذين لا يرجون) لا يخافون (لقاءنا) بالبعث بعد الموت ويقال لا يقرون بالبعث بعد الموت (ورضوا بالحيوة الدنيا اختاروا) ما فى الحياة الدنيا على الآخرة (واطمأنوا بها) رضوا بها (والذين هم عن آياتنا)عن محمد عليه الصلاة والسلام والقرآن (غافلون) جاحدون تاركون لها

﴿ صلى ﴾

(أولئك مأواهم النار)فأولئك مبتدأ ثان والنار خبره والجملة خبر أولئك والباء فى (بما كانوا يكسبون) يتعلق بمحذوف دل عليه الكلام وهو جوزوا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم

﴿ اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصى ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ﴾ بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يؤدى الى الجنة أولادراك الحقائق كما قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم أولما يريدونه فى الجنة ومفهوم الترتيب وان دل على ان سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله بايمانهم على استقلال الايمان بالسببية وان العمل الصالح كالتتمة والرديف له ﴿ تجرى من تحتهم الانهار ﴾ استيناف اوخبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الاخير وقوله ﴿ فى جنات النعيم ﴾ خبر أو حال آخرى منه او من الانهار اومتعلق بتجرى اوبيهدى ﴿ دعواهم فيها ﴾ اى دعاؤهم ﴿ سبحانك اللهم ﴾

صلى الله عليه وسلم والقرآن غافلون أى معرضون ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ يعنى من الكفر والتكذيب والاعمال الخبيثة ✽ قوله عزوجل ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ﴾ يعنى يهديهم ربهم الى الجنان ثوابا لهم بايمانهم وأعمالهم الصالحة وقال مجاهد يهديهم على الصراط الى الجنة يجعل لهم نورا يمشون به وقال قتادة بلغنا ان المؤمن اذا خرج من قبره يصور له عمله فى صورة حسنة فيقول له من أنت فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر بالضد فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الانبارى يجوز أن يكون المعنى ان الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز ان يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بايمانهم يهديهم ربهم لدينه أى بتصديقهم هداهم ﴿ تجرى من تحتهم الانهار ﴾ يعنى بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى قد جعل ربك تحتك سريا لم يرد به انه تحتها وهى قاعدة عليه بل أراد بين يديها وقيل تجرى بامرهم ﴿ فى جنات النعيم ﴾ يعنى ذلك لهم فى جنات النعيم ﴿ دعواهم فيها ﴾ أى قولهم وكلامهم فيها وقيل الدعوى بمعنى الدعاء أى دعاؤهم فيها ﴿ سبحانك اللهم ﴾ وهى كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة قال اهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم فى الطعام فاذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فيأتونهم فى الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحيفة فى كل صحيفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وقيل ان المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال اهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عزوجل والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ماروى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام قال

بايمانهم) يسددهم بسبب ايمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدى الى الثواب واذا جعل (تجرى من تحتهم الانهار) بيانا له وتفسيرا اذ التمسك بسبب السعادة كالوصول اليها أو يهديهم فى الآخرة بنور ايمانهم الى طريق الجنة ومنه الحديث ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار وهذا دليل على ان الايمان المجرد منج حيث قال بايمانهم ولم يضم اليه العمل الصالح (فى جنات النعيم) متعلق بتجرى أو حال من الانهار (دعواهم فيها سبحانك اللهم)اى دعاؤهم لان اللهم نداء لله ومعناه اللهم انا نسبحك

(اولئك مأواهم) مصيرهم (النار بما كانوا يكسبون) يقولون ويعملون فى الشرك (ان الذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم (يهديهم) يدخلهم (ربهم) الجنة (بايمانهم تجرى من تحتهم) من تحت شجرهم ومساكنهم (الانهار) أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (فى جنات النعيم دعواهم)قولهم (فيها) فى الجنة ان اشتهوا شيأ (سبحانك اللهم) فتأتى لهم

اللهم انا نسبحك تسبيحا ﴿ وتحيتهم ﴾ ما يحيي به بعضهم بعضا أو تحية الملائكة اياهم ﴿ فيها سلام وآخر دعواهم ﴾ وآخر دعائهم ﴿ ان الحمد لله رب العالمين ﴾ أى ان يقولوا ذلك ولعل المعنى انهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز باصناف الكرامات او الله تعالى فحمدوه واثنوا عليه بصفات الاكرام وان هى مخففة من الثقيلة * وقد قرئ بها وبنصب الحمد ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ ولو يسرعه اليهم ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ وضع موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم فى الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم أو بان المراد شرا استعجلوه كقولهم فامطر علينا حجارة من السماء وتقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه ﴿ لقضى اليهم اجلهم ﴾ لاميتوا واهلكوا * وقرأ ابن عامر ويعقوب لقضى على البناء للفاعل وهو الله

جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفى رواية التسبيح والحمد أخرجه مسلم * قوله جشاء أى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ يعنى يحيي بعضهم بعضا بالسلام وقيل تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم من عند ربهم بالسلام ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ قد ذكرنا ان جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشئ واذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يبتدؤن بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه وقيل انهم يفتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر فى الحديث * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ يعنى ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم فى الشر مما لهم فيه مضرة ومكروه فى نفس أو مال قال ابن عباس هذا فى قول الرجل لاهله وولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له فيه ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ يعنى كاستعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم اجابة دعائهم بالخير ﴿ لقضى اليهم أجلهم ﴾ يعنى لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعا والتعجيل تقديم الشئ قبل وقته والاستعجال طلب العجلة وقال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على انفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء السؤال يقول لو اجابهم الله اذا دعوه بالشر الذى يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم يعنى لفرغ من هلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعى بالخير ولا يستجيب له فى الشر وقيل ان هذه الآية نزلت فى النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله للكافرين العذاب

يحيي بعضهم بعضا بالسلام او هى تحية الملائكة اياهم وأضيف المصدر الى المفعول أو تحية الله لهم (وآخر دعواهم) وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح (ان الحمد لله رب العالمين) أن يقولوا الحمد لله رب العالمين ان مخففة من الثقيلة وأصله انه الحمد لله رب العالمين والضمير للشأن قيل أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد فيبتدؤن بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بالشكر والثناء عليه ويتكلمون بينهما بما أرادوا (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) أصله ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير اشعارا بسرعة اجابته لهم والمراد أهل مكة وقولهم فأمطر علينا حجارة من السماء أى ولو عجلنا لهم الشر الذى دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم اليه (لقضى اليهم أجلهم) لأميتوا وأهلكوا القضى اليهم اجلهم شامى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل

الخدام بما يشتهون (وتحيتهم فيها سلام) يحيي بعضهم بعضا بالسلام (وآخر دعواهم) قولهم بعد الاكل والشرب (ان الحمد لله رب العالمين

ولو يعجل الله للناس الشر) دعاءهم بالشر (استعجالهم بالخير) كاستعجال دعائهم بالخير (لقضى اليهم أجلهم) لهلكوا (كما)

(فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم) شركهم وضلالهم (يعمهون) يترددون ووجه اتصاله بما قبله ان قوله ولو يعجل الله متضمن معنى نفى التعجيل كأنه قيل ولانعجل لهم الشر ولانقضى اليهم أجلهم فنذرهم فى طغيانهم أى فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم الزاما للحجة عليهم (واذامس الانسان)أصابه والمراد به الكافر (الضر دعانا) أى دعاالله لازالته (لجنبه)فى موضع الحال بدليل عطف الحالين أى (اوقاعدا أوقائما) عليه أى دعانا مضطجعا وفائدة ذكر هذه الاحوال ان المضرور لايزال داعيا لايفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر فهو يدعونا فى حالاته كلها كان مضطجعا عاجزا عن النهوض أوقاعدا لايقدر على القيام أوقائما لايطيق المشى (فلما كشفنا عنه ضره) أزلنامابه (مر كأن لم يدعنا الى ضره مسه) أى مضى على طريقته الاولى قبل مس الضرو نسى حال الجهد أومر عن موقف الابتهال والتضرع لايرجع اليه كأنه لاعهدله به والاصل كأنه لم يدعنا فخفف و حذف ضمير الشان (كذلك) مثل ذلك التزيين (زين للمسرفين) للمجاوز الحد فى الكفر زين الشيطان بوسوسته (ماكانوا يعملون) من الاعراض عن الذكر

تعالى * وقرئ لقضينا ﴿ فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل ولكن لانعجل ولانقضى فنذرهم امهالا لهم واستدراجا ﴿ واذامس الانسان الضر دعانا ﴾ لازالته مخلصا فيه ﴿ لجنبه ﴾ ملقى لجنبه أى مضطجعا ﴿ أوقاعدا أوقائما ﴾ وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الاحوال أولاصناف المضار ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر ﴾ يعنى مضى على طريقته واستمر على كفره أومر عن موقف الدعاء لايرجع اليه ﴿ كأن لم يدعنا ﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشان كما قال

ونحر مشرق اللون * كأن ثدياه حقان

﴿ الى ضر مسه ﴾ الى كشف ضر ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿ زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ من الانهماك

كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعا ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى ﴿ فنذر الذين لايرجون لقاءنا ﴾ يعنى فندع الذين لايخافون عقابنا ولايؤمنون بالبعث بعد الموت ﴿ فى طغيانهم ﴾ يعنى فى تمردهم وعتوهم ﴿ يعمهون ﴾ يعنى يترددون (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انى اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فانما أنا بشر اغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أولعنته أوجلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة * قوله عزوجل ﴿ واذامس الانسان الضر ﴾ أى الشدة والجهد والمراد بالانسان فى هذه الآية الكافر ﴿ دعانا لجنبه ﴾ أى على جنبه مضطجعا ﴿ أوقاعدا أوقائما ﴾ يريد جميع حالاته لان الانسان لاينفك عن احدى هذه الحالات الثلاث والمعنى ان المضرور لايزال داعيا فى جميع حالاته الى ان ينكشف ضره سواء كان مضطجعا أوقاعدا أوقائما وقال الزجاج وجائز ان يكون المعنى اذامس الانسان الضر لجنبه أومسه قاعدا أومسه قائما وهذا القول فيه بعد لان ذكر الدعاء الى هذه الاحوال أقرب من ذكر الضر ﴿ فلما كشفنا عنه ضره ﴾ يعنى فلما أزلنا عنه مانزل به من الضر ودفعناه عنه ﴿ مر ﴾ يعنى على طريقته الاولى قبل مس الضر ﴿ كأن لم يدعنا ﴾ فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وانما أسقط الضمير على سبيل التخفيف ﴿ الى ضر مسه ﴾ والمعنى انه استمر على حالته الاولى قبل أن يمسه الضر ونسى ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ يعنى مثل مازين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان

(فنذر الذين لايرجون لقاءنا) لايخافون البعث بعد الموت (فى طغيانهم)فى كفرهم وضلالتهم(يعمهون)(قا و خا ٣٠ ثالث) يمضون عمهة لايبصرون (واذامس الانسان الضر) اذا أصاب الكافر الشدة أوالمرض وهو هشام بن المغيرة المخزومى (دعانا لجنبه) مضطجعا (أوقاعدا أوقائما فلما كشفنا عنه ضره) رفعنا ما كان به من الشدة والبلاء (مر) استمر على ترك الدعاء (كأن لم يدعنا الى ضر) الى شدة (مسه) اصابه (كذلك) هكذا (زين للمسرفين) للمشركين (ما كانوا يعملون) فى الشرك من الدعاء فى الشدة وترك

واتباع الكفر (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) أشركوا وهو ظرف لاهلكنا والواو فى (وجاءتهم رسلهم) للحال أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم (بالبينات) بالمعجزات (وما كانوا ليؤمنوا) ان بقوا ولم يهلكوا لان الله علم منهم انهم يصرون على كفرهم و هو عطف على ظلموا أو اعتراض واللام لتأكيد النفى يعنى أن السبب فى اهلاكهم تكذيبهم للرسل و علم الله أنه لا فائدة فى امهالهم بعد ان ألزموا الحجة ببعثة الرسل (كذلك) مثل ذلك الجزاء يعنى الاهلاك (نجزى القوم المجرمين) وهو وعيد لاهل مكة على اجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم) الخطاب للذين بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم أى استخلفناكم فى الارض بعد القرون التى اهلكناها (لننظر كيف تعملون) أى

فى الشهوات والاعراض عن العبادات ﴿ ولقد اهلكنا القرون من قبلكم ﴾ يا اهل مكة ﴿ لما ظلموا ﴾ حين ظلموا بالتكذيب و استعمال القوى و الجوارح لا على ما ينبغى ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم و هو حال من الواو باضمار قد أو عطف على ظلموا ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ و ما استقام لهم ان يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم و علمه بانهم يموتون على كفرهم واللام لتأكيد النفى ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الجزاء وهو اهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل واصرارهم عليه بحيث تحقق انه لا فائدة فى امهالهم ﴿ نجزى القوم المجرمين ﴾ نجزى كل مجرم أو نجزيكم فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وانهم اعلام فيه ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التى اهلكناها استخلاف من يختبر ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ أتعملون خيرا أو شرا فنعاملكم

وذلك باقدار الله اياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد فى كل شئ وانما سمى الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه وضيعها فى عبادة الاصنام وأتلف ماله وضيعه فى البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الاصنام وسدنتها يعنى خدامها وقال ابن جريج فى قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعنى من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء وقيل كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم وبيان مقصود الآية ان الانسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فاذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع فى جميع حالاته مجتهدا فى الدعاء طالبا من الله ازالة ما نزل به من المحنة والبلاء فاذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع الى ما كان عليه أولا وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فانه بخلاف ذلك فيكون صابرا عند البلاء شاكرا لله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء فى جميع أوقات الراحة والرفاهية وههنا مقام أعلى من هذا وهو ان المؤمن اذا ابتلى ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكرا لله عز وجل فى جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن ان الله تبارك وتعالى مالك الملك على الاطلاق حكيم فى جميع افعاله وله التصرف فى خلقه بما يشاء ويعلم انه ان أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد اهلكنا القرون من قبلكم ﴾ يعنى أهلكنا الامم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة ﴿ لما ظلموا ﴾ يعنى لما أشركوا ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ يعنى فكذبوهم ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ يعنى هذه الامم برسلهم ويصدقوهم بما جاؤا به من عند الله ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ يعنى كما اهلكنا الامم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم ﴾ الخطاب لاهل مكة الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء فى الارض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ يعنى خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب أعمالكم

الدعاء فى الرخاء (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) حين كفروا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) بالامر والنهى والعلامات (وما كانوا ليؤمنوا) يقول لم يؤمنوا بما كذبوا به يوم الميثاق (كذلك) هكذا (نجزى القوم المجرمين) المشركين بالهلاك (ثم جعلناكم) يا أمة محمد صلى الله عليه و سلم (خلائف) استخلفناكم (فى الارض من بعدهم) من بعد هلاكهم (لننظر كيف تعملون) ماذا تعملون (والنظر)

لننظر أتعملون خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب عملكم

على مقتضى اعمالكم وكيف معمول تعملون فان معنى الاستفهام يحجب ان يعمل فيه ماقبله وفائدته الدلالة على ان المعتبر في الجزاء جهات الافعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسن الفعل تارة ويقبح اخرى ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ يعني المشركين ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه مانستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت أو مانكرهه من معائب آلهتنا ﴿أو بدله﴾ بان تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية اخرى ولعلهم سألوا ذلك كي يسعفهم اليه فيلزموه ﴿قل ما يكون لي﴾ مايصح لي ﴿ان ابدله من تلقاء نفسي﴾ من قبل نفسي وهو مصدر استعمل ظرفا وانما اكتفى بالجواب عن التبديل

والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم مايكون قبل أن يكون قال اهل المعاني معنى النظر هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى اظهارا للعدل لانه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى ليبلوكم أيكم احسن عملا ذكره الواحدي والرازي (م) عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء أخرجه مسلم * قوله فاتقوا الدنيا معناه احذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء * قوله سبحانه وتعالى ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ يعني واذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه اليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث فانه لا يرجون ثوابا ولا يخاف عقابا ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ قال قتادة قال ذلك مشركو مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز ابن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام قال هؤلاء للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالا ومكان حلال حراما قال الامام فخر الدين الرازي اعلم ان اقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين * أحدهما انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء * الثاني أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كان كاذبا في قوله ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله ومعنى قوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتي بقرآن آخر مع وجود هذا القرآن والتبديل لا يكون الا مع وجوده وهو ان يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يجيبهم بقوله ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء ﴿ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ يعني ان هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس

وكيف في محل النصب بتعملون لا بننظر لان معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله والمعنى انتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار بماضيكم أم الاغترار بما فيكم قال عليه السلام الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) حال (قال الذين لا يرجون لقاءنا) لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد لاهل الطغيان (ائت بقرآن غير هذا) ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك (أو بدله) بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها فأمر بأن يجيب عن التبديل لانه داخل تحت قدرة الانسان وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله (قل ما يكون لي) ما يحل لي (أن أبدله من تلقاء نفسي)

من الخير (واذا تتلى عليهم) تقرأ على المستهزئين الوليد بن المغيرة وأصحابه (آياتنا بينات) مبينات بالامر والنهي (قال الذين لا يرجون لقاءنا) لا يخافون البعث بعد الموت وهم مستهزؤن (ائت) يا محمد (بقرآن غير هذا أو بدله) غيره فاجعل آية الرحمة آية العذاب وآية العذاب آية الرحمة (قل) لهم يا محمد (ما يكون لي) ما يجوز لي (أن أبدله) أن أغيره (من تلقاء نفسي)

من قبل نفسى (ان أتبع الا مايوحى الى) لاأتبع الاوحى الله من غير زيادة ولانقصان ولاتبديل لان الذى أتيت به من عندالله لامن عنـدى فابدله (انى أخاف ان عصيت ربى) بالتبديل من عنـد نفسى (عذاب يوم عظيم) أى يوم القيامة واما الاتيان بقرآن آخر فلا يقدرعليه الانسـان وقد ظهر لهم العجز عنـه الا انهم كانوا لايعترفون بالعجز ويقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا ولايحتمل أن يريدوا بقوله ائت بقرآن غيرهذا أو بدله من جهة الوحى لقوله انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم وغرضهم فى هذا الاقتراح الكيد اما اقتراح ابدال قرآن بقرآن ففيه انه من عندك وانك قادرعلى مثله فابدل القرآن مكانه آخر واما اقتراح التبديل فلاختيار الحال وانه ان وجد منه تبديل فاما أن يهلكه الله فينجوا منه أولا يهلكه فيسخروا منـه . فيجعلوا التبـديل حجة عليه وتصحيحا لافترائه على الله (قل لو شـاء الله ماتلوته عليكم) يعنى ان تلاوته ليست الا بمشيئة الله واظهاره أمرا عجيبا خارجا عن العادات و هو ان يخرج رجل أمى لم يتعلم ولم يشـاهد العلماء فيقرأ عليكم كتابا فصيحا بغلب كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم مشحونا بعلوم الاصول والفروع والاخبـار عن الغيـوب الـتى لايعلمهـا الا الله (ولا ادراكم به) ولا اعلمكم الله بالقرآن على لسانى (فقد لبثت فيكم عمرا من قبـله) من قبل نزول القرآن أى فقد أقمت فيما بينكم أربعين سنة ولم تعرفونى متعاطيا شيأ من نحوه ولاقدرت عليه ولا كنت موصوفا بعلم وبيان فتتهمونى باختراعه (جاءهم)

لاسـتلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن آخر ﴿ ان اتبع الا مايوحى الى ﴾ تعليل لمـا يكون فان المتبـع لغيره فى امر لم يسـتبد بالتصرف فيـه بوجه وجـواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا له بهذا السؤال من ان القرآن كلامه واختراعه ولذلك قيد التبديل فى الجواب وسماه عصيانا فقال ﴿ انى اخاف ان عصيت ربى ﴾ أى بالتبديل ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وفيه ايماء بانهم استوجبوا العـذاب بهذا الاقتراح ﴿ قل لو شـاء الله ﴾ غير ذلك ﴿ ماتلوته عليكم ولا ادراكم به ﴾ ولا اعلمكم به على لسانى * وعن ابن كثير ولأدراكم به بلام التأكيد أى لو شـاء الله ماتلوته عليكم ولاعلمكم به على لسان غيرى والمعنى انه الحق الذى لامحيص عنه لو لم ارسل به لارسـل به غيرى * وقرئ ولاادرأكم ولاادرأتكم بالهمزة فيهما على لغة من يقلب الالف المبدلة من الياء همزة أو على انه من الدرء بمعنى الدفع أى ولاجعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤننى بالجدال والمعنى ان الامر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتى حتى اجعله على نحو ماتشتهونه ثم قرر ذلك بقوله ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا ﴾ مقدار عمره اربعين سنة ﴿ من قبله ﴾ من قبل القرآن لااتلوه ولااعلمه فانه اشـارة الى ان القرآن معجز خارق للعادة فان من عاش بين اظهرهم اربعين سنة لم يمارس فيها علما ولم يشاهد عالما ولم ينشئ

الى ومايبنغى لى ان أغيره من قبل نفسى ولم أومر به ﴿ ان أتبع الا مايوحى الى ﴾ يعنى فيما آمركم به أو أنهاكم عنه وما أخبركم الا مايخبرنى الله به وان الذى أتيتكم به هو من عند الله لامن عندى ﴿ انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ أى قل لهم يا محمد انى أخشى من الله ان خالفت أمره أو غيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك أن يعذبنى بعذاب عظيم فى يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت * قوله سبحانه وتعالى ﴿ قل ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله ﴿ لو شاء الله ماتلوته عليكم ﴾ يعنى لو شاء الله لم ينزل على هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم ﴿ ولا أدراكم به ﴾ قال ابن عباس ولا أدراكم الله به ولا أعلمكم به ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ﴾ يعنى فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى الى هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشئ ووجه هذا الاحتجاج ان كفـار مكة كانوا قد شـاهدوا رسـول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وعلموا أحواله وانه كان أميا لم يطالع كتابا ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحى وذلك أربعون سـنة ثم بعد الاربعين

من قبل نفسى (ان أتبع الا مايوحى الى) ما أقول وما أعمل الا بما يوحى الى فى القرآن (انى اخاف) أعلم (ان عصيت ربى) فبدلته ان يكون على (عذاب يوم عظيم) شديد (قل) يا محمد (لو شاء الله) ان لا أكـون رسـولا (ماتلوته عليكم) ماقرأت القرآن عليكم (ولا ادراكم به) يقول ولا أعلمكم به بالقرآن (فقد لبثت) مكثت (فيكم عمرا) أربعين سنة (من قبله) من قبل القرآن

قريضا ولا خطبة ثم قرأ عليهم كتابا بذت فصاحته فصاحة كل منطيق وعلا عن كل منثور ومنظوم واحتوى على قواعد علمي الاصول والفروع واعرب عن اقاصيص الاولين واحاديث الآخرين على ما هي عليه علم انه معلم به من الله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا انه ليس الا من الله ﴿ فمن اظلم ممن

جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الاحكام والآداب ومكارم الاخلاق والفصاحة والبلاغة ما أعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفهم ثاقب يعلم ان هذا لم يحصل الا بوحي من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعني ان هذا القرآن من عند الله أوحاه الى لا من قبل نفسي (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة فهاجر الى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي صلى الله عليه وسلم وفي رواية ان رسول الله صلى الله عليه سلم أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليه وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة وفي رواية ان النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيأ وثمان سنين يوحى اليه وأقام بالمدينة عشرا وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (م) عن أنس رضي الله عنه قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه مسلم (ق) عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن رضي الله عنه قال سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أزهر اللون ليس بالابيض الامهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي وبالمدينة عشرا وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء أخرجاه في الصحيحين * قال الشيخ محيي الدين النووي ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احدها انه صلى الله عليه وسلم توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على ان أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضا بأنها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعني صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني نور الملائكة أو نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافهه بالوحي من الله عز وجل * وقوله ليس بالابيض الامهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص والمراد انه كان أزهر اللون بين البياض والحمرة * قوله عز وجل ﴿ فمن أظلم ممن

(أفلا تعقلون) فتعلموا انه ليس الا من عند الله لا من مثلي وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه (فمن أظلم ممن

ولم أقل من هذا شيأ (أفلا تعقلون) أفليس لكم ذهن الانسانية انه ليس من تلقاء نفسي (فمن اظلم) اعتى واجرأ على الله (ممن

افترى على الله كذبا﴾ تفاديا مما اضافوه اليه كناية أو تظليم للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم انه لذو شريك وذو ولد ﴿أو كذب بآياته﴾ فكفر بها ﴿انه لا يفلح المجرمون ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ لانه جماد لا يقدر على نفع ولا ضر والمعبود ينبغي ان يكون مثيبا ومعاقبا حتى يعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر ﴿ويقولون هؤلاء﴾ الاوثان ﴿شفعاؤنا عند الله﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من امور الدنيا وفي الآخرة ان يكن بعث وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجد الضار النافع الى عبادة ما يعلم قطعا انه لا يضر ولا ينفع على توهم انه ربما يشفع لهم عنده ﴿قل أتنبئون الله﴾ أتخبرون ﴿بما لا يعلم﴾ وهو ان له شريكا وفيه تقريع وتهكم بهم أو هؤلاء شفعاؤنا عنده وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق ما ﴿في السموات ولا في الارض﴾ حال من العائد المحذوف مؤكدة للنفي منبهة على ان ما يعبدون دون الله اما سماوي واما ارضي ولا شئ من الموجودات فيهما الا

افترى على الله كذبا﴾ يعني فزعم ان له شريكا وولدا والمعنى اني لم أفتر على الله كذبا ولم أكذب عليه في قولي ان هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم ان له شريكا وولدا والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل معناه ان هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه مني من حيث اني افتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه الي وجب أن يقال ليس أحد في الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث انكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى ﴿أو كذب بآياته﴾ يعني جحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد ﴿انه لا يفلح المجرمون﴾ يعني المشركين وهذا وعيد وتأكيد لما سبق ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ يعني ويعبد هؤلاء المشركون الاصنام التي لا تضرهم ان عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم ان عبدوها لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وان العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع ويحيي ويميت وهذه الاصنام جماد وحجارة لا تضر ولا تنفع ﴿ويقولون هؤلاء﴾ يعني الاصنام التي يعبدونها ﴿شفعاؤنا عند الله﴾ قال أهل المعاني توهموا ان عبادتها أشد في تعظيم الله من عبادتهم اياه وقالوا لسنا بأهل أن نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الاصنام فانها تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وفي هذه الشفاعة قولان أحدهما انهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة قال ابن جريج عن ابن عباس والثاني انها تشفع لهم في الدنيا في اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض﴾ يعني أتخبرون الله ان له شريكا ولا يعلم الله لنفسه شريكا في السموات ولا في الارض وهذا على طريق الالزام والمقصود نفي علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا

افترى على الله كذبا) يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك وذو ولد وان يكون تفاديا مما أضافوه اليه من الافتراء (او كذب بآياته) بالقرآن فيه بيان ان الكاذب على الله والمكذب بآياته في الكفر سواء (انه لا يفلح المجرمون ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم) ان تركوا عبادتها (ولا ينفعهم) ان عبدوها (ويقولون هؤلاء) أي الاصنام (شفعاؤنا عند الله) أي في أمر الدنيا ومعيشتها لانهم كانوا لا يقرون بالبعث وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت أو يوم القيامة ان يكن بعث ونشور (قل أتنبئون الله بما لا يعلم) أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو انباء بما ليس بمعلوم لله واذا لم يكن معلوما له وهو عالم بجميع المعلومات لم يكن شيأ وقوله (في السموات ولا في الارض) تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد

افترى) اختلق (على الله كذبا أو كذب بآياته) بمحمد عليه السلام والقرآن (انه لا يفلح) لا ينجو ولا يأمن (المجرمون) المشركون من عذاب الله (ويعبدون) كفار مكة (من دون الله ما لا يضرهم) ان لم يعبدوا في الدنيا ولا في الآخرة (ولا ينفعهم) ان عبدوا في الدنيا ولا في الآخرة (ويقولون هؤلاء) يعنون الاوثان (شفعاؤنا) يشفعون لنا (عند الله قل) لهم يا محمد (أتنبئون الله) أتخبرون الله (بما لا يعلم) ان ليس (في السموات ولا في الارض) اله ينفع أو يضر (لعلمه)

وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق ان يشرك به ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ عن اشراكهم وعن الشركاء الذين يشركونهم به . وقرأ حمزة والكسائى هنا وفى الموضعين فى اول النحل والروم بالتاء ﴿ وما كان الناس الا امة واحدة ﴾ موجودين على الفطرة أو متفقين على الحق و ذلك فى عهد آدم عليه السلام الى ان قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان او على الضلال فى فترة من الرسل ﴿ فاختلفوا ﴾ باتباع الهوى والاباطيل أو ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام فتبعتهم طائفة واصرت اخرى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو العذاب الفاصل بينهم الى يوم القيامة فانه يوم الفصل والجزاء ﴿ لقضى بينهم ﴾ عاجلا ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ باهلاك المبطل وابقاء المحق

لعلمه الله وحيث لم يكن معلوما لله وجب أن لا يكون موجودا ومثل هذا مشهور فى العرف فان الانسان أذا أراد نفى شئ حصل فى نفسه يقول ما علم الله ذلك منى مقصوده انه ما حصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والاضداد والانداد وتعالى أن يكون له شريك فى السموات والارض ولا يعلمه * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ يعنى فتفرقوا الى مؤمن وكافر يعنى كانوا جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام ويدل على ذلك ان آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الاسلام الى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا و قيل بقوا على ذلك الى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وقيل انهم كانوا على دين الاسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الاسلام من عهد ابراهيم الخليل عليه السلام الى أن غيره عمرو بن لحى فعلى هذا القول يكون المراد من الناس فى قوله وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة وقيل كان الناس أمة واحدة يعنى فى الكفر وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وتقديره انه لا مطمع فى أن يصير الناس على دين واحد فانهم كانوا أولا على الكفر وانما أسلم بعضهم ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل كان الناس أمة واحدة وليس فى الآية ما يدل على أى دين كانوا من ايمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل معناه انهم كانوا فى أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا فى الاديان واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه والمراد بالفطرة فى الحديث فطرة الاسلام * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلا و قضى بذلك فى سابق الازل قال الكلبى هى امهال هذه الامة و انه لا يهلكهم بالعذاب ﴿ لقضى بينهم ﴾ يعنى بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ وقال الحسن ولولا كلمة سبقت من ربك يعنى مضت فى حكمة الله انه لا يقضى عليهم فيما اختلفوا

فيهما فهو معدوم (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه ذاته عن ان يكون له شريك وبالتاء حمزة وعلى وما موصولة أو مصدرية أى عن الشركاء الذين تشركونهم به أو عن اشراكهم (وما كان الناس الا أمة واحدة) حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك فى عهد آدم عليه السلام الى ان قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا (فاختلفوا) فصاروا مللا (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم بينهم الى يوم القيامة (لقضى بينهم) عاجلا (فيما فيه يختلفون) فيما اختلفوا فيه وليميز المحق من المبطل وسبق كلمته لحكمة وهى ان هذه الدار دار تكليف وتلك الدار دار ثواب

غيره (سبحانه) نزه نفسه عن الولد والشريك (وتعالى) ارتفع وتبرأ (عما يشركون) به من الاوثان (وما كان الناس) فى زمان ابراهيم ويقال فى زمن نوح (الا أمة واحدة) على ملة واحدة ملة الكفر فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين (فاختلفوا) فصاروا مؤمنين وكافرين (ولولا كلمة) بتأخير العذاب عن هذه الامة (سبقت من ربك) وجبت من ربك (لقضى بينهم) اهلكوا (فيما فيه) فى الدين (يختلفون) يخالفون

وعقاب (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) أى آية من الآيات التى اقترحوها (فقل انما الغيب لله) أى هو المختص بعلم الغيب
فهو العالم بالصارف عن انزال الآيات المقترحة لاغير (فانتظروا) نزول ما اقترحتموه (انى معكم من المنتظرين) لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات (واذا أذقنا الناس) أهل مكة (رحمة) خصبا وسعة (من بعد ضراء مستهم) يعنى القحط والجوع (اذا لهم مكر فى آياتنا) اى مكروا بآياتنا بدفعها وانكارها روى انه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فلما رحمهم طفقوا يطعنون فى آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه فاذا الاولى للشرط والثانية جوابها وهى للمفاجأة وهو كقوله وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون أى وان تصبهم سيئة قنطوا واذا أذقنا الناس رحمة مكروا والمكر اخفاء الكيد وطية من الجارية الممكورة المطوية الخلق ومعنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم

﴿ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه﴾ أى من الآيات التى اقترحوها ﴿فقل انما الغيب لله﴾ هو المختص بعلمه فلعله يعلم فى انزال الآيات المقترحة مفاسد تصرف عن انزالها ﴿فانتظروا﴾ لنزول ما اقترحتموه ﴿انى معكم من المنتظرين﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل عليه من الآيات العظام واقتراحكم غيره ﴿واذا اذقنا الناس رحمة﴾ صحة وسعة ﴿من بعد ضراء مستهم﴾ كقحط ومرض ﴿اذا لهم مكر فى آياتنا﴾ بالطعن فيها والاحتيال فى دفعها قيل قحط اهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم الله بالحيا فطفقوا

فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضى بينهم فى الدنيا فادخل المؤمنين الجنة بايمانهم وأدخل الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الاجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله انه لايؤاخذ أحدا الابعد اقامة الحجة عليه وقيل الكلمة التى سبقت من الله هى قوله ان رحمتى سبقت غضبى ولو لا رحمته لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ولكن أخرهم برحمته الى يوم القيامة ثم نقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعنى فى الدنيا ﴿ويقولون﴾ يعنى كفار مكة ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعنى هلا انزل على محمد ما نقترحه عليه من الآيات ﴿فقل﴾ أى فقل لهم يا محمد ﴿انما الغيب لله﴾ يعنى ان الذى سألتمونيه هو من الغيب وانما الغيب لله لايعلم أحد ذلك الا هو والمعنى لايعلم أحد متى نزول الآية الا هو ﴿فانتظروا﴾ يعنى نزولها ﴿انى معكم من المنتظرين﴾ وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا باظهار المحق على المبطل انى معكم من المنتظرين * قوله عزوجل ﴿واذا أذقنا الناس رحمة﴾ يعنى رخاء ونعمة ﴿من بعد ضراء مستهم﴾ يعنى من بعد شدة و بلاء وضيق فى العيش أصابهم والمراد بالناس هنا كفار مكة وذلك ان الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم ان الله سبحانه و تعالى رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى الفساد و الكفر والمكر وهو قوله سبحانه و تعالى ﴿اذا لهم مكر فى آياتنا﴾ قال مجاهد أى تكذيب واستهزاء وقال مقاتل بن حيان لايقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ويدل على صحة هذا القول ماروى عن زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب أخرجاه فى الصحيحين * قوله على أثر سماء كانت من الليل أى مطر كان قد وقع فى الليل وسمى المطر سماء لانه يقطر

(ويقولون) يعنى كفار مكة (لولا أنزل عليه) هلا أنزل على محمد عليه السلام (آية) علامة (من ربه) على مايقول (فقل) يا محمد (انما الغيب لله) بنزول الآية (فانتظروا) هلاكى (انى معكم من المنتظرين) لهلاككم (واذا أذقنا الناس) أعطينا الكفار (رحمة) (من) نعمة (من بعد ضراء) شدة (مستهم) أصابتهم (اذا لهم مكر) تكذيب (فى آياتنا) بمحمد عليه السلام والقرآن

يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله ﴿قل الله اسرع مكرا﴾ منكم قد دبر عقابكم قبل ان تدبروا كيدكم وانما دل على سرعتهم المفضل عليها كلمة المفاجأة الواقعة جوابا لاذا الشرطية والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى اما الاستدراج او الجزاء على المكر ﴿ان رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على ان ما دبروا في اخفائه لم يخف على الحفظة فضلا ان يخفى على الله تعالى وعن يعقوب يمكرون بالياء ليوافق ما قبله ﴿هو الذي يسيركم﴾ يحملكم على السير ويمكنكم منه ﴿في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك﴾ في السفن ﴿وجرين بهم﴾ بمن فيها عدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كأنه يذكره لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم ﴿بريح طيبة﴾ لينة

من السماء والانواء عند العرب هي منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون في الجاهلية انه لابد عند ذلك من وجود مطر أو ريح كما يزعم المنجمون أيضا فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لانه ناء أي ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبي عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفر معتقده اذا اعتقد ان النجم فاعل ذلك التأثير وأما من يجعله دليلا فهو جاهل بمعنى الدلالة واما من أسند ذلك الى العادة التي يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكرا لان المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون في دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من المفاسد ﴿قل الله أسرع مكرا﴾ أي قل لهم يا محمد الله أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء وان عذابه في هلاككم أسرع اليكم مما يأتي منكم في دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بمكر أشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة ﴿ان رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ يعني الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الاعمال القبيحة السيئة الى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم * قوله تعالى ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ يعني هو الله الذي يسيركم يعني يحملكم في البر على ظهور الدواب وفي البحر على الفلك وقيل معناه هو الله الهادي لكم في السير في البر والبحر طلبا للمعاش أو هو المهيء لكم أسباب السير في البر والبحر ﴿حتى اذا كنتم في الفلك﴾ يعني السفن ولفظة الفلك تطلق على الواحد والجمع وتقديراهما مختلفان فان أريد بها الواحد كان كبناء قفل وان أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى ﴿وجرين بهم﴾ يعني وجرت السفن بركابها فان قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة قلت قال صاحب الكشاف المقصود منه المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الانكار والتقبيح وقال غيره ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى الغائب وقيل ان الالتفات في الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب ﴿بريح طيبة﴾

وانما قال (قل الله أسرع مكرا) ولم يصفهم بسرعة المكر لان كلمة المفاجأة دالة على ذلك كأنه قال واذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا اليه قبل ان يغسلوا رؤسهم من مس الضراء (ان رسلنا) يعني الحفظة (يكتبون ما تمكرون) اعلام بان ما تظنونه خافيا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم وبالياء سهل (هو الذي يسيركم في البر والبحر) يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالارجل والدواب والفلك الجارية في البحار أو يخلق فيكم السير ينشركم شامي (حتى اذا كنتم في الفلك) أي السفن (وجرين) أي السفن (بهم) بمن فيها رجوع من الخطاب الى الغيبة للمبالغة (بريح طيبة) لينة الهبوب لا عاصفة ولاضيفة

(قل الله أسرع مكرا) أشد عقوبة أهلكهم الله يوم بدر (ان رسلنا) الحفظة (يكتبون ما تمكرون) ما تقولون من الكذب وتعملون من المعاصي (هو الذي يسيركم) يحفظكم اذا سافرتم (في البر) على الدواب (والبحر) وفي البحر في السفن (حتى اذا كنتم في الفلك) ركبتم في السفن (قا و خا ٣١ لث) (وجرين بهم) جرت السفن بأهلها (بريح طيبة) لينة ساكنة

(وفرحوا بها) بتلك الريح للينها واستقامتها (جاءتها) أى الفلك أو الريح الطيبة أى تلقتها (ريح عاصف) ذات عصف أى شديدة الهبوب (وجاءهم الموج) هو

الماء (من كل مكان) من البحر أو من جميع أمكنة الموج (وظنوا انهم أحيط بهم) أهلكوا جعل احاطة العدو بالحى مثلا فى الاهلاك (دعوا الله مخلصين له الدين) من غير اشراك به لانهم لايدعون حينئذ معه غيره يقولون (لئن أنجيتنا من هذه) الاهوال أو من هذه الريح (لنكونن من الشاكرين) لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ولم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما فى حيزها كأنه قيل يسيركم حتى اذا وقعت هذه الحادثة وكانت كيت وكيت من مجئ الريح العاصف وتراكم الامواج والظن والهلاك والدعاء بالانجاء وجواب اذا جاءتها ودعوا بدل من ظنوا لان دعاءهم من لوازم ظنهم للهلاك فهو ملتبس به (فلما أنجاهم اذاهم يبغون فى الارض) يفسدون فيها (بغير الحق)

الهبوب ﴿وفرحوا بها﴾ بتلك الريح ﴿جاءتها﴾ جواب لاذا والضمير للفلك أو الريح الطيبة بمعنى تلقتها ﴿ريح عاصف﴾ ذات عصف شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ يجئ الموج منه ﴿وظنوا انهم احيط بهم﴾ اهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن احاط به العدو ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ من غير اشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف وهو بدل من ظنوا بدل اشتمال لان دعاءهم من لوازم ظنهم ﴿لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ على ارادة القول أو مفعول دعوا لانه من جملة القول ﴿فلما انجاهم﴾ اجابة لدعائهم ﴿اذاهم يبغون فى الارض﴾ فاجاؤا الفساد فيها وسارعوا الى ما كانوا عليه ﴿بغير الحق﴾ مبطلين فيه وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة واحراق زروعهم وقلع اشجارهم

يعنى وجرت السفن بريح طيبة ساكنة ﴿وفرحوا بها﴾ يعنى وفرح ركبان تلك الفلك بتلك الريح الطيبة لان الانسان اذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ قيل ان الضمير فى جاءتها يرجع الى الريح فيكون المعنى جاءت الريح الطيبة ريح عاصف شديدة فأقبلتها وقيل الضمير فى جاءتها يرجع الى الفلك يعنى جاءت الفلك ريح عاصف يقال ريح عاصف وعاصفة ومعنى عصفت الريح اشتدت وأصل العصف السرعة وانما قال عاصف لانه أراد به ذات عصوف أو لاجل ان لفظ الريح قد يذكر ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ يعنى وجاء ركبان السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه ﴿وظنوا انهم أحيط بهم﴾ يعنى وظنوا ان الهلاك قد أحاط بهم وأحدق وقيل المراد من الظن اليقين أى وأيقنوا انه الهلاك وقيل بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ يعنى انهم أخلصوا فى الدعاء لله عز وجل ولم يدعوا أحدا سواه من آلهتهم وقيل فى معنى هذا الاخلاص العلم والحقيقى لا اخلاص الايمان لانهم كانوا يعلمون حقيقة أنه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا الا الله تعالى فكانوا اذا وقعوا فى شدة وضر وبلاء أخلصوا لله الدعاء ﴿لئن أنجيتنا﴾ أى قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا ﴿من هذه﴾ يعنى من هذه الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ يعنى من الشاكرين لك على انعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة ﴿فلما انجاهم﴾ يعنى فلما انجى الله هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها ﴿اذاهم يبغون فى الارض بغير الحق﴾ يعنى انهم أخلفوا الله ما وعدوه وبغوا فى الارض فتجاوزوا فيها الى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصى على ظهرها وأصل البغى

(وفرحوا بها) اعجب الملاحون بالريح الساكنة (جاءتها) أى السفن (ريح عاصف) قاصف شديد (وجاءهم الموج) ركبهم الموج (من كل مكان) ناحية (وظنوا) علموا وايقنوا (انهم أحيط بهم) أهلكوا (دعوا الله مخلصين له الدين) مفردين له بالدعاء (لئن أنجيتنا من هذه) الريح والشدة (لنكونن من الشاكرين) من المؤمنين المطيعين (فلما أنجاهم) من الريح والغرق (اذاهم يبغون) يتطاولون (فى الارض بغير الحق) مجاوزة

باطلا أى مبطلين (يا أيها النـاس انما بغيكم على أنفسكم) أى ظلمكم يرجع اليكم كقوله من عمل صالحا فلنفسـه ومن أساء فعليها (متاع الحيوة الدنيا) حفص أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر لبغيكم غيره بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته كقوله فبغى عليهم ومعناه انما بغيكم على امثالكم أوهو خبر ومتـاع خبر بعـد خبر أومتاع خبر مبتدأ مضمر أى هو متاع الحياة الدنيا وفى الحديث أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقـابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتـان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله عنهما لو بغى جبل على جبـل لدك الباغى وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال الله تعالى انما بغيكم على أنفسـكم ولا يحيق المكر السيء الا بأهـله ومن نكث فانمـا ينكث على نفسه (ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) فنخبركم به ونجازيكم عليه (انما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء) من السحاب (فاختلط به) بالماء (نبـات الارض) أى فاشتبك بسببه حتى خالط بعضـه بعضا (مما يأكل النـاس) يعنى الحبوب والثمار والبقول (والانعام)

فانها افساد بحق ﴿ يا أيها الناس انما بغيكم على انفسكم ﴾ فان وباله عليكم أوانه على امثالكم و ابناء جنسـكم ﴿ متاع الحيوة الدنيا ﴾ منفعة الحياة الدنيا لاتبقى ويبقى عقابها ورفعه على انه خبر بغيكم وعلى انفسـكم صلته أوخبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم ونصبه حفص على انه مصدر مؤكد أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا أومفعول البغى لانه بمعنى الطلب فيكون الجار من صلته والخبر محذوف تقـديره بغيكم متاع الحياة الدنيـا محذور أوضلال أومفعول فعل دل عليه البغى وعلى انفسكم خبره ﴿ ثم الينا مرجعكم ﴾ فى القيامة ﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ بالجزاء عليـه ﴿ انما مثل الحيوة الدنيا ﴾ حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعـد اقبالها واغترار النـاس بها ﴿ كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبـات الارض ﴾ فاشتبك بسـببه حتى خالط بعضـه بعضا ﴿ مما يأكل الناس والانعام ﴾

مجاوزة الحد قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل الى الاحسـان والفرض الى التطوع والثانى مذموم وهو مجاوزة الحق الى الباطل أو الى الشـبهة قال صاحب الكشاف فان قلت مامعنى قوله بغير الحق والبغى لايكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع اشجارهم كما فعل رسـول الله صلى الله عليه و سـلم ببنى قريظة ﴿ يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسـكم ﴾ يعنى ان وبال بغيكم راجع عليكم ﴿ متاع الحيوة الدنيا ﴾ قيل هو كلام مبتـدأ والمعنى ان بغى بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لايصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم لايتهيأ أن يبغى بعضكم على بعض الا أياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها فى سرعـة انقضائها والبغى من منكرات الذنوب العظام قال بعضهم لو بغى جبل على جبـل لاندك الباغى وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعرا وكان المأمون يتمثل به فقال

يا صاحب البغى ان البغى مصرعة * فارجع فخير مقال المرء أعدله
فلو بغى جبـل يوما على جبل * لأندك منه أعاليه وأسـفله

* وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ثم الينا مرجعكم ﴾ يعنى يوم القيـامة ﴿ فننبئكم ﴾ أى فنخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يعنى فى الدنيا من البغى والمعاصى فنجازيكم عليها * قوله عز وجل ﴿ انما مثل الحيوة الدنيا ﴾ يعنى فى فنائها وزوالها ﴿ كماء أنزلناه من السماء ﴾ يعنى المطر ﴿ فاختلط به ﴾ أى بالمطر ﴿ نبات الارض ﴾ قال ابن عبـاس نبت بالماء من كل لون ﴿ مما يأكل الناس ﴾ يعنى من الحبوب والثمار ﴿ والانعام ﴾ يعنى ومما يأكل الانعام من الحشيش ونحوه

بلاحق (يا أيها النـاس) يا أهل مكة (انما بغيكم) ظلمكم وتطاولكم فيما بينكم (على انفسكم) جنايته (متاع الحيوة الدنيا) منافع الدنيا تفـنى ولاتبقى (ثم الينا مرجعكم) بعد الموت (فننبئكم) نخبركم (بما كنتم تعملون) وتقولون من الخير والشر (انما مثل الحيوة الدنيا) فى بقائها وفنائها (كماء انزلناه من السماء) يعنى المطر (فاختلط به نبات الارض) اختلط به نبات الارض (يأمما كل الناس) الحبوب والثمار (والانعام) العكوش

يعني الحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) زينتها بالنبات واختلاف ألوانه (وازينت) وتزينت به وهو أصله وأدغمت التاء في الزاء وهو كلام فصيح جعلت الارض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس اذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من الوان الزين (وظن أهلها) أهل الارض (أناها قادرون عليها) متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها (أتاها أمرنا) عذابنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم انه قد سلم (ليلا أو نهارا فجعلناها) فجعلنا زرعها (حصيدا) شبيها بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله (كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث حذف المضاف في هذه المواضع لابد منه ليستقيم المعنى (بالامس) هو مثل في الوقت القريب كأنه قيل كأن

من الزروع والبقول والحشيش ﴿حتى اذا اخذت الارض زخرفها﴾ حسنها وبهجتها ﴿وازينت﴾ تزينت باصناف النبات واشكالها والوانها المختلفة كعروس اخذت من الوان الثياب والزين وتزينت بها وازينت اصله تزينت فادغم وتدقرئ على الاصل وازينت على افعلت من غير اعلال كاغيلت والمعنى صارت ذات زينة وازيانت كابياضت ﴿وظن اهلها انهم قادرون عليها﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿أتاها امرنا﴾ ضرب زرعها ما يجتاحه ﴿ليلا أو نهارا فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدا﴾ شبيها بما حصد من اصله ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم يغن زرعها أي لم تنبت والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة وقرئ بالياء على الاصل ﴿بالامس﴾ فيما قبله وهو مثل في الوقت القريب والممثل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأة

﴿حتى اذا أخذت الارض زخرفها﴾ يعني حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور ﴿وازينت﴾ أي وتزينت ﴿وظن أهلها﴾ يعني أهل تلك الارض ﴿انهم قادرون عليها﴾ يعني على جدادها وقطافها وحصادها ردا للكناية الى الارض والمراد النبات اذ كان مفهوما وقيل رده الى الثمرة والغلة وقيل الى الزينة ﴿أتاها أمرنا﴾ أي قضاؤنا بهلاكها ﴿ليلا أو نهارا﴾ يعني في الليل او النهار ﴿فجعلناها حصيدا﴾ يعني محصودة مقطوعة ﴿كأن لم تغن بالامس﴾ يعني كأن لم تكن تلك الاشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الارض وأصله من غنى فلان بالمكان اذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين في زهرتها وحسنها وذلك انه تعالى لما قال يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحيوة الدنيا أتبعه بهذا المثل لمن بغى في الارض وتجبر فيها وركن للدنيا وأعرض عن الآخرة لان النبات في أول بروزه من الارض ومبدأ خروجه يكون ضعيفا فاذا نزل عليه المطر واختلط به قوي وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت يعني بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشئ وجعلت الارض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس اذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شك ان الارض متى كانت على هذه الصفة فانه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه في الانتفاع بها وبما فيها ثم ان الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الارض صاعقة أو بردا أو ريحا فجعلها حصيدا كان لم تكن من قبل قال قتادة ان المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون ووجه التمثيل ان غاية هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ولان المتمسك بالدنيا اذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها وقيل يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك لان الزرع اذا

من النبات والحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) زينتها (وازينت) بالاحمر والاصفر والاخضر (وظن أهلها) الحراثون (أنهم قادرون عليها) على غلاتها (أتاها أمرنا) عذابنا (ليلا أو نهارا) كأنما داست الغنم في حفافها فافسد زروع الزراعين (فجعلناها حصيدا) كحصيد الصيف (كأن لم تغن بالامس) لم تكن (انتهى)

لم تغن آنفا (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) فينتفعون بضرب الامثال وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الارض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه ان الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها كما أن صفو الماء في أعلى الاناء قول * ألم تران العمر كأس سلافة * فاوله صفو وآخره كدر * وحقيقته تزين جنة الطين بصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الانس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلاف وثمام الاثم وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده فتزايله الحياة مغترا كما يهيج النبات مصفرا فتغيب جثته في الرمس كأن لم تغن بالامس الى ان يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولا بد من ترك ما زاد كما لا بد من أخذ الزاد وآخذ المال لا يخلو من زلة كما ان خائض الماء لا ينجو من بلة وجمعه وامساكه تلف صاحبه واهلاكه فادون النصاب بضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز الى المفاز لا يمكن الا بقنطرة وهي الزكاة وعمارتها بذل الصلاة فمتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة وعن هذا قال عليه السلام الزكاة قنطرة الاسلام وكذا المال يساعد الاوغاد دون الامجاد كما ان الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد وكذلك المال لا يجتمع الا بكد البخيل كما أن الماء لا يجتمع الا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف (والله يدعوا الى دار السلام) هي الجنة أضافها الى اسمه تعظيما لها أو السلام السلامة لان أهلها سالمون من كل مكروه وقيل لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم الا قيلا سلاما سلاما (ويهدي من يشاء) ويوفق من يشاء (الى صراط مستقيم) الى

وذهابه حطاما بعد ما كان غضا والتف وزين الارض حتى طمع فيه اهله وظنوا انه قد سلم من الجوائح لا الماء وان وليه حرف التشبيه لانه من التشبيه المركب ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ فانهم المنتفعون به ﴿والله يدعوا الى دار السلام﴾ دار السلامة من التقضي والآفة أو دار الله وتخصيص هذا الاسم للتنبيه على ذلك أو دار يسلم الله والملائكة فيها على من يدخلها والمراد الجنة ﴿ويهدي من يشاء﴾ بالتوفيق ﴿الى صراط مستقيم﴾

انتهى وتكامل في الحسن الى الغاية القصوى أتته آفة فتلف بالكلية ثم ان الله سبحانه وتعالى قادر على اعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على ان من قدر على اعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادرا على اعادة الاموات أحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصي ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ يعني كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفناكم حكمها كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سببا موجبا لزوال الشك والشبهة من القلوب * قوله سبحانه وتعالى ﴿والله يدعوا الى دار السلام﴾ لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وانها فانية زائلة لا محالة دعا الى داره دار السلام قال قتادة الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه انه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغير وقيل انه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لان الخلق سلموا من ظلمه وقيل انه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذي السلام أي لا يقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات الا هو وقيل دار السلام اسم للجنة وهو جمع سلامة والمعنى ان من دخلها فقد سلم من جميع الآفات كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد وقيل سميت الجنة دار السلام لان الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها أو تسلم الملائكة عليهم قيل ان من كمال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده ان دعاهم الى جنته التي هي دار السلام وفيه دليل على ان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه ﴿ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾ يعني والله

بالامس (كذلك) هكذا (نفصل الآيات) نبين القرآن في فناء الدنيا (لقوم يتفكرون) في امر الدنيا والآخرة (والله يدعوا) الخلق بالتوحيد (الى دار السلام) والسلام هو الله والجنة داره (ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم) دين قائم يرضاه

وهو طريقها وذلك الاسلام والتدرع بلباس التقوى وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على ان الامر غير الارادة وان المصر على الضلالة لم يرد الله رشده ﴿للذين احسنوا الحسنى﴾ المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ ومايزيد على المثوبة تفضلا لقوله ويزيدهم من فضله وقيل الحسنى مثل

يهدى من يشاء من خلقه الى صراطه المستقيم وهو دين الاسلام عم بالدعوة أولا اظهارا للحجة وخص بالدعوة ثانيا استغناء عن الخلق واظهارا للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ) عن جابر قال جاءت ملائكة الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا ان لصاحبكم مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها يفقهها فان العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعى محمد صلى الله عليه وسلم فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس * وفى رواية خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى رأيت فى المنام كان جبريل عليه السلام عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول احدهما لصاحبه اضرب له مثلا * وعن النواس ابن سمعان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب مثلا صراطا مستقيما على كنفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على ابواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم والابواب التى على كنفى الصراط حدود الله فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر والذى يدعو من فوقه واعظ ربه أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب * قوله عز وجل ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ قال ابن عباس للذين شهدوا أن لا اله الا الله الجنة وقيل معناه للذين أحسنوا عبادة الله فى الدنيا من خلقه وأطاعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه الحسنى قال ابن الانبارى الحسنى فى اللغة تأنيث الاحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها وقيل معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ اختلف المفسرون فى معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على اقوال القول الاول ان الحسنى هى الجنة والزيادة هى النظر الى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وابو موسى الاشعرى وعبادة بن صامت رضى الله عنهم وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدى ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول أما المنقول فما روى عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيأ أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيأ أحب اليهم

(من)

الاسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية والمعنى يدعو العباد كلهم الى دار السلام ولا يدخلها الا المهديون (للذين أحسنوا) آمنوا بالله ورسله (الحسنى) المثوبة الحسنى وهى الجنة (وزيادة) رؤية الرب عز وجل كذا عن أبى بكر وحذيفة وابن عباس وأبى موسى الاشعرى وعبادة ابن الصامت رضى الله عنهم وفى بعض التفاسير أجمع المفسرون على ان الزيادة النظر الى الله تعالى وعن صهيب ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيأ أزيدكم فيقولون ألم تبيض

وهو الاسلام (للذين أحسنوا الحسنى) وحدوا الحسنى الجنة (وزيادة) يعنى النظر الى وجه الله

حسـناتهم والزيادة عشر امثالها الى سبعمائة ضعف واكثر وقيل الزيادة مغفرة

من النظر الى ربهم تبارك و تعالى زاد فى رواية ثم تلا هذه الآية للذى أحسنوا الحسنى وزيادة اخرجه مسلم ❁ وروى الطبرى بسنده عن كعب بن عجرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله للذى أحسنوا الحسنى وزيادة قال الزيادة النظر الى وجه الله الكريم ❁ وعن أبى بن كعب انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه وتعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم ❁ وعن ابى بكر الصديق رضى الله عنه للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال النظر الى وجه الله ❁ وعن أبى موسى الاشعرى قال اذا كان يوم القيامة بعث الله الى اهل الجنة مناديا ينادى هل أنجزكم الله ماوعدكم به فينظرون الى ماأعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول الله للذين احسنوا الحسنى و زيادة النظر الى وجه الرحمن تبارك وتعالى ❁ وفى رواية رفعها أبو موسى قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث يوم القيامة وذكره بمعناه ❁ وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم هل بقى من حقكم شئ لم تعطوه قال فيتجلى لهم عز وجل قال فيصغر عندهم كل شئ أعطوه ثم قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هى النظر الى وجه ربهم فهذه الاخبار والآثار قد دلت على أن المراد بهذه الزيادة هى النظر الى وجه الله تبارك وتعالى ❁ وأما المعقول فنقول ان الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت الى المعهود السابق وهو الجنة فى قوله سبحانه وتعالى والله يدعوا الى دار السلام فثبت بهذا ان المراد من لفظة الحسنى هو الجنة واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمرا مغايرا لكل مافى الجنة من النعيم والالزم التكرار واذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فاثبت لاهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهو حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثانى النظر الى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضا فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ❁ وقالت المعتزلة لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية لان الدلائل العقلية دلت على ان رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة ولان الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولان الاخبار التى تقدمت توجب التشبيه ولان جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ماقلتم أجاب أصحابنا عن هذه الاعتراضات بان الدلائل العقلية قد دلت على امكان وقوع رؤية الله تعالى فى الآخرة واذا لم يوجد فى العقل مايمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الاحاديث الصحيحة باثبات الرؤية وجب المصير اليها واجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولا احاطة وأجيب عن قولهم ولان الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه بان المزيد عليه اذا كان

وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيرفع الحجاب فينظرون الى الله تعالى فما أعطوا شيأ أحب اليهم من النظر الى ربهم ثم تلا للذين أحسنوا الحسنى وزيادة والعجب من صاحب الكشاف انه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة وقال انه حديث مدفوع مع انه مرفوع قد أورده صاحب المصابيح فى الصحاح وقيل الزيادة المحبة فى قلوب العباد وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان

ويقال الزيادة فى الثواب

من الله ورضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة هي اللقاء ﴿ ولا يرهق وجوههم ﴾ لا يغشاها ﴿ قتر ﴾ غبرة فيها سواد ﴿ ولا ذلة ﴾ هوان والمعنى لا يرهقهم ما يرهق اهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال ﴿ اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ عطف على قوله للذين احسنوا الحسنى على مذهب من يجوز في الدار زيد والحجرة عمرو أو الذين مبتدأ والخبر جزاء سيئة على تقدير وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها أي ان يجازى سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها وفيه تنبيه على ان الزيادة هي الفضل أو التضعيف أو كأنما اغشيت وجوههم أو اولئك اصحاب النار وما بينهما اعتراض فجزاء سيئة مبتدأ خبره محذوف أي فجزاء

بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه واذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجنة ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب ان الزيادة عليها تكون شيأ مغايرا لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية وأجيب عن قولهم ولان جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بانه معارض بقول جماعة من المفسرين بان الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي والله أعلم ❁ القول الثاني في معنى هذه الزيادة ماروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب ❁ القول الثالث ان الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف الى تمام العشرة والى سبعمائة قال ابن عباس هو مثل قوله سبحانه وتعالى ولدينا مزيد يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله قال قتادة كان الحسن يقول الزيادة الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ❁ القول الرابع ان الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد ❁ القول الخامس قول ابن زيد ان الحسنى هي الجنة والزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا يرهق وجوههم ﴾ يعني ولا يغشى وجوه أهل الجنة ﴿ قتر ﴾ أي كآبة ولا كسوف ولا غبار وقال ابن عباس هو سواد الوجوه ﴿ ولا ذلة ﴾ يعني ولا هوان قال ابن أبي ليلى هذا بعد نظرهم الى ربهم تبارك وتعالى ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ يعني ان هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبدا ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ اعلم انه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المحسنين وما اعدلهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من أقدم على السيآت والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى والذين كسبوا السيئات يعني والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصي جزاء سيئة بمثلها يعني فلهم جزاء السيئة التي عملوها مثلها من العقاب والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيآت لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة وذلك تفضلا منه وتكرما وأما السيآت فانه يجازى عليها بمثلها

(ولا يرهق وجوههم) ولا يغشى وجوههم (قتر) غبرة فيها سواد (ولا ذلة) ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا) عطف للذين أحسنوا أي وللذين كسبوا (السيآت) فنون الشرك (جزاء سيئة بمثلها) الباء زائدة كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أو التقدير جزاء سيئة مقدرة بمثلها

(ولا يرهق) لا يعلو (وجوههم قتر) سواد ولا كسوف (ولا ذلة) ولا كآبة (أولئك أصحاب الجنة) أهل الجنة (هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات) الشرك بالله (جزاء سيئة بمثلها) بقول قصاص الشرك بالله النار

(وترهقهم ذلة) ذل وهوان (مالهم من الله) من عقابه (من عاصم) أى لايعصمهم أحد من سخطه و عقابه (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) أى جعل عليها غطاء من سواد الليل أى هم سود الوجوه وقطعا جمع قطعة وهو مفعول ثان لاغشيت قطعا مكى وعلى من قوله بقطع من الليل وعلى هذه القراءة مظلما صفة لقطع وعلى الاول حال من الليل والعامل فيه أغشيت لان من الليل صفة لقطعا فكان افضاؤه الى الموصوف كافضائه الى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ويوم نحشرهم) أى الكفار وغيرهم (جميعا) حال (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا امكانكم لاتبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) أكدبه الضمير فى مكانكم لسده مسد قوله الزموا (وشركاؤكم) عطف عليه (فزيلنا) ففرقنا (بينهم) وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا (وقال شركاؤهم) من عبدوه من دون الله من أولى العقل أو الاصنام ينطقها الله عز وجل (ما كنتم ايانا تعبدون)

سيئة بمثلها واقع أو مثلها على زيادة الباء أو تقدير مقدر بمثلها ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ قرئ بالياء ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ ما من احد يعصمهم من سخط الله أو من جهة الله ومن عنده كما يكون للمؤمنين ﴿ كانما اغشيت ﴾ اغطيت ﴿ وجوههم قطعا من الليل مظلما ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ومظلما حال من الليل والعامل فيه اغشيت لانه العامل فى قطعا وهو موصوف بالجار والمجرور والعامل فى الموصوف عامل فى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل * وقرأ ابن كثير والكسائى ويعقوب قطعا بالسكون فعلى هذا يصح ان يكون مظلما صفة له او حالا منه ﴿ اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ مما يحتج به الوعيدية والجواب ان الآية فى الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ولان الذين احسنوا يتناول اصحاب الكبيرة من اهل القبلة فلا يتناولهم قسيمه ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ يعنى الفريقين جميعا ﴿ ثم نقول للذين اشركوا مكانكم ﴾ الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ انتم ﴾ تأكيد للضمير المنتقل اليه من عامله ﴿ وشركاؤكم ﴾ عطف عليه * وقرئ بالنصب على المفعول معه ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوصل التى كانت بينهم ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون ﴾

عدلا منه سبحانه وتعالى ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ قال ابن عباس يغشاهم ذل وشدة وقيل يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله اياهم ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ يعنى مالهم مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ﴾ يعنى كأنما ألبست وجوههم سوادا من الليل المظلم ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ الحشر الجمع من كل جانب وناحية الى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعا لموقف الحساب وهو يوم القيامة ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم ﴾ أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسئلوا وفى هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ يعنى أنتم أيها المشركون والاصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ يعنى ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا * فان قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضى بعد قوله ثم نقول للذين أشركوا وهو منتظر فى المستقبل فما وجهه * قلت السبب فيه ان الذى حكم الله فيه بانه سيكون صار كالكائن الآن * قوله تعالى ﴿ وقال شركاؤهم ﴾ يعنى الاصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله وانما سماهم شركاءهم لانهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم أو لانه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله مكانكم فقد صاروا شركاء فى هذا الخطاب ﴿ ما كنتم ايانا تعبدون ﴾ تبرأ المعبودون من العابدين * فان قلت كيف صدر هذا الكلام من الاصنام

(وترهقهم ذلة) تعلوهم كآبة وكسوف (مالهم من الله) من عذاب الله (من عاصم) من مانع (كأنما) من الحزن (أغشيت) (قا و خا ٣٢ لث) ألبست (وجوههم قطعا من الليل) من السواد (مظلما أولئك أصحاب النار) أهل النار (هم فيها خالدون) دائمون (ويوم نحشرهم) الكفار وآلهتهم (جميعا ثم نقول للذين أشركوا) بالله الاوثان (مكانكم) قفوا (انتم وشركاؤكم) آلهتكم (فزيلنا) فرقنا (بينهم) وبين آلهتهم فقال الكافرون أمرنا هؤلاء ان نعبدهم من دونك (وقال شركاؤهم) آلهتهم ردا عليهم (ما كنتم ايانا تعبدون) بأمرنا فقالوا بلى أمرتمونا

انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم ان تتخذوا الله أندادا فاطعتموهم وهو قوله ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم الى قوله بل كانوا

يعبدون الجن (فكفى بالله شهيدا بيناو بينكم)

أى كفى الله شهيدا وهو تمييز (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية (هنالك) فى ذلك المكان أوفى ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان (تبلوا كل نفس) تختبر وتذوق (ماأسلفت) من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن أنافع أم ضار امقبول أم مردود وقال الزجاج تعلم كل نفس ماقدمت تتلو حمزة وعلى أى تتبع ما أسلفت لان عمله هو الذى يهديه الى طريق الجنة أوالنار أوتقرأ فى صحيفتها ماقدمت من خير أوشر كذا عن الاخفش (وردوا الى الله مولاهم الحق) ربهم فى ربوبيته لانهم كانوا يتولون ماليس لربوبيته حقيقة أوالذى يتولى حسابهم وثوابهم العدل

مجاز عن براءة ماعبدوه من عبادتهم فانهم انما عبدوا فى الحقيقة اهواءهم لانها الآمرة بالاشراك لاماشركوا به وقيل ينطق الله الاصنام فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التى يتوقعون منها وقيل المراد بالشركاء الملائكة والمسيح وقيل الشياطين ﴿ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ﴾ فانه العالم بكنه الحال ﴿ ان كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ ان هى المخففة من المثقلة واللام هى الفارقة ﴿ هنالك ﴾ فى ذلك المقام ﴿ تبلوا كل نفس ما اسلفت ﴾ تختبر ماقدمت من عمل فتعاين نفعه وضره * وقرأ حمزة والكسائى تتلو من التلاوة اى تقرأ ذكر ماقدمت او من التلو اى تتبع عملها فيقودها الى الجنة او الى النار * وقرئ نبلو بالنون ونصب كل وابدال ما منه والمعنى نختبرها اى نفعل بها فعل المختبر لحالها المتعرف بسعادتها وشقاوتها بتعرف مااسلفت من اعمالها ويجوز ان يراد به نصيب بالبلاء اى بالعذاب كل نفس عاصية بسبب مااسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض ﴿ وردوا الى الله ﴾ الى جزائه اياهم بما اسلفوا ﴿ مولاهم الحق ﴾ ربهم ومتولى امرهم على الحقيقة لاما اتخذوه

وهى جماد لاروح فيها ولاعقل لها * قلت يحتمل ان الله سبحانه وتعالى خلق لها فى ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام * فان قلت اذا احياهم الله فى ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم * قلت الكل محتمل ولا اعتراض على الله فى شئ من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة الا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة * فان قلت ان الاصنام قد أنكرت ان الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها * قلت قد تقدمت هذه المسئلة وجوابها فى تفسير سورة الانعام ونقول هنا قال مجاهد تكون فى يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله فتقول الآلهة والله ماكنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم انكم تعبدوننا فيقولون والله اياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة ﴿ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ والمعنى قد علم الله وكفى به شهيدا انا ماعلمنا انكم كنتم تعبدوننا وما كنا عن عبادتكم ايانا من دون الله الا غافلين مانشعر بذلك أما قوله سبحانه وتعالى ﴿ هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت ﴾ فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى فى ذلك المقام أو ذلك الموقف أو ذلك الوقت على معنى استعارة اطلاق اسم المكان على الزمان وفى قوله تبلو قراآت قرئ بتاءين ولها معنيان أحدهما انه من تلاه اذا تبعه أى تتبع كل نفس ماأسلفت لان العمل هو الذى يهدى النفس الى الثواب أو العقاب الثانى أن يكون من التلاوة والمعنى ان كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أوشر وقرئ تبلوا بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تخبر وتعلم والبلو الاختبار ومعناه اختبارها ما أسلفت يعنى أنه ان قدم خيرا أوشرا قدم عليه وجوزى به ﴿ وردوا الى الله مولاهم الحق ﴾ الرد عبارة عن صرف الشئ الى الموضع الذى جاء منه والمعنى وردوا الى مايظهر لهم من الله الذى هو مالكهم ومتولى أمرهم * فان قلت قد قال الله سبحانه

بعبادتكم فقالت الآلهة (فكفى بالله شهيدا بيننا بينكم ان كنا) قد كنا (عن عبادتكم) ايانا (لغافلين) لجاهلين لم نعلم من ذلك شيأ (هنالك) عند ذلك (تبلوا) تعلم وان قرأت بالتاء يقول تقرأ (كل نفس ماأسلفت) ماعملت من خير أوشر (وردوا الى الله مولاهم الحق) الههم الحق

(وتعالى)

الذى لايظلم أحدا (وضل عنهم ما كانوا يفترون) وضاع عنهم ما كانوا يدعون انهم شركاء الله أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة (قل من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات (أم من يملك السمع والابصار) من يستطيع خلقهما و تسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة أو من يحميهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شئ (ومن يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى) أى الحيوان والفرخ والزرع والمؤمن والعالم من النطفة والبيضة والحب والكافر والجاهل وعكسها (ومن يدبر الامر) ومن يلي تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الخصوص (فسيقولون الله) فسيجيبونك عند سؤالك ان القادر هذه هو الله (فقل أفلا تتقون) الشرك فى العبودية اذا اعترفتم بالروبية (فذلكم الله) أى من هذه قدرته هو الله (ربكم الحق) الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه

مولى *وقرئ الحق بالنصب على المدح أو المصدر المؤكد ﴿وضل عنهم﴾ وضاع عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من ان آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون انها آلهة ﴿قل من يرزقكم من السماء والارض﴾ اى منهما جميعا فان الارزاق تحصل باسباب سماوية ومواد ارضية أو من كل واحد منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان من على حذف المضاف اى من اهل السماء والارض ﴿أم من يملك السمع والابصار﴾ ام من يستطيع خلقهما وتسويتهما أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من ادنى شئ ﴿ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى﴾ ومن يحيي ويميت أو من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه ﴿ومن يدبر الامر﴾ ومن يلي تدبير امر العالم وهو تعميم بعد تخصيص ﴿فسيقولون الله﴾ اذ لايقدرون من المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه ﴿فقل أفلا تتقون﴾ انفسكم عقابه باشراككم اياه مالايشاركه فى شئ من ذلك ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ أى المتولى

وتعالى فى آية أخرى وأن الكافرين لامولى لهم فما الفرق *قلت المولى فى اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعنى وبطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه فى الدنيا وهو قولهم ان هذه الاصنام تشفع لنا *قوله عز وجل ﴿قل من يرزقكم من السماء والارض﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعنى المطر والارض يعنى النبات ﴿أم من يملك السمع والابصار﴾ يعنى ومن أعطاكم هذه الحواس التى تسمعون بها وتبصرون بها ﴿ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى﴾ يعنى انه تعالى يخرج الانسان حيا من النطفة وهى ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الانسان الحى ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحى وقيل معناه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والقول الاول أقرب الى الحقيقة ﴿ومن يدبر الامر﴾ يعنى ان مدبر أمر السموات وما فيها ومدبر أمر الارض وما فيها هو الله تعالى وذلك قوله ﴿فسيقولون الله﴾ يعنى انهم يعترفون أن فاعل هذه الاشياء هو الله واذا كانوا يقرون بذلك ﴿فقل﴾ أى قل لهم يا محمد ﴿أفلا تتقون﴾ يعنى أ فلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الاصنام التى لاتضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ من هذه الامور ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ يعنى فذلكم الذى

(وضل عنهم) بطل عنهم واشتغل عنهم (ما كانوا يفترون) يعبدون بالكذب (قل) يا محمد لكفار أهل مكة (من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات والثمار (أمن يملك السمع والابصار) يقول من يقدر أن يخلق السمع والابصار (ومن يخرج الحى من الميت) من يقدر ان يخرج الحى من الميت يعنى النسمة والدواب من النطفة ويقال الطير من البيضة ويقال السنبلة من الحب (ويخرج الميت من الحى) النطفة من النسمة والدواب ويقال البيضة من الطير ويقال الحبة من السنبلة (ومن يدبر الامر) من يقدر أن يدبر أمر العباد وينظر فى أمر العباد ويبعث الملائكة بالوحى والتنزيل والمصيبة (فسيقولون الله فقل) يا محمد (أفلا تتقون) تطيعون الله (فذلكم الله ربكم) فالذى يفعل ذلك هو ربكم (الحق) هو الحق وعبادته

لمن حقق النظر (فماذا بعدالحق الاالضلال) أى لا واسطة بين الحـق والضلال فمن تخطى الحق وقع فى الضلال (فأ نى تصرفون) عن الحق الى الضلال وعن التوحيد الى الشرك (كذلك) مثل ذلك الحق (حقت كلمت ربك) كلمات شامى ومدنى أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك (على الذين فسقوا) تمردوا فى كفرهم وخرجوا الى

فيه (انهم لايؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان اوحق عليهم كلمة الله أن ايمانهم غير كائن أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب وأنهم لايؤمنون تعليل أى لانهم لايؤمنون (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) انماذكر ثم يعيده وهم غير مقرين بالاعادة لانه لظهور برهانها جعل أمرا مسلما على ان فيهم من يقر بالاعادة أو يحتمل اعادة غير البشر كاعادة الليل والنهار واعادة الانزال والنبات (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أمر نبيه بان ينوب عنهم فى الجواب يعنى أنهم لاتدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلم عنهم (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن قصد السبيل (قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق) يرشد

لهذه الامور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لانه الذى انشأكم واحياكم ورزقكم ودبر اموركم ﴿فماذا بعدالحق الاالضلال﴾ استفهام انكار أى ليس بعدالحق الاالضلال فمن تخطى الحق الذى هو عبادة الله تعالى وقع فى الضلال ﴿فانى تصرفون﴾ عن الحق الى الضلال ﴿كذلك حقت كلمت ربك﴾ اى كما حقت الربوبية لله أو ان الحق بعده الضلال أو انهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه ﴿على الذين فسقوا﴾ تمردوا فى كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح ﴿انهم لايؤمنون﴾ بدل من الكلمة اوتعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب ﴿قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ جعل الاعادة كالابداء فى الالزام بها لظهور برهانها وان لم يساعدوا عليها ولذلك امر الرسول عليه الصلاة والسلام بان ينوب عنهم فى الجواب فقال ﴿قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ لان لجاجهم لايدعهم ان يعترفوا بها ﴿فأنى تؤفكون﴾ تصرفون عن قصد السبيل ﴿قل هل من شرائكم من يهدى الى الحق﴾ بنصب الحجج وارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبر وهدى كما يعدى بالى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على

يفعل هذه الاشياء ويقدر عليها هو الله ربكم الحق الذى يستحق العبادة لا هذه الاصنام ﴿فماذا بعدالحق الاالضلال﴾ يعنى اذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية ان الله هو الحق وجب أن يكون ماسواه ضلالا وباطلا ﴿فأنى تصرفون﴾ يعنى اذا عرفتم هذا الامر الظاهر الواضح فكيف تستجيزون العدول عن الحق الى الضلال الباطل ﴿كذلك﴾ أى كما ثبت أنه ليس بعدالحق الاالضلال ﴿حقت﴾ أى وجبت ﴿كلمت ربك﴾ فى الازل ﴿على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون﴾ قيل المراد بكلمة الله قضاؤه عليهم فى اللوح المحفوظ انهم لايؤمنون وقضاؤه لايرد ولايدافع ﴿قل هل من شركائكم﴾ أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعنى هذه الاصنام التى تزعمون انها آلهة ﴿من يبدأ الخلق﴾ يعنى من يقدر على ان ينشئ الخلق على غير مثال سبق ﴿ثم يعيده﴾ أى ثم يعيده بعدالموت كهيئته أول مرة وهذا السؤال استفهام انكار ﴿قل﴾ أى قل أنت يامحمد ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ يعنى ان الله هو القادر على ابتداء الخلق واعادته ﴿فأنى تؤفكون﴾ يعنى فانى تصرفون عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من أحوالهم كيف تركوا هذا الامر الواضح وعدلوا عنه الى غيره ﴿قل﴾ أى قل يامحمد ﴿هل من شركائكم من يهدى الى الحق﴾ يعنى هل من هذه الاصنام من يقدر على أن يرشد الى الحق فاذا قالوا لا ولابد لهم من ذلك

الحق (فماذا بعد الحق الا الضلال) فماذا عبادتكم بعد عبادة الله الا عبادة الشيطان. (فانى تصرفون) من اين تكذبون على الله (كذلك) هكذا (حقت) وجبت (كلمت ربك) بالعذاب (على الذين فسقوا) كفروا (انهم لايؤمنون) فى علم الله (قل) (قل) لهم يامحمد (هل من شركائكم) من آلهتكم (من يبدؤ الخلق) من النطفة ويجعل فيه الروح (ثم يعيده) بعدالموت يوم القيامة فان أجابوك والا ف(قل الله يبدؤ الخلق) من النطفة (ثم يعيده) ثم يحييه يوم لقيامة (فانى تؤفكون) فمن اين تكذبون ويقال انظر يامحمد كيف يصرفون بالكذب (قل) لهم يامحمد (هل من شركائكم) من آلهتكم (من يهدى الى الحق)والهدى

اليه (قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى) يقال هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين ويقال هدى بنفسه بمعنى اهتدى كما يقال شرى بمعنى اشترى ومنه قراءة حمزة وعلى أمن لا يهدى بمعنى يهتدى لا يهدى بفتح الياء والهاء وتشديد الدال مكي وشامي وورش باشمام الهاء فتحة أبو عمرو وبكسر الهاء وفتح الياء عاصم غير يحيي والاصل يهتدى وهو قراءة عبد الله فادغمت التاء فى الدال وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال يحيي لاتباع ما بعدها وبسكون الهاء وتشديد الدال مدنى غير ورش والمعنى أن الله وحده هو الذى يهدى للحق بما ركب فى المكلفين من العقول واعطاهم من التمكين للنظر فى الادلة التى نصبها لهم وبما وفقهم وألهمهم ووقفهم على الشرائع بارسال الرسل فهل من من شركائكم الذين جعلتم أندادا لله أحد يهدى الى الحق مثل هداية الله ثم قال أفمن يهدى الى الحق أحق بالاتباع أم الذى لا يهدى أى لا يهتدى بنفسه أو لا يهدى غيره الا أن يهديه الله وقيل معناه أم من لا يهتدى من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا ان يهدى الا أن ينقل أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء الا أن ينقله الله من حالة الى أن يجعله حيا ناطقا فيهديه (فما لكم كيف تحكمون) بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد الله (وما يتبع أكثرهم) فى قولهم للاصنام انها آلهة وأنها شفعاء عند الله والمراد

ان المنتهى غاية الهداية وانها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما اسنده الى الله ﴿ قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق احق ان يتبع أم من لا يهدى الا ان يهدى ﴾ ام الذى لا يهتدى الا ان يهدى من قولهم هدى بنفسه اذا اهتدى أو لا يهدى غيره الا ان يهديه الله وهذا حال اشراف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير • وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر يهدى بفتح الهاء وتشديد الدال ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد والاصل يهتدى فادغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وروى ابوبكر يهدى باتباع الياء الهاء وقرأ ابوعمرو بالادغام المجرد ولم يبال بالتقاء الساكنين لان المدغم فى حكم المتحرك وعن نافع برواية قالون مثله وقرئ الا ان يهدى للمبالغة ﴿ فالكم كيف تحكمون ﴾ بما يقتضى صريح العقل بطلانه ﴿ وما يتبع اكثرهم ﴾

﴿ قل ﴾ أى قل لهم أنت يا محمد ﴿ الله يهدى للحق ﴾ يعنى أن الله هو الذى يرشد الى الحق لا غيره ﴿ أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى ﴾ يعنى ان الله هو الذى يهدى الى الحق فهو أحق بالاتباع لا هذه الاصنام التى لا تهدى الا أن تهدى • فان قلت الاصنام جماد لا تتصور هدايتها ولا أن تهدى فكيف قال الا أن يهدى • قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوها • الاول أن معنى الهداية فى حق الاصنام الانتقال من مكان الى مكان فيكون المعنى أنها لا تنتقل من مكان الى مكان آخر الا أن تحمل وتنقل فبين سبحانه وتعالى بهذا عجز الاصنام • الوجه الثانى أن ذكر الهداية فى حق الاصنام على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الاصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم ووصفها بهذه الصفة وان كان الامر ليس كذلك • الوجه الثالث يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الاصنام والمراد من قوله هل من شركائكم من يهدى الى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق الى الدين بما ظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فانهم لا يقدرون على هداية غيرهم الا اذا هداهم الله الى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ قال الزجاج فما لكم كلام تام كأنه قيل لهم أى شئ لكم فى عبادة هذه الاصنام ثم قال كيف تحكمون يعنى على أى حال تحكمون وقيل معناه كيف تقضون لانفسكم بالجوار حين تزعمون ان مع الله شريكا وقيل معناه بئسما حكمتم اذ جعلتم لله شريكا من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية ﴿ وما يتبع أكثرهم

فان اجابوك والا (قل الله يهدى للحق) والهدى (أفمن يهدى الى الحق) والهدى (احق ان يتبع) أن يعبد ويطاع (أمن لا يهدى) الى الحق والهدى (الا ان يهدى) يحمل فيذهب به حيث يشاء (فما لكم كيف تحكمون) بئس ما تقضون به لانفسكم (وما يتبع) يعبد (اكثرهم)

فيما يعتقدون ﴿ الاظنا ﴾ مستندا الى خيالات فارغة واقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بادنى مشاركة موهومة والمراد بالاكثر الجميع أومن ينتمى منهم الى تميز ونظر ولا يرضى بالتقليد الصرف ﴿ ان الظن لايغنى من الحق ﴾ من العلم والاعتقاد الحق ﴿ شيأ ﴾ من الاغناء ويجوز ان يكون مفعولا به ومن الحق حالا منه وفيه دليل على ان تحصيل العلم فى الاصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز ﴿ ان الله عليم بما يفعلون ﴾ وعيد على اتباعهم للظن واعراضهم عن البرهان ﴿ وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ﴾ افتراء من الخلق ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ مطابقا لما تقدمه من الكتب الالهية المشهود على صدقها ولا يكون كذبا كيف وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد على صحتها ونصبه بانه خبر لكان مقدر أو علة لفعل محذوف تقديره ولكن انزله الله تصديق الذى *وقرئ بالرفع على تقدير ولكن هو تصديق ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ وتفصيل ماحقق واثبت من العقائد والشرائع

الاظنا ﴾ يعنى ومايتبع أكثر هؤلاء المشركين الا ما لاعلم لهم بحقيقته وصحته بل هم فى شك منه وريبة وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميع المشركين يتبعون الظن فى دعواهم ان الاصنام تشفع لهم وقيل المراد بالاكثر الرؤساء ﴿ ان الظن لايغنى من الحق شيأ ﴾ يعنى ان الشك لايغنى عن اليقين شيأ ولايقوم مقامه وقيل فى الآية ان قولهم ان الاصنام آلهة وانها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا رسول يعنى انها لاتدفع عنهم من عذاب الله شيأ ﴿ ان الله عليم بما يفعلون ﴾ يعنى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين ❁ قوله تعالى ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ يعنى وما كان ينبغى لهذا القرآن ان يختلق ويفتعل لان معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شئ يمكن ان يفترى به على الله لان المفترى هو الذى يأتى به البشر وذلك ان كفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله عز وجل ان هذا القرآن وحى أنزله الله عليه وانه مبرأ عن الافتراء والكذب وانه لايقدر عليه أحد الا الله تعالى ثم ذكر سبحانه و تعالى مايؤكد هذا بقوله ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ يعنى ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقا لما قبله من الكتب التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل وتقرير هذا ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لايقرأ ولايكتب ولم يجتمع باحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الاولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما فى التوراة والانجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لعداوة اهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك ان مافيه من القصص والاخبار مطابقة لما فى التوراة والانجيل مع القطع بانه ماعلم مافيها فثبت بذلك انه وحى من الله أنزله عليه وانه مصدق لما بين يديه وانه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل فى معنى قوله ولكن تصديق الذى بين يديه يعنى من أخبار الغيوب الآتية فانها جاءت على وفق ما أخبر ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ يعنى وتبيين مافى الكتاب من الحلال والحرام والفرائض

بغير دليل وهو اقتداؤهم باسلافهم ظنا منهم انهم مصيبون (ان الظن لايغنى من الحق) وهو العلم (شيأ) فى موضع المصدر أى اغناء (ان الله عليم بما يفعلون) من اتباع الظن وترك الحق (وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله) أى افتراء من دون الله والمعنى وماصح وما استقام أن يكون مثله فى علو أمره واعجازه مفترى (ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة (وتفصيل الكتاب) وتبيين ماكتب وفرض من الاحكام والشرائع من

آلهة (الاظنا) الا بالظن (ان الظن) عبادتهم بالظن (لايغنى من الحق) من عذاب الله (شيأ ان الله عليم بما يفعلون) فى الشرك من عبادة الاوثان وغير ذلك (وما كان هذا القرآن) الذى يقرأ عليكم محمد صلى الله عليه وسلم (أن يفترى) ان يختلق (من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه) موافق التوراة والانجيل والزبور وسائر الكتب بالتوحيد وصفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته (وتفصيل الكتاب) تبيان القرآن بالحلال والحرام والامر

﴿لاريب فيه﴾ منتفيا عنه الريب وهو خبر ثالث داخل فى حكم الاستدراك ويجوز ان يكون حالا من الكتاب فانه مفعول فى المعنى وان يكون استئنافا ﴿من رب العالمين﴾ خبر آخر تقديره كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل ولاريب فيه اعتراض أو بالفعل المعلل بهما ويجوز ان يكون حالا من الكتاب أو من الضمير فى فيه ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب أتباعه والبرهان عليه ﴿أم يقولون﴾ بل أيقولون ﴿افتراه﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ومعنى الهمزة فيه الانكار ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ فى البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلى فى العربية والفصاحة واشد تمرنا فى النظم والعبارة ﴿وادعوا من استطعتم﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن امكنكم ان تستعينوا به ﴿من دون الله﴾ سوى الله فانه وحده قادر على ذلك ﴿ان كنتم صادقين﴾ انه اختلقه ﴿بل كذبوا﴾ بل سارعوا الى التكذيب ﴿بما لم يحيطوا بعلمه﴾ بالقرآن اول سمعوه قبل ان يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علما من ذكر البعث والجزاء وسائر

والاحكام ﴿لاريب فيه من رب العالمين﴾ يعنى ان هذا القرآن لاشك فيه انه من رب العالمين وانه ليس مفترى على الله وانه لايقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿أم يقولون افتراه﴾ يعنى أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن واختلقه من قبل نفسه وهو استفهام انكار وقيل أم بمعنى الواو أى ويقولون افتراه ﴿قل﴾ أى قل لهم يا محمد ان كان الامر كما تقولون ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ يعنى بسورة شبيهة به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلى فى الفصاحة والبلاغة * فان قلت قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فأتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما * قلت لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أميا لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزا فى نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعنى من انسان أمى مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه فى عدم الكتابة والقراءة وأما قوله سبحانه وتعالى فأتوا بسورة مثله أى فأتوا بسورة تساوى سور القرآن فى الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعنى ان السورة فى نفسها معجزة فان الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ يعنى وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه ﴿ان كنتم صادقين﴾ يعنى فى قولكم ان محمدا افتراه ثم قال تعالى ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ يعنى القرآن أى كذبوا بما لم يعلموه قال عطاء يريد انه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن وقيل معناه بل كذبوا بما فى القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه لانهم كانوا ينكرون ذلك كله وقيل انهم لما سمعوا ما فى القرآن من القصص وأخبار الامم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لان القرآن العظيم مشتمل

قوله كتاب الله عليكم (لاريب فيه من رب العالمين) داخل فى حيز الاستدراك كانه قال ولكن كان تصديقا وتفصيلا منتفيا عنه الريب كائنا من رب العالمين ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقا من رب العالمين وتفصيلا منه لاريب فى ذلك فيكون من رب العالمين متعلقا بتصديق وتفصيل ويكون لاريب فيه اعتراضا كما تقول زيد لاشك فيه كريم (أم يقولون افتراه) بل أيقولون اختلقه (قل) ان كان الامر كما تزعمون (فأتوا) أنتم على وجه الافتراء (بسورة مثله) أى شبيهة به فى البلاغة وحسن النظم فأنتم مثلى فى العربية (وادعوا من استطعتم من دون الله) أى وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الاتيان بمثله (ان كنتم صادقين) انه افتراه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه

والنهى (لاريب فيه) لاشك فيه (من رب العالمين) من سيد العالمين (أم يقولون) بل يقولون كفار مكة (افتراه) اختلق محمد صلى الله عليه وسلم القرآن من تلقاء نفسه (قل) لهم يا محمد (فأتوا بسورة مثله) مثل سورة القرآن (وادعوا من استطعتم) استعينوا على ذلك من عبدتم (من دون الله ان كنتم صادقين) ان محمدا عليه السلام يختلقه من تلقاء نفسه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) بما لم يدرك

ولما يأتهم تأويله)بل سارعوا الى التكذيب بالقرآن فى بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ومعنى التوقع فى ولما يأتهم تأويله أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدا للآباء وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع الى التكذيب قبل العلم به وجاء بكلمة التوقع ليؤذن انهم علموا بعد علو شأنه واعجازه لما كرر عليهم التحدى وجربوا قواهم فى المعارضة وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيا وحسدا (كذلك) مثل ذلك التكذيب (كذب الذين من قبلهم)يعنى كفار الامم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر فى معجزاتهم وقبل تدبرها عنادا و تقليدا للآباء ويجوز ان يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب أى عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق يعنى انه كتاب معجز من جهتين من جهة اعجاز نظمه و من جهة ما فيه من الاخبار بالغيوب فتسرعوا الى التكذيب به قبل ان ينظروا فى نظمه وبلوغه حد الاعجاز وقبل أن يجربوا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ومنهم من يؤمن به) بالنبى أو بالقرآن أى يصدق به فى نفسه و يعلم انه حق ولكن يعاند بالتكذيب (ومنهم من لايؤمن به) لايصدق به و يشك فيه أو يكون للاستقبال أى ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر (وربك أعلم بالمفسدين) بالمعاندين أوالمصرين (وان كذبوك) وان تموا على تكذيبك (يعنى)

ما يخالف دينهم ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ اذهانهم معانيه أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين لهم انه صدق أو كذب والمعنى ان القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم انهم فاجؤا تكذيبه قبل ان يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه ومعنى التوقع فى لما انه قد ظهر لهم بالآخرة اعجازه لما كرر عليهم التحدى فرازوا قواهم فى معارضته فتضاءلت دونها أو لما شاهدوا وقوع ما اخبر به طبقا لاخباره مرارا فلم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ انبياءهم ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم ﴿ ومنهم ﴾ ومن المكذبين ﴿ من يؤمن به ﴾ من يصدق به فى نفسه ويعلم انه حق ولكن يعاند أو من سيؤمن به ويتوب عن كفره ﴿ ومنهم من لايؤمن به ﴾ فى نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر ﴿ وربك اعلم بالمفسدين ﴾ بالمعاندين أو المصرين ﴿ وان كذبوك ﴾

على علوم كثيرة لايقدر أحد على استيعابها وتحصيلها ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ يعنى انهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان ما يؤول اليه ذلك الوعيد الذى توعدهم الله فى القرآن به من العقوبة والمعنى انهم لم يعلموا ماتؤول اليه عاقبة أمرهم وقيل معناه انهم لم يعلموه تنزيلا ولا علموه تأويلا فكذبوا به وذلك لانهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ يعنى كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الامم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الامم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله * قوله عز وجل ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ يعنى ومن قومك يا محمد من سيؤمن بالقرآن ﴿ ومنهم من لايؤمن به ﴾ لعلم الله السابق فيه أنه لايؤمن ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ يعنى الذين لايؤمنون ﴿ وان كذبوك ﴾

علمهم (ولما يأتهم)لم يأتهم (تأويله) عاقبة ماوعدهم فى القرآن (كذلك) كما كذبك قومك بالكتب والرسل (كذب الذين من قبلهم)بالكتب والرسل (فانظر)يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) كيف صار آخر أمر المشركين المكذبين بالكتب والرسل من عبادة الله شيأ ويقال وهذا تعزية من الله جل وعز لنبيه صلى الله عليه وسلم كى يصبر على أذاهم (ومنهم)من اليهود (من يؤمن به) بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن قبل موته (ومنهم)من اليهود (من لايؤمن به) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ويموت على الكفر (وربك أعلم بالمفسدين) باليهود بمن يؤمن وبمن لايؤمن ويقال نزلت هذه الاية فى المشركين (وان كذبوك

ويئست من اجابتهم (فقل لى عملى) جزاء عملى (ولكم عملكم) جزاء اعمالكم (انتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) فكل مؤاخذ بعمله (ومنهم من يستمعون اليك) ومنهم ناس يستمعون اليك اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكنهم لا يعون ولا يقبلون فهم كالصم (أفانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) أتطمع أنك تقدر على اسماع الصم ولو انضم الى صممهم عدم عقولهم لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع فى صماخه دوى الصوت فاذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تم الامر (ومنهم من ينظر اليك) ومنهم ناس ينظرون اليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون (أفانت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) أتحسب انك تقدر على هداية العمى ولو انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لان الاعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء يعنى انهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر

وان اصروا على تكذيبك بعد الزام الحجة ﴿فقل لى عملى ولكم عملكم﴾ فتبرأ منهم فقد اعذرت والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان او باطلا ﴿انتم بريئون مما اعمل وانا برىء مما تعملون﴾ لا تؤاخذون بعملى ولا اؤاخذ بعملكم ولما فيه من ايهام الاعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل انه منسوخ بآية السيف ﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكن لا يقبلون كالاصم الذى لا يسمع اصلا ﴿أفانت تسمع الصم﴾ تقدر على اسماعهم ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ ولو انضم الى صممهم عدم تعقلهم وفيه تنبيه على ان حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم وهو لا يتأتى الا باستعمال العقل السليم فى تدبره وعقولهم لما كانت مؤونة بمعارضة الوهم ومشايعة الالف والتقليد تعذر افهامهم الحكم والمعانى الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الالفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق ﴿ومنهم من ينظر اليك﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك ﴿أفانت تهدى العمى﴾ تقدر على هدايتهم ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ وان انضم الى عدم البصر عدم البصيرة فان المقصود من الابصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك البصيرة ولذلك يحدس الاعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الاحمق والآية كالتعليل للامر بالتبرى

يعنى وان كذبك قومك يا محمد ﴿فقل﴾ أى فقل لهم ﴿لى عملى﴾ يعنى الطاعة وجزاء ثوابها ﴿ولكم عملكم﴾ يعنى الشرك وجزاء عقابه ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون﴾ قيل المراد منه الزجر والرجوع وقال مقاتل والكلبى هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الامام فخر الدين الرازى وهو بعيد لان شرط الناسخ أن يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول الآية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا ＊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ومنهم﴾ يعنى ومن هؤلاء المشركين ﴿من يستمعون اليك﴾ يعنى باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك ﴿أفانت تسمع الصم﴾ يعنى كما انك لا تقدر على اسماع الصم فكذلك لا تقدر على اسماع من أصم الله سمع قلبه ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال اذا لم ينتفعوا بما لم يسمعوا وهم أيضا كالصم الذين لا يعقلون شيأ ولا يفهمونه لعدم التوفيق ﴿ومنهم من ينظر اليك﴾ يعنى بابصارهم الظاهرة ﴿أفانت تهدى العمى﴾ يريد عمى القلوب ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ لان الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيأ من الهدى وفى هذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل انك لا تقدر ان تسمع من سلبته السمع ولا تقدر أن تهدى من سلبته البصر ولا تقدر أن توفق للايمان من حكمت عليه أن لا يؤمن

يا محمد قومك بما تقول لهم (فقل لى عملى) ودينى (ولكم عملكم) ودينكم (أنتم بريئون مما أعمل) وأدين (وأنا برىء مما تعملون) وتدينون (ومنهم) من اليهود (من يستمعون اليك) الى كلامك وحديثك ويقال من مشركى (قا و خا ٣٣ لث) العرب من يستمع الى كلامك وحديثك (أفأنت تسمع) يا محمد (الصم) من كأنه أصم (ولو كانوا لا يعقلون) ومع ذلك لا يريدون أن يعقلوا (ومنهم) من اليهود ويقال من المشركين (من ينظر اليك أفانت تهدى) ترشد الى الهدى (العمى) من كأنه أعمى (ولو كانوا لا يبصرون) ومع ذلك لا يريدون أن يبصروا

والاعراض عنهم ﴿ان الله لا يظلم الناس شيأ﴾ بسلب حواسهم وعقولهم ﴿ولكن الناس انفسهم يظلمون﴾ بافسادها وتفويت منافعها عليهم وفيه دليل على ان للعبد كسبا وانه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة ويجوز ان يكون وعيدا لهم بمعنى ان ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به ولكنهم ظلموا انفسهم باقتراف اسبابه ﴿ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون والجملة التشبيهية في موقع الحال أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث الا ساعة أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره كأن لم يلبثوا قبله اوالمصدر محذوف اى حشرا كأن لم يلبثوا قبله ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وهذا اول ما نشروا ثم ينقطع التعارف لشدة الامر عليهم وهي حال اخرى مقدرة أو بيان لقوله كأن لم يلبثوا أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم نحشرهم ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ الشهادة على خسرانهم والتعجب منه ويجوز ان

﴿ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس انفسهم يظلمون﴾ قال العلماء لما حكم الله عز وجل على اهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم أخبر في هذه الآية أن تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلما منه لانه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالما وانما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لان الفعل منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ويوم نحشرهم﴾ يعني واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم ﴿كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار﴾ يعني كأنهم لم يلبثوا في الدنيا الا قدر ساعة من النهار وقيل معناه كأنهم لم يلبثوا في قبورهم الا قدر ساعة من النهار والوجه الاول أولى لان حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار لبثهم في القبور الى وقت الحشر فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو انهم لما لم ينتفعوا باعمارهم في الدنيا استقلوها والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله وسبب استقلال الكفار مدة مقامهم في الدنيا انهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على ما فيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه وقيل انهم لما شاهدوا اهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك استقلوا مدة مقامهم في الدنيا لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جدا ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعني يعرف بعضهم بعضا اذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم اذا عاينوا أهوال يوم القيامة وفي بعض الآثار ان الانسان يوم القيامة يعرف من بجنبه ولا يقدر أن يكلمه هيبة وخشية وقيل ان أحوال يوم القيامة مختلفة ففي بعضها يعرف بعضهم بعضا وفي بعضها ينكر بعضهم بعضا لهول ما يعاينون في ذلك اليوم ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ يعني أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفاني على

(الباقي)

لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال حيث عبدوا جمادا وهم أحياء (ويوم نحشرهم) وبالياء حفص (كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار) استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الامر عليهم كأن لم يلبثوا حال من هم أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا الا ساعة وكأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم ويتعارفون بينهم حال بعد حال أو مستأنف على تقدير هم يتعارفون بينهم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) على ارادة القول أي يتعارفون

الحق والهدى (ان الله لا يظلم الناس شيأ) لا ينقص من حسناتهم ولا يزيد على سيآتهم (ولكن الناس انفسهم يظلمون) بالكفر والشرك والمعاصي (ويوم نحشرهم) يعني اليهود والنصارى والمشركين (كأن لم يلبثوا) في القبور (الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) يعرف بعضهم بعضا في بعض المواطن ولا يعرف بعضهم بعضا في بعض المواطن (قد خسر) غبن (الذين كذبوا بلقاء الله) بالبعث بعد الموت بذهاب

يكون حالا من الضمير فى يتعارفون على ارادة القول ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ لطرق استعمال مامنحوا من المعاون فى تحصيل المعارف فاستكسبوا بها جهالات ادت بهم الى الردى والعذاب الدائم ﴿ واما نرينك ﴾ نبصرنك ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ من العذاب فى حياتك كما اراه يوم بدر ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل ان نريك ﴿ فالينا مرجعهم ﴾ فنريكه فى الآخرة وهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ﴿ ثم الله شهيد على مايفعلون ﴾ مجاز عليه ذكر الشهادة واراد نتيجتها ومقتضاها ولذلك رتبها على الرجوع بثم أو مؤد شهادته على افعالهم يوم القيامة ﴿ ولكل امة ﴾ من الامم الماضية ﴿ رسول ﴾ يبعث اليهم ليدعوهم الى الحق ﴿ فاذاجاء رسولهم ﴾ بالبينات فكذبوه ﴿ قضى بينهم ﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل فانجى الرسول واهلك المكذبون ﴿ وهم لايظلمون ﴾ وقيل معناه لكل امة يوم القيامة رسول تنسب اليه فاذا جاء

الباقى ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ يعنى الى مايصلحهم وينجيهم من هذا الخسار ﴿ واما نرينك ﴾ يعنى يامحمد ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ يعنى مانعدهم به من العذاب فى الدنيا فذاك ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل أن نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك ستراه فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ فالينا مرجعهم ﴾ يعنى فى الآخرة وفيه دليل على أن الله يرى رسوله صلى الله عليه وسلم أنواعا من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم فى حال حياته فى الدنيا وقد أراه ذلك يوم بدر وغيره من الايام وسيريه ما أعد لهم من العذاب فى الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿ ثم الله شهيد على مايفعلون ﴾ فيه وعيد وتهديد لهم يعنى انه سبحانه وتعالى شاهد على أعمالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة * قوله عزوجل ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ لما بين الله عزوجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال الانبياء مع أممهم كذلك فقال تعالى ولكل أمة يعنى قد خلت وتقدمت قبلكم رسول يعنى مبعوثا اليهم يدعوهم الى الله والى طاعته والايمان به ﴿ فاذاجاء رسولهم ﴾ فى هذا الكلام اضمار تقديره فاذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما ارسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون ﴿ قضى بينهم بالقسط ﴾ يعنى حكم بينهم بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان احدهما أنه فى الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل الى كل أمة رسولا لتبليغ الرسالة واقامة الحجة وازالة العذر فاذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم وبين رسلهم فى الدنيا فيهلك الكافرين وينجى رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلا لاظلما لان قبل مجيء الرسول لايكون ثواب ولاعقاب القول الثانى ان وقت القضاء فى الآخرة وذلك ان الله اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جيء بالرسل لتشهد عليهم والمراد من ذلك المبالغة فى اظهار العدل وهو قوله تعالى ﴿ وهم لايظلمون ﴾ يعنى من جزاء أعمالهم شيأ ولكن

بينهم قائلين ذلك أو هى شهادة من الله على خسرانهم والمعنى أنهم وضعوا فى تجارتهم وبيعهم الايمان بالكفر (وما كانوا مهتدين) للتجارة عارفين بها وهو استئناف فيه معنى التعجب كانه قيل ما أخسرهم (واما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب (أو نتوفينك) قبل عذابهم (فالينا مرجعهم) جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف أى واما نرينك بعض الذى نعدهم فى الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه فى الآخرة (ثم الله شهيد على مايفعلون) ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها وهو العقاب كانه قيل ثم الله معاقب على مايفعلون وقيل ثم هنا بمعنى الواو (ولكل أمة رسول) يبعث اليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم الى دين الحق (فاذاجاء رسولهم) بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه (قضى بينهم) بين النبى ومكذبيه (بالقسط) بالعدل فأنجى الرسول وعذب المكذبين أو ولكل أمة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذاجاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان قضى بينهم بالقسط (وهم لايظلمون) لايعذب

الدنيا والآخرة (وما كانوا مهتدين) من الكفر والضلالة (واما نرينك) يامحمد (بعض الذى نعدهم) من العذاب (او نتوفينك) قبل ان نرينك يامحمد مانعدهم من العذاب (فالينا مرجعهم) بعد الموت (ثم الله شهيد على مايفعلون) من الخير والشر (ولكل أمة) لكل أهل دين (رسول) يدعوهم الى الله والى دينه (فاذاجاء) هم (رسولهم) فكذبوا (قضى بينهم) وبين الرسول (بالقسط) بالعدل بهلاك القوم ونجاة الرسول (وهم لايظلمون) لاينقص

أحد بغير ذنبه ولما قل واما نرينك بعض الذى نعدهم أى من العذاب استعجلوا لما وعدوا من العذاب نزل (ويقولون متى هذا الوعد) أى وعد العذاب (ان كنتم صادقين) أن العذاب نازل وهو خطاب منهم للنبى والمؤمنين (قل) يا محمد (لا أملك لنفسى ضرا) من مرض أو فقر (ولا نفعا) من صحة أو غنى والسبب (الا ماشاء الله) استثناء منقطع أى ولكن ماشاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم

الضر وجلب العذاب (لكل امة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) لكل أمة وقت معلوم للعذاب مكتوب فى اللوح فاذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلو (قل أرأيتم ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلونه (بياتا) نصب على الظرف أى وقت بيات وهو الليل وانتم ساهون نائمون لا تشعرون (أو نهارا) وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا يستعجل منه المجرمون) أى من العذاب والمعنى ان العذاب كله مكروه موجب للنفور فاى شئ تستعجلون

رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان قضى بينهم بانجاء المؤمنين وعقاب الكفار لقوله وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ استبعاداله واستهزاءبه ﴿ان كنتم صادقين﴾ خطاب منهم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين ﴿قل لا املك لنفسى ضرا ولا نفعا ﴾ فكيف أملك لكم فاستعجل فى جلب العذاب اليكم ﴿الا ماشاء الله﴾ ان املكه أو ولكن ماشاء الله من ذلك كائن ﴿لكل امة اجل ﴾ مضروب لهلاكهم ﴿ اذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلوا فسيحين وقتكم وينجز وعدكم ﴿ قل ارأيتم ان اتاكم عذابه ﴾ الذى تستعجلون به ﴿ بياتا ﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم ﴿ أو نهارا ﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ أى شئ من العذاب يستعجلون وكله مكروه لا يلائم الاستعجال وهو متعلق

يجازى كل أحد على قدر عمله وقيل معناه انهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿ ويقولون ﴾ يعنى هؤلاء الكفار ﴿ متى هذا الوعد ﴾ يعنى الذى تعدنا به يا محمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ﴿ان كنتم صادقين﴾ يعنى فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع لان كل أمة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى ان كنتم صادقين أنت وأتباعك يا محمد أو ذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ﴿قل﴾ أى قل لهم يا محمد ﴿لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا﴾ يعنى لا أملك لنفسى دفع ضر أو جلب نفع ولا أقدر على ذلك ﴿الا ماشاء الله﴾ يعنى أن أقدر عليه أو أملكه والمعنى ان انزال العذاب على الاعداء واظهار النصر للاولياء وعلم قيام الساعة لا يقدر عليه الا الله فتعيين الوقت الى الله سبحانه وتعالى بحسب مشيئته ثم اذا حضر ذلك الوقت الذى وقته الله لحدوث هذه الاشياء فانه يحدث لا محالة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أى مدة مضروبة ووقت معين ﴿ اذا جاء اجلهم ﴾ يعنى اذا انقضت مدة اعمارهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ يعنى لا يتأخرون عن ذلك الاجل الذى أجل لهم ولا يستقدمونه ﴿قل ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ﴿ أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا ﴾ يعنى ليلا يقال بات يفعل كذا اذا فعله بالليل والسبب فيه ان الانسان فى الليل لا يكون الا فى البيت غالبا فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل ﴿ أو نهارا ﴾ يعنى فى النهار ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ يعنى ما الذى يستعجلون من نزول العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى انهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما اخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من

من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم (ويقولون) وقال كل أهل دين لرسولهم (متى هذا الوعد) الذى تعدنا (ان كنتم صادقين) ان كنت من الصادقين (قل) لهم يا محمد (لا أملك) لا أقدر (لنفسى ضرا) دفع الضر (ولا نفعا) ولا جر النفع (الا ماشاء الله) من الضر والنفع (لكل امة) لكل أهل دين (أجل) مهلة ووقت (اذا جاء اجلهم) وقت هلاكهم (فلا يستأخرون ساعة) قدر ساعة بعد الاجل (ولا يستقدمون) قبل الاجل (قل) يا محمد لاهل مكة (أرأيتم ان أتاكم عذابه) عذاب الله (بياتا) ليلا (أو نهارا) (عندك) كيف تصنعون (ماذا يستعجل) بماذا يستعجل (منه) من عذاب الله (المجرمون) المشركون قالوا نؤمن قل لهم يا محمد

منه وليس شئ منه يوجب الاستعجال والاستفهام فى ماذا يتعلق بارأيتم لان المعنى أخبرونى ماذا يستعجل منه المجرمون وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه ولم يقل ماذا يستعجلون منه لانه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الاجرام أو ماذا يستعجل منه المجرمون جواب الشرط نحو ان أتيتك ماذا تطعمنى ثم تتعلق الجملة بأرأيتم أو (أثم اذاماوقع)

(آمنتم به) جواب الشرط وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراض والمعنى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء فى أفأمن أهل القرى أوأمن أهل القرى (آلآن) على ارادة القول أى قيل لهم اذا آمنوا بعد وقوع العذاب الآن آمنتم (وقد كنتم به تستعجلون) أى بالعذاب تكذيبا واستهزاء الان بحذف الهمزة التى بعد اللام والقاء حركتها على اللام نافع (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المضمر قبل آلآن (ذوقوا عذاب الخلد) أى الدوام (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) من الشرك والكذب (ويستنبؤنك) يستخبرونك فيقولون (أحق هو) وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء والضمير للعذاب الموعود (قل يا محمد (أى وربى) نعم والله (انه لحق) ان العذاب كائن

بارأيتم لانه بمعنى اخبرونى والمجرمون وضع موضع الضمير للدلالة على انهم لجرمهم ينبغى ان يفزعوا من مجئ الوعيد لا ان يستعجلوه وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه ويجوز ان يكون الجواب ماذا كقولك ان أتيتك ماذا تعطينى وتكون الجملة متعلقة بارأيتم أو بقوله ﴿أثم اذا ماوقع آمنتم به﴾ بمعنى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان وماذا يستعجل اعتراض ودخول حرف الاستفهام على ثم لانكار التأخير ﴿الآن﴾ على ارادة القول أى قيل لهم اذا آمنوا بعد وقوع العذاب الآن آمنتم به * وعن نافع الان بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ تكذيبا واستهزاء ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ عطف على قيل المقدر ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ المؤلم على الدوام ﴿هل تجزون الا بما كنتم تكسبون﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ويستنبؤنك﴾ ويستخبرونك ﴿احق هو﴾ احق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة تقوله بجد أم باطل تهزل به قاله حيى بن اخطب لما قدم مكة والاظهر ان الاستفهام فيه على اصله لقوله ويستنبؤنك وقيل انه للانكار ويؤيده انه قرئ آلحق هو فان فيه تعريضا بانه باطل واحق مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر او خبر مقدم والجملة فى موضع النصب بيستنبؤنك ﴿قل أى وربى انه لحق﴾ ان العذاب لكائن أو ما ادعيته لثابت وقيل كلا الضميرين للقرآن وأى بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك يوصل بواو فى التصديق

عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فاجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله ماذا يستعجل منه المجرمون يعنى أى شئ يعلم المجرمون ما يطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلا قبيحا ماذا جنيت على نفسك ﴿أثم اذا ماوقع﴾ يعنى اذا ما نزل العذاب ووقع ﴿آمنتم به﴾ يعنى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع ﴿آلآن﴾ فيه اضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أى حين وقع العذاب ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعنى تكذيبا واستهزاء ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ يعنى ظلموا أنفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله ﴿ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون﴾ يعنى فى الدنيا من الاعمال * قوله سبحانه وتعالى ﴿ويستنبؤنك أحق هو﴾ يعنى ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة ﴿قل أى وربى﴾ أى قل لهم يا محمد نعم وربى ﴿انه لحق﴾ يعنى ان الذى

(أثم اذاماوقع) يقول اذا ما أنزل عليكم العذاب (آمنتم به) قالوا نعم قل لهم يا محمد يقال لكم (آلآن) تؤمنون بالعذاب (وقد كنتم به) بالعذاب (تستعجلون) قبل هذا استهزاء به (ثم قيل للذين ظلموا) أشركوا (ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون) فى الآخرة (الا بما كنتم تكسبون) تقولون وتعملون فى الدنيا (ويستنبؤنك) يستخبرونك يا محمد (أحق هو) يعنى العذاب والقرآن (قل اى وربى)نعم وربى (انه لحق) صدق

لا محالة (و ما أنتم بمعجزين) بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة (ولو أن لكل نفس ظلمت) كفرت وأشركت وهو صفة لنفس أى ولو أن لكل نفس ظالمة (ما فى الارض) فى الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها (لافتدت به) لجعلته فدية لها يقال فداه فافتدى و يقال افتداه أيضا بمعنى فداه (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) وأظهروها من قولهم أسر الشئ اذا أظهره أو أخفوها عجزا عن النطق لشدة الامر فاسر من الاضداد (وقضى بينهم بالقسط) بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم (وهم لا يظلمون) ثم اتبع ذلك الاعلام بان له الملك كله بقوله (ألا ان لله ما فى السموات والارض) فكيف يقبل الفداء وانه المثيب المعاقب وما وعده من الثواب أو العقاب فهو حق لقوله (ألا ان وعد الله) بالثواب أو بالعذاب (حق) كائن ولكن اكثرهم لا يعلمون

كائن يعنى العذاب (وما أنتم بمعجزين) بفائتين من عذاب الله (ولو أن لكل نفس ظلمت) أشركت بالله (ما فى الارض لافتدت به) لفادت به نفسها من عذاب الله (وأسروا الندامة) أخفوا الندامة الرؤساء من السفلة (لما رأوا العذاب) حين رأوا العذاب (وقضى بينهم) وبين السفلة (بالقسط) بالعدل (وهم لا يظلمون) لا ينقص من حسناتهم شئ ولا يزاد على سيئاتهم (ألا ان لله ما فى السموات والارض) من الخلق (يعنى) والعجائب (ألا ان وعد الله حق) كائن البعث بعد الموت (ولكن أكثرهم لا يعلمون)

فيقال اى والله ولا يقال اى وحده ﴿ وما انتم بمعجزين ﴾ بفائتين العذاب ﴿ ولو ان لكل نفس ظلمت ﴾ بالشرك أو التعدى على الغير ﴿ ما فى الارض ﴾ من خزائنها واموالها ﴿ لافتدت به ﴾ لجعلته فديتها من العذاب من قولهم افتداه بمعنى فداه ﴿ واسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ لانهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الامر وهوله فلم يقدروا ان ينطقوا وقيل اسروا الندامة اخلصوها لان اخفاءها اخلاصها أو لانه يقال سر الشئ لخالصته من حيث انها تخفى ويضن بها وقيل اظهروها من قولهم سر الشئ واسره اذا اظهره ﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ ليس تكريرا لان الاول قضاء بين الانبياء ومكذبيهم والثانى مجازاة المشركين على الشرك او الحكومة بين الظالمين والمظلومين والضمير انما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم ﴿ ألا ان لله ما فى السموات والارض ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب ﴿ ألا ان وعد الله حق ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خلف فيه ﴿ ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ لانهم لا يعلمون لقصور عقولهم

أعلمكم به حق لا شك فيه ﴿ وما انتم بمعجزين ﴾ يعنى بفائتين من العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته ﴿ ولو ان لكل نفس ظلمت ﴾ يعنى أشركت ﴿ ما فى الارض ﴾ يعنى من شئ ﴿ لافتدت به ﴾ يعنى يوم القيامة والافتداء بمعنى البذل لما ينجو به من العذاب الا أنه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه ﴿ وأسروا الندامة ﴾ يعنى يوم القيامة وانما جاء بلفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة لان أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى والاسرار يكون بمعنى الاخفاء وبمعنى الاظهار فهو من الاضداد فلهذا اختلفوا فى قوله وأسروا الندامة فقال أبو عبيدة معناه وأظهروا الندامة لان ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع وقيل معناه أخفوا يعنى أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والاتباع خوفا من ملامتهم اياهم وتعييرهم لهم ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ يعنى حين عاينوا العذاب وأبصروه ﴿ وقضى بينهم بالقسط ﴾ يعنى وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل بين الرؤساء والاتباع وقيل بين الكفار لاحتمال ان بعضهم قد ظلم بعضا فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ يعنى فى الحكم لهم وعليهم بل يخفف من عذاب المظلوم ويشدد فى عذاب الظالم ﴿ ألا ان لله ما فى السموات والارض ﴾ يعنى ان كل شئ فى السموات والارض لله ملك له لا يشركه فيه غيره فليس للكافر شئ يفتدى به من عذاب الله يوم القيامة لان الاشياء كلها لله وهو أيضا ملك لله فكيف يفتدى من هو مملوك لغيره بشئ لا يملكه ﴿ ألا ان وعد الله حق ﴾ يعنى ما وعد الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب الطائع وعقاب العاصى حق لا شك فيه ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

الاظاهرا من الحياة الدنيا ﴿ هو يحيي ويميت ﴾ فى الدنيا فهو يقدر عليهما فى العقبى لان القادر لذاته لاتزول قدرته والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما ابدا ﴿ واليه ترجعون ﴾ بالموت أو النشور ﴿ ياايها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أى قدجاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الاعمال ومقابحها والمرغبة فى المحاسن والزاجرة عن المقابح والحكمة النظرية التى هى شفاء لما فى الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد وهدى الى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين حيث انزل عليهم فنجوا به من ظلمة الضلال الى نور الايمان وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان والتنكير فيها للتعظيم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ بانزال القرآن والباء متعلقة بفعل يفسره قوله ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ فان

يعنى حقيقة ذلك ﴿ هو يحيي ويميت ﴾ يعنى الذى يملك ما فى السموات والارض قادر على الاحياء والاماتة لايتعذر عليه شئ مما أراد ﴿ واليه ترجعون ﴾ يعنى بعد الموت للجزاء * قوله عز وجل ﴿ ياايها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم ﴾ قيل اراد بالناس قريشا وقيل هو على العموم وهو الاصح وهو اختيار الطبرى قدجاءتكم موعظة من ربكم يعنى قرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وقيل الموعظة مايدعو الى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة والقرآن داع الى كل خير وصلاح بهذا الطريق ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾ يعنى ان القرآن ذو شفاء لما فى القلوب من داء الجهل وذلك لان داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن وأمراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة فالقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع فى بدن الانسان لمكان القلب فيه ﴿ وهدى ﴾ يعنى وهو هدى من الضلالة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ يعنى ونعمة على المؤمنين لانهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ الباء فى بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ماتقدم عليه وهو قوله قدجاءتكم موعظة من ربكم والفضل هنا بمعنى الافضال ويكون معنى الآية على هذا ياايها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهو القرآن بافضال الله عليكم ورحمته بكم وارادته الخير لكم * ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ أشار بذلك الى القرآن لان المراد بالموعظة والشفاء القرآن فترك اللفظ وأشار الى المعنى وقيل فبذلك فليفرحوا اشارة الى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والانعام فليفرحوا قال الواحدى الفاء فى قوله تعالى فليفرحوا زائدة كقول الشاعر * فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعى * فالفاء فى قوله فاجزعى زائدة وقال صاحب الكشاف فى معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد

غيره (واليه ترجعون) والى حسابه وجزائه المرجع فيخاف ويرجى (ياأيها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم) أى قدجاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد والموعظة التى تدعو الى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب فان فى القرآن من الاوامر والنواهى داع الى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب اذ الامر يقتضى حسن المأمور به فيكون مرغوبا وهو يقتضى النهى عن ضده وهو قبيح وعلى هذا فى النهى (وشفاء لما فى الصدور) أى صدوركم من العقائد الفاسدة (وهدى) من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) لمن آمن به منكم (قل) يا محمد (بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)

لايصدقون (هو يحيي) للبعث (ويميت) فى الدنيا (واليه ترجعون) بعد الموت (ياايها الناس) يااهل مكة (قدجاءتكم موعظة) نهى (من ربكم) عما أنتم فيه (وشفاء) بيان (لما فى الصدور) من العمى (وهدى) من الضلالة (ورحمة) من العذاب (للمؤمنين قل) يامحمد لاصحابك (بفضل الله) القرآن الذى أكرمكم به (وبرحمته) الاسلام الذى وفقكم به (فبذلك) بالقرآن والاسلام (فليفرحوا

سم الاشارة بمنزلة لضمير تقديره بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو فليفرحوا فبذلك فليفرحوا بفائدة ذلك التكرير التأكيد والبيان بعد الاجمال وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح أو بفعل دل عليه قد جاءتكم وذلك اشارة الى مصدره اى فبمجيئها فليفرحوا والفاء بمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشئ فبهما فليفرحوا أو للربط بما قبلها والدلالة على ان مجئ الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح وتكريرها للتأكيد كقوله

واذا هلكت فعند ذلك فاجزعى

وعن يعقوب فلتفرحوا بالتاء على الاصل المرفوض وقد روى مرفوعا ويؤيده انه قرئ فافرحوا ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا فانها الى الزوال قريب وهو ضمير ذلك وقرأ ابن عامر تجمعون على معنى فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعونه ايها المخاطبون ﴿ قل ارأيتم ما انزل الله لكم من رزق ﴾ جعل الرزق منزلا لانه مقدر فى السماء محصل باسباب منها وما فى موضع النصب بانزل أو بارأيتم فانه بمعنى اخبرونى ولكم دل على ان المراد منه ماحل ولذلك وبخ على التبعيض فقال ﴿ فجعلتم منه حراما وحلالا ﴾ مثل هذه انعام وحرث حجر ومافى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا ﴿ قل آلله اذن لكم ﴾ فى التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمه

والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ماعداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط فكأنه قيل ان فرحوا بشئ فليخصوهما بالفرح فانه لامفروح به أحق منهما والفرح لذة فى القلب بادراك المحبوب والمشتهى يقال فرحت بكذا اذا أدركت المأمول ولذلك أكثر مايستعمل الفرح فى اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أى ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالايمان وسكون النفس اليه ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ يعنى من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب أهل المعانى فى هذه الآية واما مذهب المفسرين فغير هذا فان ابن عباس والحسن وقتادة قالوا فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن فعلى هذا الباء فى بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره مابعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته ﴿ قل ﴾ أى قل يامحمد لكفار مكة ﴿ أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ يعنى من زرع وضرع وغيرهما وعبر عما فى الارض بالانزال لان جميع مافى الارض من خير ورزق فانما هو من بركات السماء ﴿ فجعلتم منه ﴾ يعنى من ذلك الرزق ﴿ حراما وحلالا ﴾ يعنى ماحرموه على أنفسهم فى الجاهلية من الحرث والانعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى قال الضحاك وهو قوله سبحانه وتعالى وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا ﴿ قل آلله أذن لكم ﴾ يعنى قل لهم يامحمد آلله أذن لكم فى هذا التحريم والتحل

أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ماعداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل ان فرحوا بشئ فليخصوهم بالفرح أو بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا وهما كتاب الله والاسلام فى الحديث من هداه الله للاسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه الى يوم يلقاه وقرأ الآية (هو خير مما يجمعون) وبالتاء شامى وفلتفرحوا يعقوب (قل أرأيتم) أخبرونى (ما أنزل الله لكم من رزق) ما منصوب بانزل أو بأرأيتم أى أخبرونيه (فجعلتم منه حراما وحلالا) فبعضتموه وقلتم هذا حلال وهذا حرام كقوله مافى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا والارزاق تخرج من الارض ولكن لما نيطت أسبابها بالسماء نحو المطر الذى به تنبت الارض النبات والشمس التى بها النضج ونضج الثمار أضيف انزالها الى السماء (قل آلله) أذن لكم) متعلق بأرأيتم وقيل تكرير للتوكيد والمعنى

هو خير) يعنى القرآن والاسلام (مما يجمعون) مما يجمعه اليهود والمشركون من الاموال (قل) يامحمد لاهل مكة (ارأيتم ما انزل الله لكم) ما خلق الله لكم (من رزق) من حرث وانعام (فجعلتم منه) فقلتم وفعلتم (أم) (حراما) على النساء منفعتها يعنى منفعة البحيرة والسائبة والحام (وحلالا) للرجال (قل) لهم يامحمد (آلله أذن لكم) أمر بكم بذلك

أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم فانتم تفعلون ذلك باذنه (أم على الله تفترون) أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك اليه أو الهمزة للانكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريرا للافتراء والآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الاحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وأن لايقول أحد في شئ جائز أوغير جائز الابعد ايقان واتقان و الا فهو مفتر على الديان (وماظن الذين يفترون على الله الكذب) ينسبون ذلك اليه (يوم القيمة) منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه أي أي شئ ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالاحسان والاساءة وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره (ان الله لذو فضل على الناس) حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام (ولكن أكثرهم لايشكرون) هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا اليه (وماتكون في شأن) ما نافية والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والشأن الامر (وماتتلوا منه) من التنزيل كانه قيل وماتتلو من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له أو من الله عزوجل

(أم على الله) بل على الله (تفترون) تختلقون الكذب (وماظن الذين يفترون) يختلقون (على الله الكذب) ماذا يفعل بهم (يوم القيمة ان الله لذو فضل) (قا و خا ٣٤ لث) من (على الناس) بتأخير العذاب (ولكن أكثرهم لايشكرون) بذلك و لا يؤمنون (وماتكون) يا محمد (في شأن) في أمر (وماتتلوا) عليهم (منه من قرآن) سورة

﴿ أم على الله تفترون ﴾ في نسبة ذلك اليه ويجوز ان تكون المنفصلة متصلة بارأيتم وقل مكرر للتأكيد وان يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير لافترائهم على الله ﴿ وماظن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ أي شئ ظنهم ﴿ يوم القيمة ﴾ أيحسبون ان لايجازوا عليه وهو منصوب بالظن ويدل عليه انه قرئ بلفظ الماضي لانه كائن وفي ابهام الوعيد تهديد عظيم ﴿ ان الله لذو فضل على الناس ﴾ حيث انعم عليهم بالعقل وهداهم بارسال الرسل وانزال الكتب ﴿ ولكن اكثرهم لايشكرون ﴾ هذه النعمة ﴿ وماتكون في شأن ﴾ ولاتكون في امر واصله الهمز من شأنت شأنه اذا قصدت قصده والضمير في ﴿ وماتتلوا منه ﴾ له لان تلاوة القرآن معظم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام أولان القرآة تكون لشأن فيكون التقدير من اجله ومفعول تتلو ﴿ من قرآن ﴾ على ان من تبعيضية اومزيدة لتأكيد النفي اوللقرآن

﴿ أم على الله تفترون ﴾ يعني بل أنتم كاذبون على الله في ادعائكم ان الله أمرنا بهذا ﴿ وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيمة ﴾ يعني اذا لقوه يوم القيامة أيحسبون أنه لايؤاخذهم ولايجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب ﴿ ان الله لذو فضل على الناس ﴾ يعني ببعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام ﴿ ولكن أكثرهم لايشكرون ﴾ يعني لايشكرون الله على ذلك الفضل والاحسان ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ وماتكون في شأن وماتتلوا منه من قرآن ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده والشأن الخطب والحال والامر الذي يتفق ويصلح ولايقال الافيما يعظم من الاحوال والامور والجمع الشؤن تقول العرب ماشأن فلان أي ماحاله والشأن اسم اذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدرا اذا كان معناه القصد والذي في هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم قال ابن عباس معناه و ماتكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن في شأن من شؤن الدنيا و حوائجك ويجوز أن يكون المراد منه القصد يعني قصد الشئ وماتتلو منه من قرآن اختلفوا في الضمير في منه الى ماذا يعود فقيل يعود الى الشأن اذ تلاوة القرآن شأن من شؤن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم شؤنه فعلى هذا يكون داخلا تحت قوله تعالى وماتكون في شأن الا انه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته وقيل انه راجع الى القرآن لانه قد تقدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته فعلى هذا يكون المعنى وماتتلو من القرآن من قرآن يعني من سورة وشئ منه لان لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه وقيل الضمير في منه راجع الى الله والمعنى وماتتلوا من الله من قرآن نازل عليك

(ولاتعملون) أنتم جميعا (من عمل) أى عمل (الا كنا عليكم شهودا) شاهدين رقباء نحصى عليكم (اذتفيضون فيه) تخوضون من أفاض فى الامر

 (ومايعزب عن ربك)

وما يبعد ومايغيب بكسر الزاء على حيث كان (من مثقال ذرة) وزن نملة صغيرة (فى الارض ولا فى السماء ولا اصغر من ذلك ولا أكبر) رفعهما حمزة على الابتداء والخبر (الا فى كتاب مبين) يعنى اللوح المحفوظ ونصبهما غيره على نفى الجنس وقدمت الارض على السماء هنا وفى سبأ قدمت السموات لان العطف بالواو وحكمه حكم التثنية (ألا ان أولياء الله) هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة اوهم الذين تولى الله هداهم بالبرهان الذى آتاهم فتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه أوهم المتحابون فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها أوهم المؤمنون المتقون بدليل الآية الثانية (لاخوف عليهم

واضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له أولله ﴿ ولاتعملون من عمل ﴾ تعميم الخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ولذلك ذكر حيث خص مافيه فخامة وذكر حيث عم مايتناول الجليل والحقير ﴿ الا كنا عليكم شهودا ﴾ رقباء مطلعين عليه ﴿ اذتفيضون فيه ﴾ تخوضون فيه وتندفعون ﴿ وما يعزب عن ربك ﴾ ولايبعد عنه ولايغيب عن علمه • وقرأ الكسائى بكسر الزاء هنا وفى سبأ ﴿ من مثقال ذرة ﴾ موازن نملة صغيرة أوهباء ﴿ فى الارض ولا فى السماء ﴾ أى فى الوجود والامكان فان العامة لاتعرف ممكنا غيرهما ليس فيهما ولامتعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام فى حال اهلها والمقصود منه البرهان على احاطة علمها ﴿ ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين ﴾ كلام برأسه مقرر لماقبله ولا نافية واصغر اسمها وفى كتاب خبرها • وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ ﴿ ألا ان أولياء الله ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ﴿ لاخوف عليهم ﴾

﴿ واما قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولاتعملون من عمل ﴾ فانه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وأمته داخلون فيه ومرادون به لان من المعلوم أنه اذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ولاتعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على أنهم داخلون فى الخطابين الاولين ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ الا كنا عليكم شهودا ﴾ يعنى شاهدين لاعمالكم وذلك لان الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ لانه لامحدث ولاخالق ولاموجد الا الله تعالى فكل مايدخل فى الوجود من احوال العباد و أعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وهو شاهد عليه ﴿ اذ تفيضون فيه ﴾ يعنى أن الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون فى ذلك العمل والافاضة الدخول فى العمل على جهة الانصباب اليه والانبساط فيه وقال ابن الانبارى معناه اذ تدفعون فيه وتنبسطون فى ذكره وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنشرون فيه يقال أفاض القوم فى الحديث اذا انتشروا فيه ﴿ ومايعزب عن ربك ﴾ يعنى ومايبعد ويغيب عن ربك يامحمد من عمل خلقه شئ لانه عالم به وشاهد عليه وأصل العزوب البعد يقال منه كلام عازب اذا كان بعيد المطلب ﴿ من مثقال ذرة ﴾ يعنى وزن ذرة والمثقال الوزن والذرة النملة الصغيرة الحمراء وهى خفيفة الوزن جدا ﴿ فى الارض ولا فى السماء ﴾ فان قلت لم قدم ذكر الارض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الارض فى سورة سبأ ومافائدة ذلك قلت كان حق السماء أن يقدم على الارض كما فى سورة سبأ الا أنه تعالى لما ذكر فى هذه الآية شهادته على أهل الارض وأحوالهم وأعمالهم ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الارض على السماء فى هذا الموضع لهذه الفائدة ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ يعنى من الذرة ﴿ ولا أكبر ﴾ يعنى منها ﴿ الا فى كتاب مبين ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم

أو آية (ولاتعملون من عمل) ن خير أو شر (الا كنا عليكم) وعلى أمركم وتلاوتكم وعملكم (شهودا) عالما (اذتفيضون) تخوضون (فيه) فى القرآن بالتكذيب (ومايعزب) مايغيب (عن ربك من مثقال ذرة) وزن نملة الحمراء من أعمال العباد (فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك) لا أخف من ذلك (ولا أكبر) ولا أثقل

(الا فى كتاب مبين) مكتوب فى اللوح المحفوظ (ألا ان اولياء الله) المؤمنين (لاخوف عليهم) فيما (ولا)

من لحوق مكروه ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ لفوات مأمول والآية كمجمل فسره قوله

ولاهم يحزنون ﴾ اعلم أننا نحتاج أولا في تفسير هذه الآية أن نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولى فنقول اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس في هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبرى بسنده عن سعيد بن جبير مرسلا قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله فقال هم الذين اذا رؤا ذكر الله وقال ابن زيد هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الايمان الا بالتقوى وقال قوم هم المتحابون في الله ويدل على ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله لاناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يارسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا في الله على غير ارحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى نور لايخافون اذا خاف الناس ولايحزنون اذا حزن الناس وقرأ هذه الآية ألا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون أخرجه أبوداود عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم في ظلى يوم لاظل الاظلى أخرجه مسلم عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى المتحابون بجلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء أخرجه الترمذى وروى البغوى بسنده عن أبى مالك الاشعرى قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لله عبيدا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة قال وفي ناحية القوم اعرابى فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال حدثنا يارسول الله عنهم من هم قال فرأيت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم البشر فقال هم عباد من عباد الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولادنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن يفزع الناس ولايفزعون ويخاف الناس ولايخافون ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى ان أوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى واذكر بذكرهم هكذا ذكره البغوى بغير سند وروى الطبرى بسنده عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله عبادا يغبطهم الانبياء والشهداء قيل من هم يارسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولايحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ ألا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الغبطة نوع من الحسد الا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة ان الحاسد يتمنى زوال ماعلى المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هى أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التى هى على المغبوط من غير زوال عنه وقال أبوبكر الاصم اولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة اليه وأصل الولى من الولاء وهو القرب والنصرة فولى الله هو

اذا خاف الناس (ولاهم يحزنون)اذا حزن الناس

يستقبلهم من العذاب (ولا هم يحزنون) على ماخلفوا من خلفهم ثم بين من هم فقال

﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وقيل الذين آمنوا وكانوا يتقون بيان لتوليهم اياه ﴿ لهم البشرى فى الحيوة الدنيا ﴾ وهو ما بشر به المتقين فى كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وما يريهم من الرؤيا الصالحة وما يسنح لهم من المكاشفات وبشرى الملائكة عند النزع ﴿ وفى الآخرة ﴾ بتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة بيان لتوليه

الذى يتقرب الى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب فى معرفة نور جلال الله فان رأى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك تحرك فى طاعة الله وان اجتهد اجتهد فيما يقربه الى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى بقلبه غير الله فهذه صفة أولياء الله واذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى الله ولى الذين آمنوا وقال المتكلمون ولى الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة واليه الاشارة بقوله الذين آمنوا وكانوا يتقون وهو أن الايمان مبنى على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقى العبد كل ما نهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى لا خوف عليهم يعنى فى الآخرة اذا خاف غيرهم ولاهم يحزنون يعنى على شئ فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها قال بعض المحققين زوال الخوف والحزن عنهم انما يحصل لهم فى الآخرة لان الدنيا لا تخلو من هم وغم وأنكاد وحزن قال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله واذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شئ ولا يحزن على شئ لان مقام الولاية والمعرفة منعه من أن يخاف أو يحزن ❀ واما قوله سبحانه وتعالى ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ فقد تقدم تفسيره وانه صفة لاولياء الله ❀ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ﴾ اختلفوا فى هذه البشرى فروى عن عبادة بن الصامت قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى لهم البشرى فى الحيوة الدنيا قال هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له أخرجه الترمذى وله عن رجل من اهل مصر قال سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى فى الحيوة الدنيا قال ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وقال ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم او ترى له قال الترمذى حديث حسن (خ) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يبق بعدى من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة لفظ البخارى ولمسلم اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزأ من النبوة والرؤيا ثلاث الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه قال بعض العلماء ووجه هذا القول انا اذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى ان لا تحمل هذه الحالة الا لهم

(الذين آمنوا) منصوب باضمار أعنى أو لانه صفة لاولياء أو مرفوع على انه خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا (وكانوا يتقون) الشرك والمعاصى (لهم البشرى فى الحيوة الدنيا) ما بشر الله به المؤمنين المتقين فى غير موضع من كتابه وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يرها المسلم أو ترى له وعنه عليه السلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهذا لان مدة الوحى ثلاث وعشرون سنة وكان فى ستة أشهر منها يؤمر فى النوم بالانذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزأ أو هى محبة الناس له والذكر الحسن أو لهم البشرى عند النزع بان يرى مكانه فى الجنة (وفى الآخرة)

(الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وكانوا يتقون) الكفر والشرك والفواحش (لهم البشرى فى الحيوة الدنيا) بالرؤيا الصالحة يرونها أو ترى لهم (وفى الآخرة) بالجنة

{ وذلك }

لهم ومحل الذين آمنوا النصب أوالرفع على المدح أوعلى وصف الاولياء أوعلى الابتداء وخبره لهم البشرى ﴿ لاتبديل لكلمات الله ﴾ أى لاتغيير لاقواله ولااخلاف لمواعيده ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى كونهم مبشرين فى الدارين ﴿ هوالفوزالعظيم ﴾

وذلك لان ولى الله هوالذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عزوجل ومن كان كذلك فانه عندالنوم لايبقى فى قلبه غيرذكر الله ومعرفته ومن المعلوم ان معرفة الله فى القلب لاتفيدالاالحق والصدق فاذارأى الولى رؤيا أورؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عزوجل لهذا الولى قال الخطابى فى هذه الاحاديث توكيد لامر الرؤيا وتحقيق منزلتها وانماكانت جزأ من أجزاء النبوة فى حق الانبياء دون غيرهم وكان الانبياء عليهم السلام يوحى اليهم فى منامهم كما يوحى اليهم فى اليقظة قال الخطابى قال بعض العلماء معنى الحديث ان الرؤيا تأتى على موافقة النبوة لانها جزء من النبوة وقال الخطابى وغيره فى معنى قوله الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة أقام النبى صلى الله عليه وسلم فى النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى فى المنام الوحى فهى جزء من ستة وأربعين جزأ وقيل ان المنام لعل أن يكون فيه اخبار بغيب وهو أحد مراتب النبوة وهويسير فى جانب النبوة لانه لايجوز أن يبعث الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيا يشرع الشرائع ويبين الاحكام ولايخبر بغيب أبدافاذا وقع لاحد فى المنام الاخبار بغيب يكون هذا القدر جزأ من النبوة لانه نبى واذا وقع ذلك لاحد فى المنام يكون صدقا والله أعلم وقيل فى تفسير الآية ان المراد بالبشرى فى الحياة الدنيا هى الثناء الحسن وفى الآخرة الجنة ويدل على ذلك ماروى عن أبى ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن أخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووى قال العلماء معنى هذه البشرى المعجلة له بالخير وهى دليل للبشرى المؤخر له فى الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه الى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول فى الارض هذا كله اذاحمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم والافالتعرض مذموم قال بعض المحققين اذا اشتغل العبد بالله عزوجل استنار قلبه وامتلأ نورا فيفيض من ذلك النور الذى فى قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهرى وقتادة فى تفسير البشرى هى نزول الملائكة بالبشارة من الله عندالموت ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون وقال عطاء عن ابن عباس البشرى فى الدنيا عندالموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفى الآخرة بعدخروج نفس المؤمن يعرج بها الى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هى مابشر الله به المؤمنين فى كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى ﴿ لاتبديل لكلمات الله ﴾ يعنى لاخلف لوعد الله الذى وعده أولياءه وأهل طاعته فى كتابه وعلى السنة رسله ولاتغيير لذلك الوعد ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ يعنى ماوعدهم به فى الآخر

هى الجنة (لاتبديل لكلمات الله) لاتغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين فى الدارين (هوالفوز العظيم) وكلتا الجملتين اعتراض ولايجب انه يقع بعدالاعتراض كلام كما تقول فلان ينطق بالحق والحق أبلج وتسكت

(لاتبديل لكلمات الله) بالجنة (ذلك) البشرى (هوالفوز العظيم) النجاة الوافر فازوا بالجنة ومافيها ونجوا من النار ومافيها

(ولا يحزنك قولهم) تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك (ان العزة) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالى لا أحزن فقيل ان العزة (لله) ان الغلبة والقهر فى ملكه لا يملك أحد شيأ منهما لاهم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم كتب الله لأغلبن أنا ورسلى انا لننصر رسلنا أو به يتعزز كل عزيز فهو يعزك ودينك وأهلك والوقف لازم على قوله لئلا يصير ان العزة مقول الكفار (جميعا) حال (هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافيهم بذلك (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) يعنى العقلاء وهم الملائكة والثقلان وخصهم ليؤذن ان هؤلاء اذا كانوا له وفى مملكته ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا ان يكون شريكا له فيها فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكا (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) ما نافية أى وما يتبعون حقيقة الشركاء وان كانوا يسمونها شركاء لان شركة الله فى الربوبية محال (ان يتبعون الا الظن) الا ظنهم انهم

هذه الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه ان يقع بعده كلام يتصل بما قبله ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ اشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم * وقرأ نافع يحزنك من احزنه وكلاهما بمعنى ﴿ ان العزة لله جميعا ﴾ استئناف بمعنى التعليل ويدل عليه القراءة بالفتح كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لان الغلبة لله جميعا لا يملك غيره شيأ منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم ﴿ هو السميع ﴾ لاقوالهم ﴿ العليم ﴾ بعزماتهم فيكافيهم عليها ﴿ ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض ﴾ من الملائكة والثقلين واذا كان هؤلاء الذين هم اشرف الممكنات عبيدا لا يصلح احد منهم للربوبية فالا يعقل منها احق ان لا يكون له ندا وشريكا فهو كالدليل على قوله ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ أى شركاء على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركاء ويجوز ان يكون شركاء مفعول يدعون ومفعول يتبع محذوف دل عليه ﴿ ان يتبعون الا الظن ﴾ أى ما يتبعون يقينا

﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يغمك تخويفهم اياك ﴿ ان العزة لله جميعا ﴾ يعنى ان القهر والغلبة والقدرة لله جميعا هو المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم وقال سعيد بن المسيب ان العزة لله جميعا فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى فى آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولا منافاة بين الآيتين فان عزة الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين باعزاز الله أياهم فثبت بذلك ان العزة لله جميعا وهو الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله سبحانه وتعالى ان جميع ذلك لله وفى ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز ﴿ هو السميع ﴾ لاقوالكم ودعائكم ﴿ العليم ﴾ بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية * قوله سبحانه وتعالى ﴿ الا ان لله من فى السموات ومن فى الارض ﴾ ألا كلمة تنبيه معناه انه لا ملك لاحد فى السموات ولا فى الارض الا لله عز وجل فهو يملك من فى السموات ومن فى الارض فان قلت قال سبحانه وتعالى فى الآية التى قبل هذه ألا ان لله ما فى السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى فى هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك قلت ان لفظة ما تدل على لا ما يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على أن الله عز وجل يملك جميع من فى السموات ومن فى الارض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفى ملكه وقيل ان لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن فى السموات الملائكة العقلاء ومن فى الارض الانس والجن وهم العقلاء ايضا وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء العقلاء المميزون فى ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الاولى أن يكونوا فى ملكه اذا ثبت هذا فتكون الاصنام التى يعبدها المشركون أيضا فى ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحا فى جعل الاصنام شركاء لله معبودة دونه ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ لفظة ما استفهام معناه وأى شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعنى انهم ليسوا على شئ لانهم يعبدونها على انها شركاء الله تشفع لهم وليس الامر على ما يظنون وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ان يتبعون الا الظن ﴾ يعنى ان فعلهم ذلك ظن منهم أنها تشفع

(ولا يحزنك) يا محمد (قولهم) تكذيبهم اياك (ان العزة) والقدرة والمنعة (لله جميعا) بهلاكهم (هو السميع) لمقالتهم (العليم) بفعلهم وعقوبتهم (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) من الخلق يحولهم كيف يشاء (وما يتبع) يعبد { لهم } (الذين يدعون) يعبدون (من دون الله شركاء) آلهة من الاوثان (ان يتبعون) ما يعبدون (الا الظن) الا بالظن بغير

شركاءالله (وان هم الا يخرصون) يحزرون ويقدرون أن يكونوا شركاء تقديرا باطلا أواستفهامية أى وأى شئ يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الاول بيتبع وكان حقه ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة والمحذوف مفعول يدعون أو موصولة معطوفة على من كانه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم ثم نبه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله

(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى جعل لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب التردد فى النهار (والنهار مبصرا) مضيئا لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع مذكر معتبر (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغنى) علة لنفى الولد لانه انما يطلب الولد ضعيف ليتقوى به أو فقير ليستعين به أو ذليل ليتشرف به ولكل أمارة الحاجة فمن كان غنيا غير محتاج كان الولد عنه منفيا ولان الولد بعض الوالد فيستدعى أن يكون مركبا وكل مركب ممكن وكل ممكن يحتاج الى الغير فكان حادثا فاستحال القديم أن يكون له ولد (له مافى السموات ومافى الارض) ملكا ولا تجتمع النبوة معه (ان عندكم

وانما يتبعون ظنهم انهم شركاء ويجوز ان تكون ما استفهامية منصوبة بيتبع أو موصولة معطوفة على من * وقرئ تدعون بالتاء الخطابية والمعنى أى شئ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين أى انهم لا يتبعون الا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة فيكون الزاما بعد برهان ومابعده مصروف عن خطابهم لبيان سندهم ومنشأ رأيهم ﴿وان هم الا يخرصون﴾ يكذبون فيما ينسبون الى الله أو يحزرون ويقدرون انها شركاء تقديرا باطلا ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة وانما قال مبصرا ولم يقل لتبصروا فيه تفرقة بين الظرف المجرد والظرف الذى هو سبب ﴿ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ سماع تدبر واعتبار ﴿قالوا اتخذ الله ولدا﴾ أى تبناه ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن التبنى فانه لا يصح الا ممن يتصور له الولد وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغنى﴾ علة لتنزيهه فان اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة ﴿له مافى السموات ومافى الارض﴾ تقرير لغناه ﴿ان عندكم

لهم وانها تقربهم الى الله وذلك ظن منهم لا حقيقة له ﴿وان هم الا يخرصون﴾ يعنى ان هم الا يكذبون * قوله عز وجل ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ يعنى هو الله ربكم الذى خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون فيه واصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصرا وجعل النهار مضيئا لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم وأضاف الابصار الى النهار وانما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوما من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم ومايفهمونه قال جرير * لقد لمتنا ياام غيلان فى سرى * ونمت وما ليل لمطى بنائم * فاضاف النوم الى الليل ووصفه به وانما عنى نفسه وان لم يكن نائما هو ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب الى السبب قال قطرب تقول العرب اظلم الليل وابصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء * قوله تعالى ﴿ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ يعنى يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذى خلق هذه الاشياء كلها هو الاله المعبود المنفرد بالوحدانية فى الوجود ﴿قالوا﴾ يعنى المشركين ﴿اتخذ الله ولدا﴾ يعنى به قولهم الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد ﴿هو الغنى﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى هو الغنى عن جميع خلقه فكيف يليق بجلاله اتخاذ الولد وانما يتخذ الولد من هو محتاج اليه والله تعالى هو الغنى المطلق وجميع الاشياء محتاجة اليه وهو غنى عنها ﴿له مافى السموات ومافى الارض﴾ يعنى انه مالك مافى السموات ومافى الارض وكلهم عبيده وفى قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم ولما نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالانكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى ﴿ان عندكم

يقين (وان هم) ماهم يعنى الرؤساء (الا يخرصون) يكذبون للسفلة (هو الذى) أى الهكم هو الذى (جعل لكم) خلق لكم (الليل لتسكنوا فيه) لتستقروا فيه (والنهار مبصرا) مضيئا للذهاب والمجئ (ان فى ذلك) فيما ذكرت (لآيات) لعبرات (لقوم يسمعون) مواعظ القرآن ويطيعون (قالوا) كفار مكة (اتخذ الله ولدا) من الملائكة الاناث (سبحانه) نزه نفسه عن الولد والشريك (هو الغنى) عن الولد والشريك (له مافى السموات ومافى لاض) من الخلق والعجائب (ان عندكم)

من سلطان بهذا) ماعندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله ان عندكم على ان يجعل القول مكانا السلطان كقولك ما عندكم بارضكم موز كأنه قيل ان عندكم فيما تقولون سلطان ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فقال (أتقولون على الله مالا تعلمون قل ان الذين يفترون على الله الكذب) باضافة الولد اليه (لايفلحون) لاينجون

من النار ولا يفوزون بالجنة (متاع في الدنيا) أى افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا حيث يقيمون به رياستهم في الكفر و مناصبة النبي صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به (ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد) المخلد (بما كانوا يكفرون) بكفرهم واتل عليهم) واقرأ عليهم (نبأ نوح) خبره مع قومه والوقف عليه لازم اذلو وصل لصار اذ ظرفا لقوله واتل بل التقدير واذكر

من سلطان بهذا ﴾ نفي لمعارض ماأقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقا لبطلان قولهم وبهذا متعلق بسلطان أو نعت له أو بعندكم كأنه قيل ان عندكم في هذا من سلطان ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم وفيه دليل على ان كل قول لادليل عليه فهو جهالة وان العقائد لابدلها من قاطع وان التقليد فيها غير سائغ ﴿ قل ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ باتخاذ الولد واضافة الشريك اليه ﴿ لايفلحون ﴾ لاينجون من النار ولايفوزون بالجنة ﴿ متاع في الدنيا ﴾ خبر مبتدأ محذوف اى افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رياستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع او مبتدأ خبره محذوف أى لهم تمتع في الدنيا ﴿ ثم الينا مرجعهم ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ بسبب كفرهم ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ خبره مع قومه

من سلطان بهذا ﴾ يعني انه لاحجة عندكم على هذا القول البتة ثم بالغ في الانكار عليهم بقوله تعالى ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ يعني أتقولون على الله قولا لاتعلمون حقيقته وصحته وتضيفون اليه مالا تجوز اضافته اليه جهلا منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان ﴿ قل ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ اى قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون ان له ولدا ﴿ لايفلحون ﴾ يعني لايسعدون و ان اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة والمعنى ان قائل هذا القول لاينجح في سعيه ولايفوز بمطلوبه بل خاب و خسر قال الزجاج هذا وقف تام يعني قوله لايفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ متاع في الدنيا ﴾ وفيه اضمار تقديره لهم متاع في الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم وانقضاء آجالهم في الدنيا وهي أيام يسيرة بالنسبة الى طول مقامهم في العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ثم الينا مرجعهم ﴾ يعني بعد الموت ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ يعني ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفون بما لايليق بجلاله * قوله سبحانه وتعالى ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أحوال كفار قريش وماكانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في بيان قصص الانبياء وماجرى لهم مع أممهم ليكون في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة بمن سلف من الانبياء وتسلية له ليخف عليه مايلقى من اذى قومه وان الكفار من قومه اذا سمعوا هذه القصص وماجرى لكفار الامم الماضية من العذاب والهلاك في الدنيا كان ذلك سببا لخوف قلوبهم وداعيا لهم الى الايمان ولما كان قوم نوح أول الامم هلاكا واعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال سبحانه وتعالى وتل عليهم نبأ نوح يعني واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح

ماعندكم (من سلطان) من كتاب ولاحجة (بهذا بما تقولون على الله من الكذب (أتقولون على الله) بل تقولون على الله (مالا تعلمون) ذلك من الكذب (قل) يا محمد (ان الذين يفترون) يختلقون (على الله الكذب لايفلحون) لاينجون من عذاب الله ولايأمنون (متاع في الدنيا)يعيشون في الدنيا قليلا (ثم الينا مرجعهم) بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد)الغليظ (بما كانوا يكفرون) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ويكذبون على الله (واتل عليهم) اقرأ عليهم (نبأ) خبر (نوح) بالقرآن (اذ)

اذقال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم) عظم وثقل كقوله وانها لكبيرة الا على الخاشعين (مقامى) مكانى يعنى نفسه كقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان أى خاف ربه أوقيامى ومكثى بين أظهركم ألف سنة الا خمسين عاما أومقامى (وتذكيرى بآيات الله) لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا (فعلى الله توكلت) أى فوضت أمرى اليه (فاجمعوا أمركم) من اجمع الامر اذا نواه وعزم عليه (وشركاءكم) الواو بمعنى مع أى فاجمعوا أمركم مع شركائكم (ثم لايكن أمركم عليكم غمة) أى غما عليكم وهما والغم والغمة كالكرب والكربة أوملتبسا فى خفية والغمة السترة من غمه اذا ستره ومنه الحديث لاغمة فى فرائض الله أى لاتستر ولكن يجاهر بها والمعنى ولايكن قصدكم الى هلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهروننى به (ثم اقضوا الى) ذلك الامر الذى تريدون بى أى أدوا الى ماهو حق عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه أواصنعوا ماأمكنكم (ولاتنظرون) ولاتمهلونى

﴿ اذقال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم ﴾ عظم عليكم وشق ﴿ مقامى ﴾ نفسى كقولك فعلت كذا لمكان فلان أو كونى واقامتى بينكم مدة مديدة أو قيامى على الدعوة ﴿ وتذكيرى ﴾ اياكم ﴿ بايات الله فعلى الله توكلت ﴾ وثقت به ﴿ فاجمعوا أمركم ﴾ فاعزموا عليه ﴿ وشركاءكم ﴾ اى مع شركائكم ويؤيده القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل وجاز من غير ان يؤكد للفصل وقيل انه معطوف على امركم بحذف المضاف اى وامر شركائكم وقيل انه منصوب بفعل محذوف تقديره وادعوا شركائكم * وقد قرئ به وعن نافع فاجمعوا من الجمع والمعنى امرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعى فى اهلاكه على اى وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم ﴿ ثم لايكن امركم ﴾ فى قصدى ﴿ عليكم غمة ﴾ مستورا واجعلوه ظاهرا مكشوفا من غمه اذا ستره أو ثم لايكن حالكم عليكم غما اذا اهلكتمونى وتخلصتم من ثقل مقامى وتذكيرى ﴿ ثم اقضوا ﴾ ادوا ﴿ الى ﴾ ذلك الامر الذى تريدون بى * وقرئ ثم افضوا الى بالفاء اى انتهوا الى بشركم أو ابرزوا الى من افضى اذا خرج الى الفضاء ﴿ و لاتنظرون ﴾ ولاتمهلونى

﴿ اذقال لقومه ياقوم ﴾ وهم بنو قابيل ﴿ ان كان كبر ﴾ يعنى ثقل ﴿ عليكم مقامى ﴾ يعنى فيكم ﴿ وتذكيرى بآيات الله ﴾ يعنى ووعظى اياكم بآيات الله وقيل معناه ان كان ثقل وشق عليكم طول مقاى فيكم وذلك انه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله تعالى و يذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيرى بآيات الله يعنى و وعظى بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلى وطردى ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ يعنى فهو حسبى وثقتى ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ يعنى فأحكموا أمركم واعزموا عليه قال الفراء الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وقال ابن الانبارى المراد من الامر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لاتدعوا من أمركم شيأ الا احضرتموه ﴿ وشركاءكم ﴾ يعنى وادعوا شركاءكم يعنى آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وانما حثهم على الاستعانة بالاصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم انها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لاتضر ولاتنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم ﴿ ثم لايكن امركم عليكم غمة ﴾ يعنى لايكن أمركم عليكم خفيا مبهما ولكن ليكن أمركم ظاهرا منكشفا من قولهم غم الهلال فهو مغموم اذا خفى والتبس على الناس ﴿ ثم اقضوا ﴾ ثم امضوا ﴿ الى ﴾ بما فى أنفسكم من مكروه وماتوعدونى به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان اذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ماأنتم قاضون ﴿ ولاتنظرون ﴾ أى ولاتؤخرونى ولاتمهلونى بعد اعلامكم اياى ماأنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عزوجل عن نوح عليه السلام انه كان قدبلغ الغاية فى التوكل على الله وانه كان واثقا بنصره اياه غير خائف من كيدهم علما منه بأنهم وآلتهم ليس لهم نفع ولاضر وان

(اذقال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم) عظم عليكم (مقامى) طول مقامى ومكثى (وتذكيرى) وتحذيرى اياكم (بآيات الله) من عذاب الله (فعلى الله توكلت) وثقت وفوضت (قا و خا ٣٥ لث) أمرى الى الله (فأجمعوا امركم) فاجتمعوا على قول وأمر واحد (وشركاءكم) استعينوا بآلهتكم (ثم لايكن امركم عليكم غمة) لاتلبسوا أمركم وقولكم على أنفسكم (ثم اقضوا الى) امضوا الى (ولاتنظرون) ولاترقبون

(فان توليتم) فان أعرضتم عن تذكيرى ونصحى (فما سألتكم من أجر) فاوجب التولى أوفما سألتكم من أجر ففاتنى ذلك بتوليكم (ان أجرى الا على الله) وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة أى مانصحتكم الا لله لا لغرض من أغراض الدنيا وفيه دلالة على منع أخذ الاجر على تعليم القرآن والعلم الدينى (وأمرت ان أكون من المسلمين) من المستسلمين لاوامره ونواهيه ان أجرى بالفتح مدنى وشامى وأبو عمرو وحفص (فكذبوه) فداموا على تكذيبه (فنجيناه) من الغرق (ومن معه فى الفلك وجعلناهم

خلائف) يخلفون الهالكين بالغرق فى السفينة (واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) هو تعظيم لماجرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له (ثم بعثنا من بعده) من بعد نوح عليه السلام (رسلا الى قومهم) أى هودا وصالحا وابراهيم ولوطا وشعيبا (فجاؤهم بالبينات) بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم (فما كانوا ليؤمنوا) فاصروا على

﴿ فان توليتم ﴾ اعرضتم عن تذكيرى ﴿ فما سألتكم من اجر ﴾ يوجب توليكم لثقله عليكم واتهامكم اياى لاجله أو يفوتنى لتوليكم ﴿ ان اجرى ﴾ ماثوابى على الدعوة والتذكير ﴿ الا على الله ﴾ لا تعلق له بكم يثيبنى به آمنتم أو توليتم ﴿ وامرت ان اكون من المسلمين ﴾ المنقادين لحكمه لا اخالف امره ولا ارجو غيره ﴿ فكذبوه ﴾ فاصروا على تكذيبه بعد ما الزمهم الحجة وبين ان توليهم ليس الا لعنادهم وتمردهم لاجرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿ فنجيناه ﴾ من الغرق ﴿ ومن معه فى الفلك ﴾ وكانوا ثمانين ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ من الهالكين به ﴿ واغرقنا الذين كذبوا باياتنا ﴾ بالطوفان ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ تعظيم لماجرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وتسلية له ﴿ ثم بعثنا ﴾ ارسلنا ﴿ من بعده ﴾ من بعد نوح ﴿ رسلا الى قومهم ﴾ كل رسول الى قومه ﴿ فجاؤهم بالبينات ﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿ فما كانوا ليؤمنوا ﴾ فما استقام لهم ان يؤمنوا لشدة شكيمتهم

مكرهم لا يصل اليه ﴿ فان توليتم ﴾ يعنى فان أعرضتم عن قولى وقبول نصحى ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ يعنى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فاذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة الى الله شيأ كان أقوى تأثيرا فى النفس ﴿ ان أجرى الا على الله ﴾ اى ماثوابى وجزائى على تبليغ الرسالة الا على الله ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ يعنى انى أمرت بدين الاسلام وأنا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه أم لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لامر الله ولكل مكروه يصل الى منكم لاجل هذه الدعوة ﴿ فكذبوه ﴾ يعنى فكذبوا نوحا عليه السلام ﴿ فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ يعنى فى السفينة ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ يعنى وجعلنا الذين نجيناهم معه فى الفلك سكان الارض بعد الهالكين ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أى فانظر يامحمد أو ياأيها الانسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك ﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ يعنى من بعد نوح ﴿ رسلا الى قومهم ﴾ لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهما من الرسل ﴿ فجاؤهم بالبينات ﴾ يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التى تدل على صدقهم ﴿ فما كانوا ليؤمنوا

(فان توليتم) عن الايمان بما جئتكم به (فما سألتكم على الايمان (من أجر) من جعل (ان أجرى) ماثوابى بما دعوتكم الى الايمان (الا على الله وامرت ان أكون من المسلمين) مع المسلمين على دينهم (فكذبوه) يعنى نوحا بما أتاهم (فنجيناه) من الغرق (ومن معه) من المؤمنين (فى الفلك) فى السفينة (وجعلناهم خلائف) خلفاء وسكان الارض (وأغرقنا الذين (بما) كذبوا بآياتنا) بكتابنا ورسولنا نوح (فانظر) يامحمد (كيف كان عاقبة المنذرين) كيف صار آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا (ثم بعثنا من بعده) من بعد هلاك قوم نوح (رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات) بالامر والنهى والعلامات (فما كانوا ليؤمنوا) ليصدقوا

الكفر بعد المجئ (بما كذبوا به من قبل) من قبل مجيئهم يريد انهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث اليهم أحد (كذلك نطبع) مثل ذلك الطبع نختم (على قلوب المعتدين) المجاوزين الحد فى التكذيب (ثم بعثنا من بعدهم) من بعد الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا) بالآيات التسع (فاستكبروا)عن قبولها وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها (فلما جاءهم الحق من عندنا) فلما عرفوا انه هو الحق وانه من عند الله (قالوا) لحبهم الشهوات (ان هذا لسحر مبين) وهم يعلمون أن الحق أبعد شئ من السحر (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) هو انكار ومقولهم محذوف أى هذا ثم استأنف انكار سحر آخر فقال (أسحر هذا) خبر ومبتدأ (ولا يفلح الساحرون) أى

فى الكفر وخذلان الله أياهم ﴿ بما كذبوا به من قبل ﴾ أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ بخذلانهم لانهماكهم فى الضلال واتباع المألوف وفى امثال ذلك دليل على ان الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد وقدمر تحقيق ذلك ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿ موسى وهرون الى فرعون وملئه باياتنا ﴾ بالآيات التسع ﴿ فاستكبروا ﴾ عن اتباعهما ﴿ وكانوا قوما مجرمين ﴾ معتادين الاجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترؤا على ردها ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك ﴿ قالوا ﴾ من فرط تمردهم ﴿ ان هذا لسحر مبين ﴾ ظاهر انه سحر وفائق فى فنه واضح فيما بين اخوانه ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ انه لسحر فحذف المحكى المقول لدلالة ماقبله عليه ولا يجوز ان يكون ﴿ اسحر هذا ﴾ لانهم بتوا القول بل هو استئناف بانكار ماقالوه اللهم الا ان يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكى مفهوم قولهم ويجوز ان يكون معنى أتقولون للحق أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله سمعنا فتى يذكرهم فيستغنى عن المفعول ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ من تمام كلام موسى عليه السلام للدلالة على انه ليس بسحر فانه لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة ولان العالم بانه لا يفلح الساحر

بما كذبوا به من قبل ﴾ يعنى ان أولئك الاقوام والامم التى جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح فى التكذيب ولم يزجرهم ماجاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عماهم فيه من الكفر والتكذيب ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ يعنى مثل اغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحا كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم فى التكذيب ۞ قوله عز وجل ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ يعنى من بعد الرسل ﴿ موسى وهرون الى فرعون وملئه ﴾ يعنى أشراف قومه ﴿ بآياتنا فاستكبروا ﴾ يعنى عن الايمان بما جاء به موسى وهارون ﴿ وكانوا قوما مجرمين ﴾ يعنى مستكسبين للاثم ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ يعنى فلما جاء فرعون وقومه الحق الذى جاء به موسى من عند الله ﴿ قالوا أن هذا لسحر مبين ﴾ يعنى ان هذا الذى جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ﴾ فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار يعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ يعنى حاصل

(بما كذبوا به من قبل) من قبل يوم الميثاق (كذلك) هكذا (نطبع) نختم (على قلوب المعتدين) من الحلال والحرام (ثم بعثنا من بعدهم) من بعد هؤلاء الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) رؤسائه (بآياتنا) بكتابنا ويقال بآياتنا التسع اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص من الثمرات ويقال الطمس (فاستكبروا) عن الايمان بالكتاب والرسول والآيات (وكانوا قوما مجرمين) مشركين (فلما جاءهم الحق من عندنا)الكتاب والرسول والآيات (قالوا أن هذا)الذى جاء به موسى (لسحر مبين) كذب بين وان قرأت بالالف أرادوا به موسى ساحرا كذابا (قال) لهم(موسى أتقولون للحق) الكتاب والرسول والآيات(لما جاءكم) حين جاءكم(أسحر هذا ولا يفلح) لا ينجو ولا يأمن (الساحرون) من عذاب الله

لا يظفر (قالوا أجئتنا لتلفتنا) لتصرفنا (عما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة الاصنام أو عبادة فرعون (وتكون لكما الكبرياء) أي الملك لان الملوك موصوفون بالكبرياء والعظمة والعلو (في الارض) أرض مصر (وما نحن لكما بمؤمنين) بمصدقين فيما جئتما به ويكون (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) سحار حمزة وعلي (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر) ما موصولة واقعة مبتدأ وجئتم به صلتها والسحر خبر أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرا من آيات الله آلسحر بعد وقف أبو عمرو على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أي أي شيء جئتم به أهو السحر (ان الله سيبطله) يظهر بطلانه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) لا يثبته بل يدمره (ويحق الله الحق) ويثبته (بكلماته) باوامره وقضاياه أو يظهر الاسلام بعداته بالنصرة (ولو كره المجرمون) ذلك (فما آمن لموسى) في أول أمره

لا يسحر أو من تمام قولهم ان جعل السحر هذا محكيا كأنهم قالوا أجئتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ لتصرفنا واللفت والفتل اخوان ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ من عبادة الاصنام ﴿ وتكون لكما الكبرياء في الارض ﴾ الملك فيها سمي بها لاتصاف الملوك بالكبر أو التكبر على الناس باستتباعهم ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ بمصدقين فيما جئتما به ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بكل سحار ﴿ عليم ﴾ حاذق فيه ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما انتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحرا *وقرأ ابو عمرو آلسحر على ان ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرها وآلسحر بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف تقديره أهو السحر أو مبتدأ خبره محذوف أي آلسحر هو ويجوز ان ينتصب ما بفعل يفسره ما بعده تقديره أي شيء اتيتم ﴿ ان الله سيبطله ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه ﴿ ان الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ لا يثبته ولا يقويه وفيه دليل على ان السحر افساد وتمويه لا حقيقة له ﴿ ويحق الله الحق ﴾ ويثبته ﴿ بكلماته ﴾ باوامره وقضاياه * وقرئ بكلمته ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ ذلك ﴿ فما آمن لموسى ﴾ في مبدأ امره

السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبدا ﴿ قالوا ﴾ يعني قال قوم فرعون لموسى ﴿ أجئتنا لتلفتنا ﴾ يعني لتصرفنا وتلوينا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ يعني من الدين ﴿ وتكون لكما الكبرياء ﴾ يعني الملك والسلطان ﴿ في الارض ﴾ يعني في ارض مصر والخطاب لموسى وهارون قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ يعني بمصدقين ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ يعني ان فرعون أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر ان ما أتى به موسى سحر ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ انما أمرهم موسى بالقاء ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين ان ما أتوا به فاسد ﴿ فلما ألقوا ﴾ يعني ما معهم من الحبال والعصي ﴿ قال موسى ما جئتم به السحر ﴾ يعني الذي جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم ﴿ ان الله سيبطله ﴾ يعني يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ﴿ ان الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه ﴿ ويحق الله الحق ﴾ يعني ويظهر الله الحق ويقويه ويعليه ﴿ بكلماته ﴾ يعني بوعده الصادق لموسى أنه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ *قوله سبحانه وتعالى ﴿ فما آمن لموسى ﴾

(قالوا) لموسى (أجئتنا لتلفتنا) لتصرفنا (عما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة الاوثان (وتكون لكما الكبرياء) الملك والسلطان (في الارض) في الارض مصر (وما نحن لكما بمؤمنين) بمصدقين (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) حاذق (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) من العصي والحبال (فلما ألقوا) عصيهم وحبالهم (قال) لهم (موسى ما جئتم به) ما طرحتم (السحر) (الاذرية) هو السحر (ان الله سيبطله) سيهلكه (ان الله لا يصلح) لا يرضى (عمل المفسدين) الساحرين (ويحق الله) يظهر الله لدينه (الحق بكلماته) بتحقيقه (ولو كره المجرمون) وان كره المشركون ان يكون ذلك (فما آمن) فما صدق (لموسى) بما جاء به

﴿ الاذرية من قومه ﴾ الأولاد من اولاد قومه بنى اسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفا من فرعون الاطائفة من شبانهم وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطته ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾ أى مع خوف منهم والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المتعاد فى ضمير العظماء أو على ان المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم ﴿ ان يفتنهم ﴾ ان يعذبهم فرعون وهو بدل منه أو مفعول خوف وافراده بالضمير للدلالة على ان الخوف من الملأ كان بسببه ﴿ وان فرعون لعال فى الارض ﴾ لغالب فيها ﴿ وانه لمن المسرفين ﴾ فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق اسباط الانبياء

الاذرية من قومه ﴾ لما ذكر الله عز وجل ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى انه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى الاذرية من قومه وانما ذكر الله عز وجل هذا تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان كثير الاهتمام بايمان قومه وكان يغتم بسبب اعراضهم عن الايمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى أن له اسوة بالانبياء عليهم الصلاة والسلام لان الذى جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان امرا عظيما ومع ذلك فما آمن معه الاذرية والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا فى هاء الكناية فى قومه فقيل انها راجعة الى موسى وأراد بهم قوم موسى وهم بنو اسرائيل الذين كانوا معه بمصر من اولاده قال مجاهد هم أولاد يعقوب الذين أرسل اليهم موسى هلك الآباء وبقى الابناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون وذلك ان فرعون لما أمر بقتل أبناء بنى اسرائيل كانت المرأة فى بنى اسرائيل اذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا عليه من القتل فنشؤا بين القبط فلما كان اليوم الذى غلب موسى فيه السحرة آمنوا به وقال ابن عباس ذرية من قومه يعنى من بنى اسرائيل وقيل انها راجعة الى فرعون يعنى لاذرية من قوم فرعون روى عطية عن ابن عباس قال هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطته قال الفراء سموا ذرية لان آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بنى اسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأخواله فى الايمان وذلك كما يقال لاولاد فارس الذين دخلوا الى اليمن الابناء لان أمهاتهم من غير جنس الآباء ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾ الملأ الاشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن أشرافهم وهم ملأ الذرية لانه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى اسرائيل وقيل أراد بالملأ ملأ فرعون وانما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له ﴿ أن يفتنهم ﴾ أى يصرفهم و يصدهم عن الايمان وانما قال ان يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لان قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لامره ﴿ وان فرعون لعال فى الارض ﴾ يعنى انه لغالب قهار متكبر فيها ﴿ وانه لمن المسرفين ﴾ يعنى من المجاوزين الحد لانه كان

الأولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف أو الضمير فى قومه لفرعون والذرية مؤمن آل فرعون وآسية امرأته و خازنه وماشطته والضمير فى (وملئهم) يرجع الى فرعون بمعنى آل فرعون كما يقال ربيعة و مضر أو لانه ذو أصحاب يأتمرون له أو الى ذرية أى على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى اسرائيل لانهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم دليله قوله (أن يفتنهم) يريد أن يعذبهم فرعون (وان فرعون لعال فى الارض) لغالب فيها قاهر (وانه لمن المسرفين) فى الظلم والفساد وفى الكبر والعتو بادعائه الربوبية

(الاذرية من قومه) من قوم فرعون كان آباؤهم من القبط وامهاتهم من بنى اسرائيل فآمنوا بموسى (على خوف من فرعون وملئهم) رؤسائهم (أن يفتنهم) أن يقتلهم (وان فرعون لعال فى الارض) لمخالف لدين موسى (وانه لمن المسرفين) المشركين

(وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) فاليه اسندوا أمركم فى العصمة من فرعون (ان كنتم مسلمين) شرط فى التوكل الاسلام وهو ان يسلموا انفوسهم لله أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط (فقالوا على الله توكلنا) انما قالوا ذلك لان القوم كانوا مخلصين لا جرم ان الله قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى أرضه فمن أراد ان يصلح للتوكل على ربه فعليه برفض التخليط الى الاخلاص (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) موضع فتنة لهم أى عذاب يعذبوننا أو يفتنوننا عن ديننا أى يضلوننا والفاتن المضل عن الحق (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى من تعذيبهم وتسخيرهم (وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) تبوأ المكان اتخذه مباءة كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا من بيوته مباءة لقومكما ومرجعا يرجعون اليه للعبادة والصلاة فيه (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى مساجد متوجهة نحو القبلة وهى الكعبة وكان موسى ومن معه يصلون الى الكعبة وكانوا

﴿وقال موسى﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به ﴿ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه ﴿ان كنتم مسلمين﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان المعلق بالايمان وجوب التوكل فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام حصوله فانه لا يوجد مع التخليط ونظيره ان دعاك زيد فاجبه ان قدرت ﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ لانهم كانوا مؤمنين مخلصين ولذلك اجيبت دعوتهم ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ موضع فتنة ﴿للقوم الظالمين﴾ أى لا تسلطهم علينا فيفتنونا ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على ان الداعى ينبغى له ان يتوكل اولا ليجاب دعوته ﴿واوحينا الى موسى واخيه ان تبوآ﴾ أى اتخذا مباءة ﴿لقومكما بمصر بيوتا﴾ يسكنون فيها أو يرجعون اليها للعبادة ﴿واجعلوا﴾ انتما وقومكما ﴿بيوتكم﴾ تلك البيوت ﴿قبلة﴾ مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو

عبدا فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبنى اسرائيل ﴿وقال موسى﴾ يعنى لقومه ﴿ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾ يعنى فبه فثقوا ولامره فسلموا فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه ﴿ان كنتم مسلمين﴾ يعنى ان كنتم مستسلمين لامره قيل انما أعيد قوله ان كنتم مسلمين بعد قوله ان كنتم آمنتم بالله لارادة ان كنتم موصوفين بالايمان القلبى وبالاسلام الظاهرى ودلت الآية على ان التوكل على الله والتفويض لامره من كمال الايمان وان من كان يؤمن بالله فلا يتوكل الا على الله لا على غيره ﴿فقالوا﴾ يعنى قال قوم موسى مجيبين له ﴿على الله توكلنا﴾ يعنى عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ يعنى لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا انا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا وكفرا وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ يعنى وخلصنا برحمتك من أيدى قوم فرعون الكافرين لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الاعمال الشاقة * قوله عز وجل ﴿وأوحينا الى موسى وأخيه﴾ هارون ﴿أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا﴾ يعنى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتا اذا اتخذه مباءة أى وطنا والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتا ترجعون اليها للصلاة والعبادة ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ اختلف أهل التفسير فى معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التى يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة فعلى هذا يكون معنى

(وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) اذ كنتم مسلمين (فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) المشركين أى (الكلام) لا تسلطهم علينا فيظنون انهم على الحق ونحن على الباطل (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) من فرعون وقومه (وأوحينا الى موسى وأخيه) هارون (أن تبوآ) أن اتخذا (لقومكما بمصر بيوتا) مساجد فى جوف البيت (واجعلو بيوتكم) مساجدكم (قبلة) نحو القبلة

القبلة يعنى الكعبة وكان موسى صلى الله عليه وسلم يصلى اليها ﴿واقيموا الصلوة﴾ فيها امروا بذلك اول امرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ﴿وبشر المؤمنين﴾ بالنصرة فى الدنيا والجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير اولا لان التبوؤ للقوم اتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤس القوم بتشاور ثم جمع لان جعل البيوت مساجد والصلاة مما ينبغى ان يفعله كل احد ثم وحد لان البشارة فى الاصل وظيفة صاحب الشريعة ﴿وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملئه زينة﴾ ما يتزين به من الملابس والمراكب ونحوهما ﴿واموالا فى الحيوة الدنيا﴾

الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم الى القبلة واختلفوا فى هذه القبلة وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها الا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة لموسى وهارون وهو قول مجاهد أيضا قال ابن عباس قالت بنو اسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فاذن الله لهم أن يصلوا فى بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة الى جهة بيت المقدس وقيل أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أى مقابلة يعنى يقابل بعضها بعضا وقيل معناه واجعلوا فى بيوتكم قبلة تصلون اليها * فان قلت انه سبحانه وتعالى خص موسى وهارون بالخطاب فى أول الآية بقوله سبحانه وتعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم انه عم بهذا الخطاب فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه * قلت انه سبحانه وتعالى أمر موسى وهارون بان يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يخص به الانبياء فخصا بالخطاب لذلك ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عم بالخطاب الجميع فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة ﴿وأقيموا الصلوة﴾ يعنى فى بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بنى اسرائيل من فرعون وقومه اذا صلوا فى الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذوهم فامرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا فى بيوتهم خفية من فرعون وقومه وقيل كانت بنو اسرائيل لا يصلون الا فى الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فامروا أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما ارسل موسى و هارون وأظهرهما على فرعون أمرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الاعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿وبشر المؤمنين﴾ يعنى بانه لا يصل اليهم مكروه * قوله سبحانه وتعالى ﴿و قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملئه زينة واموالا فى الحيوة الدنيا﴾ لما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى أن القوم مصرون على الكفر والعناد والانكار لما جاء به أخذ فى الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم التى كانت سبب اصراره على ما يوجب الدعاء عليه ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها لاجرم ان موسى لما أخذ فى الدعاء قدم هذه المقالة فقال ربنا انك آتيت

فى أول الامر مأمورين بان يصلوا فى بيوتهم فى خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك فى أول الاسلام بمكة (واقيموا الصلوة) فى بيوتكم حتى تأمنوا (وبشر المؤمنين) ياموسى ثنى الخطاب أولا ثم جمع ثم وحد آخرا لان اختيار مواضع العبادة مما يفوض الى الانبياء ثم جمع لان اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور وخص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيما لها وللمبشر بها (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملئه زينة) هو ما يتزين به من لباس أو حلى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك (وأموالا) أى نقدا ونعما وضيعة (فى الحيوة الدنيا

(واقيموا الصلوة) أتموا الصلوات الخمس (وبشر المؤمنين) بالنصرة والنجاة والجنة (وقال موسى ربنا) يا ربنا (انك آتيت) أعطيت (فرعون وملئه) رؤساءه (زينة) زهرة (وأموالا) كثيرة (فى الحيوة الدنيا

ربنا ليضلوا عن سبيلك) ليضلوا الناس عن طاعتك كوفي ولا وقف على الدنيا لان قوله ليضلوا متعلق بآتيت وربنا تكرار الاول للالحاح فى التضرع قال الشيخ أبو منصور رحمه الله اذا علم منهم انهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله وهو كقوله انما نملي لهم ليزدادوا اثما فتكون الآية حجة على المعتزلة (ربنا اطمس على اموالهم) أى أهلكها واذهب آثارها لانهم يستعينون بنعمتك على معصيتك والطمس المحو والهلاك قيل صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيآتها منقوشة وقيل وسائر أموالهم كذلك (واشدد على قلوبهم) اطبع على قلوبهم واجعلها قاسية (فلا يؤمنوا) جواب الدعاء الذى هو اشدد (حتى يروا العذ الاليم) الى ان يروا العذاب اليم وكان كذلك فانهم لم يؤمنوا الى الغرق وكان ذلك ايمان يأس فلم يقبل وانما دعا عليهم بهذا لما أيس من ايمانهم وعلم بالوحى انهم لا يؤمنون فاما قبل ان يعلم بانهم لا يؤمنون فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء لانه أرسل اليهم ليدعوهم الى الايمان وهو يدل على ان الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفرا

وانواعا من المال ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ دعاء عليهم بلفظ الامر بما علم من ممارسة احوالهم انه لا يكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت ويحتمل ان تكون للعلة لان ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولانهم لما جعلوها سببا للضلال فكأنهم اوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للاول تأكيدا وتنبيها على ان المقصود عرض ضلالاتهم وكفرانهم تقدمة لقوله ﴿ ربنا اطمس على اموالهم ﴾ أى اهلكها والطمس المحق وقرئ واطمس بالضم ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أى واقسها واطبع عليها حتى لا تنشرح للايمان ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴾ جواب للدعاء

فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا والزينة عبارة عما يتزين به كاللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر والاشياء الجميلة والمال مازاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ اختلفوا فى هذه اللام فقال الفراء هى لام كى فعلى هذا يكون المعنى ربنا انك جعلت هذه الاموال سببا لضلالهم لانهم بطروا وطغوا فى الارض واستكبروا عن الايمان وقال الاخفش انما هى لما يؤل اليه الامر والمعنى انك آتيت فرعون وملأه زينة فى الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هى لام العاقبة يعنى فكان عاقبتهم الضلال وقال ابن الانبارى هى لام الدعاء وهى لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا انك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ الطمس ازالة أثر الشئ بالمحو ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيآتها وقال مجاهد أهلكها وقال أكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة بلغنا ان أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب القرظى صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله فى فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرا وهذا فيه ضعف لان موسى عليه السلام دعا على أموالهم ولم يدع على انفسهم بالمسخ وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا واثلاثا وقيل ان عمر بن عبدالعزيز دعا بخريطة فيها شئ من بقايا آل فرعون فاخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهى حجارة وقال السدى مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والاطعمة وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التى أوتيها موسى عليه السلام ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ يعنى اربط على قلوبهم واطبع عليها واقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للايمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الايمان قال الواحدى وهذا دليل على ان الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴾ يعنى الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه قال موسى قبل ان يأتى فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون و بين الايمان

ربنا) يا ربنا (ليضلوا) بذلك عبادك (عن سبيلك) عن دينك وطاعتك (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم) واحفظ قلوبهم (فلا يؤمنوا) فلن يؤمنوا (حتى يروا العذاب الاليم) (حتى)

(قال قد أجيبت دعوتكما) قيل كان موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمن فثبت ان التأمين دعاء فكان اخفاؤه أولى والمعنى ن دعاءكما مستجاب وماطلبتما كائن ولكن فى وقته (فاستقيما) فاثبتا على ما أتما عليه من الدعوة والتبليغ (ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) ولاتتبعان طريق الجهلة الذين لايعلمون صدق الاجابة وحكمة الامهال فقدكان بين الدعاء والاجابة أربعون سنة ولاتتبعان بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيها بنون التثنية شامى وخطأه بعضهم لان النون الخفيفة واجبة السكون وقيل هو اخبار عما يكونان عليه وليس بنهى أوهو حال وتقديره فاستقيما غير متبعين (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) هو دليل لنا على خلق الافعال (فاتبعهم فرعون وجنوده) فلحقهم يقال تبعته حتى أتبعته (بغيا) تطاولا (وعدوا) ظلما وانتصبا على الحال

أودعاء بلفظ النهى أوعطف على ليضلوا ومابينهما دعاء معترض ﴿ قال قد اجيبت دعوتكما ﴾ يعنى موسى وهارون عليهما السلام لانه كان يؤمن ﴿ فاستقيما ﴾ فاثبتا على ما اتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولاتستعجلا فان ماطلبتما كائن ولكن فى وقته روى انه مكث فيهم بعد الدعاء اربعين سنة ﴿ ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون ﴾ طريق الجهلة فى الاستعجال أوعدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان ولاتتبعان بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولاتتبعان من تبع ولاتتبعان ايضا ﴿ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ﴾ أى جوزناهم فى البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم * وقرئ جوزنا وهو من فعل المرادف لفاعل كضعف وضاعف ﴿ فاتبعهم ﴾ فادركهم يقال تبعته حتى اتبعته ﴿ فرعون وجنوده بغيا وعدوا ﴾ باغين وعادين أوللبغى

حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الايمان قال بعض العلماء انما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم ان سابق قضاء الله وقدره فيهم انهم لايؤمنون وذلك ان الله سبحانه وتعالى كتب عليهم فى الازل انهم لايؤمنون فوافق دعاء موسى ماقدر وقضى عليهم ﴿ قال ﴾ الله عز وجل لموسى وهارون ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ انما نسب الدعاء اليهما وان الداعى هو موسى وحده لان هارون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لانه طلب وسؤال أيضا ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى فى الدعاء فلذلك قال تعالى قد أجيبت دعوتكما ﴿ فاستقيما ﴾ يعنى على تبليغ الرسالة وامضيا لامرى الى أن يأتيهم العذاب ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون ﴾ يعنى ولاتسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدى فان وعدى لاخلف فيه ووعيدى نازل بفرعون وقومه فلاتستعجلا قيل كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الاجابة أربعون سنة * قال امام فخر الدين الرازى واعلم ان هذا النهى لايدل على ان ذلك قد صدر من موسى وهارون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لايدل على صدور الشرك منه * قوله عز وجل ﴿ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ﴾ أى وقطعنا ببنى اسرائيل البحر وعبرناهم اياه حتى جاوزوه وعبروه ﴿ فاتبعهم فرعون وجنوده ﴾ يعنى لحقهم وأدركهم ﴿ بغيا وعدوا ﴾ أى ظلما وعدوانا وقيل البغى طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغيا فى القول وعدوا فى الفعل قال أهل التفسير اجتمع يعقوب وبنوه الى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرجوا مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك انه لما أجاب الله دعاء موسى وهارون امرهما بالخروج ببنى اسرائيل من مصر فى الوقت الذى أمرهما أن يخرجا فيه بهم ويسر لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلا عنهم فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده فى طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فاوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق

الغرق (قال) الله لموسى وهارون (قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) على الايمان والطاعة لله وتبليغ الرسالة (ولاتتبعان سبيل) دين (الذين لايعلمون) توحيد الله ولا يصدقونه يعنى فرعون وقومه (وجاوزنا ببنى اسرائيل) عبرنا (البحر فاتبعهم فرعون وجنوده) فذهب خلفهم (قا و خا ٣٦ لث) فرعون وجوعه (بغيا) فى المقالة (وعدوا) أرادوا قتلهم

أو على المفعول له (حتى اذا أدركه الغرق) ولا وقف عليه لان (قال آمنت) جواب اذا (انه) حمزة وعلى على الاستئناف
بدل من آمنت و بالفتح غيرهما على حذف الباء التى هى صلة الايمان (لا اله
الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين) وفيه دليل على ان الايمان والاسلام واحد حيث قال آمنت ثم قال وأنا من المسلمين كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات فى ثلاث عبارات حرصا على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته وكانت المرة الواحدة تكفى فى حالة الاختيار (آلآن) أتؤمن بالساعة فى وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك قيل قال ذلك حين ألجمه الغرق والعامل فيه أتؤمن (وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) من الضالين المضلين عن الايمان روى ان جبريل عليه السلام أتاه بفتيا ماقول الامير فى عبد لرجل نشأ فى ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فيه يقول أبو العباس الوليد ابن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق فى البحر فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه فعرفه

والعدو. وقرئ وعدوا ﴿ حتى اذا ادركه الغرق ﴾ لحقه ﴿ قال آمنت انه ﴾ اى بانه ﴿ لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين ﴾ وقرأ حمزة والكسائى انه بالكسر على اضمار القول أو الاستئناف بدلا وتفسيرا لآمنت فنكب عن الايمان أوان القبول وبالغ فيه حين لا يقبل ﴿ آلآن ﴾ اتؤمن الآن وقد ايست من نفسك ولم يبق لك اختيار ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ قبل ذلك مدة عمرك ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ الضالين المضلين عن الايمان

كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الارض وأيبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه فى عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه سوى سائر الالوان وكان مقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل يسوقهم حتى لا يشذ منهم أحد فلما خرج آخر بنى اسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر وتبعه جنوده حتى اذا اكتملوا جميعا فى البحر و هم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الاخلاص ظنا منه انها تنجيه من الهلاك و هو قوله تعالى ﴿ حتى اذا أدركه الغرق قال ﴾ يعنى فرعون ﴿ آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان فى مهل قال العلماء ايمانه غير مقبول وذلك أن الايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين و يدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقيل انه قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده بها الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لا جرم لم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت وقيل ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه و تعالى فلهذا قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى ايمانه ولما رجع فرعون الى الايمان والتوبة حين أغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ يعنى آلآن تتوب وقد أضعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة وقيل ان القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد فى الارض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك و القول الاول أشهر ويعضده ماروى عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما أغرق الله فرعون قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فادسه فى فيه مخافة ان تدركه الرحمة أخرجه الترمذى

(حتى اذا أدركه) ألجمه
(الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل) موسى وأصحابه (وأنا من المسلمين) مع المسلمين (وقال) على دينهم فقال له جبريل (آلآن) أن تؤمن بعد الغرق (وقد عصيت) كفرت بالله (قبل) اى من قبل الغرق (وكنت من المفسدين) فى أرض مصر بالقتل والشرك والدعاء الى غير عبادة الله

وقال حديث حسن * و فى رواية أخرى عنه عن عدى بن ثابت وعطا بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ذكر احدهما عن النبي صلى الله عليه و سلم انه ذكر ان جبريل عليه السلام جعل يدس فى فى فرعون الطين خشية أن يقول لا اله الا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

فصل فى الكلام على هذا الحديث لانه فى الظاهر مشكل فيحتاج الى بيان وايضاح

فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس ففي الطريق الاول عن ابن زيد بن جدعان وهو وان كان قد ضعفه يحيي بن معين وغيره فانه كان شيخا نبيلا صدوقا ولكنه كان سيء الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وانما يخشى من حديثه اذا لم يتابع عليه أو خالفه فيه الثقات وكلاهما منتف فى هذا الحديث لان فى الطريق الآخر شعبة عن عدى بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الاسناد على شرط البخارى ورواه أيضا شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد أخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وان كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فانما يخاف منه ما انفرد به أو خولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا ان لهذا الحديث أصلا وان رواته ثقات ليس فيهم متهم وان كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره * فان قلت ففي الحديث الثانى شك فى رفعه لانه قال فيه ذكر أحدهما عن النبي صلى الله عليه و سلم * قلت ليس بشك فى رفعه انما هو جزم بان أحد الرجلين رفعه وشك شعبة فى تعيينه هل هو عطاء بن السائب وعدى ابن ثابت وكلاهما ثقة فاذا رفعه أحدهما وشك فى تعيينه لم يكن هذا علة فى الحديث * وقوله من حال البحر أى من طين البحر كما فى الرواية الاخرى

فصل

ووجه اشكاله ما اعترض به الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره فقال هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين لئلا يتوب غضبا عليه * والجواب الاقرب أنه لا يصح لان فى تلك الحالة اما ان يقال التكليف هل كان ثابتا أم لا فان كان ثابتا لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه ان يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وان كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذى نسب الى جبريل فائدة و أيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بجلال الله ان يأمر جبريل بان يمنعه من الايمان ولو قيل ان جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بامر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل الا بامر ربك فهذا وجه الاشكال الذى أورده الامام على هذا الحديث فى كلام أكثر من هذا * والجواب عن هذا الاعتراض ان الحديث قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا اعتراض عليه لاحد وأما قول الامام ان التكليف هل كان ثابتا فى تلك الحالة أم لا فان كان ثابتا لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فان هذا القول لا يستقيم على اصل

المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله وان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر فانهم يقولون ان الله يحول بين الكافر والايمان ويدل على ذلك قوله تعالى واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وقوله تعالى وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة فاخبر الله سبحانه وتعالى انه قلب أفئدتهم مثل تركهم الايمان به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان اولا فدس الطين في فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الايمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله ومن المنكرين لخلق الافعال من اعترف أيضا ان الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الايمان فاما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فانها من هذا الباب فان غاية ما يقال فيه ان الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الايمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق ورده للايمان لما جاءه وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فانما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه فاما قول الامام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا اذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا وأما اذا كان جبريل انما يفعل ما أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذى منع فرعون من الايمان وجبريل منفذ لامر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه اعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم حين لا ينفعه الايمان وقد يقال ان جبريل عليه السلام اما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل الا ما أمر الله به واما ان يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه اعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لانه انما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهى عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر انه أمره باعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا * وقوله وان كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذى نسب الى جبريل فائدة * فجوابه أن يقال ان للناس فى تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا السؤال أصلا وقد زال الاشكال * والقول الثانى ان أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لاجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لاجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وقد علم جبريل انه ممن حقت عليه كلمة العذاب وان ايمانه لا ينفعه دس الطين فى فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وانه وان كان قالها فى وقت لا ينفعه فدس الطين فى فيه تحقيقا لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ما قد قضى عليه وسد الباب عنه سدا محكما بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للايمان فان موسى عليه السلام لما دعا ربه بان فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم والايمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين

﴿ فاليوم ننجيك ﴾ نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا أو نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل * وقرأ يعقوب ننجيك من انجى * وقرئ ننحيك بالحاء اى نلقيك بناحية الساحل ﴿ ببدنك ﴾ فى موضع الحال أى ببدنك عاريا عن الروح أو كاملا سويا اوعريانا من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها * وقرئ بابدانك اى باجزاء البدن كلها كقولهم هوى باجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان فى نفوسهم

فى فيه لييأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتحقق اجابة الدعوة التى وعدالله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعى جبريل فى تكميل ما سبق فى حكم الله أنه يفعله فيكون سعى جبريل فى مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذا لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون وأما قوله لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر فجوابه ما تقدم من ان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وجبريل انما يتصرف بأمر الله ولا يفعل الا ما أمره الله به واذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فانما رضى بالامر لا بالمأمور به فأى كفر يكون هنا وأيضا فان الرضا بالكفر انما يكون كفرا فى حقنا لانا مأمورون بازالته بحسب الامكان فاذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا فى حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به واما من ليس مأمورا كأمرنا ولا مكلفا كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فانه اذا نفذ ما أمره به لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا فى حقه وعلى هذا التقدير فان جبريل لما دس الطين فى فى فرعون كان ساخطا لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذا لقضاء الله وقدره فى فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به * وقوله كيف يليق بجلال الله ان يأمر جبريل بان يمنعه من الايمان * فجوابه ان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل * وأما قوله وان قيل ان جبريل انما فعل ذلك من عند نفسه لا بامر الله * فجوابه انه انما فعل ذلك بأمر الله منفذا لامر الله والله أعلم بمراده وأسرار كتابه * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ أى نلقيك على نجوة من الارض وهى المكان المرتفع قال اهل التفسير لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه وأخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه فقالت بنو اسرائيل ما مات فرعون وانما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل فى قلوبهم من الرعب لاجله فأمر الله عز وجل البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فرآه بنو اسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا أبدا ومعنى قوله ببدنك يعنى نلقيك وأنت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك وقيل أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف به فلما رأوه فى درعه ذلك عرفوه ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ يعنى عبرة وموعظة وذلك انهم ادعوا ان مثل فرعون لا يموت أبدا فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لانه كان

(فاليوم ننجيك) نلقيك بنجوة من الارض فرماه الماء الى الساحل كأنه ثور (ببدنك) فى موضع الحال أى فى الحال التى لا روح فيك وانما أنت بدن أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شئ ولم يتغير أو عريانا لست الا بدنا من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه بابدانك وهو مثل قولهم هوى باجرامه أى ببدنك كله وافيا باجزائه أو بدروعك لانه ظاهر بينها (لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك من الناس علامة وهم بنو اسرائيل وكان فى أنفسهم ان فرعون أعظم شانا من ان يغرق وقيل أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه فالقاه الله على الساحل حتى عاينوه وقيل لمن خلفك لمن يأتى بعدك من القرون ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته وانما كان يدعيه من الربوبية محال

(فاليوم ننجيك ببدنك) نلقيك على النجاة بدرعك (لتكون) لكى تكون (لمن خلفك) من الكفار (آية) عبرة لكى لا يقتدوا عقالتك ويعلموا

من عظمته ما خيل اليهم انه لايهلك حتى كذبوا موسى عليه السلام حين اخبرهم بغرقه الى ان عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل أولمن يأتى بعدك من القرون اذا سمعوا مآل امرك ممن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان أو حجة تدلهم على ان الانسان على ما كان عليه من عظم الشان وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية *وقرئ لمن خلقك أى لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده اياك بالالقاء الى الساحل دليل على انه تعمد منه لكشف تزويرك واماطة الشبهة فى امرك وذلك دليل على كمال قدرته وعلمه وارادته وهذا الوجه ايضا محتمل على المشهور ﴿ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ لايتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿ ولقد بوأنا ﴾ انزلنا ﴿ بنى اسرائيل مبوأ صدق ﴾ منزلا صالحا مرضيا وهو الشأم ومصر ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ من اللذائذ ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ فما اختلفوا فى امر دينهم الامن بعدما قرؤا التوراة وعلموا احكامها أو فى امر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الامن بعدما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته ﴿ ان ربك

فى غاية العظمة فصار الى نهاية الخسة والذلة ملقى على الارض لايهابه أحد ﴿ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ *قوله عزوجل ﴿ ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق ﴾ يعنى أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر واغراق عدوهم فرعون والمعنى أنزلناهم منزلا محمودا صالحا وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ اضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه ان الشئ اذا كان كاملا صالحا لابد أن يصدق الظن فيه وفى المراد بالمكان الذى بوؤا قولان أحدهما انه مصر فيكون المراد ان الله أورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره والقول الثانى انه أرض الشأم والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ يعنى تلك المنافع والخيرات التى رزقهم الله تعالى ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ يعنى فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك انهم كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذى كانوا يعلمونه حقا فوضع العلم مكان المعلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفى كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان الاول ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث كذبوه بغيا وحسدا وايثار البقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم والوجه الثانى أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم آمن به طائفة وكفر به آخرون *وقوله تعالى ﴿ ان ربك ﴾

وانه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره الى ما ترون لعصيانه ربه فما الظن بغيره (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام (ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا) فى دينهم (حتى جاءهم العلم) أى التوراة وهم اختلفوا فى تأويلها كما اختلف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى تأويل الآيات من القرآن أو المراد العلم بمحمد عليه السلام واختلاف بنى اسرائيل وهم أهل الكتاب اختلافهم فى صفته انه هو أم ليس هو بعدما جاءهم العلم انه هو (ان ربك

انك لست باله (وان كثيرا من الناس) يعنى الكفار (عن آياتنا) عن كتابنا ورسولنا (لغافلون) لجاحدون (ولقد بوأنا) أنزلنا (بنى اسرائيل مبوأ صدق) أرضا كريمة أردن وفلسطين (ورزقناهم من الطيبات) المن والسلوى والغنائم (فما اختلفوا) اليهود والنصارى فى محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (حتى جاءهم العلم) البيان ما فى كتابهم فى محمد عليه السلام بنعته وصفته (ان ربك)

﴿ يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيميز المحق عن المبطل بالانجاء والاهلاك ﴿ فان كنت فى شك مما انزلنا اليك ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير ﴿ فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك ﴾ فانه محقق عندهم ثابت فى كتبهم على نحو ما ألقينا اليك والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما فى الكتب المتقدمة وان القرآن مصدق

يعنى يا محمد ﴿ يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ يعنى من أمرك وأمر نبوتك فى الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد نبوتك النار * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك ﴾ الشك فى موضوع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الانسان لوجود أمارتين أو لعدم الامارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل شكا فاذا قيل فلان شك فى هذا الامر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا الخطاب فى قوله فان كنت فى شك أنه للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فان كنت يا محمد فى شك مما انزلنا اليك يعنى من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلنا يعنى القرآن ﴿ فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك ﴾ يعنى علماء أهل الكتاب يخبروك أنك مكتوب عندهم فى التوراة والانجيل وانك نبى يعرفونك بصفتك عندهم * وقد توجه ههنا سؤال واعتراض وهو ان يقال هل شك النبى صلى الله عليه وسلم فيما أنزل عليه أو فى نبوته حتى يسأل اهل الكتاب عن ذلك واذا كان شاكا فى نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه * قلت الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضى عياض فى كتابه الشفاء فانه أورد هذا السؤال ثم قال احذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من اثبات شك النبى صلى الله عليه وسلم فيما أوحى اليه فانه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم جملة بل قد قال ابن عباس لم يشك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصرى وحكى عن قتادة انه قال بلغنا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما أشك ولا أسأل وعامة المفسرين على هذا تم كلام القاضى عياض رحمه الله * ثم اختلفوا فى معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب على قولين * أحدهما ان الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشرك فثبت ان المراد به غيره ومن أمثلة العرب « اياك اعنى واسمعى ياجاره » فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد يا أيها الانسان الشاك ان كنت فى شك مما انزلنا اليك على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فاسئل الذين يقرؤن الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى فى آخر هذه السورة قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى الآية فبين ان المذكور فى هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكورة فى تلك الآية على سبيل التصريح وأيضا لو كان النبى صلى الله عليه وسلم شاكا فى نبوته لكان غيره أولى بالشك فى نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك * وقيل

يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون) يميز المحق من المبطل ويجزى كلا جزاءه (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) لما قدم ذكر بنى اسرائيل وهم قراء الكتاب ووصفهم بان العلم قد جاءهم لان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب فى التوراة والانجيل وهم يعرفونه كما يعرفون ابناءهم أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ويبالغ فى ذلك فقال فان وقع لك شك فرضا وتقديرا وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع الى حلها بالرجوع الى قوانين الدين وأدلته او بمباحثة العلماء فسل علماء أهل الكتاب فانهم من الاحاطة بصحة ما أنزل اليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلا عن غيرك فالمراد وصف الاحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشك فيه

يا محمد (يقضى بينهم) بين اليهود والنصارى (يوم القيمة فيما كانوا فيه) فى الدين (يختلفون) يخالفون (فان كنت) يا محمد (فى شك مما انزلنا اليك) مما انزلنا جبريل به يعنى القرآن (فاسأل الذين يقرؤن الكتاب يعنى التوراة (من قبلك) عبدالله بن سلام وأصحابه فلم يسأل النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن بذلك شاكا انما أراد الله بما قال له قومه

لمافيها أو وصف اهل كتاب بالرسوخ فى العلم بصحة ما انزل اليه أو تهييج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وزيادة تثبيته لا امكان وقوع الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لا اشك ولا اسأل وقيل الخطاب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد به امته أو لكل من يسمع أى ان كنت ايها السامع فى شك مما نزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه على ان كل من خالجته شبهة فى الدين ينبغى ان يسارع الى حلها بالرجوع الى اهل العلم ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ واضحا لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ بالتزلزل عما انت عليه من الجزم واليقين ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ ايضا من باب التهييج والتثبيت وقطع الاطماع عنه كقوله فلا تكونن ظهيرا للكافرين

ان الله سبحانه وتعالى علم ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فانه صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذا الكلام يقول لا أشك يارب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفى بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة وقال الزجاج ان الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله فان كنت فى شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا ايها النبى اذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا فى هذا الخطاب كان الاعتراض موجودا والسؤال واردا وقيل ان لفظة ان فى قوله فان كنت فى شك للنفى ومعناه وما أنت فى شك مما أنزلنا اليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقينا والقول الثانى ان هذا الخطاب ليس هو للنبى صلى الله عليه وسلم البتة ووجه هذا القول ان الناس كانوا فى زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون فى أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب فقال تمجد وتعالى فان كنت أيها الانسان فى شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وانما وحد الله الضمير فى قوله فان كنت وهو يريد الجمع لانه خطاب لجنس الانسان كما فى قوله تعالى يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم لم يرد فى الآية انسانا بعينه بل أراد الجمع واختلفوا فى المسؤل عنه فى قوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك من هم فقال المحققون من أهل التفسير هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه لانهم هو الموثوق بأخبارهم وقيل المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لان المقصود من هذا السؤال الاخبار بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانه مكتوب عندهم صفته ونعته فاذا أخبروا بذلك فقد حصل المقصود والاول أصح وقال الضحاك يعنى اهل التقوى وأهل الايمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بانك رسول الله حقا وان اهل الكتاب يعلمون صحة ذلك ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ يعنى من الشاكين فى صحة ما أنزلنا اليك ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ﴾ يعنى بدلائله وبراهينه الواضحة ﴿ فتكون من الخاسرين ﴾ يعنى الذين خسروا أنفسهم * واعلم ان هذا كله

(لقد جاءك الحق من ربك) أى ثبت عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة ان ما أتاك هو الحق الذى لا مجال فيه للشك (فلا تكونن من الممترين) الشاكين ولا وقف عليه للعطف (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى

(لقد جاءك) يا محمد (الحق من ربك) يعنى جبريل بالقرآن من ربك فيه خبر الاولين (فلا تكونن من الممترين) الشاكين (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) كتاب الله ورسوله (فتكون من الخاسرين) من المغبونين بنفسك

فاثبت ودم على ماانت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله أوهو على طريقة التهييج والالهاب كقوله فلاتكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله لاأشك ولاأسأل بل أشهد انه الحق أوخوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أى وان كنتم فى شك مما أنزلنا اليكم كقوله وأنزلنا اليكم نورا مبينا أوالخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك كقول العرب اذا عز أخوك فهن أوان للنفى أى فما كنت فى شك فسل أى ولا نأمرك بالسؤال لانك شاك ولكن لتزداد يقينا كما ازداد ابراهيم عليه السلام بمعاينة احياء الموتى فان قلت انما

يجىء ان للنفى اذا كان بعده الا كقوله ان الكافرون الا فى غرور قلت ذاك غير لازم ألا ترى الى قوله ان أمسكهما من أحد من بعده فان للنفى وليس بعده الا (ان الذين حقت عليهم كلمت ربك) ثبت عليهم قول الله الذى كتبه فى اللوح وأخبر به الملائكة انهم يموتون كفارا أو قوله لأملأن جهنم الآية ولا وقف على (لا يؤمنون) لان (ولو جاءتهم كل آية) تتعلق بما قبلها (حتى يروا العذاب اليم) أى عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم أو عند القيامة ولا يقبل منهم (فلولا كانت قرية آمنت) فهلا كانت قرية واحدة من القرى التى أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الايمان قبل المعاينة ولم تؤخر كما أخر فرعون الى أن أخذ بمخنقه (فنفعها ايمانها) بان تقبل الله (قا و خا ٣٧ لث) ايمانها منها بوقوعه فى وقت الاختيار (الا قوم يونس) استثناء منقطع أى ولكن قوم يونس أو متصل والجملة فى معنى النفى كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة الا قوم يونس وانتصابه على أصل الاستثناء (لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا

﴿ ان الذين حقت عليهم ﴾ ثبتت عليهم ﴿ كلمت ربك ﴾ بانهم يموتون على الكفر و يخلدون فى العذاب ﴿ لا يؤمنون ﴾ اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ فان السبب الاصلى لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود ﴿ حتى يروا العذاب الاليم ﴾ وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ فهلا كانت قرية من القرى التى اهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب ولم تؤخر اليها كما أخر فرعون ﴿ فنفعها ايمانها ﴾ بان يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها ﴿ الا قوم يونس ﴾ لكن قوم يونس عليه السلام ﴿ لما آمنوا ﴾ اول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروه الى حلوله ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا ﴾ ويجوز

على ما تقدم من أن ظاهره خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا ان المراد به غيره والله أعلم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ان الذين حقت عليهم ﴾ يعنى وجبت عليهم ﴿ كلمت ربك ﴾ يعنى حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى خلقت هؤلاء للنار ولا أبالى وقال قتادة سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ما قدره عليهم وقضاه فى الازل ﴿ لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ فانهم لا يؤمنون بها ﴿ حتى يروا العذاب الاليم ﴾ فحينئذ لا ينفعهم الايمان لان الله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم وصرفهم عن الايمان فلا ينفعهم شئ * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلولا ﴾ يعنى فهلا ﴿ كانت قرية ﴾ وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لان فى الاستفهام معنى الجحد والمراد هل كانت قرية ﴿ آمنت ﴾ يعنى عند معاينة العذاب ﴿ فنفعها ايمانها ﴾ يعنى فى حال اليأس ﴿ الا قوم يونس ﴾ هذا استثناء منقطع يعنى لكن قوم يونس فانهم آمنوا فنفعهم ايمانهم فى ذلك الوقت وهو قوله ﴿ لما آمنوا ﴾ يعنى لما أخلصوا الايمان ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا ﴾

(ان الذين حقت) وجبت (عليهم كلمت ربك) بالعذاب (لا يؤمنون) فى علم الله (ولو جاءتهم كل آية) طلبوا منك فلا يؤمنوا (حتى يروا العذاب الاليم) يوم بدر ويوم أحد ويوم الاحزاب (فلولا كانت) هلا كانت (قرية آمنت) اهل قرية آمنت عند نزول العذاب (فنفعها ايمانها) يقول لم ينفع ايمانهم عند نزول العذاب (الا قوم يونس) نفع ايمانهم (لما آمنوا) حين آمنوا (كشفنا) صرفنا (عنهم عذاب الخزى) الشديد (فى الحيوة الدنيا

ان تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه فيكون الاستثناء متصلا لان المراد من القرى اهاليها كأنه قال ما آمن اهل قرية من القرى العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس ويؤيده قراءة الرفع على البدل ﴿ ومتعناهم الى حين ﴾ الى آجالهم روى ان يونس عليه السلام بعث الى نينوى من الموصل فكذبوه واصروا عليه فوعدهم بالعذاب الى ثلاث وقيل الى ثلاثين وقيل الى اربعين فلما دنا الموعد اغامت السماء غيما اسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشى مدينتهم فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فايقنوا صدقه

ومتعناهم الى حين ﴾ يعني الى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عيانا أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا وقال الاكثرون انهم رأوا العذاب عيانا بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزي والكشف لا يكون الا بعد الوقوع أو اذا قرب وقوعه

ذكر القصة في ذلك على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد ابن جبير ووهب وغيرهم

قالوا ان قوم يونس كانوا بقرية نينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فارسل الله سبحانه وتعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان بالله وترك عبادة الاصنام فدعاهم فابوا عليه فقيل له أخبرهم ان العذاب مصبحهم الى ثلاث فاخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليه كذبا قط فانظروا فان بات فيكم الليلة فليس بشيء وان لم يبت فاعلموا ان العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قال ابن عباس ان العذاب كان أهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك وقال مقاتل قدر ميل وقال سعيد بن جبير غشى قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر وقال وهب غامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الاسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض الى البعض فحن الاولاد الى الامهات والامهات الى الاولاد وعلت الاصوات وعجوا جميعا الى الله وتضرعوا اليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا الى الله واخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب بعدما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة قال ابن مسعود بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم فيما بينهم حتى ان كان الرجل ليأتي الى الحجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده وروى الطبري بسنده عن أبي الجلد خيلان قال لما غشى قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له انه قد نزل بنا العذاب فما ترى قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا الى حين

ومتعناهم الى حين) الى آجالهم روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض موصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح كلهم وعجوا أربعين ليلة وبرزوا الى الصعيد بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها فحن بعضهم الى بعض وأظهروا الايمان والتوبة فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا لما نزل بهم العذاب الى شيخ من بقية علمائهم فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محي الموتى ويا حي لا اله الا أنت فقالوها فكشف الله عنهم وعن الفضيل قدس الله روحه قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله

ومتعناهم الى حين) تركناهم بلا عذاب الى حين الموت

فلبسوا المسوح وبرزوا الى الصعيد بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين كل والدة وولدها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات و العجيج واخلصوا التوبة واظهروا الايمان وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم ﴾ بحيث لايشذ منهم احد ﴿ جميعا ﴾ مجتمعين على الايمان لايختلفون فيه وهو دليل على القدرية فى انه تعالى لم يشأ ايمانهم اجمعين فان من شاء ايمانه يؤمن لامحالة والتقييد بمشيئة الالجاء خلاف الظاهر ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ بما لم يشأ الله منهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ وترتيب الاكراه على المشيئة بالفاء وايلائها حرف الاستفهام للانكار وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على ان خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكنه تحصيله بالاكراه عليه فضلا عن الحث والتحريص عليه اذروى انه كان حريصا على ايمان قومه شديد الاهتمام به فنزلت ولذلك قرره بقوله ﴿ وما كان لنفس ان تؤمن ﴾ بالله ﴿ الا باذن الله ﴾ الا بارادته والطافه

وقال الفضيل بن عياض انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولاتفعل بنا ما نحن أهله قال وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم يرشيأ فقيل له ارجع الى قومك قال وكيف أرجع اليهم فيجدونى كذابا وكان من كذب ولا بينة له قتل فانصرف عنهم مغاضبا فالتقمه الحوت وستأتى القصة فى سورة والصافات ان شاء الله تعالى * فان قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعدما نزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته * قلت أجاب العلماء عن هذا باجوبة * أحدها ان ذلك كان خاصا بقوم يونس والله يفعل مايشاء ويحكم مايريد * الجواب الثانى ان فرعون ما آمن الابعد ماباشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية * الجواب الثالث ان الله عز وجل علم صدق نياتهم فى التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه ماصدق فى ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه ايمانه والله أعلم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا ﴾ يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولو شاء ربك يامحمد لآمن بك وصدقك من فى الارض كلهم جميعا ولكن لم يشأ ان يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة فى الازل قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص ان يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله عز وجل انه لايؤمن به الا من سبقت له من الله السعادة فى الذكر الاول ولم يضل الا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر الاول وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فاخبره الله أنه لايؤمن به الا من سبقت له العناية الازلية فلاتتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ يعنى ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس ذلك لاحد سوانا ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ﴾ يعنى وما كان ينبغى لنفس خلقها الله تعالى أن

مجتمعين على الايمان مطبقين عليه لايختلفون فيه أخبر عن كمال قدرته ونفوذ مشيئته انه لو شاء لآمن من فى الارض كلهم ولكنه شاء ان يؤمن به من علم منه اختيار الايمان به وشاء الكفر ممن علم انه يختار الكفر ولا يؤمن به وقول المعتزلة المراد بالمشيئة مشيئة القسر والالجاء أى لو خلق فيهم الايمان جبرا لآمنوا لكن قد شاء ان يؤمنوا اختيارا فلم يؤمنوا دليله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (أى ليس اليك مشيئة الاكراه والجبر فى الايمان انما ذلك الى فاسد لان الايمان فعل العبد وفعله مايحصل بقدرته ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار وتأويله عندنا ان الله تعالى لطف لو أعطاهم لآمنوا كلهم عن اختيار ولكن علم منهم انهم لايؤمنون فلم يعطهم ذلك وهو التوفيق والاستفهام فى أفأنت بمعنى النفى أى لاتملك أنت يامحمد أن تكرههم على الايمان لانه يكون بالتصديق والاقرار ولا يمكن الاكراه على التصديق (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله

(ولو شاء ربك) يامحمد (لآمن من فى الارض كلهم جميعا) جميع الكفار (أفأنت تكره الناس) تجبر الناس (حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس) كافرة (أن تؤمن) بالله (الا باذن الله)

بمشيئته أو بقضائه أو بتوفيقه وتسهيله أو بعلمه (ويجعل الرجس) أى العذاب أو السخط أو الشيطان أى ويسلط الشيطان (على الذين لايعقلون) لاينتفعون بعقولهم ونجعل جاد ويحيي (قل انظروا) نظر استدلال واعتبار (ماذا فى السموات والارض) من الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار (وماتغنى الآيات) مانافية (والنذر) والرسل المنذرون أو الانذارات (عن قوم لايؤمنون) لايتوقع ايمانهم وهم الذين لايعقلون (فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم) يعنى وقائع الله فيهم كما يقال أيام العرب لوقائعها (قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا) معطوف على كلام محذوف يدل عليه الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الامم ثم ننجى رسلنا على حكاية

وتوفيقه فلاتجهد نفسك فى هداها فانه الى الله ﴿ ويجعل الرجس ﴾ العذاب أو الخذلان فانه سببه *وقرئ بالزاء وقرأ ابوبكر ونجعل بالنون ﴿ على الذين لايعقلون ﴾ لايستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أو لايعقلون دلائله واحكامه لما على قلوبهم من الطبع ويؤيد الاول قوله ﴿ قل انظروا ﴾ اى تفكروا ﴿ ماذا فى السموات والارض ﴾ من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته وماذا ان جعلت استفهامية علقت انظروا عن العمل ﴿ وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾ فى علم الله وحكمه ومانافية أو استفهامية فى موضع النصب ﴿ فهل ينتظرون الامثل ايام الذين خلوا من قبلهم ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم اذلايستحقون غيره من قولهم ايام العرب لوقائعها ﴿ قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ﴾ لذلك أو فانتظروا هلاكى انى معكم من المنتظرين هلاككم ﴿ ثم ننجى رسلنا

تؤمن وتصدق الا بقضاء الله لها بالايمان فان هدايتها الى الله وهو الهادى المضل وقال ابن عباس معنى باذن الله بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله * قوله تعالى ﴿ ويجعل ﴾ قرئ بالنون على سبيل التعظيم أى ونجعل نحن وقرئ بالياء ومعناه ويجعل الله ﴿ الرجس ﴾ يعنى العذاب وقال ابن عباس يعنى السخط ﴿ على الذين لايعقلون ﴾ يعنى لايفهمون عن الله أمره ونهيه * قوله عزوجل ﴿ قل انظروا ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعنى انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر ﴿ ماذا فى السموات والارض ﴾ يعنى ماذا خلق الله فى السموات والارض من الآيات الدالة على وحدانيته ففى السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم سخرها طالعة وغاربة وانزال المطر من السماء وفى الارض الجبال والبحار والمعادن والانهار والاشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وانه خالقها كما قال الشاعر

وفى كل شئ له آية * تدل انه واحد

﴿ وماتغنى الآيات والنذر ﴾ يعنى الرسل ﴿ عن قوم لايؤمنون ﴾ وهذا فى حق أقوام علم الله انهم لايؤمنون لما سبق لهم فى الازل من الشقاء ﴿ فهل ينتظرون ﴾ يعنى يعنى مشركى مكة ﴿ الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ يعنى من مضى من قبلهم من الامم السالفة المكذبة للرسل قال قتادة يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما كقوله تعالى وذكرهم بايام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد الا يوما يعاينون فيه العذاب مثل مافعلنا بالامم السالفة المكذبة أهلكناهم جميعا فان كانوا ينتظرون ذلك العذاب ﴿ فقل فانتظروا ﴾ يعنى قل لهم يا محمد فانتظروا العذاب ﴿ انى معكم من المنتظرين ﴾ يعنى هلاككم قال الربيع بن أنس خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم انه اذا وقع ذلك بهم أنجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى ﴿ ثم ننجى رسلنا

بارادة الله وتوفيقه (ويجعل الرجس) بترك التكذيب (على الذين) فى قلوب الذين (لايعقلون) توحيد الله نزلت هذه الآية فى شأن أبى طالب حرص النبى صلى الله عليه وسلم على ايمانه ولم يرد الله أن يؤمن (قل) لهم يا محمد (انظروا ماذا فى السموات) من الشمس والقمر والنجوم (والارض) وماذا فى الارض من الشجر والدواب والجبال والبحار كلها آية لكم ثم قال (وماتغنى الآيات والنذر) الرسل (عن قوم) (و) لايؤمنون) فى علم الله (فهل ينتظرون) فهل بقى لهم آية (الامثل أيام الذين خلوا) عذاب الذين مضوا (من قبلهم) من الكفار (قل) يا محمد (فانتظروا) بنزول العذاب وبهلاكى (انى معكم من المنتظرين) بنزول العذاب عليكم وبهلاككم (ثم ننجى رسلنا

والذين آمنوا ﴾ عطف على محذوف دل عليه الامثل ايام الذين خلوا كأنه قيل نهلك الامم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم على حكاية الحال الماضية ﴿ كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين ﴾ كذلك الانجاء أو انجاء كذلك ننجي محمدا عليه الصلاة والسلام وصحبه حين نهلك المشركين وحقا علينا اعتراض ونصبه بفعله المقدر وقيل بدل من كذلك ٭ وقرأ حفص والكسائي ننجي المؤمنين مخففا ﴿ قل يا ايها الناس ﴾ خطاب لاهل مكة ﴿ ان كنتم في شك من ديني ﴾ وصحته ﴿ فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقادا وعملا فاعرضوها على العقل الصرف وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا صحتها وهو اني لا اعبد ما تخلقونه وتعبدونه ولكن اعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفاكم وانما خص التوفي بالذكر للتهديد ﴿ وامرت ان اكون من المؤمنين ﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحي حذف الجار من ان يجوز ان يكون من المطرد مع ان وان وان يكون من غيره كقوله

والذين آمنوا ﴾ يعني من العذاب والهلاك كذلك ﴿ حقا علينا ننجي المؤمنين ﴾ يعني كما أنجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب قال بعض المتكلمين المراد بقوله حقا علينا الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بانه حق واجب من حيث الوعد والحكم لانه واجب بسبب الاستحقاق لانه قد ثبت ان العبد لا يستحق على خالقه شيأ ٭ قوله سبحانه وتعالى ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك اليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك ﴿ ان كنتم في شك من ديني ﴾ يعني الذي أدعوكم اليه وانما حصل الشك لبعضهم في أمره صلى الله عليه وسلم لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي صلى الله عليه وسلم فحصل له الاضطراب والشك فقال ان كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم اليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه لانه دين ابراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وانما ينبغي لكم أن تشكوا في عبادتكم لهذه الاصنام التي لا أصل لها البتة فان أصررتم على ما أنتم عليه ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ يعني هذه الاوثان وانما وجب تقديم هذا النفي لان العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لاخس الاشياء وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الاماتة والاحياء وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ﴾ والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة أن المراد ان الذي يستحق العبادة فاعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولا ولم تكونوا شيأ ثم يميتكم ثانيا ثم يحييكم بعد الموت ثالثا فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقي وقيل لما كان الموت أشد الاشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على اهلاككم ونصري عليكم ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح

الاحوال الماضية (والذين آمنوا) ومن آمن معهم (كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين) أي مثل ذلك الانجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض أي وحق ذلك علينا حقا ننجي بالتخفيف علي وحفص (قل يا أيها الناس) يا أهل مكة (ان كنتم في شك من ديني) وصحته وسداده فهذا ديني فاستمعوا وصفه ثم وصف دينه فقال (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أي الاصنام (ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم) يميتكم وصفه بالتوفي ليريهم انه الحقيق بان يخاف ويتقى ويعبدون ما لا يقدر على شئ (وأمرت أن أكون من المؤمنين) أي بان أكون يعني ان الله أمرني بذلك بما ركب في من العقل وبما أوحى الى

والذين آمنوا) بالرسل بعد هلاك قومهم (كذلك) هكذا (حقا) واجبا (علينا ننجي المؤمنين) مع الرسل (قل) يا محمد (يا أيها الناس) يا اهل مكة (ان كنتم في شك من ديني) الاسلام (فلا أعبد الذين تعبدون) تدعون (من دون الله) من الاوثان (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) يقبض أرواحكم ثم يحييكم بعد ان يميتكم (وامرت أن اكون من المؤمنين)

فى كتابه (وان أقم وجهك للدين) أى وأوحى الى أن أقم ليشاكل قوله أمرت أى استقم مقبلا بوجهك على ما أمرك الله أو استقم اليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالا (حنيفا) حال من الدين او الوجه (ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله مالا ينفعك) ان دعوته (ولا يضرك) ان خذلته (فان فعلت) فان دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فكنى عنه بالفعل ايجازا (فانك اذا من الظالمين) اذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كان سائلا سال عن تبعة عبادة الاوثان وجعل من الظالمين لانه لا ظلم أعظم من الشرك دافع (وان يمسسك الله) يصبك (بضر) مرض (فلا كاشف له) لذلك الضر (الا هو) الا الله (وان يردك بخير) عافية (فلا راد لفضله) فلا راد لمراده (يصيب به) بالخير (من يشاء من عباده) قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة الا اليه والاعتماد

مع المؤمنين على دينهم (وان أقم وجهك للدين) اخلص دينك وعملك لله (حنيفا) مسلما (ولا تكونن من المشركين) مع المشركين على دينهم (ولا تدع) لا تعبد (من دون الله مالا ينفعك) فى الدنيا والآخرة ان عبدت (ولا يضرك) ان لم تعبده (فان فعلت) عبدت (فانك اذا من الظالمين) من الضارين لنفسك (وان يمسسك) يصبك (الله بضر) بشدة وأمر تكرهه (فلا كاشف له) فلا رافع للضر (الا هو) (انه) وان يردك) يصبك (بخير) بنعمة وأمر تسر به (فلا راد لفضله) لا مانع لعطيته (يصيب به) يخص بالفضل (من يشاء من عباده) من

امرتك الخير فافعل ما امرت به * فقد تركتك ذا مال وذا نسب

﴿وان اقم وجهك للدين﴾ عطف على ان اكون غير ان صلة ان محكية بصيغة الامر ولا فرق بينهما فى الغرض لان المقصود وصلها بما يتضمن معنى المصدر لتدل معه عليه وصيغ الافعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب والمعنى وامرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه باداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أو فى الصلاة باستقبال القبلة ﴿حنيفا﴾ حال من الدين أو الوجه ﴿ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك﴾ بنفسه ان دعوته أو خذلته ﴿فان فعلت﴾ فان دعوته ﴿فانك اذا من الظالمين﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء ﴿وان يمسسك الله بضر﴾ وان يصبك به ﴿فلا كاشف له﴾ يدفعه ﴿الا هو﴾ الا الله ﴿وان يردك بخير فلا راد﴾ فلا دافع ﴿لفضله﴾ الذى ارادك به ولعله ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الامرين للتنبيه على ان الخير مراد بالذات وان الضر انما مسهم لا بالقصد الاول ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على انه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه ولم يستثن لان مراد الله لا يمكن رده ﴿يصيب به﴾ بالخير ﴿من يشاء من عباده﴾

أتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا﴾ الواو فى قوله وان أقم واو عطف معناه وأمرت ان أقيم وجهى يعنى أقم نفسك على دين الاسلام حنيفا يعنى مستقيما عليه غير معوج عنه الى دين آخر وقيل معناه أقم عملك على الدين الحنيفى وقيل أراد بقوله وان أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته الى طلب الدين الحنيفى غير مائل عنه ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ يعنى ولا تكونن ممن يشرك فى عبادة ربه غيره فيهلك وقيل ان النهى عن عبادة الاوثان قد تقدم فى الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهى على معنى زائد وهو ان من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وانه المستحق للعبادة لا غيره فلا ينبغى له أن يلتفت الى غيره بالكلية وهذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك﴾ يعنى ان عبدته ودعوته ﴿ولا يضرك﴾ يعنى ان تركت عبادته ﴿فان فعلت﴾ يعنى ما نهيتك عنه فعبدت غيرى أو طلبت النفع ودفع الضر من غيرى ﴿فانك اذا من الظالمين﴾ يعنى لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها وهذا الخطاب وان كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يدع من دون الله شيأ البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الانسان من دون الله مالا ينفعك الآية * قوله تعالى ﴿وان يمسسك الله بضر﴾ يعنى وان يصبك الله بشدة وبلاء ﴿فلا كاشف له﴾ يعنى لذلك الضر الذى أنزله بك ﴿الا هو﴾ يعنى لا غيره ﴿وان يردك بخير﴾ يعنى بسعة ورخاء ﴿فلا راد لفضله﴾ يعنى فلا دافع لرزقه ﴿يصيب به﴾ يعنى بكل واحد من الضر والخير ﴿من يشاء من عباده﴾ قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر الاوثان وبين انها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى

الا عليه (وهو الغفور) المكفر بالبلاء (الرحيم) المعافى بالعطاء اتبع النهى عن عبادة الاوثان ووصفها بانها لاتنفع ولاتضر ان الله هو الضار النافع الذى ان أصابك بضر لم يقدر على كشفه الا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذى لاشعور به وكذا أرادك بخير لم يرد أحد مايريده بك من الفضل والاحسان فكيف بالاوثان وهو الحقيق اذا بان توجه اليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته وانما ذكر المس فى أحدهما والارادة فى الآخر كانه أراد ان يذكر الامرين الارادة والاصابة فى كل واحد من الضر والخير وانه لاراد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بان ذكر المس وهو الاصابة فى أحدهما والارادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ماترك على انه قد ذكر الاصابة بالخير فى قوله يصيب به من يشاء من عباده (قل ياأيها الناس) ياأهل مكة (قد جاءكم الحق) القرآن أو الرسول (من ربكم فمن اهتدى) اختار الهدى واتبع الحق (فانما يهتدى لنفسه) فما نفع باختياره الا نفسه (ومن ضل فانما يضل عليها) ومن آثر الضلال فما ضر الا نفسه ودل اللام وعلى على معنى النفع والضرر (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم انما أنا بشير ونذير (واتبع مايوحى اليك واصبر) على تكذيبهم وايذائهم (حتى يحكم الله) لك بالنصرة عليهم والغلبة (وهو خير الحاكمين) لانه المطلع على السرائر فلايحتاج الى بينة وشهود

وهو الغفور الرحيم ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولاتيأسوا من غفرانه بالمعصية ﴿ قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ رسوله أو القرآن ولم يبق لكم عذر ﴿ فمن اهتدى ﴾ بالايمان والمتابعة ﴿ فانما يهتدى لنفسه ﴾ لان نفعه لها ﴿ ومن ضل ﴾ بالكفر ﴿ فانما يضل عليها ﴾ لان وبال الضلال عليها ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ بحفيظ موكول الى امركم وانما انا بشير ونذير ﴿ واتبع مايوحى اليك ﴾ بالامتثال والتبليغ ﴿ واصبر ﴾ على دعوتهم وتحمل اذيتهم ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بالنصرة أو بالامر بالقتال ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ اذ لايمكن الخطأ فى حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر * عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

انه هو القادر على ذلك كله وان جميع الكائنات محتاجة اليه وجميع الممكنات مستندة اليه لانه هو القادر على كل شئ وانه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ وفى الآية لطيفة أخرى وهى ان الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لاكاشف له الا هو وذلك يدل على انه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير قال فيه فلاراد لفضله يعنى ان جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لانه هو الذى يفيض جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعنى الساتر لذنوب عباده الرحيم يعنى بهم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ يعنى القرآن والاسلام وقيل الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله عز وجل ﴿ فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ﴾ لان نفع ذلك يرجع اليه ﴿ ومن ضل فانما يضل عليها ﴾ أى على نفسه لان وباله راجع اليه فمن حكم الله له بالاهتداء فى الازل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشئ أبدا ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ يعنى وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿ واتبع مايوحى اليك ﴾ يعنى الامر الذى يوحيه الله اليك يا محمد ﴿ واصبر ﴾ يعنى على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك ﴿ حتى يحكم الله ﴾ يعنى ينصرك عليهم باظهار دينك ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه

كان أهلا لذلك (وهو الغفور) المتجاوز لمن تاب (الرحيم) لمن مات على التوبة (قل ياأيها الناس) ياأهل مكة (قد جاءكم الحق) الكتاب والرسول (من ربكم فمن اهتدى) بالكتاب والرسول (فانما يهتدى لنفسه) يعنى ثوابه (ومن ضل) كفر بالكتاب والرسول (فانما يضل عليها) يعنى عليها جناية ذلك (وما أنا عليكم بوكيل) بكفيل نسختها آية القتال (واتبع) يا محمد (مايوحى اليك) ما يؤمر لك فى القرآن من تبليغ الرسالة (واصبر) على ذلك (حتى يحكم الله) بينكم وبينهم بقتلهم وهلاكهم يوم بدر (وهو خير الحاكمين)

من قرأ سورة يونس اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون

﴿سورة هود عليه السلام مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ألر كتاب﴾ مبتدأ وخبر أو كتاب خبر مبتدأ محذوف ﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظما محكما لا يعتريه اختلال من جهة اللفظ والمعنى أو منعت من الفساد والنسخ فان المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ أو احكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا صار حكيما لانها مشتملة على امهات الحكم النظرية والعملية ﴿ثم فصلت﴾ بالفرائد من العقائد والاحكام والمواعظ والاخبار أو بجعلها سورا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (ألر كتاب) أى هذا كتاب فهو خبر مبتدأ محذوف (أحكمت آياته) صفة له اى نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم (ثم فصلت) كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد والاحكام والمواعظ والقصص اوجعلت فصولا سورة سورة وآية آية أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة أو فصل فيها ما يحتاج اليه العباد أى بين ولخص وليس معنى ثم التراخى فى الوقت ولكن فى الحال

واظهار دينه وبقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب وفيها ذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام﴾

وهى مكية فى قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفى رواية عن ابن عباس انها مكية غير آية وهى قوله سبحانه وتعالى وأقم الصلوة طرفى النهار وعن قتادة نحوه وقال مقاتل هى مكية الاقوله سبحانه وتعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وقوله أولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وهى مائة وثلاث وعشرون آية وألف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا عن ابن عباس قال قال أبو بكر يارسول الله قد شبت قال شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وفى رواية غيره قال قلت يارسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية قال بعض العلماء سبب شيبه صلى الله عليه وسلم من هذه السور المذكورة فى الحديث لما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل ﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ قال ابن عباس لم ينسخها كتاب كما نسخت هى الكتب والشرائع ﴿ثم فصلت﴾ يعنى بينت وقال الحسن أحكمت آياته بالامر والنهى وفصلت بالثواب والعقاب وفى رواية عنه بالعكس قال أحكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالامر والنهى وقال قتادة أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل أحكمها الله فليس فيها

أقوى الحاكمين بهلاكهم ونصرهم

﴿ومن السورة التى يذكر فيها هود وهى كلها مكية آياتها مائة وعشرون وثلاث كلماتها ألف وستمائة وخمسة وعشرون وحروفها ستة آلاف وتسعمائة وخمسة﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ باسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (ألر) يقول أنا الله أرى ويقال قسم أقسم به (كتاب) ان هذا كتاب يعنى القرآن (أحكمت آياته) بالحلال والحرام والامر والنهى فلم تنسخ

أو بالانزال نجما أو فصل فيها ولخص ما يحتاج اليه * وقرئ ثم فصلت أي فرقت بين الحق والباطل واحكمت آياته ثم فصلت على البناء للمتكلم وثم للتفاوت في الحكم أو للتراخي في الاخبار ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ صفة اخرى لكتاب أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت أو فصلت وهو تقرير لاحكامها وتفصيلها على اكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر امره وما خفي ﴿ ان لا تعبدوا الا الله ﴾ لان لا تعبدوا وقيل ان مفسرة لان في تفصيل الآيات معنى القول ويجوز ان يكون كلاما مبتدأ للاغراء على التوحيد أو الامر بالتبري عن عبادة الغير كأنه قيل ترك عبادة غير الله بمعنى الزموه أو اتركوها تركا ﴿ انني لكم منه ﴾ من الله ﴿ نذير وبشير ﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد ﴿ وان استغفروا ربكم ﴾ عطف على ان لا تعبدوا ﴿ ثم توبوا اليه ﴾ ثم توصلوا الى مطلوبكم بالتوبة فان المعرض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع وقيل استغفروا

تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظما رصينا محكما بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذي ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل ان آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الاحكام والمواعظ والقصص والاخبار عن المغيبات وقال مجاهد فصلت بمعنى فسرت وثم في قوله ثم فصلت ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل * فان قلت كيف عم الآيات هنا بالاحكام وخص بعضها في قوله منه آيات محكمات * قلت ان الاحكام الذي عم به هنا غير الذي خص به هناك فمعنى الاحكام العام هنا انه لا يتطرق الى آياته التناقض والفساد كاحكام البناء فان هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالاحكام الخاص المذكور في قوله منه آيات محكمات ان بعض آياته منسوخة نسخها بآيات منه أيضا لم ينسخها غيره وقيل أحكمت آياته أي معظم آياته محكمة وان كان قد دخل النسخ على البعض فاجرى الكل على البعض لان الحكم للغالب واجراء الكل على البعض مستعمل في كلامهم تقول أكلت طعام زيد وانما أكلت بعضه * وقوله تعالى ﴿ من لدن حكيم ﴾ يعني أحكمت آيات الكتاب من عند حكيم في جميع أفعاله ﴿ خبير ﴾ يعني باحوال عباده وما يصلحهم ﴿ ألا تعبدوا الا الله ﴾ هذا مفعول له معناه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الانداد والاصنام وما كانوا يعبدون والرجوع الى الله تعالى والى عبادته والدخول في دين الاسلام ﴿ انني لكم منه ﴾ أي قل لهم يا محمد انني لكم من عند الله ﴿ نذير ﴾ ينذركم عقابه ان ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه ﴿ وبشير ﴾ يعني وأبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده ﴿ وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ﴾ اختلفوا في بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة

(من لدن حكيم خبير) صفة أخرى لكتاب أو خبر بعد خبر أو صلة لاحكمت وفصلت أي من عنده احكامها وتفصيلها (ألا تعبدوا الا الله) مفعول له أي لئلا تعبدوا أو أن مفسرة لان في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل قال لا تعبدوا الا الله أو أمركم أن لا تعبدوا الا الله (انني لكم منه نذير وبشير) أي من الله (وان استغفروا ربكم) أي أمركم بالتوحيد والاستغفار (ثم توبوا اليه) أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة

من لدن) من عند (حكيم) حاكم أمر ان لا يعبد غيره (خبير) بمن يعبده وبمن لا يعبده (ألا تعبدوا) بان لا توحدوا (الا الله انني لكم منه) من الله (نذير) من النار (وبشير) بالجنة (وأن استغفروا ربكم) وحدوا ربكم (ثم توبوا اليه) أقبلوا اليه بالتوبة والاخلاص

من الشرك ثم توبوا الى الله بالطاعة ويجوز ان يكون ثم لتفاوت مابين الامرين ﴿ يمتعكم متاعا حسنا ﴾ يعشكم فى امن ودعة ﴿ الى اجل مسمى ﴾ هو آخر اعماركم المقدرة أولايهلككم بعذاب الاستئصال والارزاق والآجال وان كانت متعلقة بالاعمال لكنها مسماة بالاضافة الى كل احد فلا تتغير ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ ويعط كل ذى فضل فى دينه جزاء فضله فى الدنيا وفى الآخرة وهو وعد للموحد التائب بخير الدارين ﴿ وان تولوا ﴾ وان تتولوا

لذنوبكم ثم ارجعوا اليه لان الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية الى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا اليه فى المستقبل وقال الفراء ثم هنا بمعنى الواو لان الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد ﴿ يمتعكم متاعا حسنا ﴾ يعنى انكم اذا فعلتم ما أمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به فى أمن وسعة وخير قال بعضهم المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور ﴿ الى أجل مسمى ﴾ يعنى يمتعكم متاعا حسنا الى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم * فان قلت قد ورد فى الحديث ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقد يضيق على الرجل فى بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى * قلت أما قوله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن فهو بالنسبة الى ما اعدالله له فى الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فانه فى سجن فى الدنيا حتى يفضى الى ذلك المعد له وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة الى ما أعدالله له فى الآخرة من العذاب الاليم الدائم الذى لا ينقطع فهو فى الدنيا فى جنة حتى يفضى الى ما أعدالله له فى الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن فى بعض الاوقات فانما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيآت وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن فى جميع أحواله فى عيشة حسنة لانه راض عن الله فى جميع أحواله * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ أى ويعط كل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره وثوابه فى الآخرة قال أبو العالية من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت حسناته ودرجاته فى الجنة لان الدرجات تكون على قدر الاعمال وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت حسناته وسيآته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلبت آحاده اعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله فى المستقبل لطاعته ﴿ وان تولوا ﴾ يعنى وان أعرضوا عما جئتهم به من الهدى

(يمتعكم متاعا حسنا) يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة (الى أجل مسمى) الى أن يتوفاكم (ويؤت كل ذى فضل فضله) ويعط فى الآخرة كل من كان له فضل فى العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه شيأ (وان تولوا) وان تتولوا

(يمتعكم متاعا) يعشكم عيشا (حسنا) بلا عذاب (الى أجل مسمى) الى وقت معلوم يعنى الموت (ويؤت) ويعط (كل ذى فضل) فى الاسلام (فضله) ثوابه فى الآخرة (وان تولوا) عن الايمان

﴿ فانى ﴾

(فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة (الى الله مرجعكم) رجوعكم (وهو على كل شئ قدير) فكان قادرا على اعادتكم (ألا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه لان من اقبل على الشئ استقبله بصدره ومن ازور عنه وانحرف

ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه (ليستخفوا منه) ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم (ألا حين يستغشون ثيابهم) يتغطون بها أى يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله كقول نوح عليه السلام جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم (يعلم مايسرون ومايعلنون) أى لا تفاوت فى علمه بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافع عنده قيل نزلت فى المنافقين

﴿فانى اخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ يوم القيامة وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى اكلوا الجيف *وقرئ وان تولوا من ولى ﴿الى الله مرجعكم﴾ رجوعكم فى ذلك اليوم وهو شاذ عن القياس ﴿وهو على كل شئ قدير﴾ فيقدر على تعذيبهم اشد عذاب فكأنه تقرير لكبر اليوم ﴿ألا انهم يثنون صدورهم﴾ يثنونها عن الحق وينحرفون عنه أو يعطفونها على الفكر وعداوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو يولون ظهورهم *وقرئ يثنونى بالياء والتاء من اثنونى وهو بناء المبالغة وتثنون واصله يثنونن من الثن وهو الكلأ الضعيف اراد به ضعف قلوبهم أو مطاوعة صدورهم للثنى وتثنئن من اثنأن كابيأض بالهمزة وتثنوى ﴿ليستخفوا منه﴾ من الله سرهم فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه قيل انها نزلت فى طائفة من المشركين قالوا اذا ارخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يعلم وقيل نزلت فى المنافقين وفيه نظر اذ الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ ألا حين يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم ﴿يعلم مايسرون﴾ فى قلوبهم ﴿ومايعلنون﴾ بافواههم يستوى فى علمه سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ماعسى يظهرونه

﴿فانى أخاف عليكم﴾ أى فقل لهم يا محمد انى أخاف عليكم ﴿عذاب يوم كبير﴾ يعنى عذاب النار فى الآخرة ﴿الى الله مرجعكم﴾ يعنى فى الآخرة فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسئ على اساءته ﴿وهو على كل شئ قدير﴾ يعنى من ايصال الرزق اليكم فى الدنيا وثوابكم وعقابكم فى الآخرة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ألا انهم يثنون صدورهم﴾ قال ابن عباس نزلت فى اخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر وكان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على مايكره فنزلت ألا انهم يثنون صدورهم يعنى يخفون مافى صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب اذا طويته وقال عبدالله بن شداد بن الهاد نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لايراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم كى لايسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله مافى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم أى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى ﴿ليستخفوا منه﴾ يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد من الله عزوجل ان استطاعوا ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ يعنى يغطون رؤسهم بثيابهم ﴿يعلم مايسرون ومايعلنون

والتوبة (فانى أخاف عليكم) أعلم ان يكون عليكم (عذاب يوم كبير) عظيم (الى الله مرجعكم) بعد الموت (وهو على كل شئ) من الثواب والعقاب (قدير ألا انهم) يعنى أخنس ابن شريق وأصحابه (يثنون صدورهم) يضمرون فى قلوبهم بغض محمد صلى الله عليه وسلم وعداوته (ليستخفوا منه) ليستروا من محمد صلى الله عليه وسلم بغضه وعداوته باظهار المحبة له والمجالسة معه (ألا حين يستغشون ثيابهم) يغطون رؤسهم بثيابهم (يعلم مايسرون) فيما بينهم ومايضمرون فى قلوبهم (ومايعلنون) من القتال والجفاء ويقال من المحبة والمجالسة

﴿ انه عليم بذات الصدور ﴾ بالاسرار ذات الصدور أو بالقلوب واحوالها

انه عليم بذات الصدور ﴾ ومعنى الآية على ماقاله الازهرى ان الذين أضمروا عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لايخفى علينا حالهم فى كل حال وقد نقل عن ابن عباس غيرهذا التفسير وهو ماأخرجه البخارى فى افراده عن محمد بن عياش بن جعفر المخزومى انه سمع ابن عباس يقرأ ألا انهم يثنون صدورهم قال فسألته عنها فقال كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا الى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك فيهم

(انه عليم بذات الصدور) بما فيها

(أنه عليم بذات الصدور) بما فى القلوب من الخير والشر

الجزء الثاني عشر

فنعم خير الرازقين

﴿ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله اياه تفضلا ورحمة وانما اتى بلفظ الوجوب تحقيقا لوصوله وحملا على التوكل فيه ﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ اماكنها فى الحياة والممات أو الاصلاب والارحام أو مساكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ﴿كل﴾ كل واحد من الدواب واحوالها ﴿فى كتاب مبين﴾ مذكور فى اللوح المحفوظ وكأنه اريد بالآية بيان كونه عالما بالمعلومات كلها وبما بعدها بيان كونه قادرا على الممكنات باسرها تقريرا للتوحيد ولماسبق من الوعد والوعيد ﴿وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة

﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ومامن دابة فى الارض﴾ الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض وأطلق لفظ الدابة على كل ذى أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الآدمى وغيره من جميع الحيوانات ﴿الاعلى الله رزقها﴾ يعنى هو المتكفل برزقها فضلا منه لاعلى سبيل الوجوب فهو الى مشيئته ان شاء رزق وان شاء لم يرزق وقيل ان لفظة على بمعنى من أى من الله رزقها وقال مجاهد ماجاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا ﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ قال ابن عباس مستقرها المكان الذى تأوى اليه فى ليل أونهار ومستودعها المكان الذى تدفن فيه بعد الموت وقال ابن مسعود مستقرها أرحام الامهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقيل المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر ﴿كل فى كتاب مبين﴾ أى كل ذلك مثبت فى اللوح المحفوظ قبل خلقها ﴿ قوله عزوجل ﴿وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة

(وما من دابة فى الارض الاعلى الله رزقها) تفضلا لاوجوبا (ويعلم مستقرها) مكانه من الارض ومسكنه (ومستودعها) حيث كان مودعا قبل الاستقرار من صلب أو رحم أوبيضة (كل فى كتاب مبين) كل واحد من الدواب و رزقها ومستقرها و مستودعها فى اللوح يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين (وهو الذى خلق السموات والارض) وما بينهما (فى ستة

(ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها) الاالله قائم برزقها (ويعلم مستقرها) حيث تأوى بالليل (ومستودعها) حيث تموت فتدفن (كل) أى رزق كل دابة واجلها وأثرها (فى كتاب مبين) مكتوب فى اللوح المحفوظ مبين معلوم مقدور ذلك عليها (وهو الذى) والهكم هو الذى (خلق السموات والارض فى ستة

أيام ﴾ أى خلقهما ومافيهما كما مر بيانه فى الاعراف أو مافى جهتى العلو والسفل وجمع السموات دون الارض لاختلاف العلويات بالاصل والذات دون السفليات ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما لانه كان موضوعا على

ايام وكان عرشه على الماء ﴾ يعنى قبل خلق السموات والارض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال ضمرة ان الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ماخلق وماهو خالق وماهو كائن من خلقه الى يوم القيامة ثم ان ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيأ من خلقه وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء على أى شئ كان الماء قال على متن الريح وقال وهب بن منبه ان العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والارض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات فى يومين ثم أخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الارض منها ثم خلق الاقوات فى يومين والسموات فى يومين والارض فى يومين ثم فرغ آخر الخلق فى اليوم السابع قال بعض العلماء وفى خلق جميع الاشياء وجعلها على الماء مايدل على كمال القدرة لان البناء الضعيف اذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والارض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتى بالباب فاتى ناس من بنى تميم فقال اقبلوا البشرى يابنى تميم فقالوا بشرتنا فاعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن اذلم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا يارسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الامر ماكان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شئ قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وكتب فى الذكر كل شئ ثم أتانى رجل فقال ياعمران ادرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت اطلبها فاذا السراب يقطع دونها وأيم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم ۞ عن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه قال قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال كان فى عماء مافوقه هواء وماتحته هواء وخلق عرشه على الماء أخرجه الترمذى وقال قال أحمد يريد بالعماء أنه ليس معه شئ قال أبو بكر البيهقى فى كتاب الاسماء والصفات له قوله صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن شئ قبله يعنى لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله وكان عرشه على الماء يعنى وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب فى الذكر كل شئ وقوله فى عماء وجدته فى كتاب عماء مقيدا بالمد فان كان فى الاصل ممدودا فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله فى عماء أى فوق سحاب مدبراله وعاليا عليه كما قال سبحانه وتعالى أأمنتم من فى السماء يعنى من فوق السماء وقال تعالى لأصلبنكم فى جذوع النخل

أيام) من الاحد الى الجمعة تعليما للتأنى (وكان عرشه على الماء) أى فوقه يعنى ماكان تحته خلق قبل خلق السموات والارض الا الماء وفيه دليل على ان العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والارض قيل بدأه بخلق ياقوتة خضراء فنظر اليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق ريحا فاقر الماء على متنه ثم وضع عرشه على الماء وفى وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لاهل الافكار

أيام) من أيام أول الدنيا طول كل يوم ألف سنة أول يوم منها يوم الاحد وآخر يوم منها يوم الجمعة (وكان عرشه) قبل ان خلق السموات والارض (على الماء) وكان الله قبل العرش والماء

متن الماء * واستدل به على امكان الخلاء وان الماء اول حادث بعد العرش من اجرام هذا العالم وقيل كان الماء على متن الريح والله اعلم بذلك ﴿ ليبلوكم ايكم احسن عملا ﴾ متعلق بخلق أى خلق ذلك كخلق من خلق ليعاملكم معاملة المبتلى لأحوالكم كيف تعملون فان جملة ذلك اسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما يحتاج اليه اعمالكم ودلائل وامارات تستدلون بها وتستنبطون منها وانما جاز تعليق فعل البلوى لما فيه من معنى العلم من حيث انه طريق اليه كالنظر والاستماع وانما ذكر صيغة التفضيل والاختبار الشامل لفرق المكلفين باعتبار الحسن والقبح للتحريض على احاسن المحاسن والتحضيض على الترقى دائما فى مراتب العلم والعمل فان المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ايكم احسن عقلا واورع عن محارم الله واسرع فى طاعة الله والمعنى ايكم اكمل علما وعملا ﴿ ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت

يعنى على جذوعها و قوله ما فوقه هواء أى ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله وما تحته هواء أى ما تحت السحاب هواء وقد قيل ان ذلك العمى مقصور والعمى اذا كان مقصورا فمعناه لاشئ ثابت لانه مما عمى عن الخلق لكونه غير شئ فكأنه قال فى جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شئ غيره ثم قال ما فوقه هواء و ما تحته هواء أى ليس فوق العمى الذى هو لاشئ موجود هواء ولا تحته هواء لان ذلك اذا كان غير شئ فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروى صاحب الغريبين قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصارا كقوله واسأل القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء هذا آخر كلام البيهقى وقال ابن الاثير العماء فى اللغة السحاب الرقيق وقيل الكثيف وقيل هو الضباب ولابد فى الحديث من حذف مضاف تقديره أين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى وكان عرشه على الماء وحكى عن بعضهم فى العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن وقال الازهرى قال أبو عبيد انما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم والا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء قال الازهرى فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء * و فى رواية فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والارض وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة * قوله فرغ يريد اتمام خلق المقادير لا أنه كان مشغولا ففرغ منه لان الله سبحانه و تعالى لا يشغله شأن عن شأن فانما أمره اذ أراد شيأ أن يقول له كن فيكون * وقوله سبحانه و تعالى ﴿ ليبلوكم ﴾ يعنى ليختبركم وهو أعلم بكم منكم ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ يعنى بطاعة الله وأورع عن محارم الله ﴿ ولئن قلت ﴾ يعنى ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ﴿ انكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ يعنى

(ليبلوكم) أى خلق السموات والارض وما بينهما للممتحن فيهما ولم يخلق هذه الاشياء لانفسها (أيكم أحسن عملا) أكثر شكرا وعنه عليه السلام أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فمن شكر وأطاع أثابه و من كفر وعصى عاقبه ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال ليبلوكم أى ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لاحوالكم كيف تعملون (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت

(ليبلوكم) ليختبركم بين الحياة والموت (أيكم أحسن عملا) أخلص عملا (ولئن قلت) لاهل مكة (انكم مبعوثون) محيون (من بعد الموت

ليقولن الذين كفروا أن هذا الا سحر مبين)أشار بهذا الى القرآن لان القرآن هو الناطق بالبعث فاذا جعلوه سحرا فقد اندرج تحته انكار مافيه من البعث و غيره ساحر حمزة وعلي يريدون الرسول والساحر كاذب مبطل (ولئن أخرنا عنهم العذاب)عذاب الآخرة أوعذاب يوم بدر (الى أمة) الى جماعة من الاوقات (معدودة)معلومة أوقلائل والمعنى الى حين معلوم (ليقولن مايحبسه) مايمنعه من النزول استعجالا له على وجه التكذيب والاستهزاء (ألا يوم يأتيهم)العذاب (ليس) العذاب (مصروفا عنهم)ويوم منصوب بمصروفا أي ليس العذاب مصروفا عنهم يوم يأتيهم (وحاق بهم) وأحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) العذاب الذي كانوا به يستعجلون وانما وضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان على وجه الاستهزاء (ولئن أذقنا الانسان) هو للجنس (منا رحمة) نعمة من صحة وامن وجدة واللام في لئن لتوطئة القسم (ثم نزعناها منه) ثم سلبناه تلك النعمة وجواب القسم (انه ليؤس)شديد اليأس من أن يعود اليه مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه (كفور) عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة

ليقولن الذين كفروا أن هذا الاسحر مبين ﴾ أي ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره الا كالسحر في الخديعة والبطلان * وقرأ حمزة والكسائي الا ساحر على ان الاشارة الى القائل * وقرئ انكم بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو ان تكون ان بمعنى عل أي ولئن قلت علكم مبعوثون بمعنى توقعوا بعثكم ولا تبتوا بانكاره لعدوه من قبيل مالا حقيقة له مبالغة في انكاره ﴿ ولئن اخرنا عنهم العذاب ﴾ الموعود ﴿ الى امة معدودة ﴾ الى جماعة من الاوقات قليلة ﴿ ليقولن ﴾ استهزاء ﴿ مايحبسه ﴾ مايمنعه من الوقوع ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ كيوم بدر ﴿ ليس مصروفا عنهم ﴾ ليس العذاب مدفوعا عنهم ويوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها ﴿ وحاق بهم ﴾ واحاط بهم وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة في التهديد ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون فوضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء ﴿ ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ﴾ ولئن اعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه ﴿ انه ليؤوس ﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به ﴿ كفور ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له

للحساب والجزاء ﴿ ليقولن الذين كفروا أن هذا الاسحر مبين ﴾ يعنون القرآن ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ﴾ يعني الى أجل محدود وأصل الامة في اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه و تعالى الى انقراض أمة و مجيء أمة أخرى ﴿ ليقولن مايحبسه ﴾ يعني أي شيء يحبس العذاب وانما يقولون ذلك استعجالا بالعذاب واستهزاء يعنون انه ليس بشيء قال الله عز وجل ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ يعني العذاب ﴿ ليس مصروفا عنهم ﴾ أي لا يصرفه عنهم شيء ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴾ يعني و نزل بهم وبال استهزائهم * قوله سبحانه و تعالى ﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ﴾ يعني رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا ﴿ ثم نزعناه منه ﴾ يعني سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به ﴿ انه ليؤس كفور ﴾ يعني يظل قانطا من رحمة الله آيسا من كل خير كفور أي جحود لنعمتنا عليه أولا قليل الشكر لربه قال بعضهم يا ابن آدم اذا كانت بك نعمة من الله من أمن

ليقولن الذين كفروا) كفار مكة (ان هذا) ما هذا الذي يقول محمد عليه السلام (الا سحر مبين) كذب بين لا يكون (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة) الى وقت معلوم (قا و خا ٣٩ لث) يوم بدر (ليقولن) يعني أهل مكة (مايحبسه) عنا غدا استهزاء به (ألا يوم يأتيهم)العذاب (ليس مصروفا عنهم)لا يصرف عنهم العذاب (وحاق)دار و وجب و نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) عذاب ما كانوا به يستهزؤن بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (ولئن أذقنا الانسان) يعني الكافر (منا رحمة) نعمة (ثم نزعناها منه) أخذناها منه (انه ليؤس) يصير آيس شيء وأقنط شيء من رحمة الله (كفور) كافر بنعمة الله

الله نساءله (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذى ناله (ليقولن ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى ساءتنى (انه لفرح) أشر بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر (الا الذين

(أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) يعنى الجنة كانوا يقترحون عليه آيات تعنتا لا استرشادا لانهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية فى رشادهم ومن اقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يلقى اليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله (فلعلك تارك بعض مايوحى اليك) أى لعلك تترك ان تلقيه اليهم وتبلغه اياهم مخافة ردهم له وتهاونهم (وضائق به صدرك) بان تتلوه عليهم ولم يقل ضيق ليدل على انه ضيق عارض غير ثابت لانه عليه السلام كان أفسح الناس صدرا ولانه أشكل بتارك

من النعمة ﴿ ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفى اختلاف الفعلين نكتة لاتخفى ﴿ ليقولن ذهب السيئات عنى ﴾ أى المصائب التى ساءتنى ﴿ انه لفرح ﴾ بطر بالنعم مغتربها ﴿ فخور ﴾ على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها وفى لفظ الاذاقة والمس تنبيه على ان مايجده الانسان فى الدنيا من النعم والمحن كالانموذج لما يجده فى الآخرة وانه يقع فى الكفران والبطر بادنى شئ لان الذوق ادراك الطعم والمس مبدأ الوصول ﴿ الا الذين صبروا ﴾ على الضراء ايمانا بالله تعالى واستسلاما لقضائه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ شكرا لآلائه سابقها ولاحقها ﴿ اولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ واجر كبير ﴾ اقله الجنة والاستثناء من الانسان لان المراد به الجنس فاذا كان محلى باللام افاد الاستغراق ومن حمله على الكفار لسبق ذكرهم جعل الاستثناء منقطعا ﴿ فلعلك تارك بعض مايوحى اليك ﴾ تترك تبليغ بعض مايوحى اليك وهو مايخالف رأى المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به ولا يلزم من توقع الشئ لوجود مايدعو اليه وقوعه لجواز ان يكون مايصرف عنه وهو عصمة الرسل من الخيانة فى الوحى والتقية فى التبليغ مانعا ﴿ وضائق به صدرك ﴾ وعارض لك

وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فان نزعت عنك فينبغى لك ان تصبر ولا تيأس من رحمة الله فانه العواد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ يعنى ولئن نحن أنعمنا على الانسان وبسطنا عليه من العيش ﴿ ليقولن ﴾ يعنى الذى أصابه الخير والسعة ﴿ ذهب السيآت عنى ﴾ يعنى ذهب الشدائد والعسر والضيق وانما قال ذلك غرة بالله عز وجل وجراءة عليه لانه لم يضف الاشياء كلها الى الله وانما أضافها الى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال ﴿ انه لفرح فخور ﴾ أى انه أشر بطر والفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهى عنه ﴿ ثم استثنى فقال تبارك وتعالى ﴿ الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ قال الفراء هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فانهم ليسوا كذلك فانهم ان نالتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا عليها ﴿ أولئك ﴾ يعنى من هذه صفتهم ﴿ لهم مغفرة ﴾ يعنى لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ يعنى الجنة ﴿ قوله عز وجل ﴿ فلعلك تارك بعض مايوحى اليك ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فلعلك يا محمد تارك بعض مايوحى اليك ربك ان تبلغه الى من أمرك ان تبلغ ذلك اليه ﴿ وضائق به صدرك ﴾ يعنى ويضيق صدرك بما يوحى اليك فلا تبلغه اياهم وذلك ان كفار مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يترك ذكر آلهتهم

لايشكر (ولئن أذقناه) أصبناه يعنى الكافر (نعماء بعد ضراء مسته) شدة اصابته (ليقولن) يعنى الكافر (ذهب السيآت) الشدة (عنى انه لفرح) بطر (فخور) بنعمة الله غير شاكر (الا) محمدا صلى الله (ظاهرا) عليه وسلم واصحابه (الذين صبروا) على الايمان (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم فانهم لا يفعلون ذلك ولكن يصبرون بالشدة ويشكرون بالنعمة (أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم فى الدنيا (وأجر كبير) ثواب عظيم فى الجنة (فلعلك) يا محمد (تارك بعض مايوحى اليك) أمرك فى القرآن من تبليغ الرسالة وسب آلهتهم وعيبها (وضائق به) بما أمرت (صدرك) قلبك

احيانا ضيق صدرك بان تتلوه عليهم مخافة ﴿ ان يقولوا لولا انزل عليه كنز ﴾ ينفقه في الاستتباع كالملوك ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ يصدقه وقيل الضمير في به مبهم يفسره ان يقولوا ﴿ انما انت نذير ﴾ ليس عليك الا الانذار بما اوحى اليك ولا عليك ردوا

ظاهرا فأنزل الله عز وجل فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك يعنى من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون فى معنى هذه الآية وأجمع المسلمون على انه صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ فانه معصوم فيه من الاخبار عن شئ منه بخلاف ما هو به لا خطأ ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا وانه صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أنزل الله عليه الى أمته ولم يكتم منه شيأ وأجمعوا على انه لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم خيانة فى الوحى والانذار ولا يترك بعض ما أوحى اليه لقول احد لان تجويز ذلك يؤدى الى الشك فى أداء الشرائع والتكاليف لان المقصود من ارسال الرسول التبليغ الى من أرسل اليه فاذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبى صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك كله واذا ثبت هذا وجب ان يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك شيأ آخر سوى ما ذكره المفسرون وللعلماء فى ذلك أجوبة ٭ أحدها قال ابن الانبارى قد علم الله سبحانه وتعالى ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يترك شيأ مما يوحى اليه اشفاقا من موجدة أحد وغضبه ولكن الله تعالى أكد على رسوله صلى الله عليه وسلم متابعة الابلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية ٭ الثانى ان هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وتحريضه على أداء ما أنزله اليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك فى عصمته مما يخافه ويخشاه ٭ الثالث ان الكفار كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لذلك وان يلقى اليهم ما لا يقبلونه ويستهزؤن به فامره الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما أوحى اليه وأن لا يلتفت الى استهزائهم وان تحمل هذا الضرر أهون من كتم شئ من الوحى والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم ان كل واحد من طرفى الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم ان الضرر فى باب الترك أعظم سهل عليه الاقدام على الفعل وقيل ان الله سبحانه وتعالى مع علمه بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يترك شيأ من الوحى هيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم الى قبول قوله بقوله فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك أى لعلك تترك ان تلقيه اليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أى بأن تتلوه عليهم ﴿ أن يقولوا ﴾ يعنى مخافة ان يقولوا ﴿ لولا أنزل عليه كنز ﴾ يعنى يستغنى به وينفقه ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ يعنى يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبى أمية المخزومى والمعنى انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا فى قولك بأنك رسول الله الذى تصفه بالقدرة على كل شئ وأنت عزيز عنده مع انك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغنى به أنت وأصحابك وهلا أنزل عليك ملكا يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة فى أمرك فأخبر الله عز وجل انه صلى الله عليه وسلم نذير بقوله عز وجل ﴿ انما أنت نذير ﴾ تنذر بالعقاب

(ان يقولوا) مخافة ان يقولوا (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) هلا انزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه والملائكة لنصدقه ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه (انما أنت نذير) أى ليس عليك الا أن تنذرهم بما أوحى اليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ولا عليك ان ردوا أو تهاونوا

(أن يقولوا) بان يقولوا كفار مكة (لولا أنزل) هلا أنزل (عليه) على محمد (كنز) مال من السماء فيعيش به (أو جاء معه ملك) يشهد له (انما أنت) يا محمد (نذير) رسول

(والله على كل شئ وكيل) يحفظ مايقولون وهو فاعل بهم مايجب ان يفعل فتوكل عليه وكل أمرك اليه وعليك بتبليغ الوحى بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت الى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم (أم يقولون) ام منقطعة (افتراه) الضمير لما يوحى اليك (قل فأتوا بعشر سور) تحداهم أولا بعشر سور ثم بسورة واحدة كما يقول المخابر فى الخط لصاحبه اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب فاذا تبين له العجز عن ذلك قال قد اقتصرت منك على سطر واحد (مثله) فى الحسن والجزالة ومعنى مثله أمثاله ذهابا الى مماثلة كل واحدة منها له (مفتريات) صفة لعشر سور لما قالوا افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله أرخى معهم العنان وقال هبوا أنى اختلقته من عند نفسى فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء مثلى (وادعوا من استطعتم من دون الله) الى المعاونة على المعارضة (ان كنتم صادقين) انه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم

أو اقترحوا فما بالك يضيق به صدرك ﴿ والله على كل شئ وكيل ﴾ فتوكل عليه فانه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء اقوالهم وافعالهم ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أم منقطعة والهاء لما يوحى ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله ﴾ فى البيان وحسن النظم تحداهم اولا بعشر سور ثم لما عجزوا عنها سهل الامر عليهم وتحداهم بسورة وتوحيد المثل باعتبار كل واحد ﴿ مفتريات ﴾ مختلقات من عند انفسكم ان صح انى اختلقته من عند نفسى فانكم عرب فصحاء مثلى تقدرون على مثل ما اقدر عليه بل انتم اقدر لتعلمكم القصص والاشعار وتعودكم القريض والنظم ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ الى المعاونة على المعارضة ﴿ ان كنتم صادقين ﴾ انه مفترى ﴿ فان لم يستجيبوا لكم ﴾ باتيان ما دعوتم اليه

لمن خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب لمن أطاعك وآمن بك وصدقك ﴿ والله على كل شئ وكيل ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ يعنى بل يقول كفار مكة اختلقه يعنى ما أوحى اليه من القرآن ﴿ قل ﴾ أى قل لهم يا محمد ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عند الله تحداهم وأرخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال صلى الله عليه وسلم هبوا أنى اختلقته من عند نفسى ولم يوح الى شئ وان الامر كما قلتم وأنتم عرب مثلى من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فأتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذى جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فانكم تقدرون على مثل ما أقدر عليه من الكلام فلهذا قال سبحانه وتعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فى مقابلة قولهم افتراه * فان قلت قد تحداهم بان يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قال فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز * قلت قد قال بعضهم ان سورة هود نزلت قبل سورة يونس وانه تحداهم أولا بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال ان سورة يونس نزلت أولا قال ومعنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله يعنى مثله فى الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد وقوله فى سورة هود فأتوا بعشر سور مثله يعنى مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمره بان يقول لهم ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ حتى يعينوكم على ذلك ﴿ ان كنتم صادقين ﴾ يعنى فى قولكم انه مفترى ﴿ فان لم يستجيبوا لكم ﴾ اعلم انه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين أحدهما أمر وخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات والثانى أمر وخطاب للكفار وهو

مخوف (والله على كل شئ) من مقالتهم وعذابهم (وكيل) كفيل ويقال شهيد (أم يقولون) بل يقولون كفار مكة (افتراه) اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه فأتانا به (قل) لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله) مثل سور القرآن مثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس ﴿ قوله ﴾ وهود (مفتريات) مختلقات من تلقاء أنفسكم (وادعوا من استطعتم) استعينوا بمن عبدتم (من دون الله ان كنتم صادقين) ان محمدا صلى الله عليه وسلم يختلقه من تلقاء نفسه فسكتوا عن ذلك فقال الله (فان لم يستجيبوا لكم) لم يجبك الظلمة

فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو) أى أنزل ملتبسا بما لا يعلمه الا الله من نظم معجز للخلق واخبار بغيوب لاسبيل لهم اليه واعلموا عندذلك ان لا اله الا الله وحده وان توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم وانما جمع الخطاب بعد افراده وهو قوله لكم فاعلموا بعد قوله قل لان الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يحدثونهم أولان الخطاب للمشركين والضمير فى فان لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا انما أنزل بعلم الله أى باذنه أو بامره (فهل أنتم مسلمون) متبعون للاسلام بعدهذه الحجة القاطعة ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا على انه منزل من عندالله وعلى التوحيد فهل أنتم مسلمون مخلصون (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها

وجمع الضمير اما لتعظيم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أولان المؤمنين كانوا ايضا يتحدونهم وكان امر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم متناولا لهم من حيث انه يجب اتباعه عليهم فى كل امر الا ماخصه الدليل وللتنبيه على ان التحدى مما يوجب رسوخ ايمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه ولذلك رتب عليه قوله ﴿ فاعلموا أنما انزل بعلم الله ﴾ ملتبسا بما لا يعلمه الا الله ولا يقدر عليه سواه ﴿ وان لا اله الا هو ﴾ واعلموا ان لا اله الا الله لانه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقه باعجازه عليه وفيه تهديد واقناط من ان يجيرهم من بأس الله آلهتهم ﴿ فهل انتم مسلمون ﴾ ثابتون على الاسلام راسخون فيه مخلصون اذا تحقق عندكم اعجازه مطلقا ويجوز ان يكون الكل خطابا للمشركين والضمير فى لم يستجيبوا لكم لمن استطعتم أى فان لم يستجيبوا لكم الى المظاهرة لعجزهم وقد عرفتم من انفسكم القصور عن المعارضة فاعلموا انه نظم لا يعلمه الا الله وانه منزل من عنده وان مادعا كم اليه من التوحيد حق فهل انتم داخلون فى الاسلام بعدقيام الحجة القاطعة وفى مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر ﴿ من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها ﴾ باحسانه وبره ﴿ نوف اليهم اعمالهم فيها ﴾

قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فان لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار فى المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون فى معنى الآية على قولين * أحدهما انه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فان لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم اليه من المعارضة وعجزوا عنه ﴿ فاعلموا انما أنزل بعلم الله ﴾ يعنى فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا وثباتا لانهم كانوا عالمين بانه منزل من عندالله وقيل الخطاب فى قوله فان لم يستجيبوا لكم للنبي صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم القول الثانى أن قوله سبحانه وتعالى فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك انه سبحانه وتعالى لما قال فى الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عز وجل فى هذه الآية فان لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم يعينوكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وانه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وان لا اله الا هو ﴾ يعنى الذى أنزل القرآن هو الله الذى لا اله الا هو لا من تدعون من دونه ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ فيه معنى الامر أى أسلموا وأخلصوا لله العبادة وان حملنا معنى الآية على انه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أى دوموا على ما أنتم عليه من الاسلام * قوله عز وجل ﴿ من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها ﴾ يعنى بعمله الذى يعمله من أعمال البر نزلت فى كل من عمل عملا يبتغى به غير الله عز وجل ﴿ نوف اليهم أعمالهم فيها ﴾ يعنى أجور

(فاعلموا) يامعشر الكفار (أنما أنزل) جبريل بالقرآن (بعلم الله) وأمره (وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) مقرون بمحمد عليه السلام والقرآن (من كان يريد الحيوة الدنيا) بعمله الذى افترض الله عليه (وزينتها) زهرتها (نوف اليهم أعمالهم) نوفر لهم ثواب أعمالهم (فيها) فى الدنيا

نوصل اليهم جزاء اعمالهم في الدنيا من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد وقرئ يوف بالياء أي يوف الله ويوف على البناء للمفعول ونوفى بالتخفيف والرفع لان الشرط ماض كقوله

وان اتاه خليل يوم مسغبة * يقول لاغائب مالي ولا حرم

﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ لا ينقصون شيأ من اجورهم والآية في اهل الرياء وقيل في المنافقين وقيل في الكفرة وبرهم ﴿ اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار ﴾ مطلقا في مقابلة ماعملوا لانهم استوفوا مايقتضيه صور اعمالهم الحسنة وبقيت لهم اوزار العزائم السيئة ﴿ وحبط ماصنعوا فيها ﴾ لانهم لم يبق لهم ثواب في الآخرة أو لم يكن لانهم لم يريدوا به وجه الله تعالى والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الاخلاص ويجوز تعليق الظرف بصنعوا على ان الضمير للدنيا ﴿ وباطل ﴾ في نفسه ﴿ ماكانوا يعملون ﴾ لانه لم يعمل على ماينبغي وكأن كل واحدة من الجملتين علة لماقبلها وقرئ باطلا على انه مفعول

أعمالهم التي عملوها لطلب الدنيا وذلك ان الله سبحانه وتعالى يوسع عليهم في الرزق ويدفع عنهم المكاره في الدنيا ونحو ذلك ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ يعني انهم لا ينقصون من أجور أعمالهم التي عملوها لطلب الدنيا بل يعطون اجور أعمالهم كاملة موفرة ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها ﴾ يعني وبطل ماعملوا في الدنيا من أعمال البر ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ لانه لغير الله واختلف المفسرون في المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس أنها في اليهود والنصارى وعن الحسن مثله وقال الضحاك من عمل عملا صالحا في غير تقوى يعني من أهل الشرك أعطى على ذلك أجر في الدنيا وهو ان يصل رحما أو يعطى سائلا أو يرحم مضطرا أو نحو هذا من أعمال البر فيجعل الله له ثواب عمله في الدنيا يوسع عليه في المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدفع عنه المكاره في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار الآية وهذه حالة الكافر في الآخرة وقيل نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم لانهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة وقيل ان حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذي هذه صفته والمؤمن الذي يأتي بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد في هذه الآية هم أهل الرياء وهذا القول مشكل لان قوله سبحانه وتعالى اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار لا يليق بحال المؤمن الا اذا قلنا ان تلك الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار * ويدل على هذا ماروى عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه أخرجه مسلم * عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار أخرجه الترمذي * عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى

وهم فيها لا يبخسون) نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو مايرزقون فيها من الصحة والرزق وهم الكفار أو المنافقون (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها) وحبط في الآخرة ماصنعوه أو صنيعهم أي لم يكن لهم ثواب لانهم لم يريدوا به الآخرة انما أرادوا به الدنيا وقد وفي اليهم ما ارادوا (وباطل ما كانوا يعملون) أي كان عملهم في نفسه باطلا لانه لم يعمل لغرض صحيح والعمل الباطل لا ثواب له

(وهم فيها) في الدنيا (لا يبخسون) لا ينقص من ثواب اعمالهم (أولئك الذين) عملوا لغير الله (ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها) رد عليهم ماعملوا في الدنيا من الخيرات (وباطل ما كانوا يعملون) ولا يثابون في الآخرة بما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات لانهم عملوا لغير الله

يعملون ومابهـامية أوفى معنى المصدر كقـوله

ولاخارجا من فى زوركلام

وبطل على الفعل ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ برهان من الله يدله على الحق والصواب فيمايأتيه ويذره والهمزة لانكار ان يعقب من هذا شـأنه هؤلاء المقصرين هممهم وافكارهم على الدنيا وان يقارب بينهم فى المنزلة وهوالذى اغنى عن ذكر الخبر وتقديره أفمن كان على بينة كمن كان يريد الحياة الدنيا وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص وقيل المراد به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل مؤمنو اهل الكتاب ﴿ ويتلوه ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذى هو دليل العقل ﴿ شاهد منه ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن

به وجه الله لايتعلمه الاليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعنى ريحها أخرجه أبو داود ❊ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يارسول الله وماجب الحزن قال وادفى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يارسـول الله من يدخله قال القراء المراؤن باعمـالهم أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب ❊ قال البغوى وروينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أخوف ماأخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء أخرجه بغير سـند ❊ والرياء هو أن يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أوليعتقدوا فيه الصلاح أوليقصدوه بالعطاء فهذا العمل هو الذى لغير الله نعوذ بالله من الخذلان قال البغوى وقيل هذا فى الكفار يعنى قوله من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها أما المؤمن فيريد الدنيـا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسـناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وروينا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لايظلم المؤمن حسـنة يثاب عليها الرزق فى الدنيـا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا أخرجه البغوى بغير سند ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة الذين يريدون باعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر فى هـذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى أفمن كان على بينة من ربه أى كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الاالنار وانما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه وهو النبى صـلى الله عليه وسـلم وأصحابه كمن هو فى ضـلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذى أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالبينة اليقين يعنى أنه على يقين من ربه أنه على الحق ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ يعنى ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا فى الشاهد من هو فقال ابن عباس وعلقمة وابراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين انه جبريل عليه السلام يريد أن جبريل يتبع النبى صلى الله عليه وسلم ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبى صلى الله عليه وسلم وروى عن محمد بن الحنفية قال قلت لابى يعنى على ابن أبى

(أفمن كان على بينة من ربه) أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه أى لايعقبونهم فى المنزلة ولا يقاربونهم يعنى ان بين الفريقين تباينا بينا وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة من ربه أى على برهان من الله وبيان ان دين الاسلام حق وهو دليل العقل (ويتلوه) ويتبع ذلك البرهان (شاهد) يشهد بصحته وهو القرآن (منه) من الله أو من القرآن فقد مر ذكره آنفا

(أفمن كان على بينة من ربه) على بيان نزل من ربه يعنى القرآن (ويتلوه) يقرأ عليه القرآن (شاهد منه) من الله يعنى جبريل

﴿ ومن قبله ﴾ ومن قبل القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ يعنى التوراة فانها ايضا تتلوه فى التصديق أو البينة هو القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على ان الضمير له أو من التلوه والشاهد ملك يحفظه والضمير فى يتلوه امالمن أو للبينة باعتبار المعنى ومن قبله كتاب موسى جملة مبتدأة وقرئ كتابا بالنصب عطفا على الضمير فى يتلوه أى يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على انه حق كقوله وشهد شاهد من بنى اسرائيل ويقرأ من قبل القرآن التوراة ﴿ اماما ﴾ كتابا مؤتما به فى الدين ﴿ ورحمة ﴾ على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بخير الدارين ﴿ اولئك ﴾ اشارة الى من كان على بينة ﴿ يؤمنون به ﴾ بالقرآن ﴿ ومن يكفر به من الاحزاب ﴾ من اهل مكة ومن تحزب معهم على رسول

طالب رضى الله عنه أنت التالى قال وماتعنى بالتالى قلت قوله سبحانه و تعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت انى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول ان اللسان لما كان يعرب عما فى الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لان اللسان هو آلة الفصل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبى صلى الله عليه وسلم ويسدده وقال الحسين بن الفضل الشاهد هو القرآن لان اعجازه وبلاغته و حسن نظمه يشهد للنبى صلى الله عليه وسلم بنبوته ولانه أعظم معجزاته الباقية على طول الدهر وقال الحسين بن على وابن زيد الشاهد منه هو محمد صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول ان من نظر الى النبى صلى الله عليه وسلم بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون وقال جابر بن عبد الله قال على بن أبى طالب مامن رجل من قريش الا وقد نزلت فيه الآية و الآيتان فقال له رجل وأنت أى آية نزلت فيك فقال على ماتقرأ الآية التى فى هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد على بن أبى طالب وقوله منه يعنى من النبى صلى الله عليه وسلم والمراد تشريف هذا الشاهد وهو على لاتصاله بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل يتلوه شاهد منه يعنى الانجيل وهو اختيار الفراء والمعنى ان الانجيل يتلو القرآن فى التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والامر بالايمان به وان كان قد نزل قبل القرآن ❊ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ومن قبله ﴾ يعنى ومن قبل نزول القرآن وارسال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ كتاب موسى ﴾ يعنى التوراة ﴿ اماما ورحمة ﴾ يعنى انه كان اماما لهم يرجعون اليه فى أمور الدين والاحكام والشرائع وكونه رحمة لانه الهادى من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة ❊ قوله تعالى ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ يعنى ان الذين وصفهم الله بانهم على بينة من ربهم هم المشار اليهم بقوله أولئك يؤمنون به يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل اراد الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ ومن يكفر به ﴾ يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ من الاحزاب ﴾ يعنى من جميع الكفار وأصحاب الاديان

(ومن قبله) ومن قبل القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة أى ويتلو ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام (اماما) كتابا مؤتما به فى الدين قدوة فيه (ورحمة) ونعمة عظيمة على المنزل اليهم وهما حالان (أولئك) أى من كان على بينة (يؤمنون به) بالقرآن (ومن يكفر به) بالقرآن (من الاحزاب) يعنى أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(ومن قبله) من قبل القرآن (كتاب موسى) توراة موسى قرأ عليه جبريل (اماما) يقتدى به (ورحمة) لمن آمن به (أولئك) من آمن بكتاب موسى (يؤمنون به) بمحمد عليه السلام والقرآن وهو عبد الله بن سلام وأصحابه (ومن يكفر به) بمحمد عليه السلام والقرآن (من الاحزاب) من جميع الكفار

(المختلفة)

الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ فالنار موعده ﴾ يردها لامحالة ﴿ فلاتك فى مرية منه ﴾ من الموعد أو القرآن * وقرئ مرية بالضم وهما الشك ﴿ انه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لايؤمنون ﴾ لقلة نظرهم واختلاف فكرهم ﴿ ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ كأن اسند اليه مالم ينزله أونفى عنه ما انزله ﴿ اولئك يعرضون على ربهم ﴾ فى الموقف بان يحبسوا وتعرض اعمالهم ﴿ ويقول الاشهاد ﴾ من الملائكة والنبيين أومن جوارحهم وهو جمع شاهد كاصحاب أو شهيد كاشراف جمع شريف ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ تهويل عظيم مما يحيق بهم

المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاوثان وغيرهم والاحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الانبياء ﴿ فالنار موعده ﴾ يعنى فى الآخرة * روى البغوى بسنده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الامة ولا يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار قال سعيد بن جبير مابلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه الا وجدت مصداقه فى كتاب الله عز وجل حتى بلغنى هذا الحديث لايسمع بى أحد من هذه الامة الحديث قال سعيد فقلت أين هذا فى كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية ومن قبله كتاب موسى الى قوله سبحانه وتعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال فالاحزاب أهل الملل كلها * ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ فلاتك فى مرية منه انه الحق من ربك ﴾ فيه قولان أحدهما ان معناه فلاتك فى شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقا بما قبله من قوله تعالى أم يقولون افتراه والقول الثانى أنه راجع الى قوله ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده يعنى فلاتك فى شك من ان النار موعد من كفر من الاحزاب والخطاب فى قوله فلا تك فى مرية للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لايؤمنون ﴾ يعنى لايصدقون بما أوحينا اليك أومن ان موعد الكفار النار * قوله عز وجل ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ يعنى أى الناس أشد تعديا ممن اختلق على الله كذبا فيكذب عليه وزعم ان له شريكا أوولدا وفى الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم أنواع الظلم لان قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ورد فى معرض المبالغه ﴿ أولئك ﴾ يعنى المفترين على الله الكذب ﴿ يعرضون على ربهم ﴾ يعنى يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم فى الدنيا ﴿ ويقول الاشهاد ﴾ يعنى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم قاله مجاهد وقال ابن عباس هم الانبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة الاشهاد الخلق كلهم ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ يعنى فى الدنيا وهذه الفضيحة تكون فى الآخرة لكل من كذب على الله ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ يعنى يقول الله

(فالنار موعده) مصيره ومورده (فلاتك فى مرية) شك (منه) من القرآن أو من الموعد (انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم) يحبسون فى الموقف وتعرض أعمالهم (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) ويشهد عليهم الاشهاد من الملائكة والنبيين بانهم الكذابون على الله بانه اتخذ ولدا وشريكا (ألا لعنة الله على الظالمين) الكاذبين على ربهم والاشهاد جمع شاهد كاصحاب وصاحب أو شهيد كشريف وأشراف

(فالنار موعده) مصيره (فلاتك) يامحمد (فى مرية) فى شك (منه) من مصير من كفر بالقرآن (انه الحق من ربك) أن مصير من كفر بالقرآن النار ويقال فلاتك فى مرية فى شك منه من القرآن انه الحق من ربك نزل به جبريل (ولكن أكثر الناس) اهل مكة (لايؤمنون ومن أظلم) أعتى وأجرأ (ممن افترى) اختلق (على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم) يساقون الى ربهم (ويقول الاشهاد) الملائكة والانبياء (هؤلاء) الكفار (الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله) عذاب الله (على الظالمين)

(الذين يصدون عن سبيل الله) يصرفون الناس عن دينه (ويبغونها عوجا) يصفونها بالاعوجاج وهى مستقيمة أويبغون أهلهاان يعوجوا بالارتداد (وهم بالآخرة هم كافرون) هم الثانية التأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به (أولئك لم يكونوا) أى ما كانوا (معجزين فى الارض) معجزين الله فى الدنيا أن يعاقبهم لوأراد عقابهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ولكنه أراد انظارهم و تأخير عقابهم الى هذا اليوم وهو من كلام الاشهاد (يضاعف لهم العذاب) لانهم أضلوا الناس عن دين الله يضعف مكى وشامى (ما كانوا يستطيعون السمع) أى استماع الحق (وما كانوا يبصرون) الحق

حينئذ لظلمهم بالكذب على الله ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ عن دينه ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ ويصفونها بالانحراف عن الحق والصواب أويبغون اهلهاان يعوجوا بالردة ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ والحال انهم كافرون بالآخرة وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به ﴿ اولئك لم يكونوا معجزين فى الارض ﴾ أى ما كانوا معجزين الله ان يعاقبهم فى الدنيا ﴿ وما كان لهم من دون الله من اولياء ﴾ يمنعونهم من العقاب ولكنه اخر عقابهم الى هذا اليوم ليكون اشد وأدوم ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ استئناف *وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعف بالتشديد ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ لتصامهم عن الحق وبغضهم له ﴿ وما كانوا يبصرون ﴾ لتعاميهم عن آيات الله وكأنه العلة فى مضاعفة العذاب وقيل هو بيان لمانفاه من ولاية الآلهة بقوله وما كان لهم من دون الله من اولياء فان مالايسمع ولايبصر لايصلح للولاية وقوله يضاعف لهم العذاب

ذلك يوم القيامة فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق) عن صفوان بن محرز المازنى قال بينما ابن عمر يطوف بالبيت اذعرض له رجل فقال ياأبا عبدالرحمن أخبرنى ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدنو المؤمن من ربه عزوجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا كذا فيقول اعرف رب اعرف مرتين فيقول سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته * وفى رواية ثم تطوى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول الاشهاد *وفى رواية فينادى بهم على رؤس الاشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين * قوله سبحانه وتعالى ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ هذه الآية متصلة بما قبلها والمعنى ألا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن سبيل الله يعنى يمنعون الناس من الدخول فى دين الله الذى هو دين الاسلام ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ يعنى ويطلبون القاء الشبهات فى قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الاسلام ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ يعنى وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون البعث بعد الموت وينكرونه ﴿ أولئك ﴾ يعنى من هذه صفتهم ﴿ لم يكونوا معجزين فى الارض ﴾ قال ابن عباس يعنى سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين فى الارض والمعنى انهم لايعجزون الله اذا أرادهم بالعذاب والانتقام منهم ولكنهم فى قبضته وملكه لايقدرون على الامتناع منه اذا طلبهم ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ يعنى وما كان لهؤلاء المشركين من أنصار يمنعونهم من دون الله اذا أرادبهم سوأ أوعذابا ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ يعنى فى الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله وانكارهم البعث بعد الموت ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ قال قتادة صموا عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به ولايبصرون خيرا فيأخذون به وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى

المشركين (الذين يصدون) يصرفون (عن سبيل الله) عن دين الله و طاعته (ويبغونها عوجا) يطلبونها زيغا ويقال غيرا (وهم بالآخرة) بالبعث بعد الموت (هم كافرون) جاحدون (اولئك لم يكونوا معجزين فى الارض) بفائتين من عذاب الله (وما كان لهم من دون الله) من عذاب الله (من أولياء) تحفظهم (يضاعف لهم العذاب) يعنى الرؤساء (ما كانوا يستطيعون السمع) الاستماع الى كلام محمد صلى الله عليه وسلم من بغضه ويقال بما كانوا لايستطيعون السمع الاستماع الى كلام محمد السلام (وما كانوا يبصرون) الى محمد عليه السلام من بغضه ويقال وما كانوا يبصرون محمدا صلى الله عليه وسلم

(انه)

(أولئك الذين خسروا أنفسهم) حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله (وضل عنهم) وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو (ما كانوا يفترون) من الآلهة و شفاعتها (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) بالصد والصدود وفى لاجرم أقوال أحدها ان لا رد لكلام سابق أى ليس الامر كما زعموا و معنى جرم كسب وفاعله مضمر وانهم فى الآخرة فى محل النصب و التقدير كسب قولهم خسرانهم فى الآخرة وثانيها أن لاجرم كلمتان ركبتا فصار معناهما حقا وأن فى موضع رفع بانه فاعل لحق أى حق خسرانهم وثالثها ان معناه لا محالة (ان الذى آمنوا وعملوا الصالحات و اخبتوا الى ربهم) واطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهى الارض المطمئنة (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع)

اعتراض ﴿ اولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من الآلهة وشفاعتها أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة ﴿ لاجرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون ﴾ لا احد ابين واكثر خسرانا منهم ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم ﴾ اطمأنوا اليه وخشعوا له من الخبت وهو الارض المطمئنة ﴿ اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ دائمون ﴿ مثل الفريقين ﴾ الكافر والمؤمن ﴿ كالاعمى والاصم والبصير والسميع ﴾ يجوز ان يراد به تشبيه الكافر بالاعمى لتعاميه

انه أحال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا والآخرة اما فى الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهى طاعته وما كانوا يبصرون وأما فى الآخرة فانه قال لا يستطيعون خاشعة أبصارهم ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ يعنى ان هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ يعنى وبطل كذبهم وافكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم ان الملائكة والاصنام تشفع لهم ﴿ لاجرم ﴾ يعنى حقا وقال الفراء لا محالة ﴿ انهم فى الآخرة هم الاخسرون ﴾ لانهم باعوا منازلهم فى الجنة واشتروا عوضها منازل فى النار و هذا هو الخسران المبين * قوله عز وجل ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم ﴾ لما ذكر الله عز وجل أحوال الكفار فى الدنيا وخسرانهم فى الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين فى الدنيا وربحهم فى الآخرة والاخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام فاذا قلت أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا اشارة الى أعمال القلوب وهى الخضوع والخشوع لله عز وجل يعنى ان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع فى الآخرة الا بحصول أعمال القلب وهى الخشوع والخضوع فاذا فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام انهم يأتون بالاعمال الصالحة مطمئنين الى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الاعمال أو يكونون مطمئنين الى ذكره سبحانه و تعالى واذا فسرنا الاخبات بالخشوع والخضوع كان معناه انهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع ﴿ اولئك ﴾ يعنى الذين هذه صفتهم ﴿ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أخبر عن حالهم فى الآخرة بانهم من اهل الجنة التى لا انقطاع لنعيمها ولا زوال * قوله سبحانه وتعالى ﴿ مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى

من بغضه (أولئك) الرساء هم (الذين خسروا أنفسهم) غبنوا أنفسهم وأهاليهم ومنازلهم وخدمهم فى الجنة وورثه غيرهم من المؤمنين (وضل عنهم) بطل واشتغل عنهم بانفسهم (ما كانوا يفترون) يعبدون من دون الله بالكذب (لاجرم) حقا (أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) المغبونون بذهاب الجنة وما فيها (ان الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم (واخبتوا الى ربهم) اخلصوا الى ربهم وخضعوا الى ربهم وخشعوا لامر ربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) مقيمون (مثل الفريقين) الكافر والمؤمن (كالاعمى والاصم) يقول مثل الكافر كالاعمى لا يبصر الحق والهدى وكالاصم لا يسمع الحق والهدى (والبصير والسميع)

شبه فريق الكافرين بالاعمى والاصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع (هل يستويان) يعنى الفريقين (مثلا) تشبيها وهو نصب على التمييز (أفلا تذكرون) فتنتفعون بضرب المثل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين) أى بانى والمعنى أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كان والمعنى على الكسر وبكسر الالف شامى ونافع وعاصم وحمزه على ارادة القول (أن لا تعبدوا الا الله) أن مفسرة متعلقة بارسلنا أو بنذير (أنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وصف اليوم بأليم من الاسناد المجازى لوقوع الالم فيه (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يريد الاشراف لانهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة (ما نراك الا بشرا مثلنا) أرادوا انه كان ينبغى أن يكون ملكا

عن آيات الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لان امره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما والعاطف لعطف الصفة على الصفة كقوله

الصابح فالغانم فالآيب

وهذا من باب اللف والطباق ﴿هل يستويان﴾ هل يستوى الفريقان ﴿مثلا﴾ أى تمثيلا أو صفة أو حالا ﴿أفلا تذكرون﴾ بضرب الامثال والتأمل فيها ﴿ولقد ارسلنا نوحا الى قومه انى لكم﴾ بانى لكم * وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالكسر على ارادة القول ﴿نذير مبين﴾ ابين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص ﴿ان لا تعبدوا الا الله﴾ بدل من انى لكم أو مفعول مبين ويجوز ان تكون ان مفسرة متعلقة بارسلنا أو بنذير ﴿أنى اخاف عليكم عذاب يوم اليم﴾ مؤلم وهو فى الحقيقة صفة المعذب لكن وصف به العذاب وزمانه على طريق جد جده ونهاره صائم للمبالغة ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا﴾

أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين و ما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ضرب لهم مثلا فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالاعمى وهو الذى لا يهتدى لرشده والاصم وهو الذى لا يسمع شيأ ألبتة والبصير وهو الذى يبصر الاشياء على ماهيتها والسميع وهو الذى يسمع الاصوات ويجيب الداعى فمثل المؤمنين كمثل الذى يسمع و يبصر وهو الكامل فى نفسه ومثل الكافر كمثل الذى لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص فى نفسه ﴿هل يستويان مثلا﴾ قال الفراء لم يقل هل يستوون لان الاعمى والاصم فى حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع فى حيز كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن ﴿أفلا تذكرون﴾ يعنى فتتعظون * قوله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين﴾ يعنى أن نوحا عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله اليهم انى لكم ايها القوم نذير مبين يعنى بين النذارة أخوف بالعقاب من خالف أمر الله وعبد غيره وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم اليم﴾ يعنى مؤلم موجع قال ابن عباس بعث نوح بعد اربعين سنة و لبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ يعنى الاشراف والرؤساء من قوم نوح ﴿ما نراك﴾ يا نوح ﴿الا بشرا مثلنا﴾ يعنى

يقول ومثل المؤمن كمثل البصير يبصر الحق والهدى وكالسميع يسمع الحق والهدى (هل يستويان مثلا) فى المثل يقول هل يستوى الكافر مع المؤمن فى الطاعة والثواب (أفلا تذكرون) أفلا تتعظون بامثال القرآن فتؤمنوا (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) فلما جاءهم قال لهم (انى لكم) من الله (نذير) رسول مخوف (مبين) بلغة تعلمونها (أن لا تعبدوا) ان لا توحدوا (الا الله انى أخاف عليكم) اعلم بان يكون عليكم ان لم تؤمنوا (عذاب يوم أليم) وجيع وهو الغرق (فقال الملأ) الرؤساء (الذين كفروا من قومه) من قوم نوح (ما نراك) يا نوح (الا بشرا) آدميا (مثلنا) آدميا

لامزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة ﴿ وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا ﴾
اخساؤنا جمع ارذل فانه بالغلبة صار مثل الاسم كالاكبر أو ارذل جمع رذل ﴿ بادى الرأى ﴾ ظاهر
الرأى من غير تعمق من البدو أو اول الرأى من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها
* وقرأ ابو عمرو بالهمزة وانتصابه بالظرف على حذف المضاف أى وقت حدوث بادئ الرأى
والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا ظاهرا من الحياة الدنيا
كان الاحظ بها اشرف عندهم والمحروم منها ارذل ﴿ وما نرى لكم ﴾ لك ولمتبعيك
﴿ علينا من فضل ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ اياك
فى دعوى النبوة واياهم فى دعوى العلم بصدقك فغلب المخاطب على الغائبين ﴿ قال ياقوم
أرأيتم ﴾ اخبرونى ﴿ ان كنت على بينة من ربى ﴾ حجة شاهدة بصحة دعواى ﴿ وآتانى
رحمة من عنده ﴾ بايتاء البينة أو النبوة ﴿ فعميت عليكم ﴾ فخفيت عليكم فلم تهدكم

آدميا مثلنا لافضل لك علينا لان التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع اشتهاره الى
حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وانما قالوا هذه المقالة
وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان من حق الرسول أن يباشر الامة بالدعوة الى
الله تعالى باقامة الدليل والبرهان على ذلك ويظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يتأتى
ذلك الا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله الى
عباده * ثم قال سبحانه وتعالى اخبارا عن قوم نوح ﴿ وما نراك اتبعك الا الذين هم
أراذلنا ﴾ يعنى سفلتنا والرذل الدون من كل شئ قيل هم الحاكة والاساكفة وأصحاب
الصنائع الخسيسة وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة فى الدين ومتابعة
الرسول لاتكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم اتباع
الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم اذا حسنت سيرتهم فى الدين ﴿ بادى الرأى ﴾ يعنى
يعنى انهم اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك
وقيل معناه ظاهر الرأى يعنى انهم اتبعوك ظاهرا من غير أن يتفكروا باطنا ﴿ وما نرى لكم
علينا من فضل ﴾ يعنى بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضا جهل منهم لان
الفضيلة المعتبرة عند الله بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾
قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون
الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم ﴿ قال ﴾ يعنى نوحا ﴿ ياقوم
أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ﴾ يعنى على بيان ويقين من ربى بالذى
أنذرتكم به ﴿ وآتانى رحمة من عنده ﴾ يعنى هديا ومعرفة ونبوة ﴿ فعميت عليكم ﴾

أوملكا (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أخساؤنا جمع الارذل (بادى) وبالهمزة أبو عمرو (الرأى) وبغير همز أبو
عمرو أى اتبعوك ظاهر الرأى أو أول الرأى من بدا يبدو اذا ظهر أو بدأ يبدأ اذا فعل الشئ أولا وانتصابه على الظرف أصله وقت
حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف اليه مقامه أرادوا أن
اتباعهم لك شئ عن لهم
بديهة من غير روية ونظر
ولو تفكروا ما اتبعوك وانما
استرذلوا المؤمنين لفقرهم
وتأخرهم فى الاسباب
الدنيوية لانهم كانوا جهالا
ما كانوا يعلمون الا ظاهرا
من الحياة الدنيا فكان
الاشراف عندهم من له
جاه ومال كما ترى أكثر
المتسمين بالاسلام يعتقدون
ذلك ويبنون عليه اكرامهم
واهانتهم ولقد زل عنهم
أن التقدم فى الدنيا لا يقرب
أحدا من الله وانما يبعده
ولا يرفعه بل يضعه (وما نرى
لكم علينا من فضل) فى
مال ورأى عنوا نوحا
وأتباعه (بل نظنكم كاذبين)
أى نوحا فى الدعوة ومتبعيه
فى الاجابة والتصديق يعنى
تواطأتم على الدعوة والاجابة
تسبيبا للرياسة (قال ياقوم
أرأيتم) أخبرونى (ان
كنت على بينة) برهان
(من ربى) وشاهد منه يشهد
بصحة دعواى (وآتانى
رحمة من عنده) يعنى
النبوة (فعميت عليكم) أى

ومانراك اتبعك) آمن بك
(الا الذين هم أراذلنا)
سفلتنا وضعفاؤنا (بادى الرأى) ظاهر الرأى الضيف ويقال سوء رأيهم حملهم على ذلك (وما نرى لكم علينا من فضل) بما تقولون
تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب (بل نظنكم كاذبين) بما تقولون (قال) نوح (ياقوم أرأيتم ان كنت) يقول انى (على بينة من ربى)
على بيان نزل من ربى (وآتانى رحمة من عنده) اكرمنى بالنبوة والاسلام (فعميت) التبست وان قرأت فعميت يقول البست (عليكم)

خفيت فعميت حمزة وعلي وحفص أي أخفيت أي فعميت عليكم البينة فلم تهدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد وحقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لان الاعمى لا يهدي ولا يهدي غيره (أنلزمكموها) أي الرحمة (وأنتم لها كارهون) لا تريدونها والواو دخلت هنا تتمة للميم وعن أبي عمرو اسكان الميم ووجهه ان الحركة لم تكن الا خلسة خفيفة فظنها الراوي سكونا وهو لحن لان الحركة الاعرابية لا يسوغ طرحها الا في ضرورة الشعر (ويا قوم لا أسئلكم عليه) على تبليغ الرسالة لانه مدلول قوله اني لكم نذير (مالا) أجرا يثقل عليكم ان أديتم أو على ان أبيتم (ان أجري) مدني وشامي وأبو عمرو وحفص (الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معه (انهم ملاقوا ربهم) فيشكونني اليه ان طردتهم (ولكني أراكم قوما تجهلون) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل أو تجهلون لقاء ربكم أو انهم خير منكم (ويا قوم من ينصرني من الله) من يمنعني من انتقامه (ان طردتهم أفلا تذكرون) تتعظون (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) فادعي فضلا عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل

نبوتي وديني (انلزمكموها) انلهمكموها ونعرفكموها (وأنتم لها كارهون) جاحدون (ويا قوم لا أسئلكم عليه) على التوحيد (مالا) جعلا (ان أجري) ما ثوابي (الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) بقولكم (انهم ملاقوا) معاينو (ربهم) فيخاصمونني عنده (ولكني أراكم قوما تجهلون) أمر الله (ويا قوم من ينصرني) من يمنعني (من الله) من عذاب الله (ان طردتهم) بقولكم (أفلا تذكرون) أفلا تتعظون بما أقول لكم فتؤمنوا (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) مفاتيح خزائن الله

وتوحيد الضمير لان البينة في نفسها هي الرحمة أو لان خفاءها يوجب خفاء النبوة أو على تقدير فعميت بعد البينة وحذفها للاختصار أو لانه لكل واحدة منهما * وقرأ حمزة والكسائي وحفص فعميت اي اخفيت وقرئ فعماها على ان الفعل لله ﴿ أنلزمكموها ﴾ أنلزمكم على الاهتداء بها ﴿ وانتم لها كارهون ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها وحيث اجتمع ضميران وليس احدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز في الثاني الفصل والوصل ﴿ ويا قوم لا اسألكم عليه ﴾ على التبليغ وهو وان لم يذكر فمعلوم مما ذكر ﴿ مالا ﴾ جعلا ﴿ ان اجري الا على الله ﴾ فانه المأمول منه ﴿ وما انا بطارد الذين آمنوا ﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم ﴿ انهم ملاقوا ربهم ﴾ فيخاصمون طاردهم عنده أو انهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف اطردهم ﴿ ولكني اراكم قوما تجهلون ﴾ بلقاء ربكم أو باقدارهم أو في التماس طردهم أو تتسفهون عليهم بان تدعوهم اراذل ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله ﴾ يدفع انتقامه ﴿ ان طردتهم ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة ﴿ أفلا تذكرون ﴾ لتعرفوا ان التماس طردهم وتوقيف الايمان عليه ليس بصواب ﴿ ولا اقول لكم عندي خزائن الله ﴾ خزائن رزقه وامواله حتى جحدتم

يعني خفيت وألبست عليكم ﴿ أنلزمكموها ﴾ الهاء عائدة على الرحمة والمعنى أنلزمكم أيها القوم قبول الرحمة يعني انا لا نقدر أن نلزمكم ذلك من عند أنفسنا ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ وهذا استفهام معناه الانكار أي لا أقدر على ذلك والذي أقدر عليه أن أدعوكم الى الله وليس لي أن أضطركم الى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبي الله لالزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ﴾ يعني لا أسألكم ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا ﴿ ان أجري الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ وذلك انهم طلبوا من نوح أن يطرد الذين آمنوا وهم الارذلون في زعمهم فقال ما يجوز لي ذلك لانهم يعتقدون ﴿ انهم ملاقوا ربهم ﴾ فلا أطردهم ﴿ ولكني أراكم قوما تجهلون ﴾ يعني عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه انكم تجهلون ان هؤلاء المؤمنين خير منكم ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم ﴾ يعني من يمنعني من عذاب الله ان طردتهم عني لانهم مؤمنون مخلصون ﴿ أفلا تذكرون ﴾ يعني فتتعظون ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ هذا عطف على قوله لا أسئلكم عليه مالا والمعنى لا أسألكم عليه مالا ولا أقول لكم عندي خزائن

فضلى ﴿ ولا اعلم الغيب ﴾ عطف على عندى خزائن الله أى ولا اقول لكم انا اعلم الغيب حتى تكذبونى استبعادا أو حتى اعلم ان هؤلاء اتبعونى بادى الرأى من غير بصيرة ولا عقد قلب وعلى الثانى يجوز عطفه على اقول ﴿ ولا اقول انى ملك ﴾ حتى تقولوا ما انت الا بشر مثلنا ﴿ ولا اقول للذين تزدرى اعينكم ﴾ ولا اقول فى شأن من استرذلتموهم لفقرهم ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا ﴾ فان ما اعد الله لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا ﴿ الله اعلم بما فى انفسهم انى اذا لمن الظالمين ﴾ ان قلت شيأ من ذلك والازدراء به افتعال من زرى عليه اذا عابه قلبت تاؤه دالا لتجانس الزاء فى الجهر واسناده الى الاعين للمبالغة والتنبيه على انهم استرذلوهم بادئ الرؤية من غير روية وبما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة منالهم دون تأمل فى معانيهم

الله يعنى التى لا يفنيها شئ فادعوكم الى اتباعى عليها لأعطيكم منها وقال ابن الانبارى الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطوع عن الخلق وانما وجب أن يكون هذا جوابا من نوح عليه السلام لهم لانهم قالوا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وادعوا أن المؤمنين انما اتبعوه فى ظاهر ما يرى منهم وهم فى الحقيقة غير متبعين له فقال مجيبا لهم ولا أقول لكم عندى خزائن الله التى لا يعلم منها ما ينطوى عليه عباده وما يظهرونه الا هو وانما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس واستتارها عنهم والقول الاول أولى ليحصل الفرق بين قوله ولا أقول لكم عندى خزائن الله وبين قوله ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ يعنى ولا أدعى علم ما يغيب عنى مما يسرونه فى نفوسهم فسبيلى قبول ايمانهم فى الظاهر ولا يعلم ما فى ضمائرهم الا الله ﴿ ولا أقول انى ملك ﴾ وهذا جواب لقولهم ما نراك الا بشرا مثلنا أى لا أدعى انى من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم الى الله وأبلغكم ما أرسلت به اليكم

فصل

استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء قال لان نوحا عليه الصلاة والسلام قال ولا أقول انى ملك لان الانسان اذا قال أنا لا أدعى كذا وكذا لا يحسن الا اذا كان ذلك الشئ أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب ان نوحا عليه السلام انما قال هذه المقالة فى مقابلة قولهم ما نراك الا بشرا مثلنا لما كان فى ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر انما يكونون من الملائكة فاعلمهم ان هذا ظن باطل وان الرسل الى البشر انما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى ولا أقول انى ملك ولم يرد ان درجة الملائكة أفضل من درجة الانبياء والله أعلم ✽ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم ﴾ يعنى تحتقر وتستصغر أعينكم يعنى المؤمنين وذلك لما قالوا أنهم أراذلنا من الرذالة وهى الخسة ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا ﴾ يعنى توفيقا وهداية وايمانا وأجرا ﴿ الله أعلم بما فى أنفسهم ﴾ يعنى من الخير والشر ﴿ انى اذا لمن الظالمين ﴾ يعنى ان طردتهم مكذبا لظاهرهم ومبطلا لايمانهم يعنى أنى ان فعلت هذا فاكون قد ظلمتهم وأنا لا أفعله فما أنا من الظالمين

فضل (ولا أعلم الغيب) حتى أطلع على مافى نفوس أتباعى وضمائر قلوبهم وهو معطوف على عندى خزائن أى لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب (ولا أقول انى ملك) حتى تقولوا لى ما أنت الا بشرى مثلنا (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فى الدنيا والآخرة لهوانهم عليه مساعدة لكم ونزولا على هواكم (الله أعلم بما فى أنفسهم) من صدق الاعتقاد وانما على قبول ظاهر اقرارهم اذ لا أطلع على خفى أسرارهم (انى اذا لمن الظالمين) ان قلت شيأ من ذلك والازدراء افتعال من ذرى عليه اذا عابه وأصله تزترى

فى الرزق (ولا أعلم الغيب) متى نزول العذاب وما غاب عنى (ولا أقول انى ملك) من السماء (ولا أقول للذين تزدرى اعينكم) لا تأخذهم أعينكم يقول يحتقرون فى أعينكم (لن يؤتيهم الله خيرا) لن يكرمهم الله بتصديق الايمان (الله اعلم بما فى أنفسهم) بما فى قلوبهم من التصديق (انى اذا) ان طردتهم (لمن الظالمين) الضارين بنفسى.

فابدلت التاء دالا (قالوا يانوح قد جادلتنا)خاصمتنا(فاكثرت جدالنافأتنا بماتعدنا) من العذاب(ان كنت من الصادقين)
فى وعيدك (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) أى ليس الاتيان بالعذاب الى انما هو الى من كفرتم به (وما أنتم بمعجزين)
أى لم تقدروا على الهرب منه (ولاينفعكم نصحى)هو اعلام موضع الغى ليتقى والرشد ليقتفى ولكنى انى نصحى مدنى
وأبو عمرو(ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم)أى يضلكم وهذا شرط دخل على شرط فيكون الثانى مقدما
فى الحكم لما عرف تقديره ان كان الله يريد أن يغويكم لاينفعكم نصحى أن أردت
أن أنصح لكم وهو دليل بين لنا فى ارادة المعاصى (هو ربكم) فيتصرف فيكم على قضية ارادته (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم (أم يقولون افتراه) بل أيقولون افتراه (قل ان افتريته فعلى اجرامى) أى ان صح أنى افتريته فعلى عقوبة اجرامى أى افترائى يقال أجرم الرجل اذا أذنب (وأنا برىء) أى ولم يثبت ذلك وأنا برىء منه ومعنى (مما تجرمون)

(قالوا يانوح قد جادلتنا) خاصمتنا ودعوتنا الى دين غير دين آبائنا (فأكثرت جدالنا) خصومتنا ودعاءنا (فأتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من الصادقين) انه يأتينا (قال) نوح (انما يأتيكم به الله) يقول يأتيكم الله بعذابكم (ان شاء) فيعذبكم (وما أنتم بمعجزين) بفائتين من عذاب الله (ولا ينفعكم نصحى) دعائى وتحذيرى اياكم من عذاب الله(ان أردت ان أنصح لكم)أحذركم من عذاب الله (على)
وأدعوكم الى التوحيد (ان كان الله) قد كان الله (يريد أن يغويكم) ان يضلكم عن الهدى (هو ربكم) أولى بكم منى (واليه
ترجعون) بعد الموت فيجزيكم باعمالكم (أم يقولون) بل يقولون قوم نوح (افتراه) اختلق نوح بما أتانا به من تلقاء نفسه
(قل) لهم يانوح (ان افتريته) اختلقته من تلقاء نفسى (فعلى اجرامى) آثامى (وأنا برىء مما تجرمون) تأثمون ويقال

وكما اتهم ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا ﴾ خاصمتنا ﴿ فاكثرت جدالنا ﴾ فاطلته أو اتيت بانواعه ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ﴿ ان كنت من الصادقين ﴾ فى الدعوى والوعيد فان مناظرتك لاتؤثر فينا ﴿ قال انما يأتيكم به الله ان شاء ﴾ عاجلا أو آجلا ﴿ وما انتم بمعجزين ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه ﴿ ولاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ﴾ شرط ودليل جواب والجملة دليل جواب قوله ﴿ ان كان الله يريدان يغويكم ﴾ وتقدير الكلام ان كان الله يريدان يغويكم فان اردت ان انصح لكم لاينفعكم نصحى ولذلك تقول لوقال الرجل انت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق وهو جواب لما اوهموا من ان جداله كلام بلاطائل وهو دليل على ان ارادة الله يصح تعلقها بالاغواء وان خلاف مراده محال وقيل ان يغويكم ان يهلككم من غوى الفصل غوى اذا بشم فهلك ﴿ هو ربكم ﴾ خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته ﴿ واليه ترجعون ﴾ فيجازيكم على اعمالكم ﴿ أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى اجرامى ﴾ وباله وقرئ اجرامى على الجمع ﴿ وانا برىء مما تجرمون ﴾ من اجرامكم فى اسناد

﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا ﴾ يعنى خاصمتنا ﴿ فاكثرت جدالنا ﴾ يعنى خصومتنا ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ يعنى من العذاب ﴿ ان كنت من الصادقين ﴾ يعنى فى دعواك انك رسول من الله الينا ﴿ قال انما يأتيكم به الله ان شاء ﴾ يعنى قال نوح لقومه حين استعجلوه بانزال العذاب ان ذلك ليس الى انما هو الى الله ينزل متى شاء وعلى من يشاء ان أراد انزال العذاب بكم ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ يعنى وما أنتم بفائتين ان أراد الله نزول العذاب بكم ﴿ ولاينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ﴾ يعنى ولاينفعكم انذارى وتحذيرى اياكم عقوبته ونزول العذاب بكم ﴿ ان كان الله يريد أن يغويكم ﴾ يعنى يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لان الاغواء يؤدى الى الهلاك ﴿ هو ربكم ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه ﴿ واليه ترجعون ﴾ يعنى فى الآخرة فيجازيكم باعمالكم ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أى اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود الى الوحى الذى جاءهم به ﴿ قل ان افتريته ﴾ أى اختلقته ﴿ فعلى اجرامى ﴾ أى اثم اجرامى والاجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وأجرم بمعنى أنه اكتسب الذنب وافتعله ﴿ وأنا برىء مما تجرمون ﴾ يعنى من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين

من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلاوجه لاعراضكم ومعاداتكم (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن) اقناط من ايمانهم وانه غير متوقع وفيه دليل على أن الايمان حكم التجدد كأنه قال ان الذى آمن يؤمن فى حادث الوقت وعلى ذلك تخرج

فى الايمان بالقرآن (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) فلا تحزن حزن بائس مستكين والابتآس افتعال من البؤس وهو الحزن والفقر والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وايذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك (واصنع الفلك باعيننا) هو فى موضع الحال أى اصنعها محفوظا وحقيقته ملتبسا باعيننا كان لله معه أعينا تكلؤه من أن يزيغ فى صنعته عن الصواب (ووحينا) وانا نوحى اليك ونلهمك كيف تصنع عن ابن عباس رضى الله عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فاوحى الله اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) ولا تدعنى فى شأن قومك واستدفاع العذاب منهم بشفاعتك (انهم مغرقون) محكوم عليهم بالاغراق وقد قضى به وجف القلم

الافتراء الى ﴿ واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ اقنطه الله تعالى من ايمانهم ونهاه ان يغتم بما فعلوه من التكذيب والايذاء ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ ملتبسا باعيننا عبر بكثرة آلة الحس الذى يحفظ به الشئ ويراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة فى الحفظ والرعاية على طريقة التمثيل ﴿ ووحينا ﴾ اليك كيف تصنعها ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ﴾ ولا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم ﴿ انهم مغرقون ﴾ محكوم عليهم بالاغراق فلا سبيل الى كفه

على أن هذا من محاورة نوح قومه فهى من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل أم يقولون يعنى المشركين من كفار مكة افتراه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة فى قصة نوح ﴿ ثم رجع الى القصة فقال سبحانه وتعالى ﴿ وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن ﴾ قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون انه قدمات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله ويروى ان شيخا منهم جاء متكئا على عصاه ومعه ابنه فقال يابنى لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال ياأبت أمكنى من العصا فاخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فاوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ﴿ فلا تبتئس ﴾ يعنى فلا تحزن عليهم فانى مهلكهم ﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ يعنى بسبب كفرهم وأفعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبد الله بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبسطون نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتى قرن الا كان أنحس من الذى قبله ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكا نوح الى الله عز وجل فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات حتى بلغ رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فاوحى الله سبحانه وتعالى اليه ﴿ واصنع الفلك ﴾ يعنى السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع ﴿ باعيننا ﴾ قال ابن عباس بمرأى منا وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا ﴿ ووحينا ﴾ يعنى بامرنا ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا أنهم مغرقون ﴾ يعنى بالطوفان والمعنى ولا تخاطبنى فى امهال الكفار فانى قد حكمت باغراقهم وقيل ولا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك واعلة فانهما هالكان مع القوم وقيل ان جبريل أتى نوحا فقال له ان ربك يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجارا

نزلت هذه الآية فى محمد صلى الله عليه وسلم (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الامن) سوى من

(قد آمن فلا تبتئس) فلا تحزن بهلاكهم (بما كانوا (قا و خا ٤١ لث) يفعلون) فى كفرهم (واصنع الفلك) خذ فى علاج السفينة (بأعيننا) بنظر منا (ووحينا) بأمرنا (ولا تخاطبنى) لا تراجعنى (فى الذين ظلموا) فى نجاة الذين كفروا (انهم مغرقون) بالطوفان

فلاسبيل الى كفه (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) من عمله السفينة وكان يعملها في برية في أبعد موضع من الماء فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له يانوح صرت نجارا بعد ما كنت نبيا (قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم) عند رؤية الهلاك (كما تسخرون) منا عند رؤية الفلك روى ان نوحا عليه السلام اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين وكان طولها ثلاثمائة ذراع أو ألفا ومائتي ذراع وعرضها خمسون ذراعا أو ثمانمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وركب نوح ومن معه في البطن الاعلى مع مايحتاج اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله حاجزا

(ويصنع الفلك) أخذ في علاج السفينة (وكلما مر عليه ملأ) رؤساء (من قومه سخروا منه) هزؤا به بمعالجته السفينة (قال ان تسخروا منا) اليوم (فانا نسخر منكم) بعد اليوم (كما تسخرون) اليوم منا

﴿ ويصنع الفلك ﴾ حكاية حال ماضية ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ استهزؤا به لعمله السفينة فانه كان يعملها في برية بعيدة من الماء أوان عزته فكانوا يضحكون منه ويقولون له صرت نجارا بعد ما كنت نبيا ﴿ قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ اذا اخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة وقيل المراد بالسخرية الاستجهال

فقال ان ربك يقول اصنع فلك باعيننا فاخذ القدوم وجعل ينجر ولايخطئ فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويصنع الفلك ﴾ يعني كما أمره الله سبحانه وتعالى قال أهل السير لما أمر الله سبحانه وتعالى نوحا بعمل السفينة أقبل على عملها والها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ القار وكل مايحتاج اليه في عمل الفلك وجعل قومه يمرون به وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يانوح قد صرت نجارا بعد النبوة وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد * قال البغوي وزعم أهل التوراة ان الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وان يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا وطوله في السماء ثلاثين ذراعا والذراع الى المنكب وان يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعليا وأن يجعل فيه كوى فصنعه نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس رضي الله عنهما اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وطولها في السماء ثلاثين ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وركب هو ومن معه في البطن الاعلى وجعل معه مايحتاج اليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها في عرضها وروى عن الحسن انه كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الاول أشهر وهو ان طولها ثلاثمائة ذراع وقال زيد بن أسلم مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك وقال كعب الاحبار عمل نوح عليه السلام السفينة في ثلاثين سنة وروى انها ثلاثة أطباق الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للانس والطبقة العليا للطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى الى نوح عليه السلام ان اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفأر فاقبلوا على الروث فاكلوه فلما افسد الفأر في السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى اليه أن اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهي القطة والقط فاقبلا على الفأر فاكلاه * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه ﴾ أي جماعة من قومه ﴿ سخروا منه ﴾ يعني استهزؤا به وذلك انهم قالوا ان هذا الذي كان يزعم انه نبي قد صار نجارا وقيل قالوا يانوح ماذا تصنع قال أصنع بيتا يمشي على الماء فضحكوا منه ﴿ قال ﴾ يعني نوحا لقومه ﴿ ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ يعني ان تستجهلونا في صنعنا فانا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه * فان قلت السخرية لاتليق بمنصب

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ يعنى به اياهم وبالعذاب الغرق ﴿ ويحل عليه ﴾ وينزل أو يحل عليه حلول الدين الذى لا انفكاك عنه ﴿ عذاب مقيم ﴾ دائم وهو عذاب النار ﴿ حتى اذا جاء امرنا ﴾ غاية لقوله ويصنع الفلك ومابينهما حال من الضمير فيه أو حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام ﴿ وفار التنور ﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور والتنور تنور الخبز ابتدئ منه النبوع على خرق العادة وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها أو فى الهند أو بعين وردة من ارض الجزيرة وقيل

النبوة فكيف قال نوح عليه السلام ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون * قلت انما سمى هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج فى مشاكلة الكلام كما فى قوله سبحانه وتعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى انا نرى غب سخريتكم بنا اذا نزل بكم العذاب وهو قوله تعالى ﴿ فسوف تعلمون ﴾ يعنى فسترون ﴿ من يأتيه ﴾ يعنى ايناياتيه نحن أو أنتم ﴿ عذاب يخزيه ﴾ يعنى يهينه ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ يعنى فى الآخرة فالمراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثانى عذاب الآخرة وهو عذاب النار الذى لا انقطاع له * قوله عز وجل ﴿ حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ يعنى وغلى والفور الغليان وفارت القدر اذا غلت والتنور فارسى معرب لا تعرف له العرب اسما غير هذا فلذلك جاء فى القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل ان لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربى وعجمى وقيل ان لفظ التنور أصله أعجمى فتكلمت به العرب فصار عربيا مثل الديباج ونحوه واختلفوا فى المراد بهذا التنور فقال عكرمة والزهرى هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء قد فار على وجه الارض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الامر العظيم وقال على فار التنور أى طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح بخروج النار من التنور وقال الحسن ومجاهد والشعبى ان التنور هو الذى يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا وهذا القول أصح لان اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة فى اسم الموضع الذى يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه * فان قلت الالف واللام فى لفظ التنور للعهد وليس هنا معهود سابق عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الامر والمعنى اذا رأيت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن معك * قلت لا يبعد أن يكون ذلك التنور معلوما عند نوح عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة وكانت حواء تخبز فيه ثم صار الى نوح وقيل له اذا رأيت الماء يفور من لتنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا فى موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فاخبرته وكان ذلك فى ناحية الكوفة وكان الشعبى يحلف بالله مافار التنور الا من ناحية الكوفة قال الشعبى اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام وقال مقاتل كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروى عن ابن عباس انه كان بالهند

بين الرجال والنساء (فسوف تعلمون من يأتيه) من فى محل نصب بتعلمون أى فسوف تعلمون الذى يأتيه (عذاب يخزيه) ويعنى به اياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) وينزل عليه (عذاب مقيم) وهو عذاب الآخرة (حتى) هى التى يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهى غاية لقوله ويصنع الفلك أى وكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد ومابينهما من الكلام حال من يصنع أى يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه وجواب كلما سخروا وقال استئناف على تقدير سؤال سائل أو قال جواب وسخروا بدل من مر أو صفة لملأ (اذا جاء أمرنا) عذابنا (وفار التنور) هو كناية عن اشتداد الامر وصعوبته وقيل معناه جاش الماء من تنور الخبز وكان من حجر لحواء فصار الى نوح عليه السلام وقيل التنور وجه

(فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) يذله ويهلكه (ويحل عليه) يجب عليه (عذاب مقيم) دائم فى الآخرة (حتى اذا جاء أمرنا) وقت عذابنا (وفار التنور) نبع الماء من التنور ويقال

التنور وجه الارض أواشرف موضع فيها ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ فى السفينة ﴿ من كل ﴾ من كل نوع من الحيوانات المنتفع بهـا ﴿ زوجين اثنين ﴾ ذكرا وانثى هذا على قراءة حفص والباقون اضافوا على معنى احمل اثنين من كل زوجين أى من كل صنف ذكر وصنف انثى ﴿ واهلك ﴾ عطف على زوجين أو اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿ الا من سبق عليه القول ﴾ بانه من المغرقين يريد ابنه كنعان وامه واعلة فانهما كانا كافرين ﴿ ومن آمن ﴾ والمؤمنين من غيرهم ﴿ وما آمن معه الا قليل ﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم * روى انه عليه الصلاة والسلام اتخذ السفينة

قال والفوران الغليان ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ يعنى قلنا لنوح احمل فى السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ الزوجان كل اثنين لا يستغنى احدهما عن الآخر كالذكر والانثى يقال لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكرا وأنثى فحشر الله سبحانه وتعالى اليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه فى كل جنس منها فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيجعلهما فى السفينة ﴿ وأهلك ﴾ أى واحمل أهلك ولدك وعيالك ﴿ الا من سبق عليه القول ﴾ يعنى بالهلاك وأراد به امرأته واعلة وولده كنعان ﴿ ومن آمن ﴾ يعنى واحمل معك من آمن من قومك ﴿ وما آمن معه الا قليل ﴾ اختلفوا فى عدد من حمل نوح معه فى السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظى لم يكن فى السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال الاعمش كانوا سبعة نوح وابنيه وثلاث كنائن له وقال محمد بن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وأزواجهم جميعا وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان فى السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم قال الطبرى والصواب من القول فى ذلك ان يقال كما قال الله عز وجل وما آمن معه الا قليل فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغى ان يجاوز فى ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك فى كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مقاتل حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوحا جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس رضى الله عنهما أول ما حمل نوح الذرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار أدخل صدره فتعلق ابليس بذنبه فلم تنتقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ماذا أدخلك على يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وان كان الشيطان معك قال اخرج عنى يا عدو الله قال لابد من أن تحملنى معك فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة هكذا نقله البغوى

﴿ وقال ﴾

الارض (قلنا احمل فيها) فى السفينة (من كل زوجين اثنين) تفسيره فى سورة المؤمنين (وأهلك الا من سبق عليه القول) عطف على اثنين وكذا (ومن آمن) أى واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم واستثنى من أهله من سبق عليه القول انه من اهل النار وما سبق عليه القول بذلك الا للعلم بانه يختار الكفر بتقديره وارادته جل خالق العباد عن أن يقع فى الكون خلاف ما أراد (وما آمن معه الا قليل) قال عليه السلام كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وقيل كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل كانوا اثنين وسبعين رجالا ونساء وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء

طلع الفجر (قلنا احمل فيها) فى السفينة (من كل زوجين) من كل صنفين (اثنين) ذكر وأنثى (واهلك الا من سبق عليه) وجب عليه (القول) بالعذاب (ومن آمن) معك أيضا احمل معك فى السفينة (وما آمن معه الا قليل) ثمانون انسانا

(وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) بسم الله متصل باركبوا حالا من الواو أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها ووقت ارسائها اما لان المجرى والمرسى للوقت واما لانهما مصدران كالاجراء والارساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم خفوق النجم ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها وهى مبتدأ وخبر يعنى ان نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بان مجراها ومرساها بذكر اسم الله أى بسم الله اجراؤها وارساؤها وكان اذا أراد ان تجرى قال بسم الله فجرت واذا أرد ان ترسو قال بسم الله فرست مجريها بفتح الميم وكسر الراء من جرى اما مصدر أو وقت حمزة وعلى وحفص وبضم الميم وكسر الراء أبو عمرو والباقون بضم الميم وفتح الراء (ان ربى لغفور) لمن آمن منهم (رحيم) حيث خلصهم (وهى تجرى بهم) متصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل فركبوا فيها يقولون بسم الله وهى تجرى بهم أى السفينة تجرى وهم فيها (فى موج كالجبال) يريد موج الطوفان وهو جمع موجة كثمرة وثمرة

فى سنتين من الساج وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسمكها ثلاثين وجعل لها ثلاثة بطون فحمل فى اسفلها الدواب والوحش وفى اوسطها الانس وفى اعلاها الطير ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ أى صيروا فيها وجعل ذلك ركوبا لانها فى الماء كالمركوب فى الارض ﴿ بسم الله مجريها ومرساها ﴾ متصل باركبوا حال من الواو أى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها وارسائها أو مكانهما على ان المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر والمضاف محذوف كقولهم آتيك خفوق النجم وانتصابهما بما قدرناه حالا ويجوز رفعهما بسم الله على ان المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ وخبر أى اجراؤها بسم الله على ان بسم الله خبر أو صلة والخبر محذوف وهى اما جملة مقتضبة لا تعلق لها بما قبلها أو حال مقدرة من الواو أو الهاء * وروى انه كان اذا اراد ان تجرى قال بسم الله فجرت واذا اراد ان ترسو قال بسم الله فرست ويجوز ان يكون الاسم مقحما كقوله

الى الحول ثم اسم السلام عليكما

وقرأ حمزة والكسائى وعاصم برواية حفص مجريها بالفتح من جرى * وقرئ مرسيها ايضا من رسا وكلاهما يحتمل الثلاثة ومجريها ومرسيها بلفظ الفاعل صفتين لله ﴿ ان ربى لغفور رحيم ﴾ أى لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته اياكم لما نجاكم ﴿ وهى تجرى بهم ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا اى فركبوا مسمين وهى تجرى وهم فيها ﴿ فى موج كالجبال ﴾

وقال الامام فخر الدين الرازى وأما الذى يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى فكيف يفر من الغرق وايضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه * قال البغوى وروى عن بعضهم ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح فى العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه فى السفينة الا ما يلد ويبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيأ * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ يعنى وقال نوح لمن حمل معه اركبوا فى السفينة ﴿ بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم ﴾ يعنى بسم الله اجراؤها وارساؤها وقال الضحاك كان نوح اذا أراد أن تجرى السفينة قال بسم الله فتجرى وكان اذا أراد ان ترسو يعنى تقف قال بسم الله فترسو أى تقف وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمرا فلا ينبغى له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سببا للنجاح والفلاح فى سائر الامور ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ الموج ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح شبهه سبحانه وتعالى بالجبال فى عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء

(وقال) لهم (اركبوا فيها) فى السفينة (بسم الله مجريها) حيث تجرى (ومرساها) حيث تحبس وان قرأت مجريها ومرسيها يقول الله مجريها حيث شاء ومرسيها حيث شاء (ان ربى لغفور) متجاوز (رحيم) لمن تاب (وهى تجرى بهم) باهلها (فى موج) فى غمر الماء (كالجبال) كجبل عظيم

وهو مايرتفع من المـاء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة فى خلاله شبه كل موجة منه بالجبل فى تراكمها وارتفاعها (ونادى نوح ابنه) كنعان وقيل يام والجمهور على انه ابنه الصلبي وقيل كان ابن امرأته (وكان فى معزل) عن أبيـه وعن السـفينة مفعل من عزله عنه اذا نحاه وأبعده أو فى معزل عن دين أبيه (يابنى) بفتح الياء عاصم اقتصارا عليه من الالف المبـدلة من ياء الاضافة من قولك يابنيا غيره بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة (اركب معنا) فى السفينة أى اسلم واركب (ولاتكن مع الكافرين قال سـآوى) ألجأ (الى جبل يعصمنى من الماء) يمنعنى من الغرق (قال لاعاصم اليـوم من أمر الله الامن رحم) الا الراحم وهو الله تعـالى أو لاعاصم اليوم من الطوفان الامن رحم الله أى الامكان من رحم الله من المؤمنين وذلك انه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له لايعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعنى السفينة أو هو استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو

فى موج من الطـوفان وهو مايرتفع من الماء عنـد اضطرابه كل موجة منها كجبـل فى تراكمها وارتفاعها وماقيل من ان الماء طبق مابين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه ليس بثابت والمشهور انه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا وان صح فلعل ذلك قبل التطبيق ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ كنعان * وقرئ ابنهـا وابنه بحذف الالف على ان الضمير لامرأته وكان ربيبه وقيل كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما وهو خطأ اذ الانبياء عليهم السـلام عصمت من ذلك والمراد بالخيانة الخيـانة فى الدين * وقرئ ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف الحرف ﴿ وكان فى معزل ﴾ عزل فيه نفسه عن ابيه أو عن دينه مفعل للمكان من عزله عنه اذا ابعده ﴿ يا بنى اركب معنا ﴾ فى السفينة والجمهور كسروا الياء لبدل على ياء الاضافة المحذوفة فى جميع القرآن غير ابن كثير فانه وقف عليها فى لقمان فى الموضع الاول باتفاق الرواة وفى الثالث فى رواية قنبل وعاصم فانه فتح ههنا اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة واختلفت الرواية عنه فى سائر المواضع وقد ادغم البـاء فى الميم ابو عمرو والكسـائى وحفص لتقاربهما ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ فى الدين والانعزال ﴿ قال سآوى الى جبل يعصمنى من المـاء ﴾ ان يغرقنى ﴿ قال لاعاصم اليوم من امر الله الامن رحم ﴾ الا الراحم وهو الله تعالى أو الامكان من رحمهم الله وهو المؤمنون رد بذلك ان يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به الا معتصم المؤمنين وهو السفينة وقيل لاعاصم بمعنى لاذا عصمة كقوله تعالى فى عيشة راضية وقيل الاستثناء منقطع أى لكن

بالسير أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر يعنى صار الماء نصفين نصفا من السماء ونصفا من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شئ وروى انه لما كثر الماء فى السكك خافت أم صبى على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء الى رقبتها رفعت الصبى بيديها حتى ذهب بهما الماء فأغرقهما فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ يعنى كنعان وكان كافرا ﴿ وكان فى معزل ﴾ يعنى عن نوح لم يركب معه ﴿ يابنى اركب معنا ﴾ يعنى فى السفينة ﴿ ولاتكن مع الكافرين ﴾ يعنى فتهلك معهم ﴿ قال ﴾ يعنى قال كنعان ﴿ سآوى ﴾ يعنى سألتجئ وأصير ﴿ الى جبل يعصمنى ﴾ يعنى يمنعنى ﴿ من المـاء قال ﴾ يعنى قال له نوح ﴿ لاعاصم ﴾ يعنى لامانع ﴿ اليـوم من أمر الله ﴾ يعنى من عـذابه ﴿ الامن رحم ﴾ يعنى الامن رحمه الله فينجيه من الغرق

فى ارتفاع (ونادى نوح) دعا نوح (ابنه) كنعـان (وكان فى معزل) فى ناحية من السفينة ويقال فى ناحية الجبل (يابنى اركب معنا) انج معنا بلا اله الا الله (ولاتكن مع الكافرين) على دينهم فتغرق بالطوفان (قال سآوى) سأذهب (الى جبل يعصمنى) يمنعنى (من الماء) من الغرق (قال) نوح (لاعاصـم اليوم) لامانع اليوم (من أمر الله) من عـذاب الله الغرق (الامن رحم) الله ﴿ وحال ﴾

المعصوم كقوله مالهم به من علم الا اتباع الظن (وحال بينهما الموج) بين ابنه والجبل أو بين نوح وابنه (فكان من المغرقين) فصار أو فكان فى علم الله (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) انشفى وتشربى والبلع النشف (ويا سماء اقلعى) امسكى (وغيض الماء) نقص من غاضه اذا نقصه وهو لازم ومتعد (وقضى الامر) وأنجز ما وعد الله نوحا من اهلاك قومه (واستوت) واستقرت السفينة بعد ان طافت الارض كلها ستة أشهر (على الجودى) وهو جبل بالموصل (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى سحقا لقوم نوح الذين غرقوا يقال بعد بعدا وبعدا اذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ولذلك خص بدعاء السوء * والنظر فى هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول ان الله تعالى لما أراد ان يبين معنى أردنا ان نرد ما انفجر من الارض الى بطنها فارتد وان نقطع طوفان السماء فانقطع وان نغيض الماء النازل من السماء فغيض وان نقضى أمر نوح وهو انجاز ما كنا وعدناه من اغراق قومه فقضى وان نسوى السفينة على الجودى فاستوت وأبقينا الظلمة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد بالامور الذى لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالامر الجزم النافذ فى تكون المقصود تصويرا لاقتداره العظيم وأن السموات والارض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة لارادته فيها تغييرا وتبديلا كانها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته واحاطوا علما بوجوب الانقياد لامره والاذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مراده ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام فقال عز وجل وقيل على سبيل المجاز عن الارادة الواقع بسببها قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض ويا سماء ثم قال مخاطبا لهما يا أرض ويا سماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ثم استعار لغور الماء فى الارض البلع الذى هو اعمال الجاذبة فى المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب الى مقر خفى

من رحمه الله يعصمه ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل ﴿ فكان من المغرقين ﴾ فصار من المهلكين بالماء ﴿ وقيل يا ارض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى ﴾ نوديا بما ينادى به اولو العلم وأمرا بما يؤمرون به تمثيلا لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالآمر المطاع الذى يأمر المنقاد لحكمه المبادر الى امتثال امره مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه والبلع النشف والاقلاع الامساك ﴿ وغيض الماء ﴾ نقص ﴿ وقضى الامر ﴾ وانجز ما وعد من اهلاك الكافرين وانجاء المؤمنين ﴿ واستوت ﴾ واستقرت السفينة ﴿ على الجودى ﴾ جبل بالموصل وقيل بالشأم وقيل بآمل * روى انه ركب السفينة عاشر رجب ونزل عنها عاشر المحرم فصام ذلك اليوم وصار ذلك سنة ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ هلاكا لهم يقال بعد بعدا وبعدا اذا بعد بعدا بعيدا بحيث لا يرجى عوده ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء والآية

﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ يعنى كنعان ﴿ وقيل ﴾ يعنى بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح ﴿ يا أرض ابلعى ماءك ﴾ أى اشربيه ﴿ ويا سماء اقلعى ﴾ أى امسكى ﴿ وغيض الماء ﴾ أى نقص ونضب يقال غاض الماء اذا نقص وذهب ﴿ وقضى الامر ﴾ يعنى وفرغ من الامر وهو هلاك قوم نوح ﴿ واستوت ﴾ يعنى واستقرت السفينة ﴿ على الجودى ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل ﴿ وقيل بعدا ﴾ يعنى هلاكا ﴿ للقوم الظالمين ﴾ قال العلماء بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع اليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون فى منقارها ولطخت رجليها بالطين

من المؤمنين (وحال بينهما) بين كنعان ونوح ويقال بين كنعان والجبل ويقال بين كنعان والسفينة (الموج) فكبه (فكان) فصار (من المغرقين) بالطوفان (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) انشفى ماءك (ويا سماء أقلعى) احبسى ماءك (وغيض) نقص (الماء وقضى الامر) وفرغ من هلاك القوم اى هلك من هلك ونجا من نجا (واستوت) السفينة (على الجودى) وهو جبل بنصيبين فى أرض موصل (وقيل بعدا) سحقا من رحمة الله (للقوم الظالمين) المشركين قوم نوح

ثم استعار الماء للغذاء تشبيها له بالغذاء لتقوى الارض بالماء فى الانبات كتقوى الآكل بالطعام ثم قال ماءك باضافة الماء الى الارض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالارض كاتصال الملك بالمالك ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما فى عدم التأتى ثم قال وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا ولم يصرح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الامر وسوى السفينة وقال بعدا كما لم يصرح بقائل ياأرض وياسماء سلوكا فى كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وان تلك الامور العظام لاتكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وان فاعلها واحد لايشارك فى فعله فلايذهب الوهم الى ان يقول غيره ياارض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ولا أن يكون الغائض والقاضى والمسوى غيره ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيها لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ظلما لانفسهم اظهارا لمكان السخط وأن ذلك العذاب الشديد ما كان الا لظلمهم * ومن جهة علم المعانى وهو النظر فى فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها وذلك انه اختير يادون أخواتها لكونها أكثر استعمالا ولدلالتها على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام اظهار العظمة والملكوت وابداء العزة والجبروت وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل ياأرضى لزيادة التهاون اذا الاضافة تستدعى القرب ولم يقل ياأيتها الارض للاختصار واختير لفظ الارض والسماء لكونهما أخف وادور واختير ابلعى على ابتلعى لكونه أخصر وللتجانس بينه وبين أقلعى وقيل أقلعى ولم يقل عن المطر وكذا لم يقل ياأرض ابلعى ماءك فبلعت وياسماء أقلعى فأقلعت اختصارا واختير غيض على غيض وقيل الماء دون أن يقول ماء الطوفان والامر ولم يقل أمر نوح وقومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ولم يقل وسويت على الجودى أى أقرت على نحو قيل وغيض اعتبارا لبناء الفعل للفاعل مع السفينة فى قوله وهى تجرى بهم ارادة (قرينة) للمطابقة ثم قيل بعدا للقوم ولم يقل ليبعد القوم طلبا للتأكيد مع الاختصار هذا من حيث النظر الى تركيب الكلم * وأما من حيث النظر الى ترتيب الجمل فذلك انه قدم النداء على الامر فقيل ياأرض ابلعى وياسماء أقلعى ولم يقل أبلعى ياأرض وأقلعى ياسماء جريا على مقتضى الكلام فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الامر الوارد عقيبه فى نفس المنادى قصدا بذلك لمعنى الترشيح ثم قدم أمر الارض على أمر السماء وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ثم أتبع وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها ثم ذكر ماهو المقصود وهو قوله وقضى الامر أى أنجز الموعود من اهلاك الكفرة وانجاء نوح ومن معه فى الفلك وعلى هذا فاعتبر * ومن جهة الفصاحة المعنوية وهى كما ترى نظم للمعانى لطيف وتأدية لها ملخصة مبينة لاتعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ولا التواء يشبك الطريق الى المرتاد * ومن جهة الفصاحة اللفظية فالفاظها على ماترى عربية مستعملة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات كل منها كالماء فى السلاسة وكالعسل فى الحلاوة وكالنسيم فى الرقة ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية ولله در شأن التنزيل لايتأمل العالم آية من آياته الا ادرك لطائف لاتسع الحصر ولاتظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور

فى غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الايجاز الخالى عن الاخلال وايراد الاخبار على البناء للمفعول للدلالة على تعظيم الفاعل وانه متعين فى نفسه مستغنى عن ذكره اذلا يذهب الوهم الى غيره للعلم بان مثل هذه الافعال

فعلم نوح ان الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لايألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التى فى عنقها ودعالها بالامان فمن ثم تألف البيوت * وروى أن نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة اشهر ومرت بالبيت الحرام قد رفعه الله من الغرق وبقى موضعه فطافت السفينة به سبعا وأودع الحجر الاسود جبل أبى قبيس وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا

لايقدر عليه سوى الواحد القهار ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ واراد نداءه بدليل عطف قوله ﴿ فقال رب ان ابنى من اهلى ﴾ فانه النداء ﴿ وان وعدك الحق ﴾ وان كل وعد تعده حق لايتطرق اليه الخلف وقد وعدت ان تنجى اهلى فما حاله أو فما له لم ينج ويجوز أن يكون هذا النداء قبل أغرقه ﴿ وانت احكم الحاكين ﴾ لانك اعلمهم واعدلهم أولانك اكثر حكمة من ذوى الحكم على ان الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع ﴿ قال يانوح انه ليس من اهلك ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر

قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهى أول قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وسبب نجاته من الهلاك ان نوحا عليه السلام احتاج الى خشب ساج لاجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام الى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك * فان قلت كيف اقتضت الحكمة الالهية والكرم العظيم اغراق من لم يبلغوا الحلم من الاطفال ولم يدخلوا تحت التكليف بذنوب غيرهم * قلت ذكر بعض المفسرين ان الله عزوجل أعقم أرحام نسائهم اربعين سنة فلم يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوى لانه يرد عليه اغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ويرد على ذلك أيضا اهلاك اطفال الامم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح والجواب الشافى عن هذا كله ان الله سبحانه وتعالى متصرف فى خلقه وهو المالك المطلق يفعل مايشاء ويحكم مايريد لايسئل عما يفعل وهم يسئلون * قوله عزوجل ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ أى دعاه وسأله ﴿ فقال رب ان ابنى من أهلى ﴾ يعنى وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى ﴿ وان وعدك الحق ﴾ يعنى الصدق الذى لاخلف فيه ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ يعنى انك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك ﴿ قال ﴾ يعنى قال الله تعالى ﴿ يانوح انه ﴾ يعنى هذا الابن الذى سألتنى نجاته ﴿ ليس من أهلك ﴾ اختلف علماء التفسير هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا فقال الحسن ومجاهد كان ولد حدث من غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال انه ليس من أهلك وقال محمد بن جعفر الباقر كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلى ولم يقل منى وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك رضى الله عنهم وأكثر المفسرين انه ابن نوح من صلبه وهذا القول هو الصحيح والقولان الاولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا نقل الجمهور لما صح عن ابن عباس انه قال مابغت امرأة نبى قط ولان الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى ونادى نوح ابنه ونوح صلى الله عليه وسلم أيضا نص عليه بقوله يابنى اركب معنا وهذا نص فى الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة لايجوز وانما خالف هذا الظاهر من خالفه لانه استبعد أن يكون ولد نبى كافرا وهذا خطأ ممن قاله لان الله سبحانه

(ونادى نوح ربه فقال رب) نداؤه ربه دعاؤه له وهو قوله رب مع مابعده من اقتضاء وعده فى تنجية أهله (ان ابنى من أهلى) أى بعض أهلى لانه كان ابنه من صلبه أو كان ربيباله فهو بعض أهله (وان وعدك الحق) وان كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذى لاشك فى انجازه والوفاء به وقد وعدتنى أن تنجى أهلى فابال ولدى (وأنت أحكم الحاكمين) أى اعلم الحكام وأعدلهم اذ لافضل لحاكم على غيره الابالعلم والعدل ورب غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمانك قد لقب اقضى القضاة ومعناه احكم الحاكمين فاعتبر واستعبر (قال يانوح انه ليس من أهلك) ثم علل لانتفاء كونه من اهله بقوله

(ونادى نوح) دعا نوح (ربه فقال رب) يارب (ان ابنى) كنعان (من أهلى) الذى وعدت أن تنجيه (وان وعدك الحق) الصدق (وأنت أحكم) أعدل (الحاكمين) وعدتنى نجاتى ونجاة أهلى (قال) الله (يانوح انه ليس من أهلك) الذى وعدتك أن أنجيه

(انه عمل غير صالح)وفيه ايذان بان قرابة الدين غامرة لقرابة النسب و ان نسيبك فى دينك وان كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك ومن لم يكن على دينك وان كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك وجعلت ذاته عملا غير صالح مبالغة فى ذمه كقولها * فانما هى اقبال وادبار * أو التقدير انه ذو عمل وفيه اشعار بانه انما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لانهم أهله وهذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته عمل غير صالح على قال الشيخ أبو منصور رحمه الله كان عند نوح عليه السلام ان ابنه كان على دينه لانه كان ينافق والا لا يحتمل أن يقول ابنى من أهلى ويسأله نجاته وقد سبق منه النهى عن سؤال مثله بقوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فكان يسأله على الظاهر الذى عنده كما كان اهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه السلام ويضمرون الخلاف له ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه وقوله ليس من أهلك أى من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة فى السر والظاهر (فلا تسئلن) اجتزأ بالكسرة عن الياء كوفى تسألنى بصرى تسألنى مدنى تسألن شامى فحذف الياء واجتزأ بالكسرة والنون نون التأكيد تسألن مكى (ماليس لك به علم) بجواز مسئلته (على)

واشار اليه بقوله ﴿ انه عمل غير صالح ﴾ فانه تعليل لنفى كونه من اهله واصله انه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة

ترتع ما غفلت حتى اذا ذكرت * فانما هى اقبال وادبار

ثم بدل الفاسد بغير الصالح تصريحا بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما اوجب النجاة لمن نجا من اهله عنه * وقرأ الكسائى ويعقوب انه عمل غير اى عمل عملا غير صالح ﴿ فلا تسئلن ماليس لك به علم ﴾ مالا تعلم أصواب هو أم ليس بصواب وانما سمى نداؤه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة اهله

وتعالى خلق خلقه فريق فى الجنة وهم المؤمنون وفريق فى السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولا فرق فى ذلك بين الانبياء وغيرهم فان الله سبحانه وتعالى اخرج قابيل من صلب آدم عليه السلام وهو نبى وكان قابيل كافرا وأخرج ابراهيم من صلب آزر وهو نبى وكان آزر كافرا فكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبى فهو المتصرف فى خلقه كيف يشاء * فان قلت فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال اركب معنا وسأل له النجاة مع قوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا * قلت قد ذكر بعضهم أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم بكون ابنه كان كافرا فلذلك ناداه وعلى تقدير أنه يعلم كفره انما حمله على ان ناداه رقة الابوة ولعله اذا رأى تلك الاهوال أن يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فأجابه الله عز وجل بقوله انه ليس من أهلك يعنى أنه ليس من أهل دينك لان أهل الرجل من يجمعه واياهم نسب أو دين أو ما يجرى مجراهما ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب فى كثير من الاحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح انه ليس من أهلك ﴿ انه عمل غير صالح ﴾ قرأ الكسائى ويعقوب عمل بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه أنه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح وقرأ الباقون من القراء عمل بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه ان سؤالك اياى ان أنجيه من الغرق عمل غير صالح لان طلب نجاة الكافر بعد ما حكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سبحانه وتعالى انه عمل غير صالح ويجوز أن يعود الضمير فى انه على ابن نوح أيضا ويكون التقدير على هذه القراءة ان ابنك ذو عمل او صاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء * فانما هى اقبال وادبار * قال الواحدى وهذا قول أبى اسحق يعنى الزجاج وأبى بكر بن الانبارى وأبى على الفارسى قال أبو على ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملا غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه كما يقال الشعر زهير والعلم فلان اذا كثر منه فعلى هذا لا حذف ﴿ فلا تسئلن ماليس لك به علم ﴾ وذلك ان نوحا عليه السلام سأل ربه انجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد

(انه عمل) فى الشرك (غير صالح) غير مرضى وان قرأت انه عمل غير صالح يقول دعاؤك اياى بنجاته غير مرضى (فلا تسئلن) نجاة (ماليس لك به علم) أنه أهل للنجاة

استنجازه فى شأن ولده أو استفسار المانع للانجاز فى حقه وانما سماه جهلا وزجر عنه بقوله ﴿ انى اعظك ان تكون من الجاهلين ﴾ لان استثناء من سبق عليه القول من اهله قد دله على الحال واغناه عن السؤال لكن اشغله حب الولد عنه حتى اشتبه الامر عليه *وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون الشديدة وكذا نافع وابن عامر غير انهما كسروا النون على اصله تسئلنى فحذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكسرت الشديدة للياء ثم حذفت اكتفاء بالكسرة *وعن نافع برواية رويس اثباتها فى الاصل ﴿ قال رب انى اعوذبك ان اسألك ﴾ فيما يستقبل ﴿ ماليس لى به علم ﴾ مالا علم لى بصحته ﴿ والاتغفرلى ﴾ وان لم تغفرلى مافرط منى من السؤال ﴿ وترحمنى ﴾ بالتوبة والتفضل على ﴿ أكن من الخاسرين ﴾ اعمالا ﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا ﴾ انزل من السفينة مسلما من المكاره من جهتنا أو مسلما عليك

على ولده وهو لايعلم ان ذلك محظور لاصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسئلة وأعلمه أن ذلك لايجوز فكان المعنى فلاتسألنى ماليس لك به علم بجواز مسئلته ﴿ انى أعظك ﴾ يعنى أنهاك ﴿ أن تكون من الجاهلين ﴾ يعنى لمثل هذا السؤال ﴿ قال ﴾ يعنى قال نوح ﴿ رب انى أعوذ بك ﴾ يعنى ألجأ اليك وأعتذر اليك ﴿ ان أسألك ماليس لى به علم ﴾ يعنى انك أنت علام الغيوب وانا لاأعلم ماغاب عنى فاعتذر اليك من مسئلتى ماليس لى به علم ﴿ والاتغفرلى ﴾ يعنى جهلى واقدامى على سؤال ماليس لى به علم ﴿ وترحمنى ﴾ يعنى برحمتك التى وسعت كل شئ ﴿ أكن من الخاسرين ﴾

﴿ فصل ﴾

وقد استدل بهذه الآيات من لايرى عصمة الانبياء وبيانه ان قوله انه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلاتسألن ماليس لك به علم وقوله سبحانه وتعالى انى أعظك أن تكون من الجاهلين يدل على ان ذلك السؤال كان جهلا ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه والجواب ان الله عزوجل كان قد وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه وأهله فأخذ نوح ظاهر اللفظ وأتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ماغاب عنه ولم يشك وعد الله سبحانه وتعالى فاقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عزوجل على سؤاله ماليس له به علم وبين له انه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذى هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى انه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فاشفق نوح من اقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ الى ربه عزوجل وخشع له وعاذبه وسأله المغفرة والرحمة لان حسنات الابرار سيآت المقربين وليس فى الآيات مايقتضى صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله واقدامه على سؤاله مالم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولامعصية والله أعلم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ قيل يانوح اهبط ﴾ أى انزل من السفينة أو من الجبل الى الارض ﴿ بسلام ﴾ أى

(انى أعظك أن تكون من الجاهلين) هو كانهى رسولنا بقوله فلاتكونن من الجاهلين (قال رب انى أعوذبك أن أسألك ماليس لى به علم) أى من أن أطلب منك فى المستقبل مالاعلم لى بصحته تأدبا بادبك واتعاظا بموعظتك (والاتغفرلى) مافرط منى (وترحمنى) بالعصمة عن العود الى مثله (أكن من الخاسرين قيل يانوح اهبط بسلام منا) بتحية منا أو بسلامة من الغرق

(انى أعظك) أنهاك (ان تكون) أن لاتكون (من الجاهلين) بسؤالك اياى مالم تعلم (قال) نوح (رب) يارب (انى أعوذبك) امتنع بك (أن اسألك) نجاة (ماليس لى به علم) أنه أهل للنجاة (والا تغفرلى) يقول ان لم تغفرلى يعنى ان لم تجاوز عنى (وترحمنى) ولا ترحمنى فتعذبنى (أكن من الخاسرين) بالعقوبة (قيل يانوح اهبط) انزل من السفينة (بسلام منا) بسلامة منا

(وبركات عليك) هى الخيرات النامية وهى فى حقه بكثرة ذريته واتباعه فقد جعل أكثر الانبياء من ذريته وأئمة الدين فى القرون الباقية من نسله (وعلى أمم ممن معك) من للبيان فتراد الامم الذين كانوا معه فى السفية لانهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم أو لابتداء الغاية أى على أمم ناشئة ممن معك وهى الامم الى آخر الدهر وهو الوجه (وأمم) رفع بالابتداء (سنمتعهم) فى الدنيا بالسعة فى الرزق والخفض فى العيش صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان ممن معك يدل عليه (ثم يمسهم منا عذاب أليم) أى فى الآخرة والمعنى ان السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون الى النار وكان نوح عليه السلام أبا الانبياء والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه فى السفينة وعن محمد بن كعب دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر (تلك) اشارة الى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها وهى (من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) أخبار أى تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة اليك مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) الوقت أو من

﴿ وبركات عليك ﴾ ومباركا عليك أو زيادات فى نسلك حتى تصير آدما ثانيا * وقرئ اهبط بالضم وبركة على التوحيد وهو الخير النامى ﴿ وعلى امم ممن معك ﴾ وعلى امم هم الذين معك سموا أمما لتحزبهم أو لتشعب الامم منهم أو على امم ناشئة ممن معك والمراد بهم المؤمنون لقوله ﴿ وامم سنمتعهم ﴾ أى وممن معك امم سنمتعهم فى الدنيا ﴿ ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ فى الآخرة والمراد بهم الكفار من ذرية من معه وقيل هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام والعذاب ما نزل بهم ﴿ تلك ﴾ اشارة الى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها ﴿ من انباء الغيب ﴾ أى بعضها ﴿ نوحيها اليك ﴾ خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك أو حال من الانباء أو هو الخبر ومن انباء متعلق به أو حال من الهاء ﴿ ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا

بأمن وسلامة ﴿ منا وبركات عليك ﴾ البركة هى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته وقيل المراد بالبركة هنا ان الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين الى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه فى السفينة غيرهم ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ يعنى وعلى ذرية أمم ممن كانوا معك فى السفينة والمعنى وبركات عليك وعلى قرون تجئ من بعدك من ذرية أولادك وهم المؤمنون قال محمد بن كعب القرظى دخل فى هذا كل مؤمن الى يوم القيامة ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ هذا ابتداء كلام أى وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعنى فى الدنيا الى منتهى آجالهم ﴿ ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ يعنى فى الآخرة ﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾ هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى ان هذه القصة التى أخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعنى من أخبار الغيب ﴿ نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ يعنى من قبل نزول القرآن عليك * فان قلت ان قصة نوح كانت مشهورة معروفة

(وبركات) سعادات (عليك وعلى أمم) جماعة (ممن معك) فى السفينة من أهل السعادة (وأمم) جماعة فى أصلابهم (سنمتعهم) سنعيشهم بعد خروجهم من أصلاب آبائهم (ثم يمسهم) يصيبهم (منا عذاب أليم) وجيع بعد ما كفروا وهم أهل الشقاوة قال ابن عباس رضى الله عنهما أوحى الله الى نوح عليه السلام وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة ودعا قومه مائة وعشرين سنة وركب فى السفينة وهو ابن ستمائة سنة وعاش بعد ما ركب فى السفينة ثلاثمائة وخمسين سنة وبقى فى السفينة خمسة أشهر وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع بذراعه وعرضها خمسون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا وكان لها ثلاثة أبواب بعضها أسفل من بعض حمل فى الباب الاسفل السباع والهوام وحمل فى الباب الاوسط الوحوش والبهائم وحمل فى الباب الاعلى بنى آدم وكانوا ثمانين انسانا اربعون رجلا وأربعون امرأة وكان بين الرجال والنساء جسد آدم صلوات الله عليه وكان معه ثلاثة بنين سام وحام ويافث (تلك) هذه (من أنباء الغيب) من أخبار الغائب عنك (نوحيها اليك) نرسل جبريل اليك يا محمد بأخبار الامم الماضية (ما كنت تعلمها) يعنى أخبار الامم (أنت ولا قومك من قبل هذا) القرآن

قبل ايحائى اليك واخبارك بهـا (فاصبر) على تبليغ الرسـالة وأذى قومك كما صبر نوح وتوقع فى العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح ولقومه (ان العاقبة) فى الفوز والنصر والغلبة (للمتقين) عـن الشرك (والى عاد أخاهم) واحدا منهم وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا أى وأرسلنا الى عاد أخاهم (هودا) عطف بيـان (قال ياقوم اعبدوا الله) وحدوه (مالكم من اله غيره) بالرفع نافع صفة على محل الجار والمجرور وبالجر على على اللفظ (ان أنتم الامفترون) تفترون على الله الكذب باتخاذكم الاوثان له شركاء (ياقوم لا أسئلكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى) مامن رسول الا واجه قومه بهذا القول لان شأنهم النصيحة والنصيحة لا يمحضها الاحسم المطامع ومادام يتوهم شئ منها لم تنجع ولم تنفع (أفلا تعقلون) اذ تردون نصيحـة من لا يطلب عليهـا أجرا الا من الله وهو ثواب الآخرة ولا شئ أنفى للتهمة من ذلك (وياقوم استغفروا ربكم) آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبـادة غيره

والفواحش (والى عاد) وأرسلنا الى عاد (أخاهم) نبيهم (هودا قال ياقوم اعبدوا الله) وحدوا الله (مالكم من اله غيره) غير الذى آمركم أن تؤمنوا به (ان أنتم) ما أنتم بعبادة الاوثان (الامفترون) كاذبون على الله لم يأمركم بعبادتها (ياقوم لا أسئلكم عليه) على التوحيد (أجرا) جعلا (ان أجرى) ما ثوابى (الا على الذى فطرنى) خلقنى (أفلا تعقلون) أفلا تصدقون أفليس لكم ذهن الانسانية (وياقوم استغفروا ربكم) وحدوا ربكم (ثم توبوا اليه) أقبلوا اليـه بالتوبة والاخلاص

خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا اليـك أوحال من الهاء فى نوحيها أو الكاف فى اليك أى جاهـلا انت وقومك بهـا وفى ذكرهم تنبيه على انه لم يتعلمها اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يسمعوها فكيف بواحد منهم ﴿ فاصبر ﴾ على مشاق الرسالة واذية القوم كما صبر نوح عليه السلام ﴿ ان العاقبة ﴾ فى الدنيا بالظفر وفى الآخرة بالفوز ﴿ للمتقين ﴾ عن الشرك والمعاصى ﴿ والى عاد اخاهم هودا ﴾ عطف على قوله نوحا الى قومه وهودا عطف بيان ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ﴾ وحده ﴿ مالكم من اله غيره ﴾ وقرئ بالجر حملا على المجرور وحده ﴿ ان انتم الامفترون ﴾ على الله باتخاذ الاوثان شركاء وجعلها شفعاء ﴿ ياقوم لااسألكم عليه اجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى ﴾ خاطب كل رسول به قومه ازاحة للتهمة وتمحيضـا للنصيحة فانها لا تنجع مادامت مشوبة بالمطامع ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالايمان ثم توسلوا اليها بالتوبة وايضا التبرى من الغير انما يكون بعد الايمان بالله والرغبـة

فى العالم فكيف قال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ٭ قلت يحتمل ان يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها ٭ وجواب آخر وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح قوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن بها ﴿ فاصبر ﴾ يامحمد على أذى مشركى قومك كما صبر نوح على أذى قومه ﴿ ان العاقبة ﴾ يعنى النصر والظفر على الاعداء والفوز بالسعادة الاخروية ﴿ للمتقين ﴾ يعنى للمؤمنين ٭ قوله عزوجل ﴿ والى عاد ﴾ يعنى وأرسلنا الى عاد ﴿ أخاهم هودا ﴾ يعنى أخاهم فى النسب لا فى الدين ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ﴾ يعنى وحدوا الله ولا تشركوا معه شيأ فى العبادة ﴿ مالكم من اله غيره ﴾ يعنى انه تعالى هو الـه لكم لا هذه الاصنام التى تعبدونها فانها حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿ ان أنتم الامفترون ﴾ يعنى ما أنتم الا كاذبون فى عبادتكم غيره ﴿ ياقوم لا أسئلكم عليه ﴾ يعنى على تبليغ الرسالة ﴿ أجرا ﴾ يعنى جعلا آخذه منكم ﴿ ان أجرى ﴾ يعنى ما ثوابى ﴿ الا على الذى فطرنى ﴾ يعنى خلقنى فانه هو الذى يرزقنى فى الدنيا ويثيبنى فى الآخرة ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعنى فتتعظون ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ﴾ أى آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الايمان لانه هو المطلوب أولا ﴿ ثم توبوا اليه ﴾ يعنى من شركم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم

(فاصبر) يامحمد على أذاهم وتكذيبهم اياك (ان العاقبة) آخر الامر بالنصرة والجنة (للمتقين) الكفر والشرك

(يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) حال أى كثيرة الدرور (ويزدكم قوة الى قوتكم) انما قصد استمالتهم الى الايمان بكثرة المطر وزيادة القوة لانهم كانوا أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شئ الى الماء وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة البطش والقوة وقيل أراد القوة بالمال أو على النكاح وقيل حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم فوعدهم هود عليه السلام المطر والاولاد على الايمان والاستغفار وعن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه وفد على معاوية فلما خرج قال له بعض حجابه انى رجل ذومال ولا يولد لى علمنى شيأ لعل الله يرزقنى ولدا فقال الحسن عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم بأموال وبنين (ولا تتولوا) ولا تعرضوا عنى وعما أدعوكم اليه (مجرمين) مصرين على اجرامكم وآثامكم (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) كذب منهم وجحود كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أنزل عليه آية من ربه مع فوت آياته الحصر (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) هو حال من الضمير فى تاركى آلهتنا كانه قيل وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك (وما نحن لك بمؤمنين) وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم اليه اقناطا له من الاجابة (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ان حرف نفى فنفى جميع القول الا قولا واحدا وهو قولهم اعتراك أصابك بعض آلهتنا بسوء (من) بجنون وخبل وتقديره ما نقول قوله الا هذه المقالة أى قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء

فيما عنده ﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ كثير الدر ﴿ويزدكم قوة الى قوتكم﴾ ويضاعف قوتكم وانما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لانهم كانوا اصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله عنهم القطر واعقم ارحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم هود عليه السلام على الايمان والتوبة بكثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل ﴿ولا تتولوا﴾ ولا تعرضوا عما ادعوكم اليه ﴿مجرمين﴾ مصرين على اجرامكم ﴿قالوا ياهود ماجئتنا ببينة﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات ﴿وما نحن بتاركى الهتنا﴾ بتاركى عبادتهم ﴿عن قولك﴾ صادرين عن قولك حال من الضمير فى تاركى ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ اقناطا له من الاجابة والتصديق ﴿ان نقول الا اعتراك﴾ ما نقول الا قولنا اعتراك أى اصابك من عراه يعروه اذا اصابه ﴿بعض آلهتنا بسوء﴾ بجنون لسبك اياها وصدك عنها ومن ذلك تهذى وتتكلم بالخرفات والجملة مقول القول ولا لغو لان الاستثناء مفرغ

﴿يرسل السماء عليكم مدرار﴾ يعنى ينزل المطر عليكم متتابعا مرة بعد مرة فى أوقات الحاجة اليه وذلك ان بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فأمسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فاجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فاخبرهم هود عليه السلام انهم ان آمنوا بالله وصدقوا أرسل الله اليهم المطر فأحيا به بلادهم كما كانت أول مرة ﴿ويزدكم قوة الى قوتكم﴾ يعنى شدة مع شدتكم وقيل معناه انكم ان آمنتم يقوكم بالاموال والاولاد وذلك انه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام ان آمنتم أرسل الله المطر فتزدادون مالا ويعيد أرحام الامهات الى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالاموال والاولاد وقيل تزدادون قوة فى الدين الى قوة الابدان ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ يعنى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حال كونكم مشركين ﴿قالوا ياهود ماجئتنا ببينة﴾ أى ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول ﴿وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك﴾ يعنى وما نترك عبادة آلهتنا لاجل قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ يعنى بمصدقين ﴿ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ يعنى أنك ياهود لست تتعاطى ما تتعاطاه

(يرسل السماء عليكم مدرار) مطرا دائما دريرا كلما تحتاجون اليه (ويزدكم قوة الى قوتكم) شدة الى شدتكم بالمال والبنين (ولا تتولوا) عن الايمان والتوبة (مجرمين) مشركين بالله (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) ببيان ما تقول (وما نحن بتاركى آلهتنا) عبادة آلهتنا (عن قولك) بقولك (وما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين بالرسالة (ان نقول) ما نقول فيما نهاك (الا اعتراك) يصيبك (بعض آلهتنا بسوء) بخبل لانك تشتمها

(قال اني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه) أي من اشراككم آلهة من دونه والمعنى اني أشهد الله أني بريء مما تشركون واشهدوا أنتم أيضا أني بريء من ذلك وجيء به على لفظ الامر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد على أني لاأحبك تهكما به واستهانة (فكيدوني جميعا) أنتم وآلهتكم (ثم لاتنظرون) لا تمهلون فاني لاأبالي بكم وبكيدكم ولاأخاف معرتكم وان تعاونتم على وكيف تضرني آلهتكم وماهي الا جماد لايضر ولاينفع وكيف تنتقم مني اذا نلت منها وصددت عن عبادتها بان تخبلني وتذهب بعقلي (اني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة الاهو آخذ بناصيتها) أي مالكها ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ومن كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه والاخذ بالناصية تمثيل لذلك (ان ربي على صراط مستقيم

﴿ قال اني اشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون ﴾ اجاب به عن مقالتهم الحمقاء بان اشهد الله تعالى على براءته من آلهتهم وفراغه من اضرارهم تأكيدا لذلك وتثبيتا له وامرهم بان يشهدوا عليه استهانة بهم وان يجتمعوا على الكيد في اهلاكه من غير انظار حتى اذا اجتهدوا فيه ورأوا انهم عجزوا عن آخرهم وهم الاقوياء الاشداء ان يضروه لم يبق لهم شبهة لان آلهتهم التي هي جماد لاتضر ولاتنفع لا تتمكن من اضراره انتقاما منه وهذا من جملة معجزاته فان مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة الفتاك العطاش الى اراقة دمه بهذا الكلام ليس الا لثقته بالله وتثبطهم عن اضراره ليس الا بعصمته اياه ولذلك عقبه بقوله ﴿ اني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ تقريرا له والمعنى انكم وان بذلتم غاية وسعكم لم تضروني فاني متوكل على الله واثق بكلاءته وهو مالكي ومالككم لايحيق بي ما لم يرده ولا تقدرون على مالم يقدره ثم برهن عليه بقوله ﴿ مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي الا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها والاخذ بالنواصي تمثيل لذلك ﴿ ان ربي على صراط مستقيم ﴾ أي انه على الحق والعدل لايضيع عنده

من مخالفتنا وسب آلهتنا الا أن بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لانك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولانحمل أمرك الاعلى هذا ﴿ قال ﴾ يعني قال هود مجيبا لهم ﴿ اني أشهد الله ﴾ يعني على نفسي ﴿ واشهدوا ﴾ يعني واشهدوا أنتم أيضا على ﴿ اني بريء مما تشركون من دونه ﴾ يعني هذه الاصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ فكيدوني جميعا ﴾ يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم واصنامكم التي تعتقدون انها تضر وتنفع فانها لاتضر ولاتنفع ﴿ ثم لاتنظرون ﴾ يعني ثم لاتمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك انه كان وحيدا في قومه فقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ماهم فيه من الكفر والجبروت الا لثقته بالله عزوجل وتوكله عليه وهو قوله تعالى ﴿ اني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ يعني انه فوض أمره الى الله واعتمد عليه ﴿ مامن دابة ﴾ يعني تدب على الارض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض ﴿ الاهو آخذ بناصيتها ﴾ يعني انه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لان من اخذت بناصيته فقد قهرته والناصية مقدم الرأس وسمي الشعر الذي عليه ناصية للمجاورة قيل انما خص الناصية بالذكر لان العرب تستعمل ذلك كثيرا في كلامهم فاذا وصفوا انسانا بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا اذا أسروا أسيرا وأرادوا اطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتقدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم ﴿ ان ربي على صراط مستقيم ﴾ يعني ان ربي وان كان قادرا وأنتم في قبضته كالعبد

(قال اني أشهد الله واشهدوا الله أني بريء مما تشركون)بالله من الاوثان وما تعبدونها (من دونه) من دون الله (فكيدوني) فاعملوا في هلاكي أنتم وآلهتكم (جميعا ثم لا تنظرون) لاتؤجلون ولا ترقبوا في احدا (اني توكلت على الله) فوضت أمري اليه (ربي) خالقي ورازقي (وربكم) خالقكم ورازقكم (ما من دابة الاهو آخذ بناصيتها) يميتها ويحييها ويقال في قبضته يفعل مايشاء (ان ربي على صراط مستقيم)

ان ربى على الحق لايعدل عنه أو ان ربى يدل على صراط مستقيم (فان تولوا فقد أبلغتكم ماأرسلت به اليكم) هو فى موضع فقد ثبتت الحجة عليكم (ويستخلف ربى قوما غيركم) كلام مستأنف أى ويهلككم

الله ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم واموالكم (ولا تضرونه) بتوليكم (شيأ) من ضرر قط اذ لا يجوز عليه المضار وانما تضرون أنفسكم (ان ربى على كل شئ حفيظ) رقيب عليه مهيمن فاتخفى عليه أعمالكم ولايغفل عن مؤاخذتكم أو من كان رقيبا على الاشياء كلها حافظا لها وكانت الاشياء مفتقرة الى حفظه عن المضار لم يضر مثله مثلكم (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) أى بفضل منا لا بعملهم أو بالايمان الذى أنعمنا عليهم (ونجيناهم من عذاب غليظ) وتكرار نجينا للتأكيد أو الثانية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه (وتلك عاد) اشارة الى قبورهم وآثارهم

معتصم ولايفوته ظالم ﴿فان تولوا﴾ فان تتولوا ﴿فقد ابلغتكم ماارسلت به اليكم﴾ فقد اديت ماعلى من الابلاغ والزام الحجة فلاتفريط منى ولا عذر لكم فقد ابلغتكم ماارسلت به اليكم ﴿ويستخلف ربى قوما غيركم﴾ استئناف بالوعيد لهم بان الله يهلكهم ويستخلف قوما آخرين فى ديارهم و اموالهم أوعطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع فكأنه قيل وان تتولوا يعذرنى ربى ويستخلف ﴿ولاتضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيأ﴾ من الضرر ومن جزم يستخلف اسقط النون منه ﴿ان ربى على كل شئ حفيظ﴾ رقيب فلايخفى عليه اعمالكم ولايغفل عن مجازاتكم أوحافظ مستول عليه فلا يمكن ان يضره شئ ﴿ولما جاء امرنا﴾ عذابنا أو امرنا بالعذاب ﴿نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ وكانوا اربعة آلاف ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ تكرير لبيان مانجاهم عنه وهو السموم كانت تدخل انوف الكفرة وتخرج من ادبارهم فتقطع اعضاءهم أوالمراد به تنجيتهم من عذاب الآخرة ايضا والتعريض بان المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ ﴿وتلك عاد﴾ انث اسم الاشارة باعتبار

الذليل فانه سبحانه وتعالى لايظلمكم ولايعمل الابالاحسان والانصاف والعدل فيجازى المحسن باحسانه والمسىء بعصيانه وقيل معناه ان دين ربى هو الصراط المستقيم وقيل فيه اضمار تقديره ان ربى يحملكم على صراط مستقيم ﴿فان تولوا﴾ يعنى تتولوا يعنى تعرضوا عن الايمان بما أرسلت به اليكم ﴿فقد ابلغتكم ماأرسلت به اليكم﴾ يعنى انى لم يقع منى تقصير فى تبليغ ماأرسلت به اليكم انما التقصير منكم فى قبول ذلك ﴿ويستخلف ربى قوما غيركم﴾ يعنى انكم ان أعرضتم عن الايمان وقبول ماأرسلت به اليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه وفيه اشارة الى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد ﴿ولاتضرونه شيأ﴾ يعنى بتوليكم انما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيأ اذا أهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء ﴿ان ربى على كل شئ حفيظ﴾ يعنى أنه سبحانه وتعالى حافظ لكل شئ فيحفظنى من أن تنالونى بسوء ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ولما جاء أمرنا﴾ يعنى باهلاكهم وعذابهم ﴿نجينا هودا والذين آمنوا معه﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿برحمة منا﴾ وذلك ان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ يعنى الريح التى أهلكت بها عاد وذلك ان الله سبحانه وتعالى ارسل على عاد ريحا شديدة غليظة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وهى الايام النحسات فاهلكتهم جميعا وأنجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرهم شيأ وقيل المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى انه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظا لانه أعظم من عذاب الدنيا ﴿وتلك عاد

عليه ممر الخلق ويقال يدعو الخلق الى صراط مستقيم دين قائم يرضاه وهو الاسلام (فان تولوا) أعرضوا عن الايمان والتوبة (فقد أبلغتكم ماأرسلت به اليكم) من الرسالة ويهلككم (ويستخلف ربى قوما غيركم) خيرا منكم وأطوع (ولا تضرونه شيأ) ولا يضر الله هلاككم شيأ (ان ربى على كل شئ) من أعمالكم (حفيظ) حافظ شهيد (ولما جاء أمرنا) (جحدوا) عذابنا (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة) بنعمة (منا ونجيناهم من عذاب غليظ) شديد (وتلك عاد) وهذه عاد

القبيلة أولان الاشارة الى قبورهم وآثارهم ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾ كفروا بها ﴿ وعصوا رسله ﴾ لانهم عصوا رسولهم ومن عصى رسولا فكأنما عصى الكل لانهم امروا بطاعة كل رسول ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ يعنى كبراءهم الطاغين وعنيد من عند عندا وعنودا وعندا اذا طغى والمعنى عصوا من دعاهم الى الايمان وما ينجيهم واطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم ﴿ واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة ﴾ أى جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين تكبهم فى العذاب ﴿ ألا ان عادا كفروا ربهم ﴾ جحدوه أو كفروا نعمه أو كفروا به فحذف الجار ﴿ ألا بعدا لعاد ﴾ دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على انهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم وانما كرر ألا واعاد ذكرهم تفظيعا لامرهم وحثا على الاعتبار بحالهم ﴿ قوم هود ﴾ عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم عن عاد الثانية عاد ارم والايماء الى ان استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود ﴿ والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره

جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ﴾ لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد رده الى القبيلة وفيه اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعنى المعجزات التى أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعنى هودا وحده وانما أتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم أولان من كذب برسول فقد كذب كل الرسل ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ يعنى ان السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع فى نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند الذى لا يقبل الحق ولا يتبعه ﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ﴾ يعنى أردفوا لعنة تتبعهم وتلحقهم وتنصرف معهم واللعنة الطرد والابعاد من رحمة الله ﴿ ويوم القيمة ﴾ يعنى وفى يوم القيامة أيضا تتبعهم اللعنة كما تتبعهم فى الدنيا ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذى استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى ﴿ ألا ان عادا كفروا ربهم ﴾ أى كفروا بربهم ﴿ ألا بعدا لعاد ﴾ يعنى هلاكا لهم وقيل بعدا عن الرحمة * فان قلت اللعنة معناها الابعاد والهلاك فما الفائدة فى قوله الا بعدا لعاد لان الثانى هو الاول بعينه * قلت الفائدة فيه ان التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وانهم كانوا مستحقين له ﴿ قوم هود ﴾ عطف بيان لعاد * فان قلت هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة فى قوله قوم هود قلت ان عادا كانوا قبيلتين عادا الاولى القديمة التى هم قوم هود وعادا الثانية وهم ارم ذات العماد وهم العماليق فأتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه * وجواب آخر وهو ان المبالغة فى التنصيص تدل على تقوية التأكيد * قوله عز وجل ﴿ والى ثمود أخاهم صالحا ﴾ يعنى وأرسلنا الى ثمود وهم سكان الحجر أخاهم صالحا يعنى فى النسب لا فى الدين ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ﴾ أى وحدوا الله وخصوه بالعبادة ﴿ مالكم من اله غيره ﴾ يعنى هو الهكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر سبحانه وتعالى

كأنه قال سيحوا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم استأنف وصف أحوالهم فقال (جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لانهم اذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله لانفرق بين أحد من رسله (وأتبعوا أمر كل جبار عنيد) يريد رؤساءهم ودعاتهم الى تكذيب الرسل لانهم الذين يجبرون الناس على الامور ويعاندون ربهم ومعنى اتباع أمرهم طاعتهم (واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة) لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين (ألا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد) تكرار ألا مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لامرهم وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم والدعاء ببعدا بعد هلاكهم وهو دعاء بالهلاك للدلالة على انهم كانوا مستأهلين له (قوم هود) عطف بيان لعاد وفيه فائدة لان عادا عادان الاولى القديمة التى هى قوم هود والقصد فيهم والاخرى ارم (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره

جحدوا بآيات ربهم) التى أتاهم بها هود (وعصوا رسله) بالتوحيد (واتبعوا أمر كل جبار) قول كل قتال على الغضب (عنيد) معرض عن الله (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) أهلكوا فى الدنيا بالريح (ويوم القيمة) لهم لعنة أخرى وهى النار (ألا ان عادا كفروا ربهم) (قا و خا ٤٣ لث) جحدوا بربهم (ألا بعدا لعادة) قوم هود من رحمة الله (والى ثمود) وأرسلنا الى ثمود (أخاهم) نبيهم (صالحا قال ياقوم اعبدوا الله) وحدوا الله (مالكم من اله غيره) غير الذى آمركم أن تؤمنوا به

هوانشأكم من الارض) لم ينشئكم منها الاهو وانشاؤهم منها خلق آدم من التراب ثم خلقهم من آدم (واستعمركم فيها) وجعلكم عمارها وأراد منكم عمارتها اواستعمركم من العمر أى أطال أعماركم فيها وكانت أعمارهم من ثلاثمائة الى ألف وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وعمروا الاعمار الطوال مع مافيهم من الظلم فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم فاوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى (فاستغفروه) فاسألوا مغفرته بالايمان (ثم توبوا اليه ان ربى قريب)

(مجيب) لمن دعاه (قالوا ياصالح قد كنت فينا) فيما بيننا (مرجوا قبل هذا)للسياد والمشاورة فى الامور وكنا نرجو ان تدخل فى ديننا وتوافقنا على مانحن عليه (أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا) حكاية حال ماضية (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد (مريب) موقع فى الريبة من أرابه اذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة) نبوة اتى بحرف الشك مع انه على يقين انه على بينة لان خطابه للجاحدين فكأنه قال قدروا انى على بينة من ربى وانى نبى على الحقيقة وانظروا ان تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره (فمن ينصرنى من الله) فمن

﴿هوانشأكم من الارض﴾ هو كونكم منها لاغيره فانه خلق آدم ومواد النطف التى خلق نسله منها من التراب ﴿ واستعمركم فيها﴾ عمركم فيها واستبقاكم من العمر أو اقدركم على عمارتها وامركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى اعمركم فيها دياركم و يرثها منكم بعد انصرام اعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم ﴿فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب﴾ قريب الرحمة ﴿مجيب﴾ لداعيه ﴿قالوا ياصالح قدكنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ لماترى فيك من مخايل الرشد والسداد ان تكون لنا سيدا أو مستشارا فى الامور أوان توافقنا فى الدين فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك ﴿ أتنهانا ان نعبد مايعبد آباؤنا ﴾ على حكاية الحال الماضية ﴿واننا لفى شك مما تدعونا اليه﴾ من التوحيد والتبرئ من الاوثان ﴿مريب ﴾ موقع فى الريبة من ارابه اوذى ريبة على الاسناد المجازى من اراب فى الامر ﴿قال ياقوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربى ﴾ بيان وبصيرة وحرف الشك باعتبار المخاطبين ﴿وآتانى منه رحمة﴾ نبوة ﴿فمن ينصرنى من الله﴾ فمن يمنعنى من عذابه

الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى ﴿هو أنشأكم من الارض ﴾ يعنى انه هو ابتدأ خلقكم من الارض وذلك أنهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض ﴿واستعمركم فيها ﴾ يعنى وجعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال أعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة الى ألف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد أعمركم من العمرى أى جعلها لكم ماعشتم ﴿فاستغفروه ﴾ يعنى من ذنوبكم ﴿ثم توبوا اليه﴾ يعنى من الشرك ﴿ان ربى قريب ﴾ يعنى من المؤمنين ﴿ مجيب ﴾ لدعائهم ﴿ قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ يعنى قبل هذا القول الذى جئت به والمعنى انا كنا نرجو أن تكون فينا سيدا لانه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغنى فقيرهم وقيل معناه انا كنا نطمع أن تعود الى ديننا فلما أظهر دعاءهم الى الله وعاب الاصنام انقطع رجاؤهم منه ﴿ أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ﴾ يعنى الآلهة ﴿ واننا لفى شك مماتدعونا اليه ﴾ يعنى من عبادة الله ﴿مريب ﴾ يعنى انا مرتابون فى قولك من رابه اذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس ووقوعها فى التهمة ﴿قال﴾ يعنى قال صالح مجيبا لقومه ﴿ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ﴾ يعنى على يقين و برهان ﴿وآتانى منه رحمة ﴾ يعنى نبوة وحكمة ﴿فمن ينصرنى من الله ﴾ أى فمن يمنعنى من عذاب الله

(هوأنشأكم من الارض) خلقكم من آدم وآدم من الارض(واستعمركم فيها) عمركم فى الارض وجعلكم سكانها (فاستغفروه) فوحدوه

(ثم توبوا اليه) أقبلوا اليه بالتوحيد والتوبة والاخلاص (ان ربى قريب) بالاجابة (مجيب) لمن وحده (قالوا ياصالح (ان) قد كنت فينا مرجوا) نرجوك (قبل هذا) قبل ان تأمرنا بدين غير دين آبائنا (أتنهانا ان نعبد مايعبد آباؤنا) من الاوثان (واننا لفى شك مماتدعونا اليه) من دينك (مريب) ظاهر الشك به (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) على بيان نزل من ربى (وآتانى منه رحمة) أكرمنى بالنبوة والاسلام (فمن ينصرنى) يمنعنى (من) عذاب (الله

ينعنى من عذاب الله (ان عصيته) فى تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الاوثان (فما تزيدوننى) بقولكم أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا (غير تخسير) بنسبتكم اياى الى الخسار أو بنسبتى اياكم الى الخسران (وياقوم هـذه ناقة الله لكم آية) نصب على الحال قد عمل فيها مادل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل ولكم متعلق بآية حالا منها متقـدمة لانها لو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال (فذروها تأكل فى أرض الله) أى ليس عليكم رزقها مع أن لكم نفعها (ولا تمسوها بسوء) عقر أو نحر (فيأخذكم عذاب قريب) عاجل (فعقروها) يوم الاربعاء (فقال) صالح (تمتعوا) استمتعوا بالعيش (فى داركم) فى بلدكم وتسمى البلاد الديار لانه يدار فيها أى يتصرف أو فى دار الدنيا (ثلاثة أيام) ثم تهلكون فهلكوا يوم السبت (ذلك وعـد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه فاتسع فى الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به أو وعد غير كذب على ان المكذوب مصدر كالمعقول (فلما جاء أمرنا) بالعذاب

﴿ ان عصيته ﴾ فى تبليغ رسالته والمنع عن الاشراك به ﴿ فما تزيدوننى ﴾ اذن باستتباعكم اياى ﴿ غير تخسير ﴾ غير ان تخسرونى بابطال مامنحنى الله به والتعرض لعذابه أو فما تزيدوننى بما تقولون لى غير ان انسبكم الى الخسران ﴿ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ انتصب آية على الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليهـا لتنكيرها ﴿ فذروها تأكل فى ارض الله ﴾ ترع نباتها و تشرب ماءها ﴿ ولا تمسـوها بسـوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ عاجل لا يتراخى عن مسكم لها بالسوء الا يسيرا وهو ثلاثة ايام ﴿ فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ﴾ عيشوا فى منازلكم أو فى داركم الدنيا ﴿ ثلاثة ايام ﴾ الاربعـاء والخميس والجمعة ثم تهلكون ﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ أى غير مكذوب فيه فاتسـع فيه باجرائه مجرى المفعول به كقوله

ويوم شـهدناه سليما وعامرا

أو غير مكذوب على المجاز وكأن الواعـد قال له أفى بك فان وفى به صـدقه والا كذبه أو وعـد غير كذب على انه مصـدر كالمجلود والمعقول ﴿ فلما جاء امرنا

﴿ ان عصيته ﴾ يعنى ان خالفت أمره ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ قال ابن عباس معناه غير بصارة فى خسارتكم و قال الحسن بن الفضل لم يكن صالح فى خسارة حتى يقول فما تزيدوننى غير تخسير وانما المعنى فما تزيدوننى بما تقولون الا نسبتى الى الخسارة ﴿ وياقوم هـذه ناقة الله لكم آية ﴾ وذلك ان قومه طلبوا أن يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك أشاروا اليها فدعا الله عز وجل فاخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصـيلا يشبهها وقوله ناقة الله اضافة تشريف كبيت الله و عبد الله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام ﴿ فذروها تأكل ﴾ يعنى من العشب والنبـات ﴿ فى أرض الله ﴾ يعنى فليس عليكم مؤنتها ﴿ و لا تمسـوها بسوء ﴾ يعنى بعقر ﴿ فيأخذكم ﴾ يعنى ان قتلتموها ﴿ عـذاب قريب ﴾ يعنى فى الدنيـا ﴿ فعقروها ﴾ يعنى فخالفوا أمر ربهم فعقروها ﴿ فقال ﴾ يعنى فقال لهم صالح ﴿ تمتعوا ﴾ يعنى عيشوا ﴿ فى داركم ﴾ أى فى بلدكم ﴿ ثلاثة أيام ﴾ يعنى ثم تهلكون ﴿ ذلك ﴾ يعنى العـذاب الذى أوعدهم به بعـد ثلاثة أيام ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ أى هو غير كذب روى انه قال لهم يأتيكم العـذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون فى اليوم الاول ووجوهكم مصفرة وفى اليوم الثانى محمرة وفى اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب فى اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ يعنى العذاب

ان عصيته) وتركت أمره (فما تزيدوننى غير تخسير) فما ازداد الا بصيرة فى خساركم (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) علامة (فذروها) فاتركوها (تأكل فى أرض الله) فى ارض الحجر ليس عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) بعقر (فيأخذكم عذاب قريب) بعد ثلاثة أيام (فعقروها) قتلوها قتلها قدار بن سالف ومصدع بن زهر وقسموا لحمها على ألف وخمسمائة دار (فقال) لهم صـالح بعد قتلهم لها (تمتعوا) عيشوا (فى داركم) فى مدينتكم (ثلاثة أيام) ثم يأتيكم العذاب اليوم الرابع قالوا يا صالح ما علامة العذاب قال ان تصبحوا اليوم الاول وجوهكم مصفرة وتصبحوا اليوم الثانى وجوهكم محمرة وتصبحوا اليوم الثالث وجوههم مسودة ثم يأتكم العذاب اليوم الرابع (ذلك) العذاب (وعد غير مكذوب) غير مردود (فلما جاء أمرنا) عذابنـا

أو عذابنا (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) قال الشيخ رحمه الله هذا يدل على ان من نجى انما نجى برحمة الله تعالى لا بعمله كما قال عليه السلام لا يدخل أحد الجنة الا برحمة الله (ومن خزي يومئذ) باضافة الخزى الى اليوم وانجرار اليوم بالاضافة و بفتحها مدنى وعلى لانه مضاف الى اذ وهو مبنى وظروف الزمان اذا أضيفت الى الاسماء المبهمة والافعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف اليه كقوله * على حين عاتبت المشيب على الصبا * والواو للعطف وتقديره و نجيناهم من خزي يومئذ أى من ذله وفضيحته ولا خزى أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه وجاز أن يريد بيومئذ يوم القيامة كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة (ان ربك هو القوى) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) الغالب باهلاك أعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أى صيحة جبريل عليه السلام (فاصبحوا فى ديارهم) منازلهم (جاثمين) ميتين (كأن لم يغنوا فيها) لم يقيموا فيها (ألا ان ثمودا كفروا ربهم) ثمود حمزة وحفص (ألا بعدا لثمود) على فالصرف للذهاب الى الحى أو الاب الاكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة (ولقد جاءت رسلنا) جبريل و ميكائيل و اسرافيل أوجبريل مع أحد عشر ملكا (ابراهيم بالبشرى) هى البشارة بالولد أو بهلاك

نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ﴾ أى و نجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة * وعن نافع يومئذ بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه ههنا وفى المعارج فى قوله من عذاب يومئذ ﴿ ان ربك هو القوى العزيز ﴾ القادر على كل شئ والغالب عليه ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ قد سبق تفسير ذلك فى سورة الاعراف ﴿ كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمودا كفروا ربهم ﴾ نونه ابوبكر ههنا وفى النجم والكسائى فى جميع القرآن وابن كثير ونافع وابن عمر وابو عمرو فى قوله ﴿ ألا بعدا لثمود ﴾ ذهابا الى الحى أو الاب الاكبر ﴿ ولقد جاءت رسلنا ابراهيم ﴾ يعنى الملائكة قيل كانوا تسعة وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام ﴿ بالبشرى ﴾ بشارة الولد وقيل بهلاك

﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ أى بنعمة منا بان هديناهم الى الايمان فامنوا ﴿ ومن خزي يومئذ ﴾ يعنى ونجيناهم من عذاب يومئذ سمى خزيا لان فيه خزى الكافرين ﴿ ان ربك ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه و سلم يعنى ان ربك يا محمد ﴿ هو القوى ﴾ يعنى هو القادر على انجاء المؤمنين واهلاك الكافرين ﴿ العزيز ﴾ يعنى القاهر الذى لا يغلبه شئ ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى ﴿ وأخذ الذين ظلموا ﴾ يعنى أنفسهم بالكفر ﴿ الصيحة ﴾ وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا وقيل اتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فماتوا جميعا ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ يعنى صرعى هلكى ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ يعنى كان لم يقيموا فى تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أتيته وأقمت به ﴿ ألا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة فى تفسير سورة الاعراف * قوله عز وجل ﴿ ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ﴾ أراد بالرسل الملائكة واختلفوا فى عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وقال الضحاك كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وقال محمد بن كعب القرظى كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدى كانوا أحد عشر ملكا على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس هو الاولى لان أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحمل على الاقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعنى بالبشارة باسحق و يعقوب و قيل باهلاك قوم لوط

(قالوا)

نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة) بنعمة (منا ومن خزي يومئذ) من عذاب يومئذ (ان ربك هو القوى) بنجاة أوليائه (العزيز) بنقمة أعدائه (وأخذ الذين ظلموا) أشركوا (الصيحة) العذاب (فاصبحوا فى ديارهم) مساكنهم (جاثمين) ميتين لا يتحركون فى أى صار وارمادا (كأن لم يغنوا فيها) كان لم يكونوا فى الارض قط (ألا ان ثمودا) قوم صالح (كفروا ربهم) كفروا بربهم (ألا بعدا لثمود) لقوم صالح من رحمة الله (ولقد جاءت رسلنا) جبريل ومن معه من الملائكة اثنا عشر ملكا (ابراهيم) الى ابراهيم (بالبشرى) بالبشارة

قوم لوط ﴿ قلوا سلاما ﴾ سلمنا عليك سلاما ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاما ﴿ قل سلام ﴾ أي امركم سلام أو جوابي سلام أو وعليكم سلام رفعه اجابة باحسن من تحيتهم *وقرأ حمزة والكسائي سلم وكذلك في الذاريات وهما لغتان كحرم و حرام وقيل المراد به الصلح ﴿ فما لبث ان جاء بعجل حنيذ ﴾ فما ابطأ مجيئه به أو فما ابطأ في المجيء به أو فما تأخر عنه والجار في ان مقدر أو محذوف والحنيذ المشوى بالرضف وقيل الذي يقطر ودكه من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال لقوله بعجل سمين ﴿ فلما رأى ايديهم لاتصل اليه ﴾ لا يمدون اليه ايديهم ﴿ نكرهم واوجس منهم خيفة ﴾ انكر ذلك منهم وخاف ان يريدوا به مكروها ونكر وانكر واستنكر بمعنى والايجاس الادراك وقيل الاضمار ﴿ قالوا ﴾ له لما احسوا منه اثر الخوف ﴿ لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط ﴾ انا ملائكة مرسلة اليهم بالعذاب وانما لم نمد اليه ايدينا لانا لا نأكل ﴿ وامرأته قائمة ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة ﴿ فضحكت ﴾ سرورا بزوال الخيفة

﴿ قلوا سلاما ﴾ يعني ان الملائكة سلموا سلاما ﴿ قال ﴾ يعني لهم ابراهيم ﴿ سلام ﴾ أي عليكم أو أمركم سلام ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ يعني مشويا والحنوذ هو المشوى على الحجارة المحماة في حفرة من الارض وهو من فعل أهل البادية وكان سمينا يسيل منه الودك قال قتادة كان عامة مال ابراهيم عليه السلام البقر وقيل مكث ابراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءت الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوى ﴿ فلما رأى أيديهم ﴾ يعني أيدي الاضياف ﴿ لاتصل اليه ﴾ يعني الى العجل المشوى ﴿ نكرهم ﴾ يعني أنكرهم وأنكر حالهم وانما أنكر حالهم لامتناعهم من الطعام ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ يعني ووقع في قلبه خوف منهم والوجس هو رعب القلب وانما خاف ابراهيم صلى الله عليه وسلم منهم لانه كان ينزل ناحية من الناس فخاف ان ينزلوا به مكروها لامتناعهم من طعامه ولم يعرف أنهم ملائكة وقيل ان ابراهيم عرف انهم ملائكة وانما خاف أن يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والاقرب ان ابراهيم عليه السلام لم يعرف انهم ملائكة في اول الامر ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدم اليهم الطعام ولو عرف أنهم ملائكة لما قدمه اليهم لعلمه ان الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولانه خافهم ولو عرف أنهم ملائكة لما خافهم فلما رأت الملائكة خوف ابراهيم عليه السلام ﴿ قالوا لاتخف ﴾ يا ابراهيم ﴿ انا ﴾ ملائكة الله ﴿ أرسلنا الى قوم لوط وامرأته ﴾ يعني سارة زوجة ابراهيم وهي ابنة هاران بن ناحور أو هي ابنة عم ابراهيم ﴿ قائمة ﴾ يعني من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة في خدمة الرسل وابراهيم جالس معهم ﴿ فضحكت ﴾

قوم لوط والاول أظهر (قالوا سلاما) سلمنا عليك سلاما (قال سلام) أمركم سلام سلم حمزة وعلي بمعنى السلام (فما لبث أن جاء بعجل) فما لبث في المجيء به بل عجل فيه أو فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة وكان مال ابراهيم البقر (حنيذ) مشوى بالحجارة المحماة (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم) نكر وأنكر بمعنى وكانت عادتهم أنه اذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه والا خافوه والظاهر أنه أحس بانهم ملائكة ونكرهم لانه تخوف أن يكون نزولهم لامر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه دليله قوله (وأوجس منهم خيفة) أي أضمر منهم خوفا (قالوا لاتخف انا أرسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما قال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا وانما قالوا لاتخف لانهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه (وامرأته قائمة) وراء الستر تسمع تحاورهم أو على رؤسهم تخدمهم (فضحكت) سرورا بزوال

له بالولد (قالوا سلاما) سلموا على ابراهيم حين دخلوا عليه (قال سلام) رد عليهم السلام وان قرأت سلم يقول امرى سلم من السلامة (فما لبث) مكث ابراهيم) ان جاء بعجل) سمين (حنيذ) مشوى فوضعه بين أيديهم (فلما رأى أيديهم لاتصل اليه) الى طعامه لانهم لم يحتاجوا الى طعام (نكرهم) أنكرهم ذلك (وأوجس منهم خيفة) أوقع في نفسه خوفا منهم وظن انهم لصوص حيث لم يأكلوا من طعامه فلما علموا خوفه (قالوا لاتخف) منا يا ابراهيم (انا أرسلنا الى قوم لوط) لنهلكهم (وامرأته) سارة (قائمة) بالخدمة (فضحكت) تعجبت من خوف

أو بهلاك اهل الفساد أو باصابة رأيها فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فاني اعلم ان العذاب ينزل بهؤلاء القوم وقيل فضحكت فحاضت قال

وعهدى بسلمى ضاحكا في لبابة * ولم تعد حقا ثديها ان تحلما

ومنه ضحكت السمرة اذا سال صمغها * وقرئ بفتح

أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك و يستعمل في السرور المجرد و في التعجب المجرد أيضا وللعلماء في تفسير هذا الضحك قولان* أحدهما أنه الضحك المعروف وعليه أكثر المفسرين ثم اختلفوا في سبب هذا الضحك فقال السدى لما قرب ابراهيم الطعام الى أضيافه فلم يأكلوا خاف ابراهيم منهم فقال ألا تأكلون فقالوا انا لا نأكل طعاما الا بثمن قال فان له ثمنا قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل الى ميكائيل و قال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا فلما رأى ابراهيم وسارة ايديهم لا تصل اليه ضحكت سارة و قالت يا عجبا لاضيافنا نخدمهم بانفسنا تكرمة لهم و هم لا يأكلون طعامنا وقال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم وقال مقاتل والكلبى ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن ابراهيم وذلك انها خافت لخوفه فحين قالوا لا تخف ضحكت سرورا وقيل ضحكت سرورا بالبشارة و قال ابن عباس ووهب ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فبشرناها باسحق فضحكت يعنى تعجبا من ذلك وقيل انها قالت لابراهيم اضمم اليك ابن أخيك لوطا فان العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشرت بعذابهم سرت سارة بذلك وضحكت لموافقة ما ظنت* القول الثانى في معنى قوله فضحكت قال عكرمة ومجاهد أى حاضت في الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ذلك قال الراغب وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وانما ذكر ذلك تنصيصا لحالها فان جعل ذلك أمارة لما بشرت به فحيضها في الوقت لتعلم أن حملها ليس بمنكر لان المرأة مادامت تحيض فانها تحمل وقال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشئ ضحكت بمعنى حاضت وقال ابن الانبارى قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وأنشد

تضحك الضبع لقتلى هذيل * وترى الذئب بها يستهل

قال أراد أنها تحيض فرحا وقال الليث في هذه الآية فضحكت أى طمثت وحكى الازهرى عن بعضهم في قوله فضحكت أى حاضت قال و يقال أصله من ضحاك الطلعة اذا انشقت قال وقال الاخطل فيه بمعنى الحيض

الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث أو من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب أو فحاضت

ابراهيم من اضيافه

الحاء ﴿ فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره مادل عليه الكلام وتقديره ووهبناهـا من وراء اسحق يعقوب وقيل انه معطوف على موضع باسحق أو على لفظ اسحق وفتحته للجر فانه غير منصرف ورد للفصل بينه وبين ماعطف عليه بالظرف *وقرأ الباقون بالرفع على انه مبتدأ وخبره الظرف أى ويعقوب مولود من بعده وقيل الوراء ولد الولد ولعله سمى به لانه بعد الولد وعلى هذا تكون اضافته الى اسحق ليس من حيث ان يعقوب وراءه بل من حيث انه وراء ابراهيم من جهته وفيه نظر والاسمان يحتمل وقوعهما فى البشارة كيحيي ويحتمل وقوعهما فى الحكاية بعد ان ولدا فسميا به وتوجيه البشارة اليها للدلالة على ان الولد المبشر به يكون منها ولانها كانت عقيمة حريصة على الولد ﴿ قالت ياويلتا ﴾ ياعجبا واصله فى الشر فاطلق على كل امر فظيع *وقرئ بالياء على الاصل ﴿ أألد وانا عجوز ﴾ ابنة تسعين أوتسع وتسعين ﴿ وهذا بعلى ﴾ زوجى واصله القائم بالامر ﴿ شيخا ﴾ ابن مائة أومائة وعشرين ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الاشارة *وقرئ بالرفع على انه خبر محذوف أى هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلى بدل

تضحك الضبع من دماء سليم ❁ اذ رأتها على الحراب تمور

وقال فى المحكم ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها باسحق وضحكت الارنب ضحكا يعنى حاضت حيضا قال

وضحك الارانب فوق الصفا ❁ كمثل دم الخوف يوم اللقا

يعنى الحيض فيما زعم بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر أن يكون الضحك بمعنى الحيض قال كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كشرها علم انها تحيض وانما أراد الشاعر تكشرلا كل اللحوم وهذا سهو منه لانه جعل كشرها حيضا وقيل معناه انها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزيزها ضحكا وقيل لانها تسربهم فجعل سرورها ضحكا *فان قلت أى القولين أصح فى معنى الضحك *قلت ان الله عز وجل حكى عنها انها ضحكت وكلا القولين محتمل فى معنى الضحك فالله أعلم أى ذلك كان ❁ وقوله سبحانه تعالى ﴿ فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ يعنى ومن بعد اسحق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بانها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها أى ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وانما فعلت ذلك تعجبا ﴿ قالت ياويلتا ﴾ نداء ندبة وأصلها ياويلتاه وهى كلمة يستعملها الانسان عند رؤية مايتعجب منه مثل ياعجباه ﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ وكانت بنت تسعين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد كانت بنت تسع وتسعين سنة ﴿ وهذا بعلى ﴾ يعنى زوجى والبعل هو المستعلى على غيره ولما كان زوج المرأة مستعليا عليها قائما بامرهـا سمى بعلا لذلك ﴿ شيخا ﴾ وكان سن ابراهيم يومئذ مائة وعشرين فى قول محمد بن اسحق

(فبشرناها باسحق) وخصت بالبشارة لان النساء أعظم سرورا بالولد من الرجال ولانه لم يكن لها ولد وكان لابراهيم ولد وهو اسمعيل (ومن وراء اسحق) ومن بعده (يعقوب) بالنصب شامى وحمزة وحفص بفعل مضمر دل عليه فبشرناها اى فبشرناها باسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء اسحق وبالرفع غيرهم على الابتداء والظرف قبله خبر كما تقول فى الدار زيد (قالت ياويلتا) الالف مبدلة من ياء الاضافة وقرأ الحسن ياويلتى بالياء على الاصل (أألد وأنا عجوز) ابنة تسعين سنة (وهذا بعلى شيخا) ابن مائة وعشرين سنة هذا مبتدأ وبعلى خبر وشيخا حال والعامل معنى الاشارة التى دلت عليه ذا أو معنى التنبيه الذى دل

(فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) ولد الولد فضحكت فحاضت مقدم ومؤخر (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز) بنت ثمان وتسعين سنة للعجوز الكبيرة ولد كيف هذا (وهذا بعلى) زوجى ابراهيم (شيخا) ابن تسع وتسعين سنة

عليه هذا (ان هذا لشئ عجيب) أن يولد ولد من هرمين وهو استبعاد من حيث العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله) قدرته وحكمته
وانما أنكرت الملائكة تعجبها لانها كانت فى بيت الآيات ومهبط المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا
يزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وان تسبح الله وتمجده مكان التعجب والى ذلك أشارت الملائكة
حيث قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أرادوا ان هذه وأمثالها مما يكرمكم
به رب العزة ويخصكم بالانعام
به يا اهل بيت النبوة فليست
بمكان عجيب وهو كلام
مستأنف علل به انكار
التعجب كأنه قيل اياك
والتعجب لان أمثال هذه
الرحمة والبركة متكاثرة من
الله عليكم وقيل الرحمة النبوة
والبركات الاسباط من بنى
اسرائيل لان الانبياء منهم
وكلهم من ولد ابراهيم وأهل
البيت نصب على النداء أو
على الاختصاص (انه حميد)
محمود بتعجيل النعم (مجيد)
ظاهر الكرم بتأجيل النقم
(فلما ذهب عن ابراهيم الروع)
الفزع وهو ما اوجس
من الخيفة حين نكر أضيافه
(وجاءته البشرى) بالولد
(يجادلنا فى قوم لوط) أى
لما اطمأن قلبه بعد الخوف
وملئ سرورا بسبب البشرى
فزع للمجادلة وجواب لما
محذوف تقديره أقبل يجادلنا
أو يجادلنا جواب لما وانما
جئ به مضارعا لحكاية الحال
والمعنى يجادل رسلنا ومجادلته
اياهم انهم قالوا انا مهلكوا أهل
هذه القرية فقال أرأيتم لوكان فيها خمسون مؤمنا أتهلكونها قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ (لوكان)
العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله

﴿ ان هذا الشئ عجيب ﴾ يعنى الولد من هرمين وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك ﴿ قالوا أتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت ﴾ منكرين عليها فان خوارق العادات باعتبار اهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بان يستغربه عاقل فضلا عمن نشأت وشابت فى ملاحظة الآيات واهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم اللهم اغفر لنا ايتها العصابة ﴿ انه حميد ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد ﴿ مجيد ﴾ كثير الخير والاحسان ﴿ فلما ذهب عن ابراهيم الروع ﴾ اى ما اوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم ﴿ وجاءته البشرى ﴾ بدل الروع ﴿ يجادلنا فى قوم لوط ﴾ يجادل رسلنا فى شأنهم ومجادلته اياهم قوله ان فيها لوطا وهو اما جواب لما جئ به مضارعا على حكاية الحال أو لانه فى سياق الجواب بمعنى الماضى كجواب لو أو دليل جوابه المحذوف مثل

وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة ﴿ ان هذا الشئ عجيب ﴾ لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وانما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما ﴿ قالوا ﴾ يعنى قالت الملائكة لسارة ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ معناه لا تعجبى من ذلك فان الله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ فاذا أراد شيأ كان سريعا ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ يعنى بيت ابراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته ﴿ انه حميد ﴾ يعنى هو المحمود الذى يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لان يحمد فى السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال ﴿ مجيد ﴾ ومعناه المنيع الذى لا يرام وقال الخطابى المجيد الواسع الكرم واصل المجد فى كلامهم السعة يقال رجل ماجد اذا كان سخيا كريما واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلما ذهب عن ابراهيم الروع ﴾ يعنى الفزع والخوف الذى حصل له عند امتناع الملائكة من الاكل ﴿ وجاءته البشرى ﴾ يعنى زال عنه الخوف بسبب البشرى التى جاءته وهى البشارة بالولد ﴿ يجادلنا ﴾ فيه اضمار تقديره أخذ يجادلنا أو جعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا ﴿ فى قوم لوط ﴾ لان العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا فى قوم لوط وكانت مجادلة ابراهيم مع الملائكة ان قال لهم أرأيتم

(ان هذا الشئ عجيب) عجب (قالوا) لها (أتعجبين من أمر الله) من قدرة الله (رحمة الله وبركاته) سعاداته (عليكم أهل البيت) ابراهيم (انه حميد) بانعام الكم (مجيد) كريم بكرمكم بولد صالح (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) الخوف (وجاءته البشرى) البشارة بالولد (يجادلنا) يخاصمنا (فى قوم لوط) فى هلاك قوم لوط

(ان ابراهيم لحليم) غير عجول على كل من أساء اليه أو كثير الاحتمال ممن آذاه الصفوح عمن عصاه (أواه) كثير التأوه من خوف الله (منيب) تائب راجع الى الله وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فبين ان ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة كما حمله على الاستغفار لابيه فقالت الملائكة (يا ابراهيم أعرض عن هذا) الجدال وان كانت الرحمة ديدنك (انه قد جاء أمر ربك) قضاؤه وحكمه (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) لا يرد بجدال وغير ذلك عذاب مرتفع باسم الفاعل وهو آتيهم تقديره وانهم يأتيهم ثم خرجوا من عند ابراهيم متوجهين نحو قوم لوط وكان بين قرية ابراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ (ولما جاءت رسلنا لوطا) لما أتوه ورأى هيآتهم وجمالهم (سئ بهم) أحزن لانه حسب انهم انس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم (وضاق بهم ذرعا) تمييز أى وضاق بمكانهم صدره

اجترأ على خطابنا أو شرع فى جدالنا او متعلق به اقيم مقامه مثل اخذ أو اقبل يجادلنا ﴿ ان ابراهيم لحليم ﴾ غير عجول على الانتقام من المسئ اليه ﴿ أواه ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿ منيب ﴾ راجع الى الله والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترحه ﴿ يا ابراهيم ﴾ على ارادة القول أى قالت الملائكة يا ابراهيم ﴿ اعرض عن هذا ﴾ الجدال ﴿ انه قد جاء امر ربك ﴾ قدره بمقتضى قضائه الازلى بعذابهم وهو اعلم بحالهم ﴿ وانهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم ﴾ ساءه مجيئهم لانهم جاؤه فى صورة غلمان فظن انهم اناس فخاف عليهم ان يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ وضاق بمكانهم صدره وهو كناية عن شدة الانقباض

لو كان فى مدائن قوم لوط خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال ابراهيم فان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين وقيل انما طلب ابراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى قال ابن جريج كان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف مقاتل ﴿ ان ابراهيم لحليم أواه منيب ﴾ تقدم تفسيره فى سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لابراهيم ﴿ يا ابراهيم أعرض عن هذا ﴾ يعنى أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال ﴿ انه قد جاء أمر ربك ﴾ يعنى ان ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وانهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ يعنى ان العذاب الذى نزل بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم ❁ قوله عز وجل ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا ﴾ يعنى هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند ابراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿ سئ بهم ﴾ يعنى أحزن لوط بمجيئهم اليه وساء ظنه بقومه ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ قال الازهرى الذرع يوضع موضع الطاقة والاصل فيه ان البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فاذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعا اذ لم يجد من المكروه فى ذلك الامر مخلصا وقال غيره معناه ضاق بهم قلبا وصدرا ولا يعرف أصله الا أن يقال ان الذرع كناية عن الوسع والعرب تقول ليس هذا فى يدى يعنون ليس هذا فى وسعى لان الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا اذا وقع فى مكروه لا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا عليه السلام لما نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه وخاف أن يقصدوهم بمكروه

(ان ابراهيم لحليم) عن الجهل (أواه) رحيم (منيب) مقبل الى الله (يا ابراهيم أعرض عن هذا) عن جدالك هذا (انه قد جاء أمر ربك) عذاب ربك بهلاك قوم لوط (وانهم آتيهم) (قاوخا ٤٤ لث) يأتيهم (عذاب غير مردود) غير مصروف عنهم (ولما جاءت رسلنا) جبريل ومن معه من الملائكة (لوطا) الى لوط (سئ بهم) ساءه مجيئهم (وضاق بهم) اغتم بمجيئهم (ذرعا) اغتماما شديدا خاف عليهم من

(وقال هذا يوم عصيب) شديد روى ان الله تعالى قال لهم لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فاخبرت بهم قومها (وجاءه قومه يهرعون اليه) يسرعون كانما يدفعون دفعا (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش حتى مرنوا عليها وقل عندهم استقباحها فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لايكفهم حياء (قال ياقوم هؤلاء بناتي) فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم وكان تزويج المسلمات من الكفار جائز في ذلك الوقت كما جاز في الابتداء في هذه الامة فقد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد لوط أن يزوجهما ابنتيه

صنيع قومه (وقال) في نفسه (هذا يوم عصيب) شديد على (وجاءه قومه) قوم لوط (يهرعون اليه) يسرعون الى داره ويهرولون هرولة (ومن قبل) أي ومن قبل مجيء جبريل (كانوا يعملون السيأت) عملهم الخبيث (قال) لهم لوط (ياقوم هؤلاء بناتي) ويقال بنات قومي { القول }

للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ شديد من عصبه اذا شده ﴿ وجاءه قومه يهرعون اليه ﴾ يسرعون اليه كأنهم يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من اضيافه ﴿ ومن قبل ﴾ ومن قبل ذلك الوقت ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤا يهرعون لها مجاهرين ﴿ قال ياقوم هؤلاء بناتي ﴾ فدى بهن اضيافه كرما وحمية والمعنى هؤلاء بناتي تزوجوهن وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فانه شرع طارئ أو مبالغة في تناهي خبث مايرومونه حتى ان ذلك اهون منه او اظهارا لشدة امتعاضه من ذلك كي يرقوا له وقيل المراد بالبنات نساؤهم فان كل نبي ابو امته من حيث

أو فاحشة وعلم انه سيحتاج الى المدافعة عنهم ﴿ وقال ﴾ يعني لوطا ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ أي شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي تشد بها الرأس قال قتادة والسدي خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو يعمل في أرض له وقيل انه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فمضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل انه لما حمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم فقال لوط ان قومي شر خلق الله تعالى فقال جبريل هذه واحدة فمر على جماعة أخرى فتغامزوا فقال مثله ثم مر على جماعة أخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ماقال أولا حتى قال ذلك أربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل ان الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه في داره فدخلوا عليه ولم يعلم أحد بمجيئهم الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فاخبرت قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا مارأيت مثل وجوههم قط ولا أحسن منهم ﴿ وجاءه قومه يهرعون اليه ﴾ قال ابن عباس وقتادة يسرعون اليه وقال مجاهد يهرولون وقال الحسن الاهراع هو مشي بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز ﴿ ومن قبل ﴾ يعني ومن قبل مجيء الرسل اليهم قيل ومن قبل مجيئهم الى لوط ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾ يعني الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي اتيان الرجال في أدبارهم ﴿ قال ﴾ يعني قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا انهم غلمان من بني آدم ﴿ ياقوم هؤلاء بناتي ﴾ يعني أزوجكم اياهن وقي أضيافه ببناته قيل انه كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر وقال الحسن بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقال مجاهد وسعيد بن جبير أراد بناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبي أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا

(هن أطهر لكم) أحل هؤلاء مبتدأ وبناتى عطف بيان وهن فصل وأطهر خبر المبتدأ أو بناتى خبر وهن أطهر مبتدأ وخبر (فاتقوا الله) بايثارهن عليهم (ولا

تخزون) ولا تهينونى ولا تفضحونى من الخزى أو ولا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء وبالياء أبو عمرو فى الوصل (فى ضيفى) فى حق ضيوفى فانه اذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل وذلك من عراقة الكرم واصالة المروءة (أليس منكم رجل رشيد) أى رجل واحد يهتدى الى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء (قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) حاجة لان نكاح الاناث أمر خارج عن مذهبنا فمذهبنا اتيان الذكران (وانك لتعلم ما نريد) عنوا اتيان الذكور ومالهم فيه من الشهوة (قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) جواب لو محذوف أى لفعلت بكم ولصنعت والمعنى لو قويت عليكم بنفسى على دفعكم ﴿ أو آوى الى ركن شديد ﴾ الى قوى اتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى شدته وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رحم الله اخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد وقرئ

الشفقة والتربية وفى حرف ابن مسعود وازواجه امهاتهم وهو اب لهم ﴿ هن اطهر لكم ﴾ انظف فعلا أو اقل فحشا كقولك الميتة اطيب من المغصوب واحل منه وقرئ اطهر بالنصب على الحال على ان هن خبر بناتى كقولك هذا اخى هو لافصل فانه لا يقع بين الحال وصاحبها ﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم ﴿ ولا تخزون ﴾ ولا تفضحونى من الخزى أو ولا تخجلونى من الخزاية بمعنى الحياء ﴿ فى ضيفى ﴾ فى شأنهم فان اخزاء ضيف الرجل اخزاؤه ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يهتدى الى الحق ويرعوى عن القبيح ﴿ قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ﴾ من حاجة ﴿ وانك لتعلم ما نريد ﴾ وهو اتيان الذكران ﴿ قال لو ان لى بكم قوة ﴾ لو قويت بنفسى على

القول هو الصحيح وأشبه بالصواب ان شاء الله تعالى والدليل عليه ان بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن اياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الانبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل انما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق ❊ وفى قوله ﴿ هن أطهر لكم ﴾ سؤال وهو أن يقال ان قوله هن أطهر لكم من باب أفعل التفضيل فيقتضى أن يكون الذى يطلبونه من الرجال طاهرا ومعلوم أنه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال ان هذا جار مجرى قوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد أعل هبل قال الله أعلى وأجل اذ لا مماثلة بين الله عز وجل والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة ❊ وقوله ﴿ فاتقوا الله ﴾ يعنى خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان ﴿ ولا تخزون فى ضيفى ﴾ يعنى ولا تسوؤنى فى أضيافى ولا تفضحونى معهم ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أى صالح سديد عاقل وقال عكرمة رجل يقول لا اله الا الله وقال محمد بن اسحق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح ﴿ قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ﴾ يعنى ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست بناتك لنا بازواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه مالنا فى بناتك من حاجة لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ولا نريد ذلك ﴿ وانك لتعلم ما نريد ﴾ يعنى من اتيان الرجال فى أدبارهم فعند ذلك ﴿ قال ﴾ لوط عليه السلام ﴿ لو أن لى بكم قوة ﴾ أى لو انى أقدر أن أتقوى عليكم ﴿ أو آوى الى ركن شديد ﴾ يعنى أو أنضم الى عشيرة يمنعونى منكم وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوة لقاتلتكم أو لو وجدت عشيرة

(هن أطهر لكم) أنا أزوجكم (فاتقوا الله) فاخشوا الله فى الحرام (ولا تخزون فى ضيفى) لا تفضحونى فى أضيافى (أليس منكم رجل رشيد) يدلهم على الصواب ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر (قالوا لقد علمت يالوط (مالنا فى بناتك من حق) من حاجة (وانك لتعلم ما نريد) يعنون عملهم الخبيث (قال) لوط فى نفسه لو أن لى بكم قوة) بالبدن والولد (أو آوى) أقدر أن أرجع (الى ركن شديد) الى عشيرة كثيرة لمنعت نفسى منكم فلما علم

بنفسي أوأويت الى قوى أستند اليه و أتمنع به فيحميني منكم فشبه القوى العزيز بالركن من الجبل في شدته و منعته روى انه أغلق بابه حين جاؤا وجعل يرادهم ماحكى الله عنه و يجادلهم فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة مالقى لوط من الكرب (قالوا يالوط) ان ركنك لشديد (انا رسل ربك) فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فاذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فاعماهم كما قال الله تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لايعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان بيت لوط قوما سحرة (لن يصلوا اليك) جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لم يصلوا اليه ولم يقدروا على ضرره (فاسر) بالوصل حجازي من سرى (باهلك بقطع من الليل) طائفة منه أو نصفه (ولا يلتفت منكم أحد) بقلبه الى ماخلف أولا ينظر الى ماوراءه أولا يتخلف منكم أحد (الا امرأتك)

جبريل والملائكة خوف لوط من تهدد قومه (قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بالهلاك نحن نهلكهم (فأسر بأهلك) فسر بأهلك ويقال أدلج بهم (بقطع من الليل) في بعض من الليل آخر الليل عند السحر (ولا يلتفت منكم) لايتخلف منكم (أحد الا امرأتك) واعلة المنافقة (من)

أو آوي بالنصب على اضمار ان كأنه قال لوان لي بكم قوة أوأويا وجواب لو محذوف تقديره لدفعتكم روى انه اغلق بابه دون اضيافه واخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ماعلى لوط من الكرب ﴿ قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك ﴾ لن يصلوا الى اضرارك باضرارنا فهون عليك ودعنا واياهم فخلاهم ان يدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس اعينهم واعماهم فخرجوا يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط سحرة ﴿ فاسر باهلك ﴾ بالقطع من الاسراء * وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من السرى ﴿ بقطع من الليل ﴾ بطائفة منه ﴿ ولا يلتفت منكم احد ﴾ ولا يتخلف أولا ينظر الى ورائه والنهي في اللفظ لاحد وفي المعنى للوط ﴿ الا امرأتك ﴾ استثناء من قوله فاسر باهلك ويدل عليه انه قرئ

لانضممت اليهم قال أبو هريرة مابعث الله نبيا بعده الا في منعة من عشيرته (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد ولو لبثت في السجن مالبث يوسف ثم أتاني الداعي لاجبته قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه اشد الاركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث ان لوطا عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه و اشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي الى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط اظهار العذر عند أضيافه وانه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف ان شاء الله تعالى قال ابن عباس وأهل التفسير أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة مالقي لوط بسببهم ﴿ قالوا يالوط ﴾ ركنك شديد ﴿ انا رسل ربك لن يصلوا اليك ﴾ يعني بمكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه عز وجل في عقوبتهم فاذن له فتحول الى صورته التي يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه الثلج بياضا وقدماه الى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء في بيت لوط أسحر قوم في الارض قد سحرونا وجعلوا يقولون يالوط كما أنت حتى تصبح وسترى ماتلقى منا غدا يوعدونه بذلك ﴿ فاسر باهلك ﴾ يعني ببيتك ﴿ بقطع من الليل ﴾ قال ابن عباس بطائفة من الليل وقال الضحاك ببقية من الليل وقال قتادة بعد مضي أوله وقيل انه السحر الاول ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ يعني ولا يلتفت منكم أحد الى ورائه ولا ينظر الى خلفه ﴿ الا امرأتك ﴾ فانها

مستثنى من فاسر بأهلك وبالرفع مكي وأبو عمرو على البدل من أحد وفي اخراجها معهم أهله روايتان روى انه أخرجها معهم

وأمر أن لايلتفت منهم أحد الا هي فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فادركها

فاسر باهلك بقطع من الليل الا امرأتك وهذا انما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فانه ان فسر بالنظر الى الوراء في الذهاب ناقض ذلك قراءة ابن كثير وابي عمرو بالرفع على البدل من احد ولايجوز حمل القرآءتين على الروايتين في انه خلفها مع قومها أو اخرجها فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت ياقوماه فادركها حجر فقتلها لان القواطع لايصح حملها على المعاني المتناقضة والاولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله ولايلتفت مثله في قوله تعالى مافعلوه الا قليل ولايبعد ان يكون اكثر القراء على غير الافصح ولايلزم من ذلك امرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحا ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله ﴿ انه مصيبها ماأصابهم ﴾ ولايحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع ﴿ ان موعدهم الصبح ﴾ كأنه علة الامر بالاسراء ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب ﴿ فلما جاء امرنا ﴾ عذابنا أو امرنا به ويؤيده الاصل وجعل التعذيب مسببا عنه بقوله ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ فانه جواب لما وكان حقه جعلوا عاليها أي الملائكة المأمورون به فاسند الى نفسه من حيث انه المسبب تعظيما للامر فانه روى ان جبريل عليه الصلاة والسلام ادخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها الى السماء حتى سمع اهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم ﴿ وامطرنا عليها ﴾ على المدن أو على شذاذها ﴿ حجارة من سجيل ﴾ من طين متحجر لقوله حجارة من طين واصله «سنككل» فعرب وقيل انه من اسجله اذا ارسله أو ادر عطيته

من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ انه مصيبها ما أصابهم ﴾ فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿ ان موعدهم الصبح ﴾ قال لوط انه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم أن لايلتفت منهم أحد فقبلوا منه الا امرأته فانها لما سمعت هدة العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت واقوماه فاخذتها حجارة فاهلكتها معهم ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ يعني أمرنا بالعذاب ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ وذلك ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة ويقال كان فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ يعني على شذاذها ومن كان خارجا عنها من مسافريها وقيل بعدما قلبها أمطر عليهم ﴿ حجارة من سجيل ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير معناه «سنككل» فارسي معرب لان العرب اذا تكلمت بشئ من الفارسي صار لغة للعرب ولايضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق ونحو ذلك فكل هذه الالفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله

حجر فقتلها وروى أنه أمر بان يخلفها مع قومها فان هواها اليهم فلم يسر بها واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين (انه مصيبها ماأصابهم) أي ان الامر وروى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم قالوا (ان موعدهم الصبح) فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) جعل جبريل عليه السلام جناحه في أسفلها أي أسفل قراها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) هي كلمة معربة من «سنككل» بدليل قوله

(انه مصيبها) سيصيبها (ماأصابهم) مايصيبهم من العذاب (ان موعدهم) بالهلاك (الصبح) عند الصباح قال لوط الآن ياجبريل قال جبريل يالوط (أليس الصبح بقريب) لانه رآه ولم يرلوط (فلما جاء أمرنا) عذابنا الهلاكهم (جعلنا عاليها سافلها) قلبنا

وجعلنا أسفلها أعلاها واعلاها أسفلها (وأمطرنا عليها) على شذاذها ومسافريها (حجارة من سجيل) من سنج وكل مثل الآجر ويقال

والمعنى من مثل الشئ المرسل أو من مثل العطية فى الادرار أو من السجل أى مما كتب الله ان يعذبهم به وقيل اصله من سجين أى من جهنم فابدلت نونه لاما ﴿ منضود ﴾ نضد معدا لعذابهم أو نضد فى الارسال بتتابع بعضه بعضا كقطار الامطار أو نضد بعضه على بعض، وألصق به ﴿ مسومة ﴾ معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الارض او باسم من يرمى بها ﴿ عندربك ﴾ فى خزائنه ﴿ وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ فانهم بظلمهم حقيق بان يمطر عليهم وفيه وعيد لكل ظالم وعنه عليه الصلاة والسلام انه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى امتك مامن ظالم منهم الاوهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى اسفارهم الى الشأم وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان ﴿ والى مدين اخاهم شعيبا ﴾ اراد اولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أو اهل مدين وهو بلد بناه فسمى باسمه ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان ﴾ امرهم

فى موضع آخر حجارة من طين وقال مجاهد اولها حجر وآخرها طين وقال الحسن أصل الحجارة طين فشددت وقال الضحاك يعنى الآجر وقيل السجيل اسم سماء الدنيا وقيل هو جبل فى سماء الدنيا ﴿منضود﴾ قال ابن عباس متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه فوق بعض ﴿ مسومة عندربك ﴾ صفة للحجارة يعنى معلمة قال ابن جريج عليها سيما لاتشاكل حجارة الارض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدى كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم وقيل كان مكتوبا عليها أى على كل حجر اسم صاحبه الذى يرمى به ﴿وماهى﴾ يعنى تلك الحجارة ﴿من الظالمين﴾ يعنى مشركى مكة ﴿ ببعيد ﴾ قال قتادة وعكرمة يعنى ظالمى هذه الامة والله ما أجار الله منها ظالما بعده وفى بعض الآثار مامن ظالم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل ان الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى ان واحدا منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقا فى السماء أربعين يوما حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فاهلكه ❊ قوله عزوجل ﴿ والى مدين ﴾ يعنى وأرسلنا الى مدين ﴿ أخاهم شعيبا ﴾ مدين اسم لابن ابراهيم الخليل عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين ابن ابراهيم فعلى هذا يكون التقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ﴾ يعنى وحدوا الله ولاتعبدوا معه غيره كانت عادة الانبياء عليهم الصلاة والسلام يبدؤن بالاهم فالاهم ولما كانت الدعوة الى توحيد الله وعبادته أهم الاشياء قال شعيب اعبدوا الله مالكم من اله غيره ثم بعد الدعوة الى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى الكيل والوزن دعاهم الى ترك هذه العادة القبيحة وهى تطفيف الكيل والوزن فقال ﴿ ولاتنقصوا المكيال والميزان ﴾ النقص فى الكيل والوزن على وجهين أحدهما

حجارة من طين (منضود) نعت لسجيل أى متتابع أو مجموع معد للعذاب (مسومة) نعت الحجارة أى معلمة للعذاب قيل مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به (عندربك) فى خزائنه أو فى حكمه (وماهى من الظالمين ببعيد) بشئ بعيد وفيه وعيد لاهل مكة فان جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ظالمى أمتك مامن ظالم منهم الاوهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة أو الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم (والى مدين أخاهم شعيبا) هو اسم مدينتهم أو اسم جدهم مدين بن ابراهيم أى وأرسلنا شعيبا الى ساكنى مدين أو الى بنى مدين (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولاتنقصوا المكيال) اى المكيل بالمكيال (والميزان)

من سماء الدنيا (منضود) متتابع بعضها على أثر بعض (مسومة) مخططة بالسواد والحمرة والبياض ويقال مكتوب عليها اسم من هلك بها (عند ربك) من عند ربك يامحمد تأتى تلك الحجارة (وماهى) يعنى الحجارة (من الظالمين ببعيد) لم تخطهم بل أصابتهم ويقال ماهى من ظالمى أمتك ببعيد من يقتدى بهم أى بفعلهم (والى مدين) وأرسلنا الى مدين (أخاهم) نبيهم (شعيبا قال (ان) ياقوم اعبدوا الله) وحدوا الله (مالكم من اله غيره) غير الذى آمركم ان تؤمنوا به (ولاتنقصوا المكيال والميزان) أى حقوق الناس

بالتوحيد اولا فانه ملاك الامر ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافى للعدل المخل بحكمة التعاوض ﴿ انى اراكم بخير ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس أو بنعمة حقها ان تتفضلوا على الناس شكرا عليها لا ان تنقصوا حقوقهم أو بسعة فلا تزيلوها بما انتم عليه وهو فى الجملة علة النهى ﴿ وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ لا يشذ منه احد منكم وقيل عذاب مهلك من قوله واحيط بثمره والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال وتوصيف اليوم بالاحاطة وهى صفة العذاب لاشتماله عليه ﴿ وياقوم اوفوا المكيال والميزان ﴾ صرح بالامر بالايفاء بعد النهى عن ضده مبالغة وتنبيها على انه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف بل يلزمهم السعى فى الايفاء ولو بزيادة لا يتأتى دونها ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان فان الازدياد ايفاء وهو مندوب غير مأمور به وقد يكون محظورا ﴿ ولا تبخسوا الناس اشياءهم ﴾ تعميم بعد تخصيص فانه اعم من ان يكون

ان يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصا والوجه الآخر هو استيفاء الكيل والوزن لانفسهم زائدا عن حقهم فيكون نقصا فى مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿ انى أراكم بخير ﴾ قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة ان لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله ﴿ وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ يعنى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿ وياقوم أوفوا المكيال والميزان ﴾ أى أتموهما ولا تطففوا فيهما ﴿ بالقسط ﴾ أى بالعدل وقيل بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال ﴿ ولا تبخسوا الناس ﴾ اى ولا تنقصوا الناس ﴿ أشياءهم ﴾ يعنى اموالهم * فان قلت وقد وقع التكرار فى هذه القصة من ثلاثة أوجه لانه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولا تبخسوا الناس اشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة فى هذا التكرار * قلت ان القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج فى المنع منه الى المبالغة فى التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل وهذا غير الاول ومغاير له * ولقائل ان يقول النهى ضد الامر فالتكرار لازم على هذا الوجه * قلنا الجواب عن هذا قد يجوز ان ينهى عن التنقيص ولا يامر بايفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتريد المبالغة فى الامر والنهى وأما قوله ثانيا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضا لانه سبحانه وتعالى لما خصص النهى عن التنقيص والامر بايفاء الحق فى الكيل والوزن عم الحكم فى جميع الاشياء التى يجب ايفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والذرع وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار

أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون (وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) مهلك من قوله وأحيط بثمره وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب الاستئصال فى الدنيا أو عذاب الآخرة (وياقوم أوفوا المكيال والميزان) أتموهما (بالقسط) بالعدل نهوا أولا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ثم ورد الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول لزيادة الترغيب فيه وجىء به مقيدا بالقسط أى ليكن الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) البخس النقص كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا

بالكيل والوزون (انى أراكم بخير) بسعة ومال ورخص السعر (وانى أخاف عليكم) ان لم تؤمنوا به ولم توفوا بالكيل والوزن (عذاب يوم محيط) يحيط بكم ولا ينفلت منكم أحد من القحط والجدوبة وغير ذلك (وياقوم أوفوا المكيال والميزان) أى اتموا الكيل والوزن (بالقسط) بالعدل (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) لا تنقصوا حقوق الناس

عن ذلك (ولا تعثـوا فى الارض مفسدين) العثى والعبث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثيامنهم فى الارض (بقيت الله) مايبـقى لكم من الحـلال بعـد التنزه عمـاهو حـرام عليكم (خـير لكم ان كنتم مؤمنين) بشرط ان تؤمنوا نعم بقية الله خير للكفرة أيضا لانهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف الاان فائدتها تظهر مع الايمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ولا تظهر مع عدمه لانغماس صاحبهـا فى غمرات الكفر وفى ذلك تعظيم للايمان وتنبيه على جلالة شأنه أو المراد ان كنتم مصدقين لى فيما أقول لكم وأنصح به اياكم (وما أنا عليكم بحفيظ) لنعمه عليكم فاحفظوها بترك البخس (قالو ياشعيب أصلوتك) وبالتوحيد كوفى غير أبى بكر (تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنـا مانشاء) كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه يقولون له ماتستفيد بهذا فكان يقول انها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح فقالوا له على وجه الاستهزاء أصلواتك تأمرك أن تأمرنا بترك عبادة ماكان يعبـد آباؤنا أو أن نترك التبسط فى أمولنا مانشـاء من ايفاء ونقص وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازا كما سماها الله تعالى ناهية مجازا بالكيل والوزن (ولا تعثوا فى الارض مفسـدين) لا تعملوا فى الارض بالفساد

فى المقدار أو فى غيره وكذا قوله ﴿ ولا تعثوا فى الارض مفسدين ﴾ فان العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من انواع الفساد وقيل المراد بالبخس المكس كاخذ العشور من المعاملات والعثو السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج مايقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام وقيل معناه ولا تعثوا فى الارض مفسدين امر دينكم ومصالح آخرتكم ﴿ بقية الله ﴾ ما ابقـاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿ خير لكم ﴾ مما تجمعون بالتطفيف ﴿ ان كنتم مؤمنين ﴾ بشرط ان تؤمنوا فان خيريتهـا باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان أو ان كنتم مصدقين لى فى قولى لكم وقيل البقية الطاعة لقوله والبـاقيات الصالحـات * وقرئ تقية الله بالتاء وهى تقواه التى تكف عن المعاصى ﴿ وما انا عليكم بحفيظ ﴾ احفظكم عن القبائح أو احفظ عليكم اعمالكم فاجازيكم عليهـا وانما انا ناصح مبلغ وقد اعـذرت حين انذرت أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم ﴿ قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا ﴾ من الاصنام اجابوا به بعد امرهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهكم بصلواته والاشعار بان مثله لا يدعو اليه داع عقلى وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ماتواظب عليه وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جمعوا وخصوا الصلوة بالذكر * وقرأ حمزة والكسائى وحفص على الافراد والمعنى أصلواتك تأمرك بتكليف ان نترك فحذف المضاف لان الرجل لا يؤمر بفعل غيره ﴿ أو ان نفعل فى اموالنا مانشاء ﴾ عطف على ما أى وان نترك فعلنا مانشاء فى اموالنا * وقرئ بالتاء فيهما على ان العطف على ان نترك وهو جواب النهى عن التطفيف والامر بالايفاء

والله أعلم * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تعثوا فى الارض مفسدين ﴾ يعنى بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم ﴿ بقيت الله خير لكم ﴾ قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعنى طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعنى ما أبقاه لكم مـن الثواب فى الآخرة خـير لكم مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام ﴿ ان كنتم مؤمنين ﴾ يعنى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ يعنى احفظ اعمالكم قال بعضهم انما قال لهم شعيب ذلك لانه لم يؤمر بقتالهم ﴿ قالوا ياشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ﴾ يعنى من الاصنام ﴿ أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ﴾ يعنى من الزيادة والنقصان قال ابن عباس كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل انهم كانوا يمرون به فيرونه يصلى فيستهزؤن

وبعبادة الاوثان ودعاء الناس اليها وبخس الكيل والوزن (بقيت الله) ثواب الله على وفاء الكيل والوزن (به) (خير لكم) ويقال مايبقى الله لكم من الحلال خير لكم مما تبخسون بالكيل والوزن (ان كنتم مؤمنين) مصدقين بما أقول لكم (وما أنا عليكم بحفيظ) بكفيل احفظكم لانه لم يكن مأمورا بقتالهم (قالوا ياشعيب اصلواتك) كثرة صلواتك (تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) من الاوثان (أو أن نفعل) لا نفعل (فى أموالنا مانشاء) من البخس فى الكيل والوزن

(انك لأنت الحليم الرشيد) أى السفيه الضال وهذه تسمية على القلب استهزاء أوانك

وقيل كان ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير فارادوا به ذلك ﴿انك لأنت الحليم الرشيد﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك أوعللوا انكار ماسمعوا منه واستبعاده بانه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة الى امثال ذلك ﴿قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى﴾ اشارة الى ماآتاه الله من العلم والنبوة ﴿ورزقنى منه رزقا حسنا﴾ اشارة الى ماآتاه الله من المال الحلال وجواب الشرط محذوف تقديره فهل يسع لى مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان اخون فى وحيه واخالفه فى امره ونهيه وهو اعتذار عماانكروا عليه من تغيير المألوف والنهى عن دين الآباء والضمير فى منه لله أى من عنده وباعانته بلا كدمنى فى تحصيله ﴿وماأريد ان اخالفكم الى ماانهاكم عنه﴾ أى وماأريد ان آتى ماانهاكم عنه لاستبدبه دونكم فلوكان صوابا لآثرته ولم اعرض عنه فضلا عن ان انهى عنه يقال خالفت زيدا الى كذا اذاقصدته وهو مول عنه

به ويقولون هذه المقالة وقال الاعمش أقراءتك لان الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعنى أدينك يأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أوأن نفعل فى أموالنا مانشاء وذلك انهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم انه محرم عليهم وانما ذكر الصلاة لانها من أعظم شعائر الدين ﴿انك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال ابن عباس أرادوا السفيه الغاوى لان العرب قد تصف الشئ بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية وقيل معناه انك لأنت الحليم الرشيد فى زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه انك ياشعيب فينا حليم رشيد فلا يحمد بك شق عصا قومك ومخالفتهم فى دينهم ﴿قال﴾ يعنى قال لهم شعيب ﴿ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى﴾ يعنى على بصيرة وهداية وبيان ﴿ورزقنى منه رزقا حسنا﴾ يعنى حلالا قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ماآتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب ان الشرطية محذوف تقديره أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعنى مع هذه النعمة أن أخون فى وحيه وأن أخالف أمره أوأتبع الضلال أوأبخس الناس اشياءهم وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك انهم قالوا له انك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة ✲ وقوله ﴿وماأريد أن أخالفكم الى ماانهاكم عنه﴾ قال صاحب الكشاف يقال خالفنى فلان الى كذا اذاقصده وانت مول عنه وخالفنى عنه اذاولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد انه قد ذهب اليه واردا وأناذاهب عنه صادرا ومنه قوله وماأريد أن أخالفكم الى ماانهاكم عنه أى أن أسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لاستبد بها دونكم ✲ قال الامام فخر الدين الرازى وتحقيق الكلام فيه ان القوم اعترفوا فيها بانه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصوب الاصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا أن الذى اخترته لنفسى هو

حليم رشيد عندنا ولست تفعل بنا ما تقتضيه حالك (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه) من لدنه (رزقا حسنا) يعنى النبوة والرسالة أو مالا حلالا من غير بخس وتطفيف وجواب أرأيتم محذوف أى اخبرونى ان كنت على حجة واضحة من ربى وكنت نبيا على الحقيقة أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى والانبياء لايبعثون الالذلك يقال خالفنى فلان الى كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذاولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد انه قد ذهب اليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله (وماأريد أن أخالفكم الى ماانهاكم عنه) يعنى أن أسبقكم الى شهواتكم

(انك لأنت الحليم الرشيد) السفيه الضال استهزاء به (قال ياقوم أرأيتم ان كنت) يقول انى (على بينة من ربى) على بيان نزل من ربى (ورزقنى منه رزقا حسنا) أكرمنى بالنبوة والاسلام وأعطانى مالا حلالا (وما أريد ان أخالفكم الى ماأنهاكم عنه) (قا و خا ٤٥ لث) يقول ماريدان افعل ماأنهاكم عنه من البخس فى الكيل والوزن

وخالفته عنه اذا كان الامر بالعكس ﴿ان اريد الاالاصلاح مااستطعت﴾ ماريد الاان اصلحكم بامرى بالمعروف ونهيي عن المنكر مادمت استطيع الاصلاح فلو وجدت الصلاح فيماانتم عليه لما نهيتكم عنه ولهذه الاجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن وهو التنبيه على ان العاقل يجب ان يراعى فى كل مايأتيه ويذره احد حقوق ثلاثة اهمها واعلاها حق الله تعالى وثانيها حق النفس وثالثها حق الناس وكل ذلك يقتضى ان آمركم بما امرتكم به وانهاكم عمانهيتكم عنه ومامصدرية واقعة موقع الظرف وقيل خبرية بدل من الاصلاح أى المقدار الذى استطعته أواصلاح مااستطعته فحذف المضاف ﴿ وما توفيقى الابالله ﴾ وماتوفيقى لاصابة الحق والصواب الابهدايته ومعونته ﴿ عليه توكلت ﴾ فانه القادر المتمكن من كل شئ وماعداه عاجز فى حدذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار وفيه اشارة الى محض التوحيد الذى هواقصى مراتب العلم بالمبدأ ﴿ واليه انيب ﴾ اشارة الى معرفة المعاد وهو ايضا يفيد الحصر بتقديم الصلة على الله وفى هذه الكلمات طلب التوفيق لاصابة الحق فيمايأتيه ويذره من الله تعالى والاستعانة به فى مجامع امره والاقبال عليه بشراشره وحسم اطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وتهديدهم بالرجوع الى الله للجزاء ﴿ وياقوم لايجرمنكم ﴾ لايكسبنكم ﴿ شقاقى ﴾ معاداتى ﴿ ان يصيبكم مثل مااصاب قوم نوح ﴾ من الغرق ﴿ أوقوم هود ﴾ من الريح ﴿ أوقوم صالح ﴾ من الرجفة وان بصلتها ثانى مفعولى

أصوب الطرق وأصلحها وهو الدعوة الى توحيد الله وترك البخس والنقصان فأنا مواظب عليها غير تارك لها فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها الا ماانتم عليه وقال الزجاج معناه أنى لست أنهاكم عن شئ وأدخل فيه انما أختار لكم ماأختار لنفسى وقال ابن الانبارى بين ان الذى يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو مايرتضيه لنفسه ولا ينطوى الاعليه فكان هذا محض النصيحة لهم ﴿ان أريد﴾ يعنى ماأريد فيما آمركم به وانهاكم عنه ﴿ الا الاصلاح ﴾ يعنى فيما بينى وبينكم ﴿مااستطعت﴾ يعنى مااستطعت الا الاصلاح وهو الابلاغ والانذار فقط ولاأستطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله فانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وماتوفيقى الابالله ﴾ التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك الا الله تعالى فلذلك قال تعالى وماتوفيقى الابالله ﴿عليه توكلت﴾ يعنى على الله اعتمدت فى جميع أمورى ﴿ واليه أنيب ﴾ يعنى واليه أرجع فيماينزل من النوائب وقيل اليه ارجع فى معادى ، روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه * وقوله تعالى ﴿ وياقوم لايجرمنكم شقاقى ﴾ أى لايحملنكم خلافى وعداوتى ﴿ أن يصيبكم ﴾ يعنى عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة ﴿ مثل ماأصاب قوم نوح ﴾ يعنى الغرق ﴿ أوقوم هود ﴾ يعنى الريح التى أهلكتهم ﴿ أوقوم صالح ﴾ يعنى ماأصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعا

التى نهيتكم عنها لاستبد بها دونكم (ان أريد الا الاصلاح) ماريد الآن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيي عن المنكر (مااستطعت) ظرف أى مدة استطاعتى للاصلاح ومادمت متمكنا منه لاآلوفيه جهدا (وماتوفيقى الابالله) وما كونى موفقا لاصابة الحق فيماآتى وأزر الابمعونته وتأييده (عليه توكلت) اعتمدت (واليه أنيب) أرجع فى السراء والضراء جرم مثل كسب فى تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين ومنه قوله (وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم) أى لايكسبنكم خلافى اصابة العذاب (مثل ماأصاب قوم نوح أوقوم هود أوقوم صالح

(ان أريد) ما أريد (الا الاصلاح) العدل بالكيل والوزن (مااستطعت وما توفيقى) بوفاء الكيل والوزن (الابالله) من الله (عليه توكلت) فوضت أمرى اليه (واليه أنيب) اقبل وياقوم لايجرمنكم) يحملنكم (شقاقى) بغضى وعداوتى حتى لا تؤمنوا ولاتوفوا بالكيل والوزن (أن يصيبكم) فيصيبكم (مثل ماأصاب قوم نوح) يعنى عذاب قوم نوح من الغرق والطوفان (أوقوم هود) الهلاك بالريح (أوقوم صالح) الصيحة (وما)

جرم فانه يعدى الى واحد والى اثنين ككسب وعن ابن كثير يجرمنكم بالضم وهو منقول من المتعدى الى مفعول والاول افصح فان اجرم اقل دورانا على ألسنة الفصحاء *وقرئ مثل بالفتح لاضافته الى المبنى كقوله

لم يمنع الشرب منها غير ان نطقت * حمامة فى غصون ذات اوقال

﴿ وماقوم لوط منكم ببعيد ﴾ زمانا أومكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم أوليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوى فلايبعد عنكم مااصابهم وافراد البعيد لان المراد وماا هلاكهم أووماهم بشئ بعيد ولايبعد ان يسوى فى امثاله بين المذكر والمؤنث لانها على زنة المصادر كالصهيل والشهيق ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ﴾ عماانتم عليه ﴿ ان ربى رحيم ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿ ودود ﴾ فاعل بهم من اللطف والاحسان مايفعل البليغ المودة بمن يوده وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الاصرار ﴿ قالوا ياشعيب مانفقه ﴾ مانفهم ﴿ كثيرا مماتقول ﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس وماذكرت دليلا عليهما وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم وقيل قالوا ذلك استهانة بكلامه أولانهم لم يلقوا اليه اذهانهم لشدة نفرتهم عنه ﴿ وانا لنراك فينا ضعيفا ﴾ لاقوة لك فتمتنع منا ان اردنا بك سوأ أومهينا لاعزلك وقيل اعمى بلغة حمير وهو مع عدم مناسبته يرده التقييد بالظرف ومنع بعض المعتزلة استنباء الاعمى قياسا على القضاء والشهادة والفرق بين ﴿ ولولا رهطك ﴾ قومك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لالخوف من شوكتهم فان الرهط من الثلاثة الى العشرة وقيل الى التسعة ﴿ لرجمناك ﴾ لقتلناك برمى الاحجار أوباصعب

﴿ وماقوم لوط منكم ببعيد ﴾ وذلك انهم كانوا احديثى عهد بهلاكهم وقيل معناه وماديار قوم لوط منكم ببعيد وذلك انهم كانوا اجيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم ﴿ واستغفروا ربكم ﴾ يعنى من عبادة الاصنام ﴿ ثم توبوا اليه ﴾ يعنى من البخس والنقصان فى الكيل والوزن ﴿ ان ربى رحيم ﴾ يعنى بعباده اذا تابوا واستغفروا ﴿ ودود ﴾ قال ابن عباس الودود المحب لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده اذا أحببته وقيل يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه ان عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة افضاله واحسانه اليهم وقال الحليمى هو الواد لاهل طاعته أى الراضى عنهم باعمالهم والمحسن اليهم لاجلها والمادح لهم بها وقال أبو سليمان الخطابى وقد يكون معناه من تودد الى خلقه ﴿ قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مماتقول ﴾ يعنى مانفهم ماتدعونا اليه وذلك ان الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لاتعى ولاتفهم ماينفعها وان كانوا فى الظاهر يسمعون ويفهمون ﴿ وانا لنراك فينا ضعيفا ﴾ قال ابن عباس وقتادة كان أعمى قال الزجاج ويقال ان حمير كانوا يسمون المكفوف ضعيفا وقال الحسن وأبو روق ومقاتل يعنى ذليلا قال أبو روق ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا أعمى ولا نبيا به زمانة وقيل كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذى يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول مابعده وهو قوله ﴿ ولولا رهطك ﴾ يعنى جماعتك وعشيرتك قيل الرهط مابين الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة ﴿ لرجمناك ﴾

وهو الغرق والريح والرجفة (وماقوم لوط منكم ببعيد) فى الزمان فهم أقرب الهالكين منكم أو فى المكان فمنازلهم قريبة منكم أوفيما يستحق به الهلاك وهو الكفر والمساوى وسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم) يغفر لاهل الجفاء من المؤمنين (ودود) يحب أهل الوفاء من الصالحين (قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مماتقول) أى لانفهم صحة ماتقول والا فكيف لايفهم كلامه وهو خطيب الانبياء (وانا لنراك فينا ضعيفا) لاقوة لك ولاعز فيما بيننا فلاتقدر على الامتناع منا ان أردنا بك مكروها (ولولا رهطك لرجمناك) ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم وهو شر قتلة وكان رهطه من أهل ملتهم

(وماقوم لوط) ماخبر قوم لوط (منكم ببعيد) قد بلغكم ماأصابهم (واستغفروا ربكم) وحدوا ربكم (ثم توبوا اليه) اقبلوا اليه بالتوبة والاخلاص (ان ربى رحيم) بعباده المؤمنين (ودود) متودد اليهم بالمغفرة والثواب ويقال محب لهم ويحببهم الى الخلق ويقال يحبب اليهم طاعته (قالوا ياشعيب مانفقه) ما نعقل (كثيرا مما تقول) مما تأمرنا (وانا لنراك فينا ضعيفا) ضرير البصر (ولولا رهطك) قومك (لرجمناك) لقتلناك

فلذلك أظهروا الميل اليهم والاكرام لهم (وماأنت علينا بعزيز) أى لاتعز علينا ولاتكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من أهل ديننا وقد دل ايلاء ضميره حرف النفى على ان الكلام واقع فى الفاعل لا فى الفعل كانه قيل وماأنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا ولذلك (قال) فى جوابهم (ياقوم ارهطى أعز عليكم من الله) ولو قيل وماعززت علينا لم يصح

هذا الجواب وانما قال أرهطى أعز عليكم من الله والكلام واقع فيه وفى رهطه وانهم الاعزة عليهم دونه لان تهاونهم به وهو نبى الله تهاون بالله وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ألاترى الى قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا)ونسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر لايعبأ به والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب كقولهم فى النسبة الى الامس امسى (ان ربى بما تعملون محيط) قد احاط باعمالكم علما فلا يخفى عليه شئ منها (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) هى بمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة أو مصدر من مكن مكانة فهو مكين اذا تمكن من الشئ يعنى اعملوا قارين على جهتكم التى أنتم عليها من الشرك والشنآن لى أو اعملوا متمكنين من عداوتى مطيقين لهـا (انى عامل) على حسب مايؤتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى (سوف تعلمون

﴿ للتفنن ﴾

وجه ﴿ وماانت علينا بعزيز ﴾ فتمنعنا عزتك عن الرجم وهذا ديدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد وفى أيلاء ضميره حرف النفى تنبيه على ان الكلام فيه لافى ثبوت العزة وان المانع لهم عن ايذائه عزة قومه ولذلك ﴿ قال ياقوم ارهطى اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ وجعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء الظهر باشراككم به والاهانة برسوله فلاتبقون على الله وتبقون على لرهطى وهو يحتمل الانكار والتوبيخ والرد والتكذيب وظهريا منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ﴿ ان ربى بما تعملون محيط ﴾ فلايخفى عليه شئ منها فيجازى عليها ﴿ وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون

يعنى لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول ﴿ وماانت علينا بعزيز ﴾ يعنى بكريم وقيل بممتنع منا والمقصود من هذا الكلام وحاصله انهم بينوا لشعيب عليه السلام انه لاحرمة له عندهم ولاوقع له فى صدورهم وانهم انما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لاجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لانهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله ﴿ قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله ﴾ يعنى أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلى لمكان رهطى عندكم فالاولى ان تحفظونى فى الله ولاجل الله لا لرهطى لان الله أعز وأعظم ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ يعنى ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشئ الملقى الذى لايلتفت اليه ﴿ ان ربى بما تعملون محيط ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى عالم باحوالكم جميعا لايخفى عليه منها شئ فيجازيكم بها يوم القيامة ﴿ وياقوم اعملوا على مكانتكم ﴾ يعنى على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بعناية المكنة والقدرة من الشر ﴿ انى عامل ﴾ يعنى ماأقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الامر فى قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿ سوف تعلمون ﴾ أينا الجانى على نفسه المخطئ فى فعله * فان قلت أى فرق بين ادخال الفاء ونزعها فى قوله سوف تعلمون * قلت ادخال الفاء فى قوله فسوف تعلمون وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها فى قوله سوف تعلمون وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فمايكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعنى عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف

(وماأنت علينا بعزيز) كريم (قال ياقوم أرهطى) قومى (أعز عليكم من الله) من كتابه ودينه ويقال عقوبة رهطى اشد عليكم من عقوبة الله (واتخذتموه)نبذتموه (وراءكم ظهريا) خلف ظهركم ماجئت به من الكتاب (ان ربى بما تعملون) بعقوبة ماتعملون (محيط)عالم (وياقوم اعملوا على مكانتكم) على دينكم فى منازلكم بهلاكى (انى عامل) بهلاككم (سوف تعلمون

من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها كأنه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه أي يفضحه وأينا هو كاذب أو موصولة قد عمل فيها كأنه قيل سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب في زعمكم ودعواكم وادخال الفاء في سوف وصل ظاهر بحرف وضع للوصل ونزعها وصل تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون والاتيان بالوجهين للتفنن في البلاغة وأبلغهما الاستئناف

(وارتقبوا) وانتظروا العاقبة وما أقول لكم (اني معكم رقيب) منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب بمعنى الضارب أو بمعنى المراقب كالعشير بمعنى المعاشر أو بمعنى المرتقب كالرفيع بمعنى المرتفع (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة) صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا وانما ذكر في آخر قصة عاد ومدين ولما جاء وفي آخر قصة ثمود ولوط فلما جاء لانهما وقعا بعد ذكر الموعد وذلك قوله ان موعدهم الصبح ذلك وعد غير مكذوب فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب كقولك وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت وأما الاخريان فقد وقعتا مبتدأتين فكان حقهما ان تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة (فاصبحوا في ديارهم جاثمين) الجاثم اللازم لمكانه لا يريم يعني ان جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو بغتة (كأن لم يغنوا فيها) كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين

من يأتيه عذاب يخزيه ❁ سبق مثله في سورة الانعام والفاء في فسوف تعلمون ثمه للتصريح بان الاصرار والتمكن فيما هم عليه سبب لذلك وحذفها ههنا لانه جواب سائل قال فماذا يكون بعد ذلك فهو ابلغ في التهويل ❁ ومن هو كاذب ❁ عطف على من يأتيه لا لانه قسيم له كقولك ستعلم الكاذب والصادق بل لانهم لما اوعدوه وكذبوه قال سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الاول اليهم والثاني اليه لكنهم لما كانوا يدعونه كاذبا قال ومن هو كاذب على زعمهم ❁ وارتقبوا ❁ وانظروا ما اقول لكم ❁ اني معكم رقيب ❁ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع ❁ ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ❁ انما ذكره بالواو كما في قصة عاد اذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فانه ذكر بعد الوعد وذلك قوله وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جاء بفاء السببية ❁ واخذت الذين ظلموا الصيحة ❁ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا ❁ فاصبحوا في ديارهم جاثمين ❁ ميتين واصل الجثوم اللزوم في المكان ❁ كأن لم يغنوا فيها ❁ كأن لم يقيموا فيها

للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من ابواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون ❁ من يأتيه عذاب يخزيه ❁ يعني بسبب عمله السيء أو أينا الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه ❁ ومن هو كاذب ❁ يعني فيما يدعيه ❁ وارتقبوا ❁ يعني وانتظروا العاقبة وما يؤول اليه أمري وأمركم ❁ اني معكم رقيب ❁ أي منتظر والرقيب بمعنى المراقب ❁ ولما جاء أمرنا ❁ يعني بعذابهم واهلاكهم ❁ نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ❁ يعني بفضل منا بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة ❁ وأخذت الذين ظلموا ❁ يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس ❁ الصيحة ❁ وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة واحدة من السماء فماتوا جميعا ❁ فاصبحوا في ديارهم جاثمين ❁ يعني ميتين وهو استعارة من قولهم جثم الطير اذا قعد ولطأ بالارض ❁ كأن لم يغنوا فيها ❁ يعني كأن

من يأتيه) الى من يأتيه (عذاب يخزيه) يذله ويهلكه (ومن هو كاذب) على الله (وارتقبوا) انتظروا الهلاكي (اني معكم رقيب) منتظر لهلاككم (ولما جاء امرنا) عذابنا (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) بنعمة منا (وأخذت الذين ظلموا) أشركوا يعني قوم شعيب (الصيحة) بالعذاب (فأصبحوا في ديارهم) فصاروا في مساكنهم (جاثمين) ميتين رمادا (كأن لم يغنوا فيها) كأن لم يكونوا في الارض

متر ددين (ألا بعدالمدين) البعد بمعنى البعد وهو الهلاك كالرشد بمعنى الرشد ألا ترى الى قوله (كما بعدت ثمود) وقرئ كما بعدت والمعنى فى البنائين واحد وهو نقيض القرب الا انهم فرقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضمانى الخير والشر فقالوا وعد وأوعد (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) المراد به العصا لانها أبهرها (الى فرعون وملئه فاتبعوا) أى الملأ (أمر فرعون وماأمر فرعون برشيد) هو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه على أمره وهو ضلال مبين وذلك انه ادعى الالوهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالظلم والشر الذى لا يأتى الا من شيطان ومثله بمعزل عن الالوهية وفيه انهم عاينوا الآيات والسلطان المبين وعلموا ان مع موسى الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه الى اتباع من ليس فى أمره رشد قط أو المراد وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله (يقدم قومه يوم القيمة) أى يتقدمهم وهم على عقبه تفسيرا له وايضاحا أى كيف يرشد أمر من هذه عاقبته والرشد يستعمل فى كل مايحمد ويرتضى كما استعمل الغى فى كل مايذم ويقال قدمه بمعنى تقدمه (فاوردهم النار) ادخلهم وجئ بلفظ الماضى لان الماضى يدل على أمر موجود مقطوع به فكانه قيل

قط (ألا بعدالمدين) لقوم شعيب من رحمة الله (كما بعدت ثمود) قوم صالح من رحمة الله وكان عذاب قوم صالح و قوم شعيب (فيدخلهم) سواء كلاهما كان الصيحة بالعذاب اصابهم حر شديد فقوم صالح اتاهم من تحت ارجلهم العذاب و قوم شعيب أتاهم من فوق رؤسهم العذاب (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) التسع (وسلطان مبين) حجة بينة والآيات هى حجة بينة (الى فرعون وملئه) رؤسائه (فاتبعوا أمر فرعون) وتركوا قول موسى (وما امر فرعون) قول فرعون (برشيد) بصواب (يقدم قومه) يتقدم ويقود قومه (يوم القيمة فأوردهم النار)

﴿ ألا بعدالمدين كما بعدت ثمود ﴾ شبههم بهم لان عذابهم كان ايضا بالصيحة غير ان صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم • وقرئ بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر المكسور ﴿ ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ﴾ بالتوراة أو المعجزات ﴿ وسلطان مبين ﴾ وهو المعجزات القاهرة أو العصا وافردها بالذكر لانها ابهرها ويجوز ان يراد بهما واحد أى ولقد ارسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه أو موضحا اياها فان ابان جاء لازما ومتعديا والفرق بينهما ان الآية تعم الامارة والدليل القاطع والسلطان يخص بالقاطع والمبين يخص بما فيه جلاء ﴿ الى فرعون وملئه فاتبعوا امر فرعون ﴾ فاتبعوا امره بالكفر بموسى أو فما اتبعوا موسى الهادى الى الحق المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة واتبعوا طريقة فرعون المنهمك فى الضلال والطغيان الداعى الى ما لا يخفى فساده على من له ادنى مسكة من العقل لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم ﴿ وما امر فرعون برشيد ﴾ مرشد أو ذى رشد وانما هو غى محض وضلال صريح ﴿ يقدم قومه يوم القيمة ﴾ الى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا الى الضلال يقال قدم بمعنى تقدم ﴿ فاوردهم النار ﴾ ذكره بلفظ الماضى مبالغة فى تحقيقه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى

لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره ﴿ ألا بعدا ﴾ يعنى هلاكا ﴿ لمدين كما بعدت ثمود ﴾ قال ابن عباس لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فاخذتهم الصيحة من فوقهم * قوله عز وجل ﴿ ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ﴾ يعنى بحججنا والبراهين التى اعطيناه الدالة على صدقه ونبوته ﴿ وسلطان مبين ﴾ يعنى ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه أيضا قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره وقال الزجاج السلطان هو الحجة وسمى السلطان سلطانا لانه حجة الله فى الارض ﴿ الى فرعون وملئه ﴾ يعنى اتباعه وأشراف قومه ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ يعنى ما هو عليه من الكفر وترك الايمان بما جاءهم به موسى ﴿ وما امر فرعون برشيد ﴾ يعنى وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو الى خير ﴿ يقدم قومه يوم القيمة فاوردهم النار ﴾ يعنى كما تقدم قومه فادخلهم البحر فى الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة

يقدمهم فيوردهم النـار لامحالة يعنى كما كان قدوة لهم فى الضـلال كذلك يتقدمهم الى النـار وهم يتبعونه (وبئس الورد) المورد و (المورود) الذى وردوه شبه بالفارط الذى يتقـدم الواردة الى الماء وشبه اتباعه بالواردة ثم قال بئس الورد المورود الذى يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش والنار ضده (وأتبعوا فى هذه) أى الدنيا (لعنة ويوم القيمة) أى يلعنون فى الدنيا ويلعنون فى الآخرة (بئس الرفد المرفود) رفدهم أى بئس العون المعان أو بئس العطاء المعطى (ذلك مبتدأ (من أنباء القرى) خبر (نقصه عليك) خبر بعـد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليـك (منها) من القرى (قائم وحصيد) أى بعضهـا باق وبعضها عافى الأثر كالزرع القائم على ساقه والذى حصد والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب (وماظلمناهم) باهلاكنا اياهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بارتكاب

اتباعهـا موردا ثم قال ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أى بئس المورد الذى وردوه فانه يراد لتبريد الاكباد وتسكين العطش والنار بالضد والآية كالدليل على قوله وماامر فرعون برشـيد فان من هذه عاقبته لم يكن فى امره رشـد أو تفسـير له على ان المراد بالرشـد مايكـون مأمون العـاقبة حميـدها ﴿ واتبعوا فى هـذه لعنة ويوم القيمـة ﴾ أى يلعنون فى الدنيا والآخرة ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ بئس العون المعان أو العطاء المعطى واصل الرفد مايضاف الى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهو اللعنة فى الدارين ﴿ ذلك ﴾ أى ذلك النبأ ﴿ من انباء القرى ﴾ المهلكة ﴿ نقصه عليك ﴾ مقصوص عليك ﴿ منها قائم ﴾ من تلك القرى باق كالزرع القائم ﴿ وحصيد ﴾ ومنها عافى الاثر كالزرع المحصود والجملة مستأنفة وقيل حال من الهـاء فى نقصه وليس بصحيح اذلا واو ولا ضمير ﴿ وماظلمنـاهم ﴾ باهلاكنـا اياهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بان

فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم والمعنى كما كان قدوتهم فى الضلال والكفر فى الدنيا فكذلك هو قدتهم وامامهم فى النـار ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ يعنى وبئس المدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون فى تقدمه على قومه الى النار بمن يتقدم على الوارد الى الماء وشبه اتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محمودا عند الواردين لانه يكسر العطش قال فى حق فرعون وأتباعه فاوردهم النار وبئس الورد المورود لان الاصل فيه قصد الماء واستعمل فى ورود النار على سبيل الفظاعة ﴿ وأتبعوا فى هذه ﴾ يعنى فى هذه الدنيا ﴿ لعنة ﴾ يعنى طردا وبعدا عن الرحمة ﴿ ويوم القيمة ﴾ يعنى واتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التى حصلت لهم فى الدنيا ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ يعنى بئس العون المعان وذلك ان اللعنة فى الدنيا رفد للعنة فى الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك انه ترادف عليهم لعنتان لعنة فى الدنيـا ولعنة فى الآخرة ﴿ وقوله سبحانه وتعـالى ﴿ ذلك من انباء القرى ﴾ يعنى من أخبار أهل القرى وهم الامم السالفة والقرون الماضية ﴿ نقصه عليك ﴾ يعنى نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل مانزل بهم من العذاب ﴿ منها ﴾ يعنى من القرى التى أهلكنا أهلها ﴿ قائم وحصيد ﴾ يعنى منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعنى الحيطان بغير سقوف ومنها ماقد محى أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذى بعضه قائم على سـوقه وبعضه قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود ﴿ وماظلمناهم ﴾ يعنى بالعذاب والاهلاك ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ يعنى بالكفر والمعاصى

فأدخلهم النار (وبئس الورد المورود) بئس المدخل فرعون وبئس المدخل قومه ويقال بئس الداخل فرعون وبئس المدخل قومه ويقال بئس الداخل فرعون وقومه و بئس المدخـل النـار (وأتبعوا فى هذه لعنة) اهلكوا فى هذه الدنيا بالغرق (ويوم القيمة) لهم لعنة أخرى وهى النار (بئس الرفد المرفود) يقول بئس الغرق ورفده النار ويقال بئس العون وبئس المعان (ذلك) الذى ذكرت (من انباء القرى) فى الدنيا من أخبار قرى الماضية (نقصه عليك) ننزل عليك جبريل بأخبارها (منها قائم) ينظر اليها قد باد اهلها (وحصيد) منها ماقد خرب و هلك اهلها (وماظلمناهم) باهلاكهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والشرك و عبادة الاوثان

مابه أهلكوا (فما اغنت عنهم آلهتهم) فما قدرت أن تردعنهم بأس الله (التي يدعون) يعبدون و هي حكاية حال ماضية (من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك) عذابه ولما منصوب بما أغنت (وما زادهم وغير تتبيب) تخسير يقال تب اذا خسر و تببه غيره أوقعه في الخسران يعني وما أفادتهم

شيأ بل اهلكتهم (وكذلك) محل الكاف الرفع أي ومثل ذلك الاخذ (أخذ ربك اذا أخذ القرى) أي أهلها (وهي ظالمة) حال من القرى (ان أخذه أليم شديد) مؤلم شديد صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها فعلى كل ظالم ان يبادر التوبة ولا يغتر بالامهال (ان في ذلك) فيما قص الله من قصص الامم الهالكة (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) أي اعتقد صحته ووجوده (ذلك) اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له الناس) وهو مرفوع بمجموع كما يرفع فعله اذا قلت

عرضوها له بارتكاب مايوجبه ﴿ فما اغنت عنهم ﴾ فما نفعتهم ولا قدرت ان تدفع عنهم بل ضرتهم ﴿ آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء امر ربك ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ هلاك أو تخسير ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الاخذ ﴿ اخذ ربك ﴾ وقرئ أخذ ربك بالفعل فعلى هذا يكون محل الكاف النصب على المصدر ﴿ اذا اخذ القرى ﴾ اى اهلها وقرئ اذ لان المعنى على المضى ﴿ وهي ظالمة ﴾ حال من القرى وهي في الحقيقة لاهلها لكنها لما اقيمت مقامه اجريت عليها وفائدتها الاشعار بانهم اخذوا بظلمهم وانذار كل ظالم ظلم نفسه او غيره من وخامة العاقبة ﴿ ان اخذه اليم شديد ﴾ وجيع غير مرجو الخلاص عنه وهو مبالغة في التهديد والتحذير ﴿ ان في ذلك ﴾ أي فيما نزل بالامم الهالكة أو فيما قصه الله من قصصهم ﴿ لآية ﴾ لعبرة ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ يعتبر به عظة لعلمه بان ماحاق بهم انموذج مما اعد الله للمجرمين في الآخرة أو ينزجر به عن موجباته لعلمه بانه من اله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء فان من انكر الآخرة واحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار وجعل تلك الوقائع لاسباب فلكية اتفقت في تلك الايام لا للذنوب المهلكين بها ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى يوم القيامة وعذاب الآخرة دل عليه ﴿ يوم مجموع له الناس ﴾ أي يجمع له الناس والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وانه من شأنه لا محالة وان الناس لا ينفكون عنه فهو ابلغ من قوله يوم يجمعكم ليوم الجمع ومعنى الجمع له الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة

﴿ فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء امر ربك ﴾ يعني بعذابهم أي لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ يعني غير تخسير وقيل غير تدمير ﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ يعني وهكذا أخذ ربك ﴿ اذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ الضمير في وهي عائد على القرى والمراد أهلها ﴿ ان أخذه أليم شديد ﴾ (ق) عن ابي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد فالآية الكريمة والحديث دليل على ان من أقدم على ظلم فانه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى أهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية حكمها مختص بظالمي الامم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث والله اعلم ﴿ قوله عز وجل ﴿ ان في ذلك لآية ﴾ يعني ما ذكر من عذب الامم الخالية واهلاكهم لعبرة وموعظة ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ يعني ان اهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه في الآخرة لانه اذا نظر ما أحل الله باولئك الكفار في الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالانموذج مما أعدلهم في الآخرة اعتبر به فيكون زيادة في خوفه وخشيته من الله ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ يعني يوم القيامة

(فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون) يعبدون (من دون الله) من عذاب الله من شئ (لما جاء امر ربك) حين جاء عذاب ربك (وما زادوهم) عبادة الاوثان (غير تتبيب) غير تخسير (وكذلك اخذ ربك) عذاب ربك (اذا اخذ القرى) عذب أهل القرى (وهي ظالمة) مشركة كافر (ان أخذه) عذابه (أليم) وجيع (شديد) ان في ذلك) فيما ذكرت لك (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) فلا يقتدي بهم (ذلك) يوم القيامة (يوم مجموع له الناس) يجمع فيه (تجمع)

يجمع له الناس وانما آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم وانه أثبت أيضا الاسناد الجمع الى الناس وانهم لا ينفكون منه يجمعون للحساب والثواب والعقاب (وذلك يوم مشهود) أي مشهود فيه فاتسع في الظرف باجرائه مجرى المفعول به أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد (ومانؤخره) أي اليوم المذكور (الا لأجل معدود) الاجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها والعد انما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها فمعنى قوله ومانؤخره الا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف أوما نؤخر هذا اليوم الا لتنتهي المدة التي ضربناها لبقاء الدنيا (يوم يأت) وبالياء مكي وافقه أبو عمرو ونافع وعلي في الوصل واثبات الياء هو الاصل اذ لا علة توجب حذفها وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ونظيره ما كنا نبغ وفاعل يأت ضمير يرجع الى قوله يوم مجموع له الناس لا اليوم المضاف الى يأت ويوم منصوب باذكر أو بقوله (لاتكلم) أي لاتتكلم (نفس الا باذنه) أي لا يشفع أحد الا باذن الله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه (فمنهم) الضمير لاهل الموقف لدلالة لا تكلم نفس عليه وقد مر ذكر الناس في قوله مجموع له الناس (شقي) معذب (وسعيد)

﴿وذلك يوم مشهود﴾ أي مشهود فيه اهل السموات والارضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله

في محفل من نواصي الناس مشهود

اي كثر شاهدوه ولو جعل اليوم مشهودا في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتميزه فان سائر الايام كذلك ﴿ ومانؤخره ﴾ أي اليوم ﴿ الا لأجل معدود ﴾ الا لانتهاء مدة معدودة متناهية على حذف المضاف وارادة مدة التأجيل كلها بالاجل لا لمنتهاها فانه غير معدود ﴿ يوم يأتي ﴾ أي الجزاء أو اليوم لقوله ان تأتيهم الساعة على ان يوم بمعنى حين أو الله عز وجل كقوله هل ينظرون الا ان يأتيهم الله ونحوه * وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة ﴿ لا تكلم نفس ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة وهو الناصب للظرف ويحتمل نصبه اكتفاء باضمار اذكر أو بالانتهاء المحذوف ﴿ الا باذنه ﴾ الا باذن الله كقوله لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وهذا في موقف وقوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون في موقف آخر أو المأذون فيه هي الجوابات الحقة والممنوع عنه هي الاعذار الباطلة ﴿ فمنهم شقي ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿ وسعيد ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد والضمير لاهل الموقف

تجمع فيه الخلائق من الاولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدي رب العالمين ﴿وذلك يوم مشهود﴾ يعني يشهده أهل السماء وأهل الارض ﴿ومانؤخره الا لأجل معدود﴾ يعني ومانؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيمة الا الى وقت معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه أحد الا الله تعالى ﴿يوم يأت﴾ يعني ذلك اليوم ﴿ لا تكلم نفس الا باذنه﴾ قيل ان جميع الخلائق يسكتون في ذلك اليوم فلا يتكلم أحد فيه الا باذن الله تعالى * فان قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله اخبارا عن محاجة الكفار والله ربنا ما كنا مشركين والاخبار أيضا تدل على الكلام في ذلك اليوم * قلت يوم القيامة يوم طويل وله احوال مختلفة وفيه أهوال عظيمة ففي بعض الاحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الاهوال وفي بعض الاحوال يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون وفي بعضها تخفف عنهم تلك الاهوال فيحاجون ويجادلون وينكرون وقيل المراد من قوله لا تكلم نفس الا باذنه الشفاعة يعني لا تشفع نفس لنفس شيأ الا أن يأذن الله لها في الشفاعة ﴿فمنهم﴾ يعني فمن أهل الموقف ﴿ شقي وسعيد ﴾ الشقاوة خلاف السعادة والسعادة هي معاونة الامور الالهية للانسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة اخروية وهي السعادة القصوى لان نهايتها الجنة وكذلك الشقاوة على ضربين أيضا شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية

الاولون والآخرون (وذلك يوم مشهود) يشهده أهل السماء وأهل الارض (ومانؤخره) يعني ذلك اليوم (قا و خا ٤٦ لث) (الا لأجل معدود) لوقت معلوم (يوم يأت) ذلك اليوم (لا تكلم نفس) لا تشفع نفس صالحة لاحد (الا باذنه) بأمره (فمنهم) من الناس يومئذ (شقي) قد كتب عليه الشقاوة (وسعيد) قد كتب له السعادة

(وشهيق) هو آخره أو هما اخراج النفس ورده والجملة فى موضع الحال والعامل فيها الاستقرار الذى فى النار (خالدين فيها) حال مقدرة (ما دامت السموات والارض) فى موضع النصب أى مدة دوام السموات والارض والمراد سموات الآخرة وأرضها وهى دائمة مخلوقة للابد والدليل على ان لها سموات وأرضا قوله يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقيل ما دام فوق وتحت ولانه لا بد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء أو عرش وكل ما أظلك فهو سماء أو هو عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع كقول العرب ما لاح كوكب وغير ذلك من كلمات

وان لم يذكر لانه معلوم مدلول عليه بقوله لا تكلم نفس أو للناس ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى اول النهيق وآخره والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم باصوات الحمير وقرئ شقوا بالضم ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والارض ﴾ ليس لارتباط دوامهم فى النار بدوامهما فان النصوص دالة على تأبيد دوامهم وانقطاع دوامهما بل للتعبير عن التأبيد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل ولو كان للارتباط لم يلزم ايضا من زوال السموات والارض زوال عذابهم ولا من دوامهما دوامه الا من قبيل المفهوم لان دوامهما كالملزوم لدوامه وقد عرفت ان المفهوم لا يقاوم المنطوق وقيل المراد

(فاما الذين شقوا) كتب عليهم الشقاوة (ففى النار لهم فيها زفير) صوت كزفير الحمار فى صدره وهو أول ما ينهق (وشهيق) كشهيق الحمار فى حلقه وهو آخر ما يفرغ من نهيقه (خالدين فيها) دائمين فى النار (ما دامت السموات والارض) كدوام السموات والارض منذ

وهى الشقاوة القصوى لان نهايتها النار فالشقى من سبقت له الشقاوة فى الازل والسعيد من سبقت له السعادة فى الازل (ق) عن على بن أبى طالب قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية * بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة و مدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الانسان والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشئ بتلك المخصرة أو باليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه و استدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على ان أهل الموقف قسمان شقى و سعيد لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقى قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيآته وهم أصحاب الاعراف فى قول والاطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيآت فهؤلاء مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء و تخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفى القسم الثالث ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها ﴾ أى فى النار من العذاب والهوان ﴿ زفير وشهيق ﴾ أصل الزفير ترديد النفس فى الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق رد النفس الى الصدر أو الزفير مده و اخراجه من الصدر و قال ابن عباس الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقال الضحاك و مقاتل الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره اذا رده الى صدره وقال أبو العالية الزفير فى الحلق والشهيق فى الجوف ﴿ خالدين فيها ﴾ يعنى لابثين مقيمين فى النار ﴿ ما دامت السموات والارض ﴾ قال الضحاك يعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما ولا بد لاهل الجنة وأهل النار من سماء تظلهم وأرض تقلهم فكل ما علاك فاظلك فهو سماء وكل

سموات الآخرة وارضها ويدل عليه قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وان اهل الآخرة لابد لهم من مظل ومقل وفيه نظر لانه تشبيه بما لا يعرف اكثر الخلق وجوده ودوامه ومن عرفه فانما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدى له التشبيه ﴿ الا ما شاء ربك ﴾ استثناء من الخلود فى النار لان بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها وذلك كاف فى صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض وهو المراد بالاستثناء الثانى فانهم مفارقون عن الجنة ايام عذابهم فان التأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله فمنهم شقى وسعيد تقسيما صحيحا لان من شرطه ان تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك الشرط من حيث التقسيم لانفصال حقيقى أو مانع من الجمع وههنا المراد ان اهل الموقف لا يخرجون عن القسمين وان حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الامرين فى شخص باعتبارين أو لان اهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب احيانا وكذلك اهل الجنة ينعمون بما هو اعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه او من اصل الحكم والمستثنى زمان توقفهم فى الموقف للحساب لان ظاهره يقتضى ان يكونوا فى النار حين يأتى اليوم أو مدة لبثهم فى الدنيا والبرزخ ان كان الحكم مطلقا غير مقيد باليوم وعلى هذا التأويل يحتمل ان يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت وقيل هو من قوله لهم فيها زفير وشهيق وقيل الا ههنا بمعنى سوى كقولك على ألف الا الالفان القديمان والمعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة التى لا آخر لها على مدة بقاء السموات والارض

ما استقر عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعانى هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فانهم يقولون لا آتيك مادامت السموات والارض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ الا ما شاء ربك ﴾ اختلف العلماء فى معنى هذين الاستثنائين فقال ابن عباس والضحاك الاستثناء الاول المذكور فى أهل الشقاء يرجع الى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لان الذين أخرجوا من النار سعداء فى الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء * ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة * وفى رواية ان الله يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة أخرجه البخارى ومسلم * عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار قوم بعدما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين * وفى رواية ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون (خ) عن عمران بن حصين رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين وأما الاستثناء الثانى المذكور فى أهل السعادة فيرجع الى مدة لبث هؤلاء فى النار قبل

التأبيد (الا ما شاء ربك) هو استثناء من الخلود فى عذاب النار وذلك لان أهل النار لا يخلدون فى عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار أو ما شاء بمعنى من شاء وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة فيقال لهم الجهنميون وهم المستثنون من أهل الجنة أيضا لمفارقتهم اياها بكونهم فى النار أياما فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد ولا سعدوا سعادة من لا تمسه النار وهو مروى عن ابن عباس والضحاك وقتادة رضى الله عنهم

خلقت الى ان تفنى (الا ما شاء ربك) وقد شاء ربك أن يخلدوا فى النار ويقال يخلد من كتب عليه الشقاوة مادامت السموات والارض وبنو آدم الا ما شاء ربك أن يحوله من الشقاوة الى السعادة بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت ويقال يكونون دائمين فى النار مادامت السموات والارض سماء النار وأرض النار الا ما شاء ربك أن يخرجهم من أهل التوحيد من كانت شقاوته بذنب دون الكفر فيدخله الجنة بايمانه خالصا

(ان ربك فعال لما يريد) بالشقى والسعيد (و أما الذين سعدوا) سعدوا حمزة وعلى وحفص سعد لازم وسعده يسعده متعد (ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) هو استثناء من الخلود فى نعيم الجنة وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه أو معناه الا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاستثناء فى الآيتين لاهل الجنة ومعناه ماذكرنا أنه لا يكون للمسلم العاصى الذى دخل النار خلود فى النار حيث يخرج منها ولا يكون له أيضا خلود فى الجنة لانه لم يدخل الجنة ابتداء والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار ردوا الاحاديث المروية فى هذا الباب وكفى بها اثماً مبينا (عطاء غير مجذوذ) غير مقطوع ولكنه ممتد الى غير نهاية كقوله لهم أجر

(ان ربك فعال لما يريد) كما يريد (وأما الذين سعدوا) كتب لهم السعادة (ففى الجنة خالدين فيها) دائمين فى الجنة (مادامت السموات والارض) كدوام السموات والارض منذ خلقتا (الا ماشاء ربك) وقد شاء ربك أن يحوله من السعادة الى الشقاوة لقوله يمحو الله مايشاء من السعادة الى الشقاوة ويثبت ويترك ويقال يكونون فى الجنة دائمين مادامت السموات والارض سماء الجنة وأرض الجنة الا ماشاء ربك أن يعذبه فى النار قبل أن يدخله (يعنى) الجنة ثم يخرجه من النار ويدخله الجنة فيكون بعد ذلك دائما فى الجنة (عطاء) ثوابا لهم (غير مجذوذ) غير منقوص وغير مقطوع

﴿ان ربك فعال لما يريد﴾ من غير اعتراض ﴿واما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾ غير مقطوع وهو تصريح

دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فاما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة ﴿ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك﴾ أن يدخله النار اولا ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول ان الاستثناءين يرجع كل واحد منهما الى قوم مخصوصين هم فى الحقيقة سعداء أصابوا ذنوبا استوجبوا بها عقوبة يسيرة فى النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لان اجماع الامة على ان من دخل الجنة لا يخرج منها أبدا وقيل ان الاستثناءين يرجعان الى الفريقين السعداء والاشقياء وهو مدة تعميرهم فى الدنيا واحتباسهم فى البرزخ وهو مابين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة واهل النار النار فيكون المعنى خالدين فى الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه الا ماشاء ربك سوى ماشاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان على ألف الا ألفين أى سوى ألفين وقيل الا بمعنى الواو يعنى وقد شاء ربك خلود هؤلاء فى النار وخلود هؤلاء فى الجنة فهو كقوله تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا أى ولا الذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لم يشأ لانه حكم لهم بالخلود فيها قال الفراء هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لأضربنك الا أن أرى غير ذلك وعزمه أن يضربه فهذه الاقوال فى معنى الاستثناء ترجع الى الفريقين والصحيح هو القول الاول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ان ربك فعال لما يريد يعنى من اخراج من أراد من النار وادخالهم الجنة فهذا على الاجمال فى حال الفريقين فاما على التفصيل فقوله الا ماشاء ربك فى جانب الاشقياء يرجع الى الزفير والشهيق وتقريره ان يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لانه اذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء فى جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعنى الا ماشاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود وقيل ان الاستثناء الاول فى جانب الاشقياء معناه الا ماشاء ربك من أن يخرجهم من حر النار الى البرد والزمهرير وفى جانب السعداء معناه الا ماشاء ربك أن يرفع بعضهم الى منازل أعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الاول هو المختار ويدل على خلود أهل الجنة فى الجنة ان الامة مجتمعة على ان من دخل الجنة لا يخرج منها بل هو خالد فيها ✽ وقوله سبحانه وتعالى فى جانب السعداء ﴿عطاء غير مجذوذ﴾

غيرممنون وهونصب على المصدر أى أعطوا عطاء قيل كفرت الجهنمية باربع آيات عطاء غير مجذوذ أكلها دائم وماعندالله باق لامقطوعة ولاممنوعة لماقص الله قصص عبدة الاوثان وذكر ما أحل بهم من نقمة وما أعـدلهم من عذابه قال (فلاتك فى مرية ممايعبدهؤلاء) أى فلاتشك بعد ماانزل عليك من هذه القصص فى سوء عاقبة عبادتهم لما اصاب أمثالهم قبلهم تسـلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدة بالانتقام منهم ووعيدا لهم ثم قال (مايعبدون الا كما يعبدآباؤهم من قبل) يريد أن حالهم فى الشرك مثل حال آبائهم وقدبلغك مانزل بآبائهم فسينزلن بهم مثله وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية وما فى مما وكما مصدرية أوموصولة أى من عبادتهم وكعبادتهم أو مما يعبدون من الاوثان ومثل مايعبدون منها (وانالموفوهم نصيبهم) حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم انصباءهم (غيرمنقوص) حال من نصيبهم أى كاملا (ولقد آتينـا موسى الكتاب) التوراة (فاختلف فيه) آمن به قوم وكفربه قوم كما اختلف فى القرآن وهوتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (ولولا كلمة سبقت مـن ربك) انه

بان الثوب لاينقطع وتنبيه على ان المراد من الاستثناء فى الثواب ليس الانقطاع ولاجله فرق بين الثواب والعقاب فى التأبيد * وقرأ حمزة والكسائى وحفص سعدوا على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى اسعده وعطاء نصب على المصدر المؤكد أى اعطوا عطاء أو الحال من الجنة ﴿ فلاتك فى مرية ﴾ شك بعدما انزل عليك من مآل امر الناس ﴿ ممايعبدهؤلاء ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين فى انها ضلال مؤد الى مثل ماحل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم أو من حال مايعبدونه فى انه يضر ولا ينفع ﴿ مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ استئناف معناه تعليل النهى عن المرية أى هم وآباؤهم سواء فى الشرك أى مايعبدون عبادة الا كعبادة آبائهم أو مايعبدون شيأ الا مثل ماعبدوه من الاوثان وقدبلغك مالحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثله لان التماثل فى الاسباب يقتضى التماثل فى المسببات ومعنى كما يعبد كما كان يعبد فحذف لدلالة قبل عليه ﴿ وانالموفوهم نصيبهم ﴾ حظهم من العذاب كآبائهم أو من الرزق فيكون عذرا لتأخير العذاب عنهم مع قيام مايوجبه ﴿ غـيرمنقوص ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية فانك تقول وفيته حقه وتريدبه وفاء بعضه ولومجازا ﴿ ولقد آتينا موسى الكتـاب فاختلف فيه ﴾ فآمن به قوم وكفربه قوم كما اختلف هؤلاء فى القرآن ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعنى كلمة

يعـنى غير مقطوع قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذى يشاء لاهل الجنـة فقال تعـالى عطاء غير مجـذوذ ولم يخـبرنا بالذى يشاء لاهل النار وروى عن ابن مسـعود أنه قال ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعدمايلبثون فيها أحقابا وعن أبى هريرة نحوه وهذا ان صح عن ابن مسعود وأبى هريرة فمحمول عند أهل السنة على اخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد اخراجهم منها لانه ثبت بالدليل الصحيح القاطع اخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها أو يكون محمولا على اخراج الكفار من حر النار الى برد الزمهرير ليزدادوا عذابا فوق عذابهم والله اعلم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلاتك فى مرية ممايعبد هؤلاء ﴾ يعنى فلاتك فى شـك يامحمد فى هذه الاصنام التى يعبدها هؤلاء الكفار فانها لاتضر ولاتنفع ﴿ مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ يعنى انه ليس لهم فى عبادة هذه الاصنام مستند الا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم ﴿ وانا لموفوهم نصيبهم غيرمنقوص ﴾ يعنى وانا مع عبادتهم هذه الاصنام نرزقهم الرزق الذى قدرناه لهم من غير نقص فيه ويحتمل أن يكون المراد من توفية نصيبهم يعنى من العذاب الذى قدر لهم فى الآخرة كاملا موفرا غير ناقص * قوله عزوجل ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعنى التـوراة ﴿ فاختلف فيـه ﴾ يعنى فى الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يامحمد بالقرآن ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾

(فلاتك فى مرية) فى شـك (ممايعبد هؤلاء) أهـل مكة (مايعبدون الا كما يعبـد آباؤهم من قبل) من قبلهم وهلكوا على ذلك (وانالموفوهم نصيبهم) عقوبتهم (غيرمنقوص) ويقال نزلت هذه الآية وانالموفوهم نصيبهم غـيرمنقوص فى القدرية (ولقد آتينا) اعطينا (موسى الكتاب) يعنى التوراة (فاختلف فيه) فى كتاب موسى آمن به بعض وكفربه بعض (ولولا كلمة سبقت) وجبت (من ربك) بتأخير العذاب عن

لايعاجلهم بالعذاب (لقضى بينهم) بين قوم موسى أو قومك بالعذاب المستأصل (وانهم لفى شك منه) من القرآن أو من العذاب (مريب) من أراب الرجل اذا كان ذاريبة على الاسناد المجازى (وان كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه يعنى وان كلهم أى وان جميع المختلفين فيه وان مشددة (لما) مخفف بصرى وعلى ما مزيدة جئ بها ليفصل بها بين لام ان ولام (ليوفينهم) وهو جواب قسم محذوف واللام فى لما موطئة للقسم والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم (ربك أعمالهم) أى جزاء أعمالهم من ايمان وجحود وحسن وقبيح بعكس الاولى أبو بكر مخففان مكى ونافع على اعمال المخففة عمل الثقيلة اعتبارا لاصلها الذى هو التثقيل ولان ان تشبه يعمل قبل الحذف وبعده نحو لم يكن ولم يك فكذا المشبه به مشددتان غيرهم وهو مشكل وأحسن ماقيل فيه انه من لممت الشئ جمعته لما ثم وقف فصار لما ثم أجرى الوصل مجرى الوقف وجاز أن يكون مثل الدعوى والثروى ومافيه ألف التأنيث من المصادر وقرأ الزهرى وان كلا لما بالتنوين كقوله أكلا لما وهو يؤيد ماذكرنا والمعنى وان كلا ملمومين أى مجموعين كأنه قيل وان كلا جميعا كقوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون وقال صاحب الايجاز لما فيه معنى الظرف وقد دخل فى الكلام اختصارا كأنه قيل وان كلا لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم وقال الكسائى ليس لى بتشديد لما علم (انه بما يعملون خبير فاستقم كما أمرت) فاستقم استقامة مثل الاستقامة التى أمرت بها غير عادل

الانظار الى يوم القيامة ﴿ لقضى بينهم ﴾ بانزال مايستحقه المبطل ليتميز به عن المحق ﴿ وانهم ﴾ وان كفار قومك ﴿ لفى شك منه ﴾ من القرآن ﴿ مريب ﴾ موقع للريبة ﴿ وان كلا ﴾ وان كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين والتنوين بدل من المضاف اليه * وقرأ ابن كثير ونافع وابو بكر بالتخفيف مع الاعمال اعتبارا للاصل ﴿ لما ليوفينهم ربك اعمالهم ﴾ اللام الاولى موطئة للقسم والثانية للتأكيد أو بالعكس وما مزيد للفصل بينهما * وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما بالتشديد على ان اصله لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت اولاهن والمعنى لمن الذين ليوفينهم ربك جزاء اعمالهم وقرئ لما بالتنوين اى جميعا كقوله اكلا لما وان كل لما على ان ان نافية ولما بمعنى الا وقد قرئ به ﴿ انه بما يعملون خبير ﴾ فلا يفوت عنه شئ منه وان خفى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ لما بين امر المختلفين فى التوحيد والنبوة واطنب فى شرح الوعد والوعيد امر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة مثل ما امر بها وهى شاملة للاستقامة فى العقائد كالتوسط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصونا من الطرفين

يعنى بتأخير العذاب عنهم الى يوم القيامة لكان الذى يستحقونه من تعجيل العقوبة فى الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى ﴿ لقضى بينهم ﴾ يعنى لعذبوا فى الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم ﴿ وانهم لفى شك منه ﴾ يعنى من القرآن ونزوله عليك يا محمد ﴿ مريب ﴾ يعنى انهم قد وقعوا فى الريب والتهمة ﴿ وان كلا ﴾ يعنى من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب ﴿ لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ اللام لام القسم تقديره والله لنوفينهم جزاء أعمالهم فى القيامة فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار ﴿ انه بما يعملون خبير ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى لايخفى عليه شئ من أعمال عباده وان دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء اليه كما أمرك ربك والامر فى فاستقم للتأكيد لان

(النبى)

أمتك (لقضى بينهم) لفرغ من هلاكهم ولجاءهم العذاب (وانهم لفى شك منه مريب) ظاهر الشك (وان كلا) كلا الفريقين (لما ليوفينهم) يقول يوفرهم (ربك أعمالهم) ثواب أعمالهم بالحسن حسنا وبالسيئ سيئا (انه بما يعملون) من الخير والشر والثواب والعقاب (خبير فاستقم) على طاعة الله (كما أمرت) فى القرآن

عنها (ومن تاب معك) معطوف على المستتر فى استقم وجاز للفاصل يعنى فاستقم أنت وليستقم من تاب عن الكفر ورجع الى الله مخلصا (ولا تطغوا) ولا تخرجوا عن حدود الله

تعملون بصير) فهو مجازيكم

والاعمال من تبليغ الوحى وبيان الشرائع كما انزل والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وافراط مفوت الحقوق ونحوها وهى فى غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى سورة هود ﴿ ومن تاب معك ﴾ أى ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك وهو عطف على المستكن فى استقم وان لم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه ﴿ ولا تطغوا ﴾ ولا تخرجوا عما حد لكم ﴿ انه بما تعملون بصير ﴾ فهو مجازيكم عليه وهو فى معنى التعليل للامر والنهى * وفى الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان ﴿ ولا تركنوا الى الذين ظلموا ﴾ ولا تميلوا اليهم ادنى ميل فان الركون هو الميل اليسير كالتزيى بزيهم وتعظيم ذكرهم ﴿ فتمسكم النار ﴾ بركونكم اليهم واذا كان الركون الى من وجد منه ما يسمى ظلما كذلك فما ظنك بالركون الى الظالمين أى الموسومين بالظلم ثم بالميل اليهم كل الميل ثم بالظلم

النبى صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك أى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك ﴿ ومن تاب معك ﴾ يعنى ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضا على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب الاستقامة أن تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ منه روغان الثعلب (م) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يارسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه احدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم ﴿ ولا تطغوا ﴾ يعنى ولا تجاوزوا أمرى الى غير ولا تعصونى وقيل معناه ولا تغلوا فى الدين فتجاوزوا ما أمرتكم عنه ﴿ انه بما تعملون بصير ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى عالم باعمالكم لا يخفى عليه شئ منها قال ابن عباس ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هى أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتنى هود وأخواتها (خ) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة * قوله ان الدين يسر اليسر ضد العسر وأراد به التسهيل فى الدين وترك التشدد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب ولن يقاوى فسددوا أى اقصدوا السداد من الامور وهو الصواب وقاربوا أى أطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والروحة الرجوع عشيا والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتا وقتا والدلجة سير الليل والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا * وقوله شئ من الدلجة اشارة الى تقليله ﴿ وقوله تعالى ﴿ ولا تركنوا الى الذين ظلموا ﴾ قال ابن عباس ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب وقال أبو العالية لا ترضوا باعمالهم وقال السدى لا تداهنوا الظلمة وعن عكرمة لا تطيعوهم وقيل معناه ولا تسكنوا الى الذين ظلموا ﴿ فتمسكم النار ﴾ يعنى

فاتقوه قيل ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كانت أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال شيبتنى هود (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) ولا تميلوا قال الشيخ رحمه الله هذا خطاب لاتباع الكفرة أى لا تركنوا الى القادة والكبراء فى ظلمهم وفيما يدعونكم اليه (فتمسكم النار) وقيل الركون اليهم الرضا بكفرهم وقال قتادة ولا تلحقوا بالمشركين وعن الموفق انه صلى خلف الامام فلما قرأ هذه الآية غشى عليه فلما أفاق قيل له فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم وعن الحسن جعل الله الدين بين لائين ولا تطغوا ولا تركنوا وقال سفيان فى جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعى ما من شئ أبغض الى الله من عالم يزور عاملا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف

(ومن تاب معك) من الكفر والشرك أيضا فليستقم معك (ولا تطغوا) لا تكفروا ولا تعصوا بما فى القرآن من الحلال والحرام (انه بما تعملون) من الخير والشر (بصير ولا تركنوا) لا تميلوا (الى الذين ظلموا) أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصى (فتمسكم) فتصيبكم (النار) كما تصيبهم

نفسه والانهماك فيه ولعل الآية ابلغ مايتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فان الزوال عنها بالميل الى احد طرفي افراط وتفريط فانه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه ٭ وقرئ تركنوا فتمسكم النار بكسر التاء على لغة تميم وتركنوا على البناء للمفعول من اركنه ﴿ ومالكم من دون الله من اولياء ﴾ من انصار يمنعون العذاب عنكم والواو للحال ﴿ ثم لاتنصرون ﴾ أي ثم لا ينصركم الله اذ سبق في حكمه ان يعذبكم ولا يبقي عليكم وثم لاستبعاد نصره اياهم وقد اوعدهم بالعذاب عليه واوجبه لهم ويجوز ان يكون منزلا منزلة الفاء لمعنى الاستبعاد فانه لما بين ان الله معذبهم وان غيره لايقدر على نصرهم انتج ذلك انهم لاينصرون اصلا ﴿ واقم الصلوة طرفي النهار ﴾ غدوة وعشية وانتصابه على الظرف لانه

فتصيبكم النار بحرها ﴿ ومالكم من دون الله من أولياء ﴾ يعني أعوانا وأنصارا يمنعونكم من عذابه ﴿ ثم لاتنصرون ﴾ يعني ثم لاتجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غدا في القيامة ففيه وعيد لمن ركن الى الظلمة أو رضي باعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة في انفسهم نعوذ بالله من الظلم ٭ قوله عز وجل ﴿ وأقم الصلوة طرفي النهار ﴾ سبب نزول هذه الآية مارواه الترمذي عن أبي اليسر قال أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت ان في البيت تمرا هو أطيب منه فدخلت معي البيت فاهويت اليها فقبلتها فاتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولاتخبر أحدا فلم أصبر فاتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولاتخبر أحدا فلم أصبر فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى انه لم يكن أسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من أهل النار قال وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى الله اليه وأقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل الى قوله ذلك ذكرى للذاكرين قال أبو اليسر فاتيته فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه يارسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو (ق) عن عبد الله ابن مسعود ان رجلا أصاب من امرأة قبلة فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت وأقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل الآية فقال الرجل يارسول الله ألي هذه الآية قال لمن عمل بها من أمتي ٭ وفي رواية فقال رجل من القوم يانبي الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة ٭ عن معاذ بن جبل قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله أرأيت رجلا لقي امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل الى امرأته شيأ الا قد أتى هو اليها الا انه لم يجامعها قال فانزل الله عز وجل وأقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين فامره النبي صلى الله عليه وسلم ان يتوضأ ويصلي قال معاذ فقلت يارسول الله أهي له خاصة أم للمؤمنين عامة فقال بل للمؤمنين عامة أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث

على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء فقيل لا فقيل له يموت قال دعه يموت (وما لكم من دون الله من أولياء) حال من قوله فتمسكم النار أي فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة ومعناه ومالكم من دون الله من أولياء يقدرون على منعكم من عذابه ولايقدر على منعكم منه غيره (ثم لاتنصرون) ثم لا ينصركم هو لانه حكم بتعذيبكم ومعنى ثم الاستبعاد أي النصرة من الله مستبعدة (وأقم الصلوة طرفي النهار) غدوة وعشية

(ومالكم من دون الله) من عذاب الله (من اولياء) من اقرباء تحفظكم من عذاب الله (ثم لاتنصرون) لاتمنعون مما يراد بكم (واقم الصلوة) اتم الصلاة (طرفي النهار) صلاة الغداة والظهر ويقال صلاة الغداة والظهر والعصر

مضاف اليه ﴿ وزلفا من الليل ﴾ وساعات منه قريبة من النهار فانه من ازلفه اذا قربه وهو جمع زلفة وصلاة الغداة صلاة الصبح لانها اقرب الصلاة من اول النهار وصلاة العشية العصر وقيل الظهر والعصر لان ما بعد الزوال عشى وصلاة الزلف المغرب والعشاء *وقرئ زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر في بسرة وزلفى بمعنى زلفة كقربى وقربة ﴿ ان الحسنات يذهبن السيئآت ﴾ يكفرنها وفي الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر *وفي سبب النزول ان رجلا اتى النبي صلى الله تعالى

ليس بمتصل لان عبدالرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ* أما التفسير فقوله سبحانه وتعالى وأقم الصلوة طرفي النهار يعني صلاة الغداة والعشى وقال مجاهد طرفي النهار يعني صلاة الصبح والظهر والعصر وزلفا من الليل يعني صلاة المغرب والعشاء وقال مقاتل صلاة الصبح والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل يعني صلاة العشاء وقال الحسن طرفي النهار الصبح والعصر وزلفا من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفي النهار الغداة والعشى يعني صلاة الصبح والمغرب قال الامام فخر الدين الرازي كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والاشهر أن الصلاة التي في طرفي النهار هي الفجر والعصر وذلك لان أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الاول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لايجوز أن يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله تعالى وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر ﴿ وزلفا من الليل ﴾ يعني واقم الصلاة في زلف من الليل وهي ساعاته واحدتها زلفة وأصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء ﴿ ان الحسنات يذهبن السيئآت ﴾ يعني ان الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارات لما بينهن *زاد في رواية مالم تغش الكبائر *وزاد في رواية أخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر (ق) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شئ قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا (خ) عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات قال الحسن وما يبقى من الدرن قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر* وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط * الشرط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية *الثاني الندم على فعله *الثالث العزم التام أن لا يعود اليه في المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى وقال مجاهد في تفسير الحسنات انها قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله

(وزلفا من الليل) وساعات من الليل جمع زلفة وهي ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه اذا قربه وصلاة الغدوة الفجر وصلاة العشية الظهر والعصر لان ما بعد الزوال عشى وصلاة الزلف المغرب والعشاء وانتصاب طرفي النهار على الظرف لانهما مضافان الى الوقت كقولك أقمت عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه ان الحسنات يذهبن السيآت) ان الصلوات الخمس يذهبن الذنوب وفي الحديث ان الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب أو الطاعات قال عليه السلام اتبع السيئة الحسنة تمحها أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر

(وزلفا من الليل) دخول الليل صلاة المغرب والعشاء (ان الحسنات) الصلوات الخمس (يذهبن السيآت) يكفرن السيآت دون الكبائر ويقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر

(ذلك)اشارة الى فاستقم فما بعده أو القرآن (ذكرى للذاكرين)عظة للمتعظين نزلت فى عمرو بن غزية الانصارى بائع التمر قال لامرأة فى البيت تمر اجود فدخلت فقبلها فندم فجاءه حاكيا باكيا فنزلت فقال عليه السلام هل شهدت معنا العصر قال نعم قال هى كفارة ألك فقيل أله خاصة بل للناس عامة (واصبر)على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شئ منه الا به (فان الله لا يضيع أجر المحسنين)جاء بما هو مشتمل على جميع الاوامر والنواهى من قوله فاستقم الى قوله فاصبر وغير ذلك من الحسنات (فلولا كان من القرون

من قبلكم) فهلا كان وهو موضوع للتحضيض ومخصوص بالفعل(أولوا بقية) أولو فضل وخير وسمى الفضل والجودة بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا (ينهون عن الفساد فى الارض) عجب محمد عليه السلام وأمته ان لم يكن فى الامم التى ذكر الله اهلاكهم فى هذه السورة جماعة من أولى العقل والدين ينهون غيرهم عن الكفر والمعاصى(الا قليلا ممن انجينا منهم) استثناء منقطع أى ولكن قليلا ممن انجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى ومن فى ممن أنجينا للبيان لا للتبعيض لان النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله أنجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا (واتبع)

عليه وسلم فقال انى قد اصبت من امرأة غير انى لم آتها فنزلت ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى قوله فاستقم وما بعده وقيل الى القرآن ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ عظة للمتعظين ﴿ واصبر ﴾ على الطاعات وعن المعاصى ﴿ فان الله لا يضيع اجر المحسنين ﴾ عدول عن المضمر ليكون كالبرهان على المقصود ودليلا على ان الصلاة والصبر احسان وايماء بانه لا يعتد بهما دون الاخلاص ﴿ فلولا كان ﴾ فهلا كان ﴿ من القرون من قبلكم اولوا بقية ﴾ من الرأى والعقل أو أولو فضل وانما سمى بقية لان الرجل يستبقى افضل ما يخرجه ومنه يقال فلان من بقية القوم اى من خيارهم ويجوز ان يكون مصدرا كالتقية أى ذووا بقاء على انفسهم وصيانة لها من العذاب ويؤيده انه قرئ بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه ﴿ ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن انجينا منهم ﴾ لكن قليلا منهم انجيناهم لانهم كانوا كذلك ولا يصح اتصاله الا اذا جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض

أكبر والقول الاول أصح انها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد فى احدى الروايتين عنه وكعب القرظى والضحاك وجمهور المفسرين ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى ماتقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل هو اشارة الى القرآن ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ يعنى عظة للمؤمنين المطيعين ﴿ واصبر ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى واصبر يا محمد على أذى قومك وماتلقاه منهم وقيل معناه واصبر على الصلاة ﴿ فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يعنى أعمالهم قال ابن عباس يعنى المصلين * قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلولا كان من القرون ﴾ يعنى فهلا كان من القرون التى أهلكناهم ﴿ من قبلكم ﴾ يعنى يا أمة محمد ﴿ أولوا بقية ﴾ يعنى أولو تمييز وطاعة وخير يقال فلان ذو بقية اذا كان فيه خير وقيل معناه أولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير اذا كان على خصلة محمودة ﴿ ينهون عن الفساد فى الارض ﴾ يعنى يقومون بالنهى عن الفساد فى الارض والآية للتقريع والتوبيخ يعنى لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد فى الارض فلذلك اهلكناهم ﴿ الا قليلا ﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلا ﴿ ممن أنجينا منهم ﴾ يعنى من آمن من الامم الماضية وهم اتباع الانبياء كانوا ينهون عن الفساد فى الارض

(ذلك ذكرى للذاكرين)توبة للتائبين ويقال كفارات لذنوب التائبين نزلت فى شأن رجل تمار يقال له أبو اليسر بن عمرو (واصبر)يا محمد على ما أمرت وعلى أذاهم (فان الله لا يضيع) لا يبطل (أجر المحسنين) ثواب المؤمنين المحسنين بالقول والفعل (فلولا كان من القرون) يقول لم يكن من القرون الماضية (من قبلكم أولوا بقية) من المؤمنين (ينهون عن الفساد فى الارض) عن الكفر والشرك وعبادة الاوثان وسائر المعاصى (الا قليلا ممن انجينا منهم)من المؤمنين

(واتبع الذين ظلموا) أي التاركون للنهي عن المنكر وهو عطف على مضمر أي الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا (ما اترفوا فيه) أي اتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنئ ورفضوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر و نبذوه وراء ظهورهم (وكانوا مجرمين) اعتراض وحكم عليهم بانهم قوم مجرمون (وما كان ربك ليهلك القرى) اللام لتأكيد النفي (بظلم) حال من الفاعل أي لا يصح أن يهلك الله القرى ظالما لها (وأهلها) قوم (مصلحون) تنزيها لذاته عن الظلم وقيل الظلم الشرك أي لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم لا يضمون الى شركهم فسادا آخر (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أي متفقين على الايمان والطاعات عن الاختيار ولكن لم يشأ ذلك وقالت المعتزلة هي مشيئة قسر وذلك رافع للابتلاء فلا يجوز (ولا يزالون مختلفين) في الكفر والايمان أي ولكن شاء ان يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار

﴿ واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه ﴾ اى ما انعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل اسبابها واعرضوا عما وراء ذلك ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ كافرين كأنه اراد ان يبين ما كان السبب لاستئصال الامم السالفة وهو فشو الظلم فيهم واتباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع معطوف على مضمر دل عليه الكلام اذ المعنى فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا وكانوا مجرمين عطف على اتبع أو اعتراض * وقرئ واتبع أى واتبعوا جزاء ما اترفوا فتكون الواو للحال ويجوز ان يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ﴾ بشرك ﴿ واهلها مصلحون ﴾ فيما بينهم لا يضمون الى شركهم فسادا وتباغيا وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد وقيل الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ﴾ مسلمين كلهم وهو دليل ظاهر على ان الامر غير الارادة وانه تعالى لم يرد الايمان من كل احد وان ما اراده يجب وقوعه ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد

﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ يعني واتبع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ما تنعموا فيه والترف التنعم والمعنى انهم اتبعوا ما تعودوا به من النعم وايثار اللذات على الآخرة ونعيمها ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ يعني كافرين ﴿ وما كان ربك ﴾ يعني وما كان ربك يا محمد ﴿ ليهلك القرى بظلم ﴾ يعني لا يهلكهم بظلم منه ﴿ وأهلها مصلحون ﴾ يعني في أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات وقيل في معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعني يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا أما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء ان حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد * قوله عز وجل ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ يعني كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ يعني على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان قد اختلفوا في دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط * عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه * عن معاوية رضي الله عنه قال قام فينا رسول

(واتبع الذين ظلموا) اشتغل الذين اشركوا (ما أترفوا فيه) بما نعموا فيه في الدنيا من المال (وكانوا مجرمين) مشركين (وما كان ربك ليهلك) أهل (القرى بظلم) منهم (وأهلها مصلحون) فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقال وما كان ربك ليهلك القرى بظلم منه وأهلها مصلحون مقيمون على الطاعة مستمسكون بها (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) لجمعهم على ملة واحدة ملة الاسلام (ولا يزالون) ولكن لا يزالون (مختلفين) في الدين والباطل

تجداثنين يتفقان مطلقا ﴿ الامن رحم ربك ﴾ الاناساهداهم الله من فضله فاتفقوا على ماهو اصول دين الحق والعمدة فيه ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ ان كان الضمير للناس فالاشارة الى الاختلاف واللام للعاقبة أواليه والى الرحمة وان كان لمن فالى الرحم ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ وعيده أوقوله للملائكة ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس ﴾ أى من عصاتهما ﴿ اجمعين ﴾ او منهما اجمعين لامن احدهما ﴿ وكلا ﴾ وكل نبأ ﴿ نقص عليك من انباء الرسل ﴾ نخبرك به ﴿ ماتثبت به فؤادك ﴾ بيان لكلا أو بدل منه وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة واحتمال اذى الكفار أو مفعول وكلا منصوب على المصدر بمعنى كل نوع من انواع

الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا أن من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة أخرجه أبو داود * قال الخطابى قوله صلى الله عليه وسلم وستفترق أمتى فيه دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين اذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بهذه الفرق اهل البدع والاهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والاهواء والمراد بالواحدة هى فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ الا من رحم ربك ﴾ يعنى لكن من رحم ربك فمن عليه بالهداية والتوفيق الى الحق وهداه الى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لايختلفون ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم قال أشهب سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وللرحمة خلقهم يعنى الذين يرحمهم وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق اهل الاختلاف للاختلاف وقيل خلق الله عز وجل أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فحاصل الآية ان الله خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم أهل الاتفاق ومصيرهم الى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾ وهذا صريح بان الله سبحانه وتعالى خلق أقواما للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ماتثبت به فؤادك ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة قصص الامم الماضية والقرون الخالية وماجرى لهم مع أنبيائهم خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله وكلا نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل

الحق غير مختلفين فيه (ولذلك خلقهم) أى ولما هم عليه من الاختلاف فعندنا خلقهم للذى علم انهم يصيرون اليه من اختلاف أو اتفاق ولم يخلقهم لغير الذى علم انهم يصيرون اليه كذا فى شرح التأويلات (وتمت كلمة ربك) وهى قوله للملائكة (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) لعلمه بكثرة من يختار الباطل (وكلا) التنوين فيه عوض من المضاف اليه كأنه قيل وكل نبأ وهو منصوب بقوله (نقص عليك) وقوله (من أنباء الرسل) بيان لكل وقوله (ماتثبت به فؤادك) بدل من كلا

(الامن رحم) عصم (ربك) من الباطل والاديان المختلفة وهم المؤمنون (ولذلك خلقهم) للرحمة خلق أهل الرحمة وللاختلاف خلق أهل الاختلاف (وتمت كلمة ربك) وجب قول ربك (لاملأن جهنم من الجنة والناس) من كفار الجن والانس (أجمعين وكلا نقص عليك) كما بينت لك (من انباء الرسل) من أخبار الرسل (ماتثبت به فؤادك) لكى نطيب به قلبك أنه قد فعل بغيرك من الانبياء مافعل بك

(يعنى)

(وجاءك فى هذه الحق) أى فى هذه السورة أوفى هذه الانباء المقتصة ما هو حق (وموعظة وذكرى للمؤمنين) ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه لان تكاثر الادلة أثبت للقلب (وقل للذين لايؤمنون) من أهل مكة وغيرهم (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها (انا عاملون) على مكانتنا (وانتظروا) بنا الدوائر (انا منتظرون) أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله تعالى من النقم النازلة باشباهكم (ولله غيب السموات والارض) لاتخفى عليه خافية مما يجرى فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم (واليه يرجع الامر كله) فلابد أن يرجع اليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم يرجع نافع وحفص (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك وكافلك (ومار بك بغافل عما يعملون) وبالتاء مدنى وشامى وحفص أى أنت وهم على تغليب المخاطب قيل خاتمة التوراة

(وجاءك فى هذه) السورة (الحق) خبر الحق (وموعظة) من المعاصى (وذكرى) عظة للمؤمنين (وقل للذين لا يؤمنون) بالله وباليوم الآخر وبالملائكة وبالكتب وبالنبيين (اعملوا على مكانتكم) على دينكم فى منازلكم بهلاكى (انا عاملون) فى هلاككم (وانتظروا) هلاكى (انا منتظرون) هلاككم (ولله غيب السموات والارض) ماغاب عن العباد (واليه يرجع الامر) والى الله يرجع أمر العباد (كله) فى الآخرة (فاعبده) فاطعه (وتوكل عليه) ثق به (ومار بك بغافل عما تعملون) من

الاقتصاص نقص عليك ماتثبت به فؤادك من انباء الرسل ﴿ وجاءك فى هذه ﴾ السورة أو الانباء المقتصة عليك ﴿الحق﴾ ماهو حق ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ اشارة الى سائر فوائده العامة ﴿وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾ على حالكم ﴿ اناعاملون ﴾ على حالنا ﴿وانتظروا﴾ بنا الدوائر ﴿ انا منتظرون ﴾ ان ينزل بكم نحو مانزل على امثالكم ﴿ولله غيب السموات والارض﴾ خاصة لايخفى عليه خافية مما فيهما ﴿ واليه يرجع الامر كله ﴾ فيرجع لامحالة امرهم وامرك اليه * وقرأ نافع وحفص يرجع على البناء للمفعول ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فانه كافيك وفى تقديم الامر بالعبادة على التوكل تنبيه على انه انما ينفع العابد ﴿ ومار بك بغافل عما تعملون ﴾ انت وهم فيجازى كلا مايستحقه * قرأ نافع وابن

يعنى من أخبار الرسل وماجرى لهم مع قومهم ماتثبت به فؤادك يعنى مانقوى به قلبك لتصبر على اذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه ﴿ وجاءك ﴾ يامحمد ﴿فى هذه الحق﴾ اختلفوا فى هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك فى هذه الدنيا الحق وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليها وقيل فى هذه الآية وقيل فى هذه السورة وهو الاقرب وهو قول الاكثرين * فان قلت قد جاءه الحق فى سور القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر * قلت لايلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لايكون قد جاءه الحق فى غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وانما خصها بالذكر تشريفا لها ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ أى وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون اذا تذكروا أحوال الامم الماضية ومانزل بهم ﴿ وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ فيه وعيد وتهديد يعنى اعملوا ماأنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله اعملوا ماشئتم ﴿ انا عاملون ﴾ يعنى ماأمرنا به ربنا ﴿ وانتظروا ﴾ يعنى مايعدكم به الشيطان ﴿ انا منتظرون ﴾ يعنى مايحل بكم من نقمة الله وعذابه اما فى الدنيا واما فى الآخرة ﴿ ولله غيب السموات والارض ﴾ يعنى يعلم ماغاب عن العباد فيهما يعنى ان علمه سبحانه وتعالى نافذ فى جميع الاشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لايخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء ﴿ واليه يرجع الامر كله ﴾ يعنى الى الله يرجع أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة ﴿ فاعبده ﴾ يعنى ان من كان كذلك كان مستحقا للعبادة لاغيره فاعبده ولاتشتغل بعبادة غيره ﴿ وتوكل عليه ﴾ يعنى وثق به فى جميع أمورك فانه يكفيك ﴿ ومار بك بغافل عما تعملون ﴾ قال أهل التفسير هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى انه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد أعمالهم لايخفى عليه منها

عامر وحفص بالتاء هنا وفي آخر النمل * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء ان شاء الله تعالى

سورة يوسف عليه السلام مكية وآيها مائة واحدى عشر

قيل الا ثلث آيات من اولها

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ تلك اشارة الى آيات السورة وهي المراد بالكتاب أي تلك الآيات آيات السورة الظاهر امرها في الاعجاز أو الواضحة معانيها أو المبينة لمن تدبرها انها من عند الله أو لليهود ماسألوا اذ روى ان علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا عليه السلام لم انتقل آل يعقوب من الشأم الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت

شيء فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود والله أعلم بمراده واسرار كتابه

تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام

وهي مكية باجماعهم وهي مائة واحدى عشرة آية وألف وستمائة كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى وفي سبب نزولها قولان أحدهما روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاه عليهم زمانا فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فانزل الله عزوجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فانزل الله تعالى ألر تلك آيات الكتاب المبين الى قوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص القول الثاني رواه الضحاك عن ابن عباس قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فانزل الله عزوجل ألر تلك آيات الكتاب المبين الآيات الكريمة

بسم الله الرحمن الرحيم

* قوله عزوجل ﴿ ألر ﴾ تقدم تفسيره في أول سورة يونس عليه الصلاة والسلام ﴿ تلك ﴾ اشارة الى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة المسماة بألر هذه ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ وهو القرآن أي البين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وقال قتادة مبين بينه الله ببركته وهداه ورشده فهذا من بان أي ظهر وقال الزجاج مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل انه يبين فيه قصص الاولين وشرح أحوال المتقدمين

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ ألر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ تلك اشارة الى آيات هذه السورة والكتاب المبين السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في اعجاز العرب أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم أو قد أبين فيها ماسألت عنه اليهود من قصة يوسف عليه السلام فقد روى ان علماء اليهود قالوا للمشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشأم الى مصر وعن قصة

المعاصي ويقال بتارك عقوبة ماتعملون كالم يغفل

﴿ ومن السورة التي يذكر فيها يوسف وهي كلها مكية آياتها مائة واحدى عشرة وكلمها ألف وسبعمائة وست وسبعون وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وتسعون ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وباسناده عن ابن عباس في قوله تعالى (الر) يقول أنا الله ارى ماتقولون وماتعملون وان مايقرأ عليكم محمد صلى الله عليه وسلم هو كلامي (انا) ويقال قسم اقسم به (تلك آيات الكتاب المبين) ان هذه السورة آيات القرآن المبين الحلال والحرام والامر

﴿ انا انزلناه ﴾ أى الكتاب ﴿ قرآنا عربيا ﴾ سمى البعض قرآنا لانه فى الاصل اسم جنس يقع على الكل والبعض وصار علما للكل بالغلبة ونصبه على الحال وهو فى نفسه اما توطئة للحال التى هى عربيا أو حال لانه مصدر بمعنى مفعول وعربيا صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال وفى كل ذلك خلاف ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ علة لانزاله بهذه الصفة أى انزلناه مجموعا أومقروا بلغتكم كى تفهموه وتحيطوا بمعانيه وتستعملوا فيه عقولكم فتعلموا ان اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجز لايتصور الابالايحاء ﴿ نحن نقص عليك احسن القصص ﴾ احسن الاقتصاص لانه اقتص على ابدع الاساليب أو احسن مايقص لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر فعل بمعنى مفعول كالنقض والسلب واشتقاقه من قص اثره اذا تبعه ﴿ بما اوحينا ﴾ أى بايحائنا ﴿ اليك هذا القرآن ﴾ يعنى

﴿ انا أنزلناه ﴾ يعنى هذا الكتاب ﴿ قرآنا عربيا ﴾ أى أنزلناه بلغتكم لكى تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه وقيل لما قالت اليهود لمشركى مكة سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فانزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه عربيا فعلى هذا القول يجوز اطلاق اسم القرآن على بعضه لانه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن أن يقال فى القرآن شئ بغير العربية فقال أبو عبيدة من زعم أن فى القرآن لسانا غير العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا انزلناه قرآنا عربيا وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لان هؤلاء أعلم من أبى عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب ان شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما ان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية فى الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة فظهر بهذا البيان صحة القولين وأمكن الجمع بينهما ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ يعنى تفهمون أيها العرب لانه نازل بلغتكم ❁ قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ الاصل فى معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضا والقاص هو الذى يأتى بالخبر على وجهه وأصله فى اللغة من قص الاثر اذا تتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى نحن نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام خاصة وانما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة فى هذه السورة الشريفة قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة وقال عطاء لايسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها ❁ وقوله تعالى ﴿ بما اوحينا اليك ﴾ يعنى بايحائنا اليك يا محمد ﴿ هذا القرآن

فيه قصة يوسف عليه السلام فى حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لانه اسم جنس يقع على كله وبعضه (لعلكم تعقلون) لكى تفهموا معانيه ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته (نحن نقص عليك أحسن القصص) نبين لك أحسن البيان والقاص الذى يأتى بالقصة على حقيقتها عن الزجاج وقيل القصص يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص تقول قص الحديث يقصه قصصا فيكون فعلا بمعنى مفعول كالنقض والحسب فعلى الاول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص (بما اوحينا اليك هذا القرآن) أى بايحائنا اليك هذه السورة على أن يكون أحسن منصوبا نصب المصدر لاضافته اليه والمخصوص محذوف لان

والنهى (انا انزلناه قرآنا عربيا) يقول انا انزلنا جبريل بالقرآن على محمد على مجرى لغة العربية (لعلكم تعقلون) لكى تعقلوا ما امرتم به وما نهيتم عنه (نحن نقص عليك) نبين لك (احسن القصص) احسن الخبر من أخبار يوسف واخوته (بما اوحينا اليك) بالذى اوحينا اليك جبريل به (هذا القرآن) فى هذا القرآن

بما أوحينا اليك هذا القرآن مغن عنه والمراد باحسن الاقتصاص انه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب فانك لا ترى اقتصاصه فى كتب الاولين مقاربا لاقتصاصه فى القرآن وان أريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك احسن ما يقص من الاحاديث وانما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التى ليست فى غيره والظاهر انه أحسن ما يقتص فى بابه كما يقال فلان أعلم الناس أى فى فنه و اشتقاق القص من قص أثره اذا تبعه لان الذى يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ (وان كنت من قبله) الضمير يرجع الى ما أوحينا (لمن الغافلين) عنه ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية يعنى وان الشأن والحديث كنت من قبل ايحائنا اليك من الجاهلين به (اذ قال) بدل اشتمال من أحسن القصص لان الوقت مشتمل على القصص أو التقدير اذكر اذ قال (يوسف) اسم عبرانى لا عربى اذ لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف (لابيه) يعقوب (يا أبت) ابت شامى وهى تاء التأنيث عوضت عن ياء الاضافة لتناسبهما لان كل واحدة منهما زائدة فى آخر الاسم ولهذا قلبت هاء فى الوقف وجاز الحاق تاء التأنيث بالمذكر كما فى رجل ربعة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ومن فتح التاء فقد حذف الالف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء فى يا غلام (انى رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية (أحد عشر كوكبا) أسماؤها بيان النبى عليه السلام جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين (والشمس والقمر) هما أبواه أو أبوه وخالته (رأيتهم)

السورة ويجوز ان يجعل هذا مفعول نقص على ان احسن نصب على المصدر ﴿ وان كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى وان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة ﴿ اذ قال يوسف ﴾ بدل من احسن القصص ان جعل مفعولا بدل الاشتمال أو منصوب باضمار اذكر ويوسف عبرى ولو كان عربيا لصرف * وقرئ بفتح السين وكسرها على التلعب به لا على انه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لان المشهورة شهدت بعجمته ﴿ لابيه ﴾ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وعنه عليه الصلاة والسلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ﴿ يا ابت ﴾ اصله يا ابى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة ولذلك قلبها هاء فى الوقف ابن كثير وابو عمرو ويعقوب وكسرها لانها عوض حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لانها حركة اصلها أو لانه كان يا ابتا فحذف الالف وبقى الفتحة وانما جاز يا ابتا ولم يجز يا ابتى لانه جمع بين العوض والمعوض * وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الاسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وانما لم تسكن كاصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب ﴿ انى رأيت ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك ولقوله هذا تأويل رؤياى من قبل ﴿ احد عشر كوكبا والشمس والقمر ﴾ روى

وان كنت ﴾ أى وقد كنت ﴿ من قبله ﴾ يعنى من قبل وحينا اليك ﴿ لمن الغافلين ﴾ يعنى عن هذه القصة وما فيها من العجائب قال سعد بن أبى وقاص أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فانزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فانزل الله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فانزل الله عز وجل ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله * قوله عز وجل ﴿ اذ قال يوسف لابيه ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لابيه يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ويوسف اسم عبرى ولذلك لا يجرى فيه الصرف وقيل هو عربى سئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف أشد الحزن والاسيف العبد واجتمع فى يوسف فسمى به ﴿ يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر

(وان كنت) وقد كنت (من قبله) من قبل نزول جبريل عليك بالقرآن (لمن الغافلين) عن خبر يوسف واخوته (اذ قال) قد قال (يوسف لابيه يا أبت انى رأيت) فى منام النهار (احد عشر كوكبا) نزلن من أماكنهن وسجدن لى سجدة التحية وهم اخوته أحد عشر اخا (والشمس والقمر

والكواكب اخوته قيل الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر وأجريت مجرى العقلاء فى (رأيتهم لى ساجدين) لانه وصفها بما هو المختص بالعقلاء وهو السجود وكررت الرؤيا لان الاولى تتعلق بالذات والثانية بالحال أو الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له كأن أباه قال له كيف رأيتها فقال رأيتهم لى ساجدين أى متواضعين وهو حال وكان ابن ثنتى عشرة سنة يومئذ وكان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة أو ثمانون (قال يابنى) بالفتح حيث كان حفص (لاتقصص (رؤياك) هى بمعنى الرؤية الا انها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة وفرق بينهما بحرف التأنيث كما فى القربة والقربى (على اخوتك فيكيدوا لك) جواب النهى أى ان قصصتها عليهم كادوك عرف يعقوب عليه السلام ان الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الاخوة وانما لم يقل فيكيدوك كما قال فيكيدونى لانه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع افادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ فى التخويف وذلك نحو فيحتالوا لك ألا ترى الى تأكيده بالمصدر وهو (كيدا

عن جابر رضى الله عنه ان يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال اخبرنى يا محمد عن النجوم التى رآهن يوسف فسكت فنزل جبريل عليه السلام فاخبره بذلك فقال اذا اخبرتك فهل تسلم قال نعم قال جربان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى أى والله انها لاسماؤها ﴿رأيتهم لى ساجدين﴾ استئناف لبيان حالهم التى رآهم عليها فلا تكرير وانما اجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم ﴿قال يابنى﴾ تصغير ابن صغره للشفقة أو لصغر السن لانه كان ابن اثنتى عشرة سنة * وقرأ حفص هنا وفى الصافات بفتح الياء ﴿لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ فيحتالوا لاهلاكك حيلة فهم يعقوب عليه السلام من رؤياه ان الله يصطفيه لرسالته ويفوقه

رأيتهم لى ساجدين﴾ معناه قال أهل التفسير رأى يوسف فى منامه كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم فى التأويل اخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه فى قول قتادة وقال السدى القمر خالته لان أمه راحيل كانت قد ماتت وقال قتادة وابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لان الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه الصلاة والسلام ابن اثنتى عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لانه كان فى ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود * فان قلت ان الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل فى قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله ساجدين ولم يقل ساجدات * قلت لما أخبر عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقيل ان الفلاسفة والمنجمين يزعمون أن الكواكب أحياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشئ والاول أصح * فان قلت قد قال انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم اعاد لفظ الرؤيا ثانيا فقال رأيتهم لى ساجدين فما فائدة هذا التكرار * قلت معنى الرؤيا الاولى رأى اجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية انه أخبر بسجودها له وقال بعضهم معناه انه لما قال انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قيل له وكيف رأيت قال رأيتهم لى ساجدين وانما أفرد الشمس والقمر بالذكر وان كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال أهل التفسير ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها ان اخوته وأبويه يخضعون له فلهذا ﴿قال﴾ يعقوب ﴿يابنى لاتقصص رؤياك على أخوتك﴾ يعنى لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها ﴿فيكيدوا لك كيدا﴾ أى فيحتالوا

رأيتهم لى ساجدين) يقول رأيت الشمس والقمر (قا و خا ٤٨ لث) نزلا من أمكنتهما وسجدا لى سجدة التحية وهما أبواه راحيل ويعقوب (قال) يعقوب ليوسف فى السر (يابنى) اذا رأيت رؤيا بعد هذا (لاتقصص) لاتخبر (رؤياك على اخوتك) لاخوتك (فيكيدوا لك كيدا) فيحتالوا لك حيلة يكون فيها هلاكك

على اخوته فيخاف عليه حسدهم وبغيهم والرؤيا كالرؤية غير انها مختصة بما يكون فى النوم ففرق بينهما بحرفى التأنيث كالقربة والقربى وهى انطباع الصورة المنحدرة من افق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن ادنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم ان كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه وانما عدى كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعل يعدى به تأكيدا ولذلك اكد بالمصدر وعلله بقوله ﴿ ان الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة كما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألو جهدا فى

فى اهلاكك فامره بكتمان رؤياه عن اخوته لان رؤيا الانبياء وحى وحق واللام فى فيكيدوا لك كيدا تأكيد للصلة كقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ﴿ ان الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ يعنى انه بين العداوة لان عداوته قديمة فهم ان أقدموا على الكيد كان ذلك مضافا الى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبى قتادة رضى الله عنه قال كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها الا من يحب واذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لن تضره (خ) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرها ولا يذكرها لاحد فانها لن تضره (م) عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه ❁ عن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا المؤمن جزء من أربعين ❁ وفى رواية جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهى على رجل طائر مالم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا أو حبيبا أخرجه الترمذى ولابى داود نحوه قال الشيخ محي الدين النووى قال المازرى مذهب أهل السنة فى حقيقة الرؤيا ان الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فاذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علما على أمور أخر يخلقها فى ثانى الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التى يجعلها علما على ما يسر بغير حضرة الشيطان فاذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب الى الشيطان مجازا وان كان لا فعل له فى الحقيقة فهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم الرؤيا من الله والحلم من الشيطان لا على أن الشيطان يفعل شيأ والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه وقال

ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد

(ان الشيطان للانسان) لبنى آدم (عدو مبين) ظاهر العداوة يحملهم على الحسد

(وكذلك) ومثل ذلك الاجتباء الذى دلت عليه رؤياك (يجتبيك ربك) يصطفيك والاجتباء والاصطفاء افتعال من جبيت الشئ اذا حصلته لنفسك وجبيت الماء فى الحوض جمعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل فى حكم التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أى تأويل الرؤيا وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا أو تأيل أحاديث الانبياء وكتب الله وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) بان وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة أى جعلهم أنبياء فى الدنيا وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى فى الجنة وآل يعقوب أهله وهم نسله وغيرهم وأصل آل أهل بدليل تصغيره على اهيل الا انه لا يستعمل الا فيمن له خطر يقال آل النبى وآل الملك ولا يقال آل الحجام ولكن أهله وانما علم يعقوب ان يوسف يكون نبيا واخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب فلذا قال وعلى آل يعقوب (كما أتمها على أبويك من قبل) أراد الجد وأبا الجد (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك

تسويلهم واثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد ﴿وكذلك﴾ أى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس ﴿يجتبيك ربك﴾ للنبوة والملك أو لامور عظام والاجتباء من جبيت الشئ اذا حصلته لنفسك ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك ﴿من تأويل الاحاديث﴾ من تعبير الرؤيا لانها احاديث الملك ان كانت صادقة واحاديث النفس أو الشيطان ان كانت كاذبة أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء وكلمات الحكماء وهو اسم جمع للحديث كاباطيل اسم جمع للباطل ﴿ويتم نعمته عليك﴾ بالنبوة أو بان يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ يريد به سائر بنيه ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب أو نسله ﴿كما أتمها على ابويك﴾ بالرسالة وقيل على ابراهيم بالخلة والانجاء من النار وعلى اسحق بانقاذه من الذبح وفدائه بذبح عظيم ﴿من قبل﴾ أى من قبلك أو من قبل هذا الوقت ﴿ابراهيم واسحق﴾ عطف بيان لابويك

غيره اضافة الرؤيا المحبوبة الى الله تعالى اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الرجل فى منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثا وليتحول الى جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم ❁ قوله تعالى ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ يعنى يقول يعقوب ليوسف عليه الصلاة والسلام أى وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعنى يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه اياه بفيض الهى تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعى من العبد وذلك مختص بالانبياء أو ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين ﴿ويعلمك من تأويل الاحاديث﴾ يعنى به تعبير الرؤيا سمى تأويلا لانه يؤل أمره الى ما رأى فى منامه يعنى يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه فى منامهم وكان يوسف عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا وقال الزجاج تأويل أحاديث الانبياء والامم السالفة والكتب المنزلة وقال ابن زيد يعلمك العلم والحكمة ﴿ويتم نعمته عليك﴾ يعنى بالنبوة قاله ابن عباس لان منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من تمام النعمة عليهم لان جميع الخلق دونهم فى الرتبة والمناصب ﴿وعلى آل يعقوب﴾ المراد بآل يعقوب أولاده فانهم كانوا أنبياء وهو المراد من اتمام النعمة عليهم ﴿كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق﴾ بأن جعلهما نبيين وهو المراد من اتمام النعمة عليهما وقيل المراد من اتمام النعمة على ابراهيم صلى الله

(وكذلك) هكذا (يجتبيك) يصطفيك (ربك) بالنبوة (ويعلمك من تأويل الاحاديث) من تعبير الرؤيا (ويتم نعمته عليك) بالنبوة والاسلام أى يميتك على ذلك (وعلى آل يعقوب) بك أى ويتم نعمته على أولاد يعقوب بك (كما أتمها) نعمته بالنبوة والاسلام (على أبويك من قبل) من قبلك (ابراهيم واسحق

﴿ان ربك عليم﴾ بمن يستحق الاجتباء ﴿حكيم﴾ يفعل الاشياء على ما ينبغي ﴿لقد كان في يوسف واخوته﴾ أي في قصتهم ﴿آيات﴾ دلائل قدرة الله وحكمته أو علامات نبوتك وقرأ ابن كثير آية ﴿للسائلين﴾ لمن سأل عن قصتهم والمراد باخوته علاته العشرة وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة من بنت خالته ليا تزوجها يعقوب اولا فلما توفيت تزوج اختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ واربعة آخرون دان ونفتالى وجاد وآشر من سريتين زلفة وبلهة

(ان ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) يضع الاشياء مواضعها (لقد كان في يوسف واخوته) أي في قصتهم وحديثهم (آيات) علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شئ آية مكى (للسائلين) لمن سأل عن قصتهم وعرفها أو آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها فاخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب وأسماؤهم يهوذا وروبين وشمعون ولاوى وزبولون ويشجر وامهم ليا بنت ليان ودان ونفتالى وجاد وآشر من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف

عليه وسلم بان خلصه الله من النار واتخذه خليلا والمراد من اتمام النعمة على اسحق بان خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول ان اسحق هو الذبيح وليس بشئ والقول الاول هو الاصح بان اتمام النعمة عليهما بالنبوة لانه لا أعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد ﴿ان ربك عليم﴾ يعنى بمصالح خلقه ﴿حكيم﴾ يعنى انه تعالى لا يفعل شيأ الا بحكمة وقيل انه تعالى حكم بوضع النبوة في بيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضى الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بابويه واخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصرى كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا اخوة يوسف حسدوه وقالوا مارضى أن يسجد له اخوته حتى يسجد له أبواه * قوله عز وجل ﴿لقد كان في يوسف واخوته﴾ يعنى في خبره وخبر اخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهى ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين اسم احداهما زلفة والآخرى بلهة اربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالى وجاد وآشر ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب اختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب هم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا ﴿آيات للسائلين﴾ وذلك ان اليهود لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان الى أرض مصر ذكر قصة يوسف مع أخوته فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والاحبار ولم يأخذ عن أحد منهم شيأ فدل ذلك على ان ما أتى به وحى سماوى وعلم قدسى أوحاه الله اليه وشرفه به ومعنى آيات للسائلين أى عبرة للمعتبرين فان هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على اخوته وبلواه مثل ألقائه في الجب وبيعه عبدا وسجنه بعد ذلك وما آل اليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التى اذا فكر فيها الانسان اعتبر واتعظ

ان ربك عليم) بنعمته (حكيم) باتمامها ويقال عليم برؤياك حكيم بما يصيبك (لقد كان في يوسف) في خبر يوسف (واخوته آيات) عبرات (للسائلين) عن خبرهم نزلت هذه الآية في حبر من اليهود

(اذقالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينامنا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته

لهما أمر ثابت لاشبهة فيه و(اذقالوا ... وأخوه وهم) اخوته أيضا لان أمهما كانت واحدة وانما قيل أحب في الاثنين لان أفعل من لايفرق فيه بين الواحد ومافوقه ولا بين المذكر والمؤنث ولابد من الفرق مع لام التعريف واذا أضيف ساغ الامران والواو في (ونحن عصبة) للحال أي انه يفضلهما في المحبة علينا وهما صغيران لاكفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة تقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما (ان ابانا لفي ضلال مبين) غلط في تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا والعصبة العشرة فصاعدا (اقتلوا يوسف) من جملة ماحكى بعد قوله اذ قالوا كأنهم اطبقوا على ذلك الا من قال لاتقتلوا يوسف وقيل الآمر بالقتل شمعون والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين (أواطرحوه أرضا) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو

﴿ اذقالوا ليوسف واخوه ﴾ بنيامين وتخصيصه بالاضافة لاختصاصه بالاخوة من الطرفين ﴿ احب الى ابينامنا ﴾ وحده لان افعل من لايفرق فيه بين الواحد ومافوقه والمذكر ومايقابله بخلاف اخويه فان الفرق واجب في المحلى جائز في المضاف ﴿ ونحن عصبة ﴾ والحال انا جماعة اقوياء احق بالمحبة من صغيرين لاكفاية فيهما والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا سموا بذلك لان الامور تعصب بهم ﴿ ان ابانا لفي ضلال مبين ﴾ لتفضيله المفضول أو لترك التعديل في المحبة * روى انه كان احب اليه لما يرى فيه من المخايل وكان اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتبالغ حسدهم حتى حملهم على التعرض له ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ من جملة المحكى بعد قوله اذ قالوا كأنهم اتفقوا على ذلك الا من قال لاتقتلوا يوسف وقيل انما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون ﴿ أو اطرحوه ارضا ﴾

﴿ اذقالوا ﴾ يعني اخوة يوسف ﴿ ليوسف ﴾ اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف ﴿ وأخوه ﴾ يعني بنيامين وهمامن أم واحدة ﴿ أحب الى أبينامنا ونحن عصبة ﴾ انما قالوا هذه المقالة حسدا منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب اليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة قال الفراء العصبة هي العشرة فمازاد وقيل هي مابين الواحد الى العشرة وقيل مابين الثلاثة الى العشرة وقال مجاهد هي مابين العشرة الى خمسة عشر وقيل الى الاربعين وقيل الاصل فيه أن كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لاواحد لها من لفظها كالرهط والنفر ﴿ ان أبانا لفي ضلال مبين ﴾ يعني لفي خطأ بين في ايثاره حب يوسف علينا مع صغره لانفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه واصلاح أمر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين اذلو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن ارادوا به الخطأ في أمر الدنيا ومايصلحها يقولون نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ في صرف محبته اليه لانا أكبر منه سنا وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الاعظم وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام مافضل يوسف وأخاه على سائر الاخوة الا في المحبة المحضة ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها ويحتمل أن يعقوب انما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لان أمه ماتت وهو صغير أو لانه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة مالم يره في سائر اخوته * فان قلت الذي فعله اخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم الى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضا وكل ذلك قادح في عصمة الانبياء فما الجواب عنه * قلت هذه الافعال انما صدرت من اخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر في عصمة الانبياء هو وقت حصول النبوة لاقبلها وقيل كانوا وقت هذه الافعال مراهقين غير بالغين ولاتكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الافعال قادحة في عصمة الانبياء * قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا

(اذقالوا) اخوة يوسف بعضهم لبعض (ليوسف واخوه) بنيامين (احب الى ابينا) آثر عنده (مناونحن عصبة) عشرة (ان أبانا لفي ضلال مبين) في خطأ بين في حب يوسف واختياره علينا ثم قال بعضهم لبعض (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) في جب

معنى تنكيرها واخلائها عن الوسف ولهذا الابهام نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل لكم وجه) أبيكم يقبل عليكم اقبالة واحدة لايلتفت عنكم الى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها

منكورة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها وابهامها ولذلك نصبت كالظروف المبهمة ﴿ يخل لكم وجه ابيكم ﴾ جواب الامر والمعنى يصف لكم وجه ابيكم فيقبل بكليته عليكم ولايلتفت عنكم الى غيركم ولاينازعكم فى محبته احد ﴿ وتكونوا ﴾ جزم بالعطف على يخل أو نصب باضمار ان ﴿ من بعده ﴾ من بعد يوسف والفراغ من امره أو قتله أو طرحه ﴿ قوما صالحين ﴾ تائبين الى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع ابيكم يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى امر دنياكم فانه ينتظم لكم بعده بخلو وجه ابيكم ﴿ قال قائل منهم ﴾ يعنى يهوذا وكان احسنهم فيه رأيا وقيل روبيل ﴿ لاتقتلوا يوسف ﴾ فان القتل عظيم ﴿ وألقوه فى غيابة الجب ﴾ فى قعره سمى به لغيوبته عن اعين الناظرين * وقرأ نافع فى غيابات فى الموضعين على الجمع كأنه لتلك الجب غيابات * وقرئ

يخل لكم وجه أبيكم ﴾ لما قوى الحسد وبلغ النهاية قال اخوة يوسف فيما بينهم لابد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لايحصل الا باحد طريقين اما القتل مرة واحدة أو التغريب الى الارض يحصل اليأس من اجتماعه بابيه بان تفترسه الاسد والسباع أو يموت فى تلك الارض البعيدة ثم ذكروا العلة فى ذلك وهى قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى انه قد شغله حب يوسف عنكم فاذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته اليكم ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ يعنى من بعد قتل يوسف أو ابعاده عن أبيه ﴿ قوما صالحين ﴾ يعنى تائبين فتوبوا الى الله يعف عنكم فتكونوا قوما صالحين وذلك انهم لما علموا ان الذى عزموا عليه من الذنوب الكبائر قالوا نتوب الى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين فى المستقبل وقال مقاتل معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم *فان قلت كيف يليق أن تصدر هذه منهم وهم أنبياء *قلت الجواب ماتقدم انهم لم يكونوا أنبياء فى ذلك الوقت حتى تكون هذه الافعال قادحة فى عصمة الانبياء وانما أقدموا على هذه الافعال قبل النبوة وقيل ان الذى أشار بقتل يوسف كان أجنبيا شاوروه فى ذلك فأشار عليهم بقتله ﴿ قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف ﴾ يعنى قال قائل من اخوة يوسف وهو يهوذا وقال قتادة هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فيه فنهاهم عن قتله وقال القتل كبيرة عظيمة والاصح ان قائل هذه المقالة هو يهوذا لانه كان أقربهم اليه سنا ﴿ وألقوه فى غيابت الجب ﴾ يعنى ألقوه فى أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمى بذلك لانه جب أى قطع ولم يطو وأفاد ذكر الغيابة مع ذكر الجب ان المشير أشار بطرحه فى موضع من الجب مظلم لايراه أحد واختلفوا فى مكان ذلك الجب فقال قتادة هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو فى أرض الاردن وقال مقاتل هو فى أرض الاردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التى ذكروها وهى قولهم

فكأن ذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم لان الرجل اذا أقبل على الشئ أقبل بوجهه وجاز ان يراد بالوجه الذات كما قال ويبقى وجه ربك (وتكونوا) مجزوم عطفا على يخل لكم (من بعده) من بعد يوسف أى من بعد كفايته بالقتل أو التغريب أو من بعد قتله أو طرحه فيرجع الضمير الى مصدر اقتلوا أو اطرحوا (قوما صالحين) تائبين الى الله مما جنيتم عليه أو يصلح حالكم عند أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا (لاتقتلوا يوسف) فان القتل عظيم (وألقوه فى غيابت الجب) فى قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر غيابات وكذا ما بعده مدنى

(يخل لكم وجه أبيكم) يقول يقبل عليكم أبوكم بوجهه (وتكونوا من بعده) من بعد قتله (قوما صالحين) تائبين من قتله ويقال صلحت حالكم مع أبيكم (قال قائل منهم) من اخوة يوسف وهو يهوذا لاخوته (لاتقتلوا يوسف وألقوه) ولكن اطرحوه (فى غيابت الجب) فى أسفل الجب ويقال فى ظلمته

﴿ يلتقطه ﴾

غيبة وغيابات بالتشديد ﴿ يلتقطه ﴾ يأخذه ﴿ بعض السيارة ﴾ بعض الذين يسيرون في الارض ﴿ ان كنتم فاعلين ﴾ بمشورتى أو ان كنتم على ان تفعلوا مايفرق بينه وبين ابيه ﴿ قالوا ياابانا مالك لاتأمنا على يوسف ﴾ لم تخافنا عليه ﴿ وانا له لناصحون ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير ارادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم والمشهور تأمنا بالادغام باشمام وعن نافع بترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام لانهما من كلمتين وتيمنا بكسر التاء ﴿ ارسله معنا غدا ﴾ الى الصحراء ﴿ نرتع ﴾ نتسع في اكل الفواكه ونحوها من الرتعة وهي الخصب ﴿ ونلعب ﴾ بالاستباق والانتضال * وقرأ ابن كثير نرتع بكسر العين على انه من ارتعى يرتعي ونافع بالكسر والياء فيه وفي يلعب * وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على اسناد الفعل الى يوسف * وقرئ يرتع من ارتع ماشيته ويرتع بكسر

﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ وذلك ان هذا الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين والالتقاط أخذ الشئ من الطريق أو من حيث لايحتسب ومنه اللقطة بعض السيارة يأخذه بعض المسافرين فيذهب به الى ناحية أخرى فتستريحون منه ﴿ ان كنتم فاعلين ﴾ فيه اشارة الى ترك الفعل فكأنه قال لاتفعلوا شيأ من ذلك وان عزمتم على هذا الفعل فافعلوا هذا القدر ان كنتم فاعلين ذلك قال البغوى كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء الابعده وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وقالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين والصغير لاذنب له قال محمد بن اسحق اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذى لاذنب له والغدر بالامانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لاييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولوفعلوا ذلك لهلكوا جميعا وكل ذلك كان قبل ان نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل ﴿ قالوا ﴾ يعنى قال اخوة يوسف ليعقوب ﴿ ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف ﴾ بدؤا بالانكار عليه في ترك ارسال يوسف معهم كأنهم قالوا أتخافنا عليه اذا ارسلته معنا ﴿ وانا له لناصحون ﴾ المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة وقيل البر والعطف والمعنى وانا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته وبحفظه وقال مقاتل في الكلام تقديم وتأخير وذلك انهم قالوا لابيهم أرسله معنا فقال يعقوب انى ليحزننى ان تذهبوا به فحينئذ قالوا مالك لاتأمنا على يوسف وانا له لناصحون ثم قال ﴿ أرسله معنا غدا ﴾ يعنى الى الصحراء ﴿ نرتع ﴾ الرتع هو الاتساع في الملاذ يقال رتع فلان في ماله اذا انفقه في شهواته والاصل في الرتع أكل البهائم في الخصب زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير ﴿ ونلعب ﴾ اللعب معروف قال الراغب يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الاقدام على المباحات لاجل انشراح

(يلتقطه بعض السيارة) بعض الاقوام الذين يسيرون في الطريق (ان كنتم فاعلين) به شيأ (قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وانا له لناصحون) أى لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم وفيه دليل على أنه أحس منهم بما أوجب ان لايأمنهم عليه (أرسله معنا غدا نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها والرتعة السعة (ونلعب) نتفرج بما يباح كالصيد والرمى والركض بالياء فيهما مدنى وكوفى وبالنون فيهما مكى وشامى وأبو عمرو وبكسر العين حجازى من ارتعى يرتعى افتعال من الرعى

(يلتقطه) يرفعه (بعض السيارة) مارى الطريق من المسافرين (ان كنتم فاعلين) به أمرا ثم جاؤا الى أبيهم (قالوا) لابيهم (ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وانا له لناصحون) حافظون (أرسله معنا غدا يرتع) يذهب ويجئ وينشط (ويلعب) يله

(وانا له لحافظون) من ان يناله مكروه (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به) أى يحزننى ذهابكم به واللام لام الابتداء (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) اعتذر اليهم بان ذهابهم به مما يحزنه لانه كان لا يصبر عنه ساعة وانه يخاف عليه من عدوة الذئب اذ غفلوا عنه برعيهم ولعبهم (قالوا لئن أكله الذئب) اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن أكله الذئب والواو فى (ونحن عصبة) أى فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال (انا اذا لخاسرون) جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط أى ان لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا اذا وخسرناها وأجابوا عن عذره الثانى دون الاول لان ذلك كان يغيظهم (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب) أى عزموا على ألقائه فى البئر وهى بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به مافعلوا من الاذى فقد روى

العين ويلعب بالرفع على الابتداء ﴿ وانا له لحافظون ﴾ ان يناله مكروه ﴿ قال انى ليحزننى ان تذهبوا به ﴾ لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه ﴿ واخاف ان يأكله الذئب ﴾ لان الارض كانت مذأبة وقيل رأى فى المنام ان الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره * وقد همزها على الاصل ابن كثير ونافع فى رواية قالون وابو عمرو وقفا وعاصم وابن عامر درجا ووقفا وحمزة درجا واشتقاقه من تذأبت الريح اذا هبت من كل جهة ﴿ وانتم عنه غافلون ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه ﴿ قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة ﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه ﴿ انا اذا لخاسرون ﴾ ضعفاء مغبونون أو مستحقون لان يدعى عليهم بالخسار والواو فى ونحن عصبة للحال ﴿ فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجب ﴾ وعزموا على ألقائه فيها والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بارض الاردن أو بين مصر ومدين أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب عليه السلام وجواب لما محذوف مثل فعلوا به مافعلوا من الاذى فقد روى انهم

الصدر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضى الله عنه هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا فان لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والاقدام على الاقران فى الحرب بدليل قوله نستبق وانما سموه لعبا لانه فى صورة اللعب وقيل معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط ﴿ وانا له لحافظون ﴾ يعنى نجتهد فى حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده اليك سالما ﴿ قال ﴾ يعنى قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ انى ليحزننى أن تذهبوا به ﴾ أى ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية أنه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين احدهما ان ذهابهم به ومفارقته اياه يحزنه لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة والثانى قوله ﴿ واخاف ان يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ يعنى اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رأى فى المنام ان ذئبا شد على يوسف عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب فى أرضهم كثيرة ﴿ قالوا ﴾ يعنى قال اخوة يوسف مجيبين ليعقوب ﴿ لئن أكله الذئب ونحن عصبة ﴾ أى جماعة عشرة رجال ﴿ انا اذا لخاسرون ﴾ يعنى عجزة ضعفاء وقيل انهم خافوا ان يدعوا عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه انا اذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن اذا خاسرون * قوله عز وجل ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ فيه اضمار واختصار تقديره فارسله معهم فلما ذهبوا به ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب ﴾ يعنى وعزموا على أن يلقوه فى غيابة الجب

﴿ ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام ﴾

قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له أما تشتاق ان

(وانا له لحافظون) مشفقون (قال) أبوهم (انى ليحزننى أن تذهبوا به) فلا أراه (وأخاف أن يأكله الذئب) لانه رأى فى منامه ان ذئبا يشد عليه فمن ذلك قال وأخاف ان يأكله الذئب (وأنتم عنه غافلون) باللعب ويقال مشغولون بعملكم (قالوا) لابيهم (لئن أكله الذئب ونحن عصبة) عشرة (انا اذا لخاسرون) لعاجزون ويقال مغبونون بترك حرمة ﴿ يخرج ﴾ الوالد والاخ (فلما ذهبوا به) بعد ما أذن لهم بذهابه (وأجمعوا أن يجعلوه) يقول اجتمعوا على ان يطرحوه (فى غيابت الجب)

لما برزوا به الى الصحراء اخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى ان لاتقتلوه فاتوا به الى البئر فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على ابيهم فقال يااخوتاه ردوا على قمصى اتوارى به فقالوا ادع الاحد عشر كوكبا والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك فلما بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكى فجاءه

تخرج معنا الى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أنسئل أباك ان يرسلك معنا قال يوسف افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب ان يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ماتقول يابنى قال نعم ياأبت انى أرى من اخوتى اللين واللطف فاحب ان تأذن لى وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فاذن له وأرسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء ألقوه على الارض وأظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة واغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادى ياأبتاه يايعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لأحزنك ذلك وأبكاك ياأبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكى بكاء شديدا فاخذه روبيل وجلد به الارض ثم جثم على صدره وأراد قتله فقال له يوسف مهلا ياأخى لاتقتلنى فقال له يا ابن راحيل أنت صاحب الاحلام قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فى وحل بينى وبين من يريد قتلى فادركته رحمة الاخوة ورق له فقال يهوذا يا اخوتى ما على هذا عاهدتمونى الا أدلكم على ما هو أهون لكم وأرفق به فقالوا وما هو قال تلقونه فى هذا الجب اما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به الى بئر هناك على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال ياأخوتاه ردوا على قميصى لاستتر به فى الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال انى لم ار شيأ فألقوه فيها ثم قال لهم يااخوتاه أتدعونى فيها فريدا وحيدا وقيل جعلوه فى دلو ثم أرسلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ارادة أن يموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت فى البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فاجلسه عليها وقيل انهم لما ألقوه فى الجب جعل يبكى فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فاجابهم فارادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل ان يعقوب لما بعثه مع اخوته أخرج له قميص ابراهيم الذى كساه الله اياه من الجنة حين ألقى فى النار فجعله يعقوب فى قصبة فضة وجعلها فى عنق يوسف فالبسه الملك اياه حين ألقى فى الجب فاضاء له الجب وقال الحسن لما ألقى يوسف فى الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فانس به

انهم لما برزوا به الى البرية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا فلما أرادوا ألقاءه فى الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم وادلوه فى البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروى ان ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه فاتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة علقها فى عنق يوسف فاخرجه جبريل وألبسه اياه

فى أسفل الجب

جبرائيل عليه السلام بالوحي كما قال ﴿ واوحينا اليه ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة وقيل كان مراهقا اوحي اليه في صغره كما اوحى الى يحيي وعيسى عليهم السلام وفي القصص ان ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد عن ثيابه فاتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله في تميمة علقها بيوسف فاخرجه جبريل عليه السلام وألبسه اياه ﴿ لتنبئنهم بامرهم هذا ﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ انك يوسف لعلو شأنك وبعده عن اوهامهم وطول العهد المغير للحلى والهيئات وذلك اشارة الى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون بشره بما يؤول اليه امره ايناساله وتطييبا لقلبه وقيل وهم لا يشعرون متصل

فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له انك اذا خرجت استوحشت فقال له اذا رهبت شيأ فقل ياصريخ المستصرخين وياغوث المستغيثين ويامفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شئ من أمري فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس في الجب وقال محمد بن مسلم الطائفي لما ألقي يوسف في الجب قال ياشاهدا غير غائب وياقريبا غير بعيد وياغالبا غير مغلوب اجعل لي فرجا مما أنا فيه فما بات فيه واختلفوا في قدر عمر يوسف يوم ألقي في الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن اثنا عشرة سنة وقال ابن السائب سبع عشرة سنة وقيل ثمان عشرة سنة وقيل مكث في الجب ثلاثة أيام وكان اخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى ﴿وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ يعني لتخبرن اخوتك قال اكثر المفسرين ان الله اوحى اليه وحيا حقيقة فبعث اليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره أنه سينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغا في ذلك الوقت أوكان صبيا صغيرا فقال بعضهم انه كان بالغا وكان عمره خمس عشرة سنة وقال آخرون بل كان صغيرا الا أن الله عزوجل أكمل عقله ورشده وجعله صالحا لقبول الوحي والنبوة كما قال في حق عيسى عليه الصلاة والسلام *فان قلت كيف جعله نبيا في ذلك الوقت ولم يكن أحد يبلغه رسالة ربه لان فائدة النبوة والرسالة تبليغها الى من أرسل اليه *قلت لا يمتنع ان الله يشرفه بالوحي ويكرمه بالنبوة والرسالة في ذلك الوقت وفائدة ذلك تطييب قلبه و ازالة الهم والغم والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة في وقتها وقيل ان المراد من قوله وأوحينا اليه وحي الهام كما في قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل وأوحينا الى أم موسى والقول الاول أولى *وقوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يعني بايحائنا اليك وأنت في البئر بانك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة في اخفاء ذلك الوحي عنهم انهم اذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له وقيل ان الله تعالى أوحى الى يوسف لتخبرن اخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بانك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام وانه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير

(واوحينا اليه) قيل أوحي اليه في الصغر كما أوحي الى يحيي و عيسى عليهما السلام وقيل كان اذذاك مدركا (لتنبئنهم بامرهم هذا) أي لتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) انك يوسف لعلو شانك وكبرياء سلطانك وذلك انهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وانكم ألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لابيه أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس أو يتعلق وهم لا يشعرون بأوحينا أي آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك

(وأوحينا اليه) الى يوسف أرسلنا اليه جبريل ويقال ألهمه (لتنبئنهم) لتخبرنهم يا يوسف (بأمرهم) بصنيعهم (هذا) بك (وهم لا يشعرون) وهم لا يعلمون انك يوسف حتى تخبرهم ويقال لا يعلمون بوحينا الى يوسف

﴿ مستوليا ﴾

(وجاؤا أباهم عشاء) للاستتار والتجسر على الاعتذار (يبكون) حال عن الاعمش لاتصدق باكية بعد اخوة يوسف فلما سمع صوتهم فزع وقال مالكم يابني هل أصابكم في غنمكم شئ قالوا لا قال فابالكم وأين يوسف (قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق) أي تسابق في العدو أو في الرمي والافتعال والتفاعل يشتركان كالارتماء والترامي وغير ذلك (وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا (ولو كنا صادقين) ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا (وجاؤا على قميصه بدم كذب) ذي كذب ووصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته روى انهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم ان يمزقوه وروى ان يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح باعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله مارأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف حين قد من دبره ومحل على قميصه النصب على الظرف كانه

باوحينا اي آنسناه بالوحي وهم لايشعرون ذلك ﴿وجاؤا أباهم عشاء﴾ أي آخر النهار * وقرئ عشيا وهو تصغير عشي وعشى بالضم والقصر جمع أعشى اي عشوا من البكاء ﴿يبكون﴾ متباكين روى انه لما سمع بكاءهم فزع وقال مالكم يابني واين يوسف ﴿قالوا ياابانا انا ذهبنا نستبق﴾ نتسابق في العدو أو في الرمي وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما انت بمؤمن لنا﴾ بمصدق لنا ﴿ولو كنا صادقين﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف ﴿وجاؤا على قميصه بدم كذب﴾ أي ذي كذب بمعنى مكذوب فيه ويجوز ان يكون وصفا بالمصدر للمبالغة * وقرئ بالنصب على الحال من الواو أي جاؤا كاذبين و كدب بالدال غير المعجمة اي كدر أو طري وقيل اصله البياض الخارج على اظفار الاحداث فشبه به الدم اللاصق على القميص وعلى قميصه في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه أو على الحال من الدم ان جوز تقديمها على المجرور

مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره * قوله تعالى ﴿وجاؤا أباهم عشاء يبكون﴾ قال المفسرون لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا الى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة اجتراء على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج اليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يابني هل أصابكم شئ في غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف ﴿قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق﴾ قال ابن عباس يعني ننتضل وقال الزجاج يسابق بعضنا بعضا في الرمي والاصل في السبق الرمي بالسهم وهو التناضل أيضا وسمي المترامیان بذلك يقال تسابقا واستبقا اذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أبعد سهما وقال السدي يعني نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الاقدام ليتبين أينا أسرع عدوا وأخف حركة وقال مقاتل نتصيد والمعنى نستبق الى الصيد ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ يعني عند ثيابنا ﴿فأكله الذئب﴾ يعني في حال استباقنا وغفلتنا عنه ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ يعني وما أنت بمصدق لنا ﴿ولو كنا صادقين﴾ يعني في قولنا والمعنى انا وان كنا صادقين لكنك لاتصدق لنا قولا لشدة محبتك ليوسف فانك تتهمنا في قولنا هذا وقيل معناه انا وان كنا صادقين فانك لم تصدقنا لانه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا ﴿وجاؤا على قميصه﴾ يعني قميص يوسف ﴿بدم كذب﴾ أي مكذوب فيه قال ابن عباس انهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤا أباهم وفي القصة انهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فقال يعقوب لهم كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك وقيل انهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب أيها الذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي فأنطقه الله

(وجاؤا أباهم) الى أبيهم (عشاء) بعد الظهر (يبكون) على يوسف (قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق) ننتضل ونصطاد (وتركنا يوسف عند متاعنا) ليحفظه (فاكله الذئب) كما قلت (وما أنت بمؤمن) بمصدق (لنا ولو كنا) وان كنا (صادقين) في قولنا (وجاؤا على قميصه) لطخوا على قميصه (بدم كذب) دم جدي ويقال طري

قيل وجاؤا فوق قيصه بدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سولت) زينت أوسهلت (لكم أنفسكم أمرا) عظيما ارتكبتموه (فصبر جميل) خبر أو مبتدأ لكونه موصوفا أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أجمل وهو مالاشكوى فيه الى الخلق (والله المستعان) أي أستعينه (على) احتمال (ماتصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه (وجاءت سيارة) رفقة تصير من قبل مدين الى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من ألقاء يوسف في الجب فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقي فيه يوسف (فارسلوا واردهم) هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم اسمه مالك بن ذعر الخزاعي (فادلى دلوه) أرسل الدلو ليملأها

روى انه لما سمع بخبر يوسف صاح وسأل عن قميصه فاخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال مارأيت كاليوم ذئبا احلم من هذا اكل ابني ولم يمزق عليه قيصه ولذلك ﴿قال بل سولت لكم انفسكم امرا﴾ أي سهلت لكم انفسكم وهونت في اعينكم امرا عظيما من السول وهو الاسترخاء ﴿فصبر جميل﴾ أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل اجمل * وفي الحديث الصبر الجميل الذي لاشكوى فيه أي الى الخلق ﴿والله المستعان على ماتصفون﴾ على احتمال ماتصفونه من هلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم ان صح ﴿وجاءت سيارة﴾ رفقة يسيرون من مدين الى مصر فنزلوا قريبا من الجب وكان ذلك بعد ثلاثة ايام من ألقائه فيه ﴿فارسلوا واردهم﴾ الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان مالك بن ذعر الخزاعي ﴿فادلى دلوه﴾ فارسلها في الجب ليملأها فتدلى بها يوسف فلما رآه

عزوجل وقال والله ماأكلته ولارأيت ولدك قط ولايحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهي قرابة لي فأخذوني وأتوا بي اليك فاطلقه يعقوب ولما ذكر اخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم ﴿قال﴾ يعقوب ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمرا﴾ يعني بل زينت لكم أنفسكم أمرا وأصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أي سهلت لكم أنفسكم أمرا عظيما ركبتموه من يوسف وهونتموه في أنفسكم وأعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل ردا لقولهم فاكله الذئب كأنه قال ليس الامر كما تقولون أكله الذئب بل سولت لكم أنفسكم أمرا آخر غير ماتصفون ﴿فصبر جميل﴾ أي فشأني صبر جميل وقيل معناه فصبري صبر جميل والصبر الجميل الذي لاشكوى فيه ولاجزع وقيل من الصبر ان لاتحدث بمصيبتك ولاتزكين نفسك ﴿والله المستعان على ماتصفون﴾ يعني من القول الكذب وقيل معناه والله المستعان على حمل ماتصفون * قوله عزوجل ﴿وجاءت سيارة﴾ وهم القوم المسافرون سموا سيارة لمسيرهم في الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا من الجب الذي كان فيه يوسف وكان في قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحا فلما ألقي يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلا من اهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء فذلك قوله عزوجل ﴿فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه﴾ قال والوارد الذي هو يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء يقال أدليت الدلو اذا أرسلتها في البئر ودلوتها اذا أخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال

ان قرأت بالدال (قال بل سولت) زينت (لكم أنفسكم أمرا) في هلاك يوسف ففعلتم (فصبر جميل) فعلي صبر جميل بلا جزع (والله المستعان) منه أستعين (على ماتصفون) على صبري على ماتقولون من هلاكه ولم يصدقهم في قولهم لانهم قالوا مرة أخرى قبل هذا قتله اللصوص (وجاءت سيارة) قافلة من المسافرين من قبل مدين يريدون مصر فتحيروا في الطريق فاخطؤا الطريق فجعلوا يهيمون في الارض حتى وقعوا في الاراضي التي فيها الجب وهي أرض دوثن بين مدين ومصر فنزلوا عليه (فارسلوا واردهم) فارسل كل قوم طالب الماء وهو ساقيهم فوافق جب يوسف مالك بن ذعر (وكان) رجل من العرب من أهل مدين ابن أخي شعيب النبي عليه السلام (فأدلى دلوه) فأرخى دلوه في جب يوسف فتعلق يوسف فلم يقدر على نزعه من البئر فنظر فيه فرأى غلاما قد تعلق بالدلو فنادى أصحابه

﴿ قال يابشرى هذا غلام ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا اوانك وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يابشراى بالاضافة * وقرئ يابشرى بالادغام وهو لغة وبشراى بالسكون على قصد الوقف ﴿ واسروه ﴾ أى الوارد واصحابه من سائر الرفقة وقيل اخفوا امره وقالوا لهم دفعه الينا اهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك ان يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم فاتاه يومئذ فلم يجده فيها فاخبر اخوته فاتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه فسكت يوسف مخافة ان يقتلوه ﴿ بضاعة ﴾ نصب على الحال أى اخفوه متاع التجارة واشتقاقه من البضع فانه ما بضع من المال للتجارة ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ لم يخف عليه اسرارهم أو صنيع اخوة يوسف بابيهم واخيهم ﴿ وشروه ﴾ وباعوه وفى مرجع الضمير الوجهان أو اشتروه

وكان يوسف عليه السلام أحسن ما يكون من الغلمان * وذكر البغوى بسند متصل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن قال محمد بن اسحق ذهب يوسف وأمه بثلثى الحسن وحكى الثعلبى عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين اخميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه الله وصورته قبل أن يصيب الخطيئة قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كاحسن ما يكون من الغلمان ﴿ قال ﴾ يعنى الوارد وهو مالك بن ذعر ﴿ يابشراى ﴾ يعنى يقول الوارد لاصحابه أبشروا ﴿ هذا غلام ﴾ وقرئ يابشرى بغير اضافة ومعناه ان الوارد نادى رجلا من أصحابه اسمه بشرى كما تقول يا زيد ويقال ان جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ قال مجاهد أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا انه بضاعة استبضعناه لبعض أهل الماء الى مصر وانما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه وقيل ان اخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعنى انهم أخفوا أمر يوسف وكونه أخاهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدقهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل سرا من مالك بن ذعر وأصحابه والقول الاول أصح لان مالك بن ذعر هو الذى أسره بضاعة وأصحابه ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ يعنى من ارادة اهلاك يوسف فجعل ذلك سببا لنجاته وتحقيقا لرؤياه ان يصير ملك مصر بعد ان كان عبدا قال أصحاب الاخبار ان يهوذا كان يأتى يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده فى الجب فأخبر اخوته بذلك فطلبوه فاذاهم بمالك بن ذعر وأصحابه نزولا قريبا من البئر فاتوهم فاذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا أبق منا ويقال انهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم انهم باعوه منهم فذلك قوله تعالى ﴿ وشروه ﴾ أى باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت

فتشبث يوسف بالدلو فنزعوه (قال يابشرى) كوفي نادى البشرى كأنه يقول تعالى فهذا أوانك غيرهم بشراى على اضافتها الى نفسه أو هو اسم غلامه فناداه مضافا الى نفسه (هذا غلام) قيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به (وأسروه) الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة أو لاخوة يوسف فانهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة أن يقاتلوه (بضاعة) حال أى أخفوه متاع التجارة والبضاعة ما يضع من المال للتجارة أى قطع (والله عليم بما يعملون) بما يعمل اخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع (وشروه) وباعوه

(قال يابشرى) هذا بشراى يا أصحابى قالوا ماذلك يا مالك قال (هذا غلام) أحسن ما يكون من الغلمان فاجتمعوا عليه فأخرجوه من الجب (وأسروه بضاعة) وكتموه من القوم وقالوا لقومهم هذه بضاعة استبضعها اهل الماء لنبيعه لهم بمصر (والله عليم بما يعملون) بيوسف يعنى اخوة يوسف ويقال أهل القافلة (وشروه) باعوه اخوته من مالك بن

من اخوته ﴿ بثمن بخس ﴾ مبخوس لزيف أو نقصان ﴿ دراهم ﴾ بدل من الثمن ﴿ معدودة ﴾ قليلة فانهم كانوا يزنون مابلغ الاوقية ويعدون مادونها قيل كان عشرين درهما وقيل كان اثنين وعشرين درهما ﴿ وكانوا فيه ﴾ في يوسف ﴿ من الزاهدين ﴾ الراغبين عنه والضمير في وكانوا ان كان للاخوة فظاهر وان كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه وان كانوا مبتاعين فلانهم اعتقدوا انه آبق وفيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وان جعل بمعنى الذي فهو معلق بمحذوف يبينه الزاهدين لان متعلق الصلة لايتقدم على الموصول

الشئ بمعنى بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في وشروه وفي وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شئ واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير في وشروه يعود على مالك بن ذعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه ﴿ بثمن بخس ﴾ قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدى بخس أي حرام لان ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة يعني منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس بخس أي زيوف ناقصة العيار وقال قتادة بخس أي ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه اذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبي بخس أي قليل وعلى الاقوال كلها فالبخس في اللغة هو نقص الشئ على سبيل الظلم والبخس والباخس الشئ الطفيف ﴿ دراهم معدودة ﴾ فيه اشارة الى قلة تلك الدراهم لانهم في ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من أربعين درهما انما كانوا يأخذون مادونها عددا فاذا بلغت أربعين درهما وهي أوقية وزنوها واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ أخوه من أمه وأبيه شيأ منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما فعلى هذا أخذ أخوه منها درهمين لانهم كانوا أحد عشر أخا وقال عكرمة كانت أربعين درهما ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ يعني وكان اخوة يوسف في يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا اذا لم يكن له فيه رغبة والضمير في قوله وكانوا فيه من الزاهدين ان قلنا انه يرجع الى الاخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه انهم حسدوه وأرادوا ابعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وان قلنا ان قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى معنى واحد وهو ان الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه اظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل ويحتمل أن يقال ان اخوته لما قالوا انه عبدنا وقد أبق أظهر المشترى قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الاخبار ثم ان مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به الى مصر وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لايأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان

القيمة نقصا ناظاهرا أو زيف (دراهم) بدل من ثمن (معدودة) قليلة تعد عدا ولا توزن لانهم كانوا يعدون مادون الاربعين ويزنون الاربعين ومافوقها وكانت عشرين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بالثمن الطفيف أو معنى وشروه واشتروه يعني الرفقة من اخوته وكانوا فيه من الزاهدين أي غير راغبين لانهم اعتقدوا انه آبق ويروى ان اخوته اتبعوهم وقالوا استوثقوا منه لايأبق وفيه ليس من صلة الزاهدين أي غير راغبين لان الصلة لاتتقدم على الموصول وانما هو بيان كأنه قيل في أي شئ زهدوا فقال زهدوا فيه

ذعر (ثمن بخس) نقصان بالوزن ويقال زيوف ويقال حرام (دراهم معدودة) عشرين درهما ويقال اثنين وثلاثين درهما (وكانوا فيه) في ثمن يوسف (من الزاهدين) لم يحتاجوا اليه ويقال كان اخوة يوسف في يوسف من الزاهدين لم يعرفوا قدره ومنزلته عند الله تعالى ويقال كان أهل القافلة في يوسف من الزاهدين

(وقال الذى اشتراه من مصر) هو قطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد وقد آمن بيوسف ومات فى حياته واشتراه العزيز بزنته ورقا وحريرا ومسكا وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا واللام متعلقة بقال لا باشتراه (اكرمى مثواه) اجعلى منزلته ومقامه عندنا كريما أى حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربى أحسن مثواى وعن الضحاك بطيب معاشه ولين لباسه ووطىء فراشه (عسى أن ينفعنا) لعله اذا تدرب وراض الامور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض مانحن بسبيله (أو نتخذه ولدا) أو نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيما وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك (وكذلك) اشارة الى ماتقدم من انجائه وعطف قلب العزيز عليه والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الانجاء والعطف (مكنا ليوسف) أى كما انجيناه وعطفنا عليه العزيز كذلك مكناله (فى الارض) أى أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر ﴾ وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو اطفير وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليق وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات فى حياته وقيل كان فرعون موسى عاش اربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات والمشهور انه من اولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الاولاد باحوال الآباء روى انه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين واعطاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة واختلف فيما اشتراه به من جعل شرائه غير الاول فقيل عشرون دينارا وزوجا نعل وثوبان ابيضان وقيل ملأه فضة وقيل ذهبا ﴿ لامرأته ﴾ راعيل أو زليخا ﴿ اكرمى مثواه ﴾ اجعلى مقامه عندنا كريما أى حسنا والمعنى احسنى تعهده ﴿ عسى ان ينفعنا ﴾ فى ضياعنا واموالنا ونستظهر به فى مصالحنا ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ نتبناه وكان عقيما لما تفرس فيه من الرشد ولذلك قيل افرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت ياابت استأجره وابو بكر حين استخلف عمر رضى الله تعالى عنهما ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ﴾ وكما مكنا محبته فى قلب العزيز أو كما مكناه فى منزله أو كما انجيناه وعطفنا عليه العزيز مكناه له فيها

ابن الوليد بن نزوان وكان من العماليق وقيل ان هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حى قال ابن عباس لما دخلوا مصر لقى قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين دينارا وزوج نعل وثوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر ﴾ يعنى قطفير من أهل مصر ﴿ لامرأته ﴾ وكان اسمها راعيل وقيل زليخا ﴿ اكرمى مثواه ﴾ يعنى أكرمى منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الاقامة وقيل أكرميه فى المطعم والملبس والمقام ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ يعنى ان أردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض أمورنا ومصالحنا اذا قوى وبلغ ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ يعنى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وابنة شعيب فى موسى حيث قالت لابيها استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين وأبو بكر فى عمر حيث استخلفه بعده ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ﴾ يعنى كما مننا على يوسف بان أنقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه فى الارض يعنى

(وقال الذى اشتراه) اشترى يوسف (من مصر) فى مصر وهو العزيز خازن الملك وهو صاحب جنوده وكان يسمى قطفير (لامرأته) زليخا (أكرمى مثواه) قدره ومنزلته (عسى أن ينفعنا) فى ضيعتنا (أو نتخذه ولدا) أو نتبناه وكان اشتراه من مالك بن ذعر بعشرين درهما وحلة ونعلين (وكذلك) هكذا (مكنا ليوسف) ملكنا يوسف (فى الارض) أرض مصر

ونهيه (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) كان ذلك الانجاء والتمكين (والله غالب على أمره) لا يمتنع عما شاء اوعلى أمر يوسف بتبليغه ماأراد له دون ماأراد اخوته (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك (ولما بلغ اشده) منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة أو احدى وعشرون (آتيناه حكما وعلما)حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب مايجهل فيه أو حكما بين الناس وفقها (وكذلك نجزى المحسنين) تنبيه على انه كان محسنا فى عمله متقيا فى عنفوان أمره (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه)أى طلبت يوسف أن يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب وكان المعنى خادعته عن نفسه أى فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشئ الذى لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهى عبارة عن التمحل لمواقعته اياها(وغلقت الابواب) وكانت سبعة(وقالت هيت لك) هو اسم لتعال وأقبل

(ولنعلمه من تأويل الاحاديث' تعبير الرؤيا (والله غالب على أمره) على مقدوره لا يرد مقدوره أحد(ولكن أكثر الناس) أهل مصر (لايعلمون)ذلك و لا يصدقون ويقال لايعلمون أن الله غالب على أمره (ولما بلغ اشده) والاشد من ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة (آتيناه) أعطيناه(حكما وعلما) فهما ونبوة(وكذلك)هكذا(نجزى المحسنين)بالقول والفعل بالعلم والحكمة (يقول) (وراودته)طلبته(التى هو فى بيتهاعن نفسه) ان تستمكن من نفسه (وغلقت الابواب) عليها وعلى يوسف (وقالت) ليوسف (هيت لك) هلم أنالك ويقال تعال أنالك ويقال تهيأت لك معناه ان قرأت بنصب الهاء

﴿ ولنعلمه من تأويل الاحاديث ﴾ عطف على مضمر تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه اى كان القصد فى انجائه وتمكينه الى ان يقيم العدل ويدبر امور الناس وليعلم معانى كتب الله واحكامه فينفذها أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل ان تحل كما فعل بسنيه ﴿ والله غالب على امره ﴾ لا يرده شئ ولا ينازعه فيما يشاء أو على امر يوسف اراد به اخوة يوسف شيأ واراد الله غيره فلم يكن الا ما اراده ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ ان الامر كله بيده أو لطائف صنعه وخفايا لطفه ﴿ ولما بلغ اشده ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين والاربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم ﴿ آتيناه حكما ﴾ أى حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس ﴿ وعلما ﴾ يعنى علم تأويل الاحاديث ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾ تنبيه على انه تعالى انما آتاه ذلك جزاء على احسانه فى عمله واتقائه فى عنفوان امره ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ طلبت منه وتمحلت ان يواقعها من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شئ ومنه الرائد ﴿ وغلقت الابواب ﴾ قيل كانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الايثاق ﴿ وقالت هيت لك ﴾ أى اقبل وبادر أو تهيأت والكلمة

أرض مصر فجعلناه على خزائنها ﴿ ولنعلمه من تأويل الاحاديث ﴾ أى مكناله فى الارض لكى نعلمه من تأويل الاحاديث يعنى عبارة الرؤيا وتفسيرها ﴿ والله غالب على أمره ﴾ قيل الكناية فى امره راجعة الى الله تعالى ومعناه والله غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لامره ولا راد لقضائه ولا يغلبه شئ وقيل هى راجعة الى يوسف ومعناه ان الله مستول على أمر يوسف بالتدبير والاحاطة لا يكله الى أحد سواه حتى يبلغ منتهى ما علمه فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يعنى ما هو صانع بيوسف وما يريد منه ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ يعنى منتهى شبابه وشدته وقوته قال مجاهد ثلاثة وثلاثون سنة وقال الضحاك عشرون سنة وقال السدى ثلاثون سنة وقال الكلبى الاشد ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الاشد فقال هو الحلم ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ يعنى آتينا يوسف بعد بلوغ الاشد نبوة وفقها فى الدين وقيل حكما يعنى اصابة فى القول وعلما بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم ان العالم هو الذى يعلم الاشياء بحقائقها والحكيم هو الذى يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لا ينبغى والعلم هو العلم النظرى ﴿ وكذلك ﴾ يعنى وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك ﴿ نجزى المحسنين ﴾ قال ابن عباس يعنى المؤمنين وعنه أيضا المهتدين وقال الضحاك يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ يعنى ان امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته الى نفسها ليواقعها ﴿ وغلقت الابواب ﴾ أى أطبقتها وكانت سبعة لان مثل هذا الفعل لا يكون الا فى ستر وخفية وانها أغلقتها لشدة خوفها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ أى هلم واقبل قال أبو عبيدة كان الكسائى

وهو مبني على الفتح هيت مكي بناء على الضم هئت مدني وشامي واللام للبيان كأنه قيل لك أقول هذا كما تقول هلم لك (قال معاذ الله) أعوذ بالله معاذا (انه) أي ان الشأن والحديث (ربي) سيدي ومالكي يريد قطفير (أحسن مثواي) حين قال لك أكرمي مثواه فما جزاؤه ان اخونه في أهله (انه لا يفلح الظالمون) الخائنون أو الزناة

أو أراد بقوله انه ربي الله تعالى لانه مسبب الاسباب (ولقد همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن وقال الشيخ أبو المنصور رحمه الله وهم بها هم خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بانه من عباده المخلصين وقيل هم بها وشارف أن يهم بها يقال هم بالامر اذا قصده وعزم عليه وجواب (لولا أن رأى برهان ربه) محذوف أي لكان ما كان وقيل وهم بها جوابه ولا يصح لان جواب لولا لا يتقدم عليها لانه في حكم الشرط وله صدر الكلام والبرهان الحجة ويجوز ان يكون وهم بها داخلا في حكم القسم في قوله ولقد همت به ويجوز أن يكون خارجا ومن حق القارئ اذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه أن يقف على به ويبتدئ بقوله

على الوجهين اسم فعل بني على الفتح كأين واللام للتبيين كالتي في سقيالك * وقرأ ابن كثير بالضم تشبيها له بحيث ونافع وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كعيط وهو لغة فيه وقرأ هشام كذلك الا انه يهمزها وقد روي عنه ضم التاء وقرئ هيت كجير وهئت كجئت من هاء يهيء اذا تهيأ وقرئ هيئت وعلى هذا فاللام من صلته ﴿قال معاذ الله﴾ اعوذ بالله معاذا ﴿انه﴾ أي الشأن ﴿ربي احسن مثواي﴾ سيدي قطفير احسن تعهدي اذ قال لك في اكرمي مثواه فما جزاؤه ان اخونه في اهله وقيل الضمير لله تعالى أي انه خالقي واحسن منزلتي بان عطف علي قلبه فلا اعصيه ﴿انه لا يفلح الظالمون﴾ المجازون الحسن بالسيء وقيل الزناة فان الزنا ظلم على الزاني والمزني باهله ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ قصدت مخالطته وقصد مخالطتها والهم بالشيء قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي اذا هم بشيء امضاه والمراد بهمه عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم اخف الله ﴿لولا ان رأى برهان ربه﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالطها

يقول هي لغة لاهل حوران رفعت الى الحجاز معناها تعال وقال عكرمة أيضا بالحورانية هلم وقال مجاهد وغيره هي لغة عربية وهي كلمة حث واقبال على الشيء وقيل هي بالعبرانية وأصلها هيتالج أي تعال فعربت فقيل هيت لك فمن قال انها بغير لغة العرب يقول ان العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها * وقرئ هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك ﴿قال﴾ يعني يوسف ﴿معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ اليه فيما دعوتني اليه ﴿انه ربي﴾ يعني ان العزيز قطفير سيدي ﴿أحسن مثواي﴾ أي أكرم منزلتي فلا أخونه وقيل ان الهاء في انه ربي راجعة الى الله تعالى والمعنى يقول ان الله ربي أحسن مثواي يعني انه آواني ومن بلاء الجب نجاني ﴿انه لا يفلح الظالمون﴾ يعني ان فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون وقيل معناه انه لا يسعد الزناة * قوله عز وجل ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ الآية هذه الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها في مقامين * الاول في ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية قال المفسرون الهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه وقيل الهم مصدر هممت بالشيء اذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير

والتاء هلم لك وان قرأت بكسر الهاء وضم التاء والهمز تهيأت لك وان قرأت بنصب الهاء ورفع التاء تعال أنا لك (قال) يوسف (معاذ الله) (قاوخاه ٥٠ لث) أعوذ بالله من هذا الامر (انه ربي) سيدي العزيز (أحسن مثواي) قدري ومنزلتي لا أخونه في أهله (انه لا يفلح) لا يأمن ولا ينجو (الظالمون) الزانون من عذاب الله (ولقد همت به) المرأة (وهم بها) يوسف (لولا أن رأى برهان ربه) عذاب ربه لازما على نفسه ويقال رأى صورة أبيه ويقال لولا أن رأى برهان ربه لهم مقدم ومؤخر

لشبق الغلمة وكثرة المبالغة ولا يجوز ان يجعل وهم بها جواب لولا فانها في حكم ادوات

دخول فيه فمعنى قوله ولقد همت به أي أرادته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا وقال الزمخشري هم بالامر اذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن صابئ البرجمي

همت ولم أفعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حلائله

وقوله ولقد همت به معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أي وهم بمخالطتها لولا أن رأى برهان ربه جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها قال البغوي وأما همه بها فروى عن ابن عباس انه قال حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وقال مجاهد حل سراويله وجعل يعالج ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك جرى الشيطان بينهما فضرب بيده الى جيد يوسف وبيده الاخرى الى جيد المرأة حتى جمع بينهما قال أبو عبيدة القاسم بن سلام وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوي والقول ما قاله قدماء هذه الامة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الانبياء من غير علم قال السدي وابن اسحق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه الى نفسها فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتثر عن جسدي قالت ما أحسن عينيك قال هي أول ما يسيل على خدي في قبري قالت ما أحسن وجهك قال هو للتراب يأكله وقيل انها قالت له ان فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتي قال اذا يذهب نصيبي من الجنة فلم تزل تطمعه وتدعوه الى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم ان الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذي ذكره وسيأتي الكلام على تفسير البرهان الذي رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ما قاله المفسرون في هذه الآية ❁ أما المقام الثاني في تنزيه يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التي ينسب اليها قال بعض المحققين الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى اذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة واذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له عشرة لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال ان الله كتب الحسنات والسيآت ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وان هو هم بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة زاد في رواية

وهم بها وفيه أيضا اشعار بالفرق بين الهمين وفسر هم يوسف بانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهي مستلقية على قفاها وفسر البرهان بانه سمع صوتا اياك واياها مرتين فسمع ثالثا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على أنملته وهو باطل ويدل على بطلانه قوله هي راودتني عن نفسي

الشرط فلا يتقدم عليها جوابها بل الجواب محذوف يدل عليه وقيل رأى جبريل عليه السلام

أو محاها ولن يهلك على الله الا هالك * قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمحدثين ان هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية فى هم يوسف اذا * وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فان الهم اذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما ما لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه هذا هو الحق فيكون ان شاء الله هم يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرئ نفسى الآية أى ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكى قبل وبرئ فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبى عبيدة ان يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وان الكلام فيه تقديم وتأخير أى ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها وقال تعالى حاكيا عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وقال تعالى وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل فى قوله وهم بها أى بزجرها ووعظها وقيل هم بها أى همها امتناعه وقيل هم بها أى نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن الى يوسف ميل شهوة زليخا حتى نبأه الله فالقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه هذا آخر كلام القاضى عياض رحمه الله * وأما الامام فخر الدين فذكر فى هذا المقام كلاما طويلا مبسوطا وأنا أذكر بعضه ملخصا فأقول قال الامام فخر الدين الرازى ان يوسف عليه الصلاة والسلام كان بريئا من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فان الدلائل قد دلت على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت الى ما نقله بعض المفسرين عن الائمة المتقدمين فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها واتبعوها باظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام فى قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقال فى حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيأ من ذلك فى هذه الواقعة لانه لو صدر منه شئ لاتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه فى كتابه كما ذكر عن غيره من الانبياء وحيث لم يحك عنه شيأ علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شئ كما نقله أصحاب الاخبار ويدل على ذلك أيضا ان كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام عما نسب اليه * واعلم ان الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة اللاتى قطعن أيديهن والمولود الذى شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضا أما بيان ان يوسف ادعى براءته مما نسب اليه فقوله هى راودتنى عن نفسى وقوله رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه واما بيان ان المرأة اعترفت على نفسها واعترفت ببراءة

ولو كان ذلك منه أيضا لما برأ نفسه من ذلك وقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفا عنه وقوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ولو كان كذلك لخانه بالغيب وقوله ما علمنا عليه من سوء وقوله الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ولانه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره

وقيل تمثل له يعقوب عاضا على اناملة وقيل قطفير وقيل نودي يا يوسف انت مكتوب في الانبياء

يوسف ونزاهته فقولها أنا راودته عن نفسه فاستعصم وقولها الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وأما بيان ان زوج المرأة اعترف أيضا ببراءة يوسف فقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين وأما شهادة المولود ببراءته فقوله وشهد شاهد من أهلها الآية واما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال ان الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فانه قول منكر لا يجوز لاحد ان يقول ذلك واما ماروى عن ابن عباس انه جلس منها مجلس الخائن فحاشا ابن عباس أن يقول مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الاخبار وضعوه على ابن عباس وكذلك ماروى عن مجاهد وغيره أيضا فانه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وماصدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام *فان قلت فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله عزوجل لولا أن رأى برهان ربه فائدة*قلت فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين *أحدهما انه تعالى أعلم يوسف أنه لوهم بدفعها لقتلته فاعلمه بالبرهان أن الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك *الوجه الثاني أنه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكاد في ذلك أن يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله أن الشاهد يشهد بان ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن واذا تمزق من خلف كانت هي الخائنة فاعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا فاثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه *وأما تفسير البرهان على ماذكره المفسرون في قوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه فقال قتادة وأكثر المفسرين ان يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الانبياء وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على أصبعه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدي نودي يا يوسف أتواقعها انما مثلك مالم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق عليه وان مثلك ان واقعتها كمثله اذا وقع على الارض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيأ ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك ان واقعتها كمثله اذا مات ودخل النمل في قرنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه وقيل انه رأى معصما بلا عضد عليه مكتوب وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون فولى هاربا ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فولى

كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام وقد سماه الله مخلصا فعلم بالقطع انه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولى العزم ناظرا في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء ومحل الكاف في

(هاربا)

(كذلك) نصب أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو رفع أي الامر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) خيانة السيد (والفحشاء) الزنا (انه من عبادنا المخلصين) بفتح اللام حيث كان

مدني وكوفي أي الذين أخلصهم الله لطاعته وبكسرها غيرهم أي الذين أخلصوا دينهم لله ومعنى من عبادنا بعض عبادنا أي هو مخلص من جملة المخلصين (واستبقا الباب) وتسابقا الى الباب هي للطلب وهو للهرب على حذف الجار وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو على تضمين استبقا معنى ابتدرا نفر منها يوسف فاسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووحد الباب وان كان جمعه في قوله وغلقت الابواب لانه أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار ولما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق حين هرب منها الى الباب وتبعته تمنعه (والفيا سيدها لدى الباب)

وتعمل عمل السفهاء ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو الامر مثل ذلك ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ خيانة السيد ﴿ والفحشاء ﴾ الزنا ﴿ انه من عبادنا المخلصين ﴾ الذين اخلصهم الله لطاعته. وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن اذا كان في اوله الالف واللام أي الذين اخلصوا دينهم لله ﴿ واستبقا الباب ﴾ اى تسابقا الى الباب فحذف الجار أو ضمن الفعل معنى الابتدار وذلك ان يوسف فر منها ليخرج واسرعت وراءه لتمنعه الخروج ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ اجتذبته من ورائه فانقد قميصه والقد الشق طولا والقط الشق عرضا ﴿ والفيا سيدها ﴾ وصادفا زوجها ﴿ لدى الباب

هاربا ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي يوسف قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على أصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الانبياء وقيل انه مسه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله قال محمد بن كعب القرظي رفع يوسف رأسه الى سقف البيت فرأى كتابا في حائط فيه ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا وفي رواية عن ابن عباس انه رأى مثال ذلك الملك وعن علي بن الحسن قال كان في البيت صنم فقامت المرأة اليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا فقالت استحييت منه أن يراني على معصية فقال لها يوسف أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيأ فانا أحق أن استحيي من ربي فهرب فذلك قوله لولا أن رأى برهان ربه * أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الاول قال جعفر بن محمد الصادق البرهان هو النبوة التي جعلها الله تعالى في قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل * الثاني البرهان حجة الله عز وجل على العبد في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب * الثالث ان الله عز وجل طهر نفوس الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الاخلاق الذميمة والافعال الرزيلة وجبلهم على الاخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الاخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما يليق فعله ﴿ كذلك ﴾ يعني كما أريناه البرهان كذلك ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ يعني الاثم ﴿ والفحشاء ﴾ يعني الزنا وقيل السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله ﴿ انه ﴾ يعني يوسف ﴿ من عبادنا المخلصين ﴾ قرئ بفتح اللام ومعناه انه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرئ بكسر اللام ومعناه انه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله عز وجل * قوله تعالى ﴿ واستبقا الباب ﴾ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هاربا مبادرا الى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته اليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ يعني شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت خلفه ﴿ والفيا سيدها لدى الباب ﴾

(كذلك) هكذا (لنصرف عنه السوء) القبيح (والفحشاء) يعني الزنا (انه من عبادنا المخلصين) المعصومين من الزنا (واستبقا الباب) تبادرا الى الباب أراد يوسف ليخرج وأرادت المرأة لتغلق الباب على يوسف فسبقته المرأة (وقدت قميصه) شقت قميص يوسف بنصفين (من دبر) من الخلف من وسطه الى قدمه (وألفيا) ووجدا (سيدها) زوج المرأة ويقال ابن عمها (لدى الباب) عند الباب

وصادفا بعلها قطفير مقبلا يريد أن يدخل فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف طمعا فى أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوأ الا ان يسجن أوعذاب أليم) ما نافية أى ليس جزاؤه الا السجن أوعذاب أليم وهو الضرب بالسياط ولم تصرح بذكر يوسف وانه أراد بها سوأ لانها قصدت العموم أى كل من أراد بأهلك سوأ فحقه أن يسجن أويعذب لان ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف ولما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه (قال هى راودتنى عن نفسى) ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها (وشهد شاهد من أهلها) هو ابن عم لها وانما القى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وقيل كان ابن خال لها وكان صبيا فى المهد وسمى قوله شهادة لانه أدى مؤدى الشهادة فى ان ثبت به قول يوسف وبطل قولها (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين

قالت ماجزاء من اراد باهلك سوأ الا ان يسجن أو عذاب أليم ﴾ ايهاما بانها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييره على يوسف واغراءه انتقاما منه وما نافية أو استفهامية بمعنى أى شئ جزاؤه الا السجن ﴿ قال هى راودتنى عن نفسى ﴾ طالبتنى بالمواتاة وانما قال ذلك دفعا لما عرضته له من السجن والعذاب الاليم ولو لم تكذب عليه لما قاله ﴿ وشهد شاهد من اهلها ﴾ قيل ابن عم لها وقيل ابن خال لها صبيا فى المهد وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تكلم اربعة صغارا ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم عليه السلام وانما القى الله الشهادة على لسان اهلها ليكون ألزم لها ﴿ ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ لانه يدل على انها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها أو انه اسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه

يعنى فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالسا مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول ﴿ قالت ﴾ يعنى لزوجها ﴿ ماجزاء من أراد بأهلك سوأ ﴾ يعنى الفاحشة ثم خافت عليه أن يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت ﴿ الا أن يسجن ﴾ أى يحبس فى السجن ويمنع التصرف ﴿ أو عذاب أليم ﴾ يعنى الضرب بالسياط وانما بدأت بذكر السجن دون العذاب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما أرادت ان يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد ان يبرهن عن نفسه ﴿ قال ﴾ يعنى يوسف ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ يعنى طلبت منى الفحشاء فابيت وفررت وذلك ان يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال هى راودتنى عن نفسى ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ يعنى وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا فى ذلك الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا فى المهد فانطقه الله عز وجل وهو رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم ذكره البغوى بغير سند والذى جاء فى الصحيحين ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وابن المرأة وقصتهم مخرجة فى الصحيح قيل كان هذا الصبى شاهد يوسف ابن خال المرأة وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد لم يكن صبيا ولكنه كان رجلا حكيما ذا رأى وقال السدى هو ابن عم المرأة فحكم فقال ﴿ ان كان قميصه قد من قبل ﴾ أى من قدام ﴿ فصدقت وهو من الكاذبين

(قالت) المرأة لزوجها (ما جزاء من اراد باهلك سوأ) زنا (الا أن يسجن أو عذاب أليم) أويضرب ضربا وجيعا (قال) يوسف (هى راودتنى عن نفسى) هى دعتنى وطلبت ان تستمكن من نفسى (وشهد شاهد) حكم حاكم (من أهلها) وهو أخوها ويقال ابن عمها (وان) (ان كان قميصه) قميص يوسف (قد) شق (من قبل) من قدام (فصدقت) المرأة (وهو من الكاذبين

وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) والتقدير وشهد شاهد فقال ان كان قميصه وانما دل قد قميصه من قبل على انها صادقة لانه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر في مقادم قميصه فيشقه ولانه يقبل عليها وهي تدفعه عن نفسها فيتخرق القميص من قبل واما تنكير قبل ودبر فعناه من جهة يقال لها قبل ومن جهة يقال لها دبر وانما جمع بين ان التي للاستقبال وبين كان لان المعنى ان يعلم انه كان قميصه قد (فلما رأى) قطفير (قميصه قد من دبر) وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها (قال انه) ان قولك ماجزاء من أراد باهلك سوأ أو ان هذا الامر وهو الاحتيال لنيل الرجال (من كيدكن) الخطاب لها ولامتها (ان كيدكن عظيم) لانهن ألطف كيدا وأعظم حيلة وبذلك يغلبن الرجال والقصريات منهن معهن ماليس مع غيرهن من البوائق وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لان الله تعالى قال ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال لهن ان كيدكن عظيم (يوسف) حذف منه حرف النداء لانه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (اعرض عن هذا) الامر واكتمه

﴿ وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ لانه يدل على انها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته والشرطية محكية على ارادة القول أو على ان فعل الشهادة من القول وتسميتها شهادة لانها ادت مؤداها والجمع بين ان وكان على تأويل ان يعلم انه كان ونحوه ونظيره قولك ان احسنت الي اليوم فقد احسنت اليك من قبل فان معناه ان تمتن علي باحسانك امتن عليك باحساني لك السابق * وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف وبسكون العين ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه ﴾ ان قولك ماجزاء من اراد باهلك سوأ أو ان السوء أو ان هذا الامر ﴿ من كيدكن ﴾ من حيلتكن والخطاب لها ولامثالها أو لسائر النساء ﴿ ان كيدكن عظيم ﴾ فان كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا في النفس أو لانهن يواجهن به الرجال والشيطان يوسوس به مسارقة ﴿ يوسف ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتفطنه للحديث ﴿ اعرض عن هذا ﴾

وان كان قميصه قد من دبر ﴾ أي من خلف ﴿ فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وانما كان هذا الشاهد من اهل المرأة ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف عليه الصلاة والسلام مع ماوجد من كثرة العلامات الدالة على صدق يوسف عليه الصلاة والسلام ونفي التهمة عنه من وجوه منها انه كان في الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لايبسط يديه الى سيدته ومنها انهم شاهدوا يوسف يعدو هاربا منها والطالب لايهرب ومنها انهم رأوا المرأة قد تزينت باكمل الوجوه فكان الحاق التهمة بها أولى ومنها انهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة فلم يروا عليه حالة تناسب اقدامه على مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أيضا ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ يعني فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف عليه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قال ﴾ يعني قال لها زوجها قطفير ﴿ انه ﴾ يعني هذا الصنيع ﴿ من كيدكن ﴾ يعني من حيلكن ومكركن ﴿ ان كيدكن عظيم ﴾ فان قلت كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء * قلت أما كون الانسان خلق ضعيفا فهو بالنسبة الى خلق ماهو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والارض والجبال ونحو ذلك وأما عظم كيد النساء ومكرهن في هذا الباب فهو أعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد في اتمام مرادهن مالا يقدر عليه الرجال في هذا الباب وقيل ان قوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم من قول الشاهد وذلك أنه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام قال هذه المقالة ﴿ يوسف ﴾ يعني يا يوسف ﴿ أعرض عن هذا ﴾ يعني اترك هذا الحديث فلا تذكره

وان كان قميصه قد) شق (من دبر) من خلف فكذبت المرأة (وهو من الصادقين) في قوله انها راودتني (فلما رأى قميصه قد) شق (من دبر) من خلف (قال) أخوها (انه من كيدكن) من مكركن وصنيعكن (ان كيدكن) مكركن وصنيعكن (عظيم) يخلص الى البرئ والسقيم ثم قال أخوها ليوسف (يوسف) يعني يا يوسف (أعرض عن هذا) الامر

ولاتحدث به ثم قال لراعيل (واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب يقال خطئ اذا أذنب متعمدا وانما قال بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما قليل الغيرة حيث اقتصر على هذا القول (وقال نسوة) جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقي ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها (فى المدينة) فى مصر (امرأت العزيز) يردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب (تراودفتاها) غلامها يقال فتاى وفتاتى أى غلامى وجاريتى (عن نفسه) لتنال شهوتها منه (قدشغفها حبا) تمييز أى قدشغفها حبه يعنى خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد والشغاف حجاب القلب أوجلدة رقيقة يقال لها لسان القلب (انالنراها فى ضلال مبين) فى خطأ وبعد عن طريق الصواب

اكتمه ولاتذكره ﴿ واستغفرى لذنبك ﴾ ياراعيل ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ من القوم المذنبين من خطئ اذا اذنب متعمدا والتذكير للتغليب ﴿ وقال نسوة ﴾ هى اسم لجمع امرأة وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جرد فعله وضم النون لغة فيها ﴿ فى المدينة ﴾ ظرف لقال أى اشعن الحكاية فى مصر أوصفة نسوة وكن خمسا زوجة الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب ﴿ امرأت العزيز تراودفتاها عن نفسه ﴾ تطلب مواقعة غلامها اياها والعزيز بلسان العرب الملك واصل فتى فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة ﴿ قدشغفها حبا ﴾ شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها حبا ونصبه على التميز لصرف الفعل عنه وقرئ شعفها من شعف البعير اذا هنأه بالقطران فاحرقه ﴿ انالنراها فى ضلال مبين ﴾ فى ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب

لاحد حتى لايفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل معناه يايوسف لاتكترث بهذا الامر ولاتهتم به فقدبان عذرك وبراءتك ثم التفت الى المرأة فقال لها ﴿ واستغفرى لذنبك ﴾ يعنى توبى الى الله مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو برئ منها وقيل ان هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلى زوجك أن يصفح عنك ولايعاقبك بسبب ذنبك ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ يعنى من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو برئ وانما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليبا لجنس الرجال على النساء وقيل انه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل من يفعل هذا الفعل تقديره انك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين * قوله عز وجل ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراودفتاها عن نفسه ﴾ يعنى وقال جماعة من النساء وكن خمسا وقيل كن أربعا وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة فى مدينة مصر وقيل هى مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صاحب سجنه وقيل نسوة من اشراف مصر امرأة العزيز يعنى زليخا تراودفتاها عن نفسه يعنى تراود عبدها الكنعانى عن نفسه لانها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن ﴿ قدشغفها حبا ﴾ يعنى قدعلقها حبا والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى ان حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل ان حبه قدأحاط بقلبها كاحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبى حجب حبه قلبها حتى لاتعقل شيأ سواه ﴿ انالنراها فى ضلال مبين ﴾ يعنى فى خطأ بين ظاهر حيث

ولاتخبر أحدا ثم اعرض الى المرأة وقال (واستغفرى لذنبك) استحلى واعتذرى الى زوجك من سوء صنيعك أيتها المرأة (انك كنت من الخاطئين) من الخائنين لزوجك ففشا أمرهما بعد ذلك فى المدينة (وقال نسوة فى المدينة) وهن أربع نسوة امرأة ساقى الملك وامرأة صاحب سجنه وامرأة صاحب مطبخه وامرأة صاحب دوابه (أمرأت العزيز) زليخا (تراودفتاها) تدعو عبدها أن يستمكنها (عن نفسه) من نفسه (قدشغفهاحبا) قدشق شغاف قلبها حب يوسف ويقال بطنها حب يوسف ان قرأت بالشين والعين (انالنرها فى ضلال مبين) فى خطأ بين فى حب عبدها يوسف (تركت)

(فلماسمعت) راعيل (بمكرهن) باغتيابهن وقولهن امرأةالعزيز عشقت عبدها الكنعانى ومقتها وسمى الاغتياب مكرا لانه فى خفية وحال غيبة كما يخفى الماكر مكره و قيل كانت استكتمتهن سرها فافشينه عليها (أرسلت اليهن) دعتهن قيل دعت أربعين امرأة منهن

المذكورات (وأعتدت)

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ باغتيابهن وانما سماه مكرا لانهن اخفونه كما يخفى الماكر مكره أوقلن ذلك لتريهن يوسف أولانها استكتمتهن سرها فافشينه عليها ﴿ ارسلت اليهن ﴾ تدعوهن قيل دعت اربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات ﴿ واعتدت لهن متكأ ﴾ مايتكئن عليه من الوسائد ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾ حتى يتكئن والسكاكين بايديهن فاذا خرج عليهن يبهتن ويشغلن عن نفوسهن فتقع ايديهن على ايديهن فيقطعنها فيبكتن بالحجة أويهاب يوسف من مكرها اذا خرج وحده على اربعين امرأة فى ايديهن الخناجر وقيل متكأ طعاما أومجلس طعام فانهم كانوا يتكؤن للطعام والشراب تترفا ولذلك نهى عنه قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا • وشربنا الحلال من قلله

وقيل المتكأ طعام يحز حزا كأن القاطع يتكئ عليه بالسكين وقرئ متكا بحذف الهمزة ومتكاء باشباع الفتحة كمنتزاح ومتكا وهو الاترج اومايقطع من متك الشئ اذا بتكه ومتكأ من تكئ يتكأ اذا اتكأ ﴿ وقالت اخرج عليهن فلما رأينه اكبرنه ﴾ عظمنه وهبن حسنه

تركت مايجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ يعنى فلما سمعت زليخا بقولهن وماتحدثن به وانما سمى قولهن ذلك مكرا لانهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه وقيل ان امرأة العزيز أفشت اليهن سرها واستكتمتهن فافشين ذلك عليها فلذلك سماه مكرا ﴿ أرسلت اليهن ﴾ يعنى انها لما سمعت بانهن يلمنها على محبتها ليوسف أرادت أن تقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مائدة يعنى صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتى عيرنها ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ يعنى ووضعت لهن نمارق ومساند يتكئن عليها وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد متكأ يعنى طعاما وانما سمى الطعام متكأ لان كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها فسمى الطعام متكأ على الاستعارة ويقال أتكأنا عند فلان أى طعمنا عنده والمتكأ مايتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهى عنه فى الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل المتكا الاترج وقيل هو كل شئ يقطع بالسكين أويحزبها يقال ان المرأة زينت البيت بألوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتى عيرنها بحب يوسف ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾ يعنى وأعطت كل واحدة من النساء سكينا لتأكل بها وكان من عادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ يعنى وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته فى مكان آخر ﴿ فلما رأينه ﴾ يعنى النسوة ﴿ أكبرنه ﴾ يعنى أعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطى شطر

وهيأت افتعلت من العتاد (لهن متكأ) مايتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهى قعودهن متكئات والسكاكين فى أيديهن أى يدهشن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها لان المتكئ اذا بهت لشئ وقعت يده على يده (وآتت كل واحدة منهن سكينا) وكانوا لا يأكلون فى ذلك الزمان الابالسكاكين كفعل الاعاجم (وقالت اخرج عليهن) بكسر التاء بصرى وعاصم وحمزة وبضمها غيرهم (فلما رأينه أكبرنه) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق وكان فضل يوسف على

فلما سمعت بمكرهن) بقولهن (أرسلت اليهن)ودعتهن الى الضيافة (واعتدت لهن متكأ)وسائد يتكئن عليها ان قرأت مشددة وان قرأت مخففة يقول اترنجة وجاءت باللحم والخبز فوضعت بين أيديهن (وآتت) اعطت (كل واحدة منهن سكينا) تقطع بها اللحم لانهم كانوا لا يأكلون (قا و خا ٥١ لث) من اللحم الا مايقطعون بسكاكينهم (وقالت) زليخا ليوسف (اخرج عليهن) يايوسف (فلما رأينه اكبرنه) اعظمنه

الفائق وعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران وقيل أكبرن بمعنى حضن من أكبرت المرأة اذا حاضت لانها تدخل الكبر بالحيض والهاء ضمير للمصدر او ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت حاضت في الخدور العواتق

﴿ وقطعن ايديهن ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة ﴿ وقلن حاش لله ﴾ تنزيها له من صفات العجز وتعجبا من قدرته على خلق مثله واصله حاشا كما قرأه ابو عمرو في الدرج فحذفت الفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما في قولك سقيا لك وقرئ حاشا الله بغير لام بمعنى براءة الله وحاشا لله بالتنوين على تنزيله منزلة

الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي الى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال اسحق بن أبي فروة كان يوسف اذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ويقال انه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عزوجل قبل ان يخرج من الجنة وقال ابو العالية هالهن أمره وبهتن اليه وفي رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أي حضن ونحوه عن مجاهد والضحاك قال حضن من الفرح وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول قال الزجاج هذه اللفظة ليست معروفة في اللغة والهاء في أكبرنه تمنع من هذا لانه لايجوز أن يقال النساء قد حضنه لان حضن لايتعدى الى مفعول قال الازهري ان صحت هذه اللفظة في اللغة فلها مخرج وذلك ان المرأة اذا حاضت أول ماتحيض فقد خرجت من حد الصغار الى حد الكبار فيقال لها أكبرت أي حاضت على هذا المعنى فان صحت الرواية عن ابن عباس سلمنا له وجعلنا الهاء في قوله أكبرنه هاء الوقف لاهاء الكناية وقيل ان المرأة اذا خافت أو فزعت فربما أسقطت ولدها وتحيض فان كان ثمة حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف حين رأينه قال الامام فخر الدين الرازي وعندي أنه يحتمل وجها آخر وهو أنهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلاجرم أكبرنه وأعظمنه ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ يعني وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم لدهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما أحسسن الا بالدم وقال قتادة أبن أيديهن حتى ألقينها والاصح انه كان قطعا من غير ابانة وقال وهب ماتت جماعة منهن ﴿ وقلن ﴾ يعني النسوة ﴿ حاش لله

الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء وكان اذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت اذ لايقال النساء قد حضنه لانه لايتعدى الى مفعول يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله * خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت حاضت في الخدور العواتق * (وقطعن أيديهن) وجرحنها كما تقول كنت اقطع اللحم فقطعت يدي تريد جرحتها أي أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لما رأينه فخدشن أيديهن (وقلن حاش لله) حاشا كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء تقول اساء القوم حاشا زيد وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى حاشا الله براءة الله وتنزيه الله وقراءة أبي عمرو حاشا لله نحو قولك سقيا لك كأنه قال براءة ثم قال لله لبيان من يبرأ وينزه وغيره حاش لله بحذف الالف الاخيرة والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله

(ماهذا)

(وقطعن)خدشن وجشن(أيديهن) بالسكين من الدهشة والتحير مما رأين من حسن يوسف (وقلن حاش لله) معاذ الله

(ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) نفين عنه البشرية لغرابة جماله وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم لما ركز فى الطباع ان لا أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن ثم لمتننى فيه تعنى انكن لم تصورنه حق صورته والا لعذرتننى فى الافتتان به (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كانه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها وهذا بيان جلى على ان يوسف عليه السلام برئ مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان ثم قلن له أطع مولاتك فقالت راعيل (ولئن لم يفعل ما آمره) الضمير راجع الى ما وهى موصولة والمعنى ما آمره به فحذف الجار كما فى قوله أمرتك الخير أو ما مصدرية والضمير يرجع الى يوسف أى ولئن لم يفعل أمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه (ليسجنن) ليحبسن والالف فى (وليكونا) بدل من نون التأكيد الخفيفة (من الصاغرين) مع السراق والسفاك والاباق كما سرق قلبى وأبق منى وسفك دمى بالفراق فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعنى هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلى فى الحرير على السرير أميرا حصل فى الحصير على الحصير حسيرا فلما سمع يوسف تهديدها

المصدر وقيل حاشى فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أى صار فى ناحية لله مما يتوهم فيه ﴿ ماهذا بشرا ﴾ لان هذا الجمال غير معهود للبشر وهو على لغة الحجاز فى اعمال ما عمل ليس لمشاركتهما فى نفى الحال * وقرئ بشر بالرفع على لغة تميم و بشرى اى بعبد مشترى لئيم ﴿ ان هذا الا ملك كريم ﴾ فان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة او لان جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه الا الملك ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ﴾ أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى لمتننى فى الافتتان به قبل ان تتصورنه حق تصوره ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى أو فهذا هو الذى لمتننى فيه فوضع ذلك موضع هذا رفعا لمنزلة المشار اليه ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ فامتنع طلبا للعصمة اقرت لهن حين عرفت انهن يعذرنها كى يعاونها على الانة عريكته ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ أى ما آمر به فحذف الجار أو امرى اياه بمعنى موجب امرى فيكون الضمير ليوسف عليه السلام ﴿ ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ من الاذلاء وهو من صغر بالكسر يصغر صغرا وصغارا والصغير من صغر بالضم صغرا * وقرئ ليكونن وهو يخالف خط المصحف لان النون كتبت فيه

ماهذا بشرا ﴾ أى معاذ الله أن يكون هذا بشرا ﴿ ان هذا الا ملك كريم ﴾ يعنى على الله والمقصود من هذا اثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لانه قد ركز فى النفوس أن لا شئ أحسن من الملك فلذلك وصفنه بكونه ملكا وقيل لما كان الملك مطهرا من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التى تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك * قوله تعالى ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ﴾ يعنى قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذى لمتننى فى محبته وانما قالت ذلك لاقامة عذرها عندهن حين قلن ان امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعانى حبا وانما قالت فذلكن الخ بعدما قام من المجالس و ذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ويجوز أن يكون اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعانى تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن ثم لمتننى فيه ثم ان امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ يعنى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبته منه وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم ان امرأة العزيز قالت ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ يعنى وان لم يطاوعنى فيما دعوته اليه ﴿ ليسجنن ﴾ أى ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿ وليكونا من الصاغرين ﴾ يعنى من الاذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة

(ماهذا بشرا) آدميا (ان هذا) ماهذا (الا ملك كريم) على ربه (قالت) زليخا لهن (فذلكن الذى لمتننى) عذلتننى وعيبتننى (فيه ولقد راودته عن نفسه) دعوته الى نفسى وطلبته لاستمكن من نفسه (فاستعصم) فامتنع عنى بالعفة (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن) فى السجن (وليكونا من الصاغرين) من الذليلين فيه وقلن هؤلاء النسوة ليوسف أطع مولاتك

(قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) أسند الدعوة اليهن لانهن قلن له ماعليك لو أجبت مولاتك أو افتتنت كل واحدة

به فدعته الى نفسها سرا فالتجأ الى ربه قال رب السجن أحب الى من ركوب المعصية

(والاتصرف عنى كيدهن) فزع منه الى الله فى طلب العصمة (أصب اليهن) أمل اليهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها (وأكن من الجاهلين) من الذين لايعملون بما يعلمون لان من لاجدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء او من السفهاء فلما كان فى قوله والاتصرف عنى كيدهن معنى طلب الصرف والدعاء قال (فاستجاب له ربه) أى أجاب الله دعاءه (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بحاله وحالهن (ثم بدا لهم) فاعله مضمر لدلالة مايفسره عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء أى ظهر لهم رأى والضمير

بالالف كنسفعا على حكم الوقف وذلك فى الخفيفة لشبهها بالتنوين ﴿ قال رب السجن ﴾ وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر ﴿ احب الى مما يدعوننى اليه ﴾ أى آثر عندى من مؤاتاتها نظرا الى العاقبة وان كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه واسناد الدعوة اليهن جميعا لانهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها أو دعونه الى انفسهن وقيل انما ابتلى بالسجن لقوله هذا وانما كان الاولى به ان يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على من كان يسأل الصبر ﴿ والاتصرف ﴾ وان لم تصرف ﴿ عنى كيدهن ﴾ فى تحبب ذلك الى وتحسينه عندى بالتثبيت على العصمة ﴿ اصب اليهن ﴾ امل الى اجابتهن او الى انفسهن بطبعى ومقتضى شهوتى والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تستطيبها وتميل اليها وقرئ أصب من الصبابة وهى الشوق ﴿ واكن من الجاهلين ﴾ من السفهاء بارتكاب مايدعوننى اليه فان الحكيم لايفعل القبيح أو من الذين لايعملون بما يعلمون فانهم والجهال سواء ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ فاجاب الله دعاءه الذى تضمنه قوله والاتصرف ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان ﴿ انه هو السميع ﴾ لدعاء الملتجئين اليه ﴿ العليم ﴾ باحوالهم ومايصلحهم ﴿ ثم بدا لهم

بذلك ﴿ قال رب ﴾ أى يارب ﴿ السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ﴾ قيل ان الدعاء كان منها خاصة وانما أضافه اليهن جميعا خروجا من التصريح الى التعريض وقيل انهن جميعا دعونه الى أنفسهن وقيل انهن لما قلن له أطع مولاتك صحت اضافة الدعاء اليهن جميعا اولانه كان بحضرتهن قال بعضهم لولم يقل السجن أحب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد أن يسأل الله العافية ﴿ والاتصرف عنى كيدهن ﴾ يعنى ما أردن منى ﴿ أصب اليهن ﴾ أى أمل اليهن يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ يعنى من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه دليل على أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ يعنى فاجاب الله تعالى دعاء يوسف ﴿ فصرف عنه كيدهن انه هو السميع ﴾ يعنى لدعاء يوسف وغيره ﴿ العليم ﴾ يعنى بحاله وفى الآية دليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن اياه بما لايليق بحاله لجأ الى الله وفزع الى الدعاء رغبة الى الله ليكشف عنه مانزل به من ذلك الامر مع الاعتراف بانه ان لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على أنه لايقدر أحد على الانصراف عن المعصية الابعصمة الله ولطفه به ✽ قوله عز وجل ﴿ ثم بدا لهم ﴾ يعنى للعزيز واصحابه فى الرأى وذلك انهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الاعراض وكتم الحال وذلك ان المرأة قالت لزوجها ان ذلك العبد العبرانى قد فضحنى عند الناس يخبرهم بانى قد راودته عن نفسه فاما ان تأذن لى فاخرج واعتذر الى الناس واما ان تحبسه

(قال) يوسف (رب) يارب (السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) من الزنا (والاتصرف) ان لم تصرف (عنى كيدهن) مكرهن (اصب اليهن) امل اليهن (وأكن من الجاهلين) بنعمتك ويقال من الزانين (فاستجاب له ربه) دعوته (فصرف عنه كيدهن) مكرهن (انه هو السميع) للدعاء (العليم) بالاجابة (فرأى) ويقال السميع لمقالتهن العليم بمكرهن (ثم بدا لهم) ظهر لهم يعنى للعزيز

فى لهم للعزيز وأهله (من بعد مارأوا الآيات) وهى الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الايدى وشهادة الصبى وغير ذلك (ليسجننه) لابداء عذر الحال وارخاء الستر على القيل والقال وما كان ذلك الا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطواعا لها وجميلا ذلولا زمامه فى يدها وقد طمعت أن يذلله السجن و يسخره لها وخافت عليه العيون وظنت فيه الظنون فألجأها الخجل من الناس والوجل من البأس

الى ان رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفى بخبره اذا منعت من نظره (حتى حين) الى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر مايكون منه (ودخل معه السجن فتيان) عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فادخلا السجن ساعة أدخل يوسف لان مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الامير تريد مصاحبا له فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له (قال أحدهما) أى شرابيه (انى أرانى) أى فى المنام وهى حكاية حال ماضية (أعصر خمرا) أى عنبا تسمية للعنب بما يؤل اليه أو الخمر بلغة عمان

من بعد مارأوا الآيات ﴾ ثم ظهر للعزيز واهله من بعد مارأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبى وقد القميص وقطع النساء ايديهن واستعصامه عنهن وفاعل بدا مضمر يفسره ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ وذلك لانها خدعت زوجها وحملته على سجنه زمانا حتى تبصر مايكون منه أو يحسب الناس انه المجرم فلبث فى السجن سبع سنين وقرئ بالتاء على ان بعضهم خاطب به العزيز على التعظيم او العزيز ومن يليه وعتى بلغة هذيل ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ أى ادخل يوسف السجن واتفق انه ادخل حينئذ آخران من عبيد الملك شرابيه وخبازه للاتهام بانهما يريدان ان يسماه ﴿ قال احدهما ﴾ يعنى الشرابى ﴿ انى ارانى ﴾ اى أرى فى المنام هى حكاية حال ماضية ﴿ اعصر خمرا ﴾

فرأى حبسه ﴿ من بعد مارأوا الآيات ﴾ يعنى الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته ﴿ ليسجننه ﴾ أى ليحبسن يوسف فى السجن ﴿ حتى حين ﴾ يعنى الى مدة يرون رأيهم فيها وقال عطاء الى أن تنقطع مقالة الناس وقال عكرمة الى سبع سنين وقال الكلبى خمس سنين فحبسه قال السدى جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما وكان السبب فى ذلك أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك فى طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لاتأكل أيها الملك فان الطعام مسموم وقال الخباز لاتشرب فان الشراب مسموم فقال للساقى اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر الملك بحبسهما فحبسا مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول انى أعبر الاحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبرانى فتراءيا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رأيا شيأ قال ابن مسعود مارأيا شيأ انما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا انهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما فقصا عليه مارأياه فذلك قوله تعالى ﴿ قال أحدهما ﴾ وهو صاحب شراب الملك ﴿ انى أرانى أعصر خمرا ﴾ يعنى عنبا سمى

(من بعد مارأوا الآيات) شق القميص وقضاء اخيها (ليسجننه حتى حين) الى سنين ويقال الى حين يقطع مقالة الناس (ودخل معه السجن) بعد دخوله الى خمس سنين (فتيان) عبدان للملك صاحب شرابه وصاحب مطبخه غضب عليهما وادخلهما السجن (قال أحدهما) وهو الساقى (انى أرانى) رأيت نفسى (أعصر خمرا) عنبا وأسقى الملك وكان رؤياه انه رأى فى منامه كأنه يدخل كرما فرأى فى الكرم حبلة حسنة فيها ثلاثة قضبان وعلى قضبان عناقيد العنب فاجتنى العنب فعصره وناوله الملك فقال له يوسف ماأحسن مارأيت أما الكرم فهو العمل الذى كنت فيه وأما الحبلة فهى سلطانك على ذلك وأما حسنها فهو عزك وكرامتك فى ذلك العمل واما ثلاثة قضبان على الحبلة فهى ثلاثة ايام تكون فى السجن فتخرج فتعود الى عملك وأما العنب الذى عصرت وناولت الملك فهو

اسم للعنب (وقال الآخر) أى خبازه (انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله) بتأويل مارأيناه (انا نراك من المحسنين) من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أومن المحسنين الى أهل السجن فانك تداوى المريض وتعزى الحزين وتوسع على الفقير فاحسن الينا بتأويل مارأينا وقيل انهما تحالماله ليمتحناه فقال الشرابى أنى رأيت كأنى فى بستان فاذا باصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز انى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة فاذا سباع الطير تنهش منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الانبأتكما بتأويله) أى ببيان ماهيته

ان يردك الى عملك ويكرمك ويحسن اليك (وقال الآخر) وهو الخباز (انى أرانى) رأيت نفسى (احمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وكان رؤياه انه رأى فى منامه كأنه يخرج من مطبخ الملك وعلى رأسه ثلاث سلال من الخبز فوقع طير على أعلاها وأكل منها فقال له يوسف بئس مارأيت اما خروجك من المطبخ فهو أن تخرج من عملك واما ثلاث سلال فهى ثلاثة أيام تكون فى السجن وأما أكل الطير من رأسك فهو ان يخرجك الملك بعد ثلاثة أيام ويصلبك وتأكل الطير من رأسك وقالا قبل تعبيره (نبئنا بتأويله) اخبرنا بتأويل رؤيانا (انا نراك من المحسنين) الى أهل السجن ويقال من الصادقين فيما تقول (قال) لهما يوسف وأراد ان يعلمهما علمه بتعبير الرؤيا (لا يأتيكما طعام ترزقانه) تطعمانه (الانبأتكما بتأويله)

أى عنبا وسماه خمرا باعتبار مايؤول اليه ﴿ وقال الآخر ﴾ أى الخباز ﴿ انى ارانى احمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ﴾ تنهش منه ﴿ نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا أومن العالمين وانما قالا ذلك لانهما رأياه فى السجن يذكر الناس ويعبر رؤياهم أومن المحسنين الى اهل السجن فاحسن الينا بتأويل مارأينا ان كنت تعرفه ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الانبأتكما بتأويله ﴾ أى بتأويل ماقصصتما على أوبتأويل

العنب خمرا باسم مايؤول اليه يقال فلان يطبخ الآجر أى يطبخ اللبن حتى يصير آجرا وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان واذا فيه أصل حبلة وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك فى يدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه ﴿ وقال الآخر ﴾ وهو صاحب طعام الملك ﴿ انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ﴾ وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كان فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الاطعمة وسباع الطير تنهش منها ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ أى أخبرنا بتفسير مارأينا ومايؤول اليه امر هذه الرؤيا ﴿ انا نراك من المحسنين ﴾ يعنى من العالمين بعبارة الرؤيا والاحسان هنا بمعنى العلم وسئل الضحاك ما كان احسانه فقال كان اذا مرض انسان فى الحبس عاده وقام عليه واذا ضاق على أحد وسع عليه واذا احتاج أحد جمع له شيأ وكان مع هذا يجتهد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة وقيل انه لما دخل السجن وجد فيه قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا وأبشروا فقالوا بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أين أنت قال انا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له صاحب السجن يافتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أى بيوت السجن شئت وقيل ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا انا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله أن لا تحبانى فوالله ما أحبنى أحد قط الادخل على من حبه بلاء لقد أحبتنى عمتى فدخل على من ذلك بلاء وأحبنى أبى فالقيت فى الجب وأحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبرها لهما حين سألاه لما علم مافى ذلك من المكروه لاحدهما واعرض عن سؤالهما وأخذ فى غيره من اظهار المعجزة والنبوة والدعاء الى التوحيد وقيل انه عليه السلام أراد أن يبين لهما ان درجته فى العلم أعلى وأعظم مما عقدا فيه وذلك انهما طلبا منه علم التعبير ولاشك ان هذا العلم مبنى على الظن والتخمين فأراد أن يعلمهما انه يمكنه الاخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه واذا قدر على الاخبار عن الغيوب كان أقدر على تعبير الرؤيا بطريق الاولى وقيل انما عدل عن تعبير رؤياهما الى اظهار المعجزة لانه علم ان أحدهما سيصلب فأراد أن يدخله فى الاسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فاظهر له المعجزة لهذا السبب ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الانبأتكما بتأويله ﴾ قيل أراد به فى النوم يقول لا يأتيكما طعام

وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل (قبل أن يأتيكما) ولما استعبراه ووصفاه بالاحسان أفترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الاخبار بالغيب وانه ينبئهما بما يحمل اليهما من الطعام فى السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت

وجعل ذلك تخلصا الى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الايمان ويزينه لهما ويقبح اليهما الشرك وفيه ان العالم اذا جهلت منزلته فى العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه لم يكن من باب التزكية (ذلكما) اشارة لهما الى التأويل أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وأوحى به الى ولم أقله عن تكهن وتنجم (انى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) يجوز أن يكون كلاما مبتدأ وان يكون تعليلا لما قبله أى علمنى ذلك وأوحى به الى لانى رفضت ملة أولئك وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) وهى الملة الحنيفية وتكريرهم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما انه من بيت النبوة بعد ان عرفهما انه نبى يوحى اليه بما ذكر من اخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما في اتباع قوله

الطعام يعنى بيان ماهيته وكيفيته فانه يشبه تفسير المشكل كأنه اراد ان يدعوهما الى التوحيد ويرشدهما الى الطريق القويم قبل ان يسعف الى ماسألاه منه كما هو طريقة الانبياء عليهم السلام والنازلين منازلهم من العلماء فى الهداية والارشاد فقدم مايكون معجزة لهم من الاخبار بالغيب ليدلهما على صدقه فى الدعوة والتعبير ﴿ قبل ان يأتيكما ذلكما ﴾ أى ذلك التأويل ﴿ مما علمنى ربى ﴾ بالالهام والوحى وليس من قبيل التكهن أو التنجيم ﴿ انى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ تعليل لما قبله أى علمنى ذلك لانى تركت ملة اولئك ﴿ واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ﴾ أو كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة واظهار انه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما فى الاستماع اليه والوثوق عليه ولذلك جوز

ترزقانه فى نومكما الا اخبرتكما خبره فى اليقظة وقيل أراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعنى تطعمانه وتأكلانه الا أنبأتكما بتأويله يعنى أخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما فيه ﴿ قبل ان يأتيكما ﴾ يعنى قبل أن يصل اليكما وأى طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما انا بكاهن ولا عراف وانما ذلك اشارة الى المعجزة والعلم الذى أخبرهما به ﴿ ذلكما مما علمنى ربى ﴾ يعنى ان هذا الذى أخبرتكما به وحى من الله أوحاه الى وعلم علمنيه ﴿ انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ فان قلت ظاهر قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله انه عليه الصلاة والسلام كان داخلا فى هذه الملة ثم تركها وليس الامر كذلك لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا الى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك فى قوله تركت ٭ قلت الجواب من وجهين الاول ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ والالتفات اليه بالمرة وليس من شرطه أن يكون قد كان داخلا فيه ثم تركه ورجع عنه ٭ الوجه الثانى وهو الاقرب ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والايمان الصحيح صح قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ فترك ملتهم وأعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم فى قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة انكارهم للمعاد وقوله ﴿ واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ﴾ لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر انه من أهل بيت

والمراد به ترك الابتداء لانه كان فيه ثم تركه

نه وجنسه (قبل أن يأتيكما) كيف لا اعلم تعبير رؤياكما (ذلكما) التعبير (مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم) لم أتبع دين قوم (لا يؤمنون نه وهم بالآخرة) بالبعث بعد الموت (هم كافرون) جاحدون (واتبعت ملة آبائى) استقمت على دين آبائى (ابراهيم واسحق ويعقوب

للخامل العالم ان يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه وتكرير الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأكيد كفرهم بالآخرة ﴿ ما كان لنا ﴾ ماصح لنا معشر الانبياء ﴿ ان نشرك بالله من شئ ﴾ أي شئ كان ﴿ ذلك ﴾ أي التوحيد ﴿ من فضل الله علينا ﴾ بالوحي ﴿ وعلى الناس ﴾ وعلى سائر الناس ببعثتنا لارشادهم وتنبيههم عليه ﴿ ولكن اكثر الناس ﴾ المبعوث اليهم ﴿ لايشكرون ﴾ هذا الفضل فيعرضون عنه ولايتنبهون أو من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وانزال الآيات ولكن اكثرهم لاينظرون اليها ولايستدلون بها فيلغونها كمن يكفر النعمة ولايشكرها ﴿ ياصاحبي السجن ﴾ أي ياساكنيه أو ياصاحبي فيه فاضافهما اليه على الاتساع كقوله

ياسارق الليلة اهل الدار

﴿ أأرباب متفرقون ﴾ شتى متعددة متساوية الاقدام ﴿ خير أم الله الواحد ﴾ المتوحد بالالوهية ﴿ القهار ﴾ الغالب الذي لايعادله

النبوة وان آباءه كلهم كانوا أنبياء وقيل لما كان ابراهيم واسحق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا في الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة في الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام انه من أولادهم وانه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم اليه من التوحيد ﴿ ماكان لنا أن نشرك بالله من شئ ﴾ معناه ان الله سبحانه وتعالى لما اختارنا لنبوته واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغي لنا أن نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التي اختصنا بها قال الواحدي لفظة من في قوله من شئ زائدة مؤكدة كقولك ماجاءني من أحد وقال صاحب الكشاف ماكان لنا ماصح لنا معشر الانبياء أن نشرك بالله من شئ أي شئ كان من ملك أو جني أو انسي فضلا أن نشرك به صنما لايسمع ولايبصر ﴿ ذلك من فضل الله ﴾ يعني ذلك التوحيد وعدم الاشراك والعلم الذي رزقنا من فضل الله ﴿ علينا وعلى الناس ﴾ يعني بما نصب لهم من الادلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية اليه فكل ذلك من فضل الله على عباده ﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾ يعني ان أكثرهم لايشكرون الله على هذه النعم التي أنعم بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما الى الاسلام فقال ﴿ ياصاحبي السجن ﴾ يريد ياصاحبي في السجن فاضافهما الى السجن كما تقول ياسارق الليلة لان الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز أن يريد ياساكني السجن كقوله اصحاب النار وأصحاب الجنة ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ يعني أآلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون في الصفة وهي مع ذلك لاتضر ولاتنفع ﴿ خير أم الله الواحد القهار ﴾ يعني ان هذه الاصنام أعظم صفة في المدح واستحقاق اسم الالهية والعبادة أم الله الواحد القهار قال الخطابي الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس كسائر الآحاد من الاجسام المؤلفة لان ذلك قد يكثر بانضمام بعضها الى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذي لامثل له ولايشبهه شئ من خلقه القهار قال الخطابي القهار هو الذي قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت وقال غيره القهار هو الذي قهر كل شئ وذلله فاستسلم وانقاد وذل له

أوغيره ثم قال (ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون) فضل الله فيشركون به ولاينتهون (ياصاحبي السجن) ياساكني السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يريد التفرق في العدد والتكاثر أي ان تكون أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما أم يكون لكما رب واحد قهار لايغالب ولايشارك في الربوبية وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الاصنام

(ماكان لنا) ماجاز لنا (ان نشرك بالله من شئ) شيأ من الاصنام (ذلك) الدين القيم النبوة والاسلام اللذان أكرمنا الله بهما (من فضل الله علينا) من من الله علينا (وعلى الناس) بارسالنا اليهم ويقال على المؤمنين بالايمان (ولكن اكثر الناس) أهل مصر (لايشكرون) لايؤمنون بذلك (ياصاحبي السجن) قال هذا للسجان ولاهل السجن (أأرباب متفرقون خير) يقول اعبادة آلهة شتى خير (أم الله الوحد القهار) أم عبادة الله الواحد بلاولد ولاشريك القهار الغالب على خلقه

(والمعنى)

(ماتعبدون) خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر (من دونه) من دون الله (الاأسماء سميتموهاأنتم وآباؤكم) أى سميتم
مالايستحق الالهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها لاتعبدون الاسماء لامسميات
لهاومعنى سميتموهاسميتم بها يقال سميته زيداوسميته بزيد (ماأنزل الله بها) بتسميتها (من سلطان) حجة (ان الحكم) فى أمر العبادة والدين (الالله) ثم بين ماحكم به فقال (أمرألا تعبدوا الاإياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى دلت عليه البراهين (ولكن أكثر الناس لايعلمون) وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقه ثم عبر الرؤيا فقال (ياصاحبي السجن أما أحدكما) يريد الشرابى (فيسقى ربه) سيده (خمرا) أى يعود الى عمله (وأماالآخر) أى الخباز (فيصلب

ولايقاومه غيره ﴿ ماتعبدون من دونه ﴾ خطاب لهماولمن على دينهمامن اهل مصر ﴿ الاأسماء سميتموها انتم وآباؤكم ماانزل الله بهامن سلطان ﴾ اى الااشياء باعتبار اسام اطلقتم عليهامن غير حجة تدل على تحقيق مسمياتهافيها فكأنكم لاتعبدون الا الاسماء المجردة والمعنى انكم سميتم مالم يدل على استحقاقه الالوهية عقل ولانقل آلهة ثم اخذتم تعبدونهاباعتبار ماتطلقون عليها ﴿ ان الحكم ﴾ فى امر العبادة ﴿ الالله ﴾ لانه المستحق لهابالذات من حيث انه الواجب لذاته الموجد للكل والمالك لامره ﴿ أمر ﴾ على لسان انبيائه ﴿ ألاتعبدوا الاإياه ﴾ الذى دلت عليه الحجج ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ الحق وانتم لاتميزون المعوج عن القويم وهذامن التدرج فى الدعوة والزام الحجة بين لهم أولارجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة ثم برهن على ان مايسمونها آلهة ويعبدونها لاتستحق الالهية فان استحقاق العبادة امابالذات وامابالغير وكلاالقسمين منتف عنها ثم نص على ماهو الحق القويم والدين المستقيم الذى لايقتضى العقل غيره ولايرتضى العلم دونه ﴿ ولكن اكثرالناس لايعلمون ﴾ فيخبطون فى جهالاتهم ﴿ ياصاحبي السجن اما احدكما ﴾ يعنى الشرابى ﴿ فيسقى ربه خمرا ﴾ كما كان يسقيه قبل ويعود الى ماكان عليه ﴿ واما الآخر ﴾ يريد الخباز ﴿ فيصلب

والمعنى ان هذه الاصنام التى تعبدونها ذليلة مقهورة اذا أراد الانسان كسرهاواهانتها قدر عليه والله هو الواحد فى ملكه القهار لعباده الذى لايغلبه شئ وهو الغالب لكل شئ سبحانه وتعالى * ثم بين عجز الاصنام وانها لاشئ البتة فقال ﴿ ماتعبدون من دونه ﴾ يعنى من دون الله وانما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين ﴿ الاأسماء سميتموها ﴾ يعنى سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جمادات خالية عن المعنى لاحقيقة لها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ يعنى من قبلكم سموها آلهة ﴿ ماأنزل الله بها من سلطان ﴾ يعنى ان تسمية الاصنام آلهة لاحجة لكم بها ولابرهان ولاأمر الله بها وذلك انهم كانوا يقولون ان الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله ماأنزل الله بها من سلطان ﴿ ان الحكم الالله ﴾ يعنى ان الحكم والقضاء والامر والنهى لله تعالى لاشريك له فى ذلك ﴿ أمرألاتعبدوا الاإياه ﴾ لانه هو المستحق للعبادة لاهذه الاصنام التى سميتموها آلهة ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ يعنى عبادة الله هى الدين المستقيم ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ ذلك ولما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام من الدعاء الى الله وعبادته رجع الى تعبير رؤياهما فقال ﴿ ياصاحبي السجن أماأحدكما فيسقى ربه خمرا ﴾ يعنى ان صاحب شراب الملك يرجع الى منزلته ويسقى الملك خمرا كما كان يسقيه أولا والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعوبه الملك ويرده الى منزلته التى كان عليها ﴿ وأماالآخر فيصلب ﴾ يعنى

(ماتعبدون من دونه) من دون الله (الاأسماء) أصناما أمواتا (سميتموها أنتم وآباؤكم) الآلهة (ما أنزل الله بها) بعبادتكم لها (من سلطان) من كتاب ولاحجة (ان الحكم) ماالحكم بالامر والنهى ويقال ماالقضاء فى الدنياوالآخرة (الالله أمر) فى الكتب كلها (الا تعبدوا) ان لاتوحدوا (الا اياه) الابالله (ذلك) التوحيد (الدين القيم) وهوالدين القائم الذى (قاوخا ٥٢ لث) يرضاه وهوالاسلام (ولكن أكثرالناس) أهل مصر (لايعلمون) ذلك ولايصدقون ثم بين تعبير رؤيا الفتيين فقال (ياصاحبي السجن اما احدكما) وهوالساقى فيرجع الى مكانه وسلطانه الذى كان فيه (فيسقى ربه) سيده الملك (خمرا واماالآخر) وهوالخباز يخرج من السجن (فيصلب

فتأكل الطير من رأسه) روى أنه قال للاول مارأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فانها ثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقال للثانى مارأيت من السلال ثلاثة ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ولما سمع الخباز صلبه قال مارأيت شيأ فقال يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) أى قطع وتم ماتستفتيان فيه من أمركما وشأنكما أى مايجر اليه من العاقبة وهى هلاك أحدهما ونجاة الآخر

(وقال للذى ظن انه ناج منهما) الظان هو يوسف عليه السلام ان كان تأويله بطريق الاجتهاد وان كان بطرق الوحى فالظان هو الشرابى أو يكون الظن بمعنى اليقين (اذكرنى عند ربك) صفنى عند الملك بصفتى وقص عليه قصتى لعله يرحمنى ويخلصنى من هذه الورطة (فانساه الشيطان) فانسى الشرابى (ذكر ربه) ان يذكره لربه أو عند ربه أو فانسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره الى غيره وفى الحديث رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا

فتأكل الطير من رأسه ﴾ فقالا كذبنا فقال ﴿ قضى الامر الذى فيه تستفتيان ﴾ أى قطع الامر الذى تستفتيان فيه وهو مايؤول اليه امركما ولذلك وحده فانهما وان أستفتيا فى امرين لكنهما ارادا استبانة عاقبة ما نزل بهما ﴿ وقال للذى ظن انه ناج منهما ﴾ الظان يوسف عليه السلام ان ذكر ذلك عن اجتهاد وان ذكر عن وحى فهو الناجى الاان يأول الظن باليقين ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ اذكر حالى عند الملك كى يخلصنى ﴿ فانساه الشيطان ذكر ربه ﴾ فانسى الشرابى ان يذكره لربه فاضاف اليه المصدر لملابسته له أو على تقدير ذكر اخبار ربه أو انسى يوسف ذكر الله حتى استعان بغيره ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام رحم الله اخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد فى كشف الشدائد وان كانت محمودة

يعنى صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة أيام ثم يدعو به الملك فيصلبه ﴿ فتأكل الطير من رأسه ﴾ قال ابن مسعود رضى الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه الصلاة والسلام قالا مارأينا شيأ انما كنا نلعب قال يوسف ﴿ قضى الامر الذى فيه تستفتيان ﴾ يعنى فرغ من الامر الذى سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما بالذى أخبرتكما به رأيتما شيأ أم لم تريا ﴿ وقال ﴾ يعنى يوسف ﴿ للذى ظن ﴾ يعنى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم ﴿ أنه ناج منهما ﴾ يعنى ساقى الملك ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ يعنى سيدك وهو الملك الاكبر فقل له ان فى السجن غلاما محبوسا مظلوما طال حبسه ﴿ فانساه الشيطان ذكر ربه ﴾ فى هاء الكناية فى فانساه الى من تعود قولان أحدهما انها ترجع الى الساقى وهو قول عامة المفسرين والمعنى فانسى الشيطان الساقى ان يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها الى يوسف والقول الثانى وهو قول أكثر المفسرين ان هاء الكناية ترجع الى يوسف والمعنى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى لبتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله فى دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى دفع الضرر جائزة الا أنه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهى منصب النبوة والرسالة لاجرم صار يوسف مؤاخذا بهذا القدر فان حسنات الابرار سيآت المقربين * فان قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حين أنساه ذكر ربه * قلت بشغل الخاطر وألقاء الوسوسة فانه قد صح فى الحديث ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فاما النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر

فتأكل الطير من رأسه) ففزعا لتعبير رؤيا الاخباز وقالا جيعا مارأينا شيأ قال لهما يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) تسألان فكما قلتما وقلت لكما كذلك يكون رأيتما أولم تريا (وقال للذى ظن) علم (انه ناج منهما) من السجن والقتل وهو الساقى (اذكرنى عند ربك) عند سيدك الملك انى مظلوم عدا على اخوتى فباعونى وأنا حر وحسبت فى السجن وأنا مظلوم (فأنساه الشيطان ذكر ربه) فاشغله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند سيده الملك ويقال وسوس له الشيطان ان ذكرت السجن للملك يرجعك الى السجن فلذلك لم يذكره ويقال فأنساه الشيطان انسى الشيطان يوسف ذكر ربه حتى ترك ذكر ربه وذكر مخلوقا دونه

مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فاستعبرها فلم يجد فى قومه من يحسن عبارتها وقيل كان ابتداء بلاء يوسف فى الرؤيا ثم كان سبب نجاته أيضا الرؤيا سمان جمع سمين وسمينة والعجاف المهازيل والعجف الهزال الذى ليس بعده سمانة والسبب فى وقوع عجاف جمعا لعجفاء وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على نقيضه وهو سمان ومن دأبهم حمل النظير

فى الجملة لكنها لا تليق بمنصب الانبياء ﴿ فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ البضع مابين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع ﴿ وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ﴾ لما دنا فرجه رأى الملك سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات مهازيل فابتلعت المهازيل السمان ﴿ وسبع سنبلات خضر ﴾ قد انعقد حبها ﴿ وأخر يابسات ﴾ وسبعا اخر يابسات قد ادركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما قص من حال البقرات واجرى السمان على المميز دون المميز لان التمييز بها ووصف السبع الثانى بالعجاف

وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ اختلفوا فى قدر البضع فقال مجاهد هو مابين الثلاث الى السبع وقال قتادة هو مابين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس هو مادون العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها فى السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة وقال وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يارب أنسى قلبى ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التى قالها مالبث فى السجن مالبث يعنى قوله اذكرنى عند ربك ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا أمر فزعنا الى الناس ذكره الثعلبى مرسلا وبغير سند وقيل ان جبريل دخل على يوسف فى السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين مالى أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك أما استحيت منى أن استغثت بالآدميين فوعزتى وجلالى لألبثنك فى السجن بضع سنين قال يوسف وهو فى ذلك عنى راض قال نعم قال اذا لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمى مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبى وهذا السبع سوى الخمس سنين التى كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله عز وجل اخراجه من السجن رأى ملك مصر الاكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك انه رأى فى منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن فى بطونهن ولم ير منهن شئ ولم يتبين على العجاف منها شئ ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شئ فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التى رآها فذلك قوله تعالى ﴿ وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات

(فلبث) فمكث (فى السجن بضع سنين) سبع سنين عقوبة بترك ذكر الله وكان قبل هذا فى السجن خمس سنين (وقال الملك انى أرى) رأيت فى المنام (سبع بقرات سمان) خرجن من نهر (يأكلهن) يبتلعهن (سبع عجاف) بقرات هالكات من الهزال خرجن

من بعد السمان ولم يستبن عليهن شئ (وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) التوين على الخضر وغلبن خضرتهن ولم يستبن عليهن

على النظير والنقيض على النقيض وفى الآية دلالة على ان السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر لان الكلام مبنى على انصبابه الى هذا العدد فى البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الإخر السبع ويكون قوله وأخر يابسات بمعنى وسبعا أخر (يا أيها الملأ) كأنه أراد الاعيان من العلماء والحكماء (أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون) اللام فى للرؤيا للبيان كقوله وكانوا فيه من الزاهدين أو لان المفعول به اذا تقدم على الفعل لم يكن فى قوته على العمل فيه مثله اذا تأخر عنه فعضد بها تقول عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت أو يكون للرؤيا خبر كان كقولك كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر أو حال وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول عبرت النهر اذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه أولت الرؤيا اذا ذكرت مآلها وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذى اعتمده الاثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر (قالوا أضغاث أحلام) أى هى أضغاث أحلام أى تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان وأصل الاضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم من أنواع الحشيش الواحد ضغث فاستعيرت لذلك والاضافة بمعنى من أى أضغاث من احلام وانما جمع وهو حلم واحد تزايدا فى وصف الحلم بالبطلان وجاز ان يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها (وما نحن بتأويل) (يعنى) الاحلام بعالمين) أرادوا بالاحلام المنامات الباطلة فقالوا ليس لها عندنا تأويل انما التأويل للمنامات الصحيحة أو اعترفوا بقصور علمهم وانهم ليسوا فى تأويل الاحلام بخابرين (وقال الذى نجا) من القتل (منهما)

لتعذر التميز بها مجردا عن الموصوف فانه لبيان الجنس وقياسه عجف لانه جمع عجفاء لكنه حمل على سمان لانه نقيضه ﴿ يا ايها الملأ افتونى فى رؤياى ﴾ عبروها ﴿ ان كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ ان كنتم عالمين بعبارة الرويا وهى الانتقال من الصور الخيالية الى المعانى النفسانية التى هى مثالها من العبور وهى المجاوزة وعبرت الرؤيا عبارة اثبت من عبرتها تعبيرا واللام للبيان أو لتقوية العامل فان الفعل لما اخر عن مفعوله ضعف فقوى باللام كاسم الفاعل أو لتضمن تعبرون معنى فعل يعدى باللام كانه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا ﴿ قالوا اضغاث احلام ﴾ أى هذه اضغاث احلام وهى تخاليطها جمع ضغث واصله ما جمع من اخلاط النبات وحزم فاستعير للرؤيا الكاذبة وانما جمعوا للمبالغة فى وصف الحلم بالبطلان كقولهم فلان يركب الخيل أى لتضمنه اشياء مختلفة ﴿ وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴾ يريدون بالاحلام المنامات الباطلة خاصة أى ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصادقة فهو كانه مقدمة ثانية للعذر فى جهلهم بتأويله ﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾ من صاحبى السجن

يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ﴾ يعنى يا أيها الاشراف أخبرونى بتأويل رؤياى ﴿ ان كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ يعنى ان كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمى هذا العلم تعبيرا لان المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها الى باطنها ليستخرج معناها وهذا أخص من التأويل لان التأويل يقال فيه وفى غيره ﴿ قالوا ﴾ يعنى قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك ﴿ أضغاث أحلام ﴾ يعنى أخلاط مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والاحلام جمع حلم وهو الرؤيا التى يراها الانسان فى منامه ﴿ وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴾ لما جعل الله هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك ان الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لانه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوى الكامل حتى قهره وغلبه فأراد أن يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى فى منامه وسألهم عن تأويلها فاعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تاويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى ﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾

شئ (يا أيها الملأ) يعنى العرافين والسحرة والكهنة (أفتونى فى رؤياى) فى تعبير رؤياى (ان كنتم للرؤيا تعبرون) تعلمون (قالوا) يعنى العرافين والكهنة والسحرة (اضغاث أحلام) هذه أباطيل أحلام كاذبة مختلفة (وما نحن بتأويل الاحلام) يقول بتعبير رؤيا الاحلام (بعالمين وقال الذى نجا منهما)

من صاحبي السجن (وادكر) بالدال هو الفصيح واصله اذتكر فأبدلت الذال دالا والتاء دالا وأدغمت الاولى في الثانية لتقارب الحرفين وعن الحسن واذكر ووجهه أنه قلب التاء ذالا وأدغم أي تذكر يوسف وما شاهد منه (بعد أمة) بعد مدة طويلة وذلك انه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملك تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه اليه ان يذكره عند الملك (أنا أنبئكم بتأويله) أنا أخبركم به عمن عنده علمه (فارسلون) وبالياء يعقوب أي فابعثوني اليه لاسأله فارسلوه الى يوسف فاتاه فقال (يوسف أيها الصديق) أيها البليغ في الصدق وانما قال له ذلك لانه ذاق وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما اول (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس) الى الملك وأتباعه (لعلهم يعلمون) فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك (قال تزرعون

وهو الشرابي ﴿ وادكر بعد امة ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة اي مدة طويلة، وقرئ امة بكسرة الهمزة وهي النعمة أي بعد ما انعم عليه بالنجاة وامه أي نسيان يقال امه يأمه امها اذا نسي والجملة اعتراض ومقول القول ﴿ انا انبئكم بتأويله فارسلون ﴾ أي الى من عنده علمه أو الى السجن ﴿ يوسف ايها الصديق ﴾ أي فارسل الى يوسف فجاءه وقال يا يوسف وانما وصفه بالصديق هو المبالغ في الصدق لانه جرب احواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ﴿ افتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات ﴾ أي في رؤيا ذلك ﴿ لعلي ارجع الى الناس ﴾ اعود الى الملك ومن عنده أو الى اهل البلد اذ قيل ان السجن لم يكن فيه ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك وانما لم يبت الكلام فيهما لانه لم يكن جازما من الرجوع فربما اخترم دونه ولا من علمهم ﴿ قال تزرعون

يعني وقال الساقي الذي نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ يعني انه تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك بعد أمة يعني بعد حين وهو سبع سنين وسمي الحين من الزمان أمة لانه جماعة الايام والامة الجماعة ﴿ أنا أنبئكم ﴾ يعني أخبركم ﴿ بتأويله ﴾ وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع اما أنه أراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك ان الفتى الساقي جثا بين يدي الملك وقال ان في السجن رجلا عالما يعبر الرؤيا ﴿ فارسلون ﴾ فيه اختصار تقديره فارسلني أيها الملك فارسله فاتى السجن قال ابن عباس ولم يكن في المدينة ﴿ يوسف ﴾ اي يا يوسف ﴿ أيها الصديق ﴾ انما سماه صديقا لانه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لانه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن ﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ فان الملك رأى هذه الرؤيا ﴿ لعلي أرجع الى الناس ﴾ يعني أرجع بتأويل هذه الرؤيا الى الملك وجماعته ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ يعني بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك في العلم ﴿ قال ﴾ يعني قال يوسف معبرا لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى ﴿ تزرعون ﴾ وهذا خبر

من السجن والقتل وهو الساقي (وادكر) تذكر يوسف (بعد امة) سبع سنين ويقال بعد النسيان ان قرأت بالهاء (انا أنبئكم بتأويله) قال للملك انا اخبرك بتعبير الرؤيا يا أيها الملأ (فارسلون) الى السجن فان فيه رجلا ووصف علمه وحلمه واحسانه الى أهل السجن وصدقه بتأويل الرؤيا فأرسله فجاءه فقال ليوسف يا (يوسف أيها الصديق) الصادق في تعبير الرؤيا الاولى (أفتنا في سبع بقرات سمان) خرجن من نهر (يأكلهن) يبتلعهن (سبع عجاف) هزال هالكات (وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) التوين على الخضرة وغلبن خضرتهن (لعلي أرجع الى الناس) الى الملك (لعلهم يعلمون) لكي يعلموا رؤيا الملك فقال يوسف نعم اما السبع بقرات السمان فهن سبع سنين مخصبة وأما السبع سنبلات الخضر فهو الخصب والرخص في السنين المخصبة وأما السبع بقرات الهزال الهالكات فهي سبع سنين مجدبة وأما السبع سنبلات اليابسات فهو القحط والغلاء في السنين المجدبة ثم علمهم يوسف كيف يصنعون (قال تزرعون

سبع سنين) هو خبر في معنى الامر كقوله تؤمنون بالله واليوم الآخر وتجاهدون دليله قوله فذروه في سنبله وانما يخرج
الامر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به فيجعل كانه موجود فهو يخبر عنه (دأبا) بسكون الهمزة وحفص بحركة
وهما مصدرا دأب في العمل وهو حال من المأمورين أي دائبين (فما حصدتم فذروه في سنبله) كي لا يأكله السوس (الا
قليلا مما تأكلون) في تلك

(ثم يأتي من بعد ذلك سبع
شداد يأكلن) هو من اسناد المجاز جعل أكلهن مسندا اليهن (ما قدمتم لهن) أي في السنين المخصبة (الا قليلا مما تحصنون) تحرزون وتخبئون (ثم يأتي من بعد ذلك عام) أي من بعد أربع عشرة سنة عام (فيه يغاث الناس) من الغوث أي يجاب مستغيثهم أو من الغيث أي يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت (وفيه يعصرون) العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الاشربة والادهان يعصرون حمزة فاول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بان العام الثامن يجيء مباركا كثير الخير عزيز النعم وذلك من جهة الوحي

سبع سنين دأبا ﴾ أي على عادتكم المستمرة وانتصابه على الحال بمعنى دائبين أو المصدر باضمار فعله أي تدأبون دأبا وتكون الجملة حالا * وقرأ حفص دأبا بفتح الهمزة كلاهما مصدر دأب في العمل وقيل تزرعون امر اخرجه في صورة الخبر مبالغة لقوله ﴿ فاحصدتم فذروه في سنبله ﴾ لئلا يأكله السوس وهو على الاول نصيحة خارجة عن العبارة ﴿ الا قليلا مما تأكلون ﴾ في تلك السنين ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ أي يأكل اهلهن ما ادخرتم لاجلهن فاسند اليهن على المجاز تطبيقا بين المعبر والمعبر به ﴿ الا قليلا مما تحصنون ﴾ تحرزون لبذور الزراعة ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ﴾ يمطرون من الغيث أو يغاثون من القحط من الغوث ﴿ وفيه يعصرون ﴾ ما يعصر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار وقيل يحلبون الضروع * وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي * وقرئ على بناء المفعول من عصره اذا انجاه ويحتمل ان يكون المبني للفاعل منه أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا أو من اعصرت السحابة عليهم فعدي بنزع الخافض أو بتضمينه معنى المطر وهذه بشارة بشرهم بها بعد ان اول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة

بمعنى الامر أي ازرعوا ﴿ سبع سنين دأبا ﴾ يعني عادتكم في الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ انما امرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في سنبله لئلا يفسد ويقع فيه السوس وذلك أبقى له على طول الزمان ﴿ الا قليلا مما تأكلون ﴾ يعني ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ يعني من بعد السنين المخصبة ﴿ سبع شداد ﴾ يعني سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس ﴿ يأكلن ﴾ يعني يفنين ﴿ ما قدمتم لهن ﴾ يعني يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام وانما أضاف الاكل الى السنين على طريق التوسع في الكلام ﴿ الا قليلا مما تحصنون ﴾ يعني تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ يعني من بعد هذه السنين المجدبة ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ أي يمطرون من الغيث الذي هو المطر وقيل هو من قولهم استغثت بفلان فأغاثني من الغوث ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يعني يعصرون العنب خمرا والزيتون زيتا والسمسم دهنا أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة

سبع سنين) المخصبة (دأبا) دائما كل عام (فما حصدتم) من الزرع (فذروه في سنبله) في كواقره ولا تدوسوه لانه أبقى له (الا قليلا مما تأكلون) تقول بقدر ما تأكلون (ثم يأتي من بعد ذلك) من بعد السنين المخصبة (سبع شداد) سبع سنين قحطة (والجدب) (يأكلن ما قدمتم لهن) ما رفعتم لهن للسنين المجدبة في السنين المخصبة (الا قليلا مما تحصنون) تحرزون (ثم يأتي من بعد ذلك) من بعد السنين المجدبة (عام فيه يغاث الناس) اهل مصر بالطعام والمطر (وفيه يعصرون) الكروم والادهان والزيت فرجع الرسول وأخبر الملك بذلك

(وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول) ليخرجه من السجن (قال ارجع الى ربك) اى الملك (فاسئله مابال النسوة) أى حال النسوة (اللاتى قطعن ايديهن) انما تثبت وتأنى فى اجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما رمى به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون الى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلما الى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا ما خلد فى السجن سبع سنين الا لامر عظيم وجرم كبير وفيه دليل على ان الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها وقال عليه السلام لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ماأخبرتهم حتى أشترط ان يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالبث لاسرعت الاجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا أناة ومن كرمه وحسن أدبه انه لم يذكر سيدته مع ماصنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذلك المقطعات أيديهن (ان ربى بكيدهن عليم) أى ان كيدهن عظيم لايعلمه الا الله وهو مجازيهن عليه فرجع الرسول الى الملك

(وقال الملك ائتونى به) بيوسف (فلما جاءه الرسول) وهو الساقى الى يوسف فقال ان الملك يدعوك (قال) له يوسف (ارجع الى ربك) الى سيدك الملك (فاسئله مابال النسوة) يقول قل للملك حتى يسأل عن خبر النسوة (اللاتى قطعن) خدشن وخمشن (أيديهن ان ربى) سيدى (بكيدهن) بمكرهن وصنيعهن (عليم) فرجع الرسول وأخبر الملك فجمع الملك هؤلاء النسوة كلهن وكن أربع نسوة امرأة ساقيه وامرأة صاحب مطبخه وأمرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وأمرأة العزيز أيضا ولم يكن فى مصر أعظم منهن

وابتلاع العجاف السمان بأكل ماجمع فى السنين المخصبة فى السنين المجدبة ولعله علم ذلك بالوحى أوبان انتهاء الجدب بالخصب أوبان السنة الالهية على ان يوسع على عباده بعدما ضيق عليهم ﴿ وقال الملك ائتونى به ﴾ بعدماجاءه الرسول بالتعبير ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ ليخرجه ﴿ قال ارجع الى ربك فاسئله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ﴾ انماتأنى فى الخروج وقدم سؤال النسوة وتفحص حالهن ليظهر براءة ساحته ويعلم انه سجن ظلما فلايقدر الحاسد ان يتوسل به الى تقبيح امره وفيه دليل على انه ينبغى ان يجتهد فى نفى التهم ويتقى مواقعها * وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالبث لاسرعت الاجابة وانما قال فاسأله مابال النسوة ولم يقل فاسأله ان يفتش عن حالهن تهييجاله على البحث وتحقيق الحال وانما لم يتعرض لسيدته مع ماصنعت به كرما ومراعاة للادب * وقرئ النسوة بضم النون ﴿ ان ربى بكيدهن عليم ﴾ حين قلن لى اطع مولاتك

والجدب * قوله عز وجل ﴿ وقال الملك ائتونى به ﴾ وذلك ان الساقى لما رجع الى الملك وأخبره بفتيا يوسف وماعبر به رؤياه استحسنه الملك وعرف ان الذى قاله كائن لامحالة فقال ائتونى به حتى أبصر هذا الرجل الذى قدعبر رؤياى بهذه العبارة فرجع الساقى الى يوسف وقال له أجب الملك فذلك قوله تعالى ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ فأبى أن يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولايراه بعين النقص ﴿ قال ﴾ يعنى قال يوسف للرسول ﴿ ارجع الى ربك ﴾ يعنى الى سيدك وهو الملك ﴿ فاسئله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴾ ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبا واحتراما لها (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لبثت فى السجن طول لبث يوسف لاجبت الداعى اخرجه الترمذى وزاد فيه ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسئله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعى رسول الملك الذى جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادرا الى الراحة ومفارقة ماهو فيه من الضيق والسجن الطويل فلبث فى السجن وراسل الملك فى كشف أمره الذى سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء * وقوله ﴿ ان ربى بكيدهن عليم ﴾ يعنى ان الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن فى هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف

من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم (قال) لهن (ما خطبكن) ماشأنكن (اذراودتن يوسف عن نفسه) هل وجدتن منه ميلا اليكن (قلن حاش لله) تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله (ماعلمنا عليه من سوء) من ذنب (قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق) ظهر واستقر (أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) فی قوله هی راودتنی عن نفسی ولا مزيد على شهادتهن لله للبراءة والنزاهة واعترافهن على انفسهن بانه لم يتعلق بشیء مما قذف به ثم رجع الرسول الی يوسف وأخبره بكلام النسوة واقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف (ذلك) أی امتناعی من الخروج والتثبت لظهور البراءة (ليعلم) العزيز (أنی لم اخنه بالغيب) بظهر الغيب فی حرمته وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنی أو ليعلم الملك أنی لم أخن العزيز (وان الله) أی وليعلم أن الله (لا يهدی كيد الخائنين) لا يسدده وكأنه تعريض بامرأته فی خيانتها أمانة زوجها ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وليبين

وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله عليه وعلى انه بریء مما قذف به والوعيد لهن على كيدهن ﴿ قال ما خطبكن ﴾ قال الملك لهن ماشأنكن والخطب امر يحق ان يخاطب فيه صاحبه ﴿ اذراودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ ماعلمنا عليه من سوء ﴾ من ذنب ﴿ قالت امرأت العزيز ألآن حصحص الحق ﴾ ثبت واستقر من حصحص البعير اذا القى مباركه ليناخ قال

فحصحص فی صم الصفا ثفناته * وناء بسلمى نوءة ثم صمما

اوظهر من حص شعره اذا استأصله بحيث ظهر بشرة رأسه * وقریء على البناء للمفعول ﴿ انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ فی قوله هی راودتنی عن نفسی ﴿ ذلك ليعلم ﴾ قاله يوسف لما عاد اليه الرسول واخبره بكلامهن أی ذلك التثبت ليعلم العزيز ﴿ انی لم اخنه بالغيب ﴾ بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أی لم اخنه وانا غائب عنه أو وهو غائب عنی أو ظرف أی بمكان الغيب وراء الاستار والابواب المغلقة ﴿ وان الله لا يهدی كيد الخائنين ﴾

الى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوه وامرأة العزيز معهن و ﴿ قال ﴾ لهن ﴿ ما خطبكن ﴾ أی ماشأنكن وأمركن ﴿ اذراودتن يوسف عن نفسه ﴾ انما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب ﴿ قلن ﴾ يعنی النسوة جميعا مجيبات للملك ﴿ حاش لله ﴾ يعنی معاذ الله ﴿ ماعلمنا عليه من سوء ﴾ يعنی من خيانة فی شیء من الاشياء ﴿ قالت امرأت العزيز ألآن حصحص الحق ﴾ يعنی ظهر وتبين وقيل ان النسوة أقبلن على امرأة العزيز فعزرنها وقيل خافت أن يشهدن عليها فأقرت فقالت ﴿ أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ يعنی فی قوله هی راودتنی عن نفسی واختلفوا فی قوله ﴿ ذلك ليعلم أنی لم أخنه بالغيب ﴾ على قولين * أحدهما انه من قول المرأة ووجه هذا القول ان هذا كلام متصل بما قوله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ثم قالت ذلك ليعلم أنی لم أخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أنی لم اخنه فی حال غيبته وهو السجن ولم أكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وان كنت قد قلت فيه ماقلت فی حضرته ثم بالغت فی تأكيد هذا القول فقالت ﴿ وأن الله لا يهدی كيد الخائنين ﴾ يعنی انی لما أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم انی افتضحت لان الله

دون الملك (قال) لهن الملك)ما خطبكن)ماشأنكن وما حالكن (اذراودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله)معاذ الله (ما علمنا عليه)ما رأينا منه (من سوء)من قبيح (قالت امرأت العزيز ألآن ﴿ لا يرشد ﴾ حصحص الحق)الآن تبين الحق ليوسف ويقال الآن خبر الصدق (أنا راودته عن نفسه)أنا دعوته الى نفسی (وانه لمن الصادقين) فی قوله انه لم يراودنی قال يوسف (ذلك ليعلم)العزيز (انی لم أخنه)فی امرأته (بالغيب)اذا غاب عنی (وان الله لا يهدی)لا يصوب ولا يرضى (كيد الخائنين)عمل الزانين

لاينفذه ولايسدده أولايهدى الخائنين بكيدهم فاوقع الفعل على الكيد مبالغة وفيه
تعريض براعيل فى خيانتها زوجها وتوكيد لامانته ولذلك عقبه

لايرشد ولايوفق كيدالخائنين والقول الثانى انه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام
وهذا قول الاكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لايبعد وصل كلام
انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية أنه لما بلغ يوسف
قول المرأة أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أى الذى فعلت من
ردى رسول الملك اليه ليعلم يعنى العزيز أنى لم أخنه فى زوجته بالغيب يعنى فى حال غيبته
فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تميز
بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لانه ذكر كلام انسان ثم اتبعه بكلام انسان
آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى يريد أن يخرجكم من أرضكم هذا
من قول الملأ فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا
من قول بلقيس وكذلك يفعلون من قوله عز وجل تصديقا لها وعلى هذا القول اختلفوا
أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين * أحدهما انه كان فى السجن وذلك انه لما
رجع اليه رسول الملك وهو فى السجن وأخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ
ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وهذه رواية أبى صالح عن ابن عباس وبه قال
ابن جريج والقول الثانى انه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية
عطاء عن ابن عباس * فان قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك
وهى اشارة للغائب مع حضوره عندهم * قلت قال ابن الانبارى قال اللغويون
هذا وذلك يصلحان فى هذا الموضع لقرب الخبر من أصحابه فصار
كالمشاهد الذى يشار اليه بهذا وقيل ذلك اشارة الى مافعله يقول ذلك الذى فعلته
من ردى الرسول ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى لم أخن العزيز فى حال غيبته ثم
ختم هذا الكلام بقوله وأن الله لايهدى كيد الخائنين يعنى انى لو كنت خائنا لما خلصنى
الله من هذه الورطة التى وقعت فيها لان الله لايهدى أى لايرشد ولا يوفق كيد
الخائنين واختلفوا

ان مافيه من الامانة بتوفيق
الله وعصمته فقال

فقال له جبريل عليه السلام
ولا حين هممت بها يا يوسف
فقال يوسف

فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين

بقوله ﴿وما أبرئ نفسى﴾ أى لا ازهها تنبيها على انه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله بل اظهار ماانعم الله عليه من العصمة والتوفيق وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه لما قال ليعلم انى لم اخنه بالغيب قال له جبريل ولاحين هممت فقال ذلك ﴿ان النفس لأمارة بالسوء﴾ من حيث انها بالطبع مائلة الى الشهوات فتهم بها وتستعمل القوى والجوارح

فى قوله ﴿وما أبرئ نفسى﴾ من قول من على قولين أيضا أحدهما انه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال ان قوله ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبرئ نفسى من مراودتى يوسف عن نفسه وكذبى عليه والقول الثانى وهو الاصح وعليه اكثر المفسرين انه من قول يوسف عليه السلام وذلك انه لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولاحين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى وهذه رواية عن ابن عباس أيضا وهو قول الاكثرين وقال الحسن ان يوسف لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب خاف ان يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرئ نفسى لان الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم ففى قوله وما أبرى نفسى هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عزوجل فان رؤية النفس فى مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فاراد ازالة ذلك عن نفسه فان حسنات الابرار سيآت المقربين ﴿ان النفس لأمارة بالسوء﴾ والسوء لفظ جامع لكل مايهم الانسان من الامور الدنيوية والاخروية والسيئة الفعلة القبيحة واختلفوا فى النفس الامارة بالسوء ماهى فالذى عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم ان النفس الانسانية واحدة ولها صفات منها الامارة بالسوء ومنها اللوامة ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هى

(وما أبرئ نفسى) من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها فى عموم الاحوال أو فى هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذى هو الخطرة البشرية لا عن طريق القصد والعزم (ان النفس لأمارة بالسوء) أراد الجنس أى ان هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه لما فيه من الشهوات

(وما أبرئ نفسى) قلبى من الهم (ان النفس) يعنى القلب (لأمارة) للحسد (بالسوء) بالقبيح من العمل

(صفات)

(الامارحم ربى) الا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة ويجوز أن يكون ما رحم فى معنى الزمان أى الا وقت رحمة ربى يعنى انها أمارة بالسوء فى كل وقت الا وقت العصمة أو هو استثناء منقطع أى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الاساءة وقيل هو من كلام امرأة العزيز أى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسى مع ذلك من الخيانة فانى قد خنته حين قذفته وقلت ماجزاء من أراد باهلك سوأ الا أن يسجن وأودعته السجن تريد الاعتذار مما كان منها ان كل نفس لامارة بالسوء الا مارحم ربى الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (ان ربى غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحته مما ارتكبت وانما جعل من كلام يوسف ولا دليل عليه ظاهر لان المعنى يقود اليه وقيل هذا من تقديم القرآن وتأخيره أى قوله ذلك ليعلم متصل بقوله فاسئله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) أجعله خالصا لنفسى (فلما كلمه) وشاهد منه مالم يحتسب

(الامارحم ربى) عصم ربه (ان ربى غفور) متجاوز (رحيم) لما هممت (وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى) اخصه لنفسى دون العزيز (فلما كلمه) بعد ماجاء اليه وفسر رؤياه

فى أثرها كل الاوقات ﴿ الا مارحم ربى ﴾ الا وقت رحمة ربى أو الا مارحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك وقيل الاستثناء منقطع أى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الاساءة وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف واضرابه * وعن ابن كثير ونافع بالسو على قلب الهمزة واوا ثم الادغام ﴿ ان ربى غفور رحيم ﴾ يغفر هم النفس ويرحم من يشاء بالعصمة أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه ﴿ وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى ﴾ اجعله خالصا لنفسى ﴿ فلما كلمه ﴾ أى فلما اتوا به فكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء

صفات لنفس واحدة فاذا دعت النفس الى شهواتها ومالت اليها فهى النفس الامارة بالسوء فاذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة وقيل ان النفس أمارة بالسوء بطبعها فاذا تزكت وصفت من اخلاقها الذميمة صارت مطمئنة * وقوله ﴿ الا مارحم ربى ﴾ قال ابن عباس معناه الا من عصم ربى فتكون ما بمعنى من فهو كقوله ماطاب لكم من النساء يعنى من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربى فعصمه من متابعة النفس الامارة بالسوء ﴿ ان ربى غفور ﴾ يعنى غفور لذنوب عباده ﴿ رحيم ﴾ بهم * قوله تعالى ﴿ وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ﴾ وذلك انه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وعلمه طلب حضوره اليه فقال ائتونى به يعنى بيوسف أستخلصه لنفسى أى أجعله خالصا لنفسى والاستخلاص طلب خلوص الشئ من جميع شوائب الاشتراك وانما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه لان عادة الملوك أن ينفردوا بالاشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وانما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده فى يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره واحسانه الى اهل السجن وحسن ادبه وثباته على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه واذا أراد الله تعالى أمرا هيأ أسبابه فالهم الملك ذلك فقال ائتونى به أستخلصه لنفسى ﴿ فلما كلمه ﴾ فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول الى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فاجابه روى أن يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لاهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار فهم أعلم الناس بالاخبار فى كل بلد فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسنة ثم قصد باب الملك قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبى ربى من دنياى وحسبى ربى من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك ثم دخل الدار فلما أبصر الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما نظر اليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ماهذا اللسان قال لسان عمى اسمعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له وماهذا اللسان

(قال) الملك ليوسف (انك اليوم لدينا مكين أمين) ذومكانة ومنزلة أمين مؤتمن على كل شئ روى ان الرسول جاءه ومعه سبعون حاجبا وسبعون مركبا وبعث اليه لباس الملوك فقال أجب الملك فخرج من السجن و دعا لاهله اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولاتعم عليهم الاخبار فهم أعلم الناس بالاخبار فى الواقعات وكتب على باب السجن هذه منازل البلواء وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسالك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعاله بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلمه بها فاجابه بجميعها فتعجب منه وقال أيها الصديق انى أحب أن أسمع رؤياى منك قال رأيت بقرات فوصت لونهن واحوالهن ومكان خروجهن ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التى رآها الملك وقال له من حقك أن تجمع الطعام فى الاهراء فيأتيك الخلق من النواحى ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لاحد قبلك قال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه

(قال) له الملك (انك اليوم لدينا) عندنا (مكين) لك قدر ومنزلة (أمين) بالامانة ويقال بماوليتك

﴿قال انك اليوم لدينا مكين﴾ ذومكانة ومنزلة ﴿امين﴾ مؤتمن على كل شئ روى انه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى اسألك من خيره واعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال الملك ماهذا اللسان فقال لسان عمى اسماعيل ودعاله بالعبرية فقال ماهذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فاجابه بجميعها فتعجب منه فقال احب ان أسمع رؤياى منك فحكاها ونعت له البقرات والسنابل واماكنها على مارآها فاجلسه على السرير وفوض اليه امره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدها عذراء وولدله منها افرائيم وميشا

أيضا قال يوسف هذا لسان آبائى قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف وزادعليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه مارأى مع حداثة سن يوسف عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فاجلسه الى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعنى فلما كلم الملك يوسف لان مجالس الملوك لايحسن لاحد أن يبدأ بالكلام فيها وانما يبدأ الملك فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقى أيها الملك هذا الذى علم تأويل رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فاقبل عليه الملك و ﴿قال انك اليوم لدينا مكين أمين﴾ يقال اتخذ فلان عند فلان مكانة أى منزلة وهى الحالة التى يتمكن بها صاحبها مما يريد وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت اليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل مايحتاج اليه من الفضائل والمناقب فى أمر الدين والدنيا روى ان الملك قال ليوسف عليه الصلاة والسلام أحب أن أسمع تأويل رؤياى منك شفاها فقال نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غرحسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا فبينا أنت تنظر اليهن وقد أعجبك حسنهن اذنضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا اخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان فافترسن السمان كافتراس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولازيادة بعد أكلهن اذسبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حبا وماء والى جانبهن سبع أخر سود يابسات فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء فبينا أنت تقول فى نفسك أى شئ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الثرى والماء اذهبت ريح فذرت أوراق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فاحرقتهن فصرن سودا فهذا مارأيت أيها الملك ثم انتبهت مذعورا فقال الملك والله ما أخطأت منها شيأ فما شأن هذه الرؤيا وان

(كان)

(قال) يوسف (اجعلني على خزائن الارض) ولني على خزائن أرضك يعني مصر (اني حفيظ) أمين أحفظ ماتستحفظنيه (عليم) عالم بوجوه التصرف وصف نفسه بالامانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونه وانما قال ذلك ليتوصل الى امضاء أحكام الله واقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لاجله بعث الانبياء الى العباد ولعلمه ان أحدا غيره لايقوم مقامه فى ذلك فطلبه ابتغاء وجه الله لالحب الملك والدنيا وفى الحديث رحم الله أخى يوسف لولم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة قالوا وفيه دليل على انه يجوز ان يتولى الانسان عمالة من يد سلطان جائر وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة واذا علم النبى أو العالم أنه لاسبيل الى الحكم بأمر الله ودفع الظلم الابتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به وقيل كان الملك يصدر عن رأيه ولايعترض عليه فى كل مارأى وكان فى حكم التابع له

﴿قال اجعلنى على خزائن الارض﴾ ولنى امرها والارض ارض مصر ﴿انى حفيظ﴾ لها ممن لايستحقها ﴿عليم﴾ بوجوه التصرف فيها ولعله عليه السلام لما رأى انه يستعمله فى امره لامحالة آثر ماتعم فوائده وتجل عوائده وفيه دليل على جواز طلب التولية واظهار انه مستعد لها والتولى من يد الكافر اذ علم انه لاسبيل الى اقامة الحق وسياسة الخلق الا بالاستظهار به

كان عجبا فما هو باعجب مما سمعت منك وما ترى فى تأويل رؤياى ايها الصديق قال يوسف عليه الصلاة والسلام أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة وتجعل مايحصل من ذلك الطعام فى الخزائن بقصبه وسنبله فانه ابقى له فيكون ذلك القصب والسنبل علفا للدواب وتأمر الناس فليرفعوا الخمس من زروعهم أيضا فيكفيك ذلك الطعام الذى جمعته لاهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحى للميرة ويجتمع عندك من الكنوز والاموال مالايجتمع لاحد قبلك فقال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه فعند ذلك ﴿قال﴾ يعنى يوسف ﴿اجعلنى على خزائن الارض﴾ يعنى على خزائن الطعام والاموال وأراد بالارض أرض مصر أى أجعلنى على خزائن أرضك التى تحت يدك وقال الربيع ابن أنس اجعلنى على خزائن خراج مصر ودخلها ﴿انى حفيظ عليم﴾ أى حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه انى حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم بما وليتنى وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتينى وقال الكلبى حفيظ بتقديره فى السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عند ذلك ومن أحق بذلك منك وولاه ذلك ﴿ وروى البغوى باسناد الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله أخى يوسف لولم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة * فان قلت كيف طلب يوسف عليه الصلاة والسلام الامارة والولاية مع ماورد من النهى عنها مع كراهية طلبها لما صح من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لاتسأل الامارة فانك ان أوتيتها عن مسئلة وكلت اليها وان أوتيتها عن غير مسئلة أعنت عليها أخرجاه فى الصحيحين * قلت انما يكره طلب الامارة اذا لم يتعين عليه طلبها فاذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فاما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الامارة لانه مرسل من الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الامة من غيره واذا كان مكلفا برعاية المصالح ولايمكنه ذلك الا بطلب الامارة وجب عليه طلبها وقيل انه لما علم انه سيحصل قحط وشدة اما بطريق الوحى من الله أو بغيره وربما أفضى ذلك الى هلاك معظم الخلق وكان فى طلب الامارة ايصال الخير والراحة الى المستحقين وجب عليه طلب الامارة لهذا السبب * فان قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله انى حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم * قلت انما يكره تزكية النفس اذا قصد به الرجل

(قال اجعلنى على خزائن الارض) على خراج مصر (انى حفيظ) بتقديرها (عليم) بساعة الجوع حين يقع ويقال حفيظ لما وليتنى عليم بجميع الالسن الغرباء الذين يأتونك

وعن مجاهد ان الملك اسلم على يده ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ﴾ فى ارض مصر ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ ينزل من بلادها حيث يهوى * وقرأ ابن كثير نشاء بالنون

التطاول والتفاخر والتوصل به الى غير مايحل فهذا القدر المذموم فى تزكية النفس أما اذا قصد بتزكية النفس ومدحها ايصال الخير والنفع الى الغير فلا يكره ذلك ولايحرم بل يجب عليه ذلك مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولايعرف به فانه يجب عليه أن يقول أنا عالم ولما كان الملك قد علم من يوسف انه عالم بمصالح الدين ولم يعلم انه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله انى حفيظ عليم على انه عالم بما يحتاج اليه فى مصالح الدنيا أيضا مع كمال علمه بمصالح الدين * قوله عز وجل ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ﴾ وكذلك اشارة الى ماتقدم يعنى وكما أنعمنا على يوسف بان أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه فى عين الملك حتى قربه وأدنى منزلته كذلك مكناله فى الارض يعنى أرض مصر ومعنى التمكين هو أن لاينازعه منازع فيما يراه ويختاره واليه الاشارة بقوله ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ لانه تفسير للتمكين قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الامارة دعاه الملك فتوّجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع ووضع له عليه ثلاثون فراشا وستون ماريا وضرب له عليه كلة من استبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الاكبر اليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلمها الى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر فى تلك الليالى فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لاتلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كماترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لايأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فاصابها فولدت له ولدين ذكرين افرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف فى ملكه دبر فى جمع الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين المجدبة بهول وشدة لم يرالناس مثله وقيل انه دبر فى طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يايوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول اوان القحط فهلك فى السنة الاولى من أول سنين القحط كل ماأعدوه فى السنة المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم فى

(وكذلك) ومثل ذلك التمكين الظاهر (مكنا ليوسف فى الارض) أرض مصر وكانت أربعين فرسخا فى أربعين والتمكين الاقدار واعطاء المكنة (يتبوأ منها حيث يشاء) أى كل مكان أراد أن يتخذه منزلا لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه نشاء مكى

(وكذلك مكنا ليوسف) هكذا مكنا يوسف (فى الارض) أرض مصر (يتبوأ) ينزل (منها) فيها (حيث يشاء) يريد

(نصيب برحمتنا) بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك (ولا نضيع اجر المحسنين) فى الدنيا (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا) يريد يوسف وغيره من المؤمنين الى يوم القيامة (وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال سفيان بن عيينة المؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق وتلا الآية روى أن الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال أما السرير فاشدبه ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك اليه أمره وعزل قطفير ثم مات بعده فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرائيم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء واسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى حتى لم يبق معهم شئ منها ثم بالحلى والجواهر فى الثانية ثم بالدواب فى الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى الرابعة ثم بالدور والعقار فى الخامسة ثم باولادهم السادسة ثم برقابهم فى السابعة حتى استرقهم جميعا ثم أعتق أهل مصر عن آخرهم ورد عليهم أملاكهم وكان لا يبيع لاحد من الممتازين أكثر من حمل بعير وأصاب أرض كنعان نحو ما أصاب (قاوحا ٥٤ لث) مصر فارسل يعقوب بنيه ليمتاروا وذلك قوله (وجاء اخوة يوسف

﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ولا نضيع اجر المحسنين﴾ بل نوفى اجورهم عاجلا وآجلا ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه ﴿وجاء اخوة يوسف﴾ روى انه لما استوزره الملك اقام العدل واجتهد فى تكثير الزراعات وضبط الغلات حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط

السنة الاولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا أخذه منهم وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر فى أيدى الناس منها شئ وباعهم فى السنة الثالثة بالدواب والمواشى والانعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية الا احتوى عليها كلها وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والجوارى حتى لم يبق بايدى الناس عبد ولا أمة وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم فى السنة السادسة باولادهم حتى استرقهم وباعهم فى السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصاروا جميعهم عبيدا ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بى فيما خولنى فما ترى فى هؤلاء قال الملك الرأى رأيك ونحن لك تبع قال فانى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وقيل ان يوسف كان لا يشبع من الطعام فى تلك الايام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال أخاف ان شبعت أنسى الجائع وأمر يوسف طباخى الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال مجاهد ولم يزل يوسف يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ يعنى نختص بنعمتنا وهى النبوة من نشاء يعنى من عبادنا ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ قال ابن عباس يعنى الصابرين ﴿ولأجر الآخرة﴾ يعنى ولثواب الآخرة ﴿خير﴾ يعنى أفضل من أجر الدنيا ﴿للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ يعنى يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على أن الذى أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام فى الآخرة من الاجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله فى الدنيا من الملك ❁ قوله تعالى ﴿وجاء اخوة يوسف﴾

(نصيب برحمتنا) نخص برحمتنا النبوة والاسلام (من نشاء) من كان أهلا لذلك (ولا نضيع) لا نبطل (أجر المحسنين) ثواب المؤمنين المحسنين بالقول والفعل (ولأجر الآخرة) ثواب الآخرة (خير) من ثواب الدنيا (للذين آمنوا) بالله وجملة الكتب والرسل (وكانوا يتقون) الكفر والشرك والفواحش (وجاء اخوة يوسف) الى مصر

مصر والشام ونواحيهما وتوجه اليه الناس فباعها اولا بالدراهم والدنانير حتى لم يبق
معهم شئ منهما ثم بالحلى والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم
جميعا ثم عرض الامر على الملك فقال الرأى رأيك فاعتقهم ورد عليهم اموالهم وكان
قد اصاب كنعان مااصاب سائر البلاد فارسل يعقوب عليه السلام بنيه غير بنيامين اليه
للميرة ﴿ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ أى عرفهم يوسف ولم يعرفوه لطول
العهد ومفارقتهم اياه فى سن الحداثة ونسيانهم اياه وتوهمهم انه هلك وبعد حاله التى رأوه عليها

فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ قال العلماء لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم
ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف
لا يعطى أحدا أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا ومساواة بين الناس ونزل بآل
يعقوب مانزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف
لامه وأبيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء اخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم
بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وابل وشياه فدعاهم
يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه
لتشتروا منه ماتحتاجون اليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم
قال ابن عباس ومجاهد باول نظرة نظر اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه
وهم له منكرون يعنى لم يعرفوه قال ابن عباس رضى الله عنهما كان بين ان قذفوه فى الجب وبين
دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك
وكان على رأسه تاج الملك وقيل لانه كان قد لبس زى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى
عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الاسباب مانع من حصول المعرفة فكيف
وقد اجتمعت فيه وقيل ان العرفان انما يقع فى القلب بخلق الله تعالى له فيه وان الله سبحانه
وتعالى لم يخلق ذلك العرفان فى تلك الساعة فى قلوبهم تحقيقا لما أخبر أنه سينبئهم بامرهم
هذا وهم لا يشعرون وكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام فلما نظر اليهم يوسف
وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم اخبرونى من أنتم وما أمركم فانى قد أنكرت حالكم
قالوا نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب الناس فجئنا نمتار قال يوسف
لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادى قالوا لا والله مانحن بجواسيس انما نحن اخوة بنو أب
واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبى من أنبياء الله تعالى قال وكم أنتم قالوا كنا
اثنى عشر فذهب أخ لنا معنا الى البرية فهلك فيها وكان أحبنا الى أبينا قال فكم أنتم الآن
قالوا عشرة قال وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لانه أخو الذى هلك لامه فابونا يتسلى به قال
فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا أيها الملك انا ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد قال فائتونى
باخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فانا راض بذلك منكم قالوا ان أبانا يحزن لفراقه
وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى به فاقترعوا فيما بينهم فاصابت
القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى

فدخلوا عليه فعرفهم) بلا تعريف (وهم له منكرون) لتبدل الزى ولانه كان من وراء الحجاب ولطول المدة وهو أربعون سنة روى انه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم أخبرونى من أنتم وما شأنكم قالوا نحن قوم من اهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادى فقالوا معاذ الله نحن بنو نبى حزين لفقد ابن كان أحبنا اليه وقد أمسك أخاله من أمه يستأنس به فقال ائتونى به ان صدقتم

وهم عشرة (فدخلوا عليه) على يوسف (فعرفهم) يوسف انهم اخوته (وهم له منكرون) لا يعرفون انه أخوهم يوسف

(ولما)

(ولماجهزهم بجهازهم)أعطى كل واحد منهم حمل بعير وقرئ بكسر الجيم شاذا (قال ائتونى باخ لكم من ابيكم ألاترون انى اوفى الكيل) اتمه (وأناخير المنزلين) كان قد احسن انزالهم وضيافتهم رغبهم بهذا الكلام على الرجوع اليه (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) فلاأبيعكم طعاما (ولاتقربون) أى فان لم تأتونى به تحرموا ولاتقربوا فهو داخل فى حكم الجزاء مجزوم معطوف على محل قوله فلا كيل لكم أو هو بمعنى النهى (قالوا سنراود عنه أباه) سنخادعه عنه ونحتال حتى ننزعه من يده (وانا الفاعلون) ذلك لامحالة لانفرط فيه ولانتوانى قال فدعوا بعضكم رهنا فتركوا عنده شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف (وقال لفتيانه) كوفى غير أبى بكر لفتيته غيرهم وهما جمع فتى كاخوة واخوان

(ولماجهزهم بجهازهم) كال لهم كيلهم (قال ائتونى باخ لكم من أبيكم) كاقلتم ان لنا اخا من أبينا عند أبينا (ألا ترون انى أوفى الكيل) أوفر الكيل ويقال بيدى كيل الطعام (وأنا خير المنزلين) افضل المضيفين (فان لم تأتونى به) باخيكم من أبيكم (فلا كيل لكم عندى) فيما تستقبلون (ولاتقربون) مرة أخرى
(قالوا سنراود عنه أباه) سنطلبه من أبيه ونغرى أباه (وانا الفاعلون) لضامنون انا سنجيئ به (وقال) يوسف (لفتيانه) لخدامه

من حاله حين فارقوه وقلة تأملهم فى حلاء من التهيب والاستعظام ﴿ولماجهزهم بجهازهم﴾ اصلحهم بعدتهم واوقر ركائبهم بما جاؤا لاجله واصل الجهاز مايعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر ومايحمل من بلدة الى اخرى وما تزف به المرأة الى زوجها *وقرئ بجهازهم بالكسر ﴿ قال ائتونى باخ لكم من ابيكم ﴾ روى انهم لما دخلوا عليه قال من انتم وما امركم لعلكم عيون قالوا معاذ الله انما نحن بنو اب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الانبياء اسمه يعقوب قال كم انتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب احدنا الى البرية فهلك قال فكم انتم ههنا قالوا عشرة قال فاين الحادى عشر قالوا عند ابينا يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم قالوا لا يعرفنا احد ههنا فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وأتونى باخيكم من ابيكم حتى اصدقكم فاقترعوا فاصابت شمعون وقيل كان يوسف عليه السلام يعطى لكل نفر حملا فسألوا حملا زائدا لاخ لهم من ابيهم فاعطاهم وشرط عليهم ان يأتوه به ليعلم صدقهم ﴿ ألا ترون انى اوفى الكيل ﴾ اتمه ﴿ وانا خير المنزلين ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان احسن انزالهم وضيافتهم ﴿ فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولاتقربون ﴾ أى ولاتقربونى ولاتدخلوا ديارى وهو اما نهى أو نفى معطوف على الجزاء ﴿ قالوا سنراود عنه اباه ﴾ سنجتهد فى طلبه من ابيه ﴿ وانا الفاعلون ﴾ ذلك لانتوانى فيه ﴿ وقال لفتيته ﴾ لغلمانه الكيالين جمع فتى * وقرأ حمزة والكسائى وحفص لفتيانه على انه جمع الكثرة ليوافق قوله

﴿ ولماجهزهم بجهازهم ﴾ يقال جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو مايحتاجون اليه فى وجوههم والجهاز بفتح الجيم هى اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الاكثرون من اهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست بجيدة قال ابن عباس حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام وأكرمهم فى النزول واحسن ضيافتهم وأعطاهم مايحتاجون اليه فى سفرهم ﴿ قال ائتونى باخ لكم من أبيكم ﴾ يعنى الذى خلفتموه عنده وهو بنيامين ﴿ ألاترون أنى أوفى الكيل ﴾ يعنى انى أتمه ولاأبخس منه شيأ وأزيدكم حمل بعير آخر لاجل أخيكم أكرمكم بذلك ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ يعنى خير المضيفين لانه كان قد أحسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الامام فخر الدين الرازى هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلايليق به أن يقول لهم ألاترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين وأيضا يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لان البهتان لايليق بالصديق ثم قال يوسف ﴿ فان لم تأتونى به ﴾ يعنى بأخيكم الذى من أبيكم ﴿ فلا كيل لكم عندى ﴾ يعنى لست أكيل لكم طعاما ﴿ ولاتقربون ﴾ يعنى ولاترجعوا ولا تقربوا بلادى وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولايمكنهم تحصيله الامن عنده فاذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم فعند ذلك ﴿ قالوا ﴾ يعنى اخوة يوسف ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ يعنى سنجتهد ونحتال حتى ننزعه من عنده ﴿ وانا الفاعلون ﴾ يعنى ما أمرتنا به * قوله عز وجل ﴿ وقال لفتيانه ﴾ يعنى

﴿ اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ﴾ فانه وكل بكل رحل واحدا يعبى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وادما وانما فعل ذلك توسيعا وتفضلا عليهم وترفعا من ان يأخذ ثمن الطعام منهم وخوفا من ان لايكون عند ابيه مايرجعون به ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ لعلهم يعرفون حق ردها أو لكى يعرفوها ﴿ اذا انقلبوا ﴾ انصرفوا ورجعوا ﴿ الى اهلهم ﴾ وفتحوا أوعيتهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم الى الرجوع ﴿ فلما رجعوا الى ابيهم قالوا ياابانا منع منا الكيل ﴾ حكم بمنعه بعد هذا ان لم نذهب ببنيامين ﴿ فارسل معنا اخانا نكتل ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل مانحتاج اليه * وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده الى الاخ أى يكتل لنفسه فينضم اكتياله الى اكتيالنا

وقال يوسف لفتيانه وهم غلمانه وأتباعه ﴿ اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ﴾ أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذى أعطوه ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس انها كانت النعال والادم والرحال جمع رحل وهى الاوعية التى يحمل فيها الطعام وغيره ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ يعنى يعرفون بضاعتهم ﴿ اذا انقلبوا الى اهلهم ﴾ يعنى اذا رجعوا الى أهلهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ الينا واختلفوا فى السبب الذى من أجله رد يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم بضاعتهم فقيل انهم اذا فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت اليهم علموا ان ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع اليه سريعا وقيل انه خاف أن لايكون عند أبيه شئ آخر من المال لان الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل انه رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه واخوته لؤم لشدة حاجتهم اليه وقيل أراد أن يحسن اليهم على وجه لايلحقهم فيه لوم ولاعيب وقيل أراد أن يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم فى رد بضاعتهم ليكون ذلك ادعى الى العود اليه وقيل انما فعل ذلك لانه علم ان ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة اليه اذا وجدوها فى رحالهم لانهم انبياء وأولاد أنبياء وقيل أراد برد البضاعة اليهم أن يكون ذلك عونا لابيه ولاخوته على شدة الزمان ﴿ فلما رجعوا الى أبيهم قالوا ياأبانا ﴾ انا قدمنا على خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من أولاد يعقوب ما اكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤا عليه منى السلام وقولوا له ان أبانا يصلى عليك ويدعولك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده وأخبروه بالقصة ثم قالوا ياأبانا ﴿ منع منا الكيل ﴾ وفيه قولان أحدهما انهم لما أخبروا يوسف باخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لابيهم وأخيهم المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل اشارة اليه وأراد بالكيل الطعام لانه يكال والقول الثانى انه سيمنع منا الكيل فى المستقبل وهو اشارة الى قول يوسف فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولاتقربون وقال الحسن يمنع منا الكيل ان لم نحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى اخبارا عنهم ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ يعنى بنيامين ﴿ نكتل ﴾ قرئ بالياء يعنى يكتل لنفسه وقرئ بالنون يعنى نكتل نحن جميعا واياه معنا

فى أخ وفعلة للقلة وفعلان للكثرة أى لغلمانه الكيالين (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أوعيتهم وكانت نعالا أوادما أوورقا وهو أليق بالدس فى الرحال (لعلهم يعرفونها) يعرفون حق ردها وحق التكرم باعطاء البدلين (اذا انقلبوا الى أهلهم) وفرغوا ظروفهم (لعلهم يرجعون) لعل معرفتهم بذلك تدعوهم الى الرجوع الينا أوربما لايجدون بضاعة بها يرجعون أوما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الامانة أولم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه واخوته ثمنا (فلما رجعوا الى أبيهم) بالطعام وأخبروه بما فعل (قالوا يا أبانا منع منا الكيل) يريدون قول يوسف فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى لانهم اذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل (فارسل معنا أخانا نكتل) نرفع المانع

(اجعلوا بضاعتهم) دسوا دراهمهم (فى رحالهم) فى جواليقهم كى لايعلمون (لعلهم يعرفونها) لكى يعرفوا هذه الكرامة منى ويقال لكى يعرفوا انها دراهمهم فيردوها الى (اذا انقلبوا الى أهلهم) اذ ارجعوا الى أبيهم (لعلهم يرجعون) مرة أخرى (فلما رجعوا الى أبيهم) بكنعان (قالوا يا ابانا منع منا الكيل) فيما يستقبل ان لم ترسل معنا بنيامين (فارسل معنا أخانا) بنيامين (يكتل) يشتر لنفسه (وانا)

من الكيل ونكتل من الطعام مانحتاج اليه يكتل حمزة وعلى أى يكتل أخونا فينضم اكتياله الى اكتيالنا (وانا له لحافظون) عن ان يناله مكروه (قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) يعنى انكم قلتم فى يوسف أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون كما تقولونه فى أخيه ثم خنتم بضمانكم فما يأمننى من مثل ذلك ثم قال (فالله خير حافظا) كوفى غير أبى بكر فتوكل على الله فيه ودفعه اليهم وهو حال أو تمييز

﴿ وانا له لحافظون ﴾ من ان يناله مكروه ﴿ قال ﴾ يعقوب لهم ﴿ هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه من قبل ﴾ وقد قلتم فى يوسف وانا له لحافظون ﴿ فالله خير حفظا ﴾ فأتوكل عليه وافوض امرى اليه وانتصاب حفظا على التميز وحافظا على قراءة حمزة والكسائى وحفص يحتمله والحال كقولهم لله دره فارسا * وقرئ خير حافظ وخير الحافظين ﴿ وهو ارحم الراحمين ﴾ فارجوان يرحمنى بحفظه ولايجمع على مصيبتين ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ﴾ وقرئ ردت بنقل كسرة الدال المدغمة الى الراء نقلها فى بيع وقيل ﴿ قالوا ياابانا مانبغى ﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك اكرمنا واحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا أولا نطلب وراء ذلك احسانا أولا نبغى فى القول ولا نتزيد فيما حكينا لك من احسانه وقرئ ماتبغى على الخطاب أى أى شئ تطلب وراء هذا من الاحسان أو من الدليل على صدقنا ﴿ هذه بضاعتنا ردت الينا ﴾ استئناف

﴿ وانا له لحافظون ﴾ يعنى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة ﴿ قال ﴾ يعنى يعقوب ﴿ هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ يعنى كيف آمنكم على ولدى بنيامين وقد فعلتم باخيه يوسف مافعلتم وانكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه فى يوسف وضمنتم لى حفظه وقلتم وانا له لحافظون فما فعلتم فلما لم يحصل الامان والحفظ هنالك فكيف يحصل ههنا ثم قال ﴿ فالله خير حافظا ﴾ يعنى ان حفظ الله خير من حفظكم له ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه فى جميع الامور ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ وظاهر هذا الكلام يدل على انه أرسله معهم وانما أرسله معهم وقد شاهد مافعلوا بيوسف لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أوأن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فارسله معهم أوأن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه الى ذلك * قوله تعالى ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾ يعنى الذى حملوه من مصر فيحتمل ان يكون المراد به الطعام أو أوعية الطعام ﴿ وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ﴾ يعنى أنهم وجدوا فى متاعهم ثمن الطعام الذى كانوا قد أعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس فى متاعهم ﴿ قالوا ياأبانا مانبغى ﴾ يعنى ماذا نبغى وأى شئ نطلب وذلك أنهم كانوا قد ذكروا ليعقوب احسان ملك مصر اليهم وحثوا يعقوب على أرسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت اليهم قالوا أى شئ نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الاحسان والاكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم ﴿ هذه بضاعتنا ردت الينا

الراحمين) فأرجو أن ينعم على بحفظه ولا يجمع على مصيبتين قال كعب لما قال فالله خير حفظا قال الله تعالى وعزتى وجلالى لاردن عليك كليهما (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا ياأبانا مانبغى) ما للنفى أى مانبغى فى القول ولا نتجاوز الحق أو مانبغى شيأ وراء ما فعل بنا من الاحسان أو ما نريد منك بضاعة أخرى أو للاستفهام أى أى شئ نطلب وراء هذا (هذه بضاعتنا ردت الينا)

جلا ويقال نشترله جلا ان قرأت بالنون (وانا له لحافظون) ضامنون برده اليك (قال) لهم يعقوب (هل آمنكم عليه) على بنيامين (الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) من قبل يوسف يقول هل أقدر ان آخذ عليكم العهد والميثاق أكثر مما أخذت عليكم فى يوسف (فالله خير حافظا) منكم (وهو أرحم الراحمين) وهو أرحم به من والديه ومن اخوته (ولما فتحوا متاعهم) جوالقهم (وجدوا بضاعتهم) دراهمهم ثمن طعامهم (ردت اليهم) مع طعامهم (قالوا ياأبانا مانبغى) مانكذب بما قلنا من احسان الرجل ولطفه بنا ويقال ماطلبنا هذا منه (هذه بضاعتنا) دراهمنا التى أعطيناه ثمن الطعام (ردت الينا) مع الطعام وهذا من احسانه الينا قال

جملة مستأنفة موضحة لقوله مانبغي والجمل بعدها معطوفة عليها أي ان بضاعتنا ردت الينا فنستظهر بها (ونمير أهلنا) في رجوعنا الى الملك أي نجلب لهم ميرة وهي طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا) في ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه شئ مما نخافه (ونزداد كيل بعير) نزداد وسق بعير باستصحاب أخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لايتعاظمه (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون) وبالياء مكي (موثقا) عهدا (من الله) والمعنى حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي أراد أن يحلفوا له بالله وانما جعل الحلف بالله موثقا منه لان الحلف به

مما يؤكد به العهود وقد أذن الله في ذلك فهو اذن منه (لتأتنني به) جواب اليمين لان المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به (الا ان يحاط بكم) ألا ان تغلبوا فلم تطيقوا الاتيان به فهو مفعول له والكلام المثبت وهو قوله لتأتنني به في تأويل النفي اى لاتمتنعوا من الاتيان به الا للاحاطة بكم يعني لاتمتنعوا منه لعلة من العلل الا لعلة واحدة وهي ان يحاط بكم فهو استثناء من اعم العام في المفعول له والاستثناء من من أعم العام لايكون الا في النفي فلابد من تأويله بالنفي (فلما آتوه موثقهم) قيل حلفوا بالله رب محمد عليه

موضح لقوله مانبغي ﴿ونمير اهلنا﴾ معطوف على محذوف اى ردت الينا فنستظهر بها ونمير اهلنا بالرجوع الى الملك ﴿ونحفظ اخانا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وايابنا ﴿ونزداد كيل بعير﴾ وسق بعير باستصحاب اخينا هذا اذا كانت ما استفهامية فاما اذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل ان تكون الجمل معطوفة على مانبغي أي لانبغي فيما نقول ونمير اهلنا ونحفظ اخانا ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي مكيل قليل لايكفينا استقلوا ما كيل لهم فارادوا ان يضاعفوه بالرجوع الى الملك أو نزدادوا اليه مايكال لاخيهم ويجوز ان تكون الاشارة الى كيل بعير أي ذلك شئ قليل لايضايقنا فيه الملك ولايتعاظمه وقيل انه من كلام يعقوب عليه السلام ومعناه ان حمل بعير شئ يسير لايخاطر لمثله بالولد ﴿قال لن ارسله معكم﴾ اذ رأيت منكم ما رأيت ﴿حتى تؤتون موثقا من الله﴾ حتى تعطوني ما اتوثق به من عند الله أي عهدا مؤكدا بذكر الله ﴿لتأتنني به﴾ جواب القسم اذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿الا ان يحاط بكم﴾ الا ان تغلبوا فلا تطيقوا ذلك أو الا ان تهلكوا جميعا وهو استثناء مفرغ من اعم الاحوال والتقدير لتأتنني به على كل حال الا حال الاحاطة بكم أو من اعم العلل على ان قوله لتأتنني به في تأويل النفي أي لاتمتنعون من الاتيان به الا للاحاطة بكم كقولهم اقسمت بالله الا فعلت اى ماطلب الا فعلك ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ عهدهم

﴿ونمير أهلنا﴾ يقال مار أهله يميرهم ميرا اذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم والمعنى أنا نشتري لاهلنا الطعام ونحمله اليهم ﴿ونحفظ أخانا﴾ يعني بنيامين مما نخاف عليه حتى نرده اليك ﴿ونزداد كيل بعير﴾ يعني ونزداد لاجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام ﴿ذلك كيل يسير﴾ يعني ان ذلك الحمل الذي نزداده من الطعام هين على الملك لانه قد أحسن الينا وأكرمنا باكثر من ذلك وقيل معناه ان الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لايكفينا وأهلنا ﴿قال﴾ يعني قال لهم يعقوب ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله﴾ يعني لن أرسل معكم بنيامين حتى تؤتوني عهد الله وميثاقه والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد باشهاد الله عليه ﴿لتأتنني به﴾ دخلت اللام هنا لاجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿الا أن يحاط بكم﴾ قال مجاهد الا أن تهلكوا جميعا فيكون عذرا لكم عندي لان العرب تقول أحيط بفلان اذا هلك أو قارب هلاكه وقال قتادة الا أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع ﴿فلما آتوه موثقهم﴾

لهم أبوهم بل يجربكم الرجل بهذا ردوا هذه الدراهم اليه (ونمير أهلنا) نمتار أهلنا (ونحفظ أخانا) في الذهاب والمجيء بنيامين (ونزداد كيل بعير) وقر بعير اذ كان هو معنا (ذلك كيل يسير) حمل يسير نعطى بسببه ويقال هذا أمر يسير وحاجة هينة نطلب منك (قال) لهم أبوهم (لن أرسله معكم) بهذه المقالة (حتى تؤتون) تعطوني (موثقا) عهدا (يعني) (من الله لتأتنني به) لتردنه علي (الا ان يحاط بكم) الا أن ينزل عليكم أمر من السماء ويقال الأن يصيبكم أمر من السماء أو من الارض (فلما آتوه) اعطوا أباهم (موثقهم) عهودهم من الله على رده الى أبيهم

﴿قال الله على ما نقول﴾ من طلب الموثق واتيانه ﴿وكيل﴾ رقيب مطلع ﴿وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة﴾ لانهم كانوا ذوى جمال وابهة مشتهرين فى مصر بالقربة والكرامة عند الملك فخاف عليهم ان يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا ولعله لم يوصهم بذلك فى الكرة الاولى لانهم كانوا مجهولين حينئذ أو كان الداعى اليها خوفه على بنيامين وللنفس آثار منها العين والذى يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام

يعنى فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ يعنى قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كأن الشاهد وكيل بمعنى انه موكول اليه هذا العهد وقيل وكيل بمعنى حافظ قال كعب الاحبار لما قال يعقوب فالله خير حفظا قال الله تعالى وعزتى وجلالى لأردن عليك كليهما بعدما توكلت على وفوضت امرك الى وذلك انه لما اشتد بهم الامر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بدا من ارسال بنيامين معهم فارسله معهم متوكلا على الله ومفوضا أمره اليه * قوله عز وجل اخبارا عن يعقوب ﴿وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك انهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يا بنى لا تدخلوا يعنى مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب وقال السدى أراد الطرق لا الابواب يعنى من طرق متفرقة وانما امرهم بذلك لانه خاف عليهم العين لانهم كانوا قد أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة وكانوا اولاد رجل واحد فأمرهم ان يتفرقوا فى دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فان العين حق وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العين حق زاد البخارى ونهى عن الوشم (م) عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين واذا استغسلتم فاغتسلوا * عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين أخرجه أبو داود قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى قال المازرى أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم ان كل معنى يكون مخالفا فى نفسه ولا يؤدى الى قلب حقيقة ولا افساد دليل فانه من مجوزات العقول واذا اخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وانكاره وقيل لابد من فرق بين تكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين المثبتين للعين تأثيرا ان العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الافعى والعقرب تتصل بالملدوغ فيهلك وان كان غير محسوس لنا فكذا العين قال المازرى وهذا غير مسلم لانا بينا فى كتب علم الكلام أنه لا فاعل الا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا ان المحدث لا يفعل فى غيره شيأ فاذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم نقول هذا المنبعث

السلام (قال) بعضهم يسكت عليه لان المعنى قال يعقوب (الله على ما نقول) من طلب الموثق واعطائه (وكيل) رقيب مطلع غير ان السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لا يجوز فالاولى ان يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله (وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الجمهور على أنه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة أمرهم ولم يأمرهم بالتفرق فى الكرة الاولى لانهم كانوا مجهولين فى الكرة الاولى فالعين حق عندنا وجوده بان يحدث الله تعالى عند النظر الى الشئ والاعجاب به نقصانا فيه وخللا وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين رضى الله عنهما فيقول اعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة وأنكر الجبائى العين وهو مردود بما ذكرنا وقيل انى أحب ان لا يفطن بهم اعداؤهم فيحتالوا لاهلاكهم

(قال) يعقوب (الله على ما نقول وكيل) شهيد ويقال كفيل (وقال) لهم (يا بنى لا تدخلوا من باب واحد) من سكة واحدة (وادخلوا من أبواب متفرقة) من سكك مختلفة

في عوذته اللهم اني اعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ﴿ وما اغني عنكم من الله من شئ ﴾ مما قضى عليكم بما اشرت به اليكم فان الحذر لا يمنع القدر ﴿ ان الحكم الا لله ﴾ يصيبكم لا محالة ان قضى عليكم سوأ ولا ينفعكم ذلك ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لافادة التسبب فان فعل الانبياء عليهم السلام سبب لان يقتدى بهم ﴿ ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم ﴾ أي من ابواب متفرقة في البلد

من العين اما جوهر واما عرض فباطل أن يكون عرضا لانه لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهرا لان الجواهر متجانسة فليس بعضها بان يكون مفسدا لبعض باولى من عكسه فبطل ماقالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الاسلام منهم أن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عزوجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله عزوجل وليست ضرورة ولا طبيعية الجأ الفعل اليها قال ومذهب أهل السنة ان المعين انما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بان يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصا آخر وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الامرين وانما يقطع بنفي الفعل عنها واضافته الى الله تعالى فمن قطع من اطباء الاسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه وانما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الاصول وأما ما يتعلق بعلم الفقه فان الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الامر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطأ وأما صفة وضوء العائن فمذكور في كتب شروح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله أعلم وقال وهب بن منبه في قوله لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة أنه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزي عنه وقيل ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام الا أن الله تعالى لم يأذن له في اظهاره ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه ان يصل بنيامين الى أخيه يوسف في وقت الخلوة قبل اخوته والقول الاول أصح انه خاف عليهم من العين ثم رجع الى علمه وفوض أمره الى الله تعالى بقوله ﴿ وما أغني عنكم من الله من شئ ﴾ يعني ان كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فان المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر ﴿ ان الحكم الا لله ﴾ يعني وما الحكم الا لله وحده لا شريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب في أموره كلها الى الله تعالى ﴿ عليه توكلت ﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها لا على غيره ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ يعني من الابواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل مدينة الفرماء أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها

﴿ وما أغنى عنكم من الله من شئ ﴾ أي ان كان الله أراد بكم سوأ لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة (ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) التوكل تفويض الامر الى الله تعالى والاعتماد عليه (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) أي متفرقين

(وما اغني عنكم من الله) من قضاء الله فيكم (من شئ ان الحكم) ما الحكم بالقضاء فيكم (الا لله عليه توكلت) اتكلت وفوضت أمري وأمركم اليه (وعليه فليتوكل المتوكلون) فليثق الواثقون ويقال على المؤمنين ان يتوكلوا على الله وكان خاف عليهم يعقوب من العين لانهم كانوا صباح الوجوه جمالا فمن ذلك خاف عليهم (ولما دخلوا) مصر (من حيث أمرهم) كما أمرهم (أبوهم

﴿ ما كان يغـنى عنهم ﴾ رأى يعقـوب واتباعهم له ﴿ من الله من شئ ﴾ مماقضاه عليهم كماقال يعقوب عليه السـلام فسرقوا واخذ بنيامين بوجـدان الصواع فى رحـله وتضاعفت المصيبة على يعقوب عليه السـلام ﴿ الاحاجة فى نفس يعقـوب ﴾ استثناء منقطع أى ولكن حاجة فى نفسه يعنى شفقته عليهم وحرازته من ان يعانوا ﴿ قضاها ﴾ اظهرها ووصى بها ﴿ وانه لذو علم لما علمناه ﴾ بالوحى ونصب الحجج ولذلك قال وما اغنى عنكم من الله من شئ ولم يغتر بتدبيره ﴿ ولكن اكثر الناس لايعلمون ﴾ سر القدر وانه لايغنى عنه الحذر ﴿ ولما دخلوا على يوسف أوى اليه اخاه ﴾ ضم اليه بنيامين على الطعام أو فى المنزل روى انه اضافهم فاجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لوكان اخى يوسف حيا لجلس معى فاجلسه معه على

﴿ ما كان يغنى عنهم من الله من شئ ﴾ وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال وما أغنى عنكم من الله من شئ ﴿ الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ﴾ هذا استثناء منقطع ليس من الاول فى شئ ومعناه لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها وهو انه أشفق عليهم اشفاق الآباء على الابناء وذلك انه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف أن لا يردوا عليه فاشفق من هذا كله أو بعضه ﴿ وانه ﴾ يعنى يعقوب ﴿ لذو علم ﴾ يعنى صاحب علم ﴿ لما علمناه ﴾ يعنى لتعليمنا اياه ذلك العلم وقيل معناه وانه لذو علم للشئ الذى علمناه والمعنى انا لما علمناه هذه الاشـياء حصل له العلم بتلك الاشياء وقيل وانه لذو حفظ لما علمناه وقيل انه كان يعمل مايعمل عن علم لا عن جهل و قيل انه لعامل بما علمناه قال سفيان من لايعمل بما يعـلم لايكون عالما ﴿ ولكن اكثر الناس لايعلمون ﴾ يعنى لايعلمون ما كان يعلم يعقوب لانهم لم يسلكوا طريق اصابة العلم وقال ابن عباس لايعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه ﴿ قوله تعالى ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخا ﴾ قال المفسرون لما دخل اخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به فقد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندى ثم أنزلهم و أكرم نزلهم ثم انه أضافهم وأجلس كل أثنين على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لوكان أخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال لهم يوسف لقد بقى هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فانا أجلسه معى فاخذه فاجلسـه معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل أثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقى بنيامين وحـده فقال يوسف هذا ينام عنـدى على فراشى فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه اليه ويشم ريحه حتى أصبح فلما أصبح قال لهم انى أرى هـذا الرجل وحيـدا ليس معه ثان وسأضمه الى فيكون معى فى منزلى ثم انه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام فقال روبيل مارأينا مثل

(ما كان يغنى عنهم) دخولهم من أبواب متفرقة (من الله من شئ) أى شيأ قط حيث أصابهم ماساءهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع فى رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم (الا حاجة) استثناء منقطع أى ولكن حاجة (فى نفس يعقوب قضاها) وهى شفقته عليهم (وانه لذو علم) يعنى قوله وما أغنى عنكم وعلمه بان القدر لايغنى عنه الحذر (لما علمناه) لتعليمنا اياه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) ضم اليه بنيامين و روى انهم قالوا له هـذا أخونا قد جئناك به فقـال لهم أحسنتم فانزلهم واكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا فاجلسه معه عـلى مائدته وجعل يؤاكله وقال له أتحب ان أكون آخاك بدل أخيك الهالك قال ومن يجد أخا

ما كان يغنى عنهم من الله) من قضاء الله فيهم (من شئ الا حاجة) حزازة (فى نفس يعقوب) فى قلب يعقوب (قضاها) ابداها (وانه) يعنى يعقوب (لذو علم) حفظ (لما علمناه) من الذى علمنا من الاحكام والحدود (قا و خا ٥٥ اث) والقضاء والقدر علم انه لا يكون الا ماقضى الله (ولكن أكثر الناس) أهل مصر (لايعلمون) ذلك ولا يصدقون (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه) ضم اليه (أخاه) من ابيه وامه وحبس

مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم (قال) له (انى أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا وجمعنا على خير ولا

تعلمهم بما أعلمتك وروى انه قال له فانا لا أفارقك قال لقد علمت اغتمام والدى بى فان حبستك ازداد غمه ولا سبيل الى ذلك الان أنسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالى فافعل ما بدا لك قال فانى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بانك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم فقال افعل (فلما جهزهم بجهازهم) هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم (جعل السقاية فى رحل أخيه) السقاية هى مشربة يسقى بها وهى الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة أو ذهب (ثم أذن مؤذن) ثم نادى منادى آذنه أى أعلمه وأذن أكثر

مائدته ثم قال لينزل كل اثنين منكم بيتا وهذا لا ثانى له فيكون معى فبات معه وقال له أتحب ان أكون اخاك بدل اخيك الهالك قال من يجد اخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه ﴿قال انى انا اخوك فلا تبتئس﴾ فلا تحزن افتعال من البؤس ﴿بما كانوا يعملون﴾ فى حقنا فيما مضى ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية﴾ المشربة ﴿فى رحل اخيه﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت يسقى الدواب بها ويكال فيها وكانت من فضة وقيل من ذهب وقرئ وجعل على حذف جواب فلما تقديره امهلهم حتى انطلقوا ﴿ثم اذن مؤذن﴾ نادى مناد

هذا فذلك قوله آوى اليه أخاه يعنى ضمه وأنزله معه فى منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المثكل وذلك انه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل من أخ لامك قال كان لى أخ فهلك قال يوسف أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة والسلام وقام اليه وعانقه و ﴿قال﴾ له ﴿انى أنا أخوك﴾ يعنى يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ يعنى لا تحزن وقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس ﴿بما كانوا يعملون﴾ يعنى فلا تحزن بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا وقيل ان يوسف صفح عن اخوته وصفا لهم فاراد ان يجعل قلب أخيه بنيامين مثل قلبه صافيا عليهم ثم قال يوسف لاخيه بنامين لا تعلم أخوتك بشئ مما أعلمتك به ثم انه أوفى لاخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت فى رحل أخيه بنيامين قال السدى وهو لا يشعر وقال كعب لما قال له يوسف انى أنا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدى على فاذا حبستك عندى ازداد غمه ولا يمكننى هذا الا بعد أن أشهرك بامر فظيع وأنسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالى فافعل ما بدا لك فانى لا أفارقك قال فانى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه﴾ وهى المشربة التى كان الملك يشرب فيها قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجوهر جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لاناء واحد وجعلت فى وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين الى بلادهم فامهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم ﴿ثم أذن مؤذن﴾ يعنى نادى

سائر اخوته على الباب (قال انى انا أخوك) بمنزلة اخيك الهالك (فلا تبتئس) فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بك اخوتك من الجفاء ويقولون لك من السب والتعيير (فلما جهزهم بجهازهم) كال لهم كيلهم (جعل السقاية فى رحل أخيه) دس سقايته التى كان يشرب فيها ويكيل بها فى رحل أخيه من أبيه وأمه ثم أمرهم بالرحيل ثم أرسل (مناد) خلفهم فتى (ثم أذن مؤذن) نادى مناد وهو فتى يوسف

﴿أيتها العير انكم لسارقون﴾ لعله لم يقله بامر يوسف عليه الصلاة والسلام أو كان تعبية السقاية والنداء عليها برضى بنيامين وقيل معناه انكم لسارقون يوسف من ابيه أو أئنكم لسارقون والعير القافلة وهو اسم الابل التى عليها الاحمال لانها تعير أى تتردد فقيل لاصحابها كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم يا خيل الله اركبى وقيل جمع عير واصلها فعل كسقف فعل به ما فعل ببيض تجوز به لقافلة الحمير ثم استعير لكل قافلة ﴿قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ أى شئ ضاع عنكم والفقد غيبة الشئ عن الحس بحيث لا يعرف مكانه * وقرئ تفقدون من افقدته اذا وجدته فقيدا ﴿قالوا نفقد صواع الملك﴾ وقرئ صاع وصوع بالفتح والضم والعين والغين وصواغ من الصياغة ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ من الطعام جعلا له ﴿وانا به زعيم﴾

مناد وأعلم معلم والاذان فى اللغة الاعلام ﴿أيتها العير﴾ وهى القافلة التى فيها الاحمال وقال مجاهد العير الحمير والبغال وقال ابو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهى عير وقول من قال انها الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التى تحمل عليها الاحمال سميت بذلك لانها تعير أى تذهب وتجئ وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر ذلك فى الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير أراد أصحاب العير ﴿انكم لسارقون﴾ فقفوا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه فى خفاء * فان قلت هل كان هذا النداء بامر يوسف أم لا فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة ان يتهم أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا مع علمه ببراءتهم من ذلك وان كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التى نسبوا اليها * قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة * أحدها ان يوسف لما أظهر لاخيه انه أخوه قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضى به فلا يكون ذنبا * الثانى أن يكون المعنى انكم لسارقون ليوسف من أبيه الا انهم ما اظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة عن الكذب * الثالث يحتمل أن يكون المنادى ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذبا * الرابع ليس فى القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بامر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم انهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قال أصحاب الاخبار لما وصل الرسل الى اخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف اليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم أى عطفوا على المؤذن وأصحابه ماذا أى ما الذى تفقدون والفقدان ضد الوجود ﴿قالوا﴾ يعنى المؤذن وأصحابه ﴿نفقد صواع الملك﴾ الصاع الاناء الذى يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان ﴿ولمن جاء به﴾ يعنى بالصواع ﴿حمل بعير﴾ يعنى من الطعام ﴿وأنا به زعيم﴾ أى كفيل قال الكلبى الزعيم هو الكفيل بلسان أهل اليمن

الاعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه روى انهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا ثم أمر بهم فادركوا وحبسوا ثم قيل لهم (أيتها العير) هى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير أى تذهب وتجئ والمراد أصحاب العير (انكم لسارقون) كناية عن سرقتهم اياه من أبيه (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك) هو الصاع (ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه الى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله

(أيتها العير) أهل القافلة (انكم لسارقون قالوا واقبلوا عليهم) يقول اقبلوا عليهم وقالوا (ماذا تفقدون) ما تطلبون (قالوا نفقد) نطلب (صواع الملك) اناء الملك الذى كان يشرب فيه ويكيل وكان اناء من الذهب وقد اتهمنى الملك (ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) كفيل قال لهم هذا القول فتى

كفيل أؤديه الى من رده وفيه دليل على جواز الجعالة وضمان الجعل قبل تمام العمل ﴿ قالوا تالله ﴾ قسم فيه معنى التعجب والتاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى ﴿ لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة انفسهم لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك مما يدل على فرط امانتهم كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم وكعم الدواب لئلا تتناول زرعا أو طعاما لاحد ﴿ قالوا فما جزاؤه ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو الصواع على حذف المضاف ﴿ ان كنتم كاذبين ﴾ في ادعاء البراءة ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ أي جزاء سرقته اخذ من وجد في رحله واسترقاقه هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام وقوله فهو جزاؤه تقرير للحكم والزام له أو خبر من والفاء لتضمنها معنى الشرط او جواب لها على انها شرطية والجملة كما هي خبر جزاؤه على اقامة الظاهر فيها مقام الضمير كأنه قيل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ بالسرقة

وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها في قوله الحميل غارم والحميل الكفيل * فان قلت كيف تصح هذه الكفالة مع ان السارق لا يستحق شيأ * قلت لم يكونوا سراقا في الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة ولعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان فيحمل عليه ﴿ قالوا ﴾ يعني اخوة يوسف ﴿ تالله ﴾ التاء بدل من الواو ولا تدخل الا على اسم الله في اليمين خاصة تقديره والله ﴿ لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين ﴾ قال المفسرون ان اخوة يوسف حلفوا على امرين * أحدهما انهم ماجاؤا لاجل الفساد في الارض * والثاني انهم ماجاؤا سارقين وانما قالوا هذه المقالة لانه كان قد ظهر من أحوالهم مايدل على صدقهم وهو انهم كانوا مواظبين على انواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم انهم شدوا أفواه دوابهم لئلا تؤذي زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد في حقه ممتنع وأما الثاني وهو انهم ما كانوا سارقين فلانهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلاجل ذلك قالوا لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة ﴿ قالوا ﴾ يعني أصحاب يوسف وهو المنادي وأصحابه ﴿ فما جزاؤه ان كنتم كاذبين ﴾ يعني فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين في قولكم ماجئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين ﴿ قالوا ﴾ يعني اخوة يوسف ﴿ جزاؤه من وجد في رحله ﴾ يعني جزاء السارق الذي وجد في رحله أن يسلم برقبته الى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان في حكم ملك مصر ان يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق وكان هذا في شرعهم في ذلك الزمان يجري مجرى القطع في شرعنا فاراد يوسف ان يأخذ بحكم أبيه في السارق فلذلك رد الحكم اليهم والمعنى ان جزاء السارق أن يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته ﴿ فهو جزاؤه ﴾ يعني هذا الجزاء جزاؤه ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ يعني مثل هذا الجزاء وهو ان يسترق السارق سنة نجزي

الارض) استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم حيث دخلوا وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لاحد من أهل السوق ولانهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم (وما كنا سارقين) وما كنا نوصف قط بالسرقة (قالوا فما جزاؤه) الضمير للصواع أي فما جزاء سرقته (ان كنتم كاذبين) في جحودكم وادعائكم البراءة منه (قالوا جزاؤه من وجد في رحله) أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله وكان حكم السارق في آل يعقوب ان يسترق سنة فلذلك استفتوا في جزائه وقولهم (فهو جزاؤه) تقرير للحكم أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لاغير جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره (كذلك نجزي الظالمين)

يوسف (قالوا تالله) والله (لقد علمتم) يا أهل مصر (ماجئنا لنفسد في الارض) أرض مصر بالسرقة ومضرة الناس (وما كنا سارقين) ماتطلبون (قالوا) يعني فتى يوسف (فما جزاؤه) يعني ماجزاء السارق (ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه) السارق (من وجد في رحله) السرقة (فهو جزاؤه) بقول الاستعباد جزاء سرقته (كذلك نجزي الظالمين) (الظالمين)

﴿ فبدأ باوعيتهم ﴾ فبدأ المؤذن وقيل يوسف لانهم ردوا الى مصر ﴿ قبل وعاء أخيه ﴾ بنيامين نفيا للتهمة ﴿ ثم استخرجها ﴾ أى السقاية او الصواع لانه يذكر ويؤنث ﴿ من وعاء أخيه ﴾ وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الكيد ﴿ كدنا ليوسف ﴾ بان علمناه اياه واوحينا به اليه

الظالمين ثم قيل هذا الكلام من بقية كلام اخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف فعلى هذا ان اخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق ان يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزى الظالمين يعنى السارقين ﴿ قوله عز وجل ﴿ فبدأ باوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾ قال أهل التفسير ان اخوة يوسف لما أقروا ان جزاء السارق ان يسترق سنة قال أصحاب يوسف لابد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف فامر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لازالة التهمة فجعل يفتش أوعيتهم واحدا واحدا قال قتادة ذكر لنا انه كان يفتح متاعا ولا ينظر وعاء الا استغفر الله تأثما مما قذفهم به حتى لم يبق الا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذ شيأ قال اخوته والله لا نتركك حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ انما أنث الكناية لانه ردها الى السقاية وقيل ان الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ما صنعت بنا فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل مازال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصواع فقال بنيامين بل بنو راحيل مازال لهم منكم بلاء ذهبتم باخى فاهلكتموه فى البرية أن الذى وضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم قالوا فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادى وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ يعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو اشارة الى الحكم الذى ذكره اخوة يوسف باسترقاق السارق أى مثل ذلك الحكم الذى ذكره اخوة يوسف حكمنا به ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا فى حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول الكيد هنا جزاء الكيد يعنى كما فعلوا بيوسف فى الابتداء فعلنا بهم فالكيد من الخلق الحيلة ومن الله التدبير بالحق والمعنى كما ألهمنا اخوة يوسف ان حكموا ان جزاء السارق أن يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع فى رحل أخيه ليضمه اليه على ما حكم به اخوته وقال ابن الاعرابى الكيد التدبير بالباطل وبحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل صنعنا ليوسف وقال ابن الانبارى كدنا وقع خبرا من الله عز وجل على خلاف معناه فى أوصاف المخلوقين فانه اذا أخبر به عن مخلوق كان تحته احتيال وهو فى موضع فعل الله معرى من المعانى المذمومة وتخلص بانه وقع عن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئة بالذى يكون من أحل أن المخلوق اذا كاد المخلوق سترعنه ما ينويه ويضمره له من الذى يقع به من

أى السراق بالاسترقاق (فبدأ باوعيتهم قبل وعاء أخيه) فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال ما أظن هذا أخذ شيأ فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى الصواع (من وعاء أخيه) ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه لان التأنيث يرجع الى السقاية أو لان الصواع يذكر ويؤنث الكاف فى (كذلك) فى محل النصب أى مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) يعنى علمناه اياه

السارقين بارضنا (فبدأ) فتى يوسف (باوعيتهم) ففتشها (قبل وعاء أخيه) فلم يجدها فيها (ثم استخرجها من وعاء أخيه) من ابيه وأمه فقال له فتى يوسف فرجك الله كما فرجتنى (كذلك) هكذا (كدنا) صنعنا (ليوسف) اكرمناه بالعلم والحكمة والفهم والنبوة والملك

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) تفسير للكيد وبيان له لان الحكم فى دين الملك أى فى سيرته للسارق أن يغرم مثلى ما أخذ لاان يستعبد (الاأن يشاءالله) أى ما كان ليأخذه الا بمشيئة الله وارادته فيه (نرفع درجات) بالتنوين كوفى (من نشاء) أى فى العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه (وفوق كل ذى علم عليم) فوقه أرفع درجة منه فى علمه أوفوق العلماء كلهم عليم هم دونه فى العلم وهوالله عزوجل (قالوا أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أرادوا يوسف قيل دخل كنيسة فاخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه وقيل كان فى المنزل دجاجة فاعطاها لسائل وقيل كانت منطقة لابراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها اسحق ثم وقعت الى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهى عمته بعد وفاة أمه

(ماكان ليأخذ) يقول لم يأخذ (أخاه فى دين الملك) فى قضاء الملك (الاأن يشاء الله) وقد شاءالله ان لا يأخذ أخاه فى دين الملك وكان قضاء الملك للسارق انه يضرب ويغرم ويقال يقطع ويغرم ويقال الا أن يشاءالله الا ماعلم يوسف انه يرضى الله من قضاء الملك فكان يأخذ بذلك (نرفع درجات) فضائل (من نشاء) كما رفع فى الدنيا (وفوق كل ذى عليم) وفوق كل ذى علم عالم حتى ينتهى الى الله فليس فوقه أحد ويقال الله عالم وفوق كل عالم (الذى) فليس فوقه أحد (قالوا) اخوة يوسف (ان يسرق) ان سرق بنيامين سقاية الملك (فقد سرق أخ له من قبل) من قبله أخوه لابيه وأمه

﴿ماكان ليأخذ اخاه فى دين الملك﴾ ملك مصر لان دينه الضرب وتغريم ضعف ما اخذ دون الاسترقاق وهو بيان للكيد ﴿الا ان يشاءالله﴾ ان يجعل ذلك الحكم حكم الملك فالاستثناء من اعم الاحوال ويجوز ان يكون منقطعا أى لكن اخذه بمشيئة الله تعالى واذنه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بالعلم كما رفعنا درجته ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ ارفع درجة منه واحتج به من زعم انه تعالى عالم بذاته اذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو اعلم منه والجواب ان المراد كل ذى علم من الخلق لان الكلام فيهم ولان العليم هو الله تعالى ومعناه الذى له العلم البالغ ولانه لافرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص ﴿قالوا أن يسرق﴾ بنيامين ﴿فقد سرق اخ له من قبل﴾ يعنون يوسف عليه السلام قيل ورثت عمته من ابيها منطقة ابراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتحبه فلما شب اراد يعقوب انتزاعه منها فشدت المنطقة على وسطه ثم اظهرت ضياعها فتفحص عنها فوجدت محزومة عليه فصارت احق به فى حكمهم وقيل كان لابى امه صنم فسرقه وكسره والقاه فى الجيف وقيل كان فى البيت عناق أو دجاجة فاعطى السائل وقيل

الكيد فهو من الله تعالى أستر اذ هو ما ختم الله به عاقبته والذى وقع باخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى اليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث جرى الامر على غير ما قدروا من اهلاكه وخلوص أبيهم له بعده وكل ذلك جرى بتدبير الله تعالى وخفى لطفه سماه كيدا لانه أشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عزوجل ليوسف عليه السلام عائدا الى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبير اخوته من غير أن يشعروا بذلك * وقوله تعالى ﴿ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك﴾ يعنى فى حكم الملك وقضائه لانه كان فى حكم الملك ان السارق يضرب ويغرم ضعفى قيمة المسروق يعنى فى حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس أخيه عنده فى حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف ما دبره حتى وجد السبيل الى ذلك ﴿الا أن يشاء الله﴾ يعنى أن ذلك الامر كان بمشيئة الله وتدبيره لان ذلك كله كان الهاما من الله ليوسف واخوته حتى جرى الامر على وفق المراد ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعنى بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على اخوته وفى هذه الآية دلالة على أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على اخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب فى الامور كلها ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهى العلم الى الله تعالى فالله فوق كل عالم لانه هو الغنى بعلمه عن التعليم وفى الآية دليل على ان اخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانبارى يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه فى الغلبة لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه * قوله تعالى ﴿قالوا﴾ يعنى اخوة يوسف ﴿ان يسرق﴾ يعنى بنيامين الصواع ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنى يوسف ظاهر الآية يقتضى ان اخوة يوسف قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب منه فان أخاه

دخل كنيسة واخذ تمثالا صغيرا من الذهب ﴿ فاسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ﴾ اكنها ولم يظهرها لهم والضمير للاجابة أو المقالة أو نسبة السرقة اليه وقيل انها كناية بشريطة التفسير ويفسرها قوله ﴿ قال انتم شر مكانا ﴾ فانه بدل من اسرها والمعنى قال فى نفسه انتم شر مكانا أى منزلة فى السرقة لسرقتكم اخاكم يوسف أو فى سوء الصنيع مما كنتم عليه وتأنيثها باعتبار الكلمة او الجملة وفيه نظر اذ المفسر بالجملة لا يكون الا ضمير الشان ﴿ والله اعلم بما تصفون ﴾ وهو يعلم ان الامر ليس كما تصفون ﴿ قالوا يا أيها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا ﴾

الذى هلك كان سارقا أيضا وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كانا على هذه الطريقة وهذه السيرة لانهما من أم أخرى غير أمنا واختلفوا فى السرقة التى نسبوها الى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد بن جبير وقتادة كان لجده أبى أمه صنم وكان يعبده فاخذه يوسف سرا وكسره وألقاه فى الطريق لئلا يعبده وقال مجاهد ان يوسف جاءه سائل يوما فاخذ بيضة من البيت فناولها له وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذى كان فى بيت يعقوب فاعطاها سائلا وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء وذكر محمد بن اسحق ان يوسف كان عند عمته ابنة اسحق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته وأحبته حبا شديدا فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فاحبه فقال لاخته يا أختاه سلمى الى يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال لها والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندى أياما أنظر اليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فعمدت الى منطقة كانت لاسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد اسحق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة اسحق ففتشوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف فقالت انه لسلم لى يعنى يوسف فقال يعقوب ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فامسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال اخوة يوسف ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال ابن الانبارى وليس فى هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب ﴿ فاسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ﴾ فى هاء الكناية ثلاثة أقوال أحدها ان الضمير يرجع الى الكلمة التى بعدها وهى قوله تعالى ﴿ قال ﴾ يعنى يوسف ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ روى هذا المعنى العوفى عن ابن عباس والثانى ان الضمير يرجع الى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبى صالح عن ابن عباس فعلى هذا القول يكون المعنى فاسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه ولم يجبهم عليها والثالث ان الضمير يرجع الى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فاسر يوسف الاحتجاج عليهم فى ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا يعنى منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لانه لم يكن من يوسف سرقة فى الحقيقة وخيانتكم حقيقة ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ يعنى بحقيقة ما تقولون * قوله عز وجل ﴿ قالوا ﴾ يعنى اخوة يوسف ﴿ يا أيها العزيز ﴾ يخاطبون بذلك الملك ﴿ ان له أبا شيخا كبيرا ﴾ قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف

وكانت لاتصبر عنه فلما شب أراد يعقوب ان ينزعه منها فعمدت الى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة اسحق فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم افعل به ما شئت منه فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت وروى انهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس اخوته رؤسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء متى اخذت هذا الصاع فقال بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء ذهبتم باخى فاهلكتموه ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم (فأسرها) أى مقالتهم انه سرق كانه لم يسمعها (يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا) تمييز أى أنتم شر منزلة فى السرق لانكم سرقتم اخاكم يوسف من أبيه (والله أعلم بما تصفون) تقولون أو تكذبون (قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا) فى السن أو فى القدر

صنما (فاسرها يوسف) جواب هذه الكلمة (فى نفسه ولم يبدها لهم) جوابها (قال) فى نفسه (انتم شر مكانا) صنيعا من يوسف (والله أعلم بما تصفون) تقولون من أمر يوسف (قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا)

فى السن أو القدر ذكروا له حاله استعطافا له عليه ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ بدله فان اباه ثكلان على اخيه الهالك مستأنس به ﴿ انا نراك من المحسنين ﴾ الينا فاتمم احسانك أو من المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك ﴿ قال معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ فان اخذ غيره ظلم على فتواكم فلو اخذنا احدكم مكانه ﴿ انا اذا لظالمون ﴾ فى مذهبكم هذا أو ان مراده ان الله اذن ان آخذ من وجدنا الصاع فى رحله لمصلحته

عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه الى أذنه ثم قال ان صواعى هذا يخبرنى انكم اثنا عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم باخ لكم من ابيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله فى رحلى فنقره ثم قال ان صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبى وقد رؤيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة وأشدهم وقيل كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب وقيل انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفونى أنتم الاسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفونى أنتم الملك وأنا أكفيكم الاسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا أو لاصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل الا وضعت ولدها وقامت كل شعرة فى جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب هذا فمسه أو خذ بيده فاتى له فلما مسه سكن غضبه فقال لاخوته من مسنى منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل ان هذا بذر من بذر يعقوب وقيل انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فوكزه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال أنتم يامعشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا أن لا سبيل الى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا يعنى فى السن ويحتمل أن يكون كبيرا فى القدر لانه نبى من أولاد الانبياء ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ يعنى بدلا عنه لانه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك ﴿ انا نراك من المحسنين ﴾ يعنى فى أفعالك كلها وقيل من المحسنين الينا فى توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة الينا وقيل ان رددت بنيامين الينا وأخذت أحدنا مكانه كنت من المحسنين ﴿ قال معاذ الله ﴾ يعنى قال يوسف أعوذ بالله معاذا ﴿ أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ لم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لانه يعلم ان أخاه ليس بسارق ﴿ انا اذا لظالمون ﴾ يعنى ان أخذنا بريئا بذنب غيره * فان قلت كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذه الاعمال بابيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه ما فيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة ان يزوو على اخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من الايذاء

(فخذ أحدنا مكانه) بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد فان أباه يتسلى به عن أخيه المفقود (انا نراك من المحسنين) الينا فاتمم احسانك أو من عادتك الاحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها (قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) أى نعوذ بالله معاذا من أن نأخذ فاضيف المصدر الى المفعول به وحذف من (انا اذا لظالمون) اذا جواب لهم وجزاء لان المعنى ان أخذنا بدله ظلمنا وهذا لانه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع فى رحله واستعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلما فى مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم

يفرح به ان رددناه (فخذ أحدنا) رهنا (مكانه انا نراك) ان فعلت ذلك (من المحسنين) الينا (قال) لهم يوسف (معاذ الله) اعوذ بالله (ان نأخذ) بالسرقة (الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون) بحبس من لم نجد متاعنا عنده

(لهم)

أنه ظلم (فلما استيأسوا) يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما فى استعصم (منه) من يوسف واجابته اياهم (خلصوا) انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نجيا) ذوى نجوى أو فوجا نجيا أى

ورضاه عليه فلو اخذت غيره كنت ظالما ﴿فلما استيأسوا منه﴾ يئسوا من يوسف واجابته اياهم وزيادة السين والتاء للمبالغة وعن البزى استايسوا بالالف وفتح الياء من غير همزة واذا وقف حمزة القى حركة الهمزة على الياء على اصله ﴿خلصوا﴾ انفردوا واعتزلوا ﴿نجيا﴾ متناجين وانما وحده لانه مصدر أو بزنته كما قيل هم صديق وجمعه انجية كندى واندية ﴿قال كبيرهم﴾ فى السن وهو روبيل أو فى الرأى وهو شمعون وقيل يهوذا ﴿ألم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله﴾ عهدا وثيقا وانما جعل حلفهم بالله موثقا منه لانه باذن منه وتأكيد من جهته ﴿ومن قبل﴾ ومن قبل هذا ﴿ما فرطتم فى يوسف﴾ قصرتم فى شأنه وما مزيدة ويجوز ان تكون مصدرية فى موضع النصب بالعطف على مفعول تعلموا ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف أو على اسم ان وخبره فى يوسف او من قبل أو الرفع بالابتداء والخبر من قبل وفيه نظر لان قبل اذا كان خبرا أو صلة لا يقطع عن الاضافة حتى لا ينقص وان تكون موصولة أى ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه فى حقه من الخيانة ومحله ما تقدم ﴿فلن ابرح الارض﴾ فلن افارق ارض مصر ﴿حتى يأذن لى ابى﴾ فى الرجوع ﴿أو يحكم الله لى﴾ أو يقضى الله لى بالخروج

لهم فكيف يليق به هذا كله * قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها وأصحها أنه انما فعل ذلك بامر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى اسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف فى خلقه بما يشاء وهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب فى طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم باحوال عباده * قوله عز وجل ﴿فلما استيأسوا منه﴾ يعنى أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه وقيل أيسوا من أخيهم أن يرد عليهم وقال أبو عبيدة استيأسوا أى استيقنوا ان الاخ لا يرد اليهم ﴿خلصوا نجيا﴾ يعنى خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم ﴿قال كبيرهم﴾ يعنى فى العقل والعلم لا فى السن قال ابن عباس الكبير هو يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرئاسة على اخوته وقال قتادة والسدى والضحاك هو روبيل وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فى يوسف لانه نهاهم عن قتله ﴿ألم تعلموا أن أباكم﴾ يعنى يعقوب ﴿قد أخذ عليكم موثقا﴾ يعنى عهدا ﴿من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف﴾ يعنى قصرتم فى أمر يوسف حتى ضيعتموه ﴿فلن أبرح الارض﴾ يعنى الارض التى أنا فيها وهى أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة ﴿حتى يأذن لى أبى﴾ يعنى فى الخروج من أرض مصر فيدعونى اليه ﴿أو يحكم الله لى﴾ برد أخى

مناجيا المناجاة بعضهم بعضا أو تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وافاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى وحقيقته فالنجى يكون بمعنى المناجى كالسمير بمعنى المسامر وبمعنى المصدر الذى هو التناجى وكان تناجيهم فى تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون وماذا يقولون لابيهم فى شان أخيهم (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل أو فى العقل والرأى وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) ما صلة أى ومن قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم أو مصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم فى يوسف (فلن أبرح الارض) فلن أفارق أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) فى الانصراف اليه (أو يحكم الله لى)

(فلما استيأسوا منه) ايسوا منه (خلصوا نجيا) خلوا نجيا للمناجاة فيما بينهم (قال كبيرهم) أفضلهم فى العقل (قا و خا ٥٦ لث) وهو يهوذا (ألم تعلموا) يا اخوتاه (ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) لتردنه على (ومن قبل) من قبل هذا الغلام (ما فرطتم) ما تركتم عهده وميثاقه (فى يوسف فلن ابرح الارض) أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) بالرجوع ويقال يأذن لى أبى حتى اناجزهم القتال (أو يحكم الله لى) فى رد أخى

منها أو بخلاص اخي منهم أو بالمقاتلة معهم لتخليصه روى انهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل ايها الملك والله لتتركنا أو لاصيحن صيحة تضع منها الحوامل ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه قم الى جنبه فمسه وكان بنو يعقوب عليه السلام اذا غضب احدهم فمسه الآخر ذهب غضبه فقال روبيل من هذا ان فى هذا البلد لنورا من نور يعقوب ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لان حكمه لايكون الا بالحق ﴿ ارجعوا الى ابيكم فقولوا ياابانا ان ابنك سرق ﴾ على ماشاهدناه من ظاهر الامر وقرئ سرق اى نسب الى السرقة ﴿ وماشهدنا ﴾ عليه ﴿ الا بما علمنا ﴾ بان رأينا ان الصواع استخرج من وعائه ﴿ وما كنا للغيب ﴾ لباطن الحال ﴿ حافظين ﴾ فلاندرى انه سرق أوسرق ودس الصاع فى رحله أوما كنا للعواقب عالمين فلم ندر حين اعطيناك الموثق انه

على أو بخروجى معكم وترك أخى أو يحكم الله لى بالسيف فاقاتلهم حتى أسترد أخى ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لانه يحكم بالحق والعدل والانصاف والمراد من هذا الكلام الالتجاء الى الله تعالى فى اقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ ارجعوا الى أبيكم ﴾ يعنى يقول الاخ الكبير الذى عزم على الاقامة بمصر لاخوته الباقين ارجعوا الى أبيكم يعقوب ﴿ فقولوا ﴾ له ﴿ ياأبانا ان ابنك سرق ﴾ انما قالوا هذه المقالة ونسبوه الى السرقة لانهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم أنه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة فى ظاهر الامر لافى حقيقة الحال ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم ﴿ وماشهدنا الا بما علمنا ﴾ يعنى ولم نقل ذلك الابعد أن رأينا اخراج الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة فى عمرنا على شئ الا بما علمناه وهذه ليست بشهادة انما هو خبر عن صنيع ابنك أنه سرق بزعمهم فيكون المعنى ان ابنك سرق فى زعم الملك وأصحابه لاأنا نشهد عليه بالسرقة وقرأ ابن عباس والضحاك سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها أى نسب الى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لاتحتاج الى تأويل ومعناه ان القوم نسبوه الى السرقة الا أن هذه القراءة ليست مشهورة فلاتقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة هى الاولى وقوله وماشهدنا الا بما علمنا يعنى وماقلنا هذا الا بما علمنا فانا رأينا اخراج الصواع من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة فى عمرنا على شئ الا بما علمناه وليست هذه شهادة وانما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم وقيل قال لهم يعقوب هب أنه سرق فما يدرى هذا الرجل ان السارق يؤخذ بسرقته الابقولكم قالوا ماشهدنا عنده ان السارق يسترق الا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الانبياء قبله ويعقوب وبنيه وأورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب اخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك وأجيب عنه بانه يحتمل أن يكون ذلك الحكم كان مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا أنكر عليهم اعلام الملك بهذا الحكم لظنه أنه كافر

بالخروج منها أو بالموت أو بقتالهم (وهو خير الحاكمين) لانه لايحكم الا بالعدل (ارجعوا الى أبيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق) وقرئ سرق أى نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه بالسرقة (الا بما علمنا) من سرقته وتيقنا اذ الصواع استخرج

(وهو خير) أفضل (الحاكمين) فى رده الى ثم قال لهم يهوذا (ارجعوا) ياأخوتى (الى أبيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق) صواع الملك اناء من ذهب ويقال أخذ بالسرقة ان قرأت بضم السين وخفض الراء بالتشديد (وماشهدنا الا بما علمنا) رأينا ان السرقة أخرجت من رحله

من وعائه (وما كنا للغيب حافظين) وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق (واسئل القرية التى كنا فيها) يعنى مصر اى ارسل الى أهلها فاسألهم عن كنه القصة (والعير التى أقبلنا فيها) وأصحاب العير وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام (وانا الصادقون) فى قولنا فرجعوا الى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أردتموه والا فمن أدرى ذلك الرجل ان السارق يسترق لولا فتواكم وتعليمكم (فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) بيوسف وأخيه وكبيرهم (انه هو العليم) بحالى فى الحزن والاسف (الحكيم) الذى لم يبتلنى بذلك الا لحكمة (وتولى عنهم) واعرض عنهم

سيسرق أو انك تصاب به كما اصبت بيوسف ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾ يعنون مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادى فيها والمعنى ارسل الى اهلها واسألهم عن القصة ﴿ والعير التى اقبلنا فيها ﴾ واصحاب العير التى توجهنا فيهم وكنا معهم ﴿ وانا الصادقون ﴾ تأكيد فى محل القسم ﴿ قال بل سولت ﴾ أى فلما رجعوا الى ابيهم وقالوا له ما قال لهم اخوهم قال بل سولت أى زينت وسهلت ﴿ لكم انفسكم امرا ﴾ اردتموه فقررتموه والا فما ادرى الملك ان السارق يؤخذ بسرقته ﴿ فصبر جميل ﴾ أى فامرى صبر جميل أو فصبر جميل اجمل ﴿ عسى الله ان يأتينى بهم جميعا ﴾ بيوسف وبنيامين واخيهما الذى توقف بمصر ﴿ انه هو العليم ﴾ بحالى وحالهم ﴿ الحكيم ﴾ فى تدبيره ﴿ وتولى عنهم ﴾

﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ قال مجاهد وقتادة يعنى ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير أمرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ماذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا الى حفظه منه سبيل وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه ان حقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس فى رحله ونحن لا نعلم بذلك ﴿ واسئل القرية التى كنا فيها ﴾ يعنى واسئل أهل القرية الا أنه حذف المضاف للايجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور فى كلام العرب والمراد بالقرية مصر وقال ابن عباس هى قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ﴿ والعير التى أقبلنا فيها ﴾ يعنى واسأل القافلة التى كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب ﴿ وانا لصادقون ﴾ يعنى فيما قلناه وانما أمرهم أخوهم الذى أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة فى ازالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لانهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ فيه اختصار تقديره فرجعوا الى أبيهم فاخبروه بما جرى لهم فى سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وأمرهم أن يقولوه لابيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعنى بل زينت لكم أنفسكم أمرا وهو حمل أخيكم معكم الى مصر لطلب نفع عاجل فآل امركم الى ما آل وقيل معناه بل خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق ﴿ فصبر جميل ﴾ تقدم تفسيره فى أول السورة * وقوله ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ﴾ يعنى بيوسف وبنيامين والاخ الثالث الذى أقام بمصر وانما قال يعقوب هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لانه اذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج وقيل ان يعقوب علم بما يجرى عليه وعلى بنيه من أول الامر وهو رؤيا يوسف وقوله يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا فلما تناهى الامر قال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ﴿ انه هو العليم ﴾ يعنى بحزنى ووجدى عليهم ﴿ الحكيم ﴾ فيما يدبره ويقضيه * قوله تعالى ﴿ وتولى عنهم ﴾ يعنى وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه

(وما كنا للغيب حافظين) يقول لو علمنا الغيب ماذهبنا به ويقال ما كنا له بالليل حافظين (واسئل القرية) أهل القرية (التى كنا فيها) وهى قرية من قرى مصر (والعير) أهل العير (التى أقبلنا فيها) جئنا معهم وكان صحبهم قوم من كنعان (وانا الصادقون) فيما قلنا لك فقالوا ليعقوب هذا القول (قال) يعقوب لهم (بل سولت) زينت (لكم أنفسكم أمرا) ففعلتموه (فصبر جميل) فعلى صبر جميل بلا جزع (عسى الله) لعل الله (أن يأتينى بهم جميعا) بيوسف وأخيه من أبيه وأمه بنيامين ويهوذا (انه هو العليم) بمكانهم (الحكيم) بردهم على (وتولى عنهم) خرج

كراهة لما جاؤا به (وقال يا أسفا على يوسف) أضاف الاسف وهو أشد الحزن والحسرة الى نفسه والالف بدل من ياء الاضافة والتجانس بين الاسف ويوسف غير متكلف ونحوه اثاقلتم الى الارض أرضيتم

وهم ينهون عنه وينأون عنه ويحسبون أنهم يحسنون صنعا من سبأ بنبأ وانما تاسف على يوسف دون أخيه وكبيرهم لتمادى اسفه على يوسف دون الآخرين وفيه دليل على ان الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضا عنده طريا (وابيضت عيناه) اذ اكثر الاستعبار ومحقت العبرة سواد العين وقلبته الى بياض كدر وقيل قد عمى بصره وقيل كان قد يدرك ادراكا ضعيفا (من الحزن) لان الحزن سبب البكاء الذى حدث منه البياض فكانه حدث من الحزن قيل ماجفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض أكرم على الله من يعقوب ويجوز للنبي عليه السلام أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لان الانسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الحزن فلذلك حمد صبره ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يجزع والعين تدمع

فاعرض عنهم كراهة لما صادف منهم ﴿وقال يا أسفا على يوسف﴾ أى يا اسفى تعال فهذا اوانك والاسف اشد الحزن والحسرة والالف بدل من ياء المتكلم وانما تأسف على يوسف دون اخويه والحادث رزؤهما لان رزأه كان قاعدة المصيبات وكان غضا آخذا بمجامع قلبه ولانه كان واثقا بحياتهما دون حياته وفى الحديث لم تعط امة من الامم انا لله وانا اليه راجعون عند المصيبة الا امة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا ترى الى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين اصابه ما اصابه لم يسترجع وقال يا اسفا ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ لكثرة بكائه من الحزن كان العبرة محقت سوادهما وقيل ضعف بصره وقيل عمى وقرئ من الحزن وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع ولعل امثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط

واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم ﴿وقال يا أسفا على يوسف﴾ الاسف أشد الحزن وانما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لان الحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

يقول أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

فاجابهم بان الحزن يجدد الحزن وقيل ان يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لان يوسف كان أصل المصيبة وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام فى قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية واظهار جزع فلا يليق بعلو منصبه ذلك وليس الامر كما قال هذا الجاهل المعترض لان يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا الى الله لا منه فقول يا أسفا على يوسف معناه يا رب ارحم أسفى على يوسف وقد ذكر ابن الانبارى عن بعض اللغويين انه قال نداء يعقوب بالاسف فى اللفظ من المجاز يعنى به غير المظهر فى اللفظ وتلخيصه يا الهى ارحم أسفى أو أنت رائى أسفى أو هذا أسفى فنادى الاسف فى اللفظ والمنادى سواه فى المعنى ولا مأثم اذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم لانه لم يشك الا الى ربه عز وجل فلما كان قوله يا أسفا على يوسف شكوى الى ربه كان غير ملوم فى شكواه وقيل ان يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال يا أسفا على يوسف أى اشكو الى الله شدة أسفى على يوسف ولم يشكه الى أحد من الخلق بدليل قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أى عمى من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيأ ست سنين وقيل انه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك ان الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كانها بيضاء من ذلك الماء الخارج

من بينهم (وقال يا أسفا) يا حزنا (على يوسف وابيضت عيناه من الحزن) من البكاء

(من العين)

الرب وانا عليك يا ابرهيم لمحزونون ﴿ فهو كظيم ﴾ مملوء من الغيظ على اولاده ممسك له فى قلبه لا يظهره فعيل بمعنى مفعول كقوله وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين من كظم الغيظ اذا اجترعه واصله كظم البعير جرته اذا ردها فى جوفه ﴿ قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف ﴾ أى لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعا عليه فحذف لا كما فى قوله

فقلت يمين الله ابرح قاعدا

لانه لا يلتبس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات كان على النفى ﴿ حتى تكون حرضا ﴾ مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض الذى اذابه هم أو مرض وهو فى الاصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يجمع والنعت بالكسر كدنف ودنف * وقد قرئ به وبضمتين كجنب

من الحزن ﴿ فهو كظيم ﴾ أى مكظوم وهو الممتلئ من الحزن الممسك عليه لا يبثه قال قتادة وهو الذى يردد حزنه فى جوفه ولم يقل الا خيرا وقال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر أبيه الى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه وقال ثابت البنانى ووهب بن منبه والسدى ان جبريل عليه الصلاة والسلام دخل على يوسف وهو فى السجن فقال هل تعرفنى أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال انى رسول رب العالمين وأنا الروح الامين فقال يوسف فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يا يوسف ان الله يطهر الارض بطهر النبيين وان الارض التى يدخلونها هى اطهر الارضين وان الله قد طهر بك الارض والسجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لى باسم الصديقين وتعدنى من الصالحين المخلصين الطاهرين وقد أدخلت مدخل المذنبين قال انه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك فى معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين والحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الامين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلاء قال فماله من الاجر يا جبريل قال أجر مائة شهيد قال افترانى لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ما أبالى مما لقيت ان رأيته * قوله عز وجل ﴿ قالوا ﴾ يعنى اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام لابيهم ﴿ تالله تفتؤا تذكر يوسف ﴾ يعنى لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقال مافتئ يفعل كذا أى مازال ولا محذوفة فى جواب القسم لان موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرئ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح قاعدا * وقوله ﴿ حتى تكون حرضا ﴾ قال ابن عباس يعنى دنفا وقال مجاهد الحرض مادون الموت يعنى قريبا من الموت وقال ابن اسحق يعنى فاسدا لا عقل له والحرض الذى فسد جسمه وعقله وقيل ذائبا من الهم واصل الحرض الفساد فى الجسم والعقل من الحزن أو الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل

ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا براهيم لمحزونون وانما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله اذ نادى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه (قالوا تالله تفتؤا) أى لا تفتأ فحذف حرف النفى لانه لا يلتبس اذ لو كان اثباتا لم يكن بد من اللام والنون ومعنى لا تفتأ لا تزال (تذكر يوسف حتى تكون حرضا)

(فهو كظيم) مغموم يتردد حزنه فى جوفه (قالوا) ولده وولد ولده (تالله) والله (تفتؤا) لا تزال (تذكر يوسف حتى تكون حرضا) حتى تكون دنفا

﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ من الميتين ﴿ قال انما أشكو بثي وحزني ﴾ همي الذي لا اقدر الصبر عليه من البث بمعنى النشر ﴿ الى الله ﴾ لا الى أحد منكم ومن غيركم فخلوني وشكايتي

يعني لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والاسف ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ يعني من الاموات * فان قلت كيف حلفوا على شئ لم يعلموا حقيقته قطعا * قلت انهم بنوا الامر على الاغلب الظاهر أي نقوله ظنا منا ان الامر يصير الى ذلك ﴿ قال ﴾ يعني يعقوب عند ما رأى قولهم له وغلاظتهم عليه ﴿ انما اشكو بثي وحزني الى الله ﴾ اصل البث اثارة الشئ وتفريقه وبث النفس ماانطوت عليه من الغم والشر قال ابن قتيبة البث أشد الحزن وذلك لان الانسان اذا ستر الحزن وكتمه كان هما فاذا ذكره لغيره كان بثا فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى انما أشكو حزني العظيم وحزني القليل الى الله لا الى كم قال ابن الجوزي روى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يا يعقوب ماالذي أذهب بصرك وماالذي قوس ظهرك قال أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحي ان تشكو الى غيري فقال انما أشكو بثي وحزني الى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو وقيل انه دخل على يعقوب جار له فقال له يا يعقوب مالي أراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن مابلغ أبوك فقال هشمني وأفناني ماابتلاني الله به من هم يوسف فأوحى الله اليه يا يعقوب أتشكوني الى خلقي فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك اذا سئل يقول انما أشكو بثي وحزني الى الله وقيل ان الله أوحى اليه وعزتي وجلالي لا أكشف مابك حتى تدعوني فعند ذلك قال انما أشكو بثي وحزني الى الله ثم قال أي رب اما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصري وقوست ظهري فاردد علي ريحانتي أشمهما شمة قبل ان أموت ثم اصنع ماشئت فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدري لم وجدت عليك لانكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيأ وان أحب عبادي الى الانبياء ثم المساكين اصنع طعاما وادع اليه المساكين فصنع طعاما ثم قال من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك اذا تغدى أمر مناديا ينادي من أراد أن يتغدى فليأت آل يعقوب واذا أفطر أمر أن ينادي من أراد أن يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى الى يعقوب أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال لا يارب قال لانك شويت عناقا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل ان سبب ابتلاء يعقوب انه ذبح عجلا بين يدي أمه وهي تخور فلم يرحمها * فان قلت هل في هذه الروايات مايقدح في عصمة الانبياء * قلت لا وانما عوقب يعقوب بهذا لان حسنات الابرار سيآت المقربين وانما يطلب من الانبياء من

مشفيا على الهلاك مرضا (أو تكون من الهالكين قال انما أشكو بثي وحزني الى الله) البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أي ينشره أي لا أشكو الى أحد منكم ومن غيركم انما أشكو الى ربي داعيا له وملتجئا اليه فخلوني وشكايتي وروي انه أوحى الى يعقوب انما وجدت عليكم لانكم ذبحتم شاة فوقف ببابكم مسكين فلم تطعموه وان أحب خلقي الى الانبياء ثم المساكين فاصنع طعاما وادع عليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى

(أو تكون من الهالكين) بالموت (قال) يعقوب (انما أشكو بثي) ادفع غمي (وحزني الى الله)

﴿وأعلم من الله﴾ من صنعه ورحمته فانه لايخيب داعيه ولايدع الملتجئ اليه أو من الله بنوع من الالهام ﴿ مالاتعلمون ﴾ من حياة يوسف قيل رأى ملك الموت في منام فسأله عنه فقال هوحي وقيل علم من رؤيا يوسف انه لايموت حتى تخر له اخوته سجدا ﴿ يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما والتحسس طلب

الاعمال على قدر منصبهم وشريف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من أهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من أنبيائه بمحنة فصبر وفوض أمره الى الله فابراهيم عليه الصلاة والسلام أتي في النار فصبر ولم يشك الى أحد واسماعيل ابتلي بالذبح فصبر وفوض امره الى الله واسحق ابتلي بالعمى فصبر ولم يشك الى احد ويعقوب ابتلي بفقد ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمي بعد ذلك أو ضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك الى أحد شيأ مما نزل به وانما كانت شكايته الى الله عزوجل بدليل قوله انما أشكو بثي وحزني الى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم و الثناء الجميل في الدنيا والدرجات العلا في الآخرة مع من سلف من ابويه ابراهيم واسحق عليهما الصلاة والسلام وأما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذما ولاعقوبة لان ذلك ليس الى اختيار الانسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل ان النبي صلى الله عليه وسلم بكى على ولده ابراهيم عند موته وقال ان العين لتدمع وان القلب ليحزن ومانقول الا مايرضى ربنا فهذا القدر لايقدر الانسان على دفعه عن نفسه فصار مباحا لاحرج فيه على احد من الناس ❁ وقوله ﴿وأعلم من الله مالاتعلمون﴾ يعني أنه تعالى من رحمته واحسانه يأتي بالفرج من حيث لاأحتسب وفيه اشارة الى انه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وروى ان ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب ايها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابني يوسف في الارواح فقال لافطابت نفس يعقوب وطمع في رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله مالاتعلمون وقيل معناه وأعلم ان رؤيا يوسف حق وصدق واني وأنتم سنسجد له وقال السدي لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله في جميع أقواله وافعاله أحست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعني يعقوب ﴿يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل ان التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الانباري يقال تحسست عن فلان ولايقال من فلان وقال هنا من يوسف وأخيه لانه أقيم من مقام عن قال ويجوز أن يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف وأخيه روى عن عبدالله بن يزيد عن أبي فروة ان يعقوب كتب كتابا الى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى ملك مصر أما بعد فانا أهل بيت وكل بنا البلاء أما جدي ابراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وأما أبي فشدت

عميت (وأعلم من الله مالا تعلمون) و أعلم من رحمته انه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب و روى أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا والله هو حي فاطلبه وعلمه هذا الدعاء ياذا المعروف الدائم الذي لاينقطع معروفه أبدا ولا يحصيه غيرك فرج عني (يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما وهو تفعل من الاحساس

وأعلم من الله مالاتعلمون) يقول أعلم ان رؤيا يوسف صادقة وانا لنسجد له ويقال اعلم من رحمة الله وجميل نظره وصنعه مالاتعلمون ويقال أعلم ان يوسف حي لم يمت لانه دخل عليه ملك الموت فقال له هل قبضت روح ابني يوسف فيمن قبضت قال لافمن ذلك قال (يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه)فاستخبروا واطلبوا خبر يوسف وأخيه بنيامين

الاحساس ﴿ ولاتيأسوا من روح الله ﴾ ولاتقنطوا من فرجه وتنفيسه *وقرئ من روح الله أي من رحمته التي يحيي بها العباد ﴿ انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ﴾ بالله وصفاته فان العارف المؤمن لايقنط من رحمته في شئ من الاحوال ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز ﴾ بعدما رجعوا الى مصر رجعة ثانية ﴿ مسنا واهلنا الضر ﴾ شدة الجوع ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ رديئة أو قليلة تردو تدفع رغبة عنها من ازجيته اذا دفعته ومنه تزجية الزمان قيل كانت دراهم زيوفا وقيل صوفا وسمنا وقيل الصنوبر والحبة الخضراء وقيل الاقط وسويق المقل ﴿ فاوف لنا الكيل ﴾ فاتم لنا الكيل

يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وانك حبسته وزعمت أنه سرق وانا أهل بيت لانسرق ولانلد سارقا فان رددته الى والادعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لاخوته على ماسنذكره ان شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴿ ولاتيأسوا ﴾ أى ولاتقنطوا ﴿ من روح الله ﴾ يعنى من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله ﴿ انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ﴾ يعنى ان المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيرا ويحمد عند الرخاء فينال به خيرا والكافر بضد ذلك * قوله تعالى ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعنى على يوسف ﴿ قالوا ياأيها العزيز ﴾ يعنون ياأيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ أى الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ اى ببضاعة رديئة كاسدة لاتنفق فى ثمن الطعام الا بتجوز من البائع وأصل الازجاء فى اللغة الدفع قليلا قليلا والتزجية دفع الشئ لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر

وحاجة غير مزجاة من الحاج

يعنى هى قليلة يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعتناء بها وانما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة اما لنقصانها أو لرداءتها أو لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذه البضاعة المزجاة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا وقيل كانت حلق الغرائر والحبال وقيل كانت من متاع الاعراب من الصوف والاقط وقال الكلبى ومقاتل كانت الحبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الادم والنعال وقال الزجاج سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم فلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها وقيل انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ يعنى اعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافى والمعنى انا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام

ان الامر والشأن (لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لان من آمن يعلم أنه متقلب فى رحمة الله ونعمته وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه فى نعمته فييأس من رحمته فخرجوا من عند أبيهم راجعين الى مصر (فلما دخلوا عليه) على يوسف (قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) الهزال من الشدة والجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة)مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته اذا دفعته وطردته قيل كانت دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وقيل كانت صوفا وسمنا (فأوف لنا الكيل)

(ولاتيأسوا من روح الله) من رحمة الله (انه لاييأس من روح الله) من رحمة الله (الا القوم الكافرون) بالله وبرحمته (فلما دخلوا عليه) على يوسف فى المرة الثالثة (قالوا ياأيها العزيز مسنا) اصابنا (واهلنا الضر) الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) بدراهم لاتنفق فى الطعام وتنفق فيما بين الناس ويقال بمتاع الجبل كالصنوبر و الحبة الخضراء ويقال بمتاع العرب مثل الاقط والصوف والجبن والسمن (فأوف لنا الكيل) يقول وفر لنا الكيل كما توفر بالدراهم (الناقص)

﴿ وتصدق علينا ﴾ برد اخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على مايساويها واختلف فى ان حرمة الصدقة تعم الانبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ ان الله يجزى المتصدقين ﴾ احسن الجزاء والتصدق التفضل مطلقا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى القصر هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته لكنه اختص عرفا بما يبتغى به ثواب من الله تعالى ﴿ قال هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه ﴾ أى هل علمتم قبحه فتبتم عنه وفعلهم باخيه افراده عن يوسف واذلاله حتى كان لايستطيع

الناقص والجيد مقام الردئ ﴿ وتصدق علينا ﴾ يعنى وتفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والردئ ولاتنقصنا هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الانبارى وكان الذى يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالا للانبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة ان الصدقة كانت حلالا للانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم واستدل بهذه الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا ان حال الانبياء كلهم واحد فى تحريم الصدقة عليهم لانهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والاخذ منهم والصدقة أوساخ الناس فلاتحل لهم لانهم مستغنون بالله عمن سواه وأجيب عن قوله وتصدق علينا انهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وايفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لانفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل فى دعائه اللهم تصدق علينا لان الصدقة لاتكون الا ممن يبتغى الثواب وروى أن الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق على فقال ان الله لايتصدق انما يتصدق من يبتغى الثواب قل اللهم اعطنى وتفضل على وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعنى برد أخينا علينا ﴿ ان الله يجزى المتصدقين ﴾ يعنى بالثواب الجزيل وقال الضحاك لم يقولوا ان الله يجزيك لانهم لم يعلموا أنه مؤمن ﴿ قال ﴾ يعنى قال يوسف لاخوته ﴿ هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه ﴾ وقد اختلفوا فى السبب الذى من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول فقال ابن اسحق ذكر لى أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته رقة على اخوته فباح بالذى كان يكتم وقيل انه أخرج لهم نسخة الكتاب الذى كتبوه ببيعه من مالك وفى آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا ياأيها الملك انه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال انكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد منا فكيف اذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا ان كنت فاعلا ذلك فابعث بأمتعتنا الى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول وقيل ان يوسف لما قرأ كتاب أبيه اليه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه وهذا الاستفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ماارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدرى من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الامر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى مافعلتم بيوسف

الذى هو حقنا (وتصدق علينا) وتفضل علينا بالمسامحة والاغماض عن رداءة البضاعة أوزدنا على حقنا أوهب لنا أخانا (ان الله يجزى المتصدقين) ولما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا اليه وطلبوا منه أن يتصدق عليهم ارفضت عيناه ولم يتمالك أن عرفهم نفسه حيث قال (قال هل علمتم مافعلتم بيوسف)أى هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف (وأخيه

الجياد (وتصدق علينا) مابين الثمنين ويقال بين الكيلين (ان الله يجزى المتصدقين) فى الدنيا والآخرة (قال) لهم يوسف (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه

ان يكلمهم الا بعجز وذلة ﴿ اذ أنتم جاهلون ﴾ قبحه فلذلك اقدمتم عليه أو عاقبته وانما قال ذلك تنصيحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا وقيل اعطوه كتاب يعقوب فى تخليص بنيامين وذكروا له ماهو فيه من الحزن على فقد يوسف واخيه فقال لهم ذلك وانما جهلهم لان فعلهم كان فعل الجهال أو لانهم كانوا حينئذ صبيانا طياشين ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ استفهام تقرير ولذلك حقق بان ودخول اللام عليه وقراءة ابن كثير على الايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها ﴿ قال انا يوسف وهذا اخى ﴾ من ابى وامى ذكره تعريفا لنفسه به وتفخيما لشأنه وادخالا له فى قوله ﴿ قد من الله علينا ﴾ أى بالسلامة والكرامة ﴿ انه من يتق ﴾ أى يتق الله ﴿ ويصبر ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصى ﴿ فان الله لا يضيع اجر المحسنين ﴾ وضع المحسنين موضع

وأخيه من تسليم الله اياهما من المكروه * واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * فان قلت الذى فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذى فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فانهم لم يسعوا فى حبسه ولا أرادوا ذلك * قلت انهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كما ذكر يوسف وقيل انهم قالوا له لما اتهم بأخذ الصواع ما رأينا منكم يابنى رحيل خيرا ﴿ اذ أنتم جاهلون ﴾ هذا يجرى مجرى العذر لهم يعنى انكم انما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤول اليه أمر يوسف * قوله عز وجل ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ قرئ على سبيل الاستفهام وحجة هذه القراءة قال ابن عباس لما قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاما أئنك لأنت يوسف وقرئ على الخبر وحجته ما قال ابن عباس أيضا فى رواية أخرى عنه أن اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له فى قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولاسحق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا أنت يوسف وقيل قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى ﴿ قال أنا يوسف ﴾ قال بعض العلماء انما أظهر الاسم فى قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيما لما نزل به من ظلم اخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذى ظلمتمونى وقصدتم قتلى بان ألقيتمونى فى الجب ثم بعتمونى بأبخس الأثمان ثم صرت الى ما ترون فكان تحت ظهور الاسم هذه المعانى كلها ولهذا قال ﴿ وهذا أخى ﴾ وهم يعرفونه لانه قصد به أيضا وهذا أخى المظلوم كما ظلمتمونى ثم صرت أنا وهو الى ما ترون وهو قوله ﴿ قد من الله علينا ﴾ بان جمع بيننا وقيل من علينا بكل عز وخير فى الدنيا والآخرة وقيل من علينا بالسلامة فى ديننا ودنيانا ﴿ انه من يتق ويصبر ﴾ يعنى يتق الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن وقيل يتق الله باداء فرائضه ويصبر عما حرم الله ﴿ فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يعنى أجر من كان هذا حاله

اذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه أو اذ أنتم فى حد السفه والطيش وفعلهم بأخيه تعريضهم اياه للغم بافراده عن أخيه لابيه وأمه وايذاؤهم له بانواع الاذى (قالوا أئنك) بهمزتين كوفى وشامى (لأنت يوسف) اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبر ان (قال أنا يوسف وهذا أخى) وانما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه لانه كان فى ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه (قد من الله علينا) بالالفة بعد الفرقة وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالملامة (انه من يتق) الفحشاء (ويصبر) عن المعاصى وعلى الطاعة (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين وقيل من يتق مولاه ويصبر على بلواه لا يضيع أجره فى دنياه وعقباه

اذ أنتم جاهلون) شبان غافلون (قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى) من أبى وأمى (قد من الله علينا) بالصبر (انه من يتق) فى النعمة (ويصبر) فى الشدة (فان الله لا يضيع) لا يبطل (أجر) ثواب (المحسنين) بالتقوى والصبر

(قالوا)

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم والتقوى والصبر والحسن (وان كنا لخاطئين) وان شأننا وحالنا انا كنا خاطئين متعمدين للاثم لم نتق ولم نصبر لاجرم ان الله اعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك (قال لاتثريب عليكم) لاتعيير عليكم (اليوم) متعلق بالتثريب أو بيغفر والمعنى لأثربكم اليوم وهواليوم الذى هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الايام ثم ابتدأ فقال (يغفرالله لكم) فدعالهم بمغفرة ما فرط منهم يقال غفرالله لك ويغفرلك على لفظ الماضى والمضارع أواليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ما ترونى فاعلا بكم قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقدقدرت فقال أقول ماقال أخى يوسف لاتثريب عليكم اليوم وروى ان اباسفيان لماجاء ليسلم قال له العباس اذا أتيت رسول الله فاتل عليه قال لاتثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفرالله لك ولمن علمك ويروى ان اخوته لماعرفوه أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحى منك لما فرط منافيك فقال يوسف ان أهل مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرون الى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أنى من حفدة ابراهيم (وهو ارحم الراحمين) أى اذا رحمتكم وأنا الفقير القتور فما ظنكم بالغنى الغفور ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا انه عمى من كثرة

الضمير للتنبيه على ان المحسن من جمع بين التقوى والصبر ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة ﴿ وان كنا لخاطئين ﴾ والحال ان شأننا انا كنا مذنبين بمافعلنا معك ﴿ قال لاتثريب عليكم ﴾ لاتأنيب عليكم تفعيل من الثرب وهوالشحم الذى يغشى الكرش للازالة كالتجليد فاستعير للتقريع الذى يمزق العرض ويذهب ماء الوجه ﴿ اليوم ﴾ متعلق بالتثريب أو بالمقدر للجار الواقع خبرا للاتثريب والمعنى لاأثربكم اليوم الذى هو مظنته فماظنكم بسائر الايام أو بقوله ﴿ يغفر الله لكم ﴾ لانه صفح عن جريمتهم حينئذ واعترفوا بها ﴿ وهو ارحم الراحمين ﴾

﴿ قالوا ﴾ يعنى قال اخوة يوسف معتذرين اليه مماصدر منهم فى حقه ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أى اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله ايثارا أى اختارك ويستعار الاثر للفضل والايثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال أبو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل الذى أعطاها الله عزوجل له دون اخوته وقيل فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول بان اخوته كانوا أنبياء أيضا فليس له عليهم فضل فى ذلك وأجيب بان يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لان من جمعت له النبوة والرسالة كان أفضل ممن خص بالنبوة فقط ﴿ وان كنا لخاطئين ﴾ يعنى وما كنا فى صنعنا بك الا خاطئين ولهذا اختير لفظ الخاطئ على المخطئ والفرق بينهما أن يقال خطئ خطأ اذا تعمد وأخطأ اذا كان غير متعمد وقيل يجوز أن يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رؤس الآى لان خاطئين أشبه بما قبلها ﴿ قال ﴾ يعنى يوسف ﴿ لاتثريب عليكم ﴾ يعنى لاتعيير ولاتوبيخ عليكم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اذازنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولايوبخها ولايثرب أى لايعيرها بالزنا بعد اقامة الحد عليها وفى محل قوله ﴿ اليوم ﴾ قولان احدهما انه يرجع الى ماقبله فيكون التقدير لاتثريب عليكم اليوم والمعنى ان هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وأنا لاأقرعكم اليوم ولاأوبخكم ولاأثرب عليكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لاتثريب عليكم اليوم ويبتدأ بقوله ﴿ يغفر الله لكم ﴾ والقول الثانى ان اليوم متعلق بقوله يغفرالله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لاتثريب عليكم ويبتدأ باليوم يغفرالله لكم كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لاتثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفرالله لكم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ماحال

(قالوا) اخوة يوسف ليوسف (تالله) والله (لقد آثرك الله علينا) فضلك الله علينا (وان كنا) وقدكنا (لخاطئين) مسيئين بك عاصين لله (قال) لهم يوسف (لاتثريب عليكم اليوم) يقول لاأعيركم بعداليوم (يغفرالله لكم) ما كان منكم (وهو أرحم الراحمين) من الوالدين

فانه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب ومن كرم يوسف عليه السلام انهم لما عرفوه ارسلوا اليه وقالوا انك تدعونا بالبكرة والعشى الى الطعام ونحن نستحيي منك لما فرط منا فيك فقال ان اهل مصر كانوا ينظرون الى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت بكم وعظمت فى عيونهم حيث علموا انكم اخوتى وانى من حفدة ابراهيم عليه السلام ﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾ القميص الذى كان عليه وقيل المتوارث الذى كان فى التعويذ ﴿ فألقوه على وجه ابى يأت بصيرا ﴾ يرجع بصيرا أى ذا بصر ﴿ وأتونى ﴾ انتم وابى ﴿ باهلكم اجمعين ﴾ بنسائكم وذراريكم وموالكم ﴿ ولما فصلت العير ﴾ من مصر وخرجت من عمرانها ﴿ قال ابوهم ﴾ لمن حضره ﴿ انى لأجد ريح يوسف ﴾ اوجده الله ريح ماعبق بقميصه من ريحه حين اقبل به اليه يهوذا من ثمانين فرسخا ﴿ لولا ان تفندون ﴾ تنسبونى

أبى بعدى قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فأعطاهم قميصه وقال ﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾ قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة وقال مجاهد أمره جبريل أن يرسل اليه قميصه وكان ذلك القميص قميص ابراهيم وذلك انه لما جرد من ثيابه وألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فكان ذلك القميص عند ابراهيم فلما مات ورثه اسحق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها فى عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لاتفارقه فلما ألقى يوسف فى البئر عريانا أتاه جبريل وأخرج له ذلك القميص وألبسه اياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فامره أن يرسل هذا القميص الى أبيه لان فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولا سقيم الاعوفى فى الوقت فدفع ذلك القميص يوسف الى اخوته وقال اذهبوا بقميصى هذا ﴿ فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ﴾ قال المحققون ان علم يوسف ان ألقاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان بوحى الله اليه ذلك ويمكن أن يقال ان يوسف لما علم أن أباه قد عمى من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث اليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه وينشرح صدره ويفرح قلبه فمنذ ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر تمكن معرفته من جهة العقل ﴿ وقوله ﴾ ﴿ وأتونى باهلكم أجمعين ﴾ قال الكلبى كانوا نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين مابين رجل وامرأة ﴿ ولما فصلت العير ﴾ يعنى خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين الى أرض كنعان ﴿ قال أبوهم ﴾ يعنى قال يعقوب لولد ولده ﴿ انى لأجد ريح يوسف ﴾ قيل ان ريح الصبا استأذنت ربها فى أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير وقال مجاهد أصابت يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عباس من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخا وقيل هبت ريح فاحتملت ريح القميص الى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الارض من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص فعلم بذلك أنه من ريح يوسف فلذلك قال انى لاجد ريح يوسف ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأي وقال ابن

يوسف وكان من الجنة أمره جبريل أن يرسله اليه فان فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى ولاسقيم الاعوفى (فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا) يصر بصيرا تقول جاء البناء محكما أى صار أو يأت الى وهو بصير قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء وقيل حمله وهو حاف حاسرا من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (وأتونى باهلكم أجمعين) لينعموا بآثار ملكى كما اغتموا باخبار هلكى (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من قومه (انى لأجد ريح يوسف) أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام (لولا أن تفندون) التفنيد النسبة

(اذهبوا بقميصى هذا) وكان قميصه كسوة من الجنة (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) يرجع بصيرا (وأتونى باهلكم أجمعين) وكانوا نحو سبعين انسانا (ولما فصلت العير) خرجت العير من العريش وهى قرية بين مصر وكنعان (قال أبوهم) يعقوب (انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) تسفهونى وتخزونى وتكذبونى (الانبارى)

الى الفنـد وهوالحزن وانكار العقل من هرم يقال شيخ مفنـد والمعنى لولا تفنيدكم اياى لصدقتمونى (قالوا) اى اسباطه (تالله

 قديما فى افراط محبتك

الى الفندوهونقصان عقل يحدث من هرم ولذلك لايقال عجوز مفندة لان نقصان عقلها ذاتى وجواب لولا محذوف تقديره لصـدقتمونى أولقلت انه قريب ﴿ قالوا ﴾ أى الحاضرون ﴿ تالله انك لفى ضلالك القديم ﴾ لفى ذهابك عن الصواب قدما بالافراط فى محبة يوسف واكثارذكره والتوقع للقائه ﴿ فلما ان جاء البشير ﴾ يهوذا روى انه قال كما احزنته بحمل قيصه الملطخ بالدم اليه فافرحه بحمل هذا اليه ﴿ ألقاه على وجهه ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه السـلام أو يعقوب نفسه ﴿ فارتد بصيرا ﴾ عادبصيرا لما انتعش فيه من القوة ﴿ قال ألم اقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ من حياة يوسف عليه السلام وانزال الفرج وقيل انى اعلم كلام مبتدأ والمقول لا تيأسـوا من روح الله أوانى لاجد ريح يوسف ﴿ قالوا ياابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين ﴾

الانبارى أفنـد الرجل اذا خرف وفنـد اذا جهل ونسب ذلك اليه وقال الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند فيكون المعنى لولا أن تفندونى أى تنسبونى الى الخرف وقيل تسفهونى و قيل تلومونى وقيل تجهلونى وهو قول ابن عباس وقال الضحاك تهرمونى فتقولون شيخ كبير قدخرف و ذهب عقله ﴿قالوا﴾ يعنى اولاد أولاد يعقوب وأهله الذين عنده لان اولاده لصلبه كانوا غائبين عنه ﴿تالله انك لفى ضلالك القديم﴾ يعنى من ذكر يوسف ولاتنساه لانه كان عندهم ان يوسف كان قدمات وهلك ويرون ان يعقوب قدلهج بذكره فلذلك قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم يعنى من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب ﴿فلما أن جاء البشير﴾ وهو المبشر بخبر يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدى العير قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه هويهوذا قال السدى قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم الى يعقوب وأخبرته ان يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره انه حى فافرحه كما أحزنته قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج به حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا ﴿ ألقاه على وجهه ﴾ يعنى فالقى البشير قيص يوسف على وجه يعقوب ﴿ فارتد بصيرا ﴾ يعنى فرجع بصيرا بعد ما كان قدعمى وعادت اليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن ﴿قال ألم اقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ يعنى من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا وروى ان يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ماأصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال ألآن تمت النعمة ﴿قوله تعالى ﴿قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾ يعنى قال أولاد يعقوب حين وصلوا اليه واخذوا يعتذرون اليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا أى اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله ﴿ انا كنا خاطئين ﴾

ليوسف أوفى خطئك القـديم من حب يوسف وكان عندهم انه قدمات (فلما أن جاء البشير) أى يهوذا (ألقاه على وجهه) طرح البشير القميص على وجـه يعقوب أو ألقـاه يعقوب (فارتد) فرجع (بصيرا) يقال رده فارتد وارتده اذا ارتجعه (قال ألم أقل لكم) يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف أوقوله ولا تيأسوا من روح الله وقوله (انى أعلم من الله مالا تعلمون) كلام مبتدأ لم يقع عليه القول أووقع عليه والمراد قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون وروى انه سأل البشير كيف يوسف قال هو ملك مصر فقـال ماأصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال ألآن تمت النعمة (قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) أى سل الله مغفرة ماارتكبنا فى حقك وحق ابنك اناتبنا واعترفنا

فيما أقول (قالوا) ولده وولد ولده الذين كانوا عنده (تالله) والله (انك لفى ضلالك القديم) فى خطئك الاول فى ذكر يوسف (فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا بالة ميص (ألقاه على وجهه فارتد بصيرا)صار بصيرا(قال) لبنيه وبنى بنيه (ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون)يقول ان يوسف حى لم يمت (قالوا) ولده وولد ولده (ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا) ادعوا الله ان يغفر لنا ذنوبنا(انا كنا خاطئين) مسيئين

ومن حق المعترف بذنبه ان يصفح عنه ويسأل له المغفرة ﴿ قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم ﴾ اخره الى السحر أو الى صلاة الليل أو الى ليلة الجمعة تحريا لوقت الاجابة او الى ان يستحل لهم من يوسف عليه السلام أو يعلم انه عفا عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة ويؤيده ماروى انه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما اذلة خاشعين حتى نزل جبريل عليه السلام فقال ان الله قد اجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة وهوان صح فدليل على نبوتهم وان ماصدر عنهم كان قبل استنبائهم ﴿ فلما دخلوا على يوسف ﴾ روى انه وجه اليه رواحل واموالا ليتجهز اليه بمن معه واستقبله يوسف والملك باهل مصر وكان اولاده الذين دخلوا معه

يعنى فى صنيعنا ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربى ﴾ قال أكثر المفسرين ان يعقوب أخر الدعاء والاستغفار لهم الى وقت السحر لانه أشرف الاوقات وهو الوقت الذى يقول الله فيه هل من داع فاستجيب له فلما انتهى يعقوب الى وقت السحر قام الى الصلاة متوجها الى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه الى الله تعالى وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لاولادى ما أتوا الى اخيهم يوسف فاوحى الله اليه انى قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس انه أخر الاستغفار لهم الى ليلة الجمعة لانها أشرف الاوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفا وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار الى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبى سوف أستغفر لكم ربى قال حتى أسأل يوسف فان كان قد عفا عنكم استغفرت لكم ربى ﴿ انه هو الغفور ﴾ يعنى لذنوب عباده ﴿ الرحيم ﴾ بجميع خلقه قال عطاء الخراسانى طلب الحوائج الى الشباب أسهل منه الى الشيوخ ألا ترى الى قول يوسف لاخوته لاتثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف استغفر لكم ربى قال اصحاب الاخبار ان يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع اخوته الى أبيه مائتى راحلة وجهازا كثيرا ليأتوه بيعقوب وجميع اهله الى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج الى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الاكبر يعنى ملك مصر وعرفه بمجئ أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك فى أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر الى الخيل والناس قال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل انهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا وقيل ان يوسف قال لابيه يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بينى وبينك فذلك قوله تعالى ﴿ فلما دخلوا على يوسف

خطايانا (قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم) أخر الاستغفار الى وقت السحر أو الى ليلة الجمعة أو ليتعرف حالهم فى صدق التوبة أو الى ان يسأل يوسف هل عفا عنهم ثم ان يوسف وجه الى أبيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا (فلما دخلوا على يوسف

عاصين لله (قال) لهم (سوف أستغفر لكم ربى) أدعو لكم ربى ليلة الجمعة آخر السحر (انه هو الغفور) المتجاوز (الرحيم) لمن تاب (فلما دخلوا على يوسف

آوى اليه) ضم اليه (أبويه) واعتنقهما قيل كانت أمه باقية وقيل ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كان العم أب ومنه قوله واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر انه حين استقبلهم أنزلهم فى مضرب خيمة أو قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) لهم بعد ذلك (ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) من ملوكها وكانوا لا يدخلونها الا بجوار أو من القحط وروى انه لما لقيه قال يعقوب عليه السلام السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال له يوسف يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا فقال بلى ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية الف الف ومائة ألف (ورفع أبويه على العرش وخرواله سجدا) قيل لما دخلوا مصر وجلس فى مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا اليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير وخرواله يعنى الاخوة الاحد عشر والابوين سجدا وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد وقال الزجاج سنة التعظيم فى ذلك الوقت ان يسجد للمعظم وقيل ما كانت الا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدا يأباه وقيل وخروا لاجل يوسف سجدا لله شكرا وفيه نبوة

مصر اثنين وسبعين رجلا وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى ﴿آوى اليه ابويه﴾ ضم اليه اباه وخالته واعتنقهما نزلها منزلة الام تنزيل العم منزلة الاب فى قوله واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق اولان يعقوب عليه السلام تزوجها بعد امه والرابة تدعى اما ﴿وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين﴾ من القحط واصناف المكاره والمشيئة متعلقة بالدخول المكيف بالأمن والدخول الاول كان فى موضع خارج البلد حين استقبلهم ﴿ورفع ابويه على العرش وخرواله سجدا﴾ تحية وتكرمة له فان السجود كان عندهم

آوى اليه﴾ يعنى ضم اليه ﴿أبويه﴾ قال أكثر المفسرين هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت امه قد ماتت فى نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وامه وكانت حية بعد وقيل ان الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه والاول أصح ﴿وقال ادخلوا مصر﴾ قيل المراد بالدخول الاول فى قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعنى البلد وقيل انه أراد بالدخول الاول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثانى الاستيطان بها أى ادخلوا مصر مستوطنين فيها ﴿ان شاء الله آمنين﴾ قيل ان هذا الاستثناء عائد الى الامن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله وقيل انه عائد الى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل ان يدخلوا مصر وقيل ان هذا الاستثناء يرجع الى الاستغفار فعلى هذا يكون فى الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربى ان شاء الله وقيل ان الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد الا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم ان شاء الله فعلى هذا يكون قوله ان شاء الله للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع علمه انه لاحق بهم ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ يعنى على السرير الذى كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل الى العلو ﴿وخرواله سجدا﴾ يعنى يعقوب وخالته ليا واخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الارض على سبيل العبادة ٭ فان قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام ان يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصبا فى النبوة والشيخوخة ٭ قلت يحتمل ان الله تعالى أمره بذلك لتحقيق رؤياه

آوى اليه أبويه) ضم اليه أباه وخالته لان أمه كانت ماتت قبل ذلك (وقال ادخلوا) انزلوا (مصر ان شاء الله) وقد شاء الله (آمنين) من العدو والسوء ويقال ادخلوا مصر آمنين من العدو والسوء ان شاء الله مقدم ومؤخر (ورفع أبويه على العرش) على السرير (وخرواله سجدا) خضعوا له بالسجود أبواه واخوته وكان سجودهم تحيتهم فيما بينهم كان يسجد الوضيع للشريف والشاب للشيخ والصغير للكبير كهيئة الركوع نحو

يجري مجراها وقيل معناه خروا لاجله سجدا لله شكرا وقيل الضمير لله تعالى والواو لابويه واخوته والرفع مؤخر عن الخرور وان قدم لفظا للاهتمام بتعظيمه لهما ﴿ وقال ياابت هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ التى رأيتها ايام الصبا ﴿ قدجعلها ربى حقا ﴾ صدقا ﴿ وقداحسن بى اذاخرجنى من السجن ﴾ ولم يذكرا الجب لئلا يكون تثريبا

ثم فى معنى هذا السجود قولان أحدهما انه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا اشكال فيه والقول الثانى انه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الارض وهو مشكل لان السجود على هذه الصورة لاينبغى ان يكون الا لله تعالى وأجيب عن هذا الاشكال بان السجود كان فى الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وانما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخرواله سجدا وظاهر هذا يدل على انهم لما صعدوا على السرير خروا سجدا لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لان ذلك أبلغ فى التواضع * فان قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله رأيتهم لى ساجدين وقوله خرواله سجدا فان الضمير يرجع الى أقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام * قلت يحتمل ان يكون المعنى وخروا لله سجدا لاجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل ان الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهى ان اخوة يوسف ربما احتملتهم الانفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا ان أباهم قد سجد له سجدوا له أيضا فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزا فى ذلك الزمان فلما جاء الاسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿ وقال ﴾ يعنى وقال يوسف عندما رأى ذلك ﴿ ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ يعنى هذا تصديق الرؤيا التى رأيت فى حال الصغر ﴿ قدجعلها ربى حقا ﴾ يعنى فى اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسى وعبدالله بن شداد أربعون سنة وقال أبو صالح عن ابن عباس اثنتان وعشرون سنة وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدى ست وثلاثون سنة وقال قتادة خمس وثلاثون سنة وقال عبدالله بن سودون سبعون سنة وقال الفضيل بن عياض ثمانون سنة حكى هذه الاقوال كلها ابن الجوزى وزاد غيره عن الحسن ان يوسف كان عمره حين ألقى فى الجب سبع عشرة سنة وأقام فى العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع أبيه واخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة ۞ وقوله ﴿ وقد أحسن بى ﴾ يعنى انعم على يقال احسن بى والى بمعنى واحد ﴿ اذ أخرجنى من السجن ﴾ انما ذكر انعام الله عليه فى اخراجه من السجن وان كان الجب أصعب منه استعمالا للادب والكرم لئلا يخجل اخوته بعد ان قال لهم لاتثريب عليكم اليوم ولان نعمة الله عليه فى اخراجه من السجن كانت أعظم من اخراجه من الجب وسبب ذلك ان خروجه من الجب كان سببا لحصوله فى العبودية والرق وخروجه من السجن كان سببا لوصوله الى الملك وقيل ان دخوله الجب كان لحسد اخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه

(علیه)

أيضا واختلف فى استنبائهم (وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قدجعلها) أى الرؤيا (ربى حقا) أى صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل اربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو ثنتان وعشرون (وقد أحسن بى) يقال أحسن اليه وبه وكذلك أساءاليه وبه (اذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر الجب لقوله لاتثريب عليكم اليوم

فعل الاعاجم (وقال ياأبت هذا) السجود (تأويل) تعبير (رؤياى من قبل) من قبل هذا (قدجعلها ربى حقا) صدقا (وقدأحسن بى) الى (اذ أخرجنى من السجن) ونجانى من العبودية

عليهم ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ من البادية لانهم كانوا اصحاب المواشى واهل البدو ﴿ من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ﴾ افسد بيننا وحرش من نزغ الرابض الدابة اذا نخسها وحملها على الجرى ﴿ ان ربى لطيف لما يشاء ﴾ لطيف التدبير له اذ ما من صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها ﴿ انه هو العليم ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿ الحكيم ﴾ الذى يفعل كل شئ فى وقته وعلى وجه يقتضى الحكمة * روى ان يوسف طاف بابيه عليهما الصلاة السلام فى خزائنه فلما ادخله خزانة القراطيس قال يا بنى ما اعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمان مراحل قال امرنى جبريل عليه السلام قال أو ما تسأله قال انت ابسط منى اليه فاسأله فقال جبريل الله امرنى بذلك لقولك

عليه ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ يعنى من البادية وأصل البدو هو البسيط من الارض يبدو الشخص فيه من بعد يعنى يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ﴾ يعنى أفسد ما بيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول فى أمر لافساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لان يوسف أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ الى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب ان ينسب اليه كما فى الاحسان والنعم والجواب عن هذا الاستدلال ان اسناد الفعل الى الشيطان واضافته اليه على سبيل المجاز وان كان ظاهر اللفظ يقتضى اضافة الفعل الى الشيطان لا على الحقيقة لان الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى فى الحقيقة قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك ان الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحريش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله اياه على ذلك ﴿ ان ربى لطيف لما يشاء ﴾ يعنى انه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الامور وخفياتها قال صاحب المفردات وقد يعبر باللطف عما تدركه الحاسة ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفته بدقائق الامور وان يكون لرفقه بالعباد فى هدايتهم وقوله ان ربى لطيف لما يشاء أى حسن الاستخراج تنبيها على ما أوصل الى يوسف حيث ألقاه اخوته فى الجب وقيل ان اجتماع يوسف بابيه واخوته بعد طول الفرقة وحسد اخوته له وازالة ذلك مع طيب الانفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لان الله تعالى اذا أراد أمرا هيأ أسبابه ﴿ انه هو العليم ﴾ يعنى بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ فى جميع أفعاله قال أصحاب الاخبار والتواريخ ان يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام عند يوسف بمصر أربعا وعشرين سنة فى أهنأ عيش وأنعم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى الى ابنه يوسف ان يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه أسحق فى الارض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه الصلاة والسلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده فى تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخى يعقوب وكان قد ولدا

(وجاء بكم من البدو) من البادية لانهم كانوا أصحاب مواشى ينتقلون فى المياه والمناجع (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) أى أفسد بيننا وأغرى (ان ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير (انه هو العليم الحكيم) بتأخير الآمال الى الآجال أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف

(وجاء بكم من البدو) من البادية (من بعد ان نزغ) أفسد (الشيطان بينى وبين اخوتى) بالحسد (ان ربى لطيف لما يشاء) لما جمع بيننا (انه هو العليم) بما أصابنا (الحكيم) بالجمع والفرقة

(رب قد آتيتني من الملك) ملك مصر (وعلمتني من تأويل الاحاديث) تفسير كتب الله أو تعبير الرؤيا ومن فيهما للتبعيض اذ لم يؤت الا بعض ملك الدنيا وبعض التأويل (فاطر السموات والارض) انتصابه على النداء (أنت وليي في الدنيا والآخرة) أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي (توفني مسلما) طلب الوفاة على حال الاسلام كقول يعقوب لولده ولا تموتن الا وأنتم مسلمون وعن الضحاك مخلصا وعن التستري مسلما اليك أمري وفي عصمة الانبياء انما دعا به يوسف ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة لان ظواهر الانبياء لنظر الامم اليهم (وألحقني بالصالحين) من آبائي أو على العموم روى ان يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى أدخله خزانة القراطيس قال يابني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الي على ثمانية مراحل فقال أمرني جبريل قال أوما تسأله أنت قال أنت أبسط اليه مني فاسأله فقال جبريل الله أمرني بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني وروى ان يعقوب أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام الى جنب أبيه اسحق

خاف ان يأكله الذئب قال فهلا خفتني ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر ﴿ وعلمتني من تأويل الاحاديث ﴾ الكتب أو الرؤى ومن ايضا للتبعيض لانه لم يؤت كل التأويل ﴿ فاطر السموات والارض ﴾ مبدعهما وانتصابه على انه صفة المنادى أو منادى برأسه ﴿ انت وليي ﴾ ناصري أو متولي امري ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما ﴿ توفني مسلما ﴾ اقبضني ﴿ والحقني بالصالحين ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة * روي ان يعقوب عليه السلام اقام معه اربعا وعشرين سنة ثم توفي واوصى ان يدفن بالشام الى جنب

في بطن واحد فدفنا في قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع الى مصر قالوا لما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بابيه واخوته علم ان نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال ﴿ رب ﴾ أي يارب ﴿ قد آتيتني من الملك ﴾ يعني من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لانه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿ وعلمتني من تأويل الاحاديث ﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿ فاطر السموات والارض ﴾ يعني خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير اذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه ﴿ أنت وليي ﴾ يعني معيني ومتولي أمري ﴿ في الدنيا والآخرة توفني مسلما ﴾ أي اقبضني اليك مسلما واختلفوا هل هو طلب للوفاة في الحال أم لا على قولين أحدهما انه سأل الله الوفاة في الحال قال قتادة لم يسأل نبي من الانبياء الموت الا يوسف قال أصحاب هذا القول وانه لم يأت عليه أسبوع حتى توفي والقول الثاني انه سأل الوفاة على الاسلام ولم يتمن الموت في الحال قال الحسن انه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفني اذا توفيتني على الاسلام فهو طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس في اللفظ ما يدل على انه طلب الوفاة في الحال قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لان اللفظ صالح للامرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه ان الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وان نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان تمني الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى * وقوله ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أراد به بدرجة آبائه وهم ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ

(رب) يارب (قد آتيتني من الملك) اعطيتني ملك مصر أربعين فرسخا في اربعين فرسخا (وعلمتني من تأويل الاحاديث) تعبير الرؤيا (فاطر السموات والارض) ياخالق السموات والارض (انت وليي) ربي وخالقي ورازقي وحافظي وناصري (في الدنيا والآخرة توفني مسلما) مخلصا بالعبادة والتوحيد (والحقني بالصالحين) بآبائي المرسلين في الجنة (عاش)

فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثة و عشرين سنة فلما تم أمره طابت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر وتشاحوا فى دفنه كل يحب أن يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن يعملوا له صندوقا من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه فى النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل الى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا حتى نقل موسى عليه السلام بعد أربعمائة سنة تابوته الى بيت المقدس وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ولم تزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه (ذلك) اشارة الى ما سبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ (من أنباء الغيب نوحيه اليك) خبران (وما كنت لديهم) لدى بنى يعقوب (اذ أجمعوا أمرهم) عزموا على ما هموا به من القاء يوسف فى البئر (وهم يمكرون) بيوسف ويبغون له الغوائل والمعنى ان هذا النبأ غيب لم يحصل لك الا من جهة الوحى لانك لم تحضر بنى يعقوب حين اتفقوا على القاء أخيهم فى البئر

ابيه فذهب به ودفنه ثمه ثم عاد وعاش بعده ثلاثا وعشرين سنة ثم تاقت نفسه الى الملك المخلد فتمنى الموت فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم اهل مصر فى مدفنه حتى هموا بالقتال فرأوا ان يجعلوه فى صندوق من مرمر ويدفنوه فى النيل بحيث يمر عليه الماء ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعا فيه ثم نقله موسى عليه السلام الى مدفن آبائه وكان عمره مائة وعشرين سنة وقد ولد له من راعيل افرائيم وميشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امرأة ايوب عليه السلام ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى ما ذكر من نبأ يوسف عليه السلام والخطاب فيه للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مبتدأ ﴿ من انباء الغيب نوحيه اليك ﴾ خبران له ﴿ وما كنت لديهم اذ اجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ كالدليل عليهما والمعنى ان هذا لنبأ غيب لم تعرفه الا بالوحى لانك لم تحضر اخوة يوسف

عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفى التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد افرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب و قيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل اكثر ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه فى النيل فى صندوق من رخام و قيل من حجارة المرمر وذلك انه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل أهل محلة ان يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا ان يقتتلوا ثم رأوا ان يدفنوه فى النيل بحيث يجرى الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته الى جميعهم وقال عكرمة انه دفن فى الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فاخصب وأجدب الجانب الايمن فدفنوه فى وسط النيل وقدروه بسلسلة فاخصب الجانبان فبقى الى ان أخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام فى الارض المقدسة * قوله عز وجل ﴿ ذلك ﴾ يعنى الذى ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع اخوته ثم انه صار الى الملك بعد الرق ﴿ من أنباء الغيب ﴾ يعنى أخبار الغيب ﴿ نوحيه اليك ﴾ يعنى الذى أخبرناك به من أخبار يوسف وحى أوحيناه اليك يا محمد وفى هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان رجلا أميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر الى بلد آخر غير بلده الذى نشأ فيه صلى الله عليه وسلم وانه نشأ بين أمة أمية مثله ثم انه صلى الله عليه و سلم أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن ترتيب وأبين معان وأفصح عبارة فعلم بذلك ان الذى أتى به هو وحى الهى ونور قدسى سماوى فهو معجزة له قائمة الى آخر الدهر * وقوله تعالى ﴿ وما كنت لديهم ﴾ يعنى وما كنت يا محمد عند اولاد يعقوب ﴿ اذ أجمعوا أمرهم ﴾ يعنى حين عزموا على القاء يوسف عليه الصلاة والسلام فى الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ يعنى

(ذلك) الذى ذكرت لك يا محمد من خبر يوسف واخوته (من انباء الغيب) من اخبار الغائب عنك (نوحيه اليك) نرسل اليك جبريل به (وما كنت لديهم) عندهم (اذا جمعوا أمرهم) اجتمعوا على ان يطرحوا يوسف فى الجب (وهم يمكرون) يريدون بذلك هلاك يوسف

(وماأكثرالناس ولوحرصت بمؤمنين) اراد العموم أوأهل مكة أى وماهم بمؤمنين ولواجتهدت كل الاجتهاد على ايمانهم (وماتسئلهم عليه) على التبليغ أو على القرآن (من أجر) جعل (ان هو الاذكر) ماهو الاموعظة (للعالمين) وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله (وكاين من آية) من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (فى السموات والارض يمرون عليها) على الآيات أو على الارض ويشاهدونها (وهم عنها) عن الآيات (معرضون) لا يعتبرون بها والمراد مايرون من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من العبر (وما يؤمن أكثرهم بالله الاوهم مشركون) أى ومايؤمن أكثرهم فى اقراره بالله وبانه خلقه وخالق السموات والارض الاوهو مشرك بعبادة الوثن الجمهور على انها نزلت فى المشركين لانهم مقرون بان الله خالقهم ورازقهم واذا حزبهم أمر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره ومن جملة الشرك مايقوله القدرية

حين عزموا على ماهموا به من ان يجعلوه فى غيابة الجب وهم يمكرون به وبابيه ليرسله معهم ومن المعلوم الذى لايخفى على مكذبيك انك مالقيت احدا سمع ذلك فتعلمته منه وانما حذف هذا الشق استغناء بذكره فى غير هذه القصة كقوله ما كنت تعلمها انت ولاقومك من قبل هذا ﴿ وما اكثرالناس ولوحرصت ﴾ على ايمانهم وبالغت فى اظهار الآيات عليهم ﴿ بمؤمنين ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر ﴿ وماتسألهم عليه ﴾ على الانباء أو القرآن ﴿ من اجر ﴾ من جعل كما يفعله حملة الاخبار ﴿ ان هو الاذكر ﴾ عظة من الله تعالى ﴿ للعالمين ﴾ عامة ﴿ وكاين من آية ﴾ وكم من آية والمعنى وكاى عدد شئته من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده ﴿ فى السموات والارض يمرون عليها ﴾ على الآيات ويشاهدونها ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها * وقرئ والارض بالرفع على انه مبتدأ خبره يمرون فيكون لها الضمير فى عليها وبالنصب على ويطؤن الارض * وقرئ والارض يمشون عليها أى يترددون فيها فيرون آثار الامم الهالكة ﴿ ومايؤمن اكثرهم بالله ﴾ فى اقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿ الاوهم مشركون ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الاحبار اربابا ونسبة التبنى اليه أو القول بالنور والظلمة أو النظر الى الاسباب ونحو

بيوسف ﴿ وماأكثر الناس ولوحرصت بمؤمنين ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وماأكثر الناس يامحمد ولوحرصت على ايمانهم بمؤمنين وذلك ان اليهود وقريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ماعندهم فى التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقيل له انهم لايؤمنون ولوحرصت على ايمانهم ففيه تسلية له ﴿ وماتسئلهم عليه من أجر ﴾ يعنى على تبليغ الرسالة والدعاء الى الله من أجر يعنى أجرا وجعلا على ذلك ﴿ ان هو ﴾ أى ماهو يعنى القرآن ﴿ الاذكر ﴾ يعنى عظة وتذكيرا ﴿ للعالمين وكاين من آية ﴾ يعنى وكم من آية دالة على التوحيد ﴿ فى السموات والارض يمرون عليها ﴾ يعنى لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ أى لايلتفتون اليها والمعنى ليس اعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى باعجب من اعراضهم عنك يامحمد ﴿ ومايؤمن أكثرهم بالله الاوهم مشركون ﴾ يعنى ان من ايمانهم أنهم اذا سئلوا من خلق السموات والارض قالوا الله واذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الاصنام وفى رواية عن ابن عباس انهم يقرون ان الله خالقهم فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم وفى رواية أخرى عنه أيضا انها نزلت فى تلبية مشركى

(وماأكثرالناس) أهل مكة (ولوحرصت) لوجهدت كل الجهد مقدم ومؤخر (بمؤمنين) بالكتب والرسل (وماتسألهم) يامحمد (عليه) على التوحيد (من اجر) من جعل (ان هو) ماهو يعنى القرآن (الاذكر) عظة (للعالمين) الجن والانس (وكاين من آية) من علامة (فى السموات) من الشمس والقمر والنجوم (والسحب) وغير ذلك (والارض) ومافى الارض من الجبال والبحار والشجر والدواب وغيرذلك (يمرون عليها) اهل مكة (وهم عنها معرضون) مكذبون بها لايتفكرون فيها (ومايؤمن أكثرهم اهل مكة (بالله) فى السر ويقال بعبودية الله (الا وهم مشركون) بوحدانية الله فى العلانية

من اثبات قدرة التخليق للعبد والتوحيد المحض مايقوله أهل السنة وهوانه لاخالق الاالله (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية) عقوبة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله أو تأتيهم الساعة) القيامة (بغتة) حال أى فجأة (وهم لايشعرون) باتيانها (قل هذه سبيلي) هذه السبيل التى هى الدعوة الى الايمان والتوحيد سبيلي والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان ثم فسر سبيله بقوله (أدعوا الى الله على بصيرة) أى أدعوالى دينه مع حجة واضحة غير عمياء (أنا) تأكيد للمستتر فى ادعو (ومن اتبعنى) عطف عليه أى أدعو الى سبيل الله أنا ويدعواليه من اتبعنى أو أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبر مقدم ومن اتبعنى عطف على أنا يخبر ابتداء بانه ومن اتبعه على حجة وبرهان لاعلى هوى (وسبحان الله) وأنزهه عن الشركاء (وما أنا من المشركين) مع الله غيره (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا) لاملائكة لانهم

ذلك وقيل الآية فى مشركى مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى اهل الكتاب ﴿ أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿ أوتأتيهم الساعة بغتة ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وهم لايشعرون ﴾ باتيانها غير مستعدين ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ يعنى الدعوة الى التوحيد والاعداد للمعاد ولذلك فسر السبيل بقوله ﴿ ادعوا الى الله ﴾ وقيل هو حال من الياء ﴿ على بصيرة ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء ﴿ أنا ﴾ تأكيد للمستتر فى ادعوا وفى على بصيرة لأنه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة ﴿ ومن اتبعنى ﴾ عطف عليه ﴿ وسبحان الله وماانا من المشركين ﴾ وانزهه تنزيها من الشركاء ﴿ ومارسلنا من قبلك الا رجالا ﴾ رد لقولهم لوشاء ربنا لانزل ملائكة وقيل معناه

العرب وذلك انهم كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لبيك لاشريك لك الاشريك هو لك تملكه وماملك وقال عطاء هذا فى الدعاء وذلك ان الكفار نسوا ربهم فى الرخاء فاذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء ﴿ أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ يعنى عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم وقال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعنى الصواعق والقوارع ﴿ أوتأتيهم الساعة بغتة ﴾ يعنى فجأة ﴿ وهم لايشعرون ﴾ يعنى بقيامها قال ابن عباس تهيج الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ﴿ قل ﴾ أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين ﴿ هذه سبيلي ﴾ يعنى طريقى التى ﴿ أدعوا ﴾ اليها وهى توحيد الله عز وجل ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدى الى الله عز وجل والى الثواب والجنة ﴿ الى الله ﴾ يعنى الى توحيد الله والايمان به ﴿ على بصيرة ﴾ يعنى على يقين و معرفة والبصيرة هى المعرفة التى تميز بها بين الحق والباطل ﴿ أنا ومن اتبعنى ﴾ يعنى من آمن بى وصدق بما جئت به أيضا يدعو الى الله وهذا قول الكلبى وابن زيد قال حق على من اتبعه وآمن به ان يدعو الى مادعا اليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو الى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعنى يعنى انا على بصيرة ومن اتبعنى أيضا على بصيرة قال ابن عباس ان محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا على احسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الايمان وجند الرحمن وقال ابن مسعود ومن كان مستنا فليستن بمن قدمات أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الامة وابرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا باخلاقهم وطريقهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم * وقوله ﴿ وسبحان الله ﴾ أى وقل سبحان الله يعنى تنزيها له عمالا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء والاضداد والانداد ﴿ وماأنا من المشركين ﴾ يعنى وقل يامحمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره * قوله عز وجل ﴿ وما أرسلنا من قبلك الا رجالا ﴾ يعنى وما أرسلنا قبلك يامحمد الا رجالا مثلك

(أفأمنوا) اهل مكة (ان تأتيهم) ان لاتأتيهم (غاشية من عذاب الله) عذاب من عذاب الله مثل يوم بدر (أوتأتيهم الساعة) عذاب الساعة (بغتة) فجأة (وهم لايشعرون) بنزول العذاب (قل) يامحمد لاهل مكة (هذه) يعنى ملة ابراهيم (سبيلي) دينى (ادعوا الى الله على بصيرة) على دين وبيان (أنا) ادعو (ومن تبعنى) آمن بى يدعون الى الله أيضا على بصيرة على دين وبيان (وسبحان الله) نزه نفسه عن الولد والشريك (وماأنا من المشركين) مع المشركين على دينهم (وماأرسلنا من قبلك) يامحمد الرسل (الارجالا

نفى استنباء النساء ﴿ يوحى اليهم ﴾ كما يوحى اليك ويميزون بذلك عن غيرهم وقرأ حفص نوحى فى كل القرآن ووافقه حمزة والكسائى فى سورة الانبياء ﴿ من اهل القرى ﴾ لان اهلها اعلم واحلم من اهل البدو ﴿ أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من المكذبين بالرسول والآيات فيحذروا تكذيبك أو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها ﴿ ولدار الآخرة ﴾ ولدار الحال أو الساعة أو الحياء الآخرة ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصى ﴿ أفلا يعقلون ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا انها خير وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء حملا على قوله قل هذه سبيلى أى قل لهم أفلا تعقلون ﴿ حتى اذا استيأس الرسل ﴾ غاية محذوف دل عليه الكلام أى لا يغررهم تمادى ايامهم فان من قبلهم امهلوا حتى ايس الرسل من النصر عليهم فى الدنيا أو من ايمانهم لانهما كهم فى الكفر مترفهين متمادين فيه من غير وازع ﴿ وظنوا انهم قد كذبوا ﴾ أى كذبتهم انفسهم حين حدثتهم بانهم ينصرون أو كذبهم القوم بوعد الايمان وقيل الضمير للمرسل اليهم أى وظن المرسل اليهم ان

ولم يكونوا ملائكة ﴿ نوحى اليهم ﴾ هذا جواب لاهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكا والمعنى كيف تعجبوا من ارسالنا اياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك ﴿ من أهل القرى ﴾ يعنى انهم من أهل الامصار والمدن لا من أهل البوادى لان أهل الامصار أفضل وأعلم وأكمل عقلا من أهل البوادى قال الحسن لم يبعث نبى من بدو ولا من الجن ولا من النساء وقيل انما لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم ﴿ أفلم يسيروا فى الارض ﴾ يعنى هؤلاء المشركين المكذبين ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ يعنى كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ يعنى فعلنا هذا باوليائنا وأهل طاعتنا اذا أنجيناهم عند نزول العذاب بالامم المكذبة وما فى الدار الآخرة خير لهم يعنى الجنة لانها خير من الدنيا وانما أضاف الدار الى الآخرة وان كانت هى الآخرة لان العرب تضيف الشئ الى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه ﴿ أفلا يعقلون ﴾ يعنى يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون ❊ قوله عز وجل ﴿ حتى اذا استيأس الرسل ﴾ قال صاحب الكشاف حتى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كانه قيل وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فتراخى نصرهم حتى اذا استيأس الرسل عن النصر وقال الواحدى حتى هنا حرف من حروف الابتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قرأ أهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائى كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدى ان معناه ظن الامم ان الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقال أهل المعانى كذبوا من قولهم كذبتك الحديث أى لم أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال أبو على والضمير فى قوله

بالنون حفص (اليهم من أهل القرى) لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء (أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة) أى ولدار الساعة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك وآمنوا به (أفلا تعقلون) وبالياء مكى وأبو عمرو وحمزة وعلى (حتى اذا استيأس الرسل) يئسوا من ايمان القوم (وظنوا أنهم قد كذبوا) وأيقن

نوحى اليهم) نرسل اليهم جبريل كما أرسل اليك (من اهل القرى) منسوب الى القرى مثلك (أفلم يسيروا) أهل مكة (فى الارض فينظروا) فيتفكروا (كيف كان عاقبة) كيف صار آخر أمر الذين من قبلهم) من الكفار (ولدار الآخرة) الجنة (خير للذين اتقوا) الكفر والشرك والفواحش وآمنوا بالله وبمحمد عليه السلام والقرآن (أفلا تعقلون) أفليس لكم ذهن الانسانية ان الآخرة خير من الدنيا ويقال ان الدنيا تفنى والآخرة تبقى ويقال افلا تصدقون بما أصاب الاولين حيث كذبوا الرسل (حتى اذا استيأس الرسل) فلما ايس الرسل من اجابة القوم (وظنوا) علموا وايقنوا يعنى الرسل (أنهم) يعنى قومهم (قد كذبوا) كذبوهم بما (وظنوا)

الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد وقيل الاول للمرسل اليهم والثانى للرسل أى
وظنوا ان الرسل قد كذبوا واخلفوا فيما وعدلهم من النصر وخلط الامر عليهم وماروى عن
ابن عباس رضى الله عنهما ان الرسل ظنوا انهم اخلفوا ما اوعدهم الله من النصر ان صح فقد اراد
بالظن ما يهجس فى القلب على طريق الوسوسة هذا وان المراد به المبالغة فى التراخى

وظنوا على هذه القراءة للمرسل اليهم والتقدير وظن المرسل اليهم ان الرسل قد كذبوهم
فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس انهم لم
يؤمنون بهم حتى نزل بهم العذاب وانما ظنوا ذلك لما شاهدوا من امهال الله اياهم ولا يمتنع
حمل الضمير فى وظنوا على المرسل اليهم وان لم يتقدم لهم ذكر لان ذكر الرسل يدل على
ذكر المرسل اليهم وان شئت قلت ان ذكرهم جرى فى قوله أفلم يسيروا فى الارض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أى مكذبى الرسل والظن هنا على معنى التوهم
والحسبان وهذا معنى ماروى عن ابن عباس انه قال حتى اذا استيأس الرسل من قومهم
الاجابة وظن قومهم ان الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم واهلاك من كذبهم وقيل
معناه وتيقن الرسل انهم قد كذبوا فى وعد قومهم اياهم الايمان أى وعدوا أن يؤمنوا
ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم قد كذبوا أى كذبتهم أنفسهم حتى حدثتهم
بانهم لا ينصرون أو رجاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى ان مدة التكذيب
والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى
استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير
احتساب وعن ابن عباس وظنوا حين ضعفوا وغلبوا انهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من
النصر قال وكانوا بشرا وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله
قال صاحب الكشاف فان صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس
فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية وأما الظن
الذى هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله
الذين هم أعرف الناس بربهم وانه متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدى عن ابن الانبارى
انه قال هذا غير معول عليه من جهتين احداهما ان التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول
تأوله عليه والاخرى ان قوله جاءهم نصرنا دال على أن أهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله
واستضعفوا رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأ عظيما
ولا يستحقون ظفرا ولا نصرا وتبرئة الانبياء وتطهيرهم واجب علينا اذا وجدنا الى ذلك
سبيلا وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وظنوا انهم قد كذبوا
بالتشديد ووجهه ظاهر وهو ان معناه حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم وظنوا
يعنى وأيقنوا يعنى الرسل ان الامم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعده ايمانهم فالظن بمعنى
اليقين وهذه معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم
ان يصدقوهم وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم

الرسل ان قومهم كذبوهم
وبالتخفيف كوفى أى وظن
المرسل اليهم ان الرسل قد
كذبوا أى أخلفوا أو وظن
المرسل اليهم انهم كذبوا من
جهة الرسل أى كذبتهم الرسل
فى انهم ينصرون عليهم ولم
يصدقوهم فيه

جاؤا به من الله ان قرئت
مشددة ويقال وظنوا يعنى
القوم انهم يعنى الرسل قد
كذبوا اخلف وعد الرسل
ان قرئت مخففة

والامهال على سبيل التمثيل *وقرأ غير الكوفيين بالتشديد أى وظن الرسل ان القوم قد كذبوهم فيما اوعدوهم *وقرئ كذبوا بالتخفيف وبناء الفاعل أى وظنوا انهم قد كذبوا فيما حدثوا به عند قومهم لما تراخى عنهم ولم يروا له اثرا ﴿ جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ﴾ النبي والمؤمنين وانما لم يعينهم للدلالة على انهم الذين يستأهلون ان تشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم * وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضى المبنى للمفعول * وقرئ فنجى ﴿ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ اذا نزل بهم وفيه بيان المشيئين ﴿ لقد كان فى قصصهم ﴾ فى قصص الانبياء واممهم أو فى قصة يوسف واخوته ﴿ عبرة لأولى الالباب ﴾ لذوى العقول المبرأة من شوائب الالف والركون الى الحس

لشدة المحنة والبلاء واستبطؤا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعنى وظنوا بالرسل ظن حسبان ان ربهم قد كذبهم فى وعد الظفر والنصر لابطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لأنهم كذبوهم فى كونهم رسلا وقيل ان هذا التكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين لانه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعا فالكناية فى وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير انه سأل عائشة عن قوله تعالى حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أو كذبوا قالت بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت ياعروة أجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا ان أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك *وفى رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة قال قال ابن عباس حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب لها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله رسوله من شئ قط الا علم انه كائن قبل ان يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون معهم من قومهم من يكذبوهم فكانت تقرؤها وظنوا انهم قد كذبوا مثقلة *وقوله تعالى ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ يعنى جاء نصر الله النبيين ﴿ فنجى من نشاء ﴾ من عبادنا يعنى عند نزول العذاب بالكافرين فنجى المؤمنين المطيعين ﴿ ولا يرد بأسنا ﴾ يعنى عذابنا ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ يعنى المشركين *قوله تعالى ﴿ لقد كان فى قصصهم ﴾ يعنى فى خبر يوسف واخوته ﴿ عبرة ﴾ أى موعظة ﴿ لأولى الالباب ﴾ يعنى يتعظ بها أولو الالباب والعقول الصحيحة ومعنى الاعتبار والعبرة الحالة التى يتوصل بها الانسان من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة ان الذى قدر على اخراج يوسف

(جاءهم نصرنا) للانبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب (فنجى) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء شامى وعاصم على لفظ الماضى المبنى للمفعول والقائم مقام الفاعل من الباقون فننجى (من نشاء) أى النبي ومن آمن به (ولا يرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) الكافرين (لقد كان فى قصصهم) أى فى قصص الانبياء واممهم أو فى قصة يوسف واخوته (عبرة لأولى الباب) حيث نقل من غاية الحب الى غيابة الجب ومن الحصير الى السرير فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ونهاية المكر وخامة وندامة

(جاءهم نصرنا) يعنى عذابنا بهلاك قومهم (فنجى من نشاء) يعنى الرسل ومن آمن بالرسل (ولا يرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) المشركين (لقد كان فى قصصهم) فى خبرهم فى خبر يوسف واخوته (عبرة) آية (لأولى الالباب) لذوى العقول من الناس

(ما كان حديثا يفترى) ما كان القرآن حديثا مفترى كما زعم الكفار (ولكن تصديق الذى بين يديه) ولكن تصديق الكتب التى تقدمته (وتفصيل كل شئ) يحتاج اليه فى الدين لانه القانون الذى تستند اليه السنة والاجماع والقياس (وهدى) من الضلال (ورحمة) من العذاب (لقوم يؤمنون) بالله وأنبيائه وما نصب بعد لكن معطوف على خبر كان * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاكم سورة يوسف فأيما عبد تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة أن لا يحسد مسلما قال الشيخ أبو منصور رحمه الله فى ذكر قصة يوسف عليه السلام واخوته تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أذى قريش كانه يقول ان اخوة يوسف مع موافقتهم اياه فى الدين ومع الاخوة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك فانت مع مخالفتهم اياك فى الدين أحرى ان تصبر على أذاهم وقال وهب ان الله تعالى لم ينزل كتابا الا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هى فى القرآن العظيم والله أعلم

﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾ ما كان القرآن حديثا مفترى ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ من الكتب الالهية ﴿ وتفصيل كل شئ ﴾ يحتاج اليه فى الدين اذ ما من امر دينى الا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط ﴿ وهدى ﴾ من الضلال ﴿ ورحمة ﴾ ينال بها خير الدارين ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ يصدقونه * وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علموا ارقاكم سورة يوسف فانه ايما مسلم تلاها وعلمها اهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة ان لا يحسد مسلما

سورة الرعد مدنية وقيل مكية الا قوله ويقول الذين كفروا الآية وهى خمس واربعون آية

من الجب بعد القائه فيه واخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بابيه واخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على اعزاز محمد صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته واظهار دينه وان الاخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الاخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل ان الله تعالى قال فى أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال فى آخرها لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب فدل على ان هذه القصة من أحسن القصص وان فيها عبرة لمن اعتبرها ﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾ يعنى ما كان هذا القرآن حديثا يفترى ويختلق لان الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه أو يختلقه لانه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء ثم انه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وانه ليس بمفتر ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ يعنى ولكن كان تصديق الذى بين يديه من الكتب الالهية المنزلة من السماء من التوراة والانجيل وفيه اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من ذكر قصة يوسف ﴿ وتفصيل كل شئ ﴾ يعنى ان فى هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شئ تحتاج اليه من الحلال والحرام والحدود والاحكام والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك مما يحتاج اليه العباد فى أمر دينهم ودنياهم ﴿ وهدى ﴾ يعنى الى كل خير ﴿ ورحمة ﴾ يعنى أنزلناه رحمة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لانهم هم الذى ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

تفسير سورة الرعد

سورة الرعد مكية وهى ثلاث أربعون آية كوفى و خمس وأربعون آية شامى

(ما كان حديثا يفترى) يعنى القرآن ليس بحديث يختلق (ولكن تصديق الذى بين يديه) موافق التوراة والانجيل وسائر الكتب بالتوحيد وبعض الشرائع وخبر يوسف (وتفصيل كل شئ) تبيان كل شئ (قا و خا ٥٩ لث) من الحلال والحرام (وهدى) من الضلالة (ورحمة) من العذاب (لقوم يؤمنون) بمحمد عليه السلام والقرآن الذى انزل اليك من ربك والله اعلم باسرار كتابه

ومن السورة التى يذكر فيها الرعد وهى مكية غير آيتين قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة الى آخرها وقوله ويقول الذين كفروا الى ومن عنده علم الكتاب فانهما مدنيتان آياتها خمس وأربعون وكلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف

من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها قدر على الاعادة والجزاء ﴿ وهو الذى مد الارض ﴾ بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدم وينقلب عليها الحيوان ﴿ وجعل فيها رواسى ﴾ جبالا ثوابت من رسى الشئ اذا ثبت جمع راسية والتاء للتأنيث على انها صفة اجبل أو للمبالغة ﴿ وانهارا ﴾ ضمها الى الجبال وعلق بهما فعلا واحدا من حيث ان الجبال اسباب لتولدها ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ متعلق بقوله ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أى وجعل فيها من جميع انواع الثمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض والاسود والابيض والصغير والكبير ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ يلبسه مكانه فيصير الجو مظلما بعدما كان مضيئا * وقرأ حمزة والكسائى وابو بكر يغشى بالتشديد ﴿ ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ فيها فان تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم

قدرته لكى توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير اليه بعد الموت لان من قدر على ايجاد الانسان بعد عدمه قادر على ايجاده واحيائه بعد موته واليقين صفة من صفات العلم وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم * قوله تعالى ﴿ وهو الذى مد الارض ﴾ لما ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وهى رفع السموات بغير عمد وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية فقال وهو الذى مد الارض أى بسطها على وجه الماء وقيل كانت الارض مجتمعة فمدها من تحت البيت الحرام وهذا القول انما يصح اذا قيل ان الارض منسطحة كالاكف وعند أصحاب الهيئة الارض كرة ويمكن أن يقال ان الكرة اذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح كبير العظم فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الارض وانه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة ﴿ وجعل فيها ﴾ يعنى فى الارض ﴿ رواسى ﴾ يعنى جبالا ثابتة يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وأرساه غيره أثبته قال ابن عباس كان أبو قبيس أول جبل وضع على الارض ﴿ وأنهارا ﴾ يعنى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ يعنى صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ يعنى يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار ﴿ ان فى ذلك ﴾ يعنى الذى تقدم ذكره من عجائب صنعته وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته ﴿ لآيات ﴾ أى دلالات ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ يعنى فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب فى طلب الاشياء وقال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للانسان دون الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن أن يحصل له صورة فى القلب ولهذا روى تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله اذ كان الله منزها ان يوصف بصورة وقال بعض الادباء الفكر مقلوب عن الفرك لانه يستعمل فى طلب المعانى وهو فرك الامور وبحثها طلبا

(وهو الذى مد الارض) بسطها (ويجعل فيها رواسى) جبالا ثوابت (وأنهارا) جارية (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) أى الاسود والابيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك (يغشى الليل النهار) يلبسه مكانه فيصير أسود مظلما بعدما كان أبيض منيرا يغشى حمزة وعلى وأبو بكر (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيعلمون ان لها صانعا عليما حكيما

الموت (وهو الذى مد الارض) بسط الارض على الماء (وجعل فيها رواسى) خلق فى الارض الجبال الثوابت أوتادها (وأنهارا) أجرى فيها انهارا (ومن كل الثمرات) من الوان كل الثمرات (جعل فيها) خلق فيها (زوجين اثنين) الحامض والحلو زوج والابيض والاحمر زوج (يغشى الليل النهار) يغطى الليل بالنهار والنهار بالليل يقول يذهب بالليل ويجئ بالنهار ويذهب بالنهار ويجئ بالليل (ان فى ذلك) فى اختلاف ما ذكرت (لآيات) لعلامات (لقوم يتفكرون) لكى يتفكروا فيه

دبرامرها وهيأ اسبابها ﴿ وفى الارض قطع متجاورات ﴾ بعضها طيبة وبعضها سبخة وبعضها رخوة وبعضها صلبة وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس ولولا تخصيص قادر موقع لافعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك لاشتراك تلك القطع فى الطبيعة الارضية ومايلزمها ويعرض لها بتوسط مايعرض من الاسباب السماوية من حيث انها متضامة متشاركة فى النسب والاوضاع ﴿ وجنات من اعناب وزرع ونخيل ﴾ وبساتين فيها انواع الاشجار والزرع وتوحيد الزرع لانه مصدر فى اصله * وقرأ ابن كثير وابو عمرو ويعقوب وحفص وزرع ونخيل صنوان بالرفع عطفا على وجنات ﴿ صنوان ﴾ نخلات اصلها واحد ﴿ وغير صنوان ﴾ ومتفرقات مختلفات الاصول * وقرأ حفص بالضم وهو لغة بنى تميم كقنوان فى جمع قنو ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ﴾ فى الثمر شكلا وقدرا ورائحة وطعما وذلك ايضا مما يدل على الصانع الحكيم فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب لايكون الا بتخصيص قادر مختار * وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب يسقى بالتذكير على تأويل ماذكر وحمزة والكسائى يفضل بالياء ليطابق قوله

للوصول الى حقيقتها * قوله عز وجل ﴿ وفى الارض قطع متجاورات ﴾ يعنى متقاربات بعضها من بعض وهى مختلفة فى الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لاتنبت وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع ﴿ وجنات ﴾ يعنى بساتين والجنة كل بستان ذى شجر من نخيل وأعناب وغير ذلك سمى جنة لانه يستر باشجاره الارض واليه الاشارة بقوله ﴿ من أعناب وزرع ونخيل صنوان ﴾ جمع صنو وهى النخلات يجتمعن من أصل واحد ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعنى انهما من أصل واحد ﴿ وغير صنوان ﴾ هى النخلة المفردة باصلها فالصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق ﴿ يسقى بماء واحد ﴾ يعنى أشجار الجنات وزروعها والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال به قوام الارواح ﴿ ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ﴾ يعنى فى الطعم مابين الحلو والحامض والعفص وغير ذلك من الطعام * عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض فى الاكل قال الدقل والنرسيان والحلو والحامض أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال مجاهد هذا كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بنى آدم كانت الارض طينة واحدة فى يد الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلا قيل انما هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولاتسمع وقال الحسن والله ماجالس القرآن أحد الاقام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة

متلاصقة طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة وذلك دليل على قادر مدبر مريد موقع لافعاله على وجه دون وجه (وجنات) معطوفة على قطع (من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) بالرفع مكى وبصرى وحفص عطف على قطع غيرهم بالجر بالعطف على أعناب والصنوان جمع صنو وهى النخلة لها رأسان وأصلها واحد وعن حفص بضم الصاد وهما لغتان (تسقى بماء واحد) وبالياء عاصم وشامى (ونفضل بعضها على بعض) وبالياء حمزة وعلى (فى الاكل) فى الثمر وبسكون الكاف نافع

(و فى الارض قطع) أمكنة (متجاورات) ملتزقات ارض سبخة رديئة وبجنبها أرض طيبة عذبة جيدة (وجنات من اعناب) من كروم (وزرع) حرث (ونخيل صنوان) مجتمع اصولها فى اصل واحد عشرة أو أقل أو أكثر (وغير صنوان) مفترق اصولها واحدة واحدة (يسقى بماء واحد) بماء المطر أو بماء النهر (ونفضل بعضها على بعض فى الاكل)

مرسل للانذار كغيرك من الرسل وماعليك الا الاتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات لا بما يقترح عليك ﴿ولكل قوم هاد﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ماهو الغالب عليهم يهديهم الى الحق ويدعوهم الى الصواب أو قادر على هدايتهم وهو الله تعالى لكن لايهدى الا من يشاء هدايته بما ينزل عليك من الآيات ثم اردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره تنبيها على انه تعالى قادر على انزال ما اقترحوه وانما لم ينزل لعلمه بان اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد وانه قادر على هدايتهم وانما لم يهدهم لسبق قضائه عليهم بالكفر * وقرأ ابن كثير هاد ووال وواق وماعند الله باق بالتنوين فى الوصل فاذا وقف وقف بالياء فى هذا الاحرف الاربعة حيث وقعت لاغير والباقون يصلون بالتنوين ويقفون بغير ياء فقال ﴿الله يعلم ماتحمل كل انثى﴾ أى حملها أوماتحمله وانه على أى حال هو من الاحوال الحاضرة والمترقبة ﴿وماتغيض الارحام وماتزداد﴾ وماتنقصه وماتزداده فى الجثة والمدة والعدد واقصى مدة الحمل اربع سنين عندنا وخمس عند مالك وسنتان عند ابى حنيفة روى ان الضحاك ولد لسنتين وهرم ابن حيان لاربع سنين واعلى عدده لاحدله وقيل نهاية ماعرف به اربعة واليه ذهب ابو حنيفة رضى الله عنه وقال الشافعى رحمه الله اخبرنى شيخ باليمن ان امرأته ولدت بطونا فى كل بطن خمسة وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده وغاض جاء متعديا ولازما وكذا ازداد قال تعالى واز دادوا تسعا فان جعلتهما لازمين تعين ماان تكون مصدرية واسنادهما الى الارحام على المجاز فانهما لله تعالى أو لما فيها

أى ليس عليك يا محمد غير الانذار والتخويف وليس لك من الآيات شئ ﴿ولكل قوم هاد﴾ قال ابن عباس الهادى هو الله وهذا قول سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعى والمعنى انما عليك الانذار يا محمد والهادى هو الله يهدى من يشاء وقال عكرمة فى رواية أخرى عنه وأبو الضحى الهادى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى انما أنت منذر وأنت هاد وقال الحسن وقتادة وابن زيد يعنى ولكل قوم نبى يهديهم وقال أبو العالية الهادى هو العمل الصالح وقال أبو صالح الهادى هو القائد الى الخير لا الى الشر * قوله عزوجل ﴿الله يعلم ماتحمل كل أنثى﴾ لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله عزوجل عن عظيم قدرته وكمال علمه وانه عالم بما تحمل كل أنثى يعنى من ذكر أو أنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحدا أو اثنين او اكثر ﴿وماتغيض﴾ يعنى وما تنقص ﴿الارحام وماتزداد﴾ قال أهل التفسير غيض الارحام الحيض على الحمل فاذا حاضت الحامل كان ذلك نقصانا فى الولد لان دم الحيض هو غذاء الولد فى الرحم فاذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد واذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقيل اذا حاضت المرأة فى وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فان رأت خمسة أيام دما وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان فى الغذاء زيادة فى مدة الحمل وقيل النقصان

بها (ولكل قوم هاد) من الانبياء يهديهم الى الدين ويدعوهم الى الله بآية خص بها لا بما يريدون ويتحكمون (الله يعلم ماتحمل كل أنثى وماتغيض الارحام وماتزداد) ما فى هذه المواضع الثلاثة موصولة أى يعلم ماتحمله من الولد على أى حال هو من ذكورة وأنوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك وماتغيضه الارحام أى ويعلم ماتنقصه يقال غاض الماء وغضته أنا وما تزداده والمراد عدد الولد فانها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة أو جسد الولد فانه يكون تاما ومخدجا أو مدة الولادة فانها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عندنا والى أربع عند الشافعى والى خمس عند مالك أو مصدرية أى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الارحام وازديادها

(ولكل قوم هاد) نبى ويقال داع يدعوهم من الضلالة الى الهدى (الله يعلم ماتحمل كل أنثى) كل حامل ذكر هو أو أنثى (وماتغيض) وما تنقص (الارحام) فى الحمل من التسعة (وماتزداد) على التسعة فى الحمل

﴿ وكل شئ عنده بمقدار ﴾ بقدر لايجاوزه ولاينقص عنه كقوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر فانه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين وهيأله اسبابا مسوقة اليه تقتضي ذلك ﴿ عالم الغيب ﴾ الغائب عن الحس ﴿ والشهادة ﴾ الحاضر له ﴿ الكبير ﴾ العظيم الشأن الذى لايبرح عن علمه شئ ﴿ المتعال ﴾ المستعلى على كل شئ بقدرته أو الذى كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه ﴿ سواء منكم من اسر القول ﴾ فى نفسه ﴿ ومن جهر به ﴾ لغيره ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ طالب للخفا فى مختبأ بالليل ﴿ وسارب ﴾ بارز ﴿ بالنهار ﴾ يراه كل احد من سرب سروبا اذا برز وهو عطف على من أو مستخف على ان من فى معنى الاثنين كقوله

نكن مثل من ياذئب يصطحبان

كانه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والآية متصلة بما قبلها مقررة لكمال علمه وشموله ﴿ له ﴾ لمن اسر أوجهر أو استخفى أو سرب

السقط والزيادة تمام الخلق وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر واقل مدة الحمل ستة اشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش واختلفوا فى أكثره فقال قوم أكثر مدة الحمل سنتان وهو قول عائشة وبه قال أبو حنيفة وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وقال جماعة أكثرها أربع سنين واليه ذهب الشافعى وقال حماد بن أبى سلمة انما سمى هرم بن حيان هرما لانه بقى فى بطن أمه أربع سنين وعند مالك ان أكثر مدة الحمل خمس سنين ﴿ وكل شئ عنده بمقدار ﴾ يعنى بتقدير وحد لايجاوزه ولاينقص منه وقيل انه تعالى يعلم كمية كل شئ وكيفيته على أكمل الوجوه وقيل معناه وانه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الازلية وارادته وتقديره الذى لايقدر عليه غيره ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يعنى أنه تعالى يعلم ماغاب عن خلقه ومايشاهدونه وقيل الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود وقيل الغيب ماغاب عن الحس والشاهد ماحضر فى الحس ﴿ الكبير ﴾ أى العظيم الذى يصغر كل كبير بالاضافة الى عظمته وكبريائه فهو يعود الى معنى كبر قدرته وأنه تعالى المستحق لصفات الكمال ﴿ المتعال ﴾ يعنى المنزه عن صفات النقص المتعالى عن الخلق وفيه دليل على انه تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص * قوله تعالى ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ أى مستو منكم من أخفى القول أو كتمه ومن أظهره وأعلنه والمعنى أنه قد استوى فى علم الله تعالى المسر بالقول والجاهر به ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أى مستتر بظلمته ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أى ذاهب بالنهار فى سربه ظاهرا والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال القتيبى السارب المتصرف فى حوائجه قال ابن عباس فى هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل واذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برئ من الاثم وقيل مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشئ اذا اظهرته وأخفيته اذا كتمته وسارب بالنهار أى متوار دخل فى السرب مستخفيا ومعنى الآية سواء ماأضمرت به القلوب أو نطقت به الالسن وسواء من أقدم على القبائح مستترا فى ظلمات الليل أو أتى بها ظاهرا فى النهار فان علمه تعالى محيط بالكل ﴿ له

(وكل شئ عنده بمقدار) بقدر وحد لايجاوزه ولاينقص عنه لقوله انا كل شئ خلقناه بقدر (عالم الغيب) ماغاب عن الخلق (والشهادة) ماشاهدوه (الكبير) العظيم الشان الذى كل شئ دونه (المتعال) المستعلى على كل شئ بقدرته أو الذى كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها وبالياء فى الحالين مكى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى فى علمه (ومن هو مستخف بالليل) متوار (وسارب بالنهار) ذاهب فى سربه أى فى طريقه ووجهه يقال سرب فى الارض سروبا وسارب عطف على من هو مستخف لا على مستخف أو على مستخف غير أن من فى معنى الاثنين والضمير فى (له) مردود على من كانه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى

(وكل شئ) من الزيادة والنقصان وخروج الولد والمكث (عنده بمقدار عالم الغيب) ماغاب عن العباد (والشهادة) ماعلمه العباد ويقال الغيب مايكون والشهادة ما كان ويقال الغيب هو الولد فى الارحام والشهادة هو الذى خرج من الارحام (الكبير) ليس شئ أكبر منه (المتعال) ليس شئ أعلى منه (سواء منكم) عند الله بالعلم (من اسر القول) والفعل (ومن جهر به) من أعلن بالقول والفعل يعلم الله ذلك منه (ومن هو مستخف (قاوخا ٦٠ اث) بالليل) مستتر (وسارب) ظاهر (بالنهار) بقول أو عمل يعلم الله ذلك منه (له

(ومالهم من دونه من وال) من دون الله ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) انتصبا على الحال من البرق كانه في نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف وذا طمع أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين والمعنى يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق ويطمع في الغيث قال أبو الطيب * فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرجى الحيا منه وتخشى الصواعق * أو يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر ومن له بيت يكف ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر ويطمع فيه من له نفع فيه (وينشئ السحاب) هو اسم جنس والواحدة سحابة (الثقال) بالماء وهو جمع ثقيلة تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال (ويسبح الرعد بحمده) قيل يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر أي يصيحون بسبحان الله والحمد لله وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الرعد ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب والصوت الذي يسمع زجره السحاب حتى ينتهي الى حيث أمر (والملائكة من خيفته) ويسبح الملائكة من هيبته واجلاله

﴿ومالهم من دونه من وال﴾ ممن يلي امرهم فيدفع عنهم السوء وفيه دليل على ان خلاف مراد الله تعالى محال ﴿هو الذي يريكم البرق خوفا﴾ من اذاه ﴿وطمعا﴾ في الغيث وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف أي ارادة خوف وطمع أو التأويل بالاخافة والاطماع أو الحال من البرق أو المخاطبين على اضمار ذو أو اطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه ﴿وينشئ السحاب﴾ الغيم المنسحب في الهواء ﴿الثقال﴾ وهو جمع ثقيلة وانما وصف به السحاب لانه اسم جنس في معنى الجمع ﴿ويسبح الرعد﴾ ويسبح سامعوه ﴿بحمده﴾ ملتبسين به فيصيحون بسبحان الله والحمد لله أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته ملتبسا بالدلالة على فضله ونزول رحمته وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الرعد فقال ملك مؤكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب ﴿والملائكة من خيفته﴾

يعني لا يقدر أحد أن يرد ما أنزل الله بهم من قضائه وقدره ﴿ومالهم من دونه من وال﴾ يعني وليس لهم من دون الله من وال يلي أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم * قوله عز وجل ﴿هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا﴾ لما خوف الله عز وجل عباده بقوله واذا أراد الله بقوم سوأ ذكر في هذه الآية من عظيم قدرته ما يشبه النعم من وجه ويشبه العذاب من وجه فقال تعالى هو الذي يعني هو الله الذي يريكم البرق والبرق معروف وهو لمعان يظهر من خلال السحاب * وفي كونه خوفا وطمعا وجوه * الاول ان عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ويطمع في نزول المطر * الثاني انه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ويطمع فيه من له في نزول المطر نفع كالزراع ونحوه * الثالث ان المطر يخاف منه اذا كان في غير مكانه وزمانه ويطمع اليه اذا كان في مكانه وزمانه فان من البلاد ما اذا أمطرت قحطت واذا لم تمطر أخصبت ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ يعني بالمطر يقال أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت والسحاب جمع سحابة والسحاب غربال الماء قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقيل السحاب الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء ولهذا قيل سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر وسمي السحاب سحابا اما لجر الريح له أو لجره الماء أو لانجراره في سيره ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ أكثر المفسرين على ان الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه وأورد على هذا القول ما عطف عليه وهو قوله ﴿والملائكة من خيفته﴾ واذا كان المعطوف مغايرا للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسما لملك من الملائكة وانما افرده

(ومالهم) لمن أراد الله هلاكهم (من دونه) من دون الله (من وال) من مانع من عذاب الله ويقال من ملجأ يلجؤن اليه (هو الذي يريكم البرق) المطر (خوفا) للمسافر بالمطر ان (بالذكر) تبتل ثيابه (وطمعا) للمقيم ان يسقى حرثه (وينشئ) يخلق ويرفع (السحاب الثقال) بالمطر (ويسبح الرعد بحمده) بأمره وهو ملك يقال صوت السماء (والملائكة) وتسبح الملائكة (من خيفته) وهم خائفون من الله

من خوف الله تعالى واجلاله وقيل الضمير للرعد ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ فيهلكه ﴿وهم يجادلون فى الله﴾ حيث يكذبون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالالوهية واعادة الناس ومجازاتهم والجدال التشدد

بالذكر تشريفا له على غيره من الملائكة فهو كقوله وملائكته وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ماهو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذى يسمع قال زجره السحاب حتى تنتهى حيث أمرت قالوا صدقت أخرجه الترمذى مع زيادة فيه المخاريق جمع مخراق وهو فى الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب وقد جاء تفسيره فى حديث آخر وهو صوت من نور تزجر الملائكة به السحاب قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان أصابه صاعقة فعلى ديته وكان عبد الله بن الزبير اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده وملائكة من خيفته وكان يقول ان الوعيد لاهل الارض شديد وفى بعض الاخبار ان الله تعالى يقول لوأن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل واطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه الى حيث يؤمر وان بحور الماء فى نقرة ابهامه وانه يسبح الله فاذا سبح لايبقى ملك فى السماء الارفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وقيل ان الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب ومع ذلك فان صوت الرعد يسبح الله عزوجل لان التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه الله عزوجل عن جميع النقائص ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص وان لم يكن ذلك فى الحقيقة تسبيحا ومنه قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد أن من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبيح اليه وقوله والملائكة من خيفته يعنى ويسبح الملائكة من خيفة الله عزوجل وهيبته وخشيته وقيل المراد بهذه الملائكة أعوان السحاب جعل الله عزوجل مع الملك الموكل بالسحاب أعوانا من الملائكة وهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى ﴿ويرسل الصواعق﴾ جمع صاعقة وهى العذاب النازل من البرق فيحترق من تصيبه وقيل هى الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهى فى ذاتها شئ واحد وهذه الاشياء الثلاثة تنشأ منها ﴿فيصيب بها﴾ يعنى بالصواعق ﴿من يشاء﴾ يعنى فيهلك بها كما أصاب أربد بن ربيعة قال محمد الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر ﴿وهم يجادلون فى الله﴾ يعنى يخاصمون فى الله وقيل المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل اذا أحكمت فتله نزلت

تسقط من السماء لما ذكر علمه النافذ فى كل شئ واستواء الظاهر والخفى عنده وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيته قال (وهم يجادلون فى الله) يعنى الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلون فى الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث واعادة الخلائق بقولهم من يحيى العظام وهى رميم ويردون الوحدانية باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعض الاجسام بقولهم الملائكة بنات الله والواو للحال أى فيصيب بها من يشاء فى حال جدالهم وذلك ان أربد أخا لبيد ابن ربيعة العامرى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامرا بغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية وأرسل على أربد صاعقة فقتلته أخبرنى عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد

(ويرسل الصواعق) يعنى النار (فيصيب بها من يشاء) فيهلك بالنار من يشاء يعنى زيد بن قيس أهلكه الله بالنار وأهلك صاحبه عامر بن الطفيل بطعنة فى خاصرته (وهم يجادلون) يخاصمون (فى الله) فى دين الله مع محمد صلى الله عليه وسلم

﴿وماهو ببالغه﴾ لانه جاد لايشعر بدعائه ولايقدر على اجابته والاتيان بغير ماجبل عليه وكذلك آلهتهم وقيل شبهوا فى قلة جدوى دعائهم لها بمن اراد ان يغترف الماء ليشرب به فيبسط كفيه ليشربه *وقرئ تدعون بالتاء وباسط بالتنوين ﴿ومادعاء الكافرين الا فى ضلال﴾ فى ضياع وخسارة وباطل ﴿ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها﴾ يحتمل ان يكون السجود على حقيقته فانه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعا حالتى الشدة والرخاء والكفرة كرها حالة الشدة والضرورة

وماهو ببالغه ﴾ يعنى الا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جاد لايشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولايقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جاد لايحس بدعائهم ولايستطيع اجابتهم ولايقدر على نفعهم وقيل شبههم فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيأ ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل ان القابض على الماء ناشرا أصابعه لا يكون فى يده منه شئ ولا يبلغ الى فيه منه شئ كذلك الذى يدعو الاصنام لانها لاتضر ولاتنفع ولايفيده منها شئ وقيل شبه بالرجل العطشان الذى يرى الماء من بعيد بعينيه فهو يشير بكفيه الى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبدا هذا معنى قول مجاهد وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يديه الى البئر فلاهو يبلغ الى قعر البئر ليخرج الماء ولا الماء يرتفع اليه فلاينفعه بسطه الكف الى الماء ودعاؤه له ولاهو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الاصنام لاينفعهم ذلك وقال ابن عباس كالعطشان اذا بسط كفيه فى الماء لاينفعه ذلك مالم يغرف بهما من الماء ولايبلغ الماء فاه مادام باسط كفيه وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الاصنام حين لاينفعهم البتة * ثم ختم هذا بقوله ﴿ومادعاء الكافرين﴾ يعنى أصنامهم ﴿الا فى ضلال﴾ يعنى يضل عنهم اذا احتاجوا اليه قال ابن عباس فى هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى * قوله عز وجل ﴿ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها﴾ فى معنا هذا السجود قولان أحدهما ان المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الارض ثم على هذا القول فى معنى الآية وجهان أحدهما ان اللفظ وان كان عاما الا ان المراد منه الخصوص فقوله ولله يسجد من فى السموات يعنى الملائكة ومن فى الارض من الانس يعنى المؤمنين طوعا وكرها يعنى من المؤمنين من يسجد لله طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة وكرها يعنى المنافقين الداخلين فى المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم لانهم لايرجون على سجودهم ثوابا ولايخافون على تركه عقابا بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين الوجه الثانى هو حمل اللفظ على العموم وعلى هذا فى اللفظ اشكال وهو ان جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والانس يسجدون لله طوعا ومنهم من يسجد له كرها كما تقدم واما الكفار من الجن والانس فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه الاشكال والجواب عنه ان المعنى انه يجب على كل من فى السموات ومن فى الارض أن يسجد لله فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول وجواب آخر وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف

كفيه (وماهو ببالغه) وما الماء ببالغ فاه (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) فى ضياع لامنفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الاصنام لم تستطع اجابتهم (ولله يسجد من فى السموات والارض) سجود تعبد وانقياد (طوعا) حال يعنى الملائكة والمؤمنين (وكرها) يعنى المنافقين والكافرين فى حال الشدة والضيق

الماء الى فيه (وماهو ببالغه) بتلك الحال الماء الى فيه أبدا يقول كما لايبلغ الماء فاه هذا الرجل كذلك لاتنفع الاصنام من عبدها (ومادعاء الكافرين) عبادة الكافرين (الا فى ضلال) فى باطل يضل عنهم (ولله يسجد) يصلى ويعبد (من فى السموات) من الملائكة (والارض) من المؤمنين (طوعا) أهل السماء لان عبادتهم بغير مشقة (وكرها) أهل الارض لان عبادتهم بالمشقة ويقال طوعا لاهل الاخلاص وكرها لاهل النفاق ويقال طوعا لمن ولد فى الاسلام وكرها لمن أدخل فى الاسلام جبرا

﴿ وظلالهم ﴾ بالعرض وان يراد به انقيادهم لاحداث ما اراده منهم شاؤا أو كرهوا وانقياد ظلالهم لتصريفه اياها بالمد والتقليص وانتصاب طوعا وكرها بالحال أو العلة وقوله ﴿ بالغدو والآصال ﴾ ظرف ليسجد والمراد بهما الدوام أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين لان الامتداد والتقليص اظهر فيهما والغدو جمع غداة كقنى جمع قناة والآصال جمع اصيل وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده انه قرئ به والايصال وهو الدخول فى الاصيل ﴿ قل من رب السموات والارض ﴾ خالقهما ومتولى امرهما ﴿ قل الله ﴾ اجب عنهم بذلك اذ لا جواب لهم سواه ولانه البين

بالعظمة والعبودية وكل من فى السموات من ملك ومن فى الارض من أنس وجن فانهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والقول الثانى فى معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من فى السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لان قدرته ومشيئته نافذة فى الكل فهم خاضعون منقادون له ﴿ وقوله تعالى ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ الغدوة والغداة أول النهار وقيل الى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والآصال جمع أصل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهى ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس قال المفسرون ان ظل كل شخص يسجد لله سواء ظل المؤمن والكافر وقال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره وقال الزجاج جاء فى التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانبارى لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال أفهاما حتى سبحت لله مع داود وقيل المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب الى جانب آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال تعظم وتكثر فى هذين الوقتين وقيل لانهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما

﴿ فصل ﴾

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ قل من رب السموات والارض ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله من رب السموات والارض يعنى من مالك السموات والارض ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون الله لانهم مقرون بان الله خالق السموات وما فيها والارض وما فيها فاذا أجابوك بذلك فقل أنت يا محمد الله رب السموات والارض وقيل لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فامره الله أن يجيبهم بقوله ﴿ قل الله ﴾ أى قل يا محمد الله وقيل انما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة لان المشركين لا ينكرون ان الله خالق كل شئ فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضا ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام

(وظلالهم) معطوف على من جمع ظل (بالغدو) جمع غداة كقنى وقناة (والآصال) جمع اصل جمع أصيل قيل ظل كل شئ يسجد لله بالغدو والآصال وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره وظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع (قل من رب السموات والارض قل الله) حكاية لاعترافهم لانه اذا قال لهم من رب السموات والارض لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله دليله قراءة ابن مسعود وأبى قالوا الله أو هو تلقين أى فان لم يجيبوا فلقنهم فانه لا جواب الا هذا

(وظلالهم) ظلال من يسجد لله أيضا تسجد (بالغدو والآصال) غدوة وعشية غدوة عن أيمانهم وعشية عن شمائلهم (قل) يا محمد لاهل مكة (من رب) من خالق (السموات والارض) فان أجابوك وقالوا الله والا (قل الله) خالقهما

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء) أبعد أن علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه آلهة (لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) لا يستطيعون لانفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضررا عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم

(قل هل يستوى الاعمى والبصير) أى الكافر والمؤمن أو من لا يبصر شيأ ومن لا يخفى عليه شئ (أم هل تستوى الظلمات والنور) ملل الكفر والايمان يستوى كوفى غير حفص (أم جعلوا لله شركاء) بل أجعلوا و معنى الهمزة الانكار (خلقوا كخلقه) خلقوا مثل خلقه وهو صفة لشركاء أى انهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله (فتشابه الخلق عليهم) فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق

الذى لا يمكن المراء فيه أولقنهم الجواب به ﴿قل أفاتخذتم من دونه﴾ ثم الزمهم بذلك لان اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل ﴿اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا﴾ لا يقدرون على ان يجلبوا اليها نفعا أو يدفعوا عنها ضرا فكيف يستطيعون ايقاع الخير ودفع الضر عنه وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم فى اتخاذهم اولياء رجاء ان يشفعوا لهم ﴿قل هل يستوى الاعمى والبصير﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها والموحد العالم بذلك وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على احوالكم ﴿أم هل تستوى الظلمات والنور﴾ الشرك والتوحيد * وقرأ حمزة والكسائى وابوبكر بالياء ﴿أم جعلوا لله شركاء﴾ بل اجعلوا والهمزة للانكار وقوله ﴿خلقوا كخلقه﴾ صفة لشركاء داخلة فى حكم الانكار ﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ خلق الله وخلقهم والمعنى انهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا عما يقدر عليه الخالق

بقوله ﴿قل﴾ أى قل يا محمد للمشركين ﴿أفاتخذتم من دونه﴾ يعنى من دون الله ﴿أولياء﴾ يعنى الاصنام والولى الناصر والمعنى توليتم غير رب السموات والارض واتخذتموهم انصارا يعنى الاصنام ﴿لا يملكون﴾ يعنى وهم لا يملكون ﴿لأنفسهم نفعا ولا ضرا﴾ فكيف لغيرهم ثم ضرب الله مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى ﴿قل هل يستوى الاعمى والبصير﴾ قال ابن عباس يعنى المشرك والمؤمن ﴿أم هل تستوى الظلمات والنور﴾ يعنى الشرك والايمان والمعنى كما لا يستوى الاعمى والبصير كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن وكما لا تستوى الظلمات والنور كذلك لا يستوى الكفر والايمان وانما شبه الكافر بالاعمى لان الاعمى لا يهتدى سبيلا كذلك الكافر لا يهتدى سبيلا ﴿أم جعلوا لله شركاء﴾ هذا استفهام انكار يعنى جعلوا لله شركاء ﴿خلقوا كخلقه﴾ يعنى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا ﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ من هذا الوجه والمعنى هل رأوا غير الله خلق شيأ فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره وقيل انه تعالى وبخهم بقوله أم جعلوا لله شركاء خلقوا خلقا مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا الاستفهام انكارى أى ليس الامر كذلك حتى يشتبه عليهم الامر بل اذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الاشياء والشركاء مخلوقون له أيضا لا يخلقون شيأ حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء واذا كان الامر كذلك فقد

(قل) يا محمد (أفاتخذتم) عبدتم (من دونه) من دون الله (أولياء) أربابا من الآلهة (لا يملكون لأنفسهم نفعا) جر النفع (ولا ضرا) دفع الضر (قل) لهم يا محمد (هل يستوى الاعمى والبصير) الكافر والمؤمن (أم هل تستوى الظلمات والنور) يعنى الكفر والايمان (لزمتهم) (أم جعلوا لله) وصفوا لله (شركاء) من الآلهة (خلقوا) خلقا (كخلقه) كخلق الله (فتشابه الخلق) فتشابه كل الخلق (عليهم) فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم

﴿قل الله خالق كل شئ﴾ أى لا خالق غيره فيشاركه فى العبادة جعل الخلق موجب العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عما سواه ليدل على قوله ﴿وهو الواحد﴾ المتوحد بالالوهية ﴿القهار﴾ الغالب على كل شئ ﴿انزل من السماء ماء﴾ من السحاب أو من جانب السماء أو من السماء نفسها فان المبادى منها ﴿فسالت اودية﴾ انهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه وتنكيرها لان المطر يأتى على تناوب بين البقاع ﴿بقدرها﴾ بمقدارها الذى علم الله تعالى انه نافع غير ضار أو بمقدارها فى الصغر والكبر

لزمتهم الحجة وهو قوله تعالى ﴿قل الله خالق كل شئ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شئ مما يصح ان يكون مخلوقا وقوله الله خالق كل شئ من العموم الذى يراد به الخصوص لان الله تعالى خلق كل شئ وهو غير مخلوق ﴿وهو الواحد﴾ يعنى والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الاشياء كلها ﴿القهار﴾ لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وارادته ﴿وقوله عز وجل ﴿أنزل من السماء ماء﴾ لما شبه الله عز وجل الكافرين بالاعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات والايمان بالنور ضرب لذلك مثلا فقال تعالى أنزل من السماء ماء يعنى المطر ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أودية جمع وادوهو المفرج بين الجبلين يسيل فيه الماء وقوله فسالت أودية فيه اتساع وحذف تقديره فسال فى الوادى فهو كما يقال جرى النهر والمراد جرى الماء فى النهر فحذف فى لدلالة الكلام عليه بقدرها قال مجاهد بملئها وقال ابن جريج الصغير بقدره والكبير بقدره وقيل بمقدار مائها وانما نكر أودية لان المطر اذا نزل لايعم جميع الارض ولا يسيل فى كل الاودية بل ينزل فى أرض دون أرض ويسيل فى واد دون واد فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير وقال ابن عباس أنزل من السماء ماء يعنى قرآنا وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت أودية بقدرها يريد بالاودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور والبيان بنزول المطر لان المطر اذا نزل عم نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالاودية لان الاودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الايمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها وهذا خاص بالمؤمنين لانهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه مابعثنى الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به قال الشيخ محيي الدين النووى رحمه الله وغيره فى معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فبالهمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش وأما قوله وكان منها أجادب فبالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا فى الصحيحين وهى الارض التى لاتنبت الكلأ

(قل الله خالق كل شئ) أى خالق الاجسام والاعراض لا خالق غير الله ولا يستقيم أن يكون له شريك فى الخلق فلا يكون له شريك فى العبادة ومن قال ان الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فتشابه الخلق على قولهم (وهو الواحد) المتوحد بالربوبية (القهار) لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور (أنزل) أى الواحد القهار وهو الله سبحانه (من السماء) من السحاب (ماء) مطرا (فسالت أودية) جمع واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة وانما نكر لان المطر لا يأتى الا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الارض دون بعض (بقدرها) بمقدارها الذى علم الله انه نافع للممطور عليهم غير ضار

(قل) يا محمد (الله خالق كل شئ) بأن منه لا الآلهة لا اله الا هو (وهو الواحد القهار) الغالب على خلقه ثم ضرب مثل الحق والباطل فقال (أنزل من السماء ماء) يقول أنزل جبريل بالقرآن وبين فيه الحق والباطل (فسالت أودية بقدرها) فاحتملت القلوب المنورة الحق بقدر سعتها ونورها

(فاحتمل السيل)أى رفع (زبدا)هوماعلاءعلى وجه الماءمن الرغوة والمعنى علاه زبد (رابيا) منتفخامرتفعاعلى وجه السيل(ومما توقدون عليه)وبالياء كوفى غيرأبى بكر ومن لابتداءالغايةأى ومنه ينشأزبدمنه زبد الماء أى للتبعيض أى وبعضه زبد(فى النار)حال من الضمير فى عليه أى ومما توقدون عليه ثابتا فى النار (ابتغاءحلية) مبتغين حلية فهومصدر فى موضع الحال من الضمير فى توقدون(أو متاع)من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الاوانى ومايتمتع به فى الحضر والسفروهو معطوف على حلية أى زينة من الذهب والفضة(زبد) خبث وهو مبتدأ (مثله) نعت له ومما توقدون خبرله أى لهذه الفلزات اذاأغليت زبدمثل زبد

(فاحتمل السيل) القلوب المظلمة (زبدارابيا) باطلا كثيرابهواها(ومما يوقدون عليه فى النار) وهذا مثل آخر يقول ومما تطرحون فى النارمن الذهب والفضة فيه خبث مثل زبدالبحر الملح(ابتغاء)طلب (حلية) تلبسونها يقول مثل الحق مثل الذهب والفضة ينتفع بهما كذلك الحق ينتفع به صاحبه ومثل الباطل مثل خبث الذهب والفضة لاينتفع به كذلك لاينتفع بالباطل صاحبه (أومتاع)أوحديدأونحاس (زبدمثله)يقول يكون له خبث أى مثله مثل زبدالماء وهذامثل آخريقول مثل الحق كمثل الحديدوالنحاس ينتفع بهمافكذلك الحق ينتفع به صاحبه ومثل الباطل كمثل ﴿ عليه ﴾

﴿ فاحتمل السيل زبدا ﴾ رفعه والزبد وضر الغليان ﴿ رابيا ﴾ عاليا ﴿ ومما توقدون عليه فى النار ﴾ يعم الفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها اظهارا لكبريائه ﴿ ابتغاء حلية ﴾ أى طلب حلى ﴿ أومتاع ﴾ كالاوانى وآلات الحرب والحرث والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿ زبدمثله ﴾ أى ومما توقدون عليه

جمع جدب على غير قياس وقياسه أجدب والجدب ضدالخصب وقال الخطابى هى التى تمسك الماءولم يسرع فيه النضوب وفى رواية الهروى اخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع اخاذة وهى الغدير الذى يمسك الماءوقوله ورعوا كذاهوفى صحيح مسلم من الرعى ووقع فى صحيح البخاوى وزرعوا بزيادة زاء من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوى من الارض وقوله فذلك مثل من فقه فى دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور وروى بكسرها ومعناه فهم الاحكام وأمامعنى الحديث ومقصوده فهوان النبى صلى الله عليه وسلم ضرب مثلالماجاءبه من الهدى والعلم بالارض التى أصابها المطر قال العلماء والارض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لانهم منها خلقوا فالنوع الاول من انواع الارض الطيبة التى تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب والرعى وغير ذلك وكذلك النوع الاول من الناس من يبلغه الهدى وغيرذلك من العلم فيحيى به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالاخاذات لان قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بمارزقت من صفاء الفهوم النوع الثانى من أنواع الارض أرض لاتقبل الانتفاع فى نفسها لكن فيها فائدة لغيرها وهى امساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثانى من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليس لهم أفهام ثاقبة فيبقى ماعندهم من العلم حتى يجىء المحتاج اليه المتعطش لماعندهم من العلم فيأخذ منهم فينتفع به هو وغيره النوع الثالث من أنواع الارض ارض سبخة لاتنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة ولاأفهام ثاقبة فاذا بلغهم شىء من العلم لاينتفعون به فى انفسهم ولاينفعون غيرهم والله أعلم

* وقوله تعالى ﴿ فاحتمل السيل زبدا ﴾ الزبد مايعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب وكذلك مايعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا ﴿ رابيا ﴾ يعنى عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه وهنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى ﴿ ومما توقدون عليه فى النار ﴾ الايقاد جعل الحطب فى النار لتتقد تلك النار تحت الشىء ليذوب ﴿ ابتغاء حلية ﴾ يعنى لطلب زينة والضمير فى قوله عليه يعود على الذهب والفضة وان لم يكونا مذكورين لان الحلية لاتطلب الا منهما ﴿ أومتاع ﴾ يعنى أولطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الاوانى وغيرها مما ينتفع به والمتاع كل مايتمتع به ويقال لكل ماينتفع به فى البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الاوانى متاع ﴿ زبد مثله ﴾ يعنى ان ذلك الذى يوقد

الماء (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى مثل الحق والباطل (فاما الزبد فيذهب جفاء) حال أى متلاشيا وهو ماتقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمى وجفوت الرجل صرعته (وأما ماينفع الناس) من الماء والحلى والاوانى (فيمكث فى الارض) فيثبت الماء فى العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى فى الارض مدة طويلة (كذلك يضرب الله الامثال) ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بانواع المنافع وبالفلز الذى ينتفعون به فى صوغ الحلى منه واتخاذ الاوانى والآلات المختلفات وذلك ماكث فى الارض باق بقاء ظاهرا يثبت الماء فى منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة مطاولة وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذى يرمى به وبزبد الفلز الذى يطفو فوقه اذا أذيب قال الجمهور وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للابدان والاودية القلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان والماء الصافى المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للاحوال السنية والاخلاق الزكية وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للاعمال الممدة بالاخلاص المعدة للخلاص فان الاعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما ان تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع فى الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل واللام فى

زبد مثل زبد الماء وهو خبثه ومن للابتداء أو للتبعيض * وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالياء على ان الضمير للناس واضماره للعلم به ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ مثل الحق والباطل فانه مثل الحق فى افادته وثباته بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به انواع المنافع ويمكث فى الارض بان يثبت بعضه فى منابعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقنى والآبار وبالفلز الذى ينتفع به فى صوغ الحلى واتخاذ الامتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة والباطل فى قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وبين ذلك بقوله ﴿فاما الزبد فيذهب جفاء﴾ يجفأ به ان يرمى به السيل أو الفلز المذاب وانتصابه على الحال وقرئ جفالا والمعنى واحد ﴿واما ما ينفع الناس﴾ كالماء وخلاصة الفلز ﴿فيمكث فى الارض﴾ ينتفع به اهلها ﴿كذلك يضرب الله الامثال﴾ لايضاح المشتبهات

عليه فى النار اذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء فالصافى من الماء ومن هذه الجواهر هو الذى ينتفع به وهو مثل الحق والزبد من الماء ومن هذه الجواهر هو الذى لا ينتفع به وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ فالحق هو الجوهر الصافى الثابت والباطل هو الزبد الطافى الذى لا ينتفع به وهو قوله ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ يعنى ضائعا باطلا والجفاء مارمى به الوادى من الزبد الى جوانبه وقيل الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم اذا فرقته والمعنى ان الباطل وان علا فى وقت فانه يضمحل ويذهب ﴿وأما ما ينفع الناس﴾ يعنى الماء الصافى والجوهر الجيد من هذه الاجسام التى تذاب ﴿فيمكث فى الارض﴾ يعنى يثبت ويبقى ولا يذهب ﴿كذلك يضرب الله الامثال﴾ قال أهل التفسير والمعانى هذا مثل ضربه الله للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق فى بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافى

خبث الحديد والنحاس لا ينتفع به كما لا ينتفع بخبث الحديد والنحاس (كذلك يضرب الله) يبين الله (الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء) يقول يذهب كما جاء لا ينتفع به فكذلك الباطل لا ينتفع به (وأما ما ينفع الناس) وهو الماء الصافى والذهب والفضة والحديد والنحاس (فيمكث فى الارض) ينتفع به فكذلك الحق ينتفع به (كذلك يضرب الله الامثال) يبين الله أمثال الحق والباطل

﴿للذين استجابوا﴾ للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لربهم الحسنى﴾ الاستجابة الحسنى ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ وهم الكفرة واللام متعلقة بيضرب على انه جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما وقيل للذين استجابوا خبر الحسنى وهى المثوبة والجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره ﴿لوان لهم مافى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به﴾ وهو على الاول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين ﴿اولئك لهم سوء الحساب﴾ وهو المناقشة فيه بان يحاسب الرجل بذنبه لايغفر منه شئ ﴿ومأواهم﴾ مرجعهم ﴿جهنم وبئس المهاد﴾ المستقر والمخصوص بالذم محذوف ﴿أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق﴾ فيستجيب

الذى ينتفع به وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو ماينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل فالباطل وان علا فى وقت فانه يذهب هو وأهله والحق يظهر هو وأهله وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذى لاينتفع به البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للنور الذى يحصل فى قلوب العباد على ماقسم لها فى الازل لان الوادى اذا سال كنس كل شئ فيه من النجاسات والمستقذرات كذلك اذا سال وادى قلب العبد بالنور الذى قسم له على قدر ايمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض يعنى يذهب البواطل وهى الاخلاق المذمومة وتبقى الحقائق وهى الاخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الامثال ❁ وقوله تعالى ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ قيل اللام فى للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا لربهم يعنى أجابوه الى مادعاهم اليه من توحيده والايمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الامثال للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الامثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى قال ابن عباس وجمهور المفسرين يعنى الجنة وقيل الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ يعنى الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه ﴿لوان لهم مافى الارض جميعا ومثله معه لأفتدوا به﴾ يعنى لبذلوا ذلك كله فداء لانفسهم من عذاب النار يوم القيامة ﴿أولئك﴾ يعنى الذين لم يستجيبوا لربهم ﴿لهم سوء الحساب﴾ قال ابراهيم النخعى سوء الحساب ان يحاسب الرجل بذنبه كله ولايغفر له منه شئ ﴿ومأواهم﴾ يعنى فى الآخرة ﴿جهنم وبئس المهاد﴾ يعنى وبئس مامدلهم فى الآخرة وقيل المهاد الفراش يعنى وبئس الفراش يفرش لهم فى جهنم ❁ قوله تعالى ﴿أفمن يعلم ان ماانزل اليك من ربك الحق﴾

وللكافرين الذين لم يستجيبوا أى هما مثلا الفريقين وقوله (لوأن لهم مافى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) كلام مبتدأ فى ذكر ما أعد لغير المستجيبين أى لو ملكوا اموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله والوجه أن الكلام قد تم على الامثال ومابعده كلام مستأنف والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا والمعنى لهم المثوبة الحسنى وهى الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع مافى حيزه (أولئك لهم سوء الحساب) المناقشة فيه فى الحديث من نوقش الحساب عذب (ومأواهم جهنم) ومرجعهم بعد المحاسبة النار (وبئس المهاد) المكان الممهد والمذموم محذوف أى جهنم دخلت همزة الانكار على الفاء فى (أفمن يعلم) الانكار ان تقع شبهة مابعد ماضرب من المثل فى أن حال من علم (أن ما أنزل اليك من ربك الحق)

(للذين استجابوا لربهم) بالتوحيد فى الدنيا (الحسنى) لهم الجنة فى الآخرة (والذين لم يستجيبوا له) لربهم بالتوحيد (لوأن لهم مافى الارض) من الذهب والفضة (جميعا ومثله معه) ضعفه معه (لأفتدوا به) لفادوا به أنفسهم (أولئك لهم سوء الحساب) شدة العذاب (يعنى) (ومأواهم) مصيرهم (جهنم وبئس المهاد) الفراش والمصير (أفمن يعلم) يصدق (أنما أنزل اليك من ربك) يعنى القرآن (الحق) هو

فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذى لم يستبصر فيستجيب وهو المراد بقوله (كمن هو أعمى) كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والابريز (انما يتذكر أولوا الالباب) أى الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا (الذين يوفون بعهد الله) مبتدأ والخبر أولئك لهم عقبى الدار كقوله والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة وقيل هو صفة لاولى الالباب والاول أوجه وعهد الله ماعقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى (ولا ينقضون الميثاق) ما أوثقوه على انفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الارحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الايمان انما المؤمنون اخوة بالاحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وافشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حق الاصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر

﴿كمن هو اعمى﴾ عمى القلب لايستبصر فتستجيب والهمزة لانكار ان تقع شبهة فى تشابههما بعد ماضرب من المثل ﴿انما يتذكر اولوا الالباب﴾ ذووا العقول المبرات عن مشايعة الالف ومعارضة الوهم ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ بما عقدوه على انفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى أو ماعهده الله تعالى عليهم فى كتبه ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ ماوثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص ﴿والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام ويندرج فى ذلك مراعاة جميع حقوق الناس

يعنى فيؤمن به ويعمل بما فيه ﴿كمن هو اعمى﴾ يعنى اعمى البصيرة لا اعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم وابى جهل بن هشام وقيل نزلت فى عمار بن ياسر وابى جهل فالاول هو حمزة أو عمار والثانى هو ابو جهل وحمل الآية على العموم اولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوى من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدى لرشد وربما وقع فى مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان فى المهلكة ﴿انما يتذكر اولوا الالباب﴾ يعنى انما يتعظ ذووا العقول السليمة الصحيحة وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والاذكار ❀ قوله عز وجل ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ يعنى الذى عاهدهم عليه وهو القيام بما امرهم به وفرضه عليهم واصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال وقيل اراد بالعهد ما اخذه على اولاد آدم حين اخرجهم من صلبه واخذ عليهم العهد والميثاق ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله ﴿والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل﴾ قال ابن عباس يريد الايمان بجميع الكتب والرسل يعنى يصل بينهم بالايمان ولا يفرق بين احد منهم والاكثرون على ان المراد به صلة الرحم ❀ عن عبد الرحمن بن عوف قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى انا الله وانا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته اوقال بتته اخرجه ابو داود والترمذى (ق) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله (خ) عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من سره ان يبسط له فى رزقه وان ينسأ له فى اثره فليصل رحمه صلة الرحم مبرة الاهل والاقارب والاحسان اليهم وضده القطع ❀ قوله وان ينسأ له فى اثره الاثر هنا الاجل وسمى الاجل اثرا لانه تابع للحياة وسابقها ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وهو على وجهين احدهما ان

الحق (كمن هو أعمى) كافر (انما يتذكر) يتعظ بما أنزل اليك من القرآن (أولوا الالباب) ذووا العقول من الناس (الذين يوفون بعهد الله) يتمون فرائض الله (ولا ينقضون الميثاق) لا يتركون فرائض الله (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الارحام ويقال من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن

﴿ويخشون ربهم﴾ وعيده عموما ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ خصوصا فيحاسبون انفسهم قبل ان يحاسبوا ﴿والذين صبروا﴾ على ماتكرهه النفس ويخالفه الهوى ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ طلبا لرضاه لاتحرزا وسمعة ونحوهما ﴿واقاموا الصلوة﴾ المفروضة ﴿وانفقوا مما رزقناهم﴾ بعضه الذى وجب عليهم انفاقه ﴿سرا﴾ لمن لم يعرف بالمال ﴿وعلانية﴾

يبارك الله له فى عمره فكأنما قد زاد فيه والثانى ان يزيده فى عمره زيادة حقيقية والله يفعل مايشاء (ق) عن جبير بن مطعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لايدخل الجنة قاطع زاد فى رواية قال سفيان يعنى قاطع رحم (خ) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها ❊ عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا من انسابكم ماتصلون به ارحامكم فان صلة الرحم محبة فى الاهل ومثراة فى المال ومنسأة فى الاثر اخرجه الترمذى ❊ وقوله تعالى ﴿ويخشون ربهم﴾ يعنى انهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما امر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم والخشية خوف يشوبه تعظيم واكثر مايكون ذلك عن علم بما يخشى منه ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ تقدم معناه ﴿والذين صبروا﴾ يعنى على طاعة الله وقال ابن عباس على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصى وقيل حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصى من الحسد والحقد والغيبة وغير ذلك من المنهيات ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على مانزل به من الامراض والمصائب وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ماذكر وانما قيد الصبر بقوله ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ لان الصبر ينقسم الى نوعين الاول الصبر المذموم وهو ان الانسان قد يصبر ليقال ماأكمل صبره وأشد قوته على ماتحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع وقد يصبر لئلا تتشمت به الاعداء وكل هذه الامور وان كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلا تحت قوله ابتغاء وجه ربهم لانها لغير الله تعالى النوع الثانى الصبر المحمود وهو ان يكون الانسان صابرا لله تعالى راضيا بما نزل به من الله طالبا فى ذلك الصبر ثواب الله محتسبا أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعنى صبروا على مانزل بهم تعظيما لله وطلب رضوانه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ يعنى الصلاة المفروضة وقيل حمله على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد باقامتها اتمام أركانها وهيآتها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية﴾ قال الحسن المراد به الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك اداء الزكاة فالاولى ان يؤديها سرا وان كان متهما بترك اداء الزكاة فالاولى أن يؤديها علانية وقيل ان المراد بالسر مايخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية

(ويخشون ربهم) أى وعيده كله (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) مطلق فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والاموال ومشاق التكاليف (ابتغاء وجه ربهم) لاليقال ماأصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ولا لئلا يعاب فى الجزع (وأقاموا الصلوة) داوموا على اقامتها (وأنفقوا مما رزقناهم) أى من الحلال وان كان الحرام رزقا عندنا (سرا وعلانية) يتناول النوافل لانها فى السر أفضل والفرائض لان المجاهرة بها أفضل نفيا للتهمة

(ويخشون ربهم) يعملون لربهم (ويخافون سوء الحساب) شدة العذاب (والذين صبروا) على امر الله والمرازى (ابتغاء وجه ربهم) طلب رضا ربهم (وأقاموا الصلوة) أتموا الصلوات الخمس (وأنفقوا مما رزقناهم) تصدقوا مما أعطيناهم (سرا) فيما بينهم وبين الله (وعلانية) فيما بينهم وبين الناس

﴿ مايؤديه ﴾

(ويدرؤن بالحسنة السيئة) ويدفعون بالحسن من الكلام مايرد عليهم من سيئ غيرهم أو اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا واذا أذنبوا تابوا واذا هربوا أنابوا واذا رأوا منكرا أمروا بتغييره فهذه ثمانية أعمال تشير الى ثمانية أبواب الجنة (أولئك لهم عقبى الدار) عاقبة الدنيا وهى الجنة لانها التى أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها (جنات عدن) بدل من عقبى الدار (يدخلونها ومن صلح) أى آمن (من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) وقرئ صلح والفتح أفصح ومن فى محل الرفع بالعطف على الضمير فى يدخلونها وساغ ذلك وان لم يؤكد لان ضمير المفعول صار فاصلا وأجاز الزجاج أن يكون مفعولا معه ووصفهم بالصلاح ليعلم ان الانساب لاتنفع بنفسها والمراد أبو كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم

لمن عرف به ﴿ ويدرؤن بالحسنة السيئة ﴾ ويدفعونها بها فيجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون السيئة الحسنة فتمحوها ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ عاقبة الدنيا وماينبغي ان يكون مآل اهلها وهى الجنة والجملة خبر الموصولات ان رفعت بالابتداء وان جعلت صفات لاولى الالباب فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات ﴿ جنات عدن ﴾ بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره ﴿ يدخلونها ﴾ والعدن الاقامة أى جنات عدن يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ عطف على المرفوع فى يدخلون وانما ساغ للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى انه يلحق بهم من صلح من اهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشأنهم وهو دليل على ان الدرجة تعلو بالشفاعة أو ان الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى انفسهم والتقييد بالصلاح

مايؤديه الى الامام وقيل المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله على العموم أولى ﴿ ويدرؤن بالحسنة السيئة ﴾ قال ابن عباس يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ وهو معنى قوله ان الحسنات يذهبن السيآت ﴿ ويدل على صحة هذا التأويل ماجاء فى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم قال واذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية ﴿ وروى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى خرج الى الارض وقال ابن كيسان يدفعون الذنب بالتوبة وقيل لايكافؤن الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبى معناه اذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة وقال قتادة ردوا عليهم ردا معروفا وقال الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا قال عبد الله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة الى أبواب الجنة الثمانية قلت انما هى تسع خلال فيحتمل انه عد خلتين بواحدة ولما ذكر الله عز وجل هذه الخلال من أعمال البر ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى ﴿ أولئك ﴾ يعنى من أتى بهذه الاعمال ﴿ لهم عقبى الدار ﴾ يعنى الجنة والمعنى ان عاقبتهم دار الثواب ﴿ جنات عدن ﴾ بدل من عقبى الدار يعنى بساتين اقامة يقال عدن بالمكان اذا أقام به ﴿ يدخلونها ﴾ يعنى الدار التى تقدم وصفها ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ يعنى ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به وان لم يعمل بأعمالهم قاله ابن عباس وقال الزجاج ان الانسان لاينتفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس معنى صلح صدق وآمن ووحد وعلى قول الزجاج معناه أصلح فى عمله قال الواحدى والصحيح ماقاله ابن عباس لان الله تعالى جعل ثواب المطيع

(ويدرؤن بالحسنة السيئة) يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيئ اذا أورد عليهم (أولئك) أهل هذه الصفة من قوله انما يتذكر الى ههنا (لهم عقبى الدار) يعنى الجنة ثم بين أى الجنات لهم فقال (جنات عدن) وهى مقصورة الرحمن وهى معدن الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين (قا و خا ٦٢ لث) (يدخلونها ومن صلح) من وحد (من آبائهم) يدخلونها أيضا (وأزواجهم) من وحد من أزواجهم يدخلها أيضا (وذرياتهم) من وحد من ذرياتهم يدخلون أيضا جنات عدن

وأمهاتهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشارات الرضا (سلام عليكم) في موضع الحال اذ المعنى قائلين سلام عليكم أو مسلمين (بما صبرتم) متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أي هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات أو على أمر الله أو بسلام أي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والاول أوجه (فنعم عقبى الدار) الجنات (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) من بعدما أو ثقوه به من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل

دلالة على ان مجرد الانساب لاتنفع ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ من ابواب المنازل أو من ابواب الفتوح والتحف قائلين ﴿ سلام عليكم ﴾ بشارة بدوام السلامة ﴿ بما صبرتم ﴾ متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم لا بسلام فان الخبر فاصل والباء للسببية أو للبدلية ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ وقرئ فنعم بفتح النون والاصل نعم فسكن العين بنقل كسرتها الى الفاء وبغيره ﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾ يعني مقابلي الاولين ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ من بعد ما اوثقوه به من الاقرار والقبول ﴿ ويقطعون ما امر الله به ان يوصل

سروره بما يراه في أهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء فدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتي بالاعمال الصالحة ولو كان دخولهم الجنة باعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به اذ كل من كان صالحا في عمله فهو يدخل الجنة قال الامام فخر الدين الرازي قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه مايدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وروى انه لما كبرت سودة أراد النبي صلى الله عليه وسلم فراقها فسألته أن لايفعل ووهبت يومها لعائشة فامسكها رجاء ان تحشر في جملة أزواجه فهو كالدليل على ماذكرناه * وقوله تعالى ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ يعني من أبواب الجنة وقيل من أبواب القصور قال ابن عباس يريد به التحية من الله والتحف والهدايا ﴿ سلام عليكم ﴾ يعني يقولون سلام عليكم فاضمر القول ههنا لدلالة الكلام عليه ﴿ بما صبرتم ﴾ يعني يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونها في الدنيا وأدخلكم بما صبرتم في دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة وقيل ان السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعني سلمكم الله بما صبرتم قال مقاتل ان الملائكة يدخلون عليهم في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون سلام عليكم بما صبرتم * وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة موقوفا عليه قال ان المؤمن ليكون متكئا على أريكته اذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم الى الباب فاذا بالملك يستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم الى المؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ يعني فنعم العقبى عقبى الدار وقيل معناه فنعم عقبى الدار ما أنتم فيه ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الاشقياء ومالهم من العقوبات فقال تعالى والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ونقض العهد ضد الوفاء به وهذا من صفة الكفار لانهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما اوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول ﴿ ويقطعون ما امر الله به أن يوصل ﴾ يعني ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) يقول لكل واحد منهم خيمة من درة مجوفة لها أربعة آلاف باب لكل باب مصراع يدخل عليهم من كل باب ملك يقولون (سلام عليكم بما صبرتم) هذه الجنة بما صبرتم على أمر الله والمرازي (فنعم عقبى الدار) نعم الجنة لكم (والذين ينقضون عهد الله) يتركون فرائض الله (من بعد ميثاقه) تغليظه وتشديده وتأكيده (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الارحام والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن

ويفسدون فى الارض) بالكفر والظلم (أولئك لهم اللعنة) الابعاد من الرحمة (ولهم سوء الدار يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا لانه فى مقابلة عقبى الدار وان يراد بالدار جهنم وبسوءها عذابها (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى ويضيق لمن يشاء والمعنى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدر دون غيره (وفرحوا بالحيوة الدنيا) بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وانعامه عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا فى الآخرة الا متاع) وخفى عليهم أن نعيم الدنيا فى جنب نعيم الآخرة ليس الا شيأ نزرا يتمتع به كعجالة الراكب وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى الآية المقترحة (قل ان الله يضل من يشاء) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ويهدى اليه من أناب) ويرشد الى دينه من رجع اليه بقلبه

ويفسدون فى الارض ﴾ بالظلم وتهييج الفتن ﴿ اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدنيا لانه فى مقابلة عقبى الدار ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ يوسعه ويضيقه ﴿ وفرحوا ﴾ أى اهل مكة ﴿ بالحيوة الدنيا ﴾ بما بسط لهم فى الدنيا ﴿ وما الحيوة الدنيا فى الآخرة ﴾ أى فى جنب الآخرة ﴿ الا متاع ﴾ الامتعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعى والمعنى انهم اشروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو فى جنبه نزر قليل النفع سريع الزوال ﴿ ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿ ويهدى اليه من اناب ﴾ اقبل الى الحق ورجع عن العناد وهو جواب يجرى مجرى التعجب من قولهم كأنه قال قل لهم ما اعظم عنادكم ان الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم فلا سبيل الى اهتدائهم وان نزلت كل آية ويهدى اليه

والقرابة ﴿ ويفسدون فى الارض ﴾ يعنى بالكفر والمعاصى ﴿ أولئك ﴾ يعنى من هذه صفته ﴿ لهم اللعنة ﴾ يعنى الطرد عن رحمة الله يوم القيامة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ يعنى النار لان منقلب الناس فى العرف الى دورهم ومنازلهم فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهى الجنة والكفار لهم سوء الدار وهى النار * قوله تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ يعنى يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه من فضله ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه وهذا أمر اقتضته حكمة الله ﴿ وفرحوا بالحيوة الدنيا ﴾ يعنى مشركى مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا والفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المشتهى وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا والركون اليها حرام ﴿ وما الحيوة الدنيا فى الآخرة ﴾ يعنى بالنسبة الى الآخرة ﴿ الا متاع ﴾ أى قليل ذاهب قال الكلبى المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها فى الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة الدنيا لانها ذاهبة لا بقاء لها ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ يعنى من أهل مكة ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ يعنى هلا انزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى ﴿ قل ﴾ أى قل لهم يا محمد ﴿ ان الله يضل من يشاء ﴾ فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وهو قوله ﴿ ويهدى اليه من أناب ﴾ يعنى ويرشد الى دينه والايمان به من أناب

(ويفسدون فى الارض) بالكفر والشرك والدعاء الى غير عبادة الله (أولئك) أهل هذه الصفة (لهم اللعنة) السخطة فى الدنيا (ولهم سوء الدار) يعنى النار فى الآخرة (الله يبسط الرزق لمن يشاء) قال ابن عباس وان من عباده عبادا لا يصلح لهم الا البسط ولو صرفوا الى غيره لكان شرا لهم وان من عباده عبادا لا يصلح لهم الا التقتير ولو صرفوا الى غيره لكان شرا لهم أى يوسع المال على من يشاء فى الدنيا وهو مكر منه (ويقدر) يقتر على من يشاء وهو نظر منه (وفرحوا بالحيوة الدنيا) رضوا بما فى الحياة الدنيا من النعيم والسرور (وما الحيوة الدنيا) ما فى الحياة الدنيا من النعيم والسرور (فى الآخرة) عند نعيم الآخرة فى البقاء (الا متاع) الا شئ قليل كمتاع البيت مثل السكرجة والقدح والقدر وغير ذلك (ويقول الذين كفروا) بمحمد عليه السلام والقرآن (لولا انزل عليه) هلا انزل على محمد عليه السلام (آية) علامة (من ربه) لنبوته كما كانت للرسل الاولين بزعمه (قل) يا محمد (ان الله يضل من يشاء) عن دينه من كان أهلا لذلك (ويهدى) يرشد (اليه) الى دينه (من أناب) من أقبل الى الله

من أناب بما جئت به بل بادنى منه من الآيات ﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل من من أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ انسابه واعتمادا عليه ورجاء منه أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته أو بكلامه يعنى القرآن الذى هو اقوى المعجزات ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ تسكن اليه ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مبتدأ خبره ﴿ طوبى لهم ﴾ وهو فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضمة ماقبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى ويجوز فيه الرفع والنصب

بقلبه ورجع اليه بكليته ﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل من قوله من أناب ﴿ وتطمئن قلوبهم ﴾ يعنى وتسكن قلوبهم ﴿ بذكر الله ﴾ قال مقاتل بالقرآن لانه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون انما تكون بقوة اليقين والاضطراب انما يكون بالشك ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ يعنى بذكره تسكن قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها وقال ابن عباس هذا فى الحلف وذلك ان المسلم اذا حلف بالله على شئ سكنت قلوب المؤمنين اليه * فان قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى فى أول سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل استشعار الخوف وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما فى حال واحد * قلت انما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة انما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل اذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن اذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه واحسانه ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم ﴾ اختلف العلماء فى تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة أعين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وفى رواية أخرى عنه ان هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أى أصبت خيرا وقال ابراهيم النخعى خير لهم وكرامة وقال الزجاج طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء فى الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم قال الازهرى تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية وروى عن أبى امامة وأبى هريرة وأبى الدرداء ان طوبى اسم شجرة فى الجنة تظلل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هى شجرة فى جنة عدن أصلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل دار وغرفة فى الجنة منها غصن لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بانواع التسبيح * وروى عن أبى سعيد الخدرى ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طوبى فقال هى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها * وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه قال طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة هكذا ذكر البغوى هذين الحديثين بغير سند * وروى بسنده موقوفا عن أبى هريرة قال ان فى الجنة

(الذين آمنوا) هم الذين أو محله النصب بدل من من (وتطمئن قلوبهم) تسكن (بذكر الله) على الدوام أو بالقرآن أو بوعده (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ (طوبى لهم) خبره وهو مصدر من طاب كبشرى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيا لك والواو فى طوبى منقلبة عن ياء لضمة ماقبلها كموقن والقراءة فى

(الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وتطمئن قلوبهم) ترضى وتسكن قلوبهم (بذكر الله) القرآن ويقال بالحلف بالله (ألا بذكر الله) القرآن والحلف بالله (تطمئن القلوب) أى تسكن وترضى القلوب (الذين آمنوا) بمحمد عليه السلام والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم (طوبى لهم) غبطة لهم ويقال طوبى شجرة فى الجنة ساقها من ذهب وورقها الحلل وثمرها من كل لون وأغصانها متواليات فى الجنة وتحتها كثبان المسك والعنبر والزعفران

ولذلك قرئ ﴿ وحسن مآب ﴾ بالنصب ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك يعني ارسال الرسل قبلك ﴿ ارسلناك في امة قد خلت من قبلها ﴾ تقدمتها ﴿ امم ﴾ ارسلوا اليهم فليس ببدع ارسالك اليها ﴿ لتتلوا عليهم الذي اوحينا اليك ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي اوحيناه اليك ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ وحالهم انهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي احاطت بهم نعمته ووسعت كل شئ رحمته فلم يشكروا نعمه وخصوصا ما انعم عليهم بارسالك اليهم وانزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية عليهم وقيل

شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود فبلغ ذلك كعب الاحبار فقال صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلا ركب فرسا أو حقة أو جذعة ثم دار بأرض تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرما ان الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وان أفنانها لمن وراء سور الجنة وما في الجنة نهر الا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة ❁ قال البغوي وبهذا الاسناد عن عبد الله بن المبارك عن الاشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله لها تفتق لعبدي عما يشاء فتفتق له عن فرس مسروجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وعن الثياب (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (ق) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها (ق) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة زاد البخاري في روايته واقرؤا ان شئتم وظل ممدود ❁ وقوله تعالى ﴿ وحسن مآب ﴾ يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلون ويرجعون اليه في الآخرة وهي الجنة ❁ قوله عز وجل ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ يعني كما أرسلناك يا محمد الى هذه الامة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك الى أمم قد خلت ومضت ﴿ لتتلوا عليهم الذي اوحينا اليك ﴾ يعني لتقرأ على أمتك الذي أوحينا اليك من القرآن وشرائع الدين ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على ان يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب أكتب كما نكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعني أنهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه يا الله يا رحمن فرجع أبو جهل الى المشركين وقال ان محمدا يدعو الهين يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فقال الله تعالى

(وحسن مآب) مرجع بالرفع والنصب تدلك على محليها (كذلك أرسلناك) مثل ذلك الارسال أرسلناك ارسالا له شأن وفضل على سائر الارسالات ثم فسر كيف أرسله فقال (في أمة قد خلت من قبلها أمم) أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الامم وأنت خاتم الانبياء (لتتلوا عليهم الذي أوحينا اليك) لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا اليك (وهم يكفرون) وحال هؤلاء انهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل

(وحسن مآب) المرجع في الجنة (كذلك أرسلناك في أمة) يقول هكذا أرسلناك الى أمة (قد خلت) مضت (من قبلها أمم لتتلوا عليهم) لتقرأ عليهم (الذي أوحينا اليك) أنزلنا اليك جبرائيل به يعني القرآن (وهم يكفرون بالرحمن) يقولون ما نعرف الرحمن الا مسيلمة الكذاب

شئ (قل هو ربي) ورب كل شئ (لا اله الا هو) أي هو ربي الواحد المتعالي عن الشركاء (عليه توكلت) في نصرتي عليكم (واليه متاب) مرجعي فيثيبني على مصابرتكم متابي وعقابي ومآبي في الحالين يعقوب (ولوأن قرآنا سيرت به الجبال) عن مقارها (أوقطعت به الارض) حتى تتصدع وتتزايل قطعا (أو كلم به الموتى) فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الانذار والتخويف فجواب لو محذوف أو معناه ولوأن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الارض وتكليم الموتى وتنبيئهم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة

(قل) الرحمن (هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت) اتكلت ووثقت (واليه متاب) المرجع في الآخرة ثم نزل في شأن عبدالله بن أمية المخزومي وأصحابه لقولهم أذهب عنا جبال مكة بقرآنك وأنبع فيها العيون كما كان لداود عين القطر بزعمك وائتنا بريح نركب عليها الى الشام ونجيء عليها كما كانت سليمان بزعمك وأحي موتانا كما أحيا عيسى ابن مريم بزعمك فقال الله (ولوان قرآنا) غير قرآن محمد صلى الله عليه وسلم (سيرت به الجبال) أذهبت به الجبال عن وجه الارض (أوقطعت به الارض) أي قصد به البعد (أوكلم به الموتى) أو أحيي به الموتى لكان بقرآن محمد صلى الله عليه وسلم (وكلمهم)

نزلت في مشركي اهل مكة حين قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴿قل هو ربي﴾ أي الرحمن خالقي ومتولي امري ﴿لا اله الا هو﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عليه توكلت﴾ في نصرتي عليكم ﴿واليه متاب﴾ مرجعي ومرجعكم ﴿ولوان قرآنا سيرت به الجبال﴾ شرط حذف جوابه والمراد منه تعظيم شأن القرآن أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم أي ولوان كتابا زعزعت به الجبال عن مقارها ﴿أوقطعت به الارض﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو تشققت فجعلت انهارا وعيونا ﴿أو كلم به الموتى﴾ فتقرأه أو فتسمع وتجيب عند قراءته لكان هذا القرآن لانه الغاية في الاعجاز والنهاية في التذكير والانذار اولما آمنوا به لقوله ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة الآية وقيل ان قريشا قالوا يا محمد ان سرك ان نتبعك فسير بقراءتك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائع أو سخر لنا به الريح لنركبها ونتجر الى الشام أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك فنزلت وعلى هذا فتقطيع الارض قطعها بالسير وقيل الجواب مقدم وهو قوله وهم يكفرون بالرحمن ومابينهما اعتراض وتذكير كلم خاصة لاشتمال الموتى على المذكر الحقيقي

﴿قل﴾ أي قل يا محمد ان الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها ﴿واليه متاب﴾ يعني واليه توبتي ورجوعي ❊ قوله تعالى ﴿ولوأن قرآنا سيرت به الجبال﴾ الآية نزلت في نفر من مشركي قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم وقيل انه مر بهم وهم جلوس فدعاهم الى الله عز وجل فقال له عبدالله بن أبي أمية ان سرك ان نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفتح فانها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الاشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت باهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها الى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست باهون على ربك من سليمان أواحي لنا جدك قصيا أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أو باطل فان عيسى كان يحيي الموتى ولست باهون على الله من عيسى فانزل الله هذه الآية ولوأن قرآنا سيرت به الجبال فاذهبت عن وجه الارض ﴿أوقطعت به الارض﴾ يعني شققت فجعلت أنهارا وعيونا ﴿أوكلم به الموتى﴾ فاحياها واختلفوا في جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف وانما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولوأن قرآنا فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر

فاقسم لو شئ أتانا رسوله ❊ سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد لو شئ أتانا رسوله سواك لرددناه وهذا معنى قول قتادة فانه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولوأن قرآنا سيرت به الجبال أوقطعت به الارض أوكلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا به لما سبق في علمنا فيهم كما قال ولواننا نزلنا اليهم الملائكة

﴿ بل لله الامر جميعا ﴾ بل الله القدرة على كل شئ وهو اضراب عن ما تضمنته لو من معنى النفى أى بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات الا ان ارادته لم تتعلق بذلك لعلمه بانه لا تلين له شكيمتهم ويؤيد ذلك قوله ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ عن ايمانهم مع ما رأوا من احوالهم وذهب اكثرهم الى ان معناه أفلم يعلم لما روى ان عليا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم اجمعين قرأوا افلم يتبين وهو تفسيره وانما استعمل اليأس بمعنى العلم لانه مسبب عن العلم فان المأيوس منه لا يكون الا معلوما ولذلك علقه بقوله ﴿ ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ﴾ فان معناه نفى هدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم وهو على الاول متعلق بمحذوف تقديره أفلم ييأس الذين آمنوا عن ايمانهم علما منهم ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا او بآمنوا ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا ﴾ من الكفر وسوء الاعمال ﴿ قارعة ﴾ داهية تقرعهم وتقلعهم

وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا ثم قال تعالى ﴿ بل لله الامر جميعا ﴾ يعنى فى هذه الاشياء وفى غيرها ان شاء فعل وان شاء لم يفعل ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ قال أكثر المفسرين معناه أفلم يعلم قال الكلبى هذه لغة النخع وقيل هى لغة هوازن واختلف أهل اللغة فى هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر

أقول لهم بالشعب اذ يأسرونني * ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

يعنى ألم تعلموا واستدلوا عليه أيضا بقول شاعر آخر

ألم ييأس الاقوام انى أنا ابنه * وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

يعنى ألم يعلم الاقوام قال قطرب ييأس بمعنى علم لغة للعرب قالوا ووجه هذه اللغة انه انما وقع اليأس فى مكان العلم لان علمك بالشئ ويقينك به ييئسك من غيره وقيل لم يرد ان اليأس فى موضع من كلام العرب للعلم وانما قصد ان يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضى ان يحصل العلم بانتفائه فاذا معنى يأسهم يقتضى حصول العلم وقال الكسائى ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف فى القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك ان المشركين لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات اشرأب المسلمون لذلك وأرادوا أن يظهر لهم آية ليجتمعوا على الايمان فقال الله تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء ويعلموا علما يقينا ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ﴾ يعنى من غير ظهور آية وقال الزجاج القول عندى ان معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء لان الله لو شاء لهدى الناس جميعا وحاصله ان فى معنى الآية قولين أحدهما ان ييأس بمعنى علم والقول الثانى انه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على ان الله لم يشأ هداية جميع الخلائق ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا ﴾ يعنى من الكفر والاعمال الخبيثة ﴿ قارعة ﴾ أى نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا أحيانا سرية

الآية (بل لله الامر جميعا) بل لله القدرة على كل شئ وهو قادر على الآيات التى اقترحوها (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم وهى لغة قوم من النخع وقيل انما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لان اليائس عن الشئ عالم بانه لا يكون كما استعمل النسيان فى معنى الترك لتضمن ذلك دليله قراءة على رضى الله عنه أفلم يتبين وقيل انما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السنات وهذه والله فرية ما فيها مرية (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من كفرهم وسوء أعمالهم (قارعة) داهية تقرعهم بما يحل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم

(بل لله الامر جميعا) بل الله يفعل ذلك جميعا ان شاء (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم الذين آمنوا بمحمد عليه السلام والقرآن (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) لاكرم الناس كلهم بدينه (ولا يزال الذين كفروا) بالكتب والرسل يعنى كفار مكة (تصيبهم بما صنعوا) فى كفرهم (قارعة) سرية

وأولادهم وأموالهم (أو تحل قريبا من دارهم) أو تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها ويتعدى اليهم شرورها (حتى يأتي وعد الله) أي موتهم أو القيامة أو ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة لان جيش رسول الله يغير حول مكة ويختطف منهم أو تحل أنت يا محمد

قريبا من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتي وعد الله أي فتح مكة (ان الله لا يخلف الميعاد) أي لا خلف في موعده (ولقد استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا) الاملاء الامهال وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به وتسلية له (أفمن هو قائم) احتجاج عليهم في اشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو رقيب (على كل نفس) صالحة أو طالحة (بما كسبت) يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك ثم استأنف فقال (وجعلوا لله شركاء)

﴿ أو تحل قريبا من دارهم ﴾ فيفزعون منها ويتطاير اليهم شررها وقيل الآية في كفار مكة فانهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فانه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث السرايا عليهم فتغير حواليهم وتخطف مواشيهم وعلى هذا يجوز ان يكون تحل خطابا للرسول عليه الصلاة والسلام فانه حل بجيشه قريبا من دارهم عام الحديبية ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة ﴿ ان الله لا يخلف الميعاد ﴾ لامتناع الكذب في كلامه ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه والاملاء ان يترك ملاوة من الزمان في دعة وأمن ﴿ ثم اخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ أي عقابي اياهم ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس ﴾ رقيب عليه ﴿ بما كسبت ﴾ من خير أو شر لا يخفى عليه شئ من اعمالهم ولا يفوت عنده شئ من جزائهم والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ استئناف أو عطف على كسبت ان جعلت ما مصدرية ويجوز

بالجدب ومرة بالسلب ومرة بالقتل والاسر وقال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم ﴿ أو تحل ﴾ يعني السرايا أو البلية ﴿ قريبا من دارهم ﴾ وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ يعني النصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم باعمالهم ﴿ ان الله لا يخلف الميعاد ﴾ والغرض منه تشجيع قلب النبي صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد * قوله عز وجل ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾ وذلك ان كفار مكة انما سألوا هذه الاشياء على سبيل الاستهزاء فانزل الله هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى انهم انما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء وكذلك قد استهزئ برسل من قبلك ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ يعني فامهلتهم وأطلت لهم المدة ﴿ ثم أخذتهم ﴾ يعني بالعذاب بعد الامهال فعذبتهم في الدنيا بالقحط والقتل والاسر وفي الآخرة بالنار ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ يعني فكيف كان عقابي لهم ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ يعني أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير أو شر ويجازيها بما كسبت فيثيبها ان أحسنت ويعاقبها ان أساءت وجوابه محذوف وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزا عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهي الاصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ يعني وهو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التي جعلوها لله شركاء

ويقال صاعقة (أو تحل قريبا) أو تنزل مع أصحابك قريبا (من دراهم) من مدينتهم مكة بعسفان (حتى يأتي وعد الله) فتح مكة (ان الله لا يخلف الميعاد) فتح مكة ويقال البعث بعد الموت (ولقد استهزئ برسل من قبلك) استهزأ بهم قومهم كما استهزأ بك قومك قريش (فأمليت للذين كفروا) فأمهلت الذين كفروا بعد الاستهزاء (ثم أخذتهم) بالعذاب (فكيف كان عقاب) انظر كيف كان تعييري عليهم بالعذاب (أفمن هو قائم على كل نفس) يقول الله قائم على حفظ كل نفس (بما كسبت) من الخير والشر والرزق والدفع (وجعلوا لله) وصفوا لله (شركاء) من

أى الاصنام (قل سموهم) أى سموهم له من هم ونبؤه بأسمائهم ثم قال (أم تنبؤنه بما لايعلم فى الارض) على أم المنقطعة أى بل أتنبؤنه بشركاء لايعلمهم فى الارض

وهو العالم بما فى السموات والارض فاذا لم يعلمهم علم انهم ليسوا بشئ والمراد نفى أن يكون له شركاء (أم بظاهر من القول) بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله ذلك قولهم بأفواههم ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها (بل زين للذين كفروا مكرهم) كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) عن سبيل الله بضم الصاد كوفى وبفتحها غيرهم ومعناه وصدوا المسلمين عن سبيل الله (ومن يضلل الله فماله من هاد) من أحد يقدر على هدايته (لهم عذاب فى الحيوة الدنيا) بالقتل والاسر وأنواع المحن (ولعذاب الآخرة أشق) أشد لدوامه

ان يقدر مايقع خبرا للمبتدأ ويعطف عليه وجعلوا أى أفمن هو بهذه الصفة لم يوجدوه وجعلوا له شركاء ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على انه المستحق للعبادة وقوله ﴿ قل سموهم ﴾ تنبيه على ان هؤلاء الشركاء لايستحقونها والمعنى صفوهم فانظروا هل لهم مايستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿ أم تنبؤنه ﴾ بل أتنبئونه وقرئ تنبؤنه بالتخفيف ﴿ بما لايعلم فى الارض ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لايعلمهم أو بصفات لهم يستحقونها لاجلها لايعلمها وهو العالم بكل شئ ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى كتسمية الزنجى كافورا وهذا احتجاج بليغ على اسلوب عجيب ينادى على نفسه بالاعجاز ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ تمويههم فتخيلوا أباطيل ثم خالوها حقا أو كيدهم للاسلام بشركهم ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ سبيل الحق . وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابن عامر وصدوا بالفتح أى وصدوا الناس عن الايمان . وقرئ بالكسر وصد بالتنوين ﴿ ومن يضلل الله ﴾ بخذلانه ﴿ فماله من هاد ﴾ يوفقه للهدى ﴿ لهم عذاب فى الحيوة الدنيا ﴾ بالقتل والاسر وسائر مايصيبهم من المصائب ﴿ ولعذاب الآخرة اشق ﴾ لشدته ودوامه

﴿ قل سموهم ﴾ يعنى له وقيل صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هى أهل لان تعبد ﴿ أم تنبؤنه ﴾ يعنى أم تخبرون الله ﴿ بما لايعلم فى الارض ﴾ يعنى انه لايعلم ان لنفسه شريكا من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكا للخالق وهو العالم بما فى السموات والارض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفى العلم بان يكون له شريك ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ يعنى انهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو فى الحقيقة باطل لا أصل له وقيل معناه بل بظن من القول لايعلمون حقيقته ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال ابن عباس زين لهم الشيطان الكفر وانما فسر المكر بالكفر لان مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر منهم والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى لانه هو الفاعل المختار على الاطلاق لايقدر أحد ان يتصرف فى الوجود الا باذنه فتزيين الشيطان ألقاء الوسوسة فقط ولا يقدر على اضلال أحد وهدايته الا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله ومن يضلل الله فماله من هاد * وقوله ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد المانع لهم هو الله تعالى وقرئ وصدوا بفتح الصاد ومعناه انهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أى عن الايمان ﴿ ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء فى قراءة أكثر القراء ﴿ لهم عذاب فى الحيوة الدنيا ﴾ يعنى بالقتل والاسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ يعنى أشد وأغلظ لان المشقة غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب

الآلهة يعبدونها (قل) لهم يامحمد (سموهم) سموا منفعتهم وتدبيرهم ان كان لهم شركة مع الله (أم تنبؤنه) أتخبرونه (بما لايعلم) بما يعلم أن ليس (فى الارض) أحد ينفع ويضر من دون الله (أم بظاهر من القول) بل بباطل من القول والزور والكذب عبدوهم (بل زين للذين كفروا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (مكرهم) قولهم وفعلهم (قا و خا ٦٣ لث) (وصدوا عن السبيل) صرفوا عن الدين (ومن يضلل الله) عن دينه فماله من هاد) من موفق (لهم عذاب فى الحيوة الدنيا) بالقتل يوم بدر (ولعذاب الآخرة أشق) اشد من عذاب الدنيا

صفتها التي هي في غرابة المثل وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الجنة أوالخبر (تجري من تحتها الانهار) كما تقول صفة زيد أسمر (أكلها دائم) ثمرها دائم الوجود لاينقطع (وظلها) دائم لاينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس (تلك عقبى الذين اتقوا) أي الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعني منتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار والذين آتيناهم الكتاب) يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه ومن النصارى بارض الحبشة (يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب)

﴿ ومالهم من الله ﴾ من عذابه أو من رحمته ﴿ من واق ﴾ حافظ ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ صفتها التي هي مثل في الغرابة وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة وقيل خبره ﴿ تجري من تحتها الانهار ﴾ على طريقة قولك صفة زيد اسمر أو على حذف موصوف أي مثل الجنة جنة تجري من تحتها الانهار أو على زيادة المثل وهو على قول سيبويه حال من العائد المحذوف من الصلة ﴿ اكلها دائم ﴾ لاينقطع ثمرها ﴿ وظلها ﴾ أي وظلها كذلك لاينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿ تلك ﴾ أي الجنة الموصوفة ﴿ عقبى الذين اتقوا ﴾ مآلهم ومنتهى امرهم ﴿ وعقبى الكافرين النار ﴾ لاغير وفي ترتيب النظمين اطماع للمتقين واقناط للكافرين ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ﴾ يعني المسلمين من اهل الكتاب كابن سلام واصحابه ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا اربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة أو عامتهم فانهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم ﴿ ومن الاحزاب ﴾ يعني كفرتهم الذين تحزبوا على

من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع ﴿ ومالهم من الله ﴾ يعني من عذاب الله ﴿ من واق ﴾ يعني من مانع يمنعهم من عذابه ❁ قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفة الجنة التي وعد المتقون ﴿ تجري من تحتها الانهار أكلها دائم ﴾ لاينقطع أبدا ﴿ وظلها ﴾ يعني انه دائم أبدا لاينقطع وليس في الجنة شمس ولاقمر ولاظلمة بل ظل ممدود لاينقطع ولايزول وفي الآية رد على جهم وأصحابه فانهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى وينقطع وفي الآية دليل على ان حركات أهل الجنة لاتنتهي الى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على ان الجنة لم تخلق بعد قال ووجه الدليل انها لوكانت مخلوقة لوجب أن تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى كل شئ هالك الاوجهه فوجب أن لاتكون الجنة مخلوقة لقوله أكلها دائم يعني لاينقطع قال ولاينكر أن تكون في السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على ماروى الأن الذي نذهب اليه ان جنة الخلد لم تخلق بعد والجواب عن هذا أن حاصل دليلهم مركب من آيتين احداهما قوله تعالى كل شئ هالك الاوجهه والاخرى قوله أكلها دائم وظلها فاذا أدخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على ان الجنة مخلوقة منها قوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين ❁ وقوله تعالى ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا ﴾ يعني ان عاقبة أهل التقوى هي الجنة ﴿ وعقبى الكافرين النار ﴾ يعني في الآخرة ❁ قوله عزوجل ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ﴾ في المراد بالكتاب هنا قولان أحدهما انه القرآن والذين أوتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انهم يفرحون بما يتجدد من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن ﴿ ومن الاحزاب ﴾ يعني الجماعات الذين تحزبوا

(ومالهم من الله) من عذاب الله (من واق) من مانع وملجأ يلجؤن اليه (مثل الجنة) صفة الجنة (التي وعد المتقون) الكفر والشرك والفواحش (تجري من تحتها) من تحت شجرها ومساكنها (الانهار) أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (أكلها دائم) ثمرها دائم لايفنى (وظلها) دائم لاخلل فيه (تلك) الجنة (عقبى) مأوى (الذين تقوا) الكفر والشرك والفواحش (وعقبى) مأوى (الكافرين النار والذين آتيناهم) أعطيناهم (الكتاب) علم التوراة عبدالله بن سلام وأصحابه (يفرحون بما أنزل اليك) من ذكر الرحمن (ومن الاحزاب) يعني اليهود (على)

أى ومن احزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الاشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما (من ينكر بعضه) لانهم كانوا لاينكرون الاقاصيص وبعض الاحكام والمعانى مماهو ثابت فى كتبهم وكانوا ينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع (قل انما أمرت أن أعبدالله ولاأشرك به) هو جواب للمنكرين أى قل انما أمرت فيما أنزل الى بان أعبدالله ولاأشرك به فانكاركم له انكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لايشرك به (اليه أدعوا) خصوصا لاأدعو الى غيره (واليه) لاالى غيره (مآب) مرجعى وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لانكاركم (وكذلك أنزلناه) ومثل ذلك الانزال أنزلناه مأمورا فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة اليه والى دينه والانذار بدار الجزاء (حكما عربيا) حكمة عربية

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الاشرف واصحابه والسيد والعاقب واشياعهما ﴿ من ينكر بعضه ﴾ وهو مايخالف شرائعهم أو مايخالف ماحرفوه منها ﴿ قل انما امرت ان اعبدالله ولااشرك به ﴾ جواب للمنكرين أى قل لهم انى امرت فيما انزل الى بان اعبدالله واوحده وهو العمدة فى الدين ولاسبيل لكم الى انكاره واما ماتنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الالهية فى جزئيات الاحكام *وقرئ ولااشرك بالرفع على الاستئناف ﴿ اليه ادعوا ﴾ لاالى غيره ﴿ واليه مآب ﴾ واليه مرجعى للجزاء لاالى غيره وهذا هو القدر المتفق عليه بين الانبياء فاما ماعدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالاعصار والامم فلامعنى لانكاركم المخالفة فيه ﴿ و كذلك ﴾ ومثل هذا الانزال المشتمل على اصول الديانات المجمع عليها ﴿ انزلناه حكما ﴾ يحكم فى القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة ﴿ عربيا ﴾ مترجما بلسان العرب

على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار واليهود والنصارى ﴿ من ينكر بعضه ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة *فان قلت ان الاحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه * قلت ان الاحزاب لاينكرون القرآن بجملته لانه قد ورد فيه آيات دالات على توحيد الله واثبات قدرته وعلمه وحكمته وهم لاينكرون ذلك أبدا والقول الثانى ان المراد بالكتاب التوراة والانجيل والمراد باهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبدالله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه ومن الاحزاب يعنى بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه وقيل كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما أسلم عبدالله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن فى القرآن فرحوا بذلك فانزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب يعنى مشركى مكة من ينكر بعضه وذلك لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا مانعرف الرحمن الارحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فانزل الله وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى وانما قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه لانهم كانوا لاينكرون الله وينكرون الرحمن ﴿قل﴾ أى قل يامحمد ﴿انما أمرت أن أعبدالله﴾ يعنى وحده ﴿ولاأشرك به﴾ شيأ ﴿اليه أدعوا﴾ أى الى الله والى الايمان به أدعوالناس ﴿ واليه مآب ﴾ يعنى مرجعى يوم القيامة ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ﴾ أى كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا اليك يامحمد

(من ينكر بعضه) بعض القرآن سوى سورة يوسف وذكر الرحمن ويقال من الاحزاب يعنى كفار مكة وغيرهم من ينكر بعضه بعض القرآن مافيه ذكر الرحمن

(قل) يامحمد (انما أمرت ان أعبدالله) مخلصا (ولاأشرك به) شيأ (اليه ادعوا) خلقه (واليه مآب) مرجعى فى الآخرة (وكذلك أنزلناه) هكذا أنزلنا جبرائيل بالقرآن (حكما) القرآن كله حكم الله (عربيا) على مجرى لغة العربية

مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أمور يشاركهم فيها فقيل (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من

العلم) أى بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين

ليسهل لهم فهمه وحفظه وانتصابه على الحال ﴿ ولئن اتبعت اهوائهم ﴾ التى يدعونك اليها كتقرير دينهم والصلاة الى قبلتهم بعدما حولت عنها ﴿ بعدما جاءك من العلم ﴾ بنسخ ذلك ﴿ مالك من الله من ولى ولا واق ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك وهو حسم لاطماعهم وتهييج للمؤمنين على الثبات فى دينهم ﴿ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك ﴾ بشرا مثلك ﴿ وجعلنا لهم ازواجا وذرية ﴾ نساء واولادا كما هى لك ﴿ وما كان لرسول ﴾ وما صح له ولم يكن فى وسعه ﴿ ان يأتى بآية ﴾ تقترح عليه وحكم يلتمس منه ﴿ الا باذن الله ﴾

هذا الكتاب وهو القرآن عربيا بلسانك ولسان قومك وانما سمى القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والاحكام والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وقيل ان الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكما لذلك المعنى ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ قال جمهور المفسرين ان المشركين دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم فى ذلك وقال ابن السائب المراد به متابعة آبائهم فى الصلاة لبيت المقدس ﴿ بعدما جاءك من العلم﴾ يعنى بانك على الحق وان قبلتك الكعبة هى الحق وقيل ظاهر الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره وقيل هو حث للنبى صلى الله عليه وسلم على تبليغ الرسالة والقيام بما امر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لان من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى مرتبة اذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الاولى ﴿ مالك من الله من ولى ولا واق﴾ يعنى من ناصر ولا حافظ * قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك﴾ روى ان اليهود وقيل المشركين قالوا ان هذا الرجل يعنون النبى صلى الله عليه وسلم ليس له همة الا فى النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لوكان كما يزعم انه رسول الله لكان مشتغلا بالزهد وترك الدنيا فاجاب الله عزوجل عن هذه الشبهة وعما عابوه به بقوله عزوجل ولقد أرسلنا رسلنا من قبلك يا محمد ﴿وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾ فانه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلاثمائة امرأة حرة و سبعمائة سرية فلم يقدح ذلك فى نبوته وكان لابيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضا فى نبوته وكيف يعيبون عليك ذلك ويجعلونه قادحا فى نبوتك والمعنى و لقد أرسلنا رسلا من قبلك يأكلون و يشربون وينكحون وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ﴿وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله﴾ هذا جواب لعبد الله بن أبى أمية وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات واقترحوا عليه أن يريهم المعجزات وتقرير هذا الجواب أن المعجزة الواحدة كافية فى اثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر فما لهم أن يقترحوا عليه شيأ واتيان

الساطعة (مالك من الله من ولى ولا واق) أى لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق و هذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين وان لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة والافكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الثبات بمكان وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك و جعلنا لهم أزواجا و ذرية) نساء وأولادا (وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله) أى ليس فى وسعه اتيان الآيات على مايقترحه قومه وانما ذلك الى الله

(ولئن اتبعت أهواءهم) دينهم وقبلتهم (بعدما جاءك من العلم) البيان بدين ابراهيم وقبلته (مالك من الله) من عذاب الله (من ولى) قريب ينفعك (ولا واق) لا مانع يمنعك (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) كما أرسلناك (وجعلنا لهم أزواجا) اكثر من أزواجك مثل داود وسليمان (وذرية) أكثر من ذريتك مثل ابراهيم واسحق ويعقوب نزلت هذه الآية (الرسول) فى شأن اليهود لقولهم لوكان محمد نبيا لشغلته النبوة عن التزوج (وما كان لرسول أن يأتى بآية) بعلامة (الا باذن الله) بامر الله

فانه الملى بذلك ﴿ لكل اجل كتاب ﴾ لكل وقت وامد حكم يكتب على العباد على مايقتضيه استصلاحهم ﴿ يمحوا الله مايشاء ﴾ ينسخ مايستصوب نسخه ﴿ ويثبت ﴾

الرسول بالمعجزات ليس اليه بل هو مفوض الى مشيئة الله عز وجل فان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطؤا ذلك وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله عز وجل ان لكل قضاء قضاه كتابا قد كتبه فيه ووقتا يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر والمعنى ان لكل أجل أجله الله كتابا قد أثبته فيه وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى ان الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه ﴿ يمحوا الله مايشاء ويثبت ﴾ وذلك انهم لما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غدا وماسبب ذلك الا انه يقوله من تلقاء نفسه أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحوا الله مايشاء ويثبت قال سعيد بن جبير وقتادة يمحوا الله مايشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت مايشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله وقال ابن عباس يمحوا الله مايشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة ✽ ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب أذكر أم أنثى فيقضى ربك مايشاء فيكتب الملك ثم يقول يارب أجله فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقال ربك مايشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على أمر ولا ينقص اخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه نطفة أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا باربع كلمات بكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها ✽ فان قلت هذا الحديث والذى قبله صريح بان الآجال والارزاق مقدرة وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه فى الازل فيستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقيا أو الشقى سعيدا وقد صح فى فضل صلة الرحم ان صلة الرحم تزيد فى العمر فكيف الجمع بين هذه الآحاديث وبين قوله تعالى يمحوا الله مايشاء ويثبت ✽ قلت قد تقرر بالدلائل القطعية ان الله عالم بالآجال والارزاق وغيرها وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ماهو عليه فاذا علم الله ان زيدا يموت فى وقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده وهو قوله

(لكل أجل كتاب) لكل وقت حكم يكتب على العباد أى يفرض عليهم على ماتقتضيه حكمته (يمحوا الله مايشاء) ينسخ مايشاء نسخه (ويثبت) بدله مايشاء أو

(لكل أجل كتاب) لكل كتاب أجل مهلة مقدم ومؤخر (يمحوا الله مايشاء) من ديوان الحفظة مالا ثواب ولا عقاب له (ويثبت)

ماتقتضيه حكمته وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها وقيل يمحو من كتاب الحفظة مالايتعلق به جزاء ويترك غيره مثبتا أو يثبت مارآه وحده في صميم قلبه وقيل يمحو قرنا ويثبت آخر وقيل يمحو الفاسدات ويثبت الكائنات *وقرأ نافع وابن عامر

تعالى فاذاجاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون فدل ذلك على أن الآجال لاتزيد ولاتنقص وأجاب العلماء عما ورد في الحديث في فضل صلة الرحم من انها تزيد في العمر باجوبة الصحيح منها ان هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك والجواب الثاني منها أنها بالنسبة الى مايظهر للملائكة في اللوح المحفوظ ان عمر زيد مثلا ستون سنة الا أن يصل رحمه فان وصلها زيد له أربعون سنة وقد علم الله في الازل ماسيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت أي بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة واما انقلاب الشقي سعيدا والسعيد شقيا فيتصور في الظاهر أيضا لان الكافر قديسلم فينقلب من الشقاوة الى السعادة وكذا العاصي ونحوه وقديتوب فينقلب من الشقاوة الى السعادة وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة الى الشقاوة والاصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت ومايختم الله به له وهو المراد من علم الله الازلي الذي لايتغير ولايتبدل والله أعلم وأصل المحو اذهاب أثر الكتابة وضده الاثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة في كل شئ يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله مايشاء في الرزق والاجل وكذا القول في السعادة والشقاوة والايمان بالله والكفر ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فانهما قالا لايمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والاجل ويثبت مايشاء وروى عن عمر انه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم ان كنت كتبتني في أهل السعاد فأثبتني فيها وان كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني منها واثبتني في أهل السعاة والمغفرة فانك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروى مثله عن ابن مسعود وقد ورد في بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد الى ثلاثين سنة هكذا ذكره البغوي بغير سند ﷺوروى بسنده عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل الله تبارك وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في الساعة الاولى منهن في الكتاب الذي لاينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص في بعض الاشياء دون بعض فقال المراد بالمحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله مايشاء من ديوان الحفظة مماليس فيه ثواب ولاعقاب مثل قول القائل أكلت شربت دخلت خرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق فيه ويثبت مافيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك وقال الكلبي يكتب القول كله حتى اذا كان يوم الخميس طرح منه شئ ليس فيه ثواب ولاعقاب وقال ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة

يتركه غير منسوخ أو يمحو من ديوان الحفظة مايشاء ويثبت غيره أو يمحو كفر التائبين ويثبت ايمانهم أو يميت من حان أجله وعكسه ويثبت مدني وشامي وحمزة وعلي

يترك ماله الثواب والعقاب

وحمزة والكسائى ويثبت بالتشديد ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ اصل الكتب وهو اللوح المحفوظ اذ ما من كائن الا وهو مكتوب فيه ﴿ واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ﴾ وكيف ما دارت الحال اريناك بعض ما وعدناهم أو توفيناك قبله ﴿ فانما عليك البلاغ ﴾ لاغير ﴿ وعلينا الحساب ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم فانا فاعلون له وهذا طلائعه ﴿ أولم يروا انا نأتى الارض ﴾ ارض الكفرة ﴿ ننقصها

الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو الله ما يشاء يعنى من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجئ أجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات وقال السدى يمحو الله ما يشاء يعنى القمر ويثبت الشمس وقال الربيع هذا فى الارواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه وقيل ان الله يثبت فى أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل هو فى المحن والمصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة وقيل ان الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لاحد عليه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريده * فان قلت مذهب أهل السنة ان المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو والاثبات * قلت المحو والاثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيأ ولا يثبت شيأ الا ما سبق به علمه فى الازل وعليه يترتب القضاء والقدر

﴿ مسئلة ﴾

استدلت الرافضة على مذهبهم فى البداء بهذه الآية قالوا أن البداء جائز على الله وهو أن يعتقد شيأ ثم يظهر له خلاف ما اعتقده وتمسكوا بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت * والجواب عن هذه المسئلة ان هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لان علم الله قديم أزلى وهو من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالا كذا ذكره الامام فخر الدين الرازى فى تفسير هذه الآية * وقوله تعالى ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ يعنى أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذى لا يغير ولا يبدل وسمى اللوح المحفوظ أم الكتاب لان جميع الاشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب المنزلة وقيل ان العلوم كلها تنسب اليه وتتولد منه قال ابن عباس هما كتابان كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء وأم الكتاب الذى لا يغير شئ منها وروى عطية عن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه وما هم عاملون ﴿ واما نرينك ﴾ يعنى يا محمد ﴿ بعض الذى نعدهم ﴾ يعنى من العذاب ﴿ أو نتوفينك ﴾ يعنى قبل أن نريك ذلك ﴿ فانما عليك البلاغ ﴾ يعنى ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ ﴿ وعلينا الحساب ﴾ يعنى وعلينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم باعمالهم * قوله عز وجل ﴿ أولم يروا أنا نأتى الارض ننقصها

(وعنده أم الكتاب) أى أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لان كل كائن مكتوب فيه (واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك) وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من انزال العذاب عليهم أو توفيناك قبل ذلك (فانما عليك البلاغ) فما يجب عليك الا تبليغ الرسالة فحسب (وعلينا الحساب) وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك فلا يهمنك اعراضهم ولا تستعجل بعذابهم (أولم يروا أنا نأتى الارض) أرض الكفرة (ننقصها

(وعنده أم الكتاب) أصل الكتاب يعنى اللوح المحفوظ لا يزاد فيه ولا ينقص منه (واما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب فى حياتك (أو نتوفينك) نقبضنك قبل ان نريك (فانما عليك البلاغ) التبليغ عن الله (وعلينا الحساب) الثواب والعقاب (أولم يروا) ينظروا أهل مكة (أنا نأتى الارض) نأخذ الارض (ننقصها) نفتحها لمحمد صلى الله

من اطرافها ﴾ بما نفتحه على المسلمين منها ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ لا راد له وحقيقته الذى يعقب الشئ بالابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفو غريمه بالاقتضاء والمعنى انه حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره ومحل

من أطرافها ﴾ يعنى أولم ير كفار مكة الذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم الآيات أنا نأتى الارض يعنى ارض الشرك ننقصها من أطرافها قال أكثر المفسرين المراد منه فتح دار الشرك فان مازاد فى دار الاسلام فقد نقص فى دار الشرك والمعنى أولم يروا انا نأتى الارض فنفتحها لمحمد صلى الله عليه وسلم أرضا بعد أرض حوالى أراضيهم أفلا يعتبرون فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين وذلك ان المسلمين اذا استولوا على بلاد الكفار قهرا وتخريبا كان ذلك نقصانا فى ديارهم وزيادة فى دار المسلمين وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على ان الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه وينجز له ماوعده وقيل هو خراب الارض والمعنى أولم يروا أنا نأتى الارض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض أهلها وعن عكرمة والشعبى نحوه وهذا القول قريب من الاول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء (ق) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس وفى رواية من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا وقال الحسن قال عبدالله بن مسعود موت العالم ثلمة فى الاسلام لا يسدها شئ مااختلف الليل والنهار وقال عبدالله أيضا عليكم بالعلم قبل ان يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال سليمان لا يزال الناس بخير مابقى الاول حتى يتعلم الآخر فاذا هلك الاول ولم يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ماء علامة هلاك الناس قال هلاك العلماء فعلى هذا القول فالمراد بالاطراف العلماء والاشراف من الناس حكى الجوهرى عن ثعلب قال الاطراف الاشراف واستدل الواحدى لهذه اللغة بقول الفرزدق

واسأل بنا وبكم اذا وردت منى * أطراف كل قبيلة من يتبع

قال يريد أشراف كل قبيلة قال الواحدى والتفسير على القول الاول أولى لان هذا وان صح فلا يليق بهذا الموضع قال الامام فخر الدين الرازى ويمكن أن يقال أيضا ان هذا الوجه لا يليق بهذا الموضع وتقديره أن يقال أولم يروا أن كل مايحدث فى الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال واذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذى يؤمنهم أن يقلب الله الامر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعدما كانوا عزيزين ومقهورين بعد ان كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه أيضا يجوز ايصال الكلام بما قبله ❊ قوله وتعالى ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ يعنى لا راد لحكمه ولا ناقض لقضائه والمعقب هو الذى يعقب غيره بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه

من أطرافها بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد فى دار السلام وذلك من آيات النصرة والغلبة والمعنى عليك البلاغ الذى حملته ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ماوعدناك من النصرة والظفر (والله يحكم لا معقب لحكمه) لا راد لحكمه والمعقب الذى يكر على الشئ فيبطله وحقيقته الذى يعقبه أى يقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى انه حكم للاسلام بالغلبة والاقبال وعلى الكفر بالادبار والانتكاس ومحل لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءنى زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوه له تريد حاسرا

عليه وسلم (من اطرافها) من نواحيها ويقال هو موت العلماء (والله يحكم) بفتح البلدان وموت العلماء (لا معقب) لا مغير لحكمه

(وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا (وقد مكر الذين من قبلهم) أى كفار الامم الخالية بانبيائهم والمكر ارادة المكروه فى خفية ثم جعل مكرهم كلا مكر بالاضافة الى مكره فقال (فلله المكر جميعا) ثم فسر ذلك بقوله (يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) يعنى العاقبة المحمودة لان من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله لانه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم فى غفلة عما يراد بهم الكافر على ارادة الجنس حجازى وأبو عمرو (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) المراد بهم كعب ابن الاشرف ورؤساء اليهود قالوا لست مرسلا ولهذا قال عطاء هى مكية الا هذه الآية (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) بما أظهر من الادلة على رسالتى والباء دخلت على الفاعل وشهيدا

لامع المنفى النصب على الحال أى يحكم نافذا حكمه ﴿وهو سريع الحساب﴾ فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء فى الدنيا ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ بانبيائهم والمؤمنين منهم ﴿فلله المكر جميعا﴾ اذ لا يؤبه بمكر دون مكره فانه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ فيعد جزاءها ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعد لهم وهم فى غفلة منه وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم واللام تدل على ان المراد بالعقبى العاقبة المحمودة مع ما فى الاضافة الى الدار كما عرفت * وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو الكافر على ارادة الجنس * وقرئ الكافرون والذين كفروا والكفر أى اهله وسيعلم من اعلمه اذا اخبره ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود ﴿قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم﴾

يعقب غيره بالاقتضاء والطلب والمعنى والله يحكم نافذا حكمه خاليا من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب حكمه أحد بتغيير ولا نقض ﴿وهو سريع الحساب﴾ قال ابن عباس يريد سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم بسط الكلام فى معنى سريع الحساب قبل هذا ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ يعنى من قبل مشركى مكة من الامم الماضية الذين مكروا بانبيائهم والمكر ايصال المكروه الى الانسان من حيث لا يشعر مثل ما مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى ﴿فلله المكر جميعا﴾ يعنى عند الله جزاء مكرهم وقال الواحدى يعنى جميع مكر الماكرين له ومنه أى هو من خلقه وارادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر والمعنى ان المكر لا يضر الا باذنه وارادته وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم كأنه قيل قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم فلم يضروا الا من أراد الله ضره واذا كان الامر كذلك وجب أن لا يكون الخوف الا من الله لا من أحد من المخلوقين ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ يعنى ان جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله وهو خالقها وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله ولا يحصل ضرر الا باذنه وارادته وفيه وعيد للكفار الماكرين ﴿وسيعلم الكافر﴾ على التوحيد وقرئ وسيعلم الكفار على الجمع قال ابن عباس يعنى أبا جهل وقيل أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة ﴿لمن عقبى الدار﴾ والمعنى انهم وان كانوا جهالا بالعواقب فسيعلمون ان العاقبة الحميدة للمؤمنين ولهم العاقبة المذمومة فى الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة * قوله تعالى ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا﴾ لما انكر الكفار كون محمد رسولا من عند الله أمره الله بقوله ﴿قل﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك ﴿كفى بالله شهيدا بينى وبينكم﴾

(وهو سريع الحساب) شديد العقاب ويقال اذا حاسب فحسابه سريع (وقد مكر) صنع (الذين من قبلهم) من قبل أهل مكة مثل نمرود بن كنعان بن سنجاريب بن كوش واصحابه (فلله المكر جميعا) عند الله عقوبة مكرهم جميعا (يعلم ما تكسب) يعلم الله ما تكسب (كل نفس) برة أو فاجرة من خير أو شر (وسيعلم الكفار) يعنى اليهود وسائر الكفار (لمن عقبى الدار) يعنى الجنة ويقال الدار التى يوم بدر ولمن تكون (قاوخا ٦٤ لث) مكة (ويقول الذين كفروا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن اليهود وغيرهم (لست مرسلا) من الله يا محمد وما أتيتنا بشهيد يشهد لك فقال الله (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) بانى رسوله وهذا القرآن كلامه

فانه اظهر من الادلة على رسالتى مايغنى عن شاهد يشهد عليها ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ علم القرآن وما الف عليه من النظم المعجز أو علم التوراة وهو ابن سلام واضرابه أو علم اللوح المحفوظ وهو الله تعالى أى وكفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لا يعلم فى اللوح المحفوظ الا هو شهيدا بيننا فيخزى الكاذب منا ويؤيده قراءة من قرأ ومن عنده بالكسر علم الكتاب وعلى الاول يرتفع بالظرف فانه معتمد على الموصول ويجوز ان يكون مبتدأ والظرف خبره وهو متعين للثانية وقرئ ومن عنده علم الكتاب على الحرف والبناء للمفعول * عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ سورة الرعد اعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله تعالى

سورة ابراهيم عليه السلام مكية وهى احدى وخمسون آية

المراد بشهادة الله على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه وكونه نبيا مرسلا من عند الله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ يعنى ومن عنده علم الكتاب أيضا يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها واختلفوا فى الذى عنده علم الكتاب من هو فروى العوفى عن ابن عباس انهم علماء اليهود والنصارى والمعنى ان كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم ان محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم وقيل انهم مؤمنو أهل الكتاب يشهدون أيضا على نبوته قال قتادة هو عبد الله بن سلام وأنكر الشعبى هذا وقال هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام فقال كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وعلى هذا القول يكون المعنى كفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لا يعلم علم ما فى اللوح المحفوظ الا هو شهيدا بينى وبينكم قال الزجاج الاشبه ان الله لا يشهد على صحة حكمه غيره وهذا قول مشكل لان عطف الصفة على الموصوف وان كان جائزا الا انه خلاف الاصل فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد بهذا زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال وهى قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله وعلمناه من لدنا علما وقيل معناه ان من علم أن القرآن الذى جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيدا بينى وبينكم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

تفسير سورة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام

﴿ وهى مكية سوى آيتين وهما قوله سبحانه وتعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا

تيز (ومن عنده علم الكتاب) قيل هو الله عز وجل والكتاب اللوح المحفوظ ودليله قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب اى ومن لدنه علم الكتاب لان علم من علمه من فضله ولطفه وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته فى كتبهم وقال ابن سلام فى نزلت هذه الآية وقيل هو جبريل عليه السلام ومن فى موضع الجر بالعطف على لفظ الله أو فى موضع الرفع بالعطف على محل الجار والمجرور اذ التقدير كفى الله وعلم الكتاب يرتفع بالمقدر فى الظرف فيكون فاعلا لان الظرف صلة لمن ومن هنا بمعنى الذى والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب وهذا لان الظرف اذا وقع صلة يعمل عمل الفعل نحو مررت بالذى فى الدار أخوه فأخوه فاعل كما تقول بالذى استقر فى الدار أخوه وفى القراءة بكسر ميم من يرتفع العلم بالابتداء ﴿ سورة ابراهيم عليه السلام مكية اثنتان وخمسون آية ﴾

(ومن عنده علم الكتاب) يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه ان قرأت بالنصب ويقال هو آصف بن برخيا لقوله تعالى قال الذى عنده علم من الكتاب ومن عنده من عند الله علم الكتاب تبيان القرآن ان قرأت بالخفض وهو الكتاب الذى أنزلناه اليك ﴾ ومن السورة التى (الى) يذكر فيها ابراهيم وهى كلها مكية آياتها خمسون وكلماتها ثمانمائة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (ألر كتاب) هو خبر مبتدأ محذوف أى هذا كتاب يعنى السورة والجملة التى هى (أنزلناه اليك) فى موضع الرفع صفة للنكرة (لتخرج الناس) بدعائك اياهم (من الظلمات الى النور) من الضلالة الى الهدى (باذن ربهم) بتيسيره وتسهيله مستعار من الاذن الذى هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنحهم من التوفيق (الى صراط) بدل من النور بتكرير العامل (العزيز) الغالب بالانتقام (الحميد) المحمود على الانعام (الله) بالرفع مدنى وشامى على هو الله وبالجر غيرهما على أنه عطف بيان للعزيز الحميد (الذى له ما فى السموات ومافى الارض) خلقا وملكا ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر الى نور الايمان توعد الكافرين بالويل وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك فقال (وويل للكافرين من عذاب شديد)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألر كتاب ﴾ أى هو كتاب ﴿ انزلناه اليك لتخرج الناس ﴾ بدعائك اياهم الى ما تضمنه ﴿ من الظلمات ﴾ من انواع الضلال ﴿ الى النور ﴾ الى الهدى ﴿ باذن ربهم ﴾ بتوفيقه وتسهيله مستعار من الاذن الذى هو تسهيل الحجاب وهو صلة لتخرج أو حال من فاعله أو مفعوله ﴿ الى صراط العزيز الحميد ﴾ بدل من قوله الى النور بتكرير العامل أو استئناف على انه جواب لمن يسأل عنه واضافة الصراط الى الله تعالى اما لانه مقصده أو المظهر له وتخصيص الوصفين للتنبيه على انه لا يذل سالكه ولا يخيب سائله ﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ﴾ على قراءة نافع وابن عامر مبتدأ وخبر والله خبر مبتدأ محذوف والذى صفته وعلى قراءة الباقين عطف بيان للعزيز لانه كالعلم لاختصاصه بالمعبود على الحق ﴿ وويل للكفرين من عذاب شديد ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من

الى آخر الآيتين وهى احدى وقيل اثنتان وخمسون آية وثمانمائة واحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قوله عز وجل ﴿ ألر كتاب أنزلناه اليك ﴾ يعنى هذا كتاب أنزلناه اليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لتخرج الناس من الظلمات الى النور ﴾ يعنى بهذا القرآن والمراد من الظلمات ظلمات الكفر والضلالة والجهل والمراد بالنور الايمان قال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله وفيه دليل على ان طريق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهى صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الكفر والجهل كثيرة واما طريق العلم والايمان فليس الا واحدا ﴿ باذن ربهم ﴾ يعنى بامر ربهم وقيل بعلم ربهم ﴿ الى صراط العزيز الحميد ﴾ يعنى الى دين الاسلام وهو دينه الذى أمر به عباده والعزيز هو الغالب الذى لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد ﴿ الله ﴾ قرئ بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرئ بالجر نعتا للعزيز الحميد وقال أبو عمرو قراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره الى صراط الله العزيز الحميد ﴿ الذى له ما فى السموات وما فى الارض ﴾ يعنى ملكا وما فيهما عبيده ﴿ وويل للكافرين ﴾ يعنى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له ما فى السموات وما فى الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله لانه من جملة خلق الله تعالى ومن جملة ما فى السموات وما فى الارض ﴿ من عذاب شديد ﴾ يعنى معدلهم فى الآخرة ثم

واحدى وثلاثون وحروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربع وثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

وباسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (ألر) يقول أنا الله أرى ما تقولون وما تعملون ويقال قسم اقسم به (كتاب) أى هذا كتاب (أنزلناه اليك) أنزلنا اليك جبريل به (لتخرج الناس) لتدعو أهل مكة (من الظلمات الى النور) من الكفر الى الايمان (باذن ربهم) بأمر ربهم تدعوهم (الى صراط) الى دين (العزيز) بالنقمة لمن لا يؤمن به (الحميد) لمن وحده ويقال المحمود فى فعاله (الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض) من الخلق والعجائب (وويل) واد فى جهنم من أشدها حرا وأضيقها مكانا وأبعدها قعرا فتقول يا رب قد اشتد حرى وضاق مكانى وبعد قعرى فأذن لى حتى أنتقم ممن عصاك ولا تجعل شيأ ينتقم منى (للكافرين من عذاب شديد) غليظ

وهو مبتدأ وخبر وصفة (الذين يستحبون) يختارون ويؤثرون (الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) عن دينه (ويبغونها عوجا) يطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجا والاصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الذين مبتدأ خبره (أولئك فى ضلال بعيد) عن الحق ووصف الضلال بالبعد من الاسناد

المجازى والبعد فى الحقيقة للضلال لانه هو الذى يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده أو مجرور صفة للكافرين أو منصوب على الذم أو مرفوع على أعنى الذين أوهم الذين (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه) الا متكلما بلغتهم (ليبين لهم) ماهو مامبعوث به وله فلايكون لهم حجة على الله ولا يقولون له لم نفهم ما خوطبنا به فان قلت ان رسولنا صلى الله صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس جميعا بقوله قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين وهم على السنة مختلفة فان لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة قلت لايخلو اما ان ينزل بجميع الالسنة أو بواحد منها فلاحاجة الى نزوله بجميع الالسنة لان الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل فتعين أن ينزل بلسان واحد وكان لسان قومه أولى بالتعيين لانهم أقرب اليه ولانه أبعد من التحريف والتبديل

الظلمات الى النور والويل نقيض الوأل وهو النجاة واصله النصب لانه مصدر الا انه لم يشتق منه فعل لكنه رفع لافادة الثبات ﴿الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة﴾ يختارونها عليها فان المختار للشئ يطلب من نفسه ان يكون احب اليها من غيره ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ بتعويق الناس عن الايمان وقرئ ويصدون من اصده وهو منقول من صد صدودا اذا تنكب وليس فصيحا لان فى صده مندوحة عن تكلف التعدية بالهمزة ﴿ويبغونها عوجا﴾ ويبغون لها زيغا ونكوبا عن الحق ليقدحوا فيه فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير والموصول بصلته يحتمل الجر صفة للكافرين والنصب على الذم والرفع عليه أو على انه مبتدأ خبره ﴿اولئك فى ضلال بعيد﴾ أى ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل والبعد فى الحقيقة للضال فوصف به فعله للمبالغة أو للامر الذى به الضلال فوصف به لملابسته ﴿وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه﴾ الا بلغة قومه الذى هو منهم وبعث فيهم ﴿ليبين لهم﴾ ما امروا به فيفقهوه عنه بيسر وسرعة ثم ينقلوه ويترجموه الى لغيرهم فانهم اولى الناس اليه بان يدعوهم واحق بان ينذرهم ولذلك امر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بانذار عشيرته اولا ولو نزل على من بعث الى امم مختلفة كتب على السنتهم استقل ذلك بنوع من الاعجاز ولكن ادى الى اختلاف الكلمة

وصفهم فقال تعالى ﴿الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة﴾ يعنى يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أى ويمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿ويبغونها عوجا﴾ يعنى ويطلبون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل وقيل معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء فى ويبغونها راجعة الى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل الى الحرام ﴿أولئك﴾ يعنى من هذه صفته ﴿فى ضلال بعيد﴾ يعنى عن الحق وقيل يجوز أن يراد فى ضلال بعيد ذى بعد أو فيه بعد لان الضال يبعد عن الطريق * قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه﴾ يعنى بلغة قومه ليفهموا عنه مايدعوهم اليه وهو قوله تعالى ﴿ليبين لهم﴾ يعنى مايأتون وما يذرون * فان قلت لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العرب وحدهم وانما بعث الى الناس جميعا بدليل قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل هو مبعوث الى الثقلين الجن والانس وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضى بظاهره انه مبعوث الى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع * قلت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثا الى جميع الخلق لانهم تبع للعرب ثم انه يبعث الرسل الى الاطراف فيترجمون لهم بالسنتهم ويدعونهم الى الله تعالى بلغاتهم وقيل

(الذين يستحبون الحياة الدنيا) يختارون الدنيا (على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) يصرفون الناس عن دين (يحتمل) الله وطاعته (ويبغونها عوجا) يطلبونها غيرا (أولئك) الكفار (فى ضلال بعيد) عن الحق والهدى ويقال فى خطأ بين (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) بلغة قومه (ليبين لهم) بلغتهم ما أمرلهم ومانهوا عنه ويقال بلسان يقدرون ان يتعلموا منه

واضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الالفاظ ومعانيها والعلوم المتشعبة منها ومافي اتعاب القرائح وكدالنفس من القرب المقتضية لجزيل الثواب *وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش ولسن بضمتين وضمة وسكون على الجمع كعمد وعمد وقيل الضمير في قومه لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وان الله تعالى انزل الكتب كلها بالعربية ثم ترجمها جبريل عليه السلام أو كل نبي بلغة المنزل عليهم وذلك يرده قوله ليبين لهم فانه ضمير القوم والتوراة والانجيل ونحوهما لم تنزل لتبين للعرب ﴿فيضل الله من يشاء﴾ فيخذله عن الايمان ﴿ويهدى من يشاء﴾ بالتوفيق له ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغلب شئ على مشيئته ﴿الحكيم﴾ الذي لا يضل ولا يهدى الا لحكمة ﴿ولقد ارسلنا موسى بآياتنا﴾ يعنى اليد والعصا وسائر معجزاته ﴿ان اخرج قومك من الظلمات الى النور﴾ بمعنى أي اخرج لان في الارسال معنى القول أو بان اخرج فان صيغ الافعال سواء في الدلالة على المصدر فتصح ان يوصل بها ان الناصبة ﴿وذكرهم بايام الله﴾ بوقائعه التي وقعت على الامم الدارجة

يحتمل انه أراد بقومه أهل بلده وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم في عموم الدعوى وقيل ان الرسول اذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم في ذلك فاذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج الى ذلك ممن هو من غير أهله واذا كان الكتاب واحدا بلغة واحدة مع اختلاف الامم وتباين اللغات كان ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله ﴿فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء﴾ يعنى ان الرسول ليس عليه الا التبليغ والتبيين والله هو الهادي المضل يفعل ما يشاء ﴿وهو العزيز﴾ يعنى الذي يغلب ولا يغلب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله * قوله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ المراد بالآيات المعجزات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة ﴿أن أخرج قومك من الظلمات الى النور﴾ أي أن أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر الى نور الايمان ﴿وذكرهم بايام الله﴾ قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة يعنى بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله في الامم السالفة يقال فلان عالم بايام العرب أي بوقائعهم وانما اراد بما كان في أيام الله من النعمة والنقمة فاخبر بذكر الايام عن ذلك لان ذلك كان معلوما عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد ان يذكرهم بما انعم الله عليهم به من النعمة وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الايام والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله وقيل بايام الله في حق موسى أن يذكر قومه بايام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين

(فيضل الله من يشاء) من آثر سبب الضلالة (ويهدى من يشاء) من آثر سبب الاهتداء (وهو العزيز) فلا يغالب على مشيئته (الحكيم) فلا يخذل الا أهل الخذلان (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع (أن أخرج قومك) بان أخرج أو أي أخرج لان الارسال فيه معنى القول كانه قيل أرسلناه وقلنا له أخرج قومك (من الظلمات الى النور وذكرهم بايام الله) وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الامم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها أو بايام الانعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم

(فيضل الله) عن دينه (من يشاء) من كان أهلا لذلك (ويهدى) لدينه (من يشاء) من كان أهلا لذلك (وهو العزيز) في ملكه وسلطانه ويقال العزيز بالنقمة لمن لا يؤمن به (الحكيم) في أمره وقضائه ويقال الحكيم بالاضلال والهدى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص من الثمرات (ان أخرج قومك) ان ادع قومك (من الظلمات الى النور) من الكفر الى الايمان (وذكرهم بأيام الله) بأيام عذاب الله ويقال بأيام رحمة

البحر (ان فى ذلك لآيات لكل صبار) على البلايا (شكور) على العطايا كأنه قال لكل مؤمن اذ الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمت الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) اذ ظرف للنعمة بمعنى الانعام

أى انعامه عليكم ذلك الوقت أو بدل اشتمال من نعمة الله أى اذكروا وقت انجائكم (ويذبحون أبناءكم) ذكر فى البقرة يذبحون وفى الاعراف يقتلون بلا واو وهنا مع الواو والحاصل ان التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث انه زاد على جنس العذاب كانه جنس آخر (ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) الاشارة الى العذاب والبلاء المحنة أو الى الانجاء والبلاء النعمة ونبلوكم بالشر

وايام العرب حروبها وقيل بنعمائه وبلائه ﴿ ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ يصبر على بلائه ويشكر لنعمائه فانه اذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وافيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر وقيل المراد لكل مؤمن وانما عبر عنهم بذلك تنبيها على ان الصبر والشكر عنوان المؤمن ﴿ واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمت الله عليكم اذ انجاكم من آل فرعون ﴾ أى اذكروا نعمته وقت انجائه اياكم ويجوز ان ينتصب بعليكم ان جعلت مستقرة غير صلة للنعمة وذلك اذا اريدت بها العطية دون الانعام ويجوز ان يكون بدلا من نعمة الله بدل الاشتمال ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ احوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين والمراد بالعذاب ههنا غير المراد به فى سورة البقرة والاعراف لانه مفسر بالتذبيح والقتل ثمة ومعطوف عليه التذبيح ههنا وهو اما جنس العذاب أو استعبادهم واستعمالهم بالاعمال الشاقة ﴿ وفى ذلكم ﴾ من حيث انه باقدار الله تعالى اياهم وامهالهم فيه ﴿ بلاء من ربكم عظيم ﴾ ابتلاء منه ويجوز ان تكون الاشارة الى الانجاء والمراد بالبلاء النعمة

﴿ ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ الصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر وانما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وان كان فيها عبرة للكافة لانهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكانها ليست لغيرهم فهو كقوله هدى للمتقين ولان الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة ﴿ واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمت الله عليكم ﴾ لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام ان يذكر قومه بايام الله امتثل ذلك الامر وذكرهم بأيام الله فقال اذكروا نعمة الله عليكم ﴿ اذ انجاكم من آل فرعون ﴾ أى اذكروا انعام الله عليكم فى ذلك الوقت الذى أنجاكم فيه من آل فرعون ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾ فان قلت قال فى سورة البقرة يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق * قلت انما حذفت الواو فى سورة البقرة لان قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءنى القوم زيد وعمرو اذا أردت تفسير القوم وأما دخول الواو هنا فى هذه السورة فلان آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لأنه تفسير للعذاب ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ يعنى يتركونهن أحياء ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ * فان قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم * قلت تمكينهم وامهالهم حتى فعلوا مافعلوا بلاء من الله ووجه آخر وهو ان ذلكم اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم لان البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا

الله (ان فى ذلك) فيما ذكرت (لآيات) لعلامات (لكل صبار) على الطاعة (شكور) على النعمة (واذ قال موسى لقومه) وقد قال موسى لقومه بنى اسرائيل (اذكروا نعمت الله عليكم) منة الله عليكم (اذ أنجاكم من آل فرعون) من فرعون وقومه القبط (يسومونكم سوء العذاب) يعذبونكم بأشد العذاب (ويذبحون أبناءكم) صغارا (ويستحيون) يستخدمون (نساءكم) كبارا (وفى ذلكم) فى ذبح الابناء واستخدام النساء (بلاء من ربكم عظيم) بلية من ربكم عظيمة ابتلاكم بها ويقال وفى ذلكم فى انجاء الله لكم بلاء من ربكم عظيم نعمة من ربكم

(الوجه)

والخير فتنة (واذ تأذن ربكم) أى آذن ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد ولابد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى افعل كانه قيل واذ آذن ربكم ايذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك والشبه وهو من جملة ماقال موسى لقومه وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم كانه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يابنى اسرائيل ماخولتكم من نعمة الانجاء وغيرها (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقيل اذا سمعت النعمة نعمة الشكر تاهبت للمزيد وقال ابن عباس رضى الله عنهما لئن شكرتم بالجد فى الطاعة لأزيدنكم بالجد فى المثوبة (ولئن كفرتم) ما أنعمت به عليكم (ان عذابى لشديد) لمن كفر نعمتى أما فى الدنيا فسلب النعمة وأما فى العقبى فتوالى النقم (وقال موسى ان تكفروا أنتم) يابنى اسرائيل (ومن فى الارض جميعا) والناس كلهم (فان الله لغنى) عن شكركم (حميد) وان لم يحمده الحامدون وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير الذى لابد لكم منه

﴿ واذ تأذن ربكم ﴾ ايضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن بمعنى آذن كتوعد واوعد غير انه ابلغ لما فى التفعل من معنى التكلف والمبالغة ﴿ لئن شكرتم ﴾ يابنى اسرائيل ما انعمت عليكم من الانجاء وغيره بالايمان والعمل الصالح ﴿ لأزيدنكم ﴾ نعمة الى نعمة ﴿ ولئن كفرتم ان عذابى لشديد ﴾ فلعلى اعذبكم على الكفران عذابا شديدا ومن عادة اكرم الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد والجملة مقول قول مقدر أومفعول تأذن على انه يجرى مجرى قال لانه ضرب منه ﴿ وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الارض جميعا ﴾ من الثقلين ﴿ فان الله لغنى ﴾ عن شكركم ونعمه ﴿ حميد ﴾ مستحق للحمد فى ذاته محمود تحمده الملائكة وتنطق بنعمه ذرات المخلوقات فاضررتم بالكفران الا انفسكم حيث حرمتموها مزيد الانعام

الوجه أولى لانه موافق لاول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم * فان قلت هب ان تذبيح الابناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء * قلت كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك بلاء ﴿ وأذ تأذن ربكم ﴾ هذا من جملة ماقال موسى لقومه كانه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن آذن أى أعلم ولابد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل كانه قيل وآذن ربكم ايذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى واذ تأذن ربكم فقال ﴿ لئن شكرتم ﴾ يعنى يابنى اسرائيل ماخولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح ﴿ لأزيدنكم ﴾ يعنى نعمة الى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود وقيل لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم فى الثواب وأصل الشكر تصور النعمة واظهارها وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة وههنا دقيقة وهى ان العبد اذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عزوجل عليه وأنواع فضله وكرمه واحسانه اليه اشتغل بشكر تلك النعمة وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله عزوجل وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات الى النعم وهذا مقام الصديقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه وانعامه وقوله ﴿ ولئن كفرتم ﴾ المراد بالكفر ههنا كفران النعمة وهو جحودها لانه مذكور فى مقابلة الشكر ﴿ ان عذابى لشديد ﴾ يعنى لمن كفر نعمتى ولايشكرها ﴿ وقال موسى ان تكفروا ﴾ يعنى يابنى اسرائيل ﴿ أنتم ومن فى الارض جميعا ﴾ يعنى والناس كلهم جميعا فانما ضرر ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله ﴿ فان الله لغنى ﴾ يعنى عن جميع خلقه ﴿ حميد ﴾ أى

عظيمة أنعمكم بها (واذ تأذن ربكم) قال ربكم وأعلم ربكم فى الكتاب (لئن شكرتم) بالتوفيق والعصمة والكرامة والنعمة (لأزيدنكم) توفيقا وعصمة وكرامة ونعمة (ولئن كفرتم) بى أو بنعمتى (ان عذابى لشديد) لمن كفر (وقال موسى ان تكفروا) بالله (أنتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى) عن ايمانكم (حميد) لمن وحده

وعرضتموها للعذاب الشديد ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام أو كلام مبتدأ من الله ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ﴾ جملة وقعت اعتراضا أو الذين من بعدهم عطف على ماقبله ولا يعلمهم اعتراض والمعنى انهم لكثرتهم لا يعلم عددهم الا الله ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه كذب النسابون ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى افواههم ﴾ فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه أو استهزاء عليه كمن غلبه الضحك أو اسكاتا للانبياء عليهم الصلاة والسلام وامرا لهم باطباق الافواه أو اشاروا بها الى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم انا كفرنا تنبيها على ان لا جواب لهم سواه او ردوها فى افواه الانبياء يمنعونهم من التكلم وعلى هذا يحتمل ان يكون تمثيلا

محمود فى جميع أفعاله لانه متفضل وعادل ﴿ ألم يأتكم نبأ ﴾ يعنى خبر ﴿ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ قال بعض المفسرين يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم هلاك من تقدم من الامم ويحتمل أن يكون خطابا من الله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام لقومه والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بذلك أمر القرون الماضية والامم الخالية والمقصود منه حصول العبرة باحوال من تقدم وهلاكهم ﴿ والذين من بعدهم ﴾ يعنى من بعد هؤلاء الامم الثلاثة ﴿ لا يعلمهم الا الله ﴾ يعنى لا يعلم كنه مقاديرهم وعددهم الا الله لان علمه محيط بكل شئ الا يعلم من خلق وقيل المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله أقوام وأمم ما بلغنا خبرهم أصلا ومنه قوله وقرونا بين ذلك كثيرا وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعنى انهم يدعون علم النسب الى آدم وقد نفى الله علم ذلك عن العباد وعن عبد الله بن عباس انه قال بين ابراهيم وعدنان ثلاثون قرنا لا يعلمهم الا الله وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الانسان نفسه أبا أبا الى آدم لانه لا يعلم أولئك الآباء الا الله وقوله تعالى ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ وفى معنى الايدى والافواه قولان أحدهما ان المراد بهما هاتان الجارحتان المعلومتان ثم فى معنى ذلك وجوه قال ابن مسعود عضوا أيديهم غيظا وقال ابن عباس لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بايديهم الى أفواههم وقال مجاهد وقتادة كذبوا الرسل وردوا ماجاؤا به يقال رددت قول فلان فى فيه أى كذبته وقال الكلبى يعنى ان الامم ردوا أيديهم الى أفواه أنفسهم يعنى انهم وضعوا الايدى على الافواه اشارة منهم الى الرسل ان اسكتوا وقال مقاتل ردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل ان الامم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل الذى غلبه الضحك * القول الثانى ان المراد بالايدى والافواه غير الجارحتين فقيل المراد بالايدى النعم ومعناه ردوا مالو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندى

أو ابتداء خطاب لاهل عصر محمد عليه السلام (والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله) جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضا أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولا يعلمهم الا الله اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وروى أنه عليه السلام قال عند نزول هذه الآية كذب النسابون (جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فردوا أيديهم فى أفواههم) الضميران يعودان الى الكفرة أى أخذوا أناملهم باسنانهم تعجبا أو عضوا عليها تغيظا أو الثانى يعود الى الانبياء أى رد القوم أيديهم فى أفواه الرسل كيلا يتكلموا بما

(ألم يأتكم) يا أهل مكة (نبأ) خبر (الذين من قبلكم قوم نوح وعاد) يعنى قوم هود (وثمود) يعنى قوم صالح (والذين من بعدهم) من بعد قوم صالح قوم شعيب وغيرهم كيف اهلكهم الله عند التكذيب (لا يعلمهم) لا يعلم عددهم وعذابهم أحد (الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات) بالامر والنهى والعلامات (فردوا أيديهم فى أفواههم) (يد على أفواههم يقول ردوا على الرسل ما جاؤا به ويقال وضعوا أيديهم على أفواههم وقالوا للرسل اسكتوا

وقيل الايدي بمعنى الايادي أي ردوا ايادي الانبياء التي هي مواعظهم وما اوحي اليهم من الحكم والشرائع في افواهم لانهم اذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها الى حيث جاءت منه ﴿ وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به ﴾ على زعمكم ﴿ وانا لفي شك مما تدعوننا اليه ﴾ من الايمان وقرئ تدعونا بالادغام ﴿ مريب ﴾ موقع في الريبة أو ذي ريبة وهي قلق النفس وان لا تطمئن الى شيء ﴿ قالت رسلهم أفي الله شك ﴾ ادخلت همزة الانكار على الظرف لان الكلام في المشكوك فيه لا في الشك أي انما ندعوكم الى الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الادلة وظهور دلالتها عليه واشار الى ذلك بقوله ﴿ فاطر السموات والارض ﴾ وهو صفة أو بدل وشك مرتفع بالظرف ﴿ يدعوكم ﴾ الى الايمان ببعثه ايانا ﴿ ليغفر لكم ﴾ أو يدعوكم الى المغفرة كقولك دعوته لينصرني على اقامة المفعول له مقام المفعول به ﴿ من ذنوبكم ﴾ بعض ذنوبكم وهو ما بينكم وبينه تعالى فان الاسلام يجبه دون المظالم وقيل جيء بمن في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقة بين الخطابين ولعل المعنى فيه ان المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبة على الايمان وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروج عن المظالم ﴿ ويؤخركم الى اجل مسمى ﴾ الى وقت سماه الله تعالى وجعله آخر اعماركم ﴿ قالوا

يد أي نعمة والمراد بالافواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بافواههم وردوا قولهم وقيل انهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده الى فيه اذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لانهم قد أجابوا بالتكذيب وهو أن الامم ردوا على رسلهم ﴿ وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ يعني انا كفرنا بما زعمتم ان الله أرسلكم به لانهم لم يقروا بانهم أرسلوا اليهم لانهم لو أقروا بان الرسل أرسلوا اليهم لكانوا مؤمنين ﴿ وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب ﴾ يعني يوجب الريبة أو يوقع في الريبة والتهمة والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن الى الامر الذي يشك فيه * فان قلت انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر أو داخل فيه * قلت انهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا ان لم ندع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في ذلك ﴿ قالت رسلهم ﴾ يعني مجيبين لاممهم ﴿ أفي الله شك ﴾ يعني هل تشكون في الله وهو استفهام انكار ونفي لما اعتقدوه ﴿ فاطر السموات والارض ﴾ يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات والارض وخالق جميع ما فيهما ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ يعني ليغفر لكم ذنوبكم اذا آمنتم وصدقتم وحرف من صلة وقيل انها أصل ليست بصلة وعلى هذا انه يغفر لهم ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد ﴿ ويؤخركم الى أجل مسمى ﴾ يعني الى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب ﴿ قالوا ﴾ يعني الامم مجيبين للرسل

الكلام ليس في الشك انما هو في المشكوك فيه وانه لا يحتمل الشك لظهور الادلة وهو جواب قولهم وانا لفي شك (فاطر السموات والارض يدعوكم) الى الايمان (ليغفر لكم من ذنوبكم) اذا آمنتم ولم تجيء مع من الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين هل أدلكم على تجارة الى أن قال يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت قد سماه وبين مقداره (قالوا) أي

والا سكتم (وقالوا) للرسل (انا كفرنا) جحدنا (بما أرسلتم به) من الكتاب والتوحيد (وانا لفي شك مما تدعوننا اليه) من الكتاب والتوحيد (مريب) ظاهر الشك فيما تقولون (قالت رسلهم أفي الله شك) أفي وحدانية الله شك

(فاطر السموات) خالق السموات (قا و خا ٦٥ لث) (والارض يدعوكم) الى التوبة والتوحيد (ليغفر لكم) بالتوبة والتوحيد (من ذنوبكم) في الجاهلية (ويؤخركم) يؤجلكم بلا عذاب (الى أجل مسمى) الى وقت معلوم يعني الموت (قالوا) للرسل

القوم (ان أنتم) ما أنتم (الا بشر مثلنا) لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا (تريدون أن تصدوا عما كان يعبد آباؤنا) يعني الاصنام (فأتونا بسلطان مبين) بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وانما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتا ولجاجا (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) تسليم لقولهم انهم بشر مثلهم (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالايمان والنبوة كما من علينا (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) جواب لقولهم فأتونا بسلطان مبين والمعنى أن الاتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس الينا ولا في استطاعتنا وانما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا كأنهم قالوا ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وايذائكم ألا ترى الى قوله (ومالنا أن لا نتوكل على الله) معناه وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين قال أبو تراب التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء (ولنصبر على ما آذيتمونا) جواب قسم مضمر أي حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم

ان أنتم الا بشر مثلنا ﴾ لا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ولو شاء الله ان يبعث الى البشر رسلا لبعث من جنس افضل ﴿ تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ بهذه الدعوة ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم بهذه المزية أو على صحة ادعائكم النبوة كأنهم لم يعتبروا ما جاؤا به من البينات والحجج واقترحوا عليهم آية اخرى تعنتا ولجاجا ﴿ قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ سلموا مشاركتهم في الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى ومنه عليهم وفيه دليل على ان النبوة عطائية وان ترجح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى ﴿ وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله ﴾ أي ليس لنا الاتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه وانما هو امر متعلق بمشيئة الله تعالى فيخص كل نبي بنوع من الآيات ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فلنتوكل عليه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم عمموا الامر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به انفسهم قصدا اوليا الا ترى قوله تعالى ﴿ ومالنا الا نتوكل على الله ﴾ أي أي عذر لنا في ان لا نتوكل عليه ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾ التي بها نعرفه ونعلم ان الامور كلها بيده. وقرأ ابو عمرو بالتخفيف ههنا وفي العنكبوت ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ جواب قسم محذوف اكدوا به توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من

﴿ ان أنتم ﴾ يعني ما أنتم ﴿ الا بشر مثلنا ﴾ يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة ﴿ تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ يعني ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ يعني بحجة بينة واضحة على صحة دعواكم ﴿ قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ﴾ يعني ان الكفار لما قالوا لرسلهم ان أنتم الا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم هب ان الامر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لا ننكر ذلك ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ﴾ يعني وليس لنا مع ما خصنا الله من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا الا باذن الله به لنا في ذلك ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني في دفع شرور أعدائهم عنهم ﴿ ومالنا أن لا نتوكل على الله ﴾ يعني ان الانبياء قالوا أيضا قد عرفنا انه لا يصيبنا شئ الا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم عنا ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾ يعني وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد ﴿ ولنصبرن ﴾ اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن ﴿ على ما آذيتمونا ﴾

(ان أنتم) ما أنتم (الا بشر) آدمي (مثلنا تريدون ان تصدونا) تصرفونا (عما كان يعبد آباؤنا) من الاصنام (فأتونا بسلطان مبين) بكتاب وحجة (قالت لهم رسلهم ان نحن) (يعني) ما نحن (الا بشر) آدمي (مثلكم) يقول خلق مثلكم (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالنبوة والاسلام (وما كان لنا) ما ينبغي لنا (ان نأتيكم بسلطان) بكتاب وحجة (الا باذن الله) بأمر الله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يقول وعلى المؤمنين ان يتوكلوا على الله فقالوا للرسل توكلوا انتم على الله حتى تروا ما يفعل بكم فقالت الرسل (ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) اكرمنا بالنبوة والاسلام (ولنصبرن على ما آذيتمونا)

(وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أي فليثبت المتوكلون على توكلهم حتى لا يكون تكرارا (وقال الذين كفروا لرسلهم) سبلنا لرسلهم أبو عمرو (لنخرجنكم من أرضنا) من ديارنا (أو لتعودن في ملتنا) أي ليكونن أحد الامرين اخراجكم أو عودكم وحلفوا على ذلك والعود بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام

العرب أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد (فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) القول مضمر أو أجرى الايحا مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض من بعدهم) أي أرض الظالمين وديارهم في الحديث من آذى جاره ورثه الله داره (ذلك) الاهلاك والاسكان أي ذلك الامر حق (لمن خاف مقامي) موقفي وهو موقف الحساب أو المقام مقحم أو خاف قيامي عليه بالعلم كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى ان ذلك حق للمتقين (وخاف وعيد) عذابي وبالياء يعقوب (واستفتحوا) واستنصروا الله على أعدائهم وهو معطوف على أوحى

الكفار عليهم ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ حلفوا على ان يكون احد الامرين اما اخراجهم للرسل أو عودهم الى ملتهم وهو بمعنى الصيرورة لانهم لم يكونوا على ملتهم قط ويجوز ان يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد ﴿ فاوحى اليهم ربهم ﴾ أي الى رسلهم ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ على اضمار القول أو اجراء الايحاء مجراه لانه نوع منه ﴿ ولنسكننكم الارض من بعدهم ﴾ أي ارضهم وديارهم كقوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها * وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لاوحى كقولك اقسم زيد ليخرجن ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ موقفي وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة أو قيامي عليه وحفظي لاعماله وقيل المقام مقحم ﴿ وخاف وعيد ﴾ أي وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار ﴿ واستفتحوا ﴾ سألوا من الله الفتح على اعدائهم أو القضاء بينهم وبين اعدائهم من الفتاحة

يعني به من قول أو فعل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ فان قلت كيف كرر الامر بالتوكل وهل من فرق بين التوكلين * قلت نعم التوكل الاول فيه اشارة الى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه اشارة الى السعي في التثبيت على ما استحدثوا من توكلهم وابقائه وادامته فحصل الفرق بين التوكلين * قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ يعني ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا واما عودكم في ملتنا * فان قلت هذا يوهم بظاهره انهم كانوا على ملتهم في أول الامر حتى يعودوا فيها * قلت معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب وفيه وجه آخر وهو ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم فلما أرسلوا اليهم اظهروا مخالفتهم ودعوهم الى الله فقالوا لهم لتعودن في ملتنا ظنا منهم انهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم واجماع الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤا على التوحيد لا يعرفون غيره ﴿ فاوحى اليهم ربهم ﴾ يعني ان الله تعالى أوحى الى رسله وأنبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ يعني ان عاقبة أمرهم الى الهلاك فلا تخافوهم ﴿ ولنسكننكم الارض من بعدهم ﴾ يعني من بعد هلاكهم ﴿ ذلك ﴾ يعني ذلك الاسكان ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ يعني خاف مقامه بين يدي يوم القيامة فاضاف قيام العبد الى نفسه لان العرب قد تضيف أفعالها الى أنفسها كقولهم ندمت على ضربي اياك وندمت على ضربك مثله ﴿ وخاف وعيد ﴾ أي وخاف عذابي * قوله عز وجل ﴿ واستفتحوا ﴾ يعني واستنصروا قال ابن عباس يعني الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة واستفتح الرسل على أممهم وذلك انهم لما

في ابداننا بطاعة الله (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فليثق الواثقون (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) من مدينتنا (أو لتعودن) تدخلن (في ملتنا) في ديننا (فاوحى اليهم) الى الرسل (ربهم) ان اصبروا (لنهلكن الظالمين) الكافرين (ولنسكننكم) لننزلنكم (الارض) أرضهم وديارهم (من بعدهم) من بعد هلاكهم (ذلك) التسكين (لمن خاف مقامي) القيام بين يدي (وخاف وعيد) عذابي (واستفتحوا) استنصر كل

كقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وهو معطوف على فأوحى والضمير للانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل للكفرة وقيل للفريقين فان كلهم سألوه ان ينصر المحق ويهلك المبطل * وقرئ بلفظ الامر عطفا على لنهلكن ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ أى ففتح لهم فافلح المؤمنون وخاب كل عات متكبر على الله معاند للحق فلم يفلح ومعنى الخيبة اذا كان الاستفتاح من الكفرة أو من القبيلتين كان اوقع ﴿ من ورائه جهنم ﴾ اى من بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك ﴿ ويسقى من ماء ﴾ عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء ﴿ صديد ﴾ عطف بيان لماء وهو ما يسيل من جلود اهل النار ﴿ يتجرعه ﴾ يتكلف جرعه وهو صفة لماء أو حال من الضمير فى يسقى ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ ولا يقارب ان يسيغه فكيف يسيغه بل يغص به فيطول عذابه والسوغ جواز

أيسوا من إيمان قومهم استنصروا الله و دعوا على قومهم بالعذاب ﴿ وخاب ﴾ يعنى وخسر وقيل هلك ﴿ كل جبار عنيد ﴾ والجبار فى صفة الانسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم فى حق الانسان وقيل الجبار الذى لا يرى فوقه أحدا وقيل الجبار المتعظم فى نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قال مجاهد وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذى يأبى أن يقول لا اله الا الله وقيل العنيد هو الموجب ما عنده وقيل العنيد الذى يعاند ويخالف ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ يعنى هى أمامه وهو صائر اليها قال ابو عبيدة هو من الاضداد يعنى أنه يقال وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الاخفش هو كما يقال هذا الامر من ورائك يعنى أنه سيأتيك ﴿ ويسقى ﴾ يعنى فى جهنم ﴿ من ماء صديد ﴾ وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب القرظى هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله ﴿ يتجرعه ﴾ أى يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أى لا يقدر على ابتلاعه يقال ساغ الشراب فى الحلق اذا سهل انحداره فيه قال بعض المفسرين ان يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف دخلت يكاد للمبالغة يعنى ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه أى يسيغه بعد ابطاء لان العرب تقول ما كدت أقوم أى قمت بعد ابطاء فعلى هذا كاد على أصلها وليست بصلة وقال ابن عباس معناه لا يجيزه وقيل معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلى فى جوفه * عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال يقرب الى فيه فيكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا أخرجه الترمذى وقال حديث غريب * قوله وقعت فروة رأسه أى جلدة رأسه وانما شبهها بالفروة للشعر الذى عليها * وقوله تعالى

فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وقيل الضمير للكفار ومعناه واستفتح الكفار على الرسل ظنا منهم بانهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم و لم يفلح باستفتاحه (من ورائه) من بين يديه (جهنم) وهذا وصف حاله وهو فى الدنيا لانه مرصد لجهنم فكانها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله فى الآخرة حيث يبعث ويوقف (ويسقى) معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى (من ماء صديد) ما يسيل من جلود أهل النار و صديد عطف بيان لماء لانه مبهم فبين بقوله صديد (يتجرعه) يشربه جرعة جرعة (ولا يكاد يسيغه) ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله لم يكد يراها أى لم

قوم على نبيهم (وخاب كل جبار) خسر عند الدعاء من النصرة كل متكبر ختال (عنيد) معرض عن الحق والهدى (من ورائه) من قدام هذا الجبار بعد الموت (جهنم ويسقى من ماء صديد) مما يخرج من جلودهم من القيح والدم (يتجرعه) يستمسك الصديد فى حلقه (ولا يكاد يسيغه) يجيزه

(ويأتيه)

يقرب من رؤيتها فكيف يراها (ويأتيه الموت من كل مكان) أي أسباب الموت من كل جهة أو من كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكا (وماهو بميت) لانه لو مات لاستراح (ومن ورائه) ومن بين يديه (عذاب غليظ) أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله وأغلظ وعن الفضيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد (مثل الذين) مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم مثل الذين (كفروا بربهم) والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله (أعمالهم كرماد) جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد (اشتدت به الريح) الرياح مدني (في يوم عاصف) جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح كقولك يوم ماطر واعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الارحام وعتق الرقاب وفداء الاسرى وعقر الابل للاضياف وغير ذلك شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس وهو الايمان بالله تعالى برماد طيرته الريح

الشراب على الحلق بسهولة وقبول نفس ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي اسبابه من الشدائد فتحيط به من جميع الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من اصول شعره وابهام رجله ﴿وماهو بميت﴾ فيستريح ﴿ومن ورائه﴾ ومن بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ أي يستقبل في كل وقت عذابا اشد مما هو عليه وقيل هو الخلود في النار وقيل حبس الانفاس وقيل الآية منقطعة عن قصة الرسل نازلة في اهل مكة طلبوا الفتح الذي هو المطر في سنيهم التي ارسل الله تعالى عليهم بدعوة رسوله فخيب رجاءهم فلم يسقهم واوعدلهم ان يسقيهم في جهنم بدل سقياهم صديدا اهل النار ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ مبتدأ خبره محذوف أي فيما يتلى عليكم صفتهم التي هي مثل في الغرابة أو قوله ﴿اعمالهم كرماد﴾ وهي على الاول جملة مستأنفة لبيان مثلهم وقيل اعمالهم بدل من المثل والخبر كرماد ﴿اشتدت به الريح﴾ حملته واسرعت الذهاب به وقرأ نافع الرياح ﴿في يوم عاصف﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة كقولهم نهاره صائم وليله قائم شبه صنائعهم من الصدقة وصلة الرحم واغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير اساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها اليه أو اعمالهم

﴿ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت﴾ يعني ان الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه وقال ابراهيم التيمي حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وماهو بميت فيستريح وقال ابن جريج تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ﴿ومن ورائه﴾ يعني أمامه ﴿عذاب غليظ﴾ أي شديد قيل هو الخلود في النار * قوله تعالى ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة وقوله أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد وقال المفسرون والفراء مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتمادا على ما ذكره بعد المضاف اليه وقيل يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك في صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد احراقه بالنار اشتدت به الريح يعني فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيأ في يوم عاصف وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح لان الريح تكون فيه كقولك يوم بارد وحار وليلة ماطرة لان البرد والحر والمطر توجد فيهما وقيل معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لانه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لاعمال الكفار التي لم ينتفعوا بها ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الاعمال هو

(ويأتيه الموت) غم الموت (من كل مكان) من تحت كل شعرة ويقال تأخذه النار من كل مكان من كل ناحية (وماهو بميت) من ذلك العذاب (ومن ورائه) من بعد الصديد (عذاب غليظ) شديد أشد من الصديد (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) يقول مثل أعمال الذين كفروا بربهم (كرماد اشتدت) ذرت (به الريح في يوم عاصف) قاصف شديد من الريح

العاصف (لايقدرون) يوم القيامة (مما كسبوا) من أعمالهم (على شئ) أي لا يرون له اثرا من ثواب كما لايقدر من الرماد المطير في الريح على شئ (ذلك هو الضلال البعيد) اشارة الى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الصواب (ألم تر) ألم تعلم الخطاب لكل أحد (أن الله خلق السموات والارض) خالق مضافا حمزة وعلي (بالحق) بالحكمة والامر العظيم ولم يخلقها عبثا (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) أي هو قادر على ان يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم اعلاما بانه قادر على اعدام الموجود وايجاد المعدوم (وماذلك على الله بعزيز) بمتعذر (وبرزوا لله جميعا) ويبرزون يوم القيامة وانما جيء به بلفظ الماضي لان ما أخبر به عز

للاصنام برماد طيرته الريح العاصفة ﴿لايقدرون﴾ يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من اعمالهم ﴿على شئ﴾ لحبوطه فلا يرون له اثرا من الثواب وهو فذلكة التمثيل ﴿ذلك﴾ اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم انهم محسنون ﴿هو الضلال البعيد﴾ فانه الغاية في البعد عن طريق الحق ﴿ألم تر﴾ خطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد به امته وقيل لكل واحد من الكفرة على التلوين ﴿ان الله خلق السموات والارض بالحق﴾ بالحكمة والوجه الذي يحق ان يخلق عليه وقرأ حمزة والكسائي خالق السموات ﴿ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ يعدمكم ويخلق خلقا آخر مكانكم رتب ذلك على كونه خالقا للسموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق اصولهم ومايتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع قدر ان يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه ذلك كما قال ﴿وماذلك على الله بعزيز﴾ بمتعذر أو متعسر فانه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه كان حقيقا بان يؤمن به ويعبد رجاء لثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء ﴿وبرزوا لله جميعا﴾

ان الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لايبقى منها شئ وكذلك أعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لايبقى منها شئ ثم اختلفوا في هذه الاعمال ماهي فقيل هي ماعملوه من أعمال الخير في حال الكفر كالصدقة وصلة الارحام وفك الاسير وقرى الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك من أعمال البر والصلاح فهذه الاعمال وان كانت أعمال بر لكنها لاتنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لان كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل المراد بالاعمال عبادتهم الاصنام التي ظنوا أنها تنفعهم فبطلت وخبطت ولم تنفعهم البتة ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم في الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم وقيل أراد بالاعمال الاعمال التي عملوها في الدنيا وأشركوا فيها غير الله فانها لاتنفعهم لانها صارت كالرماد الذي ذرته الرياح وصار هباء لاينتفع به وهو قوله تعالى ﴿لايقدرون مما كسبوا﴾ يعني في الدنيا ﴿على شئ﴾ يعني من تلك الاعمال والمعنى انهم لايجدون ثواب أعمالهم في الآخرة ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ يعني ذلك الخسران الكبير لان أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذي لايرجى عوده ﴿ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق﴾ يعني لم يخلقهما باطلا ولا عبثا وانما خلقهما لامر عظيم وغرض صحيح ﴿ان يشأ يذهبكم﴾ يعني أيها الناس ﴿ويأت بخلق جديد﴾ يعني سواكم أطوع لله منكم والمعنى ان الذي قدر على خلق السموات والارض قادر على افناء قوم واماتتهم وايجاد خلق آخر سواهم لان القادر لايصعب عليه شئ قيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يميتكم يامعشر الكفار ويخلق قوما غيركم خيرا منكم وأطوع ﴿وماذلك على الله بعزيز﴾ يعني بممتنع لان الاشياء كلها سهلة على الله وان جلت وعظمت * قوله عز وجل ﴿وبرزوا لله جميعا﴾

(لايقدرون مما كسبوا على شئ) يقول لايجدون ثواب شئ مما عملوا من الخير في الكفر كما لايوجد من الرماد شئ اذا ذرته الريح (ذلك) الكفر والعمل لغير الله (هو الضلال البعيد) الخطأ البعيد عن الحق والهدى (ألم تر) ألم تخبر يامحمد خاطب بذلك نبيه واراد به قومه (ان الله خلق السموات والارض بالحق) لبيان الحق والباطل ويقال للزوال والفناء (ان يشأ يذهبكم) يهلككم أو يميتكم يا أهل مكة (ويأت بخلق جديد) يخلق خلقا آخر خيرا منكم وأطوع لله (وماذلك على الله بعزيز) بشديد يقول ليس على الله بشديد (يعني) أن يهلككم ويخلق خلقا آخر (وبرزوا لله) خرجوا من القبور بامر الله (جميعا)

وجل لصدقه كانه قد كان ووجد نحوه ونادى أصحاب الجنة ونادى اصحاب النار وغير ذلك ومعنى بروزهم لله والله تعالى لايتوارى عنه شئ حتى يبرز له انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون ان ذلك خاف على الله فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا ان الله لاتخفى عليه خافية أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه (فقال الضعفواء) في الرأى وهم السفلة والاتباع وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو (للذين استكبروا) وهم السادة

استغووهم وصدوهم عن الاستماع الى الانبياء وأتباعهم (انا كنا لكم تبعا) تابعين جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب أوذوى تبع والتبع الاتباع يقال تبعه تبعا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ) فهل تقدرون على دفع شئ مما نحن فيه ومن الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو عذاب الله أو هما للتبعيض أى فهل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخا لهم وعتابا على استغوائهم لانهم علموا أنهم لايقدرون على الاغناء عنهم (قالوا) لهم مجيبين معتذرين (لو هدانا الله لهديناكم) أى لو هدانا الله الى الايمان فى الدنيا لهديناكم اليه أى لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أى لاغنينا عنكم وسلكنا بكم

أى يبرزون من قبورهم يوم القيامة لامر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فانهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش ويظنون انها تخفى على الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند انفسهم وانما ذكر بلفظ الماضى لتحقق وقوعه ﴿ فقال الضعفواء ﴾ الاتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف الرأى وانما كتب بالواو على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو ﴿ للذين استكبروا ﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم ﴿ انا كنا لكم تبعا ﴾ فى تكذيب الرسل والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغائب وغيب أو مصدر نعت به للمبالغة أو على اضمار مضاف ﴿ فهل انتم مغنون عنا ﴾ دافعون عنا ﴿ من عذاب الله من شئ ﴾ من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشئ الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز ان تكونا للتبعيض أى بعض شئ هو بعض عذاب الله تعالى والاعراب ماسبق ويحتمل ان تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل انتم مغنون بعض العذاب بعض الاغناء ﴿ قالوا ﴾ أى الذين استكبروا جوابا عن معاتبة الاتباع واعتذارا عما فعلوا بهم ﴿ لو هدانا الله ﴾ للايمان ووفقنا له ﴿ لهديناكم ﴾ ولكن ضللنا فاضللناكم أى اخترنا لكم مااخترناه لانفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم واغنيناه عنكم كما عرضنا كم له لكن سدد دوننا طريق الخلاص ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ مستويان علينا الجزع والصبر

يعنى وخرجوا من قبورهم الى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء وبرز حصل فى البراز وذلك ان يظهر بذاته كلها والمعنى وخرجوا من قبورهم وظهروا الى الفضاء وأورد بلفظ الماضى وان كان معناه الاستقبال لان كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق وكائن لامحالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود ﴿ فقال الضعفواء ﴾ يعنى الاتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿ انا كنا لكم تبعا ﴾ يعنى فى الدين والاعتقاد ﴿ فهل انتم ﴾ يعنى فى هذا اليوم ﴿ مغنون عنا ﴾ يعنى دافعون عنا ﴿ من عذاب الله من شئ ﴾ من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على ان تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذى حل بنا ﴿ قالوا ﴾ يعنى الرؤساء والقادة والمتبوعون للتابعين ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ يعنى لو أرشدنا الله لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم الى الضلالة ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ يعنى مستويان علينا الجزع والصبر والجزع ابلغ من الحزن

طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية روى انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم

القادة والسفلة (فقال الضعفواء) السفلة (للذين استكبروا) عن الايمان وهم القادة (انا كنا لكم تبعا) مطيعا فيما أمرتمونا (فهل أنتم مغنون) حاملون (عنا من عذاب الله من شئ) شيأ من عذاب الله (قالوا) يعنى القادة (لو هدانا الله) لدينه (لهديناكم) لدعوناكم الى دينه (سواء علينا) العذاب (أجزعنا) أصحنا وتضرعنا (أم صبرنا) سكتنا

بالصبر ثم يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا واتصاله بما قبله من حيث ان عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه فقالوا لهم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون

أنفسهم وإياهم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين فيها يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة فى الجزع كما لا فائدة فى الصبر (مالنا من محيص) منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا (وقال الشيطان لما قضى الامر) حكم بالجنة والنار لاهليهما وفرغ من الحساب ودخل اهل الجنة الجنة وأهل النار النار وروى ان الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا على منبر من نار فيقول لأهل النار (ان الله وعدكم وعد الحق) وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم (ووعدتكم) بان لا بعث ولا حساب ولا جزاء (فاخلفتكم) كذبتكم (وما كان لى عليكم من سلطان) من تسلط واقتدار (الا ان دعوتكم) لكنى دعوتكم الى الضلالة بوسوستى وتزيينى والاستثناء منقطع لان الدعاء ليس من جنس

﴿ مالنا من محيص ﴾ منجى ومهرب من العذاب من الحيص وهو العدول على جهة الفرار وهو يحتمل ان يكون مكانا كالمبيت ومصدرا كالمغيب ويجوز ان يكون قوله سواء علينا من كلام الفريقين ويؤيده ماروى انهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك ثم يقولون سواء علينا ﴿ وقال الشيطان لما قضى الامر ﴾ احكم وفرغ منه ودخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار خطيبا فى اشقياء من الثقلين ﴿ ان الله وعدكم وعد الحق ﴾ وعدا من حقه ان ينجز أو وعدا انجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿ ووعدتكم ﴾ وعد الباطل وهو ان لا بعث ولا حساب وان كانا فالاصنام تشفع لكم ﴿ فاخلفتكم ﴾ جعل تبين خلف وعده كالاخلاف منه ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان ﴾ تسلط فالجئكم الى الكفر والمعاصى ﴿ الا ان دعوتكم ﴾ الا دعائى اياكم اليها بتسويلى وهو ليس من جنس السلطان ولكنه.

لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطع عنه ﴿ مالنا من محيص ﴾ يعنى من مهرب ولا منجا مما نحن فيه من العذاب قال مقاتل يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى ان أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يامالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما واليوم كالف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا فلم ينفعهم فعند ذلك قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص * قوله تعالى ﴿ وقال الشيطان ﴾ يعنى ابليس * ﴿ لما قضى الامر ﴾ يعنى لما فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يأخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيها خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر فى النار فيجتمع عليه اهل النار يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله عنه بقوله ﴿ ان الله وعدكم وعد الحق ﴾ فيه اضمار تقديره فصدق فى وعده ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ يعنى الوعد وقيل يقول لهم انى قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان ﴾ يعنى من ولاية وقهر وقيل لم آتكم بحجة فيما وعدتكم به ﴿ الا ان دعوتكم ﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم

(مالنا من محيص) من مغيث وملجأ (وقال الشيطان) يقول الشيطان وهو ابليس (لما قضى الامر) أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيقول لاهل النار فى النار (ان الله وعدكم وعد الحق) (فاستجبتم) ان الجنة والنار والبعث والحساب والميزان والصراط حق (ووعدتكم) ان لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ولا ميزان ولا صراط (فاخلفتكم) كذبت لكم (وما كان لى عليكم من سلطان) من حجة وعذر ومقدرة (الا ان دعوتكم) الى طاعتى

السلطان (فاستجبتم لى) فاسرعتم اجابتى (فلا تلومونى) لان من تجرد للعداوة لا يلام اذا دعا الى أمر قبيح مع ان الرحمن قد قال لكم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة (ولوموا أنفسكم) حيث اتبعتمونى بلا حجة ولا برهان وقول المعتزلة هذا دليل على ان الانسان هو الذى يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله الا التمكين ولا من الشيطان الا التزيين باطل لقوله لو هدانا الله أى الى الايمان لهدينا كم كما مر (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه والاصراخ الاغاثة بمصرخى حمزة اتباعا للخاء غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة والياآن بعد كسرتين وهو جمع مصرخ فالياء الاولى ياء الجمع والثانية ضمير المتكلم (انى كفرت بما أشركتمون) وبالياء بصرى وما مصدرية (من قبل) متعلق باشركتمونى أى كفرت اليوم باشراككم اياى مع الله من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا كقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم أو من قبل متعلق بكفرت وما موصولة أى كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله عز وجل تقول أشركنى فلان أى جعلنى له شريكا ومعنى اشراكهم الشيطان بالله طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الاوثان وهذا آخر قول الشيطان وقوله (ان الظالمين لهم عذاب أليم) قول الله عز وجل (قا و خا ٦٦ لث) وقيل هو من تمام كلام ابليس وانما حكى الله عز وجل ما سيقوله فى ذلك الوقت ليكون لطفا

على طريقة قوله تحية بينهم ضرب وجيع

ويجوز ان يكون الاستثناء منقطعا ﴿ فاستجبتم لى ﴾ اسرعتم اجابتى ﴿ فلا تلومونى ﴾ بوسوستى فان من صرح العداوة لا يلام بامثال ذلك ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ حيث اطعتمونى إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم واحتجت المعتزلة بامثال ذلك على استقلال العبد بافعاله وليس فيها ما يدل عليه اذ يكفى لصحتها ان يكون لقدرة العبد مدخل ما فى فعله وهو الكسب الذى يقوله اصحابنا ﴿ ما انا بمصرخكم ﴾ بمغيثكم من العذاب ﴿ وما انتم بمصرخى ﴾ بمغيثى وقرأ حمزة بكسر الياء على الاصل فى التقاء الساكنين وهو اصل مرفوض فى مثله لما فيه من اجتماع يائين وثلاث كسرات مع ان حركة ياء الاضافة الفتح فاذا لم تكسر وقبلها الف فبالحرى ان لا تكسر وقبلها ياء أو على لغة من يزيد ياء على ياء الاضافة اجراء لها مجرى الهاء والكاف فى ضربته واعطيتكه وحذف الياء اكتفاء بالكسرة ﴿ انى كفرت بما اشركتمونى من قبل ﴾ ما اما مصدرية ومن متعلقة باشركتمونى أى كفرت اليوم باشراككم اياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم أو موصولة بمعنى من نحو ما فى قولهم سبحان ما سخركن لنا ومن متعلقة بكفرت أى كفرت بالذى اشركتمونيه وهو الله تعالى بطاعتكم اياى فيما دعوتكم اليه من عبادة الاصنام وغيرها من قبل اشراككم حين رددت امره بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واشرك منقول من شركت زيدا للتعدية الى مفعول ثان ﴿ ان الظالمين لهم عذاب اليم ﴾ تتمة كلام أو ابتداء

﴿ فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ يعنى ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ يعنى بمغيثكم ولا منقذكم ﴿ وما أنتم بمصرخى ﴾ يعنى بمغيثى ولا منقذى مما أنا فيه ﴿ انى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ يعنى كفرت بجعلكم اياى شريكا له فى عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى ان ابليس جحد ما يعتقده الكفار فيه من كونه شريكا لله وتبرأ من ذلك ﴿ ان الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ روى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر عن النبى

(فاستجبتم لى) طاعتى (فلا تلومونى) فى دعوتى لكم (ولوموا أنفسكم) باجابتكم اياى (ما أنا بمصرخكم) بمغيثكم ومنجيكم من النار (وما أنتم بمصرخى) بمغيثى ومنجى من النار (انى كفرت بما أشركتمونى) بالذى أشركتمونى به (من قبل) ان أشركتمونى به ويقال انى كفرت اليوم بما أشركتمونى يقول تبرأت منكم ومن دينكم واجابتكم من قبل هذا من قبل فى الدنيا (ان الظالمين) الكافرين (لهم عذاب أليم)

كلام من الله تعالى وفى حكاية امثال ذلك لطف للسامعين وايقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم ﴿ وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم ﴾ باذن الله تعالى وامره والمدخلون هم الملائكة *وقرئ ادخل على التكلم فيكون قوله باذن ربهم متعلقا بقوله ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ أى تحييهم الملائكة فيها بالسلام باذن ربهم ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا ﴾ كيف اعتمله ووضعه ﴿ كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا ويجوز ان يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى كشجرة وان تكون اول مفعولى ضرب اجراء لها مجرى جعل وقد قرئت بالرفع على الابتداء

صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة وذكر الحديث الى قوله فيأتونى فيأذن الله لى ان أقوم فيثور من مجلسى أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظهر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ماهو غير ابليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فانك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية ۞ وقوله تعالى ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ﴾ لما شرح الله عز وجل حال الكفار والاشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة شرح أحوال المؤمنين السعداء وما أعد لهم فى الآخرة من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار وكونها دائمة أشير اليه بقوله ﴿ خالدين فيها ﴾ والتعظيم حصل من وجهين أحدهما قوله ﴿ باذن ربهم ﴾ لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله بانعامه الثانى قوله ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ فيحتمل ان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم بها ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لان السلام مشتق من السلامة ۞ قوله عز وجل ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا ﴾ لما شرح الله عز وجل أحوال الاشقياء وأحوال السعداء ضرب مثلا فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى ألم ترأى بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامى اياك فعلى هذا يحتمل ان يكون الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره فيه ويحتمل ان يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس فيكون المعنى ألم تر أيها الانسان كيف ضرب الله مثلا يعنى بين شبها والمثل عبارة عن قول فى شئ يشبه قولا فى شئ آخر بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور وقيل هو قول سائر لتشبيه شئ بشئ آخر ﴿ كلمة طيبة ﴾ هى قول لا اله الا الله فى قول ابن عباس وجمهور المفسرين ﴿ كشجرة طيبة ﴾ يعنى كشجرة طيبة الثمر قال ابن عباس هى النخلة وبه قال ابن

للسامعين (وادخل الذين أمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) عطف على برزوا (باذن ربهم) متعلق بادخل أى أدخلتهم الملائكة الجنة باذن الله وأمره (تحيتهم فيها سلام) هو تسليم بعضهم على بعض فى الجنة أو تسليم الملائكة عليهم (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أى وصفه وبينه (كلمة طيبة) نصب بمضمر أى جعل كلمة طيبة (كشجرة طيبة) وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا نحو شرف الامير زيدا كساه حلة وحمله على فرس أو انتصب مثلا وكلمة بضرب أى ضرب كلمة طيبة مثلا يعنى جعلها مثلا ثم قال كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدأ محذوف أى هى كشجرة طيبة

وجيع يخلص وجعه الى قلوبهم (وأدخل الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم (جنات) بساتين (تجرى من تحتها) من تحت شجرها ومساكنها (الانهار) أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (خالدين فيها) مقيمين فيها (باذن ربهم) بأمر ربهم (تحيتهم) كرامتهم (فيها) فى الجنة (سلام) يسلم بعضهم على بعض اذا تلاقوا (ألم تر) ألم تخبر يا محمد (كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة) يقول كيف بين الله صفة كلمة طيبة وهى لا اله الا الله (كشجرة طيبة) وهى المؤمن

(أصلهاثابت) أى فى الارض ضارب بعروقه فيها (وفرعها)وأعلاهاورأسها (فى السماء) والكلمة الطيبة كلمة التوحيدأصلها تصديق بالجنان وفرعها اقرار باللسان وأكلها عمل الاركان وكان الشجرة شجرة وان لم تكن حاملا فالمؤمن مؤمن وان لم يكن عاملا ولكن الاشجار لاتراد

الا للثمار فما أقوات النار الا من الاشجار اذا اعتادت الاخفار فى عهد الاثمار والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك والجمهور على انها النخلة فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ماهى فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى انها النخلة فهبت رسول الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا انها النخلة فقال عمر يابنى لو كنت قلتها لكانت أحب الى من حمر النعم (تؤتى أكلها كل حين) تعطى ثمرها كل وقت وقته الله لاثمارها (باذن ربها) بتيسير خالقها

﴿ اصلها ثابت ﴾ فى الارض ضارب بعروقه فيها ﴿ وفرعها ﴾ واعلاها ﴿ فى السماء ﴾ ويجوز ان يريد وفروعها أى افنانها على الاكتفاء بلفظ الجنس لاكتسابه الاستغراق من الاضافة *وقرئ ثابت اصلها والاول على اصله ولذلك قيل انه اقوى ولعل الثانى ابلغ ﴿ تؤتى اكلها ﴾ تعطى ثمرها ﴿ كل حين ﴾ وقته الله تعالى لاثمارها ﴿ باذن ربها ﴾

مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرونى عن شجرة شبه الرجل أوقال الرجل المسلم لايتحات ورقها تؤتى أكلها كل حين قال ابن عمر فوقع فى نفسى انها النخلة ورأيت أبابكر وعمر لايتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة قال فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى انها النخلة فقال مامنعك ان تتكلم فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت ان أتكلم أوأقول شيأ فقال عمر لان تكون قلتها أحب الى من كذا وكذا * وفى رواية ان من الشجر شجرة لايسقط ورقها وانها مثل المسلم فحدثونى ماهى فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبدالله بن عمر ووقع فى نفسى انها النخلة فاستحييت ان أتكلم ثم قالوا حدثنا ماهى يارسول الله قال هى النخلة *وفى رواية عن ابن عباس انها شجرة فى الجنة * وفى رواية أخرى عنه انها المؤمن *وقوله ﴿ أصلها ثابت ﴾ يعنى فى الارض ﴿ وفرعها ﴾ يعنى أعلاها ﴿ فى السماء ﴾ يعنى ذاهبة فى السماء ﴿ تؤتى أكلها ﴾ يعنى ثمرها ﴿ كل حين باذن ربها ﴾ يعنى بامر ربها والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره ههنا فقال مجاهد وعكرمة الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة واحدة وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن ستة أشهر يعنى من وقت طلعها الى حين صرامها وروى ذلك عن ابن عباس أيضا وقال على بن أبى طالب ثمانية أشهر يعنى ان مدة حملها باطنا وظاهرا ثمانية أشهر وقيل اربعة اشهر من حين ظهور حملها الى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران يعنى من وقت أن يؤكل منها الى صرامها وقال الربيع بن أنس كل حين يعنى غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى حين الطرى الرطب فاكلها دائم فى كل وقت *قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل هذه الكلمة التى هى كلمة الاخلاص وأصل الايمان بالنخلة حاصل من أوجه * أحدها ان كلمة الاخلاص شديدة الثبوت فى قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة فى الارض * الوجه الثانى ان هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن الى السماء كما قال تعالى اليه

(أصلها ثابت) يقول قلب المؤمن المخلص ثابت بلا اله الا الله (وفرعها فى السماء) يقول بها يقبل عمل المؤمن المخلص (تؤتى أكلها كل حين) يقول يعمل المؤمن المخلص كل حين طاعة الله وخيرا (باذن ربها) يقول بامر ربها ويقال صفة كلمة طيبة فى النفع والمدحة كشجرة طيبة وهى النخلة شجرة طيبة ثمرها كذلك المؤمن أصلها ثابت يقول أصل الشجرة ثابت فى الارض بعروقها فكذلك المؤمن ثابت بالحجة والبرهان وفرعها فى السماء يقول أغصان النخلة ترفع نحو السماء وكذلك عمل المؤمن المخلص يرفع الى السماء تؤتى أكلها كل حين يقول تخرج ثمرها كل ستة أشهر باذن ربها

وتكوينه (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) لان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى (ومثل كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى كل شجرة لايطيب

ثمرها وفى الحديث انها شجرة الحنظل (اجتثت من فوق الارض) استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وهو فى مقابلة أصلها ثابت (مالها من قرار) أى استقرار يقال قر الشئ قرارا كقولك ثبت ثباتا شبه بها القول الذى لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت (يثبت الله الذين آمنوا) أى يديمهم

بارادة ربها فكذلك المؤمن المخلص يعمل كل حين طاعة وخيرا بأمر ربه (ويضرب الله الامثال) هكذا يبين الله الامثال صفة توحيده (للناس لعلهم يتذكرون) لكى يتعظوا ويرغبوا فى توحيده فى قول الله جل ذكره (ومثل كلمة خبيثة) وهو الشرك بالله (كشجرة خبيثة) وهو المشرك يقول الشرك مذموم ليس له مدحة كما ان المشرك مذموم ليس له مدحة ويقال كشجرة خبيثة وهى الحنظلة ليس لها منفعة ولا حلاوة فكذلك الشرك ليس فيه منفعة ولا مدحة (اجتثت) اقتلعت (من فوق الارض مالها من قرار) من ثبات على وجه الارض كذلك المشرك ليس له حجة يأخذ بها كما ان (بالقول) ليس لشجرة الحنظلة أصل تثبت عليه ولا يقبل مع الشرك عمل (يثبت الله الذين آمنوا)

بارادة خالقها وتكوينه ﴿ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ لان فى ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعانى وادناء لها من الحس ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة﴾ كمثل شجرة ﴿خبيثة اجتثت﴾ استؤصلت واخذت جثتها بالكلية ﴿من فوق الارض﴾ لان عروقها قريبة منه ﴿مالها من قرار﴾ استقرار واختلف فى الكلمة والشجرة ففسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد ودعوة الاسلام والقرآن والكلمة الخبيثة بالاشراك بالله تعالى والدعاء الى الكفر وتكذيب الحق ولعل المراد بهما مايعم ذلك فالكلمة الطيبة ماأعرب عن حق أو دعاء الى صلاح والكلمة الخبيثة ما كان على خلاف ذلك وفسرت الشجرة الطيبة بالنخلة وروى ذلك مرفوعا وبشجرة فى الجنة والخبيثة بالحنظلة والكشوث ولعل المراد بهما ايضا مايعم ذلك ﴿يثبت الله الذين آمنوا

يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذى هو عال فى السماء *الوجه الثالث ان ثمر النخلة يأتى فى كل حين ووقت وكذلك مايكسبه المؤمن من الاعمال الصالحة فى كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها *الوجه الرابع ان النخلة شبيهة بالانسان فى غالب الامر لانها خلقت من فضلة طينة آدم وانها اذا قطع رأسها تموت كالآدمى بخلاف سائر الشجر فانه اذا قطع نبت وانها لاتحمل حتى تلقح بطلع الذكر *الوجه الخامس فى وجه الحكمة فى تمثيل الايمان بالشجر على الاطلاق لان الشجرة لاتسمى شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم وكذلك الايمان لايتم الا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان *وقوله سبحانه وتعالى ﴿ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ يعنى ان فى ضرب الامثال زيادة فى الافهام وتصويرا للمعانى وتذكيرا ومواعظ لمن تذكر واتعظ *قوله تعالى ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ وهو الشرك ﴿كشجرة خبيثة﴾ يعنى الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد وفى رواية عن ابن عباس انها الكشوث وعنه ايضا انها الثوم وعنه أيضا انها الكافر لانه لايقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد الى السماء ﴿اجتثت﴾ يعنى استؤصلت وقطعت ﴿من فوق الارض مالها من قرار﴾ يعنى مالهذه الشجرة من ثبات فى الارض لانها ليس لها أصل ثابت فى الارض ولا فرع صاعد الى السماء كذلك الكافر لاخير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة *عن أنس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع عليه رطب فقال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها قال هى النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار قال هى الحنظلة أخرجه الترمذى مرفوعا وموقوفا وقال الموقوف أصح *قوله سبحانه وتعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا

بالقول الثابت ﴾ الذى ثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ فلا يزالون اذا افتتنوا فى دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيس وشمعون والذين فتنهم اصحاب الاخدود ﴿ وفى الآخرة ﴾ فلايتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف ولايدهشهم اهوال يوم القيامة وروى انه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم تعاد روحه جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره ويقولان له من

بالقول الثابت ﴾ لما وصف الله الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة أخبر فى هذه الآية انه يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت والقول الثابت هى الكلمة الطيبة وهى شهادة أن لااله الاالله فى قول جمهور المفسرين ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال فى هذه الآية ويضل الله الظالمين يعنى بالكلمة الخبيثة وهى كلمة الشرك فى قول جميع المفسرين * وقوله ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ يعنى فى القبر عند السؤال ﴿ وفى الآخرة ﴾ يعنى يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح * ويدل عليه ماروى عن البراء بن عازب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المسلم اذا سئل فى القبر يشهد أن لااله الاالله وأن محمد رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة قال نزلت فى عذاب القبر زاد فى رواية يقال له من ربك فيقول ربى الله ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه البخارى ومسلم (ق) عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وانه ليسمع قرع نعالهم اذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ماكنت تقول فى هذا الرجل محمد فاما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا انه يفسح له فى قبره ثم رجع الى حديث أنس وأما المنافق وفى رواية واما الكافر فيقول لاأدرى كنت أقول مايقول الناس فيه فيقال لادريت ولاتليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين لفظ البخارى ولمسلم بمعناه زاد فى رواية انه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا الى يوم يبعثون * وأخرجه أبو داود عن أنس قال وهذا لفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا وضع فى قبره أتاه ملك فيقول ماكنت تعبد فان هداه الله قال كنت أعبد الله فيقول له ماكنت تقول فى هذا الرجل فيقول هو عبدالله ورسوله فلا يسئل عن شئ بعدها فينطلق به الى بيت كان له فى النار فيقال له هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فابدلك به بيتا فى الجنة فيراه فيقول دعونى حتى أذهب فابشر أهلى فيقال له اسكن وان الكافر والمنافق اذا وضع فى قبره أتاه ملك فينهضه فيقول ماكنت تعبد فيقول لاأدرى فيقال له لادريت ولاتليت فيقال له ماكنت تقول فى هذا الرجل فيقول كنت أقول مايقول الناس فيه فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين

عليه (بالقول الثابت) هو قول لااله الاالله محمد رسول الله (فى الحيوة الدنيا) حتى اذا فتنوا فى دينهم لم يزالوا كالذين فتنهم أصحاب الاخدود وغير ذلك (وفى الآخرة) الجمهور على ان المراد به فى القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب فعن البراء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم تعاد روحه فى جسده فيأتيه

بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ويقال آمنوا يوم الميثاق بطيبة الانفس وهم أهل السعادة (بالقول الثابت) شهادة أن لااله الا الله (فى الحيوة الدنيا) لكى لايرجعوا عنها (وفى الآخرة)

ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فينادي مناد من السماء ان صدق عبدي فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول

❁وأخرجه النسائي أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قبر الميت أوقال اذا قبر أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لاحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول هو عبدالله ورسوله أشهد أن لااله الاالله وأن محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم انك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ثم ينورله فيه ثم يقال له ثم فيقول أرجع الى أهلي فاخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذي لايوقظه الاأحب أهله اليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك وان كان منافقا فيقول سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثلهم لاأدري فيقولان قد كنا نعلم انك كنت تقول ذلك فيقال للارض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلايزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك أخرجه الترمذي❁ عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فانتهت الى القبر ولما يلحد بعد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كانما على رؤسنا الطير وبيده عود ينكت به في الارض فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أوثلاثا زاد في رواية وقال ان الميت ليسمع خفق نعالهم اذا ولوامدبرين حين يقال له ياهذا من ربك ومادينك ومن نبيك وفي رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول الله ربي فيقولان له ومادينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان ومايدريك فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت زاد في رواية فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ثم لقناه قال فينادي مناد من السماء ان صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره وان كان الكافر فذكر موته قال فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لاأدري فيقولان مادينك فيقول هاه هاه لاأدري فيقولان ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لاأدري فينادي مناد من السماء ان قد كذب عبدي فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه زاد في رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لوضرب بها جبلا لصار ترابا فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب الاالثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح❁ أخرجه أبو داود وعن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل أخرجه أبو داود❁ عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى بكاء طويلا وحول وجهه الى الجدار وجعل

ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ثم يقول الملكان عشت سعيدا ومت حيدا نم نومة العروس

يعني في القبر اذا سئل عنها

الثابت ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالاقتصار على التقليد فلا يهتدون الى الحق ولا يثبتون فى مواقف الفتن ﴿ ويفعل الله مايشاء ﴾ من تثبيت بعض واضلال آخرين من غير اعتراض عليه ﴿ ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا ﴾ أى شكر نعمته كفرا بان وضعوه مكانه أو بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبت منهم فصاروا تاركين لها محصلين الكفر بدلها كاهل مكة خلقهم الله تعالى واسكنهم حرمه وجعلهم قوام بيته ووسع عليهم ابواب رزقه وشرفهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين واسروا وقتلوا يوم بدر وصاروا اذلاء فبقوا مسلوبى النعمة موصوفين بالكفر • وعن عمر وعلى رضى الله تعالى عنهما هم الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو امية فامابنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وامابنو امية فتمتعوا الى حين ﴿ واحلوا قومهم ﴾ الذين شايعوهم فى الكفر ﴿ دار البوار ﴾ دار الهلاك بحملهم على الكفر

ابنه يقول مايبكيك ياأبتاه أمابشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا فاقبل بوجهه وقال ان أفضل مانعد شهادة أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وذكر الحديث بطوله وفيه فاذا أنامت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فاذا دفنتمونى فشنوا على التراب شنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ماتنحر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو ان الله تعالى انما يثبتهم فى القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق فى الحياة الدنيا وحبهم لها فمن كانت مواظبته على شهادة الاخلاص أكثر كان رسوخها فى قلبه أعظم فينبغى للعبد المسلم ان يكثر من قول لا اله الا الله محمد رسول الله فى جميع حالاته من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته فلعل الله عز وجل ان يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الاخلاص التثبيت فى القبر ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة نسأل الله التثبيت فى القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه واحسانه انه على كل شئ قدير ❁ وقوله تعالى ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ يعنى ان الله تعالى لا يهدى المشركين الى الجواب بالصواب فى القبر ﴿ ويفعل الله مايشاء ﴾ يعنى من التوفيق والخذلان والهداية والاضلال والتثبيت وتركه لا اعتراض عليه فى جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ❁ قوله عز وجل ﴿ ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا ﴾ (خ) عن ابن عباس فى قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا قال هم كفار مكة • وفى رواية قال هم والله كفار قريش قال عمر هم قريش ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ واحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال النار يوم بدر • وعن على رضى الله عنه قال هم كفار قريش فجروا يوم بدر وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فقد متعوا الى حين فقوله بدلوا نعمت الله كفرا معناه ان الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم فارسله اليهم وأنزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان اختاروا الكفر على الايمان

مواقف الفتن وتذل أقدامهم أول شئ وهم فى الآخرة أضل وأزل (ويفعل الله ما يشاء) فلا اعتراض عليه فى تثبيت المؤمنين واضلال الظالمين (ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله) أى شكر نعمة الله (كفرا) لان شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر الى الكفر وبدلوه تبديلا وهم أهل مكة أكرمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله بدل مالزمهم من الشكر (وأحلوا قومهم) الذين تابعوهم على الكفر (دار البوار) دار الهلاك

(ويضل الله) يصرف الله (الظالمين) المشركين عن قول لا اله الا الله فى الدنيا لكى لا يقولوا بطيبة النفس ولا فى القبر ولا اذا أخرجوا من القبور وهم أهل الشقاوة (ويفعل الله مايشاء) من الاضلال والتثبت ويقال من صرف منكر ونكير (ألم تر) ألم تخبر يا محمد (الى الذين) عن الذين (بدلوا نعمت الله) غيروا منة الله بالكتاب والرسل (كفرا) بالكفر أى كفروا بمحمد عليه السلام والقرآن وهم بنو أمية وبنو المغيرة المطعمون يوم بدر (وأحلوا قومهم) انزلوا أهل مكة (دار البوار) دار الهلاك يعنى دار بدر ويقال جهنم ثم قال

﴿جهنم﴾عطف بيان (يصلونها) يدخلونها (وبئس القرار)وبئس المقرجهنم (وجعلوا لله أندادا)أمثالافى العبادةأوفى التسمية (ليضلوا عن سبيله) وبفتح الياءمكى وأبوعمرو (قل تمتعوا) فى الدنياوالمراد به الخذلان والتخلية وقال ذوالنون التمتع ان يقضى العبدمااستطاع من

شهوته (فان مصيركم الى النار) مرجعكم اليها (قل لعبادى الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تشريفا وبسكون الياء شامى وحمزة وعلى والاعشى ﴿يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) المقول محذوف لان قل تقتضى مقولا وهو أقيموا وتقديره قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا وقيل انه أمر وهو المقول والتقدير ليقيموا ولينفقوا فحذف اللام لدلالة قل عليه ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز (سرا وعلانية) انتصابا على الحال أى ذوى سر وعلانية يعنى مسرين ومعلنين أو على الظرف أى وقتى سر وعلانية أو على المصدر أى انفاق سر وانفاق علانية والمعنى اخفاء التطوع واعلان الواجب

﴿ جهنم ﴾ عطف بيان لها ﴿ يصلونها ﴾ حال منها أو من القوم أى داخلين فيها مقاسين لحرها او مفسر لفعل مقدر ناصب لجهنم ﴿ وبئس القرار ﴾ أى وبئس المقرجهنم ﴿ وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله ﴾ الذى هو التوحيد * وقرأ ابن كثير وابو عمرو ورويس عن يعقوب بفتح الياء وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم فى اتخاذ الانداد ولكن لما كان نتيجته جعل كالغرض ﴿ قل تمتعوا ﴾ بشهواتكم أو بعبادة الاوثان فانها من قبيل الشهوات التى يتمتع بها وفى التهديد بصيغة الامر ايذان بان المهدد عليه كالمطلوب لافضائه الى المهدد به وان الامرين كائنان لامحالة ولذلك علله بقوله ﴿ فان مصيركم الى النار ﴾ وان المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من آمر مطاع ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا ﴾ خصهم بالاضافة تنويها لهم وتنبيها على انهم المقيمون لحقوق العبودية ومقول قل محذوف دل عليه جوابه أى قل لعبادى الذين آمنوا اقيموا الصلاة وانفقوا ﴿ يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم ﴾ فيكون ايذانا بانهم افرط مطاوعتهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بحيث لاينفك فعلهم عن امره وانه كالسبب الموجب له ويجوز ان يقدرا بلام الامر ليصح تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس * اذا ماخفت من امر تبالا

لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا اقيموا وانفقوا قائمين مقامهما وهو ضعيف لانه لابد من مخالفة مابين الشرط وجوابه ولان امر المواجهة لايجاب بلفظ الغيبة اذا كان الفاعل واحدا ﴿ سرا وعلانية ﴾ منتصبان على المصدر أى انفاق سر وعلانية أو على الحال أى ذوى سر وعلانية أو على الظرف أى وقتى

وغيروا نعمة الله عليهم وقيل يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفرا لانهم لما وجب عليهم الشكر بسبب هذه النعمة أتوا بالكفر فكانهم غيروا الشكر وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم يعنى من تبعهم على دينهم وكفرهم دار البوار يعنى دار الهلاك ثم فسرها بقوله تعالى ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ يعنى المستقر ﴿ وجعلوا لله أندادا ﴾ يعنى أمثالا وأشباها من الاصنام وليس لله تعالى ند ولا شبيه ولا مثيل تعالى الله عن الند والشبيه والمثيل علوا كبيرا ﴿ ليضلوا عن سبيله ﴾ يعنى ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق ﴿ قل تمتعوا ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا فى الدنيا أياما قلائل ﴿ فان مصيركم الى النار ﴾ يعنى فى الآخرة * قوله تعالى ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة ﴾ يعنى أقيموا او ليقيموا الصلاة الواجبة واقامتها تمام أركانها ﴿ وينفقوا مما رزقناهم ﴾ قيل أراد بهذا الانفاق اخراج الزكاة الواجبة وقيل أراد به جميع الانفاق فى جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه اخراج الزكاة والانفاق فى جميع وجوه البر ﴿ سرا وعلانية ﴾ يعنى ينفقون أموالهم فى حال السر وحال العلانية

(جهنم يصلونها) يدخلونها يوم القيامة (وبئس القرار) المنزل والمصير جهنم (وجعلوا لله) قالوا ووصفوا لله (أندادا) أعدالا من الاوثان فعبدوها (ليضلوا) بذلك (عن سبيله) عن دينه وطاعته (قل) يا محمد لاهل مكة (تمتعوا) عيشوا فى كفركم (فان مصيركم الى النار) يوم القيامة (قل) يا محمد (لعبادى الذين آمنوا) بى (وقيل) وبالكتب والرسل (يقيموا الصلوة) الصلوات الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها وما يجب فيها فى مواقيتها (وينفقوا) يتصدقوا (مما رزقناهم) ماأعطيناهم من الاموال (سرا) خفيا (وعلانية) جهرا

سر وعلانية والاحب اعلان الواجب واخفاء المتطوع به ﴿ من قبل ان يأتى يوم لابيع فيه ﴾ فيبتاع المقصر مايتدارك به تقصيره أويفدى به نفسه ﴿ ولا خلال ﴾ ولا مخالة فيشفع لك خليلك أومن قبل ان يأتى يوم لاانتفاع فيه عبايعة ولا مخالة وانما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله تعالى * وقرأ ابن كثير وابوعمرو ويعقوب بالفتح فيهما على النفى العام ﴿ الله الذى خلق السموات والارض ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس مفعول لاخرج ومن الثمرات بيان له حال منه ويحتمل عكس ذلك ويجوز ان يراد به المصدر فينتصب بالعلة أو المصدر لان اخرج فى معنى رزق ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ﴾ بمشيئته الى حيث توجهتم ﴿ وسخر لكم الانهار ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم وقيل تسخير هذه الاشياء تعليم

وقيل أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة ﴿ من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ﴾ قال أبو عبيدة البيع هنا الفداء يعنى لافداء فى ذلك اليوم ﴿ ولا خلال ﴾ يعنى ولا خلة وهو المودة والصداقة التى تكون مخاللة بين اثنين وقال مقاتل انما هو يوم لابيع فيه ولا شراء ولا مخاللة ولا قرابة انما هى الاعمال اما ان يثاب بها أو يعاقب عليها * فان قلت كيف نفى الخلة فى هذه الآية وفى الآية التى فى سورة البقرة وأثبتها فى قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قلت الآية الدالة على نفى الخلة محمولة على نفى الخلة الحاصلة بسبب ميل الطبيعة ورعونة النفس والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل ان ليوم القيامة أحوالا مختلفة ففى بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفى بعضها يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله فى محبته * قوله عزوجل ﴿ الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ اعلم انه تقدم تفسير هذه الآية فى مواضع كثيرة ونذكر ههنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر والذى لايعجزه شئ أراده فقوله تعالى الله الذى خلق السموات وارض انما بدأ بذكر خلق السموات والارض لانهما أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعنى من السحاب سمى السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو وهو الارتفاع وقيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض فاخرج به أى بذلك الماء من الثمرات رزقا لكم والثمر اسم يقع على مايحصل من الشجر وقد يقع على الزرع أيضا بدليل قوله كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله من الثمرات بيان للرزق أى أخرج به رزقا هو الثمرات ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى انعامه بانزال المطر واخراج الثمر لاجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء لاجل الانتفاع بها فى جلب ذلك الرزق الذى هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد آخر فهى من تمام نعمة الله على عباده ﴿ وسخر لكم الانهار ﴾ يعنى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم ولما

(من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلال) أى لا انتفاع فيه عبايعة ولا مخالة والخلال المخالة وانما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله بفتحهما مكى وبصرى والباقون بالرفع والتنوين (الله) مبتدأ (الذى خلق السموات والارض) خبره (وأنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فاخرج به من الثمرات رزقا لكم) من الثمرات بيان للرزق أى أخرج به رزقا هو ثمرات أو من الثمرات مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار

وهم اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (من قبل أن يأتى يوم) وهو يوم القيامة (لابيع فيه) لافداء فيه (ولا خلال) لامخالة للكافر والصالح تنفعه خلته ثم وحد نفسه فقال (الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء) مطرا (فاخرج به) فانبت بالمطر (من الثمرات) من ألوان الثمرات (رزقا لكم) طعاما لكم ولسائر الخلق و (سخر) ذلل (لكم الفلك) يعنى السفن (لتجرى) الفلك (فى البحر بأمره) باذنه وارادته و (سخر) ذلل (لكم الانهار) تجرى حيث تشاؤن

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) دائمين وهو حال من الشمس والقمر أي يدأبان في سيرهما وانارتهما ودرئهما الظلمات واصلاحهما مايصلحان من الارض والابدان والنبات

يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم (وآتاكم من كل ماسألتموه) من للتبعيض أي آتاكم بعض جميع ماسألتموه أو وآتاكم من كل شئ سألتموه ومالم تسألوه فما موصولة والجملة صفة لها وحذفت الجملة الثانية لان الباقي يدل على المحذوف كقوله سرابيل تقيكم الحر من كل عن أبي عمرو وماسألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه أوما موصولة أي وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه فكانكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال (وان تعدوا نعمت الله لاتحصوها) لاتطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال وأما التفصيل فلا يعلمه الا الله (ان الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها (كفار) شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والانسان للجنس فيتناول الاخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه

كيفية اتخاذها ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ يدأبان في سيرهما وانارتهما واصلاح مايصلحانه من المكونات ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم ﴿ وآتاكم من كل ماسألتموه ﴾ أي بعض جميع ماسألتموه يعني من كل شئ سألتموه شيأ فان الموجود من كل صنف بعض مافي قدرة الله تعالى ولعل المراد بما سألتموه ما كان حقيقا بان يسأل لاحتياج الناس اليه سئل أولم يسأل وما يحتمل ان تكون موصولة وموصوفة ومصدرية ويكون المصدر بمعنى المفعول وقرئ من كل بالتنوين أي وآتاكم من كل شئ ما احتجتم اليه وسألتموه بلسان الحال ويجوز ان تكون ما نافية في موقع الحال أي وآتاكم من كل شئ غير سائليه ﴿ وان تعدوا نعمت الله لاتحصوها ﴾ لاتحصروها ولاتطيقوا عد أنواعها فضلا عن افرادها فانها غير متناهية وفيه دليل على ان المفرد يفيد الاستغراق بالاضافة ﴿ ان الانسان لظلوم ﴾ يظلم النعمة باغفال شكرها أو يظلم نفسه بان يعرضها للحرمان ﴿ كفار ﴾ شديد الكفران وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع

كان ماء البحر لاينتفع به في سقي الزرع والثمرات ولا في الشراب أيضا ذكر نعمته على عباده في تسخير الانهار وتفجير العيون لاجل هذه الحاجة فهو من أعظم نعم الله على عباده ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ الدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب في السير داوم عليه والمعنى ان الله سخر الشمس والقمر يجريان دائما فيما يعود الى مصالح العباد لايفتران الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها قال ابن عباس دؤبهما في طاعة الله عز وجل وقال بعضهم معناه يدأبان في طاعة الله أي في سيرهما وتأثيرهما في ازالة الظلمة واصلاح النبات والحيوان لان الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده وتسخيره لهم ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة وذلك من انعام الله على عباده وتسخيره لهم ﴿ وآتاكم من كل ماسألتموه ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك انه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لايأتي على بعضها العد والحصر والمعنى وآتاكم من كل ماسألتموه شيأ فحذف شيأ اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض وقيل هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شئ سألتموه ومالم تسألوه لان نعمه علينا أكثر من أن تحصى ﴿ وان تعدوا نعمت الله لاتحصوها ﴾ يعني ان نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها ﴿ ان الانسان ﴾ قال ابن عباس يريد أبا جهل وقال الزجاج هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر ﴿ لظلوم كفار ﴾ يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم

(وسخر لكم) ذلل لكم (الشمس والقمر دائبين) دائمين الى يوم القيامة (وسخر) ذلل لكم الليل والنهار) يجيء ويذهب (وآتاكم) أعطاكم (من كل ماسألتموه) ومالم تحسنوا ان تسألوا (وان تعدوا نعمت الله) منة الله (لاتحصوها) لاتحفظوها ولاتشكروها (ان الانسان) يعني الكافر (لظلوم) مشرك (كفار) كافر بالله وبنعمته

(عليه)

﴿ واذقال ابراهيم رب اجعل هذا البلد ﴾ بلدة مكة ﴿ آمنا ﴾ ذا أمن لمن فيها والفرق بينه وبين قوله اجعل هذا بلدا آمنا ان المسؤل في الاول ازالة الخوف عنه وتصييره آمنا وفي الثاني جعله من البلاد الآمنة ﴿ واجنبني وبني ﴾ بعدني واياهم ﴿ ان نعبد الاصنام ﴾ واجعلنا منها في جانب * وقرئ واجنبني وهما على لغة نجد واما اهل الحجاز فيقولون جنبني شره وفيه دليل على ان عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم وهو بظاهره لا يتناول احفاده وجميع ذريته وزعم ابن عيينة ان اولاد اسمعيل عليه الصلاة والسلام لم يعبدوا الصنم محتجا به وانما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمونها الدوار ويقولون البيت حجر فحيث ما نصبنا

عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه وقيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع * قوله سبحانه وتعالى ﴿ واذقال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ يعني ذا أمن يؤمن فيه واراد بالبلد مكة * فان قلت أي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا * قلت الفرق بينهما انه سأل في الاول ان يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الاصنام ﴾ يعني أبعدني وبني ان نعبد الاصنام * فان قلت قد توجه على هذه الآية اشكالات وهي من وجوه * الاول ان ابراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم ان جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها * الوجه الثاني أن الانبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الاصنام واذا كان كذلك فالفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها * الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه أيضا أن يجنب بنيه عن عبادة الاصنام وقد وجد كثير من بنيه عبد الاصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينسب الى ابراهيم عليه السلام * قلت الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه فالجواب عن الوجه الاول من وجهين * أحدهما أن ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة أخرجاه في الصحيحين وأجيب عنه بان قوله اجعل هذا البلد آمنا يعني الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض بين النصين * الوجه الثاني أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الامن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم واهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك وحتى أن الوحوش اذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فاذا دخلت الحرم أمنت واستأنست لعلمها انه لا يهيجها أحد في الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها

(واذقال ابراهيم) واذكر اذقال ابراهيم (رب اجعل هذا البلد) أي بلد الحرام (آمنا) ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما في البقرة انه قد سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها وفي الثاني أن يخرج من صفة الخوف الى الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبني) وبعدني أي ثبتني وأدمني على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك أي ثبتنا على الاسلام (وبني) أراد بنيه من صلبه (ان نعبد الاصنام) من أن نعبد الاصنام

(واذ قال) وقد قال (ابراهيم) بعد ما بنى البيت (رب) يارب (اجعل هذا البلد) مكة (آمنا) من ان يهاج فيه ويأمن فيه الخائف (واجنبني) احفظني (وبني أن نعبد الاصنام) من عبادة الاصنام والنيران ويقال اعصمني

بجرافهو بمنزلته ﴿ رب انهن اضللن كثيرا من الناس ﴾ فلذلك سألت منك العصمة واستعذت بك من اضلالهن واسناد الاضلال اليهن باعتبار السببية كقوله تعالى وغرتهم الحيوة الدنيا ﴿ فمن تبعنى ﴾ على دينى ﴿ فانه منى ﴾ أى بعضى لاينفك عنى فى امر الدين ﴿ ومن عصانى فانك غفور رحيم ﴾ تقدر ان تغفرله وترحمه ابتداء أوبعد التوفيق للتوبة وفيه دليل على ان كل ذنب فلله ان يغفره حتى الشرك الاان الوعيد فرق بينه وبين غيره ﴿ ربنا انى اسكنت من ذريتى ﴾ أى بعض ذريتى أو ذرية من ذريتى فحذف المفعول

*وأما الجواب عن الوجه الثانى فمن وجوه أيضا الوجه الاول أن دعاء ابراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبيت فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك الوجه الثانى ان ابراهيم عليه السلام وان كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الاصنام الاأنه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس واظهار العجز والحاجة والفاقة الى فضل الله تعالى ورحمته وان أحدا لايقدر على نفع نفسه بشئ لم ينفعه الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الاشكالات فالجواب عنه من وجوه الاول ان ابراهيم دعا لبنيه من صلبه ولم يعبد أحد منهم صنما قط الوجه الثانى انه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولاشك أن أبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم الوجه الثالث قال الواحدى دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال وبنى الذين أذنت لى فى الدعاء لهم لان دعاء الانبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص الوجه الرابع ان هذا مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه *وقوله تعالى ﴿ رب انهن ﴾ يعنى الاصنام ﴿ أضللن كثيرا من الناس ﴾ وهذا مجاز لان الاصنام جمادات وحجارة لاتعقل شيأ حتى تضل من عبدها الاأنه لما حصل الاضلال بعبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما فتنوا بها واغتروا بسببها ﴿ فمن تبعنى فانه منى ﴾ يعنى فمن تبعنى على دينى واعتقادى فانه منى يعنى المتدينين بدينى المتمسكين بحبلى كما قال الشاعر

اذا حاولت فى أسد فجورا * فانى لست منك ولست منى

أراد ولست من المتمسكين بحبلى وقيل معناه فانه منى حكمه حكمى جار مجراى فى القرب والاختصاص ﴿ ومن عصانى ﴾ يعنى فى غير الدين ﴿ فانك غفور رحيم ﴾ قال السدى ومن عصانى ثم تاب فانك غفور رحيم وقال مقاتل ومن عصانى فيما دون الشرك فانك غفور رحيم وشرح أبو بكر بن الانبارى هذا فقال ومن عصانى فخالفنى فى بعض الشرائع وعقائد التوحيد فانك غفور رحيم ان شئت أن تغفر له غفرت اذا كان مسلما وذكر وجهين آخرين أحدهما ان هذا كان قبل أن يعلمه الله انه لا يغفر الشرك كما استغفر لابويه وهو يقول ان ذلك غير محظور فلما عرف أنهما غير مغفور لهما تبرأ منهما والوجه الآخر ومن عصانى باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعنى انك قادر على أن تغفر له وترحمه بان تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه الى الصواب *قوله عز وجل اخبارا عن ابراهيم ﴿ ربنا انى أسكنت من ذرتى

(رب انهن أضللن كثيرا من الناس) جعلن مضلات على طريق التسبيب لان الناس ضلوا بسببهن فكأنهن أضللنهم (فمن تبعنى) على ملتى وكان حنيفا مسلما مثلى (فانه منى) أى هو بعضى لفرط اختصاصه بى (ومن عصانى) فيما دون الشرك (فانك غفور رحيم) أو ومن عصانى عصيان شرك فانك غفور رحيم ان تاب وآمن (ربنا انى أسكنت من ذريتى) بعض أولادى وهم اسمعيل ومن ولد منه

(رب) يارب (انهن أضللن كثيرا من الناس) أى أضل بهن كثير من الناس ويقال ضل بهن كثير من الناس (فمن تبعنى) تبع دينى وأطاعنى (فانه منى) على دينى (ومن عصانى) فخالف دينى (فانك غفور) متجاوز لمن تاب منهم أى يتوب عليهم (رحيم) لمن مات على التوبة (ربنا) يا ربنا (انى أسكنت) أنزلت (من ذريتى) اسماعيل وأمه هاجر

وهم اسمعيل ومن ولده منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم ﴿بواد غير ذي زرع﴾ يعني وادي مكة فانها حجرية لا تنبت ﴿عند بيتك المحرم﴾ الذي حرمت التعرض له والتهاون به أو لم يزل معظما ممنعا تهابه الجبابرة أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا أي اعتق منه ودعا بهذا الدعاء اول ما قدم فلعله قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤل اليه روى ان هاجر كانت لسارة رضي الله عنها فوهبتها لابراهيم عليه السلام فغارت عليهما فولدت منه اسمعيل عليه السلام فناشدته ان يخرجهما من عندها فاخرجهما الى ارض مكة فاظهر الله عين زمزم ثم ان جرهم رأوا ثمة طيورا فقالوا لا طير الا على الماء فقصدوه فرأوهما وعندهما

بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ (خ) عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسمعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم الى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم فدعا بهذه الدعوات فرفع يديه فقال رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر احدا فهبطت منه حتى اذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر احدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتا أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف وفي رواية قدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم او قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فارسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فاخبروهم فاقبلوا وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس

(بواد) هو وادي مكة (غير ذي زرع) لا يكون فيه شيء من زرع قط (عند بيتك المحرم) هو بيت الله سمي به لان الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه أو لانه لم يزل ممنعا يهابه كل جبار أو لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها أو لانه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقا لانه أعتق منه

(بواد) في واد (غير ذي زرع) ليس به زرع ولا نبات (عند بيتك المحرم) يعني مكة

عين فقالوا أشركينا فى مائك نشركك فى البـانا ففعلت ﴿ ربنا ليقيموا الصلوة ﴾ اللام لام كى وهى متعلقة باسكنت أى مااسكنتهم بهذا الوادى البلقع من كل مرتفق ومرتزق الالاقامة الصلاة عند بيتك المحرم وتكرير النداء وتوسيطه للاشعار بانها المقصودة بالذات من اسكانهم ثمة والمقصود من الدعاء توفيقهم لها وقيل لام الامر والمراد هو الدعاء لهم باقامة الصلاة كأنه طلب منهم الاقامة وسأل من الله تعالى ان يوفقهم لها ﴿ فاجعل افئدة من الناس ﴾ أى افئدة من افئدة الناس ومن للتبعيض ولذلك قيل لوقال افئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم ولحجت اليهود والنصارى أو للابتداء كقولك القلب منى سقيم أى افئدة ناس * وقرأ هشام افئيدة بخلف عنه بياء بعد الهمزة * وقرئ آفدة وهو يحتمل ان يكون مقلوب افئدة كآدر فى ادؤر وان يكون اسم فاعل من افدت الرحلة اذا عجلت أى جماعة يعجلون نحوهم وافدة بطرح الهمزة للتخفيف وان كان الوجه فيه اخراجها بين بين ويجوز ان يكون من افد ﴿ تهوى اليهم ﴾ تسرع اليهم شوقا ووداداً * وقرئ

قال النبى صلى الله عليه وسلم فالفى ذلك أم اسمعيل وهى تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه بامرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته أخرجه البخارى باطول من هذا وقد تقدم الحديث بطوله فى تفسير سورة البقرة * وأما تفسير الآية فقوله ربنا انى أسكنت من ذريتى من للتبعيض أى بعض ذريتى وهو اسمعيل عليه السلام بواد غير ذى زرع يعنى ليس فيه زرع لانه واد بين جبلين جبل أبى قبيس وجبل اجياد وهو وادى مكة عند بيتك المحرم سماه محرما لانه يحترم عنده مالا يحترم عند غيره وقيل لان الله حرمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به وبحرمته وجعل ما حوله محرما لمكانه وشرفه وقيل لانه حرم على الطوفان بمعنى امتنع منه وقيل سمى محرما لان الزائرين له يحرمون على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمى عتيقا أيضا لانه أعتق من الجبابرة أو من الطوفان * فان قلت كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حينئذ وانما بناه ابراهيم بعد ذلك قلت يحتمل ان الله عز وجل أوحى اليه وأعلمه أن له هناك بيتا قد كان فى سالف الزمان وانه سيعمر فلذلك قال عند بيتك المحرم وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذى كان ثم رفع عند الطوفان وقيل يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذى جرى فى سابق علمك أنه سيحدث فى هذا المكان ﴿ ربنا ليقيموا الصلوة ﴾ اللام فى ليقيموا متعلقة باسكنت يعنى أسكنت قوما من ذريتى وهم اسمعيل واولاده بهذا الوادى الذى لازرع فيه ليقيموا أى لاجل أن يقيموا أو لكى يقيموا الصلاة ﴿ فاجعل أفئدة من الناس ﴾ وقال البغوى جمع الوفد ﴿ تهوى اليهم ﴾ تحن وتشتاق اليهم قال السدى رحمه الله أمل قلوبهم الى هذا الموضع وقال ابن الجوزى أفئدة من الناس أى قلوب جماعة من الناس فلهذا جعله جمع فؤاد قال ابن الانبارى وانما عبر عن القلوب بالافئدة لقرب القلب من الفؤاد فجعل القلب

(ربنا ليقيموا الصلوة) اللام متعلقة باسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع الا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم و يعمروه بذكرك وعبادك (فاجعل أفئدة من الناس) أفئدة من أفئدة الناس و من للتبعيض لما روى عن مجاهد لوقال أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند أو للابتداء كقولك القلب منى سقيم تريد قلبى فكانه قيل أفئدة ناس ونكرت المضاف اليه فى هذا التمثيل لتنكير أفئدة لانها فى الآية نكرة ليتناول بعض الافئدة (تهوى اليهم) تسرع اليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقا

(ربنا) يا ربنا (ليقيموا الصلوة) لكى يتموا الصلاة نحو الكعبة (فاجعل أفئدة من الناس) قلوب بعض الناس (تهوى اليهم) تشتاق وتنزع اليهم كل سنة

تهوى على البناء للمفعول من هوى اليه واهواه غيره وتهوى من هوى يهوى اذا احب وتعديته بالى لتضمين معنى النزوع ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ مع سكناهم واديا لا نبات فيه ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ تلك النعمة فاجاب الله عز وجل دعوته فجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ﴿ ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ﴾ تعلم سرنا كما تعلم علننا والمعنى انك اعلم باحوالنا ومصالحنا وارحم بنا منا بانفسنا فلا حاجة لنا الى الطلب لكننا ندعوك اظهارا لعبوديتك وافتقارا الى رحمتك واستعجالا لنيل ما عندك وقيل ما نخفى من وجد الفرقة وما نعلن من التضرع اليك والتوكل عليك وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع واللجاء الى الله تعالى ﴿ وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء ﴾ لان العالم بعلم ذاتى يستوى نسبته

والفؤاد جارحتين وقال الجوهرى الفؤاد القلب والجمع افئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من فى قوله من الناس للتبعيض قال مجاهد لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس وروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال افئدة من الناس فهم المسلمون تهوى اليهم قال الاصمعى يقال هوى يهوى هويا اذا سقط من علو الى سفل وقال الفراء تهوى اليهم تريدهم كما تقول رأيت فلانا يهوى نحوك معناه يريدك وقال أيضا تهوى تسرع اليهم وقال ابن الانبارى معناه تنحط اليهم وتنحدر وتنزل هذا قول أهل اللغة فى هذا الحرف وأما أقوال المفسرين فقال ابن عباس يريد تحن اليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع اليهم وفى هذا بيان أن حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لاعيانهم وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بانهم ينتفعون بمن يأتى اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم عليه السلام فى هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركاته ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ يعنى كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزروع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ ﴿ وقوله تعالى ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ يعنى لعلهم يشكرون هذه النعم التى أنعمت بها عليهم وقيل معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا انما هو ليستعان بها على أداء العبادات واقامة الطاعات ﴿ ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ﴾ يعنى انك تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه والمعنى انك تعلم أحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا الى الدعاء والطلب انما ندعوك اظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك وتذللا لعزتك وافتقارا الى ما عندك وقيل معناه تعلم ما نخفى من الوجد بفرقة اسمعيل وأمه حيث اسكنتهما بواد غير ذى زرع وما نعلن يعنى من البكاء وقيل ما نخفى يعنى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن يعنى ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لابراهيم عليه السلام الى من تكلنا قال الى الله قالت اذا لا يضيعنا ﴿ وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء ﴾ قيل

(وارزقهم من الثمرات) مع سكناهم واديا ما فيه شئ منها بان تجلب اليهم من البلاد الشاسعة (لعلهم يشكرون) النعمة فى أن يرزقوا أنواع الثمرات فى واد ليس فيه شجر ولا ماء (ربنا) النداء المكرر دليل التضرع واللجأ الى الله (انك تعلم ما نخفى وما نعلن) تعلم السر كما تعلم العلن (وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) من كلام الله عز وجل تصديقا لابراهيم عليه السلام أو من كلام ابراهيم ومن للاستغراق كانه قيل وما يخفى على الله

(وارزقهم من الثمرات) من ألوان الثمرات (لعلهم يشكرون) لكى يشكروا نعمتك (ربنا) يا ربنا (انك تعلم ما نخفى) من حب اسماعيل (وما نعلن) من حب اسحق ويقال ما نخفى من وجد اسمعيل وما نعلن من الجفاء له (وما يخفى على الله من شئ) من عمل خير اوشر (فى الارض ولا فى السماء

شئ ما (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) على بمعنى مع وهو فى موضع الحال أى وهب لى وأنا كبير (اسمعيل واسحق) روى ان اسمعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة وثنتى عشرة سنة وروى انه ولد له اسمعيل لاربع وستين واسحق لتسعين

لانها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم ولان الولادة فى تلك السن العالية كانت آية لابراهيم (ان ربى لسميع الدعاء) مجيب الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا تلقاه بالاجابة والقبول ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال رب هب لى من الصالحين فشكر لله ما أكرمه به من اجابته واضافة السميع الى الدعاء من اضافة الصفة الى مفعولها وأصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلا فى جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك هذا رحيم أباه (رب اجعلنى مقيم الصلوة ومن ذريتى) وبعض ذريتى عطفا على المنصوب فى اجعلنى وانما بعض لانه علم باعلام الله انه يكون فى ذريته كفار عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يزال من ولد ابراهيم ناس على الفطرة الى أن تقوم الساعة

الى كل معلوم ومن للاستغراق ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر ﴾ أى وهب لى وانا كبير آيس من الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهارا لما فيها من آلائه ﴿ اسمعيل واسحق ﴾ روى انه ولد له اسماعيل لتسع وتسعين سنة واسحق لمائة وثنتى عشرة سنة ﴿ ان ربى لسميع الدعاء ﴾ أى لمجيبه من قولك سمع الملك كلامى اذا اعتد به وهو من ابنية المبالغة العاملة عمل الفعل اضيف الى مفعوله أو فاعله على اسناد السماع الى دعاء الله تعالى على المجاز وفيه اشعار بانه دعا ربه وسأل منه الولد فاجابه ووهب له سؤاله حين ما وقع اليأس منه ليكون من اجل النعم واحلاها ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلوة ﴾ معدلا لها مواظبا عليها ﴿ ومن ذريتى ﴾ عطف على المنصوب فى اجعلنى والتبعيض لعلمه باعلام

هذا من تمة قول ابراهيم يعنى وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من شئ فى كل مكان وقال الاكثرون انه من قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال فهو كقوله وكذلك يفعلون ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ﴾ قال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة وقال سعيد بن جبير بشر ابراهيم باسحق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة ومعنى قوله على الكبر مع الكبر لان هبة الولد فى هذا السن من أعظم المنن لانه سن اليأس من الولد فلهذا شكر الله على هذه المنة فقال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق * فان قلت كيف جمع بين اسمعيل واسحق فى الدعاء فى وقت واحد وانما بشر باسحق بعد اسمعيل بزمان طويل * قلت يحتمل ان ابراهيم عليه السلام انما أتى بهذا الدعاء عند ما بشر باسحق وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ولا يرد على هذا ما ورد فى الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة اسمعيل وأمه لان الذى صح فى الحديث أنه دعا بقوله ربنا انى أسكنت من ذريتى الى قوله لعلهم يشكرون اذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق فى وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال ﴿ ان ربى لسميع الدعاء ﴾ كان ابراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله رب هب لى من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من اجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان اذا اعتد به وقبله ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلوة ﴾ يعنى ممن يقيم الصلاة باركانها ويحافظ عليها فى أوقاتها ﴿ ومن ذريتى ﴾ أى واجعل من ذريتى من يقيم الصلاة وانما أدخل لفظة من التى هى للتبعيض فى قوله ومن ذريتى لانه علم باعلام الله اياه انه

(الحمد لله) الشكر لله (الذى وهب لى على الكبر) بعد الكبر (اسمعيل واسحق) وكان ابن مائة سنة وامرأته (قد) سارة بنت تسع وتسعين سنة حيث ولدهما (ان ربى لسميع الدعاء) مجيب الدعاء (رب) يا رب (اجعلنى مقيم الصلوة) متم الصلاة (ومن ذريتى) أيضا يقول اكرمنى وأكرم

(ربنا وتقبل دعاء) بالياء فى الوصل والوقف مكى وافقه أبو عمرو وحمزة فى الوصل الباقون بلا ياء أى استجب دعائى أو عبادتى وأعتزلكم وماتدعون من دون الله أى آدم وحواء أو قاله قبل النهى واليأس عن ايمان أبويه (وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى يثبت أو أسند الى الحساب قيام أهله اسنادا مجازيا مثل واسأل القرية (ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تسلية للمظلوم وتهديد للظالم والخطاب لغير الرسول عليه السلام وان كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولاتكونن من المشركين ولاتدع مع الله الها آخر وكما جاء فى الامر ياايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وقيل المراد به الايذان بانه عالم بما يفعل الظالمون لايخفى عليه منه شئ وانه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله والله بما تعملون

الله أو استقراء عادته فى الامم الماضية انه يكون فى ذريته كفار ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ واستجب دعائى أو وتقبل عبادتى ﴿ ربنا اغفرلى ولوالدى ﴾ وقرئ لأبوى وقد تقدم عذر استغفاره لهما وقيل اراد بهما آدم وحواء ﴿ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ يثبت مستعار من القيام على الرجل كقولهم قامت الحرب على ساق أو يقوم اليه اهله فحذف المضاف واسند اليه قيامهم مجازا ﴿ ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد به تثبيته على ماهو عليه من انه مطلع على احوالهم وافعالهم لايخفى عليه خافية والوعيد بانه معاقبهم على قليله وكثيره لامحالة أو لكل من توهم

قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لايقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتى وأراد بهم المؤمنين من ذريته ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ سأل ابراهيم عليه السلام ربه أن يتقبل دعاءه فاستجاب الله لابراهيم وقبل دعاءه بفضله ومنه وكرمه ﴿ ربنا اغفرلى ﴾ فان قلت طلب المغفرة من الله انما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبتت عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له * قلت المقصود منه الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شئ الا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته ﴿ ولوالدى ﴾ * فان قلت كيف استغفر ابراهيم لابويه وكانا كافرين * قلت أراد انهما ان اسلما وتابا وقيل انما قال ذلك قبل ان يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل ان أمه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء ﴿ وللمؤمنين ﴾ يعنى واغفر للمؤمنين كلهم ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ يعنى يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذلك أى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لايرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ الغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله محال فلابد من تأويل الآية فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بان لايعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولايتركه مغفلا قال سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم * فان قلت تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم غافلا وهو أعلم الناس به أنه لم يكن غافلا حتى قيل له ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون * قلت اذا كان المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان أحدهما التثبيت على ما كان عليه من انه لايحسب الله غافلا فهو كقوله ولاتكونن من المشركين ولاتدع مع الله الها آخر وكقوله سبحانه

ذريتى باتمام الصلاة (ربنا) يا ربنا (وتقبل دعائى) عبادتى (ربنا) يا ربنا (اغفرلى) ذنوبى (ولوالدى) لآبائى المؤمنين (وللمؤمنين) ولسائر المؤمنين والمؤمنات (يوم يقوم الحساب) يوم يكون الحساب وتقوم الحسنة (قاو خا ٦٨ ات) والسيئة فمن زادت له الحسنة وجبت له الجنة ومن زادت له السيئة وجبت له النار ومن استوت له حسنة وسيئة فهو من أصحاب الاعراف (ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) يقول تارك عقوبة

عليم (انما يؤخرهم) أى (ليوم تشخص فيه الابصار) أى أبصارهم لاتقر فى أماكنها من هول ماترى (مهطعين) مسرعين الى الداعى (مقنعى رؤسهم) رافعيها (لايرتد اليهم طرفهم) لايرجع اليهم نظرهم فينظروا الى أنفسهم (وأفئدتهم هواء) صفر من الخير لاتعى شيأ من الخوف والهواء الخلاء الذى لم تشغله الاجرام فوصف به فقيل قلب فلان هواء اذا كان جبانا لاقوة فى قلبه ولاجراءة وقيل جوف لاعقول لهم (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) أى يوم القيامة ويوم مفعول ثان لانذر لاظرف اذالانذار لايكون

غفلته جهلا بصفاته واغترارا بامهاله وقيل انه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ﴿ انما يؤخرهم ﴾ يؤخر عذابهم وعن ابى عمرو بالنون ﴿ ليوم تشخص فيه الابصار ﴾ أى تشخص فيه ابصارهم فلاتقر فى اماكنها من هول ماترى ﴿ مهطعين ﴾ مسرعين الى الداعى أو مقبلين بابصارهم لايطرقون هيبة وخوفا واصل الكلمة هو الاقبال على الشئ ﴿ مقنعى رؤسهم ﴾ رافعيها ﴿ لايرتد اليهم طرفهم ﴾ بل بقيت عيونهم شاخصة لاتطرف أولايرجع اليهم نظرهم فينظرون الى انفسهم ﴿ وافئدتهم هواء ﴾ خلاء أى خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة ومنه يقال الاحمق والجبان قلبه هواء أى لارأى فيه ولاقوة قال زهير

من الظلمان جؤجؤه هواء

وقيل خالية عن الخير خاوية عن الحق ﴿ وانذر الناس ﴾ يامحمد ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ يعنى يوم القيامة أويوم الموت

وتعالى ياأيها الذين آمنوا آمنوا أى اثبتوا على ماأنتم عليه من الايمان الوجه الثانى ان المراد بالنهى عن حسبانه غافلا الاعلام بانه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون لايخفى عليه شئ وانه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى ولاتحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وان كان المخاطب غير النبى صلى الله عليه وسلم فلا اشكال فيه ولاسؤال لان أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز أن يحسبه غافلا فلجهله بصفاته ﴿ انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار ﴾ يقال شخص بصر الرجل اذا بقيت عيناه مفتوحتين لايطرفهما وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ماترى فى ذلك اليوم ﴿ مهطعين ﴾ قال قتادة مسرعين وهذا قول أبى عبيدة فعلى هذا المعنى ان الغالب من حال من بقى بصره شاخصا من شدة الخوف أن يبقى واقفا باهتا فبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية ان أحوال أهل الموقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فاخبر سبحانه وتعالى انهم مع شخوص الابصار يكونون مهطعين يعنى مسرعين نحو الداعى وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت ﴿ مقنعى رؤسهم ﴾ الاقناع رفع الرأس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم انهم رافعوا رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء فانه يطرق ببصره الى الارض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لاينظر أحد الى أحد وهو قوله تعالى ﴿ لايرتد اليهم طرفهم ﴾ أى لاترجع اليهم أبصارهم من شدة الخوف فهى شاخصة لاترتد اليهم قد شغلهم مابين أيديهم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ أى خالية قل قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت فى حناجرهم فلاتخرج من أفواههم ولاتعود الى أماكنها ومعنى الآية ان أفئدتهم خالية فارغة لاتعى شيأ ولاتعقل من شدة الخوف وقال سعيد ابن جبير وأفئدتهم هواء أى مترددة تهوى فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ومعنى الآية ان القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها وابصار شاخصة والرؤس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته ﴿ وأنذر الناس ﴾ يعنى وخوف الناس يامحمد بيوم القيامة وهو ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ يوم يأتيهم العذاب

مايعمل المشركون (انما يؤخرهم) يؤجلهم (ليوم تشخص فيه الابصار) أبصار الكفار وهو يوم القيامة (مهطعين) مسرعين قاصدين ناظرين الى الداعى (مقنعى رؤسهم) مطأطئى رؤسهم ويقال رافعى رؤسهم ويقال مادى أعناقهم (لايرتد اليهم طرفهم) لايرجع اليهم أبصارهم من الهول والفزع (وأفئدتهم) قلوبهم (هواء) خالية من كل خير ويقال لاعائدة ولاخارجة (وأنذر الناس) خوف أهل مكة بالقرآن (يوم يأتيهم العذاب) من يوم يأتيهم العذاب وهو يوم بدر ويقال (فيقول)

فى ذلك اليوم (فيقول الذين ظلموا) أى الكفار (ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) أى ردنا الى الدنيا وأمهلنا الى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك مافرطنا فيه من اجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى حلفتم فى الدنيا أنكم اذا متم لاتزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون الى دار أخرى يعنى كفرتم بالبعث كقوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت ومالكم جواب القسم وانما جاء بلفظ الخطاب كقوله أقسمتم ولو حكى لفظ المقسمين لقيل مالنا من زوال أو أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فانهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم الى أجل قريب يقال سكن الدار وسكن فيها ومنه (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر لان السكنى من السكون وهو اللبث والاصل تعديته بفى نحو قر فى الدار وأقام فيها ولكنه لما نقل الى سكون خاص تصرف فيه فقيل سكن الدار كما قيل تبوأها ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أى قروا فيها واطمأنوا طيبى النفوس سائرين سيرة من قبلهم فى الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقى الاولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا (وتبين لكم) بالاخبار أو المشاهدة وفاعل تبين مضمر دل عليه الكلام أى تبين لكم حالهم و(كيف) ليس بفاعل لان الاستفهام لايعمل فيه ماقبله وانما نصب كيف بقوله (فعلنا بهم) أى أهلكناهم وانتقمنا منهم (وضربنا لكم الامثال) أى صفات مافعلوا ومافعل بهم وهى فى الغرابة كالامثال المضروبة لكل ظالم

فانه اول ايام عذابهم وهو مفعول ثان لانذر ﴿ فيقول الذين ظلموا ﴾ بالشرك والتكذيب ﴿ ربنا اخرنا الى اجل قريب ﴾ اخر العذاب عنا وردنا الى الدنيا وامهلنا الى حد من الزمان قريب أو اخر آجالنا وابقنا مقدار مانؤمن بك ونجيب دعوتك ﴿ نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ جواب للامر ونظيره لولا اخرتنى الى اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين ﴿ أولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴾ على ارادة القول ومالكم جواب القسم جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية والمعنى اقسمتم انكم باقون فى الدنيا لاتزالون بالموت ولعلهم اقسموا بطرا وغرورا أودل عليه حالهم حيث بنوا شديدا واملوا بعيدا وقيل اقسموا انهم لاينتقلون الى دار اخرى وانهم اذا ماتوا لايزالون عن تلك الحالة الى حالة اخرى كقوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لايبعث الله من يموت ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصى كعاد وثمود واصل سكن ان يعدى بفى كقر وغنى واقام وقد يستعمل بمعنى التبوى فيجرى مجراه كقولك سكنت الدار ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار مانزل بهم وما تواتر عندكم من اخبارهم ﴿ وضربنا لكم الامثال ﴾ من احوالهم أى بينا لكم انكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب أو صفات مافعلوا وفعل بهم التى هى فى الغرابة كالامثال

﴿ فيقول الذين ظلموا ﴾ يعنى ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى ﴿ ربنا أخرنا الى أجل قريب ﴾ يعنى أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم طلبوا الرجوع الى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى ﴿ نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ فاجيبوا بقوله ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ يعنى فى دار الدنيا ﴿ مالكم من زوال ﴾ يعنى مالكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ يعنى بالكفر والمعاصى ممن كان قبلكم من كفار الامم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ يعنى وقد عرفتم كيف كانت عقوبتنا اياهم ﴿ وضربنا لكم الامثال ﴾ يعنى الامثال التى ضربها الله عز وجل فى القرآن ليتدبروها ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الامم الخالية والقرون

يوم القيامة (فيقول الذين ظلموا) أشركوا (ربنا) يا ربنا (أخرنا الى أجل قريب) مثل أجل الدنيا (نجب دعوتك) الى التوحيد (ونتبع الرسل) نطع الرسل بالاجابة فيقول الله لهم (أولم تكونوا أقسمتم) حلفتم (من قبل) من قبل هذا فى الدنيا (مالكم من زوال) من الدنيا ولا بعث (وسكنتم) نزلتم (فى مساكن) فى منازل (الذين ظلموا أنفسهم) بالشرك والتكذيب فلم يتعظوا بهلاكهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) فى الدنيا (وضربنا) بينا (لكم الامثال) فى القرآن من كل وجه من الوعد والوعيد والرحمة

(وقدمكروا مكرهم) أى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وبطلان الاسلام (وعندالله مكرهم) وهومضاف الى الفاعل كالاول والمعنى ومكتوب عندالله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هوأعظم منه أوالى المفعول أى وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به وهوعذابهم الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) بكسر اللام الاولى ونصب الثانية والتقدير وان وقع مكرهم لزوال أمر النبى صلى الله عليه وسلم فعبر عن أمر النبي عليه السلام بالجبال لعظم شانه وكان تامة أو ان نافية واللام مؤكدة لها كقوله وما كان الله ليعذبهم والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لانها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا دليله قراءة ابن مسعود وماكان مكرهم وبفتح اللام الاولى ورفع الثانية على أى وان كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها فان مخففة من ان

المضروبة ﴿ وقدمكروامكرهم ﴾ المستفرغ فيه جهدهم لابطال الحق وتقرير الباطل ﴿ وعندالله مكرهم ﴾ ومكتوب عنده فعلهم فهو مجازيهم عليه أوعنده مايمكرهم به جزاء لمكرهم وابطالا له ﴿ وان كان مكرهم ﴾ فى العظم والشدة ﴿ لتزول منه الجبال ﴾ مسوى لازالة الجبال ومعدا لها وقيل ان نافية واللام مؤكدة لها كقوله وما كان الله ليعذبهم على ان الجبال مثل لامر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونحوه وقيل مخففة من الثقيلة والمعنى انهم مكروا ليزيلوا ماهو كالجبال الراسية ثباتا وتمكنا من آيات الله تعالى وشرائعه * وقرأ الكسائى لتزول بالفتح والرفع على انها المخففة واللام هى الفاصلة ومعناه تعظيم مكرهم

الماضية وعلم ماجرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم ويعمل فى خلاص نفسه من العقاب والهلاك * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقدمكروا مكرهم ﴾ اختلفوا فى الضمير الى من يعود فى قوله وقدمكروا فقيل يعود الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول صحيح لان الضمير يجب عوده الى أقرب مذكور وقيل ان المراد بقوله وقدمكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ومكرهم ماذكره الله تعالى بقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الآية والمعنى وأنذر الناس يامحمد يوم يأتيهم العذاب يعنى بسبب مكرهم بك * وقوله تعالى ﴿ وعندالله مكرهم ﴾ يعنى جزاء مكرهم وقيل ان مكرهم مثبت عندالله ليجازيهم به يوم القيامة ﴿ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ يعنى وان كان مكرهم لاضعف من أن تزول منه الجبال وقيل معناه ان مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه فى الآية قولا آخر وهو انها نزلت فى نمرود الجبار الذى حاج ابراهيم فى ربه فقال نمرود ان كان مايقوله ابراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد الى السماء فاعلم مافيها فعمد الى أربعة أفراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت واتخذ تابوتا من خشب وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعا فى أطراف التابوت وجعل على رؤس تلك الخشبات لحما أحمر وقعد هو فى التابوت وأقعد معه رجلا آخر وأمر بالنسور فربطت فى أطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه وطارت اليه فطارت النسور يوما أجمع حتى بعدت فى الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى وانظر الى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له ان السماء كهيئتها فقال له افتح الباب الاسفل فانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى ففعل فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة فنودى أيها الطاغى أين تريد قال عكرمة وكان معه فى التابوت غلام قد حمل

والعذاب (وقد مكروا مكرهم) صنعوا صنيعهم بالتكذيب بالرسل (وعندالله مكرهم) عقوبة صنيعهم (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) لكى تخرمنه الجبال ان قرأت بخفض اللام الاولى ونصب اللام الاخرى ويقال وان كان مكرهم وقدكان مكرهم مكر نمروذ الجبار لتزول منه الجبال لتخر منه الجبال حيث سمع دوى التابوت والنسور ان قرأت بنصب اللام الاولى ورفع اللام الاخرى { القوس }

*وقرئ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كي *وقرئ وان كاد مكرهم ﴿ فلاتحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ مثل قوله انالننصر رسلنا كتب الله لاغلبن انا ورسلي واصله مخلف رسله وعده فقدم المفعول الثاني ايذانا بانه لايخلف الوعد اصلا كقوله ان الله لايخلف الميعاد واذا لم يخلف وعده احدا كيف يخلف رسله ﴿ ان الله عزيز ﴾ غالب لايماكر قادر لايدافع ﴿ ذوانتقام ﴾ لاوليائه من اعدائه ﴿ يوم تبدل الارض غير الارض ﴾ بدل من يوم تأتيهم أوظرف للانتقام أومقدر باذكر أو لايخلف وعده ولايجوز ان ينتصب بمخلف لان ماقبل ان لايعمل فيمابعده ﴿ والسموات ﴾ عطف على الارض وتقديره والسموات غير السموات والتبديل يكون في الذات كقولك بدلت الدراهم بالدنانير وعليه قوله بدلناهم جلودا غيرها وفي الصفة كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وغيرت شكلها وعليه قوله يبدل الله

القوس والنشاب وأخذ معه الترس ورمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بدم سمكة قذفت بنفسها في بحر في الهواء وقيل ان طائرا أصابه السهم فلما رجع اليه السهم ملطخا بالدم قال كفيت اله السماء ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات الى أسفل وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت انه قد حدث حدث من السماء وان الساعة قدقامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد بعض العلماء هذه الحكاية وقال ان الخطر فيه عظيم ولايكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الامر العظيم وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولامناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ يعنى فلا تحسبن الله يامحمد مخلف ماوعد به رسله من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين فانه ناصر رسله وأولياءه ومهلك أعداءه وفيه تقديم وتأخير تقديره ولاتحسبن الله مخلف رسله وعده ﴿ ان الله عزيز ﴾ أي غالب ﴿ ذوانتقام ﴾ يعنى من أعدائه * قوله عز وجل ﴿ يوم تبدل الارض غير الارض والسموات ﴾ ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما انه تبدل صفة الارض والسماء لاذاتهما فاما تبديل الارض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدكدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها وتذهب أشجارها وجميع ماعليها من عمارة وغيرها لايبقى على وجهها شئ الاذهب وتمد مد الاديم وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها ويكوران وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء * ويدل على صحة هذا القول ماروى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لاحد أخرجاه في الصحيحين *العفراء بالعين المهملة وهي البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل الى حمرة كان النار ميلت بياض وجهها الى الحمرة *وقوله ليس بها علم لاحد يعنى ليس فيها علامة لاحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلايبقى فيها أثر يستدل به والقول الثاني هو تبديل

رسلنا كتب الله لاغلبن أنا ورسلي مخلف مفعول ثان لتحسبن وأضاف مخلف الى وعده وهو المفعول الثاني له والاول رسله والتقدير مخلف رسله وعده وانما قدم المفعول الثاني على الاول ليعلم انه لايخلف الوعد أصلا كقوله ان الله لايخلف الميعاد ثم قال رسله ليؤذن انه اذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله عزيز) غالب لايماكر (ذوانتقام) لاوليائه من أعدائه وانتصاب (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) على الظرف للانتقام أو على اضمار اذكر والمعنى يوم تبدل هذه الارض التي تعرفونها أرضا أخرى غير هذه المعروفة وتبدل السموات غير

(فلاتحسبن الله مخلف وعده رسله) لرسله بنجاتهم وهلاك أعدائهم (ان الله عزيز) في ملكه وسلطانه (ذوانتقام) ذو نقمة من أعدائه في الدنيا والآخرة (يوم تبدل الارض) أي في يوم تغير الارض (غير الارض) على حال سوى هذه الحال وتبديلها ان يزاد فيها او ينقص منها او يسوى جبالها واوديتها ويقال تبدل الارض غير هذه الارض (والسموات) مطويات بيمينه

سيئاتهم حسنات والآية تحتملهما وعن على رضى الله تعالى عنه تبدل ارضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود وانس رضى الله تعالى عنهما يحشر الناس على ارض بيضاء لم يخطئ عليها احد خطيئة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى تلك الارض وانما تغير صفاتها ويدل عليه ماروى ابو هريرة رضى الله تعالى عنه انه صلى الله تعالى عليه وسلم قال تبدل الارض غير الارض فتبسط وتمد مد الاديم العكاظى لاترى فيها عوجا ولاامتا واعلم انه لايلزم على الوجه الاول ان يكون الحاصل بالتبديل ارضا وسماء على الحقيقة ولايبعد على الثانى ان يجعل الله الارض جهنم والسموات الجنة على ماأشعر به

ذوات الارض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء ثم اختلفوا فى معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود فى معنى هذه الآية قال تبدل الارض بارض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ولم يعمل عليها خطيئة وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال أبى بن كعب فى معنى التبديل بان تصير الارض نيرانا والسماء جنانا وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه ❁عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون الارض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لاهل الجنة أخرجاه فى الصحيحين بزيادة فيه قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح هذا الحديث أما النزل فبضم النون والزاء ويجوز اسكان الزاء وهو مايعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء وقال أهل اللغة هى الطلمة التى توضع فى الملة يتكفؤها بالهمز بيده أى يميلها من يد الى يد حتى تجتمع و تسوى لانها ليست منبسطة كالرقاقة وقد حققنا الكلام فى اليد فى حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شئ ومعنى الحديث ان الله سبحانه وتعالى يجعل الارض كالطلمة أى الرغيف العظيم وتكون طعاما نزلا لاهل الجنة والله على كل شئ قدير ❁فان قلت اذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها وهو أن تحدث بكل ماعمل عليها ❁قلت وجه الجمع بين الآيتين ان الارض تبدل أولا صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلا ثانيا وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضا ❁و يدل على صحة هذا التأويل ماروى عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فاين يكون الناس يومئذ يارسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم ❁وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم فى الظلمة دون الجسر ذكره البغوى بغير سند ففى هذين الحديثين دليل على ان تبديل الارض ثانى مرة يكون بعد الحساب والله أعلم بمراده وأسرار

السموات وانما حذف لدلالة ماقبله عليه والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير وفى الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل واختلف فى تبديل الارض والسموات فقيل تبدل أوصافها وتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلاترى فيها عوجا ولاأمتا وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض وانما تغير وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا وقيل تخلق بدلها ارض وسموات أخر وعن ابن مسعود رضى الله عنه يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة وعن على رضى الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب

(وبرزوا) وخرجوا من قبورهم (لله الواحد القهار) هو كقوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار لان الملك اذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لاحد الى غيره كان الامر في غاية الشدة (وترى المجرمين) الكافرين (يومئذ) يوم القيامة (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم الى أرجلهم مغللين (في الاصفاد) متعلق بمقرنين أي يقرنون في الاصفاد أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين والاصفاد القيود والاغلال (سرابيلهم) قمصهم (من قطران) هو ما يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ فيهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح على ان التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين وكل ما وعده الله أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره وكأنه ما عندنا منه الا الاسامي والمسميات ثمة نعوذ بالله من سخطه وعذابه من قطر آن زيد عن يعقوب نحاس مذاب بلغ حره اناه

قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وقوله ان كتاب الفجار لفي سجين ﴿وبرزوا﴾ من اجداثهم ﴿لله الواحد القهار﴾ لمحاسبته ومجازاته وتوصيفه بالوصفين للدلالة على ان الامر في غاية الصعوبة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فان الامر اذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لاحد الى غيره ولا مستجار ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد والاعمال كقوله تعالى واذا النفوس زوجت أو قرنوا مع الشياطين أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة أو قرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم بالاغلال وهو يحتمل ان يكون تمثيلا لمؤاخذتهم على ما اقترفته ايديهم وارجلهم ﴿في الاصفاد﴾ متعلق بمقرنين أو حال من ضميره والصفد القيد وقيل الغل قال سلامة بن جندل

وزيد الخيل قد لاقى صفادا * يعض بساعد وبعظم ساق

واصله الشد ﴿سرابيلهم﴾ قمصانهم ﴿من قطران﴾ وجاء قطران وقطران لغتين فيه وهو ما يتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بحدته وهو اسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة يطلى به جلود اهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه مع اسراع النار في جلودهم على ان التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ويحتمل ان يكون تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديئة

كتابه * وقوله تعالى ﴿وبرزوا﴾ يعني وخرجوا من قبورهم ﴿لله﴾ يعني لحكم الله والوقوف بين يديه للحساب ﴿الواحد القهار﴾ صفتان لله تعالى فالواحد الذي لا ثاني له ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الغالب الذي يقهر عباده على ما يريد ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد * قوله تعالى ﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين﴾ يعني مشدودين بعضهم الى بعض يقال قرنت الشيء بالشيء اذا شددته معه في رباط واحد ﴿في الاصفاد﴾ يعني في القيود والاغلال قال ابن عباس يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة وقال ابو زيد تقرن أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاصفاد وهي القيود وقال ابن قتيبة يقرن بعضهم الى بعض ﴿سرابيلهم﴾ يعني قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل ما لبس ﴿من قطران﴾ القطران دهن يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج وانما جعل لهم قطران سرابيل لانه يبالغ في اشتعال النار في الجلود ولو أراد الله المبالغة في احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون وقرأ عكرمة ويعقوب من قطر آن على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب

(وبرزوا لله) خرجوا وظهروا لله (الواحد القهار) لخلقه بالموت (وترى المجرمين) المشركين (يومئذ) يوم القيامة مسلسلين (مقرنين) ويقال مقيدين (في الاصفاد) في القيود مع الشياطين (سرابيلهم) قمصهم (من قطران) من نار سوداء كالقطران ويقال من قطر آن

(وتغشى وجوههم النار) تعلوها باشتعالها وخص الوجه لانه أعز موضع فى ظاهر البدن كالقلب فى باطنه ولذا قال تطلع على الافئدة (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى يفعل بالمجرمين مايفعل ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت أوكل نفس مجرمة أومطيعة لانه

اذا عاقب المجرمين لاجرامهم علم انه يثيب المؤمنين بطاعتهم (ان الله سريع الحساب) يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر (هذا) أى ماوصفه فى قوله ولاتحسبن الى قوله سريع الحساب (بلاغ للناس) كفاية فى التذكير والموعظة (ولينذروا به) بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أى لينصحوا ولينذروا (وليعلموا أنما هواله واحد) لانهم اذاخافوا ماأنذروا به عنهم دعتهم المخافة الى النظر حتى يتوصلوا الى التوحيد لان الخشية أم الخير كله (وليذكر أولوا الالباب) ذووالعقول *

والهيآت الوحشة فيجلب اليها انواعا من الغموم والآلام وعن يعقوب قطرآن والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآنى المتناهى حره والجملة حال ثانية أوحال من الضمير فى مقرنين ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ وتتغشاها لانهم لم يتوجهوا بها الى الحق ولم يستعملوا فى تدبره مشاعرهم وحواسهم التى خلقت فيها لاجله كما تطلع على افئدتهم لانها فارغة عن المعرفة مملوءة بالجهالات ونظيره قوله أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴿ ليجزى الله كل نفس ﴾ أى يفعل بهم ذلك ليجزى كل نفس مجرمة ﴿ ما كسبت ﴾ أوكل نفس من مجرمة أومطيعة لانه اذا بين ان المجرمين يعاقبون لاجرامهم علم ان المطيعين يثابون لطاعتهم ويتعين ذلك ان علق اللام ببرزوا ﴿ ان الله سريع الحساب ﴾ لانه لايشغله حساب عن حساب ﴿ هذا ﴾ اشارة الى القرآن أو السورة أومافيه من العظة والتذكير أو ماوصفه من قوله ولاتحسبن الله ﴿ بلاغ للناس ﴾ كفاية لهم فى الموعظة ﴿ ولينذروا به ﴾ عطف على محذوف أى لينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ فتكون اللام متعلقة بالبلاغ ويجوز ان تتعلق بمحذوف تقديره ولينذروا به انزل اوتلى * وقرئ بفتح الياء من نذر به اذا علم به واستعد له ﴿ وليعلموا أنما هو اله واحد ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة عليه أو المنبهة على مايدل عليه ﴿ وليذكر اولوا الالباب ﴾ فيرتدعوا عما يرديهم ويتدرعوا عما يحظيهم * واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هى الغاية والحكمة فى انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمال لهم القوة النظرية التى منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية الذى هو التدرع بلباس التقوى جعلنا الله من الفائزين بها وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد

من صفر حار قد انتهى حره (وتغشى) تعلو (وجوههم النار ليجزى الله) وهذا مقدم ومؤخر يقول وبرزوا لله الواحد القهار ليجزى الله (كل نفس) برة أوفاجرة (ما كسبت) من الخير والشر (ان الله سريع الحساب) شديد العقاب ويقال اذا حاسب فحسابه سريع (هذا بلاغ للناس) أبلغهم عن الله ويقال بيان لهم بالامر والنهى والوعد والوعيد والحلال والحرام (ولينذروا به) لكى يخوفوا بالقرآن (وليعلموا) لكى يعلموا ويقروا (انما هو اله واحد) بلاولد ولاشريك (وليذكر) ولكى يتعظ بالقرآن (أولوا الالباب) ذوو العقول من الناس

والآن الذى انتهى حره ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ يعنى تعلوها وتجللها ﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت ﴾ يعنى من خير أوشر ﴿ ان الله سريع الحساب ﴾ يعنى اذا حاسب عباده يوم القيامة ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ يعنى هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس ﴿ ولينذروا به ﴾ يعنى وليخوفوا بالقرآن و مواعظه وزواجره ﴿ وليعلموا أنما هو اله واحد ﴾ يعنى وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى ﴿ وليذكر اولوا الالباب ﴾ يعنى وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ أولو العقول والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(قوله وعن النبى صلى الله عليه وسلم الخ) هذا الحديث رواه ابن مردويه والثعلبى والواحدى وهو موضوع ايضا كما ذكره العراقى رحمه الله تعالى

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك

سورة الحجر مكية وهى تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ الاشارة الى آيات السورة والكتاب هو السورة وكذا القرآن وتنكيره للتفخيم أى آيات الجامع لكونه كتابا كاملا وقرآنا يبين الرشد

تفسير سورة الحجر

مكية باجماعهم وهى تسع وتسعون آية وستمائة واربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستون حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم

* قوله سبحانه وتعالى ﴿ ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ تلك اشارة الى ماتضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين الكتاب الذى وعد الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والتعظيم والمعنى تلك آيات ذلك الكتاب الكامل فى كونه كتابا وفى كونه قرآنا وأى قرآن كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة فى البيان وقيل أراد بالكتاب التوراة والانجيل لانه عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوى لانه لم يجر للتوراة والانجيل ذكر حتى يشار اليهما وقيل المراد بالكتاب القرآن وانما جمعهما بوصفين وان كان الموصوف واحدا لما فى ذلك من الفائدة وهى التفخيم والتعظم والمبين الذى يبين الحلال من الحرام والحق

سورة الحجر تسع وتسعون آية مكية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ماتضمنته السورة من الآيات والكتاب والقرآن المبين السورة وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل فى كونه كتابا وأى قرآن مبين كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال وللغرابة فى

ومن السورة التى يذكر فيها الحجر وهى كلها مكية وكلها ستمائة وخمسون وأربع وحروفها ألفان وسبعمائة وسبعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وباسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى (ألر) يقول أنا الله أرى ويقال قسم أقسم بالالف واللام والراء (تلك آيات الكتاب) ان هذه السورة آيات الكتاب (وقرآن مبين) يقول واقسم بالقرآن المبين بالحلال والحرام والامر

من الغى بيانا غريبا ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ حين عاينوا حال المسلمين عند نزول النصر أو حلول الموت أو يوم القيامة. وقرأ نافع وعاصم ربما بالتخفيف. وقرئ ربما بالفتح والتخفيف وفيها ثمان لغات ضم الراء وفتحه مع التشديد والتخفيف وبتاء التأنيث ودونها وما كافة تكفه عن الجر فيجوز دخوله على الفعل وحقه ان يدخل الماضى لكن لما كان المترقب فى اخبار الله تعالى كالماضى فى تحققه اجرى مجراه وقيل ما نكرة موصوفة كقوله

ربما تكره النفوس من الامر * رله فرجة كحل العقال

ومعنى التقليل فيه الايذان بانهم لو كانوا يودون الاسلام مرة فبالحرى ان يسارعوا اليه فكيف وهم يودونه كل ساعة وقيل تدهشهم اهوال القيامة فان حانت منهم افاقة فى بعض الاوقات تمنوا ذلك والغيبة فى حكاية

من الباطل ﴿ ربما ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير وانما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءنى وربما جاءنى زيد وان شئت جعلت ما بمنزلة شئ كأنك قلت رب شئ فيكون المعنى رب شئ ﴿ يود الذين كفروا ﴾ وقيل ما فى ربما بمعنى حين أى رب حين يود يعنى تمنى الذين كفروا الان التمنى هو تشهى حصول ما يوده واختلف المفسرون فى الوقت الذى تمنى الذين كفروا ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ على قولين أحدهما ان ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر انه كان على الضلال فيتمنى لو كان مسلما وذلك حين لا ينفعه ذلك التمنى قال الضحاك هو عند حالة المعاينة والقول الثانى ان هذا التمنى يكون فى الآخرة وذلك حين يعاينون أهوال يوم القيامة وشدائده وما يصيرون اليه من العذاب فحينئذ تمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال الزجاج ان الكافر كلما رأى حالا من احوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما وقيل اذا رأى الكافر أن الله تعالى يرحم المسلمين ويشفع بعضهم فى بعض حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور أن ذلك التمنى حين يخرج الله المؤمنين من النار * عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وأنتم معنا فى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذكره البغوى بغير سند وكذا ذكره ابن الجوزى وقال اليه ذهب ابن عباس فى رواية عنه وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وابراهيم يعنى النخعى. فان قلت رب انما وضعت للتقليل وتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين * قلت قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب فى قولهم لعلك ستندم على فعلك وربما ندم الانسان على فعله ولا يشكون فى تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لان العقلاء

حرف يجر ما بعده ويختص بالاسم النكرة فاذا كفت وقع بعدها الفعل الماضى والاسم وانما جاز (يود الذين كفروا) لان المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه فكانه قيل ربما ودوا ودادتهم تكون عند النزع أو يوم القيامة اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين أو اذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلما كذا روى عن ابن عباس رضى الله عنهما (لو كانوا مسلمين) حكاية ودادتهم وانما جئ بها على لفظ الغيبة لانهم مخبر عنهم كقولك حلف بالله ليفعلن ولو قيل حلف بالله لافعلن ولو كنا مسلمين لكان حسنا وانما قال برب لان أهوال القيامة تشغلهم عن التمنى فاذا أفاقوا

والنهى (ربما يود) يتمنى (الذين كفروا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (لو كانوا مسلمين) فى الدنيا يقول ربما يأتى على الكافرين يوم يتمنى أنه كان مسلما ولهذا كان القسم وذلك اذا أخرج الله من النار من كان مؤمنا مخلصا بايمانه وأدخله الجنة فعند ذلك يتمنى الكافر أنه كان مسلما فى الدنيا

من سكرات العذاب ودوا لوكانوا مسلمين وقول من قال ان رب يعنى بها الكثرة سهو لانه ضد مايعرفه أهل اللغة لانها وضعت للتقليل (ذرهم) أمر اهانة أى اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهى عماهم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا

ويتمتعوا) بدنياهم (ويلههم الامل) ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الايمان (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم وفيه تنبيه على أن ايثار التلذذ والتنعم ومايؤدى اليه طول الامل ليس من أخلاق المؤمنين (وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) ولها كتاب جملة واقعة صفة لقرية والقياس ان لايتوسط الواو بينهما كما فى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف اذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو فجئ بالواو تأكيدا لذلك والوجه أن تكون هذه الجملة حالا لقرية لكونها فى حكم الموصوفة كأنه قيل وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفا وقوله كتاب معلوم أى مكتوب معلوم وهو أجلها الذى كتب فى اللوح المحفوظ وبين الا ترى الى قوله (ماتسبق من أمة أجلها) فى موضع كتابها (وما يستأخرون)أى عنه وحذف لانه معلوم وأنث الامة أولا

(ذرهم) اتركهم يامحمد (يأكلوا) بلا نجعة ولاهمة مافى الغد (ويتمتعوا) يعيشوا فى الكفر والحرام (ويلههم الامل) ويشغلهم الامل الطويل عن طاعة الله (فسوف) وهذا وعيد لهم (يعلمون) (أجلها) عند الموت وفى القبر ويوم القيامة ماذا يفعل بهم (وما أهلكنا من قرية) من أهل قرية (الا ولها كتاب معلوم) فيه اجل معلوم مؤقت لهلاكهم (ماتسبق من أمة اجلها) يقول لاتموت ولاتهلك أمة قبل أجلها (ومايستأخرون) ولاتؤخر أمة عن أجلها

ودادتهم كالغيبة فى قولك حلف بالله ليفعلن ﴿ ذرهم ﴾ دعهم ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ بدنياهم ﴿ ويلههم الامل ﴾ ويشغلهم توقعهم لطول الاعمار واستقامة الاحوال عن الاستعداد للمعاد ﴿ فسوف يعلمون ﴾ سوء صنيعهم اذا عاينوا جزاءه والغرض اقناط الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من ارعوائهم وايذانه بانهم من أهل الخذلان وان نصحهم بعد اشتغال بما لا طائل تحته وفيه الزام للحجة وتحذير عن ايثار التنعم ومايؤدى اليه طول الامل ﴿ وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ﴾ أجل مقدر كتب فى اللوح المحفوظ والمستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل ان لاتدخلها الواو كقوله الا لها منذرون ولكن لما شابهت صورتها صورة الحال ادخلت عليها تأكيدا للصوقها بالموصوف ﴿ ماتسبق من امة أجلها وما يستأخرون ﴾ أى ومايستأخرون عنه وتذكير ضمير أمة فيه للحمل على المعنى

يتحرزون من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال غيره ان هذا التقليل أبلغ فى التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره وقيل ان شغلهم بالعذاب لايفرغهم للندامة انما يخطر ذلك ببالهم *فان قلت رب لاتدخل الا على الماضى فكيف قال ربما يود وهو فى المستقبل . قلت لان المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه كانه قال ربما ود * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ يعنى دع يامحمد هؤلاء الكفار يأكلوا فى دنياهم ويتمتعوا بلذاتها ﴿ ويلههم الامل ﴾ يعنى ويشغلهم طول الامل عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى ﴿ فسوف يعلمون ﴾ يعنى اذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ماصنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل قال بعض أهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال وفى الآية دليل على ان ايثار التلذذ والتنعم فى الدنيا يؤدى الى طول الامل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين قال على بن أبى طالب انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ يعنى من أهل قرية وأراد هلاك الاستئصال ﴿ الا ولها كتاب معلوم ﴾ أى أجل مضروب ووقت معين لايتقدم العذاب عليه ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم الا فى الوقت الذى حد لهم فى اللوح المحفوظ ﴿ ماتسبق من أمة أجلها ﴾ من زائدة فى قوله من أمة كقولك ماجاءنى من أحد يعنى أحد وقيل هى على أصلها لانها تفيد التبعيض الى هذا الحكم فيكون ذلك فى افادة عموم النفى آكد ومعنى الآية ان الاجل المضروب لهم وهو وقت الموت أو نزول العذاب لايتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ ومايستأخرون ﴾ وانما أدخل الهاء فى

ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ والمعنى (وقالوا) أى الكفار (ياأيها الذى نزل عليه الذكر) أى القرآن (انك لمجنون) يعنون محمدا عليه السلام وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه الى الجنون والتعكيس فى كلامهم للاستهزا والتهكم سائغ ومنه فبشرهم بعذاب اليم انك لانت الحليم الرشيد والمعنى انك لتقول قول المجانين حيث تدعى ان الله نزل عليك الذكر (لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين) لو ركبت مع لا وما لامتناع الشئ لوجود غيره أو للتحضيض وهل ركبت مع لا للتحضيض فحسب والمعنى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك أوهلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك ان كنت صادقا (ماننزل الملائكة) كوفى غير أبى بكر تنزل الملائكة أبوبكر تنزل الملائكة أى تتنزل غيرهم (الا بالحق) الا تنزيلا ملتبسا بالحكمة (وما كانوا اذا منظرين) اذا جواب لهم وجزاء الشرط مقدر تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين اذا وما أخر عذابهم (انانحن نزلنا الذكر) القرآن

﴿وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر﴾ نادوا به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على التهكم ألا ترى الى ما نادوه له وهو قولهم ﴿ انك لمجنون ﴾ ونظير ذلك قول فرعون ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون والمعنى انك لتقول قول المجانين حين تدعى ان الله تعالى نزل عليك الذكر وهو القرآن ﴿ لوما تأتينا ﴾ ركب لو مع ما كما ركب مع لا لمعنيين امتناع الشئ لوجود غيره والتحضيض ﴿ بالملائكة ﴾ ليصدقون ويعضدون على الدعوة كقوله لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أوللعقاب على تكذيبنا لك كما اتت الامم المكذبة قبل ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فى دعواك ﴿ ماينزل الملائكة ﴾ بالياء ونصب الملائكة على ان الضمير لله تعالى وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالنون وابو بكر بالتاء والبناء للمفعول ورفع الملائكة وقرئ تنزل بمعنى تتنزل ﴿ الا بالحق ﴾ الا تنزيلا ملتبسا بالحق أى بالوجه الذى قدره واقتضته حكمته ولا حكمة فى ان تأتيكم بصوره تشاهدونها فانه لا يزيدكم الا لبسا ولا فى معاجلتكم بالعقوبة فان منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالايمان وقيل الحق الوحى أو العذاب ﴿ وما كانوا اذا منظرين ﴾ اذا جواب لهم وجزاء لشرط مقدر أى ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين ﴿ انا نحن نزلنا الذكر ﴾ رد لانكارهم واستهزائهم ولذلك اكده من وجوه

أجلها الارادة الامة وأخرجها من قوله ومايستأخرون لارادة الرجال ﴿قوله عز وجل ﴿ وقالوا ﴾ يعنى مشركى مكة ﴿ ياأيها الذى نزل عليه الذكر ﴾ يعنى القرآن وأرادوا به محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ انك لمجنون ﴾ انما نسبوه الى الجنون لانه صلى الله عليه وسلم كان يظهر عند نزول الوحى عليه مايشبه الغشى فظنوا ان ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه الى الجنون وقيل ان الرجل اذا سمع كلاما مستغربا من غيره فربما نسبه الى الجنون ولما كانوا يستبعدون كونه رسولا من عند الله وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه الى الجنون وانما قالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل معناه ياأيها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه واعتقاده واعتقاد أصحابه وأتباعه انك لمجنون فى ادعائك الرسالة ﴿لوما﴾ قال الزجاج والفراء لوما ولولا لغتان ومعناهما هلا يعنى هلا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ يعنى يشهدون لك بانك رسول من عند الله حقا ﴿ ان كنت من الصادقين ﴾ يعنى فى قولك وادعائك الرسالة ﴿ ماننزل الملائكة الا بالحق ﴾ بالعذاب أووقت الموت وهو قوله تعالى ﴿ وما كانوا اذا منظرين ﴾ يعنى لو نزلت الملائكة اليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك أن كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الملائكة عيانا فاجابهم الله عز وجل بهذا والمعنى لو نزلوا عيانا لزال عن الكفار الامهال وعذبوا فى الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا ﴿ انا نحن نزلنا الذكر ﴾ يعنى القرآن أنزلناه عليك يامحمد وانما قال سبحانه وتعالى انا نحن نزلنا الذكر جوابا لقولهم ياأيها الذى نزل عليه الذكر فاخبر الله عز وجل انه

(وقالوا)عبدالله بن امية المخزومى وأصحابه لمحمد صلى الله عليه وسلم (ياأيها الذى نزل عليه الذكر) جبريل بالقرآن بزعمك (انك لمجنون) تختنق (لوما تأتينا) هلا تأتينا (بالملائكة) من السماء فيشهدوا لك انك رسول الله (ان كنت من الصادقين) فى مقالتك قال الله (ماننزل الملائكة) من السماء (الا بالحق) بالهلاك وقبض ارواحهم (وما كانوا اذا منظرين) مؤجلين اذا نزلت عليهم الملائكة (انا نحن نزلنا الذكر) جبريل

وقرره بقوله ﴿ وانا له لحافظون ﴾ أى من التحريف والزيادة والنقص بان جعلناه معجزا مباينا لكلام البشر بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان أو نفى تطرق الخلل اليه فى الدوام بضمان الحفظ له كما نفى ان يطعن فيه بانه المنزل له وقيل الضمير فى له للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين ﴾ فى فرقهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريق ومذهب من شاعه اذا تبعه واصله الشياع وهو الحطب الصغار توقد به الكبار والمعنى نبأنا رجالا فيهم وجعلناهم رسلا فيما بينهم

هو الذى نزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وانا له لحافظون ﴾ الضمير فى له يرجع الى الذكر يعنى وانا للذكر الذى أنزلناه على محمد لحافظون يعنى من الزيادة فيه والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس ان يزيد فيه أو ينقص منه حرفا واحدا أو كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقى مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وقال ابن السائب ومقاتل الكناية فى له راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم يعنى وانا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحسن صرف الكناية اليه لكونه أمرا معلوما الاان القول الاول أصح وأشهر وهو قول الاكثرين لانه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية الى أقرب مذكور أولى وهو الذكر واذا قلنا ان الكناية عائدة الى القرآن وهو الاصح فاختلفوا فى كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم حفظه بان جعله معجزا باقيا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه لانهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغير نظمه وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة أن ذلك ليس بقرآن وقال آخرون ان الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارضه وقال آخرون بل أعجز الله الخلق عن ابطاله وافساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لان دواعى جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على ابطاله وافساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين ﴾ لما تجرأ كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم انك لمجنون وأساؤا الادب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان عادة الكفار فى قديم الزمان مع أنبيائهم كذلك فلك يا محمد اسوة فى الصبر على أذى قومك بجميع الانبياء ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وفى الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى فى شيع الاولين الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل أتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان وقوله

الذكر ولذلك قال انا نحن فاكد عليهم انه هو المنزل على القطع وانه هو الذى نزله محفوظا من الشياطين وهو حافظه فى كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فانه لم يتول حفظها وانما استحفظها الربانيين والاحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فوقع التحريف ولم يكل القرآن الى غير حفظه وقد جعل قوله وانا له لحافظون دليلا على انه منزل من عنده آية اذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه أو الضمير فى له لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله والله يعصمك (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين) أى ولقد أرسلنا من قبلك رسلا فى الفرق الاولين والشيعة الفرقة اذا اتفقوا على

بالقرآن (وانا له) للقرآن (لحافظون) من الشياطين حتى لا يزيدوا فيه ولا ينقصوا منه ولا يغيروا حكمه ويقال انا له لمحمد صلى الله عليه وسلم لحافظون من الكفار والشياطين (ولقد أرسلنا من قبلك) يا محمد الرسل (فى شيع الاولين) فى فرق

﴿ ومايأتيهم من رسول الا كانوابه يستهزؤن ﴾ كمايفعل هؤلاء وهو تسلية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومالحال لاتدخل الامضارعا بمعناه أو ماضيا قريبا منه هذا على حكاية الحال الماضيه ﴿ كذلك نسلكه ﴾ ندخله ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ والسلك ادخال الشئ في الشئ كالخيط في المخيط والرمح في المطعون والضمير الاستهزاء وفيه دليل على ان الله تعالى يوجد الباطل في قلوبهم وقيل للذكر فان الضمير الآخر في قوله ﴿ لايؤمنون به ﴾ له وهو حال من هذا الضمير والمعنى مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذبا غير مؤمن به أو بيان للجملة المتضمنة له وهذا الاحتجاج ضعيف اذلايلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع اليه ولايتعين ان تكون الجملة حالا من الضمير لجواز ان تكون حالا من المجرمين ولاينافي كونها مفسرة للمعنى الاول بل يقويه ﴿ وقدخلت سنة الاولين ﴾ أي سنة الله فيهم بان خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم أو باهلاك من كذب الرسل منهم فيكون وعيدا لاهل مكة ﴿ ولو فتحنا عليهم ﴾ على هؤلاء المقترحين ﴿ بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ يصعدون اليها

في شيع الاولين من باب اضافة الصفة الى الموصوف ﴿ ومايأتيهم من رسول الا كانوابه يستهزؤن كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ السلوك النفاذ في الطريق والدخول فيه والسلك ادخال الشئ في الشئ كادخال الخيط في المخيط ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الاولين كذلك نسلكه أي ندخله في قلوب المجرمين يعني مشركي مكة وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين آية في ثبوت القدر لمن أذعن للحق ولم يعاند قال الواحدي قال أصحابنا أضاف الله سبحانه وتعالى الى نفسه ادخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه وقال الامام فخر الدين الرازي احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسلكه أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائدا اليه وأجيب عنه بانه سبحانه وتعالى قال ومايأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد اليه والاستهزاء بالانبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا ان المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين انه الكفر والضلال ❊ وقوله تعالى ﴿ لايؤمنون به ﴾ يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن ﴿ وقد خلت سنة الاولين ﴾ فيه وعيد وتهديد لكفار مكة يخوفهم أن ينزل بهم مثل مانزل بالامم الماضية المكذبة للرسل والمعنى وقد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل من الامم الماضية فاحذروا يا أهل مكة أن يصيبكم مثل ماأصابهم من العذاب ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ يعني ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا لوماتأتينا بالملائكة بابا من السماء فظلوا يقال ظل فلان يفعل كذا اذا

مذهب وطريقة (ومايأتيهم) حكاية حال ماضية لان مالاتدخل على مضارع الاوهو في معنى الحال ولاعلى ماض الاوهو قريب من الحال (من رسول الاكانوابه يستهزؤن) السلام (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) أي كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء في شيع الاولين نسلكه أي الكفر أو الاستهزاء في قلوب المجرمين من أمتك في اختيار ذلك يقال سلكت الخيط في الابرة وأسلكته اذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة في الاصلح وخلق الافعال (لايؤمنون به) بالله أو بالذكر وهو حال (وقدخلت سنة الاولين) مضت طريقتهم التي سنها الله في اهلاكهم حين كذبوا رسله وهو وعيد لاهل مكة على تكذيبهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء (فظلوا فيه يعرجون) يصعدون

الاولين (ومايأتيهم من رسول) مرسل اليهم (الا كانوابه) بالرسل (يستهزؤن) يسخرون (كذلك) هكذا (نسلكه) نترك التكذيب (في قلوب المجرمين) المشركين (لا يؤمنون به) لكي لايؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ونزول العذاب عليهم (وقدخلت) مضت (سنة الاولين) سيرة الاولين بتكذيب الرسل كما كذبك قومك ومضت سيرة الله فيهم بالعذاب والهلاك من الله لهم عند التكذيب (ولو فتحنا عليهم) على أهل مكة (بابا من السماء) يدخلون فيه (فظلوا فيه) فصاروا فيه (يعرجون) يصعدون وينزلون يعني كالملائكة

ويرون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون أو تصعد الملائكة وهم يشاهدونهم ﴿لقالوا﴾ من غلوهم في العناد وتشكيكهم في الحق ﴿انما سكرت ابصارنا﴾ سدت عن الابصار بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة من قرأ سكرت ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ قد سحرنا محمد بذلك كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على البت بان مايرونه لاحقيقة له بل هو باطل خيل ماخيل اليهم بنوع من السحر ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا﴾ اثني عشر مختلفة الهيئات والخواص على مادل عليه الرصد والتجربة مع بساطة السماء ﴿وزيناها﴾

فعله بالنهار كما يقال بات يفعل كذا اذا فعله بالليل فيه يعني في ذلك الباب يعرجون يعني يصعدون والمعارج المصاعد وفي المشار اليه بقوله فظلوا فيه يعرجون قولان أحدهما أنهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك والمعنى لو كشف عن أبصار هؤلاء الكفار فرأوا بابا من السماء مفتوحا والملائكة تصعد فيه لما آمنوا والقول الثاني انهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات ومافيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ولقالوا انما سحرنا وهو قوله تعالى ﴿لقالوا انما سكرت أبصارنا﴾ قال ابن عباس سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر اذا حبس ومنع من الجرى وقيل هو من سكر الشراب والمعنى ان أبصارهم حارت ووقع بها من فساد النظر مثل مايقع للرجل السكران من تغير العقل وفساد النظر وقيل سكرت يعني غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر وأصله من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ يعني سحرنا محمد وعمل فينا سحره وحاصل الآية ان الكفار لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم الملائكة فيروهم عينا ويشهدوا بصدقه أخبر الله سبحانه وتعالى انه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عيانا لما آمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم في الازل من الشقاوة قوله ﴿ سبحانه وتعالى ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا﴾ البروج التي تنزلها الشمس في مسيرها واحدها برج وهي بروج الفلك الاثنا عشر برجا وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل وقد تقدم ذكر منازل القمر في تفسير سورة يونس وهذه البروج مقسومة على ثلاثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس في هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال ابن عطية هي قصور في السماء عليها الحرس وقال الحسن ومجاهد وقتادة هي النجوم العظام قال أبو اسحق يريدون نجوم هذه البروج وهي نجوم على ماصورت به وسميت وأصل هذا كله من الظهور ﴿وزيناها﴾

(يعني)

(لقالوا انما سكرت ابصارنا) صبرت أو حبست من الابصار من السكر أو من السكر سكرت مكي اي حبست كما يحبس النهر من الجرى المعنى ان هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد ان لو فتح لهم باب من أبواب السماء و يسر لهم معراج يصعدون فيه اليها ورأوا من العيان مارأوا لقالوا هو شئ نتخايله لاحقيقة له ولقالوا (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد بذلك أو الضمير للملائكة أي لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانا لقالوا ذلك و ذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون و قال انما ليدل على أنهم يبتون القول بان ذلك ليس الا تسكيرا للابصار (ولقد جعلنا في السماء) خلقنا فيها (بروجا) نجوما أو قصورا فيها الحرس أو منازل للنجوم (وزيناها) أي السماء

(لقالوا) كفار مكة (انما سكرت أبصارنا) أخذت أعيننا (بل نحن قوم مسحورون) مغلوبو العقل قد سحرنا (ولقد جعلنا في السماء بروجا) قصورا ويقال نجوما وهي النجوم التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر (وزيناها) يعني السماء

بالاشكال والهيآت البهية ﴿ للناظرين ﴾ المعتبرين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ فلا يقدر ان يصعد اليها ويوسوس اهلها ويتصرف فى امرها ويطلع على احوالها ﴿ الا من استرق السمع ﴾ بدل من كل شيطان واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات لما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلال من اوضاع الكواكب وحركاتها وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم منعوا من كلها بالشهب ولا يقدح فيه تكونها قبل المولد لجواز ان يكون لها اسباب اخر وقيل الاستثناء منقطع أى ولكن من استرق السمع ﴿ فاتبعه ﴾ فتبعه ولحقه ﴿ شهاب مبين ﴾ ظاهر

يعنى السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿ للناظرين ﴾ يعنى المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها وهو الله الذى أوجد كل شئ وخلقه وصوره ﴿ وحفظناها ﴾ يعنى السماء ﴿ من كل شيطان رجيم ﴾ أى مرجوم فعيل بمعنى مفعول وقيل ملعون مطرود من رحمة الله قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون باخبارها الى الكهنة فيلقونها اليهم فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع الا رمى بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث فى الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث ﴿ الا من استرق السمع ﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن من استرق السمع ﴿ فأتبعه ﴾ أى لحقه ﴿ شهاب مبين ﴾ والشهاب شعلة من نار ساطع سمى الكوكب شهابا لاجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار قال ابن عباس فى قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس فى البوادى (خ) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر فى السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له أليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء

فصل

اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه

(للناظرين وحفظناها) أى السماء (من كل شيطان رجيم) ملعون أو مرمى بالنجوم (الا من استرق السمع) أى المسموع ومن فى محل النصب على الاستثناء (فأتبعه شهاب) نجم ينقض فيعود (مبين) ظاهر للمبصرين قيل كانوا لا يحجبون عن السموات كلها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها

بالكواكب (للناظرين) اليها وهى النجوم التى زينت بها السماء (وحفظناها من كل شيطان رجيم) ملعون مطرود بالنجوم التى يزجرون بها عن استماع الملائكة يعنى الشياطين (الا من استرق السمع) الا من اختلس خلسة (فاتبعه شهاب مبين) يلحقه نجم مضئ حار متوقد

للمبصرين كالزينة والشهاب شعلة نار ساطعة وقد يطلق للكوكب والسنان لما فيهما من البريق

وسلم أم لا على قولين * أحدهما انها لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما ظهر ذلك فى بدء أمره فكان ذلك أساسا لنبوته صلى الله عليه وسلم ❊ ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب أخرجاه فى الصحيحين فظاهر هذا الحديث يدل على ان هذا الرمى بالشهب لم يكن قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما بعث حدث هذا الرمى ويعضده ماروى أن يعقوب بن المغيرة بن الاخنس بن شريق قال أول من فزع للرمى بالنجوم هذا الحى من ثقيف وانهم جاؤا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بنى علاج وكان أهدى العرب فقالوا له ألم ترما حدث فى السماء من القذف بالنجوم فقال بلى ولكن انظروا فان كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ويعرف بها الانواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وان كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا لامر أراده الله من الخلق قال الزجاج ويدل على انها كانت بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم أن شعراء العرب الذين ذكروا البرق والاشياء المسرعة لم يوجد فى شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فلما حدثت بعد مولده صلى الله تعالى عليه وسلم استعملت الشعراء ذكرها قال ذوالرمة

كأنه كوكب فى اثر عفرية ❊ مسوم فى سواد الليل منقضب

* والقول الثانى ان ذلك كان موجودا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم قال معمر قلت للزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم قلت أفرأيت قوله وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ❊ ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ابن عباس قال أخبرنى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الانصار أنهم بيناهم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون فى الجاهلية اذا رمى بمثل هذا قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أومات رجل عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه اذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح الى أهل هذه السماء ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال فيستخبر بعض أهل السماء بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفونه الى أوليائهم ويرمون فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه ولكن لم يكن فى شدة الحراسة مثل بعد مبعثه قال وعلى هذا

(وجدنا)

﴿ والارض مددناها ﴾ بسطناها ﴿ وألقينا فيها رواسى ﴾ جبالا ثوابت ﴿ وانبتنا فيها ﴾ فى الارض أوفيها وفى الجبال ﴿ من كل شئ موزون ﴾ مقدر بمقدار معين تقتضيه حكمته أومستحسن متناسب من قولهم كلام موزون أومايوزن ويقدر اوله وزن فى ابواب النعمة والمنفعة ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس

وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبى حازم وهو جاهلى

فالعير يرهقها الغبار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلى

فانقض كالدرى يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين ان الرمى بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد فى حفظ السماء وحراستها صونا لاخبار الغيوب والله أعلم ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ والارض مددناها ﴾ يعنى بسطناها على وجه الماء كما يقال انها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير وزعم أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها فى الماء وبعضها خارج عن الماء وهو الجزء المعمور منها واعتذروا عن قوله تعالى والارض مددناها بان الكرة اذا كانت عظيمة كان كل جزء منها كالسطح العظيم فثبت بهذا الامر أن الارض ممدودة مبسوطة وانها كرة ورد هذا أصحاب التفسير بان الله أخبر فى كتابه بانها ممدودة وانها مبسوطة ولوكانت كرة لاخبر بذلك والله أعلم بمراده وكيف مدالارض ﴿ وألقينا فيها رواسى ﴾ يعنى جبالا ثوابت وذلك ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الارض على الماء مادت ورجفت فأثبتها بالجبال ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ أى فى الارض لان أنواع النبات المنتفع به تكون فى الارض وقيل الضمير يرجع الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى ﴿ من كل شئ موزون ﴾ وانما يوزن ماتولد فى الجبال من المعادن وقال ابن عباس وسعيد ابن جبير موزون أى معلوم وقال مجاهد وعكرمة أى مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عندالله تعالى لان الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذى يحتاج اليه الناس فى معايشهم وأرزاقهم فيكون اطلاق الوزن عليه مجازا لان الناس لايعرفون مقادير الاشياء الابالوزن وقال الحسن وعكرمة وابن زيد انه عنى به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك ممايستخرج من المعادن لان هذه الاشياء كلها توزن وقيل معنى موزون متناسب فى الحسن والهيئة والشكل تقول العرب فلان موزون الحركات اذا كانت حركاته متناسبة حسنة وكلام موزون اذ كان متناسبا حسنا بعيدا من الخطأ والسخف وقيل ان جميع ماينبت فى الارض والجبال نوعان أحدهما مايستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثانى النبات وبعضه موزون أيضا وبعضه مكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ جمع معيشة وهو مايعيش به الانسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس

(والارض مددناها) بسطناها من تحت الكعبة والجمهور على انه تعالى مدها على وجه الماء (وألقينا فيها رواسى) فى الارض جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لاتصلح فيه زيادة ولا نقصان أوله وزن وقدر فى أبواب المنفعة والنعمة أومايوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها وخص مايوزن لانتهاء الكيل الى الوزن (وجعلنا لكم فيها) فى الارض (معايش) مايعاش به من المطاعم جمع معيشة وهى بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ

(والارض مددناها) بسطناها على الماء (وألقينا فيها) على الارض (رواسى) جبالا ثوابت أوتادا لها (وانبتنا فيها) فى الجبال ويقال فى الارض (من كل شئ) من النبات والثمار (موزون) مقدور مقسوم معلوم ويقال من كل شئ موزون يوزن مثل الذهب والفضة والحديد والصفر والرصاص وغير ذلك (وجعلنا) خلقنا (لكم فيها معايش) فى الارض من النبات والثمار وماتأكلون وتشربون وتلبسون

(ومن لستم له برازقين) من فى محل النصب بالعطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين أو جعلنا ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون أنهم يرزقونهم ويخطؤن فان الله هو الرزاق يرزقهم واياهم ويدخل فيه الانعام والدواب ونحو ذلك ولا يجوز أن يكون محل من جرا بالعطف على الضمير المجرور فى لكم لانه لا يعطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار (وان من شئ الا عندنا خزائنه وماننزله الا بقدر معلوم) ذكر الخزائن تمثيل والمعنى ومامن شئ ينتفع به العباد الاونحن قادرون على ايجاده وتكوينه والانعام به ومانعطيه الا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور (وأرسلنا الرياح لواقح) جمع لاقحة أى وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لانها تحمل السحاب فى جوفها كانها لاقحة بها من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم الريح سهزة

وقرئ بالهمزة على التشبيه بشمائل ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ عطف على معايش أو على محل لكم ويريد به العيال والخدم والمماليك وسائر مايظنون انهم يرزقونهم ظنا كاذبا فان الله يرزقهم واياهم وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الارض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الاجزاء فى الوضع محدثة فيها انواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة مع جواز ان لايكون كذلك على كمال قدرته وتناهى حكمته والتفرد فى الالوهية والامتنان على العباد بما انعم عليهم فى ذلك ليوحدوه ويعبدوه ثم بالغ فى ذلك وقال ﴿ وان من شئ الا عندنا خزائنه ﴾ اى ومامن شئ الا ونحن قادرون على ايجاده وتكوينه اضعاف ماوجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره أو شبه مقدوراته بالاشياء المخزونة التى لايحوج اخراجها الى كلفة واجتهاد ﴿ وماننزله ﴾ من بقاع القدرة ﴿ الا بقدر معلوم ﴾ حده الحكمة وتعلقت به المشيئة فان تخصيص بعضها بالايجاد فى بعض الاوقات مشتملا على بعض الصفات والحالات لابدله من مخصص حكيم ﴿ وارسلنا الرياح لواقح ﴾ حوامل شبه الريح التى جاءت بخير من انشاء سحاب ماطر

ونحو ذلك ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ يعنى الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وتكون من فى قوله تعالى ومن لستم بمعنى مالان من لمن يعقل ومالمن لايعقل وقيل يجوز اطلاق لفظة من على من لايعقل كقوله تعالى فمنهم من يمشى على بطنه وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها ويدخل معهم مالايعقل من الدواب والوحش ﴿ وان من شئ الا عندنا خزائنه ﴾ الخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ للحفظ يقال خزن الشئ اذا أحرزه فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل أراد بالخزائن المطر لانه سبب الارزاق والمعايش لبنى آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا انه فى حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره * قوله تعالى ﴿ وماننزله الا بقدر معلوم ﴾ يعنى بقدر الكفاية وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لاتنزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله تعالى وقيل ان المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لايزيد ولاينقص ولكن الله يمطر قوما ويحرم آخرين وقيل اذا أراد الله بقوم خيرا أنزل عليهم المطر والرحمة واذا أراد بقوم شرا صرف المطر عنهم الى حيث لاينتفع به كالبرارى والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك وحكى جعفر بن محمد الصادق عن ابيه عن جده انه قال فى العرش تمثال جميع ماخلق الله فى البر والبحر وهو تأويل قوله وان من شئ الا عندنا خزائنه ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال ابن عباس يعنى للشجر وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى اليها الماء فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه فى السحاب ثم تمريه

(ومن لستم له برازقين) يقول ويرزق من لستم له برازقين يعنى الطير والوحش ويقال الاجنة فى البطون (وان من شئ) ومامن شئ من النبات والثمار والامطار (الا عندنا خزائنه) مفاتيحه يقول بيدنا مفاتيحه لابايديكم (وماننزله) يعنى المطر (الا بقدر معلوم) بكيل ووزن معلوم بعلم الخزان (وأرسلنا الرياح لواقح) تلقح الشجر والسحاب (فتدر)

بالحامل كما شبه مالايكون كذلك بالعقيم أو ملقحات للشجر او السحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات في قوله

ومختبط مماتطيح الطوائح

وقرئ وارسلنا الريح على تأويل الجنس ﴿فانزلنا من السماء ماء﴾ بقدر ﴿فاسقيناكموه﴾ فجعلناه لكم سقيا ﴿وماانتم له بخازنين﴾ قادرين متمكنين من اخراجه نفي عنهم ماأثبته لنفسه أو حافظين في الغدران والعيون والآبار وذلك ايضا يدل على المدبر الحكيم كما تدل حركة الهواء في بعض الاوقات من بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس فان طبيعة الماء تقتضي الغور فوقوفه دون حده لابد له من سبب مخصص ﴿وانا لنحن نحيي﴾ بايجاد الحياة في بعض الاجسام

فتدر كما تدر اللقحة وقال عبيد بن عمير يرسل الله الريح المبشرة فتقم الارض قما ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والاظهر في هذه الآية القاحها السحاب لقوله بعده فأنزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش لاتقطر قطرة من السماء الا بعد أن تعمل الرياح الاربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وقال أبو عبيد لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت الى الاصل وقال الزجاج يجوز أن يقال لها لواقح وان ألقحت غيرها لان معناها النسبة كما يقال درهم وازن أي ذووزن واعترض الواحدي على هذا فقال هذا ليس بمغن لانه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين وأجاب الرازي عنه بأن قال هذا ليس بشئ لان اللاقح هو المنسوب الى اللقحة ومن أفاد غير اللقحة فله نسبة الى اللقحة وقال صاحب المفردات لواقح أي ذات لقاح وقيل ان الريح في نفسها لاقح لانها حاملة للسحاب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى حتى اذا أقلت سحابا ثقالا أي حملت فعلى هذا تكون الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب وقال الزجاج ويجوز أن يقال للريح لقحت اذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم اذا لم تأت بخير وورد في بعض الاخبار أن الملقح رياح الجنوب وفي بعض الآثار ماهبت رياح الجنوب الا وأنبعت عينا غدقة (ق) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني أسالك خيرها وخيرما فيها وخيرما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر مافيها وشرما أرسلت به وروى البغوي بسنده الى الشافعي الى ابن عباس قال ماهبت ريح قط الا جثا النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولاتجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا ولاتجعلها ريحا قال ابن عباس في كتاب الله عز وجل انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فأرسلنا عليهم الريح العقيم وقال وأرسلنا الرياح لواقح وقال يرسل الرياح مبشرات * وقوله سبحانه وتعالى ﴿فأنزلنا من السماء ماء﴾ يعني المطر ﴿فأسقيناكموه﴾ يعني جعلنا لكم المطر سقيا يقال أسقى فلان فلانا اذا جعل له سقيا وسقاه اذا أعطاه مايشرب وتقول العرب سقيت الرجل ماء ولبنا اذا كان لسقيه فاذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته يقال أسقيناه ﴿وما أنتم له﴾ يعني للمطر ﴿بخازنين﴾ يعني أن المطر في خزائننا لا في خزائنكم وقيل وما أنتم له بمانعين ﴿وانا لنحن نحيي

(فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه) فجعلناه لكم سقيا (وما أنتم له بخازنين) نفي عنهم ماأثبته لنفسه في قوله وان من شئ الا عندنا خزائنه كانه قال نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وانزاله منها وماأنتم عليه بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم (وانا لنحن نحيي

(فانزلنا من السماء ماء) مطرا (فاسقيناكموه) في الارض (وماأنتم له) للمطر (بخازنين) بفاتحين (وانا لنحن نحيي) للبعث

القابلة لها ﴿ونميت﴾ بازالتها وقد اول الحياة بما يعم الحيوان والنبات وتكرير الضمير للدلالة على الحصر ﴿ونحن الوارثون﴾ الباقون اذا مات الخلائق كلها ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ من استقدم ولادة وموتا ومن استأخر اومن خرج من اصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة وتأخر لا يخفى علينا شئ من احوالكم وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فانه ما يدل على قدرته دليل على علمه وقيل رغب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت وقيل ان امرأة حسناء كانت

ونميت ﴾ يعنى بيدنا احياء الخلق واماتتهم لا يقدر على ذلك أحد الا الله سبحانه وتعالى لان قوله تعالى وانا لنحن يفيد الحصر يعنى لا يقدر على ذلك سوانا ﴿ونحن الوارثون﴾ وذلك بان نميت جميع الخلق فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك الملا لكين لنا والوارث هو الباقى بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقى بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم فى الحياة الدنيا لان وجود الخلق وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى فاذا فنى جميع الخلائق رجع الذى كانوا يملكونه فى الدنيا على المجاز الى مالكه على الحقيقة وهو الله تعالى وقيل مصير الخلق اليه ﴿ قوله عز وجل ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون فى الصف الاول لئلا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر فاذا ركع نظر من تحت ابطيه فانزل الله عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين أخرجه الترمذى وقال فيه وقد روى عن ابن الجوزى نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون أصح قال البغوى وذلك أن النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم الى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها أخرجه مسلم عن أبى هريرة وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله تعالى بعد وقال مجاهد المستقدمون القرون الاولى والمستأخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن المستقدمون يعنى فى الطاعة والخير والمستأخرون يعنى فيهما وقال الاوزاعى اراد بالمستقدمين المصلين فى أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها الى آخره وقال مقاتل أراد بالمستقدمين والمستأخرين فى صف القتال وقال ابن عيينة أراد من يسلم أولا ومن يسلم آخرا وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم كانت بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا ونشترى دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت هذه الآية ومعناها انما تجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الاول المستقدم للتقوى والمستأخر للنظر وعلى القول الاخير

ونميت) أى نحيي بالايجاد ونميت بالافناء أو نميت عند انقضاء الآجال ونحيي لجزاء الاعمال على التقديم والتأخير اذا لواو للجمع المطلق (ونحن الورثون) الباقون بعد هلاك الخلق كلهم وقيل للباقى وارث استعارة من وارث الميت لانه يبقى بعد فنائه (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الاسلام أو فى الطاعة أو فى صف الجماعة أو صف الحرب ومن تأخر

(ونميت) فى الدنيا (ونحن الوارثون) المالكون على ما فى السموات والارض بعد موت أهلها وقبل موت أهلها (ولقد علمنا المستقدمين منكم) يعنى الاموات من الآباء والامهات ويقال المستقدمين منكم فى الصف الاول (ولقد علمنا المستأخرين) يعنى الاحياء من البنين والبنات ويقال المستأخرين فى الصف الآخر

تصلي خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتقدم بعض القوم لئلا ينظر اليها وتأخر بعض ليبصرها فنزلت ﴿ وان ربك هو يحشرهم ﴾ لا محالة للجزاء وتوسيط الضمير للدلالة على انه القادر والمتولى بحشرهم لا غير وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على ان ماسبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله ﴿ انه حكيم ﴾ باهر الحكمة متقن فى افعاله ﴿ عليم ﴾ وسع علمه كل شئ ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال ﴾ طين يابس يصلصل أى يصوت اذا نقر وقيل هو من صلصل اذا انتن تضعيف صل ﴿ من حمأ ﴾ طين تغير واسود من طول مجاورة الماء وهو صفة صلصال أى كائن من حمأ ﴿ مسنون ﴾ مصور من سنة الوجه أو مصبوب لييبس ويتصور كالجواهر المذابة تصب فى القوالب من السن وهو الصب كأنه افرغ الحمأ فصور منها تمثال انسان اجوف فيبس حتى اذا نقر صلصل ثم غير ذلك طورا بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه أو منتن من سننت الحجر على الحجر اذا حككته فان مايسيل بينهما يكون منتنا ويسمى سنينا ﴿ والجان ﴾ ابا الجن وقيل ابليس ويجوز ان يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان

المستقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر ومعنى الآية ان علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع خلقه متقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه ﴿ وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم ﴾ يعنى على ماعلم منهم وقيل ان الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الاولين والآخرين على ماماتوا عليه (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد على مامات عليه ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان ﴾ يعنى آدم عليه السلام فى قول جميع المفسرين سمى انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسى ﴿ من صلصال ﴾ يعنى من الطين اليابس الذى اذا نقرته سمعت له صلصلة يعنى صوتا وقال ابن عباس هو الطين الحر الطيب الذى اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائى وقال هو من صل اللحم اذا أنتن ﴿ من حمأ ﴾ يعنى من الطين الاسود ﴿ مسنون ﴾ أى متغير قال مجاهد وقتادة هو المنتن المتغير وقال أبو عبيدة هو المصبوب تقول العرب سننت الماء اذا صببته قال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار والجمع بين هذه الاقاويل على ماذكره بعضهم ان الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتن ريحها وتغيرت واليه الاشارة بقوله ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء وخمره حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله من حمأ مسنون ثم ذلك الطين الاسود المتغير صوره صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعنى صوتا واليه الاشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس اذا تفخر فى الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا ❁ قوله تعالى ﴿ والجان

(وان ربك هو يحشرهم) أى هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم (انه حكيم عليم) باهر الحكمة واسع العلم (ولقد خلقنا الانسان) اى آدم (من صلصال) طين يابس غير مطبوخ (من حمأ) صفة لصلصال أى خلقه من صلصال كائن من حمأ أى طين أسود متغير (مسنون) مصور وفى الاول كان ترابا فعجن بالماء فصار طينا فمكث فصار حمأ فخاص فصار سلالة فصور ويبس فصار صلصالا فلا تناقض (والجان) أبا الجن كآدم للناس أو هو ابليس وهو منصوب بفعل مضمر يفسره

(وان ربك هو يحشرهم) الاولين والآخرين (انه حكيم) حكم عليهم بالحشر (عليم) بحشرهم وبثوابهم وعقابهم (ولقد خلقنا الانسان) يعنى آدم (من صلصال) من طين يتصلصل (من حمأ) من طين (مسنون) منتن ويقال مصور (والجان) أبا الجن

لان تشعب الجنس لما كان من شخص واحد خلق من مادة واحدة كان الجنس باسره مخلوقا منها وانتصابه بفعل يفسره قوله ﴿ خلقناه من قبل ﴾ من قبل خلق الانسان ﴿ من نار السموم ﴾ من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا يمتنع خلق الحياة فى الاجرام البسيطة كما لا يمتنع خلقها فى الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التى الغالب فيها الجزء النارى فانها اقبل لها من التى الغالب فيها الجزء الارضى وقوله من نار باعتبار الغالب كقوله خلقكم من تراب ومساق الآية كما هو للدلالة على كمال قدرة الله وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحياء ﴿ واذ قال ربك ﴾ واذكر وقت قوله ﴿ للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ﴾ عدلت خلقته وهيأته لنفخ الروح فيه ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ حتى جرى آثاره فى تجاويف اعضائه فحيي واصل النفخ

خلقناه من قبل ﴾ يعنى من قبل آدم عليه السلام قال ابن عباس الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر وقال قتادة هو ابليس وقيل الجان أبو الجن وابليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبنى آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا استتر والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر ﴿ من نار السموم ﴾ يعنى من ريح حارة تدخل مسام الانسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله ويقال للريح الحارة التى تكون بالنار السموم وللريح الحارة التى تكون بالليل الحرور وقال أبو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهى نار بين السماء والحجاب فاذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة ان الكرة الرابعة تسمى كرة النار وقيل من نار السموم يعنى من نار جهنم وقال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق منها الجان وتلا هذه الآية وقال ابن عباس كان ابليس من حى من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور ﴿ قوله عز وجل ﴿ واذ قال ربك للملائكة ﴾ أى واذكر يا محمد اذ قال ربك للملائكة ﴿ انى خالق بشرا ﴾ سمى الآدمى بشرا لانه جسم كثيف ظاهر والبشرة ظاهر الجلد ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ تقدم تفسيره ﴿ فاذا سويته ﴾ يعنى عدلت صورته وأتممت خلقه ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ النفخ عبارة عن اجراء الريح فى تجاويف جسم آخر ومنه نفخ الروح فى النشأة الاولى وهو المراد من قوله ونفخت فيه من روحى وأضاف الله عز وجل روح آدم الى نفسه على سبيل التشريف والتكريم لها كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتى

(خلقناه من قبل) من قبل آدم (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ فى المسام قيل هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التى خلق الله منها الجان (واذ قال ربك) واذكر وقت قوله (للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته) أتممت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها (ونفخت فيه من روحى) وجعلت فيه الروح وأحييته وليس ثمت نفخ وانما هو تمثيل والاضافة للتخصيص

(خلقناه من قبل) من قبل آدم عليه السلام (من نار السموم) من نار لا دخان لها (واذ قال) وقد قال (ربك للملائكة) الذين كانوا فى الارض وهم كانوا عشرة آلاف (انى خالق) اخلق (بشرا من صلصال) من طين يتصلصل (من حمأ مسنون) من طين منتن (فاذا سويته) سويت خلقه باليدين والرجلين والعينين وغير ذلك (ونفخت فيه من روحى)

(فقعوا له ساجدين) هو أمر من وقع يقع أي اسقطوا على الارض يعنى اسجدوا له ودخل الفاء لانه جواب اذا وهو دليل على أنه يجوز تقدم الامر عن وقت الفعل (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله كلهم وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله أجمعون (الا ابليس) ظاهر الاستثناء يدل على أنه كان من الملائكة لان المستثنى يكون من جنس المستثنى منه وعن الحسن ان الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة قلنا غير المأمور لايصير بالترك ملعونا وقال فى الكشاف كان بينهم مأمورا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب كقولك رأيتهم الا هندا (أبى أن يكون مع الساجدين) امتنع أن يكون معهم وأبى استئناف على تقدير قول قائل يقول هلا سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه وقيل معناه ولكن ابليس أبى (قال ياابليس مالك ألاتكون مع الساجدين) حرف الجر مع أن محذوف تقديره مالك فى أن لاتكون مع الساجدين أى أى غرض لك فى ابائك السجود (قال لم أكن لأسجد) اللام لتأكيد النفى أى لايصح منى أن أسجد (لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون

اجراء الريح فى تجويف جسم آخر ولما كان الروح يتعلق اولا بالبخار اللطيف المنبعث من القلب وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسرى حاملا لها فى تجاويف الشرايين الى اعماق البدن جعل تعلقه بالبدن نفخا واضافة الروح الى نفسه كما مر فى سورة النساء ﴿ فقعوا له ﴾ فاسقطوا له ﴿ ساجدين ﴾ امر من وقع يقع ﴿ فسجد الملائكة كلهم اجمعون ﴾ اكد بتأكيدين للمبالغة فى التعميم ومنع التخصيص وقيل اكد بكل للاحاطة وباجمعين للدلالة على انهم سجدوا مجتمعين دفعة وفيه نظر اذ لو كان الامر كذلك كان الثانى حالا لاتأكيدا ﴿ الا ابليس ﴾ ان جعل منقطعا اتصل به قوله ﴿ ابى ان يكون مع الساجدين ﴾ أى ولكن ابليس ابى وان جعل متصلا كان استئنافا على انه جواب سائل قال هلا سجد ﴿ قال يا ابليس مالك ألاتكون ﴾ أى غرض لك فى ان لاتكون ﴿ مع الساجدين ﴾ لآدم ﴿ قال لم اكن لأسجد ﴾ اللام لتأكيد النفى أى لايصح منى وينافى حالى ان اسجد ﴿ لبشر ﴾ جسمانى كثيف وانا ملك روحانى ﴿ خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ وهو اخس العناصر وخلقتنى من نار وهى اشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والاصل وقد سبق الجواب عنه فى سورة الاعراف

الكلام على الروح فى تفسير سورة الاسراء عند قوله ويسئلونك عن الروح ان شاء الله تعالى ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ الخطاب للملائكة الذين قال الله لهم انى خالق بشرا أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين وكان هذا السجود سجود تحية لاسجود عبادة ﴿ فسجد الملائكة كلهم ﴾ يعنى الذين أمروا بالسجود لآدم ﴿ أجمعون ﴾ قال سيبويه هذا توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم ازالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا انهم سجدوا باسرهم ثم عند هذا بقى احتمال آخر وهو انهم سجدوا فى أوقات متفرقة أو فى دفعة واحدة فلما قال أجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال وقول الخليل وسيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلاتكون حالا روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة بالسجود لآدم فلم يفعلوا فارسل الله عليهم نارا فاحرقتهم ثم قال لجماعة أخرى اسجدوا لآدم فسجدوا ﴿ الا ابليس ابى ان يكون مع الساجدين ﴾ يعنى مع الملائكة الذين امروا بالسجود لآدم فسجدوا ﴿ قال ﴾ يعنى قال الله ﴿ ياابليس مالك ألاتكون مع الساجدين قال ﴾ يعنى ابليس ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ أراد ابليس انه أفضل من آدم لان آدم طينى الاصل وابليس نارى الاصل والنار أفضل من الطين فيكون ابليس فى قياسه أفضل من آدم ولم يدر الخبيث ان الفضل فيما

جعلت الروح فيه (فقعوا له) فخروا له (ساجدين) بالتحية (فسجد الملائكة) لآدم صلوات الله عليه (كلهم أجمعون الا ابليس) رئيسهم (أبى) (قا و خا ٧١ لث) تعظم (ان يكون مع الساجدين) بالسجود لآدم عليه السلام (قال) الله تعالى (ياابليس) ياآيس من رحمتى (مالك ألاتكون مع الساجدين) بالسجود لآدم (قال لم اكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال) من طين يتصلصل (من حمأ مسنون) من طين منتن يقول لاينبغى لى ان اسجد للطين

قال فاخرج منها) من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة (فانك رجيم) مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون لان اللعنة هو الطرد

من الرحمة والابعاد منها (وان عليك اللعنة الى يوم الدين) ضرب يوم الدين حد اللعنة لانه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به انك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والارض الى يوم الدين من غير أن تعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه (قال رب فانظرني) فاخرني (الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة وقيل انما سأل الانظار الى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت لانه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب الى ذلك وانظر الى آخر أيام التكليف (قال رب بما أغويتني) الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم لازينن لهم والمعنى أقسم

﴿قال فاخرج منها﴾ من السماء أو الجنة أو زمر الملائكة ﴿فانك رجيم﴾ مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته ﴿وان عليك اللعنة﴾ هذا الطرد والابعاد ﴿الى يوم الدين﴾ فانه منتهى امد اللعن فانه يناسب ايام التكليف ومنه زمان الجزاء وما في قوله فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين بمعنى آخر ينسى عنده هذه وقيل انما حد اللعن به لانه ابعد غاية يضربها الناس أو لانه يعذب فيه بما ينسى اللعن معه فيصير كالزائل ﴿قال رب فانظرني﴾ فاخرني والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم ﴿الى يوم يبعثون﴾ اراد ان يجد فسحة في الاغواء او نجاة من الموت اذ لا موت بعد وقت البعث فاجابه الى الاول دون الثاني ﴿قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم﴾ المسمى فيه اجلك عند الله أو انقراض الناس كلهم وهو النفخة الاولى عند الجمهور ويجوز ان يكون المراد بالايام الثلاثة يوم القيامة واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات فعبر عنه اولا بيوم الجزاء لما عرفته وثانيا بيوم البعث اذ به يحصل العلم بانقطاع التكليف واليأس عن التضليل وثالثا بالمعلوم لوقوعه في الكلامين ولا يلزم من ذلك ان لا يموت فلعله يموت اول اليوم ويبعث الخلائق في تضاعيفه وهذه المخاطبة وان لم تكن بواسطة لم تدل على علو منصب ابليس لان خطاب الله تعالى له على سبيل الاهانة والاذلال ﴿قال رب بما اغويتني﴾ الباء للقسم وما مصدرية وجوابه

فضله الله تعالى ﴿قال فاخرج منها﴾ يعني من الجنة وقيل من السماء ﴿فانك رجيم﴾ أي طريد ﴿وان عليك اللعنة الى يوم الدين﴾ قيل ان أهل السموات يلعنون ابليس كما يلعنه أهل الارض فهو ملعون في السماء والارض * فان قلت ان حرف الى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذي هو يوم القيامة * قلت لا بل يزداد عذابا الى اللعنة التي عليه كانه قال تعالى وان عليك اللعنة فقط الى يوم الدين ثم تزداد معها بعد ذلك عذابا دائما مستويا لا انقطاع له ﴿قال رب فانظرني﴾ يعني أخرني ﴿الى يوم يبعثون﴾ يعني يوم القيامة وأراد بهذا السؤال انه لا يموت أبدا لانه اذا أمهل الى يوم القيامة ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك انه لا يموت أبدا فلهذا السبب سأل الانظار الى يوم يبعثون فاجابه الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم﴾ يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الاولى فيقال ان مدة موت ابليس أربعون سنة وهو ما بين النفختين ولم تكن اجابة الله تعالى اياه في الامهال اكراما له بل كان ذلك الامهال زيادة له في بلائه وشقائه وعذابه وانما سمي يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم لان ذلك اليوم لا يعلمه أحد الا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل لان جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل ابليس الانظار الى يوم يبعثون أجابه الله بقوله فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم يعني اليوم الذي عينت وسألت الانظار اليه ﴿قال رب بما أغويتني﴾

(قال) الله له (فاخرج منها) من صورة الملائكة ويقال من كرامتي ورحمتي ويقال من الارض (فانك رجيم) ملعون مطرود من رحمتي (وان عليك اللعنة) لعنتي ولعنة الملائكة والخلائق (الى يوم الدين) يوم الحساب
(قال) ابليس (رب) يارب (فأنظرني) فأجلني (الى يوم يبعثون) من القبور أراد الملعون أن لا يذوق الموت (الباء)
(قال) الله (فانك من المنظرين) من المؤجلين (الى يوم الوقت المعلوم) النفخة الاولى (قال رب) يارب (بما أغويتني)

باغوائك اياى (لأزينن لهم) المعاصى ونحو قوله بما أغويتنى لازينن لهم فبعزتك لاغوينهم فى أنه اقسام الا أن أحدهما أقسام بصفة الذات والثانى بصفة الفعل وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين والاصح ان الايمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا وما لا فلا والآية حجة على المعتزلة فى خلق الافعال وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر (فى الارض) فى الدنيا التى هى دار الغرور وارادانى أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الاكل من الشجرة وهو فى السماء فانا على التزيين لاولاده فى الارض أقدر (ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وبكسر اللام بصرى ومكى وشامى استثنى المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه (قال هذا صراط على مستقيم

﴿لأزينن لهم فى الارض﴾ والمعنى اقسم باغوائك اياى لأزينن لهم المعاصى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله اخلد الى الارض وفى انعقاد القسم بافعال الله تعالى خلاف وقيل للسببية والمعتزلة اولوا الاغواء بالنسبة الى الغى أو التسبب له بامره اياه بالسجود لآدم عليه السلام أو بالاضلال عن طريق الجنة واعتذروا عن امهال الله تعالى له وهو سبب لزيادة غيه وتسليطه له على اغواء بنى آدم بان الله تعالى علم منه وممن تبعه انهم يموتون على الكفر ويصيرون الى النار امهل أولم يمهل وان فى امهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب وضعف ذلك لا يخفى على ذوى الالباب ﴿ولأغوينهم اجمعين﴾ ولأحملنهم اجمعين على الغواية * ﴿الا عبادك منهم المخلصين﴾ الذين اخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى * وقرأ ابن كثير وابن عامر وابو عمرو بالكسر فى كل القرآن أى الذين اخلصوا نفوسهم لله ﴿قال هذا صراط على﴾ حق على ان اراعيه ﴿مستقيم﴾ لا انحراف عنه والاشارة الى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه أو الاخلاص على معنى انه طريق على يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال

الباء للقسم فى قوله بما وما مصدرية وجواب القسم ﴿لأزينن﴾ والمعنى فباغوائك اياى لازينن لهم فى الارض وقيل هى باء السبب يعنى بسبب كونى غاويا لأزينن ﴿لهم فى الارض﴾ يعنى لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ يعنى بالقاء الوسوسة فى قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر واغوائهم ثم استثنى فقال ﴿الا عبادك منهم المخلصين﴾ يعنى المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى الا من اخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الاخلاص فعل الشئ خالصا لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلا يخلو اما أن يكون مراده بتلك الطاعة وجه الله فقط أو غير الله أو مجموع الامرين أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول وأما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود وأما من كان مراده مجموع الامرين فان ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجين وان ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لان المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد والى أى الجانبين رجح أخذ به ﴿قال﴾ يعنى قال الله تبارك وتعالى ﴿هذا صراط على مستقيم﴾ قال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج الى شئ وقال الاخفش معناه على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائى هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أى لا تنفلت منى وقيل معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية وقيل هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق

كما أضللتنى عن الهدى (لأزينن لهم) لبنى آدم (فى الارض) الشهوات واللذات (ولأغوينهم) لأضلنهم (أجمعين) عن الهدى (الا عبادك منهم المخلصين) المعصومين منى ويقال الموحدين ان قرأت بكسر اللام ثم (قال) الله تعالى (هذا صراط على مستقيم) كريم شريف ويقال على ممر من أطاعك وممر من دخل معك ويقال هذا صراط طريق مستقيم قائم يرضاه وهو الاسلام ويقال هذا صراط على رفيع ان قرأت بكسر اللام ورفع الياء

وقرئ على من علو الشرف ﴿ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين﴾ تصديق لابليس فيما استثناه وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين ولان المقصود بيان عصمتهم وانقطاع مخالب الشيطان عنهم أوتكذيب له فيما اوهم ان له سلطانا على من ليس بمخلص من عباده فان منتهى تزيينه التحريض والتدليس كما قال وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعا وعلى الاول يدفع قول من شرط ان يكون المستثنى اقل من الباقى لافضائه الى تناقض الاستثناءين ﴿وان جهنم لموعدهم﴾ لموعد الغاوين أوالمتبعين ﴿اجمعين﴾ تأكيد للضمير أوحال والعامل فيها الموعد أن جعلته مصدرا على تقدير مضاف ومعنى الاضافة ان جعلته اسم مكان فان لايعمل ﴿لها سبعة ابواب﴾ يدخلون فيها لكثرتهم أوطبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ولعل تخصيص العدد لانحصار مجامع المهلكات فى الركون الى المحسوسات ومتابعة القوة الشهوية والغضبية أولان اهلها سبع فرق ﴿لكل باب منهم﴾ من الاتباع ﴿جزء مقسوم﴾ افرز له فاعلاها للموحدين العصاة والثانى لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين* وقرأ ابوبكر جزؤ بالتثقيل* وقرئ جزعلى حذف الهمزة والقاء حركتها على الزاء ثم الوقف عليه بالتشديد ثم اجراء الوصل مجرى الوقف ومنهم حال منه أومن المستكن فى الظرف لافى مقسوم لان الصفة لاتعمل فيما تقدم موصوفها

على والى يؤدى الى كرامتى ورضوانى ﴿ان عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ أى قوة وقدرة وذلك ان ابليس لما قال لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الاعبادك منهم المخلصين أوهم بهذا الكلام ان له سلطانا على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى انه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين أولم يكن من المخلصين قال أهل المعانى ليس لك سلطان على قلوبهم وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان ان تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وهؤلاء خاصته أى الذين هداهم واجتباهم من عباده ﴿الامن اتبعك من الغاوين﴾ يعنى الامن اتبع ابليس من الغاوين فان له عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به ﴿وان جهنم لموعدهم أجمعين﴾ يعنى موعد ابليس وأشياعه وأتباعه ﴿لها﴾ يعنى لجهنم ﴿سبعة أبواب﴾ يعنى سبع طبقات قال على بن أبى طالب تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ﴿لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ يعنى لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشئ وجزأنه جعلته أجزاء والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يجزئ اتباع ابليس سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم دركة من النار والسبب فيه

ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) أى هذا طريق حق على أن أراعيه وهو أن لايكون لك سلطان على عبادى الامن اختار اتباعك منهم لغوايته وقيل معنى على الى على يعقوب من علو الشرف والفضل (وان جهنم لموعدهم اجمعين) الضمير للغاوين (لها سبعة أبواب لكل باب منهم) من اتباع ابليس (جزء مقسوم) نصيب معلوم مفرز قيل أبواب النار اطباقها وادراكها فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون والثانى لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين

(ان عبادى) المؤمنين (ليس لك عليهم سلطان) ملك ولا مقدرة (الامن اتبعك) الاعلى من أطاعك (من الغاوين) من الكافرين (وان جهنم لموعدهم) مصيرهم ممن أطاعك (أجمعين لها سبعة أبواب) بعضها اسفل من بعض أعلاها جهنم وأسفلها الهاوية (لكل باب منهم) من الكفار (جزء مقسوم)

(ان المتقين في جنات وعيون) وبضم العين مدني وبصري وحفص المتقي على الاطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه وقال في الشرح ان دخل أهل الكبائر في

فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر والا فالمراد به الذين اتقوا الشرك (ادخلوها) أي يقال لهم ادخلوها (بسلام) حال أي سالمين أو مسلما عليكم تسلم عليكم الملائكة (آمنين) من الخروج منها والآفات فيها وهو حال أخرى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) وهو الحقد الكامن في القلب أي ان كان لاحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن علي رضي الله عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم وقيل معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحابب (اخوانا) حال (على سرر

﴿ان المتقين﴾ من اتباعه في الكفر والفواحش فان غيرها مكفرة ﴿في جنات وعيون﴾ لكل واحد جنة وعين أو لكل عدة منهما كقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قوله ومن دونهما جنتان وقوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن الآية* وقرأ نافع وحفص وابو عمرو وهشام وعيون بضم العين حيث وقع والباقون بكسر العين ﴿ادخلوها﴾ على ارادة القول* وقرئ بقطع الهمزة وكسر الخاء على انه ماض فلا يكسر التنوين ﴿بسلام﴾ سالمين أو مسلما عليكم ﴿آمنين﴾ من الآفات والزوال ﴿ونزعنا﴾ في الدنيا بما الف بين قلوبهم أو في الجنة بتطييب نفوسهم ﴿ما في صدورهم من غل﴾ من حقد كان في الدنيا وعن علي رضي الله تعالى عنه ارجو ان اكون انا وعثمان وطلحة والزبير منهم أو من التحاسد على درجات الجنة ومراتب القرب ﴿اخوانا﴾ حال من ضمير في جنات أو فاعل ادخلوها أو الضمير في آمنين أو الضمير المضاف اليه والعامل فيها معنى الاضافة وكذا قوله ﴿على سرر

ان مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار قال الضحاك في الدركة الاولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها وفي الثانية النصارى وفي الثالثة اليهود وفي الرابعة الصابئون وفي الخامسة المجوس وفي السادسة أهل الشرك وفي السابعة المنافقون فذلك قوله سبحانه وتعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار * عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الترمذي وقال حديث غريب * قوله سبحانه وتعالى ﴿ان المتقين في جنات وعيون﴾ المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك في قول جمهور المفسرين وقيل هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والجنات البساتين والعيون الانهار الجارية في الجنات وقيل يحتمل أن تكون هذه العيون غير الانهار الكبار التي في الجنة وعلى هذا فهل يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون أو تجري هذه العيون من بعضهم الى بعض وكلا الامرين محتمل فيحتمل ان كل واحد من أهل الجنة يختص بعيون تجري في جناته وقصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ويحتمل انها تجري من جنات بعضهم الى جنات بعض لانهم قد طهروا من الحسد والحقد ﴿ادخلوها﴾ أي يقال لهم ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته ﴿بسلام آمنين﴾ يعني ادخلوا الجنة مع السلامة والامن من الموت ومن جميع الآفات ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ الغل الحقد الكامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد وكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لانها كامنة في القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد ﴿اخوانا﴾ يعني في المحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه اخوة النسب ﴿على سرر﴾

حظ معلوم (ان المتقين) الكفر والشرك والفواحش يعني أبا بكر وعمر وأصحابهما (في جنات) في بساتين (وعيون) ماء طاهر (ادخلوها) يقول الله تعالى لهم يوم القيامة ادخلوا الجنة (بسلام) مع سلام وتحية ويقال بسلامة ونجاة منا (آمنين) من الموت والزوال (ونزعنا) أخرجنا (ما في صدوهم من غل) غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا (اخوانا) في الآخرة (على سرر

متقابلين ﴿ ويجوز ان يكونا صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لانه بمعنى متصافين وان يكون متقابلين حالا من المستقر فى على سرر ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير فى متقابلين ﴿ وماهم منها بمخرجين ﴾ فان تمام النعمة بالخلود ﴿ نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم ﴾ فذلكة ماسبق من الوعد والوعيد وتقرير له وفى ذكر المغفرة دليل على انه لم يرد بالمتقين من تقى الذنوب باسرها كبيرها وصغيرها وفى توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده وفى عطف

جمع سرير قال بعض أهل المعانى السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور وقال ابن عباس على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء الى الجابية ﴿ متقابلين ﴾ يعنى يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحدهم فى قفا صاحبه وفى بعض الاخبار ان المؤمن فى الجنة اذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما الى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان ﴿ لا يمسهم فيها ﴾ يعنى فى الجنة ﴿ نصب ﴾ أى تعب ولا اعياء ﴿ وماهم منها ﴾ يعنى من الجنة ﴿ بمخرجين ﴾ هذا نص من الله فى كتابه على خلود أهل الجنة فى الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان ۞ قوله سبحانه وتعالى ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ قال ابن عباس يعنى لمن تاب منهم وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال يقول لك ربك يا محمد لم تقنط عبادى ذكره البغوى بغير سند ﴿ وأن عذابى هو العذاب الاليم ﴾ قال قتادة بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه يعنى لقتل نفسه (خ) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك عنده تسعا وتسعين رحمة وادخل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار * وفى الآية لطائف * منها انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادى وهذا تشريف وتعظيم لهم ألا ترى انه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحان الذى أسرى بعبده ليلا فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل فى هذا التشريف العظيم * ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بالفاظ ثلاثة أولها قوله أنى وثانيها انا وثالثها ادخال الف واللام فى الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابى هو العذاب الاليم على سبيل الاخبار * ومنها انه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى

متقابلين) كذلك قيل تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون فى جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضا (لا يمسهم فيها نصب) فى الجنة تعب (وماهم منها بمخرجين) فتمام النعمة بالخلود ولما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم) تقريرا لما ذكر وتمكينا له فى النفوس قال عليه السلام لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه فى العبادة ولما أقدم على ذنب وعطف

متقابلين) فى الزيارة (لا يمسهم فيها) لا يصيبهم فى الجنة (نصب) تعب ولا مشقة (وماهم منها) من الجنة (بمخرجين نبئ عبادى) خبر عبادى (أنى انا الغفور) المتجاوز (الرحيم) لمن مات على التوبة (وأن عذابى هو العذاب الاليم) الوجيع لمن لم يتب ومات على الكفر

(ونبئهم) على نبي عبادي وأخبر أمتك ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده ان عذابه هو العذاب الاليم (عن ضيف ابراهيم) أي أضيافه وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكا والضيف يجيء واحدا وجمعا لانه مصدر ضافه (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أي نسلم عليك سلاما أو سلمنا سلاما (قال) أي ابراهيم (انا منكم وجلون) خائفون لامتناعهم

من الاكل أو لدخولهم بغير اذن وبغير وقت (قالوا لا توجل) لا تخف (انا نبشرك) استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل أي انك مبشر آمن فلا توجل وبالتخفيف وفتح النون حمزة (بغلام عليم) هو اسحق لقوله في سورة هود فبشرناها باسحق (قال أبشرتموني على أن مسني الكبر) أي أبشرتموني مع مس الكبر بان يولد لي أي ان الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر (فبم تبشرون) هي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قيل فبأي أعجوبة تبشرون وبكسر النون والتشديد مكي والاصل تبشرونني فادغم نون الجمع في نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلا عليها تبشرون بالتخفيف نافع والاصل تبشرونني فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين والباقون بفتح النون وحذف المفعول والنون نون الجمع (قالوا بشرناك بالحق) باليقين

﴿ ونبئهم عن ضيف ابراهيم ﴾ على نبيء عبادي تحقيق لهما بما يعتبرون به ﴿ اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ﴾ أي نسلم عليك سلاما أو سلمنا سلاما ﴿ قال انا منكم وجلون ﴾ خائفون وذلك لانهم دخلوا بغير اذن وبغير وقت أو لانهم امتنعوا من الاكل والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره ﴿ قالوا لا توجل ﴾ وقرئ لا تأجل ولا توجل من اوجله ولا تواجل من واجله بمعنى اوجله ﴿ انا نبشرك ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل فان المبشر لا يخاف منه * وقرأ حمزة نبشرك من البشر ﴿ بغلام ﴾ هو اسحق عليه السلام لقوله فبشرناها باسحق ﴿ عليم ﴾ اذا بلغ ﴿ قال أبشرتموني على ان مسني الكبر ﴾ تعجب من ان يولد له مع مس الكبر اياه أو انكار لان يبشر به في مثل هذه الحالة وكذلك قوله ﴿ فبم تبشرون ﴾ أي فبأي اعجوبة تبشروني أي فبأي شيء تبشروني فان البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء * وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة في كل القرآن على ادغام نون الجمع في نون الوقاية * وقرأ نافع بكسرها مخففة على حذف نون الجمع استثقالا لاجتماع المثلين ودلالة بابقاء نون الوقاية على الياء ﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾

التزام المغفرة والرحمة * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ونبئهم عن ضيف ابراهيم ﴾ هذا معطوف على ما قبله أي وأخبر يا محمد عبادي عن ضيف ابراهيم وأصل الضيف الميل يقال ضفت الى كذا اذا ملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة في القرى وأصل الضيف مصدر ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف ابراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليبشروا ابراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط ﴿ اذ دخلوا عليه ﴾ يعني اذ دخل الاضياف على ابراهيم عليه السلام ﴿ فقالوا سلاما ﴾ أي نسلم سلاما ﴿ قال ﴾ يعني ابراهيم ﴿ انا منكم وجلون ﴾ أي خائفون وانما خاف ابراهيم منهم لانهم لم يأكلوا طعامه ﴿ قالوا لا توجل ﴾ يعني لا تخف ﴿ انا نبشرك بغلام عليم ﴾ يعني أنهم بشروه بولد ذكر غلام في صغره عليم في كبره وقيل عليم بالاحكام والشرائع والمراد به اسحق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب ابراهيم من كبره وكبر امرأته ﴿ قال أبشرتموني ﴾ يعني بالولد ﴿ على أن مسني الكبر ﴾ يعني على حالة الكبر قاله على طريق التعجب ﴿ فبم تبشرون ﴾ يعني فبأي شيء تبشرون وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد على الكبر ﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ يعني بالصدق الذي قضاه الله بان يخرج منك ولدا ذكرا

(ونبئهم) أخبرهم (عن ضيف ابراهيم) عن أضياف ابراهيم جبريل واثني عشر ملكا معه (اذ دخلوا عليه) على ابراهيم (فقالوا سلاما) سلموا عليه (قال) لهم ابراهيم حين لم يطعموا من طعامه (انا منكم وجلون) خائفون (قالوا لا توجل) لا تفرق يا ابراهيم منا (انا نبشرك بغلام) بولد (عليم) في صغره حليم في كبره (قال أبشرتموني) بالولد (على أن مسني الكبر) بعدما أصابني الكبر (فبم تبشرون) فبأي شيء تبشرون الآن (قالوا بشرناك الحق) بالولد

الذى لالبس فيه (فلاتكن من القانطين) من الآيسين من ذلك (قال) ابراهيم (ومن يقنط) وبكسر النون بصرى وعلى (من رحمة ربه الاالضالون) الاالمخطئون طريق الصواب أوالاالكافرون كقوله انه لاييأس من روح الله الاالقوم الكافرون أى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ولكن استبعادا له فى العادة التى أجراها (قال فما خطبكم) فماشأنكم (أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين)

أى قوم لوط (الاآل لوط) يريد أهله المؤمنين والاستثناء منقطع لان القوم موصوفون بالاجرام والمستثنى ليس كذلك أومتصل فيكون استثناء من الضمير فى مجرمين كانه قيل الى قوم قد أجرموا كلهم الاآل لوط وحدهم والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين لان آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الارسال يعنى انهم أرسلوا الى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا الى آل لوط أصلا ومعنى ارسالهم الى القوم المجرمين كارسال السهم الى المرمى فى انه فى معنى التعذيب والاهلاك كانه قيل انا أهلكنا قوما مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم وأمافى المتصل فهم داخلون فى حكم الارسال يعنى ان الملائكة أرسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء واذا انقطع الاستثناء جرى (انالمنجوهم أجمعين) مجرى

بمايكون لامحالة أوباليقين الذى لالبس فيه أوبطريقة هى حق وهوقول الله تعالى وامره ﴿ فلاتكن من القانطين ﴾ من الآيسين من ذلك فانه تعالى قادر على ان يخلق بشرا من غير ابوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وكان استعجال ابرهيم صلوات الله عليه باعتبار العادة دون القدرة ولذلك ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه الاالضالون ﴾ المخطئون طريق المعرفة فلايعرفون سعة رحمة الله وكمال علمه وقدرته كماقال لاييأس من روح الله الاالقول الكافرون. وقرأ ابوعمرو والكسائى نقنط بالكسر. وقرئ بالضم وماضيهما قنط بالفتح ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ أى فما شأنكم الذى ارسلتم لاجله سوى البشارة ولعله علم ان كمال المقصود ليس البشارة لانهم كانوا عددا والبشارة لاتحتاج الى العدد ولذلك اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم عليهما السلام أولانهم بشروه فى تضاعف الحال لازالة الوجل ولوكانت تمام المقصود لابتدأوا بها ﴿ قالوا أنا ارسلنا الى قوم مجرمين ﴾ يعنى قوم لوط ﴿ الاآل لوط ﴾ ان كان استثناء من قوم كان منقطعا اذ القوم مقيد بالاجرام وان كان استثناء من الضمير فى مجرمين كان متصلا والقوم والارسال شاملين للمجرمين وآل لوط المؤمنين به. وكان المعنى انا ارسلنا الى قوم اجرم كلهم الاآل لوط منه لنهلك المجرمين وننجى آل لوط ويدل عليه قوله ﴿ انا لمنجوهم اجمعين ﴾ أى مما يعذب به القوم وهو استئناف اذا اتصل الاستثناء ومتصل

تكثر ذريته وهو اسحق ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ يعنى فلا تكن من الآيسين من الخير والقنوط هو الاياس من الخير ﴿ قال ﴾ يعنى ابراهيم ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه الاالضالون ﴾ يعنى من ييأس من رحمة ربه الاالمكذبون وفيه دليل على ان ابراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة ان به قنوطا فنفى ذلك عن نفسه وأخبر ان القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لان القنوط من رحمة الله كبيرة كالامن من مكر الله ولايحصل الاعند من يجهل كون الله تعالى قادرا على مايريد ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات فكل هذه الامور سبب للضلالة ﴿ قال ﴾ يعنى ابراهيم ﴿ فما خطبكم ﴾ يعنى فماشأنكم وما الامر الذى جئتم فيه ﴿ أيها المرسلون ﴾ والمعنى ما الامر الذى جئتم به سوى مابشرتمونى به من الولد ﴿ قالوا ﴾ يعنى الملائكة ﴿ انا أرسلنا الى قوم مجرمين ﴾ يعنى لهلاك قوم مجرمين ﴿ الاآل لوط ﴾ يعنى أشياعه وأتباعه من أهل دينه ﴿ انالمنجوهم أجمعين

(فلاتكن من القانطين) من الآيسين من الولد (قال) ابراهيم (ومن يقنط) ييئس (من رحمة ربه الاالضالون) الكافرون بالله أوبنعمته (قال) ابراهيم لجبريل واعوانه (فماخطبكم) فماشأنكم وبما ذا جئتم (أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) مشركين اجترموا الهلاك على أنفسهم بعملهم الخبيث يعنون قوم لوط (الا آل لوط) ابنتيه زاعورا وريثا وامرأته الصالحة (انالمنجوهم) من الهلاك (أجمعين

خبر لكن في الاتصال بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجون واذا اتصل كان كلاما مستأنفا كان ابراهيم عليه السلام قال لهم فما حال آل لوط فقالوا انا لمنجوهم (الا امرأته) مستثنى من الضمير المجرور في لمنجوهم وليس باستثناء من الاستثناء لان الاستثناء من الاستثناء انما يكون فيما اتحد الحكم فيه بان يقول أهلكناهم الا آل لوط الا امرأته وهنا قد اختلف الحكمان لان الا آل لوط متعلق بارسلنا أو بمجرمين والا امرأته متعلق بمنجوهم فكيف يكون استثناء من استثناء لمنجوهم بالتخفيف حمزة وعلى (قدرنا) وبالتخفيف أبو بكر

بآل لوط جار مجرى خبر لكن اذا انقطع وعلى هذا جاز ان يكون قوله ﴿ الا امرأته ﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الاول لا يكون الا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا ٭ وقرأ حمزة والكسائي لمنجوهم مخففا ﴿ قدرنا انها لمن الغابرين ﴾ الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرأ ابو بكر عن عاصم قدرنا ههنا وفي النمل بالتخفيف وانما علق والتعليق من خواص افعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز ان يكون قدرنا اجري مجرى قلنا لان التقدير بمعنى القضاء قول واصله جعل الشئ على مقدار غيره واسنادهم اياه الى انفسهم وهو فعل الله تعالى لما لهم من القرب والاختصاص به ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون ﴾ تنكركم نفسي وتنفر عنكم مخافة ان تطرقوني بشر ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أي ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل جئناك بما يسرك ويشفي لك من عدوك وهو العذاب الذي توعدتهم به فيمترون فيه ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ باليقين من عذابهم ﴿ وانا لصادقون ﴾ فيما اخبرناك به ﴿ فأسر باهلك ﴾ فاذهب بهم في الليل ٭ وقرأ الحجازيان بوصل الهمزة من السرى وهما بمعنى

الا امرأته ﴾ يعني امرأة لوط ﴿ قدرنا ﴾ يعني قضينا وانما أسند الملائكة القدر الى أنفسهم وان كان ذلك لله عز وجل لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ونحن فعلنا وان كان قد فعلوه بامر الملك ﴿ انها لمن الغابرين ﴾ يعني لمن الباقين في العذاب والاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ وذلك ان الملائكة عليهم السلام لما بشروا ابراهيم بالولد وعرفوه بما أرسلوا به ساروا الى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط ﴿ قال انكم قوم منكرون ﴾ وانما قال هذه المقالة لوط لانهم دخلوا عليه وهم في زي شبان مردان حسان الوجوه فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله انكم قوم منكرون يعني لا أعرفكم ولا أعرف من أي الاقوام أنتم ولا لأي غرض دخلتم علي فعند ذلك ﴿ قالوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ يعني جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ يعني باليقين الذي لا شك فيه ﴿ وانا لصادقون ﴾ يعني فيما أخبرناك به من اهلاكهم ﴿ فأسر باهلك

الباقين في العذاب قيل لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح ان لانه مع اسمه وخبره مفعول قدرنا ولكنه كقوله ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون وانما أسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك (فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون) أي لا أعرفكم اي ليس عليكم زي السفر ولا أنتم من أهل الحضر فاخاف ان تطرقوني بشر (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أي ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل جئناك بما فيه سرورك وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه أي يشكون ويكذبونك (وأتيناك بالحق) باليقين من عذابهم (وانا لصادقون) في الاخبار بنزوله بهم (فاسر باهلك

الا امرأته) واعلة المنافقة (قدرنا) عليها (انها لمن الغابرين) لمن الباقين المتخلفين بالهلاك (فلما جاء آل لوط) الى لوط (المرسلون) جبريل واعوانه (قال انكم قوم منكرون) في بلدنا هذا لم نعرفكم ولم نعرف سلامكم فمن أجل ذلك قال انكم قوم منكرون يعني جبريل واعوانه (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يشكون من العذاب (وأتيناك بالحق) أي جئناك بخبر العذاب (وانا لصادقون) في مقالتنا ان العذاب نازل عليهم (فأسر بأهلك) فأدلج بأهلك

بقطع من الليل) فى آخر الليل أو بعد مايمضى شئ صالح من الليل (واتبع أدبارهم) وسر خلفهم لتكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم أو جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التوانى والتوقف لان من يلتفت لابد له فى ذلك من أدنى وقفة (وامضوا حيث تؤمرون) حيث أمركم الله بالمضى اليه وهو الشام أو مصر (وقضينا اليه ذلك الامر) عدى قضينا بالى لانه ضمن معنى أوحينا كانه قيل وأوحينا اليه مقضيا مبتوتا وفسر ذلك الامر بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفى ابهامه وتفسيره تفخيم للامر ودابرهم آخرهم أى يستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم أحد (مصبحين) وقت دخولهم فى الصبح وهو حال من هؤلاء (وجاء أهل المدينة) سدوم التى ضرب بقاضيها المثل فى الجور (يستبشرون) بالملائكة طمعا منهم فى ركوب الفاحشة (قال) لوط (ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون) بفضيحة ضيفى لان من أساء

*وقرئ فسر من السير ﴿ بقطع من الليل ﴾ فى طائفة من الليل وقيل فى آخره قال

افتحى الباب وانظرى فى النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

﴿ واتبع ادبارهم ﴾ وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم ﴿ ولا يلتفت منكم احد ﴾ لينظر ماوراءه فيرى من الهول مالايطيقه أو فيصيبه مااصابهم أو ولا ينصرف احدكم ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن الالتفات ليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ الى حيث امركم الله بالمضى اليه وهو الشام أو مصر فعدى وامضوا الى حيث وتؤمرون الى ضميره المحذوف على الاتساع ﴿ وقضينا اليه ﴾ أى اوحينا اليه مقضيا ولذلك عدى بالى ﴿ ذلك الامر ﴾ مبهم يفسره ﴿ ان دابر هؤلاء مقطوع ﴾ ومحله النصب على البدل منه وفى ذلك تفخيم للامر وتعظيم له *وقرئ بالكسر على الاستئناف والمعنى انهم يستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم احد ﴿ مصبحين ﴾ داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء فى معنى مدبرى هؤلاء ﴿ وجاء اهل المدينة ﴾ سدوم ﴿ يستبشرون ﴾ باضياف لوط طمعا فيهم ﴿ قال ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ﴾

بقطع من الليل ﴾ يعنى آخر الليل والقطع القطعة من الشئ وبعضه ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ يعنى واتبع آثار أهلك وسر خلفهم ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ يعنى حتى لايرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك وقيل المراد الاسراع فى السير وترك الالتفات الى وراءه والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشانك ولا تعرج على شئ وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ قال ابن عباس يعنى الى الشام وقيل الاردن وقيل الى حيث يأمركم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم أن يسيروا الى قرية معينة ما عمل اهلها عمل قوم لوط ﴿ وقضينا اليه ذلك الامر ﴾ يعنى وأوحينا الى لوط ذلك الامر الذى حكمنا به على قومه وفرغنا منه ثم انه سبحانه وتعالى فسر ذلك الامر الذى قضاه بقوله ﴿ ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ يعنى ان هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وانما أبهم الامر الذى قضاه عليهم أولا وفسره ثانيا تفخيما له وتعظيما لشانه ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ يعنى مدينة سدوم وهى مدينة قوم لوط ﴿ يستبشرون ﴾ يعنى يبشر بعضهم بعضا باضياف لوط والاستبشار اظهار الفرح والسرور وذلك ان الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم فى المدينة وقيل ان امرأته أخبرتهم بذلك وكانوا شبانا مردا فى غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط الى داره طمعا منهم فى ركوب الفاحشة ﴿ قال ﴾ يعنى قال لوط لقومه ﴿ ان هؤلاء ضيفى ﴾ وحق على الرجل اكرام ضيفه ﴿ فلا تفضحون ﴾ يعنى فيهم

(بقطع من الليل) ببعض من آخر الليل عند السحر (واتبع أدبارهم) امش وراءهم نحو صعر (ولا يلتفت) لا يتخلف (منكم أحد وامضوا) سيروا (حيث تؤمرون) نحو صعر (وقضينا اليه ذلك الامر) أمرناه الاتيان الى صعر ويقال اخبرناه (ان دابر) غابر (هؤلاء) قوم لوط (مقطوع) مستأصل (مصبحين) عند الصباح (وجاء أهل المدينة) (يقال) الى دار لوط (يستبشرون) بعملهم الخبيث (قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفى) أى اضيافى (فلا تفضحون) فيهم

الى ضيفى فقد أساء الى (واتقوا الله ولاتخزون) أى ولاتذلون باذلال ضيفى من الخزى وهو الهوان وبالياء فيهما يعقوب (قالوا أولم ننهك عن العالمين) عن أن تجير منهم أحدا أوندفع عنهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان عليه السلام يقوم بالنهى عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فاوعدوه وقالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين أوعن ضيافة الغرباء (قال هؤلاء بناتى)فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزا ولاتتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) ان كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ماحرم فقالت الملائكة للوط عليه السلام (لعمرك انهم لفى سكرتهم) أى فى غوايتهم التى أذهب عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذى هم عليه وبين الصواب الذى تشير به عليهم من ترك البنين الى البنات (يعمهون) يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويصغون الى نصيحتك أو الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قسم بحياته وماأقسم بحياة أحد قط تعظيما له والعمر والعمر واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح ايثارا للاخف لكثرة دور الحلف على ألسنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمى (فأخذتهم الصيحة) صيحة جبريل عليه السلام (مشرقين) داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس

بفضيحة ضيفى فان من اسيء الى ضيفه فقد اسيء اليه ﴿ واتقوا الله ﴾ فى ركوب الفاحشة ﴿ ولاتخزون ﴾ و لاتذلونى بسببهم من الخزى وهو الهوان أوولا تخجلونى فيهم من الخزاية وهو الحياء ﴿قالوا أولم ننهك عن العالمين﴾ عن ان تجير منهم احدا وتمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون لكل احد وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه أو عن ضيافة الناس وانزالهم ﴿قال هؤلاء بناتى﴾ يعنى نساء القوم فان نبى كل امة بمنزلة ابيهم وفيه وجوه ذكرت فى سوره هود ﴿ان كنتم فاعلين ﴾ قضاء الوطر أو ماأقول لكم ﴿ لعمرك ﴾ قسم بحياة المخاطب والمخاطب فى هذا القسم هو النبى عليه الصلاة والسلام وقيل لوط عليه السلام قالت الملائكة له ذلك والتقدير لعمرك قسمى وهو لغة فى العمر يختص به القسم لايثار الاخف فيه لانه كثير الدور على ألسنتهم ﴿ انهم لفى سكرتهم ﴾ لفى غوايتهم أوشدة غلمتهم التى ازالت عقولهم وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذى يشار به اليهم ﴿يعمهون﴾ يتحيرون فكيف يسمعون نصحك وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض ﴿فاخذتهم الصيحة﴾ يعنى هائلة مهلكة وقيل صيحة جبريل عليه السلام ﴿مشرقين﴾

يقال فضحه يفضحه اذا أظهر من أمره مايلزمه العار بسببه ﴿ واتقوا الله ﴾ يعنى خافوا الله فى أمرهم ﴿ ولاتخزون ﴾ يعنى ولاتخجلون ﴿ قالوا ﴾ يعنى قوم لوط الذين جاؤا اليه ﴿ أولم ننهك عن العالمين ﴾ يعنى أولم ننهك عن أن تضيف أحدا من العالمين وقيل معناه أولم ننهك ان تدخل الغرباء الى بيتك فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة وقيل معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا فى أحد من العالمين اذا قصدناه بالفاحشة ﴿ قال ﴾ يعنى قال لوط لقومه الذين قصدوا أضيافه ﴿ هؤلاء بناتى ﴾ أزوجكم اياهن ان أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل أراد بالبنات نساء قومه لان النبى كالوالد لامته ﴿ ان كنتم فاعلين ﴾ يعنى ما آمركم به ﴿ لعمرك ﴾ الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس معناه وحياتك يا محمد وقال ماخلق الله نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وماأقسم بحياة أحد الا بحياته والعمر والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته قال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمى فحذف الخبر لان فى الكلام دلالة عليه ﴿ انهم لفى سكرتهم ﴾ يعنى فى حيرتهم وضلالتهم وقيل فى غفلتهم ﴿ يعمهون ﴾ يعنى يترددون متحيرين وقال قتادة يلعبون ﴿ فاخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ يعنى حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذى نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس

(واتقوا الله) اخشوا الله فى الحرام (ولاتخزون) لاتذلون فى اضيافى (قالوا أولم ننهك) يالوط (عن العالمين) عن ضيافة الغرباء (قال هؤلاء بناتى) ويقال بنات قومى انا أزوجكم (ان كنتم فاعلين) متزوجين (لعمرك) اقسم بعمر محمد صلى الله عليه وسلم ويقال بدينه (انهم) يعنى قوم لوط (لفى سكرتهم) لفى جهلهم (يعمهون) لايبصرون (فأخذتهم الصيحة) بالعذاب (مشرقين) عند طلوع الشمس

فجعلنا عاليها سافلها) رفعها جبريل عليه السلام الى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل

ان فى ذلك لآيات للتموسمين) للمتفرسين المتأملين كأنهم يعرفون باطن الشئ بسمة ظاهرة

(وانها)وان هذه القرى يعنى آثارها (لبسبيل مقيم) ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعدوهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل (ان فى لآية للمؤمنين) لانهم المنتفعون بذلك (وان كان أصحاب الايكة)وان الامر والشان كان أصحاب الايكة اى الغيضة (لظالمين) لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام (فانتقمنا منهم) فاهلكناهم لما كذبوا شعيبا (وانهما) يعنى قرى قوم لوط والايكة (لبأمام

داخلين فى وقت شروق الشمس ﴿ فجعلنا عاليها ﴾ عالى المدينة أوعالى قراهم ﴿ سافلها ﴾ فصارت منقلبة بهم ﴿ وامطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ من طين متحجر أوطين عليه كتاب من السجل وقد تقدم مزيد بيان لهذه القصة فى سورة هود ﴿ ان فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشئ بسمته ﴿ وانها ﴾ وان المدينة أوالقرى ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها ﴿ ان فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ بالله ورسله ﴿ وان كان اصحاب الايكة لظالمين ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام كانوا يسكنون الغيضة فبعثه الله اليهم فكذبوه فاهلكوا بالظلة والايكة الشجرة المتكاثفة ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بالاهلاك ﴿ وانهما ﴾ يعنى سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه كان مبعوثا اليهما فكان ذكر احدهما منبئا عن الآخر ﴿ لبأمام

﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ تقدم تفسيره فى سورة هود ﴿ ان فى ذلك ﴾ يعنى الذى نزل بهم من العذاب ﴿ لآيات للمتوسمين ﴾ قال ابن عباس للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين وقال مجاهد للمتفرسين ✽ ويعضد هذا التأويل ماروى عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان فى ذلك لآيات للمتوسمين أخرجه الترمذى وقال حديث غريب الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست فى فلان الخير وهى على نوعين أحدهما مادل عليه ظاهر الحديث وهو مايوقعه الله فى قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات واصابة الحدس والنظر والظن والتثبت ✽ والنوع الثانى مايحصل بدلائل التجارب والخلق والاخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضا وللناس فى علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة قال الزجاج حقيقة المتوسمين فى اللغة المتثبتين فى نظرهم حتى يعرفوا سمة الشئ وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر فى سمة الدلائل تقول توسمت فى فلان كذا أى عرفت وسم ذلك وسمته ﴿ وانها ﴾ يعنى قرى قوم لوط ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ يعنى بطريق واضح قال مجاهد بطريق معلم ليس بخفى ولا زائل والمعنى ان آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر ولم يخف والذين يمرون عليها من الحجاز الى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره ﴿ ان فى ذلك ﴾ يعنى الذى ذكر من عذاب قوم لوط وما أنزل بهم ﴿ لآية للمؤمنين ﴾ يعنى المصدقين بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وان كان أصحاب الايكة لظالمين ﴾ يعنى كان اصحاب الايكة وهى الغيضة واللام فى قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوما كافرين فبعث الله عز وجل اليهم شعيبا رسولا فكذبوه فأهلكهم الله فهو قوله تعالى ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ يعنى بالعذاب وذلك ان الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بانفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فالتجؤا اليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم نارا فاحرقتهم جميعا ﴿ وانهما ﴾ يعنى مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الايكة ﴿ لبأمام

(فجعلنا عاليها سافلها) أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها (وامطرنا عليهم) على شذاذهم ومسافريهم (حجارة من سجيل) من سماء الدنيا ويقال من سنخ وحل مطبوخ كالآجر (ان فى ذلك) فيما فعلنا بهم (لآيات) لعلامات وعبرات (للمتوسمين) للمتفرسين ويقال للمتفكرين ويقال للناظرين ويقال للمعتبرين (وانها) يعنى قريات لوط (لبسبيل مقيم) طريق دائم يمرون عليها (ان فى ذلك) فى هلاكهم (لآية) لعبرة (للمؤمنين وان كان) يعنى وقد كان (أصحاب الايكة) يعنى أصحاب الغيضة والايكة الشجر وهم قوم شعيب (لظالمين) لمشركين (فانتقمنا منهم) فى الدنيا بالعذاب (وانهما) يعنى قريات لوط وشعيب (لبأمام (مبين)

مبين) لبطريق واضح والامام اسم مايؤتم به فسمى به الطريق ومطمر البناء لانهما مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) هم ثمود والحجر واديهم وهو مابين المدينه والشام المرسلين يعنى بتكذيبهم يعنى صالحا لان كل رسول كان يدعو الى الايمان بالرسل جميعا فمن كذب واحدا منهم فكانما كذبهم جميعا أو أراد صالحا ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون فى ابن الزبير وأصحابه (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنهما معرضين) أى أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا) أى ينقبون فى الجبال بيوتا أو يبنون من الحجارة (آمنين) لوثاقة البيوت واستحكامها من ان تنهدم ومن نقب اللصوص والاعداء أو آمنين من عذاب الله يحسبون ان الجبال تحميهم منه (فاخذتهم الصيحة) العذاب (مصبحين) فى اليوم الرابع وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الاموال النفيسة (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) الا خلقا ملتبسا بالحق لا باطلا وعبثا أو بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء

مبين) لبطريق واضح يمرون عليها (ولقد كذب أصحاب الحجر) قوم صالح (المرسلين) صالحا وجملة المرسلين (وآتيناهم) أعطيناهم (آياتنا) الناقة وغيرها (فكانوا عنها معرضين) مكذبين بها (وكانوا ينحتون من الجبال) فى الجبال (بيوتا آمنين) من ان تقع عليهم ويقال آمنين من العذاب (فأخذتهم الصيحة) بالعذاب (مصبحين) عند الصباح (فما أغنى عنهم) من عذاب الله (ما كانوا يكسبون) يقولون ويعملون ويعبدون من دون الله (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما) من الخلق والعجائب (الا بالحق) لبيان الحق والباطل والحجة عليهم

مبين ﴾ لبطريق واضح والامام اسم مايؤتم به فسمى الطريق واللوح ومطمر البناء لانهما مما يؤتم به ﴿ ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين ﴾ يعنى ثمود كذبوا صالحا ومن كذب واحدا من الرسل فكأنما كذب الجميع ويجوز ان يكون المراد بالمرسلين صالح ومن معه من المؤمنين والحجر وادبين المدينة والشام يسكنونها ﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ يعنى آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزاته كالناقة وسقيها وشربها ودرها أو مانصب لهم من الادلة ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها أو من العذاب لفرط غفلتهم أو حسبانهم ان الجبال تحميهم منه ﴿ فاخذتهم الصيحة مصبحين فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الاموال والعدد ﴿ وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق ﴾ الا خلقا ملتبسا بالحق لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك امثال هؤلاء وازاحة فسادهم

مبين ﴾ يعنى بطريق واضح مستبين لمن مر بهما وقيل الضمير راجع الى الايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما وانما سمى الطريق اماما لانه يؤم ويتبع ولان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذى يريده ❁ قوله عز وجل ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وأهل الحجاز الى الشام وأراد بالمرسلين صالحا وحده وانما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم أو لانهم كذبوه وكذبوا من قبله من الرسل ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ يعنى الناقة وولدها والآيات التى كانت فى الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها وانما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات ﴿ فكانوا عنها ﴾ يعنى عن الآيات ﴿ معرضين ﴾ يعنى تاركين لها غير ملتفتين اليها ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ يعنى خوفا من الخراب أو أن يقع عليهم الجبل أو السقف ﴿ فاخذتهم الصيحة ﴾ يعنى العذاب ﴿ مصبحين ﴾ يعنى وقت الصبح ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ يعنى من الشرك والاعمال الخبيثة (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم الا ان تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق ﴾ يعنى لاظهار الحق والعذاب وهو أن يثاب المؤمن والمصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب

على الاعمال (وان الساعة) أى القيامة لتوقعها كل ساعة (لآتية) وان الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وأياهم على حسناتك وسيآتهم فانه ماخلق السموات والارض ومابينهما الا لذلك (فاصفح الصفح الجميل) فاعرض عنهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء قيل هو منسوخ بآية السيف وان أريد به المخالفة فلا يكون منسوخا (ان ربك هو الخلاق) الذى خلقك وخلقهم (العليم) بحالك وحالهم فلا يخفى عليه مايجرى بينكم وهو يحكم بينكم (ولقد آتيناك سبعا) أى سبع آيات وهى الفاتحة أو سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما وقيل سورة يونس أو أسباع القرآن (من المثانى) هى من التثنية وهى التكرير لان الفاتحة مما تتكرر فى الصلاة أو من الثناء لاشتمالها على ماهو ثناء على الله الواحدة مثناة أو مثنية صفة لآية وأما السور الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله واذا جعلت السبع مثانى فمن للتبيين واذا جعلت القرآن مثانى فمن للتبعيض (والقرآن العظيم) هذا

من الارض ﴿وان الساعة لآتية﴾ فينتقم الله لك فيها ممن كذبك ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هو منسوخ بآية السيف ﴿ان ربك هو الخلاق﴾ الذى خلقك وخلقهم وبيده امرك وامرهم ﴿العليم﴾ بحالك وبحالهم فهو حقيق بان تكل ذلك اليه ليحكم بينكم أو هو الذى خلقكم وعلم الاصلح لكم وقد علم ان الصفح اليوم اصلح وفى مصحف عثمان وابى رضى الله عنهما هو الخالق وهو يصلح للقليل والكثير والخلاق يختص بالكثير ﴿ولقد آتيناك سبعا﴾ سبع آيات وهى الفاتحة وقيل سبع سور وهى الطوال وسابعتها الانفال والتوبة فانهما فى حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل التوبة وقيل يونس او الحواميم السبع وقيل سبع صحائف وهى الاسباع ﴿من المثانى﴾ بيان للسبع والمثانى من التثنية أو الاثناء فان كل ذلك مثنى يكرر قراءته والفاظه أو قصصه ومواعظه أو مثنى عليه بالبلاغة والاعجاز أو مثنى على الله بما هو اهله من صفاته العظمى واسمائه الحسنى ويجوز ان يراد بالمثانى القرآن أو كتب الله كلها فتكون من للتبعيض ﴿والقرآن العظيم﴾

﴿وان الساعة لآتية﴾ يعنى وان القيامة لتأتى ليجازى المحسن باحسانه والمسئ باساءته ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى فاعرض عنهم يا محمد واعف عنهم عفوا حسنا واحتمل ماتلقى من أذى قومك وهذا الصفح والاعراض منسوخ بآية القتال وقيل فيه بعد لان الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالى من الجزع والخوف ﴿ان ربك هو الخلاق العليم﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى خلق خلقه وعلم ماهم فاعلوه ومايصلحهم * قوله عز وجل ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم﴾ قال ابن الجوزى سبب نزولها ان سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله فانزل الله هذه الآية وقال قد أعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله لا تمدن عينيك الآية قال الحسن بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف أو لا يصح لان هذه السورة مكية باجماع أهل التفسير وليس فيها من المدنى شئ ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة وكيف يصح أن يقال ان سبع قوافل جاءت فى يوم واحد فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فانزل الله هذه الآية وأخبرهم ان هذه السبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل والله أعلم * وفى المراد بالسبع المثانى أقوال * أحدها انها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود وفى رواية عنه وابن {عباس}

(وان الساعة لآتية) الكائنة (فاصفح الصفح الجميل) أعرض عنهم اعراضا جميلا بلا فحش ولا جزع وهى منسوخة بآية القتال (ان ربك هو الخلاق) الباعث لمن آمن به ولمن لم يؤمن (العليم) بثوابهم وعقابهم (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) يقول اكرمناك بسبع آيات من القرآن تثنى فى كل ركعة وسجدتين وهى فاتحة الكتاب ويقال أكرمناك بأسباع القرآن لان القرآن كله مثان أمر ونهى ووعد ووعيد وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ وحقيقة ومجاز ومحكم ومتشابه وخبر ما كان ومايكون ومدحة لقوم ومذمة لقوم (والقرآن العظيم) يقول وأكرمناك

ان اريد بالسبع الآيات والسور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وان اريد به الاسباع فمن عطف احد الوصفين على الآخر

عباس وفى رواية الاكثرين عنه وأبى هريرة والحسن وسعيد بن جبير وفى رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة فى آخرين ❁ ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى أخرجه أبو داود الترمذى (ق) عن أبى سعيد بن المعلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته أخرجه البخارى وفيه زيادة ❁ أما السبب فى تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثانى فلانها سبع آيات باجماع أهل العلم واختلفوا فى سبب تسميتها بالمثانى فقال ابن عباس والحسن وقتادة لانها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة وقيل لانها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين فنصفها الاول ثناء على الله ونصفها الثانى دعاء ❁ ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين الحديث مذكور فى فضل الفاتحة وقيل سميت مثانى لان كلماتها مثناة مثل قوله الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين فكل هذه ألفاظ مثناة وقال الحسن بن الفضل لانها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك وقال مجاهد لان الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الامة فلم يعطها لغيرهم وقال أبو زيد البلخى لانها تثنى أهل الشر عن الشر من قول العرب ثنيت عنانى وقال ابن الزجاج سميت فاتحة الكتاب مثانى لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه واذا ثبت كون الفاتحة هى السبع المثانى دل ذلك على فضلها وشرفها وانها من أفضل سور القرآن لان افرادها بالذكر فى قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم مع انها جزء من أجزاء القرآن واحدى سوره لابد وأن يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة ❁ القول الثانى فى تفسير قوله سبعا من المثانى انها السبع الطول وهذا قول ابن عمر وابن مسعود وفى رواية عنه وابن عباس وفى رواية عنه وسعيد بن جبير وفى رواية عنه السبع الطوال هى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف واختلفوا فى السابعة فقيل الانفال مع براءة لانهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وقيل السابعة هى سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله سبحانه وتعالى أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المئين مكان الانجيل وأعطانى مكان الزبور المثانى وفضلنى ربى بالمفصل أخرجه البغوى باسناد الثعلبى قال ابن عباس انما سميت السبع الطوال مثانى لان الفرائض والحدود والامثال والخبر والعبر ثنيت فيها وأورد على هذا القول ان هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهى مكية وأجيب عن هذا الايراد بان الله سبحانه وتعالى حكم فى سابق علمه بانزال هذه السور على النبى صلى الله عليه وسلم واذا كان

ليس بعطف الشئ على نفسه لانه اذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فاوراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لانه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعنى سورة يوسف واذا أريد به الاسباع فالمعنى ولقد آتيناك مايقال له السبع المثانى والقرآن العظيم أى الجامع لهذين النعتين وهو التثنية أو الثناء والعظم ثم قال لرسوله

بالقرآن العظيم الكريم الشريف كما أنزلنا التوراة والانجيل على المقتسمين اليهود والنصارى

﴿ لا تمدن عينيك ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿ الى ما متعنا به ازواجا منهم ﴾ اصنافا من الكفار فانه مستحقر بالاضافة الى ما اوتيته فانه كمال مطلوب بالذات مفض الى دوام اللذات وفي حديث ابي بكر رضي الله عنه من اوتي القرآن فراى ان احدا اوتي من الدنيا افضل مما اوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروى انه عليه الصلاة والسلام وافى باذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها انواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله فقال لهم لقد اعطيتم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ انهم لم يؤمنوا وقيل انهم المتمعون به

الامر كذلك صح ان تفسر هذه الآية بهذه السور * القول الثالث ان السبع المثاني هي السور التي هي دون الطوال وفوق المفصل وهي المئين وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطاني مكان الزبور المثاني * القول الرابع ان السبع المثاني هي القرآن كله وهذا قول طاوس حجة هذا القول ان الله سبحانه وتعالى قال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني وسمي القرآن مثاني لان الاخبار والقصص والامثال ثنيت فيه * فان قلت كيف يصح عطف القرآن في قوله والقرآن العظيم على قوله سبعا من المثاني وهل هو الا عطف الشئ على نفسه * قلت اذا عني بالسبع المثاني فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لان القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى الى قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعني سورة يوسف عليه السلام واذا عني بالسبع المثاني القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعا من المثاني وهي القرآن العظيم وانما سمي القرآن عظيما لانه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم * قوله ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي لا تمدن عينيك يا محمد ﴿ الى ما متعنا به أزواجا ﴾ يعني أصنافا ﴿ منهم ﴾ يعني من الكفار متمنيا لها نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها والمعنى انك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شئ فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات الى الدنيا والرغبة فيها روى ان سفيان بن عيينة تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن يعني لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية قيل انما يكون مادا عينيه الى الشئ اذا أدام النظر اليه مستحسنا له فيحصل له من ذلك تمني ذلك الشئ المستحسن فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى شئ من متاع الدنيا ولا يلتفت اليه ولا يستحسنه ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ يعني ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل ولا تحزن على ايمانهم اذا لم يؤمنوا ففيه النهي عن الالتفات الى أموال الكفار والالتفات اليهم أيضا * وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغبطن فاجرا بنعمته فانك لا تدري ما هو لاق بعد موته ان له عند الله قاتلا لا يموت قيل لابن أبي مريم ما قاتلا لا يموت قال النار (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر الى أسفل منه لفظ البخاري * ولمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل

(منكم)

(لا تمدن عينيك) أي لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له (الى ما متعنا به أزواجا منهم) أصنافا من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعني قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وان عظمت فهي اليها حقيرة وهي القرآن العظيم فعليك ان تستغني به ولا تمدن عينيك الى متاع الدنيا وفي الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وحديث أبي بكر من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا (ولا تحزن عليهم) أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم انهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الاسلام والمسلمون

(لا تمدن عينيك) لا تنظرن بالرغبة (الى ما متعنا به) أعطينا من الاموال (أزواجا منهم) رجالا من بني قريظة والنضير ويقال من قريش لان ما أكرمناك به من النبوة والاسلام والقرآن أعظم مما أعطيناهم من الاموال (ولا تحزن عليهم) على هلاكهم ان لم يؤمنوا

﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ وتواضع لهم وارفق بهم ﴿وقل انى انا النذير المبين﴾ انذركم بيان وبرهان ان عذاب الله نازل بكم ان لم تؤمنوا ﴿كما انزلنا على المقتسمين﴾ مثل العذاب الذى انزلنا عليهم فهو وصف لمفعول النذير اقيم مقامه والمقتسمون هم الاثناعشر الذين اقتسموا مداخل مكة ايام الموسم لينفروا الناس عن الايمان بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فاهلكهم الله تعالى يوم بدر أو الرهط الذين اقتسموا أى تقاسموا على ان يبيتوا صالحا عليه السلام وقيل هو صفة مصدر محذوف يدل عليه قوله ولقد آتيناك فانه بمعنى انزلنا اليك والمقتسمون هم اهل الكتاب الذين جعلوا القرآن عضين حيث قالوا عنادا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو قسموه الى شعر وسحر وكهانة واساطير الاولين أو اهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على ان القرآن مايقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

منكم ولاتنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر ان لاتزدروا نعمة الله عليكم قال عوف ابن عبدالله بن عتبة كنت أصحب الاغنياء فما كان أحد أكثر هما منى كنت أرى دابة خيرا من دابتى وثوبا خيرا من ثوبى فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿واخفض جناحك﴾ يعنى لين جانبك ﴿للمؤمنين﴾ وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات الى الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين ﴿وقل﴾ أى وقل لهم يامحمد ﴿انى أنا النذير المبين﴾ لما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ماأرسل به اليهم والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى انى أنا النذير بالعقاب لمن عصانى المبين البين النذارة ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ يعنى أنذركم عذابا كعذاب أنزلناه بالمقتسمين قال ابن عباس أراد بالمقتسمين اليهود و النصارى وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وماخالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفروا ببعضها وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم وقال قتادة وابن السائب أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها وذلك ان الوليد بن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة قيل ستة عشر وقيل اربعين فقال لهم انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه شاعر وليقل بعضكم انه ساحر فاذا جاؤا الى صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب لاتغتروا بهذا الخارج الذى يدعى النبوة منا فانه مجنون كاهن وشاعر وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام فاذا جاؤا وسألوه

(واخفض جناحك للمؤمنين) وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطب نفسا عن ايمان الاغنياء (وقل) لهم (انى أنا النذير المبين) أنذركم ببيان وبرهان ان عذاب الله نازل بكم (كما انزلنا) متعلق بقوله ولقد آتيناك أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا (على المقتسمين) وهم أهل الكتاب

(واخفض جناحك للمؤمنين) لين جانبك للمؤمنين يقول كن رحيما عليهم (وقل انى أنا النذير المبين) الرسول المخوف بلغة تعرفونها من عذاب الله (كما أنزلنا) يوم بدر (على المقتسمين) أصحاب العقبة وهو أبوجهل بن هشام والوليد بن المغيرة المخزومى وحنظلة بن أبى سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وسائر أصحابهم الذين قتلوا يوم بدر

(الذين جعلوا القرآن عضين) اجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها اعضاء حيث قالوا بعنادهم بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه الى حق وباطل وعضوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لى ويقول الآخر سورة آل عمران لى أوازيد بالقرآن مايقرؤنه من كتبهم وقد اقتسموه فاليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض والنصارى اقرت ببعض الانجيل وكذبت ببعض ويجوز ان يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوبا بالنذير اى انذر العضين الذى يجزؤن القرآن الى سحر وشعر واساطير مثل ماانزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة ايام الموسم فقعدوا فى كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر كذاب والآخر شاعر فاهلكهم الله ولا تمدن عينيك على الوجه الاول اعتراض بينهما لانه لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهى عن الالتفات الى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الامر بان يقبل بكليته على المؤمنين (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحدا واحدا من هؤلاء المقتسمين عما قالوه فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوفى القرآن أوفى (فاصدع)

وقوله لاتمدن الخ اعتراضا ممدالها ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ اجزاء جمع عضة واصلها عضوة من عضى الشاة اذا جعلها اعضاء وقيل فعلة من عضهته اذا بهته وفى الحديث لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العاضهة والمستعضهة وقيل اسحارا وعن عكرمة العضة السحر وانما جمع جمع السلامة جبرا لما حذف منه والموصول بصلته صفة للمقتسمين أو مبتدأ خبره ﴿فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون ﴾ من التقسيم أو النسبة الى السحر فيجازيهم

عما قال اولئك المقتسمون قال صدقوا ❁ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ (خ) عن ابن عباس فى قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين قال هم اليهود والنصارى جزؤه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض قيل هو جمع عضة من قولهم عضيت الشئ اذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك لانهم جعلوا القرآن اجزاء مفرقة فقال بعضهم هو سحر وقال بعضهم هو كهانة وقال بعضهم هو اساطير الاولين وقيل هو جمع عضة وهو الكذب والبهتان وقيل المراد به العضة وهو السحر يعنى أنهم جعلوا القرآن سحرا ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ أقسم الله بنفسه أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ﴿عما كانوا يعملون ﴾ يعنى عما كانوا يقولونه فى القرآن وقيل عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصى وقيل يرجع الضمير فى لنسألنهم الى جميع الخلق المؤمن والكافر لان اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من أهل العلم عن لااله الا الله ❁ عن انس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن قول لا اله الا الله أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقال ابو العالية يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين ٭ فان قلت كيف الجمع بين قوله لنسألنهم اجمعين وبين قوله فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولاجان ٭ قلت قال ابن عباس لايسألهم هل عملتم لانه أعلم به منهم ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمده قطرب فقال السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقوله تعالى فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولاجان يعنى سؤال استعلام وقوله لنسألنهم أجمعين سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر وهو مروى عن ابن عباس أيضا أنه قال فى الآيتين ان يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسئلون فى بعض المواقف ولايسئلون فى بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى هذا يوم لاينطقون وقال تعالى فى آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ❁ قوله سبحانه وتعالى

(الذين جعلوا القرآن عضين) قالوا فى القرآن أقاويل مختلفة قال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كهانة وقال بعضهم أساطير الاولين وقال بعضهم كذب يختلقه من تلقاء نفسه (فوربك) يامحمد اقسم بنفسه (لنسألنهم) يوم القيامة (أجمعين عما كانوا يعملون) يقولون فى الدنيا ويقال عن تركهم لا اله الا الله

عليه وقيل عام في كل مافعلوا من الكفر والمعاصي ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فاجهر به من صدع بالحجة اذ تكلم بها جهارا أو فافرق به بين الحق والباطل واصله الابانة والتميز وما مصدرية أو موصولة والراجع محذوف أي بما تؤمر به من الشرائع ﴿ واعرض عن المشركين ﴾ فلا تلتفت الى مايقولون ﴿ انا كفيناك المستهزئين ﴾ بقمعهم واهلاكهم قيل كانوا خمسة من اشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب يبالغون في ايذاء النبي صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فقال جبريل عليه

﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال ابن عباس أظهر ويروى عنه أمضه وقال الضحاك أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أي افرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة وتبليغ الرسالة الى من أرسل اليهم قال عبدالله بن عبيدة مازال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي اكفف عنهم ولا تلتفت الى لومهم على اظهار دينك وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم و هو قوله سبحانه وتعالى ﴿ انا كفيناك المستهزئين ﴾ أكثر المفسرين على ان هذا الاعراض منسوخ بآية القتال وقال بعضهم ما للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا يكون منسوخا وقوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يقول الله عزوجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحدا غيري فاني أنا كافيك وحافظك ممن عاداك فانا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش كانوا يستهزؤن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهم الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والاسود بن المطلب بن الحرث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال اللهم أعم بصره واثكله بولده والاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحرث ابن قيس بن طلاطلة كذا ذكره البغوي وقال ابن الجوزي الحرث بن قيس بن عيطلة وقال الزهري عيطلة أمه وقيس أبوه فهو منسوب الى أبيه وأمه قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستهزؤن يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبدالله فقال قد كفيته وأومأ الى ساق الوليد فمر الوليد برجل من خزاعة نبال يريش نبالاله وعليه برديماني وهو يجر ازاره فتعلقت شظية من النبل بازار الوليد فمنعه الكبر ان يطأطئ رأسه فينزعها وجعلت تضربه في ساقه فخدشته فمرض منها فمات ومر بهما العاص بن وائل السهمي فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبدالله فاشار جبريل الى أخمص قدمه و قال قد كفيته فخرج العاص على راحلة يتنزه ومعه ابناه فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطئ شبرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيأ وانتفخت رجله

كتب الله (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به واظهره يقال صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا من الصديع وهو الفجر أو فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو الابانة بما تؤمر والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله

امرتك الخير فافعل ما امرت به

(واعرض عن المشركين) هو امر استهانة بهم (انا كفيناك المستهزئين) الجمهور على انها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فاهلكهم الله وهم الوليد بن المغيرة مر بنبال فتعلق بثوبه سهم فاصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات والعاص بن وائل دخل في اخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات والاسود بن عبد المطلب عمي والاسود بن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات والحرث بن قيس امتخط قيحا فمات

(فاصدع بما تؤمر) يقول اظهر أمرك بمكة (واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين) رفعنا عنك مؤنة المستهزئين

(الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم يوم القيامة (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون)
فيك أو في القرآن أو في الله (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) فافزع
فيما نابك الى الله والفزع الى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم

(الذين يجعلون مع الله الها آخر) يقولون مع الله آلهة شتى (فسوف يعلمون) ماذا يفعل بهم فأهلكهم الله في يوم وليلة كل واحد منهم بعذاب غير عذاب صاحبه وكانوا خمسة منهم العاص بن وائل السهمي لدغه شئ فمات مكانه أبعده الله ومنهم الحرث بن قيس السهمي أكل حوتا مالحا ويقال طريا فأصابه العطش فشرب عليه الماء حتى انشق بطنه فمات مكانه أتعسه الله ومنهم الاسود بن عبد المطلب ضرب جبريل رأسه على شجرة وضرب وجهه بالشوك حتى مات نكسه الله ومنهم الاسود بن عبد يغوث خرج في يوم شديد الحر فأصابه السموم فاسود حتى عاد حبشيا فرجع الى بيته فلم يفتحوا عليه الباب فنطح رأسه ببابه حتى مات خذله الله ومنهم الوليد بن المغيرة المخزومي أصاب أكحله نبل فمات من ذلك طرده الله وكلهم كانوا يقولون قتلني رب محمد صلى الله عليه وسلم (ولقد نعلم انك يضيق صدرك) يا محمد (بما يقولون) من التكذيب (بعض) وبانك شاعر وساحر وكذاب وكاهن (فسبح بحمد ربك) فصل بامر ربك (وكن من الساجدين) مع الساجدين ويقال من

السلام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم امرت ان اكفيكهم فاومأ الى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فاصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات واومأ الى اخمص العاصي فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات واشار الى انف عدي بن قيس فامتخط قيحا فمات والى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد في اصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات والى عيني الاسود بن المطلب فعمي ﴿الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون﴾ عاقبة امرهم في الدارين ﴿ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك ﴿فسبح بحمد ربك﴾ فافزع الى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون حامدا له على ان هداك للحق ﴿وكن من الساجدين﴾

حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ومر بهما الاسود بن المطلب فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فاشار جبريل بيده الى عينيه وقال قد كفيته فعمي قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وفي رواية الكلبي قال أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال له غلامه ما أرى أحدا يصنع بك شيأ غيرك فمات وهو يقول قتلني رب محمد ومر بهما الاسود بن عبد يغوث فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله على أنه خالي فقال جبريل قد كفيته وأشار الى بطنه فاستسقى بطنه فمات وفي رواية الكلبي أنه خرج من أهله فاصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا فاتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب فمات وهو يقول قتلني رب محمد ومر بهما الحرث بن قيس فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فاومأ جبريل الى رأسه وقال قد كفيته فامتخط قيحا فقتله وقال ابن عباس أنه أكل حوتا مالحا فاصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انقد بطنه فمات فذلك قوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يعني بك وبالقرآن ﴿الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون﴾ يعني اذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد * قوله سبحانه وتعالى ﴿ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون﴾ يعني بسبب ما يقولون وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله ﴿فسبح بحمد ربك﴾ قال ابن عباس فصل بامر ربك ﴿وكن من الساجدين﴾ يعني من المتواضعين لله وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين * روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة قال

من المصلين وعنه عليه الصلاة والسلام انه كان اذا حزبه امر فزع الى الصلاة ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ أى الموت فانه متيقن لحاقه كل حى مخلوق والمعنى فاعبده مادمت حيا ولاتخل بالعبادة لحظة ۞ عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم والله اعلم

﴿ سورة النحل مكية غير ثلاث آيات فى آخرها وهى مائة وثمان وعشرون آية ﴾

بعض العارفين من المحققين ان السبب فى زوال الحزن عن القلب اذا أتى العبد بهذه العبادات انه يتنور باطنه ويشرق قلبه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها ولايتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه وقال بعض العلماء اذا نزل بالعبد مكروه ففزع الى الصلاة فكأنه يقول يارب انما يجب على عبادتك سواء أعطيتنى ماأحب أو كفيتنى ماأكره فانا عبدك وبين يديك فافعل بى ماتشاء ۞ قوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ يعنى الموت الموقن به الذى لايشك فيه أحد والمعنى واعبد ربك فى جميع أوقاتك ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت فى عبادة ربك وهذا مثل قوله تعالى فى سورة مريم وأوصانى بالصلوة والزكوة مادمت حيا ۞ روى البغوى بسنده عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأوحى الله الى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الى ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ۞ وعن عمر قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه باطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أوقال شريت له بمائتى درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ماترون ذكره البغوى بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿ تفسير سورة النحل ﴾

مكية الاقوله تعالى وان عاقبتم به فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به الى آخر السورة فانها نزلت بالمدينة فى قتل حمزة قاله ابن عباس وفى رواية أخرى عنه انها مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهى قوله ولاتشتروا بعهد الله ثمنا قليلا الى قوله يعملون وقال قتادة هى مكية الاخمس آيات وهى قوله والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا وقوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة زاد مقاتل قوله من كفر بالله من بعد ايمانه الآية وقوله وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة الآية وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها وهى مائة وثمان وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف

(واعبد ربك) ودم على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) أى الموت يعنى مادمت حيا فاشتغل بالعبادة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة

﴿ سورة النحل مكية وهى مائة وثمان وعشرون آية ﴾

المطيعين (واعبد ربك) استقم على طاعة ربك (حتى يأتيك اليقين) يعنى الموت وهو الموقن

﴿ ومن السورة التى يذكر فيها النحل وهى كلها مكية غير أربع آيات نزلت بالمدينة قوله وان عاقبتم فعاقبوا الى آخره واصبر وماصبرك الا بالله الى آخر الآية وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا الى آخر الآية وقوله والذين هاجروا من بعد ماظلموا الى آخر الآية فهؤلاء الآيات الاربع مدنيات آياتها مائة وعشرون وثمان آيات وكلماتها ألف وثمانمائة واحدى وأربعون وحروفها ستة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أتى امر الله فلا تستعجلوه﴾ كانوا يستعجلون ماوعدهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من قيام الساعة أو اهلاك الله تعالى اياهم كما فعل يوم بدر استهزاء وتكذيبا ويقولون ان صح مايقوله فالاصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت والمعنى ان الامر الموعود به بمنزلة الآتى المتحقق من حيث انه واجب الوقوع فلا تستعجلوا وقوعه فانه لاخير لكم فيه ولاخلاص لكم عنه ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ تبرأ وجل عن ان يكون له شريك فيدفع ما اراد بهم *وقرأ حمزة والكسائى بالتاء على وفق قوله تعالى فلا تستعجلوه والباقون بالياء على تلوين الخطاب أو على ان الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم لما روى انه لما نزلت أتى أمر الله فوثب النبى صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم فنزلت فلا تستعجلوه ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ بالوحى أو القرآن فانه يحيي به القلوب الميتة بالجهل أو يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد وذكره عقيب ذلك اشارة الى الطريق

بسم الله الرحمن الرحيم

*قوله سبحانه وتعالى ﴿أتى أمر الله﴾ يعنى جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب أتاك الامر وهو متوقع المجئ بعد ما أتى ومعنى الآية أتى أمر الله وعدا ﴿فلا تستعجلوه﴾ يعنى وقوعا والمراد به مجئ القيامة قال ابن عباس لما نزل قوله سبحانه وتعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا الرجل يزعم ان القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ماهو كائن فلما رأوا انه لاينزل شئ قالوا مانرى شيأ فنزل قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فاشفقوا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد مانرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب النبى صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا والاستعجال طلب مجئ الشئ قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير باصبعيه يمدهما أخرجاه فى الصحيحين من حديث سهل ابن سعد (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل احداهما على الاخرى وضم السبابة الى الوسطى وفى رواية بعثت فى نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الاخرى قال ابن عباس كان مبعث النبى صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات مبعوثا الى النبى صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وقال قوم المراد بالامر هنا عقوبة المكذبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك ان النضر بن الحرث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية وقتل النضر يوم بدر صبرا ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يعنى تنزه الله وتعاظم بالاوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون *قوله سبحانه وتعالى ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ يعنى بالوحى

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ كانوا يستعجلون ماوعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبا بالوعد فقيل لهم (أتى أمر الله) أى هو بمنزلة الآتى الواقع وان كان منتظرا لقرب وقوعه (فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) تبرأ جل وعز عن أن يكون له شريك وعن اشراكهم فما موصولة أو مصدرية واتصال هذا باستعجالهم من حيث ان استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك (ينزل الملائكة) وبالتخفيف مكى وأبو عمرو (بالروح) بالوحى أو بالقرآن لان كلا منهما يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد أو يحيي

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وباسناده عن ابن عباس قال لما نزل قوله اقترب للناس حسابهم الى آخر الآية وقوله اقتربت الساعة الى آخر الآية فمكثوا على ذلك ماشاء الله ان يمكثوا ولم يتبين لهم شئ فقالوا يا محمد متى يأتينا ما تعدنا من العذاب فأنزل الله (أتى أمر الله) أتى عذاب الله وكان النبى صلى الله عليه وسلم جالسا فقام لايشك ان العذاب قد اتى فقال الله (فلا تستعجلوه) بالعذاب فجلس النبى صلى الله عليه وسلم (سبحانه) نزه نفسه عن الولد والشريك (وتعالى) ارتفع وتبرأ (عما يشركون) به من الاوثان (ينزل الملائكة) يعنى جبريل ومن معه من الملائكة (بالروح (من)

القلوب الميتة بالجهل (من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا) ان مفسرة لان تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول ومعنى
اندروا(انه لااله الا انا فاتقون)اعلموا بان الامر ذلك من ندرت بكذا اذا علمته
والمعنى اعلموا الناس قولى لااله الا أنا فاتقون فخافون وبالياء يعقوب ثم دل على وحدانيته وانه لااله الاهو بماذكر ممالايقدر عليه غيره من خلق السموات والارض وهو قوله (خلق السموات والارض بالحق تعالى عمايشركون) وبالتاء فى الموضعين حمزة وعلى وخلق الانسان ومايكون منه وهو قوله (خلق الانسان من نطفة فاذاهوخصيم مبين) أى فاذاهومنطيق مجادل عن نفسه مكافح لخصومه مبين لحجته بعدما كان نطفة لاحس به ولا حركة أوفاذاهوخصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيي العظام وهى رميم وهو وصف للانسان بالوقاحة والتمادى فى كفران النعمة وخلق مالابدله منه من خلق البهائم لاكله وركوبه وحمل أثقاله وسائر

الذى به علم الرسول صلى الله عليه وسلم ماتحقق موعدهم به ودنوه وازاحة لاستبعادهم اختصاصه بالعلم به •وقرأ ابن كثير وابو عمرو ينزل من انزل وعن يعقوب مثله وعنه تنزل بمعنى تتنزل •وقرأ ابو بكر تنزل على المضارع المبنى للمفعول من التنزيل ﴿ من أمره ﴾ بامره ومن اجله ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ الانبياء ان يتخذه رسولا ﴿ ان انذروا ﴾ بان انذروا أى اعلموا من نذرت بكذا اذا علمته ﴿ انه لااله الا انا فاتقون ﴾ ان الشأن لااله الا انا فاتقون أو خوفوا أهل الكفر والمعاصى بانه لااله الا انا وقوله فاتقون رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود وان مفسرة لان الروح بمعنى الوحى الدال على القول أو مصدرية فى موضع الجر بدلا من الروح أو النصب بنزع الخافض أو مخففة من الثقيلة والآية تدل على ان نزول الوحى بواسطة الملائكة وان حاصله التنبيه على التوحيد الذى هو منتهى كمال القوة العلمية والامر بالتقوى الذى هو اقصى كمالات القوة العملية وان النبوة عطائية والآيات التى بعدها دليل وحدانيته من حيث انها تدل على انه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة ولو كان له شريك لقدر على ذلك فيلزم التمانع ﴿ خلق السموات والارض بالحق ﴾ اوجدهما على مقدار وشكل واوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ منها أو مما يفتقر فى وجوده أو بقائه اليها ومما لايقدر على خلقهما وفيه دليل على انه سبحانه وتعالى ليس من قبيل الاجرام ﴿ خلق الانسان من نطفة ﴾ جماد لاحس لها ولا حراك سيالة لاتحفظ الوضع والشكل ﴿ فاذا هو خصيم ﴾ منطيق مناظر مجادل ﴿ مبين ﴾ للحجة أو خصيم مكافح لخالقه قائل من يحيي العظام وهى رميم •روى ان ابى بن خلف اتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعظم رميم

﴿ من أمره ﴾ وانما سمى الامر روحا لانه به تحيا القلوب من موت الجهالات وقال عطاء بالنبوة وقال قتادة بالرحمة وقيل الروح هو جبريل والباء بمعنى مع يعنى ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ يعنى على من يصطفيه من عباده للنبوة والرسالة وتبليغ الوحى الى الخلق ﴿ أن أنذروا ﴾ يعنى بأن أعلموا ﴿ أنه لااله الا أنا فاتقون ﴾ أى فخافون وقيل معناه مروا بقول لااله الا الله منذرين يعنى مخوفين بالقرآن ﴿ خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ تقدم تفسيره ﴿ خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ﴾ يعنى انه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت فى أبى بن خلف الجمحى وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تزعم ان الله يحيي هذا العظم بعدما رم فنزلت فيه هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيي العظام وهى رميم والصحيح ان الآية عامة فى كل مايقع من الخصومة فى الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم أولى وفيها بيان القدرة وان الله خلق الانسان من نطفة قذرة فصار جبارا كثير الخصومة وفيها كشف قبيح مافعله الكفار من جحدهم نعم الله

من أمره) بالنبوة والكتاب بامره (على من يشاء من عباده) يعنى محمدا وغيره من الانبياء (أن انذروا) خوفوا بالقرآن واقرؤا حتى يقولوا (أنه لااله الا أنا
فاتقون) فاطيعونى ووحدونى (خلق السموات والارض بالحق) للحق ويقال للزوال والفناء (تعالى) تبرأ (عما يشركون) من الاوثان
(خلق الانسان) أبى بن خلف الجمحى (من نطفة) منتنة (فاذا هو خصيم) جدل بالباطل (مبين) ظاهر الجدال لقوله من يحيي العظام

وقال يا محمد أترى ان الله تعالى يحيي هذا بعدما قدم فنزلت ﴿ والانعام ﴾ الابل والبقر والغنم وانتصابها بفعل يفسره ﴿ خلقها لكم ﴾ أو بالعطف على الانسان وخلقها لكم بيان ماخلق لاجله ومابعده تفصيل له ﴿ فيها دفء ﴾ مايدفأ به فيقي البرد ﴿ ومنافع ﴾ نسلها ودرها وظهورها وانما عبر عنها بالمنافع ليتناول عوضها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أي تأكلون مايؤكل منها من اللحوم والشحوم والالبان وتقديم الظرف للمحافظة على رؤس الآي أولان الاكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش واما الاكل من سائر الحيوانات المأكولة فعلى سبيل التداوي أو التفكه ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ زينة ﴿ حين تريحون ﴾ تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي ﴿ وحين تسرحون ﴾ تخرجونها بالغداة الى المراعي فان الافنية تتزين بها في الوقتين ويجل اهلها في اعين الناظرين اليها وتقديم الاراحة لان الجمال فيها اظهر فانها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع ثم تأوي الى الحظائر حاضرة لاهلها وقرئ حينا على ان تريحون وتسرحون وصف له بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه

تعالى مع ظهورها عليهم ✽ قوله عز وجل ﴿ والانعام خلقها ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والارض ثم أتبعه بذكر خلق الانسان ذكر بعده ماينتفع به في سائر ضروراته ولما كان أعظم ضرورات الانسان الى الاكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الانسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك وهو الانعام فقال تعالى والانعام خلقها وهي الابل والبقر والغنم قال الواحدي تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ لكم فيها دفء ﴾ قال ويجوز أيضا ان يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدئ بقوله لكم فيها دفء والدليل عليه أنه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال ولما كانت منافع هذه الانعام منها ضرورية ومنها غير ضرورية بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية فقال تعالى لكم فيها دفء وهو مايستدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار الحاصلة من النعم ﴿ ومنافع ﴾ يعني النسل والدر والركوب والحمل عليها وسائر ماينتفع به من الانعام ﴿ ومنها تأكلون ﴾ يعني من لحومها فان قلت قوله تعالى ومنها تأكلون يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها قلت الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فغير معتد به في الاغلب وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الاغلب في الاكل من هذه الانعام ✽ فان قلت منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الاكل وقدم منفعة اللباس قلت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الاكل فلهذا قدم على الاكل ✽ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولكم فيها ﴾ أي في الانعام ﴿ جمال ﴾ أي زينة ﴿ حين تريحون وحين تسرحون ﴾ الاراحة رد الابل

حاجاته وهو قوله (والانعام خلقها لكم) هي الازواج الثمانية وأكثر مايقع على الابل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر قدرناه منازل أو بالعطف على الانسان أي خلق الانسان والانعام ثم قال خلقها لكم اي ماخلقها الا لكم ياجنس الانسان (فيها دفء) وهو اسم مايدفأ به من لباس معمول من صوف اوو براو شعر (ومنافع) وهي نسلها ودرها (ومنها تأكلون) قدم الظرف وهو يؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها الا ان الاكل منها هو الاصل الذي يعتمد الناس في معايشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه (ولكم فيها جمال حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) ترسلونها بالغداة الى مسارحها من الله تعالى

وهي رميم (والانعام) يعني الابل (خلقها لكم فيها دفء) الادفاء من الاكسية وغيرها (ومنافع) في ظهورها والبانها (ومنها تأكلون) من لحومها تأكلون (ولكم فيها جمال) منظر حسن (حين تريحون) من الرعي (وحين تسرحون) الى الرعي

﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ احمالكم ﴿ الى بلد لم تكونوا بالغيه ﴾ ان لم تكن ولم تخلق فضلا عن ان تحملوها على ظهوركم اليه ﴿ الا بشق الانفس ﴾ الا بكلفة ومشقة * وقرئ بالفتح وهو لغة فيه وقيل المفتوح مصدر شق الامر عليه واصله الصدع والمكسور بمعنى النصف كأنه ذهب نصف قوته بالتعب ﴿ ان ربكم لرؤف رحيم ﴾ حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الامر عليكم ﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ عطف على الانعام ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ أى لتركبوها ولتتزينوا بها زينة وقيل هى معطوفة على محل

بالعشى الى مراحها حيث تأوى اليه بالليل ويقال سرح القوم ابلهم تسريحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى قال اهل اللغة وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما تكون النعم فى ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لانه من أغراض أصحاب المواشى بل هو من معظمها لان الرعاة اذا سرحوا النعم بالغداة الى المرعى وروحوها بالعشى الى الافنية والبيوت يسمع للابل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا فعند ذلك يفرح أربابها بها وتتجمل بها الافنية والبيوت ويعظم وقعها عند الناس * فان قلت لم قدمت الاراحة على التسريح * قلت لان الجمال فى الاراحة وهو رجوعها الى البيوت أكثر منها وقت التسريح لان النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن ثم تأخذ فى التفرق والانتشار للرعى فى البرية فثبت بهذا البيان ان التجمل فى الاراحة أكثر منه فى التسريح فوجب تقديمه * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ الأثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج اليه من آلات السفر ﴿ الى بلد ﴾ يعنى غير بلدكم قال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشام وانما قال ابن عباس هذا القول لانه خطاب لاهل مكة وأكثر تجاراتهم وأسفارهم الى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لانه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ يعنى بالغى ذلك البلد الذى تقصدونه ﴿ الا بشق الانفس ﴾ يعنى بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشئ والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها ﴿ ان ربكم لرؤف رحيم ﴾ يعنى بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع * قوله سبحانه وتعالى ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ هذه الآية عطف على ما قبلها والمعنى وخلق هذه الحيوانات لاجل أن تركبوها والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط والنساء ﴿ وزينة ﴾ يعنى وجعلها زينة مع المنافع التى فيها

فصل

احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال

قدمت الاراحة على التسريح لان الجمال فى الاراحة أظهر اذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع (وتحمل أثقالكم) أحمالكم (الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس) وبفتح الشين أبو جعفر وهما لغتان فى معنى المشقة وقيل المفتوح مصدر شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذى هو الصدع وأما الشق فالنصف كانه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد والمعنى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تخلق الابل الا بجهد ومشقة فضلا أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم أو معناه لم تكونوا بالغيه بها الا بشق الانفس وقيل أثقالكم أبدانكم ومنه الثقلان للجن والانس ومنه وأخرجت الارض أثقالها أى بنى آدم (ان ربكم لرؤف رحيم) حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) عطف على الانعام أى وخلق

(وتحمل أثقالكم) أمتعتكم وزادكم (الى بلد) يعنى مكة (لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس) (قا و خا ٧٤ لث) الا بتعب النفس (ان ربكم لرؤف) بمن آمن (رحيم) بتأخير العذاب عنكم (والخيل والبغال والحمير) يقول خلق الخيل والبغال والحمير (لتركبوها) فى سبيل الله (وزينة) لكم فيها منظر حسن

لتركبوها وتغيير النظم لان الزينة بفعل الخالق والركوب ليس بفعله ولان المقصود من خلقها الركوب واما التزين بها فحاصل بالعرض *وقرئ بغير واو وعلى هذا يحتمل ان يكون علة لتركبوها أو مصدرا في موقع الحال من احد الضميرين أو متزينين أو متزينا بها واستدل به على حرمة لحومها ولا دليل فيه اذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غالبا ان لا يقصد منه غيره اصلا ويدل عليه ان الآية مكية وعامة المفسرين والمحدثين على ان الحمر الاهلية حرمت عام خيبر ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ لما فصل الحيوانات التي يحتاج اليها غالبا احتياجا ضروريا أو غير ضروري اجمل غيرها ويجوز ان يكون اخبارا بان له من الخلائق

هذه للركوب واليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله واستدلوا ايضا بان منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر لان الله سبحانه وتعالى خص الانعام بالاكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل وذهب جماعة من أهل العلم الى اباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأحمد واسحق *واحتجوا على اباحة لحوم الخيل بما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فاكلناه وفي رواية قالت ذبحنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فاكلناه أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وفي رواية قال أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم *وفي رواية أبي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل *وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على ان منفعتها مختصة بذلك وانما خص هاتان المنفعتان بالذكر لانهما معظم المقصود قالوا ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله في الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من هذا تحريم حمل الاثقال على الخيل وقال البغوي ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضي ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه دار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير فاخذنا بهما جمعا بين النصين والله أعلم *وقوله تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التي ينتفع بها الانسان في جميع حالاته وضرورياته على سبيل التفصيل ذكر بعدها ما لا ينتفع به الانسان في الغالب على سبيل الاجمال لان مخلوقات الله عز وجل

هذه للركوب والزينة وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله على حرمة أكل لحم الخيل لانه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الاكل بعدما ذكره في الانعام ومنفعة الاكل أقوى والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكيم ان يذكر في مواضع المنة أدنى النعمتين ويترك أعلاهما وانتصاب زينة على المفعول له عطفا على محل لتركبوا وخلق ما لا تعلمون من أصناف خلائقه وهو قوله (ويخلق ما لا تعلمون) ومن هذا وصفه بتعالى عن أن يشرك

(ويخلق ما لا تعلمون) يقول خلق من الاشياء ما لا تعلمون مما لم يسمه لكم

مالا علم لنا به وان يراد به ما خلق في الجنة والنار مما لم يخطر على قلب بشر ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل الى الحق أو اقامة السبيل وتعديلها رحمة وفضلا أو عليه قصد السبيل يصل اليه من يسلكه لامحالة يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم كأنه يقصد الوجه الذى يقصده السالك لا يميل عنه والمراد بالسبيل الجنس ولذلك اضاف اليه القصد وقال ﴿ ومنها جائر ﴾ حائل عن القصد أو عن الله وتغيير الاسلوب لانه ليس بحق على الله تعالى ان يبين طرق الضلالة أو لان المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض وقرئ ومنكم جائر أى عن القصد ﴿ ولو شاء الله لهداكم اجمعين ﴾ أى ولو شاء هدايتكم اجمعين لهداكم الى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتداء ﴿ هو الذى انزل من السماء ﴾ من السحاب أو من جانب السماء ﴿ ماء لكم منه شراب ﴾ ماتشربونه ولكم صلة انزل أو خبر شراب ومن تبعيضية متعلقة به وتقديمها يوهم حصر المشروب فيه ولا بأس به لان مياه العيون والآبار منه لقوله فسلكه ينابيع وقوله فاسكناه فى الارض ﴿ ومنه شجر ﴾ ومنه يكون شجر يعنى الشجر

فى البر والبحر والسموات أكثر من أن تحصى أو يحيط بها عقل أحد أو فهمه فلهذا ذكرها على الاجمال وقال بعضهم ويخلق مالا تعلمون يعنى مما أعد الله لاهل الجنة فى الجنة ولاهل النار فى النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة فى قوله ويخلق مالا تعلمون يعنى السوس فى النبات والدود فى الفواكه ❁ قوله سبحانه وتعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا أداك الى مطلوبك وفى الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين ﴿ ومنها جائر ﴾ يعنى ومن السبيل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر وقال جابر ابن عبد الله قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله قصد السبيل السنة ومنها جائر الاهواء والبدع ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ فيه دليل على ان الله تعالى ماشاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولو شاء لهداكم أجمعين معناه ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد انه تعالى ماشاء هدايتهم فلا جرم ماهداكم ❁ قوله عز وجل ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر من السماء وهو من أعظم النعم على العباد فقال وهو الذى أنزل من السماء يعنى والله الذى خلق جميع الاشياء هو الذى أنزل من السماء ماء يعنى المطر ﴿ لكم منه ﴾ يعنى من ذلك الماء ﴿ شراب ﴾ يعنى تشربونه ﴿ ومنه ﴾ يعنى ومن ذلك الماء ﴿ شجر ﴾ الشجر فى اللغة ماله ساق من نبات الارض ونقل واحدى عن أهل اللغة انهم قالوا الشجر أصناف ماجل وعظم وهو الذى يبقى على الشتاء ومادق وهو صنفان أحدهما

والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم كانه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه ومعناه ان هداية الطريق الموصل الى الحق عليه كقوله ان علينا للهدى وليس ذلك للوجوب اذ لا يجب على الله شئ ولكن يفعل ذلك تفضلا وقيل معناه والى الله وقال الزجاج معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء اليه بالحجج ومنها جائر أو من السبيل مائل عن الاستقامة (ولو شاء لهداكم أجمعين) أراد هداية اللطف بالتوفيق والانعام بعد الهدى العام (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب) لكم متعلق بانزل أو خبر لشراب وهو مايشرب (ومنه شجر) يعنى الشجر الذى

(وعلى الله قصد السبيل) هداية الطريق فى البر والبحر (ومنها) من الطريق (جائر) مائل لا يهتدى به (ولو شاء لهداكم أجمعين) الى الطريق فى البر والبحر ويقال وعلى الله قصد السبيل الهدى الى التوحيد ومنها من الاديان جائر مائل ليس بعادل مثل اليهودية والنصرانية والمجوسية ولو شاء لهداكم أجمعين لدينه (هو الذى أنزل من السماء ماء) مطرا (لكم منه شراب) مايستقر فى الارض فى الركايا والغدران (ومنه شجر) به

الذى ترعاه المواشى وقيل كل ما ينبت على الارض شجر قال

نعلفها اللحم اذاعز الشجر * والخيل فى اطعامها اللحم ضرر

﴿ فيه تسيمون ﴾ ترعون من سامت الماشية واسامها صاحبها واصلها السومة وهى العلامة لانها تؤثر بالرعى علامات ﴿ ينبت لكم به الزرع ﴾ وقرأ ابو بكر بالنون على التفخيم ﴿ والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ﴾ وبعض كلها اذلم ينبت فى الارض كل ما يمكن من الثمار ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لانه سيصير غذاء حيوانيا هو اشرف الاغذية ومن هذا تقديم الزرع والتصريح بالاجناس الثلاثة وترتيبها ﴿ ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ على وجود الصانع وحكمته فان من تأمل ان الحبة تقع فى الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق اعلاها ويخرج منه ساق الشجرة وينشق اسفلها فيخرج منه عروقها ثم تمو ويخرج منها الاوراق والازهار والاكام والثمار ويشتمل كل منها على اجسام مختلفة الاشكال والطبائع مع اتحاد المواد ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية الى الكل علم ان ذلك ليس الا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الاضداد والانداد ولعل فصل الآية به لذلك ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ﴾ بان هيأها لمنافعكم ﴿ مسخرات بأمره ﴾ حال من الجميع أى نفعكم بها حال كونها مسخرات الله تعالى

تبقى له أدوحة فى الشتاء وينبت فى الربيع ومنها ما لا يبقى له ساق فى الشتاء كالبقول وقال أبو اسحق كل ما ينبت على وجه الارض فهو شجر وأنشد * نطعمها اللحم اذا عز الشجر * أراد أنهم يسقون الخيل اللبن اذا أجدبت الارض وقال ابن قتيبة فى هذه الآية يعنى الكلأ ومعنى الآية انه ينبت بالماء الذى أنزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لان الابل ترعى كل الشجر ﴿ فيه ﴾ يعنى فى الشجر ﴿ تسيمون ﴾ يعنى ترعون مواشيكم يقال أسمت السائمة اذا خليتها ترعى وسامت هى اذا رعت حيث شاءت ﴿ ينبت لكم ﴾ أى ينبت الله لكم وقرئ ننبت على التعظيم لكم ﴿ به ﴾ أى بذلك الماء ﴿ الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ﴾ لما ذكر الله فى الحيوان تفصيلا واجمالا ذكر فى الثمار تفصيلا واجمالا فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما لان به قوام بدن الانسان وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لان ثمرتها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانها شبه النخلة فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر سائر الثمرات اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده * ثم قال تعالى ﴿ ان فى ذلك ﴾ يعنى الذى ذكر من أنواع الثمار ﴿ لآية ﴾ يعنى علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ يعنى فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ﴾ تقدم تفسيره فى سورة الاعراف ﴿ مسخرات ﴾ يعنى مذللات مقهورات تحت قهره وارادته وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هى الفعالة المتصرفة فى العالم السفلى فاخبر الله تعالى ان هذه النجوم مسخرات فى نفسها مذللات ﴿ بأمره ﴾ يعنى بامر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء

وهو من السومة وهى العلامة لانها تؤثر بالمرعى علامات فى الارض (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) ولم يقل كل الثمرات لان كلها الا تكون الا فى الجنة وانما أنبت فى الارض بعض من كلها للتذكرة (ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته والآية الدلالة الواضحة (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) بنصب الكل على وجعل النجوم مسخرات والنجوم مسخرات فقط حفص والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامى على الابتداء والخبر

ينبت الشجر والنبات (فيه تسيمون) ترعون انعامكم (ينبت لكم به) بالمطر (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب) يعنى الكروم (ومن كل الثمرات) من ألوان كل الثمرات ان فى ذلك) فى ألوان ما ذكرت وفى طعمه (لآية) لعلامة وعبرة (لقوم يتفكرون) فيما خلق الله لهم (وسخر لكم) ذلل لكم (الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات) مذللات (بأمره) باذنه

خلقها ودبرها كيف شاء أولما خلقن له بايجاده وتقديره أوبحكمه وفيه ايذان بالجواب عما عسى ان يقال ان المؤثر فى تكوين النبات حركات الكواكب واوضاعها فان ذلك ان سلم فلاريب فى انها ايضا ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه المحتملة فلابدلها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل أو مصدر ميمى جمع لاختلاف الانواع * وقرأ حفص والنجوم مسخرات على الابتداء والخبر فيكون تعميما للحكم بعد تخصيصه ورفع ابن عامر الشمس والقمر ايضا ﴿ ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ جمع الآية وذكر العقل لانها تدل انواعا من الدلالة ظاهرة لذوى العقول السليمة غير محوجة الى استيفاء فكر كأحوال النبات ﴿ وماذرأ لكم فى الارض ﴾ عطف على الليل أى وسخر لكم ماخلق لكم فيها من حيوان ونبات ﴿ مختلفا ألوانه ﴾ اصنافه فانها تتخالف باللون غالبا ﴿ ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ ان اختلافها فى الطبائع والهيآت والمناظر ليس الا بصنع صانع حكيم ﴿ وهو الذى سخر البحر ﴾ جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص ﴿ لتأكلوا منه لحما طريا ﴾ هو السمك ووصفه بالطراوة لانه ارطب اللحوم فيسرع اليه الفساد فيسارع

مختار وأنها ليس لها تصرف فى نفسها فضلا عن غيرها ولما ذكر الله سبحانه و تعالى انه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله ﴿ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ يعنى أن كل من كان له عقل صحيح سليم علم ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال المختار وان جميع الخلق تحت قدرته وقهره وتسخيره لما أراده منهم ﴿وماذرأ لكم فى الارض﴾ يعنى وماخلق لكم فى الارض وسخر لاجلكم من الدواب والانعام والاشجار والثمار ﴿مختلفا ألوانه﴾ يعنى فى الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف ألوان المخلوقات مع كثرتها حتى لايشبه بعضها بعضا من كل الوجوه فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى ﴿ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ يعنى فيعتبرون بذلك * قوله سبحانه وتعالى ﴿وهو الذى سخر﴾ لكم ﴿البحر﴾ لماذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته من خلق السموات والارض وخلق الانسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته وعجائب صنعته وذكر انعامه فى ذلك على عباده ذكر بعد ذلك انعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله عليهم ومعنى تسخير الله البحر لعباده جعله بحيث تمكن الناس من الانتفاع به اما بالركوب عليه أو بالغوص فيه أو الصيد منه فذكر هذه الثلاثة الاقسام من أنواع الانتفاع به فقال تعالى وهو الذى سخر البحر ﴿لتأكلوا منه لحما طريا﴾ فبدأ بذكر الاكل لانه أعظم المقصود لان به قوام البدن وفى ذكر الطرى مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى وذلك ان السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى مايعرف بالطرى لانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الطرى الذى لحمه فى غاية العذوبة علم انه انما حدث بقدرة الله وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله قادر

جمع الآية وذكر العقل لان الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة (وماذرأ لكم فى الارض) معطوف على الليل والنهار أى ماخلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك (مختلفا) حال (ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) يتعظون (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك ووصفه بالطراوة لان الفساد يسرع اليه فيؤكل سريعا طريا خيفة الفساد وانما لايحنث باكله اذا حلف لايأكل لحما لان مبنى الايمان على العرف ومن قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار

(ان فى ذلك) فى تسخير ماذكرت (لآيات) لعلامات (لقوم يعقلون) يعلمون ويصدقون ان تسخيرها من الله (وماذرأ) يقول وما خلق (لكم فى الارض مختلفا ألوانه) أجناسه من النبات والثمار وغير ذلك (ان فى ذلك) فى ألوان ماخلقت (لآية) لعلامة وعبرة (لقوم يذكرون) يتعظون بما فى القرآن (وهو الذى سخر) ذلل (البحر لتأكلوا منه لحما) يعنى سمكا (طريا)

الى اكله ولأظهار قدرته فى خلقه خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق وتمسك به مالك والثورى على ان من حلف ان لا يأكل لحما حنث باكل السمك واجيب عنه بان مبنى الايمان على العرف وهو لا يفهم منه عند الاطلاق ألا ترى ان الله تعالى سمى الكافر دابة ولا يحنث الحالف على ان لا يركب دابة بركوبه ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ كاللؤلؤ والمرجان أى تلبسها نساؤكم فاسند اليهم لانهن من جلتهم ولانهن يتزين بها لاجلهم ﴿ وترى الفلك ﴾ السفن ﴿ مواخر فيه ﴾ جوارى فيه تشقه بحيزومها من المخر هو شق الماء وقيل صوت جرى الفلك ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى تعرفون نعم الله تعالى فتقومون بحقها ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لانه اقوى فى باب الانعام من حيث انه جعل المهالك سببا للانتفاع وتحصيل المعاش ﴿ وألقى فى الارض رواسى ﴾ جبالا رواسى ﴿ ان تميد بكم ﴾ كراهة ان تميل بكم وتضطرب وذلك لان الارض قبل ان تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها ان تتحرك بالاستدارة كالافلاك أو ان تتحرك بادنى سبب للتحريك فلما خلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد التى تمنعها عن الحركة وقيل لما خلق الله الارض جعلت تمور فقالت الملائكة ماهى بمقر احد على ظهرها فاصبحت وقد ارسيت بالجبال ﴿ وانهارا ﴾ وجعل فيها انهارا لان القى فيه معناه ﴿ وسبلا

على اخراج الضد من الضد * المنفعة الثانية قوله تعالى ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ يعنى اللؤلؤ والمرجان كما قال الله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لان زينة النساء بالحلى وانما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم * المنفعة الثالثة قوله تعالى ﴿ وترى الفلك ﴾ يعنى السفن ﴿ مواخر فيه ﴾ يعنى جوارى فيه قال قتادة مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر تجريان بريح واحدة وأصل المخر فى اللغة الشق يقال مخرت السفينة مخرا اذا شقت الماء بجؤجؤها وقال مجاهد تمخر الرياح السفن يعنى أنها اذا جرت يسمع لها صوت قال أبو عبيدة يعنى صوائخ والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن مواخر يعنى مواقر أى مملوأة متاعا ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ يعنى الارباح بالتجارة فى البحر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ يعنى انعام الله عليكم اذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم ﴿ وألقى فى الارض رواسى ﴾ يعنى جبالا ثقالا ﴿ أن تميد بكم ﴾ يعنى لئلا تميل وتضطرب بكم والميد هو اضطراب الشئ العظيم كالارض وقال وهب لما خلق الله سبحانه وتعالى الارض جعلت تمور وتتحرك فقالت الملائكة ان هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فاصبحوا وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال ﴿ وأنهارا ﴾ يعنى وجعل فيها أنهارا لان فى ألقى معنى الجعل فقوله سبحانه وتعالى وأنهارا معطوف على وألقى ولما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الانهار لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال ﴿ وسبلا ﴾ يعنى وجعل فيها طرقا مختلفة

(وتستخرجوا منه حلية) هى اللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن انما يتزين بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم (وترى الفلك مواخر) جوارى تجرى جريا وتشق الماء شقا والمخر شق الماء بحيزومها (فيه) فى البحر (ولتبتغوا من فضله) هو عطف على محذوف أي لتعتبروا ولتبتغوا وابتغاء الفضل التجارة (ولعلكم تشكرون) الله على ما أنعم عليكم به (وألقى فى الارض رواسى) جبالا ثوابت (أن تميد بكم) كراهية أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم لكن حذف المضاف أكثر قيل خلق الله الارض فجعلت تميد فقالت الملائكة ماهى بمقر أحد على ظهرها فاصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت (وأنهارا) وجعل فيها أنهارا لان ألقى فيه معنى جعل (وسبلا)

(وتستخرجوا منه) من البحر (حلية) زهرة من اللؤلؤ وغيره (تلبسونها وترى الفلك) يعنى السفن (مواخر) مقبلة ومدبرة (فيه) فى البحر تجئ وتذهب بريح واحدة (ولتبتغوا) لكى تطلبوا (من فضله) من عمله ويقال من رزقه (ولعلكم تشكرون) لكى تشكروا نعمته (وألقى فى الارض رواسى) الجبال الثوابت (ان تميد) لكى لا تميد (بكم) الارض (وأنهارا) وأجرى فيها أنهار المنافعكم (وسبلا) (تسلكونها)

طرقا (لعلكم تهتدون) الى مقاصدكم أوالى توحيد ربكم (وعلامات) هي معالم الطرق وكل مايستدل به السابلة من جبل وغير ذلك (وبالنجم هم يهتدون) المراد بالنجم الجنس أوهو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى فان قلت وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم كانه قيل وبالنجم خصوصا

هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد بهم قلت كانه أراد قريشا فلهم اهتداء بالنجوم فى مسائرهم ولهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا (أفمن يخلق) أى الله تعالى (كمن لايخلق) أى الاصنام وجئ بمن الذى هو لاولى العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى أولى العلم أولان المعنى ان من يخلق ليس كمن لايخلق من أولى العلم فكيف بما لاعلم عنده وانما لم يقل أفمن لايخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره اياه لكونه الزاما للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله لانهم حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فانكر عليهم ذلك بقوله أفمن يخلق كمن لايخلق وهو حجة على المعتزلة فى خلق الافعال

لعلكم تهتدون ﴾ لمقاصدكم أوالى معرفة الله سبحانه وتعالى ﴿ وعلامات ﴾ معالم يستدل بها السابلة من جبل وسهل وريح ونحو ذلك ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ بالليل فى البرارى والبحار والمراد بالنجم الجنس ويدل عليه قراءة وبالنجم بضمتين وضمة وسكون على الجمع وقيل الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى ولعل الضمير لقريش لانهم كانوا كثيرى الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى مسائرهم بالنجوم واخراج الكلام عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه الزم لهم واوجب عليهم ﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق ﴾ انكار بعد اقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهى حكمته والتفرد بخلق ماعدد من مبدعاته لان يساويه ويستحق مشاركته مالايقدر على خلق شئ من ذلك بل على ايجاد شئ ما وكان حق الكلام أفمن لايخلق كمن يخلق لكنه عكس تنبيها على انهم بالاشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيها بها والمراد بمن لايخلق كل ماعبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلبا فيه اولو العلم منهم أوالاصنام واجراها مجرى اولى العلم لانهم سموها آلهة ومن حق الاله ان يعلم أوللمشاكلة بينه وبين من يخلق أوللمبالغة فكأنه قيل ان من يخلق ليس كمن لايخلق من اولى العلم فكيف بمن لاعلم عنده

تسلكونها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ يعنى بتلك السبل الى ماتريدون فلا تضلون ﴿ وعلامات ﴾ يعنى وجعل فيها علامات تهتدون بها فى أسفاركم قال بعضهم تم الكلام عند قوله وعلامات ثم ابتدأ ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ وقال محمد بن كعب والكلبى أراد بالعلامات الجبال والنجوم فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل وقال مجاهد أراد بالكل النجوم فمنها مايكون علامات ومنها مايهتدى به وقال السدى أراد بالنجم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدى فهذه يهتدى بها الى الطريق والقبلة وقال قتادة انما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف مالاعلم له به ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق ﴾ لما ذكر الله عزوجل من عجائب قدرته وغرائب صنعته وبديع خلقه ماذكر على الوجه الاحسن والترتيب الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وانه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعا قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام التى لاتضر ولاتنفع ولاتقدر على شئ أفمن يخلق يعنى هذه الاشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق لها كمن لايخلق يعنى هذه الاصنام العاجزة التى لاتخلق شيأ البتة لانها جمادات لاتقدر على شئ فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق

جعل فيها طرقا (لعلكم تهتدون) لكى تعرفوا الطريق (وعلامات) من الجبال وغير ذلك للمسافرين (وبالنجم) وبالفرقدين والجدى (هم) يعنى المسافرين (يهتدون) بهما فى البر والبحر (أفمن يخلق) وهو الله (كمن لايخلق) لايقدر أن يخلق يعنى الاصنام

﴿ أفلا تذكرون ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فانه لجلائه كالحاصل للعقل الذى يحضر عنده بادنى تذكر والتفات ﴿ وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ لاتضبطوا عددها فضلا ان تطيقوا القيام بشكرها اتبع ذلك تعداد النعم والزام الحجة على تفرده باستحقاق العبادة تنبيها على ان وراء ماعدد نعما لاتنحصر وان حق عبادته غير مقدور ﴿ ان الله لغفور ﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم فى اداء شكرها ﴿ رحيم ﴾ لايقطعها لتفريطكم فيه ولايعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿ والله يعلم ماتسرون وماتعلنون ﴾ من عقائدكم واعمالكم وهو وعيد وتزييف

(أفلا تذكرون) فتعرفون فساد ما أنتم عليه (وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) لاتضبطوا اعدادها ولاتبلغه طاقتكم فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر وانما اتبع ذلك ماعدد من نعمه تنبيها على ان ماوراءها لاينحصر ولا يعد (ان الله لغفور رحيم) يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكر النعمة ولايقطعها عنكم لتفريطكم (والله يعلم ماتسرون وماتعلنون) من أقوالكم وأفعالكم وهو وعيد

(أفلا تذكرون) أفلا تتعظون فيما خلق الله لكم (وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) لاتحفظوها ويقال لاتشكروها (ان الله لغفور) متجاوز (رحيم) لمن تاب (والله يعلم ماتسرون) من الخير والشر (وماتعلنون) من الخير والشر

هذه الاشياء كلها ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله ﴿ أفلا تذكرون ﴾ يعنى ان هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكر ❁ بقى فى الآية سؤالان الاول قوله كمن لايخلق المراد به الاصنام وهى جمادات لاتعقل فكيف يعبر عنها بلفظة من وهى لمن يعقل والجواب عنه ان الكفار لما سموا هذه الاصنام آلهة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل فى زعمهم ألا ترى الى قوله بعد هذا والذين تدعون من دون الله لايخلقون شيأ فخاطبهم على قدر زعمهم وعقولهم ❁ السؤال الثانى قوله أفمن يخلق كمن لايخلق المقصود منه الزام الحجة على من عبد الاصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لايخلق والجواب عنه انه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه ان من خلق الاشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة فى التسمية والعبادة وكيف يليق بالعاقل ان يترك عبادة من يستحق العبادة لانه خالق هذه الاشياء الظاهرة كلها ويشتغل بعبادة جمادات لاتخلق شيأ ألبتة والله أعلم ❁ وقوله تعالى ﴿ وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ يعنى ان نعم الله على العبد فيما خلق فيه من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم والسمع الذى يفهم به الاشياء وبطش اليدين وسعى الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليه فى نفسه وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع مايحتاج اليه من أمر الدين والدنيا لاتحصى حتى لورام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمه العظام التى لايمكن الوصول الى حصرها لجميع الخلق فذلك قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها يعنى ولو اجتهدتم فى ذلك وأتعبتم نفوسكم لاتقدرون عليه ﴿ ان الله لغفور ﴾ يعنى لتقصيركم فى القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم ﴿ رحيم ﴾ يعنى بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى ﴿ والله يعلم ماتسرون وماتعلنون ﴾ يعنى ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبى صلى الله عليه وسلم ومايعلنون يعنى ومايظهرون من ايذائه فاخبرهم الله عزوجل انه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لايخفى عليه خافية وان دقت وخفيت وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية ان الاله الذى يستحق العبادة يجب ان يكون عالما بكل معلومات سرها

(وعلانيتها)

(والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دون الله) وبالتاء غير عاصم (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون أموات) أي هم أموات (غير أحياء ومايشعرون أيان يبعثون) نفي عنهم خصائص الالهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لايموتون وعالمين بوقت البعث وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات جاهلون بالبعث ومعنى أموات غير أحياء انهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي غير جائز عليها الموت وأمرهم بالعكس من ذلك والضمير في يبعثون للداعين أي لايشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وان آلهتهم لايعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم وفيه دلالة على أنه لابد من البعث (الهكم اله واحد) أي ثبت بما مر أن الالهية لاتكون لغير الله وان معبودكم واحد (فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) للوحدانية (وهم مستكبرون) عنها وعن

للشرك باعتبار العلم ﴿ والذين تدعون من دون الله ﴾ أي والآلهة الذين تعبدونهم من دونه * وقرأ ابو بكر يدعون بالياء وقرأ حفص ثلاثتها بالياء ﴿ لايخلقون شيأ ﴾ لما نفي المشاركة بين من يخلق ومن لايخلق بين انهم لايخلقون شيأ لينتج انهم لايشاركونه ثم اكد ذلك بان اثبت لهم صفات تنافي الالوهية فقال ﴿ وهم يخلقون ﴾ لانها ذوات ممكنة مفتقرة الوجود الى التخليق والاله ينبغي ان يكون واجب الوجود ﴿ اموات ﴾ هم اموات لاتعتريهم الحياة أو اموات حالا أو مآلا ﴿ غير احياء ﴾ بالذات ليتناول كل معبود والاله ينبغي ان يكون حيا بالذات لايعتريه الممات ﴿ وما يشعرون ايان يبعثون ﴾ ولايعلمون وقت بعثهم أو بعث عبدتهم فكيف يكون لهم وقت جزاء اعمالهم منهم على عبادتهم والاله ينبغي ان يكون عالما بالغيوب مقدر الثواب والعقاب وفيه تنبيه على ان البعث من توابع التكليف ﴿ الهكم اله واحد ﴾ تكرير للمدعى بعد اقامة الحجج ﴿ فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ بيان لما اقتضى اصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم ايمانهم بالآخرة فان المؤمن بها يكون طالبا للدلائل متأملا فيما يسمع فينتفع به والكافر بها يكون حاله بالعكس وانكار قلوبهم مالايعرف الا بالبرهان

وعلانيتها وهذه الاصنام ليست كذلك فلاتستحق العبادة ثم وصف الله هذه الاصنام بصفات فقال تعالى ﴿ والذين تدعون من دون الله ﴾ يعني الاصنام التي تدعونها آلهة من دون الله ﴿ لايخلقون شيأ وهم يخلقون ﴾ * فان قلت قوله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لايخلق يدل على ان هذه الاصنام لاتخلق شيأ فقوله سبحانه وتعالى لايخلقون شيأ وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار * قلت فائدته ان المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لايخلقون شيأ فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لايخلقون شيأ وانهم مخلوقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار ﴿ أموات ﴾ أي جمادات ميتة لاحياة فيها ﴿ غير أحياء ﴾ يعني كغيرها والمعنى لو كانت هذه الاصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت لان الاله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لايموت وهذه أموات غير أحياء فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها وقوله ﴿ ومايشعرون ﴾ يعني هذه الاصنام ﴿ أيان يبعثون ﴾ يعني متى يبعثون وفيه دليل عن أن الاصنام تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها وقيل معناه مايدري الكفار الذين عبدوا الاصنام متى يبعثون * قوله سبحانه وتعالى ﴿ الهكم اله واحد ﴾ يعني ان الذي يستحق العبادة هو اله واحد وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة ﴿ فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ يعني جاحدة لهذا المعنى ﴿ وهم مستكبرون ﴾ يعني عن اتباع الحق لان الحق اذا تبين كان تركه

(والذين تدعون) تعبدون (من دون الله لايخلقون شيأ) لايقدرون ان يخلقوا شيأ كخلقنا (وهم يخلقون) ينحتون مخلوقة منحوتة (أموات) أصنام أموات (غير أحياء (قا و خا ۷۵ لث) ومايشعرون) يعني الآلهة (أيان يبعثون) من القبور فيحاسبون ويقال مايعلم الكفار متى يحاسبون ويقال ماتعلم الملائكة متى يحاسبون (الهكم اله واحد) يعلم ذلك لا الآلهة (فالذين لايؤمنون بالآخرة) بالبعث بعد الموت (قلوبهم منكرة) بالتوحيد (وهم مستكبرون) عن الايمان

الاقراربها (لاجرم) حقا(ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون) أى سرهم وعلانيتهم فيجازيهم وهو وعيد (انه لايحب المستكبرين)عن التوحيد يعنى المشركين(واذاقيل لهم)لهؤلاء الكفار (ماذاأنزل ربكم قالوا اساطير الاولين) ماذامنصوب بانزل أى أى شئ أنزل ربكم أو مرفوع على الابتداء أى أى شئ أنزله ربكم وأساطير خبر مبتدأ محذوف قيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا اساطير الاولين أى أحاديث الاولين وأباطيلهم واحدتها أسطورة واذا رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونهم بصدقه وانه نبي فهم الذين قالوا خيرا (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيمة ومن أوزار الذين يضلونهم) أى قالوا ذلك اضلالا للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة وبعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الاضلال لان المضل والضال شريكان واللام للتعليل (بغير علم)

اتباعا للاسلاف وركونا الى المألوف فانه ينافى النظر والاستكبار عن اتباع الرسول وتصديقه والالتفات الى قوله والاول هو العمدة فى الباب ولذلك رتب عليه ثبوت الآخرين ﴿لاجرم﴾ حقا ﴿ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون ﴾ فيجازيهم وهو فى موضع الرفع بجرم لانه مصدر اوفعل ﴿ انه لايحب المستكبرين ﴾ فضلا عن الذين استكبروا عن توحيده أواتباع رسوله ﴿ واذاقيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ القائل بعضهم على التهكم أوالوافدون عليهم اوالمسلمون ﴿ قالوا اساطير الاولين ﴾ أى ماتدعون نزوله أوالمنزل اساطير الاولين وانما سموه منزلا على التهكم أوعلى الفرض أى على تقدير انه منزل فهو اساطير الاولين لاتحقيق فيه والقائلون له قيل هم المقتسمون ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيمة ﴾ أى قالوا ذلك اضلالا للناس فحملوا اوزار ضلالهم كاملة فان اضلالهم نتيجة رسوخهم فى الضلال ﴿ومن اوزار الذين يضلونهم﴾ وبعض اوزار ضلال من يضلونهم وهو حصة التسبب ﴿ بغيرعلم ﴾ حال من المفعول أى يضلون من لايعلم انهم ضلال وفائدتها

تكبرا ﴿ لاجرم ﴾ يعنى حقا ﴿ ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون انه لايحب المستكبرين ﴾ يعنى عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس * قوله بطر الحق هو أن يجعل ماجعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا وهذا على قول من جعل أصل البطر من الباطل ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماع الحق فلا يقبله ولايجعله حقا وقيل البطر التكبر يعنى أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله * وقوله وغمط الناس يقال غمطت حق فلان اذا احتقرته ولم تره شيأ وكذا معنى غمصته أى انتقصت به وازدريته * قوله عزوجل ﴿ واذا قيل لهم ﴾ يعنى لهؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها وطرقها اذا سألهم الحاج الذين يقدمون عليهم ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين ﴾ يعنى آحاديثهم وأباطيلهم ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيمة ﴾ اللام فى ليحملوا لام العاقبة وذلك انهم لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعنى ذنوب أنفسهم وانما قال سبحانه وتعالى كاملة لان البلايا التى أصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا لاتكفر عنهم شيأ يوم القيامة بل يعاقبون بكل أوزارهم قال الامام فخر الدين الرازى وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لوكان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ يعنى ويحصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن

(لاجرم) حقا (ان الله يعلم مايسرون) مايخفون من البغض والحسد والمكر والخيانة (وما يعلنون) مايظهرون من الشتم والطعن والقتال (انه لايحب المستكبرين) عن الايمان (واذاقيل لهم) للمقتسمين (ماذا أنزل ربكم) ماذا يقول لكم محمد صلى الله عليه وسلم من ربكم (قالوا أساطير الاولين) كذب الاولين وأحاديثهم (ليحملوا أوزارهم) آثامهم (كاملة) وافرة (الايمان) (يوم القيمة ومن أوزار) مثل آثام (الذين يضلونهم) يصرفونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والايمان (بغيرعلم)

الدلالة على ان جهلهم لايعذرهم اذكان عليهم ان يبحثوا ويميزوا بين المحق والمبطل ﴿ ألاساء مايزرون ﴾ بئس شيأ يزرونه فعلهم ﴿ قدمكر الذين من قبلهم ﴾ سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾

الايمان مثل اوزار الاتباع ﴿ والسبب فيه ماروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيأ أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث أن الرئيس أو الكبير اذا سن سنة حسنة أو سنة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساويا لكل مايستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة وليس المراد ان الله تعالى يوصل جميع الثواب أو العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء لان ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى ولاتزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الاماسعى قال الواحدى ولفظة من فى قوله ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ليست للتبعيض لانها لوكانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام لاينقص ذلك من آثامهم شيأ ولكنها للجنس أى ليحملوا من جنس اوزار الاتباع وقوله بغير علم يعنى ان الرؤساء انما يقدمون على اضلال غيرهم بغير علم بما يستحقونه من العقاب على ذلك الاضلال بل يقدمون على ذلك جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد ﴿ ألاساء مايزرون ﴾ يعنى ألا بئس مايحملون ففيه وعيد وتهديد لهم ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ قدمكر الذين من قبلهم ﴾ يعنى من قبل كفار قريش وهو نمرود بن كنعان الجبار وكان أكبر ملوك الارض فى زمن ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان من مكره أنه بنى صرحا ببابل ليصعد الى السماء ويقاتل أهلها فى زعمه قال ابن عباس وكان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصفته وألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى فاهلكهم وهم تحته ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هكذا ذكره البغوى وفى هذا نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذى نشأ أسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكانت قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا فى قديم الزمان بالعربية ويدل على صحة هذا قوله ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى والله أعلم وقيل حمل قوله قدمكر الذين من قبلهم على العموم أولى فتكون الآية عامة فى جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون الحاق الضر والمكر بالغير ﴿ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ يعنى قصد تخريب بنيانهم

حال من المفعول أى يضلون من لايعلم أنهم ضلال (ألاساء مايزرون) محل مارفع (قدمكر الذين من قبلهم فاتى الله بنيانهم من القواعد) أى من جهة القواعد وهى الاساطين وهذا تمثيل يعنى أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم فى تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فاتى البنيان من الاساطين بان ضعضعت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا والجمهور على أن المرادبه نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان فاهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا فاتى الله أى أمره بالاستئصال

بلاعلم ولاحجة (ألاساء ما يزرون) بئس مايحملون من الذنوب يعنى المقتسمين (قدمكر الذين من قبلهم) بانبيائهم كما مكر المقتسمون بمحمد عليه السلام وهو نمرود الجبار الذى بنى الصرح (فاتى الله بنيانهم) قلع بنيانهم الصرح (من القواعد) من الاساس

فأتاها امره من جهة العمد التى بنوا عليها بان ضعضعت ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ وصار سبب هلاكهم ﴿ واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ لا يحتسبون ولا يتوقعون وهو على سبيل التمثيل وقيل المراد به نمرود بن كنعان بنى الصرح ببابل سمكه خمسة آلاف ذراع ليترصد امر السماء فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا ﴿ ثم يوم القيمة يخزيهم ﴾ يذلهم أو يعذبهم بالنار كقوله ربنا انك من تدخل النار فقد اخزيته ﴿ ويقول اين شركائى ﴾ اضاف الى نفسه استهزاء أو حكاية لاضافتهم زيادة فى توبيخهم قرأ البزى بخلاف عنه اين شركاى بغير الهمزة والباقون بالهمز ﴿ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ تعادون المؤمنين فى شأنهم * وقرأ نافع بكسر النون بمعنى تشاقوننى فان مشاقة المؤمنين كمشاقة الله عز وجل ﴿ قال الذين اوتوا العلم ﴾ أى الانبياء أو العلماء الذين كانوا يدعونهم الى التوحيد فيشاقونهم ويتكبرون عليهم أو الملائكة ﴿ ان الخزى اليوم والسوء ﴾ الذلة والعذاب ﴿ على الكافرين ﴾ وفائدة قولهم اظهار الشماتة بهم وزيادة الاهانة وحكايته

من أصوله وذلك بان أتاهم بريح قصفت بنيانهم من أعلاه وأتاهم بزلازل قلعت بنيانهم من قواعده وأساسه هذا اذا حملنا تفسير الآية على القول الاول وهو ظاهر اللفظ وان حملنا تفسير الآية على القول الثانى وهو حملها على العموم كان المعنى انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فاهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فاهلكه الله بمكره ومنه مثل السائر على ألسنة الناس من حفر بئرا لاخيه أوقعه الله فيه * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ يعنى سقط عليهم السقف فاهلكهم وقوله من فوقهم للتأكيد لان السقف لا يخر الا من فوقهم وقيل يحتمل انهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه فلما قال من فوقهم علم انهم كانوا تحته وانه لما خر عليهم أهلكوا وماتوا تحته ﴿ واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ يعنى فى مأمنهم وذلك انهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ يعنى يهينهم بالعذاب وفيه اشعار بان العذاب يحصل لهم فى الدنيا والآخرة لان الخزى هو العذاب مع الهوان ﴿ ويقول ﴾ يعنى ويقول الله لهم يوم القيامة ﴿ أين شركائى ﴾ يعنى فى زعمكم واعتقادكم ﴿ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ يعنى كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم فى شأنهم لان المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه والمعنى مالهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ يعنى المؤمنين وقيل الملائكة ﴿ ان الخزى ﴾ يعنى الهوان ﴿ اليوم ﴾ يعنى فى هذا اليوم وهو يوم القيامة ﴿ والسوء ﴾ يعنى العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ وانما يقول المؤمنون هذا يوم القيامة لان الكفار كانوا يستهزؤن بالمؤمنين فى الدنيا وينكرون عليهم

لا يحتسبون ولا يتوقعون (ثم يوم القيمة يخزيهم) يذلهم بعذاب الخزى سوى ما عذبوا به فى الدنيا (ويقول أين شركائى) على الاضافة الى نفسه حكاية لاضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم تشاقون نافع أى تشاقوننى فيهم لان مشاقة المؤمنين كانها مشاقة الله (قال الذين أوتوا العلم) أى الانبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم الى الايمان ويعظونهم فلا يلتفتون اليهم ويشاقونهم يقولون ذلك شماتة بهم أو هم الملائكة (ان الخزى اليوم) الفضيحة (والسوء) العذاب (على الكافرين

(فخر عليهم السقف) فوقع عليهم الصرح (من فوقهم وأتاهم العذاب) بالهدم (من حيث لا يشعرون) لا يعلمون (ثم) هو (يوم القيمة يخزيهم) يعذبهم ويذلهم (ويقول) الله يوم القيامة (أين شركائى) يعنى الآلهة التى زعمتم انهم شركائى (الذين كنتم تشاقون فيهم) تخالفون لقبلهم وتعادون أنبيائى لقبلهم (قال الذين أوتوا العلم) يعنى الملائكة (ان الخزى اليوم) العذاب يوم القيامة (والسوء) النار والشدة (على الكافرين { احوالهم }

الذين تتوفاهم الملائكة)وبالياءحمزة وكذامابعده(ظالمى أنفسهم) بالكفر بالله (فألقوا السلم) أى الصلح والاستسلام أى اخبتوا وجاؤا بخلاف ماكانوا عليه فى الدنيا من الشقاق وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) وجحدوا ماوجد منهم من الكفران والعداوة فردعليهم أولو العلم وقالوا (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أيضا من الشماتة وكذلك (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيهافلبئس مثوى المتكبرين) جهنم (وقيل للذين اتقوا) الشرك (ماذاأنزل ربكم قالوا خيرا) وانمانصب هذاورفع أساطير لان التقدير هنا أنزل خيرا فاطبقوا الجواب على السؤال وثمة التقدير هوأساطير الاولين فعدلوا بالجواب عن

لان يكون لطفا ووعظالمن سمعه ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ وقرأ حمزة بالياء وقرئ بادغام التاء فى التاء وموضع الموصول يحتمل الاوجه الثلاثة ﴿ ظالمى انفسهم ﴾ بان عرضوها للعذاب المخلد ﴿ فألقوا السلم ﴾ فسالموا واخبتوا حين عاينوا الموت ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ قائلين ما كنا نعمل من سوء كفران وعدوان ويجوز ان يكون تفسيرا للسلم على ان المراد به القول الدال على الاستسلام ﴿ بلى ﴾ أى فتجيبهم الملائكة بلى ﴿ ان الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ فهو يجازيكم عليه وقيل قوله فألقوا السلم الى آخر الآية استيناف ورجوع الى شرح حالهم يوم القيامة وعلى هذا اول من لم يجوز الكذب يومئذ ما كنا نعمل من سوء بانا لم نكن فى زعمنا واعتقادنا عاملين سوأ واحتمل ان يكون الرادعليهم هو الله أو اولو العلم ﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ كل صنف بابه المعدله وقيل ابواب جهنم اصناف عذابها ﴿ خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ جهنم ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ يعنى المؤمنين ﴿ ماذا انزل ربكم قالوا خيرا ﴾ أى انزل خيرا وفى نصبه دليل على انهم لم يتلعثموا فى الجواب واطبقوه على السؤال معترفين بالانزال

أحوالهم فاذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق وأكرموا بانواع الكرامات وأهين أهل الباطل وعذبوا بانواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول اظهار الشماتة بهم فيكون أعظم فى الهوان والخزى * قوله تعالى ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ تقبض أرواحهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ يعنى بالكفر ﴿ فألقوا السلم ﴾ يعنى أنهم استسلموا وانقادوا لامر الله الذى نزل بهم وقالوا ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ يعنى شركا وانما قالوا ذلك من شدة الخوف ﴿ بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ يعنى فلا فائدة لكم فى انكاركم قال عكرمة عنى بذلك ماحصل من الكفار يوم بدر ﴿ فادخلوا ﴾ أى فيقال لهم ادخلوا ﴿ أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ يعنى مقيمين فيها لايخرجون منها وانما قال ذلك لهم ليكون أعظم فى الغم والحزن وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ يعنى عن الايمان * قوله عزوجل ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ وذلك ان أحياء العرب كانوا يبعثون الى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار فيقولون هو ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون واذا لم تلقه خيرلك فيقول الوافد أناشر وافد ان رجعت الى قومى من دون ان أدخل مكة فالقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه وأمانته وانه نبى مبعوث من الله عزوجل فذلك قوله سبحانه وتعالى وقيل للذين اتقوا يعنى اتقوا الشرك وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا يعنى أنزل خيرا * فان قلت لم رفع الاول وهو قوله أساطير الاولين ونصب الثانى وهو قوله قالوا خيرا * قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب

الذين تتوفاهم الملائكة) قبضتهم الملائكة يوم بدر (ظالمى أنفسهم) بالكفر (فألقوا السلم) ردوا الجواب ويقال خضعوا لله (ما كنا نعمل من سوء) نعبد من شئ من دون الله وما كنا مشركين بالله (بلى) يقول الله بلى (ان الله عليم بما كنتم تعملون) وتقولون وتعبدون من دون الله (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) مقيمين فيها لاتموتون ولا تخرجون منها (فلبئس مثوى المتكبرين) منزل الكافرين جهنم (وقيل للذين اتقوا) الكفر والشرك والفواحش عبد الله بن مسعود وأصحابه (ماذا أنزل ربكم) ماذا يقول لكم محمد عليه السلام من ربكم (قالوا خيرا) توحيدا

السؤال (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) أى آمنوا وعملوا الصالحات أوقالوا لا اله الا الله (حسنة) بالرفع أى ثواب وأمن وغنيمة وهو بدل من خيرا حكاية لقول الذين اتقوا أى قالوا هذا القـول فقدم عليه تسميته خيرا ثم حكاه أوهو كلام مسـتأنف عـدة للقائلين وجعل قولهـم من جملة احسانهم (ولدار الآخرة خير) أى لهم فى الآخرة ماهو خير منهـا كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيـا وحسن ثواب الآخرة (ولنـعم دار المتقـين) دار الآخـرة فحـذف المخصوص بالمـدح لتقدم ذكره (جنـات عـدن) خبر لمبتدأ محذوف أوهو مخصوص بالمدح (يدخلونها) حال (تجرى من تحتها الانهار لهـم فيهـا مايشـاؤن كذلك يجزى الله المتقين الذين تتوفاهـم الملائكة طيبين) طـاهرين من ظلم أنفسـهم بالكفر لانه فى مقابلة ظـالمى أنفسـهم

على خلاف الكفرة روى ان احياء العرب كانوا يبعثون ايام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا جاء الوافد المقتسمين قالوا له ماقالوا واذا جاء المؤمنين قالوا له ذلك ﴿ للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ مكافأة فى الدنيا ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ أى ولثوابهم فى الآخرة خير منها وهو عدة للذين اتقوا على قولهم ويجوز ان يكون بما بعده حكاية لقولهم بدلا وتفسيرا لخير على انه منتصب بقالوا ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ دار الآخرة فحذفت لتقدم ذكرها وقوله ﴿ جنات عدن ﴾ خبر مبتدأ محذوف ويجوز ان يكون المخصوص بالمدح ﴿ يدخلونها تجرى من تحتها الانهار لهم فيها مايشاؤن ﴾ من انواع المشتهيات وفى تقديم الظرف تنبيه على ان الانسان لايجد جميع مايريده الا فى الجنة ﴿ كذلك يجزى الله المتقين ﴾ مثل هذا الجزاء يجزيهم وهو يؤيد الوجه الاول ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ طاهرين من ظلم انفسهم بالكفر والمعاصى لانه فى مقابلة ظالمى

المنكر الجاحد وجواب المقر المؤمن وذلك انهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الاولين وليس هو من الانزال فى شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا معقولا للانزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ يعنى للذين أتوا بالاعمال الصالحة الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة وقال الضحاك هى النصر والفتح وقال مجاهد هى الرزق الحسن فعلى هذا يكون معنى الآية للذين أحسنوا ثواب احسانهم فى هذه الدنيا حسنة وهى النصر والفتح والرزق الحسن وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده فى الدنيا ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ يعنى مالهم فى الآخرة مما أعد الله لهم فى الجنة خير مما يحصل لهم فى الدنيا ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ يعنى الجنة وقال الحسن هى الدنيا لان أهل التقوى يتزودون منها الى الآخرة والقول الاول أولى وهو قول جمهور المفسرين لان الله فسر هذه الدار بقوله ﴿ جنات عدن ﴾ يعنى بساتين اقامة من قولهم عدن بالمكان أى أقام به ﴿ يدخلونها ﴾ يعنى تلك الجنات لايرحلون عنها ولايخرجون منها ﴿ تجرى من تحتها الانهار ﴾ يعنى تجرى الانهار فى هذه الجنان من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم ﴿ لهم فيها ﴾ يعنى فى الجنات ﴿ مايشاؤن ﴾ يعنى ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك وهذه الحالة لاتحصل لاحد الا فى الجنة لان قوله لهم فيها مايشاؤن لايفيد الحصر وذلك يدل على ان الانسان لايجد كل مايريد فى الدنيا ﴿ كذلك يجزى الله المتقين ﴾ أى هكذا يكون جزاء المتقين ثم عاد الى وصف المتقين فقال تعالى ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ يعنى مؤمنين طاهرين من الشرك قال مجاهـد زاكية أقوالهم وأفعالهم وقيل ان قوله طيبين كلمة جامعة لكل معنى

وصلة (للذين أحسنوا) وحدوا (فى هذه الدنيا حسنة) الجنة يوم القيامة (ولدار الآخرة) يعنى الجنة (خير) من الدنيا ومافيها (ولنعم دار المتقين) الكفر والشرك والفواحش الجنة (جنات عدن) وهى مقصورة الرحمن (يدخلونها) يوم القيامة (تجرى من تحتها) من تحت شجرها ومساكنها (الانهار) أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (لهم فيها) فى الجنة (مايشاؤن) مايشتهون ويتمنون (كذلك) هكذا (يجزى الله المتقين) الكفر (حسن) والشرك والفواحش (الذين تتوفاهم الملائكة) قبضتهم الملائكة (طيبين) طاهرين

انفسهم وقيل فرحين ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض ارواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى حضرة القدس ﴿يقولون سلام عليكم﴾ لايحيقكم بعد مكروه ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ حين تبعثون فانها معدة لكم على اعمالكم وقيل هذا التوفى وفاة الحشر لان الامر بالدخول حينئذ ﴿ هل ينظرون ﴾ ماينتظر الكفار المار ذكرهم ﴿ الا ان تأتيهم الملائكة ﴾ لقبض

حسن فيدخل فيه انهم أتوا بكل ماأمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل مانهوا عنه من المكروهات والمحرمات مع الاخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من الاخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه ان أوقاتهم تكون طيبة سهلة لانهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة ﴿ يقولون ﴾ يعنى الملائكة لهم ﴿ سلام عليكم ﴾ يعنى تسلم عليهم الملائكة أو تبلغهم السلام من الله ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ يعنى فى الدنيا من الاعمال الصالحة * فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وبين قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة * قلت قال الشيخ محيي الدين النووى رحمه الله فى شرح مسلم اعلم ان مذهب أهل السنة انه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا ايجاب ولا تحريم ولا غير ذلك من أنواع التكليف ولا تثبت هذه الاشياء كلها ولا غيرها الا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضا ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شئ بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة فى سلطانه يفعل فيهما مايشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان ذلك عدلا منه واذا أكرمهم ورحمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلا ولكنه سبحانه وتعالى أخبر وخبره صادق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلا منه وأما المعتزلة فيثبتون الاحكام بالعقل ويوجبون ثواب الاعمال ويوجبون الاصلح فى ضبط طويل لهم تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع وفى ظاهر هذا الحديث دلالة لاهل الحق انه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته وأما قوله سبحانه وتعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وتلك الجنة التى اورثتموها بما كنتم تعملون ونحوها من الآيات التى تدل على أن الاعمال الصالحة يدخل بها الجنة فلا تعارض بينها وبين هذا الحديث بل معنى الآيات ان دخول الجنة بسبب الاعمال والتوفيق للاخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بالاعمال أى بسببها وهى من الرحمة والفضل والمنة والله أعلم بمراده * قوله تعالى ﴿ هل ينظرون ﴾ يعنى هؤلاء الذين أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يامحمد ﴿ الا أن تأتيهم الملائكة ﴾ يعنى

(يقولون سلام عليكم) قيل اذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك ياولى الله الله يقرأ عليك السلام ويبشره بالجنة ويقال لهم فى الآخرة (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) بعملكم (هل ينظرون) ما ينتظر هؤلاء الكفار (الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم وبالياء على وحمزة

من الشرك (يقولون سلام عليكم) من الله (ادخلوا الجنة) باعمالكم واقتسموها (بما كنتم تعملون) وتقولون من الخيرات فى الدنيا (هل ينظرون) ماينتظرون أهل مكة اذلا يؤمنون (الا ان تأتيهم الملائكة) لقبض ارواحهم

والتكذيب (فعل الذين من قبلهم وماظلمهم الله) بتدميرهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا مااستحقوا به التدمير (فاصابهم سيآت ماعملوا) جزاء سيآت أعمالهم (وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن) وأحاطه بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) هذا كلام صدر منهم استهزاء ولو قالوه اعتقادا لكان صوابا (ولا حرمنا من دونه من شئ) يعنى البحيرة والسائبة

ارواحهم وقرأ حمزة والكسائى بالياء ﴿أو يأتى امر ربك﴾ القيامة أو العذاب المستأصل ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿فعل الذين من قبلهم﴾ فاصابهم ماأصاب ﴿وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية اليه ﴿فاصابهم سيآت ماعملوا﴾ أى جزاء سيآت اعمالهم على حذف المضاف أو تسمية الجزاء باسمها ﴿وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن﴾ واحاط بهم جزاؤه والحيق لايستعمل الا فى الشر ﴿وقال الذين اشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولاحرمنا من دونه من شئ﴾ انما قالوا ذلك استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف متمسكين بان ماشاء الله يجب ومالم يشأ يمتنع فما الفائدة فيهما أو انكارا لقبح ما انكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتجين بانها لوكانت مستقبحة لما شاء الله صدورها عنهم ولشاء خلافه ملجئا اليه لااعتذارا اذلم يعتقدوا قبح اعمالهم وفيما بعده تنبيه على الجواب

لقبض أرواحهم ﴿أو يأتى أمر ربك﴾ يعنى بالعذاب فى الدنيا وهو عذاب الاستئصال وقيل المراد به يوم القيامة ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ يعنى من الكفر والتكذيب ﴿وماظلمهم الله﴾ يعنى بتعذيبه اياهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ يعنى باكتسابهم المعاصى والكفر والاعمال القبيحة الخبيثة ﴿فاصابهم سيآت ماعملوا﴾ يعنى فاصابهم عقوبات ماكتسبوا من الاعمال الخبيثة ﴿وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن﴾ والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم ﴿وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا﴾ يعنى ان مشركى مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء والحاصل انهم تمسكوا بهذا القول فى انكار النبوة فقالوا لوشاء الله منا الايمان لحصل جئت أولم تجئ ولوشاء الله منا الكفر لحصل جئت أولم تجئ واذا كان كذلك فالكل من الله فلا فائدة فى بعثة الرسل الى الامم والجواب عن هذا انهم لما قالوا ان الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثا كان هذا اعتراضا على الله تعالى وهو جار مجرى طلب العلة فى احكام الله وفى أفعاله وهو باطل لان الله سبحانه وتعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد فلا اعتراض لاحد عليه فى أحكامه وأفعاله ولا يجوز لاحد أن يقول له لم فعلت هذا ولم تفعل هذا وكان فى حكم الله وسنته فى عباده ارسال الرسل اليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى وينهوهم عن عبادة غيره وان الهداية والاضلال اليه فمن هداه فهو المهتدى ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله فى عباده أنه يأمر الكل بالايمان به وينهاهم عن الكفر ثم انه سبحانه وتعالى يهدى من يشاء الى الايمان ويضل من يشاء فلا اعتراض لاحد عليه ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل الى الامم الكافرة المكذبة كان قول هؤلاء لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا جهلا منهم لانهم اعتقدوا أن كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد باطل فلاجرم استحقوا عليه الذم والوعيد واما قوله تعالى ﴿ولا حرمنا من دونه من شئ﴾ يعنى الوصيلة والسائبة والحام والمعنى فلولا ان الله رضيها

(أويأتى أمر ربك) عذاب ربك بهلاكهم (كذلك) كما فعل بك قومك كذبوك وشتموك (فعل الذين من قبلهم) من قبل قومك بأنبيائهم كذبوهم وشتموهم (وما ظلمهم الله) بهلاكهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالشرك وتكذيب الرسل (فاصابهم سيآت ماعملوا) عقوبة ماعملوا وقالوا من المعاصى (وحاق بهم) دار ونزل بهم ووجب عليهم (ماكانوا به يستهزؤن) عقوبة استهزائهم بالانبياء ويقال العذاب الذى كانوا به يستهزؤن (وقال الذين أشركوا) بالله الاوثان يعنى أهل مكة (لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ) من الاصنام (نحن ولا آباؤنا) قبلنا (ولاحرمنامن دونه) من دون الله (من شئ) (لنا)

ونحوهما (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى كذبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل قولهم استهزاء (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) الا أن يبلغوا الحق ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) بان وحدوه (واجتنبوا الطاغوت) الشيطان يعنى طاعته (فمنهم من هدى الله) لاختيارهم الهدى (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى لزمته لاختياره اياها (فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم * ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ايمانهم . وأعلمه انهم من قسم من حقت عليه الضلالة فقال (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل) بفتح الياء وكسر

عن الشبهتين ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ فاشركوا بالله وحرموا احله وردوا رسله ﴿ فهل على الرسل الا البلاغ المبين ﴾ الا الابلاغ الموضح للحق وهو ان لم يؤثر فى هدى من شاء الله هداه لكنه مؤدى اليه على سبيل التوسط وما شاء الله وقوعه انما يجب وقوعه لا مطلقا بل باسباب قدرها له ثم بين ان البعثة امر جرت به السنة الالهية فى الامم كلها سببا لهدى من أراد اهتداءه وزيادة الضلال لمن اراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه ينفع المزاج السوى ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه بقوله تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ وفقهم للايمان بارشادهم ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ اذ لم يوفقهم ولم يرد هداهم وفيه تنبيه على فساد الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على ان تحقق الضلال وثباته بفعل الله تعالى وارادته من حيث انه قسيم من هدى الله قد صرح به فى الآية الاخرى ﴿ فسيروا فى الارض ﴾ يا معشر قريش ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من عاد وثمود وغيرهم لعلكم تعتبرون ﴿ ان تحرص ﴾ يا محمد ﴿ على هداهم فان الله لا يهدى من يضل ﴾ من يريد ضلاله وهو

لنا الغير ذلك ولهدانا الى غيره ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ يعنى ان من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما فى الامم الخالية ﴿ فهل على الرسل الا البلاغ المبين ﴾ يعنى ليس اليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ يعنى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ﴿ ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ يعنى ان الرسل كانوا يأمرونهم بان يعبدوا الله وان يجتنبوا عبادة الطاغوت وهو اسم كل معبود من دون الله ﴿ فمنهم ﴾ يعنى فمن الامم الذين جاءتهم الرسل ﴿ من هدى الله ﴾ يعنى هداه الله الى الايمان به وتصديق رسله ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ يعنى ومن الامم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق فى الازل حتى مات على الكفر والضلال وفى هذه الآية أبين دليل على ان الهادى والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف فى عباده فيهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لاحد عليه بما حكم به فى سابق علمه ﴿ فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ يعنى فسيروا فى الارض معتبرين متفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم ان أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ان تحرص على هداهم ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى ان تحرص يا محمد على هدى هؤلاء وايمانهم وتجتهد كل الاجتهاد ﴿ فان الله لا يهدى من يضل ﴾

من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ولكن حرم الله وأمرنا بذلك (كذلك) كما فعل وكذب قومك على الله بتحريم الحرث والانعام (فعل) كذب (الذين من قبلهم) على الله (فهل على الرسل) ما على الرسل (الا البلاغ) عن الله رسالة الله (المبين) بلغة تعلمونها ظاهرة (ولقد بعثنا فى كل أمة) الى كل قوم (رسولا) كما أرسلناك الى قومك (أن اعبدوا الله) وحدوا الله (واجتنبوا الطاغوت) اتركوا عبادة الاصنام ويقال الشيطان ويقال الكاهن (فمنهم) من أرسلنا (قا و خا ٧٦ لث) اليهم الرسل (من هدى الله) لدينه فاجاب الرسل الى الايمان (ومنهم من حقت) وجبت (عليه الضلالة) فلم يجب الرسل الى الايمان (فسيروا) سافروا (فى الارض فانظروا) فاعتبروا (كيف كان عاقبة المكذبين) آخر أمر المكذبين بالرسل (ان تحرص على هداهم) على توحيدهم (فان الله لا يهدى) لدينه (من يضل) خلقه عن دينه

المعنى من حقت عليه الضلالة وقرأ غير الكوفيين لايهدى من يضل على البناء للمفعول وهو ابلغ ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم ﴿ واقسموا بالله جهد ايمانهم لايبعث الله من يموت ﴾ عطف على وقال الذين اشركوا ايذانا بانهم كما انكروا التوحيد انكروا البعث مقسمين عليه زيادة في البت على فساده واقد رد الله تعالى عليهم ابلغ رد فقال ﴿ بلى ﴾ يبعثهم ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو مادل عليه بلى فان يبعث موعد من الله تعالى ﴿ عليه ﴾ انجازه لامتناع الخلف في وعده أو لان البعث مقتضى حكمته ﴿ حقا ﴾ صفة اخرى للوعد ﴿ ولكن اكثر الناس لايعلمون ﴾ انهم يبعثون اما لعدم علمهم بانه من مواجب الحكمة التى جرت عادته بمراعاتها واما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعه ثم انه تعالى بين الامرين فقال ﴿ ليبين لهم ﴾ أى يبعثهم ليبين لهم بعض ﴿ الذى يختلفون فيه ﴾ وهو الحق ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ فيما كانوا يزعمون وهو اشارة الى السبب الداعى الى البعث المقتضى له من حيث الحكمة وهو المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب ثم قال

قرئ بفتح الياء وكسر الدال يعنى لايهدى الله من أضله وقيل معناه لايهتدى من أضله الله وقرئ بضم الياء وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادى له ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ أى مانعين يمنعونهم من العذاب ﴿ وأقسموا بالله جهد ايمانهم ﴾ قال ابن الجوزى سبب نزولها أن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فاتاه يتقاضاه فكان فيما يتكلم به المسلم والذى أرجوه بعد الموت فقال المشرك انك لتزعم انك تبعث بعد الموت واقسم بالله أن لايبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله أبو العالية وتقرير الشبهة التى حصلت للمشركين في انكار البعث بعد الموت ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم فى انكار البعث بعد الموت فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿ لايبعث الله من يموت ﴾ فرد الله عليهم ذلك وكذبهم فى قولهم فقال تعالى ﴿ بلى ﴾ يعنى بلى يبعثهم بعد الموت لان لفظة بلى اثبات لما بعد النفى والجواب عن شبهتهم ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وأوجده من العدم ولم يك شيأ فالذى أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى ﴿ وعدا عليه حقا ﴾ يعنى ان الذى وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لاخلف فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ يعنى لايفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ ﴿ ليبين لهم الذى يختلفون فيه ﴾ يعنى من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذى لاخلف فيه ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ يعنى

جهد أيمانهم) معطوف على وقال الذين أشركوا (لايبعث الله من يموت بلى) هو اثبات لما بعد النفى أى بلى يبعثهم (وعدا عليه حقا) وهو مصدر مؤكد لما دل عليه بلى لان يبعث موعد من الله وبين أن الوفاء بهذا الوعد حق (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ان وعده حق أو انهم يبعثون (ليبين لهم) متعلق بما دل عليه بلى أى يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو يشمل المؤمنين والكافرين (الذى يختلفون فيه) هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) فى قولهم لايبعث الله من يموت

ولايكون أهلا لدينه (ومالهم) لكفار مكة (من ناصرين) من مانعين من عذاب الله (واقسموا بالله جهد أيمانهم) حلفوا بالله جهد أيمانهم واذا حلف الرجل بالله فقد حلف جهد يمينه (لايبعث الله من يموت) بعد الموت (بلى وعدا عليه) على الله (حقا) كائنا واجبا ان يبعث من يموت (ولكن أكثر الناس) أهل مكة (لايعلمون) ذلك ولا يصدقون (ليبين لهم) لاهل مكة (الذى يختلفون فيه) يخالفون فى الدين (وليعلم) لكى يعلم (الذين كفروا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن يوم القيامة (أنهم كانوا كاذبين) فى الدنيا بان لاجنة ولا نار ولا بعث ولا حساب (فى)

﴿ انما قولنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون ﴾ وهو بيان امكانه وتقريره ان تكوين الله تعالى بمحض قدرته ومشيئته لا توقف له على سبق المواد والمدد والالزم التسلسل فكما امكن له تكوين الاشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال امكن له تكوينها اعادة بعده ونصب ابن عامر والكسائى ههنا وفى يس فيكون عطفا على نقول أو جوابا للامر ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا ﴾ هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واصحابه المهاجرون ظلمهم قريش فهاجر بعضهم الى الحبشة ثم الى المدينة أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وابو جندل وسهيل رضى الله تعالى عنهم وقوله فى الله أى فى حقه

فى قولهم لا بعث بعد الموت ﴿ انما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى قادر اذا أراد أن يحيي الموتى ويبعثهم للحساب والجزاء فلا تعب عليه فى احيائهم وبعثهم انما يقول لشئ أراده كن فيكون على ما أراد لانه القادر الذى لا يعجزه شئ أراده (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له ان يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى أما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا وأما تكذيبه اياى فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك أما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته وأما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ❁ وقوله تعالى ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ﴾ يعنى أوذوا وعذبوا نزلت فى بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر وهم المستضعفون فاما بلال فكان أصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويحملون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر الصديق وأعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين واما صهيب فقال لهم انى رجل كبير ان كنت معكم فلن أنفعكم وان كنت عليكم فلا أضركم فاشترى نفسه بماله فباعوه منه فربه أبو بكر الصديق فقال يا صهيب ربح البيع وأما باقيهم فاعطوهم بعض ما يريدون فخلوا عنهم وقال قتادة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة فاخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة فهاجروا اليها وجعل لهم أنصارا من المؤمنين فآووهم ونصروهم وواسوهم وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين وفضل الهجرة وفيه دليل على أن الهجرة اذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى آخر ومنه حديث انما الاعمال بالنيات وفيه فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه الحديث أخرجاه فى الصحيحين من رواية عمر بن الخطاب ❁ وقوله تعالى

فهو يكون وبالنصب شامى وعلى على جواب كن قولنا مبتدأ وأن نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود أى اذا أردنا وجود شئ فليس الا أن نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف وهذه عبارة عن سرعة الايجاد يبين أن مرادا لا يمتنع عليه وان وجوده عند ارادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع اذا ورد على المأمور المطيع الممتثل ولا قول ثمه والمعنى ان ايجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو من بعض المقدورات (والذين هاجروا فى الله) فى حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) هم رسول الله وأصحابه ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينه فجمع بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة

(انما قولنا لشئ) أمرنا القيام الساعة (اذا اردناه أن نقول له كن فيكون والذين هاجروا فى الله) فى طاعة الله من مكة الى المدينة (من بعد ما ظلموا) من بعد ما عذبهم أهل مكة يعنى عمار بن ياسر و بلالا وصهيبا وأصحابهم

(لنبوئنهم في الدنيا حسنة) صفة للمصدر أي تبوئة حسنة أو لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم (ولأجر الآخرة أكبر) الوقف لازم عليه لان جواب (لو كانوا يعلمون) محذوف والضمير للكفار أي لو علموا ذلك لرغبوا في الدين أو للمهاجرين أي لو كانوا يعلمون لزادوا في اجتهادهم وصبرهم (الذين صبروا) أي هم الذين صبروا أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي صبروا على مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم وعلى المجاهدة وبذل الارواح في سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) أي يفوضون الامر الى ربهم ويرضون بما أصابهم في دين الله ولما قالت قريش الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا نزل (وما أرسلنا من قبلك الارجالا يوحى اليهم) على ألسنة الملائكة

ولوجهه ﴿ لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ مباءة حسنة وهي المدينة او تبوئة حسنة ﴿ ولأجر الآخرة اكبر ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه كان اذا اعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه هذا ماوعدك الله تعالى في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة افضل ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ الضمير للكفار أي لو علموا ان الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم أو للمهاجرين اي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم ﴿ الذين صبروا ﴾ على الشدائد كأذى الكفرة ومفارقة الوطن ومحله النصب أو الرفع على المدح ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ منقطعين الى الله تعالى مفوضين اليه الامر كله ﴿ وما ارسلنا من قبلك الارجالا يوحى اليهم ﴾ رد لقول قريش الله اعظم من ان يكون رسوله بشرا أي جرت السنة الالهية بان لا يبعث للدعوة العامة الا بشرا يوحى اليه على ألسنة الملائكة والحكمة في ذلك قد

﴿ لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ يعني لنبوئنهم تبوئة حسنة وهو انه تعالى أنزلهم المدينة وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوئنهم في الدنيا دارا حسنة أو بلدة حسنة وهي المدينة روي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ماوعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ثم يقول هذه الآية وقيل معناه لنحسنن اليهم في الدنيا بان يفتح لهم مكة ويمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة في الدنيا التوفيق والهداية في الدين ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ يعني أعظم وأفضل وأشرف مما أعطاهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ قيل الضمير يرجع الى الكفار لان المؤمنين يعلمون مالهم في الآخرة والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن أجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لرغبوا فيه وقيل انه راجع الى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم في الآخرة لزادوا في الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين ﴿ الذين صبروا ﴾ يعني في الله على ما نالهم من الاذى والمكروه فهو صفة مدح يعني صبروا على العذاب ومفارقة الوطن وعلى الجهاد وبذل الانفس والاموال في سبيل الله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ يعني في أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكل في هذه الآية وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات والمحرمات والصبر على المصائب وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق تعالى بالكلية فالاول هو مبدأ السلوك الى الله تعالى والثاني هو آخر الطريق ومنتهاه ﴿ وما أرسلنا من قبلك الارجالا نوحي اليهم ﴾ نزلت هذه الآية جوابا لمشركي مكة حيث أنكروا نبوة

(لنبوئنهم في الدنيا) لننزلنهم في المدينة (حسنة) أرضا كريمة آمنة ذات غنيمة حلال (ولأجر الآخرة) ثواب الآخرة (أكبر) أعظم من ثواب الدنيا (لو كانوا يعلمون) وقد كانوا يعلمون (الذين صبروا) على أذى الكفار (وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره يعني عمارا وأصحابه (وما أرسلنا من قبلك) يا محمد الرسل (الارجالا) آدميا مثلك (نوحي (محمد .) اليهم) بالامر والنهي

ذكرت فى سورة الانعام فان شككتم فيه ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ اهل الكتاب أو علماء الاخبار ليعلموكم ﴿ ان كنتم لاتعلمون ﴾ وفى الآية دليل على انه تعالى لم يرسل امرأة ولاملكا للدعوة العامة واما قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا الى الملائكة أو الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل لم يبعثوا الى الانبياء الا متمثلين بصورة الرجال ورد بما روى انه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام على صورته التى هو عليها مرتين وعلى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لا يعلم ﴿ بالبينات والزبر ﴾ أى ارسلناهم بالبينات والزبر أى المعجزات والكتب كانه جواب قائل قال بم ارسلوا ويجوز ان يتعلق بما ارسلنا داخلا فى الاستثناء مع رجالا أى وما ارسلنا الا رجالا بالبينات كقولك ماضربت الا زيدا بالسوط أو صفة لهم أى رجالا ملتبسين بالبينات أو بيوحى على المفعولية أو الحال من القائم مقام فاعله وهو اليهم على ان قوله فاسألوا اعتراض أو بلاتعلمون على ان الشرط للتبكيت والالزام ﴿ وانزلنا اليك الذكر ﴾ أى القرآن وانما سمى ذكرا لانه موعظة وتنبيه ﴿ لتبين للناس مانزل اليهم ﴾ فى الذكر بتوسط انزاله اليك مما امروا به ونهوا عنه أو مما تشابه عليهم والتبيين اعم من ان ينص بالمقصود أو يرشد الى مايدل عليه كالقياس

محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل من أن يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا فاجابهم الله عز وجل بقوله وما أرسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا يعنى مثلك نوحى اليهم والمعنى ان عادة الله عز وجل جارية من أول مبدأ الخلق أنه لم يبعث الا رسولا من البشر فهذه عادة مستمرة وسنة جارية قديمة ﴿ فاسئلوا أهل الذكر ﴾ يعنى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل الله اليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلابدوأن يخبروهم بان الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم ﴿ ان كنتم لاتعلمون ﴾ الخطاب لاهل مكة يعنى ان كنتم ياهؤلاء لاتعلمون ذلك ﴿ بالبينات والزبر ﴾ اختلفوا فى المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا يوحى اليهم أرسلناهم بالبينات والزبر وقيل الذكر بمعنى العلم فى قوله فاسألوا أهل الذكر يعنى اهل العلم فأسلوا اهل الذكر الذى هو العلم بالبينات والزبر ان كنتم لاتعلمون أنتم ذلك والبينات والزبر اسم جامع لكل مايتكامل به أمر الرسالة لان مدار امر الرسول على المعجزات الدالة على صدقه وهى بالبينات وعلى بيان الشرائع والتكاليف وهى المراد بالزبر يعنى الكتب المنزلة على الرسل من الله عز وجل ﴿ وأنزلنا اليك الذكر ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وأنزلنا عليك يا محمد الذكر الذى هو القرآن وانما سماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ﴿ لتبين للناس مانزل اليهم ﴾ يعنى ما أجمل اليك من أحكام القرآن وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال بعضهم متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان

نوحى حفص (فاسئلوا أهل الذكر) أهل الكتاب ليعلموكم ان الله لم يبعث الى الامم السالفة الا بشرا وقيل للكتاب الذكر لانه موعظة وتنبيه للغافلين (ان كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر) أى بالمعجزات والكتب والباء يتعلق برجالا صفة له أى رجالا ملتبسين بالبينات أو بارسلنا مضمرا كأنه قيل بم أرسل الرسل فقيل بالبينات أو بيوحى أى يوحى اليهم بالبينات أو بلاتعلمون وقوله فاسئلوا أهل الذكر اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله (وأنزلنا اليك الذكر) القرآن (لتبين للناس مانزل اليهم) فى الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا به وأوعدوا

والعلامات (فاسئلوا أهل الذكر) أهل التوراة والانجيل (ان كنتم لاتعلمون) ان الله لم يرسل الرسل الا انسيا (بالبينات) بالامر والنهى والعلامات (والزبر) خبر كتب الاولين (وأنزلنا اليك الذكر) جبريل بالقرآن (لتبين للناس مانزل اليهم) ماأمر لهم فى القرآن

ودليل العقل ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ وارادة ان يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق ﴿ افأمن الذين مكروا السيآت ﴾ أى المكرات السيآت وهم الذين احتالوا لهلاك الانبياء أوالذين مكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وراموا صد اصحابه عن الايمان ﴿ ان يخسف الله بهم الارض ﴾ كما خسف بقارون ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ بغتة من جانب السماء كما فعل بقوم لوط ﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم ﴾ أى متقلبين فى مسايرهم ومتاجرهم ﴿ فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف ﴾ على مخافة بان يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون أوعلى ان ينقص شيأ بعد شئ فى انفسهم واموالهم حتى يهلكوا من تخوفته اذا تنقصته روى ان عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر ماتقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال هل تعرف العرب ذلك فى اشعارها قال نعم قال شاعرنا ابو كبير يصف ناقته

تخوف الرحل منها تامكا قردا * كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فان فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم

القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم ومنه متشابه فالمحكم يجب أن يكون مبينا والمتشابه هو المجمل ويطلب بيانه من السنة فقوله تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ يعنى فيما أنزل اليهم فيعملوا به ﴿ أفأمن الذين مكروا السيآت ﴾ فيه حذف تقديره المكرات السيآت وهم كفار قريش مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وباصحابه وبالغوا فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء وقيل المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم والصحيح أن المراد بهذا المكر السعى فى أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل المراد بالذين مكروا السيآت نمرود ومن هو مثله والصحيح ان المراد بهم كفار مكة ﴿ أن يخسف الله بهم الارض ﴾ يعنى كما خسف بقارون من قبلهم ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ يعنى ان العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما أهلك قوم لوط وغيرهم ﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم ﴾ يعنى فى تصرفهم فى الاسفار فانه سبحانه وتعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما هو قادر على اهلاكهم فى الحضر وقال ابن عباس يأخذهم فى اختلافهم وقال ابن جريج فى اقبالهم وادبارهم يعنى انه تعالى قادر على أن يأخذهم فى ليلهم ونهارهم وفى جميع أحوالهم ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ يعنى بسابقين الله أو يفوتونه بل هو قادر عليهم ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يعنى على تنقص قال ابن قتيبة التخوف التنقص ومثله التخون يقال تخوفه الدهر وتخونه اذا انتقصه وأخذ ماله وحشمه ويقال هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به أنه ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشئ بعد الشئ حتى يهلك جميعهم وقيل هو على أصله من الخوف فيحتمل انه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال

(ولعلهم يتفكرون) فى تنبيهاته فيتنبهوا (أفأمن الذين مكروا السيآت) أى المكرات السيآت وهم أهل مكة وما مكروا به رسول الله عليه السلام (أن يخسف الله بهم الارض) كما فعل بمن تقدمهم (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى بغتة (أو يأخذهم فى تقلبهم) متقلبين فى مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف) متخوفين وهو أن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون وهو خلاف قوله من حيث

(ولعلهم يتفكرون) لكى يتفكروا وما أمر لهم فى القرآن (أفأمن الذين مكروا السيآت) الشرك بالله (أن يخسف الله) أن لا يغور الله (بهم الارض أو يأتيهم) أو لا يأتيهم (العذاب من حيث لا يشعرون) بنزوله (أو يأخذهم) أو لا يأخذهم (فى تقلبهم) فى ذهابهم ومجيئهم فى التجارة (فما هم بمعجزين) بفائتين من عذاب الله (أو يأخذهم) أو لا يأخذهم (على تخوف) على تنقص رؤسائهم وأصحابهم

﴿ فان ربكم لرؤف رحيم ﴾ حيث لايعاجلكم بالعقوبة ﴿ أولم يروا الى ماخلق الله من شئ ﴾ استفهام انكار أى قدرأوا أمثال هذه الصنائع فمابالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وماموصولة مبهمة بيانها ﴿ يتفيؤ ظلاله ﴾ أى أولم ينظروا الى المخلوقات التى لهاظلال متفيئة *وقرأ حمزة والكسائى تروا بالتاء وابوعمرو تتفيأ بالتاء ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ عن ايمانها وعن شمائلها اى عن جانبى كل واحد منها استعارة من يمين الانسان وشماله ولعل توحيد اليمين وجمع الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير فى ظلاله وجمعه فى قوله ﴿ سجدالله

الضحاك والكلبى هو من الخوف يعنى يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم والحاصل انه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل فى الارض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات تحدث قليلا قليلا الى ان يأتى الهلاك على آخرهم ثم انه سبحانه وتعالى ختم الآية بقوله ﴿ فان ربكم لرؤف رحيم ﴾ يعنى انه سبحانه وتعالى لايعجل بالعقوبة والعذاب * قوله سبحانه وتعالى ﴿ أولم يروا ﴾ قرئ بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة ﴿ الى ماخلق الله من شئ ﴾ يعنى من جسم قائم له ظل وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد منها الاعتبار والاعتبار لايكون الا بنفس الرؤية التى يكون معها نظر الى الشئ ليتأمل أحواله ويتفكر فيه فيعتبر به ﴿ يتفيؤ ظلاله ﴾ يعنى تميل وتدور من جانب الى جانب فهى من أول النهار على حال ثم تقلص ثم تعود فى آخر النهار الى حالة أخرى ويقال للظل بالعشى فئ لانه من فاء يفئ اذا رجع من المغرب الى المشرق والفئ الرجوع قال الازهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لايكون الا بالعشى وماانصرفت عنه الشمس والظل يكون بالغداة وهو مالم تنله الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وانما أضاف الظلال وهو جمع الى المفرد وهو قوله من شئ لانه يراد به الكثرة ومعناه اضافة الى ذوى الظلال ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ قال العلماء اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا ارتفعت الشمس واستوت فى وسط السماء كان ظلك خلفك فاذا مالت الشمس الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال الضحاك أما اليمين فاول النهار وأما الشمال فآخر النهار وانما وحد اليمين وان كان المراد به الجمع للايجاز والاختصار فى اللفظ وقيل اليمين راجع الى لفظ الشئ وهو واحد والشمائل راجع الى المعنى لان لفظ الشئ يراد به الجمع ﴿ سجدا لله ﴾ فى معنى هذا السجود قولان *أحدهما أن المراد به الاستسلام والانقياد والخضوع يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل والمعنى ان جميع الاشياء التى لها ظلال فهى منقادة لله تعالى مستسلمة لامره غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ لله *والقول الثانى فى معنى هذا السجود أن الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها كالساجد على الارض فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وقيل ظل كل شئ ساجد لله سواء كان ذلك الشئ يسجد لله أولا ويقال ان ظل الكافر ساجد لله وهو غير

لايشعرون (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث يحلم عنكم ولايعاجلكم مع استحقاقكم والمعنى انه اذا لم يأخذكم مع مافيكم فانما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم (أولم يروا) وبالتاء حمزة وعلى وأبوبكر (الى ماخلق الله) ماموصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه (من شئ يتفيؤ ظلاله) أى يرجع من موضع الى موضع وبالتاء بصرى (عن اليمين) أى الايمان (والشمائل) جمع شمال (سجدا لله) حال من الظلال عن مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ

(فان ربكم لرؤف رحيم) لمن تاب ويقال بتأخير العذاب (أولم يروا) أهل مكة (الى ماخلق الله من شئ) من الشجر والدواب (يتفيؤ ظلاله) يتقلب ظلاله (عن اليمين) غدوة (والشمائل) وعن الشمائل عشية (سجدا لله) يسجدون لله وظلالهم غدوة وعشية أيضا تسجد لله

الله من كل شئ له ظل وجمع بالواو والنون لان الدخور من أوصاف العقلاء أو لان في جملة ذلك من يعقل فغلب والمعنى أولم يروا الى ماخلق الله من الاجرام التى لها ظلال متفيئة عن ايمانها وشمائلها أى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ والاجرام في أنفسها داخرة أيضا صاغرة منقادة لافعال الله فيها غير ممتنعة (ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض من دابة) من بيان لما في السموات ومافى الارض جميعا على أن في السموات خلقا يدبون فيها كما تدب الاناسى في الارض أو بيان لما في الارض وحده والمراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله (والملائكة) ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم قيل المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقيادهم لارادة الله ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا فلذا جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد وجئ بما اذ هو صالح للعقلاء وغيرهم ولوجئ بمن

(وهم داخرون) مطيعون (ولله يسجد مافى السموات) من الشمس والقمر والنجوم (وما فى الارض من دابة) من الدواب والطيور (والملائكة) فى السماء يسجدون لله (وهم)

وهم داخرون ﴿ وهما حالان من الضمير في ظلاله والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع أو الاختيار يقال سجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل وسجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب أو سجدا حال من الظلال وهم داخرون حال من الضمير والمعنى ترجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب الى جانب منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد والاجرام في انفسها ايضا داخرة اى صاغرة منقادة لافعال الله تعالى فيها وجمع داخرون بالواو لان من جملتها من يعقل أو لان الدخور من اوصاف العقلاء وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى لان الكواكب تظهر منه آخذة في الارتفاع والسطوع وشماله وهو الجانب الغربى المقابل له من الارض فان الظلال في اول النهار تبتدئ من المشرق واقعة على الربع الغربى من الارض وعند الزوال تبتدئ من المغرب واقعة على الربع الشرقى من الارض ﴿ ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض ﴾ أى ينقاد انقيادا يعم الانقياد لارادته وتأثيره طبعا والانقياد لتكليفه وامره طوعا ليصح اسناده الى عامة اهل السموات والارض وقوله ﴿ من دابة ﴾ بيان لهما لان الدبيب هو الحركة الجسمانية سواء كان في ارض أو سماء ﴿ والملائكة ﴾ عطف على المبين به عطف جبريل على الملائكة للتعظيم أو عطف المجردات على الجسمانيات وبه احتج من قال ان الملائكة ارواح مجردة أو بيان لما في

ساجد لله ﴿ وهم داخرون ﴾ أى صاغرون أذلاء والداخر الصاغر الذى يفعل ما تأمره به شاء أم أبى وذلك ان جميع الاشياء منقادة لامر الله تعالى * فان قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنها بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون * قلت لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل وجاز جمعها بالواو والنون وهو جمع العقلاء * قوله عز وجل ﴿ ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض من دابة ﴾ قال العلماء السجود على نوعين سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض من دابة يحتمل النوعين لان سجود كل شئ بحسبه فسجود المسلمين والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع وأتى بلفظ ما في قوله مافى السموات ومافى الارض للتغليب لان مالا يعقل اكثر ممن يعقل في العدد والحكم للاغلب كتغليب المذكر على المؤنث ولانه لو أتى بمن التى هى للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناولة للعقلاء خاصة فاتى بلفظة ما ليشمل الكل ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسمانى يتحرك ويدب فيدخل فيه الانسان لانه مما يدب على الارض ولهذا أفرد الملائكة في قوله ﴿ والملائكة ﴾ لانهم أولو أجنحة يطيرون بها أو أفردهم بالذكر وان كانوا من جملة من في السموات لشرفهم وقيل أراد ولله يسجد مافى السموات من الملائكة ومافى الارض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة وسجود غيرهم تذليلها وتسخيرها لما خلقت له وسجود مالا يعقل وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى فيدعو الغافلين الى السجود لله عند التأمل والتدبر

لتناول العقلاء خاصة (وهم لا يستكبرون يخافون ربهم) هو حال من الضمير فى لا يستكبرون أى لا يستكبرون خائفين (من فوقهم) ان علقته بيخافون فمعناه يخافونه

أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم وان علقته بربهم حالا منه فمعناه يخافون ربهم غالبا لهم قاهرا كقوله وهو القاهر فوق عباده (ويفعلون ما يؤمرون) وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهى وانهم بين الخوف والرجاء (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) فان قلت انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان قلت الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألا ترى أنك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الالهية لا الوحدانية (فاياى فارهبون) نقل الكلام عن الغيبة الى التكلم وهو من طريقة (قاوخا ٧٧ لث) الالتفات وهو أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فارهبونى

الارض والملائكة تكرير لما فى السموات، وتعيين له اجلالا وتعظيما والمراد بها ملائكتها من الحفظة وغيرهم وما لما استعمل للعقلاء كما استعمل لغيرهم كان استعماله حيث اجتمع القبيلان اولى من اطلاق من تغليبا للعقلاء ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن عبادته ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ يخافونه ان يرسل عذابا من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده والجملة حال من الضمير فى لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لان من خاف الله تعالى لم يستكبر عن عبادته ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ من الطاعة والتدبير وفيه دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء ﴿ وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين ﴾ ذكر العدد مع ان المعدود يدل عليه دلالة على ان مساق النهى اليه او ايماء بان الاثنينية تنافى الالوهية كما ذكر الواحد فى قوله ﴿ انما هو اله واحد ﴾ للدلالة على ان المقصود اثبات الوحدانية دون الالهية أو للتنبيه على ان الوحدة من لوازم الالهية ﴿ فاياى فارهبون ﴾ نقل من الغيبة الى التكلم مبالغة فى الترهيب وتصريحا

﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ يعنى الملائكة ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ هو كقوله وهو القاهر فوق عباده وقد تقدم تفسيره ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى قال أبو ذر لوددت انى كنت شجرة تعضد أخرجه الترمذى وقال عن أبى ذر موقوفا

فصل

وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين ﴾ لما أخبر الله عز وجل فى الآية المتقدمة ان كل ما فى السموات والارض خاضعون لله منقادون لامره عابدون له وانهم فى ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى فى هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ الهين اثنين فقال وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين قال الزجاج ذكر الاثنين توكيدا لقوله الهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لا تتخذوا اثنين الهين يعنى ان الاثنين لا يكون كل واحد منهما الها ولكن اتخذوا الها واحدا وهو قوله تبارك وتعالى ﴿ انما هو اله واحد ﴾ لان الالهين لا يكونان الا متساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والارادة فصارت الاثنينية منافية للالهية وذلك قوله تعالى انما هو اله واحد يعنى لا يجوز أن يكون فى الوجود الهان اثنان انما هو اله واحد ﴿ فاياى فارهبون ﴾ يعنى فخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى الحضور وهو من طريق الالتفات لانه أبلغ فى الترهيب

(وهم لا يستكبرون) عن السجود لله (يخافون ربهم من فوقهم) الذى فوقهم على العرش (ويفعلون) يعنى ويقولون (ما يؤمرون) يعنى الملائكة (وقال الله لا تتخذوا) لا تعبدوا (الهين اثنين) نفسه والاصنام (انما هو اله واحد) بلا ولد ولا شريك (فاياى فارهبون) فخافون

بالمقصود فكأنه قال فاناذلك الاله الواحد فاياى فارهبون لاغيرى ﴿ وله مافى السموات والارض ﴾ خلقا وملكا ﴿ وله الدين ﴾ أى الطاعة ﴿ واصبا ﴾ لازما لما تقرر من انه الاله وحده والحقيق بان يرهب منه وقيل واصبا من الوصب أى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أى وله الجزاء دائما لاينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ ولا ضار سواه كما لا نافع غيره كما قال تعالى ﴿ ومابكم من نعمة فمن الله ﴾ أى وأى شئ اتصل بكم من نعمة فهو من الله وما شرطية أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان استقرار النعمة بهم يكون سببا للاخبار بانها من الله تعالى لا لحصولها منه ﴿ ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ﴾ فما تتضرعون الا اليه والجؤار رفع الصوت فى الدعاء والاستغاثة ﴿ ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾

من قوله فاياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو أن لا يرهب الخلق الا منه ولا يرغبون الا اليه والى كرمه وفضله واحسانه ﴿ وله مافى السموات والارض ﴾ لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لاشريك له فى الالهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيداله وفى ملكه وتصرفه وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله مافى السموات والارض يعنى عبيدا وملكا ﴿ وله الدين واصبا ﴾ يعنى وله العبادة والطاعة واخلاص العمل دائما ثابتا والواصب الدائم قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك لسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائمة أبدا ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ يعنى انكم عرفتم ان الله واحد لاشريك له فى ملكه وعرفتم ان كل ماسواه محتاج اليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الانكار ❁ قوله عز وجل ﴿ ومابكم بنعمة فمن الله ﴾ يعنى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة الارزاق وكل ما أعطاكم من مال أو ولد فكل ذلك من الله تعالى انما هو المتفضل به على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه ولما بين فى الآية المتقدمة انه يجب على جميع العباد أن لا يخافوا الا الله تعالى بين فى هذه الآية ان جميع النعم منه فلا يشكر عليها الا اياه لانه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها ﴿ ثم اذا مسكم الضر ﴾ أى الشدة والامراض والاسقام ﴿ فاليه تجأرون ﴾ يعنى اليه تستغيثون وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم مانزل بكم من الضر والشدة وأصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البقر والمعنى ان النعم لما كانت كلها ابتداء منه فان حصل شدة وضر فى بعض الاوقات فلا يلجأ الا اليه ولا يدعى الا اياه ليكشفها فانه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى ﴿ ثم اذا كشف الضر عنكم ﴾ يعنى ثم اذا أزال الشدة والبلاء عنكم ﴿ اذا فريق منكم ﴾ يعنى طائفة وجماعة منكم ﴿ بربهم يشركون ﴾ يعنى انهم يضيفون كشف الضر الى العوائد والاسباب ولا يضيفونه الى الله عز وجل فهذا من جملة شركهم الذى كانوا عليه وانما قسمهم فريقين لان فريق المؤمنين لايرون كشف

ثابتا لان كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه وهو حال عمل فيه الظرف أو وله الجزاء دائما يعنى الثواب والعقاب (أفغير الله تتقون ومابكم من نعمة) وأى شئ اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب (فمن الله) فهو من الله (ثم اذا مسكم الضر) المرض والفقر والجدب (فاليه تجأرون) فما تتضرعون الا اليه والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة (ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون) الخطاب فى ومابكم من نعمة ان كان عاما فالمراد بالفريق الكفرة وان كان الخطاب للمشركين فقوله منكم للبيان لا للتبعيض كانه قال فاذا فريق كافروهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله فلما نجاهم الى البر

فى عبادة الاصنام (وله مافى السموات والارض) من الخلق والعجائب (وله الدين واصبا) دائما ويقال خالصا (أفغير الله تتقون) تعبدون (ومابكم من نعمة فمن الله) فمن قبل الله لا من قبل الاصنام (ثم اذا مسكم الضر) أصابتكم الشدة (فاليه) الى الله (تجأرون) تتضرعون وتدعون (ثم اذا كشف الضر) رفع الشدة (عنكم اذا فريق) طائفة (منكم بربهم يشركون) (الضر)

فمنهم مقتصد (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كانهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة ثم أوعدهم فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) هوعدول الى الخطاب على التهديد (ويجعلون لما لايعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى لآلهتهم ومعنى لايعلمون انهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها انها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لانها جماد لاتضر ولاتنفع أوالضمير فى لايعلمون للآلهة أى لاشياء غير موصوفة بالعلم ولاتشعر أجعلوا لها نصيبا فى أنعامهم وزروعهم أم لا وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا اليهم (تالله لتسئلن) وعيد (عما كنتم تفترون) أنها آلهة وانها أهل للتقرب اليها (ويجعلون لله البنات) كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه لذاته من نسبة الولد اليه

وهم كفاركم ﴿ ليكفروا ﴾ بعبادة غيره هذا اذا كان الخطاب عاما فان كان خاصا بالمشركين كان من للبيان فكأنه قال فاذا فريق وهم انتم ويجوز ان يكون من للتبعيض على ان يعتبر بعضهم كقوله فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد ﴿ بما آتيناهم ﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة أوانكار كونها من الله تعالى ﴿ فتمتعوا ﴾ امر تهديد ﴿ فسوف تعلمون ﴾ اغلظ وعيده وقرئ فيمتعوا مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا وعلى هذا جاز ان تكون اللام لام الامر الوارد للتهديد والفاء للجواب ﴿ ويجعلون لما لايعلمون ﴾ أى لآلهتهم التى لاعلم لها لانها جماد فيكون الضمير لما أو التى لايعلمونها فيعتقدون فيها جهالات مثل انها تنفعهم وتشفع لهم على ان العائد الى ما محذوف أو لجهلهم على ان ما مصدرية والمجعول له محذوف للعلم به ﴿ نصيبا مما رزقناهم ﴾ من الزروع والانعام ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ من انها آلهة حقيقة بالتقرب اليها وهو وعيد لهم عليه ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له من قولهم وتعجب منه

الضر الا من الله تعالى ثم قال تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ قيل ان هذه اللام لام كى ويكون المعنى على هذا انهم انما اشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر عنهم وقيل انها لام العاقبة والمعنى عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ﴿ فتمتعوا ﴾ لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد يعنى فعيشوا فى اللذة التى أنتم فيها الى المدة التى ضربها الله لكم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ يعنى عاقبة أمركم الى ماذا تصير وهو نزول العذاب بكم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويجعلون لما لايعلمون نصيبا ﴾ قيل الضمير فى قوله لما لايعلمون عائد الى المشركين يعنى ان المشركين لايعلمون وقيل انه عائد الى الاصنام يعنى ان الاصنام لاتعلم شيأ البتة لانها جماد والجماد لاعلم له ومنهم من رجح القول الاول لان نفى العلم عن الحى حقيقة وعن الجماد مجاز فكان عود الضمير الى المشركين أولى ولانه قال لما لايعلمون فجمعهم بالواو والنون وهو جمع لمن يعقل ومنهم من رجح القول الثانى قال لانا اذا قلنا انه عائد الى المشركين احتجنا فيه الى اضمار فيكون المعنى ويجعلون يعنى المشركين لما لايعلمون انه اله ولاله حق نصيبا واذا قلنا انه عائد الى الاصنام لم نحتج الى هذا الاضمار لانها لاعلم لها ولافهم * وقوله ﴿ مما رزقناهم ﴾ يعنى ان المشركين جعلوا للاصنام نصيبا من حروثهم وأنعامهم وأموالهم التى رزقهم الله وتقدم تفسيره فى سورة الانعام ﴿ تالله ﴾ أقسم بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وهو قوله تعالى ﴿ لتسئلن عما كنتم تفترون ﴾ يعنى عما كنتم تكذبون فى الدنيا فى قولكم ان هذه الاصنام آلهة وان لها نصيبا من أموالكم وهذا التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه ﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ هم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله وانما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء أو لدخول لفظ التأنيث فى تسميتهم ﴿ سبحانه ﴾

الاصنام (ليكفروا) حتى يكفروا (بما آتيناهم) أعطيناهم من النعيم فيقولوا بشفاعة آلهتنا هذا (فتمتعوا) فعيشوا فى الكفر والحرام (فسوف تعلمون) ماذا يفعل بكم (ويجعلون) يقولون (لما لايعلمون نصيبا) حظا للرجال دون النساء ويقال لما لايقولون ولايعلمون يعنى الاصنام (مما رزقناهم) أعطيناهم من الحرث والانعام ويقولون الله امرنا بهذا (تالله) والله (لتسئلن) يوم القيامة (عما كنتم تفترون) تكذبون على الله (ويجعلون لله البنات) يقولون الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه نفسه عن الولد

﴿ ولهم مايشتهون ﴾ يعنى البنين ويجوز فيمايشتهون الرفع بالابتداء والنصب بالعطف على البنات على ان الجعل بمعنى الاختيار وهو وان افضى الى ان يكون ضمير الفاعل والمفعول لشئ واحد لكنه لايبعد تجويزه فى المعطوف ﴿ واذا بشر احدهم بالانثى ﴾ اخبر بولادتها ﴿ ظل وجهه ﴾ صار أو دام النهار كله ﴿ مسودا ﴾ من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير ﴿ وهو كظيم ﴾ مملوء غيظا من المرأة ﴿ يتوارى من القوم ﴾ يستخفى منهم ﴿ من سوء مابشر به ﴾ من سوء المبشر به عرفا ﴿ أيمسكه ﴾ محدثا نفسه متفكرا فى ان يتركه ﴿ على هون ﴾ ذل ﴿ أم يدسه فى التراب ﴾ أم يخفيه

نزه الله نفسه عن الولد والبنات ﴿ ولهم مايشتهون ﴾ يعنى ويجعلون لانفسهم مايشتهون يعنى البنين ﴿ واذ بشر أحدهم بالانثى ﴾ البشارة عبارة عن الخبر السار الذى يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن والغم يظهر أثره على الوجه وهو الكمودة التى تعلو الوجه عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا ان البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن فصح قوله واذا بشر أحدهم بالانثى ﴿ ظل وجهه مسودا ﴾ يعنى متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة والمعنى ان هؤلاء المشركين لايرضى أحدهم بالبنت الانثى ان تنسب اليه فكيف يرضى أن ينسبها الى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وهو كظيم ﴾ يعنى انه ظل ممتلئا غما وحزنا ﴿ يتوارى من القوم من سوء مابشر به ﴾ يعنى انه يختفى من ذلك القول الذى بشر به وذلك ان العرب كانوا فى الجاهلية اذا قربت ولادة زوجة أحدهم توارى من القوم الى ان يعلم ماولد له فان كان ولدا ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما حتى يفكر مايصنع بها وهو قوله تعالى ﴿ أيمسكه على هون ﴾ يعنى على هوان وانما ذكر الضمير فى أيمسكه لانه عائد الى مابشر به فى قوله واذا بشر أحدهم ﴿ أم يدسه فى التراب ﴾ يعنى أم يخفى ذلك الذى بشر به فى التراب والدس اخفاء الشئ فى الشئ قال أهل التفسير ان مضر وخزاعة وتميما كانوا يدفنون البنات أحياء والسبب فى ذلك اما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الاسر ونحوه أو طمع غير الاكفاء فيهن فكان الرجل من العرب فى الجاهلية اذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها تركها حتى اذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر وجعلها ترعى الابل والغنم فى البادية واذا أراد أن يقتلها تركها حتى اذا صارت سداسية قال لامها زينيها حتى أذهب بها الى أحمائها ويكون قد حفر لها حفرة فى الصحراء فاذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها انظرى الى هذه البئر فاذا نظرت اليها دفعها من خلفها فى تلك البئر ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم الفرزدق اذا أحس بشئ من ذلك وجه بابل الى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك

وعمى الذى منع الوائدات * فاحيا الوئيد فلم يوأد

عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائدة والموؤدة فى النار أخرجه

أو تعجب من قولهم (ولهم مايشتهون) يعنى البنين ويجوز فى ما الرفع على الابتداء ولهم الخبر والنصب على العطف على البنات وسبحانه اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه أى وجعلوا لانفسهم مايشتهون من الذكور (واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا) أى صار فظل وأمسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصيرورة لان أكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتما مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس (وهو كظيم) مملوء حنقا على المرأة (يتوارى من القوم من سوء مابشر به) يستخفى منهم من أجل سوء المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر (أيمسكه على هون) أيمسك مابشر به على هون وذل (أم يدسه فى التراب) أم يئده

والشريك (ولهم مايشتهون) مايختارون من الذكور (واذا بشر أحدهم بالانثى) بالجارية (ظل وجهه مسودا) صار وجهه مسودا من الغم (وهو كظيم) مكروب يتردد الغم فى جوفه (يتوارى من القوم) يكتم من قومه (من سوء) من كره (مابشر به) بالانثى كراهية الاظهار (أيمسكه) أيحفظه (على هون) على هوان ومشقة (أم يدسه) يدفنه (فى التراب) حيا

(ابو)

فيه ويئده وتذكير الضمير للفظ ماوقرئ بالتأنيث فيهما ﴿ الاساء مايحكمون ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ماهذا محله عندهم ﴿ للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ صفة السوء وهى الحاجة الى الولد المنادية بالموت واشتهاء الذكور استظهارا بهم وكراهة الاناث ووأدهن خشية الاملاق ﴿ ولله المثل الاعلى ﴾ وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ ماترك عليها ﴾ على الارض وانما اضمرها من غير ذكر لدلالة الناس أو الدابة عليها ﴿ من دابة ﴾ قط بشؤم ظلمهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم أومن دابة ظالمة وقيل لو اهلك الآباء بكفرهم لم يكن

أبو داود ﴿ وقوله تعالى ﴿ ألاساء مايحكمون ﴾ يعنى بئس مايصنعون ويقضون حيث يجعلون لله الذى خلقهم البنات وهم يستنكفون منهن ويجعلون لانفسهم البنين نظيره قوله سبحانه وتعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى وقيل معناه ألاساء مايحكمون فى وأد البنات ﴿ للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ يعنى صفة السوء من احتياجهم الى الولد الذكر وكراهتهم الاناث وقتلهن خوف الفقر ﴿ ولله المثل الاعلى ﴾ أى الصفة العليا المقدسة وهى أن له التوحيد وأنه المنزه عن الولد وأنه لا اله الا هو وأن له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله ﴿ وهو العزيز ﴾ أى الممتنع فى كبريائه وجلاله ﴿ الحكيم ﴾ يعنى فى جميع أفعاله ﴿ قوله عز وجل ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ يعنى بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم ﴿ فان قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى فى آية أخرى فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فقسمهم فى تلك الآية ثلاثة أقسام فجعل الظالمين قسما واحدا من ثلاثة ﴿ قلت قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام مخصوص بتلك الآية الاخرى لان فى جنس الناس الانبياء والصالحين ومن لايطلق عليه اسم الظلم وقيل أراد بالناس الكفار فقط بدليل قوله ان الشرك لظلم عظيم وقوله ﴿ ماترك عليها ﴾ يعنى على الارض كناية عن غير مذكور لان الدابة لاتدب الا على الارض ﴿ من دابة ﴾ يعنى أن الله سبحانه وتعالى لو يؤاخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض قال قتادة وقد فعل الله ذلك فى زمن نوح عليه السلام فاهلك من كان على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام وروى ان أبا هريرة سمع رجلا يقول ان الظالم لايضر الا نفسه فقال بئس ماقلت ان الحبارى تموت هزلا بظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم وقيل أراد بالدابة الكافر بدليل قوله ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء فلم يبق فى الارض

من هو على عكس هذا الوصف (للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء) صفة السوء وهى الحاجة الى الاولاد الذكور وكراهة الاناث و وأدهن خشية الاملاق (ولله المثل الاعلى) وهو الغنى عن العلمين والنزاهة عن صفات المخلوقين (وهو العزيز) الغالب فى تنفيذ ماأراد (الحكيم) فى امهال العباد (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم (ماترك عليها) على الارض (من دابة) قط ولاهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين عن أبى هريرة رضى الله عنه ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم وعن ابن عباس رضى الله عنهما من دابة من مشرك يدب

(ألاساء مايحكمون) بئس مايقضون لانفسهم الذكور ولله البنات (للذين لايؤمنون بالآخرة) بالبعث بعد الموت (مثل السوء) يعنى النار (ولله المثل الاعلى) الصفة العليا الالوهية والربوبية بلا ولد ولا شريك (وهو العزيز) بالنقمة لمن لايؤمن به (الحكيم) أمر أن لايعبد غيره (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) بشركهم (ماترك عليها) على ظهر الارض (من دابة) من الجن والانس

(ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) أى أجل كل أحد أو وقت تقتضيه الحكمة أو القيامة (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله مايكرهون) مايكرهونه لانفسهم من البنات ومن شركاء فى رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم ويجعلون له أرذل أموالهم ولاصنامهم أكرمها (وتصف ألسنتهم الكذب) مع ذلك أى ويقولون الكذب (أن لهم الحسنى) عند الله وهى الجنة ان كان البعث حقا كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وأن لهم الحسنى بدل من الكذب (لاجرم أن لهم النار وانهم مفرطون) مفرطون نافع مفرطون أبو جعفر فالمفتوح بمعنى مقدمون الى النار معجلون اليها من أفرطت فلانا وفرطته فى طلب الماء اذا قدمته أو منسيون متروكون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفت ونسيته والمكسور المخفف من الافراط فى المعاصى والمشدد من التفريط فى الطاعات أى التقصير فيها (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) أى أرسلنا رسلا الى من تقدمك من الامم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) من الكفر والتكذيب بالرسل

الابناء ﴿ ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى ﴾ سماه لاعمارهم أو لعذابهم كى يتوالدوا ﴿ فاذا جاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ بل هلكوا أو عذبوا حينئذ لامحالة ولا يلزم من عموم الناس واضافة الظلم اليهم ان يكونوا كلهم ظالمين حتى الانبياء عليهم الصلاة والسلام لجواز ان يضاف اليهم ماشاع فيهم وصدر عن اكثرهم ﴿ ويجعلون لله مايكرهون ﴾ اى مايكرهونه لانفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة والاستخفاف بالرسل واراذل الاموال ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ مع ذلك وهو ﴿ ان لهم الحسنى ﴾ أى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى * وقرئ الكذب جمع كذوب صفة للالسنة ﴿ لاجرم ان لهم النار ﴾ رد لكلامهم واثبات لضده ﴿ وانهم مفرطون ﴾ مقدمون الى النار من افرطته فى طلب الماء اذا قدمته * وقرأ نافع بكسر الراء على انه من الافراط فى المعاصى * وقرئ بالتشديد مفتوحا من فرطته فى طلب الماء ومكسورا من التفريط فى الطاعات ﴿ تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم ﴾ فاصروا على

أحد ﴿ ولكن يؤخرهم ﴾ يعنى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه ﴿ الى أجل مسمى ﴾ يعنى الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم ﴿ فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ يعنى لا يؤخرون ساعة عن الاجل الذى جعله الله لهم ولا ينقصون عنه وقيل أراد بالاجل المسمى يوم القيامة والمعنى ولكن يؤخرهم الى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ﴿ ويجعلون لله مايكرهون ﴾ يعنى لانفسهم وهى البنات ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ يعنى ويقولون ان لهم البنين وذلك انهم قالوا لله البنات ولنا البنون وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله وقيل أراد بالحسنى الجنة والمعنى انهم مع كفرهم وقولهم الكذب يزعمون انهم على الحق وان لهم الجنة وذلك انهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة لانا على الحق فاكذبهم الله تعالى فقال ﴿ لاجرم ان لهم النار ﴾ يعنى فى الآخرة لا الجنة ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ قرئ بكسر الراء مع التخفيف يعنى مسرفون وقرئ بكسر الراء مع التشديد يعنى مضيعون لامر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها أى منسيون فى النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل متروكون وقال قتادة معجلون الى النار وقال الفراء مقدمون الى النار والفرط المتقدم الى الماء قبل القوم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض أى متقدمكم ﴿ تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك ﴾ يعنى كما أرسلناك الى هذه الامة لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ يعنى أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالقاء

أحدا (ولكن يؤخرهم) يؤجلهم (الى أجل مسمى) الى وقت هلاكهم (فاذا جاء أجلهم) وقت هلاكهم (لايستأخرون ساعة) لايتركون عن الاجل قدر ساعة (ولا يستقدمون) لايهلكون قبل الاجل (ويجعلون لله مايكرهون) يقولون لله البنات مالا يرضون لانفسهم (وتصف ألسنتهم الكذب) يقولون بألسنتهم الكذب (أن لهم الحسنى) يعنى الذكور ويقال ﴿ الوسوسة ﴾ أن لهم الحسنى يعنى الجنة ويقال ان لهم الحسنى من اين لهم الجنة (لاجرم) حقا (أن لهم النار وأنهم مفرطون) متروكون ويقال منسيون ويقال مفرطون بالقول والفعل وان قرأت بكسر الراء (تالله) والله (لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم) دينهم

(فهو وليهم اليوم) أي قرينهم في الدنيا تولى اضلالهم بالغرور أو الضمير لمشركي قريش أي زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لانهم منهم أو هو على حذف المضاف أي فهو ولي أمثالهم اليوم (ولهم عذاب أليم) في القيامة (وما أنزلنا عليك الكتاب) القرآن (الا لتبين لهم) للناس (الذى اختلفوا فيه) هو البعث لانه كان فيهم من يؤمن به (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذى أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل (لقوم يؤمنون والله أنزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون) سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكأنه لا يسمع (وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه) وبفتح النون نافع وشامي وأبو بكر قال الزجاج سقيته وأسقيته بمعنى واحد ذكر سيبويه الانعام في الاسماء المفردة الواردة على أفعال ولذا رجع الضمير اليه مفردا وأما في بطونها في سورة المؤمنين فلان معناه الجمع وهو استئناف كأنه قيل كيف العبرة فقال نسقيكم مما في بطونه

قبائحها وكفروا بالمرسلين ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ أي في الدنيا وعبر باليوم عن زمانها أو فهو وليهم حين كان يزين لهم أو يوم القيامة على انه حكاية حال ماضية أو آتية ويجوز ان يكون الضمير لقريش أي زين الشيطان للكفرة المتقدمين اعمالهم وهو ولي هؤلاء اليوم يغريهم ويغويهم وان يقدر مضاف أي فهو ولي امثالهم والولي القرين أو الناصر فيكون نفيا للناصر لهم على ابلغ الوجوه ﴿ ولهم عذاب اليم ﴾ في القيامة ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم ﴾ للناس ﴿ الذى اختلفوا فيه ﴾ من التوحيد والقدر واحوال المعاد واحكام الافعال ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ معطوفان على محل لتبين فانهما فعلا المنزل بخلاف التبيين ﴿ والله أنزل من السماء ماء فاحيي به الارض بعد موتها ﴾ انبت فيها انواع النبات بعد يبسها ﴿ ان في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ سماع تدبر وانصاف ﴿ وان لكم في الانعام لعبرة ﴾ دلالة يعبر بها من الجهل الى العلم ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ استئناف لبيان العبرة وانما ذكر الضمير ووحده ههنا للفظ وانثه في سورة المؤمنين للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه في المفردات المبنية على افعال كاخلاق واكياش ومن قال انه جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها أو لواحده اوله على المعنى فان

الوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة أن يضل أحدا أو يهدي أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن أراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته ﴿ فهو وليهم ﴾ أي ناصرهم ﴿ اليوم ﴾ ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لهم لطاعتهم اياه ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ﴾ يعني في أمر الدين والاحكام فتبين لهم الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام ﴿ وهدى ورحمة ﴾ يعني وما أنزلنا عليك الكتاب الا بيانا وهدى ورحمة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لانهم هم المنتفعون به ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ يعني المطر ﴿ فاحيا به ﴾ يعني بالماء ﴿ الارض ﴾ يعني بالنبات والزروع ﴿ بعد موتها ﴾ يعني يبسها وجدوبتها ﴿ ان في ذلك لآية ﴾ يعني دلالة واضحة على كمال قدرتنا ﴿ لقوم يسمعون ﴾ يعني سماع انصاف وتدبر وتفكر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات الله أي القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات ﴿ وان لكم في الانعام لعبرة ﴾ يعني اذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا على ذلك ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ الضمير عائد الى الانعام وكان حقه أن يقال مما في بطونها واختلف النحويون في الجواب فقيل ان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو مذكر وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو مؤنث فلهذا المعنى قال هنا مما في بطونه وقال في سورة المؤمنين مما في بطونها وهذا قول أبي عبيدة والاخفش وقال

فلم يؤمنوا (فهو وليهم اليوم) في الدنيا وقرينهم في النار (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) وجيع (وما أنزلنا عليك الكتاب) جبريل بالقرآن (الا لتبين لهم الذى اختلفوا) خالفوا (فيه) في الدين (وهدى) من الضلالة (ورحمة) من العذاب (لقوم يؤمنون) به (والله أنزل من السماء ماء) مطرا (فاحيا به) بالمطر (الارض بعد موتها) قحطها ويبوستها (ان في ذلك) في احياء ما ذكرت (لآية) لعلامة (لقوم يسمعون) يطيعون ويصدقون (وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه

المراد به الجنس * وقرأ نافع وابن عامر وابو بكر ويعقوب نسقيكم بالفتح هنا وفي المؤمنين ﴿ من بين فرث ودم لبنا ﴾ فانه يخلق من بعض اجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التي في الفرث وهو الاشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها كان اسفله فرثا واوسطه لبنا واعلاه دما ولعله ان صح فالمراد ان اوسطه يكون مادة اللبن واعلاه مادة الدم الذي يغذي البدن لانهما لايتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها هضما ثانيا فيحدث اخلاطا اربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم يوزع الباقي على الاعضاء بحسبها فيجري الى كل حقه على مايليق به بتقدير الحكيم العليم ثم ان كان الحيوان انثى زاد اخلاطها على قدر غذائها لاستيلاد البرودة والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد اولا الى الرحم لاجل الجنين فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه الى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها الغددية البيض فيصير لبنا ومن تدبر صنع الله تعالى في احداث الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والاسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على مايليق به اضطر الى الاقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته ومن الاولى تبعيضية لان اللبن بعض مافي بطونها والثانية ابتدائية كقولك سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم المحل الذي يبتدأ منه الاسقاء وهي متعلقة بنسقيكم أو حال من لبنا قدمت عليه لتنكيره وللتنبيه على انه موضع العبرة ﴿ خالصا ﴾ صافيا لايستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث أو مصفى عما يصحبه من الاجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه ﴿ سائغا للشاربين ﴾ سهل المرور في حلقهم

الكسائي انه رده الى ماذكر يعني مما في بطون ماذكرنا وقال غيره الكناية مردودة الى البعض وفيه اضمار كانه قال نسقيكم مما في بطونه اللبن فاضمر اللبن اذليس لكلها لبن ﴿ من بين فرث ﴾ وهو مافي الكرش من السفل فاذا خرج منها لايسمى فرثا ﴿ ودم لبنا خالصا ﴾ يعني من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث قال ابن عباس اذا أكلت الدابة العلف واستقر في كرشها وطبخته كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الثفل كما هو ﴿ سائغا للشاربين ﴾ يعني هنيأ سهلا يجري في الحلق بسهولة قيل انه لم يغص أحد باللبن قط هذا قول المفسرين في معنى هذه الآية وحكى الامام فخر الدين الرازي قول الحكماء في ذلك فقال ولقائل أن يقول الدم واللبن لايتولدان في الكرش البتة والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا ومارأى أحد في كرشها دما ولا لبنا بل الحق أن الحيوان اذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذي

﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا ﴾ أي يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ لايبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله قيل اذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد مسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش ثم ينحدر وفي ذلك عبرة لمن اعتبر وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تميز العمل من العيوب كتميز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) سهل المرور في الحلق ويقال لم يغص أحد باللبن قط ومن الاولى للتبعيض لان اللبن بعض مافي بطونها والثانية لابتداء الغاية ويتعلق

من بين فرث ودم) نخرج (لبنا خالصا سائغا) شهيا (للشاربين

وقرئ سيغا بالتشديد والتخفيف ﴿ومن ثمرات النخيل والاعناب﴾ متعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أي من عصيرهما وقوله ﴿تتخذون منه سكرا﴾ استئناف لبيان الاسقاء أو بتتخذون ومنه تكرير للظرف تأكيدا أو خبر لمحذوف صفته تتخذون أي ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف الذي هو العصير أولان الثمرات بمعنى التمر والسكر مصدر سمي به الخمر ﴿ورزقا حسنا﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل والآية ان كانت سابقة على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة وقيل السكر النبيذ وقيل الطعم قال

جعلت اعراض الكرام سكرا

أي تنقلت باعراضهم وقيل مايسد الجوع من السكر فيكون الرزق مايحصل من أثمانه

حصل في الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وهو الهضم الثاني ويكون ذلك مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فاما الصفراء فتذهب الى المرارة وأما السوداء فتذهب الى الطحال وأما المائية فتذهب الى الكلية ومنها الى المثانة وأما الدم فيذهب في الاوردة وهي العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددي الرخو الابيض فيصير الدم لبنا فهذا صورة تكون اللبن في الضرع فاللبن انما يتولد من بعض أجزاء الدم والدم انما يتولد من بعض الاجزاء اللطيفة من الاشياء المأكولة الحاصلة في الكرش فاللبن تولد أولا من الفرث ثم من الدم ثانيا ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبنا خالصا من بين فرث ودم وعند تولد اللبن في الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته في حلمة الثدي ثقابا صغارا ومسام ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفا من اللبن خرج بالمص أو الحلب وما كان كثيفا احتبس في البدن وهو المراد بقوله خالصا يعني من شوائب كدورة الدم والفرث سائغا للشاربين يعني جاريا في حلوقهم سهلا لذيذا هنيئا مريئا ﴿قوله عز وجل﴾ ﴿ومن ثمرات النخيل والاعناب﴾ يعني ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والاعناب ﴿تتخذون منه﴾ الضمير في منه يرجع الى ما تقديره ولكم من ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون منه ﴿سكرا ورزقا حسنا﴾ قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وابراهيم وابن أبي ليلى والزجاج وابن قتيبة السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكرا وسكرا والرزق الحسن سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل والاعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك * فان قلت الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل في معرض الانعام والامتنان * قلت قال العلماء في الجواب عن هذا ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر انما نزل في سورة المائدة وهي مدنية فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة وقيل ان الله عز وجل نبه في هذه الآية على تحريم الخمر أيضا لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا يدل على التحريم وروى العوفي عن ابن عباس ان السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم

من ثمرات النخيل والاعناب أي من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء أو تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد والضمير في منه يرجع الى المضاف المحذوف الذي هو العصير والسكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا ثم فيه وجهان أحدهما ان الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة وثانيهما أن يجمع بين العتاب والمنة وقيل السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله الى حد السكر ويحتجان بهذه الآية وبقوله عليه السلام الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب وباخبار جة (ورزقا حسنا) هو الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك

ومن ثمرات النخيل والاعناب) يعني الكروم (تتخذون منه سكرا) مسكرا وهذا منسوخ ويقال طعاما (ورزقا حسنا) حلالا من الخل والدبس والزبيب وغير ذلك

﴿ ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات ﴿ واوحى ربك الى النحل ﴾ الهمها وقذف فى قلوبها

السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب اذا اشتد والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعى ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الاخبار لا الاحلال وأولى الاقاويل ان قوله تتخذون منه سكرا منسوخ سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت القول بالنسخ فيه نظر لان قوله ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا خبر والاخبار لا يدخلها النسخ ومن زعم انها منسوخة رأى ان هذه الآية نزلت بمكة فى وقت اباحة الخمر ثم ان الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بانها منسوخة وقال أبو عبيدة فى معنى الآية ان السكر الطعم يقال هذا سكر لك أى طعم لك وقال غيره السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر أى سددته والتمر والزبيب مما يسد الجوع وهذا شرح قول أبى عبيدة ان السكر الطعم ﴿ ان فى ذلك ﴾ يعنى الذى ذكر من انعامه على عباده ﴿ لآية ﴾ يعنى دلالة وحجة واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يعنى ان من كان عاقلا استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة أن لهذه الاشياء خالقا ومدبرا قادرا على ما يريد * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأوحى ربك الى النحل ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من اخراج اللبن من بين فرث ودم واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب ذكر فى هذه الآية اخراج العسل الذى جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك الى النحل الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته وأصل الوحى الاشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الالهية التى يلقيها الله الى أنبيائه وحى والى أوليائه الهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل يعنى انه سخرها لما خلقها له وألهمها رشدها وقدر فى أنفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبنى بيوتا على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فالهمها الله سبحانه وتعالى أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذى لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضا أن تجعل عليها أميرا كبيرا نافذ الحكم فيها وهى تطيعه وتمتثل أمره ويكون هذا الامير أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعنى ملكها كذا حكاه الجوهرى وألهمها الله سبحانه وتعالى ايضا ان جعلت على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير اهلها من الدخول اليها والهمها الله سبحانه وتعالى ايضا انها تخرج من بيوتها وتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهى فكان ذلك شبيها بالوحى فلذلك قال تبارك وتعالى وأوحى ربك الى النحل والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضا

(ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون وأوحى ربك الى النحل) وألهم

(ان فى ذلك) فيما ذكرت لكم (لآية) لعلامة (لقوم يعقلون) يصدقون (وأوحى ربك الى النحل) الهم ربك النحل

﴿ قال ﴾

وقرئ الى النحل بفتحتين ﴿ ان اتخذى ﴾ بان اتخذى ويجوز ان تكون ان مفسرة لان فى الايحاء معنى القول وتأنيث الضمير على المعنى فان النحل مذكر ﴿ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ ذكر بحرف التبعيض لانها لا تبنى فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من كرم أو سقف ولا فى كل مكان منها وانما سمى ما تبنيه لتعسل فيه بيتا تشبيها ببناء الانسان لما فيه من حسن الصنيعة وصحة القسمة التى لا يقوى عليها حذاق المهندسين الا بآلات وانظار دقيقة ولعل ذكره للتنبه على ذلك * وقرئ بيوتا بكسر الباء للياء وقرأ ابن عامر وابو بكر يعرشون بضم الراء ﴿ ثم كلى من كل الثمرات ﴾ من كل ثمرة تشتهيها مرها وحلوها ﴿ فاسلكى ﴾ ما اكلت ﴿ سبل ربك ﴾ فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النور المر عسلا من اجوافك أو فاسلكى الطرق التى الهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس ﴿ ذللا ﴾ جمع ذلول وهى حال من السبل أى مذللة ذللها الله تعالى وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى وانت ذلل منقادة لما امرت به ﴿ يخرج من بطونها ﴾ عدل به عن خطاب النحل الى خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل والهامه لاجلهم ﴿ شراب ﴾ يعنى العسل لانه مما يشرب واحتج به من زعم ان النحل تأكل الازهار والاوراق العطرة فيستحيل فى بطنها عسلا ثم تقئ ادخارا للشتاء ومن زعم انها تلتقط بافواهها اجزاء طلية حلوة صغيرة متفرقة على الاوراق والازهار وتضعها فى بيوتها ادخارا فاذا اجتمع فى بيوتها شئ كثير منها كان العسل فسر البطون بالافواه ﴿ مختلف ألوانه ﴾ ابيض واصفر واحمر واسود بحسب اختلاف سن النحل والفصل

قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله سبحانه وتعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز وكذا أنثها الله تعالى فقال ﴿ أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ يعنى يبنون ويسقفون وذلك ان النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجرة ويأوى الى الكهوف ومنه أهلى وهو الذى يأوى الى البيوت ويربيه الناس عندهم وقد جرت العادة ان الناس يبنون للنحل الاماكن حتى تأوى اليها وقال ابن زيد أراد بالذى يعرشون الكروم ﴿ ثم كلى من كل الثمرات ﴾ يعنى من بعض الثمرات لانها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل هنا ليست للعموم ﴿ فاسلكى سبل ربك ﴾ يعنى الطرق التى ألهمك الله أن تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمرات ﴿ ذللا ﴾ قيل انها نعت للسبل يعنى انها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها قال مجاهد لا يتوعر عليها مكان تسلكه وقيل الذلل نعت للنحل يعنى انها مذللة مسخرة لاربابها مطيعة منقادة لهم حتى انهم ينقلونها من مكانها الى مكان آخر حيث شاؤا وأرادوا لا تستعصى عليهم ﴿ يخرج من بطونها شراب ﴾ يعنى العسل ﴿ مختلف ألوانه ﴾ يعنى ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار

(ان اتخذى من الجبال بيوتا) هى أن المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول قال الزجاج واحد النحل نحلة كنخل ونخلة والتأنيث باعتبار هذا ومن فى من الجبال (ومن الشجر ومما يعرشون) يرفعون من سقوف البيت أو ما يبنون للنحل فى الجبال والشجر والبيوت من الاماكن التى تعسل فيها للتبعيض لانها لا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش والضمير فى يعرشون للناس وبضم الراء شامى وأبو بكر (ثم كلى من كل الثمرات) أى ابنى البيوت ثم كلى كل ثمرة تشتهيها فاذا أكلتها (فاسلكى سبل ربك) فادخلى الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل أو اذا أكلت الثمار فى المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكى الى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها (ذللا) جمع ذلول وهى حال من السبل لان الله تعالى ذللها وسهلها أو من الضمير فى فاسلكى أى وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة (يخرج من بطونها شراب) يريد العسل لانه مما يشرب تلقيه من فيها (مختلف ألوانه) منه أبيض وأصفر وأحمر من الشباب والكهول والشيب

(أن اتخذى من الجبال بيوتا) فى الجبال مسكنا (ومن الشجر) وفى الشجر أيضا (ومما يعرشون) يبنون (ثم كلى من كل الثمرات) من ألوان كل الثمرات (فاسلكى سبل ربك) فادخلى طرق ربك (ذللا) مذللا مسخرا لك (يخرج من بطونها) من بطون النحل (شراب مختلف ألوانه) الاحمر والاصفر والابيض

﴿ فيه شفاء للناس ﴾ اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون معجون الا والعسل جزء منه مع ان التنكير فيه مشعر بالتبعيض ويجوز ان يكون للتعظيم وعن قتادة ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ان اخى يشتكى بطنه فقال

والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وزعم الامام فخر الدين الرازى انه رأى فى بعض كتب الطب أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فيجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لانفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا فانا نشاهد ان النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها بان كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها يعنى من أفواهها وقول أهل الظاهر أولى وأصح لانا نشاهد انه يوجد فى طعم العسل طعم تلك الازهار التى تأكلها النحل وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضد هذا قول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لا قالت فما هذه الريح التى أجدمنك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط العرفط شجر الطلح وله صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا الدليل صحة قول أهل الظاهر من المفسرين وانه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وطبيعة واحدة وقوله ان طبيعة العسل تقرب من طبيعة الترنجبين فيه نظر لان مزاج الترنجبين معتدل الى الحرارة وهو ألطف من السكر ومزاج العسل حار يابس فى الدرجة الثانية فبينهما فرق كبير وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فيه نظر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف مثل بطن الانسان وغيره والله أعلم ﴿ وقوله تعالى ﴿ فيه ﴾ يعنى فى الشراب الذى يخرج من بطون النحل ﴿ شفاء للناس ﴾ وهذا قول ابن عباس وابن مسعود اذ الضمير فى قوله فيه شفاء للناس يرجع الى العسل وقد اختلفوا فى هذا الشفاء هل هو على العموم لكل مرض أو على الخصوص لمرض دون مرض على قولين أحدهما ان العسل فيه شفاء من كل داء وكل مرض قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور وفى رواية أخرى عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع ان ابن عمر ما كانت تخرج به قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان أخى استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا فسقاه ثم جاء فقال انى سقيته عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا فقال لقد سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أو على ألوان أغذيتها (فيه شفاء للناس) لانه من جملة الادوية النافعة وقل معجون من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل وليس الغرض انه شفاء لكل مريض كما ان كل دواء كذلك وتنكيره لتعظيم الشفاء الذى فيه أو لان فيه بعض الشفاء لان النكرة فى الاثبات تخص وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال عليه السلام اسقه عسلا فجاء وقال زاده شرا فقال عليه السلام صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه فصح وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل * ومن بدع الروافض ان المراد بالنحل على وقومه وعن بعضهم ان رجلا قال عند المهدى انما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدى وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة

(فيه) فى العسل (شفاء للناس) من الداء ويقال فيه فى القرآن شفاء بيان للناس

اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب واسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فشفاه الله تعالى فبرئ فكأنما انشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من احوال النحل ﴿ ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ فان من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة حق التدبر علم قطعا انه لابد له

صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ وقد اعترض بعض الملحدين ومن فى قلبه مرض على هذا الحديث فقال ان الاطباء مجمعون على ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال فنقول فى الرد على هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب ان الاسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم والهيضات وقد أجمع الاطباء فى مثل هذا على ان علاجه بأن تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على الاسهال أعينت مادامت القوة باقية فاما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض فيحتمل أن يكون اسهال الشخص المذكور فى الحديث أصابه من امتلاء أو هيضة فدواؤه بترك اسهاله على ماهو عليه أو تقويته فامره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده اسهالا فزاده عسلا الى ان فنيت المادة فوقف الاسهال ويكون الخلط الذى كان به يوافقه شرب العسل فثبت بما ذكرناه ان أمره صلى الله عليه وسلم لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب وان المعترض عليه جاهل لها ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الاطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك وانما ذكرنا هذا الجواب الجارى على صناعة الطب دفعا لهذا المعترض بانه لا يحسن صناعة الطب التى اعترض بها والله أعلم وقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم علم بالوحى الالهى أن العسل الذى أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه فى الحال عندهم قال صدق الله يعنى فيما وعد به من ان فيه شفاء وكذب بطن أخيك يعنى باستعجالك للشفاء فى أول مرة والله أعلم بمراده واسرار رسوله صلى الله عليه وسلم فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين يعطش قلنا فى الجواب عن هذا الاعتراض أيضا ان قوله فيه شفاء للناس مع أنه يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة انه خرج مخرج الاغلب وانه فى الاغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس لكل داء ولكنه فى الجملة دواء وان نفعه أكثر من مضرته وقل معجون من المعاجين الا وتمامه به والاشربة المتخذة من العسل نافعة لاصحاب البلغم والشيوخ المبرودين ومنافعه كثيرة جدا والقول الثانى انه شفاء للاوجاع التى شفاؤها فيه وهذا قول السدى وقال مجاهد فى قوله فيه شفاء للناس يعنى القرآن لانه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس والقول الاول أصح لان الضمير يجب أن يعود الى أقرب المذكورات وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو أولى أن يرجع الضمير اليه لانه أقرب مذكور * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ يعنى فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا

من أضاحيكهم (ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فى عجيب أمرها فيعلمون ان الله أودعها علما بذلك وفطنها كما أعطى أولى العقول

(ان فى ذلك) فيما ذكرت (لآية) لعلامة وعبرة (لقوم يتفكرون) فيما خلقت

من قادر حكيم يلهمهما ذلك ويحملها عليه ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ بآجال مختلفة ﴿ ومنكم من يرد ﴾ يعاد ﴿ الى ارذل العمر ﴾ اخسه يعنى الهرم الذى يشابه الطفولية فى نقصان القوة والعقل وقيل هو خمس وتسعون سنة وقيل خمس وسبعون سنة ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيأ ﴾ ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية فى النسيان وسوء الفهم ﴿ ان الله عليم ﴾ بمقادير اعمارهم ﴿ قدير ﴾ يميت الشاب النشط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على ان تفاوت آجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب ابنيتهم

وقدرتنا * قوله عز وجل ﴿ والله خلقكم ﴾ يعنى أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيأ ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ يعنى عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبانا واما كهولا ﴿ ومنكم من يرد الى أرذل العمر ﴾ يعنى أرداه وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب أولها من النشو والنماء وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين سنة الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع الانسان فى النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذبك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذبك من عذاب القبر وأعوذبك من فتنة المحيا والممات * وفى رواية أخرى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذه الدعوات اللهم انى أعوذبك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات * وقوله تعالى ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيأ ﴾ يعنى ان الانسان يرجع الى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر وقال ابن عباس لكى يصير كالصبى الذى لا عقل له وقال ابن قتيبة معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالامور شيأ لشدة هرمه وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد ان كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على اماتته واحيائه أنه قادر على نقله من العلم الى الجهل هكذا وجدته منقولا عنه ولو قال ليريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم الى الجهل أنه قادر على احيائه بعد اماتته ليكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت لكان أجود قال ابن عباس ليس هذا فى المسلمين لان المسلم لا يزداد فى طول العمر والبقاء الا كرامة عند الله وعقلا ومعرفة وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيأ وقال فى قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس فى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافر ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات * وقوله تعالى ﴿ ان الله عليم ﴾ يعنى بما صنع بأوليائه وأعدائه ﴿ قدير ﴾

(والله خلقكم ثم يتوفاكم) بقبض ارواحكم من أبدانكم (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) الى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة أو ثمانون أو تسعون (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) لينسى ما يعلم أو لئلا يعلم زيادة علم على علمه (ان الله عليم) بحكم التحويل الى الارذل من الاكمل أو الى الافناء من الاحياء (قدير) على تبديل ما يشاء كما يشاء من الاشياء

(والله خلقكم ثم يتوفاكم) يقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أسفل العمر (لكى لا يعلم) حتى لا يفقه (بعد علم) العلم الاول (شيأ ان الله عليم) بتحويل الخلق (قدير) على تحويلهم من حال الى حال

(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى جعلكم متفاوتين فى الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مماليكم وهم بشر مثلكم (فما الذين فضلوا) فى الرزق يعنى الملاك (برادى) بمعطى (رزقهم على ماملكت أيمانهم) فكان ينبغى أن تردوا فضل مارزقتموه عليهم حتى تساووا فى الملبس والمطعم (فهم فيه سواء) جملة اسمية وقعت فى موضع جملة فعلية فى موضع النصب لانه جواب النفى بالفاء وتقديره فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فيستووا مع عبيدهم فى الرزق وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم أنتم لا تسوون بينكم و بين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تجعلونهم فيه شركاء ولا ترضون ذلك لانفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء (أفبنعمة الله يجحدون) وبالتاء أبو بكر فجعل ذلك من جملة جحود النعمة (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أى من جنسكم

وعدل امزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطباع لم يبلغ التفاوت الى هذا المبلغ ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ﴾ فمنكم غنى ومنكم فقير ومنكم موالى يتولون رزقهم ورزق غيرهم ومنكم مماليك حالهم على خلاف ذلك ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم ﴾ بمعطى رزقهم ﴿ على ماملكت ايمانهم ﴾ على مماليكهم فان مايدرون عليهم رزقهم لذى جعله الله تعالى فى ايديهم ﴿ فهم فيه سواء ﴾ فالموالى والمماليك سواء فى ان الله رزقهم فالجملة لازمة للجملة المنفية أومقررة لها ويجوز ان تكون واقعة موقع الجواب كأنه قيل فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت ايمانهم فيستووا فى الرزق على انه رد وانكار على المشركين فانهم يشركون بالله بعض مخلوقاته فى الالوهية ولا يرضون ان تشاركهم عبيدهم فيما انعم الله عليهم فيساووهم فيه ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ حيث يتخذون له شركاء فانه يقتضى ان يضاف اليهم بعض ماانعم الله عليهم ويجحدوا انه من عندالله أوحيث انكروا امثال هذه الحجج بعدماانعم الله عليهم بايضاحها والباء لتضمن الجحود معنى الكفر * وقرأ ابوبكر تجحدون بالتاء لقوله تعالى خلقكم وفضل بعضكم ﴿ والله جعل لكم من انفسكم ازواجا ﴾ أى من جنسكم لتأنسوا بها وليكون اولادكم

يعنى على ما يريد * قوله تعالى ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر وكما فضل بعضكم على بعض فى الرزق كذلك فضل بعضكم على بعض فى الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك فهم متفاوتون ومتباينون فى ذلك كله وهذا مما اقتضته الحكمة الالهية والقدرة الربانية ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم ﴾ يعنى من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء وقد جعلوا عبيدى شركائى فى ملكى وسلطانى يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الاصنام شركاء لله قال قتادة هذا مثل ضربه الله عزوجل يقول هل منكم أحد يرضى أن يشركه مملوكه فى جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده وقيل فى معنى الآية ان الموالى والمماليك الله رازقهم جميعا ﴿ فهم فيه ﴾ يعنى فى رزقه ﴿ سواء ﴾ فلا تحسبن أن الموالى يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله أجراه على أيدى الموالى للمماليك والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وان الموالى والمماليك فى الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى * وقوله ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ فيه انكار على المشركين حيث جحدوا نعمة الله وعبدوا غيره * قوله عزوجل ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ يعنى النساء فخلق من آدم حواء زوجته وقيل جعل لكم من جنسكم أزواجا لانه خطاب عام يعم الكل

(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) نزلت هذه الآية فى أهل نجران حين قالوا المسيح ابن الله فنزل قوله والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فى المال والخدم (فما الذين فضلوا) بالمال والخدم (برادى رزقهم) هل يعطون مالهم (على ماملكت ايمانهم) لعبيدهم وامائهم (فهم) يعنى المالك والمملوك (فيه) فى المال (سواء) شرع قالوا لا نفعل ذلك ولا نرضى فقال الله (أفبنعمة الله يجحدون) أفترضون لى ما لا ترضون لانفسكم وتكفرون بوحدانية الله (والله جعل لكم من انفسكم) آدميا مثلكم (أزواجا) نساء

(وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت وإليك نسعى ونحفد واختلف فيه فقيل هم الاختان على البنات وقيل أولاد الاولاد والمعنى وجعل لكم حفدة أي خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم (ورزقكم من الطيبات) أي بعضها لان كل الطيبات في الجنة وطيبات الدنيا انموذج منها (أفبالباطل يؤمنون) هو مايعتقدونه من منفعة الاصنام وشفاعتها (وبنعمة الله) أي الاسلام (هم يكفرون) أو الباطل الشيطان والنعمة محمد صلى الله عليه وسلم أو الباطل مايسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) أي الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيأ فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى مايرزق فان اردت المصدر نصبت به شيأ أي لا يملك أن يرزق شيأ وان أردت المرزوق كان شيأ بدلا منه أي قليلا ومن السموات والارض صلة للرزق ان كان مصدرا أي لا يرزق من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وصفة ان كان اسما لما يرزق

مثلكم وقيل هو خلق حواء من آدم ﴿وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة﴾ واولاد اولاد أو بنات فان الحافد هو المسرع في الخدمة والبنات يخدمن في البيوت اتم خدمة وقيل هم الاختان على البنات وقيل الربائب ويجوز ان يراد بها البنون انفسهم والعطف لتغاير الوصفين ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من اللذائذ او الحلالات ومن للتبعيض فان المرزوق في الدنيا انموذج منها ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو ان الاصنام تنفعهم أو ان من الطيبات مايحرم عليهم كالبحائر والسوائب ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾ حيث اضافوا نعمه الى الاصنام أو حرموا ما احل الله لهم وتقديم الصلة على الفعل اما للاهتمام أو لايهام التخصيص مبالغة أو للمحافظة على الفواصل ﴿ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ﴾ من مطر ونبات ورزقا ان جعلته مصدرا فشيأ

فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ الحفدة جمع حافد وهو المسرع في الخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قوله في الدعاء واليك نسعى ونحفد أي نسرع الى طاعتك فهذا أصله في اللغة ثم اختلفت أقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعي الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضا انهم أصهاره فهو بمعنى الاول فعلى هذا القول يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل لكم بسببهم الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فقد حفدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقيل هم أهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الاولاد وقال مقاتل والكلبي البنين هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل على عمله وقال ابن عباس هم ولد الولد وفي رواية اخرى عنه انهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك وبالجملة فان الحفدة هم غير البنين لان الله سبحانه وتعالى قال بنين وحفدة فجعل بينهم مغايرة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ يعني النعم التي أنعم بها عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ يعني بالاصنام وقيل بالشيطان يؤمنون وقيل معناه يصدقون أن لي شريكا وصاحبة وولدا وهذا استفهام انكاري أي ليس لهم ذلك ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾ يعني أنهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم الى غيره وقيل معناه انهم يجحدون ما أحل الله لهم ﴿ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض﴾ يعني الاصنام التي لا تقدر على انزال المطر الذي في السموات خزائنه ولا يقدرون على اخراج النبات الذي في الارض معدنه ﴿شيأ﴾ يعني لا يملك من الرزق شيأ قليلا ولا كثيرا وقيل معناه يعبدون مالا يرزق شيأ

(وجعل من ازواجكم) من نسائكم (بنين وحفدة) يعني ولد الولد ويقال خدما وعبيدا ويقال أختانا (ورزقكم من الطيبات) جعل أرزاقكم ألين وأطيب (ولا يستطيعون) من رزق الدوب (أفبالباطل يؤمنون) أفبالشيطان والاصنام يؤمنون يصدقون (وبنعمة الله) بوحدانية الله ودينه هم (يكفرون ويعبدون من دون الله مالا يملك) مالا يقدر (لهم) يعني الاصنام (رزقا من السموات) بالمطر (والارض) بالنبات (شيأ)

والضمير في (ولا يستطيعون) لما لانه في معنى الآلهة بعد ما قال لا يملك على اللفظ والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ولا يتأتى ذلك منهم (فلا تضربوا لله الامثال) فلا تجعلوا لله مثلا فانه لا مثل له أي فلا تجعلوا له شركاء (ان الله يعلم) أنه لا مثل له من الخلق (وأنتم لا تعلمون) ذلك أو ان الله يعلم كيف يضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ذلك والوجه الاول ثم ضرب المثل فقال (ضرب الله مثلا عبدا) هو بدل من مثلا (مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا) مصدران في موضع الحال أي مثلكم في اشراككم بالله الاوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه ما شاء وقيد بالمملوك ليميزه من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا اذ هما من عباد الله وبلا يقدر على شيء ليمتاز من المكاتب والمأذون فهما يقدران على التصرف ومن موصوفة أي وحرا رزقناه ليطابق عبدا أو

منصوب به والا فبدل منه ﴿ولا يستطيعون﴾ ان يملكوه أو لا استطاعة لهم اصلا وجمع الضمير فيه وتوحيده في ما لا يملك لان ما مفرد في معنى الآلهة ويجوز ان يعود الى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع انهم احياء متصرفون شيأ من ذلك فكيف بالجماد ﴿فلا تضربوا لله الامثال﴾ فلا تجعلوا له مثلا تشركونه به أو تقيسونه عليه فان ضرب المثل تشبيه حال بحال ﴿ان الله يعلم﴾ فساد ما تعولون عليه من القياس على ان عبادة عبد الملك ادخل في التعظيم من عبادته وعظم جرمكم فيما تفعلون ﴿وانتم لا تعلمون﴾ ذلك ولو علمتموه لما جرأتم فهو تعليل للنهي أو انه يعلم كنه الاشياء وانتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم دون نصه ويجوز ان يراد فلا تضربوا لله الامثال فانه يعلم كيف تضرب الامثال وانتم لا تعلمون ثم علمهم كيف يضرب فضرب مثلا لنفسه ولمن عبد دونه فقال ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا

﴿ولا يستطيعون﴾ يعني ولا يقدرون على شيء يذكر عجز الاصنام عن ايصال نفع أو دفع ضر ﴿فلا تضربوا لله الامثال﴾ يعني لا تشبهوا الله بخلقه فانه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفي ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق أو الرازق بالمرزوق أو القادر بالعاجز ﴿ان الله يعلم﴾ يعني ما أنتم عليه من ضرب الامثال له ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ خطأ ما تضربون له من الامثال * قوله تعالى ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا﴾ لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الامثال لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلا فقال تعالى مثلكم في اشراككم بالله الاوثان كمثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء فصريح العقل يشهد بانه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والافضال وبين الاصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء ألبتة وقيل هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر لانه لما كان محروما من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيء وقيل ان الكافر لما رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرا صار كالعبد الذي لا يملك شيأ والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا المؤمن لانه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والانفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سرا وجهرا في طاعة الله وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿فهو ينفق منه سرا وجهرا﴾ فاثابه الله الجنة على ذلك * فان قلت لم قال عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف قلت انما ذكر

(ولا يستطيعون) لا يقدرون ذلك (فلا تضربوا لله الامثال) فلا تصفوا لله ولدا ولا شريكا ولا شبيها (ان الله يعلم) ان لا ولد له ولا شريك له (وأنتم تعلمون) ذلك يا معشر الكفار ثم ضرب مثل المؤمن والكافر فقال (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا) بين الله صفة عبد مملوك (لا يقدر على شيء) (قا و خا ٧٩ لث) من النفقة والاحسان وهو مثل الكافر لا يجيء منه خير (ومن رزقناه) أعطيناه (منا رزقا حسنا) مالا كثيرا (فهو ينفق منه سرا) فيما بينه وبين الله (وجهرا) فيما بينه وبين الناس في سبيل الله وهذا مثل المؤمن المخلص

هل يستوون ﴿ مثل مايشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأسا ومثل نفسه بالحر المالك الذى رزقه الله مالا كثيرا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء واحتج بامتناع الاشراك والتسوية بينهما مع تشاركهما فى الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بالاصنام التى هى اعجز المخلوقات وبين الله الغنى القادر على الاطلاق وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق وتقييد العبد بالمملوك للتميز عن المكاتب والمأذون من الحر فانه ايضا عبد الله وبسلب القدرة للتميز عن المكاتب والمأذون وجعله قسيما للمالك المتصرف يدل على ان المملوك لايملك والاظهر ان من نكرة موصوفة لتطابق عبدا وجمع الضمير فى يستوون لانه للجنسين فان المعنى هل يستوى الاحرار والعبيد ﴿ الحمد لله ﴾ كل الحمد له لايستحقه غيره فضلا عن العبادة لانه مولى النعم كلها ﴿ بل اكثرهم لايعلمون ﴾ فيضيفون نعمه الى غيره ويعبدونه لاجلها ﴿ وضرب الله مثلا رجلين احدهما ابكم ﴾ ولد اخرس لايفهم ولايفهم ﴿ لايقدر على شئ ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله ﴿ وهو كل على مولاه ﴾ عيال وثقل على من يلى امره ﴿ اينما يوجهه ﴾ حيثما يرسله مولاه فى امر وقرئ يوجه على البناء للمفعول ويوجه بمعنى يتوجه كقوله «اينما اوجه الق سعدا» وتوجه بلفظ الماضى ﴿ لايأت بخير ﴾ بنجح وكفاية مهم ﴿ هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ﴾ ومن هو فهم منطيق ذو كفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل

المملوك ليتميز من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا لانهما من عباد الله وقوله لايقدر على شئ احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له فى التصرف لانهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على ان العبد لايملك شيأ ﴿ هل يستوون ﴾ ولم يقل هل يستويان يعنى هل يستوى الاحرار والعبيد والمعنى كما لايستوى هذا الفقير البخيل والغنى السخى كذلك لايستوى الكافر العاصى والمؤمن الطائع وقال عطاء فى قوله عبدا مملوكا هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو أبو بكر الصديق ﴿ ثم قال تعالى ﴿ الحمد لله ﴾ حمد الله نفسه لانه المستحق لجميع المحامد لانه المنعم المتفضل على عباده وهو الخالق الرازق لا هذه الاصنام التى عبدها هؤلاء فانها لاتستحق الحمد لانها جماد عاجزة لايد لها على أحد ولا معروف فتحمد عليه انما الحمد الكامل لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه أهل الحمد والثناء الحسن ﴿ بل أكثرهم ﴾ يعنى الكفار ﴿ لايعلمون ﴾ يعنى أن الحمد لله لا لهذه الاصنام ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم ﴾ هو الذى ولد أخرس فكل ابكم أخرس وليس كل أخرس أبكم والابكم الذى لايفهم ولايفهم ﴿ لايقدر على شئ ﴾ هو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ﴿ وهو كل على مولاه ﴾ أى ثقيل على من يلى أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ وهو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر على النطق وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله وهو كل على مولاه أى غليظ ثقيل على مولاه ﴿ أينما يوجهه ﴾ أى حيثما يرسله ويصرفه فى طلب حاجة أو كفاية مهم ﴿ لايأت بخير ﴾ يعنى لايأت بنجح لانه أخرس عاجز لايحسن ولايفهم ﴿ هل يستوى ﴾ يعنى من هذه صفته ﴿ هو ﴾ يعنى صاحب هذه الصفات المذمومة ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ يعنى ومن هو سليم

(الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) بان الحمد والعبادة لله ثم زاد فى البيان فقال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شئ) الابكم الذى ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم (وهو كل على مولاه) أى ثقل وعيال على من يلى أمره ويعوله (أينما يوجهه لايأت بخير) حيثما يرسله ويصرفه فى مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفعه ولم يأت بنجح (هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل) أى ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير

(هل يستوون) فى الثواب والطاعة (الحمد لله) الشكر لله والوحدانية لله (بل اكثرهم) كلهم (لايعلمون) أمثال القرآن ويقال نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ورجل من العرب يقال له أبو العيص ابن أمية ثم ضرب مثله ومثل الاصنام فقال (وضرب الله مثلا) بين الله صفة (رجلين أحدهما أبكم) أخرس (لايقدر على شئ) من الكلام وهو الصنم (وهو كل) ثقل (على مولاه) على وليه وقرابته عيال على عائله (أينما يوجهه) ويدعوه من شرق أو غرب (لايأت بخير) لايجيب من يدعوه بخير وهذا مثل صنم (هل يستوى) فى النفع ودفع الضر (هو) يعنى الصنم (ومن يأمر بالعدل) (الحواس)

الشامل بمجامع الفضائل ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾ وهو فى نفسه على طريق مستقيم لايتوجه الى مطلب الا ويبلغه باقرب سعى وانما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين لانهما كمال مايقابلهما وهذا تمثيل ثان ضربه الله تعالى لنفسه وللاصنام لابطال المشاركة بينه وبينها أو للمؤمن والكافر ﴿ ولله غيب السموات والارض ﴾ يختص به علمه لايعلمه غيره وهو ماغاب فيهما عن العباد بان لم يكن محسوسا لهم ولم يدل عليه محسوس وقيل يوم القيامة فان علمه غائب عن اهل السموات والارض ﴿ وماامر الساعة ﴾ ومامر قيام الساعة فى سرعته وسهولته ﴿ الا كلمح البصر ﴾ الا كرجع الطرف من اعلا الحدقة الى اسفلها ﴿ أو هو اقرب ﴾ أو امرها اقرب منه بان يكون فى زمان نصف تلك الحركة بل فى الآن الذى يبتدأ فيه فانه تعالى يحيى الخلائق دفعة ومايوجد دفعة كان فى آن وأو للتخيير أو بمعنى بل وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشئ الذى تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو اقرب مبالغة فى استقرابه ﴿ ان الله على كل شئ قدير ﴾ فيقدر على ان يحيى الخلائق دفعة كما قدر ان احياهم متدرجا ثم دل على قدرته فقال

الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير ﴿ وهو ﴾ فى نفسه ﴿ على صراط مستقيم ﴾ يعنى على سيرة صالحة ودين قويم فيجب أن يكون الآمر بالعدل عالما قادرا مستقيما فى نفسه حتى يتمكن من الامر بالعدل وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده من انعامه ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللاصنام التى هى أموات جماد لاتضر ولاتنفع ولاتسمع ولاتنطق ولاتعقل وهى كل على عابديها لانها تحتاج الى كلفة الحمل والنقل والخدمة وقيل كلا المثلين للمؤمن والكافر والمؤمن هو الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والكافر هو الابكم الثقيل الذى لايأمر بخير فعلى هذا القول تكون الآية على العموم فى كل مؤمن وكافر وقيل هى على الخصوص فالذى يأمر بالعدل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صراط مستقيم والذى يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل وقيل الذى يأمر بالعدل عثمان بن عفان وكان له مولى يأمره بالاسلام وذلك المولى يأمر عثمان بالامساك عن الانفاق فى سبيل الله تعالى فهو الذى لايأتى بخير وقيل المراد بالابكم الذى لايأتى بخير أبى ابن خلف وبالذى يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون ﴿ ولله غيب السموات والارض ﴾ أخبر الله عز وجل فى الآية عن كمال علمه وانه عالم بجميع الغيوب فلاتخفى عليه خافية ولايخفى عليه شئ منها وقيل الغيب هنا هو علم قيام الساعة وهو قوله ﴿ وماأمر الساعة ﴾ يعنى فى قيامها والساعة هى الوقت الذى يقوم الناس فيه لموقف الحساب ﴿ الا كلمح البصر ﴾ يعنى فى السرعة ولمح البصر هو انطباق جفن العين وفتحه وهو طرف العين أيضا ﴿ أو هو أقرب ﴾ يعنى ان لمح البصر يحتاج الى زمان وحركة والله سبحانه وتعالى اذا أراد شيأ قال له كن فيكون فى أسرع من لمح البصر وهو قوله ﴿ ان الله على كل شئ قدير ﴾ فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وانه سبحانه وتعالى مهما أراد شيأ كان أسرع مايكون قال الزجاج ليس المراد ان الساعة تأتى فى أقرب من لمح البصر ولكنه سبحانه وتعالى وصف

(وهو) فى نفسه (على صراط مستقيم) على سيرة صالحة ودين قويم وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللاصنام التى هى أموات لاتضر ولاتنفع (ولله غيب السموات والارض) أى يختص به علم ماغاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه أو أراد بغيب السموات والارض يوم القيامة على أن علمه غائب عن أهل السموات والارض لم يطلع عليه أحد منهم (وماأمر الساعة) فى قرب كونها وسرعة قيامها (الا كلمح البصر) كرجع طرف وانما ضرب به المثل لانه لايعرف زمان أقل منه (أو هو) أى الامر (أقرب) وليس هذا الشك للمخاطب ولكن المعنى كونوا فى كونها على هذا الاعتبار وقيل بل هو أقرب (ان الله على كل شئ قدير) فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق لانه بعض المقدورات ثم دل على قدرته بما بعده فقال

بالتوحيد (وهو على صراط مستقيم) يدعو الى طريق مستقيم وهو الله (ولله غيب السموات والارض) ماغاب عن العباد (وماأمر الساعة) أمر قيام الساعة فى السرعة (الا كلمح البصر) كطرف البصر (أو هو أقرب) بل هو أقرب (ان الله على كل شئ) من البعث وغيره (قدير

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) وبكسر الالف وفتح الميم على اتباع الكسرة النون وبكسرهما حمزة والهاء مزيدة فى أمهات للتوكيد كما زيدت فى أراق فقيل اهراق وشذت زيادتها فى الواحدة (لاتعلمون شيأ) حال أى غير عالمين شيأ من حق المنعم الذى خلقكم فى البطون (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) أى وما ركب فيكم هذه الاشياء الا آلات لازالة الجهل الذى ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والافئدة فى فؤاد كالاغربة فى غراب وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة لعدم السماع فى غيرها (ألم يروا) وبالتاء شامى وحمزة (الى الطير مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المواتية لذلك (فى جو السماء) هو الهواء المتباعد من الارض فى سمت العلو (ما يمسكهن) فى قبضهن وبسطهن ووقوفهن (الا الله) بقدرته وفيه نفى لما يصوره الوهم

﴿ والله اخرجكم من بطون امهاتكم ﴾ وقرأ الكسائى بكسر الهمزة على انه لغة أو اتباع لما قبلها وحمزة بكسرها وكسر الميم والهاء مزيدة مثلها فى اهراق ﴿ لاتعلمون شيأ ﴾ جهالا مستصحبين جهل الجمادية ﴿ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ﴾ اداة تتعلمون بها فتحسون بمشاعركم جزئيات الاشياء فتدركونها ثم تتنبهون بقلوبكم بمشاركات ومباينات بينها بتكرار الاحساس حتى يتحصل لكم العلوم البديهية وتمكنوا من تحصيل المعالم الكسبية بالنظر فيها ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ كى تعرفوا ما انعم الله عليكم طورا بعد طور فتشكرون ﴿ ألم يروا الى الطير ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء على انه خطاب للعامة ﴿ مسخرات ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المؤاتية له ﴿ فى جو السماء ﴾ فى الهواء المتباعد من الارض ﴿ ما يمسكهن ﴾ فيه ﴿ الا الله ﴾

سرعة القدرة على الاتيان بها متى شاء لايعجزه شئ * قوله عز وجل ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيأ ﴾ تم الكلام هنا لان الانسان خلق فى أول الفطرة ومبدئها خاليا عن العلم والمعرفة لايهتدى سبيلا ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى انما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل الى العلم فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة وهى الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم فى أمر دينكم وجعل لكم الابصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته فتستدلوا بها على وحدانيته وجعل لكم الافئدة لتعقلوا بها وتفهموا معانى الاشياء التى جعلها دلائل وحدانيته وقال ابن عباس فى هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من اخراجكم من بطون أمهاتكم الى ان صرتم رجالا وتعقلوا عظمة الله وقيل فى معنى الآية والله خلقكم فى بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق الى السعة وجعل لكم الحواس آلات لازالة الجهل الذى ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقى الى ما يسعدكم به فى الآخرة * فان قلت ظاهر الآية يدل على أن جعل الحواس الثلاث بعد الاخراج من البطون وانما خلقت هذه الحواس للانسان من جملة خلقه وهو فى بطن أمه * قلت ذكر العلماء ان تقديم الاخراج وتأخير ذكر هذه الحواس لايدل على أن خلقها كان بعد الاخراج لان الواو لاتوجب الترتيب ولان العرب تقدم وتؤخر فى بعض كلامها وأقول لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن فكأنما خلقت فى ذلك الوقت الذى ينتفع بها فيه وان كانت قد خلقت قبل ذلك * وقوله تعالى ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ يعنى انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من أنعم بها عليكم ﴿ ألم يروا الى الطير مسخرات ﴾ يعنى مذللات ﴿ فى جو السماء ﴾ الجو الفضاء الواسع بين السماء والارض وهو الهواء قال كعب الاحبار ان الطير ترتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك ﴿ ما يمسكهن الا الله ﴾ يعنى فى حال قبض أجنحتها

والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيأ) من الاشياء ويقال كل شئ (وجعل لكم السمع) تسمعون بها الخير (والابصار) تبصرون بها الخير (والافئدة) يعنى القلوب تعقلون بها الخير (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا نعمته وتؤمنوا به (ألم تروا) ألم تنظروا يا أهل مكة حتى تعلموا قدرة الله ﴿ وبسطها ﴾ ووحدانيته (الى الطير مسخرات) مذللات (فى جو السماء) فى وسط السماء أى بين السماء والارض يطرن (ما يمسكهن الا الله)

من خاصية القوى الطبيعية (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) بان الخلق لاغنى به عن الخالق (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) هو فعل بمعنى مفعول أي ما يسكن اليه وينقطع اليه من بيت أو الف (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) هي قباب الادم (تستخفونها) ترونها خفيفة الحمل في الضرب والنقض والنقل (يوم ظعنكم) بسكون العين كوفي وشامي وبفتح العين غيرهم والظعن بفتح العين وسكونها الارتحال (ويوم اقامتكم) قراركم في منازلكم والمعنى انها خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر على ان اليوم بمعنى الوقت (ومن أصوافها) أي أصواف الضأن (وأوبارها) وأوبار الابل (وأشعارها) وأشعار المعز (أثاثا) متاع البيت (ومتاعا) وشيأ ينتفع به (الى حين) مدة من الزمان

فان ثقل جسدها يقتضي سقوطها ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها ﴿ ان في ذلك لآيات ﴾ تسخير الطير للطيران بان خلقها خلقة يمكن معها الطيران وخلق الجو بحيث يمكن الطيران فيه وامساكها في الهواء على خلاف طبعها ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لانهم هم المنتفعون بها ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ﴾ موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر فعل بمعنى مفعول ﴿ وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا ﴾ هي القباب المتخذة من الادم ويجوز ان يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها ﴿ تستخفونها ﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها ﴿ يوم ظعنكم ﴾ وقت ترحالكم ﴿ ويوم اقامتكم ﴾ ووضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول * وقرأ الحجازيان والبصريان يوم ظعنكم بالفتح وهو لغة فيه ﴿ ومن اصوافها واوبارها واشعارها ﴾ الصوف للضأن والوبر للابل والشعر للمعز واضافتها الى ضمير الانعام لانها من جملتها ﴿ أثاثا ﴾ ما يلبس ويفرش ﴿ ومتاعا ﴾ ما يتجر به ﴿ الى حين ﴾ الى مدة من الزمان فانها لصلابتها تبقى مدة مديدة

وبسطها واصطفافها في الهواء وفي هذا حث على الاستدلال بها على ان لها مسخرا سخرها ومذللا ذللها وممسكا أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء وهو الله تعالى ﴿ ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ انما خص المؤمنين بالذكر لانهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم * قوله سبحانه وتعالى ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم ﴾ يعني التي هي من الحجر والمدر ﴿ سكنا ﴾ يعني مسكنا تسكنونه والسكن ما سكنت اليه وفيه من الف أو بيت ﴿ وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا ﴾ يعني الخيام والقباب والاخبية والفساطيط المتخذة من الادم والانطاع * واعلم المساكن على قسمين أحدهما ما لا يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما والقسم الثاني ما يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهي الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الانعام واليها الاشارة بقوله تعالى ﴿ تستخفونها ﴾ يعني يخف عليكم حملها ﴿ يوم ظعنكم ﴾ يعني في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم وظعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى ونحو ذلك ﴿ ويوم اقامتكم ﴾ يعني وتخف عليكم ايضا في اقامتكم وحضركم والمعنى لا تثقل عليكم في الحالتين ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ الكناية عائدة الى الانعام يعني ومن أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز ﴿ أثاثا ﴾ يعني تتخذون أثاثا الاثاث متاع البيت الكبير وأصله من أث اذا كثر وتكاثف وقيل للمال أثاث اذا كثر قال ابن عباس أثاثا يعني مالا وقال مجاهد متاعا وقال القتيبي الاثاث المال اجمع من الابل والغنم والعبيد والمتاع وقال غيره الاثاث هو متاع البيت من الفرش والاكسية ونحو ذلك ﴿ ومتاعا ﴾ يعني وبلاغا وهو ما تتمتعون به ﴿ الى حين ﴾ يعني الى حين يبلى

بعد الطيران (ان في ذلك) في امساكهن من الهواء (لآيات) لعلامات لوحدانية الله (لقوم يؤمنون) يصدقون ان امساكهن من الله * ثم ذكر نعمته لكي يشكروا بذلك ويؤمنوا به فقال (والله جعل لكم من بيوتكم) بيوت المدر (سكنا) مسكنا وقرارا (وجعل لكم من جلود الانعام) من أصوافها وأوبارها واشعارها (بيوتا) يعني الخيام والفساطيط (تستخفونها) تستخفون حملها (يوم ظعنكم) يوم سفركم (ويوم اقامتكم) يوم نزولكم (ومن أصوافها) أصواف الغنم (وأوبارها) أوبار الابل (وأشعارها) أشعار المعز (أثاثا) مالا (ومتاعا) منفعة (الى حين) الى حين الفناء والابلاء

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا) كالاشجار والسقوف (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ماسترك من كهف أوغار (وجعل لكم سرابيل)هى القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن (تقيكم الحر) وهى تقى البرد أيضا الا انه اكتفى باحد الضدين ولان الوقاية من الحر أهم عندهم لكون البرد يسيرا محتملا (وسرابيل تقيكم بأسكم) ودروعا من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم فى قتالكم والبأس شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد أوغيره (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أى تنظرون فى نعمته الفائضة فتؤمنون به

أوالى مماتكم أولى ان تقضوا منه اوطاركم ﴿ والله جعل لكم مما خلق ﴾ من الشجر والجبل والابنية وغيرها ﴿ ظلالا ﴾ تتفيؤن به حر الشمس ﴿ وجعل لكم من الجبال اكنانا ﴾ مواضع تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها جمع كن ﴿ وجعل لكم سرابيل ﴾ ثيابا من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿ تقيكم الحر ﴾ خصه بالذكر اكتفاء باحد الضدين أولأن وقاية الحر كانت اهم عندهم ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ يعنى الدروع والجواشن والسربال يعم كل مايلبس ﴿ كذلك ﴾ كاتمام هذه النعم التى تقدمت ﴿ يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ أى تنظرون فى نعمه فتؤمنون به أوتنقادون لحكمه ٭ وقرئ تسلمون من السلامة اى تشكرون

ذلك الاثاث وقيل الى حين الموت ٭ فان قلت أى فرق بين الاثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق ٭ قلت الاثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال والمتاع ماينتفع به فى البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا ﴾ يعنى جعل لكم ماتستظلون به من شدة الحر والبرد وهى ظلال الابنية والجدران والاشجار ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾ جمع كن وهو مايستكن فيه من شدة الحر والبرد كالاسراب والغيران ونحوها وذلك لان الانسان اما أن يكون غنيا أوفقيرا فاذا سافر احتاج فى سفره مايقيه من شدة الحر والبرد فأما الغنى فيستصحب معه الخيام فى سفره ليستكن فيها واليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأما الفقير فيستكن فى ظلال الاشجار والحيطان والكهوف ونحوها واليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ولان بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظلال ومايدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعانى فى معرض الامتنان عليهم بها لان النعمة عليهم فيها ظاهرة ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ يعنى وجعل لكم قمصا وثيابا من القطن والكتان والصوف وغير ذلك تمنعكم من شدة الحر قال أهل المعانى والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ يعنى الدروع والجواشن وسائر مايلبس فى الحرب من السلاح والبأس الحرب يعنى تقيكم فى بأسكم السلاح أن يصيبكم قال عطاء الخراسانى انما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا وماجعل لهم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وماجعل لهم من القطن والكتان أكثر ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر وكما قال تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد وما أنزل من الثلج أكثر ولكنهم كانوا لايعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وماجعل لهم مما يقى من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر ٭ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ كذلك ﴾ يعنى كما انعم عليكم بهذه النعم ﴿ يتم نعمته عليكم ﴾ يعنى نعم الدنيا والدين ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ يعنى لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة

(والله جعل لكم مما خلق) من الاشجار والحيطان والجبال أكنانا (ظلالا) كنالكم من الحر (وجعل لكم من الجبال)فى الجبال(أكنانا) يعنى الغيران والاسراب (وجعل لكم سرابيل)يعنى القمص (تقيكم الحر)فى الصيف والبرد فى الشتاء (وسرابيل) يعنى الدروع (تقيكم بأسكم)سلاح عدوكم (كذلك)هكذا (يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) لكى تقروا ويقال تسلموا من الجراحة ان قرأت بنصب التاء واللام

وتنقادون له (فان تولوا) أعرضوا عن الاسلام (فانما عليك البلاغ المبين) أى فلا تبعة عليك فى ذلك لان الذى عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت (يعرفون نعمت الله) التى عددناها باقوالهم فانهم يقولون انها من الله (ثم ينكرونها) بافعالهم حيث عبدوا غير المنعم أو فى الشدة ثم فى الرخاء (وأكثرهم الكافرون) أى الجاحدون غير المعترفين أو نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادا وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم وثم يدل على أن أنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة ان يعترف لا ان ينكر (ويوم) انتصابه باذكر (نبعث) نحشر (من كل أمة شهيدا) نبيا يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والايمان والكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فى الاعتذار والمعنى لا حجة لهم فدل بترك الأذن على

فتسلمون من العذاب أو تنظرون فيها فتسلمون من الشرك وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع ﴿فان تولوا﴾ اعرضوا ولم يقبلوا منك ﴿فانما عليك البلاغ المبين﴾ فلا يضرك فانما عليك البلاغ وقد بلغت وهذا من اقامة السبب مقام المسبب ﴿يعرفون نعمت الله﴾ اى يعرف المشركون نعمة الله التى عددها عليهم وغيرها حيث يعترفون بها وبانها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم انها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وباعراضهم عن اداء حقوقها وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عرفوها بالمعجزات ثم انكروها عنادا ومعنى ثم استبعاد الانكار بعد المعرفة ﴿واكثرهم الكافرون﴾ الجاحدون عنادا وذكر الاكثر اما لان بعضهم لم يعرفوا الحق لنقصان العقل أو التفريط فى النظر أو لم تقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف واما لانه يقام مقام الكل كما فى قوله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿ويوم نبعث من كل امة شهيدا﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالايمان والكفر ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ فى الاعتذار اذ لا عذر لهم وقيل فى الرجوع الى الدنيا وثم لزيادة ما يحيق بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الاقناط الكلى على ما يمنون به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

والطاعة وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات الا الله تعالى ﴿فان تولوا﴾ يعنى فان أعرضوا عن الايمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية فانما وبال ذلك عليهم لا عليك ﴿فانما عليك البلاغ المبين﴾ يعنى ليس عليك فى ذلك عتب ولا سمة تقصير انما عليك البلاغ وقد فعلت ذلك ﴿ ثم ذمهم الله تعالى بقوله ﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها﴾ قال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام لانه من اعظم النعم التى أنعم الله بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه وقال مجاهد وقتادة نعمة الله ما عدد عليهم فى هذه السورة من النعم يقرون بانها من الله ثم اذا قيل لهم صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا وقال الكلبى انه لما ذكر هذه النعم قالوا هذه نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل انهم يعترفون بان الله أنعم بهذه النعم ولكنهم لا يستعملونها فى طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ انما قال سبحانه وتعالى وأكثرهم الكافرون مع انهم كانوا كلهم كافرين لانه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالاكثر عن البالغين وقيل أراد بالاكثر الكافرين الحاضرين المعاندين وقد كان فيهم من ليس بمعاند وان كان كافرا وقيل انه عبر بالاكثر عن الكل لانه قد يذكر الاكثر ويراد به الجمع ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وانكارهم لها وذكر ان أكثرهم كافرون اتبعه بذكر الوعيد لهم فى الآخرة فقال تعالى ويوم نبعث من كل أمة شهيدا يعنى رسولا وذلك اليوم هو يوم القيامة والمراد بالشهداء الانبياء يشهدون على اممهم بانكار نعم الله عليهم وبالكفر ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ يعنى فى الاعتذار وقيل لا يؤذن

(فان تولوا) عن الايمان (فانما عليك البلاغ المبين) التبليغ عن الله بلغة تعلمونها فلما ذكر لهم النبى صلى الله عليه وسلم هذه النعم قالوا نعم يا محمد هذه كلها من الله ثم أنكروا بعد ذلك وقالوا بشفاعة آلهتنا فقال الله (يعرفون نعمت الله) يقرون ان هذه النعم كلها من الله (ثم ينكرونها) فيقولون بشفاعة آلهتنا (وأكثرهم الكافرون) كلهم كافرون بالله (ويوم نبعث من كل أمة) نخرج من كل قوم (شهيدا) نبيا عليهم شهيدا بالبلاغ (ثم لا يؤذن للذين كفروا)

أن لاحجة لهم و لا عـذر (ولاهم يستعتبون) ولاهم يسترضون أى لايقال لهم ارضوا ربكم لان الآخرة ليست بدار عمل ومعنى ثم انهم يمنون أى يبتلون بعد شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم وأغلب منها وهو انهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (واذا رأى الذين ظلموا) كفروا

(العذاب فلا يخفف عنهم) أى العذاب بعد الدخول (ولاهم ينظرون) يمهلون قبله (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أوثانهم التى عبدوها (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا)أى آلهتنا التى جعلناها شركاء (الذين كنا ندعوا من دونك) أى نعبد (فالقوا اليهم القول انكم لكاذبون) أى اجابوهم بالتكذيب لانها كانت جمادا لايعرف من عبدها ويحتمل أنهم كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله عن الشرك (وألقوا) يعنى الذين ظلموا (الى الله يومئذ السلم) القاء السلم الاستسلام لامر الله وحكمه بعد الاباء والاستكبار فى الدنيا (وضل عنهم) وبطل عنهم (ما كانوا

﴿ ولاهم يستعتبون ﴾ ولاهم يسترضون من العتبى وهى الرضى وانتصاب يوم بمحذوف تقديره أذكر أو خوفهم أو يحيق بهم ما يحيق وكذا قوله ﴿ واذا رأى الذين ظلموا العذاب ﴾ عذاب جهنم ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ أى العـذاب ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ يمهلون ﴿ واذا رأى الذين اشركوا شركاءهم ﴾ اوثانهم التى دعوها شركاء أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ نعبدهم أو نطيعهم وهو اعتراف بانهم كانوا مخطئين فى ذلك أو التماس بان يشطر عذابهم ﴿ فالقوا اليهم القول انكم لكاذبون ﴾ أى اجابوهم بالتكذيب فى انهم شركاء الله أو انهم ماعبدوهم حقيقة وانما عبدوا اهواءهم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ولا يمتنع انطاق الله الاصنام به حينئذ أو فى انهم حملوهم على الكفر والزموهم اياه كقوله وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى ﴿ والقوا ﴾ والقى الذين ظلموا ﴿ الى الله يومئذ السلم ﴾ الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا ﴿ وضل عنهم ﴾ وضاع عنهم وبطل ﴿ ما كانوا

لهم فى الكلام أصلا وقيل لايؤذن لهم بالرجوع الى دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل لايؤذن لهم فى معارضة الشهود بل يشهدون عليهم و يقرونهم على ذلك ﴿ ولاهم يستعتبون ﴾ الاستعتاب طلب العتاب والمعتبة هى الغلظة والموجدة التى يجدها الانسان فى نفسه على غيره والرجل انما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع الى الرضا عنه واذا لم يطلب العتاب منه دل ذلك على انه ثابت على غضبه عليه ومعنى الآية انهم لايكلفون أن يرضوا ربهم فى ذلك اليوم لان الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون الى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا ويرضوا ربهم فالاستعتاب التعرض لطلب الرضا وهذا باب منسد على الكفار فى الآخرة ﴿ واذا رأى الذين ظلموا ﴾ يعنى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿ العذاب ﴾ يعنى عذاب جهنم ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ يعنى العذاب ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ يعنى لايؤخرون ولا يمهلون ﴿ واذا رأى الذين أشركوا ﴾ يعنى يوم القيامة ﴿ شركاءهم ﴾ يعنى أصنامهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ يعنى أربابا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة ﴿ فالقوا ﴾ يعنى الاصنام ﴿ اليهم ﴾ يعنى الى عابديها ﴿ القول انكم لكاذبون ﴾ يعنى ان الاصنام قالت للكفار انكم لكاذبون يعنى فى تسميتنا آلهة وما دعوناكم الى عبادتنا * فان قلت الاصنام جماد لاتتكلم فكيف يصح منها الكلام * قلت لايبعد ان الله سبحانه وتعالى لما بعثها وأعادها فى الآخرة خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك والمقصود من اعادتها وبعثها أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهى فى غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غما وحسرة ﴿ وألقوا ﴾ يعنى المشركين ﴿ الى الله يومئذ السلم ﴾ يعنى انهم استسلموا له وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيأ ﴿ وضل عنهم ﴾ يعنى وزال عن المشركين ﴿ ما كانوا

فى الكلام (ولاهم يستعتبون) يرجعون الى الدنيا (واذا رأى الذين ظلموا) كفروا (العذاب فلا يخفف عنهم) لايرفع عنهم (ولاهم ينظرون) يؤجلون من عذاب الله (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) آلهتهم (قالوا ربنا) يا ربنا (هؤلاء شركاؤنا) آلهتنا (الذين كنا ندعو) نعبد (من دونك) أمرونا بعبادتهم (فألقوا اليهم القول) ردوا اليهم الجواب يعنى الاصنام (انكم لكاذبون) فى مقالكم (يفترون) ما أمرناكم وما كنا نعلم بعبادتكم (وألقوا الى الله يومئذ السلم) استسلم العابد والمعبود لله تعالى (وضل عنهم ما كانوا

يفترون) من أن الله شركاء وانهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤامنهم (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا عن سبيل الله) وحملوا غيرهم على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) أى عذابا بكفرهم وعذابا بصدهم عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) بكونهم مفسدين الناس بالصد (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) يعنى نبيهم لانه كان يبعث أنبياء الامم فيهم منهم (وجئنابك) يامحمد (شهيدا على هؤلاء)على أمتك(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا)بليغا (لكل شئ) من أمور الدين امافى الاحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة أو بالاجماع أو بقول الصحابة أو بالقياس لان مرجع الكل الى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وحثنا على الاجماع فيه بقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع أصحابه بقوله أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد والقياس مع انه أمرنا به بقوله فاعتبروا ياأولى الابصار فكانت السنة والاجماع وقول الصحابى والقياس مستندة الى تبيان الكتاب فتبين أنه كان تبيانا لكل شى

يفترون ﴾ من ان آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤامنهم ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر ﴿ زدناهم عذابا ﴾ لصدهم ﴿ فوق العذاب ﴾ المستحق بكفرهم ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ بكونهم مفسدين بصدهم ﴿ ويوم نبعث فى كل امة شهيدا عليهم من انفسهم ﴾ يعنى نبيهم فان نبى كل امة يبعث منهم ﴿ وجئنابك ﴾ يامحمد ﴿ شهيدا على هؤلاء ﴾ على امتك ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ استئناف أو حال باضمار قد ﴿ تبيانا ﴾ بيانا بليغا ﴿ لكل شئ ﴾ من امور الدين على التفصيل او الاجمال بالاحالة الى السنة

يفترون ﴾ يعنى ما كانوا يكذبون فى الدنيا فى قولهم ان الاصنام تشفع لهم ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ يعنى ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله ورسوله ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ يعنى زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع مايستحقونه من العذاب على كفرهم الاصلى واختلفوا فى هذه الزيادة ماهى فقال عبدالله بن مسعود عقارب لها أنياب كامثال النخل الطوال وقال سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفا وقال ابن عباس ومقاتل يعنى خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار وقيل انهم يخرجون من حر النار الى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير الى النار مستغيثين بها وقيل يضاعف لهم العذاب ضعفا بسبب كفرهم وضعفا بسبب صدهم الناس عن سبيل الله ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ يعنى ان الزيادة انما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله وبسبب ما كانوا يفسدون مع مايستحقونه من العذاب على الكفر ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم ﴾ قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبى شاهد على امته وهو أعدل شاهد عليها ﴿ من أنفسهم ﴾ يعنى منهم لان كل نبى انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان ﴿ وجئنابك ﴾ يعنى يامحمد ﴿ شهيدا على هؤلاء ﴾ يعنى على قومك وأمتك وتم الكلام هنا ثم قال تبارك وتعالى ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ يعنى القرآن ﴿ تبيانا لكل شئ ﴾ تبيانا اسم من البيان قال مجاهد يعنى لما أمر به ومانهى عنه وقال أهل المعانى تبيانا لكل شئ يعنى من أمور الدين اما بالنص عليه أو بالاحالة على مايوجب العلم به من بيان النبى صلى الله عليه وسلم لان النبى صلى الله عليه وسلم بين مافى القرآن

يفترون) بطل افتراؤهم على الله ويقال اشتغل بانفسهم آلهتهم التى كانوا يعبدون بالكذب (الذين كفروا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (قا و خا ٨٠ لث) (وصدوا عن سبيل الله) عن دين الله وطاعته (زدناهم عذابا) عذاب الحيات والعقارب والجوع والعطش والزمهرير وغير ذلك (فوق العذاب) فوق عذاب النار (بما كانوا يفسدون) يقولون ويعملون من المعاصى والشرك (ويوم نبعث فى كل أمة) نخرج من كل جماعة (شهيدا) نبيا (عليهم) شهيدا بالبلاغ (من أنفسهم) آدميا مثلهم (وجئنابك) يامحمد (شهيدا على هؤلاء) على أمتك ويقال مزكيا لهم (ونزلنا عليك الكتاب) جبريل بالقرآن (تبيانا لكل شئ) من الحلال والحرام والامر والنهى

أوالقياس ﴿ وهدى ورحمة ﴾ للجميع وانما حرمان المحروم من تفريطه ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ خاصة ﴿ ان الله يأمر بالعدل ﴾ بالتوسط فى الامور اعتقادا كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر وعملا كالتعبد باداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب وخلقا كالجود المتوسط بين البخل والتبذير ﴿ والاحسان ﴾ احسان الطاعات وهو امابحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أوبحسب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام الاحسان ان تعبدالله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ﴿ وايتاء ذى القربى ﴾ واعطاء الاقارب مايحتاجون اليه وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ عن الافراط فى متابعة القوة الشهوية كالزنا فانه اقبح احوال الانسان واشنعها ﴿ والمنكر ﴾ ماينكر على متعاطيه فى اثارة القوة الغضبية ﴿ والبغى ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم

من الاحكام والحدود والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات واجماع الامة فهو أيضا أصل ومفتاح لعلوم الدين ﴿ وهدى ﴾ يعنى من الضلالة ﴿ ورحمة ﴾ يعنى لمن آمن به وصدقه ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ يعنى وفيه بشرى للمسلمين من الله عزوجل ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾ قال ابن عباس العدل شهادة أن لااله الاالله والاحسان أداء الفرائض وفى رواية عنه قال العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبدالله كأنك تراه وأن تحب للناس ماتحب لنفسك ان كان مؤمنا تحب أن يزداد ايمانا وان كان كافرا تحب أن يكون أخاك فى الاسلام وقال فى رواية أخرى عنه العدل التوحيد والاحسان الاخلاص وأصل العدل فى اللغة المساواة فى كل شئ من غير زيادة فى شئ ولاغلو ولانقصان فيه ولاتقصير فالعدل هو المساواة فى المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان أن تقابل الخير باكثر منه والشر بأن تعفو عنه وقيل العدل الانصاف ولاانصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وقيل يأمر بالعدل فى الافعال وبالاحسان فى الاقوال فلا يفعل الاماهو عدل ولايقول الاماهو حسن ﴿ وايتاء ذى القربى ﴾ يعنى ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة الادنون والابعدون منك فيستحب ان تصلهم من فضل مارزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ قال ابن عباس يعنى الزنا وقال غيره الفحشاء ماقبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة ﴿ والمنكر ﴾ قال ابن عباس يعنى الشرك والكفر وقال غيره المنكر مالايعرف فى شريعة ولاسنة ﴿ والبغى ﴾ يعنى الكبر والظلم وقيل البغى هو التطاول على الغير على سبيل الظلم والعدوان قال بعضهم ان أعجل المعاصى البغى ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغى وقال ابن عيينة فى هذه الاية العدل استواء السر والعلانية والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر والبغى أن تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعضهم

(وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ودلالة الى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة (ان الله يأمر بالعدل) بالتسوية فى الحقوق فيما بينكم وترك الظلم وايصال كل ذى حق الى حقه (والاحسان) الى من أساء اليكم أوهما الفرض والندب لان الفرض لابد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب (وايتاء ذى القربى) واعطاء ذى القرابة وهو صلة الرحم (وينهى عن الفحشاء) عن الذنوب المفرطة فى القبح (والمنكر) ماتنكره العقول (والبغى) طلب التطاول بالظلم والكبر

(وهدى) من الضلالة (ورحمة) من العذاب (وبشرى للمسلمين) بالجنة (ان الله يأمر بالعدل) بالتوحيد (والاحسان) باداء الفرائض ويقال بالاحسان الى الناس (وايتاء ذى القربى) يعنى صلة الرحم (وينهى عن الفحشاء) عن المعاصى كلها (والمنكر) مالايعرف فى شريعة ولاسنة (والبغى) الاستطالة والظلم

فانها الشيطنة التى هى مقتضى القوة الوهمية ولا يوجد من الانسان شر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر بتوسط احدى هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى اجمع آية فى القرآن للخير والشر وصارت سبب اسلام عثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنه ولو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه انه تبيان لكل شئ وهدى ورحمة للعالمين ولعل ايرادها عقيب قوله ونزلنا عليك الكتاب للتنبيه عليه ﴿ يعظكم ﴾ بالامر والنهى والميز بين الخير والشر ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ تتعظون ﴿ واوفوا بعهد الله ﴾ يعنى البيعة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقيل كل امر يجب الوفاء به ولا يلائمه قوله ﴿ اذا عاهدتم ﴾ وقيل

ان الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة فى الاقوال والافعال وذكر فى مقابلته الفحشاء وهى ماقبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو أن تعفو عمن ظلمك وتحسن الى من اساء اليك وذكر فى مقابلته المنكر وهو ان تنكر احسان من أحسن اليك وذكر ايتاء ذى القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر فى مقابلته البغى وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم * ثم قال تعالى ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ يعنى انما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه لكى تتعظوا وتتذكروا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى قال ابن مسعود ان أجمع آية فى القرآن لخير وشر هذه الآية وقال أهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج اليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يؤتى أو يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل الى آخر الآية فقال له يا ابن أخى أعد على فاعادها عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وماهو بقول البشر * قوله عز وجل ﴿ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل الاجمال ذكر فى هذه الآية بعض ذلك الاجمال على التفصيل فبدأ بالامر بالوفاء بالعهد لانه آكد الحقوق فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم نزلت فى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فامرهم بالوفاء بهذه البيعة وقيل المراد منه كل ما يلتزمه الانسان باختياره ويدخل فيه الوعد أيضا لان الوعد من العهد وقيل العهد ههنا اليمين قال القتيبى العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء به اذا كان فيه صلاح أما اذا لم يكن فيه صلاح فلا يجب الوفاء به لقوله صلى الله عليه وسلم من حلف يمينا ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من العام الذى خصصته السنة وقال مجاهد وقتادة نزلت فى حلف أهل الجاهلية ويشهد لهذا

(يعظكم) حال أو مستأنف (لعلكم تذكرون) تتعظون بمواعظ الله وهذه الآية سبب اسلام عثمان بن مظعون فانه قال ماكنت أسلمت الاحياء منه عليه السلام لكثرة ما كان يعرض على الاسلام ولم يستقر الايمان فى قلبى حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الايمان فى قلبى فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وماهو بقول البشر وقال أبو جهل ان الهه ليأمر بمكارم الاخلاق وهى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولهذا يقرؤها كل خطيب على المنبر فى آخر كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهى (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) هى البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله

(يعظكم) ينهاكم عن الفحشاء والمنكر والبغى (لعلكم تذكرون) لكى تتعظوا بامثال القرآن (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) نزلت هذه الآية فى كندة ومراد ويقال أتموا العهود بالله اذا حلفتم بالله بالوفاء

(ولاتنقضوا الايمان) ايمان البيعة (بعد توكيدها) بعد توثيقها باسم الله وأكد ووكد لغتان فصيحتان والاصل الواو والهمزة بدل منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا ورقيبا لان الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه (ان الله يعلم ماتفعلون) من البر والحنث فيجازيكم به (ولاتكونوا) فى نقض الايمان (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة) كالمرأة التى انحت على غزلها بعد ان أحكمته وأبرمته فجعلته (أنكاثا) جمع نكث وهو ماينكث فتله قيل هى ريطة وكانت حمقاء تغزل هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ماغزلن (تتخذون أيمانكم) حال كانكاثا (دخلا) أحد مفعولى تتخذ اى ولاتنقضوا أيمانكم متخذيها دخلا (بينكم) أى مفسدة وخيانة (أن تكون أمة) بسبب أن تكون أمة يعنى جماعة قريش (هى أربى من أمة) هى أزيد عددا وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين هى أربى مبتدأ وخبر فى موضع الرفع صفة لامة وأمة فاعل تكون وهى تامة وهى ليست بفصل

النذر وقيل الايمان بالله ﴿ ولاتنقضوا الايمان ﴾ أى ايمان البيعة أو مطلق الايمان ﴿ بعد توكيدها ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ومنه اكد بقلب الواو همزة ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ شاهدا بتلك البيعة فان الكفيل مراع لحال المكفول به رقيب عليه ﴿ ان الله يعلم ماتفعلون ﴾ فى نقض الايمان والعهود ﴿ ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها ﴾ ماغزلته مصدر بمعنى المفعول ﴿ من بعد قوة ﴾ متعلق بنقضت غزلها من بعد ابرام واحكام ﴿ انكاثا ﴾ طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحال من غزلها أو المفعول الثانى لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شانه وقيل هى ريطة بنت سعد بن تيم القرشية فانها كانت خرقاء تفعل ذلك ﴿ تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ﴾ حال من الضمير فى ولاتكونوا أو فى الجار الواقع موقع الخبر أى لاتكونوا متشبهين بامرأة هذا شأنها متخذى ايمانكم مفسدة ودخلا بينكم واصل الدخل مايدخل الشئ ولم يكن منه ﴿ ان تكون امة هى اربى من امة ﴾ لان تكون جماعة ازيد عددا واوفر مالا من جماعة

التأويل قوله صلى الله عليه وسلم كل حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة ﴿ ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها ﴾ يعنى تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منها ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ يعنى شهيدا بالوفاء بالعهد ﴿ ان الله يعلم ماتفعلون ﴾ يعنى من وفاء العهد ونقضه ﴿ ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لنقض العهد فقال تعالى ﴿ ولاتكونوا ﴾ يعنى فى نقض العهد ﴿ كالتى نقضت غزلها من بعد قوة ﴾ يعنى من بعد ابرامه واحكامه قال الكلبى ومقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة وكانت قد اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل الاصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أو الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة الى نصف النهار فاذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ماغزلن فكان هذا دأبها والمعنى ان هذه المرأة لم تكف عن العمل ولاحين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لاتركه ولاحين عاهد وفى به ﴿ أنكاثا ﴾ جمع نكث وهو ماينقض من الغزل أو الحبل بعد الفتل ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ﴾ يعنى دغلا وخيانة وخديعة والدخل مايدخل فى الشئ على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه ﴿ أن تكون ﴾ يعنى لان تكون ﴿ أمة هى اربى من أمة ﴾ يعنى أكثر وأعلى من أمة قال مجاهد وذلك انهم كانوا يحالفون الحلفاء فاذا وجدوا قوما أكثر من أولئك وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الاكثر والمعنى انكم طلبتم العز بنقض العهد لان كانت أمة أى جماعة أكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك

(ولاتنقضوا الايمان) يعنى العهود فيما بينكم (بعد توكيدها) تغليظها وتشديدها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعنى شهيدا ويقال حفيظا معناه وقد قلتم الله شهيد علينا بالوفاء على كلا الفريقين (ان الله يعلم ماتفعلون) من النقض والوفاء (ولاتكونوا) فى نقض العهد (كالتى نقضت غزلها) يعنى رائطة الحمقاء (من بعد قوة) ابرام واحكام (أنكاثا) انقاضا (تتخذون { وامرهم } أيمانكم) عهودكم (دخلا) مكرا وخديعة (بينكم أن تكون أمة) بان تكون جماعة (هى أربى) أكثر (من أمة)

لوقوعها بين نكرتين (انما يبلوكم الله به) الضمير للمصدر أى انما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من ايمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم (وليبينن لكم يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون) اذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب وفيه تحذير عن مخالفة ملة الاسلام (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) حنيفة مسلمة (ولكن يضل من يشاء) من علم منه اختيار الضلالة (ويهدى من يشاء) من علم منه اختيار الهداية (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يوم القيامة فتجزون به (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) كرر النهى عن اتخاذ الايمان دخلا بينهم تأكيدا عليهم واظهارا لعظمه (فتزل قدم بعد ثبوتها) فتزل أقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها وانما وحدت القدم ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد ان تثبت عليه فكيف باقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) فى الدنيا (بما صددتم) بصدودكم (عن سبيل الله)

والمعنى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذيهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا اذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا اعداءهم ﴿ انما يبلوكم الله به ﴾ الضمير لان تكون امة لانه بمعنى المصدر أى يختبركم بكونكم اربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ام تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم وقيل الضمير للاربى وقيل للامر بالوفاء ﴿ وليبينن لكم يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ اذا جازاكم على اعمالكم بالثواب والعقاب ﴿ ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ﴾ متفقة على الاسلام ﴿ ولكن يضل من يشاء ﴾ بالخذلان ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ بالتوفيق ﴿ ولتسئلن عما كنتم تعملون ﴾ سؤال تبكيت ومجازاة ﴿ ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم ﴾ تصريح بالنهى عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة فى قبح المنهى ﴿ فتزل قدم ﴾ أى محجة الاسلام ﴿ بعد ثبوتها ﴾ عليها والمراد اقدامهم وانما وحد ونكر للدلالة على ان زلل قدم واحدة عظيم فكيف باقدام كثيرة ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ العذاب فى الدنيا ﴿ بما صددتم عن سبيل الله ﴾ بسبب صدودكم عن الوفاء او صدكم غيركم عنه فان من نقض

وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا ﴿ انما يبلوكم الله به ﴾ يعنى يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو اعلم بكم ﴿ وليبينن لكم يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ يعنى فى الدنيا فيثيب الطائع المحق ويعاقب المسئ المخالف * قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ يعنى على ملة واحدة ودين واحد وهو دين الاسلام ﴿ ولكن يضل من يشاء ﴾ يعنى بخذلانه اياه عدلا منه ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ بتوفيقه اياه فضلا منه وذلك مما اقتضته الحكمة الالهية لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو قوله تعالى ﴿ ولتسئلن عما كنتم تعملون ﴾ يعنى فى الدنيا فيجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسئ باساءته أو يغفر له * قوله عز وجل ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ﴾ يعنى خديعة وفسادا بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا الى أيمانكم ويأمنوا اليكم ثم تنقضونها وانما كرر هذا المعنى تأكيدا عليهم واظهار العظم أمر نقض العهد قال المفسرون وهذا فى نهى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام نهاهم عن نقض عهده لان الوعيد الذى بعده وهو قوله سبحانه وتعالى فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره انما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشريعته * وقوله ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط فى ورطة بعد سلامة تقول العرب لكل واقع فى بلاء بعد عافية زلت قدمه والمعنى فتزل أقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ يعنى العذاب ﴿ بما صددتم عن سبيل الله ﴾

من جماعة (انما يبلوكم الله به) يختبركم بالكثرة ويقال بنقض العهد (وليبينن لكم يوم القيمة ما كنتم فيه) فى الدين (تختلفون) تخالفون (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) لجمعكم على ملة واحدة ملة الاسلام (ولكن يضل من يشاء) عن دينه من لم يكن أهلا لدينه (ويهدى من يشاء) لدينه من كان أهلا لذلك (ولتسئلن) يوم القيامة (عما كنتم تعملون) من الخير والشر فى الكفر والايمان ويقال من النقض والوفاء (ولا تتخذوا أيمانكم) عهودكم (دخلا) دغلا ومكرا وخديعة (بينكم فتزل قدم) فتزلوا عن طاعة الله كما تزل قدم الرجل (بعد ثبوتها) قيامها (وتذوقوا السوء) النار (بما صددتم) بما صرفتم الناس (عن سبيل الله) عن دين الله وطاعته

وخروجكم عن الدين أو بصدكم غيركم لانهم لو نقضوا ايمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها (ولكم عذاب عظيم) فى الآخرة (ولاتشتروا) ولاتستبدلوا (بعهد الله) وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) عرضا من الدنيا يسيرا كأن قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة

قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم ان رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله (ان ما عند الله) من ثواب الآخرة (هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم) من أعراض الدنيا (ينفد وما عند الله) من خزائن رحمته (باق) لا ينفد (ولنجزين) وبالنون مكي وعاصم (الذين صبروا) على أذى المشركين ومشاق الاسلام (أجرهم باحسن ما كانوا يعملون من عمل صالحا من ذكر أو أنثى) من مبهم يتناول النوعين الا ان ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم الموعد النوعين جيعا (وهو مؤمن) شرط الايمان لان أعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على ان العمل ليس من الايمان (فلنحيينه حياة طيبة)

البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ فى الآخرة ﴿ ولاتشتروا بعهد الله ﴾ ولاتستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﴿ ثمنا قليلا ﴾ عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون لضعاف المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد ﴿ ان ما عند الله ﴾ من النصر والتغنيم فى الدنيا والثواب فى الآخرة ﴿ هو خير لكم ﴾ مما يعدونكم ﴿ ان كنتم تعلمون ﴾ ان كنتم من اهل العلم والتمييز ﴿ ما عندكم ﴾ من اعراض الدنيا ﴿ ينفد ﴾ ينقضى ويفنى ﴿ وما عند الله ﴾ من خزائن رحمته ﴿ باق ﴾ لا ينفد وهو تعليل للحكم السابق ودليل على ان نعيم الجنة باق ﴿ ولنجزين الذين صبروا اجرهم ﴾ على الفاقة واذى الكفار أو على مشاق التكاليف. وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ بما ترجح فعله من اعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بجزاء احسن من اعمالهم ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ﴾ بينه بالنوعين دفعا للتخصيص ﴿ وهو مؤمن ﴾ اذ لا اعتداد باعمال الكفرة فى استحقاق الثواب وانما المتوقع عليها تخفيف العذاب ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾

يعنى بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لان من نقض العهد فقد علم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ يعنى بنقضكم العهد ﴿ ولاتشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ يعنى ولاتنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بها ﴿ ان ما عند الله ﴾ يعنى فان ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد ﴿ هو خير لكم ﴾ يعنى من عاجل الدنيا ﴿ ان كنتم تعلمون ﴾ يعنى فضل ما بين العوضين * ثم بين ذلك فقال تبارك وتعالى ﴿ ما عندكم ينفد ﴾ يعنى من متاع الدنيا ولذاتها يفنى ويذهب ﴿ وما عند الله باق ﴾ يعنى من ثواب الآخرة ونعيم الجنة ﴿ ولنجزين الذين صبروا ﴾ يعنى على الوفاء بالعهد على السراء والضراء ﴿ أجرهم ﴾ يعنى ثواب صبرهم ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ عن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى * وقوله سبحانه وتعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ * فان قلت من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة الذكر والانثى * قلت هو مبهم صالح على الاطلاق للنوعين الا انه اذا ذكر وأطلق كان الظاهر تناوله للذكر دون الانثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين ليعم الوعد للنوعين جيعا وجواب آخر وهو ان هذه الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة فى تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة اثباتا للتأكيد وازالة لوهم التخصيص وقوله وهو مؤمن جعل الايمان شرطا فى كون العمل الصالح موجبا للثواب ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال سعيد بن جبير

(ولكم عذاب عظيم) شديد فى الآخرة (ولاتشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) بالحلف بالله كاذبا عرضا يسيرا من الدنيا (انما عند الله) من الثواب (هو خير لكم) مما عندكم من المال (ان كنتم) اذ كنتم (تعلمون) ثواب الله ويقال ان كنتم تصدقون بثواب الله (ما عندكم) من الاموال (ينفد) يفنى (وما عند الله) من الثواب (باق) يبقى (ولنجزين الذين صبروا) عن اليمين وأقروا بالحق (أجرهم) ثوابهم فى الآخرة (بأحسن ما كانوا يعملون) باحسانهم فى الدنيا (من عمل صالحا) خالصا فيما بينه وبين ربه وأقر بالحق (من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) ومع ذلك مؤمن مخلص (فلنحيينه حياة طيبة) فى الطاعة ويقال فى القناعة ويقال فى الجنة

موسرا كان أو معسرا يعيش عيشا طيبا ان كان موسرا فظاهر وان كا معسرا فمعه مايطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى واما الفاجر فامره بالعكس ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فالحرص لايدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والاعراض عما سوى الله (فاذا قرأت القرآن) فاذا أردت قراءة القرآن (فاستعذ بالله) فعبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل لانها سبب له والفاء للتعقيب اذ القراءة المصدرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور (من الشيطان) يعنى ابليس (الرجيم) المردود او الملعون قال ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لى قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام

فى الدنيا يعيش عيشا طيبا فانه ان كان موسرا فظاهر وان كان معسرا كان يطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الاجر العظيم فى الآخرة بخلاف الكافر فانه ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا لم يدع الحرص وخوف الفوات ان يتهنأ بعيشه وقيل فى الآخرة ﴿ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من الطاعة ﴿فاذا قرأت القرآن﴾ اذا اردت قراءته كقوله تعالى اذا قمتم الى الصلوة ﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ فاسأل الله ان يعيذك من وساوسه لئلا يوسوسك فى القراءة والجمهور على انه للاستحباب وفيه دليل على ان

جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى العيش فى الطاعة وقيل هى حلاوة الطاعة وقال الحسن هى القناعة وقيل رزق يوم بيوم *واعلم ان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره وعرف ان الله محسن كريم متفضل لايفعل الا الصواب فكان المؤمن راضيا عن الله وراضيا بما قدره الله له ورزقه اياه وعرف ان له مصلحة فى ذلك القدر الذى رزقه اياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر أو الجاهل بهذه الاصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص وكد ولاينال من الرزق الاما قدر له فظهر بهذا ان العيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة فى قوله فلنحيينه حياة طيبة هى الجنة وروى عوف عن الحسن قال لاتطيب لاحد الحياة الا فى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا اسقم وملك بلا هلاك وسعادة بلا شقاوة فثبت بهذا ان الحياة الطيبة لاتكون الا فى الجنة ولقوله فى سياق الآية ﴿ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ لان ذلك الجزاء انما يكون فى الجنة * قوله عز وجل ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لان النبى صلى الله عليه وسلم لما كان غير محتاج الى الاستعاذة وقد أمر بها فغيره أولى بذلك ولما كان الشيطان ساعيا فى ألقاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك فلهذا السبب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة حتى تكون مصونة من وسواس الشيطان *عن جبير ابن معطم انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمر ولا أدرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا اعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته ونفثه وهمزته قال نفخته الكبر ونفثه السحر وهمزته الموتة أخرجه أبو داود * الموتة الجنون والفاء فى قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر لفظ الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من

(ولنجزينهم أجرهم) ثوابهم فى الآخرة (بأحسن ما كانوا يعملون) باحسانهم فى الدنيا نزلت هذه الآية فى عبدان بن الاشوع وامرئ القيس الكندى فى خصومة كانت بينهما فى أرض (فاذا قرأت القرآن) فاذا أردت يا محمد ان تقرأ القرآن فى اول افتتاح الصلاة أو غير الصلاة (فاستعذ بالله) فقل أعوذ بالله (من الشيطان الرجيم) اللعين المرجوم بالنجم المطرود من رحمة الله

المصلي يستعيذ في كل ركعة لان الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياسا وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه ايذان بان الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل وعن ابن مسعود قرأت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت اعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال قل اعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا اقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ ﴿ انه ليس له سلطان ﴾ تسلط وولاية ﴿ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ على اولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لا يطيعون اوامره ولا يقبلون وساوسه الا فيما يحتقرون على ندور وغفلة ولذلك امروا بالاستعاذة فذكر السلطنة بعد الامر بالاستعاذة لئلا يتوهم منه ان له سلطانا ﴿ انما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ يحبونه ويطيعونه ﴿ والذين هم به ﴾ بالله أو بسبب الشيطان ﴿ مشركون ﴾

(انه ليس له) لابليس (سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه (انما سلطانه على الذين يتولونه) يتخذونه وليا ويتبعون وساوسه (والذين هم به مشركون) الضمير يعود الى ربهم أو الى الشيطان أي بسببه

(انه ليس له سلطان) سبيل وغلبة (على الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره ويفوضون أمورهم اليه (انما سلطانه) سبيله وغلبته (على الذين يتولونه) يطيعونه (والذين هم به) بالله (مشركون)

الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة واليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهري قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصلت الوساوس في قلب قارئ هل حصل له ذلك الثواب أم لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصا فاما مذهب الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار فقد اتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى اذا قمتم الى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ ومثله من الكلام اذا أردت أن تأكل فقل بسم الله واذا أردت أن تسافر فتأهب وأيضا فان الوسوسة انما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها ومذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها واتفق سائر الفقهاء على ان الاستعاذة سنة في الصلاة وغيرها وقد تقدمت هذه المسئلة والخلاف فيها في أول سورة الفاتحة والاستعاذة الاعتصام بالله والالتجاء اليه من شر الشيطان ووسوسته والمراد من الشيطان ابليس وقيل هو اسم جنس يطلق على جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على ألقاء الوسوسة في قلوب بني آدم باقدار الله اياهم على ذلك ﴿ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان فكأن ذلك أوهم ان له قدرة على التصرف في أبدان بني آدم فازال الله سبحانه وتعالى هذا الوهم بقوله انه ليس له سلطان يعني ليس له قدرة ولا ولاية على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال سفيان ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ويظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر بقلب الانسان كونه ضعيفا وانه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان الا بعصمة الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى ﴿ انما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ يعني يطيعونه ويدخلون في ولايته يقال توليته اذا أطعته وتوليت عنه اذا أعرضت عنه ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ يعني بالله وقيل الضمير في به راجع الى الشيطان والمعنى هم من أجله

(واذا بدلنا آية مكان آية) تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله (والله أعلم بما ينزل) وبالتخفيف مكي وأبو عمرو (قالوا انما أنت مفتر) هو جواب اذا وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون ان محمدا يسخر باصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الاشق بالاهون والاهون بالاشق (بل أكثرهم لا يعلمون) الحكمة في ذلك (قل نزله روح القدس) أي جبريل عليه السلام أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم (من ربك) من عنده وأمره (بالحق) حال أي نزله ملتبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا والحكمة لانه حكيم لا يفعل الا ما هو حكمة وصواب حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب (وهدى وبشرى) مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة (للمسلمين) وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم

﴿واذا بدلنا آية مكان آية﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظا أو حكما ﴿والله اعلم بما ينزل﴾ من المصالح فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه * وقرأ ابن كثير وابو عمرو ينزل بالتخفيف ﴿قالوا﴾ اي الكفرة ﴿انما انت مفتر﴾ متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب اذا والله اعلم بما ينزل اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم ويجوز ان يكون حالا ﴿بل اكثرهم لا يعلمون﴾ حكمة الاحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب ﴿قل نزله روح القدس﴾ يعني جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كقولهم حاتم الجود * وقرأ ابن كثير روح القدس بالتخفيف وفي ينزل ونزله تنبيه على ان انزاله مدرجا على حسب المصالح مما يقتضي التبديل ﴿من ربك بالحق﴾ ملتبسا بالحكمة ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ ليثبت الله الذين آمنوا على الايمان بانه كلامه وانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ المنقادين لحكمه وهما معطوفان على محل ليثبت أي تثبيتا وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد ذلك لغيرهم * وقرئ ليثبت بالتخفيف

مشركون بالله * قوله سبحانه وتعالى ﴿واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل﴾ وذلك ان المشركين من أهل مكة قالوا ان محمدا يسخر باصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه فانزل الله هذه الآية والمعنى واذا نسخنا حكم آية فابدلنا مكانه حكما آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل في الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير ويبدل من أحكامه أي هو أعلم بجميع ذلك مما هو من مصالح عباده وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى ﴿قالوا انما أنت مفتر﴾ أي تختلقه من عندك والمعنى اذا كان الله تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا الى الافتراء والكذب لاجل التبديل والنسخ وانما فائدة ذلك ترجع الى مصالح العباد كما يقال ان الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه ويأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿نزله﴾ يعني القرآن ﴿روح القدس﴾ يعني جبريل صلى الله عليه وسلم أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير والمعنى الروح المقدس المطهر ﴿من ربك﴾ يعني ان جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد ﴿بالحق ليثبت الذين آمنوا﴾ يعني ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا ايمانا ويقينا ﴿وهدى وبشرى﴾ يعني وهو هدى وبشرى ﴿للمسلمين﴾ * قوله عزوجل

(واذا بدلنا آية) نزلنا جبريل بآية ناسخة (مكان آية) منسوخة (والله أعلم بما ينزل) بصلاح ما يأمر العباد (قالوا) كفار مكة (انما أنت) يا محمد (مفتر) مختلق من تلقاء نفسك (بل أكثرهم لا يعلمون) (قا و خا ٨١ لث) ان الله لا يأمر عباده الا بما يصلح لهم (قل) لهم يا محمد (نزله) يعني نزل القرآن وانما شدده لكثرة نزوله (روح القدس) جبريل المطهر (من ربك) يا محمد (بالحق) بالناسخ والمنسوخ (ليثبت) ليطيب ويطمئن اليه قلوب (الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وهدى) من الضلالة (وبشرى للمسلمين)

﴿ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر﴾ يعنون جبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا ويسارا كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يمر عليهما ويسمع مايقرآنه وقيل عائشا غلام حويطب بن عبد العزى قداسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسى ﴿لسان الذى يلحدون اليه اعجمى﴾ لغة الرجل الذى يميلون قولهم عن الاستقامة اليه مأخوذ من لحد القبر *وقرأ حمزة والكسائى يلحدون بفتح الياء والحاء لسان اعجمى غير بين ﴿وهذا﴾ وهذا القرآن ﴿لسان عربى مبين﴾ ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره يحتمل وجهين احدهما ان مايسمعه منه كلام اعجمى لايفهمه هو ولا انتم والقرآن عربى

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر﴾ وذلك ان كفار مكة قالوا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم فاجابهم الله بقوله ولقد نعلم انهم يقولونه انما يعلمه بشر واختلفوا فى ذلك البشر من هو فقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمى اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده فكانوا يقولون انما يعلمه بلعام وقال عكرمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبنى المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب فقالت قريش انما يعلمه يعيش وقال محمد بن اسحق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمابلغنى كثيرا ما يجلس عند المروة الى غلام رومى نصرانى عبد لبعض بنى الحضرمى يقال له جبر وكان يقرأ الكتب وقال عبيد الله بن مسلمة كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لاحدهما يسار ويكنى أبا فكيهة ويقال للآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن التوراة والانجيل بمكة فربما مر بهما النبى صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف ويستمع قال الضحاك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا آذاه الكفار يقعد اليهما فيتروح بكلامهما فقال المشركون انما يتعلم محمد منهما وقال الفراء قال المشركون انما يتعلم محمد من عائش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانيا وقد أسلم وحسن اسلامه وكان أعجميا وقيل هو عداس غلام عتبة بن ربيعة والحاصل ان الكفار اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انما يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يضيفها لنفسه ويزعم انه وحى من الله عز وجل وهو كاذب فى ذلك فاجاب الله عنه وأنزل هذه الآية تكذيبا لهم فيمارموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب فقال تعالى ﴿لسان الذى يلحدون اليه﴾ يعنى يميلون ويشيرون اليه ﴿أعجمى﴾ يعنى هو أعجمى والاعجمى هو الذى لايفصح فى كلامه وان كان يسكن البادية ومنه سمى زياد الاعجم لانه كان فى لسانه عجمة مع انه كان من العرب والعجمى منسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والاعرابى الذى يسكن البادية والعربى الذى يسكن الامصار من بلاد العرب وهو منسوب الى العرب ﴿وهذا لسان عربى مبين﴾ يعنى بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب هو ان الذى يشيرون اليه رجل أعجمى فى لسانه عجمة تمنعه من الاتيان بفصيح الكلام ومحمد صلى الله

(ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) أرادوا به غلاما كان لحويطب قد أسلم وحسن اسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب أو هو جبر غلام رومى لعامر بن الحضرمى أو عبدان جبر ويسار كانا يقرآن التوراة والانجيل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع مايقرآن أو سلمان الفارسى (لسان الذى يلحدون اليه) وبفتح الياء والحاء حمزة وعلى (أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى لسان الرجل الذى يميلون قولهم عن الاستقامة اليه لسان أعجمى غير بين وهذا القرآن لسان عربى مبين ذو بيان وفصاحة ردا لقولهم وابطالا لطعنهم وهذه الجملة أعنى لسان الذى يلحدون اليه أعجمى لامحل لها لانها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة ويقال ألحد القبر ولحده وهو ملحد وملحود اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل امالة عن استقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله وألحد فى دينه ومنه الملحد لانه أمال مذهبه عن الاديان كلها

بالجنة (ولقد نعلم) يامحمد (انهم) يعنى كفار مكة (يقولون انما يعلمه) يعنى القرآن (بشر) جبر ويسار (لسان الذى يلحدون اليه) يميلون ويشبهون وينسبون اليه (أعجمى) عبرانى (وهذا لسان عربى) يقول القرآن على مجرى لغة العربية (مبين) بلغة يعلمونها

(عليه)

تفهمونه بادنى تأمل فكيف يكون ماتلقفه منه وثانيهما هب انه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يتلقف منه اللفظ لان ذلك اعجمى وهذا عربى والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ مع ان العلوم الكثيرة التى فى القرآن لايمكن تعلمها الا بملازمة معلم فائق فى تلك العلوم مدة متطاولة فكيف تعلم جميع ذلك من غلام سوقى سمع منه فى بعض اوقات مروره عليه كلمات اعجمية لعلهم لم يعرفوا معناها فطعنهم فى القرآن بامثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم ﴿ ان الذين لايؤمنون بآيات الله ﴾ لايصدقون انها من عندالله ﴿ لايهديهم الله ﴾ الى الحق أو الى سبيل النجاة وقيل الى الجنة ﴿ ولهم عذاب اليم ﴾ فى الآخرة هددهم على كفرهم بالقرآن بعدما اماط شبهتهم وردطعنهم فيه ثم قلب الامر عليهم فقال ﴿ انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ﴾ لانهم لايخافون عقابا يردعهم عنه ﴿ واولئك ﴾ اشارة الى الذين كفروا أو الى قريش ﴿ هم الكاذبون ﴾ أى الكاذبون على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب لان تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات اعظم الكذب أو الذين عادتهم الكذب ولايصرفهم عنه دين ولامروءة أو الكاذبون فى قولهم انما انت مفتر انما يعلمه بشر ﴿ من كفر بالله من بعد ايمانه ﴾ بدل من الذين لايؤمنون ومابينهما اعتراض أو من اولئك أو من الكاذبون أو مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله فعليهم غضب ويجوز ان ينتصب بالذم وان تكون من شرطية محذوفة الجواب دل عليه قوله ﴿ الا من أكره ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر استثناء متصل لان

عليه وسلم جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذى عجزتم أنتم عنه وانتم أهل الفصاحة والبلاغة فكيف يقدر من هو أعجمى على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذى يشيرون اليه فثبت بهذا البرهان ان الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحى أوحاه الله اليه وليس هو من تعليم الذى يشيرون اليه ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحى من الله عزوجل اليه وروى ان الرجل الذى كانوا يشيرون اليه أسلم وحسن اسلامه ﴿ ان الذين لايؤمنون بآيات الله ﴾ يعنى لايصدقون انها من عندالله ﴿ لايهديهم الله ﴾ يعنى لايرشدهم ولايوفقهم للايمان ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ يعنى فى الآخرة ثم أخبر الله سبحانه وتعالى ان الكفار هم المفترون فقال تعالى ﴿ انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ﴾ يعنى انما يقدم على فرية الكذب من لايؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش انما انت مفتر ﴿ واولئك هم الكاذبون ﴾ يعنى فى قولهم انما يعلمه بشر لا محمد صلى الله عليه وسلم * فان قلت قد قال تبارك وتعالى انما يفترى الكذب فما معنى قوله تعالى وأولئك هم الكاذبون والثانى هو الاول * قلت قوله سبحانه وتعالى انما يفترى الكذب اخبار عن حال قولهم وقوله واولئك هم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أى كذبت فى هذا القول ومن عادتك الكذب وفى الآية دليل على ان الكذب من أفحش الذنوب الكبار لان الكاذب المفترى هو الذى لايؤمن بآيات الله * روى البغوى باسناد الثعلبى عن عبدالله بن جراد قال قلت يارسول الله المؤمن يزنى قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يسرق قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يكذب قال لا قال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله * قوله تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره

(لايهديهم الله) ماداموا مختارين الكفر (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة على كفرهم (انما يفترى الكذب) على الله (الذين لايؤمنون بآيات الله) أى انما يليق افتراء الكذب بمن لايؤمن لانه لايترقب عقابا عليه وهو رد لقولهم انما أنت مفتر (وأولئك) اشارة الى الذين لايؤمنون أى وأولئك (هم الكاذبون) على الحقيقة الكاملون فى الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم الكذب أو وأولئك هم الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر جوزوا أن يكون (من كفر بالله من بعد ايمانه) شرطا مبتدأ وحذف جوابه لان جواب من شرح دال عليه كأنه قيل من كفر بالله فعليهم غضب (الا من أكره

(ان الذين لايؤمنون بآيات الله) بمحمد عليه السلام والقرآن (لايهديهم الله) لدينه من لم يكن أهلا لدينه ويقال لايهديهم الى الحجة ولاينجيهم من النار (ولهم عذاب أليم) وجيع (انما يفترى) يختلق (الكذب) على الله (الذين لايؤمنون بآيات الله) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وأولئك هم الكاذبون) على الله (من كفر بالله من بعد ايمانه) بالله فعليه غضب من الله (الا من أكره) الا من أجبر على الكفر

الكفر لغة يعم القول والعقد كالايمان ﴿ وقلبه مطمئن بالايمان ﴾ لم تتغير عقيدته وفيه

وقلبه مطمئن بالايمان ﴾ نزلت فى عمار بن ياسر وذلك ان المشركين أخذوه وأباه ياسرا وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام فاما سمية أم عمار فانها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر فهما أول قتيلين قتلا فى الاسلام واما عمار فانه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرها قال قتادة أخذ بنو المغيرة عمارا وغطوه فى بئر ميمون وقالوا اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فاتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماوراءك قال شر يارسول الله نلت منك وذكرت فقال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالايمان فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال ان عادوا لك فعدلهم بما قلت فنزلت هذه الآية وقال مجاهد نزلت فى أناس من أهل مكة آمنوا فكتب اليهم بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ان هاجروا الينا فانا لانراكم منا حتى تهاجروا فخرجوا يريدون المدينة فادركتهم قريش فى الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين وهذا القول ضعيف لان الآية مكية وكان هذا فى أول الاسلام قبل أن يؤمروا بالهجرة وقال مقاتل نزلت فى جبر مولى عامر بن الحضرمى أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها وقلبه مطمئن بالايمان ثم أسلم عامر بن الحضرمى مولى جبر وحسن اسلامه وهاجر الى المدينة والاولى أن يقال ان الآية عامة فى كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصا * فان قلت المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر فامعنى هذا الاستثناء فى الامن أكره * قلت المكره لما ظهر منه بعد الايمان ماشابه مايظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله أعلم

فصل فى حكم الآية

قال العلماء يجب أن يكون الاكراه الذى يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر ان يعذب بعذاب لاطاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والايلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه قال العلماء أول من أظهر الاسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبوه ياسر وأمه سمية فامارسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبى طالب وأما أبو بكر فمنعه قومه وعشيرته وأخذ الآخرون وألبسوا أدراع الحديد وأجلسوا فى حر الشمس بمكة فامابلال فكانوا يعذبونه وهو يقول أحد أحد حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم وقال خباب لقد أوقدوا الى نارا ما أطفأها الاودك ظهرى وأجمعوا على ان من أكره على الكفر لايجوز له أن يتلفظ بكلمة تصريحا بل يأتى بالمعاريض وبما يوهم انه كفر فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الايمان غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لان ياسرا وسمية قتلا ولم يتلفظا بكلمة الكفر ولان بلالا صبر على العذاب ولم يلم على ذلك قال العلماء

(وقلبه مطمئن بالايمان) ساكن به

(وقلبه مطمئن بالايمان) معتقد على الايمان نزلت هذه الآية فى عمار بن ياسر

(ولكن من شرح بالكفر صدرا) أى طاب به نفسا واعتقده (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وان يكون بدلا من الذين لايؤمنون بآيات الله على أن يجعل وأولئك هم الكاذبون اعتراضا بين البدل والمبدل منه والمعنى انما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ثم قال ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله وان يكون

بدلا من المبتدأ الذى هو وأولئك أى من كفر بالله من بعد ايمانه هم الكاذبون أو من الخبر الذى هو الكاذبون أى وأولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه وان ينتصب على الذم روى ان ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا وكان فيهم من أكره فاجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للايمان منهم عمار وأما أبواه ياسر وسمية فقد قتلاوهما أول قتيلين فى الاسلام فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فاتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعدلهم عاقلت ومافعل أبوا عمار أفضل لان فى الصبر على القتل اعزازا للاسلام (ذلك) اشارة الى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم (بأنهم استحبوا) آثروا (الحيوة الدنيا على الآخرة) أى بسبب ايثارهم الدنيا على الآخرة

دليل على ان الايمان هو التصديق بالقلب ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا ﴾ اعتقده وطاب به نفسا ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ اذلا اعظم من جرمه روى ان قريشا اكرهوا عمارا وابويه ياسرا وسمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين ووجئ بحربة فى قبلها وقالوا انك اسلمت من اجل الرجال فقتلت وقتلوا ياسرا وهما اول قتيلين فى الاسلام واعطاهم عمار بلسانه ماارادوا مكرها فقيل يارسول الله ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من فرقه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فاتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه فيقول مالك ان عادوا لك فعدلهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الاكراه وان كان الافضل ان يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله ابواه لما روى ان مسيلمة اخذ رجلين فقال لاحدهما ماتقول فى محمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتقول فى فقال انت ايضا فخلاه وقال للآخر ماتقول فى محمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتقول فى قال انا اصم فاعاد عليه ثلاثا فاعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الاول فقد اخذ برخصة الله واما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاله ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى الكفر بعد الايمان أو الوعيد ﴿ بانهم استحبوا الحيوة الدنيا على الآخرة ﴾ بسبب انهم آثروها

من الافعال مايتصور الاكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميتة ونحوها فمن أكره بالسيف أو القتل على أن يشرب الخمر أو يأكل الميتة أو لحم الخنزير أو نحوها جاز له ذلك لقوله تعالى ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة وقيل لايجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل ومن الافعال مايتصور الاكراه عليه كالزنا لان الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع انتشار الآلة فلايتصور فيه الاكراه واختلف العلماء فى طلاق المكره فقال الشافعى رضى الله تعالى عنه وأكثر العلماء لايقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة يقع حجة الشافعى ومن وافقه قوله سبحانه وتعالى لااكراه فى الدين ولايمكن أن يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره والمعنى انه لاأثر له ولاعبرة به وقوله تعالى وقلبه مطمئن بالايمان فيه دليل على أن محل الايمان هو القلب ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا ﴾ يعنى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ يعنى فى الآخرة ﴿ ذلك بانهم استحبوا الحيوة الدنيا على الآخرة ﴾ يعنى يكون ذلك الاقدام على الارتداد الى الكفر لاجل أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة

(ولكن من شرح بالكفر صدرا) تكلم بالكفر طائعا (فعليهم غضب من الله) سخط من الله (ولهم عذاب عظيم) شديدا أشد مما يكون فى الدنيا نزلت هذه الآية فى عبدالله بن سعد بن أبى سرح (ذلك) العذاب (بأنهم استحبوا الحيوة الدنيا) اختاروا الدنيا (على الآخرة) والكفر على الايمان

(وان الله لايهدى القوم الكافرين) ماداموا مختارين للكفر (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلا يتدبرون ولايصغون الى المواعظ ولايبصرون طريق الرشاد (وأولئك هم الغافلون) أى الكاملون فى الغفلة لان الغفلة عن تدبر العواقب هى غاية الغفلة ومنتهاها (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ثم ان ربك) ثم يدل على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك (للذين هاجروا) من مكة أى انه لهم لاعليهم يعنى انه وليهم وناصرهم لاعدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لاعليه فيكون محميا منفوعا غير مضرور (من بعد ما فتنوا) بالعذاب والاكراه على الكفر فتنوا شامى أى بعد ما عذبوا المؤمنين ثم أسلموا (ثم جاهدوا) المشركين بعد الهجرة (وصبروا) على الجهاد (ان ربك من بعدها) من بعد هذه الافعال وهى الهجرة والجهاد والصبر (لغفور) لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية (رحيم) لايعذبهم على ماقالوا فى حالة الاكراه (يوم تأتى) منصوب برحيم أو باذكر (كل نفس

عليها ﴿ وان الله لايهدى القوم الكافرين ﴾ أى الكافرين فى علمه الى مايوجب ثبات الايمان ولايعصمهم من الزيغ ﴿ اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ﴾ فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه ﴿ واولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون فى الغفلة عما يراد بهم اذا غفلتهم الحالة الراهنة عن تدبر العواقب ﴿ لاجرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ اذ ضيعوا اعمارهم وصرفوها فيما افضى بهم الى العذاب المخلد ﴿ ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ أى عذبوا كعمار رضى الله تعالى عنه بالولاية والنصر و ثم لتباعد حال هؤلاء عن حال اولئك. وقرأ ابن عامر فتنوا بالفتح أى بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمى اكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم اسلما وهاجرا ﴿ ثم جاهدوا وصبروا ﴾ على الجهاد وما اصابهم من المشاق ﴿ ان ربك من بعدها ﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر ﴿ لغفور ﴾ لما فعلوا قبل ﴿ رحيم ﴾ ينعم عليهم مجازاة على ماصنعوا بعد ﴿ يوم تأتى كل نفس ﴾

﴿ وأن الله لايهدى القوم الكافرين ﴾ يعنى لايرشدهم الى الايمان ولايوفقهم للعمل به ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾ تقدم تفسيره ﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ يعنى عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ يعنى ان الانسان انما يعمل فى الدنيا ليربح فى الآخرة فاذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لانه ضيع رأس ماله وهو الايمان ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر * قوله عز وجل ﴿ ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ يعنى عذبوا ومنعوا من الدخول فى الاسلام فتنهم المشركون ﴿ ثم جاهدوا وصبروا ﴾ عن الايمان والهجرة والجهاد ﴿ ان ربك من بعدها ﴾ يعنى من بعد الفتنة التى فتنوها ﴿ لغفور رحيم ﴾ نزلت هذه الآية فى عياش بن أبى ربيعة وكان أخا أبى جهل من الرضاعة وقيل كان أخاه لامه وفى أبى جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسد الثقفى فتنهم المشركون وعذبوهم فاعطوهم بعد ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم انهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وقال الحسن وعكرمة نزلت هذه الآية فى عبد الله بن ابى سرح كان قد أسلم وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فاستزله الشيطان فارتد ولحق بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجاره عثمان وكان أخاه لامه فاجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم وحسن اسلامه وهذا القول انما يصح اذا قلنا ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات فى السور المكيات والله أعلم بحقيقة ذلك * قوله سبحانه وتعالى ﴿ يوم تأتى كل نفس

(وأن الله لايهدى) لدينه ولاينجى من عذابه (القوم الكافرين) من لم يكن أهلا لذلك (اولئك الذين طبع الله) ختم الله (على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) عن أمر الآخرة تاركون لها ويقال غافلون عن التوحيد جاحدون به (لاجرم) حقا يا محمد (أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) المغبونون نزلت فى المستهزئين (ثم ان ربك) يا محمد (للذين هاجروا) من مكة الى المدينة (من بعد ما فتنوا) عذبوا عذبهم أهل مكة عمار بن ياسر وأصحابه (ثم جاهدوا) العدو فى سبيل الله (وصبروا) مع محمد صلى الله عليه وسلم على المرازى (ان ربك من بعدها) من بعد الهجرة (لغفور) متجاوز (رحيم) بهم (يوم تأتى) وهو يوم القيامة (كل نفس) برة

(تجادل)

منصوب برحيم أو باذكر ﴿ تجادل عن نفسها ﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى فى خلاصها لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى ﴿ وتوفى كل نفس ماعملت ﴾ جزاء ماعملت ﴿ وهم لايظلمون ﴾ لاينقصون اجرهم ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ أى

تجادل عن نفسها ﴾ يعنى تخاصم وتحتج عن نفسها أى بما أسلفت من خير وشر اشتغلت بالمجادلة لاتتفرغ الى غيرها * فان قلت النفس هى نفس واحدة وليس لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها * قلت ان النفس قد يراد بها بدن الانسان وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الاولى هى مجموع ذات الانسان وحقيقته والنفس الثانية هى بدنه فهى عينها وذاتها أيضا والمعنى يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته ولا يهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من الاعتذارات ﴿ وتوفى كل نفس ماعملت ﴾ يعنى جزاء ماعملت فى الدنيا من خير أو شر ﴿ وهم لايظلمون ﴾ يعنى لاينقصون من جزاء أعمالهم شيأ بل يوفون ذلك كاملا من غير زيادة ولا نقصان روى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب الاحبار خوفنا فقال يا أمير المؤمنين والذى نفسى بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لاتت عليك ساعات وأنت لايهمك الا نفسك وان جهنم لتزفر زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا جثا على ركبتيه حتى ابراهيم خليل الرحمن يقول يارب لا أسألك الا نفسى وان تصديق ذلك فيما أنزل الله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها * وروى عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية قال ماتزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يارب لم تكن لى يد أبطش بها ولارجل أمشى بها ولا عين أبصر بها ويقول الجسد يارب أنت خلقتنى كالخشبة ليست لى يد أبطش بها ولارجل أمشى بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فبه نطق لسانى وبه أبصرت عيناى وبه مشت رجلاى فضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعد دخلا حائطا يعنى بستانا فيه ثمار فالاعمى لايبصر الثمر والمقعد لايناله فحمل الاعمى المقعد فاصابا من الثمر فعليهما العذاب * قوله عز وجل ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ المثل عبارة عن قول فى شئ يشبه قولا فى شئ آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره وقيل هو عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى أى معنى كان وهو أعم الالفاظ الموضوعة للمشابهة قال الامام فخر الدين الرازى المثل قد يضرب بشئ موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشئ موجودا أولم يكن وقد يضرب بشئ موجود معين فهذه القرية التى ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيأ مفروضا ويحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أوغيرها والاكثر من المفسرين على أنها مكة والاقرب انها غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة وقال الزمخشرى فى كتابه الكشاف وضرب الله مثلا قرية أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته فيجوز ان تراد قرية مقدرة على

تجادل عن نفسها) وانما أضيفت النفس الى النفس لانه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكانه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لايهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء أضلونا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا الآية والله ربنا ما كنا مشركين (وتوفى كل نفس ماعملت) تعطى جزاء عملها وافيا (وهم لايظلمون) فى ذلك (وضرب الله مثلا قرية) أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذه الصفة وان تكون فى قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا من مثل عاقبتها

أو فاجرة (تجادل) تخاصم (عن نفسها) لقبل نفسها ويقال مع شيطانها ويقال مع روحها (وتوفى) توفر (كل نفس) برة أو فاجرة (ماعملت) بما عملت من خير أوشر (وهم لايظلمون) لاينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيآتهم (وضرب الله مثلا قرية) بين الله تعالى صفة أهل مكة أبى جهل والوليد وأصحابهما

جعلها مثلا لكل قوم انعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا فانزل الله بهم النقمة أو لمكة ﴿ كانت آمنة مطمئنة ﴾ لايزعج اهلها خوف ﴿ يأتيها رزقها ﴾ اقواتها ﴿ رغدا ﴾ واسعا ﴿ من كل مكان ﴾ من نواحيها ﴿ فكفرت بانعم الله ﴾ بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وادرع أو جمع نعم كبؤس وابؤس ﴿ فاذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ استعار الذوق لادراك أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من

هذه الصفة وان تكون فى قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا من مثل عاقبتها وقال الواحدى ضرب المثل ببيان المشبه والمشبه به وههنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين والآية عند عامة المفسرين نازلة فى أهل مكة وماامتحنوا به من الخوف والجوع بعد الامن والنعمة بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا لقريتكم أى بين الله لها شبها ثم قال قرية فيجوز ان تكون القرية بدلا من مثلا لانها هى الممثل بها ويجوز أن يكون المعنى ضرب الله مثلا مثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرين كلهم قالوا أراد بالقرية مكة يعنون انه أراد مكة فى تمثيلها بقرية صفتها ماذكر وقال ابن الجوزى فى هذه القرية قولان أحدهما انها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الصحيح والثانى انها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع قاله الحسن وأقول هذه الآية نزلت بالمدينة فى قول مقاتل وبعض المفسرين وهو الصحيح لان الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة فى أهل مكة فضربها الله مثلا لاهل المدينة يحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم ماأصابهم من الجوع والخوف ويشهد لصحة ماقلت ان الخوف المذكور فى هذه الآية فى قوله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعثها فى قول جميع المفسرين لان النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وانما أمر بالقتال لما هاجر الى المدينة فكان يبعث البعوث والسرايا الى حول مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة والله أعلم بمراده وأما تفسير قوله تعالى وضرب الله مثلا قرية يعنى مكة ﴿ كانت آمنة ﴾ يعنى ذات أمن لايهاج أهلها ولايغار عليهم ﴿ مطمئنة ﴾ يعنى قارة بأهلها لايحتاجون الى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاج اليه سائر العرب ﴿ يأتيها رزقها رغدا ﴾ يعنى واسعا ﴿ من كل مكان ﴾ يعنى يحمل اليها الرزق والميرة من البر والبحر نظيره قوله سبحانه وتعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ وذلك بدعوة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وهو قوله وارزق أهله من الثمرات ﴿ فكفرت ﴾ يعنى هذه القرية والمراد أهلها ﴿ بأنعم الله ﴾ جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التى أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التى أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لاجرم ان الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى ﴿ فاذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ وذلك ان الله سبحانه وتعالى ابتلاهم

(كانت آمنة) من القتل والسبى (مطمئنة) لايزعجها خوف لان الطمأنينة مع الامن والانزعاج والقلق مع الخوف (يأتيها رزقها رغدا) واسعا (من كل مكان) من كل بلد (فكفرت) أهلها (بانعم الله) جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس (فاذاقها الله لباس الجوع والخوف

(كانت آمنة) كان أهلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبى (مطمئنة) مقيما أهلها (يأتيها رزقها) يحمل اليها من الثمرات (رغدا) موسعا (من كل مكان) ناحية وارض يحمل اليها (فكفرت بأنعم الله) فكفر أهلها بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فعاقب الله أهلها بالجوع سبع سنين والخوف من خوف حرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه

﴿ بالجوع ﴾

الجوع والخوف واوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له كقول كثير

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال

فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه واضاف اليه الغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظرا الى المستعار له وقد ينظر الى المستعار كقوله

ينازعنى ردائى عبد عمرو * رويدك يا اخا عمرو بن بكر

الى الشطر الذى ملكت يمينى * ودونك فاعتجر منه بشطر

بالجوع سبع سنين فقطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فاكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب والميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل حتى كان أحدهم ينظر الى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقالوا ما هذا هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فى حمل الطعام اليهم وهم بعد مشركون والخوف يعنى خوف بعوث النبى صلى الله عليه وسلم وسراياه التى كان يبعثها للاغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم * فان قلت الاذاقة واللباس استعارتان فاوجه صحتهما والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فاوجه صحة ايقاعها عليه وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس فيقال كساهم الله لباس الجوع أو يقال فاذاقهم الله طعم الجوع * قلت قال صاحب الكشاف أما الاذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الانسان والتلبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما و يلابس فكانه قيل فاذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ثم ذكر بعده من علم المعانى والبيان ما يشهد لصحة ما قال وقال الامام فخر الدين الرازى جوابه من وجوه الاول ان الاحوال التى حصلت لهم عند الجوع نوعان أحدهما ان المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع والثانى ان ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فاشبه اللباس والحاصل أنه حصل لهم فى ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فاذاقها الله لباس الجوع والخوف الوجه الثانى ان التقدير ان الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف الا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظر فلانا وذق ما عنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها * وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير

بما كانوا يصنعون) الاذاقة واللباس استعارتان والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ووجه صحة ذلك ان الاذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد ومايمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر واذاقه العذاب شبه مايدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الاذاقة على لباس

الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكانه قيل فاذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف (ولقدجاءهم رسول منهم) أى محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فاخذهم العذاب وهم ظالمون) أى فى حال التباسهم بالظلم قالوا انه القتل بالسيف يوم بدر روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه الى أهل مكة فى سنى القحط بطعام ففرق فيهم فقال الله لهم بعد أن أذاقهم الجوع (فكلوا مما رزقكم الله) على يدى محمد صلى الله عليه وسلم (حلالا طيبا) بدلا عما كنتم تأكلونه حراما خبيثا من الاموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب (واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) تطيعون أو ان صح زعمكم انكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لانها شفعاؤكم عنده ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاغتمر نظرا الى المستعار ﴿ بما كانوا يصنعون ﴾ بصنيعهم ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم ﴾ يعنى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم والضمير لاهل مكة عاد الى ذكرهم بعدما ذكر مثلهم ﴿ فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ اى حال التباسهم بالظلم والعذاب ما اصابهم من الجدب الشديد أو وقعة بدر ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله ﴾ امرهم باكل ما احل الله لهم وشكر ما انعم عليهم بعد زجرهم عن الكفر وهددهم عليه بما ذكر من التمثيل والعذاب الذى حل بهم صدالهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة ﴿ ان كنتم اياه تعبدون ﴾ تطيعون أو ان

الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء اثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان الوجه الثالث أن يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة فصار التقدير فاذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى ﴿ بما كانوا يصنعون ﴾ ولم يقل بما صنعت لانه أراد أهل القرية والمعنى فعلنا بهم مافعلنا بسبب ما كانوا يصنعون وهذا مثل أهل مكة لانهم كانوا فى الامن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عزوجل عليهم بالنعمة العظيمة وهى ارسال محمد صلى الله عليه وسلم اليهم وهو منهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا فى ايذائه وأرادوا قتله فاخرجه الله من بينهم وأمره بالهجرة الى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد جاءهم ﴾ يعنى أهل مكة ﴿ رسول منهم ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم يعرفون نسبه ويعرفونه قبل النبوة وبعدها ﴿ فكذبوه فاخذهم العذاب ﴾ يعنى الجوع والخوف وقيل القتل يوم بدر والقول الاول أولى لما تقدم فى الآية ﴿ وهم ظالمون ﴾ يعنى كافرون ﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾ فى المخاطبين بهذا قولان أحدهما انهم المسلمون وهو قول جمهور المفسرين والثانى انهم هم المشركون من أهل مكة قال الكلبى لما اشتد الجوع باهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انك انما عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أن يحملوا الطعام اليهم حكاه الواحدى وغيره والقول الاول هو الصحيح قال ابن عباس فكلوا يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله يريد الغنائم ﴿ حلالا طيبا ﴾ يعنى ان الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الامة وطيبها لهم ولم تحل لاحد قبلهم ﴿ واشكروا نعمت الله ﴾ يعنى التى أنعم بها عليكم ﴿ ان كنتم اياه تعبدون

(بما كانوا يصنعون) يقولون ويعملون بمحمد صلى الله عليه وسلم من الجفاء (ولقد جاءهم رسول) محمد صلى الله عليه وسلم (انما) (منهم) من نسبهم عربى قرشى مثلهم (فكذبوه) بما جاءهم به (فأخذهم العذاب) عذاب الله بالجوع والقتل والسبى (وهم ظالمون) كافرون (فكلوا مما رزقكم الله) من الحرث والانعام والنعيم (حلالا طيبا واشكروا) اذكروا (نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون) ان كنتم تريدون عبادة الله بتحريم الحرث والانعام فاستحلوا فان عبادة

وتحليلهم باهوائهم فقال (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) انما للحصر أي المحرم هذا دون البحيرة وأخواتها وباقي الآية قدم تفسيره (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) منصوب بلا تقولوا أي ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحي أو الى القياس المستنبط منه واللام مثلها في قولك لا تقولوا لما أحل الله هو حرام وقوله (هذا حلال وهذا حرام) بدل من الكذب ولك ان تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي ولا تحرموا ولا تحللوا لاجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم لا لاجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان وقوله تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فاذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر واللام في (لتفتروا على الله الكذب) من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض

صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته ﴿ انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم ﴾ لما امرهم بتناول ما حل لهم عدد عليهم محرماته ليعلم ان ما عداها حل لهم ثم أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل باهوائهم فقال ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ كما قالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا الآية ومقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بانما حصر المحرمات في الاجناس الاربعة الا ما ضم اليه دليل كالسباع والحمر الاهلية وانتصاب الكذب بلا تقولوا وهذا حلال وهذا حرام بدل منه أو متعلق بتصف على ارادة القول أي ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام أو مفعول لا تقولوا والكذب منتصب بتصف وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي لا تحرموا ولا تحلوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل ووصف ألسنتهم بالكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها بكلامهم هذا ولذلك عد من فصيح الكلام كقولهم وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر * وقرئ الكذب بالجر بدلا مما والكذب جمع كذوب أو كذاب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الذم أو بمعنى الكلم الكواذب ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ تعليل لا يتضمن المعنى الغرض

انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم ﴾ تقدم تفسير هذه الآية وأحكامها في سورة البقرة فلم نعده هنا * وقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾ يعني ولا تقولوا لاجل وصفكم الكذب ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ يعني انكم تحلون وتحرمون لاجل الكذب لا لغيره فليس لتحليلكم وتحريمكم معنى وسبب الا الكذب فقط فلا تفعلوا ذلك قال مجاهد يعني البحيرة والسائبة وقال ابن عباس يعني قولهم ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وذلك ان العرب في الجاهلية كانوا يحلون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم وينسبون ذلك الى الله تعالى وهو قوله تعالى ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ يعني لا تقولوا ان الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم

الله في تحليله (انما حرم عليكم الميتة) التي أمر بذبحها (والدم) دم المسفوح (ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) وما ذبح بغير اسم الله عمدا أو للاصنام (فمن اضطر) أجهد الى ما حرم الله عليه (غير باغ) على المسلمين ويقال غير مستحل لاكل الميتة (ولا عاد) قاطع الطريق ويقال متعمد للاكل بغير الضرورة (فان الله غفور) متجاوز باكل الميتة عند الضرورة (رحيم) اذ رخص له أكل الميتة عند الضرورة (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) لا تقولوا بألسنتكم الكذب (هذا) يعني الحرث والانعام (حلال) على الرجال (وهذا حرام) على النساء (لتفتروا) لتختلقوا (على الله الكذب) بذلك

(ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) هو خبر مبتدأ محذوف أى منفعتهم فيماهم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم (وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل) فى سورة الانعام يعنى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وماظلمناهم) بالتحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) فى موضع الحال أى عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ومرادهم لذة الهوى لاعصيان المولى (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) بتكفير ماكثروا قبل من الجرائم (رحيم) بتوثيق ماوثقوا بعد من العزائم (ان ابراهيم كان أمة) انه

﴿ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون﴾ لما كان المفترى يفترى لتحصيل مطلوب نفى عنهم الفلاح وبينه بقوله ﴿متاع قليل﴾ أى مايفترون لاجله أوماهم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب ﴿ولهم عذاب اليم﴾ فى الآخرة ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك﴾ أى فى سورة الانعام فى قوله وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ﴿من قبل﴾ متعلق بحرمنا أو بقصصنا ﴿وماظلمناهم﴾ بالتحريم ﴿ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾ حيث فعلوا ماعوقبوا به عليه وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم وانه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة ﴿ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ بسببها أوملتبسين بها لتعم الجهل بالله وعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله وغيره ﴿ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ان ربك من بعدها﴾ من بعد التوبة ﴿لغفور﴾ لذلك السوء ﴿رحيم﴾ يثيب على الانابة ﴿ان ابراهيم كان امة﴾

توعد المفترين للكذب فقال سبحانه وتعالى ﴿ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون﴾ يعنى لاينجون من العذاب وقيل لايفوزون بخير لان الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين ان ماهم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى ﴿متاع قليل﴾ يعنى متاعهم فى الدنيا متاع قليل فانه لابقاء له ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعنى فى الآخرة ﴿وعلى الذين هادوا﴾ يعنى اليهود ﴿حرمنا ماقصصنا عليك من قبل﴾ يعنى ماسبق ذكره وبيانه فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية ﴿وماظلمناهم﴾ يعنى بتحريم ذلك عليهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ يعنى انما حرمنا عليهم ماحرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ❊ وقوله تعالى ﴿ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصى وكل مالا ينبغى وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة لان العاقل لايرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أومعصية فانما يصدر عنه بسبب جهله اما لجهله بقدر مايترتب عليه من العقاب أولجهله بقدر من يعصيه فثبت بهذا ان فعل السوء انما يفعل بجهالة ثم ان الله تعالى وعد من عمل سوأ بجهالة ثم تاب وأصلح العمل فى المستقبل أن يتوب عليه ويرحمه وهو قوله تعالى ﴿ثم تابوا من بعد ذلك﴾ يعنى من بعد عمل ذلك السوء ﴿وأصلحوا﴾ يعنى أصلحوا العمل فى المستقبل وقيل معنى الاصلاح الاستقامة على التوبة ﴿ان ربك من بعدها﴾ يعنى من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه ﴿لغفور﴾ يعنى لمن تاب وآمن ﴿رحيم﴾ يعنى بجميع المؤمنين والتائبين ❊ قوله سبحانه وتعالى ﴿ان ابراهيم كان أمة﴾ حكى ابن الجوزى عن ابن الانبارى أنه قال هذا

(ان الذين يفترون) يختلقون (على الله الكذب لايفلحون) لاينجون ولايأمنون من عذاب الله (متاع قليل) عيشهم فى الدنيا قليل (ولهم عذاب أليم) وجيع فى الآخرة (وعلى الذين هادوا) مالوا عن الاسلام يعنى اليهود (حرمنا) عليهم (ماقصصنا عليك) ماسميناك (من قبل) من قبل هذه السورة فى سورة الانعام (وماظلمناهم) بما حرمنا عليهم من الشحوم واللحوم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يضرون أى بذنوبهم حرم الله عليهم (ثم ان ربك) يامحمد (للذين عملوا السوء بجهالة) بتعمد وان كان جاهلا بركوبها (ثم تابوا من بعد ذلك) السوء (مثل) (وأصلحوا) العمل فيما بينهم وبين ربهم (ان ربك) يامحمد (من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) متجاوز (رحيم) بهم (ان ابراهيم كان أمة) اماما

كان وحده أمة من الامم لكماله فى جميع صفات الخير كقوله * ليس على الله بمستنكر * ان يجمع العالم فى واحد * وعن مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفارا أو كان أمة بمعنى مأموم يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير (قانتا لله) هو القائم بما أمره الله وقال ابن مسعود رضى الله عنه ان معاذا كان أمة قانتا لله فقيل له انما هو ابراهيم عليه السلام فقال الامة الذى يعلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكان معاذ كذلك وقال عمر رضى الله عنه لو كان معاذ حيا لاستخلفته فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أبو عبيدة أمين هذه الامة ومعاذ أمة لله قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة الا المرسلون (حنيفا) مائلا عن الاديان الى ملة الاسلام (ولم يك من المشركين) نفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش لزعمهم انهم على ملة أبيهم ابراهيم وحذف النون للتشبيه بحروف اللين (شاكرا لأنعمه) روى انه كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداءه فاذا هو بفوج من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاما فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم (اجتباه) اختصه واصطفاه للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) الى ملة الاسلام

لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد الا متفرقة فى اشخاص كثيرة كقوله

ليس من الله بمستنكر * ان يجمع العالم فى واحد

وهو عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذى جادل فرق المشركين وابطل مذاهبهم الزائغة بالحجج الدامغة ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما احله أو لانه كان وحده مؤمنا وكان سائر الناس كفارا وقيل وهى فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من امه اذا قصده أو اقتدى به فان الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيرته لقوله انى جاعلك للناس اماما ﴿ قانتا لله ﴾ مطيعا له قائما باوامره ﴿ حنيفا ﴾ مائلا عن الباطل ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ كما زعموا فان قريشا كانوا يزعمون انهم على ملة ابراهيم صلوات الله عليه ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة ﴿ اجتباه ﴾ للنبوة ﴿ وهداه الى صراط مستقيم ﴾ فى الدعوة الى الله تعالى

مثل قول العرب فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد التناهى فى المعنى الذى يصفونه به والعرب توقع الاسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله تبارك وتعالى فنادته الملائكة وانما ناداه جبريل وحده وانما سمى ابراهيم صلى الله عليه وسلم أمة لانه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والاخلاق الحميده ما اجتمع فى أمة ومنه قول الشاعر

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

ثم للمفسرين فى معنى هذه اللفظة أقوال أحدها قول ابن مسعود الامة معلم الخير يعنى انه كان معلما للخير يأتم به أهل الدنيا الثانى قال مجاهد انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان أمة وحده ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى زيد بن عمرو ابن نفيل يبعثه الله أمة وحده وانما قال فيه هذه المقالة لانه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الاصنام الثالث قال قتادة ليس من أهل دين الا وهم يتولونه ويرضونه وقيل الامة فعلة بمعنى مفعولة وهو الذى يؤتم به وكان ابراهيم عليه السلام اماما يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى انى جاعلك للناس اماما وقيل انه عليه السلام هو سبب الذى لاجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو من باب اطلاق المسبب على السبب وقيل انما سمى ابراهيم عليه السلام أمة لانه قام مقام أمة فى عبادة الله ﴿ قانتا لله ﴾ يعنى مطيعا لله وقيل هو القائم باوامر الله ﴿ حنيفا ﴾ مسلما يعنى مقيما على دين الاسلام لا يميل عنه ولا يزول وهو أول من اختتن وضحى وأقام مناسك الحج ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ يعنى انه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره الى كبره ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾ يعنى انه كان شاكرا لله على أنعمه التى أنعم بها عليه ﴿ اجتباه ﴾ أى اختاره لنبوته واصطفاه لخلته ﴿ وهداه الى صراط مستقيم ﴾ يعنى هداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم

يقتدى به (قانتا) مطيعا (لله حنيفا) مسلما مخلصا (ولم يك من المشركين) مع المشركين على دينهم (شاكرا لأنعمه) شاكرا لما أنعم الله عليه (اجتباه) اصطفاه بالنبوة والاسلام (وهداه الى صراط مستقيم) ثبته على طريق قائم يرضاه

﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ بان حببه الى الناس حتى ان ارباب الملل يتولونه ويثنون عليه ورزقه اولادا طيبة وعمرا طويلا فى السعة والطاعة ﴿ وانه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ لمن أهل الجنة كما سأله بقوله والحقنى بالصالحين ﴿ ثم اوحينا اليك ﴾ يا محمد وثم اما لتعظيمه والتنبيه على ان اجل ما اوتى ابراهيم عليه الصلاة والسلام واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ملته أو لتراخى ايامه ﴿ ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا ﴾ فى التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على حسب فهمه ﴿ وما كان من المشركين ﴾ بل كان قدوة الموحدين ﴿ انما جعل السبت ﴾ تعظيم السبت والتخلى فيه للعبادة ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ اى على نبيهم وهم اليهود امرهم موسى عليه السلام ان يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فابوا وقالوا نريد يوم السبت لانه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والارض

﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ يعنى الرسالة والخلة وقيل هى لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام فى جميع الامم فانه الله حببه الى جميع خلقه فكل أهل الاديان يتولونه المسلمون واليهود والنصارى ومشركو العرب وغيرهم وقيل هو قول المصلى فى التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم. وقيل انه آتاه أولادا أبرارا على الكبر ﴿ وانه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ يعنى فى أعلى مقامات الصالحين فى الجنة وقيل معناه وانه فى الآخرة لمع الصالحين يعنى الانبياء فى الجنة فتكون من بمعنى مع ولما وصف الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال تعالى ﴿ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم ﴾ يعنى دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد قال أهل الاصول كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم الا ما نسخ منها و ما لم ينسخ صار شرعا له وقال أبو جعفر الطبرى أمره باتباعه فى التبرى من الاوثان والتدين بدين الاسلام وهو قوله ﴿ حنيفا ﴾ مسلما ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تقدم تفسيره * وقوله تعالى ﴿ انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ يعنى انما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال أمرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال تفرغوا لله فى كل سبعة أيام يوما فاعبدوه فى يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من صنعتكم وستة أيام لصنعتكم فابوا عليه وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ الله فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضا بيوم الجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الاحد فاعطى الله عز وجل الجمعة لهذه الامة فقبلوها فبورك لهم فيها (ق) عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه وأوتيناه من بعدهم فهذا يوم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغد لليهود وبعد غد للنصارى * وفى رواية لمسلم نحن الآخرون الاولون يوم

(وآتيناه فى الدنيا حسنة) نبوة وأموالا وأولادا أو تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه أو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) لمن أهل الجنة (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) فى ثم تعظيم منزلة نبينا عليه السلام واجلال محله والايذان بان أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) أى فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه

وهو الاسلام (وآتيناه) أعطيناه (فى الدنيا حسنة) ولدا صالحا ويقال ثناء حسنا ويقال الذكر والثناء الحسن فى الناس كلهم (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) مع آبائه المرسلين فى الجنة (ثم أوحينا اليك) أمرناك يا محمد (أن اتبع ملة ابراهيم) أن استقم على دين ابراهيم (حنيفا) مسلما (وما كان من المشركين) مع المشركين على دينهم (انما جعل السبت) حرم السبت (على الذين اختلفوا فيه) فى الجمعة

فالزمهم الله السبت وشدد الامر عليهم وقيل معناه انما جعل وبال السبت وهو المسخ
على الذين اختلفوا فيه فاحلوا الصيد فيه تارة وحرموه اخرى واحتالوا له الحيل وذكرهم

القيامة ونحن أول من يدخل الجنة * وفي رواية أخرى له قال أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الاحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والاحد وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون في الدنيا الاولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق * قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم قال العلماء في معنى الحديث نحن الآخرون في الزمان والوجود السابقون في الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الامة الجنة قبل سائر الامم * وقوله بيد أنهم يعني غير أنهم أو الا أنهم * وقوله فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال القاضي عياض الظاهر أنه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل الى اجتهادهم لاقامة شرائعهم فيه فاختلف أحبارهم في تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الامة مبينا ولم يكلهم الى اجتهادهم ففازوا بفضيلته قال يعني القاضي عياض وقد جاء ان موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وأعلمهم بفضله فناظروه ان السبت أفضل فقيل له دعهم قال القاضي ولو كان منصوصا عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول خالفوا فيه قال الشيخ محيي الدين النووي ويمكن أن يكونوا أمروا به صريحا ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم ابداله فأبدلوه وغلطوا في ابداله * قال الامام فخر الدين الرازي في قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه يعني على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم في السبت كان اختلافا على نبيهم في ذلك اليوم أي لاجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه ان اليهود اختلفوا فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لان اليهود اتفقوا على ذلك وزاد الواحدي على هذا فقال وهذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف في السبت ان بعضهم قال هو أعظم الايام حرمة لان الله فرغ فيه من خلق الاشياء وقال الآخرون بل الاحد أفضل لان الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الاشياء وهذا غلط لان اليهود لم يكونوا فريقين في السبت وانما اختار الاحد النصارى بعدهم بزمان طويل * فان قلت ان اليهود انما اختاروا السبت لان أهل الملل اتفقوا على ان الله خلق الخلق في ستة أيام وبدأ بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك العمل في هذا اليوم فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى انما بدأ بخلق الاشياء في يوم الاحد فنحن نجعل هذا اليوم عيدا لنا وهذان الوجهان معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله أهل الاسلام عيدا * قلت يوم الجمعة افضل الايام لان كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيدا بهذا الوجه وهو أولى ووجه آخر وهو ان الله عز وجل خلق فيه أشرف خلقه وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة أشرف الايام لهذا السبب ولان الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الامة وادخره لهم

(وان ربك ليحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون) روى ان موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الاسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم في السبت لان بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة فاذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فاطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو اهله (ادع الى سبيل ربك) الى الاسلام (بالحكمة) بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) وهي التي لا يخفى عليهم انك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها أو بالقرآن أي ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة والحكمة المعرفة بمراتب الافعال والموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة (وجادلهم بالتي هي أحسن) بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة في الدين

ههنا التهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بانعم الله تعالى ﴿وان ربك ليحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ بالمجازاة على الاختلاف أو مجازاة كل فريق بما يستحقه ﴿ادع﴾ من بعثت اليهم ﴿الى سبيل ربك﴾ الى الاسلام ﴿بالحكمة﴾ بالمقالة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿والموعظة الحسنة﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة والاولى لدعوة خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ﴿وجادلهم﴾ وجادل معانديهم * ﴿بالتي هي احسن﴾ بالطريقة التي هي احسن طرق المجادلة

ولم يختاروا لانفسهم شيأ وكان مااختاره الله لهم أفضل مما اختاره غيرهم لانفسهم وقال بعض العلماء بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الاحد في شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت ويوم الاحد بيوم الجمعة في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فكان أفضل الايام يوم الجمعة كما ان محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء وفي معنى الآية قول آخر قال قتادة الذين اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم وحرمه بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله انما جعل السبت أي وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود فأحله بعضهم فاصطادوا فيه فلعنوا ومسخوا قردة وخنازير في زمن داود عليه السلام وقد تقدمت القصة في تفسير سورة الاعراف وبعضهم ثبت على تحريمه فلم يصطد فيه شيأ وهم الناهون والقول الاول اقرب الى الصحة * وقوله تعالى ﴿وان ربكم ليحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ يعني في أمر السبت فيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازي المحقين بالثواب والمبطلين بالعقاب * قوله عزوجل ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ يعني ادع الى دين ربك يا محمد وهو دين الاسلام بالحكمة يعني بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة يعني وادعهم الى الله بالترغيب والترهيب وهو انه لا يخفى عليهم انك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ يعني بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وقيل ان الناس اختلفوا وجعلوا ثلاثة أقسام القسم الاول هم العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة يعني ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثاني هم أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله والموعظة الحسنة أي ادع هؤلاء بالموعظة

(وان ربكم ليحكم بينهم) بين اليهود والنصارى (يوم القيمة فيما كانوا فيه) في الدين (يختلفون) يخالفون (ادع الى سبيل ربك) الى دين ربك (بالحكمة) بالقرآن (والموعظة الحسنة) عظهم بمواعظ القرآن (وجادلهم بالتي هي أحسن) بالقرآن ويقال بلا اله الا الله

من الرفق واللين وايثار الوجه الايسر والمقدمات التى هى اشهر فان ذلك انفع فى تسكين لهبهم وتبيين شغبهم ﴿ ان ربك هواعلم بمن ضل عن سبيله وهواعلم بالمهتدين ﴾ أى انما عليك البلاغ والدعوة واما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا اليك بل الله اعلم بالضالين والمهتدين وهو المجازى لهم ﴿ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ﴾ لما امره بالدعوة وبين له طرقها اشار اليه والى من شايعه بترك المخالفة ومراعاة العدل مع من يناصبهم فان الدعوة لاتنفك عنه من حيث انها تتضمن رفض العادات وترك الشهوات والقدح فى دين الاسلام والحكم عليهم بالكفر والضلال وقيل انه عليه الصلاة والسلام لما رأى

الحسنة والقسم الثالث هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله وجادلهم بالتى هى أحسن حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه وقيل المراد بالحكمة القرآن يعنى ادعهم بالقرآن الذى هو حكمة وموعظة حسنة وقيل المراد بالحكمة النبوة أى ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين فى الدعوة وجادلهم بالتى هى أحسن أى أعرض عن أذاهم ولاتقصر فى تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف ﴿ ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين ﴾ يعنى انما عليك يامحمد تبليغ ما أرسلت به اليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدى فيجازى كل عامل بعمله * قوله سبحانه وتعالى ﴿ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ﴾ نزلت هذه الآية بالمدينة فى سبب شهداء أحد وذلك ان المسلمين لما رأوا مافعل المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به غير حنظلة بن أبى عامر الراهب وذلك أن أباه أباعامر الراهب كان مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن أظهرنا الله عليهم لنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تنزل فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال أما انها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمه حمزة نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط كان اوجع لقلبه منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانك ماعلمنا ماكنت الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أدعك حتى تحشر من من أفواج شتى أما والله لئن أظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فانزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه * عن أبى بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الانصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم قال فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به

(ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيل وهو أعلم بالمهتدين) أى هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لاخير فيه عجزت عنه الحيل (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به) سمى الفعل الاول عقوبة والعقوبة هى الثانية لازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فالثانية ليست بسيئة والمعنى ان صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه فقابلوه بمثله ولاتزيدوا عليه روى ان المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم فرأى النبى عليه السلام حمزة مبقور البطن فقال أما والذى أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده ولاخلاف فى تحريم المثلة لورود الاخبار بالنهى عنها حتى بالكلب العقور

(ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) عن دينه (وهو أعلم بالمهتدين) لدينه (وان عاقبتم) مثلتم (فعاقبوا) فمثلوا (بمثل ماعوقبتم) مثلتم (به) بالاموات

حمزة وقد مثل به فقال والله لئن اظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وفيه دليل على ان للمقتص ان يماثل الجاني وليس له ان يجاوزه وحث على العفو تعريضا بقوله وان عاقبتم فعاقبوا وتصريحا على الوجه الآكد بقوله ﴿ولئن صبرتم لهو﴾ أي الصبر ﴿خير للصابرين﴾ من الانتقام للمنتقمين ثم صرح بالامر به لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم لانه اولى الناس به لزيادة علمه ووثوقه عليه فقال ﴿واصبر وماصبرك الا بالله﴾ الا بتوفيقه وتثبيته ﴿ولاتحزن عليهم﴾ على الكافرين أو على المؤمنين ومافعل بهم ﴿ولاتك في ضيق مما يمكرون﴾ في ضيق صدر من مكرهم * وقرأ ابن كثير في ضيق بالكسر هنا

ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فقال رجل لاقريش بعد اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا عن القول الاربعة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب * وأما تفسير الآية فقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به سمى الفعل الاول باسم الثاني للمزاوجة في الكلام والمعنى ان صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها فقابلوه بمثله ولاتزيدوا عليه وهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أمر الله برعاية العدل والانصاف في هذه الآية في باب استيفاء الحقوق يعني ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ولاتزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله وشرعه ورحمته وفي الآية دليل على أن الاولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الاشارة والرمز والتعريض بان الترك أولى فان كان لابد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الاشارة الى طريق التصريح فقال تعالى ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ يعني ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو والصبر خيرا من استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين العافين

فصل

اختلف العلماء هل هذه الاية منسوخة أم لا على قولين أحدهما انها نزلت قبل براءة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل من قاتل ولايبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال فلما أعز الله الاسلام وكثر أهله أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد ونسخ هذا بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية والقول الثاني انها محكمة وانها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له ان ينال من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم وهذا قول مجاهد والشعبي والنخعي وابن سيرين والثوري قال بعضهم الاصح انها محكمة لان الآية واردة في تعليم حسن الادب في كيفية استيفاء الحقوق في القصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة وهذه الاشياء لاتكون منسوخة فلاتعلق لها بالنسخ والله أعلم * قوله عز وجل ﴿واصبر وماصبرك الا بالله﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر واعلمه ان صبره بتوفيقه ومعونته ﴿ولاتحزن عليهم﴾ يعني على الكافرين واعراضهم عنك وقيل معنى الآية ولاتحزن على قتلى أحد ومافعل بهم فانهم أفضوا الى رحمة الله ورضوانه ﴿ولاتك في ضيق مما يمكرون﴾ يعني ولايضيقن صدرك يامحمد بسبب

(مكرهم)

(ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) الضمير في لهو يرجع الى مصدر صبرتم والمراد بالصابرين المخاطبون أي ولئن صبرتم لصبركم خير لكم فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم لانهم صابرون على الشدائد ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر أنت فعزم عليه بالصبر (وما صبرك الا بالله) أي بتوفيقه وتثبيته (ولاتحزن عليهم) على الكفار ان لم يؤمنوا وعلى المؤمنين ومافعل بهم الكفار فانهم وصلوا الى مطلوبهم (ولاتك في ضيق مما يمكرون) ضيق مكي والضيق تخفيف الضيق أي في أمر ضيق ويجوز أن يكونا مصدرين كالقيل

(ولئن صبرتم) عن المثلة (لهو خير للصابرين) في الآخرة (واصبر) يامحمد على أذاهم (وماصبرك الا بالله) بتوفيق الله (ولاتحزن عليهم) على المستهزئين بالهلاك (فلاتك في ضيق) ولايضيق صدرك (مما يمكرون) مما يقولون ويصنعون بك

وفى النمل وهما لغتان كالقول والقيل ويجوز ان يكون الضيق تخفيف ضيق ﴿ ان الله مع الذين اتقوا ﴾ المعاصى ﴿ والذين هم محسنون ﴾ فى اعمالهم بالولاية والفضل أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم امره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه * عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما انعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها
أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات واحسن الوصية

مكرهم فان الله كافيك وناصرك عليهم قرئ فى ضيق بفتح الضاد وكسرها فقيل هما لغتان وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة وقال أبو عبيد الضيق بالكسر فى قلة المعاش وفى المسكن وأما ما كان فى القلب والصدر فانه بالفتح وقال القتيبى الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى ولا تك فى أمر ضيق من مكرهم قال الامام فخر الدين الرازى هذا الكلام من المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلا فيك الا ان الفائدة فى قوله ولا تك فى ضيق هى ان الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل جانب كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى ﴿ ان الله مع الذين اتقوا ﴾ أى اتقوا المثلة والزيادة فى القصاص وسائر المناهى ﴿ والذين هم محسنون ﴾ يعنى بالعفو عن الجانى وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعنى ان أردت أيها الانسان ان أكون معك بالعون والفضل والرحمة فكن من المتقين المحسنين وفى هذا اشارة الى التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله قال
بعض المشايخ كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وكمال الانسان ان يعرف
الحق لذاته والخير لاجل أن يعمل به وقيل لهرم بن حيان عند الموت
أوص فقال انما الوصية فى المال ولا مال لى ولكنى أوصيك بخواتيم
سورة النحل والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

والقول والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فانه لا ينفذ عليك (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أى هو ولى الذين اجتنبوا السيآت وولى العاملين بالطاعات قيل من اتقى فى أفعاله وأحسن فى أعماله كان الله معه فى أحواله ومعيته نصرته فى المأمور وعصمته فى المحظور

(ان الله مع الذين اتقوا) الكفر والشرك والفواحش (والذين هم محسنون) بالقول والفعل موحدون

قال الشهاب الدين الخفاجى والحديث المذكور وقع فى التفاسير مرويا عن ابى بن كعب رضى الله عنه وهو موضوع كما قاله العراقى

تم بحمد الله تعالى الجلد الثالث ويليه انشاء الله تعالى

الجلد الرابع اوله سورة الاسراء

الحمد لله اولا وآخرا وباطنا وظاهرا وخفيا وجهرا على اتمام طبع «الجلد الثالث» لقد بذلنا جهدنا وطاقتنا على حسب القوى البشرية فى تصحيحه وتهذيبه وتنقيحه مع رفيق المصحح فى دار الطباعة العثمانية اعنى الحاج طاهر افندى القنوى المدرس بجامع سلطان بايزيدولى
فرحم الله امرأ نظر فيه بعين الانصاف فسامح ووقف فى التصحيح على
خطأ فأصلح واعوذ بالله من حاسد اذا حسد وبغى واستغفره
جل اسمه من قلم زل وسهى اوحرف شيأ
عن موضعه وطغى وهو حسبي ونعم الوكيل
ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم
سبحان ربك رب العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين

وانا الفقير المصحح
فى دار الطباعة العامرة
احمد رفعت بن
عثمان حلمى